

الحافظ ابن كثير

البيدائية والنسائية

مكتبة المشارف
بيروت

الحافظ ابن كثير
الدمشقي المتوفى ٧٧٤ هـ

الْبَيْدَاءُ وَالنَّهْجُ

٥٣٥

الجُزْءُ السَّابِعُ

الطبعة الاولى ١٩٦٦

الطبعة الثانية ١٩٧٧

الطبعة الثالثة ١٩٨٠

ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ وذيبت بشروح
قامت بها هيئة باشراف الناشر

مكتبة المحرارف
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

فيها عزل عبد الملك طارق بن عمرو عن إمارة المدينة وأضافها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي ،
فقد مها فأقام بها شهراً ثم خرج معتمراً ثم عاد إلى المدينة في صفر فأقام بها ثلاثة أشهر ، وبنى في بني
سامة مسجداً ، وهو الذي ينسب إليه اليوم ، ويقال إن الحجاج في هذه السنة وهذه المدة شتم جابراً
وسهل بن سعد وقرعهما لم لا نصرا عثمان بن عفان ، وخاطبهما خطاباً غليظاً قبحه الله وأخزاه ،
واستقضى أبا إدريس الخولاني أظنه على اليمن والله أعلم . قال ابن جرير : وفيها نقض الحجاج
بنيان الكعبة الذي كان ابن الزبير بناءً وأعادها على بنيانها الأول ، قلت : الحجاج لم ينقض بنيان
الكعبة جميعه ، بل إنما هدم الحائط الشامي حتى أخرج الحجر من البيت ثم سدده وأدخل في جوف
الكعبة ما فضل من الأحجار ، وبقية الحيطان الثلاثة بحالها ، ولهذا بقي البنيان الشرقي والغربي وهما
ملصقان بالأرض كما هو المشاهد إلى يومنا هذا ، ولكن سد الغربي بالكلية وردم أسفل الشرقي حتى
جعله مرتفعاً كما كان في الجاهلية ، ولم يبلغ الحجاج وعبد الملك ما كان بلغ ابن الزبير من العلم النبوي
الذي كانت أخبرته به خالته عائشة عن رسول الله (ص) ، كما تقدم ذلك من قوله : « لولا أن قومك
حديث عهدم بكفر - وفي رواية - بجاهلية لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الحجر ، وجعلت لها باباً
شرقياً وباباً غربياً ، ولألصقتهما بالأرض ، فان قومك قصرت بهم النفقة فلم يدخلوا فيها الحجر ولم

لأنه لا

يتموها على قواعد إبراهيم ورفعوا بابها ليدخلوا من شاؤا و يمنعوا من شاؤا . فلما تمكن ابن الزبير بناها كذلك ، ولما بلغ عبد الملك هذا الحديث بعد ذلك قال : وددنا لو تركناه وما تولى من ذلك وفي هذه السنة ولي المهلب بن أبي صفرة حرب الأزارقة عن أمر عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أن يجهز المهلب إلى الخوارج في جيوش من البصرة والكوفة ، ووجد بشر على المهلب في نفسه حيث عينه عبد الملك في كتابه . فلم يجد بداً من طاعته في تأميره على الناس في هذه العزوة . وما كان له من الأمر شيء ، غير أنه أوصى أمير الكوفيين عبد الله بن مخنف أن يستبد بالأمر دونه ، وأن لا يقبل له رأياً ولا مشورة ، فسار المهلب بأهل البصرة وأمراء الأرباع معه على منازلهم حتى نزل براهرمز ، فلم يقيم عليها إلا عشرًا حتى جاء نعي بشر بن مروان ، وأنه مات بالبصرة واستخلف عليها خالد بن عبد الله ، فأرخص بعض الجيش ورجعوا إلى البصرة فبعثوا في آثارهم من يردهم ، وكتب خالد ابن عبد الله إلى الفارين يتوعدهم إن لم يرجعوا إلى أميرهم ، ويتوعدهم بسطوة عبد الملك ، فمدلوا يستأذنون عمرو بن حريث في المصير إلى الكوفة فكتب إليهم : إنكم تركتم أميركم وأقبلتم عاصين مخالفين ، وليس لكم إذن ولا إمام ولا أمان ، فلما جاءهم ذلك أقبلوا إلى رحلهم فركبوا ثم ساروا إلى بعض البلاد فلم يزالوا محتفين بها حتى قدم الحجاج واليا على العراق مكان بشر بن مروان كما سيأتي بيانه قريباً .

وفي هذه السنة عزل عبد الملك بكير بن وشاح التميمي عن إمرة خراسان وولاه أمية بن عبد الله ابن خالد بن أسيد القرشي ليجمع عليه الناس فانه قد كادت الفتنة تتفاقم بخراسان بعد عبد الله ابن خازم ، فلما قدم أمية بن عبد الله خراسان عرض على بكير بن وشاح أن يكون على شرطته فأبى وطلب منه أن يوليه طخارستان فخوفوه منه أن يخلعه هنالك فتركه مقبلاً عنده . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها الحجاج وهو على إمرة المدينة ومكة واليمن والجماعة . قال ابن جرير : وقد قيل إن عبد الملك اعتمر في هذه السنة ولا نعلم صحة ذلك .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

رافع بن خديج بن رافع الأنصاري ، صحابي جليل شهد أحداً وما بعدها ، وصفين مع علي وكان يتعانا المزارع والفلاحة ، توفي وهو ابن ستة وثمانين سنة ، وأسنده ثمانية وسبعين حديثاً . وأحاديثه جيدة . وقد أصابه يوم أحدسهم في ترقوته نخيرد رسول الله (ص) ، بين أن ينزعه منه وبين أن يترك فيه العظبة ويشهد له يوم القيامة ، فاختره هذد ، وانتقض عليه في هذه السنة فمات منه رحمه الله .

ابو سعيد الخدري

هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل من فقهاء الصحابة استصغر

يوم أحد ، ثم كان أول شاهد الخندق ، وشهد مع رسول الله - ﷺ ، ثلثي عشرة غزوة ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وعن جماعة من الصحابة ، وحدث عنه خلق من التابعين وجماعة من الصحابة ، كان من نجباء الصحابة وفضلائهم وعلمائهم . قال الواقدي وغيره : مات سنة أربع وسبعين وقيل قبلها بعشر سنين فله أعلم .

قال الطبراني : حدثنا المقدم بن داود ثنا خالد بن نزار ثنا هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري . قال : قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : « النبيون قلت : ثم أي ؟ قال ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا السترة - وفي رواية - إلا العباءة أو نحوها ، وإن أحدهم ليبتلى بالذمل حتى يئبد القمل ، وكان أحدهم بالبلاء أشد فرحاً منه بالرخاء » . وقال قتيبة بن سعيد : ثنا الليث بن سعد عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي سعيد الخدري : أن أهله شكوا إليه الحاجة فخرج إلى رسول الله - ﷺ ، يسأل لهم شيئاً ، فواقفه على المنبر وهو يقول : « أيها الناس قد آن لكم أن تستغنوا عن المسألة فانه من يستغف يفته الله ومن يستغن يفته الله ، والذي نفس محمد بيده ما رزق الله عبداً من رزق أوسع له من الصبر ، ولئن أيتم إلا أن تسألوني لأعطينكم ما وجدت » . وقد رواه الطبراني عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد نحوه .

عبدالله بن عمر

ابن الخطاب القرشي العدوي . أبو عبد الرحمن المكي ثم المدني أسلم قديماً مع أبيه ولم يبلغ الحلم وهاجرا وعمره عشرة سنين ، وقد استصفر يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق أجازته وهو ابن خمس عشرة سنة فشهدها وما بعدها ، وهو شقيق حفصة بنت عمر أم المؤمنين ، أمها زينب بنت مظنون أخت عثمان بن مظعون ، وكان عبد الله بن عمر ربة من الرجال آدم له جمة تضرب إلى منكبيه جيباً يخبض بالصفرة ويحني شاربته ، وكان يتوضأ لكل صلاة ويدخل الماء في أصول عينيه ، وقد أراد عثمان على القضاء فأبى ذلك ، وكذلك أبوه ، وشهد اليرموك والقادسية وجولاء وما بينهما من وقائع الفرس : وشهد فتح مصر ، واختط بها داراً ، وقدم البصرة وشهد عز و فارس وورد المدائن مراراً وكان عمره يوم مات النبي - ﷺ ، ثنتين وعشرين سنة ، وكان إذا أعجبه شيء من ماله يقربه إلى الله عز وجل ، وكان عبيده قد عرفوا ذلك منه ، فربما لزم أحدهم المسجد فاذا رآه ابن عمر جلي تلك الحال أعتقه ، فيقال له : إنهم يخذعونك ، فيقول : من خدعنا الله انخدعنا له ، وكان له جارية يحبها كثيراً فأعتقها وزوجها لمولاه نافع ، وقال : إن الله تعالى يقول [لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون] واشترى مرة بعبيراً فأعجبه لما ركبته فقال : يا نافع أدخله في إبل الصدقة ، وأعطاه ابن جعفر في نافع عشرة آلاف فقال : أو خيراً من ذلك ؟ هو حر لوجه الله ، واشترى مرة غلاماً بأربعين ألفاً وأعتقه فقال للغلام :

يامولاي قد أعتقتني فهب لي شيئاً أعيش به فأعطاد أربعمين ألفاً، واشترى مرة خمسة عبيد فقام يصلي فقاموا خلفه يصلون فقال: لمن صليتم هذه الصلاة؟ فقالوا: لله! فقال: أنتم أحرار لمن صليتم له، فأعتقهم. والمقصود أنه مامات حتى أعتق ألف رقبة، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً، وكانت تمضي عليه الأيام الكثيرة والشهر لا يذوق فيه لحماً إلا وعلى يديه يقيم. وبعث إليه مائة ألفاً ومائة ألفاً لما أراد أن يبائع يزيد، فما حال عليه الجول وعند منبهاشي، وكان يقول: إني لا أسأل أحداً شيئاً، وما رزقني الله فلا أردد. وكان في مدة الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه، وأدى إليه زكاة ماله، وكان أعلم الناس بمناسك الحج، وكان يقتبص آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يصلي فيها، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة وكان ابن عمر يتعامدها ويصب في أصلها الماء، وكان إذا فاتته العشاء في جماعة أحياتك الليلة، وكان يقوم أكثر الليل، وقيل إن مات وهو في الفصل مثل أبيه، وكان يوم مات خير من بقي، ومكث ستين سنة يفتي الناس من سائر البلاد، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، وروى عن الصديق وعن عمر وعثمان وسعد وابن مسعود وحفصه ومائشة وغيرهم. وعنه خلق منهم بنوه حمزة وبلال وزيد وسالم وعبد الله وعبيد الله وعمر إن كان محفوظاً، وأسلم مولى أبيه وأنس بن سيرين والحسن وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وطاوس وعروة وعطاء وعكرمة ومجاهد وابن سيرين والزهرى ومولاه نافع.

وثبت في الصحيح عن حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن عبيد الله رجل صالح لو كان يقوم الليل». وكان بعد يقوم الليل، وقال ابن مسعود: إن من أملك شهاب قریش لنفسه عن الدنيا ابن عمر. وقال جابر: ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها، إلا ابن عمر، وما أصاب أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريمة، وقال سعيد بن المسيب: مات ابن عمر يوم مات وما من الدنيا أحد أحب أن لقي الله بمثل عمله منه، وقال الزهرى لا يمدل برأيه فإنه أقام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستين سنة، فلم يخف عليه شيء من أمره ولا من أمر أصحابه رضي الله عنهم. وقال مالك: بلغ ابن عمر ستاً وثمانين سنة وأفتى في الإسلام ستين سنة، تقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض، قال الواقدي وجماعة: توفي ابن عمر سنة أربع وسبعين، وقال الزبير بن بكار وآخرون: توفي سنة ثلاث وسبعين والأول أثبت والله أعلم.

عبيد بن عمير

ابن قتادة بن سعد بن عامر بن خندع بن ليث، الليثي ثم الخندعي، أبو عاصم المكي قاضي أهل مكة، قال مسلم بن الحجاج: ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وقال غيره ورآه أيضاً، وروى عن أبيه، وله صحبة، وعن عمر وعلى وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وعبيد الله بن عمر وأم سلمة وغيرهم.

وعنه جماعة من التابعين وغيرهم ، ووثقة ابن معين وأبو زرعة وغير واحد . وكان ابن عمر يجلس في حلقتهم ويبكى وكان يعجبه تذكيره ، وكان بليغاً ، وكان يبكي حتى يبيل الحصى بدموعه . قال مهدي ابن ميمون عن غيلان بن جبر قال : كان عبيد بن عمير إذا آخى أحداً في الله استقبل به القبلة فتمال اللهم اجعلنا سعداء بما جاء به نبيك ، واجعل محمداً شهيداً علينا بالآمان ، وقد سبقت لنا منك الحجة غير منطاول علينا الأمد ، ولا قاسية قلوبنا ولا قائلين ما ليس لنا بحق ، ولا سائلين ما ليس لنا به علم . وحكى البخاري عن ابن جريج أن عبيد بن عمير مات قبل ابن عمر رضي الله عنه .

أبو جحيفة

وهب بن عبد الله السوائي ، صحابي رأى النبي (س) ، وكان دون البلوغ عند وفاة النبي (س) ، لكن روى عنه عدة أحاديث ، وعن علي والبراء بن عازب ، وعنه جماعة من التابعين ، منهم إسماعيل بن أبي خالد ، والحكم وسلمة بن كهيل والشعبي وأبو إسحاق السبيعي ، وكان قد نزل الكوفة وابتنى بها داراً وتوفي في هذه السنة ، وقيل في سنة أربع وتسعين فله أعلم . وكان صاحب شرطة علي ، وكان على إذا خطب يقوم أبو جحيفة تحت منبره .

سلمة بن الأكوع

ابن عمرو بن سنان الأنصاري وهو أحد من بايع تحت الشجرة ، وكان من فرسان الصحابة ومن علمائهم ، كان يفتي بالمدينة ، وله مشاهد معروفة في حياة النبي (س) ، وبعده ، توفي بالمدينة وقد جاوز السبعين سنة .

مالك بن أبي عامر

الأصبغي المدني وهو جد الامام مالك بن أنس ، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم وكان فاضلاً عالماً ، توفي بالمدينة .

أبو عبد الرحمن السلمي

مقري أهل الكوفة بلا مدافعة واسمه عبد الله بن حبيب ، قرأ القرآن على عثمان بن عفان وابن مسعود ، وسمع من جماعة من الصحابة وغيرهم ، وأقرأ الناس القرآن بالكوفة من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج ، قرأ عليه عاصم بن أبي النجود وخلق غيره ، توفي بالكوفة .

أبو معرض الأسدي

اسمه مغيرة بن عبد الله الكوفي ، ولد في حياة النبي (س) ، ووفد على عبد الملك بن مروان وامتدحه ، وله شعر جيد ، ويعرف بالأقطشي ، وكان أحر الوجه كثير الشعر ، توفي بالكوفة في هذه السنة ، وقد قارب الثمانين سنة .

بشر بن مروان

الأموي أخو عبد الملك بن مروان ، ولي إمرة العراقين لأخيه عبد الملك ، وله دار بدمشق عند عقبة اللباب ، وكان سمحاً جواداً ، وإليه ينسب دير مروان عند حجير ، وهو الذي قتل خالد بن حصين الكلبي يوم مرج راهط ، وكان لا يفلق دونه الأبواب ويقول : إنا محتجب النساء ، وكان طليق الوجه ، وكان يجيز على الشعر بأوف ، وقد امتدحه الفرزدق والأخطل ، والجهمية تستدل على الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء ببيت الأخطل .

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهران

وليس فيه دليل ، فان هذا استدلال باطل من وجوه كثيرة ، وقد كان الأخطل نصرانيا ، وكان سبب موت بشر أنه وقعت القرحة في عينه فقيل له يقطعها من المفصل فجزع فما أحس حتى خالطت الكنف ، ثم أصبح وقد خالطت الجوف ثم مات ، ولما اختصر جمل يبكي ويقول : والله لو ددت أني كنت عبداً أرعى الغنم في البادية لبعض الأعراب ولم أُل ما وليت ، فدكر قوله لابي حازم - أو لسعيد بن المسيب - ، فقال : الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يفرون إلينا ولم يجعلنا نفر إليهم ، إنا لترى فيهم عبراً ، وقال الحسن : دخلت عليه فاذا هو يتسامل على سريره ثم نزل عنه إلى صحن الدار ، والاطباء حوله . مات بالبصرة في هذه السنة وهو أول أمير مات بها ، ولما بلغ عبد الملك موته حزن عليه وأمر الشعراء أن يرثوه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

ففيها غزا محمد بن مروان - أخو عبد الملك بن مروان وهو والد مروان الحمار - صائفة الوم حين خرجوا من عند مرعش ، وفيها ولي عبد الملك نيابة المدينة ليحيى بن أبي العاص ، وهو عمه ، وعزل عنها الحجاج . وفيها ولي عبد الملك الحجاج بن يوسف نيابة العراق والبصرة والكوفة وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار ، وذلك بعد موت أخيه بشر ، فرأى عبد الملك أنه لا يسد عنه أهل العراق غير الحجاج اسطوته وقهره وقسوته وشهامته . فكتب إليه وهو بالمدينة ولاية العراق ، فسار من المدينة إلى العراق في اثني عشر راكبا ، فدخل الكوفة على حين غفلة من أهلها وكان تحتهم النجائب ، فقتل قريب الكوفة فاغتسل واغتضب ولبس ثيابه وتقلد سيفه وألقى عذبة العمامة بين كنفه ، ثم سار فقتل دار الامارة ، وذلك يوم الجمعة وقد أذن المؤذن الأول لصلاة الجمعة ، فخرج عليهم وهم لا يعلمون ، فصعد المنبر وجلس عليه وأمسك عن الكلام طويلا ، وقد شخصوا إليه بأبصارهم وجنوا على الركب وتناولوا الحصى ليحذفوه بها ، وقد كانوا حصبوا الذي كان قبله ، فلما سكنت أبتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق

والنفاق ، ومساوى الأخلاق ، والله إن كان أمركم إيهني قبل أن آتى إليكم ، ولقد كنت أدعو الله أن يتليكم بي ، ولقد سقط مني البارحة سوطى الذى أؤدبكم به ، فاتخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - ، ثم قال : والله لا آخذن صغيركم بكبيركم ، وحرمت بعبدكم ، ثم لأرصنكم رصع الحداد الحديدية ، والخباز المعجينة . فلما سمعوا كلامه جعل الحصى يتساقط من أيديهم ، وقيل إنه دخل الكوفة فى شهر رمضان ظهراً فأتى المسجد وصعد المنبر وهو معتجر بعامة حمراء مثلهم بطرفها ، ثم قال : على بالناس ! فظنه الناس وأصحابه من الخوارج فهموا به حتى إذا اجتمع الناس قام وكشف عن وجه اللثام وقال :

أنا ابنُ جَلا وطلاعُ الثنايا متى أضعُ العمامةَ تعرفونى

ثم قال : أما والله إني لأحمل الشئ بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأحزمه بفتله ، وإني لأرى رؤساً قد أينعت وآن اقتطافها ، وإني لأنظر إلى الدماء تترقق بين العمام واللحم ، قد شممت عن سابقها فشمري ، ثم أنشد : -

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدي زيمٌ قد لفظها الليلُ بسواقِ حُطمٍ

لست براعى إبلٍ ولا غنمٍ ولا بجزارٍ على ظهرٍ وضمٍ

قد لفظها الليلُ بعُصليِّ أروعُ خراجٍ من الدويِّ

مهاجرٍ ليس بأعرابيِّ

ثم قال : إني والله يا أهل العراق ما أغمز بغماز ، ولا يققع لى بالثنان ، ولقد فررت عن ذكاه وجربت من الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنياته ثم عجم عيدانها عوداً عوداً فوجدنى أمرها عوداً وأصلها مغمزاً فوجهنى إليكم ، فأنتم طالما رتتم فى أودية الفتن ، وسلكتم سبيل الفئ ، واخترتم جدد الضلال ، أما والله لأحوزنكم لحي العود ، ولأعصبنكم عصب السلعة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، إني والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أحلق إلا فريت ، فأياى وهذه الجماعات وقبلا وقالا ، والله لتستقيم على سبيل الحق أولاد عن لكل رجل منكم شغلا فى جسده . ثم قال : من وجدت بعد ثلاثة من بعث المهلب - يعنى الذين كانوا قد رجعوا عنه لما سمعوا بموت بشر ابن مروان كما تقدم - سفكت دمه وانتهبت ماله ، ثم نزل فدخل منزله ولم يزد على ذلك ، ويقال إنه لما صعد المنبر واجتمع الناس تحته أطال السكوت حتى أن محمد بن عمير أخذ كفا من حصى وأراد أن يمحسه بها ، وقال : قبحة الله ما أعياء وأذمه ! فلما نهض الحجاج وتكلم بما تكلم به جعل الحصى يتناثر من يده وهو لا يشعر به ، لما يرى من فصاحته وبلاغته . ويقال إنه قال فى خطبته هذه : شامت الوجوه إن الله ضرب [مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون] وأنتم أولئك فاستروا

واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تدروا ، ولأعصبنكم عصب السله حتى تنقادوا ، واقسم بالله لتقبلنّ على الانصاف ولتدعن الارجاف وكلن وكان ، وأخبرني فلان عن فلان ، وإيش الخبر وما الخبر ، أولأهبرنكم بالسيف هبرا يدع النساء أياي والاولاد يتامى ، حتى تمشوا السهمى وتقلعوا عن ها وها . فى كلام طويل بليغ غريب يشتمل على وعيد شديد ليس فيه وعد بخير .

فلما كان فى اليوم الثالث سمع تكبيراً فى السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوى الأخلاق ، إني سمعت تكبيراً فى الأسواق ليس بالتكبير الذى يراد به الترغيب ، ولكنه تكبير يراد به الترهيب . وقد عصفت عجاذة تمنها قصف ، يا بنى اللكيمة وعبيد العصا وأبناء الأماء والأياى ، ألا يربع كل رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ويبصر موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدبا لما بعدها . قال فقام إليه عمير بن ضابى التميمى ثم الحنظلى فقال : أصلح الله الأمير إنا فى هذا البعث وأنا شيخ كبير وعليل ، وهذا ابنى هو أشب منى . قال : ومن أنت ؟ قال عمير بن ضابى التميمى ، قال : أسمعتم كلامنا بالأمس ؟ قال : نعم اقال : ألت الذى غزا عثمان بن عفان ؟ قال : بلى . قال : وما حملك على ذلك ؟ قال : كان حبس أبى وكان شيخا كبيرا ، قال أوليس هو الذى هو يقول :

همت ولم أفعل وكنت وليتى فعلت ووليت البكاء حلايلا

ثم قال الحجاج : إني لأحسب أن فى قتلك صلاح المصرين ، ثم قال قم إليه يا حرمى فاضرب عنقه ، فقام إليه رجل فاضرب عنقه وانتهب ماله ، وأمر مناديا فنادى فى الناس ألا إن عمير بن ضابى تأخر بعد سماع النداء ثلاثا فأمر بقتله ، فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر فعبر عليه فى ساعة واحدة أربعة آلاف من مدحج ، وخرجت معهم العرفاء حتى وصلوا بهم إلى المهلب ، وأخذوا منه كتاباً بوصولهم إليه ، فقال المهلب : قدم العراق والله رجل ذكر ، اليوم قوتل العدو . ويروى أن الحجاج لم يعرف عمير بن ضابى حتى قال له عنبسة بن سعيد : أيها الأمير ! إن هذا جاء إلى عثمان بعد ما قتل فلطم وجهه ، فأمر الحجاج عند ذلك بقتله .

وبعث الحجاج الحكم بن أبوب النقفى نائباً على البصرة من جهته ، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله ، وأقر على قضاء الكوفة شريحا ثم ركب الحجاج إلى البصرة واستخلف على الكوفة أبا يعفور ، وولى قضاء البصرة لزرارة بن أوفى ، ثم عاد إلى الكوفة . وحج بالناس فى هذه السنة عبد الملك بن مروان ، وأقر عمه يحيى على نيابة المدينة ، وعلى بلاد خراسان أمية بن عبد الله . وفى هذه السنة ونب الناس بالبصرة على الحجاج ، وذلك أنه لما ركب من الكوفة بعد قتل عمير بن ضابى قام فى أهل البصرة فخطبهم فظير ما خطب أهل الكوفة من الوعيد والتشديد والتهديد الأكيد ، ثم

أتى رجل من بني يشكر فقبل هذا عاص ، فقال : إن بي فتقا وقد عذرتني الله وعذرتني بشر بن مروان ، وهذا عطائي مردود على بيت المال ، فلم يقبل منه وأمر بقتله فقتل ، ففرغ أهل البصرة وخرجوا من البصرة حتى اجتمعوا عند قنطرة رامهرمز . وعليهم عبد الله بن الجارود ، وخرج إليهم الحجاج - وذلك في شعبان من هذه السنة - في أمراء الجيش فاقتتلوا هناك قتالا شديدا ، وقتل أميرهم عبد الله بن الجارود في رؤس من القبائل معه ، وأمر برؤسهم فقطعت ونصبت عند الجسر من رامهرمز ، ثم بعث بها إلى المهلب فتوى بذلك وضعف أمير الخوارج ، وأرسل الحجاج إلى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف فأمرهما بمنهضة الأزارقة ، فهضا بن معهما إلى الخوارج الأزارقة فأجلوهم عن أماكنهم من رامهرمز بأيسر قتال ، فهربوا إلى أرض كازرون من إقليم سابور ، وسار الناس وراءهم فالتقوا في العشر الأواخر من رمضان ، فلما كان الليل بيت الخوارج المهلب من الليل فوجدوه قد تحصن بخندق حول معسكره ، فجاءوا إلى عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه غير محترز - وكان المهلب قد أمره بالاحتراز بخندق حوله فلم يفعل - فاقتتلوا في الليل فقتلت الخوارج عبد الرحمن بن مخنف وطائفة من جيشه وهزموهم هزيمة منكرة ، ويقال إن الخوارج لما التقوا مع الناس في هذه الوقعة كان ذلك في يوم الأربعاء لعشرين بقين من رمضان ، فاقتتلوا قتالا شديدا لم يعهد مثله من الخوارج ، وحملت الخوارج على جيش المهلب بن أبي صفرة فاضطروه إلى معسكره ، فجعل عبد الرحمن يمد به بالخيال بعد الخيل ، والرجال بعد الرجال ، فمالت الخوارج إلى معسكر عبد الرحمن بعد العصر فاقتتلوا معه إلى الليل ، فقتل عبد الرحمن في أثناء الليل . وقتل معه طائفة كثيرة من أصحابه الذين ثبتوا معه ، فلما كان الصباح جاء المهلب فصلى عليه ودفنه وكتب إلى الحجاج بمهلكه ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يعزیه فيه فنعاه عبد الملك إلى الناس بمنى ، وأمر الحجاج مكانه عتاب بن ورقاء ، وكتب إليه أن يطيع المهلب ، فكره ذلك ولم يجد بداً من طاعة الحجاج ، وكره أن يخالفه ، فسار إلى المهلب فجعل لا يطيعه إلا ظاهراً ويعصيه كثيراً ، ثم تقاولا فهم المهلب أن يوقع بعتاب ثم حجز بينهما الناس ، فكتب عتاب إلى الحجاج يشكو المهلب فكتب إليه أن يقدم عليه وأعفاه من ذلك ، وجعل المهلب مكانه ابنه حبيب بن المهلب .

وفيها خرج داود بن النعمان المازني بنواحي البصرة ، فوجه إليه الحجاج أميراً على سرية فقتله . قال ابن جرير : وفي هذه السنة تحرك صالح بن مسرح أحد بني امرئ القيس ، وكان يرى رأى الصفرية ، وقيل إنه أول من خرج من الصفرية ، وكان سبب ذلك أنه حج بالناس في هذه السنة ومعه شبيب بن يزيد ، والبطين وأشباههم من رؤس الخوارج ، واتفق حج أمير المؤمنين عبد الملك فهم شبيب بالفتك به ، فبلغ عبد الملك ذلك من خبره بعد انصرافه من الحج ، فكتب عبد الملك

إلى الحجاج أن يتطلبهم ، وكان صالح بن مسرح هذا يكثر الدخول إلى الكوفة والاقامة بها ، وكان له جماعة يلوذون به ويعتقدونه ، من أهل دارا وأرض الموصل ، وكان يعلمهم القرآن ويقص عليهم وكان مصفراً كثير العبادة ، وكان إذا قص بحمد الله ويثني عليه ويصلي على رسوله ، ثم يأمر بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، ويبحث على ذكر الموت ويترحم على الشيخين أبي بكر وعمر ، ويثني عليهما ثناء حسناً ، ولكن بعد ذلك يذكر عثمان فيسبه وينال منه وينكر عليه أشياء من جنس ما كان ينكر عليه الذين خرجوا عليه وقتلوه من فجرة أهل الأمصار ، ثم يحض أصحابه على الخروج مع الخوارج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنكار ما قد شاع في الناس وذاع ، ويهون عليهم القتل في طلب ذلك ، ويدم الدنيا ذماً بالغاً ، ويصغر أمرها ويحقره ، فالتفت عليه جماعة من الناس ، وكتب إليه شبيب بن يزيد الخارجي يستبطنه في الخروج ويحثه عليه ويندب إليه ، ثم قدم شبيب على صالح وهو بدارا فتواعدوا وتوافقوا على الخروج في مستهل صفر من هذه السنة الآتية - وهي سنة ست وسبعين - وقدم على صالح شبيب وأخوه مصاد والمجلل والفضل بن عامر ، فاجتمع عليه من الأبطال وهو بدارا نحو مائة وعشرة أنفس ، ثم وثبوا على خيل محمد بن مروان فأخذوها ونفروا بها ثم كان من أمرهم بعد ذلك ما كان ، كما سند كره في هذه السنة التي بعدها إن شاء الله تعالى وكان ممن توفي فيها في قول أبي مسهر وأبي عبيد - العرباض بن سارية رضي الله عنه السلمي أبو نجيح سكن حمص وهو صحابي جليل ، أسلم قديماً هو وعمر وبن عنبسة ونزل الصفة ، وكان من البكائين المذكورين في سورة براءة كما قد ذكرنا أسماءهم عند قوله [ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم] الآية . وكانوا ، تسعة وهو راوى حديث « خطبنا رسول الله - » خطبة وجات منها القلوب وزرفت منها العيون » الحديث إلى آخره . ورواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي وغيره ، وروى أيضاً أن النبي - » كان يصلي على الصف المقدم ثلاثاً وعلى الثاني واحدة » وقد كان العرباض شيخاً كبيراً ، وكان يحب أن يقبضه الله إليه ، وكان يدعو : اللهم كبرت سني ووهن عظمي فأقبضني إليك ، وروى أحاديث .

أبو ثعلبة الخشني

صحابي جليل شهد بيعة الرضوان وغزا حنيناً وكان ممن نزل الشام بدار ياغربي دمشق إلى جهة القبلة ، وقيل ببلاط قرية شرق دمشق فإله أعلم . وقد اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، والأشهر منها جرثوم بن ناشر ، وقد روى عن رسول الله - » أحاديث وعن جماعة من الصحابة ، وعنه جماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب ومكحول الشامي وأبو إدريس الخولاني ، وأبو قلابة الجرمي ، وكان ممن يجالس كعب الأخبار ، وكان في كل ليلة يخرج فينظر إلى السماء فيتفكر ثم يرجع إلى المنزل فيسجد لله عز وجل ، وكان يقول : إني لأرجو أن لا يخنقني الله عند الموت كما أراكم تخنقون ،

فبينما هو ليلة يصلي من الليل إذ قبضت زوجته وهو ساجد . ورأت ابنته في المنام كأن أباهما قدمتا فانتهبت مذعورة فقالت لأبها أين أبي؟ قالت : هو في مصلاه ، فنادت فلم يجبها ، فجاءته فخرته فسقط جنبه فاذا هو ميت رحمه الله ، قال أبو عبيدة ومحمد بن سعد وخليفة وغير واحد : كانت وفاته سنة خمس وسبعين ، وقال غيرهم : كانت وفاته في أول إمرة معاوية فأنه أعلم . وقد توفي في هذه السنة .

الأسود بن يزيد

صاحب ابن مسعود ، وهو الأسود بن يزيد النخعي من كبار التابعين ، ومن أعيان أصحاب ابن مسعود ، ومن كبار أهل الكوفة ، وكان يصوم الدهر ، وقد ذهبت عينه من كثرة الصوم ، وقد حج البيت ثمانين حجة وعمرة . وكان يهل من الكوفة ، توفي في هذه السنة ، وكان يصوم حتى يخضر ويصفر ، فلما احتضر بكى فقبل له : ما هذا الجزع؟ فقال : مالي لا أجزع؟ ومن أحق بذلك مني؟ والله لو أنبت بالمفطرة من الله لأهابن الحياء منه مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيًا منه .

حمران بن أبان

مولى عثمان بن عفان كان من سبي عين النمر اشتراه عثمان ، وهو الذي كان يأذن الناس على عثمان توفي في هذه السنة والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ست وسبعين

كان في أولها في مستهل صفر منها ليلة الأربعاء اجتمع صالح بن مسرح أمير الصفرية ، وشبيب ابن يزيد أحد شجعان الخوارج ، فقام فيهم صالح بن مسرح فأمرهم بتقوى الله وحثهم على الجهاد ، وأن لا يقاتلوا أحداً حتى يدعوهم إلى الدخول معهم ، ثم مالوا إلى دواب محمد بن مروان نائب الجزيرة فأخذوها فنفروا بها ، وأقاموا بأرض دارا ثلاثة عشر ليلة ، وتمحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار ، فبعث إليهم محمد بن مروان نائب الجزيرة خمسمائة فارس عليهم عدى بن عدى بن عميرة ، ثم زاده خمسمائة أخرى فسار في ألف من حران إليهم ، وكانما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، لما يعلوا من جلد الخوارج وقوتهم وشدة بأسهم ، فلما التقوا مع الخوارج هزمتهم الخوارج هزيمة شنيعة بالغة ، واحتوا على ماني معسكرهم ، ورجع فلهم إلى محمد بن مروان ، فغضب وبعث إليهم ألفاً وخمسمائة مع الحارث بن جعونة ، وألفاً وخمسمائة مع خالد بن الحر ، وقال لهما : أيكما سبق إليهم فهو الأمير على الناس ، فساروا إليهم في ثلاثة آلاف مقاتل ، والخوارج في نحو من مائة نفس وعشرة أنفس ، فلما انتهوا إلى آمد توجه صالح في شطر الناس إلى خالد بن الحر ، ووجه شبيباً في الباقي إلى الحارث ابن جعونة ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً إلى الليل ، فلما كان المساء انكشف كل من الفريقين عن

الآخر ، وقد قتل من الخوارج نحو السبعين وقتل من أصحاب ابن مروان نحو الثلاثين ، وهربت الخوارج في الليل فخرجوا من الجزيرة وأخذوا في أرض الموصل ومضوا حتى قطعوا الدسكرة ، فبعث إليهم الحجاج ثلاثة آلاف مع الحارث بن عميرة ، فسار نحوهم حتى لحقهم بأرض الموصل وليس مع صالح سوى تسعين رجلا ، فالتقى معهم وقد جعل صالح أصحابه ثلاثة كراديس ، فهو في كردوس ، وشيب عن يمينه في كردوس ، وسويد بن سليمان عن يساره في كردوس ، وحمل عليهم الحارث بن عميرة ، وعلى ميمنته أبو الراعي الشاكري ، وعلى ميسرته الزبير بن الأرواح النخعي ، فصبرت الخوارج على قتلهم صبرا شديداً ، ثم انكشف سويد بن سليمان ، ثم قتل صالح بن مسوح أميرهم ، وصرع شيب عن فرسه فالتف عليه بقية الخوارج حتى احتملوه فدخلوا به حصناً هنالك ، وقد بقي معهم سبعون رجلا ، فأحاط بهم الحارث بن عميرة وأمر أصحابه أن يحرقوا الباب ففعلوا ، ورجع الناس إلى معسكرهم ينتظرون حريق الباب فيأخذون الخوارج قهراً ، فمارجع الناس واطمأنوا خرجت عليهم الخوارج على الصعب والذلول من الباب فبيتوا جيش الحارث بن عميرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وهرب الناس سراعا إلى المدائن ، واخلز شيب وأصحابه مافي معسكرهم ، وكان جيش الحارث بن عميرة أول جيش هزمه شيب ، وكان مقتل صالح بن مسوح في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفيهما دخل شيب الكوفة ومعه زوجته عزالة ، وذلك أن شيباً جرت له فصول يطول تفصيلها بعد مقتل صالح بن مسوح ، واجتمعت عليه الخوارج وبايعوه ، وبعث إليه الحجاج جيشاً آخر فقاتلوه فهزموه ثم هزمهم بعد ذلك ، ثم سار فجاز المدائن فلم ينل مهم شيئاً ، فسار فأخذ -وإباً للحجاج من كلواذ ، وفي عزمه أن يبيت أهل المدائن فهرب من فيها من الجند إلى الكوفة ، فلما وصل فلمهم إلى الحجاج جهز جيشاً أربعة آلاف مقاتل إلى شيب ، فمروا على المدائن ثم ساروا في طلب شيب فجعل يسير بين أيديهم قليلاً قليلاً وهو يريد بهم أنه خائف منهم ، ثم يكر في كل وقت على المقدمة فيكسرهما وينهب مافيها ، ولا يواجه أحداً إلا هزمه ، والحجاج يلح في طلبه ويجهز إليه السرايا والبعوث والمدد وشيب لا يبالي بأحد وإن ما معه مائة وسنون فارسا ، وهذا من أعجب أعجب ، ثم سار من طريق أخرى حتى واجه الكوفة وهو يريد أن يحاصرها ، فخرج الجيش بكاله إلى السبخة لقتاله ، وبلغه ذلك فلم يبال بهم بل انزعج الناس له وخاف منه وفرقوا منه ، وهم الجيش أن يدخل الكوفة خوفاً منه ويتحصنوا بها منه ، حتى قيل لهم إن سويد بن عبد الرحمن في آثارهم وقد اقترب منهم ، وشيب نازل بالمدائن بالدير ليس عنده خبر منهم ولا خوف ، وقد أمر بطعام وشواء أن يصنع له فليل له . وقد جاءك الجند فأدرك نفسك ، فجعل لا يلتفت إلى ذلك ولا يكثر بهم ويقول للدهقان الذي يصنع له

الطعام : أجده وأنصحه وعجل به ، فلما استوى أكله ثم نوضاً وضوءاً تماماً ثم صلى بأصحابه صلاة تامة بتطويل وطمانينة ، ثم ابس درعه وتقلد سيفين وأخذ عمود حديد ثم قال : أسرجوا إلى البغلة ، فركبها فقال له أخوه مصاد : اركب فرساً ، فقال : لا ! حارس كل أمر أجله ، فركبها ثم فتح باب الدبر الذي هو فيه وهو يقول : أنا أبو المدله لاحكم إلا الله ، وتقدم إلى أمير الجيش الذي يليه بالعمود الحديد فقتله ، وهو سعيد بن المجالد ، وحمل على الجيش الآخر الكشيف فصرع أميره وهرب الناس من بين يديه ولجأوا إلى الكوفة ، ومضى شبيب إلى الكوفة من أسفل الفرات ، وقتل جماعة هناك ، وخرج الحجاج من الكوفة هارباً إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة ، ثم اقترب شبيب من الكوفة يريد دخولها ، فأعلم الدهاقين عروة بن المغيرة بذلك فكتب إلى الحجاج يعلمه بذلك فأسرع الحجاج الخروج من البصرة وقصد الكوفة فأسرع السير ، وبادره شبيب إلى الكوفة فسبته الحجاج إليها فدخلها العصر ، ووصل شبيب إلى المربد عند الغروب ، فلما كان آخر الليل دخل شبيب الكوفة وقصد قصر الإمارة فضرب بابه بعموده الحديد فأثرت ضربته في الباب ، فكانت تعرف بعد ذلك ، يقال هذه ضربة شبيب ، وسلك في طرق المدينة وتقصده محال القتال ، وقتل رجلاً من رؤساء أهل الكوفة وأشرفهم ، منهم أبو سليم والدليلث بن أبي سليم ، وعدي بن عمرو ، وأزهر بن عبد الله العامري ، في طائفة كثيرة من أهل الكوفة ، وكان مع شبيب امرأته غزالة ، وكانت معروفة بالشجاعة ، فدخلت مسجد الكوفة وجلست على منبره وجعلت تدم بني مروان .

ونادى الحجاج في الناس يا خيل الله اركبي ، فخرج شبيب من الكوفة إلى مجال الطمن والضرب ، فجهز الحجاج في أثره ستة آلاف مقاتل ، فساروا وراءه وهو بين أيديهم ينعس ويهز رأسه ، وفي أوقات كثيرة يكر عليهم فيقتل منهم جماعة ، حتى قتل من جيش الحجاج خلقاً كثيراً . وقتل جماعة من الأمراء منهم رائدة بن قدامة ، قتله شبيب ، وهو ابن عم المختار ، فوجه الحجاج مكانه لخر به عبد الرحمن بن الأشعث ، فلم يقابل شبيباً ورجع ، فوجه مكانه عثمان بن قطن الحارثي ، فالتقوا في أواخر السنة فقتل عثمان بن قطن وانهمزمت جموعه بعد أن قتل من أصحابه ستمائة نفس ، فن أعيانهم عقيل بن شداد السلولي ، وخالد بن نهيك الكندي ، والاسود بن ربيعة ، واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبد الملك بن مروان والحجاج وسائر الأمراء وخاف عبد الملك منه خوفاً شديداً ، فبعث له جيشاً من أهل الشام فقدموا في السنة الآتية ، وإن ما مع شبيب شرذمة قليلة ، وقد ملأ قلوب الناس رعباً . ووجرت خطوب كثيرة له معهم ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم حتى استهلكت هذه السنة . قال ابن جرير : وفي هذه السنة نقش عبد الملك بن مروان على الدراهم والدنانير وهو أول من

بببب

نقشها . وقال الماوردي في كتاب الاحكام السلطانية : اختلف في أول من ضربها بالعربية في الاسلام فقال سعيد بن المسيب : أول من ضرب الدراهم المنقوشة عبد الملك بن مروان ، وكانت الدنانير والدراهم رومية وكسروية ، قال أبو الزناد : وكان نقشه لها في سنة أربع وسبعين ، وقال المدائني : خمس وسبعين ، وضربت في الآفاق سنة ستة وسبعين ، وذكر أنه ضرب على الجانب الواحد منها الله أحد . وعلى الوجه الآخر الله الصمد ، قال : وحكى يحيى بن النعمان الففاري عن أبيه أن أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير عن أمر أخيه عبد الله بن الزبير ، سنة سبعين على ضرب الأكمرة ، عليها الملك من جانب ، والله من جانب ، ثم غيرها الحجاج وكتب اسمه عليها من جانب ، ثم خلصها بعمد يوسف بن هبيرة في أيام يزيد بن عبد الملك ، ثم خلصها أجود منها خالد بن عبد الله القسيري في أيام هشام ، ثم يوسف بن عمر أجود منهم كلهم ، ولذلك كان المنصور لا يقبل منها إلا الهبيرية والخالدية واليوسفية وذكر أنه قد كان للناس نقود مختلفة منها الدراهم البعلية ، وكان الدرهم منها ثمانية دوانق ، والطبرية وكان الدرهم منها أربعة دوانيق ، واليميني دائق ، فجمع عمر بن الخطاب بين البعلية والطبرية ثم أخذ بنصفها فجعل الدرهم الشرعي وهو نصف مثقال وخمس مثقال ، وذكروا أن المثقال لم يغيروا وزنه في جاهلية ولا إسلام ، وفي هذا نظر والله أعلم .

وفيها ولد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وهو مروان الحمار آخر من تولى الخلافة من بني أمية ، ومنه أخذها بنو العباس . وفيها حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان نائب المدينة ، وعلى امرأة العراق الحجاج وعلى خراسان أمية بن عبد الله والله أعلم .

ومن توفي فيها من الأعيان أبو عثمان النهدي القضاعي اسمه عبد الرحمن بن مل أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وآله غزى أجولاء والقادسية وتستر ، ونهاوند ، وأذربيجان وغيرها ، وكان كثير العبادة زاهداً عالماً يصوم النهار ويقوم الليل ، توفي وعمره مائة وثلاثين سنة بالكوفة .

صلة بن اشيم العدوي

من كبار التابعين من أهل البصرة ، وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد ، كنيته أبو الصبياء ، كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي الفراش إلا حبوا ، وله مناقب كثيرة جداً ، منها أنه كان يمر عليه شباب يلهون ويلعبون فيقول : أخبروني عن قوم أرادوا سفراً فجادوا في النهار عن الطريق وناموا الليل فمضى يقطعون سفرهم ؟ فقال لهم يوماً هذه المقالة ، فقال شاب منهم : والله يا قوم إنه ما يعني بهذا غيرنا ، نحن بالنهار نلهو ، وبالليل ننام . ثم تبع صلة فلم يزل يتعبد معه حتى مات . ومر عليه فتى يجرتوبه فهم أصحابه أن يأخذوه بالسفهم فقال : هونى أ كفضكم أمره ، ثم دعا فقال : يا ابن أخي لي إليك حاجة ،

قال : وما حاجتك ؟ قال أن ترفع إزارك ، قال : نعم ، ونعمت عين ، فرفع إزاره ، فقال صلة : هذا أمثل مما أردتم لو شتمتموه كشتكم . ومنها ما حكاه جعفر بن زيد قال : خرجنا في غزاة وفي الجيش صلة بن أشيم فترل الناس عند العتمة فقلت لأرمقن عمله الليلة ، فدخل غبضة ودخلت في أثره فقام يصلي وجاء الأسد حتى دنا منه وصعدت أنا في شجرة ، قال فتراه التفت أوعدده جرواً حتى سجد فقلت : الآن يقرسه ، فجلس ثم سلم فقال : أيها السبع إن كنت أمرت بشيء فافعل وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر ، فولى الأسد وإن له لثبيراً تصدع منه الجبال ، فلما كان عند الصباح جلس فحمد الله بحامد لم أسمع بمثها ثم قال : اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ، أو مثلي يجترئ أن يسألك الجنة . ثم رجع إلى الجيش فأصبح كأنه بات على الحشا ، وأصبحت وبى من الفترة شيء الله به عليم . قال : وذهبت بغلته بثقلها فقال : اللهم إني أسألك أن ترد علي بغلتي بثقلها ، فجاءت حتى قامت بين يديه ، قال : فلما التقينا العدو حمل هو وهشام بن عامر فصنعنا بهم طعنا وضرباً ، فقال العدو : رجلان من العرب صنعا بنا هذا فكيف لو قاتلونا كلهم ؟ أعطوا المسلمين حاجتهم - يعني انزلوا على حكمهم - وقال صلة : جعت مرة في غزاة جوعاً شديداً فبينما أنا أسير أدعور بى وأستطعمه ، إذ سمعت وجبة من خلفي فالتفت فإذا أنا بمنديل أبيض فاذا فيه دوخلة ملاآنة رطباً فأكلت منه حتى شبع ، وأدركني المساء فملت إلى دير راهب فحدثته الحديث فاستطعمني من الرطب فأطعمته ، ثم إني مررت على ذلك الراهب بعد زمان فاذا نخلات حسان فقال : إنهن لمن الرطبات التي أطعمتني ، وجاء بذلك المنديل إلى امرأته فكانت تريه للناس ، ولما أهديت معاذة إلى صلة أدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله بيت العروس بيتاً مطيباً فقام يصلي فقامت تصلي معه ، فلم يزالا يصليان حتى برق الصبح ، قال : فأتيته فقلت له : أي عم أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقامت تصلي وتركتها ؟ قال : إنك أدخلتني بيتاً أول النهار أذكرتني به النار ، وأدخلتني بيتاً آخر النهار أذكرتني به الجنة ، فلم تزل فكرتني فيهما حتى أصبحت ، البيت الذي أذكره به النار هو الحمام ، والبيت الذي أذكره به الجنة هو بيت العروس . وقال له رجل : أدعو الله لي : فقال رغبتك الله فيما يبقى ، وزهدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين الذي لا يركن إلا إليه ، ولا يعول في الدين إلا عليه . وكان صلة في غزاة ومعه ابنه فقال له : أي بني تقدم فقاتل حتى أحسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم صله فقاتل حتى قتل ، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت : إن كنتن جتتن لهينتي فرحياً يكن ، وإن كنتن جتتن لتعزينتي فارجمن ، توفي صلة في غزاة هو وابنه نحو بلاد فارس في هذه السنة .

زهير بن قيس الهلوي ،

شهد فتح مصر وسكنها ، له صحبة ، قتله الروم بركة من بلاد المغرب ، وذلك أن الصريح أتى

الحاكم بمصر وهو عبد العزيز بن مروان أن الروم نزلوا برقة ، فأمره بالنهوض إليهم ، فساق زهير
ومعه أربعون نفساً فوجد الروم فأراد أن يكف عن القتال حتى يلمحه العسكر ، فقالوا : يا أبا سداد
احمل بنا عليهم ، فحملوا فقتلوا جميعاً المنذر بن الحارود مات في هذه السنة . تولى بيت المال
ووفد على معاوية والله أعلم

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

فيها أخرج الحجاج مقاتلة أهل الكوفة وكانوا أربعين ألفاً ، وانضاف عليهم عشرة آلاف ،
فصاروا خمسين ألفاً ، وأمر عليهم عتاب بن ورقاء وأمره أن يقصد لشبيب أين كان ، وأن يصمم على
قتاله . وكان قد اجتمع على شبيب ألف رجل . وأن لا يفعلوا كما كانوا يفعلون قبلها من الفرار والهزيمة .
ولما بلغ شبيبا ما بعث به الحجاج إليه من العساكر والجنود ، لم يعيأ بهم شيئاً . بل قام في أصحابه
خطيباً فوعظهم وذكركم وحثهم على الصبر عند اللقاء ومناجزة الأعداء . ثم سار شبيب بأصحابه نحو
عتاب بن ورقاء ، فالتقيا في آخر النهار عند غروب الشمس ، فأمر شبيب مؤذنه سلام بن يسار الشيباني
فأذن المغرب ثم صلى شبيب بأصحابه المغرب صلاة تامة الركوع والسجود ، ووصف عتاب أصحابه .
وكان قد خندق حوله وحول جيشه من أول النهار . فلما صلى شبيب بأصحابه المغرب انتظر حتى طلع
القمر وأضاء ثم تأمل الميمنة والميسرة ثم حمل على أصحاب رايات عتاب وهو يقول : أنا شبيب أبو المدائنه
لاحكم الله ، فهزمهم وقتل أميرهم قبيصة بن والقي وجماعة من الأمراء معه ، ثم كر على الميمنة وعلى
الميسرة ففرق فحمل كل واحداهما ، ثم قصد القلب فما زال حتى قتل الأمير عتاب بن ورقاء
وزهرة بن جونة ، وولى عامة الجيش مدبر بن وداسوا الأمير عتاب وزهرة فوطنته الخليل . وقتل في
المعركة عمار بن يزيد الكلبي . ثم قال شبيب لأصحابه : لا تتبعوا منهزماً ، وانهزم جيش الحجاج عن
بكرة أبيهم راجعين إلى الكوفة ، وكان شبيب لما احتوى على المعسكر أخذ ممن بقى منهم البيعة له
بالامارة وقال لهم إلى أي ساعة تهربون ؟ ثم احتوى على ما في المعسكر من الأموال والحواصل ، واستدعى
بأخيه مصاد من المدائن ، ثم قصد نحو الكوفة ، وقد وفد إلى الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبي
وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج في سنة آلاف فارس ومعهما خلق من أهل الشام ،
فاستغنى الحجاج بهم عن نصرة أهل الكوفة ، وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا فلا تشهدوا
معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى ، فلا يقاتلن معنا إلا من كان عاملاً
لنا ، ومن لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء ، وعزم الحجاج على قتال شبيب بنفسه وسار شبيب حتى

بببب

بلغ الصراة ، وخرج إليه الحجاج بمن معه من الشاميين وغيرهم ، فلما تواجه الفريقان نظر الحجاج الى شبيب وهو في ستمائة فخطب الحجاج أهل الشام وقال : يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والسير واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأراجس حركم ، غضوا الأبصار واجثوا على الركب ، واستقبلوا بأطراف الأسننة ، ففعلوا ذلك ، وأقبل شبيب وقد عبي أصحابه ثلاث فرق ، واحدة معه ، وأخرى مع سويد ابن سليم ، وأخرى مع المجلال بن وائل . وأمر شبيب سويداً أن يحمل فحمل على جيش الحجاج فصبروا له حتى إذا دنا منهم وثبوا إليه وثبة واحدة فانهزم عنهم ، فنادى الحجاج : يا أهل السمع والطاعة هكذا فافعلوا ، ثم أمر الحجاج فقدم كرسيه الذي هو جالس عليه إلى الامام ، ثم أمر شبيب المجلال أن يحمل فحمل فثبتوا له وقدم الحجاج كرسيه إلى امام ، ثم إن شبيباً حمل عليهم في كنيسته فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف الأسننة وثبوا في وجهه فقاتلهم طويلاً ، ثم إن أهل الشام طاعنوه حتى ألقوه بأصحابه ، فلما رأى صبرهم نادى : يا سويد احمل في خيلك على أهل هذه السرية لعلك تزيل أهلها عنها فأت الحجاج من ورائه ، ونحمل نحن عليه من أمامه . فحمل فلم يقد ذلك شيئاً ، وذلك ، أن الحجاج كان قد جعل عروة بن العيرة بن شعبة في ثلاثمائة فارس رداً له من ورائه لئلا يؤتوا من خلفهم ، وكان الحجاج بصيراً بالحرب أيضاً ، فعند ذلك حرض شبيب أصحابه على الحملة وأمرهم بها ففهم ذلك الحجاج ، فقال : يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة ، ثم ورب السماء والأرض ماشى دون الفتح ، فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه ، فلما غشيم نادى الحجاج بجماعة الناس فوثبوا في وجهه ، فما زالوا يطعنون ويطعنون وهم مستظرون على شبيب وأصحابه حتى ردوهم عن مواقفهم إلى ما ورائها ، فنادى شبيب في أصحابه يا أولياء الله الأرض الأرض ، ثم نزل ونزلوا ونادى الحجاج يا أهل الشام يا أهل السمع والطاعة ، هذا أول النصر والذي نفسى بيده ، وصعد مسجداً هنالك وجعل ينظر إلى الفريقين ، ومع شبيب نحو عشرين رجلاً معهم النبل ، واقتتل الناس قتالاً شديداً عامة النهار من أشد قتال في الأرض ، حتى أقر كل واحد منهم لصاحبه ، والحجاج ينظر إلى الفريقين من مكانه ، ثم إن خالد بن عتاب استأذن الحجاج في أن يركب في جماعة فيأتي الخوارج من خلفهم ، فأذن له . فانطلق في جماعة معه نحو من أربعة آلاف ، فدخل عسكر الخوارج من ورائهم فقتل مصاداً أخا شبيب ، وغزاة امرأة شبيب ، قتلها رجل يقال له فروة بن دقاق الكلبى ، وخرق في جيش شبيب ، ففرح بذلك الحجاج وأصحابه وكبروا ، وانصرف شبيب وأصحابه كل منهم على فرس ، فأمر الحجاج أن ينطلقوا في طلبهم ، فشدوا عليهم فهزمهم ، وتخلف شبيب في حامية الناس ، ثم انطلقت ، واتبعه الطلب فجعل ينمس وهو على فرسه حتى يخفق برأسه ، ودنا منه الطلب فجعل يعض أصحابه ينهاه عن النعاس في هذه الساعة فجعل لا يكثر بهم

ويود فيخفق رأسه ، فلما طال ذلك بمث الحجاج إلى أصحابه يقول دعوه في حرق النار ، فركوه ورجعوا .
ثم دخل الحجاج الكوفة فخطب الناس فقال في خطبته . إن شيبياً لم يهزم قبلها ، ثم قصد شبيب
الكوفة فخرجت إليه سرية من جيش الحجاج فالتقوا يوم الأربعاء فلا زالوا يتقاتلون إلى يوم الجمعة
وكان على سرية الحجاج الحارث بن معاوية الثقفي في ألف فارس معه ، فحمل شبيب على الحارث
ابن معاوية فكسره ومن معه ، وقتل منهم طائفة ، ودخل الناس الكوفة هاربين ، وحصن الناس
السكك فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج في طائفة من الجيش فقاتل حتى قتل ، ثم هرب أصحابه
ودخلوا الكوفة ، ثم خرج إليه أمير آخر فانكسر أيضاً ، ثم سار شبيب بأصحابه نحو السواد فروا
بعامل الحجاج على تلك البلاد فقتلوه ، ثم خطب أصحابه وقال : اشتغلتم بالدنيا عن الآخرة ، ثم رمى
بالمال في الفرات ، ثم سار بهم حتى افتتح بلاداً كثيرة ولا يبرز له أحد إلا قتله ، ثم خرج إليه بعض
الأمراء الذين على بعض المدن فقال له : يا شبيب ابرز إلى وأبرز إليك ، - وكان صديقه - فقال له
شبيب : إني لا أحب قتلك ، فقال له : لكني أحب قتلك ، فلا تفرنك نفسك وما تقدم من الوقائع ،
ثم حمل عليه فضربه شبيب على رأسه فمسه حتى اختلط دماغه بلحمه وعظمه ، ثم كفنه
ودفنه ، ثم إن الحجاج أنفق أموالاً كثيرة على الجيوش والعساكر في طلب شبيب فلم يطيعوه ولم
يقدروا عليه ، وإنما سلط الله عليه موتاً قدرأ من غير صنعهم ولا صنعه في هذه السنة .

مقتل شبيب عند ابن الكلبي

وكان سبب ذلك أن الحجاج كتب إلى نائبه على البصرة - وهو الحكم بن أيوب بن الحكم بن
أبي عقيل وهو زوج ابنة الحجاج - يأمره أن يجيز جيشاً أربعة آلاف في طلب شبيب ، ويكونون
تبعاً لسفيان بن الأبرد ، ففعلوا وانطلقوا في طلبه فالتقوا معه . وكان ابن الأبرد معه خلق من أهل
الشام ، فلما وصل جيش البصرة إلى ابن الأبرد التقوا معه جيشاً واحداً هم وأهل الشام ، ثم ساروا
إلى شبيب فالتقوا به فاقتلوا قتلاً شديداً وصبر كل من الفريقين لصاحبه ، ثم عزم أصحاب الحجاج
فحملوا على الخوارج حملة منكراً والخوارج قليلون ففروا بين أيديهم ذاهبين حتى اضطروهم إلى
جسر هناك ، فوقف عنده شبيب في مائة من أصحابه ، وعجز سفيان بن الأبرد عن مقاومته ، وردد
شبيب عن موقفه هذا بعد أن قاتلوا نهراً طويلاً كاملاً عند أول الجسر أشد قتال يكون ، ثم أمر
ابن الأبرد أصحابه فرشقهم بالنبال رشقاً واحداً ، ففرت الخوارج ثم كرت على الرماة فقتلوا نحو
من ثلاثين رجلاً من أصحاب ابن الأبرد ، وجاء الليل بظلامه فكف الناس بعضهم عن بعض ،
وبات كل من الفريقين مصراً على مناهضة الآخر ، فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه على الجسر ،

١٢١٢

فبينما شبيب على متن الجسر راكبا على حصان له وبين يديه فرس أنثى إذ نزا حصانه عليها وهو على الجسر فنزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء ، فقال ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، ثم انغمر في الماء ثم ارتفع وهو يقول [ذلك تقدير العزيز العليم] ففرق . فلما تحققت الخوارج سقوطه في الماء كبروا وانصرفوا ذاهبين متفرقين في البلاد ، وجاء أمير جيش الحجاج فاستخرج شبيبا من الماء وعليه درعه ، ثم أمر به فشق صدره فاستخرج قلبه فاذا هو مجتمع صلب كأنه صخرة ، وكانوا يضربون به الأرض فيرتفع قامة الانسان . وقيل إنه كان معه رجال قد أبغضوه لما أصاب من عشائهم ، فلما تخلف في الساقة اشتوروا وقالوا نقطع الجسر به ففعلوا ذلك فمالت السفن بالجسر ونفر فرسه فسقط في الماء ففرق ، ونادوا غرق أمير المؤمنين ، فعرف جيش الحجاج ذلك فجأوا فاستخرجوه ، ولما نعى شبيب إلى أمه قالت : صدقتم إني كنت رأيت في المنام وأنا حامل به أنه قد خرج منها شهاب من نار فعملت أن النار لا يطفئها إلا الماء ، وأنه لا يطفئه إلا الماء ، وكانت أمه جارية اسمها جبهة ، وكانت جميلة ، وكانت من أشجع النساء ، تقاتل مع ابنها في الحروب . وذكر ابن خلكان أنها قتلت في هذه الغزوة ، وكذلك قتلت زوجته غزالة ، وكانت أيضا شديدة البأس تقاتل قتالا شديداً يعجز عنه الأبطال من الرجال ، وكان الحجاج يخاف منها أشد خوف حتى قال فيه بعض الشعراء :

أسد عليّ وفي الحروب نعاماً * فتغاء تنفر من صفيح الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغا * بل كان قلبك في جناحي طائر

قال : وقد كان شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت بن قيس بن شراحيل ابن صبرة بن ذهل بن شيبان الشيباني ، يدعى الخلافة ويتسمى بأمر المؤمنين ، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره به من الفرق لنال الخلافة إن شاء الله ، ولما قدر عليه أحد ، وإنما قهره الله على يدى الحجاج لما أرسل إليه عبد الملك بمسك الشام لقتاله ، ولما ألقاه جواده على الجسر في نهر دجيل قال له رجل : أغرقا يا أمير المؤمنين ؟ قال [ذلك تقدير العزيز العليم] قال ثم أخرج وحمل إلى الحجاج فأمر فترع قلبه من صدره فاذا هو مثل الحجر ، وكان شبيب رجلاً طويلاً أتمحط جداً ، وكان مولده في يوم عيد النحر سنة ست وعشرين ، وقد أمسك رجل من أصحابه فحمل إلى عبد الملك بن مروان فقال له أنت القائل :

فان يك منكم كان مروان وابنه * وعمر وومنكم هاشم وحبيب
فنا حصين والبطين وقعب * ومنا أمير المؤمنين شبيب

قال : إنما قلت ومنا يا أمير المؤمنين شبيب . فأعجبه اعتذاره وأطلقه والله سبحانه أعلم .

وفي هذه السنة كانت حروب كثيرة جداً بين المهلب بن أبي صفرة نائب الحجاج ، وبين الخوارج من الأزارقة وأميرهم قطري بن الفجاءة ، وكان قطري أيضاً من الفرسان الشجعان المذكورين المشهورين

وقد تفرق عنه أصحابه ونفروا في هذه السنة ، وأما هو فلا يدري أحد أين ذهب فانه شرد في الأرض وقد جرت بينهم مناوشات ومجاولات يطول بسطها ، وقد بالغ ابن جرير في ذكرها في تاريخه . قال ابن جرير : وفي هذه السنة ثار بكير بن وشاح الذي كان نائب خراسان على نائبها أمية بن عبد الله ابن خالد وذلك أن بكيراً استجاش عليه الناس وغدر به وقتله ، وقد جرت بينهما حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير في تاريخه . وفي هذه السنة كانت وفاة شبيب بن يزيد كما قدمنا ، وقد كان من الشجاعة والفروسة على جانب كبير لم ير بعد الصحابة مثله ، ومثل الأشتر وابنه إبراهيم ومصعب بن الزبير وأخيه عبد الله ومن يناط بهؤلاء في الشجاعة مثل قطري بن الفجاءة من الأزارقة والله أعلم . وفيها توفي من الأعيان كثير بن الصات بن معدي كرب الكندي ، كان كبيراً مطاعاً في قومه ، وله بالمدينة دار كبيرة بالمصلى ، وقيل إنه كان كاتب عبد الملك على الرسائل ، توفي بالشام .

محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله كانت أخته تحت عبد الملك وولاه سجستان ، فلما سار إليها قيل له إن شبيباً في طريقك وقد أعيا الناس فاعدل إليه لملك أن تقتله فيكون ذكر ذلك وشهرته لك إلى الأبد ، فلما سار لقيه شبيب فاقتتل معه فقتله شبيب . وقيل غير ذلك والله أعلم .

عياض بن غنم الأشعري

شهد اليرموك ، وحدث عن جماعة من الصحابة وغيرهم توفي بالبصرة رحمه الله .

مطرف بن عبد الله

وقد كانوا إخوة ، عروة ومطرف وحمزة ، وقد كانوا يميلون إلى بني أمية فاستعملهم الحجاج على أقاليم ، فاستعمل عروة على الكوفة ، ومطرف على المدائن ، وحمزة على همدان .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ففيها كانت غزوة عظيمة للمسلمين ببلاد الروم افتتحوا إرقلية ، فلما رجعوا أصابهم مطر عظيم وتلج وبرد ، فأصيب بسببه ناس كثير . وفيها ولي عبد الملك موسى بن نصير غزو بلاد المغرب جميعه فسار إلى طنجة وقد جعل على مقدمته طارقاً فقتلوا ملوك تلك البلاد ، وبعضهم قطعوا أنفه ونفوه ، وفيها عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن إمرة خراسان وأضافها إلى الحجاج مع سجستان أيضاً ، وركب الحجاج بعد فراغه من شأن شبيب من إمرة الكوفة إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة المنيرة بن عبد الله بن عامر الحضرمي ، فقدم المهلب على الحجاج وهو بالبصرة وقد فرغ من شأن الأزارقة أيضاً ، فأجلسه معه على السرير واستدعى بأصحاب البلاء من جيشه ، فن أثنى عليه المهلب أجزل الحجاج له العطية ، ثم ولي الحجاج المهلب إمرة سجستان ، وولى عبد الله بن أبي بكر إمرة خراسان ، ثم ناقل بينهما قبل خروجهما من عنده ، فقيل كان ذلك بإشارة المهلب ، وقيل إنه استعان بصاحب

الشرطة وهو عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي ، حتى أشار على الحجاج بذلك فأجابه إلى ذلك . وألزم المهلب بألف ألف درهم ، لأنه اعترض على ذلك .

قال أبو معشر : وحج بالناس فيها الوليد بن عبد الملك وكان أمير المدينة أبان بن عثمان ، وأمير العراق وخراسان وسجستان وتلك النواحي كلها الحجاج ، ونائبه على خراسان المهلب بن أبي صفرة ، ونائبه على سجستان عبد الله بن أبي بكره الثقفي ، وعلى قضاء الكوفة شريح ، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك الأنصاري . وقد توفي في هذه السنة من الأعيان جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، أبو عبد الله الأنصاري السلمي ، صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله - روايات كثيرة ، وشهد العقبة وأراد أن يشهد بدرًا فتمعه أبود وخلفه على إخوانه وأخواته ، وكانوا تسعة ، وقيل إنه ذهب بصره قبل موته . توفي جابر بالمدينة وعمره أربع وتسعون سنة ، وأسند إليه ألف وخمسة وأربعين حديثًا .

شريح بن الحارث

ابن قيس أبو أمية الكندي ، وهو قاضي الكوفة ، وقد تولى القضاء لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، ثم عزله علي ، ثم ولاة معاوية ثم استقل في القضاء إلى أن مات في هذه السنة ، وكان رزقه على القضاء في كل شهر مائة درهم ، وقيل خمسمائة درهم ، وكان إذا خرج إلى القضاء يقول : سيعلم الظالم حظ من نقص ، وقيل إنه كان إذا جلس للقضاء قرأ هذه الآية (يادأود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) الآية ، وكان يقول : إن الظالم ينتظر العقاب والمظلوم ينتظر النصر ، وقيل إنه مكث قاضيًا نحو سبعين سنة . وقيل إنه استعفى من القضاء قبل موته بسنة فأنه أعلم . وأسلمه من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن ، وقدم المدينة بعد موت النبي - صلى الله عليه وآله - ، توفي بالكوفة وعمره مائة وعثمان سنين .

وقد روى الطبراني قال : حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا عارم أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن شبيب ابن الحبعب عن إبراهيم التيمي . قال : كان شريح يقول : سيعلم الظالمون حق من نقصوا . إن الظالم ينتظر العقاب ، وإن المظلوم ينتظر النصر . ورواه الامام أحمد عن إسماعيل بن علية عن ابن عون عن إبراهيم به . وقال الأعمش : اشتكى شريح رجلاه فطلها بالعسل وجلس في الشمس فدخل عليه عواده فقالوا : كيف تجدك ؟ فقال : صالحا . فقالوا : ألا أريتها الطيب ؟ قال : قد فعلت ، قالوا : فإذا قال لك ؟ قال : وعد خيرا . وفي رواية أنه خرج بابهامه قرحة فقالوا : ألا أريتها الطيب ؟ قال : هو الذي أخرجها . وقال الأوزاعي : حدثني عبدة بن أبي لبابة قال : كانت فتنة ابن الزبير تسع سنين وكان شريح لا يخنبر ولا يستخير . ورواه ابن ثوبان عن عبدة عن الشعبي عن شريح قال :

لما كانت الفتنة لم أسأل عنها . فقال رجل لو كنت مثلك ما باليت متى مت ، فقال شريح : فكيف بما في قلبي . وقد رواه شقيق بن سلمة عن شريح قال : في الفتنة ما استخبرت ولا أخبرت ولا ظلمت مسلماً ولا معاهداً ديناراً ولا درهماً ، فقال أبو وائل : لو كنت على حالك لأحببت أن أكون قدمت ، فأوى إلى قلبه فقال : كيف بهداً ، وفي رواية : كيف بما في صدري تلتقي الفتيان وإحداهما أحب إلي من الأخرى . وقال لقوم رأيهم يلعبون : مالي أراكم تلعبون ؟ قالوا : فرغنا ! قال : ما بهذا أمر الفارغ . وقال سوار بن عبد الله العنبري : حدثنا العلاء بن جرير العنبري حدثني سالم أبو عبد الله أنه قال : شهدت شريحاً وتقدم إليه رجل فقال : أين أنت ؟ فقال : بينك وبين الحائط ، فقال : إني رجل من أهل الشام ، فقال : بعيد سحيق ، فقال : إني تزوجت امرأة ، فقال : بالرفاء والبنين ، قال : إني اشترطت لها دارها ، قال : الشرط أملك ، قال : اقض بيننا ، قال : قد فعلت . وقال سفيان : قيل لشريح بأي شيء أصبت هذا العلم ؟ قال : بما وضة العلماء ، آخذ منهم وأعطيتهم . وروى عثمان بن أبي شيبة عن عبد الله بن محمد بن سالم عن إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق عن هبيرة أنه سمع علياً يقول : يا أيها الناس ! يأتوني فقهاؤكم يسألوني وأسألهم ، فلما كان من الغد غدونا إليه حتى امتلأت الرحبة ، فجعل يسألهم : ما كذا ما كذا ، ويسألونه ما كذا ما كذا فيخبرهم ويخبرونه حتى إذا ارتفع النهار تصدعوا غير شريح فإنه جاث على ركبتيه لا يسأله عن شيء إلا أخبره به ، قال : سمعت علياً يقول : قم يا شريح فأنت أقضى العرب . وأتت شريحاً امرأتان جدة صبي وأمه يختصمان فيه كل واحدة تقول : أنا أحق به

أبا أميه أئيناك وأنت المستعان به
 أناك جدة ابن وأم وكلتا ما تفديهِ (١)
 فلو كنت تأيمت لما نازعتك فيه
 تزوجت فهاتيه ولا يذهب بك القبه
 * ألا أيها القاضي فهذه قصتي فيه *

قالت الأم : —

ألا أيها القاضي قد قاتلتك الجدة * قولاً فاستمع مني ولا تطردني رده
 تعزى النفس عن ابني • وكبيدي حملت كبده
 فلما صار في حجرى * يتبأ مفرداً وخده
 تزوجت رجاء الخير * منه يكفيني فقده
 ومن يظهر لي الود • ومن يحسن لي رفته

فقال شريح : —

(١) هذه الأبيات طبق الأصل ولم نجد لها نظيراً .

قد سمع القاضي ما قلنا ثم قضى * وعلى القاضي جهداً إن غفل
قال للجدة ربيني بالصبي * وخذي ابنك من ذات العليل
إنها لو صبرت كان لها * قبل دعوى ما تبغيه للبدل

فقضى به للجدة . وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر بن عون عن إبراهيم عن شريح أنه قضى على رجل باعترافه فقال : يا أبا أمية قضيت على بغير بينة ، فقال شريح : أخبرني ابن أخت خالتك . وقال علي بن الجعد : أنبأنا المسعودي عن أبي حصين قال : سئل شريح عن شاة تأكل الذباب فقال : علف بجان ولبن طيب . وقال الامام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن أبي حيان التيمي حدثنا أبي قال : كان شريح إذا مات لأهله سنور أمر بها فألقيت في جوف داره ، ولم يكن له مشعب « شارع » إلا في جوف داره يفعل ذلك اتقاء أن تؤذى المسلمين - يعني أنه يلقى السنور في جوف داره لئلا تؤذى بنتن ريمها المسلمين - ، وكانت مياذيب أسطحه داره في جوف الدار لئلا يؤذى بها المارة من المسلمين . وقال الرياشي : قال رجل لشريح : إن شأنك لشوين . فقال له شريح : أراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها في نفسك . وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن يحيى تغلب النحوي حدثنا عبد الله بن شبيب قال حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن زياد بن سميان . قال : كتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون : أما بعد فانك والمكان الذي أنت فيه والمكان الذي خرجت منه بعين من لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب ، والمكان الذي خلفته لم يعد امراً لكما ومن تظله أيامه . وإنك وإياهم لعل بساط واحد ، وإن المتجمع من ذي قدرة لقريب .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا علي بن مسهر عن الشيباني عن الشعبي عن شريح أن عمر كتب إليه : إذا جاءك الشيء من كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه رجاء ما ليس في كتاب الله ، وانظر في سنة رسول الله - ﷺ - فاقض بها ، فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، وفي رواية : فانظر فيما قضى به الصالحون ، فان لم يكن فان شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ، وما أرى التأخر إلا خيراً ، والسلام .

وقال شريح : كنت مع علي في سوق الكوفة فأنتهى إلى قاص يقص فوقه عليه وقال : أيها القاص ! تقص ونحن قريبو العهد ، أما إني سائلك فان نجب فما سألتك وإلا أدبتك ، فقال القاص سل يا أمير المؤمنين عما شئت ، فقال علي : ما ثبات الايمان وزواله ؟ قال القاص : ثبات الايمان الورع وزواله الطمع . قال علي : فذلك فقص . قيل إن هذا القاص هو نوف البكالي . وقال رجل لشريح : إنك لتذكر النعمة في غيرك وتنساها في نفسك ، قال : إني والله لأحسدك على ما أرى بك . قال : ما نفعك الله بهذا ولا ضرتني .

وروى جرير عن الشيباني عن الشعبي قال : اشترى عمر فرسا من رجل على أن ينظر إليه ، فأخذ الفرس فسار به فعطب ، فقال لصاحب الفرس : خذ فرسك ، فقال : لا اقال : فاجعل بيني وبينك حكما ، قال الرجل نعم اشريح ، قال عمر : ومن اشريح ؟ قال : شريح العراقي ، قال : فانطلقا إليه فقصا عليه القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين رد كما أخذت أو خذ بما ابتعته ، فقال عمر : وهل القضاء إلا هذا ؟ سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها ، فانه لأول يوم عرفه يومئذ .

وقال هشام بن محمد الكلابي : حدثني رجل من ولد سعد بن وقاص قال : كان لشريح ابن يدعو الكلاب ويهارش بين الكلاب ، فدعا بدواة وقرطاس فكتب إلى مؤدبه فقال : -

ترك الصلاة لأكل يسعى بها طلب الهراش مع الفواة الرجس
 فاذا أتاك فغفه بلامه وعظه من عظة الأديب الأ كيس
 فاذا همت بضربه فبدره فاذا ضربت بها ثلاثا فاحبس
 واعلم بأنك ما أتيت فنفسه مع ما تجر عني أعز الأنفس

وروى شريح عن عمر عن عائشة أن النبي -س- قال لها : « يا عائشة [إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا] إنهم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ، إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب الأهواء والبدع ، أنا منهم بريء وهم مني براء » . وهذا حديث ضعيف غريب رواه محمد بن مصفى عن بقية عن شعبة - أو غيره - عن مجالد عن الشعبي ، وإنما تفرد به بقية بن الوليد من هذا الوجه وفيه علة أيضا . وروى محمد بن كعب القرظي عن الحسن بن شريح عن عمر بن الخطاب . قال قال رسول الله -س- : « إنكم ستغربون حتى تصيروا في حثالة من الناس قد مزجت عهودهم وخربت أمانتهم ، فقال قائل : فكيف بنا يا رسول الله ؟ فقال : تعملون بما تعرفون وتتركون ما تنكرون ، وتقولون : أحد أحد ، انصرتنا على من ظلمناوا كفنا من بغانا » . وروى الحسن بن سفيان عن يحيى بن أيوب عن عبد الجبار بن وهب عن عبد الله السلمى عن شريح ، قال : حدثني البديريون منهم عمر بن الخطاب أن رسول الله -س- قال : « ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ويستقبل بشبابه طاعة الله تعالى إلا أعطاه الله تعالى أجر اثنين وسبعين صديقا ، ثم قال : يقول الله تعالى : أيها الشاب التارك شهوته من أجل ، المبتذل شبابيه لى ، أنت عندى كبعض ملائكتى » . وهذا حديث غريب .

وقال أبو داود : حدثنا صدقة بن موسى حدثنا أبو عمران الجوني عن قيس بن زيد - وقال أبو داود أو عن زيد بن قيس - عن قاضي المصريين شريح عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أن النبي -س- قال : « إن الله تعالى يدعو صاحب الدين يوم القيامة فيقول : يا ابن آدم فيم أضعت حقوق

الناس؟ فيم أذهبت أموالهم؟ فيقول: يارب لم أفسده ولكن أصبت إما غرقاً وإما حرقاً، فيقول الله سبحانه أنا أحق من قضى عنك اليوم، فترجح حسناته على سيئاته فيؤمر به إلى الجنة». لفظ أبي داود ورواه يزيد بن هارون عن صدقة به وقال فيه: «فيدع الله بشئ فيضعه في ميزانه فيثقل» ورواه الطبراني من طريق أبي نعيم عن صدقة به، ورواه الطبراني أيضاً عن حفص بن عمر وأحمد ابن داود المكي قالا: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا صدقة به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

عبدالله بن غنم

الأشعري نزيل فلسطين وقد روى عن جماعة من الصحابة وقيل إن له صحبة وقد بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه أهلها في الدين وكان من العباد الصالحين.

جنادة بن أمية الأزدي

شهد فتح مصر وكان أميراً على غزو البحر لعمورية، وكان موصوفاً بالشجاعة والخير، توفي بالشام وقد قارب الثمانين.

العلاء بن زياد البصري

كان من العباد الصالحين من أهل البصرة، وكان كثير الخوف والورع، وكان يعتزل في بيته ولا يخالط الناس، وكان كثير البكاء، لم يزل يبكي حتى عمى، وله مناقب كثيرة، توفي بالبصرة في هذه السنة. قلت: إنما كان معظم بكاء العلاء بن زياد بعد تلك الرؤيا التي رآها له رجل من أهل الشام أنه من أهل الجنة، فقال له العلاء: أما أنت يا أخي فجزاك الله عن رؤياك لي خيراً، وأما أنا فقد تركتني رؤياك لا أهدأ بليل ولا نهار، وكان بعدها يطوى الأيام لا يأكل فيها شيئاً وبكى حتى كاد يفارق الدنيا، ويصلي لا يفتر، حتى جاء أخوه إلى الحسن البصري فقال: أدرك أخي فإنه قاتل نفسه، يصوم لا يفطر، ويقوم لا ينام، ويبكي الليل والنهار لرؤيا رآها بعض الناس له أنه من أهل الجنة، فجاء الحسن فطرق عليه بابه فلم يفتح، فقال له: افتح فاني أنا الحسن، فلما سمع صوت الحسن فتح له، فقال له الحسن: يا أخي الجنة وما الجنة للمؤمن، إن للمؤمن عند الله ما هو أفضل من الجنة، فقاتل أنت نفسك؟ فلم يزل به حتى أكل وشرب وقصر عما كان فيه قليلاً. وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه أتاه آت في مقامه فأخذ بناصيته وقال: يا غلام قم فاذا كر الله بذكرك. فما زالت تلك الشعرات التي أخذ بها قائمة حتى مات، وقد قيل: إنه كان يرفع له إلى الله كل يوم من العمل الصالح بقدر أعمال خلق كثير من الناس كما رأى ذلك بعض أصحابه في المنام. وقال العلاء: نحن قوم وضعنا أنفسنا في النار فان شاء الله أن يخرجنا منها أخرجنا. وقال: كان رجل يراني بعمله فجعل يشمر ثيابه ويرفع صوته إذا قرأ، فجعل لا يأتي على أحد إلا سبه، ثم رزقه الله الاخلاص واليقين

نفض من صوته وجعل صلاحه بينه وبين الله ، فجعل لا يأتى على أحد بعد ذلك إلا دعاه بخير
سراقة بن مرداس الاذدي كان شاعراً مطبقاً ، هجا الحجاج فنفاه إلى الشام فنوفى بها
الناطقة الجعدي الشاعر . السائب بن يزيد الكندي ، توفى في هذه السنة . سفيان بن سلمة
الأسدي . معاوية بن قره البصرى . زر بن حبيش .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ففيها وقع طاعون عظيم بالشام حتى كادوا يفنون من شدته ، ولم يغز فيها أحد من أهل الشام
لضعفهم وقتلهم ، ووصلت الروم فيها انطاكية فأصابوا خلقاً من أهلها لعلهم بضعف الجنود والمقاتلة .
وفيها غزا عبید الله بن أبي بكر رتبيل ملك الترك حتى أوغل في بلاده ، ثم صالحه على مال يحمله
إليه في كل سنة ، وفيها قتل عبد الملك بن مروان الحارث بن سعيد المنذبي الكذاب ، ويقال له
الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي ، مولى أبي الجلاس العبدي ، ويقال مولى الحكم بن
مروان ، كان أصله من الجولة فنزل دمشق وتعبدها وتنسك وتزهد ثم مكر به ورجع القهقري على
عقبه ، وانسلخ من آيات الله تعالى ، وفارق حزب الله المفلحين ، واتبع الشيطان فكان من الغاوين
ولم يزل الشيطان يزج في قفاه حتى أخسره دينه وديناه ، وأخزاه وأشقاه . فاننا لله وحسبنا الله ولا
حول ولا قوة إلا بالله

قال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا عبد الوهاب نجة الجولي حدثنا محمد بن مبارك ثنا الوليد بن
مسلم عن عبد الرحمن بن حسان قال . كان الحارث الكذاب من أهل دمشق ، وكان مولى لأبي
الجلاس ، وكان له أب بالجولة ، فعرض له إبليس ، وكان رجلاً متمعبداً زاهداً لو لبس جبة من ذهب
لرؤيت عليه الزهادة والعبادة ، وكان إذا أخذ بالتحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده ولا أحسن من
كلامه ، فكتب إلى أبيه وكان بالجولة : يا أبتاه أعجل على فاني قد رأيت أشياء أتخوف أن يكون
الشيطان قد عرض لي ، قال فزاده أبوه غيا على غيه ، فكتب إليه أبوه : يا بني أقبل على ما أمرت
به فان الله تعالى يقول [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم] ولست بأفك
ولا أثيم ، فامض لما أمرت به ، وكان يجيئ إلى أهل المسجد رجلاً رجلاً فيذاكرهم أمره ويأخذ عليهم
العهد والميثاق إن هو يرى ما يرضى وإلا كتم عليه .

قال : وكان بريهم الأعاجيب . كان يأتي إلى رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبح تسبيحاً بليغاً
حتى يضح من ذلك الحاضرون . قلت : وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول
كان ينقر هذه الرخامة الحمراء التي في المقصورة فتسبح ، وكان زنديقا . قال ابن أبي خيثمة في روايته

بالحمد لله

وكان الحارث يطعمهم فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، وكان يقول لهم : اخرجوا حتى أريكم الملائكة ، فيخرج بهم إلى دير المراق فيريهم رجالا على خيل فيتبعه على ذلك بشركثير ، وفشا أمره في المسجد وكثر أصحابه وأتباعه ، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة ، قال فعرض على القاسم أمره وأخذ عليه العهد إن هو رضى أمراً قبله ، وإن كرهه كتم عليه ، قال فقال له : إني نبي ، فقال القاسم : كذبت يا عدو الله ، ما أنت نبي ، وفي رواية ولكنك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم رسول الله (ص) : « إن الساعة لا تقوم حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي » وأنت أحدهم ولا عهد لك . ثم قام فخرج إلى أبي إدريس - وكان على القضاء بدمشق - فأعلمه بما سمع من الحارث فقال أبو إدريس لغيره ، ثم أعلم أبو إدريس عبد الملك بذلك ، وفي رواية أخرى أن مكحولاً وعبد الله بن أبي زائدة دخلا على الحارث فدعاهما إلى نبوته فكنباه وردا عليه ما قال ، ودخلا على عبد الملك فأعلماه بأمره ، فتطلبه عبد الملك طلباً حثيثاً ، واختفى الحارث وصار إلى دار بيت المقدس يدعو إلى نفسه سرّاً واهتم عبد الملك بشأنه حتى ركب إلى النصرية فترها فورد عليه هناك رجل من أهل النصرية ممن كان يدخل على الحارث وهو بيت المقدس فأعلمه بأمره وأين هو ، وسأل من عبد الملك أن يبعث معه بطائفة من الجند الأتراك ليحناط عليه ، فأرسل معه طائفة وكتب إلى نائب القدس ليكون في طاعة هذا الرجل ويفعل ما يأمره به ، فلما وصل الرجل إلى النصرية بيت المقدس بمن معه انتدب نائب القدس لخدمته ، فأمره أن يجمع ما يقدر عليه من الشموع ويجعل مع كل رجل شمعة فاذا أمرهم بإشعالها في الليل أشعلوها كلهم في سائر الطرق والأزقة حتى لا يخفى أمره ، وذهب الرجل بنفسه فدخل الدار التي فيها الحارث فقال لبوابه استأذن علي نبي الله ، فقال : في هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح ، فصاح النصرى أسرجوا ، فأشعل الناس شموعهم حتى صار الليل كأنه النهار ، وهم النصرى على الحارث فاخفى منه في سرب هناك فقال أصحابه هيهات يريدون أن يصلوا إلى نبي الله ، إنه قد رفع إلى السماء ، قال فأدخل النصرى يده في ذلك السرب فاذا بثوبه فاجتره فأخرجه ، ثم قال للفرعانيين من أتراك الخليفة قال فأخذوه فقيدوه ، فيقال إن القيود والجماعة سقطت من عنقه مراراً ويعيدونها ، وجعل يقول : [قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ، وإن اهتديت فما يوحى إلى ربي إنه سميع قريب] وقال لأولئك الأتراك [أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله] فقالوا له بلسانهم ولغتهم : هذا كراتنا فهات كراتك ، أي هذا قرآنك فهات قرآنك ، فلما انتهوا به إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة وأمر رجلاً فطعنه بجرية فأنثت في ضلع من أضلاعه ، فقال له عبد الملك : ويحك أذكرت اسم الله حين طعنته ؟ فقال : نسيت ، فقال : ويحك سم الله ثم اطعنه ، قال فذكر اسم الله ثم طعنه فأنفنه ، وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجلاً

من أهل الفقه والعلم أن يعظوه ويعلموه أن هذا الذي به من الشيطان ، فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك ، وهذا من تمام العدل والدين .

وقد قال الوليد بن مسلم عن ابن جابر فحدثني من سمع الأعور يقول : سمعت العلاء بن زياد العدوي . يقول : ما غببت عبد الملك بشيء من ولايته إلا بقتله حارثاً حيث إن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي ، فمن قاله فاقتلوه ، ومن قتل منهم أحداً فله الجنة » . وقال الوليد بن مسلم : بلغني أن خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك لو حضرتك ما أمرتك بقتله ، قال : ولم ؟ قال : إنه إنما كان به المذهب فلوجوعته لذهب ذلك عنه ، وقال الوليد عن المنذر بن نافع سمعت خالد بن الجلاخ يقول لغيلان : ويحك يا غيلان ، ألم تأخذك في شبيبتك ترا من النساء في شهر رمضان بالتفاح ، ثم صرت حارثياً تحجب امرأته وتزعم أنها أم المؤمنين ثم تحولت فصرت قدرياً زنديقاً .

وفيها غزا عبيد الله بن أبي بكر رتبيل ملك الترك الأعظم فيهم ، وقد كان يصانع المسلمين تارة ويتمرد أخرى ، فكتب الحجاج إلى ابن أبي بكر تأخذه بمن معك من المسلمين حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعه وتقتل مقاتلته ، فخرج في جمع من الجنود من بلاده وخلق من أهل البصرة والكوفة ثم التقى مع رتبيل ملك الترك فكسره وهدم أركانه بسطوة بتارة ، وجاس ابن أبي بكر وجنوده خلال ديارهم ، واستحوذ على كثير من أقاليمه ومدنه وأمصاره ، وتبر ما هنالك تنبيراً ، ثم إن رتبيل تفهقر منه وما زال يتبعه حتى اقترب من مدينته العظمى ، حتى كانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً ، وخافت الأتراك منهم خوفاً شديداً ، ثم إن الترك أخذت عليهم الطرق والشعاب وضيقوا عليهم المسالك حتى ظن كل من المسلمين أنه لا محالة هالك ، فعمد ذلك طلب عبيد الله أن يصالح رتبيل على أن يأخذ منه سبعمائة ألف ، ويفتحوا للمسلمين طريقاً يخرجون عنه ويرجعون عنهم إلى بلادهم ، فانتدب شريح بن هاني - وكان صحابياً ، وكان من أكبر أصحاب علي وهو المقدم على أهل الكوفة - فنسب الناس إلى القتال والمصاهرة والنزال والجلاد بالسيوف والرماح والنبال ، فنهاه عبيد الله بن أبي بكر فلم يفتنه ، وأجابه شزيمة من الناس من الشجعان وأهل الحفائظ ، فما زال يقاتل بهم الترك حتى فنى أكثر المسلمين رضي الله عنهم ، قالوا وجعل شريح بن هاني يرتجز ، ويقول :

أصبحت ذابثاً أقاسي الكبريا * قد عشت بين المشركين أعصرا
ثم أدركت النبي المنيرا * وبمده صديقه وعمرا
ويوم مهرا يوم تشرأ * والجمع في صقيتهم والنهرا
هيات ما أطول هذا عمرا

ثم قاتل حتى قتل رضى الله عنه ، وقتل معه خلق من أصحابه ، ثم خرج من خراج من النار
صحبة عبيد الله بن أبي بكر من أرض رتبيل ، وهم قليل ، وبلغ ذلك الحجاج فأخذ ما تقدم وما تأخر ،
وكتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك ويستشيره في بعث جيش كثيف إلى بلاد رتبيل لينتقموا منه بسبب
ما حل بالمسلمين في بلاده ، فحين وصل البريد إلى عبد الملك كتب إلى الحجاج بالموافقة على ذلك ،
وأن يعجل ذلك سريعاً ، فحين وصل البريد إلى الحجاج بذلك أخذ في جمع الجيوش فجهز جيشاً كثيفاً
لذلك على ماسياتي تفصيله في السنة الآتية بعدها . وقيل إنه قتل من المسلمين مع شريح بن هاني
ثلاثون ألفاً وابتيع الرغيف مع المسلمين بدينار وقاسوا شداً ، ومات بسبب الجوع منهم خلق كثير
أيضاً ، فانا لله وإنا إليه راجعون . وقد قتل المسلمون من الترك خلقاً كثيراً أيضاً قتلوا أضعافهم
ويقال إنه في هذه السنة استعفى شريح من القضاء فأعفاه الحجاج من ذلك وولى مكانه أبا بردة
ابن أبي موسى الأشعري ، وقد تقدمت ترجمة شريح عند وفاته في السنة الماضية والله أعلم .
قال الواقدي وأبو معشر وغير واحد من أهل السير : وخرج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان
أمير المدينة النبوية ، وفيها قتل قطري بن الفجاءة التميمي أبو نعامة الخارجي ، وكان من الشجعان
المشاهير ، ويقال إنه مكث عشرين سنة يسلم عليه أصحابه بالخلافة ، وقد جرت له خطوب وحروب
مع جيش المهلب بن أبي صفرة من جهة الحجاج وغيره ، وقد قدمنا منها طرفاً صالحاً في أماكنه ،
وتان خروجه في زمن مصعب بن الزبير ، وتغلب على قلاع كثيرة وأقاليم وغيرها ، ووقائع مشهورة
وقد أرسل إليه الحجاج جيوشاً كبيرة فهزمها ، وقيل إنه برز إليه رجل من بعض الحرورية وهو على
فرس أعجمي ويده عمود حديد ، فلما قرب منه كشف قطري عن وجهه فولى الرجل هارباً فقال له
قطري إلى أين ؟ أما تستحي أن تفر ولم رطعناً ولا ضرباً ؟ فقال إن الإنسان لا يستحي أن يفر من
مثلك ، ثم إنه في آخر أمره توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش فاقتلوا بطبرستان ، فعثر
بقطري فرسه فوقع إلى الأرض فتكاثروا عليه فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحجاج ، وقيل إن الذي قتله
سودة بن الحر الدارمي ، وكان قطري بن الفجاءة مع شجاعته المفرطة وإقدامه من خطباء العرب
المشهورين بالفصاحة والبلاغة وجودة الكلام والشعر الحسن ، فمن مستجاد شعره قوله يشجع نفسه
وغيره ومن سمعها انتفع بها :

أقول لها وقد طارت شعاعاً • من الأبطال وبمك لن تراعى
فانك لو طلبت بقاء يوم • على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً • فما نيل الخلود بمطاعى
ولا ثوب الحياة بثوب عزي • فيطوى عن أخي الخنع البراعى

سبيل الموت غاية كل حي • وداعيه لأهل الأرض داع
 فن لا يفتبط بسأم ويهرم • وتسله المنون إلى انقطاع
 وما للمرء خير في حياة • إذا ما عدت من سقط المتاع

ذكرها صاحب الحماسة واستحسنها ابن خلكان كثيراً

وفيها توفي عبيد الله بن أبي بكره رحمه الله وهو أمير الجيش الذي دخل بلاد الترك وقاتلوا
 رتبيل ملك الترك ، وقد قتل من جيشه خلق كثير مع شريح بن هاني كما تقدم ذلك ، وقد دخل
 عبيد الله بن أبي بكره على الحجاج مرّة وفي يده خاتم فقال له الحجاج : وم خنمت بخاتمك هذا ؟
 قال على أربعين ألف دينار . قال فقيم أنفقتها ؟ قال : في اصطناع المعروف . ورد الملهوف
 والمكافأة بالصنائع وتزويج المعائل . وقيل إن عبيد الله عطش يوماً فأخرجت له امرأة كوز ماء بارد
 فأعطاه ثلاثين ألفاً ، وقيل إنه أهدى إليه وصيف ووصيفة وهو جالس بين أصحابه فقال لبعض أصحابه
 خذها لك ، ثم فكر وقال : والله إن إشار بعض الجلساء على بعض لشح قبيح ودناءة رديئة : ثم قال
 يا غلام ادفع إلى كل واحد من جلسائي وصيفاً ووصيفة ، فأحصى ذلك فكانوا ثمانين وصيفاً ووصيفة .
 توفي عبيد الله بن أبي بكره ببست وقيل بديرخ والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، والحمد لله رب العالمين

ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة النبوية

ففيها كان السيل الحجاج بمكة لأنه حجب على كل شيء فذهب به ، وحمل الحجاج من بطن مكة
 الجمال بما عليها ، والرجال والنساء لا يستطيع أحد أن يتقدم منه ، وبلغ الماء إلى الحجون ، وغرق
 خلق كثير ، وقيل إنه ارتفع حتى كاد أن يغطي البيت والله أعلم .

وحكى ابن جرير عن الواقدي أنه قال : كان بالبصرة في هذه السنة الطاعون ، والمشهور أنه كان
 في سنة تسع وستين كما تقدم . وفيها قطع المهلب بن أبي صفرة نهر ، وأقام بكش سنتين صابراً مصابراً
 للاعداء من الأتراك ، وجرت له معهم هناك فصول يطول ذكرها ، وقد عليه في غضون هذه المدة
 كتاب ابن الأشعث بمخلعه الحجاج ، فبعثه المهلب برمته إلى الحجاج حتى قرأه ثم كان ماسياً بيانه
 وتفصيله فيما بعد من حروب ابن الأشعث ، وفي هذه السنة جهز الحجاج الجيوش من البصرة والكوفة
 وغيرهما لقتال رتبيل ملك الترك ليقضوا منه ما كان من قتل جيش عبيد الله بن أبي بكره في السنة
 الماضية ، فجهز أربعين ألفاً من كل من المصريين عشرين ألفاً ، وأمر على الجميع عبد الرحمن بن محمد
 ابن الأشعث مع أنه كان الحجاج يفضه جنداً ، حتى قال مارأيته قط إلا همت بقتله ، ودخل ابن
 الأشعث يوماً على الحجاج وعنده عامر الشعبي فقال انظر إلى مشيته والله لقد همت أن أضرب
 عنقه ، فأسرّها الشعبي إلى ابن الأشعث فقال ابن الأشعث : وأنا والله لأجهدت أن أزيله عن

سلطانه إن طال بي وبه البقاء . والمقصود أن الحجاج أخذ في استعراض هذه الجنود وبذل فيهم العطاء ثم اختلف رأيه فيمن يؤمر عليهم ، ثم وقع اختياره على عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقدمه عليهم ، فأتى عمه إسماعيل بن الأشعث فقال للحجاج : إني أخاف أن تؤمره فلا ترى لك طاعة إذا جاوز جسر الصراه ، فقال : ليس هو هنالك هو لي حبيب ، ومتى أهرب أن يخالف أمرى أو يخرج عن طاعتي ، فأضاه عليهم ، فسار ابن الأشعث بالجيوش نحو أرض رتبيل ، فلما بلغ رتبيل مجىء ابن الأشعث بالجنود إليه كتب إليه رتبيل يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السنة الماضية ، وأنه كان لذلك كارها ، وأن المسلمين هم الذين ألجؤه إلى قتالهم ، وسأل من ابن الأشعث أن يصلح له وأن يبذل المسلمين الخراج ، فلم يجبه ابن الأشعث إلى ذلك ، وصمم على دخول بلاده ، وجمع رتبيل جنوده وتببأله ولحربه ، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلداً أو مدينة أو أخذ قلعة من بلاد رتبيل استعمل عليها نائباً من جهته يحفظها له ، وجعل المشايخ على كل أرض ومكان مخوف ، فاستحوذ على بلاد ومدن كثيرة من بلاد رتبيل ، وغنم أموالاً كثيرة جزيلة ، وسي خلقاً كثيرة ، ثم حبس الناس عن التوغل في بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد ، ويتقروا بما فيها من المغلات والخراس ، ثم يتقدمون في العام المقبل إلى أعدائهم فلا يزالون يجوزون الأراضى والأقاليم حتى يحاصروا رتبيل وجنوده في مدينتهم مدينة العطاء على الكنوز والأموال والذراري حتى يفتنوها ثم يقتلون مقاتلتهم ، وعزموا على ذلك ، وكان هذا هو الرأي ، وكتب ابن الأشعث إلى الحجاج يخبره بما وقع من المنح وما صنع الله لهم ، ويهدى الرأي الذي رآه لهم ، وقال بعضهم كان الحجاج قد وجه هيمان بن عدى السدوسى إلى كرما مسلحاً لأهلها ليمد عامل سجستان والسند إن احتاجا إلى ذلك ، فعصى هيمان ومن معه على الحجاج ، فوجه الحجاج إليه ابن الأشعث فهزموه وأقام ابن الأشعث بمن معه ، ومات عبيد الله بن أبي بكره فكذب الحجاج إلى ابن الأشعث بإمرة سجستان مكان ابن أبي بكره وجهر إلى ابن الأشعث جيشاً أنفق عليه ألفى ألف سوى أعطياتهم ، وكان يدعى هذا الجيش جيش الطواويس ، وأمره بالاقدام على رتبيل فكان من أمره معه ماتتقدم .

قال الواقدي وأبو معشر : وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان ، وقال غيرهما : بل حج بهم سليمان بن عبد الملك ، وكان على الصائفة في هذه السنة الوليد بن عبد الملك ، وعلى المدينة أبان بن عثمان ، وعلى المشرق بكاله الحجاج ، وعلى قضاء الكوفة أبو بردة بن أبي موسى ، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

اسلم مولى عمر بن الخطاب

وهو أبو زيد بن أسلم أصله من سبي عين النمر اشتراه عمر بمكة لمساحج سنة إحدى عشرة؛

وتوفى وعمره مائة وأربع عشرة سنة ، وروى عن عمر عدة أحاديث ، وروى عن غيره من أصحابه أيضاً وله مناقب كثيرة رحمه الله .

جبير بن نفير

ابن مالك الحضرمي له صحبة ورواية ، وكان من علماء أهل الشام وكان مشهوراً بالعبادة والعلم توفى بالشام وعمره مائة وعشرون سنة ، وقيل أكثر وقيل أقل .

عبدالله بن جعفر بن ابي طالب

ولد بأرض الحبشة وأمه أسماء بنت عميس ، وهو آخر من رأى النبي (ص) من بني هاشم وفاة ، سكن المدينة ، ولما استشهد أبوه جعفر بمؤتة « أتى النبي (ص) ، إلى أمهم فقال: اتوني بيني أخي ، فأتى بهم كأنهم أفرخ ، فدعا بالخلّاق فخلق رؤسهم ثم قال : اللهم اخلف جعفرآ في أهله وبارك لعبد الله في صفته ، فجاءت أمهم فذكرت للنبي (ص) ، أنه ليس لهم شيء ، فقال أنا لهم عوضاً من أبيهم » وقد بايع النبي (ص) ، عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعمرهما سبع سنين ، وهذا لم يتفق لغيرهما ، وكان عبد الله بن جعفر من أسخى الناس ، يعطى الجزيل الكثير ويستقله ، وقد تصدق مرة بألفي ألف ، وأعطى مرة رجلا ستين ألفاً ، ومرة أعطى رجلاً أربعة آلاف دينار ، وقيل إن رجلاً جلب مرة سكرًا إلى المدينة فكسد عليه فلم يشتره أحد فأمر ابن جعفر قيمه أن يشتريه وأن يهديه للناس . وقيل : إن معاوية لما حج ونزل في دار مروان قال يوماً لحاجبه : انظر هل ترى بالباب الحسن أو الحسين أو ابن جعفر أو فلانا - وعد جماعة - فخرج فلم ير أحداً ، فقيل له : هم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون ، فأتى معاوية فأخبره فقال : ما أنا إلا كأحدهم ، ثم أخذ عصا فتوكأ عليها ثم أتى باب ابن جعفر فاستأذن عليه ودخل فأجلسه في صدر فراشه ، فقال له معاوية : ابن غداؤك يا ابن جعفر ؟ فقال : وما تشتهي من شيء فأدعوه ؟ فقال معاوية : أطعمنا مخاً ، فقال يا غلام هات مخاً ، فأتى بصحيفة فأكل معاوية ، ثم قال ابن جعفر لفلان : هات مخاً ، فجاء بصحيفة أخرى ملائنة مخاً إلى أن فعل ذلك ثلاث مرات ، فتمعجب معاوية وقال : يا ابن جعفر ما يشبعك إلا الكثير من العطاء ، فلما خرج معاوية أمر له بخمسين ألف دينار ، وكان ابن جعفر صديقاً لمعاوية وكان يفد عليه كل سنة فيعطيه ألف ألف درهم ، ويقضى له مائة حاجة . ولما حضرت معاوية الوفاة أوصى ابنه يزيد ، فلما قدم ابن جعفر على يزيد قال له : كم كان أمير المؤمنين يعطيك كل سنة ؟ قال ألف ألف . فقال له : قد أضعفناها لك ، وكان يعطيه ألفي ألف كل سنة ، فقال له عبد الملك بن جعفر : بأبي أنت وأمي ما قلتها لأحد قبلك ، ولا أقولها لأحد بعدك ، فقال يزيد : ولا أعطاكها أحد قبلي ولا يعطيكها أحد بعدى ، وقيل إنه كان عند ابن جعفر جارية تغنيه تسمى عمارة ، وكان يحبها محبة عظيمة ، فحضر عنده يزيد

ابن معاوية يوماً ففنت الجارية ، فلما سمعها يزيد افتن بها ولم يجسر على ابن جعفر أن يطلبها منه ، فلم يزل في نفس يزيد منها حتى مات أبوه معاوية ، فبعث يزيد رجلاً من أهل العراق وأمره أن يتطلع في أمر هذه الجارية ، فقدم الرجل المدينة ونزل جوار ابن جعفر وأهدى إليه هدايا وتحفا كثيرة ، وأنس به ، ولا زال حتى أخذ الجارية وأتى يزيد . وكان الحسن البصري يذم ابن جعفر على سماعه الغنى والاهو وشرائه المولدات ، ويقول : أما يكفيه هذا الأمر القبيح المتلبس به من هذه الأشياء وغيرها ؟ حتى زوج الحجاج بنت رسول الله (س) ، وكان الحجاج يقول : إنما تزوجتها لأذل بها آل أبي طالب ، وقيل إنه لم يصل إليها ، وقد كتب عبد الملك إليه أن يطلقها فطلقها . أسند عبد الله ابن جعفر ثلاثة عشر حديثاً .

ابو ادريس الخولاني

اسمه عائذ الله بن عبد الله ، له أحوال ومناقب ، كان يقول : قلب نقي في ثياب دنسة خير من قلب دنس في ثياب نقية ، وقد تولى القضاء بدمشق ، وقد ذكرنا ترجمته في كتابنا التكميل .

معبد الجهني القدري

يقال إنه معبد بن عبد الله بن عليم ، راوى حديث : « لا تفتنوا من الميتة باهاب ولا عصب » . وقيل غير ذلك في نسبه ، سمع الحديث من ابن عباس وابن عمر ومعاوية وعمران بن حصين وغيرهم . وشهد يوم التحكيم ، وسأل أبا موسى في ذلك ووصاه ثم اجتمع بعمر وبن العاص فوصاه في ذلك فقال له : أيها يا تيس جهنة ما أنت من أهل السر والعلانية ، وإنه لا ينفعك الحق ولا يضرك الباطل . وهذا توسم فيه من عمرو بن العاص ، ولهذا كان هو أول من تكلم في القدر ، ويقال إنه أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق يقال له سوس ، وأخذ غيلان القدر من معبد ، وقد كانت لمعبد عبادة وفيه زهادة ، ووثقه ابن معين وغيره في حديثه ، وقال الحسن البصري : إياكم ومعبد آفان ضال مضل ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله . وقال سعيد بن عفير : بل صلبه عبد الملك بن مروان في سنة ثمانين بدمشق ثم قتله ، وقال خليفة بن خياط : مات قبل التسعين فالله أعلم ، وقيل إن الأقرب قتل عبد الملك له والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة احدى وثمانين

ففيها فتح عبيد الله بن عبد الملك بن مروان مدينة قاليقلا وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة ، وفيها قتل بكير بن وشاح ، قتله بجير بن ورقاء الصريمي ، وكان بكير من الأمراء الشجعان ، ثم نار لبكير ابن وشاح رجل من قومه يقال له صعصعة بن حرب العوفي الصريمي ، فقتل بجير بن ورقاء الذي قتل بكيرا ، طعنه بخنجر وهو جالس عند المهلب بن أبي صفرة فحمل إلى منزله وهو بأخر رمق ، فبعث

المهلب بصمصمة إليه ، فلما تمكن منه بجير بن ورقاء قال ضعبوا رأسه عند رجلى ، فوضعه فطمنه بجير بجرته حتى قتله ومات على إثره . وقد قال له أنس بن طارق : اعف عنه فقد قتلت بكبير بن وشاح ، فقال : لا والله لا أموت وهذا حتى ثم قتله وقد قيل إنه إنما قتل بعد موته فالله أعلم .

فتنة بن الأشعث

قال أبو مخنف : كان ابتداءؤها في هذه السنة ، وقال الواقدي : في سنة ثنتين وثمانين ، وقد ساقها ابن جرير في هذه السنة فوافقناه في ذلك ، وكان سبب هذه الفتنة أن ابن الأشعث كان الحجاج يبغضه وكان هو يفهم ذلك ويضمر له سوء و زوال الملك عنه ، فلما أمره الحجاج على ذلك الجيش المتقدم ذكره ، وأمره بدخول بلاد رتبيل ملك الترك ، فمضى وصنع ما قدمناه من أخذه بعض بلاد الترك ، ثم رأى لأصحابه أن يقيموا حتى يتقوا إلى العام المقبل ، فكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه في ذلك ويستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنكول عن الحرب ، ويأمره حتما بدخول بلاد رتبيل ، ثم أردف ذلك بكتاب ثان ثم ثالث مع البريد ، وكتب في جملة ذلك يا ابن الحائك الغادر المرتد ، امض إلى ما أمرتك به من الأيغال في أرض العدو وإلا حل بك مالا يطاق . وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث : ويقول هو أهوج أحق حسود ، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقتله ، ودل عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله ، وجده الأشعث ارتد عن الإسلام وما رأيت قط إلا همت بقتله ، ولما كتب الحجاج إلى ابن الأشعث بذلك وترادفت إليه البرد بذلك ، غضب ابن الأشعث وقال : يكتب إلى يمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي ولا من بعض خدعي لخوره وضعف قوته ؟ أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غزاة - يعني أن غزاة زوجة شبيب حملت على الحجاج وجيشه فانهزموا منها وهي امرأة لما دخلت الكوفة - ثم إن ابن الأشعث جمع رؤس أهل العراق وقال لهم : إن الحجاج قد ألح عليكم في الأيغال في بلاد العدو ، وهي البلاد التي قد هلك فيها إخوانكم بالأمس ، وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد ، فانظروا في أمركم أما أنا فلست مطيعه ولا أنقض رأيا رأيت بالأمس ، ثم قام فيهم خطيباً فأعلمهم بما كان رأى من الرأى له ولهم ، وطلب في ذلك من إصلاح البلاد التي فنحوها ، وأن يقيموا بها حتى يتقوا بغلاتها وأموالها ويخرج عنهم فصل البرد ثم يسبغون في بلاد العدو فيفتحونها بلداً بلداً إلى أن يحصروا رتبيل ملك الترك في مدينة العظاء ، ثم أعلمهم بما كتب إليه الحجاج من الأمر بمعالجة رتبيل . فنار إليه الناس وقالوا : لا بل نأبى على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع . قال أبو مخنف : فحدثني مطرف بن عامر بن وائلة الكناني أن أباه كان أول من تكلم في ذلك ، وكان شاعراً خطيباً ، وكان مما قال : إن مثل الحجاج في هذا الرأى ومثلنا كما قال الأول لأخيه أحملة عبدك على الفرس فان

هلك هلك ، وإن نجى فلك ، أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن هلكتم كنتم الأعداء
 البغضاء ، ثم قال : اخلعوا عدو الله الحجاج - ولم يذكر خلع عبد الملك - وبايعوا الأميركم عبد الرحمن
 ابن الأشعث فاني أشهدكم أني أول خالع للحجاج . فقال الناس من كل جانب : خلعنا عدو الله ،
 ووثبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضاً عن الحجاج ، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن
 مروان ، وبعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رتبيل
 أبداً . ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلاً من سجستان إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه
 العراق ، فلما توسطوا الطريق قالوا : إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان فخلعوهما وجددوا البيعة
 لابن الأشعث فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين ، فإذا قالوا نعم
 بايعهم . فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان ، كتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك
 ويستعجله في بعثه الجنود إليه ، وجاء الحجاج حتى نزل البصرة ، وبلغ المهلب خبر ابن الأشعث ،
 وكتب إليه يدعو إلى ذلك فأبى عليه ، وبعث بكتابه إلى الحجاج ، وكتب المهلب إلى ابن
 الأشعث يقول له : إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل ، ابق على أمة محمد ،
 انظر إلى نفسك فلا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تنكثها ،
 فان قلت أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه من الناس ، فلا تعرضها لله في سفك الدماء ،
 أو استئصال محرم والسلام عليك . وكتب المهلب إلى الحجاج : أما بعد فان أهل العراق قد أقبلوا
 إليك مثل السيل المنحدر من علو ليس شيء يردده حتى يذهب إلى قراره ، وإن لأهل العراق شدة
 في أول مخرجهم ، ودبابة إلى أبنائهم ونساءهم ، فليس شيء يردم حتى يصلوا إلى أهلهم وينبسطوا
 إلى نساءهم ويشموا أولادهم . ثم واقعهم عندها فان الله ناصرهم عليهم إن شاء الله . فلما قرأ الحجاج
 كتابه قال : فعل الله به وفعل ، لا والله مالي نظر ولكن لابن عمه نصح . ولما وصل البريد بكتاب
 الحجاج إلى عبد الملك هاله ذلك ثم نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه
 كتاب الحجاج فقال : يا أمير المؤمنين إن كان هذا الحدث من قبل خراسان فخفه ، وإن كان من
 قبل سجستان فلا تخفه ، ثم أخذ عبد الملك في تجهيز الجنود من الشام إلى العراق في نصره الحجاج
 وتجهيزه في الخروج إلى ابن الأشعث ، وعصى رأى المهلب فيما أشار به عليه ، وكان في شوره النصح
 والصدق ، وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع عن عبد الملك بخبر ابن الأشعث صباحاً ومساءً ، أين
 نزل ومن أين ارتحل ، وأي الناس إليه أسرع . وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل
 جانب ، حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل ، وخرج الحجاج
 في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث ، فنزل تستر وقدم بين يديه مطهر بن حبي الكعبي

أميراً على المقدمة ، ومعه عبد الله بن زميت أميراً آخر ، فانتهوا إلى دجيل فاذا مقدمة ابن الأشعث في ثلاثمائة فارس عليها عبد الله بن أبان الحارثي ، فالتقوا في يوم الأضحى عند نهر دجيل ، فهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقاً كثيراً نحو ألف وخمسمائة ، واحتازوا ما في معسكرهم من خيول وقماش وأموال . وجاء الخبر إلى الحجاج بهزيمة أصحابه وأخذه مذب ودرج . وقد كان قائماً بخطب فقال : أيها الناس ارجعوا إلى البصرة فإنه أرفق بالجند : فرجع بالناس وتبعهم خيول ابن الأشعث لا يدركون منهم شاذاً إلا قتلوه ، ولا فاذا إلا أهلكوه ، ومضى الحجاج هاربا لا يلوى على شيء حتى أتى الزاوية فمسك عندها وجعل يقول : لله در المهلب أي صاحب حرب هذا ، قد أشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل ، وأنفق الحجاج على جيشه وهو بهذا المكان مائة وخمسين ألف ألف درهم ، وخذق حول جيشه خندقاً ، وجاء أهل العراق فدخلوا البصرة واجتمعوا بأهاليهم وشموا أولادهم ، ودخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بهم وبإيعهم وبإيعوه على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج بن يوسف ، وقال لهم ابن الأشعث : ليس الحجاج بشيء ، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله ، وواقفه على خلعهما جميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب ، ثم أمر ابن الأشعث بخندق حول البصرة فعمل ذلك ، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة من هذه السنة . وحج بالناس فيها إسحاق بن عيسى فيما ذكره الواقدي وأبو معشر والله سبحانه وتعالى أعلم . وفيها غزا موسى بن نصير أمير بلاد المغرب من جهة عبد الملك بلاد الاندلس فافتتح مدناً كثيرة ، وأراضى عامرة ، وأوغل في بلاد المغرب إلى أن وصل إلى الرقاق المنبثق من البحر الأخضر المحيط والله أعلم . ومن توفي فيها من الأعيان بجير بن ورقاء الصريمي أحد الأشراف بخراسان ، والقواد والأمراء الذي حارب ابن خازم وقتله ، وقتل بكير بن وشاح ثم قتل في هذه السنة .

سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر

أبو أمية الجعفي الكوفي ، شهد اليرموك وحدث عن جماعة من الصحابة ، وكان من كبار المخضرمين ويقال إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مولده عام ولد النبي صلى الله عليه وسلم وصلى معه ، والصحيح أنه لم يره ، وقيل إنه ولد بعده بستين ، وعاش مائة وعشرين سنة لم يرب يوماً محتجباً ولا متسانداً ، وافتض بكرة عام وفاته في سنة إحدى وثمانين ، قاله أبو عبيد وغير واحد . وقيل إنه توفي في سنة ثنتين وثمانين فله أعلم .

عبدالله بن شداد ابن الهاد

كان من العباد الزهاد ، والعلماء ، وله وصايا وكلمات حسان ، وقد روى عدة أحاديث عن الصحابة وعن خلق من التابعين ،

محمد بن علي بن ابي طالب

أبو القاسم وأبو عبد الله أيضاً ، وهو المعروف بابن الحنفية ، وكانت سوداء سنديّة من بني حنيفة اسمها خولة . ولد محمد في خلافة عمر بن الخطاب ، ووفد على معاوية وعلى عبد الملك بن مروان وقد صرع مروان يوم الجمل وقعد على صدره وأراد قتله فنأشده مروان بالله وتذلل له فأطلقه ، فلما وفد على عبد الملك ذكره بذلك فقال عفواً يا أمير المؤمنين فمفاغته وأجزل له الجائزة ، وكان محمد ابن علي من سادات قريش ، ومن الشجعان المشهورين ، ومن الاقوياء المذكورين ، ولما بويع لابن الزبير لم يبايعه ، فجرى بينهما شر عظيم حتى هم ابن الزبير به وبأهله كما تقدم ذلك ، فلما قتل ابن الزبير واستقر أمر عبد الملك وبايعه ابن عمر تابعه ابن الحنفية ، وقدم المدينة فمات بها في هذه السنة وقيل في التي قبلها أو في التي بعدها ، ودفن بالبقيع . والرافضة يزعمون أنه بجبل رضوى ، وأنه حي يرزق ، وهم ينتظرونه ، وقد قال كثير عزّة في ذلك

ألا إن الأئمة من قريش * ولاية الحق أربعة سواء
عليّ والثلاثة من بني * هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبّ سبّ إيمان وبر * وسبّ غيبته كربلاء
وسبّ لا تراه العين حتى * تعود الخليل يقدمها لواء

ولما هم ابن الزبير بابن الحنفية كتب ابن الحنفية إلى شيعتهم بالكوفة مع أبي الطفيل واثلة بن الأسقع وعلى الكوفة المختار بن عبيد الله ، وقد كان ابن الزبير جمع لهم خطبا كثيراً على أبوابهم ليحرقهم بالنار ، فلما وصل كتاب ابن الحنفية إلى المختار ، وقد كان المختار يدعو إليه ويسميه المهدي ، فبعث المختار أبا عبد الله الجدلي في أربعة آلاف فاستنقذوا بني هاشم من يدي ابن الزبير ، وخرج معهم ابن عباس فمات بالطائف وبقى ابن الحنفية في شيعته ، فأمره ابن الزبير أن يخرج عنه فخرج إلى أرض الشام بأصحابه وكانوا نحو سبعة آلاف ، فلما وصل إلى أيلة كتب إليه عبد الملك : إما أن تبايعني وإما أن تخرج من أرضي ، فكتب إليه ابن الحنفية : أبايعك على أن تؤمن أصحابي ، قال نعم فقام ابن الحنفية في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه فقال : الحمد لله الذي حقن دماءكم وأحرز دينكم فمن أحب منكم أن يأتيه آمنه إلى بلده محفوظاً فليفعل ، فرحل عنه الناس إلى بلادهم حتى بقي في سبعمائة رجل ، فأحرم بعمره وقلده هديا وسار نحو مكة ، فلما أراد دخول الحرم بعث إليه ابن الزبير خيلاً فمنعه أن يدخل ، فأرسل إليه : إننا لم نأت لحرب ولا لقتال ، دعنا ندخل حتى نقضى نسكتا ثم نخرج عنك ، فأبى عليه وكان معه بدن قد قلدها فرجع إلى المدينة فأقام بها محرماً حتى قدم الحجاج وقتل ابن الزبير ، فكان ابن الحنفية في تلك المدة محرماً ، فلما سار الحجاج إلى العراق مضى ابن الحنفية إلى مكة وقضى نسكه

وذلك بعد عدة سنين ، وكان القمل يتناثر منه في تلك المدة كلها ، فلما قضى نسكه رجع إلى المدينة أقام بها حتى مات ، وقيل إن الحجاج لما قتل ابن الزبير بعث إلى ابن الحنفية : قد قتل عدو الله فبايع ، فكتب إليه إذا بايع الناس كلهم بايعت ، فقال الحجاج : والله لا قتلناك ، فقال ابن الحنفية : إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ ، في كل نظرة ثلاثمائة وستون قضية ، فلعل الله تعالى أن يجعلني في قضية منها فيكفينيك . فكتب الحجاج إلى عبد الملك بذلك فأعجبه قوله وكتب إليه قد عرفنا أن محمداً ليس عنده خلاف فارق به فهو يأتيك ويبايعك ، وكتب عبد الملك بكلامه ذلك - إن لله ثلاثمائة وستين نظرة - إلى ملك الروم ، وذلك أن ملك الروم كتب إلى عبد الملك يتهدهه بمجموع من الجنود لا يطيقها أحد ، فكتب بكلام ابن الحنفية فقال ملك الروم : إن هذا الكلام ليس من كلام عبد الملك ، وإنما خرج من بيت نبوة ، ولما اجتمع الناس على بيعة عبد الملك قال ابن عمر لابن الحنفية : ما بقي شيء فبايع ، فكتب بيعته إلى عبد الملك ووفد عليه بعد ذلك . توفي ابن الحنفية في الحرم بالمدينة وعمره خمس وستون سنة ، وكان له من الولد عبد الله وحمزة وعلي وجعفر الأكبر والحسن وإبراهيم والقاسم وعبد الرحمن وجعفر الأصغر وعون ورقية ، وكلهم لأمهات شتى . وقال الزبير بن بكار : كانت شيعته تزعم أنه لم يمت وفيه يقول السيد :

أقل للوصي فدتك نفسي * أطلت بذلك الجبل المقاما
أضراً بعشر والوك منا * ومموك الخليفة والاماما
وعادوا فيك أهل الأرض طراً * مقامك فيهم ستين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت * ولا وارث له أرض عظاما
لقد أسمى بمورق شعير رضوى * تراجع الملائكة الكلاما
وإن له به لمقيل صدق * وأندية تحده كراما
هدانا الله ادخرتم لامر * به عليه يلتمس التماما
تمام نوره المهدي حتى * تروا رايته ترى نظاما

وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته وأنه ينتظر خروجه في آخر الزمان ، كما ينتظر طائفة أخرى منهم الحسن بن محمد العسكري ، الذي يخرج في زعمهم من سرداب سامرا ، وهذا من خرافاتهم وهداياهم وجهلهم وضلالهم وترهاتهم ، وسنزيد ذلك وضوحا في موضعه وإن شاء الله .

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين

ففي الحرم منها كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج في آخره ، وكان أول يوم لأهل العراق على أهل الشام ، ثم توافقوا يوماً آخر فحمل سفيان بن الأبرد أحد أمراء أهل الشام على

مينة ابن الأشعث فهزمها وقتل خلقاً كثيراً من القراء من أصحاب ابن الأشعث في هذا اليوم ، وخر الحجاج لله ساجداً بعد ما كان جثى على ركبتيه وسل شيئاً من سيفه وجعل يترحم على مصعب بن الزبير ويقول : ما كان أكرمه حتى صبر نفسه للقتل ، وكان من جملة من قتل من أصحاب ابن الأشعث أبو الطفيل بن عامر بن وائلة الليثي ، ولما فر أصحاب ابن الأشعث رجوع ابن الأشعث بمن بقي معه ومن تبعه من أهل البصرة ، فسار حتى دخل الكوفة فعمد أهل البصرة إلى عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وبايعوه ، فقاتل الحجاج خمس ليال أشد القتال ، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ، وتبعه طائفة من أهل البصرة ، فاستناب الحجاج على البصرة أيوب بن الحكم ابن أبي عقيل ، ودخل ابن الأشعث الكوفة فبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان . وتفاقم الأمر وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك ، واشتد الحال ، وتفرقت الكلمة جداً وعظم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع .

قال الواقدي : ولما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرة بعد مرة ، فقال القراء - وكان عليهم جبلة بن زحر - : أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منكم فقاتلوا عن دينكم ودنياكم . وقال سعيد بن جبيرة نحو ذلك ، وقال الشعبي : قاتلهم على جورهم واستذلهم الضعفاء وإماتهم الصلاة ، ثم حملت القراء - وهم العلماء - على جيش الحجاج حملة صادقة فبرعوا فيهم ثم رجعوا فاذا هم بمقدمهم جبلة بن زحر صريعاً ، فهدم ذلك فناداهم جيش الحجاج يا أعداء الله قد قتلنا طاغيتكم ، ثم حمل سفيان بن الأبرد وهو على خيل الحجاج على ميسرة ابن الأشعث وعليها الأبرد بن مرة التميمي ، فانهزموا ولم يقاتلوا كثير قتال ، فأنكر الناس منهم ذلك . وكان أمير ميسرة ابن الأشعث الأبرد شجاعاً لا يفر ، وظنوا أنه قد خامر ، فنقضت الصفوف وركب الناس بعضهم بعضاً ، وكان ابن الأشعث يمرض الناس على القتال ، فلما رأى ما الناس فيه أخذ من اتبعه وذهب إلى الكوفة فبايعه أهلها ، ثم كانت وقعة در الجماجم في شعبان من هذه السنة .

وقعة دير الجماجم

قال الواقدي : وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها فتلقوه وحفوا به ودخلوا بين يديه ، غير أن شرذمة قليلة أرادت أن تقاتله دون مطر بن ناجية نائب الحجاج فلم يمكنهم من ذلك ، فعدلوا إلى القصر ، فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة أمر بالسلام فنصبت على قصر الامارة فأخذه واستنزل مطر بن ناجية وأراد قتله فقال له : استبقني فاني خير من فرسانك ، فحبسه ثم استدعاه فأطلقه وبايعه واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة وانضم إليه من جاء من أهل البصرة ، وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب ، وأمر بالمسالح من كل جانب ، وحفظت

الثغور والطرق والمسالك . ثم إن الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية من البصرة في البر حتى مر بين القادسية والعذيب وبعث إليه ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس في خيل عظيمة من المصريين فنموا الحجاج من دخول القادسية ، فسار الحجاج حتى نزل دير قره ، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى نزل دير الجاجم ، ومعه جنود كثيرة ، وفيهم القراء وخلق من الصالحين ، وكان الحجاج بعد ذلك يقول : قاتل الله ابن الأشعث ، أما كان يزجر الطير حيث رآني قد نزلت دير قره ، ونزل هو بدير الجاجم . وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليتهم ، وقدم على الحجاج في غبون ذلك أمداد كثيرة من الشام ، وخنق كل من الطائفتين على نفسه وحول جيشه خندقاً يمنع به من الوصول إليهم ، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتلون قتلاً شديداً في كل حين ، حتى أصيب من رؤوس الناس خلق من قریش وغيرهم ، واستمر هذا الحال مدة طويلة ، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقالوا له : إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمايتهم ، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ومعهما جنود كثيرة جداً ، وكتب معهما كتاباً إلى أهل العراق يقول لهم : إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم ، وبعثت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام ، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت ، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان ، وقال في عهده هذا : فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج ونحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره .

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلى أهل العراق من عزله إن رضوا به شق عليه ذلك مشقة عظيمة جداً وعظم شأن هذا الرأي عنده ، وكتب إلى عبد الملك : يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى عنهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدم ذلك إلا جرأة عليك ، ألم تروى تسع بونوب أهل العراق مع الأشتر النخعي على ابن عفان ؟ فلما سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ وإن الحديد بالحديد يفلح ، كان الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك .

قال : فآبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق كما أمر ، فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله : يا معشر أهل العراق ، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وإنه يعرض عليكم كيت وكيت ، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال ، وقال محمد بن مروان : وأنا رسول

أخى أمير المؤمنين إليكم بذلك ، فقالوا : ننظر في أمرنا غداً ونزد عليكم الخبر عشية ، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك وإبقاء الأقطيات وإبرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج ، ففر الناس من كل جانب وقالوا : لا والله لا نقبل ذلك ، نحن أكثر عدداً وعدداً ، وهم في ضيق من الحال وقد حكنا عليهم وذلوا لنا ، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً . ثم جددوا خلع عبد الملك ونائبه ثانية ، واتفقوا على ذلك كلهم .

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمداً الخبر قالوا للحجاج : شأنك بهم إذا ، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين ، فكاننا إذا لقيه سلمنا عليه بالامرة ويسلم هو أيضاً عليهم بالامرة ، وتولى الحجاج أمر الحرب وتديريها كما كان قبل ذلك ، فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب ، فجعل الحجاج على ميمنته عبد الرحمن بن سليمان ، وعلى يسارته عمارة بن تميم اللخمي ، وعلى الخيل سفيان بن الأبرد وعلى الرجالة عبد الرحمن بن حبيب الحكمي . وجعل ابن الأشعث على ميمنته الحجاج بن حارثة الجشمي ، وعلى اليسرة الأبرد بن قرة التميمي ، وعلى الخيالة عبد الرحمن ابن عياش بن أبي ربيعة ، وعلى الرجالة محمد بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، وعلى القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي ، وكان فيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكيل بن زياد . وكان شجاعاً فاتكاً على كبر سنه . وأبو البحتري الطائي وغيرهم ، وجعلوا يقتتلون في كل يوم ، وأهل العراق تأتيهم الميرة من الرساتيق والأقاليم ، من العلف والطعام ، وأما أهل الشام الذين مع الحجاج فهم في أضييق حال من العيش ، وقلة من الطعام ، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه ، وما زالت الحرب في هذه المدة كلها حتى انسلخت هذه السنة وهم على حالهم وقتلهم في كل يوم أو يوم بعد يوم ، والدائرة لأهل العراق على أهل الشام في أكثر الأيام . وقد قتل من أصحاب الحجاج زياد بن غنم ، وكسر بسطام بن مصقلة في أربعة آلاف جفون سيوفهم واستقتلوا وكانوا من أصحاب ابن الأشعث . وفي هذه السنة كانت وفاة المهلب بن أبي صفرة ، وهو المهلب بن أبي صفرة ظالم أبو سعيد الأزدي أحد أشرف أهل البصرة ووجوههم ودهاتهم وأجوادهم وكرماهم ، ولد عام الفتح ، وكانوا ينزلون فيما بين عمان والبحرين ، وقدارتد قومه فقاتلهم عكرمة بن أبي جهل فظفر بهم ، وبعث بهم إلى الصديق وفيهم أبو صفرة وابنه المهلب غلام لم يبلغ الحنث ، ثم نزل المهلب البصرة وقد غزا في أيام معاوية أرض الهند سنة أربع وأربعين ، وولى الجزيرة لابن الزبير سنة ثمان وستين ، ثم ولى حرب الخوارج أول دولة الحجاج ، وقتل منهم في وقعة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة ، فعظمت منزلته عند الحجاج . وكان فاضلاً شجاعاً كريماً يحب المدح ، وله كلام حسن ، فنه : نعم الخصلة السخاء تستر عورة الشريف

وتلحق خسيصة الوضيع ، وتجبب المزهود فيه . وقال : يعجبني في الرجل خصلتان أن أرى عقله زائداً على لسانه ، ولا أرى لسانه زائداً على عقله

توفي المهلب غازياً بمرور الروذ وعمره ستة وسبعون سنة رحمه الله . وكان له عشرة من الولد وهم : يزيد ، وزباد ، والفضل ، ومدرک ، وحبيب ، والمغيرة ، وقبيصة ، ومحمد ، وهند ، وفاطمة . توفي المهلب في ذي الحجة منها ، وكان من الشجيمان وله مواقف حميدة ، وغزوات مشهورة في الترك والأزارقة وغيرهم من أنواع الخوارج ، وجعل الأمر من بعده ليزيد بن المهلب على إمرة خراسان فأمضى له ذلك الحجاج وعبد الملك بن مروان

اسماء بن خارجة الفزاري الكوفي

وكان جواداً ممدحا ، حكى أنه رأى يوماً شاباً على باب داره جالساً فسأله عن قعوده على بابه فقال : حاجة لا أستطيع ذكرها ، فبلغ عليه فقال : جارية رأيتها دخلت هذه الدار لم أر أحسن منها وقد خطفت قلبي معها ، فأخذ بيده وأدخله داره وعرض عليه كل جارية عنده حتى مرت تلك الجارية فقال : هذه ، فقال له : اخرج فاجلس على الباب مكاتبك ، فخرج الشاب فجلس مكانه ، ثم خرج إليه بعد ساعة والجارية معه قد ألبسها أنواع الحلى ، وقال له : مامننى أن أدفعها إليك وأنت داخل الدار إلا أن الجارية كانت لأختي ، وكانت ضنينة بها ، فاشتريتها لك منها بثلاثة آلاف ، وألبستها هذا الحلى ، فهي لك بما عليها ، فأخذها الشاب وانصرف .

المغيرة بن المهلب

ابن أبي صفرة ، كان جواداً ممدحا شجاعا ، له مواقف مشهورة .

الحارث بن عبدالله

ابن ربيعة الخزومي المعروف بقباع ، ولى إمرة البصرة لابن الزبير .

محمد بن اسامة بن زيد بن حارثة

كان من فضلاء أبناء الصحابة وأعقلهم ، توفي بالمدينة ودفن بالبقيع .

عبدالله بن ابي طلحة بن ابي الأسود

والد الفقيه إسحاق حملت به أمه أم سليم ليلة مات ابنها فأصبح أبو طلحة فأخبر النبي (س) ،

فقال (س) : « عرستم برك الله لكما في ليلتكما » . ولما ولد حنكه بتمرات .

عبد الله بن كعب بن مالك

كان قائد كعب حين عمى ، له روايات ، توفي بالمدينة هذه السنة .

عفان بن وهب

أبو أيمن الخولاني المصري له صحبة ورواية، وغزا المغرب، وسكن مصر وبها مات.

جميل بن عبدالله

ابن معمر بن صباح بن ظبيان بن الحسن بن ربيعة بن حرام بن ضبة بن عبيد بن كثير بن عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سرهد بن أسلم بن الحاف بن قضاة. أبو عمرو الشاعر صاحب بئينة، كان قد خطبها فنمت منه، فتغزل فيها واشتهر بها، وكان أحد عشاق العرب، كانت إقامته بوادي القرى، وكان عفيفاً حياً ديناً شاعراً إسلامياً، من أفصح الشعراء في زمانه، وكان كثير عزة راوئيه، وهو يروي عن هذبة بن خثرم عن الخطيئة عن زهير بن أبي سلمى. وابنه كعب، قال كثير عزة كان جميل أشعر العرب حيث يقول :-

وأخبرتني أن تباه منزل * لليلي إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت * فما للنوى ترمي بليلى المراسيا
ومنها قوله وما زلت بي يابن حتى لو اني * من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
وما زادني الواشون إلا صابة * ولا كثرة الناهين إلا تماديا
وما أحدث النأي المفرق بيننا * سلوا ولا طول اجتماع تقاليا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أني * أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
لقد خفت أن ألقى المنية بفتة * وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وله أيضا إني لأحفظ غيبكم ويسرني * لو تعلمين بصلاح أن تذكرني
إلى أن قال ما أنت والوعد الذي تعديني * إلا كبرق سحابة لم تنظر
وقوله وروى لعمرو: ما زلت ابني الحى أتبع فلهم * حتى دفعت إلى ربيعة هودج
ابن أبي ربيعة. فدنوت مخفياً ألم بينها * حتى ولجت إلى خفي الموج
فيما نقله ابن عساكر قالت وعيش أخي ونعمة والدي * لأنهن الحى إن لم تخرج
فتناولت رأسي لتعرف مسه * بمخضب الاطراف غير مشنج
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت * فعلت أن بينها لم تخرج
فلنمت فاهاً آخذاً بقرونها * فرشفت ريقاً بارداً منتلج

قال كثير عزة: لقيني جميل بئينة فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من عند هذه الحبيبة، فقال
وإلى أين؟ فقلت: وإلى هذه الحبيبة - يعني عزة - فقال: أقسمت عليك لما رجعت إلى بئينة
فواعدتها لي فان لي من أول الصيف ما رأيته، وكان آخر عهدي بها بوادي القرى، وهي تنسلي

وأما ثوباً فتحادثنا إلى الغروب ، قال كثير : فرجعت حتى أنخت بهم . فقال أبو بئينة : ما ردك يا ابن أخي ؟ فقلت : أبيات قلتها فرجعت لأعرضها عليك . فقال : وما هي ؟ فأنشدته وبئينة تسمع من وراء الحجاب : -

فقلتُ لها يا عزُّ أرسلِ صاحبي * إليك رسولاً والرسولُ موكلُ
بأن تجعلي بيني وبينك موعداً * وأن تأمريني ما الذي فيه أفعُلُ
وآخرُ عهدي منك يومَ لقيتني * بأسفلِ وادي الدومِ والثوبُ يفسلُ

فلما كان الليل أقبلت بئينة إلى المكان الذي واعدته إليه ، وجاء جميل وكنت معهم فلما رأيت ليلة أعجب منها ولا أحسن مناديات ، وانفض ذلك المجلس وما أدري أيهما أفهم لما في ضمير صاحبه منه .

وذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدي أنه دخل على جميل وهو يموت فقال له . ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ، ولم يزن قط ، ولم يسرق ولم يقتل النفس وهو يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : أظنه قد نجا وأرجو له الجنة ، فن هذا ؟ قال : أنا ، فقلت الله : ما أظنك سلمت وأنت تشيب بالنساء منذ عشرين سنة ، ببئينة . فقال : لا نالتني شفاعة محمد (س) ، وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها بريئة ، قال : فما برحنا حتى مات . قلت : كانت وفاته بمصر لأنه كان قد قدم على عبد العزيز بن مروان فأكرمه وسأله عن حبه بئينة فقال : شديداً ، واستنشدته من أشعاره ومدائحها فأنشده فوعده أن يجمع بينه وبينها فعاجنته المنية في سنة ثنتين وثمانين رحمه الله آمين .

وقد ذكر الأصمعي عن رجل أن جميلاً قال له : هل أنت مبلغ عني رسالة إلى حي بئينة ولك ما عندي ؟ قال نعم ، قال : إذا أنامت فاركب ناقتي والبس حلتى هذه وأمره أن يقول أبياتاً منها قوله قومي بئينة فأندي بعويل • وابي خليلاً دون كل خليل فلما انتهى إلى حبيهم أنشد الأبيات فخرجت بئينة كأنها بدرسرى في جنة وهي تتثنى في مرطها فقالت له : ويحك إن كنت صادقاً فقد قتلتنى ، وإن كنت كاذباً فقد فضحتني . فقلت : بلى والله صادق وهذه حلته وناقته ، فلما تحققت ذلك أنشدت أبياتاً ترضيه بها وتتأسف عليه فيها ، وأنه لا يطيب لها العيش بعده ، ولا خير لها في الحياة بعد فقده ، ثم ماتت من ساعتها : قال الرجل : فما رأيت أكثر باكية ولا باكية من يومئذ .

وروى ابن عساكر عنه أنه قيل له بدمشق : لو تركت الشعر وحفظت القرآن ؟ فقال : هذا أنس بن مالك يخبرني عن رسول الله (س) ، أنه قال : « إن من الشعر لحكمة »

عمر بن عبید اللہ

ابن معمر بن عثمان أبو حفص القرشي النخعي أحد الأجراد والأمرأه الأبحاد ، فتحت علی یدیه بلدان كثيرة ، وكان نائباً لابن الزبير علی البصرة ، وقد فتح كابل مع عبد الله بن خازم ، وهو الذي قتل قطري بن الفجاءة ، روى عن ابن عمر وجابر وغيرهما ، وعن عطاء بن أبي رباح ، وابن عون ، ووفد علی عبد الملك فتوفى بدمشق سنة ثنتين وثمانين . قاله المدائني . وحكى أن رجلاً اشترى جارية كانت تحسن القرآن والشعر وغيره فأحبها حباً شديداً وأنفق عليها ماله كله حتى أفلس ولم يبق له شيء سوى هذه الجارية ، فقالت له الجارية : قد أرى ما بك من قلة الشيء . فلو بعنتى وانتفعت بمنى صلح حالك ، فباعها المعمر بن عبید الله هذا - وهو يومئذ أمير البصرة - بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال ندم وندمت الجارية ، فأشارت تخاطب سيدها بأبيات شعر وهى : -

هنيئاً لك المال الذى قد أخذته * ولم يبق فى كفى الا تفكرى
أقول لى نفسى وهى فى كرب عيشة * أقلى فقد بان الخليط أو اكرى
إذا لم يكن فى الأمر عندك حيلة * ولم تجدى بدأ من الصبر فاصبرى

فأجابها سيدها فقال : -

ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن * لفرقتنا شىء سوى الموت فاصبرى
أوب مجزون من فراقك موجع * أناجى به قلباً طويلاً التذكر
عليك سلام لا زيارة بيننا * ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فلما سمعها ابن معمر قد شببت قال : والله لا فرقت بين محبين أبداً ، ثم أعطاه المال - وهو مائة ألف - والجارية لما رأى من توجعها على فراق كل منهما صاحبه ، فأخذ الرجل الجارية ومنها وانطلق . توفى عمر بن عبید الله بن معمر هذا بدمشق بالطاعون ، وصلى عليه عبد الملك بن مروان ، ومشى فى جنازته وحضر دفنه وأثنى عليه بعد موته ، وكان له من الولد طلحة وهو من سادات قريش تزوج فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر على صداق أربعين ألف دينار ، فأولدها إبراهيم ورملة ، فتزوج رملة إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس على صداق مائة ألف دينار رحمهم الله .

كميل بن زياد

ابن نهيك بن خيم النخعي الكوفي . روى عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وأبى هريرة ، وشهد مع على صفين ، وكان شجاعاً فاتكاً ، وزاهداً عابداً ، قتل الحجاج فى هذه السنة ، وقد عاش مائة سنة قتلها صبراً بين يديه ، وإنما تقم عليه لأنه طلب من عثمان بن عفان القصاص من لطمه لطمها إياه . فلما أمكنه عثمان من نفسه عفا عنه ، فقال له الحجاج : أو مثلك يسأل من أمير المؤمنين القصاص؟

ثم أمر ف ضربت عنقه ، قالوا: و ذكر الحجاج عليا في غبون ذلك فنال منه وصلى عليه كميل ، فقال له الحجاج : والله لا بعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه أنت ، فأرسل إليه ابن آدم ، وكان من أهل حمص ، ويقال أبا الجهم بن كنانة ف ضرب عنقه ، وقد روى عن كميل جماعة كثيرة من التابعين وله الأثر المشهور عن علي بن أبي طالب الذي أوله «القلوب أوعية تغيرها أوعاها» وهو طويل قد رواه جماعة من الحفاظ الثقات وفيه مواعظ وكلام حسن رضى الله عن قائله .

ذاذان ابو عمرو الكندي

أحد التابعين كان أولا يشرب المسكر و يضرب بالطنبور ، فرزقه الله التوبة على يد عبد الله ابن مسعود وحصلت له إنابة ورجوع إلى الحق ، وخشية شديدة ، حتى كان في الصلاة كأنه خشبة . قال خليفة : وفيها توفي زر بن حبيش أحد أصحاب ابن مسعود وعائشة ، وقد أتت عليه مائة وعشرون سنة . وقال أبو عبيد : مات سنة إحدى وثمانين ، وقد تقدمت له ترجمة (شقيق بن سلمة) أبو وائل ، أدرك من زمن الجاهلية سبع سنين ، وأسلم في حياة النبي .

ام الدرداء الصغري

اسمها هجيمة ويقال هجيمة تابعة عابدة عالمة فقيهة كان الرجال يقرؤن عليها ويتفقون في الحائط الشمالى بجامع دمشق ، وكان عبد الملك بن مروان يجلس في حلقتها مع المتفهمة يشتغل عليها وهو خليفة ، رضى الله عنها .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

استهلت هذه السنة والناس متوافقون لقتال الحجاج وأصحابه بدير قرة ، وابن الأشعث وأصحابه بدير الجاجم ، والبارزة في كل يوم بينهم واقعة ، وفي غالب الأيام تكون النصر لأهل العراق على أهل الشام ، حتى قيل إن أصحاب ابن الأشعث وهم أهل العراق كسروا أهل الشام وهم أصحاب الحجاج بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم ، ومع هذا فالحجاج ثابت في مكانه صابر ومصابر لا يتزعزع عن موضعه الذى هو فيه ، بل إذا حصل له ظفر في يوم من الأيام يتقدم بجيشه إلى نحو عدوه ، وكان له خبرة بالحرب ، وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القراء ، لأن الناس كانوا تبعاً لهم ، وهم الذين يحرضونهم على القتال والناس يقتدون بهم ، فصبر القراء لحملة جيشه ، ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم ، وما انفك حتى قتل منهم خلقا كثيراً ، ثم حمل على ابن الأشعث وعلى من معه من الجيش فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه ، وهرب ابن الأشعث بين أيديهم ومعه فل قليل من الناس ، فأتبعه الحجاج جيشا كثيفا مع عمارة بن غنم اللخمي ومعه محمد بن الحجاج والامرة لعمارة ، فساقوا وراءهم يطردونهم لعلهم يظفرون به قنلا أو أسرا ، فما زال يسوق ويخترق الأقاليم

والسكر والرسابق ، وهم في أثره حتى وصل إلى كرمان ، واتبعه الشاميون فزلوا في قصر كان فيه أهل
المرق قبلهم ، فاذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل السكوفة من أصحاب ابن الأشعث الذين فروا
معه من شعر أبي خلدة اليشكري يقول :

أيا كلفاً ويا حزنًا جميعاً * ويا حزنَ الفؤادِ لما لقينا
تركنا الدينَ والدنيا جميعاً * وأسلمنا الحلائلَ والبنيانا
فما كنا أناساً أهلَ دنيا * فممنعها ولولم نرجُ دنيا
تركنا دُورنا لطفامِ عكِّ * وأنباطِ القرى والأشعرينا

ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه من الفل إلى بلاد رتبيل ملك الترك ، فأكرمه رتبيل
وأنزله عنده وأمنه وعظمه

قال الواقدي : ومر ابن الأشعث وهو ذاهب إلى بلاد رتبيل على عامل له في بعض المدن كان
ابن الأشعث قد استعمله على ذلك عند رجوعه إلى العراق ، فأكرمه ذلك العامل وأهدى إليه هدايا
وأنزله ، فعل ذلك خديعة به ومكرا ، وقال له : ادخل إلى عندي إلى البلد لتحصن بها من عدوك
ولكن لا تدع أحداً ممن معك يدخل المدينة ، فأجابته إلى ذلك ، وإنما أراد المكر به ، فمنعه أصحابه
فلم يقبل منهم ، ففترق عنه أصحابه ، فلما دخل المدينة وثب عليه العامل فسكده وأوثقه بالحديد وأراد
أن يتخذ به يداً عند الحجاج ، وقد كان الملك رتبيل سر بقدم ابن الأشعث ، فلما بلغه ما حدث له
من جهة ذلك العامل بمدينة بست ، سار حتى أحاط ببست ، وأرسل إلى عاملها يقول له : والله لئن
آذيت ابن الأشعث لا أبرح حتى أستزلك وأقتل جميع من في بلدك ، فخافه ذلك العامل وسير إليه
ابن الأشعث فأكرمه رتبيل ، فقال ابن الأشعث لرتبيل : إن هذا العامل كان عاملي ومن جهتي ، فغدر
بي وفعل مارأيت ، فأذن لي في قتله ، فقال : قد أمنتك . وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن بن عياش
ابن أبي ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان هو الذي يصلي بالناس هناك في بلاد رتبيل ، ثم
إن جماعة من الفل الذين هربوا من الحجاج اجتمعوا وساروا وراء ابن الأشعث ليدركوه فيكونوا معه
- وهم قريب من ستين ألفا - فلما وصلوا إلى سجستان وجدوا ابن الأشعث قد دخل إلى عند رتبيل
فتغلبوا على سجستان وعذبوا عاملها عبد الله بن عامر النعار وإخوته وقرابته ، واستحوذوا على ما فيها
من الأموال ، وانتشروا في تلك البلاد وأخذوها ، ثم كتبوا إلى ابن الأشعث : أن اخرج إلينا حتى
نكون معك ننصرك على من يخالفك ، ونأخذ بلاد خراسان ، فإن بها جندا ومنعة كثيرة منا ، فنكون
بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك ، فترى بعد ذلك رأينا نخرج إليهم ابن الأشعث وسار بهم
قليلا إلى نحو خراسان فاعتزله شردمة من أهل العراق مع عبيد الله بن سمرة ، فقام فيهم ابن الأشعث

خطيباً فذكر غدرهم ونكولهم عن الحرب ، وقال : لا حاجة لي بكم ، وأنا ذاهب إلى صاحبي رتبيل فأكون عنده . ثم انصرف عنهم وتبعه طائفة منهم وبقى معظم الجيش . فلما انفصل عنهم ابن الأشعث بايعوا عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة الهاشمي ، وساروا معه إلى خراسان فخرج إليهم أميرها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، فمنعهم من دخول بلاده ، وكتب إلى عبد الرحمن بن عياش يقول له : إن في البلاد مقسماً فاذهب إلى أرض لعن بها سلطان فاني أكره قتالك ، وإن كنت تريد مالا بعثت إليك . فقال له : إنا لم نجئ لقتال أحد ، وإنما جئنا نستريح ونريح خيلنا ثم نذهب وليست بنا حاجة إلى شيء مما عرضت . ثم أقبل عبد الرحمن على أخذ الخراج مما حوله من البلاد من كور خراسان ، فخرج إليه يزيد بن المهلب ومعه أخوه المفضل في جيوش كثيفة ، فلما صادفهم اقتتلوا غير كثير ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن عياش ، وقتل يزيد منهم مقتلة كبيرة ، واحتار ما في معسكره ، وبعث بالأسارى وفيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص إلى الحجاج ، ويقال إن محمد بن سعد قال ليزيد بن المهلب : أسألك بدعوة أبي لا بيبك لما أطلقتني ، فأطلقه .

قال ابن جرير : ولهذا الكلام خبر فيه طول ، ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم ، وقد كان الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث نادى مناديه في الناس : من رجع فهو آمن ومن لحق بمسلم بن قتيبة بالرى فهو آمن ، فلحق بمسلم خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث فأنهم الحجاج ، ومن لم يلحق به شرع الحجاج في تتبعهم ، فقتل منهم خلقاً كثيراً حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبير على ماسياتي بيانه

وكان الشعبي من جملة من صار إلى مسلم بن قتيبة فذكره الحجاج يوماً فقيل له . إنه سار إلى مسلم بن قتيبة ، فكتب إلى مسلم : أن ابعث لي بالشعبي قال الشعبي : فلما دخلت عليه سلمت عليه بالأمره ثم قلت : أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق ، وإيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق كأننا في ذلك ما كان ، قد والله توردنا عليك ، وخرجنا وجهدنا كل الجهد فما ألونا ، فما كنا بالأقوياء الفجرة ، ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وماجرت إليك أيدينا ، وإن عفوت عنا فبحلمك ، وبعذ فلك الحجة علينا . فقال الحجاج : أنت والله يا شعبي أحب إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دماننا ثم يقول : ما فعلت ولا شهدت ، قد أمنت عندنا يا شعبي . قال : فانصرفت فلما مشيت قليلاً قال : هلم يا شعبي ، قال : فوجل لذلك قلبي ، ثم ذكرت قوله قد أمنت يا شعبي فاطمأنت نفسي ، فقال : كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي ؟ قال : وكان لي مكرماً قبل الخروج عليه . فقلت : أصلح الله الأمير ، قد اكتحلتم بمسك السهر ، واستوعرت السهل ، واستوخمت الجنباب ، واستحلست الخوف ، واستحللت الهمة ،

وفقدت صالح الاخوان ، ولم أجد من الأمير خلفا . قال انصرف ياشعبي ، فانصرفت . ذكر ذلك ابن جرير وغيره . ورواه أبو مخنف عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي عن الشعبي .

وروى البيهقي أنه سأل عن مسألة في الفرائض وهي أم زوج وأخت وما كان يقوله فيها الصديق وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ، وكان لكل منهم قول فيها ، فنقل ذلك كله الشعبي في ساعة فاستحسن قول علي وحكم بقول عثمان ، وأطلق الشعبي بسبب ذلك . وقيل إن الحجاج قتل خمسة آلاف أسير ممن سيرهم إليه يزيد بن المهلب كما تقدم ذلك ، ثم سار إلى الكوفة فدخلها فجعل لا يبايع أحداً من أهلها إلا قال : أشهد علي نفسك أنك قد كفرت ، فإذا قال نعم بايعه ، وإن أبي قتله ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أبي أن يشهد علي نفسه بالكفر ، قال فأتى برجل فقال الحجاج : ما أظن هذا يشهد علي نفسه بالكفر لصلاحه ودينه . - وأراد الحجاج مخادعته - فقال : أخادعي أنت عن نفسي ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون وهامان ونمرود . قال : فضحك الحجاج وخلي سبيله .

وذكر ابن جرير من طريق أبي مخنف أن أعشى همدان أتى به إلى الحجاج - وكان قد عمل قصيدة هجا فيها الحجاج وعبد الملك بن مروان ويمدح فيها ابن الأشعث وأصحابه - فاستنشده إياها فأنشده قصيدة طويلة دالية ، فيها مدح كثير لعبد الملك وأهل بيته ، فجعل أهل الشام يقولون : قد أحسن أيها الأمير ، فقال الحجاج : إنه لم يحسن ، إنما يقول هذا مصانعة ، ثم ألح عليه حتى أنشده قصيدته الأخرى ، فلما أنشدها غضب عند ذلك الحجاج وأمر به فضربت عنقه صبراً بين يديه . واسم الأعشى هذا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث أبو المصباح الهمداني الكوفي الشاعر ، أحد النصحاء البلغاء المشهورين ، وقد كان له فضل وعبادة في مبتداه ، ثم ترك ذلك وأقبل على الشعر فعرف به ، وقد وفد على النعمان بن بشير وهو أمير بجمص فامتدحه ، وكان محصوله في رحلته إليه منه ومن جند حمص أربعين ألف دينار ، وكان زوج أخت الشعبي ، كما أن الشعبي كان زوج أخته أيضاً ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث ، قتلته الحجاج كما ذكرنا رحمه الله .

وقد كان الحجاج وهو مواقف لابن الأشعث بمث كينا يأتون جيش ابن الأشعث من ورائه ، ثم تواقف الحجاج وابن الأشعث وهرب الحجاج بمن معه وترك معسكره ، فجاء ابن الأشعث فحاز ما في المعسكر وبات فيه ، فجاءت السرية إليهم ليلاً وقد وضعوا أسلحتهم فالوا عليهم ميلة واحدة ، ورجع الحجاج بأصحابه فأحاطوا بهم فاقتتلوا قتلاً شديداً ، وقتل من أصحاب ابن الأشعث خلق كثير وغرق خلق كثير منهم في دجلة ودجيل ، وجاء الحجاج إلى معسكرهم فقتل من وجدته فيه ، فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف ، منهم جماعة من الرؤساء والأعيان ، واحتازوه بكاله ، وانطلق ابن الأشعث هارباً في ثلاثمائة فركبوا دجيلاً في السفن وعقروا دوابهم وجازوا إلى البصرة ، ثم ساروا من هنالك

إلى بلاد الترك، وكان في دخوله بلاد رقبيل ما تقدم، ثم شرع الحجاج في تتبع أصحاب ابن الأشعث فجعل يقتلهم مثنى وفرادى، حتى قيل إنه قتل منهم بين يديه صبراً مائة ألف وثلاثين ألفاً، قاله النضر ابن شميل عن هشام بن حسان، منهم محمد بن سعد بن أبي وقاص، وجماعات من السادات الأخيار، والعلماء الأبرار، حتى كان آخرهم سعيد بن جبير رحمهم الله ورضى عنهم كما سيأتى ذلك في موضعه.

بناء واسط

قال ابن جرير: وفي هذه السنة بنى الحجاج واسط، وكان سبب بنائه لها أنه رأى راهباً على أنان قد أجاز دجلة، فلما مر بموضع واسط وقفت أنانه فبالت، فترل عنها وعمد إلى موضع بولها فاحتفره ورمى به في دجلة، فقال الحجاج: على به، فأتى به فقال له: لم صنعت هذا؟ قال: إنا نجد في كتبنا أنه بنى في هذا الموضع مسجد يعبد الله فيه مادام في الأرض أحد بوحده. فعند ذلك اختط الحجاج مدينة واسط في ذلك المكان وبنى المسجد في ذلك الموضع. وفيها كانت غزوة عطاء بن رافع صقلية. ومن توفى فيها من الأعيان:

عبد الرحمن بن جعيرة

الخلواتى المصرى، روى عن جماعة من الصحابة وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد جمع له بين القضاء والقصاص وبيت المال، وكان رزقه في العام ألف دينار، وكان لا يدخر منها شيئاً.

طارق بن شهاب

ابن عبد تميم الأحسى ممن رأى النبي صلى الله عليه وسلم وغزا في خلافة الصديق وعمر رضى الله عنهما بضعا وأربعين غزاة، توفى بالمدينة هذه السنة

عبيد الله بن عدي

ابن أنجيار أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وحدث عن جماعة من الصحابة عبد الله بن قيس بن مخزوم، كان قاضى المدينة. وكان من قهواء قريش وعلماهم وأبوه عدى ممن قتل يوم بدر كافراً وتوفى بها في هذه السنة مرتد بن عبد الله أبو الخير الزنى. وفيها فقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع الأشعث، منهم من هرب ومنهم من قتل في المعركة، ومنهم من أسر فضرب الحجاج عنقه، ومنهم من تتبعه الحجاج حتى قتله، وقد سمي منهم خليفة بن خياط طائفة من الأعيان، فمنهم مسلم بن يسار المزنى، وأبو مرانة المحلى قتل، وعقبة بن عبد الغفار قتل، وعقبة بن وشاح قتل، وعبد الله بن خالد الجهضمي قتل، وأبو الجوزاء الربيعي قتل، والنضر بن أنس، وعمران والد أبي حمزة الضبي، وأبو المنهال سيار بن سلامة الرياحي، ومالك بن دينار، ومرة بن ذباب الهدادى وأبو نجيد الجهضمي، وأبو سبيح الهناتى، وسعيد بن أبي الحسن، وأخوه الحسن البصرى قال أيوب:

قيل لابن الأشعث : إن أحببت أن يقتل الناس حولك كما قتلوا حول هودج غائشة يوم الجمل فأخرج الحسن ملك ، فأخرجه . ومن أهل الكوفة سعيد بن جبير ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعبد الله بن شداد ، والشعبي ، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، والمعروور بن سويد ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، وأبو البختری ، وطلحة بن مصرف ، وزبيد بن الحارث الياميان ، وعطاء بن السائب . قال أيوب : فما منهم صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه ، ولا نجأ أحد منهم إلا حمد الله الذي سلمه . ومن أعيان من قتل الحجاج عمران بن عصام الضبعي ، والد أبي حنيفة ، كان من علماء أهل البصرة ، وكان صالحاً عابداً ، أتى به أسيراً إلى الحجاج فقال له : أشهد على نفسك بالكفر حتى أطلقك ، فقال : والله إني ما كفرت بالله منذ آمنت به ، فأمر به فضربت عنقه . عبد الرحمن بن أبي ليلى ، روى عن جماعة من الصحابة ، ولأبيه أبي ليلى صحبة . أخذ عبد الرحمن القرآن عن علي بن أبي طالب ، خرج مع ابن الأشعث فأتى به الحجاج فضرب عنقه بين يديه صبراً .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين

قال الواقدي : فيها افتتح عبد الله بن عبد الملك المصيبة ، وفيها غزا محمد بن مروان ارمينية فقتل منهم خلقاً وصرف كنائسهم وضياعهم وتسمى سنة الحريق ، وفيها استعمل الحجاج علي فارس محمد ابن القاسم الثقفي ، وأمره بقتل الأكراد . وفيها ولي عبد الملك الأمكندي عياض بن غنم البجيني وعزل عنها عبد الملك بن أبي الكنود الذي كان قد وليها في العام الماضي . وفيها افتتح موسى بن نصير طائفة من بلاد المغرب من ذلك بلد أرومة ، وقتل من أهلها بشراً كثيراً جداً ، وأسرى نحواً من خمسين ألفاً . وفيها قتل الحجاج أيضاً جماعة من أصحاب ابن الأشعث ، منهم :

أيوب بن القرية

وكان فصيحاً بليغاً واعظاً ، قتله صبراً بين يديه ، ويقال إنه ندم على قتله . وهو أيوب بن زيد ابن قيس أبو سليمان الهلالي المعروف بابن القرية . وعبد الله بن الحارث بن نوفل . وسعد بن إلياس الشيباني ، وأبو غنينا الخولاني . له صحبة ورواية ، سكن حمص وبها توفي وقد قارب المائة سنة . عبد الله ابن قتادة ، وغير هؤلاء جماعة منهم من قتلهم الحجاج ، ومنهم من توفي . أبو زرعة الجذامي الفلسطيني ، كان ذا منزلة عند أهل الشام ، تخاف منه معاوية فهم منه ذلك أبو زرعة فقال يا أمير المؤمنين لا تهمم ركناً بنيه ، ولا تحزن صاحباً سررته ، ولا تشمت عدواً كبتته ، فكف عنه معاوية .

وفيها توفي عتبة بن منذر السلمي صحابي جليل ، كان يعد في أهل الصفة . عمران بن حطان الخارجي ، كان أولاً من أهل السنة والجماعة فتزوج امرأة من الخوارج حسنة جميلة جداً فأحبها . وكان هو دميم الشكل ، فأراد أن يردّها إلى السنة فأبّت فارتد معها إلى منهبها . وقد كان من الشعراء

الملتقين ، وهو انقائل في قتل علي وقاتله :

يا ضربة من تقى ما أراد بها * إلا ليبلغ من ذى العرش رضواناً
إني لأذكره يوماً فأحسبه * أوفى البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم * لم يخلطوا دينهم بغيراً وعدوانا
وقد كان الثورى يمثل بأبياته هذه في الزهد في الدنيا وهي قوله : -

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها * على أنهم فيها عرابة وجوع
أراها وإن كانت محبباً فأنها * سحابة صيف عن قليل تقشع
كركب قضا حاجتهم وترحلوا * طريقهم بادي العلامة مهيع

مات عمران بن حطان سنة أربع وثمانين . وقد رد عليه بعض العلماء في أبياته المتقدمة في قتل

على رضى الله عنه بأبيات على قافيتها ووزنها :

بل ضربة من شقى ما أراد بها * إلا ليبلغ من ذى العرش خسرانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه * أشقى البرية عند الله ميزانا

روح بن زنباع الجذامى

كان من أمراء الشام وكان عبد الملك يستشيريه في أموره .

وفيها كان مهلك عبد الرحمن بن الأشعث الكندى وقيل في التي بعدها فانه أعلم . وذلك أن
الحجاج كتب إلى رتبيل ملك الترك الذى لجأ إليه ابن الأشعث يقول له : والله الذى لا إله إلا هو لئن
لم تبعث إلى بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتل ، ولا أخرج منها . فلما تحقق الوعيد من
الحجاج استشار في ذلك بعض الأمراء فأشار عليه بتسليم ابن الأشعث إليه قبل أن يخرب الحجاج
دياره ويأخذ عامة أمصاره ، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتل عشر سنين ، وأن لا يؤدى
في كل سنة منها إلا مائة ألف من الخراج ، فأجابته الحجاج إلى ذلك ، وقيل إن الحجاج وعده أن
يطلق له خراج أرضه سبع سنين ، فعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث فقتل ابنه أمر بضرب عنقه
صبراً بين يديه ، وبعث برأسه إلى الحجاج ، وقيل : بل كان ابن الأشعث قد مرض مرضاً شديداً
فقتله وهو بأخر رمق ، والمشهور أنه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم في الأصفاة وبعث بهم
مع رسل الحجاج إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرجح ، صعد ابن الأشعث وهو
مقيد بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل موكل به لئلا يفر ، وألقى نفسه من ذلك القصر وسقط معه
الموكل به فماتا جميعاً ، فبعث الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزده ، وقتل من معه من أصحاب ابن
الأشعث وبعث برؤوسهم إلى الحجاج فأمر فطيف برأسه في العراق ، ثم بعثه إلى عبد الملك فطيف

رأسه في الشام ، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هنالك ، ثم دفنوا رأسه بمصر
وجثته بالرجح ، وقد قال بعض الشعراء في ذلك : -

هبّاتٍ موضعُ جثّةٍ من رأسها • رأسٌ بمصرَ وجثّةٌ بالرجحِ
وإنما ذكر ابن جرير مقتل ابن الأشعث في سنة خمس وثمانين فأنه أعلم .

وعبد الرحمن هذا هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس ، ومنهم من يقول عبد الرحمن بن قيس بن
محمد بن الأشعث بن قيس الكندي الكوفي ، قد روى له أبو داود والنسائي عن أبيه عن جده عن ابن
مسعود: حديث « إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقول ما قال البائع أو تشاركاه . وعنه أبو العميس
ويقال إن الحجاج قتله بعد التسعين سنة فأنه أعلم . والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالامارة
وليس من قريش ، وإنما هو كندی من اليمن ، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الامارة لا تكون
إلا في قريش ، واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك ، حتى ان الأنصار سألوا أن يكون منهم
أمير مع أمير المهاجرين فأبى الصديق عليهم ذلك ، ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عباد الذي دعا
إلى ذلك أولاً ثم رجع عنه ، كما قررنا ذلك فيما تقدم . فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالامارة
على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويباعون لرجل كندی ببيعة لم يتفق عليها
أهل الحل والعقد ؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلته نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير فانا لله
وإننا إليه راجعون

أيوب بن القرية

وهي أمه واسم أبيه يزيد بن قيس بن زرارة بن مسلم النمرى الهلالي ، كان أعرابياً أمياً ، وكان
يضرب به المثل في فصاحته وبيانه وبلاغته ، صحب الحجاج ووفد على عبد الملك ، ثم بعثه رسولا إلى
ابن الأشعث فقال له ابن الأشعث : لئن لم تقم خطيباً فتخلع الحجاج لأضرب عنقك ، ففعل وأقام
عنده ، فلما ظهر الحجاج استحضره وجرت له معه مقامات ومقالات في الكلام ، ثم آخر الأمر ضرب
عنقه وندم بعد ذلك على ما فعل من ضرب عنقه ، ولكن ندم حيث لا ينفعه الندم . كما قيل : وجادت
بوصل حين لا ينفع الوصل • وقد ذكره ابن عساکر في تاريخه وابن خلكان في الوفيات وأطال
ترجمته وذكر فيها أشياء حسنة ، قال : والقرية بكسر القاف وتشديد الياء وهي جدته واسمها جماعة
بنت جشم قال ابن خلكان : ومن الناس من أنكر وجوده ووجود مجنون ليلي ، وابن أبي العقب
صاحب الملحمة ، وهو يحيى بن عبد الله بن أبي العقب والله أعلم .

روح بن زنباع

ابن سلامة الجندامي أبو زرعة ويقال أبو زنباع الدمشقي داره بدمشق في طرف البزوريين عند دار

ابن عقب صاحب الملحمة . وهو تابعي جليل ، روى عن أبيه - وكانت له صحبة - وتميم الداري ، وعبادة بن الصامت ومعاوية وكعب الأجدار وغيرهم ، وعنه جماعة منهم عبادة بن نسي . كان روح عند عبد الملك كالوزير لا يكاد يفارقه ، وكان مع أبيه مروان يوم مرج راهط ، وقد أمره يزيد بن معاوية على جند فلسطين ، وزعم مسلم بن الحجاج أن روح بن زنباع كانت له صحبة ، ولم يتابع مسلم على هذا القول ، والصحيح أنه تابعي وليس بصحابي ، ومن ما تراه التي تفرد بها أنه كان كلما خرج من الحمام يمتق نسة ، قال ابن زيد : مات سنة أربع وثمانين بالاردن ، وزعم بعضهم أنه بقي إلى أيام هشام بن عبد الملك ، وقد حج مرة فترزل على ماء بين مكة والمدينة فأمر فأصلحت له أطعمة مختلفة الألوان ، ثم وضعت بين يديه ، فبينما هو يأكل إذ جاء راع من الرعاة برد الماء ، فدعا روح بن زنباع إلى الأكل من ذلك الطعام ، فجاء الراعي فنظر إلى طعامه وقال : إني صائم ، فقال له روح : في مثل هذا اليوم الطويل الشديد الحر تصوم يراعي ؟ فقال الراعي : أفأغبن أيامي من أجل طعامك ؟ ثم إن الراعي ارتاد لنفسه مكاناً فترزه وترك روح بن زنباع ، فقال روح بن زنباع :-

لقد ضننت بأيامك يراعي * إذ جاد بها روح بن زنباع

ثم إن روحا بكى طويلاً وأمر بتلك الأطعمة فرفعت ، وقال : انظروا هل تجدون لها آكلاً من هذه الأعراب أو الرعاة ؟ ثم سار من ذلك المكان وقد أخذ الراعي بمجامع قلبه وصغرت إليه نفسه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

فيها كما ذكر ابن جرير كان مقتل عبد الرحمن بن الأشعث فآله أعلم ، وفيها عزل الحجاج عن إمرة خراسان يزيد بن المهلب وولى عليها أخاه المفضل بن المهلب ، وكان سبب ذلك أن الحجاج وفد مرة على عبد الملك فلما انصرف مر بدير فقيل له إن فيه شيخاً كبيراً من أهل الكتاب عالماً ، فدعى فقال : يا شيخ هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه وما نحن فيه ؟ قال : نعم . قال له فما تجدون صفة أمير المؤمنين ؟ قال : نجده ملكاً أقرع ، من يقم في سبيله يبرع ، قال : ثم من ؟ قال : ثم رجل يقال له الوليد ، قال : ثم ماذا ؟ قال ثم رجل اسمه اسمي يفتح به على الناس ، قال : فتعرفني له قال : قد أخبرتك بك . قال : أتعرف ما آلي ؟ قال : نعم . قال : فمن يلي العراق بعدي ؟ قال رجل يقال له يزيد ، قال أفي حياتي أو بعد موتي ؟ قال لا أدري ، قال : أتعرف صفته ؟ قال يغدر غدرة لأعرف غيرها قال : فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب ، وسار سبعا وهو وجل من كلام الشيخ ، ثم بعث إلى عبد الملك يستعفيه من ولاية العراق ليعلم مكانته عنده ؟ فجاء الكتاب بالترجيع والتأييد والتوبيخ والأمر بالثبات والاستمرار على ما هو عليه . ثم إن الحجاج جلس يوماً مفكراً واستدعى

عبيد بن موهب فدخل عليه وهو ينكت في الأرض فرفع رأسه إليه فقال : ويحك يا عبيد ، إن أهل الكتاب يدكرون أن ما تحت يدي سبيليه رجل يقال له يزيد ، وقد تذكرت يزيد بن أبي كبشة ويزيد ابن حصين بن نمير ويزيد بن دينار وليسوا هناك ، وما هو إلا يزيد بن المهلب . فقال عبيد : لقد عرفتهم وعظمت ولايتهم وإن لهم لقدراً وجلداً وحظاً فأخلق به . فأجمع رأى الحجاج على عزل يزيد ابن المهلب ، فكتب إلى عبد الملك يذمه ويخوفه غدرة ويخبره بما أخبره به ذلك الشيخ الكنابي ، وجاء البريد بكتاب فيه قد أكثرت في شأن يزيد فسم رجلاً يصلح لخراسان ، فوقع اختيار الحجاج على المنفصل بن المهلب فولاه قليلاً تسعة أشهر ، فغزا بلاد عيس وغيرها وغنم مغنم كثيرة ، وامتنحه الشعراء ثم عزله بقتيبة بن مسلم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل موسى بن عبد الله بن خازم بترمذ ، ثم ذكر سبب ذلك وملخصه أنه بعد مقتل أبيه لم يبق بيده بلد يلجأ إليه بمن معه من أصحابه ، فجعل كلما اقترب من بلدة خرج إليه ملكها فقاتله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى نزل قريباً من ترمذ وكان ملكها فيه ضعف ، فجعل يهادنه ويبعث إليه بالالطاف والتحف ، حتى جعل يتصيد هو وهو ، ثم عن الملك فعمل له طعاماً وبعث إلى موسى بن عبد الله بن خازم أن ائتني في مائة من أصحابك ، فاختر موسى من جيشه مائة من شجعانهم ، ثم دخل البلد فلما فرغت الضيافة اضطجع موسى في دار الملك وقال : والله لا أقوم من هنا حتى يكون هذا المنزل منزلي أو يكون قبرى : فثار أهل القصر إليه فحاجف عنه أصحابه ، ثم وقعت الحرب بينهم وبين أهل ترمذ ، فاقتلوا قتل من أهل ترمذ خلق كثير وهرب بقيتهم ، واستدعى موسى ببقية جيشه إليه واستحوذ موسى على البلد فحصنها ومنعها من الأعداء ، وخرج منها ملكها هارباً فلجأ إلى إخوانه من الأتراك فاستصرم فقالوا له : هؤلاء قوم نحو من مائة رجل أخرجوك من بلدك ، لا طاقة لنا بقتال هؤلاء . ثم ذهب ملك ترمذ إلى طائفة أخرى من الترك فاستصرخهم فبعثوا معه قصاداً نحو موسى ليسمعوا كلامه ، فلما أحس بقدمهم - وكان ذلك في شدة الحر - أمر أصحابه أن يوججوا ناراً ويلبسوا ثياب الشتاء ويدنوا أيديهم من النار كأنهم يسطلون بها ، فلما وصلت إليهم الرسل رأوا أصحابه وما يصنعون في شدة الحر فقالوا لهم : ما هذا الذي تراكم تفعلون ؟ فقالوا لهم : إنا نجد البرد في الصيف والكرب في الشتاء ، فرجموا إلى أنفسهم فقالوا : ما هؤلاء بشر ، ما هؤلاء إلا جن ثم عدوا إلى ملكهم فأخبروه بما رأوا فقالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء . ثم ذهب صاحب ترمذ فاستجلس بطائفة أخرى فجاؤا فحاصروا بترمذ وجاء الخزاعي فحاصرم أيضاً ، فجعل يقاتل الخزاعي أول النهار ويقاتل آخره العجم ، ثم إن موسى بينهم قتل منهم مقتلة عظيمة وأفرغ ذلك عمر الخزاعي فصلحه وكان معه ، فدخل يوماً عليه وليس عنده أحد ، وليس يرى معه سلاحاً فقال له على وجه النصح

أصلح الله الأمير، إن مثلك لا ينبغي أن يكون بلا سلاح، فقال: إن عندي سلاحاً، ثم رفع صدره فإشبهه فاذا سيفه منتضى فأخذه عمر فضربه به حتى برد وخرج هارباً، ثم تفرق أصحاب موسى بن عبد الله بن خازم.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة عزم عبد الملك على عزل أخيه عبد العزيز بن مروان عن إمارة الديار المصرية، وحسن له ذلك روح بن زنباع الجندامي، فبينما هما في ذلك إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب في الليل، وكان لا يحجب عنه في أي ساعة جاء من ليل أو نهار، فمراه في أخيه عبد العزيز فقدم على ما كان منه من العزم على عزله، وإنما حمله على إرادة عزله أنه أراد أن يعهد بالأمر من بعده لأولاده الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وذلك عن رأي الحجاج وترتيبه ذلك لعبد الملك، وكان أبوه مروان عهد بالأمر إلى عبد الملك ثم من بعده إلى عبد العزيز، فأراد عبد الملك أن ينحيه عن الإمارة من بعده بالكلية، ويجعل الأمر في أولاده وعقبه، وأن تكون الخلافة باقية فيهم والله أعلم.

عبد العزيز بن مروان

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو الأصبع القرشي الأموي ولد بالمدينة ثم دخل الشام مع أبيه مروان، وكان ولي عهده من بعد أخيه عبد الملك، وولاه أبوه إمارة الديار المصرية في سنة خمس وستين فكان والياً عليها إلى هذه السنة، وشهد قتل سعيد بن عمرو بن العاص كما قدمنا، وكانت له دار بدمشق وهي دار الصوفية اليوم، المعروفة بالخانقاه السميساطية ثم كانت من بعده لولده عمر بن عبد العزيز، ثم تنقلت إلى أن صارت خانقاه للصوفية. وقد روى عبد العزيز بن مروان الحديث عن أبيه وعبد الله بن الزبير وعقبة بن عامر وأبي هريرة، وحديثه عنه في مسند أحمد وسنن أبي داود أن رسول الله (ص) قال: «شر مافي الرجل جبن خالغ وشح هالغ». وعنه ابنه عمر والزهرى وعلى بن رباح وجماعة. قال محمد بن سعد: كان ثقة قليل الحديث، وقال غيره: كان يلحن في الحديث وفي كلامه، ثم تعلم العربية فأتقنها وأحسنها فكان من أفصح الناس، وكان سبب ذلك أنه دخل عليه رجل يشكو ختنه - وهو زوج ابنته - فقال له عبد العزيز: من ختنك؟ فقال الرجل: ختنى الختان الذى يختن الناس، فقال لكاتبه ويحك بماذا أجابنى؟ فقال الكاتب: يا أمير المؤمنين كان ينبغي أن تقول من ختنك، فألى على نفسه أن لا يخرج من منزله حتى يتعلم العربية، فكث جمعة واحدة فتعلمها فخرج وهو من أفصح الناس، وكان بعد ذلك يجزل عطاء من يعرب كلامه وينقص عطاء من يلحن فيه، فتسارع الناس في زمانه إلى تعلم العربية. قال عبد العزيز يوماً إلى رجل: ممن أنت؟ قال: من بنو عبد الدار، فقال: تجدها في جارتك، فنقصت جارتها مائة دنانير:

وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا مجاهد بن موسى ثنا إسحاق بن يوسف أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم قال : كتب عبد العزيز بن مروان إلى عبد الله بن عمر : ارفع إلى حاجتك . فكتب إليه ابن عمر : إن رسول الله (ص) قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تمول » . ولست أسألك شيئاً ولا أرد رزقا رزقيه الله عز وجل منك . وقال ابن وهب : حدثني يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس قال : بعثني عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلى ابن عمر قال : فجئت فدفعت إليه الكتاب فقال : أين المال ؟ فقلت : لا أستطيعه الليلة حتى أصبح ، قال : لا والله لا يبيت ابن عمر الليلة وله ألف دينار ، قال : فدفع إلى الكتاب حتى جثته بها ففرقتها رضي الله عنه .

ومن كلامه رحمه الله : عجبا لمؤمن يؤمن ويوقن أن الله يرزقه ويخلف عليه ، كيف يجبس مالا عن عظيم أجر وحسن ثناء . ولما حضرته الوفاة أحضر له مالٌ يحصيه وإذا هو ثلاثمائة مدين من ذهب ، فقال : والله لوددت أنه بعير خائل بنجد ، وقال : والله لوددت أنني لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولوددت أن أكون هذا الماء الجاري ، أو نباتة بأرض الحجاز ، وقال لهم : اتقوني بكفني الذي تكفوني فيه ، فجعل يقول : أف لك ما أقصر طولك ، وأقل كثيرك .

قال يعقوب بن سفيان عن ابن بكير عن الليث بن سعد قال : كانت وفاته ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين ، قال ابن عساکر : وهذا وهم من يعقوب بن سفيان وانصواب سنة خمس وثمانين ، فإنه مات قبل عبد الملك أخيه ، ومات عبد الملك بعده بسنة سنة ست وثمانين . وقد كان عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء كريماً جواداً ممدحاً ، وهو والد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، وقد اكتسى عمر أخلاق أبيه وزاد عليه بأمر كثيرة . وكان لعبد العزيز من الأولاد غير عمر ، عاصم وأبو بكر ومحمد والأصبغ . مات قبله بقليل فحزن عليه حزناً كثيراً ومرض بعده ومات . وسهيل وكان له عدة بنات ، أم محمد وسهيل وأم عثمان وأم الحكم وأم البنين وهن من أمهات شتى ، وله من الأولاد غير هؤلاء ، مات بالمدينة التي بناها على مرحلة من مصر وحمل إلى مصر في النيل ودفن بها ، وقد ترك عبد العزيز من الأموال والأثاث والدواب من الخيل والبغال والابل وغير ذلك ما يعجز عنه الوصف ، من جملة ذلك ثلاثمائة مدين من ذهب غير الورق ، مع جوده وكرمه وبذله وعطاياه الجزيلة ، فإنه كان من أعطى الناس للجزيل رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أخيه عبد العزيز وهو بالديار المصرية يسأله أن ينزل عن العهد الذي له من بعده لولده الوليد أو يكون ولي العهد من بعده ، فإنه أعز الخلق على . فكتب إليه عبد العزيز يقول : إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترى في الوليد . فكتب

إليه عبد الملك يأمره . يحمل خراج مصر - وقد كان عبد العزيز لا يحمل إليه شيئاً من الخراج ولا غيره ، وإنما كانت بلاد مصر بكاملها وبلاد المغرب وغير ذلك كلها لعبد العزيز ، مغائرها وخراجها وحملها - فكتب عبد العزيز إلى عبد الملك : إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنناً لا يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاءه قليلاً ، وإني لا أدري ولا تدري أينما يأتيه الموت أولاً ، فإن رأيت أن لا تعتب علي بقية عمري فافعل ، فرق له عبد الملك وكتب إليه : لعمري لا أعتب عليك بقية عمرك . وقال عبد الملك لابنه الوليد : إن يرد الله أن يعطيكها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك عنك ، ثم قال لابنه الوليد وسليمان : هل تارقها محرماً أو حراماً قط ؟ فقالا : لا والله ، فقال : الله أكبر ، نلتها ورب السكرة . ويقال إن عبد الملك لما امتنع أخوه من إجابته إلى ما طلب منه في بيعته لولده الوليد دعا عليه وقال : اللهم إنه قطنني فأقطعه ، فمات في هذه السنة كما ذكرنا ، فلما جاء الخبر بموت أخيه عبد العزيز ليسلاً حزن وبكى وبكى أهله بكاء كثيراً على عبد العزيز ، ولكن سره ذلك من جهة ابنه فإنه نال فيها ما كان يؤمله لهما من ولايته إياهما بعده . وقد كان الحجاج بعث إلى عبد الملك يحسن له ولاية الوليد ويزيها له من بعده ، وأوفد إليه وفداً في ذلك عليهم عمران بن عاصم العنزي ، فلما دخلوا عليه قام عمران خطيباً فنكلم وتكلم الوفد في ذلك وحشوا عبد الملك على ذلك وأنشد عمران بن عاصم في ذلك :

أمير المؤمنين إليك نهدي * على النأي التحية والسلاما
أجبنى في بيتك يكن جوابي * لهم عادية ولنا قواماً
فلو أن الوليد أطاع فيه * جعلت له الخلافة والذماما
شبهك حول قبه قريش * به يستمطر الناس الغماما
ومثلك في التقى لم يصب يوماً * لذن خلق القلائد والتماما
فإن تؤثر أخاك بها فانا * وجدك لا نطبق لها اتماما
ولكننا نحاذر من بنيه * بنى العلات مائة سهاما
ونحشى إن جعلت الملك فيهم * سحابة أن تعود لهم جهاما
فلا يك ما حلبت غداً لقوم * وبعد غد بنوك هم العباما
فأقسم لو نخطاني عصام * بذلك ما عنرت به عصاما
ولو أني حبوت أخاً بفضل * أريد به المقالة والمقاما
لعتب في بني على بنيه * كذلك أو لمرت له مراما
فمن يك في أقربه صدوع * فصدع الملك أبطوه الثماما

قال : فهاجبه ذلك على أن كتب لأخيه يستنزله عن الخلافة للوليد فأبى عليه ، وقدر الله سبحانه موت عبد العزيز قبل موت عبد الملك بعام واحد ، فتمكن حينئذ مما أراد من بيعة الوليد وسليمان والله سبحانه وتعالى أعلم .

بيعة عبد الملك لولده الوليد ثم من بعده لولده سليمان

وكان ذلك في هذه السنة بعد موت عبد العزيز بن مروان ، بويع له بدمشق ثم في سائر الأقاليم ثم لسليمان من بعده ، ثم لما انتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبائع في حياة عبد الملك لأحد ، فأمر به هشام بن إسماعيل نائب المدينة فضر به ستين سوطاً ، وألبسه ثياباً من شعر وأركبه جملاً وطاف به في المدينة ، ثم أمر به فذهبوا به إلى ثنية ذباب - وهي الثنية التي كانوا يصلون عندها وبقيلون - فلما وصلوا إليها ردوه إلى المدينة فأودعوه السجن ، فقال لهم : والله لو أعلم أنكم لا تقتلونني لم ألبس هذا الثياب . ثم كتب هشام بن إسماعيل الخزومي إلى عبد الملك يعلمه بمخالفة سعيد في ذلك ، فكتب إليه يعنفه في ذلك ويأمره باخراجه ويقول له : إن سعيداً كان أحق منك بصلة الرحم مما فعلت به ، وإنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف ، وبروي أنه قال له : ما ينبغي إلا أن يبائع ، فإن لم يبائع ضربت عنقه أو خليت سبيله . وذكر الواقدي أن سعيداً لما جاءت بيعة الوليد امتنع من البيعة فضر به نائبها في ذلك الوقت - وهو جابر بن الأسود بن عوف - ستين سوطاً أيضاً وسجنه فإله أعلم .

قال أبو مخنف وأبو معشر والواقدي : وحج بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل الخزومي نائب المدينة ، وكان على العراق والمشرق بكامله الحجاج ، قال شيخنا الحافظ الذهبي : وتوفي في هذه السنة أبان بن عثمان بن عفان أمير المدينة ، كان من فقهاء المدينة العشرة ، قاله يحيى بن القطان . وقال محمد بن سعد كان ثقة وكان به صمم ووضع كثير ، وأصابه الفالج قبل أن يموت . عبد الله ابن عامر بن ربيعة . عمرو بن حريث . عمرو بن سلمة . وائل بن الأسقع . شهد وائل تبوك ثم شهد فتح دمشق ونزلها ، ومبجده بها عند حبس باب الصغير من القبلة . قلت : وقد احترق مسجده في فتنة تمرلنك ولم يبق منه إلا رسومه ، وعلى بابه من الشرق قناة ماء . خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ، كان أعلم قريش بفنون العلم ، وله يد طولى في الطب ، وكلام كثير في الكيمياء ، وكان قد استفاد ذلك من راهب اسمه مريانش ، وكان خالد فصيحاً بليغاً شاعراً منطبقاً كأبيه ، دخل يوماً على عبد الملك بن مروان بمحضرة الحكم بن أبي العاص ، فشكى إليه أن ابنه الوليد يحترق أخاه عبد الله بن يزيد ، فقال عبد الملك : [إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة] فقال له خالد : [وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق

عليها القول فدمرناها تدميراً [فقال عبد الملك : والله لقد دخل على أخوك عبد الله فاذا هو لا يقيم اللحن ، فقال خالد : والوليد لا يقيم اللحن ، فقال عبد الملك : إن أخاه سليمان لا يلحن ، فقال خالد : وأنا أخو عبد الله لا ألحن ، فقال الوليد - وكان حاضراً - لخالد بن يزيد : اسكت ، فوالله ما تعد في العير ولا في النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين اثم أقبل خالد على الوليد فقال : ويحك وما هو العير والنفير غير جدى أبي سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة بن ربيعة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وجيالات والطائف ، ورحم الله عثمان ، لقلنا صدقت - يعني أن الحكم كان منقياً بالطائف يرعى غنما ويأوى إلى جيلة الكرم حتى آواه عثمان بن عفان حين ولي - فسكت الوليد وأبوه ولم يجيرا جواباً ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ست وثمانين

ففيها غزا قتيبة بن مسلم نائب الحجاج على مرو وخراسان ، بلاداً كثيرة من أرض الترك وغيرهم من الكفار ، وسبي وغنم وسلم وتسلم فلاعاً وحصوناً وممالك ، ثم قفل فسبق الجيش ، فكتب إليه الحجاج يلومه على ذلك ويقول له : إذا كنت قاصداً بلاد العدو فكن في مقدمة الجيش ، وإذا قفلت راجعاً فكن في سافة الجيش - يعني لتكون ردها لهم من أن ينالهم أحد من العدو وغيرهم بكيد - وهذا رأى حسن وعليه جاءت السنة ، وكان في السبي امرأة برمك - والد خالد بن برمك - فأعطاها قتيبة أخاه عبد الله بن مسلم فوطئها فحملت منه ، ثم إن قتيبة من على السبي وردت تلك المرأة على زوجها وهي حبلى من عبد الله بن مسلم ، وكان ولدها عندهم حتى أسلموا فقدموا به معهم أيام بني العباس كما سيأتي . ولما رجع قتيبة إلى خراسان تلقاه دهاقين بلغار بهدايا عظيمة ، ومفتاح من ذهب . وفيها كان طاعون بالشام والبصرة وواسط ويسمى طاعون الفتيات ، لأنه أول ما بدأ بالنساء فسمى بذلك . وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم قتل وسبي وغنم وسلم وافتتح حصن بولق وحصن الأخرم من أرض الروم ، وفيها عقد عبد الملك لابنه عبد الله على مصر وذلك بعد موت أخيه عبد العزيز فدخلها في جمادى الآخرة ، وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة . وفيها هلك ملك الروم الأخرم لوري لا رحمه الله . وفيها حبس الحجاج يزيد بن المهلب . وحج بالناس فيها هشام بن إسماعيل الخزومي . وفي هذه السنة توفى أبو أمية الباهلي وعبد الله بن أبي أوفى ، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي في قول ، شهد فتح مصر وسكنها وهو آخر من مات من الصحابة بمصر . وفيها في شوالها توفى أمير المؤمنين .

عبد الملك بن مروان وولده والخلفاء الراشدين

وهو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبو الوليد الأموي أمير المؤمنين ،

وأمة عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية . سمع عثمان بن عفان ، وشهد الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين ، وهو أول من سار بالناس في بلاد الروم سنة ثنتين وأربعين ، وكان أميراً على أهل المدينة ، وله ست عشرة سنة ، ولأهله إياها معاوية ، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبربرة مولاة عائشة . وروى عنه جماعة منهم خالد بن معدان وعروة والزهرى وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجري بن عثمان . ذكر عن محمد بن سيرين أن أباه كان قد سماه القاسم وكان يكنى بأبي القاسم ، ثم غير اسمه فسماه عبد الملك ، قال ابن أبي خيثمة عن مصعب بن الزبير : وكان أول من سمى في الاسلام بعبد الملك ، قال ابن أبي خيثمة : وأول من سمى في الاسلام بأحمد . والد الخليل بن أحمد العروضي . وبويع له بالخلافة في سنة خمس وستين في حياة أبيه في خلافة ابن الزبير ، وبقي على الشام ومصر مدة سبع سنين ، وابن الزبير على باقي البلاد ، ثم استقل بالخلافة على سائر البلاد والأقاليم بعد مقتل ابن الزبير ، وذلك في سنة ثلاث وسبعين إلى هذه السنة كما ذكرنا ذلك ، وكان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ست وعشرين ، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالي للقرآن ، وكان ربة من الرجال أقرب إلى القصر . وكانت أسنانه مشبكة بالذهب ، وكان أفوه مفتوح الفم ، فربما غفل فيفتح فيه فيدخل فيه الذباب ، ولهذا كان يقال له أبو الذباب . وكان أبيض ربة ليس بالنعيف ولا البادن ، مقرون الحاجبين أشهل كبير العينين دقيق الأنف مشرق الوجه أبيض الرأس واللحية حسن الوجه لم يخضب ، ويقال إنه خضب بعد . وقد قال نافع : لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تسميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك ابن مروان ، وقال الأعمش عن أبي الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة ابن ذويب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الامارة . وعن ابن عمر أنه قال : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً - يعني عبد الملك - وراه يوماً وقد ذكر اختلاف الناس ، فقال : لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه ، وقال عبد الملك : كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لي يوماً : يا عبد الملك إن فيك خصالاً ، وإنك لجدير أن تلي أمر هذه الأمة ، فاحذر الدماء فاني سمعت رسول الله .س. يقول : « إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجة من دم يريته من مسلم بغير حق » . وقد أثنى عليه قبل الولاية معاوية وعمرو بن العاص في قصة طوييلة ،

وقال سعيد بن داود الزبيري عن مالك عن يحيى بن سعيد بن داود الزبيري قال : كان أول من صلى ما بين الظهر والمصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه ، فقال سعيد بن المسيب : ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكير في أمر الله والورع عن محارم الله . وقال الشعبي :

ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فأنى ماذا كرته حديثاً إلا زادني منه ، ولا شعراً إلا زادني فيه . وذكر خليفة بن خياط أن معاوية كتب إلى مروان وهو نائبه على المدينة سنة خمسين أن ابث ابنك عبد الملك على بعث المدينة إلى بلاد المغرب مع معاوية بن خديج ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً . ولم يزل عبد الملك مقيماً بالمدينة حتى كانت وقعة الحرة ، واستولى ابن الزبير على بلاد الحجاز ، وأجلى بني أمية من هنالك ، فقدم مع أبيه الشام ، ثم لما صارت الامارة مع أبيه وبايعه أهل الشام كما تقدم أقام في الامارة تسعة أشهر ثم عهد إليه بالامارة من بعده ، فاستقل عبد الملك بالخلافة في مسهل رمضان أو ربيع الأول من سنة خمس وستين ، واجتمع الناس عليه بعد مقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين في جمادى الأولى إلى هذه السنة .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي : لما سلم على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف فأطبقه وقال : هذا فراق بيني وبينك . وقال أبو الطفيل : صنع لعبد الملك مجلس توسع فيه ، وقد كان بنى له فيه قبة قبل ذلك ، فدخله وقال : لقد كان حثمة الأحوازي - يعني عمر بن الخطاب - يرى أن هذا عليه حرام ، وقيل إنه لما وضع المصحف من حجره قال : هذا آخر العهد منك . وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء ، وكان حازماً فطناً سائماً لأمر الدنيا ، لا يكمل أمر دنياه إلى غيره وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، وأبوها معاوية هو الذي جدد أنف حمزة عم النبي . يوم أحد ، وقال سعيد بن عبد العزيز : لما خرج عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير خرج معه يزيد بن الأسود الجرشي ، فلما التقوا قال : اللهم احجز بين هذين الجبلين وول الأمر أحبهما إليك . فظفر عبد الملك - وقد كان مصعب من أعز الناس على عبد الملك - وقد ذكرنا كيفية قتله مصعباً . وقال سعيد بن عبد العزيز : لما بويع لعبد الملك بالخلافة كتب إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن عمر إلى عبد الملك أمير المؤمنين ! سلام عليك فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فانك راع وكل راع مشول عن رعيته [الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً] لا أحد والسلام . وبعث به مع سلام فوجدوا عليه إذ قدم اسمه على اسم أمير المؤمنين ، ثم نظروا في كتبه إلى معاوية فوجدوها كذلك ، فاحتملوا ذلك منه .

وقال الواقدي : حدثني ابن أبي ميسرة عن أبي موسى الخياط عن أبي كعب قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول : يا أهل المدينة أنا أحق الناس أن يلزم الأمر الأول ، وقد سألت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ولا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن ، فالزموا ما في مصحفكم

الذي حاكم عليه الامام المظلوم ، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها امامكم المظلوم رحمه الله ، فانه قد استشار في ذلك زيد بن ثابت ونعم المشير كان للاسلام رحمه الله ، فأحكما ما أحكما ، واستقصيما شذ عنهما . وقال ابن جريج عن أبيه : حج علينا عبد الملك سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين ، فخطبنا فقال : أما بعد فانه كان من قبلي من الخلفاء يا كلون من المال ويوكلون ، وإني والله لا أدوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف ، ولست بالخليفة للمستضعف - يعني عثمان - ولا الخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا الخليفة المأبون - يعني يزيد بن معاوية - أيها الناس إنا نحتل منكم كل الفرمة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر : هذا عمرو بن سعيد حقه حقه ، قرابته وابنه ، قال رأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا ، وإن الجامعة التي خلفها من عنقه عندي ، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء ، فليبلغ الشاهد الغائب . وقال الأصمعي : ثنا عباد بن سلم بن عثمان بن زياد عن أبيه عن جده . قال : ركب عبد الملك بن مروان بكراً فأنشأ قائده يقول : -

يا أيها البكر الذي أراك * عليك سهل الأرض في ممشاك
ويحك هل تعلم من علاك * خليفة الله الذي امتطاك
* لم يحب بكراً مثل ما جاباك *

فلما سمعه عبد الملك قال : أيها ياهناه ، قد أمرت لك بعشرة آلاف . وقال الأصمعي : خطب عبد الملك محصر فقال : إن اللسان بضعة من الانسان ، وإنا نسكت حصراً ولا نتلق هنراً ، ونحن أمراء الكلام ، فينارسخت عروقه ، وعلينا تدلت أغصانه ، وبعد مقامنا هذا مقام ، وبعد عينا هذا مقال ، وبعد يومنا هذا أيام ، يعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب . قال الأصمعي : قيل لعبد الملك أسرع إليك الشيب ، فقال : وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين ؟ وقال غيره قيل لعبد الملك : أسرع إليك الشيب ، فقال : وتنسى ارتقاء المنبر ومحافة اللحن ؟ ولحن رجل عند عبد الملك - يعني أسقط من كلامه ألفاً - فقال له عبد الملك زد ألف ، فقال الرجل : وأنت فزد ألفاً ، وقال الزهري : سمعت عبد الملك يقول في خطبته : إن العلم سيقبض قبضاً سريعاً ، فمن كان عنده علم فليظهره غير غال فيه ولا جاف عنه ، وروى ابن أبي الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره : إذا رفعت له شجرة ، سبحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة ، كبروا بنا حتى نأتي تلك الحجرة ، ونحو ذلك .

وروى البيهقي أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قنطرة فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها ، فقيل له في ذلك فقال : إنه كان عليه اسم الله عز وجل . وقال غير واحد : كان عبد الملك إذا جلس للقضاء بين الناس يقوم السيفون على رأسه بالسيف فينشد ، وقال بعضهم : يأمر من ينشدي يقول :

إنا إذا نالت دواعي الهوى • وأنصتَ السامعُ للقائلِ
واصطرعَ الناسُ بالباهم • نقضى بحكم عادلٍ فاصلِ
لا نجعلُ الباطلَ حقاً ولا • نلفظُ دونَ الحقِّ بالباطلِ
نخافُ أن تسفهَ أعلامنا • فنجهلَ الحقَّ مع الجاهلِ

وقال الأعمش: أخبرني محمد بن الزبير أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه: لو أن رجلاً خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصراني أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم، ولتنزل من قلوبهم بالمتزلة العظيمة، ولعرفوا له ذلك، ولو أن رجلاً خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا، وإني خادم رسول الله (ص)، وصاحبه ورأيتُهُ وأُكلت معه، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه، وإن الحجاج قد أضربني وفعل وفعل، قال: أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي وبلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ، فجاء إلى الحجاج فقرأه فتغير ثم قال إلى حامل الكتاب: انطلق بنا إليه نترضاه. وقال أبو بكر بن دريد: كتب عبد الملك إلى الحجاج في أيام ابن الأشعث: إنك أعز ماتكون بالله أحوج ماتكون إليه، وأذل ملتكون للمخلوق أحوج ماتكون إليهم، وإذا عزيت بالله فاعف له، فانك به تعزو إليه ترجع. قال بعضهم: سأل رجل من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف، فلما خلا به وأراد الرجل أن يتكلم قال له عبد الملك: احترفي كلامك ثلاثاً، إياك أن تمدحني فإني أعلم بنفسى منك، أو تكذبني فإنه لا رأي لكتوب، أو تسمى إلى بأحد من الرعية فأنهم إلى عدلى وعتوى أقرب منهم إلى جورى وظلمى، وإن شئت أقتلك. فقال الرجل: أقلنى فأقاله. وكنا كان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق: اعفنى من أربع وقل ما شئت، لا تطرنى، ولا تجبني فيما لا أسألك عنه، ولا تكذبني، ولا تحملي على الرعية فأنهم إلى رأفتى ومعدلتى أحوج. وقال الأصمعي عن أبيه قال: أتى عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزأى منك، فقال: وما جزاؤك؟ فقال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك، وذلك أنى رجل مشثوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادعيت، وكنت عليك خيراً من مائة ألف معك تنصحك، لقد كنت مع فلان فكسر وهزم وتفرق جمعه، وكنت مع فلان ققتل، وكنت مع فلان فهزم - حتى عد جماعة من الأمراء - فضحك وخلق سبيله. وقيل لعبد الملك: أى الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة، وترك النصره عن قوة. وقال أيضاً لا طمأنينة قبل الخبرة، فان الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم. وقال: خير المال ما أفاد حمداً ودفع ذماً، ولا يقولن أحدكم ابداً بمن تعمل، فان

الخلق كلهم عيال الله ، وينبغي أن يحمل هذا على غير ما ثبت به الحديث . وقال المدائني : قال عبد الملك لمؤدب أولاده - وهو إسماعيل بن عبید الله بن أبي المهاجر - : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فانهم أسوأ الناس رغبة في الخير وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم فانهم لهم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقرؤا ، وعلمهم الشعر يمجذوا وينجدوا ، ومرم أن يستأكروا عرضا ، ويمصوا الماء مضا ، ولا يعبوا عبا ، وإذا احتجت أن تتناولهم فتناولهم بأدب فليكن ذلك في سر لا يعلم بهم أحد من العاشية فهونوا عليهم .

وقال الهيثم بن عدی : أذن عبد الملك للناس في الدخول عليه إذنا خاصا ، فدخل شيخ رث الهيئة لم يأبه له الحرس ، فالتقى بين يدي عبد الملك صحيفة وخرج فلم يدر أين ذهب ، وإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا أيها الانسان إن الله قد جعلك بينه وبين عباده فاحكم بينهم [بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب] [ألا يغن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين] [ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود] [وما تؤخره إلا لأجل معدود] إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك ، [فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا] وإني أحذرك يوم ينادى المنادى [احشروا الذين ظلموا وأزواجهم] [ألا لعنة الله على الظالمين] قال فتغير وجه عبد الملك فدخل دار حرمة ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أياما . وكتب زر بن حبیش إلى عبد الملك كتابا وفي آخره : ولا يطعمك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك فانت أعلم بنفسك واذكر ماتكلم به الأولون إذا الرجال ولدت أولادها • وبليت من كبر أجسادها وجعلت أسقامها تعادها • تلك زروع قد دنا حصادها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بل طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زر ، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق . وسمع عبد الملك جماعة من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب فقال : أنهى عن ذكر عمر فانه مرارة للامراء مفسدة للرعية . وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى القباني عن أبيه عن جده قال : كان عبد الملك يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق ، فقالت له : بلغني أنك شربت الطلا بعد العبادة والنسك ، فقال : إي والله ، والدما أيضا قد شربتها . ثم جاءه غلام كان قد بعته في حاجة فقال : ما حبسك لعنك الله ؟ فقالت أم الدرداء : لا تفعل يا أمير المؤمنين فاني سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله - . يقول : « لا يدخل الجنة لعان » . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : ثنا الحسين بن عبد الرحمن قال قيل لسعيد بن المسيب : إن عبد الملك بن مروان قال ، قد صرت لا أفرح بالحسنة أعملها ، ولا أحزن على السيئة أرتكبها ، فقال سعيد : الآن تكامل موت قلبه .

وقال الأصمعي عن أبيه عن جده قال خطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاء شديداً ثم قال : يارب إن ذنوبي عظيمة ، وإن قليل عفوك أعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي . قال : فبلغ ذلك الحسن فبكى وقال : لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام ، وقد روى عن غير واحد نحو ذلك ، أي أنه لما بلغه هذا الكلام قال مثل ما قال الحسن . وقال مسهر الدمشقي : وضع سباط عبد الملك يوماً بين يديه فقال لحاجبه : ائذن لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فقال : مات يا أمير المؤمنين ، قال : فلا يبه عبد الله بن خالد بن أسيد ، قال : مات ، قال : فلخالد بن يزيد ابن معاوية ، قال : مات ، قال فلفلان وفلان - حتى عد أقواماً قد ماتوا وهو يعلم ذلك قبلنا - فأمر برفع السباط وأنشأ يقول :

ذَهَبَتْ لَهَا قِي وَأَنْقَضَتْ أَيَامُهُمْ * وَغَبِرَتْ بَعْدَهُمْ وَلَسْتُ بِخَالِدٍ

وقيل : إنه لما احتضر دخل عليه ابنه الوليد فبكى فقال له عبد الملك : ما هذا ؟ أتحزن حنين الجارية والأمة ؟ إذا أنا مت فشمروا تزرر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها ، واحذر قریشا . ثم قال له : يا وليد اتق الله فيما أستخلفك فيه ، واحفظ وصيتي ، وانظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه ، وانظر إلى أخي محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها ، وانظر إلى ابن عمنا علي بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمه واعرف حقه ، وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه فإنه هو الذي مهد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتت الخوارج ، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة وكونوا أولاد أم واحدة ، وكونوا في الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، فإن الحرب لم تكن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يشهد ذكر صاحبه ويميل القلوب بالحجة ، ويدلل الألسنة بالذکر الجميل ، والله در القائل :

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اجْتَمَعْنَ فَرَامَهَا * بِالْكَسْرِ ذُو حَنْقٍ وَبَطْشٍ مَفْنَدٍ
عَزَّتْ فَلَمْ تَكْسُرْ وَإِنْ هِيَ بُدِّدَتْ * فَالْكَسْرُ وَالتَّوَهُينُ لِمَتَبَدَّدِ

ثم قال : إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك فن أبي فالسيف ، وعليك بالاحسان إلى أخواتك فأكرمن وأحببن إلى طائفة - وكان قد أعطاهم قرطى مارية والدررة القيمة - ثم قال : اللهم احفظني فيها . فتزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها .

ولما احتضر سمع غسالا يفسل الثياب فقال : ما هذا ؟ فقالوا غسال ، فقال : ياليتني كنت غسالا أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ، ولم أَلِ الخِلافة . ثم تمثل فقال : -

لِعَمْرِي لَقَدْ عَمَرْتُ فِي الْمَلِكِ بَرْهَةً * وَدَانَتْ لِي الدُّنْيَا بِوَقْعِ البَوَاتِرِ
وَأَعْطَيْتُ حَمْرَ الْمَالِ وَالْحَكْمَ وَالنَّهْيَ * وَبِي سَلَّمْتُ كُلَّ الْمُلُوكِ الْجَبَابِرِ

فاضحى الذى قد كان مما يسرنى • كحلم مضى فى المزماتِ الغوابرِ
فيا ليتنى لم أعنِ بالملكِ ليلةً • ولم أسعِ فى لذاتِ عيشٍ نواصرِ

وقد أشد هذه الأبيات معاوية بن أبى سفيان عند موته .

وقال أبو مسهر : قيل لعبد الملك فى مرض موته : كيف تمجدك ؟ فقال أجدنى كما قال الله تعالى
[ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم] الآية . وقال
سعيد بن عبد العزيز : لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره ، فلما فتحت سمع قصاراً
بالوادي فقال : ما هذا ؟ قالوا قصار ، فقال : يا ليتنى كنت قصاراً أعيش من عمل يدي ، فلما بلغ
سعيد بن المسيب قوله قال : الحمد لله الذى جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم . وقال :
لما حضره الموت جعل يندم ويندب ويضرب بيده على رأسه ويقول : وددت أنى اكتسبت قوتى
يوماً بيوم واشتغلت بعبادة ربي عز وجل وطاعته . وقال غيره : لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم
ثم قال : الحمد لله الذى لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً ثم ينشد : -

فهل من خالدٍ إماماً هلكنا • وهل بالوتِ للباقيينِ غارُ

و يروى أنه قال : ارفعونى ، فرضوه حتى شم الهواء وقال : يا دنيا ما أطيبك ! إن طويلك لتقصير ،
وإن كثيرك لحقير ، وإنا كنا بك لفي غرور ، ثم تمثل بهذين البيتين :

إن تناقشَ يكن نقاشكُ ياربُّ • عذاباً لا طوقَ لي بالعذابِ

أو تجاوزَ فأنت ربّ صفوح • عن مسيءِ ذنوبه كالترابِ

قالوا : وكانت وفاته بدمشق يوم الجمعة وقيل يوم الأربعاء وقيل الخميس ، فى النصف من شوال
سنة ست وثمانين ، وصلى عليه انه الوليد ولى عهده من بعده ، وكان عمره يوم مات ستين سنة . قاله
أبو معشر وصححه الواقدي ، وقيل ثلاثا وستين سنة . قاله المدائني ، وقيل ثمانى وخمسين . ودفن بباب
الجابية الصغير ، قال ابن جرير : ذكر أولاده وأزواجه منهم الوليد وسليمان ومروان الأكبر درج
وعائشة ، وأمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن
مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبيس بن بغيض ، وبزيد ومروان الأصغر ومعاوية درج وأم كلثوم
وأمهم عائكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وهشام وأمه أم هشام عائشة - فيما قاله المدائني -
بنت هشام بن إسماعيل الخزومي . وأبو بكر واسمه بكار وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله
التيمي ، والحكم درج وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان الأموي ، وفاطمة وأمها المغيرة
بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة الخزومي . وعبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة
ومحمد وسعد الخير والحجاج لأمهات أولاد شتى ، فكان جملة أولاده تسعة عشر ذكوراً وإفاناً ،

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة ، منها تسع سنين مشاركا لابن الزبير ، وثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف مستقلا بالخلافة وحده . وكان قاضيه أبو إدريس الخولاني ، وكاتبه روح بن زنباع ، وحاجبه يوسف مولاة ، وصاحب بيت المال والخاتم قبيصة بن ذؤيب . وعلى شرطته أبو الزعزعة . وقد ذكرنا عماله فيما مضى . قال المدائني : وكان له زوجات آخر ، شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي ، وابنة لعلی بن أبي طالب ، وأم أبيها بنت عبد الله بن جعفر . ومن يذكر أنه توفي في هذه السنة تقريبا .

ارطاة بن زفر

ابن عبد الله بن مالك بن شداد بن ضمرة بن غنعمان بن أبي حارثة بن مرة بن شبة بن نميط بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غنعمان الوليد المري ، ويعرف بابن شبة ، وهي أمه بنت رامل بن مروان بن زهير بن ثعلبة بن خديج بن جشم بن كعب بن عون بن عامر بن عوف - سبية من كلب - وكانت عند ضرار بن الأزور ، ثم صارت إلى زفر وهي حامل فأتت بأرطاة على فراشه ، وقد عمر أرطاة دهرًا طويلا حتى جاوز المائة بثلاثين سنة ، وقد كان سيدا شريفا مطاعا ممدحا شاعرا مطبقا قال المدائني : ويقال إن بني غنعمان بن حنظلة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث دخلوا في بني مرة بن شبة فقالوا بني غنعمان بن أبي حارثة بن مرة . وقد وفد أبو الوليد أرطاة بن زفر هذا على عبد الملك فأنشده أبياتا : -

رأيت المرء تاكله الليالي • كأكل الأرض ساقطة الحديد
وماتبقى النية حين تأتي * على نفس ابن آدم من مزيد
وأعلم أنها منكرت حتى * توفي نذرهما بأبي الوليد

قال : فارتاع عبد الملك وظن أنه عناه بذلك فقال يا أمير المؤمنين إنما عنيت نفسي ، فقال عبد الملك : وأنا والله سيمر بي ما الذي يمر بك ، وزاد بعضهم في هذه الابيات : -
خلقنا أنفسا وبني نفوس * ولسنا بالسلام ولا الحديد
لئن أنجمت بالقرناء يوما * لقد منمت بالأمل البعيد
وهو القائل وإني لقوام لدى الضيفر موهنا * إذا أسبل الستر البخيل المواكل
دعا فحاجبته كلاب كثيرة * على ثقة مني بأني فاعل
وما دون ضيفي من تلالد تحوزة * لي النفس إلا أن تصان الحلائل

مطرف بن عبد الله بن الشخير

كان من كبار التابعين ، وكان من أصحاب عمران بن حصين ، وكان مجلب الدعوة ، وكان يقول ما أوتي أحد أفضل من العقل ، وعقول الناس على قدر زمانهم . وقال : إذا استوت سريرة العبد

وعلايته قال الله هذا عبدى حقاً . وقال : إذا دخلتم على مريض فإن استطعتم أن يدعوا لكم فإنه قد حرك - أى قد أوقف من غفلته بسبب مرضه - فدعاؤه مستجاب من أجل كسره ورقة قلبه . وقال : إن أقبح ما طلبت به الدنيا عمل الآخرة .

خلافة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق

لما رجع من دفن أبيه خارج باب الجابية الصغير - وكان ذلك في يوم الخميس وقيل الجمعة للنصف من شوال من هذه السنة - لم يدخل المنزل حتى صعد المنبر - منبر المسجد الأعظم بدمشق - فخطب الناس فكان مما قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله المستعان على مصيبتنا في أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة ، قوموا فبايعوا . فكان أول من قام إليه عبد الله بن همام السلولى وهو يقول : -

الله أعطاك التي لا فوقها * وقد أراد الملحدون عوقها

عنك ويأبى الله إلا سوقها • إليك حتى قلدوك طوقها

ثم بايعه وبايع الناس بعده . وذكر الواقدي أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه لا مقدم لما أقر الله ، ولا مؤخر لما قدم الله ، وقد كان من قضاء الله وسابقته ما كتبه على أنبيائه وحمله عرشه وملائكته الموت ، وقد صار إلى منازل الأبرار بما لا فاه في هذه الأمة - يعنى بالذى يحق لله عليه - من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الاسلام وإعلائه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارات على أعداء الله عز وجل فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً ، أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد ، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه . ثم نزل فنظر ما كان من دواب الخلافة فخارها . وكان جباراً عنيداً . وقد ورد في ولاية الوليد حديث غريب ، وإنما هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك كما سيأتى ، وكما تقدم تقريره في دلائل النبوة في باب الاخبار عن الغيوب المستقبلية ، فيما يتعلق بدولة بني أمية ، وأما الوليد بن عبد الملك هذا فقد كان صينياً في نفسه حازماً في رأيه ، يقال إنه لا تعرف له صبوة ، ومن بجلة محاسنه ما صح عنه أنه قال : لولا أن الله قص لنا قصة قوم لوط في كتابه ما ظننا أن ذكر آ كان يأتى ذكر آ كما تؤتى النساء ، كما سيأتى ذلك في ترجمته عند ذكر وفاته ، وهو باني مسجد جامع دمشق الذى لا يعرف في الآفاق أحسن بناء منه ، وقد شرع في بنائه في ذى القعدة من هذه السنة ، فلم يزل في بنائه وتحسينه مدة خلافته وهي عشر سنين ، فلما أنهاه انتهت أيام خلافته كما سيأتى بيان ذلك مفصلاً . وقد كان موضع هذا المسجد كنيشة يقال لها كنيشة بوحنا ، فلما فتحت الصحابة دمشق جعلوها مناصفة ، فأخذوا منها الجانب الشرقى فحولوه مسجداً ، وبقي الجانب الغربى كنيشة

بجاءه من لذن سنة أربع عشرة إلى هذه السنة ، فعزم الوليد على أخذ بقية الكنيسة منهم وعوضهم عنها كنيسة مريم لدخولها في جانب السيف ، وقيل عوضهم عنها كنيسة توما ، وهدم بقية هذه الكنيسة وأضافها إلى مسجد الصحابة ، وجعل الجميع مسجداً واحداً على هيئة بديعة لا يعرف كثير من الناس أو أكثرهم لها نظيراً في البنيان والزينات والآثار والعمارات ، والله سبحانه أعلم .
ثم دخلت سنة سبع وثمانين

ففيها عزل الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل عن إمرة المدينة وولى عليها ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت عبد الملك عمر بن عبد العزيز ، فدخلها على ثلاثين بغيراً في ربيع الأول منها ، فقتل دار مروان وجاء الناس للسلام عليه ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبيد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : إني إنما دعوتكم لأمر توجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق ، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو يلفظكم عن عامل لي ظلامه ، فأخرج علي من بلفه ذلك إلا أبلغني . فخرجوا من عنده يمجزون خيراً ، وافترقوا على ذلك . وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بأن يوقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان - وكان يسيء الرأي فيه - لأنه أساء إلى أهل المدينة في مدة ولايته عليهم ، وكانت نحواً من أربع سنين ، ولا سيما إلى سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين . قال سعيد بن المسيب لابنه ومواليه : لا يعرض منكم أحد لهننا الرجل في ، تركت ذلك لله وللرحم . وأما كلامه فلا أكله أبداً ، وأما علي بن الحسين فإنه مر به وهو موقوف فلم يتعرض له وكان قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض أحد منهم له ، فلما اجتاز به ونجاوزه ناداه هشام الله يعلم حيث يجعل رسالته

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفتح حصونا كثيرة وغنم غنائم جمة ، ويقال إن الذي غزا بلاد الروم في هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بولق ، وحصن الأخرم ، وبحيرة الفرمان ، وحصن بولس ، وقيقم ، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وسبب فرارهم . وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك وصالحه ملكهم نيزك على مال جزيل ، وعلى أن يطلق كل من يبلده من أسارى المسلمين ، وفيها غزا قتيبة بيكنند فاجتمع له من الأتراك عندها بشر كثير وجم غفير ، وهي من أعمال بخارى ، فلما نزل بأرضهم استنجدوا عليه بأهل الصغد ومن

حولهم من الأتراك ، فاتوم في جمع عظيم فأخذوا على قتيبة الطرق والمضائق ، فتواقف هو وهم قريباً من شهرين وهو لا يقدر أن يبعث إليهم رسولا ولا يأتيه منهم رسول ، وأبطأ خبره على الحجاج حتى خاف عليه وأشفق على من معه من المسلمين من كثرة الأعداء من الترك ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار ، وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتلون مع الترك في كل يوم ، وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر ، فأعطاه أهل بخارى مالا جزيلا على أن يأتي قتيبة فيخذه عنهم ، فجاء إليه فقال له : أخلصني ، فأخلاه فلم يبق عنده سوى رجل يقال له ضرار بن حصين ، فقال له تندر : هذا عامل يقدم عليك سريرا بعزل الحجاج ، فلو انصرفت بالناس إلى مرو ، فقال قتيبة لمولاه سياه اضرب عنقه فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد مع هذا غيري وغيرك وإني أعطى الله عهداً إن ظهر هذا حتى ينقضى حربنا أهلكك به ، فأملك علينا لسانك ، فان انتشار هذا في مثل هذا الحال ضعف في أعضاد الناس ونصرة للأعداء ، ثم نهض قتيبة فحرض الناس على الحرب ، ووقف على أصحاب الزيات يحرضهم ، فأقتل الناس قتالا شديداً ثم أنزل الله على المسلمين الصبر فما انتصف النهار حتى أنزل الله عليهم النصر فهزمت الترك هزيمة عظيمة ، واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون ماشاؤا ، واعتصم من بقي منهم بالمدينة ، فأمر قتيبة الفعلة بهدمها فسألوه الصلح على مال عظيم فصالحهم ، وجعل عليهم رجلا من أهله وعنده طائفة من الجيش ثم سار راجعاً ، فلما كان منهم على خمس مراحل نقضوا العهد وقتلوا الأمير وجدعوا أنوف من كان معه ، فرجع إليها وحاصرها شهراً . وأمر النقبانين والفعلة فعلقوا سورها على الخشب وهو يريد أن يضرم النار فيها ، فسقط السور فقتل من الفعلة أربعين نفسا ، فسألوه الصلح فأبى ، ولم يزل حتى افتتحها فقتل المقاتلة وسبي الذرية وغنم الأموال ، وكان الذي ألب على المسلمين رجل أعور منهم ، فأمر فقال أنا أفتدى نفسي بخمسة أثواب صينية قيمتها ألف ألف ، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول ذلك منه ، فقال قتيبة : لا والله لا أروع بك مسلمات ثانية ، وأمر به فضربت عنقه . وهذا من الزهد في الدنيا ، ثم إن الغنم سيدخل فيها ما أراد أن يفتدى به نفسه فان المسلمين قد غنموا من بيكند شيئا كثيرا من آنية الذهب والفضة والأصنام من الذهب ، وكان من جملتها صنم سبك نخرج منه مائة ألف وخمسون ألف دينار من الذهب ، ووجدوا في خزائن الملك أموالا كثيرة وسلاحا كثيرا وعددا متنوعا ، وأخذوا من السبي شيئا كثيرا ، فكتب قتيبة إلى الحجاج يسأله أن يعطى ذلك للجند فأذن له فتمول المسلمون وتقووا على قتال الأعداء ، وصار لكل واحد منهم مال مستكثر جدا ، وصارت لهم أسلحة وعدد وخيول كثيرة فقروا بذلك قوة عظيمة والله الحمد والمنة .

وقد حج بالناس في هذه السنة عمر بن عبد العزيز نائب المدينة ، وقاضيه بها أبو بكر بن محمد بن

عمر بن حزم ، وعلى العراق والمشرق بكاله الحجاج ، ونائبه على البصرة الجراح بن عبد الله الحكيم وقاضيه بها عبد الله بن أذينة ، وعامله على الحرب بالكوفة زياد بن جري بن عبد الله البجلي ، وقاضيه بها أبو بكر بن أبي موسى الأشعري ، ونائبه على خراسان وأعمالها قتيبة بن مسلم . وفيها توفي من الأعيان :

عتبة بن عبد السلمي

صحابي جليل ، نزل حمص ، يروي أنه شهد بني قريظة ، وعن العرباض أنه كان يقول هو خير مني أسلم قبلي بسنة . قال الواقدي وغيره : توفي في هذه السنة ، وقال غيره بعد التسمين والله أعلم . قال أبو سعيد بن الأعرابي : كان عتبة بن عبد السلمي من أهل الصفة . وروى بقية عن مجير ابن سعد عن خالد بن معدان عن عتبة بن عبد السلمي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لو أن رجلاً يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله لحقّره يوم القيامة » . وقال إسماعيل بن عياش عن عقيل بن مدرك عن لقمان بن عامر عن عتبة بن عبد السلمي قال : اشتكيت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العري فكساني خيشتين فلقد رأيتني وأنا أكسى الصحابة .

المقدام بن معدي كرب

صحابي جليل ، نزل حمص أيضاً ، له أحاديث ، وروى عنه غير واحد من التابعين . قال محمد ابن سعد والفلاس وأبو عبيدة : توفي في هذه السنة ، وقال غيره : توفي بعد التسمين والله أعلم .

أبو امامة الباهلي

واحد صدق بن عجلان ، نزل حمص ، وهو راوي حديث « تلقين الميت بعد الدفن » رواه الطبراني في الدعاء ، وقد تقدم له ذكر في الوفيات .

قبيصة بن زؤيب

أبوسفیان الخزاعي المدني ، ولد عام الفتح وأتى به النبي - صلى الله عليه وسلم - ليدعوه له ، روى عن جماعة كثيرة من الصحابة ، وأصيبت عينه يوم الحرة ، وكان من فقهاء المدينة ، وكانت له منزلة عند عبد الملك ، ويدخل عليه بغير إذن ، وكان يقرأ الكتب إذا وردت من البلاد ثم يدخل على عبد الملك فيخبره بما ورد من البلاد فيها ، وكان صاحب سره ، وكان له دار بدمشق بباب البريد ، وتوفي بدمشق .

عروة بن المغيرة بن شعبة

ولي إمرة الكوفة للحجاج ، وكان شريفاً لبيباً مطاعاً في الناس ، وكان أحول . توفي بالكوفة (يحيى بن يعمر) ، كان قاضي مرو ، وهو أول من نقط المصاحف ، وكان من فضلاء الناس وعلماهم وله أحوال ومعاملات ، وله روايات ، وكان أحد الفصحاء ، أخذ العربية عن أبي الأسود الدؤلي .

شريح بن الحارث بن قيس القاضي

أدرك الجاهلية ، واستقضاءه عمر على الكوفة فكث بها قاضياً خمساً وستين سنة ، وكان عالماً عادلاً كبير الخبير ، حسن الأخلاق ، فيه دعاية كثيرة ، وكان كوسجاً لا شعر بروجه . وكذلك كان عبد الله بن الزبير ، والأحنف بن قيس ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وقد اختلف في نسبه وسنه وعام وفاته على أقوال ، ورجح ابن خلكان وفاته في هذه السنة .

قلت : قد تقدمت ترجمة شريح القاضي في سنة ثمان وسبعين بما فيها من الزيادة الكثيرة غير ما ذكره المؤلف هنا وهناك ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتحا بمن معهما من المسلمين حصن طوانه في جمادى من هذه السنة . وكان حصيناً منيعاً . اقتتل الناس عنده قتالاً عظيماً ثم حمل المسلمون على النصارى فهزموهم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجت النصارى فحملوا على المسلمين فانهزم المسلمون ولم يبق أحد منهم في موقفه إلا العباس بن الوليد ومعه ابن محيريز الجمحي ، فقال العباس لابن محيريز : أين قرأ القرآن الذين يريدون وجه الله عز وجل ؟ فقال : نادى يأتوك ، فنادى يا أهل القرآن ، فراجع الناس فحملوا على النصارى فكسروهم ولبأوا إلى الحصن فحاصروهم حتى فتحوه .

وذكر ابن جرير أنه في شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر أزواج رسول الله ص . ، وأن يوسع من قبلته ويسار نواحيه ، حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ، فمن باعك ملكه فاشتره منه وإلا فقومه له قيمة عدل ثم اهدمه وادفع إليهم أثمان بيوتهم ، فان لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان . فجمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء المشرة وأهل المدينة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد ، فشق عليهم ذلك وقالوا : هذه حجر قصيرة السقف ، وسقفها من جريد النخل ، وحيطانها من اللبن ، وعلى أبوابها المسوح ، وتركها على حالها أولى لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون ، وإلى بيوت النبي ص . فيفتنوا بذلك ويعتبروا به ، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا ، فلا يعمرن فيها إلا بقدر الحاجة وهو ما يستر ويكن ، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة ، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها . فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء المشرة المتقدم ذكرهم ، فأرسل إليه يأمره بالخراب وبناء المسجد على ما ذكر ، وأن يعلى سقوفه . فلم يجد عمر بداً من هدمها ، ولما شرعوا في الهدم صاح الاشراف وجوه الناس من بني هاشم وغيرهم ،

وتبا كوا مثل يوم مات النبي (س.)، وأجاب من له ملك مناخم للمسجد للبيع فاشترى منهم، وشرع في بنائه وشمر عن إزاره واجتهد في ذلك، وأرسل الوليد إليه فعولا كثيرة، فأدخل فيه الحجرة النبوية - حجرة عائشة - فدخل القبر في المسجد، وكانت حده من الشرق وسائر حجر أمهات المؤمنين كما أمر الوليد، وروينا أنهم لما حفروا الحائط الشرقي من حجرة عائشة بدت لهم قدم فحشوا أن تكون قدم النبي (س.) حتى تحققوا أنها قدم عمر رضی الله عنه، ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد - لأنه خشى أن يتخذ القبر مسجدا - والله أعلم

وذكر ابن جرير أن الوليد كتب إلى ملك الروم يسأله أن يبعث له صناعاً للبناء، فبعث إليه بمائة صانع وفصوص كثيرة من أجل المسجد النبوي، والمشهور أن هذا إنما كان من أجل مسجد دمشق فأنه أعلم. وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفواراة بالمدينة، وأن يجري ماءها ففعل، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفواراة الماء من ظاهر المدينة، والفواراة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته.

وفيها غزا قتيبة بن مسلم ملك الترك كوربغانون ابن أخت ملك الصين، ومعه مائتا ألف مقاتل، من أهل الصغد وفرغانة وغيرهم، فاقتتلوا قتالا شديداً، وكان مع قتيبة نيزك ملك الترك مأسورا فكسروهم قتيبة بن مسلم وغنم من أموالهم شيئا كثيرا، وقتل منهم خلقا وسبي وأسر. وفيها حج بالناس عمر بن عبد العزيز ومعه جماعات من أشرف قريش، فلما كان بالتهيم لقيه طائفة من أهل مكة فأخبروه عن قلة الماء بمكة لقلة المطر، فقال لأصحابه: ألا نستمطر؟ فدعا ودعا الناس فما زالوا يدعون حتى سقوا ودخلوا مكة ومعهم المطر، وجاء سيل عظيم حتى خاف أهل مكة من شدة المطر، ومطرت عرفة ومزدلفة ومنى، وأخصبت الأرض هذه السنة خصبا عظيما بمكة وما حولها، وذلك ببركة دعاء عمر ومن كان معه من الصالحين. وكان النواب على البلدان في هذه السنة هم الذين كانوا قبلها.

ومن توفي فيها من الأعيان - عبدالله بن بسر بن أبي بسر المازني

صحابي كأبيه، سكن حمص، وروى عنه جماعة من التابعين، قال الواقدي: توفي في هذه السنة عن أربع وتسعين سنة، زاد غيره وهو آخر من توفي من الصحابة بالشام، وقد جاء في الحديث أنه يعيش قرنا، فعاش مائة سنة.

عبدالله بن ابي اوفى

علقمة بن خالد بن الحارث الخزاعي ثم الأسلي، صحابي جليل، وهو آخر من بقي من الصحابة بالكوفة، وكانت وفاته فيما ظله البخاري سنة تسع أو ثمان وثمانين، وقال الواقدي وغير واحد: سنة ست وثمانين، وقد جاوز المائة، وقيل قاربها رضی الله عنه.

وفيهما توفي هشام بن اسماعيل

ابن هشام بن الوليد المخزومي المدني ، وكان حما عبد الملك بن مروان وقائمه على المدينة ، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب كما تقدم ، ثم قدم دمشق فمات بها ، وهو أول من أحدث دراسة القرآن بجامع دمشق فمات فيها في السبع .

عمير بن حكيم

العنسي الشامي ، له رواية ، ولم يكن أحد في الشام يستطيع أن يعيب الحجاج علانية إلا هو وابن محيريز أبو الأبيض ، قتل في غزوة طوانة من بلاد الروم في هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بلاد الروم قتلوا خلقاً كثيراً وفتحوا حصوناً كثيرة ، منها حصن سورية وعمورية وهرقله وقودية . وغنما شيئاً كثيراً وأسرا جماً غفيراً . وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الصغد ونسف وكش ، وقد لقيه هنالك خلق من الأتراك فظفر بهم قتلهم ، وسار إلى بخارى فلقية دونها خلق كثير من الترك قاتلهم يومين وليلتين عند مكان يقال له خرطان ، وظفر بهم فقال في ذلك نهار بن توسعة :

وَبَاتَتْ لَهُمْ مَنَا بِخَرْطَانَ لَيْلَةً * وَلَيْلَتُنَا كَانَتْ بِخَرْطَانَ أَطْوَلَا

ثم قصد قتيبة وردان خذاه ملك بخارى فقاتله وردان قتلاً شديداً فلم يظفر به قتيبة : فرجع عنه إلى مرو ، فجاءه البريد بكتاب الحجاج يعنفه على الفرار والنكول عن أعداء الاسلام ، وكتب إليه أن يبعث بصورة هذا البلد - يعني بخارى - فبعث إليه بصورتها فكتب إليه أن ارجع إليها وتب إلى الله من ذنبك واتتها من مكان كذا وكذا ، ورد وردان خذاه ، وإياك والتحويط ، ودعني وبنيات الطريق .

وفي هذه السنة ولي الوليد بن عبد الملك إمرة مكة لخالد بن عبد الله القسري ، فخر بثراً بأمر الوليد عند ثنية طوى وثنية الحجون ، فجاءت عذبة الماء طيبة ، وكان يستقي منها الناس . وروى الواقدي : حدثني عمر بن صالح عن تافع مولى بني مخزوم . قال : سمعت خالد بن عبد الله القسري يقول على منبر مكة وهو يخاطب الناس : أيها الناس ! أيها أعظم خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقاء فسقاه ملحا أجاباً ، واستسقى الخليفة فسقاه عذباً فاراتاً - يعني البئر التي احتفرها بالثنتين ثنية طوى وثنية الحجون - فكان ينقل ماؤها فيوضع في حوض من آدم إلى جنب زمزم ليعرف فضله على رزمهم . قال ثم غارت تلك البئر فذهب ماؤها فلا يدري أين هو إلى اليوم ، وهذا الاسناد غريب ، وهذا الكلام يتضمن

كفراً إن صح عن قائله ، وعندى أن خالد بن عبد الله لا يصح عنه هذا الكلام ، وإن صح فهو عدو الله ، وقد قيل عن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام من أنه جعل الخليفة أفضل من الرسول الذى أرساه الله ، وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها .

وفى هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم الترك حتى بلغ باب الأبواب من ناحية أذربيجان ، وفتح حصونا ومدائن كثيرة هناك . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز . قال شيخنا الذهبى : وفى هذه السنة فتحت صقلية وميورقة وقيل ميرة ، وهما فى البحر بين جزيرة صقلية وخدرة من بلاد الأندلس . وفيها سير موسى بن نصير ولده إلى النقريس ملك الفرنج فافتتح بلاداً كثيرة . وفيها توفى من الأعيان عبد الله بن ثعلبة بن صَعِير أحد التابعين العذرى الشاعر ، وقد قيل إنه أدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم على رأسه ، وكان الزهرى يتعلم منه النسب . والعمال فى هذه السنة هم المذكورون فى التى قبلها .

ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بلاد الروم ، ففتحوا حصونا وقتلوا خلقاً من الروم وغنما وأسرا خلقاً كثيراً . وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر ، وذهبوا به إلى ملكهم فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك . وفيها عزل الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك عن إمرة مصر وولى عليها قره بن شريك . وفيها قتل محمد بن القاسم ملك السند داهر بن صصة ، وكان محمد بن القاسم هذا على جيش من جهة الحجاج . وفيها فتح قتيبة بن مسلم مدينة بخارى وهزم جميع العدو من الترك بها ، وجرت بينهم فصول يطول ذكرها ، وقد تقصاها ابن جرير . وفيها طلب طرخون ملك الصفد بعد فتح بخارى من قتيبة أن يصلحه على مال يبذله فى كل عام فأجابه قتيبة إلى ذلك وأخذ منه رهناً عليه . وفيها استنجد وردان خذاه بالترك فأتوه من جميع النواحي - وهو صاحب بخارى بعد اخذ قتيبة لها - وخرج وردان خذاه وحمل على المسلمين فحطموهم ثم عاد المسلمون عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وصالح قتيبة ملك الصفد ، وفتح بخارى وحصونها ، ورجع قتيبة بالجند إلى بلاده فأذن له الحجاج ، فلما سار إلى بلاده بلغه أن صاحب الصفد قال للملك الترك : إن العرب بمنزلة اللصوص فإن أعطوا شيئاً ذهبوا ، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك ، فإن أعطوه شيئاً أخذوه ورجع عنهم ، وإن قتيبة ليس بملك ولا يطلب ملكاً . فبلغ قتيبة قوله فرجع إليهم فكتب نيزك ملك الترك ما وراء النهر منهم ملك الطالقان ، وكان قد صالح قتيبة فنقض الصلح الذى كان بينه وبين قتيبة ، واستجاش عليه بالملوك كلها ، فأتاه ملوك كثيرة كانوا قد عاهدوا قتيبة على الصلح فنقضوا كلهم وصاروا يدا واحدة على قتيبة ، واتعدوا إلى الربيع وتعاهدوا وتماقدوا على أن يجتمعوا فيقاتلوا كلهم فى فصل الربيع من السنة الآتية ، فقتل منهم قتيبة فى ذلك الحين مقتلة

عظيمة جداً لم يسمع بثملها ، وصلب منهم سباطين في مسافة أربعة فراسخ في نظام واحد ، وذلك مما كسر جموعهم كلهم .

وفي هذه السنة هرب يزيد بن المهلب وأخواه المنضل وعبد الملك من سجن الحجاج ، فلتحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمّنهم من الحجاج ، وذلك أن الحجاج كان قد احتاط عليهم قبل ذلك وعاقبهم عقوبة عظيمة ، وأخذ منهم ستة آلاف ألف ، وكان أصبرهم على العقوبة يزيد بن المهلب ، كان لا يسمع له صوت ولو فعلوا به ما فعلوا نكابة لذلك ، وكان ذلك يفيظ الحجاج ، قال قائل للحجاج : إن في ساقه أثر نشابة بقي نصلها فيه ، وإنه متى أصابها شيء لا يملك نفسه أن يصرخ ، فأمر الحجاج أن ينال ذلك الموضع منه بعدآب ، فصاح فلما سمعت أخته هند بذت المهلب - وكانت تحت الحجاج - صوته بكت وناحت عليه فطلقها الحجاج ثم أودعهم السجن ، ثم خرج الحجاج إلى بعض المحال لينفذ جيشاً إلى الأكراد واستصحبهم معه ، فخذق حولهم ووكّل بهم الحرس ، فلما كان في بعض الليالي أمر يزيد ابن المهلب بطعام كثير فصنع للحرس ، ثم تنكر في هيئة بعض الطباخين وجعل لحينه لحية بيضاء وخرج فراه بعض الحرس فقال : ما رأيت مشية أشبه بمشية يزيد بن المهلب من هذا ، ثم تبعه يتحققه ، فلما رأى بياض لحينه انصرف عنه ، ثم لحقه أخواه فركبوا السفن وساروا نحو الشام ، فلما بلغ الحجاج هربهم انزعج لذلك وذهب وهمه أنهم ساروا إلى خراسان ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم بحذره قدومهم ويأمره بالاستعداد لهم ، وأن يرصدهم في كل مكان ، ويكتب إلى أمراء الثغور والكور بتحصيلهم . وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بهربهم ، وأنه لا يرام هربوا إلا إلى خراسان ، وخاف الحجاج من يزيد أن يصنع كما صنع ابن الأشعث من الخروج عليه وجمع الناس له ، ونحقق عنده قول الراهب . وأما يزيد بن المهلب فإنه سلك على البطائح وجاءته خيول كان قد أعدها له . أخوه مروان بن المهلب لهذا اليوم ، فركبها وسلك به دليل من بني كلب يقال له عبد الجبار بن يزيد ، فأخذ بهم على السماوة ، وجاء الخبر إلى الحجاج بعد يومين أن يزيد قد سلك نحو الشام ، فكتب إلى الوليد يعطه بذلك ، وسار يزيد حتى نزل الأردن على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي . وكان كرىما على سليمان بن عبد الملك - فسار وهيب إلى سليمان بن عبد الملك فقال له : إن يزيد بن المهلب وأخويه في منزلي ، قد جاؤا مستعيزين بك من الحجاج ، قال : فاذهب فأتني بهم - فهم آمنون مادمت حيا ، فجاءهم فذهب بهم حتى أدخلهم على سليمان بن عبد الملك ، فأمّنهم سليمان وكتب إلى أخيه الوليد : إن آل المهلب قد أمّنهم ، وإنما بقي للحجاج عندهم ثلاثة آلاف ألف ، وهي عندي . فكتب إليه الوليد : لا والله لا أوّنه حتى تبعث به إلى . فكتب إليه : لا والله لا أبعنه حتى أجي معه ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تفضحني أو تخفرنني في جوارى . فكتب إليه : لا والله لا نجني معه وابعث به إلى في وثاق . فقال يزيد : ابعث

بي إليه فما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحراباً ، فأبعثني إليه وأبعث معي ابنك واكتب إليه
بألفاظ عبارة تقدر عليها فبعثه وبعث معه ابنه أيوب ، وقال لابنه : إذا دخلت في الدهليز فادخل
مع يزيد في السلسلة ، وادخلا عليه كذلك . فلما رأى الوليد ابن أخيه في السلسلة ، قال : والله لقد
بلغنا من سليمان . ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه وقال : يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك لا تخفر ذمة
أبي وأنت أحق من منعها ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك ، ولا تنزل من
رجا العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك . ثم قرأ الوليد كتاب سليمان بن عبد الملك فاذا فيه : أما بعد
يا أمير المؤمنين فوالله إن كنت لأظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته أنك
لا تنزل جوارى ولا تخفروه ، بل لم أجر إلا ساء ما مطيعاً ، حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه
وأهل بيته ، وقد بعثت به إليك فان كنت إنما تمد قطيعتي واخفار ذمتي والابلاغ في مساءتي فقد
قدرت إن أنت فعلت ، وأنا أعينك بالله من احترام قطيعتي وانتهاك حرمتي ، وترك برى وإجابتي
إلى ما سألتك ، ووصلتي ، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدرى ما بقاؤي وبقاؤك ، ولا متى يفرق الموت بيني
وبينك ، فان استطاع أمير المؤمنين أدام الله سروره أن لا يأتي أجل الوفاة علينا إلا وهو لي واصل
ولحق مؤد ، وعن مساءتي نازع فليفعل ، ووالله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشيء من أمر الدنيا بعد
تقوى الله بأمر منى برضاك وسرورك ، وإن رضاك وسرورك أحب إلى من رضائي وسروري ، وبما
أنتمس به رضوان الله عز وجل لصلتي ما بيني وبينك ، وإن كنت يا أمير المؤمنين يوماً من الدهر تريد
صلتي وكرامتي وإعظام حتى فتجاوز لي عن يزيد ، وكل ما طلبته به فهو على .

فلما قرأ الوليد كتابه قال : لقد أشقنا على سليمان ، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ، وتكلم يزيد بن
المهلب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال : يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ،
فن ينس ذلك فلسنا ننسناه ، ومن يكفره فلسنا بكافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت في
طاعتكم والظمن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغارب ، ما أن المنة فيه علينا
عظيمة . فقال له : اجلس فجلس فأمته وكف عنه ورده إلى سليمان ، فكان عنده حسن الهيئة ، ويصف
له ألوان الأطعمة الشبية ، وكان حظياً عنده لا يهدى إليه بهدية إلا أرسل له بنصفها ، وتقرب يزيد
إلى المهلب إلى سليمان بأنواع الهدايا والتحف والتقادم ، وكتب الوليد إلى الحجاج إن لم أصل إلى
زيد بن المهلب وأهل بيته مع أخي سليمان ، فاكف عنهم واله عن الكتاب إلى فيهم . فكذب
الحجاج عن آل المهلب وترك ما كان يطالبهم به من الأموال ، حتى ترك لأبي عبيدة بن المهلب ألف
ألف درهم ، ولم يزل يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك حتى هلك الحجاج في سنة خمس
ونسعين ، ثم ولي يزيد بلاد العراق بعد الحجاج كما أخبره الراهب . وفيها توفي من الأعيان :

يتاذق الطيب

الحائق ، له مصنفات في فنه وكان حظياً عند الحجاج ، مات في حدود سنة تسعين بواسط .
وفيها توفي (عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة) وأبو العالية الرياحي وسان بن سلمة بن المحبق أحد
الشجعان المذكورين ، أسلم يوم الفتح ، وتولى غزوه الهند ، وطال عمره . وتوفي في هذه السنة محمد بن
يوسف الثقفي أخو الحجاج ، وكان أميراً على اليمن ، وكان يلعن علياً على المنابر ، قيل إنه أمر حجر
المنذري أن يلعن علياً فقال : بل لعن الله من يلعن علياً ، ولعنة الله على من لعنه الله . وقيل إنه وري

خالد بن يزيد بن معاوية

في لعنه الله أعلم .

أبو هاشم الأموي الدمشقي ، وكانت داره بدمشق تلي دار الحجارة ، وكان عالماً شاعراً ، وينسب
إليه شيء من علم الكيمياء ، وكان يعرف شيئاً من علوم الطبيعة ، روى عن أبيه ودحية الكلبي وعنه
الزهري وغيره ، قال الزهري : كان خالد يصوم الأعياد كلها الجمعة والسبت والأحد - يعني يوم
الجمعة وهو عيد المسلمين ، ويوم السبت وهو عيد اليهود ، والأحد للنصارى - وقال أبو زرعة
الدمشقي : كان هو وأخوه معاوية من خيار القوم ، وقد ذكر للخلافة بعد أخيه معاوية بن يزيد ، وكان
ولي العهد من بعد مروان فلم يلبث له الأمر ، وكان مروان زوج أمه ، ومن كلامه : أقرب شيء
الأجل ، وأبعد شيء الأمل ، وأرجى شيء العمل ، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال :

سألت النداء والجود خراً إننا • فرداً وقالنا إننا لمبيد

قللت ومن مولا كما فنتاولا • علي وقال خالد بن يزيد

قال : فأمر له بمائة ألف . قلت : وقد رأيتهما قد أنشدا في خالد بن الوليد رضي الله عنه . قال :
وقال خالد بن وليد . والله أعلم . وخالد بن يزيد هذا كان أميراً على حمص ، وهو الذي بنى جامع
حمص وكان له فيه أربع مائة عبد يعملون ، فلما فرغ منه اعتقهم . وكان خالد يبغض الحجاج ، وهو
الذي أشار على عبد الملك لما تزوج الحجاج بنت جعفر أن يرسل إليه فيطلقها ففعل . ولما مات مشي
الوليد في جنازته وصلى عليه ، وكان قد تجدد على خالد اصفرار وضعف ، فسأله عبد الملك عن هذا
فلم يجبره فما زال حتى أخبره أنه من حب رملة أخت مصعب بن الزبير ، فأرسل عبد الملك بخطبها
لخالد فقالت : حتى يطلق نساءه فطلقهن وتزوجها وأنشد فيها الشعر .
وكانت وفاته في هذا العام ، وقيل في سنة أربع وثمانين وقد ذكر هناك ، والصحيح الأول .

عبد الله بن الزبير

ابن سليم الأمدى الشاعر أبو كثير ، ويقال أبو سعيد ، وهو مشهور ، وقد على عبد الله بن

BBB

الزبير فامتدحه فلم يعطه شيئاً فقال : لعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال ابن الزبير : إن وصاحبها ،
يقال إنه مات في زمن الحجاج .

ثم دخلت سنة احدى وتسعين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد ، وفيها غزا مسلمة بلاد
الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصونا كثيرة أيضاً ، وكان الوليد قد
عزل عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان وولاهما أخاه مسلمة بن عبد الملك . وفيها غزا
موسى بن نصير بلاد المغرب ففتح مدنا كثيرة ودخل في تلك البلاد وولج فيها حتى دخل أراضي
غابرة قاصية فيها آثار قصور وبيوت ليس بها ساكن ، ووجد هناك من آثار نعمة أهل تلك البلاد
ما يلوح على سماتها أن أهلها كانوا أصحاب أموال ونعمة دارة سائفة ، فبادوا جميعاً فلا مخبر بها .
وفيها مهد قتيبة بن مسلم بلاد الترك الذين كانوا قد نقضوا ما كانوا عاهدوه عليه من المصالحة ،
وذلك بعد قتال شديد وحرب يشيب لها الوليد ، وذلك أن ملوكهم كانوا قد اتعدوا في العام الماضي في
أول الربيع أن يجتمعوا ويقاتلوا قتيبة ، وأن لا يولوا عن القتال حتى يخرجوا العرب من بلادهم ،
فاجتمعوا اجتماعاً هائلاً لم يجتمعوا مثله في موقف ، فكسروهم قتيبة وقتل منهم أمما كثيرة ، ورد الأمور
إلى ما كانت عليه ، حتى ذكر أنه صلب منهم في بعض المواضع من جملة من أخذه منهم سباطين طولهما
أربعة فراسخ من هنا وهناك ، عن يمينه وشماله ، صلب الرجل منهم بجذب الرجل ، وهذا شيء كثير ،
وقتل في الكفار قتلاً ذريعاً ، ثم لا يزال يقتبع نيزك خان ملك الترك الأعظم من إقليم إلى إقليم ،
ومن كورة إلى كورة ، ومن رستاق إلى رستاق ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبه حتى حصره في قلعة هناك
شهرين متتابعين ، حتى نفذ ما عند نيزك خان من الأطمعة ، وأشرف هو ومن معه على الهلاك ،
فبعث إليه قتيبة من جاء به مستأمناً مذموماً مخذولاً ، فسجنه عنده ثم كتب إلى الحجاج في أمره فجاء
الكتاب بعد أربعين يوماً بقتله ، فجمع قتيبة الأمراء فاستشارهم فيه فاختلفوا عليه ، فقائل يقول :
اقتله . وقائل يقول لا تقتله فقال له بعض الأمراء : إنك أعطيت الله عهداً أنك إن ظفرت به لتقتله ،
وقد أمكنك الله منه ، فقال قتيبة : والله إن لم يبق من عمرى إلا مايسع ثلاث كلمات لتقتله ، ثم قال :
اقتلوه اقتلوه اقتلوه ، فقتل هو وسبعائة من أصحابه من أمرائه في غداة واحدة ، وأخذ قتيبة من أموالهم
وخيوهم وثيابهم وأبنائهم ونساءهم شيئاً كثيراً ، وفتح في هذا العام مدنا كثيرة ، وقرر ممالك كثيرة .
وأخذ حصونا كثيرة مشحونة بالأموال والنساء ، ومن آنية الذهب والفضة شيئاً كثيراً ، ثم سار قتيبة
إلى الطالقان - وهي مدينة كبيرة وبها حصون وأقاليم - فأخذها واستعمل عليها ، ثم سار إلى الفارياب
وبها مدن ورساتيق ، فخرج إليه ملكها سامعاً مطيعاً ، فاستعمل عليها رجلاً من أصحابه ، ثم سار إلى

الجوزجان فأخذنها من ملكها واستعمل عليها ، ثم أتى بلخ فدخلها وأقام بها يوماً واحداً ، ثم خرج منها و قصد نيزك خان بيفلان ، وقد نزل نيزك خان معسكر أعلى فم الشعب الذي منه يدخل إلى بلاده ، وفي فم الشعب قلعة عظيمة تسمى شمسية ، لعلوها وارتفاعها واتساعها . فقدم على قتيبة الرؤب خان ملك الرؤب وسمنجان ، فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل القلعة ، فأمنه وبعث معه رجلاً إلى القلعة فاتوا ليلاً ففتحوها وقتلوا خلتاً من أهلها وهرب الباقي ، ودخل قتيبة الشعب وأتى سمنجان - وهي مدينة كبيرة - فأقام بها وأرسل أخاه عبد الرحمن خلف ملك تلك المدن والبلاد نيزك خان في جيش هائل ، فسار خلفه إلى بيفلان فحصره بها ، وأقام بمحصاره شهرين حتى نفذ ما عنده من الأقوات ، فأرسل قتيبة من عنده ترجماناً يسمى الناصح ، فقال له : اذهب فأتني بنيزك خان ولئن عدت إلى وليس هو معك ضربت عنقك . وأرسل قتيبة معه هدايا وأطعمة فاخرة ، فسار الترجمان إلى نيزك حتى أتاه وقدم إليه الأطعمة فوقع عليها أصحابه يتخاطفونها - وكانوا قد أجهدهم الجوع - ثم أعطاه الناصح الأمان وحلف له ، فقدم به على قتيبة ومعه سبعمائة أمير من أصحابه ومن أهل بيته جماعة . وكذلك استأمن قتيبة جماعة من الملوك فأمنهم وولى على بلادهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الواقدي وغيره : وحج بالناس في هذه السنة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فلما قرب من المدينة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه فرحب بهم وأحسن إليهم ، ودخل المدينة النبوية فأخلى له المسجد النبوي ، فلم يبق به أحد سوى سعيد بن المسيب لم يتجاسر أحد أن يخرج به ، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم ، فقالوا له : تنح عن المسجد أيها الشيخ ، فإن أمير المؤمنين قادم ، فقال : والله لا أخرج منه ، فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه يصلي ههنا وههنا ويدعو الله عز وجل ، قال عمر بن عبد العزيز : جعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه ، فحانت منه النفاتة فقال : من هذا هو سعيد بن المسيب ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلم عليك . فقال : قد عدت بنفضه لنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه وإنه ، وشرعت أتني عليه ، وشرع الوليد يثنى عليه بالعلم والدين ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر - وإنما قلت ذلك لأعذر له - فقال : نحن أحق بالسمى إليه ، فجاء فوقف عليه فلم عليه فلم يقيم له سعيد ، ثم قال الوليد : كيف الشيخ ؟ فقال : بخير والحمد لله ، كيف أمير المؤمنين ؟ فقال الوليد : بخير والحمد لله وحده ، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز : هذا فقيه الناس . فقال : أجل يا أمير المؤمنين . قالوا : ثم خطب الوليد على منبر رسول الله (س) ، فجلس في الخطبة الأولى وانتصب في الثانية ، قال وقال : هكذا خطب عثمان ، ثم انصرف فصرف ببلى الناس من أهل المدينة ذهباً كثيراً وفضة كثيرة ، ثم كسا المسجد النبوي كسوة من كسوة الكعبة التي معه ، وهي من ديباح غليظ .

وتوفي في هذه السنة السائب بن يزيد بن سعد بن تمامة ، وقد حج به أبوه مع رسول الله (ص) ، وكان عمر السائب سبع سنين ، رواه البخاري فهذا قال الواقدي : إنه ولد سنة سنة ثلاث من الهجرة ، وتوفي سنة إحدى وتسعين . وقال غيره : سنة ست وقيل ثمان وثمانين ، والله أعلم .

سهل بن سعد الساعدي

صحابي مدني جليل ، توفي رسول الله (ص) ، وله من العمر خمس عشرة سنة ، وكان ممن ختمه الحجاج في عنقه هو وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله في يده ، لينظم كيلا يسمع الناس من رأيهم ، قال الواقدي : توفي سنة إحدى وتسعين عن مائة سنة ، وهو آخر من مات في المدينة من الصحابة . قال محمد بن سعد : ليس في هذا خلاف ، وقد قال البخاري وغيره : توفي سنة ثمان وثمانين والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين

فيها غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ففتحوا حصونا كثيرة وغنما شيئا كثيرا وهربت منهم الروم إلى أقصى بلادهم ، وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بلاد الأندلس في اثني عشر ألفا ، فخرج إليه ملكها أدرينوق في جحافة وعليه تاجه ومعه سرير ملكه ، فقاتله طارق فهزمه وغنم مافي معسكره ، فكان من جملة ذلك السرير ، وتملك بلاد الأندلس بكما . قال الذهبي : كان طارق بن زياد أمير طنجة وهي أقصى بلاد المغرب ، وكان نائبا لمولاه موسى بن نصير ، فكتب إليه صاحب الجزيرة الخضراء يستنجد به على عدوه ، فدخل طارق إلى جزيرة الأندلس من زقاق سبتة وانتهز الفرصة لمكون الفرنج قد اقتتلوا فيما بينهم ، وأمن طارق في بلاد الأندلس فافتتح قرطبة وقتل ملكها ادرينوق ، وكتب إلى موسى بن نصير بالفتح ، فحسده موسى على الانفراد بهذا للفتح ، وكتب إلى الوليد يبشره بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده لكونه دخل بغير أمره ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، ثم سار إليه مسرعا بجيوشه فدخل الأندلس ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، فأقام سنين يفتح في بلاد الأندلس ويأخذ المدن والأموال ، ويقتل الرجال ويأسر النساء والأطفال ، فغنم شيئا لا يحمد ولا يوصف ولا يعد ، من الجواهر واليواقيت والذهب والفضة ، ومن آنية الذهب والفضة والأثاث والخيول والبغال وغير ذلك شيئا كثيرا ، وفتح من الأقاليم الكبار والمدن شيئا كثيرا . وكان مما فتح مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد من حصون بلاد الروم حصن سوسنة وبلغنا إلى خليج القسطنطينية .

وفيها فتح قتيبة بن مسلم شومان وكش ونسف ، وامتنع عليه أهل فرياب فأحرقها ، وجهر أخاه عبد الرحمن إلى الضغد إلى طرخون خان ملك تلك البلاد ، فصالحه عبد الرحمن وأعطاه طرخون خان

أموالا كثيرة ، وقدم على أخيه وهو ببخارى فرجع إلى مرو ، ولما صالح طرخون عبد الرحمن ورجل
عنه اجتمعت الصفد وقالوا لطرخون : إنك قد بؤت بالذل ، وأديت الجزية ، وأنت شيخ كبير ،
فلا حاجة لنا بك ، ثم عزلوه وولوا عليهم غورك خان - أخا طرخون خان - ثم إنهم عصوا ونقضوا
العهد ، وكان من أمرهم ما سيأتي .

وفيها غزا قتيبة سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم ، فلما انتهى إلى أول مملكة رتبيل
تلقته رسلة يريدون منه الصلح على أموال عظيمة ، خيول ورقيق ونساء من بنات الملوك ، يحمل
ذلك إليه ، فصالحه . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز نائب المدينة . وتوفي فيها من الأعيان
مالك بن أوس بن الحدادان النضري ، أبو سعيد المدني ، مختلف في صحبته ، قال بعضهم : ركب
الخليل في الجاهلية ورأى أبا بكر ، وقال محمد بن سعد : رأى رسول الله (س) ، ولم يحفظ منه شيئاً ،
وأنكر ذلك ابن معين والبخارى وأبو حاتم ، وقالوا : لا تصح له صحبة والله أعلم . مات في هذه السنة
وقيل في التي قبلها والله أعلم .

طويس المغني

اسمه عيسى بن عبد الله أبو عبد المنعم المدني مولى بني مخزوم ، كان بارعاً في صناعته ، وكان
طويلاً مضطرباً أحول العين ، وكان مشثوماً ، لأنه ولد يوم مات رسول الله (س) ، وفطم يوم توفي
الصديق ، واحتلم يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل الحسين بن علي ، وقيل ولد
له يوم قتل علي . حكاه ابن خلكان وغيره . وكانت وفاته في هذه السنة عن ثنتين وثمانين سنة
بالسويد - وهي على مرحلتين من المدينة - الأخطل كان شاعراً مطبقاً ، فاق أقرانه في الشعر .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين

وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك حصونا كثيرة من بلاد الروم ، منها حصن الحديد وغزاة وماسة
وغير ذلك . وفيها غزا العباس بن الوليد ففتح سمسطية . وفيها غزا مروان بن الوليد الروم حتى بلغ
حنجرة . وفيها كتب خوارزم شاه إلى قتيبة يدعوه إلى الصلح وأن يعطيه من بلاده مدائن ، وأن
يدفع إليه أموالاً ورقيقاً كثيراً على أن يقاتل أخاه ويسلمه إليه ، فانه قد أفسد في الأرض وبني
على الناس وعسفهم ، وكان أخوه هذا لا يسمع بشئ حسن عند أحد إلا يبعث إليه فأخذه منه ،
سواء كان مالا أو نساء أو صبيانا أو دواب أو غيره ، فأقبل قتيبة نصره الله في الجيوش فلم إليه
خوارزم شاه ماصالحه عليه ، وبعث قتيبة إلى بلاد أخي خوارزم شاه جيشاً قتلوا منهم خلقاً كثيراً
وأسروا أخاه ومعه أربعة آلاف أسير من كبارهم ، فدفع أخاه إليه ، وأمر قتيبة بالأسارى فضربت
أعناقهم بحضرته ، قيل ألفا بين يديه وألفا عن يمينه وألفا عن شماله وألفا من وراء ظهره ، ليرهب
بذلك الأعداء من الأتراك وغيرهم .

فتح سمرقند

وذلك أن قتيبة لما فرغ من هذا كله وعزم على الرجوع إلى بلاده ، قال له بعض الأمراء : إن أهل الصفد قد أمنوك عامك هذا ، فإن رأيت أن تعدل إليهم وهم لا يشعرون ، فانك متى فعلت ذلك أخذتها إن كنت تريدنا يوماً من الدهر . فقال قتيبة لذلك الأمير : هل قلت هذا لأحد ؟ قال : لا ! قال فلأن يسمعه منك أحد أضرب عنقك . ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بين يديه في عشرين ألفاً فسبقه إلى سمرقند ، ولحقه قتيبة في بقية الجيش ، فلما سمعت الأتراك بقدمهم إليهم انتخبوا من بينهم كل شديد السطوة من أبناء الملوك والأمراء ، وأمرهم أن يسيروا إلى قتيبة في الليل فيكبسوا جيش المسلمين ، وجاءت الأخبار إلى قتيبة بذلك فجرد أخاه صالحاً في ستمائة فارس من الأبطال الذين لا يطاقون ، وقال : خذوا عليهم الطريق ، فساروا فوقفوا لهم في أثناء الطريق وتفرقوا ثلاث فرق ، فلما اجتازوا بهم بالليل - وهم لا يشعرون بهم - نادوا عليهم فاقنتل المسلمون هم وإياهم ، فلم يفلت من أولئك الأتراك إلا نفر اليسير واحتزوا رهوسهم وغنموا ما كان معهم من الأسلحة المجلاة بالذهب ، والأمتعة ، وقال لهم بعض أولئك : تعلمون أنكم لم تقتلوا في مقامكم هذا إلا ابن ملك أو بطل من الأبطال المدودين بمائة فارس أو بألف فارس ، فنقلهم قتيبة جميع ما غنموه منهم من ذهب وسلاح ، واقترب من المدينة العظمى التي بالصفد - وهي سمرقند - فنصب عليها المجانيق فرماها بها ، وهو مع ذلك يقاتلهم لا يقلع عنهم ، وناصحه من معه عليها من بخارى وخوارزم ، فقاتلوا أهل الصفد قتلاً شديداً ، فأرسل إليه غورك ملك الصفد : إنما تقاتلني باخواني وأهل بيتي ، فأخرج إلى في العرب . فغضب عند ذلك قتيبة وميز العرب من العجم وأمر العجم باعتزالهم ، وقدم الشجعان من العرب وأعطاهم جيد السلاح ، وانزعه من أيدي الجبناء ، وزحف بالأبطال على المدينة ورمها بالمجانيق ، فلم فيها ثلثة فسدها الترك بفرار الدخن ، وقام رجل منهم فوقها فجعل يشتم قتيبة فرماه رجل من المسلمين بسهم فقلع عينه حتى خرجت من قفاه . فلم يلبث أن مات قبحة الله ، فأعطى قتيبة الذي رماه عشرة آلاف ، ثم دخل الليل ، فلما أصبحوا رماهم بالمجانيق فلم أيضاً ثلثة وصعد المسلمون فوقها ، وترامواهم وأهل البلد بالنشاب ، فقالت الترك لقتيبة : ارجع عنا يملك هذا ونحن نصلحك غداً ، فرجع عنهم وصالحوه من الغد على ألفي ألف ومائة ألف يحملونها إليه في كل عام ، وعلى أن يعطوه في هذه السنة ثلاثين ألف رأس من الرقيق ، ليس فيهم صغير ولا شيخ ولا عيب ، وفي رواية مائة ألف من رقيق ، وعلى أن يأخذ حلية الأصنام ومافي بيوت النيران ، وعلى أن يخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبني فيها قتيبة مسجداً ، ويوضع له فيه منبر يخطب عليه ، ويتغدى ويخرج . فأجابوه إلى ذلك ، فلما دخلها قتيبة دخلها ومعه أربعة آلاف من الأبطال - وذلك بعد أن بنى المسجد

ووضع فيه المنبر - فصلى في المسجد وخطب وتعدى وأنى بالأصنام التي لهم فسلبت بين يديه ، وألقبت بعضها فوق بعض ، حتى صارت كالقصر العظيم ، ثم أمر بنحريقها ، فتصارخوا وتباكوا وقال المجوس : إن فيها أصناماً قديمة من أحرقتها هلك ، وجاء الملك غورك قهسى عن ذلك ، وقال لقتيبة : إني لك ناصح ، فقام قتيبة وأخذ في يده شملة نار وقال : أنا أحرقتها بيدي فكيونى جميعاً ثم لا تنتظرون ، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل ، وألقى فيها النار فاحترقت ، فوجد من بقاياها ما كان فيها من الذهب خمسون ألف مثقال من ذهب . وكان من جملة ما أصاب قتيبة في السبي جارية من ولد يزدجرد ، فأهداها إلى الوليد فولدت له يزيد بن الوليد ، ثم استدعى قتيبة بأهل ممرقند فقال لهم : إني لا أريد منكم أكثر مما صالحكم عليه ، ولكن لا بد من جند يقيمون عندهم من جهتنا . فانتقل عنها ملكها غورك خان فتلا قتيبة [وأنه أهلك عاداً الأولى ونمود فما أبقى] الآيات ثم ارتحل عنها قتيبة إلى بلاد مرو ، واستخلف على ممرقند أخاه عبد الله بن مسلم ، وقال له : لا تدع مشركاً يدخل باب ممرقند إلا محتوم اليد ، ثم لا تدعه بها إلا مقدار ما تجف طينه ختمه ، فان جفت وهو بها فاقته ، ومن رأيت منهم ومعه حديده أو سكينه فاقته بها ، وإذا أغلقت الباب فوجدت بها أحداً فاقته ، فقال في ذلك كعب الأشقرى - ويقال هي لرجل من جعفي :-

كل يوم يحوى قتيبة نهياً * ويزيدُ الأموالَ مالاً جديداً
 باهليّ قد ألبسَ التاجَ حتى • شابَ منه مفارقُ كنّ سودا
 دوخَ الصّفدَ بالكتائبِ حتى • تركَ الصّفدَ بالعراءِ قعودا
 فوليدٌ يبكي لفقده أبيه • وأبٌ موجعٌ يبكي الوليدا
 كلما حلّ بلدةٌ أو أناها • تركته خيلهُ بها أخذودا

وفي هذه السنة عزل موسى بن نصير نائب بلاد المغرب مولاه طارقاً عن الأندلس ، وكان قد بعث إلى مدينة طليطلة ففتحها فوجد فيها مائة سليمان بن داود عليهما السلام ، وفيها من الذهب والجواهر شيء كثير جداً ، فبعثوا بها إلى الوليد بن عبد الملك ، فما وصلت إليه حتى مات وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ، فوصلت مائة سليمان عليه السلام إلى سليمان على ماسياتي بيانه في موضعه ، وكان فيها ما يبهر العقول ، لم ير منظر أحسن منها . واستعمل موسى بن نصير مكان مولاه ولده عبد العزيز بن موسى بن نصير . وفيها بعث موسى بن نصير العساكر وبثها في بلاد المغرب ، فافتتحوا مدناً كثيرة من جزيرة الأندلس منها قرطبة وطنجة ، ثم سار موسى بنفسه إلى غرب الأندلس فافتتح مدينة باجة والمدينة البيضاء وغيرهما من المدن الكبار والأقاليم ، ومن القرى والرساتيق شيء كثير ، وكان لا يأتي مدينة فيبرح عنها حتى يفتحها أو ينزلوا على حكمه ، وجيز البعوث والسرايا غرباً

وشرقا وشمالا ، فعملوا يفتتحون المغرب بلداً بلداً ، وإقليماً إقليمياً ، ويفتخمون الأموال ويسبون الذراري والنساء ، ورجع موسى بن نصير بفنائم وأموال ونحف لأنحصى ولا تعد كثرة .

وفيها قحط أهل إفريقية وأجدبوا جديباً شديداً ، فخرج بهم موسى بن نصير يستسقى بهم ، فإزال يدعو حتى انتصف النهار ، فلما أراد أن ينزل عن المنبر قيل له : ألا تدعو لأمر المؤمنين ؟ قال : ليس هذا الموضع موضع ذلك ، فلما قال هذه المقالة أرسل الله عليهم الغيث فأمطروا مطراً غزيراً وحسن حالهم ، وأخصبت بلادهم . وفيها ضرب عمر بن عبد العزيز خبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له في ذلك ، وعسب فوق رأسه قرية من ماء بارد في يوم شتاء بارد ، وأقامه على باب المسجد يوم ذلك فمات رحمه الله . وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خبيب شديد الخوف لا يأمن ، وكان إذا بشر بشيء من أمر الآخرة يقول : وكيف وخبيب لي بالطريق ؟ وفي رواية يقول هذا إذا لم يكن خبيب في الطريق ، ثم يصيح صياح المرأة الثكلى ، وكان إذا أتى عليه يقول : خبيب وما خبيب إن نجوت منه فأنا بخير . وما زال على المدينة إلى أن ضرب خبيباً فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذ ، وأخذ في الاجتهاد في العبادة والبكاء ، وكانت تلك هفوة منه وزلة ، ولكن حصل له بسببها خير كثير ، من عبادة وبكاء وحزن وخوف وإحسان وعدل وصدقة وبر وعتق وغير ذلك .

وفيها افتتح محمد بن القاسم - وهو ابن عم الحجاج بن يوسف - مدينة الديبل وغيرها من بلاد الهند وكان قد ولاء الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة ، فسار في الجيوش فلقوا الملك داهر - وهو ملك الهند - في جمع عظيم ومعه سبع وعشرون فيلاً منتخبة ، فاقتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر ، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جداً فاقتلوا قتلاً شديداً قتل الملك داهر وغالب من معه ، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه ثم سار محمد بن القاسم فاقتتح مدينة الكبرج وبرها ورجع بفنائم كثيرة وأموال لأنحصى كثرة ، من الجواهر والذهب وغير ذلك . فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبجرها ، وقد أذلوا الكفر وأهله ، وامتلات قلوب المشركين من المسلمين رعباً ، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخفوه ، وكان في عسا كرم وجيوشهم في الغزو والصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين ، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه . فقتيبة ابن مسلم بفتح في بلاد الترك ، يقتل ويسبي ويفتم ، حتى وصل إلى تخوم الصين ، وأرسل إلى ملكه يدعو ، فخاف منه وأرسل له هدايا ونحفاً وأموالاً كثيرة هدية ، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده ، بحيث إن ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفاً منه . ولوعاش الحجاج لما أقطع عن بلاد

الصين ، ولم يبق إلا أن يلتقى مع ملكها ، فلما مات الحجاج رجع الجيش كما مر . ثم إن قتيبة قتل بعد ذلك ، قتله بعض المسلمين . ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر يفتحون في بلاد الروم ويجهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية ، وبني بها مسلمة جامعاً يعبد الله فيه ، وامتلات قلوب الفرنج منهم رعباً . ومحمد بن القاسم ابن أخي الحجاج يجاهد في بلاد الهند ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم . وموسى بن نصير يجاهد في بلاد المغرب ويفتح مدنها وأقاليمها في جيوش الديار المصرية وغيرهم . وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الإسلام وتركوا عبادة الأوثان . وقبل ذلك قد كان الصحابة في زمن عمر وعثمان فتحوا غالب هذه النواحي ودخلوا في مبانيها ، بعد هذه الأقاليم الكبار ، مثل الشام ومصر والعراق واليمن وأوائل بلاد الترك ، ودخلوا إلى ما وراء النهر وأوائل بلاد المغرب ، وأوائل بلاد الهند . فكان سوق الجهاد قائماً في القرن الأول من بعد الهجرة إلى انقضاء دولة بني أمية وفي أثناء خلافة بني العباس مثل أيام المنصور وأولاده ، والرشيد وأولاده ، في بلاد الروم والترك والهند . وقد فتح محمود سبكنكين وولده في أيام ملكهم بلاداً كثيرة من بلاد الهند ، ولما دخل طائفة ممن هرب من بني أمية إلى بلاد المغرب وتملكوها أقاموا سوق الجهاد في الفرنج بها . ثم لما بطل الجهاد من هذه المواضع رجع العدو إليها فأخذ منها بلاداً كثيرة ، وضعف الإسلام فيها ، ثم لما استولت دولة الفاطميين على الديار المصرية والشامية ، وضعف الإسلام وقل ناصره ، وجاء الفرنج فأخذوا غالب بلاد الشام حتى أخذوا بيت المقدس وغيره من البلاد الشامية ، فأقام الله سبحانه بنى أيوب مع نور الدين ، فاستلبوها من أيديهم وطردهم عنه ، فله الحمد والمنة ، وسيأتي ذلك كله في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وفيها عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن إمرة المدينة ، وكان سبب ذلك ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد يخبره عن أهل العراق أنهم في ضيم وضيق مع الحجاج من ظلمه وغشمه ، فسمع بذلك الحجاج فكتب إلى الوليد : إن عمر ضعيف عن إمرة المدينة ومكة ، وهذا وهن وضعف في الولاية ، فأجعل على الحرمين من يضبط أمرهما . فولى على المدينة عثمان بن حيان ، وعلى مكة خالد بن عبد الله القسري ، وفعل ما أمره به الحجاج . فخرج عمر بن عبد العزيز من المدينة في شوال فقتل السويدياء ، وقدم عثمان بن حيان المدينة لليلتين بقيتا من شوال من هذه السنة .

وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . ومن توفي في هذه السنة من الأعيان :

أنس بن مالك

ابن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار ، أبو حمزة

٢٢٢

ويقال أبو ثمامة الأنصاري النجاري ، خادم رسول الله -ص- ، وصاحبه ، وأمه أم حرام مليكة بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام ، زوجة أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري . روى عن رسول الله -ص- ، أحاديث جمّة ، وأخبر بعلوم مهمّة . وروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وغيرهم . وحدث عنه خلق من التابعين ، قال أنس : قدم رسول الله -ص- المدينة وأنا ابن عشر سنين ، وتوفى وأنا ابن عشرين سنة . وقال محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن ثمامة قال قيل لأنس : أشهدت بدرًا ؟ فقال : وأين أغيب عن بدر لا أم لك ؟ قال الأنصاري : شهدها بخدم رسول الله -ص- . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : لم يذكر ذلك أحد من أصحاب المغازي ، قلت : الظاهر أنه إنما شهد ما بعد ذلك من المغازي والله أعلم .

وقد ثبت أن أمه أتت به - وفي رواية عمه زوج أمه أبو طلحة - إلى رسول الله -ص- فقالت : يا رسول الله هذا أنس خادم لبيب بخدمك ، فوهبته منه قبليه ، وسألته أن يدعو له فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . وثبت عنه أنه قال : كنت أرى رسول الله -ص- نخلة كنت أجتنيها . وقد استعمله أبو بكر ثم عمر على عمالة البحرين وشكراه في ذلك ، وقد انتقل بعد النبي -ص- فسكن البصرة ، وكان له بها أربع دور ، وقد ناله أذى من جهة الحجاج ، وذلك في فتنة ابن الأشعث ، توهم الحجاج منه أنه له مداخل في الأمر ، وأنه أقتى فيه ، فختمه الحجاج في عنقه ، هذا عنق الحجاج ، وقد شكاه أنس كما قدمنا إلى عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج يعنفه ، ففرغ الحجاج من ذلك وصالح أنس . وقد وفد أنس على الوليد بن عبد الملك في أيام ولايته ، قيل في سنة ثنتين وتسعين ، وهو ببني جامع دمشق ، قال مكحول : رأيت أنسًا يمشي في مسجد دمشق فقامت إليه فسألته عن الوضوء من الجنابة فقال : لا وضوء . وقال الأوزاعي : حدثني إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر قال : قدم أنس على الوليد فقال له الوليد : ماذا سمعت من رسول الله -ص- . يذكر به الساعة ؟ فقال : سمعت رسول الله -ص- يقول : « أنتم والساعة كهاتين » . ورواه عبد الرزاق بن عمر عن إسماعيل قال : قدم أنس على الوليد في سنة ثنتين وتسعين فذكره . وقال الزهري : دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ قال : لا أعرف مما كان رسول الله -ص- وأصحابه إلا هذه الصلاة ، وقد صنعت فيها ما صنعت . وفي رواية وهذه الصلاة قد ضيقت - يعني ما كان يفعله خلفاء بني أمية من تأخير الصلاة إلى آخر وقتها الموسع - كانوا يواظبون على التأخير إلا عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته كما سيأتي ، وقال عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس . قال : جاءت بي أمي إلى رسول الله -ص- وأنا غلام فقالت : يا رسول الله خويدمك أنيس فداع الله له . فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . قال : فقد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة ، وفي

رواية قال أنس : فوالله إن مالي لكثير حتى نمخى وكرمي ليشر في السنة مرتين ، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو المائة ، وفي رواية وإن ولدي لصلبي مائة وستة . ولهذا الحديث طرق كثيرة وألفاظ منتشرة جداً ، وفي رواية قال أنس : وأخبرتني بنتي آمنة أنه دفن لصلبي إلى حين مقدم الحجاج عشرون ومائة . وقد تقصى ذلك بطرقه وأسانيده وأورد ألفاظه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أنس ، وقد أوردنا طرفاً من ذلك في كتاب دلائل النبوة في أواخر السيرة والله الحمد . وقال ثابت لأنس : هل مست يدك كف رسول الله (س) ؟ قال : نعم ! قال فأعطينها أقبليها ، وقال محمد بن سعد عن مسلم بن إبراهيم عن المثني بن سعيد الذراع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي رسول الله (س) ، ثم يبكي . وقال محمد بن سعد عن أبي نعيم عن يونس بن أبي إسحاق عن المنهال بن عمرو . قال : كان أنس صاحب نعل رسول الله (س) ، وإداوته ، وقال أبو داود : ثنا الحكم بن عطية عن ثابت عن أنس . قال : إني لأرجو أن ألقى رسول الله (س) ، فأقول : يا رسول الله خويدمك .

وقال الامام أحمد : حدثنا يونس ثنا حرب بن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس . قال : سألت رسول الله (س) ، أن يشفع لي يوم القيامة : « قال أنا فاعل ، قلت فأين أطلبك يوم القيامة يا نبي الله ؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط ، قلت : فإذا لم ألقك ؟ قال : فأنا عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال فأنا عند الحوض لا أخطئ هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة . » ورواه الترمذي وغيره من حديث حرب بن ميمون أبي الخطاب صاحب الأعمش الأنصاري به وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال شعبة عن ثابت قال قال أبو هريرة : ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله (س) من ابن أم سليم - يعني أنس بن مالك - وقال ابن سيرين : كان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر . وقال أنس : خذ مني فأنا أخذت من رسول الله (س) ، عن الله عز وجل ، ولست نجهد أوثق مني . وقال معتمر بن سليمان عن أبيه سمعت أنساً يقول : ما بقي أحد صلى إلى القبلتين غيري . وقال محمد بن سعد : حدثنا عفان حدثني شيخ لنا يكنى أبا جناب سمعت الحريري يقول : أحرم أنس من ذات عرق فما سمعناه متكلماً إلا بذكر الله عز وجل حتى أحل ، فقال لي : يا ابن أخي هكذا الأحرام . وقال صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف : دخل علينا أنس يوم الجمعة ونحن في بعض أبيات أزواج النبي (س) ، تتحدث فقال : مه ، فلما أقيمت الصلاة قال : إني لأخاف أن أكون قد أبطلت جمعتي بقولي لكم مه . وقال ابن أبي الدنيا : ثنا بشار ابن موسى الخفاف ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت قال : كنت مع أنس فجاءت قهرمانة فقالت يا أبا حمزة عطشت أرضنا ، قال فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب

يلتم ثم أمطرت حتى خيل إلينا أنها ملأت كل شيء ، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال :
انظر أين بلغت السماء ، فنظر فلم تعد أرضه إلا بسيراً .

وقال الامام أحمد : حدثنا معاذ بن معاذ ثنا ابن عون عن محمد قال : كان أنس إذا حدث عن
رسول الله (ص) ، حديثاً ففرغ منه قال : أو كما قال رسول الله (ص) . وقال الأنصاري عن ابن عوف
عن محمد قال : بعث أمير من الأمراء إلى أنس شيئاً من النبي فقال أخمس ؟ قال : لا ، فلم يقبله : وقال
النضر بن شداد عن أبيه : مرض أنس فتبيل له ألا ندعوك الطبيب ؟ فقال : الطبيب أمرضني .
وقال حنبل بن إسحاق : ثنا أبو عبد الله الرقاشي ثنا جعفر بن سليمان ثنا علي بن يزيد قال : كنت
في القصر مع الحجاج وهو يعرض الناس ليألي ابن الأشعث ، فجاء أنس بن مالك فقال الحجاج : هي
يا خبيث ، جوال في الفتن ، مرة مع علي ، ومرة مع ابن الزبير ، ومرة مع ابن الأشعث ، أما والذي
نفس الحجاج بيده لأستأصلك كما تستأصل الصمغة ، ولأخردنك كما تجرد الضب . قال يقول أنس :
إياي يعني الأمير ؟ قال إياك أعني ، أصم الله سمعك ، قال فاسترجع أنس ، وشغل الحجاج فخرج
أنس فتبعناه إلى الرحبة ، فقال : لولا أني ذكرت ولدي - وفي رواية لولا أني ذكرت أولادي
الصفار - وخفته عليهم ما باليت أي قتل أقتل ، ولكلمته بكلام في مقامى هذا لا يستخفني بعمده
أبداً . وقد ذكر أبو بكر بن عياش أن أنسا بعث إلى عبد الملك يشكو إليه الحجاج ويقول : والله
لو أن اليهود والنصارى رأوا من خدم نبيهم لأكرموه ، وأنا قد خدمت رسول الله (ص) عشر سنين .
فكتب عبد الملك إلى الحجاج كتاباً فيه كلام جد وفيه : إذا جاءك كتابي هذا فقم إلى أبي حمزة
فقرضاً وقبل يده ورجله ، وإلا حل بك مني ما تستحقه . فلما جاء كتاب عبد الملك إلى الحجاج
بالغلظة والشدة ، هم أن ينهض إليه فأشار عليه إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، الذي قدم
بالكتاب أن لا يذهب إلى أنس ، وأشار على أنس أن يبادر إلى الحجاج بالمصالحة - وكان إسماعيل
صديق الحجاج - فجاء أنس فقام إليه الحجاج يتلقاه ، وقال : إنما منلى ومثلك إياك أعني واسمعي
ياجارة . أردت أن لا يبقى لأحد على منطق .

وقال ابن قتيبة : كتب عبد الملك إلى الحجاج - لما قال لأنس ما قال - : يا ابن المستقرة عجب
الزبيب لقد هممت أن أركلك ركلة تهوى بها إلى نار جهنم ، قاتلك الله أخيفش العينين ، أفتبل
الرجلين ، أسود العاجزين - ومعنى قوله المستقرة عجب الزبيب - أي تضيق فرجها عند الجماع به ،
ومعنى أركلك أي أرفسك برجلي ، وسيأتي بسط ذلك في ترجمة الحجاج في سنة خمس وتسعين . وقال
أحمد بن صالح العجلي : لم يبتل أحد من الصحابة إلا لرجلين ، معيقب كان به الجذام ، وأنس بن
مالك كان به وضع . وقال الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر قال :

رأيت أنسا يأكل فرايته يلقم لقما عظاماً ، ورأيت به وضحا شديداً . وقال أبو يعلى : ثنا عبد الله ابن معاذ بن يزيد عن أيوب قال : ضعف أنس عن الصوم فصنع طعاماً ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم . وذكره البخاري تعليقا . وقال شعبة عن موسى السنبلاوي قلت لأنس : أنت آخر من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ . قال : قد بقي قوم من الأعراب ، فأما من أصحابه فأنا آخر من بقي ، وقيل له في مرضه : ألا ندعوك طبيياً ؟ فقال : الطبيب أمرضني ، وجعل يقول : لفتوني لا إله إلا الله وهو محتضر ، فلم يزل يقولها حتى قبض . وكانت عنده عصية من رسول الله ﷺ ، فأمر بها فدفنت معه . قال عمر بن شبة وغير واحد : مات وله مائة وسبع سنين ، وقال الامام أحمد في مسنده : ثنا معتمر بن سليمان عن حميد أن أنسا عمر مائة سنة غير سنة ، قال الواقدي : وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة ، وكذا قال علي بن المديني والفلاس وغير واحد . وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقيل سنة تسعين ، وقيل إحدى وتسعين ، وقيل ثنتين وتسعين وقيل ثلاث وتسعين ، وهذا هو المشهور وعليه الجمهور والله أعلم . وقال الامام أحمد : حدثني أبو نعيم قال : توفي أنس بن مالك وجابر بن زيد في جمعة واحدة سنة ثلاث وتسعين . وقال قتادة : لما مات أنس قال مؤرق العجلي : ذهب اليوم نصف العلم ، قيل له وكيف ذلك يا أبا المعتمر ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفونا في الحديث عن رسول الله ﷺ ، قلنا لهم : آملوا إلى من سمعه منه .

عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، الشاعر المشهور ، يقال إنه ولد يوم توفي عمر بن الخطاب ، وختن يوم مقتل عثمان ، وتزوج يوم مقتل علي ، فله أعلم ، وكان مشهوراً بالتغزل المليح البليغ ، كان يتغزل في امرأة يقال لها الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية ، وقد تزوجها سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة : -

أبها النكحُ الثريا سُهَيْلاً * عمركُ اللهُ كيف يلتقيان

هي شاميةٌ إذا ما استقلت * وسهيلٌ إذا استقلَّ يمان

ومن مستجد شعره ما أورده ابن خلكان :

حيّ طيفاً من الأحبة زارا * بعد ما برح الكرى السمارا

طارقاً في المنام بعد دجى * الليل خفياً بأن يزور نهارا

قلت ما بالنا جفينا وكنا * قبل ذاك الأسماع والأبصارا

قال : إنا كعهدت ولكن * شغل الحلي أهله أن يعارا

بلال بن أبي الرداء

ولى إمرة دمشق ثم ولى القضاء بها ، ثم عزله عبد الملك بأبي إدريس الخولاني . كان بلال حسن السيرة ، كثير العبادة ، والظاهر أن هذا القبر الذى بباب الصغير الذى يقال له قبر بلال ، إنما هو قبر بلال بن أبي الرداء ، لا قبر بلال بن حمزة مؤذن رسول الله (ص) ، فان بلالاً المؤذن دفن بدارياً والله أعلم .

بشر بن سعيد

المزنى السيد العابد الفقيه ، كان من العباد المنقطعين ، الزهاد المعروفين ، توفى بالمدينة .

زرارة بن أوفى

ابن حاجب العامري ، قاضى البصرة ، كان من كبار علماء أهل البصرة وصلحائها ، له روايات كثيرة ، قرأ مرة فى صلاة الصبح سورة المدثر فلما بلغ [فاذا نقر فى الناقور] خرّ ميئاً . توفى بالبصرة وعمره نحو سبعين سنة .

خبيب بن عبدالله

ابن عبد الله بن الزبير ، ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد له فى ذلك فمات ، ثم عزل عمر بعده بأيام قليلة ، فكان يتأسف على ضربه له ويبكى . مات بالمدينة .

حفص بن عاصم

ابن عمر بن الخطاب المدنى ، له روايات كثيرة ، وكان من الصالحين . توفى بالمدينة .

سعيد بن عبد الرحمن

ابن عتاب بن أسيد الأموى ، أحد الأشراف بالبصرة ، كان جواداً ممدحاً ، وهو أحد الموصوفين بالكرم ، قيل إنه أعطى بعض الشعراء ثلاثين

فروة بن مجاهد

قيل إنه كان من الأبدال ، أسر مرة وهو فى غزوة هو وجماعة معه فأتوا بهم الملك فأمر بتقييدهم وحبسهم فى المكان والاحتراز عليهم إلى أن يصبح فيرى فيهم رأيه ، فقال لهم فروة : هل لكم فى المضى إلى بلادنا ؟ فقالوا : وما ترى ما نحن فيه من الضيق ؟ فلمس قيودهم بيده فزال عنهم ، ثم أتى باب السجن فلمسه بيده فافتتح ، فخرجوا منه ومضوا ، فأدركوا جيش المسلمين قبل وصولهم إلى البلد .

ابو الشعثاء جابر بن زيد

كان لا يماكس فى ثلاث ، فى الكرى إلى مكة ، وفى الرقة يشتريها لتعتق ، وفى الأضحية . وقال : لا تماكس فى شئ يتقرب به إلى الله . وقال ابن سيرين : كان أبو الشعثاء مسلماً عند الدينار والدرهم ، قلت : كما قيل : —

لَا تَمَّاكَسْ

إني رأيتُ فلا تظنوا غيره * أن التورع عند هذا الدرهم
فاذا قدرت عليه ثم تركته * فاعلم بأن تقوى المسلم

وقال أبو الشعثاء : لأن أتصدق بدرهم على يتييم ومسكين أحب إلي من حجة بعد حجة الاسلام .
كان أبو الشعثاء من الذين أوتوا العلم ، وكان يفتي في البصرة ، وكان الصحابة مثل جابر بن عبد الله
إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول : كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء ؟ وقال له جابر بن عبد الله :
يا ابن زيد إنك من فقهاء البصرة وإنك ستسنتقي فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فانك
إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت . وقال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر
ابن زيد . وقال إياس بن معاوية : أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان . وقال
قتادة لما دفن جابر بن زيد : اليوم دفن أعلم أهل الأرض . وقال سعيد بن عيينة عن عمرو بن دينار
قال أبو الشعثاء : كذب الحكم بن أيوب نفراً للقضاء أنا أحدم - أي عمرو - فلو أني ابتليت بشيء
منه لركبت راحلتي وهربت من الأرض . وقال أبو الشعثاء : نظرت في أعمال البر فاذا الصلاة تجهد
البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن ، فرأيت أن الحج أفضل من
ذلك . وأخذ مرة قبضة تراب من حائط ، فلما أصبح رماها في الحائط ، وكان الحائط لقوم قالوا : لو كان
كلامر به أخذ منه قبضة لم يبق منه شيء . وقال أبو الشعثاء : إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف
على الباب وقل : اللهم اجعلني اليوم أوجه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجح من
دعائك ورجب إليك . وقال سيار : حدثنا حماد بن زيد ثنا الحجاج بن أبي عيينة . قال : كان جابر
ابن زيد يأتينا في مصلانا ، قال : فأنا ذات يوم وعليه نعلان خلقان ، فقال : مضى من عمرى ستون
سنة نعلاني هاتان أحب إلي مما مضى منه إلا أن يكون خير قدمته . وقال صالح الدهان : كان جابر
ابن زيد إذا وقع في يده ستوق كسره ورمى به لثلاثين مرة به مسلم . الستوق الدرهم المغاير أو الدغل
وقيل : هو المشوش .

وروى الامام أحمد : حدثنا أبو عبد الصمد العمى حدثنا مالك بن دينار قال : دخل على جابر
ابن زيد وأنا أكتب المصحف فقلت له : كيف ترى صنعتي هذه يا أبا الشعثاء ؟ قال : نعم الصنعة
صنعتك ، تنقل كتاب الله ورقة إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به
وقال مالك بن دينار : سألته عن قوله تعالى [إذا لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات] قال
ضعف عذاب الدنيا و ضعف عذاب الآخرة [ثم لا نجد لك علينا نصيراً] وقال سفيان : حدثني
أبو عمير الحارث بن عمير قال : قالوا لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي وما تريد ؟ قال : نظرة إلى
الحسن . وفي رواية عن ثابت قال : لما ثقل على جابر بن زيد قيل له : ما تشتهي ؟ قال نظرة إلى

الحسن . قال ثابت : فأتيت الحسن فأخبرته فركب إليه ، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدوني ، فجلس فما زال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب .

وقال حماد بن زيد : حدثنا حجاج بن أبي عيينة قال : سمعت هنداً بنت المهلب بن أبي صفرة - وكانت من أحسن النساء - وذكروا عندها جابر بن زيد فقالوا : إنه كان أياضياً ، فقالت : كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعاً إلى وإلى أمي ، فما أعلم عنه شيئاً ، وكان لا يعلم شيئاً يقربني إلى الله عز وجل إلا أمرني به ، ولا شيئاً يباعدني عن الله إلا نهاني عنه ، وما دعاني إلى الأباضية قط ولا أمرني بها ، وكان ليأمرني أين أضع الخمار - ووضعت يدها على الجبهة - أسند عن جماعة من الصحابة ، ومعظم روايته عن ابن عمر وابن عباس .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد أرض الروم ، فقبل إنه فتح انطاكية ، وغزا أخو عبد العزيز بن الوليد فبلغ خنزلة ، وبلغ الوليد بن هشام المعيطى أرض برج الحمام ، وبلغ يزيد بن أبي كبشة أرض سورية . وفيها كانت الرجفة بالشام : وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك سندرة من أرض الروم . وفيها فتح الله على الاسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك ، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وفيها افتتح القاسم بن محمد الثقفي أرض الهند وغنم أموالاً لا تعد ولا تحصى ، وقد ورد في غزاه المند حديث رواه الحافظ ابن عساكر وغيره . وفيها غزا قتيبة بن مسلم الشاش وفرغانة حتى بلغ خجندة ، وكاشان مدينتي فرغانة ، وذلك بعد فراغه من الصفد وفتح سمرقند ، ثم خاض تلك البلاد يفتح فيها حتى وصل إلى كابل فحاصرها وافتتحها ، وقد لقيته المشركون في جموع هائلة من الترك قتلتهم قتيبة عند خجندة فكسروهم مراراً وظفروهم ، وأخذ البلاد منهم ، وقتل منهم خلقاً وأسر آخرين ، وغنم أموالاً كثيرة جداً . قال ابن جرير : وقد قال سحبان وائل يذكر قتالهم بخجندة التي هي قرية من بلاد الصين أبياتاً في ذلك :-

فسل الفوارس في خجندة * نمت مرهفة العوالى
هل كنت أجمعهم إذا * هزموا وأقدم في قتالي
أم كنت أضرب هامة ال * مائي وأصبر للترال
هذا وأنت قريع قيد * من كلها ضخم النوال
وفضلت قيساً في الندى * وأبوك في الحجج الخوالى

تمت مروءتكم ونا * غي عزكم غلب الجبال
ولقد تبين عدل حككم * فهم في كل مال

هكذا ذكر ابن جرير هذا من شعر سحبان وائل في هذه الغزوة . وقد ذكرنا ما أورده ابن الجوزي في منظمه أن سحبان وائل مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان بعد الحسين فآله أعلم .

مقتل سعيد بن جبير رحمه الله

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير ، وكان سبب ذلك أن الحجاج كان قد جعله على نفقات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث إلى قتال رتبيل ملك الترك ، فلما خلعه ابن الأشعث خلعه معه سعيد بن جبير ، فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث وأصحابه هرب سعيد بن جبير إلى اصبهان ، فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه ، فلما سمع بذلك سعيد هرب منها ، ثم كان يعتمر في كل سنة ويحج ، ثم إنه لجأ إلى مكة فأقام بها إلى أن ولها خالد بن عبد الله القسري ، فأشار من أشار على سعيد بالهرب منها فقال سعيد : والله لقد استحيت من الله مما أفر ولا مفر من قدره ؟ وتولى على المدينة عثمان بن جيان بدل عمر بن عبد العزيز ، فجعل يبعث من بالمدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج في القيود ، فتعلم منه خالد بن الوليد القسري فعين من عنده من مكة سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ، ومجاهد بن جبر ، وعمر و بن دينار ، وطلق ابن حبيب . ويقال إن الحجاج أرسل إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواما من أهل الشقاق ، فبعث خالد بهؤلاء إليه ثم عفا عن عطاء وعمر و بن دينار لأنهما من أهل مكة ، وبعث بأولئك الثلاثة ، فأما طلق فمات في الطريق قبل أن يصل ، وأما مجاهد فحبس فما زال في السجن حتى مات الحجاج ، وأما سعيد ابن جبير فلما أوقف بين يدي الحجاج قاله : يا سعيد ألم أشركك في أمانتي ألم أستعلك ؟ ألم أفعل ألم أفعل ؟ كل ذلك يقول : نعم ، حتى ظن من عنده أنه سيخلى سبيله ، حتى قال له : فما حملك على الخروج علي وخلمت بيعة أمير المؤمنين ؟ فقال سعيد : إن ابن الأشعث أخذ مني البيعة على ذلك وعزم علي ، فغضب عند ذلك الحجاج غضباً شديداً وانتفخ حتى سقط طرف ردايه عن منكبه ، وقال له : ويحك ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمر المؤمنين عبد الملك ؟ قال : بلى ، قال : ثم قدمت الكوفة واليا على العراق فجددت لأمر المؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له ثانية ؟ قال : بلى ، قال فتنك بيعة أمير المؤمنين وتنفى بواحدة للحائك ابن الحائك ؟ يا حرسى اضرب عنقه . قال : فضربت عنقه فبدر رأسه عليه لاطئة صغيرة بيضاء ، وقد ذكر الواقدي نحو هذا ، وقال له : أما أعطيتك مائة ألف ؟ أما فعلت أما فعلت .

قال ابن جرير : فحدثت عن أبي غسان مالك بن إسماعيل قال : سمعت خلف بن خليفة يذكر

عن رجل قال : لما قتل الحجاج سعيد بن جبير فندر رأسه هليل ثلاثا ، مرة يفصح بها ، وفي الثفتين يقول مثل ذلك لا يفصح بها . وذكر أبو بكر الباهلي قال : سمعت أنس بن أبي شيخ يقول : لما أتى الحجاج بسعيد بن جبير قال : لعن ابن النصرانية - يعني خالد القسري وكان هو الذي أرسل به من مكة - أما كنت أعرف مكانه ، بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة ، ثم أقبل عليه فقال : يا سعيد ما أخرجك علي ؟ فقال : أصلح الله الأمير ، أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب أخرى ، فطابت نفس الحجاج وانطلق وجهه ، ورجا الحجاج أن يتخلص من أمره ، ثم غاوده في شيء فقال سعيد : إنما كانت بيعة في عنقي ، فغضب عند ذلك الحجاج فكان ما كان من قتله . وذكر عتاب ابن بشر عن سالم الافطس قال : أتى الحجاج بسعيد بن جبير وهو يريد الركوب وقد وضع إحدى رجله في الفرز ، فقال : والله لأركب حتى تتبوا مقعدك من النار ، اضربوا عنقه ، فضربت عنقه . قال : والتبس الحجاج في عقله مكانه ، فجعل يقول : قيودنا قيودنا ، فظنوا أنه يريد القيود التي على سعيد ، فقطعوا رجله من أنصاف ساقه وأخذوا القيود :

وقال محمد بن أبي حاتم : ثنا عبد الملك بن عبد الله بن خباب ، قال : جئني بسعيد بن جبير إلى الحجاج فقال : كتبت إلى مصعب بن الزبير ؟ فقال : بلى كتبت إلى مصعب ، قال : لا والله لأقتلك قال : إني إذا لسعيد كما سمتني أمي . قال فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوماً ، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : مالي وسعيد بن جبير ، مالي وسعيد بن جبير ؟ قال ابن خلكان : كان سعيد بن جبير بن هشام الأسدي مولى بني والبة كوفيا أحد الأعلام من التابعين ، وكان أسود اللون ، وكان لا يكتب على الفتيا ، فلما عمى ابن عباس كتب ، فغضب ابن عباس من ذلك ، وذكر مقتله كنجو ما تقدم ، وذكر أنه كان في شعبان ، وأن الحجاج مات بعده في رمضان ، وقيل قبل بسة أشهر . وذكر عن الامام أحمد أنه قال : قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال مفتقر - إلى علمه . ويقال إن الحجاج لم يسلط بعده على أحد ، وسيأتي في ترجمة الحجاج أيضاً شيء من هذا . قال ابن جرير : وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء ، لأنه مات فيها عامة فقهاء المدينة ، مات في أولها علي بن الحسين بن زين العابدين ، ثم عروة بن الزبير ، ثم سعيد بن المسيب ، وأبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن جبير من أهل مكة ، وقد ذكرنا تراجم هؤلاء في كتابنا التكميل ، وسند ذكر طرفا صالحا هاهنا إن شاء الله تعالى .

قال ابن جرير : واستنقى الوليد بن عبد الملك في هذه السنة على الشام سليمان بن صرد . وحج بالناس فيها العباس بن الوليد ، ويقال مسلمة بن عبد الملك ، وكان على نيابة مكة خالد القسري ، وعلى

المدينة عثمان بن حيان ، وعلى المشرق بكاله الحجاج ، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم ، وعلى الكوفة من جهة الحجاج زياد بن جبر ، وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى ، وعلى إمرة البصرة من جهة الحجاج الجراح بن عبد الله الحكيم ، وعلى قضائها عبد الله بن أذينة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر من توفي فيها من المشاهير والأعيان

سعيد بن جبير الأسدي الوالي مولا أم أبو محمد ، ويقال أبو عبد الله ، الكوفي المكي ، من أكابر أصحاب ابن عباس ، كان من أئمة الاسلام في التفسير والفقه وأنواع العلوم ، وكثرة العمل الصالح ، رحمه الله ، وقد رأى خلقاً من الصحابة ، وروى عن جماعة منهم ، وعنه خلق من التابعين ، يقال إنه كان يقرأ القرآن في الصلاة فيما بين المغرب والعشاء ختمة تامة ، وكان يقعد في الكعبة القعدة فيقرأ فيها الختمة ، وربما قرأها في ركعة في جوف الكعبة . وروى عنه أنه ختم القرآن مرتين ونصفاً في الصلاة في ليلة في الكعبة . وقال سفيان الثوري عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : لقد مات سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه . وكان في جملة من خرج مع ابن الأشعث على الحجاج ، فلما ظفر الحجاج | هرب سعيد إلى اصبهان ، ثم كان يتردد في كل سنة إلى مكة مرتين ، مرة للعمرة ومرة للحج ، وربما دخل الكوفة في بعض الأحيان فحدث بها ، وكان بخراسان لا يتحدث لأنه كان لا يسأله أحد عن شيء من العلم هناك ، وكان يقول : إن مما يهمني ما عندي من العلم ، وددت أن الناس أخذوه . واستمر في هذا الحال مختلفاً من الحجاج قريباً من ثنتي عشرة سنة ، ثم أرسله خالد القسري من مكة إلى الحجاج ، وكان من مخاطبته له ما ذكرناه قريباً .

وقال أبو نعيم في كتابه الحلية : ثنا أبو حامد بن جبلة ثنا محمد بن إسحاق ثنا محمد بن أحمد ابن أبي خلف ثنا شعبان عن سالم بن أبي حفصة . قال : لما أتى بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له : أنت الشقي بن كسير ؟ قال : لا ! إنما أنا سعيد بن جبير ، قال لأقتلك ، قال : أنا إذا كما سمعتني أمي سعيداً ! قال شقيت وشقيت أمك ، قال : الأمر ليس إليك . ثم قال : اضربوا عنقه ، فقال : دعوني أصلي ركعتين ، قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، قال : (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال : إني أستعبد منك بما استعادت به مريم ، قال : وما عادت به ؟ قال : قالت [إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً] قال سفيان : لم يقتل بعده إلا واحداً . وفي رواية أنه قال له : لا أبدلك بالدنيا ناراً تلتظي ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك لانتخذتك إلهاً . وفي رواية أنه لما أراد قتله قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، فقال : [أينما تولوا فثم وجه الله] فقال : اجلدوا به الأرض ، فقال : [منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى] فقال : اذبح فما أنزعه لا آيات الله منذ اليوم . فقال : اللهم لا تسلطه على أحد بعدي . وقد ذكر أبو نعيم هنا كلاماً كثيراً في مقتل سعيد

ابن جبیر ، أحسنه هذا والله أعلم | (١)

وقد ذكرنا صفة مقتله إياه ، وقد رويت آثار غريبة في صفة مقتله ، أكثرها لا يصح ، وقد عوقب الحجاج بعده وعوجل بالعقوبة ، فلم يلبث بعده إلا قليلاً ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما سندت وفاته في السنة الآتية ، فقيل إنه مكث بعده خمسة عشر يوماً ، وقيل أربعين يوماً ، وقيل ستة أشهر والله أعلم .

واختلفوا في عمر سعيد بن جبیر رحمه الله حين قتل ، فقيل تسماً وأربعين سنة ، وقيل سبعمائة وخمسين فالله أعلم . قال أبو القاسم اللالكائي : كان مقتله في سنة خمس وتسعين ، وذكر ابن جرير مقتله في هذه السنة - سنة أربع وتسعين - فالله أعلم .

[قلت : هاهنا كلمات حسان من كلام سعيد بن جبیر أحببت أن أذكرها . قال : إن أفضل الخشية أن تخشى الله خشية تحول بينك وبين معصيته ، وتحملك على طاعته ، فتلك هي الخشية النافعة . والذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكرك له ، وإن أكثر منه التسبيح وتلاوة القرآن . قيل له : من أعبد الناس ؟ قال : رجل اقرن من الذنوب ، فكلاماً ذكر ذنبه احتقر عمله ، وقال له الحجاج : ويلك ! فقال : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار ، فقال : اضربوا عنقه ، فقال : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أستحفظك بها حتى ألتقيك يوم القيامة فأنا خصمك عند الله ، فذبح من قفاه ، فبلغ ذلك الحسن فقال : اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج ، فما بقي إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود فأتين منه فمات . وقال سعيد للحجاج لما أمر بقتله وضحك فقال له : ما أضحكك ؟ فقال : أضحك من غيراتك علي وحلم الله عنك | (٢)

سعيد بن المسيب

ابن حزن بن أبي وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي أبو محمد المدنف ، سيد التابعين على الإطلاق ، ولد لسنتين مضتا وقبل بقتينا من خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل لأربع ماضين منها ، وقول الحاكم أبي عبد الله إنه أدرك العشرة وهم منه والله أعلم . ولكن أرسل عنهم كما أرسل كثيراً عن النبي (س.ه) ، وروى عن عمر كثيراً ، فقيل سمع منه ، وعن عثمان وعلي وسعيد وأبي هريرة ، وكان زوج ابنته ، وأعلم الناس بحديثه ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وحدث عن جماعة من التابعين ، وخلق ممن سواهم ، قال ابن عمر : كان سعيد أحد المتقين ، وقال الزهري : جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علماً غيره ، وقال محمد بن إسحاق عن مكحول قال : طفت الأرض كلها في طلب العلم . فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب . وقال الأوزاعي : سئل الزهري ومكحول من

(١) و (٢) زيادة من المصرية .

أفقه من لقيتما؟ قالاً: سعيد بن المسيب. وقال غيره: كان يقال له فقيه الفقهاء. وقال مالك عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب: كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد، قال مالك: وبلغني أن ابن عمر كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه، وقال الربيع عن الشافعي أنه قال: إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن. وقال الامام أحمد بن حنبل هي صحاح: قال: وسعيد بن المسيب أفضل التابعين. قال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، وإذا قال سعيد مضت السنة فحسبك به، وهو عندى أجل التابعين. وقال أحمد بن عبد الله المعجلي: كان سعيد رجلاً صالحاً فقيهاً، كان لا يأخذ العطاء، وكانت له بضاعة أربع مائة دينار، وكان يتجر في الزيت، وكان أعور. وقال أبو زرعة: كان مدنياً ثقة إماماً. وقال أبو حاتم: ليس في التابعين أنبل منه، وهو أثبتهم في أبي هريرة، قال الواقدي: توفي في سنة الفقهاء، وهي سنة أربع وتسعين، عن خمس وسبعين سنة، رحمه الله.

وكان سعيد بن المسيب من أروع الناس فيما يدخل بيته وبطنه، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا، والكلام فيها لا يعنى، ومن أكثر الناس أدباً في الحديث، جاءه رجل وهو مريض فسأله عن حديث فجلس فحدثه ثم اضطجع، فقال الرجل: وددت أنك لم تتعن، فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع، وقال برد مولاة: ما نودى للصلاة منذ أربعين إلا وسعيد في المسجد. وقال ابن إدريس: صلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة. وقال سعيد: لا تملؤا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالأنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة. وقال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء. وقال: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت أنفسها إلا بمعصية الله تعالى. وقال: كفى بالمرء نصرة من الله له أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله. وقال: من استغنى بالله افتقر الناس إليه. وقال: الدنيا نذلة وهي إلى كل نذل أميل، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها. وقال: إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذبي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه. وقال: من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله.

وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين لكثير بن أبي وداعة - وكانت من أحسن النساء وأكثرهم أدباً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسول الله (ص)، وأعرفهم بحق الزوج - وكان فقيراً، فأرسل إليه بخمسة آلاف، وقيل: بعشرين ألفاً، وقال: استنفق هذه. وقصته في ذلك مشهورة، وقد كان عبد الملك خطبها لابنه الوليد فأبى سعيد أن يزوجه بها، فاحتال عليه حتى ضربه بالسياط كما تقدم، لما جاءت بيعة الوليد إلى المدينة في أيام عبد الملك، ضربه نائبه على المدينة هشام بن

إسماعيل وأطافه المدينة ، وعرضوه على السيف ففضى ولم يبايع ، فلما رجفوا به رأته امرأة فقالت : ما هذا الخزي ياسعيد ؟ فقال : من الخزي فررنا إلى ماترين ، أي لو أحببناهم وقعنا في خزي الدنيا والآخرة . وكان يجعل على ظهره إهاب الشاة ، وكان له مال يتجر فيه ويقول : اللهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلا ولا حرصا عليه ، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بني مروان حتى ألقى الله فيحكم في وفهم ، وأصل منه رحى ، وأودى منه الحقوق التي فيه ، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار . والله سبحانه وتعالى أعلم .

طلق بن حبيب العنزي

تابعي جليل ، روى عن أنس وجابر وابن الزبير وابن عباس ، وعبد الله بن عمر وغيرهم ، وعنه حميد الطويل والأعمش وطاووس ، وهو من أقرانه وأثنى عليه عمرو بن دينار ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ، ولكن تكلموا فيه من جهة أنه كان يقول بالأرجاء ، وقد كان بمن خرج مع ابن الأشعث ، وكان يقول تقوا بالتقوى ، فقبل له : صف لنا التقوى ، فقال : التقوى هي العمل بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله ، وترك معصية الله على نور من الله يخاف عقاب الله . وقال أيضاً : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن نحصى ، أو يقوم بشكرها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين ، وأمسوا تائبين . وكان طلق لا يخرج إلى صلاة إلا ومعه شيء يتصدق به ، وإن لم يجد إلا بصلا ، ويقول : قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) فتقديم الصدقة بين يدي مناجاة الله أعظم وأعظم . قال مالك : قتل الحجاج وجماعة من القراء منهم سعيد بن جبير . وقد ذكر ابن جرير فيما سبق أن خالد بن عبد الله القسري بعث من مكة ثلاثة إلى الحجاج ، وهم مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وطلق بن حبيب ، فمات طلق في الطريق وحبس مجاهد ، وكان من أمر سعيد ما كان والله أعلم .

عروة بن الزبير بن العوام

القرشي الأسدي أبو عبد الله المدني ، تابعي جليل ، روى عن أبيه وعن العبادلة ومعاوية والمغيرة وأبي هريرة ، وأمه أسماء ، وخالته عائشة ، وأم سلمة . وعنه جماعة من التابعين ، وخلق ممن سوام . قال محمد بن سعد : كان عروة ثقة كثير الحديث عالماً مأموناً ثباتاً . وقال المعجلي : مدني تابعي رجل صالح لم يدخل في شيء من الفتن . وقال الواقدي : كان فقيهاً عالماً حافظاً ثباتاً حجة عالماً بالسير ، وهو أول من صنف المغازي ، وكان من فقهاء المدينة المعدودين ، ولقد كان أصحاب رسول الله (ص) يسألونه ، وكان يروى الناس للشعر ، وقال ابنه هشام : العلم لواحد من ثلاثة ، لذي حسب يزين به

١١١

حسبه ، أو ذى دين يسوس به دينه ، أو مختلط بساطان يتحفه بنعمه ويتخلص منه بالعلم ، فلا يقع في هلكة ، وقال : ولا أعلم أحداً اشترطه لهذه الثلاثة إلا عروة بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز . وكان عروة يقرأ كل يوم ربع القرآن ويقوم به في الليل ، وكان أيام الرطب ينام حائطه للناس فيدخلون ويأكلون ، فاذا ذهب الرطب أعاده ، وقال الزهري : كان عروة بجزاً لا ينزف ولا تكبره الدلاء . وقال عمر بن عبد العزيز : ما أحد أعلم من عروة وما أعلمه يعلم شيئاً أجهله ، وقد ذكره غير واحد في فقهاء المدينة السبعة الذين ينتهى إلى قولهم ، وكان من جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبد العزيز يرجع إليهم في زمن ولايته على المدينة [وقد ذكر غير واحد أنه وفد على الوليد بدمشق ، فلما رجع أصابته في رجله الأكلة فأرادوا قطعها ، فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها ، فقال : ما ظننت أن أحداً يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن هلموا فاقطعوها فقطعوها من ركبته وهو صامت لا يتكلم ، ولا يعرف أنه أن ، وروى أنهم قطعوها وهو في الصلاة فلم يشعر لشغله بالصلاة فأنه أعلم . ووقع في هذه الليلة التي قطعت فيها رجله ولد له يسمى محمداً كان أحب أولاده من سطح فمات ، فدخلوا عليه فعزوه فيه ، فقال : اللهم لك الحمد ، كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة ، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت ، ولئن كنت قد ابتليت فقد عافيت] قلت : قد ذكر غير واحد أن عروة بن الزبير لما خرج من المدينة متوجهاً إلى دمشق ليجتمع بالوليد ، وقعت الأكلة في رجله في واد قرب المدينة وكان مبدؤها هناك ، فظن أنها لا يكون منها ما كان ، فنذهب في وجهه ذلك ، فما وصل إلى دمشق إلا وهي قد أكلت نصف ساقه ، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك ، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها وإلا أكل رجله كلها إلى وركه . وربما ترققت إلى الجسد فأكلته ، فطابت نفسه بنشرها وقالوا له : ألا نسقيك مرقة حتى يذهب عقلك منه فلا تحس بألم النشر ؟ فقال : لا والله ما كنت أظن أن أحداً يشرب شراباً أو يأكل شيئاً يذهب عقله ، ولكن إن كنتم لا بد فاعلمين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة ، فاني لأحس بذلك ، ولا أشعر به . قال : فنشروا رجله من فوق الأكلة ، من المكان الحى ، احتياطاً أنه لا يبقى منها شيء ، وهو قائم يصلى ، فما تصور ولا اختلج ، فلما انصرف من الصلاة عزاه الوليد في رجله ، فقال : اللهم لك الحمد ، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت ، وإن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت ، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت . قال : وكان قد صحب معه بعض أولاده من جملتهم ابنه محمد ، وكان أحبهم إليه ، فدخل دار الدواب ففرسته فرس فمات ، فأتوه فعزوه فيه ، فقال : الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة ، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما

عافيت ، واثن كنت قد أخذت فطلما أعطيت . فلما قصي حاجته من دمشق رجع إلى المدينة ، قال : فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده ، ولا شكاً ذلك إلى أحد حتى دخل وادي القري ، فلما كان في المكان الذي أصابته الأكلة فيه قال : [لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً] فلما دخل المدينة أتاه الناس يسلمون عليه ويعزون في رجله وولده ، فبلغه أن بعض الناس قال : إنما أصابه هذا بذنوب عظيم أحدثه . فأنشد عروة في ذلك والأبيات لمعن بن أوس :-

لعمرك ما أهويتُ كفى لريبةٍ * ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قادي سمعي ولا بصري لها * ولاداني رأيتُ عليها ولا عقلي
ولست بماشٍ ما حيتُ لمنكرٍ * من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثرٌ نفسي على ذي قرابةٍ * وأثرٌ ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلمُ أني لم تصبني مصيبةٌ * من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي

وفي رواية : اللهم إنه كان لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة . كذا ذكر هذا الحديث فيه هشام . وقال مسلمة بن محارب : وقعت في رجل عروة الأكلة فقاطت ولم يمسه أحد ، ولم يدع في تلك الليلة ورده . وقال الأوزاعي : لما نشرت رجل عروة قال : اللهم إنك تعلم أني لم أمش بها إلى سوء قط . وأنشد البيهقي المتقدمين . رأى عروة رجلاً يصلي صلاة خفيفة فدعا فقال : يا أخي أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك ؟ إني لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح . قال عروة : رب كلمة ذل احتملتها أو رثنتي عزاً طويلاً . وقال لبنية : إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، فان الحسنة تدل على أختها ، والسيئة تدل على أختها . وكان عروة إذا دخل حائطه ردد هذه الآية [ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله] حتى يخرج منه والله سبحانه وتعالى أعلم [(١)] .

قيل إنه ولد في حياة عمر ، والصحيح أنه ولد بعد عمر في سنة ثلاث وعشرين ، وكانت وفاته في سنة أربع وتسعين على المشهور ، وقيل سنة تسعين ، وقيل سنة مائة ، وقيل إحدى وتسعين ، وقيل إحدى ومائة ، وقيل سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس وتسعين ، وقيل تسع وتسعين فله أعلم .

﴿ علي بن الحسين ﴾

ابن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي المشهور بزین العابدين ، وأمه أم ولد اسمها سلامة ، وكان له أخ أكبر منه يقال له علي أيضاً ، قتل مع أبيه ، روى على هذا الحديث عن أبيه وعمه الحسن بن علي ، وجابر وابن عباس والمسور بن مخرمة وأبي هريرة وصفية وعائشة وأم سلمة ، أمهات المؤمنين . وعنه

(١) زيادة من المصرية .

جماعة منهم بنوه زيد وعبد الله وعمر ، وأبو جعفر محمد بن علي بن قر ، وزيد بن أسلم ، وطاووس وهو من أقرانه ، والزهرى ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وأبوسلمة وهو من أقرانه ، وخلق .

قال ابن خلكان : كانت أم سلمة بنت يزيد آخر ملوك الفرس ، وذكر الزنجشري في ربيع الأبرار أن يزيد كان له ثلاث بنات سبين في زمن عمر بن الخطاب ، فخصمت واحدة لعبد الله بن عمر فأولدها سلما ، والأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق فأولدها القاسم ، والأخرى للحسين بن علي فأولدها عليا زين العابدين هذا ، فكلهم بنو خلة . قال ابن خلكان : ولما قتل قتيبة بن مسلم فيروز ابن يزيد بعث بابنتيه إلى الحجاج فأخذ إحداهما وبعث بالأخرى إلى الوليد ، فأولدها الوليد يزيد الناقص . وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف أن زين العابدين هذا كانت أمه سنديية ، يقال لها سلامة ، ويقال غزالة ، وكان مع أبيه بكر بلاه ، فاستبقى لصغره ، وقيل لمرضه ، فانه كان ابن ثلاث وعشرين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وقد هم بقتله عبيد الله بن زياد ، ثم صرفه الله عنه ، وأشار بعض الفجرة على يزيد بن معاوية بقتله أيضا فمنعه الله منه ، ثم كان يزيد بعد ذلك يكرمه ويعظمه ويجلسه معه ، ولا يأكل إلا وهو عنده ، ثم بعثهم إلى المدينة ، وكان على بالمدينة محترما معظما . قال ابن عساکر : ومسجده بدمشق المنسوب إليه معروف . قلت : وهو مشهد على بالناحية الشرقية من جامع دمشق . وقد استقدمه عبد الملك بن مروان مرة أخرى إلى دمشق فاستشاره في جواب ملك الروم عن بعض ما كتب إليه فيه من أمر السكة وطرار القراطيس ، قال الزهرى : ما رأيت قرشيا أروع منه ، ولا أفضل . وكان مع أبيه يوم قتل ابن ثلاث وعشرين سنة وهو مريض ، فقال عمر ابن سعد : لا تعرضوا لهذا المريض . وقال الواقدي : كان من أروع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل ، وكان إذا مشى لا يخطر بيده ، وكان يعم بعمامة بيضاء يرخيها من ورائه ، وكان كنيته أبا الحسن ، وقيل أبا محمد ، وقيل أبا عبد الله . وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا كثير الحديث عالبا رفيعا ورعا ، وأمه غزالة خلف عليها بعد الحسين مولاه زييد فولدت له عبد الله بن زييد ، وهو على الأصغر ، فأما الأكبر فقتل مع أبيه . وكذا قال غير واحد ، وقال سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم ومالك وأبو حازم : لم يكن في أهل البيت مثله . وقال يحيى بن سعيد الأنصارى : سمعت على ابن الحسين وهو أفضل هاشمي أدركته يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الاسلام ، فما برح بنا جبكم حتى صار علينا عارا . وفي رواية : حتى بفضتمونا إلى الناس . وقال الأصمعي : لم يكن للحسين عقب إلا من علي بن الحسين ، ولم يكن لعلي بن الحسين نسل إلا من ابن عمه الحسن ، فقال له مروان بن الحكم : لو اتخذت السرارى يكثر أولادك ، فقال : ليس لي ما أنسرى به ، فأقرضه مائة ألف فاشترى له السرارى فولدت له وكثر نسله ، ثم لما مرض مروان أوصى أن لا يؤخذ من علي بن

الحسين شيء مما كان أقرضه ، فجميع الحسينيين من نسله رحمه الله . وقال أبو بكر بن أبي شيبة :
أصح الأسانيد كلها الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده ، وذكروا أنه احترق البيت
الذي هو فيه وهو قائم يصلي ؛ فلما انصرف قالوا له : مالك لم تنصرف ؟ فقال : إني اشتغلت عن
هذه النار بالنار الأخرى ، وكان إذا توضأ يصفّر لونه ، فاذا قام إلى الصلاة ارتعد من الفرق ، فقيل
له في ذلك فقال : ألا تدرون بين يدي من أقوم ولن أناجي ؟ ولما حجج أراد أن يلبي فارتعد وقال :
أخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك ، فيقال لي : لا لبيك ، فشجعوه على التلبية ، فلما لبي غشي عليه
حتى سقط عن الراحلة . وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة . وقال طاووس : سمعته وهو ساجد عند
الحجر يقول : عبيدك بفنائك . سائلك بفنائك . فقيرك بفنائك ، قال طاووس : فوالله مادعوت بها في
كرب قط إلا كشف عني . وذكروا أنه كان كثير الصدقة بالليل ، وكان يقول صدقة الليل تطفي غضب
الرب ، وتنور القلب والقبر ، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة ، وقاسم الله تعالى ماله مرتين .
وقال محمد بن إسحاق : كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم ،
فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به . ولما مات
وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأراامل والمساكين في الليل . وقيل إنه كان
يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات . ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة
ابن زيد يعود فبكي ابن أسامة فقال له ما يبكيك ؟ قال : علي دين ، قال : وم هو ؟ قال خمسة عشر
ألف دينار . وفي رواية سبعة عشر ألف دينار . فقال : هي علي . وقال علي بن الحسين : كان أبو بكر
وعمر من رسول الله (س) ، في حياته بمنزلة ما منه بعد وفاته . ونال منه رجل يوماً فجعل يتغافل عنه
- يريه أنه لم يسمعه - فقال له الرجل : إياك أعني ، فقال له علي : وعنك أغضى . وخرج يوماً من المسجد
فسبته رجل فانتدب الناس إليه ، فقال : دعوه ، ثم أقبل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا
أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل فألقى إليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ،
فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء . قالوا : واختم علي بن الحسين وحسن
ابن حسن - وكان بينهما منافسة - فنال منه حسن بن حسن وهو ساكت ، فلما كان الليل ذهب علي
ابن الحسين إلى منزله فقال : يا ابن عم إن كنت صادقاً يغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك
والسلام عليك ، ثم رجع ، فلحقه فصالحه . وقيل له من أعظم الناس خطراً ؟ فقال : من لم ير الدنيا
لنفسه قدراً ، وقال أيضاً : الفكرة مرآة ترى المؤمن حسناته وسيئاته ، وقال : فقد الأجابة غربة ، وكان
يقول : إن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار ،
وآخرون عبدوه محبة وشكراً فتلك عبادة الأحرار الأخيار . وقال لابنه : يا بني لا تصحب فاسقاً فإنه

بيمعك بأقل منها يطعم فيها ثم لا ينالها ، ولا بخيلا فانه بخذلك في ماله أحوج ماتكون إليه ، ولا كذابا فانه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد عنك القريب ، ولا أحق فانه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا قاطع رحم فانه ملعون في كتاب الله . قال تعالى : [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم]

وكان علي بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم ، فقال له نافع بن جبير بن مطعم : غفر الله لك ، أنت سيد الناس تأتي تخطى حاق أهل العلم وقريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟ فقال له علي بن الحسين : إنما يجلس الرجل حيث ينتفع ، وإن العلم يطلب حيث كان . وقال الأعمش عن مسعود بن مالك قال قال لي علي بن الحسين : أتستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير ؟ فقلت : ماتصنع به ؟ قال أريد أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها ولا منقصة ، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء - وأشار بيده إلى العراق -

وقال الامام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن زر بن عبيد (١) قال : كنت عند ابن عباس فأتى علي بن الحسين فقال ابن عباس : مرحبا بالحبيب ابن الحبيب . وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولى : ثنا العلاء ثنا إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة عن أبي الزبير قال : كنا عند جابر بن عبد الله فدخل عليه علي بن الحسين فقال : كنت عند رسول الله (س) فدخل عليه الحسين بن علي فضمه إليه وقبله وأقعدته إلى جنبه ، ثم قال : « يولد لابني هذا ابن يقال له علي ، إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ليقم سيد العابدين ، فيقوم هو » هذا حديث غريب جداً أورده ابن عساكر . وقال الزهري : كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين ، وما رأيت أقره منه ، وكان قليل الحديث ، وكان من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة ، وأحبهم إلى مروان وابنه عبد الملك ، وكان يسمى زين العابدين . وقال جوهرية بن أسماء : ما أكل علي بن الحسين بقرابته من رسول الله (س) ، درهما قط . رحمه الله ورضى عنه . وقال محمد بن سعد : أنبا علي بن محمد عن سعيد بن خالد عن المقبري قال : بعث المختار إلى علي بن الحسين بمائة ألف فكره أن يقبلها وخاف أن يردها ، فاحتبسها عنده ، فلما قتل المختار كتب إلى عبد الملك بن مروان : إن المختار بعث إلى بمائة ألف فكرهت أن أقبلها وكرهت أن أردّها ، فابعث من يقبضها . فكتب إليه عبد الملك : يا ابن عم اخذها فقد طيبتها لك ، فقبلها . وقال علي بن الحسين : سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء ، وفي الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم الاتقياء ، لأن العلماء ورثة الأنبياء . وقال أيضاً : إني لأستحي من الله عز وجل أن أرى الأخ من إخواني فأسأل الله له الجنة وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة

(١) لعنه زر بن حبيش .

قيل لي فاذا كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل ، وأبخل وأبخل . وذكروا أنه كان كثير البكاء فقيل له في ذلك فقال : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ، ولم يعلم أنه مات ، وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة ، فترون حزنهم يذهب من قلبي أبداً ؟ وقال عبد الرزاق : سكتت جارية لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ فسقط الأبريق من يدها على وجهه فشججه ، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله يقول [والكاظمين الغيظ] ، فقال : قد كظمت غيظي ، قالت [والعافين عن الناس] فقال : عفا الله عنك . فقالت [والله يحب المحسنين] قال : أنت حرة لوجه الله تعالى .

وقال الزبير بن بكار : ثنا عبد الله بن إبراهيم بن قدامة اللخمي عن أبيه عن جده عن محمد بن علي عن أبيه قال : جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما ، ثم ابتدؤا في عثمان فقال لهم : أخبروني أنتم من المهاجرين الأولين الذين [أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله] ؟ قالوا : لا قال : فأنتم من الذين [تبتوا الدار والابن من قبلهم يحبون من هاجر إليهم] ؟ قالوا لا ! فقال لهم : أما أنتم فقد أقررتهم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم [والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا] الآية ، قوموا عني لا بارك الله فيكم ، ولا قرب دوركم ، أنتم مستهزئون بالاسلام ، ولستم من أهله . وجاء رجل فسأله متى يبعث علي ؟ فقال : يبعث والله يوم القيامة وتهمه نفسه . وقال ابن أبي الدنيا : حدثت عن سعيد بن سليمان عن علي بن هاشم عن أبي حمزة الثمالي أن علي بن الحسين كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إني أتصدق اليوم - أو أهب عرضي اليوم - من استحله . وروى ابن أبي الدنيا أن غلاماً سقط من يده سفود وهو يشوي شيئاً في التنور على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله ، فهض علي بن الحسين مسرعاً ، فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حر ، ثم شرع في جهاز ابنه . وقال المدائني : سمعت سفيان يقول : كان علي بن الحسين يقول : ما يسرني أن لي بنصيب من الذل حمر النعم : ورواه الزبير بن بكار من غير وجه عنه . ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه من أجل إسرافه ، فقال له علي بن الحسين : إن من وراء ابنك خلافاً ثلاثاً ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وشفاعة رسول الله ، ورحمة الله عز وجل . وقال المدائني : قارف الزهري ذنباً فاستوحش منه وهام على وجهه وترك أهله وماله . فلما اجتمع بعلي بن الحسين قال له : يا زهري قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم من ذنبك ، فقال الزهري : [الله أعلم حيث يجعل رسالته] وفي رواية أنه كان أصاب دماً حراماً خطأ فأمره على بالتوبة والاستغفار وأن يبعث الدية إلى أهله ، ففعل ذلك . وكان

الزهري يقول : على بن الحسين أعظم الناس على منة .

وقال سفيان بن عيينة كان على بن الحسين يقول : لا يقول رجل في رجل من الخير ما لا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم ، وما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة . وذكروا أنه زوج أمه من مولى له وأعتق أمه فتزوجها فأرسل إليه عبد الملك يلومه في ذلك ، فكتب إليه [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً] وقد أعتق صفية فتزوجها ، وزوج مولاه زيد بن حارثة من بنت عمه زينب بنت جحش . قالوا : وكان يلبس في الشتاء خيصة من خز بخمسين ديناراً ، فإذا جاء الصيف تصدق بها ، ويلبس في الصيف الثياب المرقعة ودونها ويتلو قوله تعالى [قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق] .

(وقد روى من طرق ذكرها الصولي والجريري وغير واحد أن هشام بن عبد الملك حج في خلافة أبيه وأخيه الوليد ، فطاف بالبيت ، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر فاستلم وجلس عليه ، وقام أهل الشام حوله ، فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن الحسين ، فلما دنا من الحجر ليستلمه تنحى عنه الناس إجلالاً له وهيبته واحتراماً ، وهو في بزة حسنة ، وشكل مليح ، فقال أهل الشام لهشام : من هذا ؟ فقال : لا أعرفه - استنقاصاً به واحتقاراً لثلا يرغب فيه أهل الشام - فقال الفرزدق - وكان حاضراً - أنا أعرفه ، فقالوا : ومن هو ؟ فأشار الفرزدق يقول :

هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته * والبيتُ يعرفُ والحلُّ والحرمُ
 هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلهم * هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلمُ
 إذا رآته قريشٌ قالَ قائلها * إلى مكارمِ هذا ينتهي الكرمُ
 يُنمى إلى ذروة العزِّ التي قصرت * عن نيلها عربُ الأسلامِ والمعجمُ
 يكادُ يمسكه عرفانُ راحته * ركنُ الحطيمِ إذا ماجاء يستلمُ
 يُفضي حياءً ويفضي من مهابته * فما يكلمُ إلا حينَ يتسمُ
 بكفه خيزرانٌ ريجها عبق * من كفِ أروعِ في عرينه فعمُ
 مشنقةٌ من رسولِ الله نبعته * طابت عناصرها والخيمُ والشيمُ
 ينجابُ نورُ الهدى من نورِ غرته * كالشمسِ ينجابُ عن إشراقها الفيمُ
 حالُ أئقالِ أقوامٍ إذا فدحوا * حالوا الشائلِ تحلو عنده نعمُ
 هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهله * بجدِ أنبياءِ الله قد ختموا
 من جدمِ دانٍ فضلُ الأنبياءِ له * وفضلُ أمتهِ دانت لها الأممُ

عم البرية بالأحسان فانقشعت * عنها الغواية والاملاق والظلم
 كلنا يديه غياث عم نفعهما * يستوكفان ولا يعرفهما العدم
 سهل الخليفة لا تخشى بواده * زينة اثنتان الحلم والكرم
 لا يخلف الوعد ميمون بغيته * رحب الفناء أريب حين يعتزم
 من معشر حبه دين وبنفسهم * كفروا قر بهم منجى ومعتصم
 يستدفع سوء والبلوى بحبهم * ويستزاد به الاحسان والنعيم
 مقدم بعد ذكر الله ذكركم * في كل حكم ومختم به الكلم
 إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم * أوقيل من خير أهل الأرض قيل هم
 لا يستطيع جواد بعد غايتهم * ولا يدانهم قوم وإن كرموا
 هم الفيث إذا ما أزمة أزمتم * والأسد أسد الشرى والبأس محندم
 يابى لهم أن يحل الذم ساحتهم * خيم كرام وايد بالندی هضم
 لا ينقص العدم بسطاً من أكفهم * سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
 أي الخلائق ليست في رقابهم * لأولية هذا أوله نعم
 فليس قولك من هذا بضارهم * العرب تعرف من أنكرت والعجم
 من يعرف الله يعرف أولية ذا * فالدين من بيت هذا ناله الأمم

قال : فغضب هشام من ذلك وأمر بجبس الفرزدق بعسفان ، بين مكة والمدينة ، فلما بلغ ذلك
 على بن الحسين بعث إلى الفرزدق بائني عشر ألف درهم ، فلم يقبلها وقال : إنما قلت ما قلت لله
 عز وجل ونصرة للحق ، وقياماً بحق رسول الله ، في ذريته ، ولست أعتاض عن ذلك بشيء .
 فأرسل إليه على بن الحسين يقول : قد علم الله صدق نيتك في ذلك ، وأقسمت عليك بالله لتقبلها
 فتقبلها منه ثم جعل يهجو هشاماً وكان مما قال فيه :

تجبني بين المدينة والتي * إليها قلوب الناس نهوى منيها
 يقلب رأساً لم يكن رأس سيد * وعينين حولاً وين باد عيوبها
 وقد روينا عن علي بن الحسين أنه كان إذا مرت به الجنازة يقول هذين البيتين :
 نراع إذا الجنائز قابلتنا * ونلهو حين تمضي ذاهبات
 كروعة ثلثة لغار سبغ * فلما غاب عادت راتعات

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله المقرئ حدثني سفيان بن عيينة عن

الزهري قال سمعت علي بن الحسين سيد العابدين يحاسب نفسه ويناجي ربه :-

يأنفس حتام إلى الدنيا سكونك ، وإلى عمارتها ركونك ، أما اعتبرت بمن مصى من أسلافك
ومن وارته الأرض من الآفك ؟ ومن فجعت به من إخوانك ، ونقل إلى الثرى من أقرانك ؟ فهم
في بطون الأرض بعد ظهورها ، محاسنهم فيها بوال دوائر .

خلت دورهم منهم وأقوت عراضهم * وساقهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها * وضمهم تحت التراب الحفائر
كم خرمت أيدي المنون من قرون بعد قرون ، وكم غيرت الأرض ببلاتها ، وغيبت في ترابها ،
ممن عاشت من صنوف وشيعتهم إلى الأمارس ، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الافلاس : -
وأنت على الدنيا مكب منافس * لخطابها فيها حريص مكارم
على خطر نمشي وتصبح لاهياً * أتدرى بماذا لو عقلت تخاطر
وإن امرأ يسعى لدنياه دائماً * ويذهل عن أخراه لاشك خاسر
فحاتم على الدنيا إقبالك ؟ وبشهواتها اشتغالك ؟ وقد وخطك القتير ، وأناك النذير ، وأنت عما
يراد بك ساه وبلدة يومك وغدك لاه ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات ، وعانيت ما حل بهم من
المصيبات ، وفي ذكر هول الموت والقبر والبلى * عن اللهو واللذات للمرء زاجر
أبعد اقتراب الأربعين تربص * وشيب قذال منذر للكابر
كانك معنى بما هو ضار * لنفسك عمداً وعن الرشدر حائر
انظر إلى الأمم الماضية والملوك الفانية كيف اختطفتهم عقبان الأيام ، وواقام الحمام ، فامتحت
من الدنيا آثارهم ، وبقيت فيها أخبارهم ، وأضحوا رمما في التراب ، إلى يوم الحشر والمآب ،
أسحوا رمياً في التراب وعطلت * مجالسهم منهم وأخلى مقاصر
وحلوا بدار لا تزاور بينهم • وأنى لسكان القبور التزاور
فما أن ترى الأقبوراً قد ثوروا بها • مسطحة تسنى عليها الأعاصر
كم من ذى منعة وسلطان وجنود وأعوان ، تمكن من دنياه ، ونال فيها ما تمناه ، وبنى فيها
القصور والديساكر ، وجمع فيها الأموال والذخائر ، وملح السراري والحرار .
فما صرفت كف المنية إذ أتت * مبادرة تهوى إليه الذخائر
ولادفعت عنه الحصون التي بنى • وحف بها أنهاره والديساكر
ولا قارعت عنه المنية حيلة • ولا طمعت في الذب عنه العساكر
أناه من الله مالا يرد ، ونزل به من قضائه مالا يصد ، فتعالى الله الملك الجبار ، المتكبر العزيز
القهار ، قاصم الجبارين ، ومبيد المتكبرين ، الذي ذل لعه كل سلطان ، وأباد بقوته كل ديان .

مليك عزيز لا برد قضاؤه * حكيم عليم نافذ الأمر قاهر
 عنى كل ذي عز لعزة وجهه * فكم من عزيز للمهين صاغر
 لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت * لعزة ذي العرش الملوك الجبار

قالبدار البدار والحدار الحدار من الدنيا ومكايدها ، وما نصبت لك من مصايدها ، وتحلت لك من
 زينتها ، وأظهرت لك من بهجتها ، وأبرزت لك من شهواتها ، وأخفت عنك من قواتها وهلكاتها ،

وفي دون ما عاينت من فجاعتها * إلى دفعها داع وبالزهد أمر
 فجد ولا تغفل وكن متيقظاً * فما قليل يترك الدار عامر
 فشم ولا تفتقر فعمرك زائل * وأنت إلى دار الإقامة صائر
 ولا تطلب الدنيا فان نعيمها * وإن نلت منها غبه لك ضار

فهل يحرص عليها لبيب ، أو يسر بها أريب ؟ وهو على ثقة من فناها ، وغير طامع في بقائها ،
 أم كيف تنام عيننا من يخشى البيات ، وتسكن نفس من توقع في جميع أموره الممات .

ألا لا ولكننا نفر نفوسنا * وتشغلنا الذات عما نحاذر
 وكيف يلد العيش من هو موقف * بموقف عدل يوم تبلى السرائر
 كأننا نرى أن لانشور وأنا * سدى مالنا بعد الممات مصادر

وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها ويتمتع به من بهجتها ، مع صنوف عجائبها وقوارع
 فجائعها ، وكثرة عذابه في مصابها وفي طلبها ، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها

أما قد ترى في كل يوم ليلة * بروح علينا صرفها وبياكرك
 تعاورنا آفاتها وهمومها * وكم قد ترى يبق لها المتعاور
 فلا هو مغبوط بدنياه آمن * ولا هو عن تطلباها النفس قاصر

كم قد غرت الدنيا من مغلد إليها ، وصرعت من مكب عليها ، فلم تنعشه من عثرته ، ولم تنقده
 من صرعته ، ولم تشفه من ألمه ، ولم تبره من سقمه . ولم تخلصه من وصمه

بل أوردته بعد عز ومنعة * موارد سوء ما هن مصادر
 فلما رأى أن لانبجاة وأنه * هو الموت لا ينجيه منه التحاذر
 تدم إذ لم تغن عنه ندامة * عليه وأبكته الذنوب الكبار

إذ بكى على ماسلف من خطاياها ، وتحسر على ما خلف من دنياه ، واستغفر حتى لا ينفعه
 الاستغفار ، ولا ينجيه الاعتذار ، عند هول المنية ونزول البلية .

أحاطت به أحزانه وهمومه • وأبلس لما أعجزته المقادير
 فليس له من كربة الموت فارجح * وليس له مما يحاذر ناصر
 وقد جشأت خوف المنية نفسه * ترددها منه الله والخناجر
 هنالك خف عواده ، وأسلمه أهله وأولاده ، وارتفعت البرية بالعويل ، وقد أيسوا من العليل ،
 فغمضوا بأيديهم عينيه ، ومد عند خروج روحه رجله ، وتخلى عنه الصديق ، والصاحب الشفيق
 فكم موجع يبكي عليه مفعج * ومستنجد صبراً وما هو صابر
 ومسترجع داع له الله مخلصاً * يمدد منه كل ما هو ذاكر
 وكم شامت مستبشر بوفاته * وعما قليل للذي صار صائر
 فشقت جيوبها نساؤه ، ولطمت خدودها إمامه ، وأعول لفقده جيرانه ، وتوجع لرزقته إخوانه ،
 ثم أقبلوا على جهازه ، وشمروا لإبرازه . كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى ، ولا الحبيب المبدي .
 وحل أحب القوم كان بقربه * بحث على تجهيزه ويبادر
 وشمر من قد أحضروه لغسله * ووجه لما فاض للقبر حافر
 وكفن في ثوبين واجتمعت له * مشيعة إخوانه والعشار
 فلو رأيت الأصغر من أولاده ، وقد غلب الحزن على فؤاده ، ويخشى من الجزع عليه ، وخضبت
 الدموع عينيه ، وهو يندب أباه ويقول : يا ويلاه واحرباه : -
 لعابنت من قبح المنية منظرأ * بهال لمرآه وبرتاع ناظر
 أكابر أولاد بهيج اكتسابهم * إذا ماتناساه البنون الأصغر
 وربة نسوان عليه جوازع * مدامهم فوق الحدود غوازر
 ثم أخرج من سعة قصره ، إلى ضيق قبره ، فلما استقر في اللحد وهي عليه اللبن ، احتوشته أعماله
 وأحاطت به خطاياها ، وضاق ذرعاً بما رآه ، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب ، وأكثروا البكاء عليه
 والانتحاب ، ثم وقفوا ساعة عليه ، وأيسوا من النظر إليه ، وتركوه رهناً بما كسب وطلب
 فولوا عليه معولين وكلمهم * لمثل الذي لاقى أخوه محاذر
 كشاء رفاع آمين بدا لها * بمدينه بادي الدراعين حاسر
 فريعت ولم ترتع قليلاً وأجفلت * فلما نأى عنها الذي هو جازر
 عادت إلى مرعاها ، ونسيت مافي أختها دهاها ، أقبأفعال الأتعام اقتدينا ؟ أم على عادتها جرينا ؟
 عد إلى ذكر المنقول إلى دار البلى ، واعتبر بموضعه تحت الثرى ، المدفوع إلى هول ما ترى .
 نوى مفرداً في لحده وتوزعت * مواريته أولاده والأصاهر

وأخذوا على أموالهم يقسمونها * فلا حامدٌ منهم عليها وشاكرٌ
 فيا عامرَ الدنيا وياساعياً لها * ويا آمناً من أن تدورَ الدوائرُ
 كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائرٌ إليها لا محالة؟ أم كيف ضيعت حياتك وهي مطينتك إلى
 مماتك؟ أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظرٌ حمامك؟ أم كيف تهنا بالشهوات، وهي مطية الآفات
 ولم تزود الرحيل وقد دنا * وأنت على حالٍ وشيك مسافرٌ
 فيالهف نفسي كم أسوف توبتي * وعمرى فانِ والردى لى ناظرٌ
 وكل الذي أسلفت في الصحف منبت * يجازى عليه عادلُ الحكم قادرٌ
 فكَمْ ترفع بآخرتك دنياك، وتركب غيبك وهواك، أراك ضعيف اليقين، يامؤثر الدنيا على الدين
 أهذا أمرك الرحمن؟ أم على هذا نزل القرآن؟ أما تذكر ما أمامك من شدة الحساب، وشر المآب
 أما تذكر حال من جمع وثمر، ورفع البثاء وزخرف وعمر، أما صار جمعهم بوراً، ومساكنهم قبورا:
 تخرب ما يبقي وتعمر فانياً * فلا ذاك موفور ولا ذاك عامر
 وهل لك إن وافاك حتفك بفتة * ولم تكتسب خيراً لدى الله عاذر
 أرضى بأن تفتى الحياة وتنقضى * ودينك منقوص ومالك وافر

وقد اختلف أهل التاريخ في السنة التي توفي فيها علي بن الحسين، زين العابدين، فالشهور عن
 الجمهور أنه توفي في هذه السنة - أعني سنة أربع وتسعين - في أولها عن ثمان وخمسين سنة، وصلى
 عليه بالبيعة، ودفن به، قال الفلاس: مات علي بن الحسين وسعيد بن المسيب وعروة وأبو بكر بن
 عبد الرحمن سنة أربع وتسعين، وقال بعضهم: توفي سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين، وأغرب المدائني
 في قوله: إنه توفي سنة تسع وتسعين والله أعلم انتهى ما ذكره المؤلف [من ترجمة علي بن الحسين،
 وقد رأيت له كلاماً متفرقاً وهو من جيد الحكمة، فأحببت أن أذكره لعل الله أن ينفع به من وقف عليه:
 قال حفص بن غياث عن حجاج عن أبي جعفر عن علي بن الحسين قال: إن الجسد إذا لم يمرض
 أشرو بطر، ولا خير في جسد يأشرو بيطر. وقال أبو بكر بن الانباري: حدثنا أحمد بن الصلت
 حدثنا قاسم بن إبراهيم العلوي حدثنا أبي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال قال علي بن الحسين: فقد
 الأعبة غربة. وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك أن نحسن في لوامع العيون علانيني، وتقبح في خفيات
 الغيوب سربرتي، اللهم كما أسأت وأحسنت إلي، فاذا عدت فعد إلي. اللهم ارزقني مواساة من
 قترت عليه رزقك بما وسعت علي من فضلك. وقال لابنه: يا بني اتخذ ثوباً للغائط فاني رأيت الثياب
 يقع على الشيء ثم يقع على الثوب. ثم اتقبه فقال: وما كان لرسول الله أس، وأصحابه إلا ثوب واحد،
 فرفضه. وعن أبي حمزة الثمالي قال: أتيت باب علي بن الحسين فكرهت أن أصوت فعدت علي

الباب حتى خرج فسلمت عليه ودعوت له فرد على السلام ودعا لي ، ثم انتهى إلى حائط فقال : يا حمزة ترى هذا الحائط ؟ قلت : نعم ! قال : فاني اتكأت عليه يوماً وأنا حزين فاذا رجل حسن الوجه حسن الثياب ينظر في نجاه وجهي ، ثم قال : يا علي بن الحسين ! مالي أراك كئيباً حزينا على الدنيا ! فهي رزق حاضر يأخذ منها البرء الفاجر . فقلت : ما عليها أحزن لأنها كما تقول ، فقال على الآخرة ! فهي وعد صادق ، بحكم فيها ملك قادر ، فقلت : ما على هذا أحزن لأنه كما تقول . فقال : فعلاء حزئك ؟ فقلت : ما أخوف من الفتنة - يعني فتنة ابن الزبير - فقال لي : يا علي ! هل رأيت أحداً سأل الله فلم يمطه ؟ قلت : لا ! قال ويخاف الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ! ثم غاب عني فقيل لي : يا علي إن هذا الخضر الذي جاءك لفظ الخضر مزاد فيه من بعض الرواة .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الخصري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا حرير بن عمر بن حارث . قال : لما مات علي بن الحسين فغسلوه جملاً ينظرون إلى آثار سواد في ظهره . فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جرب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة . وقال ابن عائشة : سمعت أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين .

وروى عبد الله بن حنبل عن ابن اشكاب عن محمد بن بشر عن أبي المنهال الطائي أن علي بن الحسين كان إذا ناول المسكين الصدقة قبله ثم ناوله . وقال الطبري : حدثنا يحيى بن زكريا الغلابي حدثنا العتبي حدثني أبي . قال قال علي بن الحسين - وكان من أفضل بني هاشم الأربعة - يا بني اصبر على النوائب ولا تتعرض للحقوق ، ولا تخيب أخاك إلا في الأمر الذي مضرت عليك أكثر من منفعتك لك . وروى الطبراني بإسناده عنه : أنه كان جالساً في جماعة فسمع داعية في بيته فهض فدخل منزله ثم رجع إلى مجلسه ، فقيل له : أمن حدث كانت الداعية ؟ قال : نعم ! فعزوه وتعجبوا من صبره ، فقال : إنا أهل بيت نطيع الله عز وجل فيما نحبه ، ونحمده على ما نكره . وروى الطبراني عنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الفضل فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة . فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا : نعم . قالوا : من أنتم ؟ قالوا نحن أهل الفضل ، قالوا : وما كان فضلكم ؟ قالوا : كنا إذا جهل علينا حملنا ، وإذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسى إلينا غفرنا ، قالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعلم أجر العاملين . ثم ينادى مناد : ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : فما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معصية الله ، وصبرناها على البلاء . فقالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعلم أجر العاملين . ثم ينادى المنادى : ليقم جيران الله في داره ، فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم :

انطلقوا إلى الجنة ، ففتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك ، فيقولون : بم استحققتم مجاورة الله عز وجل في داره ؟ فيقولون : كنا نتزاور في الله ، ونتجالس في الله ، وتبادل في الله عز وجل . فيقال لهم ، ادخلوا الجنة فتم أجر العاملين .

وقال علي بن الحسين : إن الله يحب المؤمن المذنوب التواب . وقال : التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره ، إلا أن يتقى منهم تقاة . قالوا : وما تقاة ؟ قال : يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يظني . وقال رجل لسعيد بن المسيب : ما رأيت أحداً أورع من فلان . فقال له سعيد : هل رأيت علي بن الحسين ؟ قال : لا ! قال : ما رأيت أورع منه . وروى سفيان بن عيينة عن الزهري . قال : دخلت على علي بن الحسين فقال : يا زهري فيم كنتم ؟ قلت : كنا نتذاكر الصوم ، فأجمع رأبي ورأى أصحابي على أنه ليس من الصوم شيء واجب ، إلا شهر رمضان فقال ! يا زهري ليس كما قلتم ، الصوم على أربعين وجهاً ، عشرة منها واجب كوجوب شهر رمضان . وعشرة منها حرام ، وأربع عشرة منها بالخيار ، إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب ، قال الزهري قلت : فسرهن يا ابن رسول الله . قال : أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصوم شهرين متتابعين في قتل الخطأ لمن لم يجحد العتق ، وصيام ثلاثة أيام كفارة اليمين لمن لم يجحد الاطعام ، وصيام حلق الرأس ، وصوم دم المتعقل من لم يجحد الهدى وصوم جزاء الصيد ، يقوم الصيد قيمته ثم يقسم ذلك الثمن على الخنطة . وأما الذي صاحبه بالخيار فصوم الأثنين والخميس ، وستة أيام من شوال بعد رمضان ، وصوم عرفة ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه بالخيار . فأما صوم الأذن فالمرأة لا تصوم تطوعاً إلا باذن زوجها ، وكذلك العبد والأمة ، وأما صوم الحرام فصوم يوم الفطر والأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم الشك ، نهينا أن نصومه لرمضان . وصوم الوصال حرام ، وصوم الصمت حرم ، وصوم نذر المعصية حرام ، وصوم الدهر ، وصوم الضيف لا يصوم تطوعاً إلا باذن صاحبه ، قال رسول الله . : « من نزل على قوم فلا يصومون تطوعاً إلا بأذنهم » . وأما صوم الاباحة فمن أكل أو شرب ناسياً أجزاء صومه ، وأما صوم المريض والمسافر فقال قوم : يصوم ، وقال قوم لا يصوم ، وقال قوم إن شاء صام وإن شاء أفطر « وأما نحن فنقول : يفطر في الحالين ، فان صام في السفر والمرض فعليه القضاء [(١)]

ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المدني أحد الفقهاء السبعة ، قيل اسمه محمد ، وقيل اسمه أبو بكر ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، والصحيح أن اسمه وكنيته واحد ، وله من

(١) زيادة من المصرية .

الأولاد والاختوة كثير، وهو تابعي جليل، روى عن عمار وأبي هريرة وأسامة بنت أبي بكر، وعائشة وأُم سلمة وغيرهم، وعنه جماعة منهم بنوه سلمة وعبد الله وعبد الملك وعمر، ومولاه صمى، وعاصر الشعبي وعمر بن عبد العزيز، وعمر بن دينار، ومجاهد، والزهرى. ولد في خلافة عمر، وكان يقال له راهب قريش، لكثرة صلواته، وكان مكفوطاً، وكان يصوم الدهر، وكان من الثقة والأمانة والفقه وصحة الرواية على جانب عظيم، قال أبو داود: وكان قد كف وكان إذا سجد يضع يده في طست لعة كان يجدها. والصحيح أنه مات في هذه السنة، وقيل في التي قبلها، وقيل في التي بعدها. والله أعلم.

قلت: ونظم بعض الشعراء بيتين ذكر فيهما الفقهاء السبعة فقال: -

ألا كل من لا يقتدى بأئمة * قسمته جبراً عن الحق خارجة

نخدم عبيد الله عروة قاسم * سعيد أبو بكر سليمان خارجة

وفيها توفي الفضل بن زياد الرقاشي، أحد زهاد أهل البصرة، وله مناقب وفضائل كثيرة جداً؛ قال: لا يلهينك الناس عن ذات نفسك، فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكيت وكيت، فإنه محفوظ عليك ما قلت. وقال: لم أر شيئاً أحسن طلباً، ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثه لذنب قديم.

أبو سلمة أبو عبد الرحمن بن عوف الزهرى، كان أحد فقهاء المدينة، وكان إماماً عالماً، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، وكان واسع العلم. توفي بالمدينة.

عبد الرحمن بن عائذ الأزدي، له روايات كثيرة، وكان عالماً، وخلف كتباً كثيرة من علمه، روى عن جماعة من الصحابة، وأسر يوم وقعة ابن الأشعث فأطلقه الحجاج.

عبد الرحمن بن معاوية بن خزيمة، قاضى مصر لعمر بن عبد العزيز بن مروان وصاحب شرطته، كان عالماً فاضلاً، روى الحديث وعنه جماعة [١].

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد بلاد الروم، وافتتح حصوناً كثيرة. وفيها فتح مسلمة بن عبد الملك مدينة في بلاد الروم، ثم حرقها ثم بناها بعد ذلك بعشر سنين، وفيها افتتح محمد بن القاسم مدينة المولينا^(٢) من بلاد الهند، وأخذ منها أموالاً جزيلة، وفيها قدم موسى بن نصير من بلاد الأندلس إلى إفريقية ومعه الأموال على العجل تحمل من كثرتها، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي، وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الشاش، ففتح مدناً وأقاليم كثيرة، فلما كان هناك جاءه الخليل بموت الحجاج بن يوسف فقعه ذلك ورجع بالناس إلى مدينة مرو وتمثل بقول بعض الشعراء:

(١) زيادة من المصرية. (٢) كنا ولعلها (الملتان).

لعمرى لنعم المرة من آل جعفر * بحوران أمسى أعلقتة الحبائل
فان نحى لأملك حياتى وإن تمت * فما فى حياتى بعد موتك طائل

وفىها كتب الوليد إلى قتيبة بأن يستمر على ما هو عليه من مناجزة الأعداء ، ويعده على ذلك ويجزيه خيراً ، ويثني عليه بما صنع من الجهاد وفتح البلاد وقتال أهل الكفر والعناد . وقد كان الحجاج استخلف على الصلاة ابنه عبد الله ، فولى الوليد الصلاة والحرب بالمصريين - الكوفة والبصرة - يزيد بن أبي كبشة ، وولى خراجهما يزيد بن مسلم ، وقيل كان الحجاج يستخلفهما على ذلك فأقرهما الوليد ، واستمر سائر نواب الحجاج على ما كانوا عليه . وكانت وفاة الحجاج لحس ، وقيل لثلاث بقين من رمضان ، وقيل مات فى شوال من هذه السنة .

وحج بالناس فيها بشر بن الوليد بن عبد الملك ، قاله أبو معشر والواقدي . وفىها قتل الواضح بأرض الروم ومعه ألف من أصحابه ، وفى هذه السنة كان مولد أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس .

﴿ وهذه ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى وذكر وفاته ﴾

هو الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن نعب بن عمرو ابن سعد بن عوف بن ثقف ، وهو قسى بن منبه بن بكر بن هوازن ، أبو محمد الثقفى ، سمع ابن عباس وروى عن أنس وصمرة بن جندب وعبد الملك بن مروان وأبى بردة بن أبى موسى ، وروى عنه أنس بن مالك ، وثابت البنائى ، وحמיד الطويل ، ومالك بن دينار ، وجواد بن محالد ، وقتيبة بن مسلم ، وسعيد بن أبى عروبة . قاله ابن عساکر ، قال : وكانت له بدمشق دور منها دار الراوية بقرب قصر ابن أبى الحديد . وولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير ، ثم عزله عنها وولاه العراق . وقدم دمشق وافداً على عبد الملك ، ثم روى من طريق المغيرة بن مسلم ، سمعت أبى يقول : خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر ، فما زال يقول : إنه بيت الوحدة ، وبيت الغربية ، حتى بكى وأبكى من حوله ، ثم قال : سمعت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول : سمعت مروان يقول فى خطبته : خطبنا عثمان بن عفان فقال فى خطبته : « ما نظر رسول الله (س) ، إلى قبر أو ذكره إلا بكى » . وهذا الحديث له شاهد فى سنن أبى داود وغيره ، وساق من طريق أحمد بن عبد الجبار : ثنا يسار عن جعفر عن مالك بن دينار قال : دخلت يوماً على الحجاج فقال لى : يا أبا يحيى ألا أحدثك بمحدث حسن عن رسول الله (س) ؟ قلت : بلى ! فقال : حدثنى أبو بردة عن أبى موسى . قال قال رسول الله (س) : « من كانت له إلى الله حاجة فليدع بها فى دبر صلاة مفروضة » . وهذا الحديث له شاهد عن فضالة بن عبيد وغيره فى السنن والمسانيد والله أعلم .

قال الشافعي : سمعت من يذكر أن المغيرة بن شعبه دخل على امرأته وهي تنخلل - أي تنخلل أسنانها لتخرج ما بينها من أذى - وكان ذلك في أول النهار ، فقال : والله لئن كنت باكرت الغداء إنك لرعيئة دنية ، وإن كان الذي نخلل من شيء بقي في فيك من البارحة إنك لقدرة فطلقها فقالت : والله ما كان شيء مما ذكرت ، ولكنني باكرت ماتبا كره الحرمة من السواك ، فبقيت شظية في في منه فحاولتها لأخرجها . فقال المغيرة أيوسف أبي الحجاج : تزوجها فانها خلقة بأن تأتي برجل يسود ، فتزوجها يوسف أبو الحجاج . قال الشافعي : فأخبرت أن أبا الحجاج لما بنى بها واقعها فنام فقيل له في النوم : ما أسرع ما ألتفتت للمبهر .

قال ابن خلكان : واسم أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي ، وكان زوجها الحارث ابن كلدة الثقفي طبيب العرب ، وذكر عنه هذه الحكاية في السواك . وذكر صاحب العقد أن الحجاج كان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف ، ثم قدم دمشق فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك ، فشكا عبد الملك إلى روح أن الجيش لا ينزلون لنزوله ولا يرحلون لرحيله ، فقال روح : عندي رجل توليه ذلك ، فولى عبد الملك الحجاج أمر الجيش ، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل ، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون فضربهم وطوف بهم وأحرق الفسطاط ، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك ، فقال للحجاج : لم صنعت هذا ؟ فقال : لم أفعل إلا ما فعله أنت ، فان يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما ضرك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه ، وبديل الغلام غلامين ، ولا تكسرنى في الذي وليتني ؟ ففعل ذلك وتقدم الحجاج عنده . قال : وبني واسط في سنة أربع وثمانين ، وفرغ منها في سنة ست وثمانين ، وقيل قبل ذلك . قال : وفي أيامه نطقت المصاحف ، وذكر في حكايته ما يدل أنه كان أولاً يسمى كليباً ، ثم سمي الحجاج . وذكر أنه ولد ولا يخرج له حتى فتق له مخرج ، وأنه لم يرتضع أياماً حتى سقوه دم جدى ثم دم صالح ولطخ وجهه بدمه فارتضع ، وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء ، لأنه أول ما ارتضع ذلك الدم الذي لطخ به وجهه ، ويقال إن أمه هي المنمنية لنصر بن حجاج بن علاط ، وقيل إنها أم أبيه والله أعلم . وكانت فيه شهامة عظيمة ، وفي سيفه رهنق ، وكان كثير قتل النفوس التي حرمها الله بأدنى شبهة ، وكان يفضب غضب الملوك ، وكان فيما يزعم يتشبه بزياد بن أبيه ، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ، ولا سواء ولا قريب . وقد ذكر ابن عسائكر في ترجمة سليم بن عتر التجيبي قاضي مصر ، وكان من كبار التابعين . وكان ممن شهد خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، وكان من الزهادة والعبادة على جانب عظيم ، وكان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث ختمات في الصلاة وغيرها .

والمقصود أن الحجاج كان مع أبيه بمصر في جامعها فاجتاز بهما سليم بن عتر هذا فتمض إليه أبو

الحجاج فسلم عليه ، وقال له : إني ذاهب إلى أمير المؤمنين ، فهل من حاجة لك عنده ؟ قال : نعم ا تسأله أن يعزلي عن القضاء . فقال : سبحان الله !! والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك . ثم رجع إلى ابنه الحجاج فقال له ابنه : يا أبة أتقوم إلى رجل من نجيب وأنت ثقفي ؟ فقال له : يا بني والله إني لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله . فقال : والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله ، فقال : ولم يا بني ؟ قال : لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبي بكر وعمر ، فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئاً عند سيرتهم ما فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه ، ولا يرون طاعته ، والله لو خلاص لي من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله . فقال له أبوه : يا بني والله إني لأظن أن الله عز وجل خلقك شقيماً . وهذا يدل على أن أباه كان ذا وجهة عند الخليفة ، وأنه كان ذا فراسة صحيحة ، فانه تفرس في ابنه ما آل إليه أمره بعد ذلك .

قالوا : وكان مولد الحجاج في سنة تسع وثلاثين ، وقيل في سنة أربعين ، وقيل في سنة إحدى وأربعين ، ثم نشأ شاباً لبيبا فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن ، قال بعض السلف : كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة ، وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري ، وكان الحسن أفصح منه . وقال الدارقطني : ذكر سليمان بن أبي منيخ عن صالح بن سليمان قال قال عقبة بن عمرو : ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا الحجاج وإياس بن معاوية ، فان عقولهما كانت ترجح على عقول الناس . وتقدم أن عبد الملك لما قتل مصعب بن الزبير سنة ثلاث وسبعين بعث الحجاج إلى أخيه عبد الله بمكة فحاصره بها وأقام للناس الحج عامئذ ، ولم يتمكن ومن معه من الطواف بالبيت ، ولا يمكن ابن الزبير ومن عنده من الوقوف ، ولم يزل محاصره حتى ظفر به في جمادى سنة ثلاث وسبعين ، ثم استنابه عبد الملك على مكة والمدينة والطائف واليمن ، ثم نقله إلى العراق بعد موت أخيه بشر ، فدخل الكوفة كما ذكرنا ، وقال لهم وفعل بهم ما تقدم إرادته مفصلاً ، فأقام بين ظهرانهم عشرين سنة كاملة . وفتح فيها فتوحات كثيرة ، هائلة منتشرة ، حتى وصلت خيوله إلى بلاد الهند والسند ، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم ، ووصلت خيوله أيضاً إلى قريب من بلاد الصين ، وجزت له فصول قد ذكرناها . ونحن نورد هنا أشياء أخر مما وقع له من الأمور والجرأة والاقدام ، والتهاون في الأمور العظام ، مما يمدح على مثله ومما يندم بقوله وفعله ، مما ساقه الحافظ ابن عساكر وغيره : فروى أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أيوب عن عبد الله بن كثير ابن أخي إسماعيل بن جعفر المدني ما معناه : أن الحجاج بن يوسف صلى مرة بجانب سعيد بن المسيب - وذلك قبل أن يلي شيئاً - فجعل يرفع قبل الامام ويقع قبله في السجود ، فلما سلم أخذ سعيد بطرف رداءه - وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة - فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره ، ثم أقبل عليه سعيد

فقال له : ياسارق يا خائن ، تصلى هذه الصلاة ، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك . فلم يرد عليه
ثم مضى الحجاج إلى الحج ، ثم رجع فعاد إلى الشام ، ثم جاء نائباً على الحجاز . فلما قتل ابن الزبير
كر راجعاً إلى المدينة نائباً عليها ، فلما دخل المسجد إذا بمجلس سعيد بن المسيب ، فقصدته الحجاج
فخشي الناس على سعيد منه ، فجاء حتى جلس بين يديه فقال له : أنت صاحب الكلمات ؟ فضرب
سعيد صدره بيده وقال : نعم ! قال : فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا
أذكر قولك . ثم قام ومضى . وروى الرياشي عن الأصمعي وأبي زيد عن معاذ بن العلاء - أخي
أبي عمرو بن العلاء - قال : لما قتل الحجاج ابن الزبير أرنجت مكة بالبكاء ، فأمر الناس فجمعوا في
المسجد ثم صعد المنبر فقال بعد حمد الله والثناء عليه : يا أهل مكة ! بلغني ! كباركم قتل ابن الزبير ،
ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها ، فترع طاعة
الله واستكن بحرم الله ، ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله ، إن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه
من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأباح له كرامته ، وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة
بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ، اذكروا الله يذكركم .
وقال الامام أحمد : حدثنا إسحاق بن يوسف ثنا عون عن أبي الصديق الناجي أن الحجاج
دخل على أسماء بنت أبي بكر بعد ما قتل ابنها عبد الله فقال : إن ابنتك ألحد في هذا البيت ، وإن
الله أذافه من عذاب أليم ، وفعل . فقالت : كذبت ، كان برأ بوالديه ، صواما قواما ، والله لقد
أخبرنا رسول الله (س) ، « أنه يخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول ، وهو مبير » .
ورواه أبو يعلى عن وهب بن بقية عن خالد بن عون عن أبي الصديق . قال : بلغني أن الحجاج دخل
على أسماء فذكر مثله ، وقال أبو يعلى : ثنا زهير ثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد عن قيس بن
الأحنف عن أسماء بنت أبي بكر . قالت : سمعت رسول الله (س) ، نهى عن المثلة . وسمعته يقول :
« يخرج من ثقيف رجلان كذاب ومبير » . قالت فقلت للحجاج : أما الكذاب فقد رأيتاه ، وأما
المبير فأنت هو يا حجاج . وقال عبيد بن حميد : أنبأ يزيد بن هازون أنبأ العوام بن حوشب حدثني
من سمع أسماء بنت أبي بكر الصديق تقول للحجاج حين دخل عليها يمز بها في ابنها : سمعت رسول
الله (س) ، يقول : « يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذاب » . فأما الكذاب فابن أبي عبيد - تعني
المختار - وأما المبير فأنت . وتقدم في صحيح مسلم من وجه آخر أوردناه عند مقتل ابنها عبد الله ،
وقد رواه غير أسماء عن النبي (س) ، فقال أبو يعلى : ثنا أحمد بن عمر الوكيعي ، ثنا وكيع حدثنا أم
عراب عن امرأة يقال لها عقيلة عن سلامة بنت الحر قالت قال رسول الله (س) : « في ثقيف
كذاب ومبير » . تفرد به أبو يعلى . وقد روى الامام أحمد عن وكيع عن أم عراب - واسمها

طلحة - عن عقيلة عن سلامة حديثنا آخر في الصلاة ، وأخرجه أبو داود وابن ماجه ، وروى من حديث ابن عمر ، فقال أبو يعلى : ثنا أمية بن بسطام ثنا يزيد بن ربيع ثنا إسرائيل ثنا عبد الله بن عصمة قال : سمعت ابن عمر « أنبأنا رسول الله ص . أن في ثيف مبرا وكذابا » وأخرجه الترمذى من حديث شريك عن عبد الله بن عاصم ويقال عصمة . وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك .

وقال الشافعى : ثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج عن نافع أن ابن عمر اعتزل ليالى قتال ابن الزبير والحجاج بمنى ، فكان لا يصلى مع الحجاج . وقال الثورى عن محمد بن المنكدر عن جابر أنه دخل على الحجاج فلم يسلم عليه ولم يكن يصلى وراه . وقال إسحاق بن راهويه : أنبأ جرير عن القعقاع بن الصلت قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير غير كتاب الله ، فقال ابن عمر : ما سلطه الله على ذلك ، ولا أنت معه ، ولو شئت أقول : كذبت لفعت . وروى عن شهر بن حوشب وغيره أن الحجاج أطل الخطبة فجعل ابن عمر يقول : الصلاة الصلاة مراراً ، ثم قام فأقام الصلاة فقام الناس ، فصلى الحجاج بالناس ، فلما انصرف قال لابن عمر : ما حملك على ذلك ؟ فقال : إنما نجى للصلاة فصل الصلاة لوقتها ثم تفتق ماشئت بعد من تفتقه .

وقال الاصمعى : سمعت عمى يقول : بلغنى أن الحجاج لما فرغ من ابن الزبير وقدم المدينة لقي شيخاً خارجاً من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة ، فقال : بشرٌ حال ، قتل ابن حواري رسول الله ص . ، فقال الحجاج : ومن قتله ؟ فقال : الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته ، من قليل المراقبة لله . فغضب الحجاج غضباً شديداً ثم قال : أيها الشيخ ! أتعرف الحجاج إذا رأيته ؟ قال : نعم ! فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضرراً . فكشف الحجاج عن لثامه وقال : ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة . فلما تحقق الشيخ الجد قال : والله إن هذا هو المعجب بالحجاج ، لو كنت تعرفنى ما قلت هذه المقالة ، أنا العباس بن أبي داود ، أصرع كل يوم خمس مرات ، فقال الحجاج : انطلق فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عاقاه .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد ثنا حماد بن سلمة عن ابن أبي رافع عن عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك : أتمكنه من ذلك ؟ فقال : وما بأس من ذلك . قال : أشد الناس والله ، قال : كيف ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما فى صدرى على آل الزبير منذ تزوجت^(١) رملة بنت الزبير ، قال : وكأنه كان نائماً فأيقظه ، فكتب إلى الحجاج يعزم عليه بطلاقها فطلقها . وقال سعيد بن أبي عروبة : حج الحجاج مرة فر بين مكة والمدينة فأتى بغذائه فقال لحاجبه :

(١) كذا بالأصول والظاهر أن فى مواضع من هذا الخبر تحريفاً .

انظر من يأكل معي ، فذهب فاذا أعرابي نائم فضر به برجله وقال : أجب الأمير ، فقام فلما دخل على الحجاج قال له : اغسل يديك ثم تغد معي ، فقال : إنه دعاني من هو خير منك ، قال : ومن ؟ قال الله دعاني إلى الصوم فأجبتني ، قال : في هذا الحر الشديد ؟ قال : نعم صمت ليوم هو أشد حرًا منه ، قال : فأفطر وصم غدا ، قال : إن ضمننت لي البقاء لغد . قال : ليس ذلك لي ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بأجل لا تقدر عليه ؟ قال : إن طعامنا طعام طيب ، قال : لم تطيبه أنت ولا الطباخ ، إنما طيبته العافية

قصة ذكوان

قد ذكرنا كيفية دخول الحجاج الكوفة في سنة خمس وسبعين وخطبته إياهم بغتة ، وتهديده ووعيده إياهم ، وأنهم خافوه مخافة شديدة ، وأنه قتل عمير بن ضابي ، وكذلك قتل كميل بن زياد صبرا ، ثم كان من أمره في قتال ابن الأشعث ما قدمنا ، ثم تسلط على من كان معه من الرؤساء والأمراء والعباد والقراء ، حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبير . قال القاضي المعافى زكريا : ثنا أحمد بن محمد بن سعد السكبي ثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا محمد - يعني ابن عبد الله بن عباس - عن عطاء - يعني ابن مصعب - عن عاصم قال : خطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم ، فقال : يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم ، والعصب والمسامع ، والأطراف ، ثم أفضى إلى الاسماخ والامخاخ ، والأشباح والأرواح ، ثم ارتع فعشش ، ثم باض وفرخ ، ثم دب ودرج ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشعركم خلافاً ، اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤتمناً تشاورونه وتستأمرونه ، فكيف تنفعم تجربة ، أو ينفعكم بيان ؟ ألسنم أصحابي بالأهواز حيث منيتم المكر واجتمعتم على الغدر ، واتفقتم على الكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا والله أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لوإذا ، وتهزموه سراعاً . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ، مما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ، ونكوس قلوبكم إذ ولتكم كلاب الشاردة عن أوطانها النوازع ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حين عضكم السلاح ، ونحمتكم الرماح . ويوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم ، بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق يا أهل الكفران بعد الفجران ، والغدران بعد الخلدان ، والنزوة بعد النزوات ، إن بعثناكم إلى نفوركم غلتم وختمتم ، وإن أمنتم أرجعتم ، وإن ختمت نافتكم ، لا تذكرون نعمة ، ولا تشكرون معروفًا ، ما استخفكم ناكث ، ولا استغفواكم غاو ، ولا استنقذكم عاص ، ولا استنصركم ظالم ، ولا استعضدكم خالع ، إلا لبينتم دعوته ، وأجبتهم صيحته ، ونفرتهم إليه خفافاً وثقالاً ، وفرساناً ورجالا . يا أهل العراق هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر زافر

إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يا أهل العراق ألم تنفعمم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ألم يشدد الله عليكم وطأته، ويزدكم حر سيفه، وأليم بأسه ومثلاته؟ ثم النفث إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظلم الرامح عن فراخه ينفي عنها القدر، ويباعد عنها الحجر، ويكفها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذباب. يا أهل الشام! أنتم الجنة والبرد، وأنتم الملاءة والجلد، أنتم الأولياء والأنصار، والشعار والدار، بكم يذب عن البيضة والحوذة، وبكم ترمى كتائب الأعداء ويهزم من عاند وتولى.

قال ابن أبي الدينا: حدثني محمد بن الحسين حدثنا عبيد الله بن محمد التميمي سمعت شيخاً من قريش يكنى أبا بكر التميمي قال: كان الحجاج يقول في خطبته - وكان لسنا - : إن الله خلق آدم وذريته من الأرض فأمشاهم على ظهرها، فأكلوا ثمارها وشربوا أنهارها وهتكوها بالمساحي والمرور، ثم أدال الله الأرض منهم فرددهم إليها فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها، وقطعتهم في جوفها وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحي والمرور.

ومارواه غير واحد عن الحجاج أنه قال في خطبته في المواعظ: الرجل وكلكم ذاك الرجل، رجل خطم نفسه وزمها فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وكفها بزمامها عن معاصي الله، رحم الله امرأاً رد نفسه، امرأاً اتهم نفسه، امرأاً اتخذ نفسه عدوة، امرأاً حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرأاً نظر إلى ميزانه، امرأاً نظر إلى حسابه، امرأاً وزن عمله، امرأاً فكر فيما يقرأ غداً في صحيفته ويراه في ميزانه، وكان عند قلبه زاجراً، وعند همه امرأاً، امرأاً أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جملة، فان قاده إلى طاعة الله تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كف، امرأاً عقل عن الله أمره، امرأاً فاق واستفاق، وأبغض المعاصي والنفاق، وكان إلى ما عند الله بالأشواق. فما زال يقول امرأاً امرأاً، حتى بكى مالك بن دينار.

وقال المدائني عن عوانة بن الحكم قال قال الشعبي: سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلافناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يفرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل. وقال المدائني عن أبي عبد الله الثقفى عن عمه قال: سمعت الحسن البصرى يقول: وقد تنى كلمة سمعتها من الحجاج سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لخرى أن تطول عليها حسرتة إلى يوم القيامة. وقال شريك القاضي عن عبد الملك بن عمير قال قال الحجاج يوماً: من كان له بلاء أعطيناه على قدره، فقام رجل فقال:

بلى بلى

اعطى فاني قتل الحسين ، فقال : وكيف قتلته ؟ قال : دسرت به بالرمح دسرا ، وهبته بالسيف هباً ، وما أشركت معي في قتله أحداً . فقال : اذهب فوالله لا يجمع أنت وهو في موضع واحد ، ولم يعطه شيئاً . وقال الهيثم بن عدى : جاء رجل إلى الحجاج فقال : إن أخي خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمي في الديوان ومنعت العطاء وقد هدمت داري ، فقال الحجاج ، أما سمعت قول الشاعر :

حَنَانِيكَ مَنْ نَجَّيَ عَلَيْكَ وَقَدْ • نَعَشَى الصِّحَاحَ مَبَارِكُ الْجُرَبِ
وَلَرَبِّ مَاخُودٍ بِذَنْبِ قَرِيْبِهِ • وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الدُّنْبِ ؟

فقال الرجل : أيها الأمير ! إني سمعت الله يقول غير هذا ، وقول الله أصدق من هذا ، قال : وما قال ؟ قال [قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون] قال : يا غلام أعد اسمي في الديوان وابن داره ، واعطه عطاءه ، ومر منادياً ينادي صدق الله وكذب الشاعر . وقال الهيثم بن عدى عن ابن عباس : كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إلى برأس أسلم بن عبد البكري ، لما بلغني عنه ، فأحضره الحجاج فقال : أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب ، وقال الله تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين] وما بلغه باطل ، وإني أعول أربعة وعشرين امرأة ما هن كاسب غيري وهن بالبواب ، فأمر الحجاج باحضارهن ، فلما حضرن جمعت هذه تقول : أنا خالته ، وهذه أنا عمته ، وهذه أنا أخته ، وهذه أنا زوجته ، وهذه أنا بنته ، وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشرة ، فقال لها الحجاج : من أنت ؟ فقالت : أنا ابنته ، ثم قالت : أصلح الله الأمير ، وجئت على ركبتيها وقالت : -

أَحْجَاجُ لَمْ تَشْهَدْ مَقَامَ بَنَاتِهِ • وَعَمَاتِهِ يَنْدُبُهُ اللَّيْلُ أَجْمَعَا
أَحْجَاجُ كَمْ تَقْتُلُ بِهِ إِنْ قَتَلْتَهُ • ثَمَانًا وَعَشْرًا وَاثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعَا
أَحْجَاجُ مَنْ هَذَا يَوْمَ مَقَامِهِ • عَلَيْنَا قَهْلًا إِنْ تَزِدْنَا تَضَعُضَا
أَحْجَاجُ إِمَّا أَنْ نَجُودَ بِنِعْمَةٍ • عَلَيْنَا وَإِمَّا أَنْ تَقْتُلْنَا مَعَا

قال : فبكي الحجاج وقال : والله لا أعنت عليك ولا زدتك ترضعنا ، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل ، وبما قالت ابنته هذه ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره باطلاقه وحسن صلته وبالاحسان إلى هذه الجارية وتفقدتها في كل وقت وقيل إن الحجاج خطب يوماً فقال : أيها الناس الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك يا حجاج ما أصفقت وجهك وأقل حياتك ، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ خبت وضل سعيك ، فقال للحرس خذوه ، فلما فرغ من خطبته قال له : ما الذي جرأك علي ؟ فقال : ويحك يا حجاج ، أنت

تجرتي على الله ولا أجترى أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترى عليك . وأنت تجرتي على الله رب العالمين ، فقال : خلوا سبيله ، فأطلق

وقال المدائني : أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث فأمر بقتلهما ، فقال أحدهما : إن لي عندك يداً ، قال : وما هي ؟ قال : ذكر ابن الأشعث يوماً أمك فرددت عليه ، فقال : ومن يشهدك ؟ قال : صاحبي هذا فسأله فقال : نعم ، فقال : ما منعك أن تفعل كما فعلت ؟ قال : نفضك ، قال اطلقوا هذا لصدقه ، وهذا لفظه . فأطلقوهما . وذكر محمد بن زياد عن ابن الأعرابي فيما بلغه أنه كان رجل من بني حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان فاتكاً بأرض الحمامة ، فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه ، فما زال نائبها في طلبه حتى أسره وبعث به إلى الحجاج ، فقال له الحجاج : ما حملك على ما كنت تصنعه ؟ فقال : جراءة الجنان ، وجفاء السلطان ، وكاب الزمان ، ولو اخترتني الأمير لوجدتني من صالح الأعراب ، وشهم الفرسان ، ولو جردتني من أصلح رعيتي ، وذلك أتى ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدراً ، فقال له الحجاج : إنا قاذفوك في حائر فيه أسد عاقر فان قتلك كفانا مؤنتك ، وإن قتلته خلتنا سبيلك . ثم أودعه السجن مقيداً مغلولاً يده اليمنى إلى عنقه ، وكتب الحجاج إلى نائبه بكسكر أن يبعث بأسد عظيم ضار ، وقد قال جحدر هذا في محبسه هذا أشعراً يتحزن فيها على امرأته سليمان أم عمرو يقول في بعضها :

أليس الليلُ يجمعُ أمَ عمرو * وإيانا فنداك بنا تداني
بلى وتري الهلالَ كما نراه * ويعلوها النهارُ إذا علاني
إذا جاوزت ما نخلت نجيدي * وأودية اليمامة فانياني
وقولا جحدرَ أمسي رهيناً * يحاذرُ وقعَ مصقولٍ يمانِي

فلما قسم الأسد على الحجاج أمر به فجوع ثلاثة أيام ، ثم أبرز إلى حائر - وهو البستان - وأمر بجحدر فأخرج في قيوده ويده اليمنى مغلولاً بحالها ، وأعطى سيفاً في يده اليسرى وخلي بينه وبين الأسد وجلس الحجاج وأصحابه في منظره ، وأقبل جحدر نحو الأسد وهو يقول :

ليثٌ وليثٌ في مجالِ ضنكٍ * كلاهما ذو أنفٍ ومحكٍ
وشدةٍ في نفسه وقتكٍ * إن يكشف الله قناعَ الشكِّ
* فهو أحقُّ منزلٍ بتركٍ *

فلما نظر إليه الأسد زار زارة شديدة ونمطى وأقبل نحوه فلما صار منه على قدر رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة فلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربة خالط ذباب السيف هواته ، نحر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح ، من شدة الضربة ، وسقط جحدر من شدة وثبة الأسد وشدة موضع

القيود عليه ، فكبر الحجاج وكبر أصحابه وأشار جحدر يقول :

يا جمل إنك لو رأيت كرهتي * في يوم هول مسدق وعجاج
وتقدمي لليث أرسف موثقاً * كما أساوره على الأخراج
شئن برائنه كأن نبوته * زرق المعاول أو شباة زجاج
يسمو بناظرين تحسب فيهما * لهباً أحدهما شعاع سراج
وكانما خيطة عليه عباءة * برقاء أو خرقة من الديباج
لعلت أنى ذو حفاظ ماجد * من نسل أقوام ذوى ابراج

فعند ذلك خيره الحجاج إن شاء أقام عنده ، وإن شاء انطلق إلى بلاده ، فاختر المقام عند الحجاج ، فأحسن جائزته وأعطاه أموالاً . وأنكر يوماً أن يكون الحسين من ذرية رسول الله - ﷺ لأنه ابن بنته ، فقال له يحيى بن يعمر : كذبت فقال الحجاج : لتأتيني على ما قلت بيينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك ، فقال قال الله [ومن ذريته داود وسليمان] إلى قوله [وذكرا ويحيى وعيسى] فعيسى من ذرية إبراهيم ، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم ، والحسين ابن بنت رسول الله - ﷺ . فقال الحجاج : صدقت ، ونفاه إلى خراسان .

وقد كان الحجاج مع فصاحته و بلاغته يلحن في حروف من القرآن أنكرها يحيى بن يعمر ، منها أنه كان يبدل إن المكسورة بان المفتوحة وعكسه ، وكان يقرأ [قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم] إلى قوله [أحب إليكم] فيقرأها برفع أحب . وقال الأصمعي وغيره : كتب عبد الملك إلى الحجاج يسأله عن أمس واليوم وغد . فقال للرسول : أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنده ؟ قال : نعم ! فكتب الحجاج إلى عبد الملك : أما أمس فأجل ، وأما اليوم فعمل ، وأما غداً فأمل . وقال ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن أبي عبيدة معمر بن المثنى . قال : لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق ، وسع على الناس في العطاء ، فكتب إليه عبد الملك : أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم مالا ينفقه أمير المؤمنين في الأسبوع وتنفق في الأسبوع مالا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر ، ثم قال منشداً :

عليك بتقوى الله في الأمر كله * وكن يا عبيد الله نخشى وتضرع
ووفر خراج المسلمين وفيأهم * ونن لهم حصناً نجير وتمنع

فكتب إليه الحجاج :

لعمري لقد جاء الرسول بكتبكم * قراطيس نملانم تطوى فتطبع
كتاب أناني فيه لين وغلظة * وذكرت والذكري لذي اللب تنفع

وكانت أمور تعزيني كثيرة * فأرضخ أو اعتل حيناً فامنع
 إذا كنت سوطاً من عذاب عليهم * ولم يك عندي بالمنافع مطمع
 أيرضى بذلك الناس أو يسخطونه * أم احمد فيهم أم الام فأذع
 وكان بلاد جنتها حين جنتها * بها كل نيران العداوة تلع
 فقاسيت منها ما علمت ولم أزل * أصارع حتى كدت بالموت أصرع
 وم أزعفوا من رجفة قد سمعتها * ولو كان غيري طار مما بروع
 وكنت إذا هموا باحدى نهايتهم * حسرت لهم رأسي ولا أتقنع
 فلو لم يزد عني صنائيد منهم * تقسم أعضائي ذئاب وأضع

قال : فكتب إليه عبد الملك : أن اعمل برأيك . وقال الثوري عن محمد بن المستورد الجمحي
 قال : أتى الحجاج بسارق فقال له لقد كنت غنياً أن تكسب جناية فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل
 عليك عضواً من أعضائك ، فقال الرجل : إذا قل ذات اليد سخنت النفس بالمثالف . قال : صدقت
 والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنت له موضعاً . يا غلام سيف صارم ورجل قاطع ، فقطع
 يده . وقال أبو بكر بن مجاهد عن محمد بن الجهم عن الفراء قال : تغدى الحجاج يوماً مع الوليد بن
 عبد الملك فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ^(١) فقال : يا أمير المؤمنين الخلال ما أحلت ،
 ولكني أنهي عنه أهل العراق وأهل عملي ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح [وما أريد أن
 أخالفكم إلى ما أنها كم عنه] . وقال عمر بن شبة عن أشياخه قال : كتب عبد الملك إلى الحجاج يعتب
 عليه في إسرافه في صرف الأموال ، وسفك الدماء ، ويقول : إنما المال مال الله ونحن خزائنه ، وسيان
 منع حق أو إعطاء باطل . وكتب في أسفل الكتاب هذه الأبيات : -

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها * وتطلب رضائي في الذي أنا طالبه
 وتخشى الذي يخشاه مثلك هارباً * إلى الله منه ضيع الدر حالبه
 فان تر مني غفلة قرشية * فياربما قد غص بالماء شاربه
 وإن تر مني وثبة أموية * فهذا وهذا كله أنا صاحبه
 فلا تعد ما يأتيك مني فان تعد * تتم فاعلمن يوماً عليك نوادبه

فلما قرأه الحجاج كتب : أما بعد فقد جاءني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الأموال ،

(١) ما يسمى في هذا العصر نبيذاً هو الخمر المحض ، وهو غير ما كان يسمى سلفنا نبيذاً . والنبيذ
 عندهم هو التمر أو الزبيب يترك عليه الماء ويسمونه بعد ذلك نبيذاً سواء أسكر أو لم يسكر . وفي
 كلتا الحالتين فإنه أشبه بعصير القصب اليوم إن لم يكن دونه .

والدماء ، فوالله ما بالغت في عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حق أهل الطاعة ، فان كان ذلك سرفاً
فليحد لي أمير المؤمنين حداً أنتهى إليه ولا أنجاوزه ، وكتب في أسفل الكتاب :

إذا أنا لم أطلب رضاك وأتقى * أذاك فيومي لا توارث كواكبه

إذا قارف الحجاج فيك خطيئة * فقامت عليه في الصباح نوادة

أسالم من سألت من ذي هوادة * ومن لا تسالهُ فاني محاربة

إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحده * وأقص الذي تسرى إلى عقاربه

فمن يتقى يومي ويرجو إذا غدى * على ما أرى والدهر جمّ عجائبه

وعن الشافعي أنه قال قال الوايد بن عبد الملك للغاز بن ربيعة أن يسأل الحجاج فيما بينه وبينه:
هل يجد في نفسه مما أصاب من الدنيا شيئاً؟ فسأله كما أمره ، فقال : والله ما أحب أن لي لبنان
أو سبير ذهباً أنفقته في سبيل الله ، وكان ما أبلاني الله من الطاعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم

فَضَائِلُهُ

فما روى عنه من الكلمات النافعة والجرأة الباقفة

قال أبو دواد : ثنا محمد بن العلاء ، ثنا أبو بكر عن عاصم قال سمعت الحجاج وهو على المنبر يقول :
اتقوا الله ما استطعتم ، ليس فيها منثوية ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها منثوية لأمر المؤمنين عبد الملك ،
والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم ،
والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً ، وما عذيري من عبد هذيل يزعم أن قرآنه
من عند الله ، والله ما هي إلا رجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه . . . ، وعذيري من هذه
الجرأة ، يزعم أحدهم يرمى بالحجر فيقول لي إن تقع الحجر حدث أمر ، فوالله لأدعنهم كالأمس
الداير . قال : فذكرته للأعمش فقال : وأنا والله سمعته منه . ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة عن محمد بن
يزيد عن أبي بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود والأعمش أنهما سمعا الحجاج قبحه الله يقول
ذلك ، وفيه والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لي دماؤكم ، ولا
أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه ، ولا أحكمتها من المصحف ولو بضلع خنزير .
ورواه غير واحد عن أبي بكر بن عياش بنحوه ، وفي بعض الروايات : والله لو أدركت عبد هذيل
لأضربن عنقه . وهذا من جرأة الحجاج قبحه الله ، وإقدامه على الكلام السيئ ، والدماء الحرام .
وإنما نغم على قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لكونه خالف القراءة على المصحف الأمام الذي جمع
الناس عليه عثمان ، والظاهر أن ابن مسعود رجع إلى قول عثمان ومواقبه والله أعلم .

وقال علي بن عبد الله بن مبشر عن عباس الدوري عن مسلم بن إبراهيم : ثنا الصلت بن دينار سمعت الحجاج على منبر واسط يقول : عبد الله بن مسعود رأس المناقطين ، لو أدركته لأستقيت الأرض من دمه . قال وسمعتة على منبر واسط وتلا هذه الآية [هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي] قال : والله ان كان سليمان لحسوداً . وهذه جراءة عظيمة تفضي به إلى الكفر : قبحه الله وأخزاه ، وأبعده وأقصاه .

[قال أبو نعيم : حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة . قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني جئتك من عند رجل يملئ المصاحف عن ظهر قلب ، ففرغ عمر وغضب وقال : وبمحك ، انظر ماتقول . قال : ماجئتك إلا بالحق ، قال : من هو ؟ قال عبد الله بن مسعود . قال : ما أعلم أحداً أحق بذلك منه ، وسأحدثك عن ذلك . « إنا سهرنا ليلة في بيت عند أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة النبي (س) ، ثم خرجنا ورسول الله (س) . يمشي بيني وبين أبي بكر ، فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ فقام النبي (س) . يستمع إليه ، فقلت : يا رسول الله أعتمت ، فغمزني بيده - يعني اسكت - قال : فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر ، فقال النبي (س) : سل نفظه (١) ثم قال : من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد ، فعلت أنا وصاحبي أنه عبد الله بن مسعود ، فلما أصبحت غدوت إليه لأبشره فقال : سبقك بها أبو بكر ، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه » وهذا الحديث قد روى من طرق ، فرواه حبيب بن حبان عن زيد بن وهب عن عمر مثله ، ورواه شعبة وزهير وخديج عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله ، ورواه عاصم عن عبد الله ، ورواه الثوري وزائدة عن الأعمش نحوه . وقال أبو داود : حدثنا عمر بن ثابت عن أبي إسحاق عن حمير بن مالك قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : « أخذت من في رسول الله (س) سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لصبي مع الصبيان ، فأنا لا أدع ما أخذت من في رسول الله (س) . » وقد رواه الثوري وإسرافيل عن أبي إسحاق به . وفي رواية ذكرها الطبراني عنه قال : « لقد تلقيت من في رسول الله (س) سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد بن ثابت ، وله دواية يلعب مع الغلمان » . وقد روى أبو داود عنه وذكر قصة رعه الغنم لعقبة بن أبي معيط ، وأنه قال : قال لي رسول الله (س) : « إنك غلام معلم ، قال : فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد » . ورواه أبو أيوب الأفرقي وأبو عوانة عن عاصم عن زر عنه نحوه . وقال له النبي (س) : « إذنتك أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادى حتى أتياك » . وقد روى هذا عنه من طرق

وروى الطبراني عن عبد الله بن شداد بن الهاد أن عبد الله كان صاحب الوساد والسواد والسواك

(١) هذا الخبر في الأستيعاب لابن عبد البر ، ولكنه اختصر هذا النوضع منه .

والنعملين . وروى غيره عن علقمة قال : قدمت الشام فجلست إلى أبي الدرداء فقال لي : ممن أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة ، فقال : أليس فيكم صاحب الوساد والسواك ؟ وقال الحارث بن أبي أسامة : حدثنا عبد العزيز بن أبان حدثنا قطر بن خليفة حدثنا أبو وائل قال سمعت حذيفة يقول ، وابن مسعود قائم : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد .س. ، من أقربهم وسيلة يوم القيامة . وقد روى هذا عن حذيفة من طرق ، فرواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي وائل عن حذيفة ورواه عن أبي وائل فاضل الأحذب وجامع بن أبي راشد ، وعبيدة ، وأبو سنان الشيباني ، وحكيم بن جبير ، ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن حذيفة .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول : قلنا لحذيفة أخبرنا برجل قريب المهدي والسمت من رسول الله .س. حتى نلزمه ، فقال : ما أعلم أحداً أقرب هدياً وسمتاً من رسول الله .س. حتى يواريه جدار بيته من ابن أم عبد ، ولقد علم المحفوظون من أصحاب النبي .س. أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة . قلت : فهذا حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله .س. ، وهذا قوله في عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . فكذب الحجاج وفجر ، ولقم النار والحجر فيما يقوله فيه ، وفي رميته له بالنفاق ، وفي قوله عن قراءته : إنها شعر من شعر هذيل ، وإنه لا بد أن يحكها من المصحف ولو بضع خنزير ، وأنه لو أدركه لضرب عنقه ، فحصل على إثم ذلك كله بنيته الخبيثة . وقال عفان : حدثنا حماد حدثنا عاصم عن زر عن عبد الله قال : كنت أجتني لرسول الله .س. سواكاً من أراك ، فكانت الريح تكفوه ، وكان في ساقه دقة ، فضحك القوم ، فقال النبي .س. : « ما يضحككم ؟ قالوا : من دقة ساقه ، فقال النبي .س. : والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحدهما » . ورواه جرير وعلي بن عاصم عن مغيرة عن أم موسى عن علي بن أبي طالب . وروى سلمة بن هلال عن أبي الزعراء عن ابن مسعود قال : قال رسول الله .س. : « تمسكوا بعهد عبد الله بن أم مسعود » ورواه الترمذي والطبراني .

وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق . قال : سمعت أبا الأحوص قال : شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين توفي ابن مسعود وأحدهما يقول لصاحبه : أتراه ترك بعده مثله . قال : إن قلت ذلك إنه كان ليؤذن له إذا حجبتنا ، ويشهد إذا غبتنا . وقال الأعمش : يعني عبد الله بن مسعود . وقال أبو معاوية : حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب . قال : أقبل عبد الله بن مسعود ذات يوم وعم بن جالس فقال : كيف ملئ فقها . وقال عمر بن حفص : حدثنا عاصم بن علي حدثنا المسعودي عن أبي حصين عن أبي عطية أن أبا موسى الأشعري قال : لانسألونا عن شيء مادام هذا الخبر بين أظهرنا من أصحاب محمد .س. - يعني ابن مسعود - وروى جرير عن الأعمش

عن عمرو بن عروة عن أبي البختری قال : قالوا لعلي : حدثنا عن أصحاب محمد (ص) ، قال : عن أبيهم ؟ قالوا : حدثنا عن ابن مسعود . قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علما . وفي رواية عن علي قال : علم القرآن ثم وقف عنده وكفى به . فهداتنا الصحابة العاملون به ، العارفون بما كان عليه ، فهم أولى بالاتباع وأصدق أقوالاً من أصحاب الأهواء الخائدين عن الحق ، بل أقوال الحجاج وغيره من أهل الأهواء : هذيانا وكذب وافتراء ، وبعضها كفر وزندقة ، فان الحجاج كان عثمانياً أموياً ، يميل إليهم ميلاً عظيماً . ويرى أن خلافتهم كفر . ويستحل بذلك الدماء ، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم

ومن الطامات أيضاً مارواه أبو داود : ثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني ثنا جرير . وحدثنا زهير بن حرب ثنا جرير عن المغيرة عن بزيع بن خالد الضبي قال : سمعت الحجاج يخطب فقال في خطبته : رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله ؟ فقلت في نفسي : لله علي أن لا أصلي خلفك صلاة أبداً ، وإن وجدت قوماً يجاهدونك لأجاعدنك معهم . زاد إسحاق فقاتل في الجماجم حتى قتل . فان صح هذا عنه فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة ، أو أراد أن الخليفة من بني أمية أفضل من الرسول . وقال الأصمعي : ثنا أبو عاصم النبيل ثنا أبو حفص الثقفی قال : خطب الحجاج يوماً فأقبل عن يمينه فقال : ألا إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فقال : إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فأقبل عن يساره فقال : ألا إن الحجاج كافر ، فعل ذلك مراراً ، ثم قال : كافر يا أهل العراق باللات والعزى . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا هارون بن معروف ثنا ضمرة ثنا ابن شاذب عن مالك بن دينار قال : بينما الحجاج يخطبنا يوماً إذ قال : الحجاج كافر ، قلنا : ماله ؟ أي شيء يريد ؟ قال : الحجاج كافر بيوم الأربعاء والبغلة الشهباء . وقال الأصمعي قال عبد الملك يوماً للحجاج : ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف عيب نفسك ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، فأبى ، فقال : أنا لجوج حقوق حهود ، فقال عبد الملك : مافى الشيطان شر مما ذكرت . وفي رواية أنه قال : إذا بينك وبين إبليس نسب .

وبالجملة فقد كان الحجاج نعمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة ، ونذلائهم لهم ، وعصيانهم ، ومخالفتهم ، والافتيات عليهم ، قال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن شريح بن عبيد عن حدثه قال : جاء رجل إلى عمر ابن الخطاب فأخبره أن أهل العراق حصبوا أميرهم فخرج غضبان ، فصلى لنا صلاة فسها فيها ، حتى جعل الناس يقولون : سبحان الله سبحان الله ، فلما سلم أقبل على الناس فقال : من ههنا من أهل الشام ؟

فقام رجل ثم قام آخر ثم قمت أنا ثالثاً أورابياً ، فقال : يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق ، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، اللهم انهم قد لبسوا عليهم فالبس عليهم وعجل عليهم بالغلام الثقي ، يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئتهم . وقد روينا في كتاب مسند عمر بن الخطاب من طريق أبي عذبة الحمصي عن عمر مثله . وقال عبد الرزاق : ثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن الحسن قال علي بن أبي طالب : اللهم كما ائتمنتهم فخانتوني ، ونصحت لهم ففشوني فساط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال ، يأكل خضرتها ، ويلبس فروتها ، ويحكم فيها بحكم الجاهلية . قال يقول الحسن : وما خلق الحجاج يومئذ . ورواه معتمر بن سليمان عن أبيه عن أيوب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي أنه قال : الشاب الذيال أمير المصريين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ، ويقتل أشرف أهلها ، يشتد منه الفرق ، ويكثر منه الأرق ، ويسلطه الله على شيعته .

وقال الحافظ البيهقي في دلائل النبوة : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن أحمد الجبوبي : ثنا سعيد بن مسعود ثنا يزيد بن هارون أنبا العوام بن حوشب حدثني حبيب بن أبي ثابت . قال قال علي لرجل : لامت حتى تدرك فتى ثقيف ، قال : وما فتى ثقيف ؟ قال : ليقال له يوم القيامة : اكننا زاوية من زوايا جهنم ، رجل يملك عشرين سنة ، أو بضماً وعشرين سنة ، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها ، حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة ، وكان بينه وبينها باب مفلق لكسره حتى يرتكبها ، يقتل بمن أطاعه من عصاء . وقال الطبراني : حدثنا القاسم بن زكريا ثنا إسماعيل بن موسى السدوسي ثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن الشعبي عن أم حكيم بنت عمر بن سنان الجدلية قالت : استأذن الأشعث بن قيس على علي ورده فبصر فادى أنفا فخرج على فقال : مالك وله يا أشعث ، أما والله لو بعبد ثقيف نحرشت لا قشعرت شعيرات استك ، قيل له : يا أمير المؤمنين ومن عبد ثقيف ؟ قال : غلام يليهم لا يبقى أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلاً ، قيل كم يملك ؟ قال عشرين إن بلغ . وقال البيهقي أنبأنا الحاكم أنبا الحسن بن الحسن بن أيوب ثنا أبو حاتم الرازي ثنا عبد الله بن يوسف التنيسي ثنا ابن يحيى الغاني . قال قال عمر بن عبد العزيز : لو نخبثت الأمم فجاءت كل أمة بنخبثها ، وجئنا بالحجاج لغلبناهم . وقال أبو بكر بن عياش : عن عاصم بن أبي النجود أنه قال : ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج .

وقد تقدم الحديث « إن في ثقيف كذاباً ومبيرا » وكان المختار هو الكذاب المذكور في هذا الحديث ، وقد كان يظهر الرفض أولاً ويبطن الكفر المحض ، وأما البير فهو الحجاج بن يوسف هذا ، وقد كان ناصبياً يبغي علياً وشيعته في هوى آل مروان بن أمية ، وكان جباراً عنيداً ، مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة . وقد روى عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر كما قدمنا . فإن كان

قد تاب منها وأقلع عنها ، وإلا فهو باق في عهدتها ، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه ، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه ، وربما حرفوا عليه ببعض الكلم . وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات .

وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر ، وكان يكثر تلاوة القرآن ، ويتجنب المحارم ، ولم يشتهر عنه شيء من التلطيخ بالفروج ، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء ، فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسائرهما ، وخفيات الصدور وضمايرها :

[قلت : الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء ، وكفى به عقوبة عند الله عز وجل ، وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد ، وكان فيه سماحة باعطاء المال لأهل القرآن ، فكان يعطى على القرآن كثيراً ، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلثمائة درهم . والله أعلم .] (١)

وقال المعافى بن زكريا الجريري المعروف بابن طرار البغدادي : ثنا محمد بن القاسم الانباري ثنا أبي ثنا أحمد بن عبيد ثنا هشام أبو محمد بن السائب الكلبي ثنا عوانة بن الحكم الكلبي . قال : دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له إيه إيه يا أنيس ، يوم لك مع علي ، ويوم لك مع ابن الزبير ، ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة . ولأدمغتك كما تدمغ الصمغة . فقال أنس : إياي يعني الأمير أصلحه الله ؟ قال : إياك أعني صك الله سمعك . قال أنس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت . ولا أي ميتة مت ، ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً ، وشفق عجباً ، واماظم ذلك من الحجاج ، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك ، أما بعد : فإن الحجاج قال لي هُجراً ، وأسمى نكراً ، ولم أكن لذلك أهلاً ، فخذلي على يديه ، فاني أمت بخدمة رسول الله -س- ، وصحبتني إياه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - وكان مصادقاً للحجاج - فقال له : دونك كتابي هـذين فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله -س- ، فأرفع كتابي إليه وأبلغه مني السلام ، وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك ، وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله -س- ،

(١) زيادة من المصرية .

أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايته الحجاج ، وما سلطته عليك ولا أمرته
بالإساءة إليك ، فان عاد لمثلها اكتب إلى بذلك أنزل به عقوبتي ، وتحسن لك معونتي . والسلام .
فلما قرأ أنس كتاب أمير المؤمنين وأخبر برسالته قال : جزي الله أمير المؤمنين عنى خيراً ، وعافاه
وكفاه وكلفاه بالجنة ، فهذا كان ظني به والرجاء منه . فقال إسماعيل بن عبيد الله لأنس : يا أبا حمزة
إن الحجاج عامل أمير المؤمنين ، وليس بك عنده غنى ، ولا بأهل بيتك ، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع
إليك ، فقار به وداره تعش معه بخير وسلام . فقال أنس : أفعل إن شاء الله . ثم خرج إسماعيل من
عند أنس فدخل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه ، فقال إسماعيل :
أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به ، فتغير لون الحجاج وخاف وقال : ما أتيتني به ؟ قال :
فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضباً عليك ، ومنك بعداً ، قال : فاستوى الحجاج جالساً
مرعوباً ، فرمى إليه إسماعيل بالطومار فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق ، وينظر إلى إسماعيل
أخرى ، فلما فضه قال : قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه ، فقال له إسماعيل : لا تمجل ! فقال :
كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة ؟ وكان في الطومار :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد
فإنك عبد طمت بك الأمور ، فسموت فيها وعسدت طورك ، وجاوزت قدرك ، وركبت داهية
إذا ، وأردت أن تبدولي فان سوغتكمها مضيت قدما ، وإن لم أسوغها رجعت القهقري ، فلعنك
الله من عبد أخفش العينين ، منفوس الجاعرتين . أنسيت مكاسب آباءك بالطائف ، وحفرهم الآبار ،
ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل ، يا ابن المستفربة بمعجم الزبيب ، والله لأغمرنك غمر الليث
الغلب ، والصقر الأرنب . وثبت على رجل من أصحاب رسول الله (ص) ، بين أظهرنا ، فلم تقبل له
إحسانه ، ولم تتجاوز له عن إساءته ، جرأة منك على الرب عز وجل ، واستخفافاً منك بالعهد ، والله
لو أن اليهود والنصارى رأيت رجلاً خدام عزير بن عزرى ، وعيسى بن مريم ، لعظمته وشرفته وأكرمه
وأحبته ، بل لو رأوا من خدام حمار العزيز أو خدام حوارى المسيح لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا
أنس بن مالك خادم رسول الله (ص) ثمانى سنين ، يطلمه على سره ، ويشاوره في أمره ، ثم هو مع
هذا بقية من بقايا أصحابه ، فاذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه وزمعه ، وإلا أنك منى سهم
كل حاتف قاض ، وكل نبا مستقر وسوف تعلمون وقد تكلم ابن طرار على ما وقع في هذا الكتاب
من الغريب ، وكذلك ابن قتيبة وغيرهما من أئمة اللغة . والله أعلم .

وقال الامام أحمد : ثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الزبير - يعني ابن عدي - قال :

أتينا أنس بن مالك | نشكو إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو زمان

أو يوم إلا والذي بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم عز وجل ، سمعته من نبكم . وهذا رواه البخاري عن محمد بن يوسف عن سفيان وهو الثوري عن الزبير بن عدي عن أنس قال : « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » الحديث . قلت : ومن الناس من يروى هذا الحديث بالمعنى فيقول : كل عام تزدلون . وهذا اللفظ لا أصل له ، وإنما هو مأخوذ من معنى هذا الحديث ، والله أعلم .

قلت : قد مر بي مرة من كلام عائشة مرفوعاً وموقوفاً : كل يوم تزدلون . ورأيت للامام أحمد كلاماً قال فيه : وروى في الحديث كل يوم تزدلون نسماً خبيثاً . فيحتمل هذا أنه وقع للامام أحمد مرفوعاً ، ومثل أحمد لا يقول هذا إلا عن أصل ، وقد روى عن الحسن مثل ذلك ، والله أعلم . فدل على أن له أصلاً إما مرفوعاً وإما من كلام السلف ، لم يزل يتناوله الناس قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، حتى وصل إلى هذه الأزمان ، وهو موجود في كل يوم ، بل في كل ساعة تفوح رائحته ، ولا سيما من بعد فتنة تمرانك ، وإلى الآن نجد الرذالة في كل شيء ، وهذا ظاهر لمن تأمله ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد قال سفيان الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي . قال : يأتي على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج . وقال أبو نعيم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي السفر . قال قال الشعبي : والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج . وقال الأصمعي : قيل للحسن : إنك تقول : الآخر شر من الأول ، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج . فقال الحسن : لا بد للناس من تنفيسات .

وقال ميمون بن مهران : بعث الحجاج إلى الحسن وقد هم به ، فلما قام بين يديه قال : يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير ، قال : فأين هم ؟ قال : ماتوا . قال : فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن . وقال أيوب السخيتاني : إن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه ، وقد ذكر له معه مناظرات ، على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه ، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك ، وإنما خرج معهم مكرهاً كما قدمنا ، وكان الحسن يقول : إنما هو نعمة فلا تقابل نعمة الله بالسيف ، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع . وقال ابن دريد عن الحسن بن الحضرمي عن ابن عائشة . قال : أتى الوليد بن عبد الملك رجل من الخوارج فقتل له : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً ، قال فعثمان ؟ فأثنى خيراً ، قيل له : فما تقول في علي ؟ فأثنى خيراً ، فذكر له الخلفاء واحداً بعد واحد ، فيثني على كل بما يناسبه ، حتى قيل له : فما تقول في عبد الملك بن مروان ؟ فقال : الآن جاءت المسألة ، ما أقول في رجل الحجاج خطبة من بعض خطاياها ؟ [(١)]

وقال الأصمعي عن علي بن مسلم الباهلي قال : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاماً ، فقال لها بعض الشرط : يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ؟

(١) زيادة من المصرية .

قالت : إني لأستحي من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه ، فأمر بها قتل . وقد ذكرنا في سنة أربع وتسعين كيفية مقتل الحجاج لسعيد بن جبير ، وما دار بينهما من الكلام والمراجعة .
وقد قال أبو بكر بن أبي خيشمة : ثنا أبو ظفر ثنا جعفر بن سليمان عن بسطام بن مسلم عن قتادة قال قيل لسعيد بن جبير : خرجت على الحجاج ؟ قال : إني والله ما خرجت عليه حتى كفر ، ويقال إنه لم يقتل بعده إلا رجلاً واحداً اسمه ماهان ، وكان قد قتل قبله خلقاً كثيراً ، أكثرهم ممن خرج مع ابن الأشعث . وقال أبو عيسى الترمذي : ثنا أبو داود سليمان بن مسلم البلخي ثنا النضر بن شمير عن هشام بن حسان قال : أحصوا ما قتل الحجاج صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً قال الأصمعي : ثنا أبو ميم عن عباد بن كثير عن قحدم قال : أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحداً وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج ، وقيل إنه لبث في سجنه ثمانون ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة وعرضت السجن بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب ، وكان فيمن حبس أعرابي وجد يبول في أصل ربهض مدينة واسط ، وكان فيمن أطلق فأنشأ يقول :
إذا نحن جاوزنا مدينة واسط * خرينا وصلينا بغير حساب

وقد كان الحجاج مع هذا العنف الشديد لا يستخرج من خراج العراق كبير أمر ، قال ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحربي : ثنا سليمان بن أبي سنح ثنا صالح بن سليمان قال قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الامم فجاءت كل امة بخبيها وجئنا بالحجاج لقلبنا ، وما كان الحجاج يصلح لدنيا ولا الآخرة لقد ولي العراق وهو أوفر ما يكون في العارة ، فأخس به إلى أن صيره إلى أربعين ألف ألف ، ولقد أدى إلى عمالي في عامي هذا ثمانين ألف ألف ، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدي إلى ما أدى إلى عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف . وقال أبو بكر بن المقرئ : ثنا أبو عروبة ثنا عمرو بن عثمان ثنا أبي سمعت جدي قال . كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة : بلغني أنك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسننه ، فانه كان يصلي الصلاة لغير وقتها ، ويأخذ الزكاة من غير حقها وكان لما سوى ذلك أضيع . وقال يعقوب بن سفيان : ثنا سعيد بن أسد ثنا ضمرة عن الريان بن مسلم . قال : بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت أبي عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن وكتب إليه : أما بعد فاني قد بعثت بآل أبي عقيل وهم شريبت في العمل ، ففرقهم في العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا ، وعليك السلام . وإنما نفام . وقال الاوزاعي : سمعت القاسم بن مخيمرة يقول : كان الحجاج ينقض عري الأسلام ، وذكر حكاية . وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم : لم يبق لله حرمة إلا ارتكها الحجاج بن يوسف ، وقال يحيى بن عيسى الرملي عن الأعمش : اختلفوا في الحجاج فسألوا مجاهداً فقال : تسألون عن الشيخ الكافر .

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : الحجاج مؤمن بالجبوت والطاغوت ، كافر بالله العظيم .
 كذا قال والله أعلم . وقال الثوري عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : عجبا لاخواننا من أهل
 العراق يسمون الحجاج مؤمنا ؟ قال الثوري عن ابن عوف : سمعت أبا وائل يسأل عن الحجاج
 أتشهد أنه من أهل النار ؟ قال أنصرونى أن أشهد على (١) الله العظيم ، وقال الثوري عن منصور :
 سألت إبراهيم عن الحجاج أو بعض الجبابرة فقال : أليس الله يقول [ألا لعنة الله على الظالمين]
 وبه قال إبراهيم وكفى بالرجل عمى أن يعى عن أمر الحجاج . وقال سلام بن أبي مطيع لانا بالحجاج
 أرجى منى لعمر وبن عبيد ، لأن الحجاج قتل الناس على الدنيا ، وعمر وبن عبيد أحدث للناس
 بدعة شنعاء ، قتل الناس بعضهم بعضاً ، وقال الزبير : سببت الحجاج يوماً عند أبي وائل فقال :
 لا تسبه لعله قال يوماً اللهم ارحمنى فبرحمه ، إياك ومجالسة من يقول رأيت رأيت . وقال عوف :
 ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال : مسكين أبو محمد ، إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه ، وإن
 يفر له فنهيناً له ، وإن يلقى الله بقلب سليم فهو خير منا ، وقد أصاب الذنوب من هو خير منه .
 فقيل له ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم الله تعالى منه الحياء والایمان ، وأن يعلم أن الله حق ، وأن
 الساعة حق قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور .

وقال أبو قاسم البغوى : ثنا أبو سعيد ثنا أبو أسامة قال قال رجل لسفيان الثورى : أتشهد على
 الحجاج وعلى أبي مسلم الخراسانى أنهما فى النار ؟ قال : لا ، إن أقرأ بالتوحيد . وقال الرياشى : حدثنا
 عباس الأزرق عن السرى بن يحيى قال : مر الحجاج فى يوم الجمعة فسمع استغاثة فقال : ما هذا ؟
 فقيل أهل السجون يقولون قتلنا الحر ، فقال : قولوا لهم اخشوا فيها ولا تكلمون . قال : فاعاش
 بعد ذلك إلا أقل من الجمعة حتى قصمه الله قاصم كل جبار . وقال بعضهم : رأيت وهو يأتى الجمعة وقد
 كاد يهلك من العلة . وقال الأصمى : لما مرض الحجاج أرجف الناس بموته فقال فى خطبته : إن
 طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزع الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فه ؟ فهل
 يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى أن لا أموت وأن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت
 الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، قال الله له [إنك من المنظرين] فأنظره إلى يوم
 الدين ، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال [هب لى ملكا لا ينبئنى لأحد من بعدى] فأعطاه الله ذلك إلا
 البقاء ، ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له أمره ، فقال [توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين] فما
 عسى أن يكون أبها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، كأنى والله بكل حى منكم ميتاً ، وبكل رطب يابساً ،
 ثم نقل فى أنياب أ كفانه ثلاثة أذرع طولاً فى ذراع عرضاً ، فأكلت الأرض لحمه ، ومصت صديده ،

(١) كذا بالأصول .

وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعقلون ما أقول ، ثم نزل .
وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده عن عمر بن عبد العزيز أنه قال :
ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدى إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه ، وقوله حين
حضرتة الوفاة : اللهم اغفر لي فان الناس يزعمون أنك لا تفعل . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا
علي بن الجعد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر . قال :
كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت : اللهم اغفر لي فانهم
يزعمون أنك لا تفعل . قال : وحدثني بعض أهل العلم قال قيل للحسن : ان الحجاج قال عند الموت
كذا وكذا ، قال : قالها ؟ قالوا : نعم ا قال فاعسى . وقال أبو العباس المري عن الرياشي عن
الأصمعي قال : لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول :

ياربُّ قد حلفَ الأعداءُ واجتهدوا * بأنني رجلٌ من ساكني النارِ
أبخلفونَ علي عمياءَ وبجهمٍ * ما عليهمَ بعظيمِ العفوِ غفارِ
قال فأخبر بذلك الحسن فقال : بالله إن نجا لينجون بهما . وزاد بعضهم في ذلك : -

إنَّ الموالى إذا شابتَ عبيدهم * في رقهمَ عتقوا عتقَ أربابِ
وأنتَ يا خالقي أولى بذنا كرمًا * قد شبتَ في الرقِ فاعتقني من النارِ

وقال ابن أبي الدنيا : ثنا أحمد بن عبد الله التيمي قال : لما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته حتى
أشرفت جارية فبكت فقالت : ألا إن مطعم الطعام ، وميتم الأيتام ، وميرل النساء ، ومفلق الهام ،
وسيد أهل الشام قد مات ، ثم أنشأت تقول : -

اليوم يرحمنا من كان ييفضنا * واليوم يأمننا من كان يبخشانا

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه أنه أخبر بموت الحجاج مرارا فلما تحقق
وفاته قال : [فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين] وروى غير واحد أن الحسن لما
بشر بموت الحجاج سجد شكراً لله تعالى ، وكان مختفياً فظهر ، وقال اللهم أمته فأذهب عنا سنته .
وقال حماد بن أبي سليمان : لما أخبرت إبراهيم النخعي بموت الحجاج بكى من الفرح . وقال أبو بكر بن
أبي خيثمة : ثنا سليمان بن أبي شيخ ثنا صالح بن سليمان قال قال زياد بن الربيع بن الحارث لاهل
السجن يموت الحجاج في مرضه هذا في ليلة كذا وكذا ، فلما كانت تلك الليلة لم ينام أهل السجن
فرحاً ، جلسوا ينظرون حتى يسموا الناعية ، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان ، وقيل كان
ذلك لخمس بقين من رمضان ، وقيل في شوال من هذه السنة ، وكان عمره إذ ذاك خمسا وخمسين
سنة ، لأن مولده كان عام الجماعة سنة أربعين ، وقيل بعدها بسنة ، وقيل قبلها بسنة ، مات بواسط

وعنى قبره ، وأجرى عليه الماء لكيلا يفسح ويحرق والله أعلم .
وقال الأصمعي : ما كان أعجب حال الحجاج ، ما ترك إلا ثلاثمائة درهم . وقال الواقدي : ثنا
عبد الله بن محمد بن عبيد حدثني عبد الرحمن بن عبيد الله بن فرق : ثنا عمي قال : زعموا أن الحجاج
لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة . وقال شهاب بن
خراش : حدثني عمي يزيد بن حوشب قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور فقال : حدثني بوصية الحجاج
ابن يوسف ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، فقال : حدثني بها ، فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم ،
هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده
ورسوله ، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك ، عليها يحيى ، وعليها يموت ، وعليها يبعث ،
وأوصى بتسعمائة درع حديد ، ستمائة منها لمنافق أهل العراق يغزون بها ، وثلاثمائة للترك . قال : فرجع
أبو جعفر رأسه إلى أبي العباس الطوسي - وكان قائماً على رأسه - فقال : هذه والله الشيعة لاشيعتكم .
وقال الأصمعي عن أبيه قال : رأيت الحجاج في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : قتلني بكل
قتلة قتلت بها إنساناً ، قال : ثم رأيت بعد الخول فقلت : يا أبا محمد ما صنع الله بك ؟ فقال : ياماص
بظرأمة أما سألت عن هذا عام أول ؟ وقال القاضي أبو يوسف : كنت عند الرشيد فدخل عليه رجل
فقال : يا أمير المؤمنين رأيت الحجاج البارحة في النوم ، قال : في أي زى رأيت ؟ قال : في زى قبيح .
فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما أنت وذاك يا ماص بظرأمة ! فقال هارون : صدق والله ، أنت
رأيت الحجاج حقاً ، ما كان أبو محمد ليدع صرامته حياً وميناً . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا هارون بن
معروف ثنا ضمرة بن أبي شاذب عن أشعث الخراز . قال : رأيت الحجاج في المنام في حالة سيئة
فقلت : يا أبا محمد ما صنع بك ربك ؟ قال : ما قتلت أحداً قتلة إلا قتلني بها . قال ثم أمرني إلى
النار ، قلت ثم مه ، قال ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا الله . قال : وكان ابن سيرين يقول : إنني
لأرجوله ، فبلغ ذلك الحسن فقال : أما والله ليخلفن الله رجاءه فيه . وقال أحمد بن أبي الخوارى :
سمعت أبا سليمان الداراني يقول : كان الحسن البصري لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج فدعا
عليه ، قال : فرآه في منامه فقال له : أنت الحجاج ؟ قال : أنا الحجاج ، قال : ما فعل الله بك ؟ قال :
قتلت بكل قتيل قتلته ثم عزلت مع الموحدين . قال : فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه والله أعلم .
وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا حمزة بن العباس حدثنا عبد الله بن عثمان أنبأ ابن المبارك أنبأنا
سفيان . قال : قدم الحجاج على عبد الملك بن مروان وافئداً ومعه معاوية بن قررة ، فسأل عبد الملك
معاوية عن الحجاج فقال : إن صدقناكم قتلتمونا ، وإن كذبناكم خشينا الله عز وجل ، فنظر إليه
الحجاج فقال له عبد الملك : لا تعرض له ، فنفاه إلى السند فكان له بها مواقف

ومن توفي فيها من الأعيان

إبراهيم بن يزيد النخعي قال : كنا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميت عرف ذلك فينا أياماً ، لأننا قد عرفنا أنه نزل به أمر صيره إلى الجنة أو إلى النار ، وإنكم تتحدثون في جنازكم بأحاديث دنياكم . وقال : لا يستقيم رأي الإبروية ، ولا روية الإبرأي . وقال : إذا رأيت الرجل ينهون بالكبيرة الأولى فاعسل يديك من فلاحه . وقال : إني لأرى الشيء مما يعاب فلا يمنعني من عيبه إلا مخافة أن أتلى به . وبكى عند موته فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : انتظر ملك الموت ، ما أدرى يبشرني بجنة أو بنار

الحسن بن محمد بن الحنفية

كنيته أبو محمد ، كان المقدم على إخوته ، وكان عالماً فقيماً عارفاً بالاختلاف والفقهاء ، قال أبو السختياني وغيره : كان أول من تكلم في الأرجاء ، وكتب في ذلك رسالة ثم ندم عليها . وقال غيرهم : كان يتوقف في عثمان وعلي وطلحة والزبير ، فلا يتولاهم ولا ينمهم : فلما بلغ ذلك أباه محمد بن الحنفية ضربه فشجه وقال : وبحك ألا تتولى أباك علياً ؟ وقال أبو عبيد : توفي سنة خمس وتسعين ، وقال خليفة : توفي في أيام عمر بن عبد العزيز والله أعلم .

حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري

وأمه أم كاثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وهي أخت عثمان بن عفان لأمه ، وكان حميد فقيهاً نبيلاً عالماً ، له روايات كثيرة .

مطرف بن عبدالله بن الشخير

تقدمت ترجمته ، وهؤلاء كلهم لهم تراجم في كتاب التكميل . وفيها كان موت الحجاج بواسط كما تقدم ذلك مبسوطاً مستقصى والله الحمد . وفيها كان مقتل سعيد بن جبير في قول علي بن المدائني وجماعة ، والمشهور أنه كان في سنة أربع وتسعين كما ذكره ابن جرير وغير واحد والله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وفيها فتح قتيبة بن مسلم رحمه الله تعالى كاشفراً من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين رسلاً يهدده ويتوعده ويقسم بالله لا يرجع حتى يظأ بلادهم ويختم ملوكهم وأشراقتهم ، ويأخذ الجزية منهم أو يدخلوا في الإسلام . فدخل الرسل على الملك الأعظم فيهم ، وهو في مدينة عظيمة ، يقال إن عليها تسعين باباً في سورها المحيط بها ، يقال لها خان بالق ، من أعظم المدن وأكثرها ريعاً ومعاملات وأموالاً ، حتى قيل إن بلاد الهند مع اتساعها كالشامة في ملك الصين ، والصين لا يحتاجون إلى أن

يسافر وافي ملك غيرم لكثرة أموالهم ومتاعهم ، وغيرم محتاج إليهم لما عندهم من المتاع والدنيا المنسمة ، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدي إلى ملك الصين الخراج ، لقهرة وكثرة جنده وعدده . والمقصود أن الرسل لما دخلوا على ملك الصين وجدوا مملكة عظيمة حصينة ذات أنهار وأسواق وحسن وبها ، فدخلوا عليه في قلعة عظيمة حصينة ، بقدر مدينة كبيرة ، فقال لهم ملك الصين : ما أنتم ؟ - وكانوا ثلاثمائة رسول عليهم هبيرة - فقال الملك لترجمانه : قل لهم : ما أنتم وما تريدون ؟ فقالوا : نحن رسل قتيبة بن مسلم ، وهو يدعوك إلى الاسلام ، فان لم تفعل فالجزية ، فان لم تفعل فالحرب . فنضب الملك وأمر بهم إلى دار ، فلما كان الغد دعاهم فقال لهم : كيف تكونون في عبادة إلهكم ؟ فصلوا الصلاة على عادتهم فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم ، فقال : كيف تكونون في بيوتكم ؟ فلبسوا ثياب منهم ، فأمرهم بالانصراف ، فلما كان من الغد أرسل إليهم فقال : كيف تدخلون على ملوككم ؟ فلبسوا الوشي والعمامة والمطارف ودخلوا على الملك ، فقال لهم : ارجعوا فرجعوا ، فقال الملك لأصحابه : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا : هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك المرة الأولى ، وهم أولئك . فلما كان اليوم الثالث : أرسل إليهم فقال لهم كيف تلقون عدوكم ؟ فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا المغافر والبيض وتقلدوا السيوف ونكبوا القسي وأخذوا الرماح وركبوا خيولهم ومضوا ، فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما قربوا منه ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوه مشمرين ، فقيل لهم : ارجعوا - وذلك لما دخل قلوب أهل الصين من الخوف منهم - فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم ثم ساقوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ فقالوا : ما رأينا كهؤلاء قط . فلما أمسوا بعث إليهم الملك أن ابشوا إلى زعيمكم وأفضلكم ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له الملك حين دخل عليه : قدرتيم عظيم ملكي ، وليس أحد بمنعم مني ، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن أمر فان تصدقني وإلا قتلتك ، فقال : مل ! فقال الملك : لم صنعم ما صنعم من زى أول يوم والثاني والثالث ؟ فقال : أما زينا أول يوم فهو لباسنا في أهلنا ونسائنا وطيبنا عندهم ، وأما ما فعلنا ثاني يوم فهو زينا إذا دخلنا على ملوكنا ، وأما زينا ثالث يوم فهو إذا لقينا عدونا . فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم - يعني قتيبة - وقولوا له ينصرف راجعاً عن بلادى ، فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم . فقال له هبيرة : تقول لقتيبة هذا ؟ فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها ، وغزاة في بلادك ؟ وأما نخوفك إيانا بالقتل فانا نعلم أن لنا أجلا إذا حضرنا فكرمها عندنا القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه .

٥٥٥

فقال الملك : فما الذي يرضى صاحبكم ؟ فقال : قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطاء أرضك ويختم ملوكك ويجبي الجزية من بلادك ، فقال أنا أبر يمينه وأخرجه منها ، أرسل إليه بتراب من أرضي ، وأربع غلمان من أبناء الملوك ، وأرسل إليه ذهباً كثيراً وحريراً وثياباً صينية لا تقوّم ولا يدري قدرها ، ثم جرت لهم معه مقاولات كثيرة ، ثم اتفق الحال على أن بعث صحافاً من ذهب متسعة فيها تراب من أرضه ليطأه قتيبة ، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم ، وبعث بمال جزيل ليبر بيمين قتيبة ، وقيل إنه بعث أربعمئة من أولاده وأولاد الملوك ، فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قبل ذلك منه ، وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ، فانكسرت همته لذلك ، وقد عزم قتيبة بن مسلم الباهلي على ترك مبايعة سليمان بن عبد الملك ، وأراد الدعوة إلى نفسه لما تحت يده من العساكر ، ولما فتح من البلاد والأقاليم فلم يمكنه ذلك ، ثم قتل في آخر هذه السنة رحمه الله تعالى ، فانه يقال إنه ما كسرت له راية ، وكان من المجاهدين في سبيل الله ، واجتمع له من العساكر ما لم يجتمع لغيره . وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الصائفة ، وغزا العباس بن الوليد الروم ، ففتح طولس والمرزبانين من بلاد الروم .

وفيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى وجزاه خيراً ، وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتميزة ، وهي القمر في السماء الدنيا ، وعطارد في السماء الثانية ، والزهرة في السماء الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة . وقد كانوا صوروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلاً لكوكب من هذه الكواكب السبعة ، وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصداً لذلك ، فنصبوا هياكل سبعة لكل كوكب هيكلاً ، وكان لهم عند كل باب من أبواب دمشق عيد في السنة ، وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها ، وبنوا دمشق واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد من بين هذين الجبلين ، وصرفوه أنهاراً تجري إلى الأماكن المرتفعة والمنخفضة ، وملكوا الماء في أفناء أبنية الدور بدمشق ، فكانت دمشق في أيامهم من أحسن المدن ، بل هي أحسنها ، لما فيها من التصاريف العجيبة ، وبنوا هذا المعبد وهو الجامع اليوم في جهة القطب ، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي ، وكانت محاريبهم إلى جهته ، وكان باب معبدهم يفتح إلى جهة القبلة ، خلف المحراب اليوم ، كما شاهدنا ذلك عياناً ، ورأينا محاريبهم إلى جهة القطب ، ورأينا الباب وهو باب حسن مبني بحجارة منقوشة ، وعليه كتاب بخطهم ، وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة

إليه ، وكان غربي المعبد قصر منيف جدا تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد ، وشرقي المعبد قصر جبرون الملك ، الذي كان ملكهم ، وكان هناك داران عظيمتان معدتان لمن يملك دمشق قديما منهم ، ويقال إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة الملوك ، ويحيط بهذه الدور والمعبد سور واحد عال منيف ، بحجارة كبار منحوتة ، وهن دار المطبق ، ودار الخليل ، ودار كانت تكون مكان الخضراء التي بناها معاوية .

قال ابن عساکر فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل : إن اليونان مكثوا يأخذون الطالع لبناء دمشق وهذه الأماكن ثمانى عشرة سنة ، وقد حفر وأساس الجدران حتى واتاهم الوقت الذي طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن هذا المعبد لا ينجرب أبداً ولا يخلو منه العبادة ، وأن هذه الدار إذا بنيت لا يخلو من أن تكون دار الملك والسلطنة . قلت : أما المعبد فلم يخل من العبادة . قال كعب الأحمدي : لا يخلو منها حتى تقوم الساعة ، وأما دار الملك التي هي الخضراء فقد جدد بناءها معاوية ، ثم أحرقت في سنة إحدى وستين وأربعمائة كما سند كره ، فبادت وصارت مساكن ضعفاء الناس وأراذلهم في الغالب إلى زماننا هذا . والمقصود أن اليونان استمروا على هذه الصفة التي ذكرناها بدمشق مدداً طويلة ، تزيد على أربعة آلاف سنة ، حتى أنه يقال إن أول من بنى جدران هذا المعبد الأربعة هود عليه الصلاة والسلام ، وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدد طويلة ، وقد ورد إبراهيم الخليل دمشق ونزل شمالها عند برزة ، وقاتل هناك قوماً من أعدائه فظفر بهم ، ونصره الله عليهم ، وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة ، فهذا المكان المنسوب إليه بها منصوص عليه في الكتب المتقدمة ، يأترونه كبراً عن كبر وإلى زماننا والله أعلم .

وكانت دمشق إذ ذاك عامرة أهلة بمن فيها من اليونان ، وكانوا خلقاً لا يمحسبهم إلا الله ، وهم خصماء الخليل ، وقد ناظرهم الخليل في عبادتهم الأصنام والكواكب وغيرها في غير موضع ، كما قررنا ذلك في التفسير ، وفي قصة الخليل من كتابنا هذا « البداية والنهاية » والله الحمد وبالله المستعان . والمقصود أن اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق وبينون فيها وفي معاملاتها من أرض حوران والبقاع وبلبك وغيرها ، البنائات الهائلة الغربية العجيبة ، حتى إذا كان بعد المسيح بمدة نحو من ثلاثمائة سنة تنصر أهل الشام على يد الملك قسطنطين بن قسطنطين ، الذي بنى المدينة المشهورة به ببلاد الروم وهي القسطنطينية ، وهو الذي وضع لهم القوانين ، وقد كان أولاهم وقومه وغالب أهل الأرض يوناناً ، ووضعت له بطاركتة النصراني دينا مخترعاً من كبا من أصل دين النصرانية ، ممزوجاً بشئ من عبادة الأوثان ، وصلوا به إلى الشرق ، وزادوا في الصيام ، وأحلوا الخنزير ، وعلّموا أولادهم الأمانة الكبيرة فما بزعمون ، وإنما هي في الحقيقة خيانة كبيرة ، وجناية كثيرة حقيرة ، وهي مع ذلك في الحجم

صغيرة . وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبيناه . فبني لهم هذا الملك الذي ينتسب إليه الطائفة الملكية من النصارى ، كنائس كبيرة في دمشق وفي غيرها ، حتى يقال إنه بنى اثنتي عشرة ألف كنيسة ، وأوقف عليها أوقافاً دارية ، من ذلك كنيسة بيت لحم ، وقامة في القدس ، بنتها أم هيلانة الغنداقية ، وغير ذلك

والمقصود أنهم - يعني النصارى - حولوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظماً عند اليونان فجعلوه كنيسة يوحنا ، وبنوا بدمشق كنائس كثيرة غيرها مستأنفة ، واستمر النصارى على دينهم بدمشق وغيرها نحواً من ثلاثمائة سنة ، حتى بعث الله محمداً (س) ، فكان من شأنه ما تقدم بعضه في كتاب السيرة من هذا الكتاب ، وقد بعث إلى ملك الروم في زمانه - وهو قيصر ذلك الوقت - واسمه هرقل يدعوهُ إلى الله عز وجل ، وكان من مراجعته ومخاطبته إلى أبي سفيان ما تقدم ، ثم بعث أمراءه الثلاثة ، زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، إلى البلقاء من تخوم الشام ، فبعث الروم إليهم جيشاً كبيراً فقتلوا هؤلاء الأمراء وجماعة ممن معهم من الجيش ، فعزم النبي (س) على قتال الروم ودخول الشام عام تبوك ، ثم رجع عام ذلك لشدة الحر ، وضعف الحال ، وضيقه على الناس . ثم لما توفي بعث الصديق الجيوش إلى الشام بكاملها ، ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها ، وقد بسطنا القول في ذلك عند ذكر فتحها ، فلما استقرت اليد الإسلامية عليها وأنزل الله رحمته فيها ، وساق به إليها ، وكتب أمير الحرب أبو عبيدة إزاء ذلك ، وقيل خالد بن الوليد ، لأهل دمشق كتاب أمان ، أقرروا أيدي النصارى على أربع عشرة كنيسة ، وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة مريخنا ، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقي بالسيف ، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة ، وكان على باب الجابية الصلح ، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة ، فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقية فجعله أبو عبيدة مسجداً يصلى فيه المسلمون ، وكان أول من صلى في هذا المسجد أبو عبيدة ثم الصحابة بعده في البقعة الشرقية منه ، التي يقال لها محراب الصحابة . ولكن لم يكن الجدار مفتوحاً بمحراب محني ، وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة ، والظاهر أن الوليد هو الذي فتح المحازيب في الجدار القبلي [قلت : هذه المحازيب متجددة ليست من فتح الوليد ، وإنما فتح الوليد محراباً واحداً ، إن كان قد فعل ، ولعله لم يفعل شيئاً منها ، فكان يصلى فيه الخليفة ، وبقية فتحت قريباً ، لكل إمام محراب ، شافعي وحنفي ومالكي وحنبلي ، وهؤلاء إنما حدثوا بعد الوليد بزمان] ^(١) وقد كره كثير من السلف مثل هذه المحازيب ، وجعلوه من البعج المحدثه ، وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد ،

(١) زيادة من المصرية :

وهو باب المعبد الأعلى من جهة القبلة ، مكان الحراب الكبير الذي في المقصورة اليوم ، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم ، ويأخذ المسلمون ينة إلى مسجدهم ، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ، ولا يضربوا بناقوسهم ، اجلالاً للصحابة ومهابة وخوفاً . وقد بنى معاوية في أيام ولايته على الشام دار الامارة قبلي المسجد الذي كان للصحابة ، وبنى فيها قبة خضراء ، فعرفت الدار بكاملها بها ، فسكنها معاوية أربعين سنة كما قدمنا . ثم لم يزل الامر على ما ذكرنا من أمر هذه الكنيسة شطرين بين المسلمين والنصارى ، من سنة أربع عشرة ، إلى سنة ست وثمانين في ذى القعدة منها ، وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك في شوال ، منها ، فعزم الوليد على أخذ بقية هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين منها ، وجعل الجميع مسجداً واحداً ، وذلك لأن بعض المسلمين كان يتأذى بسماع قراءة النصارى للانجيل ، ورفع أصواتهم في صلواتهم ، فأحب أن يعدم عن المسلمين ، وأن يضيف ذلك المكان إلى هنا ، فيصير كله معبداً للمسلمين ، ويتسع المسجد لكثرة المسلمين ، فعند ذلك طلب النصارى وسأل منهم أن يخرجوا له عن هذا المكان ، ويعرضهم إقطاعات كثيرة ، وعرضها عليهم ، وأن يبقى بأيديهم أربع كنائس لم تدخل في العهد ، وهي كنيسة مريم ، وكنيسة المصلبة داخل باب شرقي ، وكنيسة تل الجبن ، وكنيسة حميد بن درة التي بدرب الصقل ، فأبوا ذلك أشد الاباء ، فقال : ائتوني بمهودكم التي بأيديكم من زمن الصحابة ، فأثروا بها فقرئت بحضرة الوليد ، فادا كنيسة توما التي كانت خارج باب توما على حافة النهر - لم تدخل في العهد ، وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مريخنا ، فقال الوليد : أنا أهدمها وأجعلها مسجداً ، فقالوا : بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ونحن نرضى ونطيب له نفساً ببقية هذه الكنيسة ، فأقرم على تلك الكنائس ، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة . هذا قول ، ويقال إن الوليد لما أمره ذلك وعرض ما عرض على النصارى فأبوا من قبوله ، دخل عليه بعض الناس فأرشده إلى أن يقيس من باب شرقي ومن باب الجابية ، فوجدوا أن الكنيسة قد دخلت في العنوة وذلك أنهم قاسوا من باب شرقي ومن باب الجابية فوجدوا منتصف ذلك عند سوق الريحان تقريباً ، فإذا الكنيسة قد دخلت في العنوة ، فأخذها . وحكى عن المغيرة مولى الوليد قال : دخلت على الوليد فوجدته مهموماً قلت : مالك يا أمير المؤمنين مهموماً ؟ فقال : إنه قد كثر المسلمون وقد ضاق بهم المسجد ، فأحضرت النصارى وبذلت لهم الأموال في بقية هذه الكنيسة لأضيفها إلى المسجد فيتسع على المسلمين فأبوا ، فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين عندي ما يزيد همك ، قال وما هو ؟ قلت : الصحابة لما أخذوا دمشق دخل خالد بن الوليد من الباب شرقي بالسيف ، فلما سمع أهل البلد بذلك فرزوا إلى أبي عبيدة يطلبون منه الأمان فأمهم ، وفتحوا له باب الجابية ، فدخل منه أبو عبيدة

بالصلح ، فنحن نماسحهم إلى أى موضع بلغ السيف أخذناه ، وما بالصلح تركناه بأيديهم ، وأرجو أن تدخل الكنيسة كلها في العنوة ، فتدخل في المسجد . فقال الوليد : فرجت عنى ، فتول أنت ذلك بنفسك ، فتولا ، المغيرة ومسح من الباب الشرقى إلى نحو باب الجابية إلى سوق الريحان فوجد السيف لم يزل عمالا حتى جاوز القنطرة الكبيرة بأربع أذرع وكسر ، فدخلت الكنيسة في المسجد ، فأرسل الوليد إلى النصارى فأخبرهم وقال : إن هذه الكنيسة كلها دخلت في العنوة فهى لنا دونكم ، فقالوا : إنك أولا دفعت إلينا الأموال وأقطعنا الاقطاعات فأبينا ، فمن إحسان أمير المؤمنين أن يصلحنا فيبقى لنا هذه الكنائس الأربعة بأيدينا ، ونحن نترك له بقية هذه الكنيسة ، فصالحهم على إبقاء هذه الأربعة الكنائس والله أعلم .

وقيل إنه عوضهم منها كنيسة عند حمام القاسم عند باب الفراديس داخله فسموها مريخنا باسم تلك الكنيسة التى أخنت منهم ، وأخذوا شاهدها فوضموه فوق التى أخذوها بدلها فأنه أعلم . ثم أمر الوليد باحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء ، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نجد فى كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن ، فقال الوليد : أنا أحب أن أجن فى الله ، والله لا يهدم فيها أحد شيئا قبلى ، ثم صعد المنارة الشرقية ذات الأضلاع المعروفة بالساعات ، وكانت صومعة هائلة فيها راهب عندهم ، فأمره الوليد بالترول منها فأكبر الراهب ذلك ، فأخذ الوليد بقفاه فلم يزل يدفعه حتى أنزله منها ، ثم صعد الوليد على أعلى مكان فى الكنيسة فوق المذبح الأكبر منها ، الذى يسمونه الشاهد ، وهو تمثال فى أعلى الكنيسة ، فقال له الرهبان : احذر الشاهد ، فقال : أنا أول ما أضع فأسى ، فى رأس الشاهد ، ثم كبر وضر به فهدمه ، وكان على الوليد قباه أصفر لونه سمرجلى قد غرز أذيله فى المنطقة ، ثم أخذ فأسا بيده فضرب بها فى أعلى حجر فالتقاء ، فتبادر الأمراء إلى الهدم ، وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات ، وصرخت النصارى بالعويل ، على درج جيرون ، وكانوا قد اجتمعوا هنالك ، فأمر الوليد أمير الشرطة وهو أبو نائل رياح الغسانى ، أن يضربهم حتى ينهبوا من هنالك ، ففعل ذلك ، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى فى تريبع هذا المعبود من المذابح والأبنية والحنايا ، حتى بقى المكان بصرحة مربعة ، ثم شرع فى بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة الأنيقة ، التى لم يشتهر مثلها قبلها كما سندكره .

وقد استعمل الوليد فى بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والفعلة ، وكان المستحث على عمارته أخوه وولى عهده من بعده سليمان بن عبد الملك ، ويقال إن الوليد بعث الى ملك الروم يطلب منه صناعات فى الرخام وغير ذلك ، ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على ما يريد ، وأرسل يتوعده لئن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش ، وليخرن كل كنيسة فى بلاده ، حتى

كنيسة القدس ، وهي قمامة ، وكنيسة الرها ، وسائر آثار الروم ، فبعث ملك الروم إليه صناعاً كثيرة جداً ، مائتي صانع ، وكتب إليه يقول : إن كان أبوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك ، وإن لم يكن فهمه وفهمت أنت لوصمة عليه ، فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك ، واجتمع الناس عنده لذلك ، فكان فهم الفرزدق الشاعر ، فقال : أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله . قال الوليد : وما هو ويحك ؟ فقال قال الله تعالى [ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً] وسليمان هو ابن داود ، ففهمه الله ما لم يفهمه أبوه . فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جواباً إلى ملك الروم . وقد قال الفرزدق في ذلك : —

فرقت بين النصارى في كنائسهم * والعابدين مع الأسحار والغم
وم جميعاً اذا صلوا وأوجههم * شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس يضربه * أهل الصليب مع القراء لم تم
فهمت تحويلها عنهم كما فهمها * إذ يحكان لهم في الحرث والغنم
داود والملك المهدي إذ جزأ * ولادها واجتزاز الصوف بالعلم
فهمك الله تحويلاً لبيعتهم * عن مسجد فيه يتلى طيب الكلام
مامن أب حملته الأرض نعمة * خير بنين ولا خير من الحكم

قال الحافظ عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الدمشقي : بنى الوليد ما كان داخل حيطان المسجد وزاد في سمك الحيطان . وقال الحسن بن يحيى الخشني : إن هوداً عليه السلام هو الذي بنى الحائط القبلي من مسجد دمشق . وقال غيره : لما أراد الوليد بناء القبة التي وسط الرواقات - وهي قبة النسر وهو اسم حادث لها ، وكانهم شبهوها بالنسر في شكله ، لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها - حفر لأركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منه ماء عذبا زلالا ، ثم إنهم وضعوا فيه زيادة الكرم ، وبنوا فوقها بالحجارة ، فلما ارتفعت الأركان بنوا عليها القبة فسقطت ، فقال الوليد لبعض المهندسين : أريد أن تبني لي أنت هذه القبة ، فقال : على أن تعطيني عهد الله وميثاقه على أن لا يبنيتها أحد غيري ، ففعل . فبنى الأركان ثم غلفها بالبوارى ، وغاب عنها سنة كاملة لا يدري الوليد أين ذهب ، فلما كان بعد السنة حضر ، فهم به الوليد فأخذه ومعه رؤس الناس ، فكشف البوارى عن الأركان فإذا هي قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض ، فقال له : من هذا أتيت ، ثم بناها فأنقذت . وقال بعضهم : أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن هذا البناء ، فقال له المعمار : إنك لاتقدر على ذلك ، فضر به خمسين سوفاً ، وقال له : ويلاك ! أنا لا أقدر على ذلك وترزعم أنى أعجز عنه ؟ وخراج الأرض وأموالها نجبي إلى ؟ قال : نعم أنا أبين لك ذلك ، قال : فبين

ذلك ، قال : اضرب لبنة واحدة من الذهب وقس عليها ما تريد هذه القبة من ذلك ، فأمر الوليد فأحضر من الذهب ما ضرب منه لبنة فاذا هي قد دخلها ألوف من الذهب ، فقال : يا أمير المؤمنين إنا نريد مثل هذه اللبنة كذا وكذا ألوف لبنة ، فان كان عندك ما يكفي من ذلك عملناه ، فلما تحقق صحة قوله أطلق له الوليد خمسين ديناراً ، وقال إني لا أعجز عما قلت ، ولكن فيه إسراف وضياع مال في غير وجهه اللائق به ، ولأن يكون ما أردنا من ذلك نفقة في سبيل الله ، وردا على ضعفاء المسلمين خير من ذلك . ثم عقدها على ما أشار به الممار . ولما سقف الوليد الجامع جعلوا سقفه جملونات ، وباطنها مسطحة مقرنصاً بالذهب ، فقال له بعض أهله : أتعبت الناس بعدك في طين أسطحهم ، لما يريد هذا المسجد في كل عام من الطين الكثير - يشير إلى أن التراب يفلو والفعلة تقل لأجل العمل في هذا المسجد في كل عام - فأمر الوليد أن يجمع ما في بلاده من الرصاص ليحمله عوض الطين ، ويكون أخف على السقوف . فجمع من كل ناحية من الشام وغيره من الأقاليم ، فعازروا فاذا عند امرأة منه قناطر مقنطرة ، فساوموها فيه ، فقالت : لا أبيعها إلا بوزنه فضة ، فكتبوا إلى الوليد فقال : اشتروه منها ولو بوزنه فضة ، فلما بدلوها ذلك قالت : أما إذا قلم ذلك فهو صدقة لله يكون في سقف هذا المسجد ، فكتبوا على الواحها بطابع « الله » ويقال إنها كانت إسرائيلية ، وإنه كتب على الألواح التي أخذت منها : هذا ما أعطته الاسرائيلية .

وقال محمد بن عائد : سمعت المشايخ يقولون : ماتم بناء مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة ، لقد كان يفضل عند الرجل من القوم أو الفعلة الفليس ورأس المسارفياتي به حتى يضعه في الخزانة . وقال بعض مشايخ الدماشقة : ليس في الجامع من الرخام شيء إلا الرخامتان اللتان في المقام من عرش بلقيس والباقي كله مرمر . وقال بعضهم : اشترى الوليد العمودين الأخضرين اللذين تحت النسر ، من حرب ابن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار . وقال دحيم عن الوليد بن مسلم : ثنا مروان بن جناح عن أبيه قال : كان في مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم ، وقال أبو قصى عن دحيم عن الوليد ابن مسلم عن عمرو بن مهاجر الأنصاري : إنهم حسبوا ما أنفق الوليد على الكرم^(١) التي في قبلي المسجد فاذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصى : أنفق في مسجد دمشق أر بعائة صندوق من الذهب ، في كل صندوق أر بععة عشر ألف دينار ، وفي رواية في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار . قلت : فعلى الأول يكون ذلك (١) هي سيفساء على هيئة الكرم مؤلفة من قطع صغيرة من الزجاج المربع مبطن بالذهب أو الألوان ، وكان منها بقايا إلى أيام الحريق الأخير سنة ١٣١٠ هـ ويوجد قريب منها في قبة الملك الظاهر بدمشق إلى اليوم .

خمسة آلاف ألف دينار ، وستمائة ألف دينار ، وعلى الثاني يكون المصروف في عمارة الجامع الأثري
 إحد عشر ألف ألف دينار ، ومائتي ألف دينار . وقيل إنه صرف أكثر من ذلك بكثير ، والله أعلم .
 قال أبو قحى : وأتى الحرمى إلى الوليد فقال : يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون أنفق أمير المؤمنين
 بيوت الأموال في غير حقها . فنودى في الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس فصعد الوليد المنبر
 وقال : إنه بلغنى عنكم أنكم قلم أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها ، ثم قال : يا عمرو بن مهاجر ،
 قم فأحضر أموال بيت المال ، فحملت على البغال إلى الجامع ، ثم بسط لها الانطاع تحت قبة النسر ،
 ثم أفرغ عليها المال ذهباً صيبياً ، وفضة خالصة ، حتى صارت كوماً ، حتى كان الرجل إذا قام من
 الجانب الواحد لا يرى الرجل من الجانب الآخر ، وهذا شيء كثير ، ثم جىء بالقبانين فوزنت
 الأموال فاذا هي تكفى الناس ثلاث سنين مستقبلة ، وفي رواية ست عشرة سنة مستقبلة ، ولم
 يدخل للناس شيء بالكلية ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهما من بيوت
 المال ، وإنما هذا كله من مالى . ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ، ودعوا للخليفة
 وانصرفوا شاكرين داعين . فقال لهم الوليد : يا أهل دمشق ، والله ما أنفقت في بناء هذا المسجد
 شيئاً من بيوت المال ، وإنما هذا كله من مالى ، لم أرزأكم من أموالكم شيئاً . ثم قال الوليد : يا أهل
 دمشق ، إنكم تفخرون على الناس بأربع ، بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببت أن
 أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع . وقال بعضهم : كان في قبلة جامع دمشق ثلاث صفايح من ذهب بلا زورد ،
 في كل منها : بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . لا إله إلا الله
 وحده لا شريك له ، ولا نعبد إلا إياه ، ربنا الله وحده ، وديننا الإسلام ، ونبينا محمد س . . أمر بينيان
 هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد ، في ذى القعدة سنة ست
 وثمانين ، وفي صفيحة أخرى رابعة من تلك الصفايح : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم إلى آخر
 الفاتحة ، ثم النازعات ، ثم عبس ، ثم إذا الشمس كورت ، قالوا : ثم محيت بعد جحى المأمون إلى
 دمشق . وذكروا أن أرضه كانت مفضضة كلها ، وأن الرخام كان في جدرانها إلى قامات ، وفوق
 الرخام كرامة عظيمة من ذهب ، وفوق الكرامة الفصوص المنهبة والخضر والحمر والزرق والبيض ، قد
 صوروا بها سائر البلدان المشهورة ، الكعبة فوق المحراب ، وسائر الأقاليم بمنة ويسرة ، وصوروا ما فى
 البلدان من الأشجار الحسننة المثمرة والمزهرة وغير ذلك ، وسقفه مقرنص بالذهب ، والسلاسل المعلقة
 فيها جميعها من ذهب وفضة ، وأنوار الشموع فى أماكن مفرقة . قال : وكان فى محراب الصحابة برنية
 حجر من بلور ، ويقال بل كانت حجراً من جوهر وهى اللذة ، وكانت تسمى القليلة ، وكانت إذا
 طفتت القناديل تضى لمن هناك بنورها ، فلما كان زمن الأمين بن الرشيد - وكان يحب البلور وويل

الجوهر - بعث إلى سليمان وإلى شرطة دمشق أن يبعث بها إليه ، فسرقها الوالى خوفاً من الناس وأرسلها إليه ، فلما ولى المأمون ردها إلى دمشق ليشتع بذلك على الأمين . قال ابن عساكر : ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج ، قال : وقد رأيت تلك البرنية ثم انكسرت بعد ذلك فلم يجعل مكانها شيئاً ، قالوا : وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق ، وإنما كان عليها الستور مرخاة ، وكذلك الستور على سائر جدرانها إلى حد الكومة التي فوقها الفصوص المذهبة ، ورؤس الأعمدة مطلية بالذهب الخالص الكثير ، وعملوا له شرفات تحيط به ، وبني الوليد المنارة الشمالية التي يقال لها مأذنة العروس ، فأما الشرقية والغربية فكاتتا فيه قبل ذلك بمحور متطاولة ، وقد كان في كل زاوية من هذا المعبد صومعة شاهقة جداً ، بذنها اليونان للرصد ، ثم بعد ذلك سقطت الشماليتان وبقيت القبليتان إلى الآن ، وقد أحرق بعض الشرقية بعد الأربعين وسبعمائة ، فنقضت وجردها بناؤها من أموال النصارى ، حيث اتهموا بحريقها ، فقامت على أحسن الأشكال ، بيضاء بذاتها وهي والله أعلم الشرفة التي ينزل عليها عيسى بن مريم في آخر الزمان بعد خروج الدجال ، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان .

[قلت : ثم أحرق أعلى هذه المنارة وجددت ، وكان أعلاها من خشب فبنيت بحجارة كلها في آخر السبعين وسبعمائة ، فصارت كلها مبنية بالحجارة]^(١)

والمقصود أن الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ، ولا أبهى ولا أجمل منه ، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه أو إلى جهة منه أو إلى بقعة أو مكان منه تحير فيها نظره لحسنه وجماله ، ولا يمل ناظره ، بل كلما أدمن النظر بانتهى له أعجوبة ليست كالأخرى ، وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان فلا يدخل هذه البقعة شيئاً من الحشرات بالكلية ، لا من الحيات ولا من العقارب ، ولا الخنافس ولا العناكيب ، ويقال ولا المصافير أيضاً تمشش فيه ، ولا الحمام ولا شيء مما يتأذى به الناس ، وأكثر هذه الطلسمات أو كلها كانت مودعة في سقف هذا المعبد ، مما يلي السبع ، فأحرق لما أحرق ليلة النصف من شعبان بعد العصر ، سنة إحدى وستين وأربعمائة ، في دولة الفاطميين كما سيأتي ذلك في موضعه . وقد كانت بدمشق طلسمات وضعتها اليونان بعضها باق إلى يومنا هذا والله أعلم .

فمن ذلك العمود الذي في رأسه مثل الكرة في سوق الشعير عند قنطرة أم حكيم ، وهذا المكان يعرف اليوم بالعلبين ، ذكر أهل دمشق أنه من وضع اليونان لعسربول الحيوان ، فاذا داروا بالحيوان حول هذا العمود ثلاث دورات انطلق باطنه فبال ، وذلك مجرب من عهد اليونان .

(١) زيادة من المصرية .

[قال ابن تيمية عن هذا العمود : إن تحته مدفون جبار عنيد ، كافر يعذب ، فاذا داروا بالحيوان حوله سمع العذاب فرأى وبال من الخوف ، قال : ولهذا ينهبون بالدواب إلى قبور النصارى واليهود والكفار ، فاذا سمعت أصوات المعذنين انطلق بولها . والعمود المشار إليه ليس له سر ، ومن اعتقد أن فيه منفعة أو مضرة فقد أخطأ خطأ فاحشاً . وقيل إن تحته كنزاً وصاحبه عنده مدفون ، وكان ممن يعتقد الرجعة إلى الدنيا كما قال تعالى [وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين] والله سبحانه وتعالى أعلم [(١)] .

وما زال سليمان بن عبد الملك يعمل في تكلمة الجامع الأموي بعد موت أخيه مدة ولايته ، وجدت له فيه المقصورة ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عزم على أن يجرحه مما فيه من الذهب ، ويقلع السلاسل والرخام والفضة ، ويرد ذلك كله إلى بيت المال ، ويجعل مكان ذلك كله طينا ، فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرفهم إليه ، وقال خالد بن عبد الله القسري : أنا أكله لكم ، فقال له : يا أمير المؤمنين بلغنا عنك كذا وكذا ، قال : نعم ، فقال خالد : ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ولم يا ابن الكافرة ؟ - وكانت أمه نصرانية رومية أم ولد - فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت كافرة فقد ولدت رجلاً مؤمناً ، فقال : صدقت ، واستحيا عمر ثم قال له : فلم قلت ذلك ؟ قال : يا أمير المؤمنين لأن غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم ، وليس هو لبيت المال ، فأطرق عمر . قالوا : واتفق في ذلك الزمان قدوم جماعة من بلاد الروم رسلا من عند ملكهم ، فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذي تحت النسر ، ورأوا ما بهر عقولهم من حسن الجامع الباهر ، والزخرفة التي لم يسمع بمثلا ، صعق كبيرهم وخر مفضيا عليه ، فحملوه إلى منزلهم ، فبقي أياما مدنفاً ، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال : ما كنت أظن أن يبني المسلمون مثل هذا البناء ، وكنت أعتقد أن مدنتهم تكون أقصر من هذا ، فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال : أو إن الفيظ أهلك الكفار ، دعوه . وسألت النصارى في أيام عمر بن عبد العزيز أن يعقد لهم مجلسا في شأن ما كان أخذه الوليد منهم ، وكان عمر عادلا ، فأراد أن يرد عليهم ما كان أخذه الوليد منهم فأدخله في الجامع ، ثم حقق عمر القضية ، ثم نظر فاذا الكنائس التي هي خارج البلد لم تدخل في الصلح الذي كتبه لهم الصحابة ، مثل كنيسة دير مران بسفح قايسون ، وهي بقرية المعظمية ، وكنيسة الراهب ، وكنيسة توما خارج باب توما ، وسائر الكنائس التي بقرى الحواجز ، فخيرهم بين رد ما سألوه وتخريب هذه الكنائس كلها ، أو تبقى تلك الكنائس ويطيبوا نفسا للمسلمين بهن البقعة ، فاتفقت آراؤهم بعد ثلاثة أيام على إبقاء تلك الكنائس ، ويكتب لهم كتاب أمان بها ،

(١) زيادة من المصرية :

و يطيبوا نفساً بهذه البقعة ، فكتب لهم كتاب أمان بها .

والمقصود أن الجامع الأموي كان حين تكامل بناؤه ليس له في الدنيا مثيل في حسنه وبهجنه ، قال الفرزدق : أهل دمشق في بلادهم في قصر من قصور الجنة - يعني الجامع - وقال أحمد بن أبي الخوارى عن الوليد بن مسلم عن ابن ثوبان : ما ينبغي لأحد من أهل الأرض أن يكون أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يرون من حسن مسجدتها . قالوا : ولما دخل أمير المؤمنين المهدي دمشق يريد زيارة القدس نظر إلى جامع دمشق فقال لكتابه أبي عبيد الله الأشعري : سبقنا بنو أمية بثلاث ، بهذا المسجد الذي لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبفيل الموالي ، وبعمير ابن عبد العزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبداً . ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة - وكان عبد الملك بن مروان هو الذي بناها - قال لكتابه : وهذه رابعة . ولما دخل المأمون دمشق فنظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم ، وقاضيه يحيى بن أكرم ، قال : ما أعجب ما فيه ؟ فقال أخوه : هذه الأذهب التي فيه ، وقال يحيى بن أكرم : الرخام وهذه العقد ، فقال المأمون : إني إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم ، ثم قال المأمون لقاسم التمار : أخبرني باسم حسن أسمى به جاريتي هذه ، فقال : سمها مسجد دمشق ، فانه أحسن شيء . وقال عبد الرحمن عن ابن عبد الحكم عن الشافعي قال : عجائب الدنيا خمسة : أحدها منارتكم هذه - يعني منارة ذي القرنين باسكندرية - والثانية أصحاب الرقيم وهم بالروم اثنا عشر رجلاً ، والثالثة مرآة بباب الأندلس على باب مدينتها ، يجلس الرجل تحتها فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ . وقيل ينظر من بالقسطنطينية ، والرابع مسجد دمشق وما يوصف من الانفاق عليه ، والخامس الرخام والفسفساء ، فانه لا يدري لها موضع ، ويقال إن الرخام معجون ، والدليل على ذلك أنه ينوب على النار .

قال ابن عساكر : وذكر إبراهيم بن أبي الليث الكاتب - وكان قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة - في رسالة له قال : ثم أمرنا بالانتقال فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه ، ووافق ظاهره باطنه ، أزقته أرجة ، وشوارعه فرجة ، فحيث ما مشيت شممت طيباً ، وأين سميت رأيت منظراً عجيباً ، وإن أفضيت إلى جامعها شاهدت منه ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه ، ولا الرائي أن يعرفه ، وجملته أنه كثر الدهر ونادرة الوقت ، وأعجوبة الزمان ، وغرابة الأوقات ، ولقد أثبت الله عز وجل به ذكراً يدرس ، وخلف به أمراً لا يخفى ولا يدرس . قال ابن عساكر : وأنشدني بعض المحدثين في جامع دمشق عمره الله بذكره وفي دمشق فقال :

دمشق قد شاع حسن جامعها * وما حوته ربي مراتبها

بديعة الحسن في الكمال لما * يدركه الطرف من بدائعها

طيبة أرضها مباركة * باليمن والسعد أخذ طالها
 جامعها جامع المحاسن قد * فاقته به المدن في جوامعها
 بنية بالاتقان قد وضعت * لاضيع الله سعى واضعها
 تذكر في فضله ورفعته * آثار صدق راقته لسامعها
 قد كان قبل الحريق مدهشة * فغيرت ناره بلاقمها
 فأذهبت بالحريق بهجته * فليس يرجى إياب راجعها
 إذا تفكرت في الفصوص وما * فيها تيقنت حنق راصعها
 اشجارها لا تزال مشرة * لا تهرب الريح من مدافعها
 كأنها من زمرد غرست * في أرض تبر تغشى بنافعها
 فيها ثمار تخالها ينعت * وليس يخشى فساد يانعها
 تقطف باللحظ لا بجارحة الـ * أيدي ولا تجتنى لبائعها
 وتمتها من رخامة قطع * لا قطع الله كف قاطعها
 احكم ترخيمها المرخم قد * بان عليها إحكام صانعها
 وإن تفكرت في قناطره * وسقفه بان حنق رافعها
 وإن تبينت حسن قبته * تحير اللب في أضالعها
 تخترق الريح في منافذها * عصفاً فتقوى على زعازعها
 وأرضه بالرخام قد فرشت * يفسخ الطرف في مواضعها
 مجالس العلم فيه مؤنقة * ينشرح الصدر في مجامعها
 وكل باب عليه مطهرة * قد أمن الناس دفع مانعها
 يرتفق الناس من مراقبها * ولا يصدون عن منافعها
 ولا تزال المياه جارية * فيها لما شق من مشارعها
 وسوقها لا تزال أهلة * يزدحم الناس في شوارعها
 لما يشاؤون من فواكهها * وما يريدون من بضائعها
 كأنها جنة معجلة * في الأرض لولا مسرى فجائعها
 دامت برغم العدى مسلمة * وحاطها الله من قوارعها

فضائله

فما روي في جامع دمشق من الآثار وما ورد في فضله من الأخبار عن جماعة من السادة الأخيار روى عن قتادة أنه قال في قوله تعالى [والتين] قال : هو مسجد دمشق [والزيتون] قال : هو مسجد بيت المقدس [وطور سينين] حيث كلم الله موسى [وهذا البلد الأمين] وهو مكة (١). رواه ابن عساكر . وقال صفوان بن صالح عن عبد الخالق بن زيد بن واقد عن أبيه عن عطية بن قيس الكلابي قال قال كعب الأحمار : ليينين في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين عاماً . وقال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن زيد عن القاسم أبي عبد الرحمن قال : أوحى الله تعالى إلى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك إلى جبل بيت المقدس ، قال ففعل فأوحى الله إليه أما إذا فعلت فاني سأبني لى في خطتك بيتاً أعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً ، ولا تنهب الأيام والليالي حتى أرد عليك ظلك وبركتك ، قال فهو عند الله بمنزلة الرجل الضعيف المتضرع . وقال دحيم : حيطان المسجد الأربعة من بناء هود عليه السلام ، وما كان من الفسيفساء إلى فوق فهو من بناء الوليد بن عبد الملك - يعني أنه رفع الجدار فعلاه من حد الرخام والكرمة إلى فوق - وقال غيره : إنما بنى هود الجدار القبلي فقط . ونقل عثمان بن أبي العاتكة عن أهل العلم أنهم قالوا في قوله تعالى [والتين] قالوا : هو مسجد دمشق .

وقال أبو بكر أحمد بن عبد الله بن الفرج المعروف بابن البرامى الدمشقي : ثنا إبراهيم بن مروان سمعت أحمد بن إبراهيم بن ملاس يقول : سمعت عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبید الله بن أبي المهاجر قال : كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان ، فما تقبل منه جاءت نار فأكته ، وما لم يتقبل منه بقي على حاله . قلت : وهذه الصخرة نقلت إلى داخل باب الساعات ، وهي موجودة إلى الآن ، وبعض العامة يزعم أنها الصخرة التي وضع عليها ابنا آدم قربانها فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فإله أعلم .

وقال هشام بن عمار : ثنا الحسن بن يحيى الحسنى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة أُمرى به صلى في موضع مسجد دمشق ، قال ابن عساكر : وهذا منقطع ومنكر جداً ، ولا يثبت أيضاً لأن هذا الوجه ولا من غيره . وقال أبو بكر البرامى : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المقرئ حدثني أبي عن أبيه أن الوليد بن عبد الملك تقدم إلى القوام ليلة من الليالي فقال : إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد ، فلا تتركوا أحداً يصلي الليلة ، فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين هذا

(١) في الأصل « قال دمشق » . ومصحفناه من حديث قتادة في تاريخ ابن عساكر ١ : ١٩٦

الخضر يصلي في المسجد في كل ليلة ، وفي رواية أنه قال لهم : لا تتركوا أحداً يدخله ، ثم إن الوليد أتى باب الساعات فاستفتح الباب ففتح له ، فاذا رجل قائم بين الساعات وباب الخضراء الذي يلي المقصورة يصلي ، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات ، فقال الوليد للقوام : ألم أمرم أن لا تتركوا أحداً الليلة يصلي في المسجد ؟ فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلي كل ليلة في المسجد . في إسناد هذه الحكاية وصحتها نظر ، ولا يثبت بثبوتها وجود الخضر بالكلية ، ولا صلواته في المكان المذكور والله أعلم .

وقد اشتهر في الأعصار المتأخرة أن الزاوية القبليّة عند باب المأذنة الغربيّة تسمى زاوية الخضر ، وما أدري ما سبب ذلك ، والذي ثبت بالتواتر صلاة الصحابة فيه ، وكفى بذلك شرفاً له ولغيره من المساجد التي صلوا فيها ، وأول من صلى فيه إماماً أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير الأمراء بالشام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأمين هذه الأمة ، وصلى فيه خلق من الصحابة مثل معاذ بن جبل وغيره لكن قبل أن يغيره الوليد إلى هذه الصفة ، فأما بعد أن غير إلى هذا الشكل فلم يرد أحد من الصحابة كذلك إلا أنس بن مالك ، فإنه ورد دمشق سنة ثنتين وتسعين ، وهو يبني فيه الوليد ، فصلّى فيه أنس ورأى الوليد وأنكر أنس على الوليد تأخير الصلاة إلى آخر وقتها كما قدمنا ذلك في ترجمة أنس ، عند ذكر وفاته سنة ثلاث وتسعين ، وسيصلي فيه عيسى بن مريم إذا نزل في آخر الزمان ، إذا خرج الدجال وعمت البلوى به ، وانحصر الناس منه بدمشق ، فينزل مسيح الهدى فيقتل مسيح الضلالة ، ويكون نزوله على المنارة الشرقية بدمشق وقت صلاة الفجر ، فيأتي وقد أقيمت الصلاة فيقول له إمام الناس : تقدم يا روح الله ، فيقول : إنما أقيمت لك ، فيصلّي عيسى تلك الصلاة خلف رجل من هذه الأمة ، يقال إنه المهدي فله أعلم .

ثم يخرج عيسى بالناس فيدرك الدجال عند عقبة أفيق ، وقيل بباب لد فيقتله بيده هنالك . وقد ذكرنا ذلك مبسوطاً عند قوله تعالى [وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته] وفي الصحيح عن النبي (ص) : « والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام » .

والمقصود أن عيسى ينزل على المنارة الشرقية بدمشق ، والبلد محصور محصن من الدجال ، فينزل على المنارة - وهي هذه المنارة المبنية في زماننا من أموال النصارى - ثم يكون نزول عيسى حنفاً لهم وهلاكاً ودماراً عليهم ، ينزل بين ملكين واضعاً يديه على مناكبهما ، وعليه مهر وذئبان ؛ وفي رواية ممصرتان^(١) يقطر رأسه ماء كأنما خرج من دماغ ، وذلك وقت الفجر ، فينزل على المنارة

(١) المصرة من الثياب التي فيها صفرة خفيفة .

وقد أقيمت الصلاة، وهذا إنما يكون في المسجد الأعظم بدمشق، وهو هذا الجامع. وما وقع في صحيح مسلم من رواية النواس بن سميان الكلابي: فينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، كأنه والله أعلم مردي بالمعنى بحسب ما فهمه الراوي، وإنما هو ينزل على المنارة الشرقية بدمشق، وقد أخبرت ولم أقف عليه إلى الآن أنه كذلك، في بعض ألفاظ هذا الحديث، في بعض المصنفات، والله المسؤول المأمول أن يوفقني فيوقفني على هذه اللفظة، وليس في البلد منارة تعرف بالشرقية سوى هذه، وهي بيضاء بنفسها، ولا يعرف في بلاد الشام منارة أحسن منها، ولا أبهى ولا أعلى منها، والله الحمد والمنة | قلت: نزول عيسى على المنارة التي بالجامع الأموي غير مستنكر، وذلك أن البلاء بالدجال يكون قد عم فينحصر الناس داخل البلد، ويحصرهم الدجال بها، ولا يتخلف أحد عن دخول البلد إلا أن يكون متبعاً للدجال، أو مأسوراً معه، فإن دمشق في آخر الزمان تكون معقل المسلمين وحصنهم من الدجال، فإذا كان الأمر كذلك فمن يصلى خارج البلد، والمسلمون كلهم داخل البلد، وعيسى إنما ينزل وقد أقيمت الصلاة فيصلى مع المسلمين، ثم يأخذهم ويطلب الدجال ليقته، وبعض العوام يقول: إن المراد بالمنارة الشرقية بدمشق، منارة مسجد بلاشو، خارج باب شرقي. وبعضهم يقول: إنها المنارة التي على نفس باب شرقي. فإله أعلم بمراد رسول الله ﷺ، وهو سبحانه العالم بكل شيء، المحيط بكل شيء، القادر على كل شيء، القاهر فوق كل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض | (١)

الكلام على ما يتعلق برأس يحيى بن زكريا عليها السلام

وروى ابن عساكر عن زيد بن واقد قال: وكان الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك، فلما كان الليل وافانا وبين يديه الشمع، فنزل فاذا هي كنيسة لطيفة، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع، وإذا فيها صندوق، ففتح الصندوق فاذا فيه سفظ وفي السفظ رأس يحيى ابن زكريا عليها السلام. مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن زكريا، فأمر به الوليد فرد إلى مكانه، وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من بين الأعمدة، فجعل عليه عمود مسفظ الرأس، وفي رواية عن زيد بن واقد أن ذلك الموضع كان تحت ركن من أركان القبلة - يعني قبل أن تبني - قال: وكان على الرأس شعر وبشر. وقال الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: حضرت رأس يحيى بن زكريا وقد أخرج من الليطة القبليّة الشرقية التي عند مجلس بجيلة، فوضع تحت عمود الكاسة، قال الأوزاعي والوليد بن مسلم: هو العمود الرابع المسفظ. وروى أبو بكر بن البرامي عن أحمد بن أنس ابن مالك عن حبيب المؤذن عن أبي زياد وأبي أمية الشعمانيين عن سفيان الثوري أنه قال: صلاة

(١) زيادة من المصرية.

في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وهذا غريب جداً . وروى ابن عساكر من طريق أبي مسهر عن المنذر بن نافع - مولى أم عمر و بنت مروان - عن أبيه - وفي رواية عن رجل قد سماه - أن وائلة ابن الأسقع خرج من باب المسجد الذي يلي باب جيرون فلقبه كعب الأخبار فقال : أين تريد ؟ قال وائلة : أريد بيت المقدس . فقال : تعال أريك موضعاً في المسجد من صلى فيه فكأنما صلى في بيت المقدس ، فذهب به فأراه ما بين الباب الأصفر الذي يخرج منه الوالي - يعني الخليفة - إلى الخنية - يعني القنطرة الغربية - فقال : من صلى فيما بين هذين فكأنما صلى في بيت المقدس ، فقال وائلة : إنه لمجلسي ومجلس قومي . قال كعب : هو ذاك . وهذا أيضاً غريب جداً ومنكر ولا يعتمد على مثله . وعن الوليد بن مسلم قال : لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا في حائط المسجد القبلي لوحاً من حجر فيه كتاب نقش ، فبعثوا به إلى الوليد فبعثه إلى الروم فلم يستخرجوه ، ثم بعث إلى من كان بدمشق من بقية الأسيان فلم يستخرجوه ، فدل على وهب بن منبه فبعث إليه ، فلما قدم عليه أخبره بموضع ذلك اللوح فوجدوه في ذلك الحائط - ويقال ذلك الحائط بناء هود عليه السلام - فلما نظر إليه وهب حرك رأسه وقرأه فإذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ابن آدم لو رأيت بسير ما بقي من أجلك ، لزهدت في طول ما ترجو من أملك ، وإنما تلتقي ندمك لو قد زل بك قدمك . وأسلك أهلك وحشمك ، وانصرف عنك الحبيب وأسلك الصاحب والقريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائد ، ولا إلى عملك زائد ، فأعمل لنفسك قبل يوم القيامة ، وقبل الحسرة والندامة ، قبل أن يحل بك أجلك ، وتترع منك روحك ، فلا ينفعك مال جمعته ، ولا ولد ولدته ، ولا أخ تركته ، ثم تصير إلى برزخ الثرى ، ومجاور الموتى ، فأغتم الحياة قبل الممات ، والقوة قبل الضعف ، والصحة قبل السقم ، قبل أن تؤخذ بالكظم ويحال بينك وبين العمل ، وكتب في زمن^(١) داود عليهما السلام .

وقال ابن عساكر : قرأت على أبي محمد السلمي عن عبد العزيز التيمي أنباء تمام الرازي ثنا ابن البرامى سمعت أبا مروان عبد الرحمن بن عمر المازني يقول : لما كان في أيام الوليد بن عبد الملك وبنائه المسجد احترقوا فيه موضعاً فوجدوا باباً من حجارة مغلقة ، فلم يفتحوه وأعلموا به الوليد ، فخرج حتى وقف عليه ، وفتح بين يديه ، فإذا داخله مغارة فيها تمثال إنسان من حجارة ، على قوس من حجارة ، في يد التمثال الواحدة الدرة التي كانت في الحراب ، ويده الأخرى مقبوضة ، فأمر بها فكسرت ، فإذا فيها حبتان ، حبة قمح وحبة شعير ، فسأل عن ذلك فقيل له لو تركت الكف لم تكسرها لم يسوس في هذا البلد قمح ولا شعير . وقال الحافظ أبو حمدان الوراق - وكان قد عمر مائة

(١) كذا بالأصول ، ولعله سقط منه لفظ « سليمان بن » .

سنة - : سمعت بعض الشيوخ يقول : لما دخل المسلمون دمشق وجدوا على العمود الذي على المقسلاط
 - على السفود الحديد الذي في أعلاه - صنما ماداً يده بكف مطبقة ، فكسروه فاذا في يده حبة قمح ،
 فسألوا عن ذلك فقيل لهم : هذه الحبة قمح جعلها حكاه اليونان في كف هذا الصنم طلسماً ، حتى
 لا يسوس القمح في هذه البلاد ، ولو أقام سنين كثيرة . قال ابن عساكر : وقد رأيت أنا في هذا
 السفود على قناطر كنيصة المقسلاط كانت مبنية فوق القناطر التي في السوق الكبير ، عند الصابونيين
 والطارين اليوم ، وعندها اجتمعت جيوش الاسلام يوم فتح دمشق ، أبو عبيدة من باب الجابية ،
 وخالد من باب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان من باب الجابية الصغير . وقال عبد العزيز التيمي
 عن أبي نصر عبد الوهاب بن عبد الله المري : سمعت جماعة من شيوخ أهل دمشق يقولون : إن في
 سقف الجامع طلسم عملها الحكاه في السقف مما يلي الحائط القبلي ، فيها طلسم للصنونات ،
 لا تدخله ولا تعشش فيه من جهة الأوساخ التي تكون منها ، ولا يدخله غراب ، وطلسم للفأر والحيات
 والعقارب ، فما رأى الناس من هذا شيئاً إلا الفأر ، ويشك أن يكون قد عدم طلسمها ، وطلسم
 للعنكبوت حتى لا يذسخ فيه ، وفي رواية فيركبه الغبار والوسخ . قال الحافظ ابن عساكر : وسمعت
 جدي أبا الفضل يحيى بن علي يذكر أنه أدرك في الجامع قبل حريقه طلسمات لسائر الحشرات ، معلقة
 في السقف فوق البطائن مما يلي السبع ، وأنه لم يكن يوجد في الجامع شيء من الحشرات قبل الحريق .
 فلما احترقت الطلسمات حين أحرق الجامع ليلة النصف من شعبان بعد العصر سنة إحدى وستين
 وأربعمائة ، وقد كانت بدمشق طلسمات كثيرة ، ولم يبق منها سوى العمود الذي بسوق العلبين
 الذي في أعلاه مثل الكرة العظيمة ، وهي لعسربول الدواب ، إذا داروا بالدابة حوله ثلاث مرات
 انطلق باطنها . وقد كان شيخنا ابن تيمية رحمه الله يقول : إنما هذا قبر مشرك مفرد مدفون هنالك
 يعذب ، فاذا سمعت الدابة صراخه فزعت فانطلق باطنها وطبعها ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى
 مقابر اليهود والنصارى إذا مغلّت فتنطلق طباعها وتروث ، وما ذاك إلا أنها تسمع أصواتهم وهم يعذبون
 والله أعلم .

ذكر الساعات التي على بابه

قال القاضي عبد الله بن أحمد بن زبر : إنما سمي باب الجامع القبلي باب الساعات لأنه عمل هناك
 بذكر الساعات ، كان يعمل بها كل ساعة تمضي من النهار ، عليها عصفير من نحاس ، وحية من
 نحاس وغراب ، فاذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت المصافير وصاح الغراب وسقطت حصة في
 الطست فيعلم الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة ، وكذلك ساثرها . قلت : هذا يحتمل أحد شيئين
 إما أن تكون الساعات كانت في الباب القبلي من الجامع ، وهو الذي يسمى باب الزيادة ، ولكن قد
 قيل إنه محدث بعد بناء الجامع ، ولا يفتي ذلك أن الساعات كانت عنده في زمن القاضي ابن زبر ،

وإما أنه قد كان في الجامع في الجانب الشرقي منه في الحائط القبلي باب آخر في محكاة باب الزيادة ،
وعنده الساعات ثم نقلت بعد هذا كاه إلى باب الوراقين اليوم ، وهو باب الجامع من الشرق والله أعلم .
[قلت : باب الوراقين قبلي أيضا ، فيضاف إلى الجامع نسبة إلى من يدخل منه إلى الجامع
والله أعلم ، أو لمجارته للجامع ولبابه] (١)

قلت : فأما القبة التي في وسط صحن الجامع التي فيها الماء الجاري ، ويقول العامة لها قبة أبي نواس
فكان بناؤها في سنة تسع وستين وثلاثمائة أرخ ذلك ابن عساكر عن خط بعض الدماشقة . وأما
القبة الغربية العالية التي في صحن الجامع التي يقال لها قبة عائشة ، فسمعت شيخنا الذهبي يقول : إنها
إنما بنيت في حدود سنة ستين ومائة في أيام المهدي بن منصور العباسي ، وجعلوها لحواصل الجامع
وكتب أوقافه ، وأما القبة الشرقية التي على باب مسجد علي فيقال : إنها بنيت في زمن الحاكم العبيدي
في حدود سنة أربع ومائة . وأما الفوارة التي تحت درج جيرون فعملها الشريف نجر الدولة أبو علي
حمزة بن الحسن بن العباس الحسني ، وكأنه كان ناظراً بالجامع ، وجر إليها قطعة من حجر كبير من
قصر حجاج ، وأجرى منها الماء ليلة الجمعة لسبع ليال خلون من ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة
وعملت حولها قناطر ، وعقد عليها قبة ، ثم سقطت القبة بسبب جمال تحاكت عندها وازدحمت ،
وذلك في صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، فأعيدت ثم سقطت أعمدتها وما عليها من حريق اللبادين
والحجارة في شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، ذكر ذلك كاه الحافظ ابن عساكر .

قلت : وأما القصة التي كانت في الفوارة ، فما زالت وسطها ، وقد أدركتها كذلك ، ثم رفعت
بعد ذلك . وكان بطهارة جيرون قصة أخرى مثلها ، فلم تزل بها إلى أن تهدمت اللبادين بسبب
حريق النصارى في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ثم استؤنف بناء الطهارة على وجه آخر أحسن مما
كانت ، وذهبت تلك القصة فلم يبق لها أثر ، ثم عمل الشاذروان الذي شرقي فوارة جيرون ، بعد
الخمسمائة - أظنه - سنة أربع عشرة وخمسمائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ابتداء امر السبع بالجامع الاموي

قال أبو بكر بن أبي داود : ثنا أبو عباس موسى بن عامر المري ثنا الوليد - هو ابن مسلم - قال قال
أبو عمر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : الدراسة محدثة أحدثها هشام بن إسماعيل الخزومي ، في
قمة قدمها على عبد الملك ، فحجبه عبد الملك فجلس بعد الصبح في مسجد دمشق فسمع قراءة فقال :
ما هذا ؟ فأخبر أن عبد الملك يقرأ في الخضراء ، فقرأ هشام بن إسماعيل ، فجعل عبد الملك يقرأ بقراءة
هشام ، فقرأ بقراءته مولى له ، فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد فقرأوا بقراءته . وقال هشام

(١) زيادة من المصرية .

ابن عمار خطيب دمشق : ثنا أيوب بن حسان ثنا الأوزاعي ثنا خالد بن دهقان قال : أول من أحدث القراءة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل بن المغيرة الخزومي ، وأول من أحدث القراءة بفلسطين الوليد بن عبد الرحمن الجرشي . قلت : هشام بن إسماعيل كان نائبا على المدينة النبوية ، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب لما امتنع من البيعة للوليد بن عبد الملك ، قبل أن يموت أبوه ، ثم عزله عنها الوليد وولى عليها عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا .

وقد حضر هذا السبع جماعات من سادات السلف من التابعين بدمشق ، منهم هشام بن إسماعيل ومولاه رافع وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، وكان مكتبا لأولاد عبد الملك بن مروان ، وقد ولى إمرة إفريقيه لهشام بن عبد الملك وابنيه عبد الرحمن ومروان . وحضره من القضاة أبو إدريس الخولاني ، ونعيم بن أوس الأشعري ، ويزيد بن أبي الهمداني ، وسالم بن عبد الله المخاربي ، ومحمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي . ومن الفقهاء والمحدثين والحفاظ المقرئين أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى معاوية ، ومكحول ، وسليمان بن موسى الأشدق ، وعبد الله بن العلاء بن زبير ، وأبو إدريس الأصغر عبد الرحمن بن ذراك ، وعبد الرحمن بن عامر اليحصبي - أخو عبد الله بن عامر - ويحيى بن الحارث الدماري ، وعبد الملك بن نعمان المري ، وأنس بن أنس العذري ، وسليمان ابن بديع القاري ، وسليمان بن داود الخشني ، وعمران - أو هران - بن حكيم القرشي ، ومحمد بن خالد ابن أبي ظبيان الأزدي ، ويزيد بن عبيدة بن أبي المهاجر ، وعباس بن دينار وغيرهم . هكذا أوردهم ابن عساکر . قال : وقد روى عن بعضهم أنه كره اجتماعهم وأنكره ، ولا وجه لانكاره . ثم ساق من حريق أبي بكر بن أبي داود : ثنا عمرو بن عثمان ثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الله بن العلاء قال : سمعت الضحاک بن عبد الرحمن بن عروب ينكر الدراسة ويقول : ما رأيت ولا سمعت ، وقد أدركت أصحاب النبي (ص) . قال ابن عساکر : وكان الضحاک بن عبد الرحمن أميراً على دمشق في أواخر سنة ست وثمانين ^(١) في خلافة عمر بن عبد العزيز .

فَضِيلَةُ

كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ست وثمانين ، هدمت الكنيسة التي كانت موضعه في ذي القعدة منها ، فلما فرغوا من الهدم شرعوا في البناء ، وتكامل في عشر سنين ، فكان الفراغ منه في هذه السنة - أعني سنة ست وتسعين - وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك ، وقد بقيت فيه بقايا فكلها أخوه سليمان كما ذكرنا . فأما قول يعقوب بن سفيان : سألت هشام بن عمار عن قصة مسجد

(١) كذا بالأصول . والصواب : في سنة تسع وتسعين .

دمشق وهذه الكنيسة قول : كان الوليد قال للنصارى : ما شقتم انا أخذنا كنيسة توما عنوة وكنيسة الداخلة صلحاً ، فأنا أهدم كنيسة توما - قال هشام وتلك أكبر من هذه الداخلة - قال فرضوا أن يهدم كنيسة الداخلة وأدخلها في المسجد ، قال : وكان بابها قبلة المسجد اليوم ، وهو المحراب الذى يصلى فيه ، قال : وهدم الكنيسة فى أول خلافة الوليد سنة ست وثمانين ، ومكثوا فى بنائها سبع سنين حتى مات الوليد ولم يتم بناءه ، فاتته هشام من بعده ففیه فوائد وفيه غلط ، وهو قوله إنهم مكثوا فى بنائه سبع سنين ، والصواب عشر سنين ، فانه لا خلاف أن الوليد بن عبد الملك توفى فى هذه السنة - أعنى سنة ست وتسعين - وقد حكى أبو جعفر بن جرير على ذلك إجماع أهل السير ، والذى أتم ما بقى من بناءه أخوه سليمان لاهشام والله سبحانه وتعالى أعلم .

[قلت : نقل من خط ابن عساکر وقد تقدم ، وقد جددت فيه بعد ذلك أشياء ، منها القباب الثلاث التى فى صحنه . وقد تقدم ذكرها . وقيل إن القبة الشرقية عمرت فى أيام المستنصر العبيدى فى سنة خمسين وأربعمائة وكتب عليه اسمه واسم الاثنى عشر الذين تزعم الرافضة أنهم أئمتهم ، وأما العمودان الموضوعان فى صحنه فجعلتا للتنوير ليالى الجمع ، وصنعا فى رمضان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، بأمر قاضى البلد أبى محمد ^(١)]

وهذه ترجمة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق وذكر وفاته فى هذا العام هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، أبو العباس الأموى ، بويع له بالخلافة بعد أبيه بعهد منه فى شوال سنة ست وثمانين ، وكان أكبر ولده ، والولى من بعده ، وأمه ولادة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسى . وكان مولده سنة خمسين ، وكان أبواه يترفانه ، فشب بلا أدب ، وكان لا يحسن العربية ، وكان طويلاً أسمر به أثر جدري خفى ، أفتس الأنف سائله ، وكان إذا شئ يتوكف فى المشية - أى يتبختر - وكان جميلاً وقيل دميماً ، قد شاب فى مقدم لحيته ، وقد رأى سهل بن سعد وسمع أنس بن مالك لما قدم عليه سأله ما سمع فى أشراط الساعة ، كما تقدم فى ترجمة أنس ، وسمع سعيد بن المسيب وحكى عن الزهرى وغيره وقد روى أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه ثم توقف لأنه لا يحسن العربية فجمع الوليد جماعة من أهل النحو عنده فأقاموا سنة ، وقيل ستة أشهر ، فخرج يوم خرج أجهل مما كان ، فقال عبد الملك : قد أجهد وأعذر ، وقيل إن أباه عبد الملك أوصاه عند موته فقال له : لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك ، ونحن حنين الأمة ، ولكن شمر وا تزر ، ودلنى فى حفرنى ، وخلصنى وشأنى ، وادع الناس إلى البيعة ، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا . وقال الليث : وفى سنة ثمان وتسعين ^(٢) غزا الوليد

(١) زيادة من المصرية . (٢) كذا بالأصول . وفيها تحريف ظاهر لأنه مات سنة ٥٩٦ هـ .

بلاد الروم ، وفيها حج بالناس أيضاً . وقال غيره : غزا في التي قبلها وفي التي بعدها بلاد بلطية وغيرها ، وكان نقش خاتمه أو من بالله مخلصاً . وقيل كان نقشه يا وليد إنك ميت ، ويقال إن آخر ماتكلم به سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، وقال إبراهيم بن أبي عبلة قال لي الوليد بن عبد الملك يوماً : في كم نختم القرآن ؟ قلت في كذا وكذا ، فقال : أمير المؤمنين علي شغلته بختمه في كل ثلاث ، وقيل في كل سبع ، قال : وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة . قال إبراهيم رحمه الله : الوليد وأين مثله ؟ بنى مسجد دمشق ، وكان يعطيني قطع الفضة فأقسمها على قراء بيت المقدس .

وروى ابن عساكر باسناد رجاله كلهم ثقات عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبيه قال : خرج الوليد يوماً من الباب الأصغر فرأى رجلاً عند المئذنة الشرقية يأكل شيئاً ، فأتاه فوقف عليه فإذا هو يأكل خبزاً وتراباً ، فقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : القنوع يا أمير المؤمنين ، فذهب إلى مجلسه ثم استدعى به فقال : إن لك لساناً فأخبرني به وإلا ضربت الذي فيه عينك ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين كنت رجلاً حمالاً ، فبينما أنا أسير من مرج الصفر قاصداً إلى الكسوة ، إذ زرموني البول فمدت إلى خربة لأبول ، فإذا سرب فحفرته فإذا مال صبيب ، فملأت منه غراثري ، ثم انطلقت أقود برواحلي وإذا بمخللة معي فيها طعام فألقيته منها ، وقلت : إني سأني الكسوة ، ورجعت إلى الخربة لأملأ تلك المخللة من ذلك المال فلم أهتد إلى المكان بعد الجهد في الطلب ، فلما أيسرت رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجدها الطعام ، فأليت على نفسي أني لا آكل إلا خبزاً وتراباً . قال : فهل لك عيال ؟ قال نعم ، ففرض له في بيت المال .

قال ابن جرير : وبلغنا أن تلك الرواحل سارت حتى أتت بيت المال فتسلمها حارسه فوضعها في بيت المال ، وقيل إن الوليد قال له : ذلك المال وصل إلينا واذهب إلى إبلك نخذها ، وقيل إنه دفع إليه شيئاً من ذلك المال يقبته وعياله . وقال عمير بن عبد الله الشعماني عن أبيه قال قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يفعل هذا بذكر .

قلت : فتنى عن نفسه هذه الخسة القبيحة الشنيعة ، والفاحشة المذمومة ، التي عذب الله أهلها بأنواع العقوبات ، وأحل بهم أنواعاً من المثلات ، التي لم يعاقب بها أحداً من الأمم السالفات ، وهي فاحشة اللواط التي قد ابتلى بها غالب الملوك والأمراء ، والتجار والعوام والكتاب ، والفقهاء والقضاة ونحوهم ، إلا من عصم الله منهم ، فإن في اللواط من المفسد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولهذا تنوعت عقوبات فاعليه ، ولأن يقتل المفعول به خير من أن يؤتى في دبره ، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، إلا أن يشاء الله ، ويذهب خبر المفعول به . فعلى الرجل حفظ ولده في حال صغره وبعد بلوغه ، وأن يجنبه مخالطة هؤلاء الملاعين ، الذين لعنهم رسول الله (ص) .

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين ، والصحيح في المسألة أن يقال إن المفعول به إذا تاب توبة صحيحة نصوحاً ، ورزق إجابة إلى الله وصلاحاً ، وبدل سيئاته بحسنات ، وغسل عنه ذلك بأنواع الطاعات ، وغض بصره وحفظ فرجه ، وأخلص معاملته لربه ، فهذا إن شاء الله مغفور له ، وهو من أهل الجنة ، فإن الله يغفر الذنوب للنائبين إليه [ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون] [ومن تاب وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم] . وأما مفعول به صار في كبره شراً منه في صفه ، فهذا توبته متعذرة ، وبعيد أن يؤهل لتوبة صحيحة ، أو لعمل صالح يحو به ما قد سلف ، وبخشي عليه من سوء الخاتمة ، كما قد وقع ذلك لخلق كثير ماتوا بأدرانهم وأوساخهم ، لم يتطهروا منها قبل الخروج من الدنيا ، وبعضهم ختم له بشر خاتمة ، حتى أوقعه عشق الصور في الشرك الذي لا يغفره الله . وفي هذا الباب حكايات كثيرة وقعت للوطية وغيرهم من أصحاب الشهوات يطول هذا الفصل بذكرها .

والمقصود أن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له ، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان . فيقع في سوء الخاتمة . قال الله تعالى [وكان الشيطان للإنسان خذولاً] بل قد وقع سوء الخاتمة لخلق لم يفعلوا فاحشة اللواط ، وقد كانوا متلبسين بذنوب أهون منها . وسوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا يقع فيها من صلح ظاهره وباطنه مع الله ، وصدق في أقواله وأعماله ، فإن هذا لم يسمع به كما ذكره عبد الحق الأشبيلي ، وإنما يقع سوء الخاتمة لمن فسد باطنه عقداً ، وظاهره عملاً ، ولمن له جرأة على الكبائر ، وإقدام على الجرائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة .

والمقصود أن مفسدة اللواط من أعظم المفسدات ، وكانت لا تعرف بين العرب قديماً كما قد ذكر ذلك غير واحد منهم . فلهذا قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يعلمو ذكراً . وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي (ص) قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره . وقد لعن النبي (ص) من عمل عمل قوم لوط ثلاث مرات ، ولم يلعن على ذنب ثلاث مرات إلا عليه ، وإنما أمر بقتل الفاعل والمفعول به لأنه لا خير في بقائهما بين الناس ، لفساد طويتهما ، وخبث بواطنهما ، فمن كان بهذه المثابة فلا خير للخلق في بقائه ، فاذا أراح الله الخلق منهما صلح لهم أمر معاشهم ودينهم . وأما اللعنة فهي الطرد والبعد ، ومن كان مطروداً مبعداً عن الله وعن رسوله وعن كتابه وعن صالح عباده فلا خير فيه ولا في قربه ، ومن رزقه الله تعالى توسماً وقراسة ، ونوراً وفرقاناً عرف من سحن الناس وجوههم أعمالهم ، فإن أعمال المال بائة ولائحة على وجوههم وفي أعينهم وكلامهم

وقد ذكر الله الاوطية وجعل ذلك آيات للمتوسمين فقال تعالى: [فأخذتهم الصيحة مشرفين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجين إن في ذلك لآيات للمتوسمين] وما بعدها . وقال تعالى: [أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأرينا لهم قلوبهم بسيماهم ولنعرفهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم] ونحو ذلك من الآيات والأحاديث . فالأوطى قد عكس الفطرة ، وقلب الأمر ، فأتى ذكراً فقلب الله قلبه ، وعكس عليه أمره ، بعد صلاحه وفلاحه ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى وخصال التائب قد ذكرها الله في آخر سورة براءة ، فقال: [التائبون العابدون] فلا بد للتائب من العبادة والاشتغال بالعمل للآخرة ، وإلا فالنفس همامة متحركة ، إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل ، فلا بد للتائب من أن يبذل تلك الأوقات التي مرت له في المعاصي بأوقات الطاعات ، وأن يتدارك ما فرط فيها وأن يبذل تلك الخطوات بخطوات إلى الخير ، ويحفظ لحظاته وخطواته ، ولفظاته وخطراته . قال رجل للجنييد : أوصني ، قال : توبة تحمل الاصرار ، وخوف يزيل العزة ، ورجاء مزعج إلى طرق الخيرات ، ومراقبة الله في خواطر القلب . فهذه صفات التائب . ثم قال الله تعالى [الحمدون السائحون الراكون الساجدون] الآية فهذه خصال التائب كما قال تعالى: [التائبون] فكان قائلاً يقول : من هم ؟ قيل هم العابدون السائحون إلى آخر الآية ، وإلا فكل تائب لم ينل بعد توبته بما يقربه إلى من تاب إليه فهو في بعد وإدبار ، لاقى قرب وإقبال ، كما يفعل من اغتر بالله من المعاصي المحظورات ، ويدع الطاعات ، فان ترك الطاعات وفعل المعاصي أشد وأعظم من ارتكاب المحرمات بالشهوة النفسية . فالتائب هو من اتقى المحذورات ، وفعل المأمورات : وصبر على المقدورات ، والله سبحانه وتعالى هو المعين الموفق ، وهو عليم بذات الصدور [(١)]

قالوا : وكان الوليد لحانا كما جاء من غير وجه أن الوليد خطب يوماً فقرأ في خطبته (يا ليتها كانت القاضية) فضم التاء من ليتها ، فقال عمر بن عبد العزيز : يا ليتها كانت عليك وأراخنا الله منك ، وكان يقول : يا أهل المدينة . وقال عبد الملك يوماً لرجل من قریش : إنك لرجل لو لا أنك تلحن ، فقال : وهذا ابنك الوليد يلحن ، فقال : لكن ابني سليمان لا يلحن ، فقال الرجل : وأخي أبو فلان لا يلحن . وقال ابن جرير : حدثني عمر ثناء على - يعني ابن عميد المدائني - قال : كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجد بدمشق ، ووضع المنائر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجنومين ، وقال لهم : لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضريح قائداً ، وفتح في ولايته فتوحات كثيرة عظيمة ، وكان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم ، ففتح الهند والسند

(١) زيادة من المصرية .

والاندلس وأقاليم بلاد المعجم ، حتى دخلت جيوشه إلى الصين وغير ذلك ، قال : وكان مع هذا يمر بالبقال فيأخذ حزمة البقل بيده ويقول : بكم تبيع هذه ؟ فيقول : بفلس ، فيقول : زد فيها فانك تربح . وذكروا أنه كان يبر حملة القرآن ويكرمهم ويقضى عنهم ديونهم ، قالوا : وكانت همه الوليد في البناء ، وكان الناس كذلك يلقي الرجل الزجل فيقول : ماذا بنيت ؟ ماذا عمرت ؟ وكانت همه أخيه سليمان في النساء ، وكان الناس كذلك ، يلقي الرجل الرجل فيقول : كم تزوجت ؟ ماذا عندك من السراري ؟ وكانت همه عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن ، وفي الصلاة والعبادة ، وكان الناس كذلك ، يلقي الرجل الرجل فيقول : كم وردك ؟ كم نقرأ كل يوم ؟ ماذا صليت البارحة ؟ .

[والناس يقولون : الناس على دين ملئكم ، إن كان خماراً أكثر الخمر ، وإن كان لوطياً فكذلك وإن كان شحيحاً حريصاً كان الناس كذلك ، وإن كان جواداً كرماً شجاعاً كان الناس كذلك ، وإن كان طماعاً ظلوماً غشوماً فكذلك . وإن كان ذا دين وتقوى وبر وإحسان كان الناس كذلك وهذا يوجد في بعض الأزمان وبعض الأشخاص ، والله أعلم (١) .

وقال الواقدي : كان الوليد جباراً ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب ، لجهجا كثير الأكل والجماع مطلقاً ، يقال إنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة غير الاماء . قلت : يراد بهذا الوليد بن يزيد الفاسق لا الوليد بن عبد الملك باني الجامع والله أعلم .

قلت : بنى الوليد الجامع على الوجه الذي ذكرنا فلم يكن له في الدنيا نظير ، وبني صخرة بيت المقدس عقد عليها القبة ، وبني مسجد النبي (ص) ، ووسعه حتى دخلت الحجرة التي فيها القبر فيه ، وله آثار حسان كثيرة جداً ، ثم كانت وفاته في يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة من هذه السنة ، قال ابن جرير : هذا قول جميع أهل السير ، وقال عمر بن علي الفلاس وجماعة : كانت وفاته يوم السبت للنصف من ربيع الأول من هذه السنة ، عن ست وقيل ثلاث وقيل تسع وقيل أربع وأربعين سنة ، وكانت وفاته بدير مران ، فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بمقابر باب الصغير ، وقيل بمقابر باب الفراديس ، حكاه ابن عساكر . وكان الذي صلى عليه عمر بن عبد العزيز [لأن أخاه سليمان كان بالقدس الشريف ، وقيل صلى عليه ابنه عبد العزيز] (٢) . وقيل بل صلى عليه أخوه سليمان ، والصحيح عمر بن عبد العزيز والله أعلم . وهو الذي أنزله إلى قبره وقال حين أنزله : لنزلنه غير موسى ولا محمد ، قد خلفت الأسلاب وفارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، فقيراً إلى ما قدمت ، غنيا عما أخرت . وجاء من غير وجه عن عمر أنه أخبره أنه لما وضعه - يعني الوليد - في لحده ارتكض في أكفانه ، وجمعت رجلاه إلى عنقه . وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر على المشهور والله أعلم .

(١) ، (٢) زيادة من المصرية .

قال المدائني : وكان له من الولد تسعة عشر ولدا ذكرا ، وهم عبد العزيز ، ومحمد ، والعباس ، وإبراهيم ، وتعام وخالد وعبد الرحمن وعبشر ومسرور وأبو عبيدة وصدقة ومنصور ومروان وعنبسة وعمر وروح وبشر ويزيد ويحيى . فأم عبد العزيز ومحمد أم البنين بنت عمه عبد العزيز بن مروان ، وأم أبي عبيدة فزارية ، وسائرهم من أمهات أولاد شتى . قال المدائني : وقد نادى جرير فقال : -

يا عين جودي بدمع هاجه الذكرك * فما لدمعك بعد اليوم مدخر
إن الخليفة قد وارت شائلة * غبراء ملحدة في جولها زور
أضحى بنوه وقد جلت مصيبتهم * مثل النجوم هوى من بينها القمر
كانوا جميعاً فلم يدفع منيته * عبد العزيز ولا روح ولا عمر

ومن هلك أيام الوليد بن عبد الملك زياد بن حارث التميمي الدمشقي ، كانت دارد غربي قصر الثقفين ، روى عن حبيب بن مسلمة الفهري في النهي عن المسألة لمن له ما يغديه ويعشيه ، وفي النفل . ومنهم من زعم أن له صحبة ، والصحيح أنه تابعي . روى عنه عطية بن قيس ومكحول ويونس ابن ميسرة بن حابس ، ومع هذا قال فيه أبو حاتم : شيخ مجهول ، ووثقه النسائي وابن حبان ، روى ابن عساکر أنه دخل يوم الجمعة إلى مسجد دمشق وقد أخرجت الصلاة ، فقال : والله ما بعث الله نبيا بعد محمد . أمركم بهذه الصلاة هذا الوقت ، قال : فأخذ فأدخل الخضراء فقطع رأسه ، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك .

عبدالله بن عمر بن عثمان

أبو محمد ، كان قاضي المدينة ، وكان شريفاً كثير المعروف جواداً ممدحاً والله أعلم .

خلافة سليمان بن عبد الملك

بويح له بالخلافة بعد موت أخيه الوليد يوم مات ، وكان يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وكان سليمان بالرملة ، وكان ولي العهد من بعد أخيه عن وصية أبيهما عبد الملك وقد كان الوليد قد عزم قبل موته على خلع أخيه سليمان ، وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبد العزيز بن الوليد ، وقد كان الحجاج طاوعه على ذلك وأمره به ، وكذلك قتيبة بن مسلم وجماعة ، وقد أنشد في ذلك جرير وغيره من الشعراء قصائد ، فلم ينتظم ذلك له حتى مات ، وانعقدت البيعة إلى سليمان ، فخافه قتيبة بن مسلم وعزم على أن لا يبايعه ، فعزل سليمان وولى على إمرة العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب ، فأعاده إلى إمرتها بعد عشر سنين ، وأمره بمعاينة آل الحجاج بن يوسف ، وكان الحجاج هو الذي عزل يزيد عن خراسان . ولسمع بقين من رمضان من هذه السنة عزل سليمان عن إمرة المدينة عثمان بن حيان وولى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وكان أحد العلماء ، وقد

كان قتيبة بن مسلم حين بلغه ولاية سليمان الخلافة كتب إليه كتاباً يعزیه فی أخیه ، ویهنته بولایته ، ویدکر فیہ بلاءه وعناہ وقتالہ وهیبته فی صدور الأعداء ، وما فتح الله من البلاد والمدن والأقالیم الکبار علی یدیه ، وأنه له علی مثل ما کان للولید من الطاعة والنصيحة ، إن لم یعزله عن خراسان ، ونال فی هذا الکتاب من یزید بن المهلب ، ثم کتب کتاباً ثانياً یذکر ما فعل من القتال والفتوحات وهیبته فی صدور الملوك والأعاجم ، وینم یزید بن المهلب أيضاً ، ویقسم فیہ اثین عزله وولی یزید لیخلعن سليمان عن الخلافة ، وکتب کتاباً ثالثاً فیہ خلع سليمان بالکلیة ، وبعث بها مع البرید وقال له : ادفع الیه الکتاب الأول ، فان قرأه ودفعه إلى یزید بن المهلب فادفع الیه الثانی ، فان قرأه ودفعه إلى یزید ابن المهلب فادفع الیه الثالث . فلما قرأ سليمان الکتاب الأول - واتفق حضور یزید عند سليمان - دفعه إلى یزید فقرأه ، فناوله البرید الکتاب الثانی فقرأه ودفعه إلى یزید ، فناوله البرید الکتاب الثالث فقرأه فاذا فیہ التصريح بعزله وخلعه ، فتغیر وجهه ، ثم ختمه وأمسک بیده ولم یدفعه إلى یزید ، وأمر بانزال البرید فی دار الضیافة ، فلما کان من اللیل بعث إلى البرید فأحضره ودفع الیه ذهباً وکتاباً فیہ ولاية قتيبة علی خراسان ، وأرسل مع ذلك البرید بریداً آخر من جهته لیقررہ علیها ، فلما وصلا بلاد خراسان بلغهما أن قتيبة قد خلع الخلیفة ، فدفع برید سليمان الکتاب الذی معه إلى برید قتيبة ، ثم بلغهما مقتل قتيبة قبل أن یرجع برید سليمان .

مقتل قتيبة بن مسلم رحمه الله

وذلك أنه جمع الجند والجيوش وعزم علی خلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة وترك طاعته ، وذاکر لهم همته وفتوحه وعدله فیهم ، ودفعه الأموال الجزيلة إلیهم ، فلما فرغ من مقالته لم یجبه أحد منهم إلى مقالته ، فشرع فی تأنيبهم وذمهم ، قبيلة قبيلة ، وطائفة طائفة ، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرقوا ، وعملوا علی مخالفته ، وسمعوا فی قتله ، وكان القائم بأعباء ذلك رجل یقال له وكيع بن أبی سود ، فجمع جمعاً کثیرة ، ثم ناهضه فلم یزل به حتی قتله فی ذی الحجة من هذه السنة ، وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته ، ولم یبق منهم سوى ضرار بن مسلم ، وكانت أمه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن یعبد بن زرارة ، فحمته أخواله ، وعمر وبن مسلم کان عامل الجوزجان وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح ویسار ، وهؤلاء أبناء مسلم ، وأربعة من أبنائهم قتلهم کلهم وكيع بن سود .

وقد کان قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة أبو حفص الباهلی ، من سادات الأمراء وخيارهم ، وكان من القادة النجباء الکبراء ، والشجعان وذوی الحروب والفتوحات السمیة ، والآراء الحمیة ، وقد هدی الله علی یدیه خلقاً لا یحصبهم إلا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ،

وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئا كثيراً كما تقدم ذلك مفصلاً مبيناً ، والله سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيّب تعبته وجهاده .

ولكن زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية ، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء ، وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان ، في ذى الحجة من هذه السنة ، وله من العمر ثمان وأربعون سنة ، وكان أبوه أبو صالح مسلم فيمن قتل مع مصعب بن الزبير ، وكانت ولايته على خراسان عشر سنين ، واستفاد وأفاد فيها خيراً كثيراً ، وقد رثاه عبد الرحمن بن جمانه الباهلي فقال : -

كان أبا حفص قتيبة لم يسر * بجيش إلى جيش ولم يعل منبراً
ولم يخفق الرايات والقوم حوله * وقوف ولم يشهد له الناس عسكرياً
دعته المنايا فاستجاب لربه * وراح إلى الجنات عفا مطهراً
فما رزى الإسلام بعد محمد * بمنل أبي حفص فبكيه عبيراً

ولقد بالغ هذا الشاعر في بيته الأخير . وعبره ولد له . وقال الطرماح في هذه الواقعة التي قتل فيها علي يد وكيع بن سود :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج * والازد زعزع واستبيح العسكر
وتقطعت بهم البلاد ولم يؤب * منهم إلى أهل العراق مخبر
واستضلعت عقداً الجماعة وازدرى * أمر الخليفة واستحل المنكر
قوم هم قتلوا قتيبة عنوة * والخيل جاحمة عليها العشير
بالمرج مرج الصين حيث تبينت * مضر العراق من الأعز الأكر
إذ حالفت جزعاً ربيعة كلها * وتفرقت مضر ومن يتمضر
وتقدمت ازد العراق ومذحج * للموت يجمعها أبوها الأكر
فحطان تضرب رأس كل مذحج * نحمي بصارهن إذ لا تبصر
والازد تعلم أن نحت لوائها * ملكاً قراسية وموت أحمز
فبعزنا نصر النبي محمد * وبنا تثبت في دمشق المنبر

وقد بسط ابن جرير هذه القصيدة بسطاً كثيراً وذكر أشعاراً كثيرة جداً . وقال ابن خلكان

وقال جرير يرثي قتيبة بن مسلم رحمه الله وسامحه ، وأكرم مثواه وعفا عنه :
ندمت على قتل الأمير ابن مسلم * وأنتم إذا لا قيم الله أندم

لقد كنتم من غزوه في غنيمته * وأنتم لمن لاقيم اليوم مغنم
على أنه أفضى إلى حور الجنة * وتطبق بالبلوى عليكم جهنم
قال : وقد ولي من أولاده وذريته جماعة الأمرة في البلدان ، فمنهم عمر بن سعيد بن قتيبة بن
مسلم وكان جواداً ممدحاً ، رماه حين مات أبو عمرو وأشجع بن عمرو السلمي المري نزيل البصرة يقول :
مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق * ولا مغرب إلا له فيه مادح
وما كنت أدري ما فواضل كفه * على الناس حتى غيبته الصفائح
وأصبح في لحد من الأرض ضيق * وكانت به حياً تضيق الضحاح
سأبكيك ما فاضت دموعي فان تغض * فحسبك مني ما تجر الجوائح
فما أنا من رزني وإن جل جازع * ولا بسرور بعد موتك فارح
كان لم يمّ حتى سواك ولم تقم * على أحد إلا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المرائي وذكرها * لقد حسنت من قبل فيك المدائح

قال ابن خلكان : وهي من أحسن المرائي وهي في الحماسة ، ثم تكلم على باهلة وأنها قبيلة مردولة
عند العرب ، قال : وقد رأيت في بعض المجاميع أن الأشعث بن قيس قال : يارسول الله أتكافأ
دماؤنا ؟ قال : « نعم ! ولو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك » . وقيل لبعض العرب : أيسرك أن تدخل
الجنة وأنت باهلي ؟ قال : بشرط أن لا يعلم أهل الجنة بذلك . وسأل بعض الأعراب رجلاً ممن
أنت ؟ فقال : من باهلة ، فجعل يرثي له قال : وأزيدك أني لست من الصميم وإنما أنا من مواليهم .
فجعل يقبل يديه ورجليه ، فقال : ولم تفعل هذا ؟ فقال : لأن الله تعالى ما ابتلاك بهذه الرزية في
الدنيا إلا ليعوضك الجنة في الآخرة .

ثم قال ابن جرير : وفي هذه السنة توفي قرّة بن شريك العبسي أمير مصر وحاكمها . قلت :
هو قرّة بن شريك أمير مصر من جهة الوليد ، وهو الذي بنى جامع الفيوم . وفيها حج بالناس
أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وكان هو الأمير على المدينة ، وكان على مكة عبد العزيز بن
عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى حرب العراق وصلاتها يزيد بن المهلب ، وعلى خراجها صالح بن
عبد الرحمن ، وعلى نيابة البصرة ليزيد بن المهلب سفيان بن عبد الله الكندي ، وعلى قضائها
عبد الرحمن بن أذينة ، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى ، وعلى حرب خراسان وكيع بن سود
والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

وفيها جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية ، وفيها أمر ابنه داود على الصائفة ،

فتفتح حصن المرأة ، قال الواقدي : وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الواضحية ففتح الحصن الذي [بناه] الواضح صاحب الواضحية . وفيها غزا مسلمة أيضاً برجة ففتح حصوناً وبرجة وحصن الحديد وسررا ، وشقي بأرض الروم . وفيها غزا عمر بن هبيرة الفزاري في البحر أرض الروم وشقي بها . وفيها قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وقدم برأسه على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، مع حبيب بن أبي عبيد الفهري ، وفيها ولي سليمان نيابة خراسان يزيد بن المهلب مضافاً إلى ما بيده من إمرة العراق ، وكان سبب ذلك أن وكيع بن أبي سود لما قتل قتيبة بن مسلم وذريته ، بعث برأس قتيبة إلى سليمان فخطى عنده وكتب له بأمره خراسان ، فبعث يزيد بن المهلب عبد الرحمن ابن الأهمم إلى سليمان بن عبد الملك ليحسن عنده أمر يزيد بن المهلب في إمرة خراسان ، وينتقص عنده وكيع بن سود ، فسار ابن الأهمم - وكان ذاهباً ومكر - إلى سليمان بن عبد الملك ، فلم يزل به حتى عزل وكيعاً عن خراسان وولى عليها يزيد مع إمرة العراق ، وبعث بعهدته مع ابن الأهمم ، فسار في سبع حتى جاء يزيد ، فأعطاه عهد خراسان مع العراق ، وكان يزيد وعده بمائة ألف فلم يف بها ، وبعث يزيد ابنه مخلداً بين يديه إلى خراسان ، ومعه كتاب أمير المؤمنين مضمونه أن قيساً زعموا أن قتيبة بن مسلم لم يكن خلع الطاعة ، فان كان وكيع قد تعرض له وثار عليه بسبب أنه خلع ولم يكن خلع فقيدته وابعث به إلى ، فتقدم مخلد فأخذ وكيعاً فعاقبه وجبسه قبل أن يجي أبوه ، وكانت إمرة وكيع بن أبي سود الذي قتل قتيبة تسعة أشهر ، أو عشرة أشهر ، ثم قدم يزيد بن المهلب فتسلم خراسان وأقام بها ، واستناب في البلاد نواباً ذكرهم ابن جرير .

قال : ثم سار يزيد بن المهلب فغزا جرجان ، ولم يكن يومئذ مدينة بأبواب وصور ، وإنما هي جبال وأودية ، وكان ملكها يقال له صول ، فتحول عنها إلى قلعة هناك ، وقيل إلى جزيرة في بحيرة هناك ، ثم أخذوه من البحيرة وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وأسروا وغنموا . قال : وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الملك ، ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها ، غير أن خراسان عزل عنها وكيع بن سود ، وولياها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة مع العراق . ومن توفي فيها من الأعيان :

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب

أبو محمد القرشي الهاشمي ، روى عن أبيه عن جده مرفوعاً : « من عال أهل بيت من المسلمين يومهم وليتهم غفر الله له ذنوبه » . وعن عبد الله بن جعفر عن علي في دعاء الكرب ، وعن زوجته فاطمة بنت الحسين ، وعنه ابنه عبد الله وجماعة ، وقد علي عبد الملك بن مروان فأكرمه ونصره علي الحجاج ، وأقره وحده علي ولاية صدقة علي ، وقد ترجمه ابن عساكر فأحسن ، وذكر عنه آثاراً تدل على سيادته ، قيل إن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة : إن الحسن بن الحسن كاتب

أهل العراق ، فاذا جاءك كتابي هذا فاجلده مائة ضربة ، وقفه للناس ، ولا تراني إلا قاتله . فأرسل خلفه فعلمه علي بن الحسين^(١) كلمات الكرب فقالها حين دخل عليه فنجاه الله منهم ، وهي : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش العظيم . توفي بالمدينة ، وكانت أمه خولة بنت منظور الفزارى . وقال يوماً لرجل من الرافضة : والله إن قتلك لقربة إلى الله عز وجل ، فقال له الرجل : إنك تمزح ، فقال : الله ما هذا مني بمزح ولكنه الجد . وقال له آخر منهم : ألم يقل رسول الله ص : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ؟ . فقال : بلى ، ولو أراد الخلافة لخطب الناس فقال : أيها الناس اعلموا أن هذا ولي أمركم من بعدي ، وهو القائم عليكم ، فاصموا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله اختار علياً لهذا الأمر ثم تركه علي لكان أول من ترك أمر الله ورسوله ، وقال لهم أيضاً : والله لئن ولينا من الأمر شيئاً لنقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لا نقبل لكم توبة ، ويلكم غررتمونا من أنفسنا ، ويلكم لو كانت القرابة تنفع بلا عمل لنفعت أباه وأمه ، لو كان ما تقولون فينا حقاً لكان آباؤنا إذ لم يعلو بنا بذلك قد ظلمونا وكتبوا عنا أفضل الأمور ، والله إني لأخشى أن يضاعف العذاب للعاصي منا ضعفين ، كما أني لأرجو للمحسن منا أن يكون له الأجر مرتين ، ويلكم أحبونا إن أطعنا الله على طاعته ، وأبغضونا إن عصينا الله على معصيته .

موسى بن نصير ابو عبد الرحمن اللخمي

مولاهم ، كان مولى لا امرأة منهم ، وقيل كان مولى لبني أمية ، افتتح بلاد المغرب ، وغنم منها أموالاً لا تعد ولا توصف ، وله بها مقامات مشهورة هائلة ، ويقال إنه كان أعرج ، ويقال إنه ولد في سنة تسع عشرة ، وأصله من حبن النمر ، وقيل إنه من اراشة من بلي ، سبي أبوه من جبل الخليل من الشام في أيام الصديق ، وكان اسم أبيه نصرأ فصغر ، روى عن تميم الدارى ، وروى عنه ابنه عبد العزيز ، ويزيد بن مسروق اليحصبي ، وولى غزو البحر لماوية ، فغزا قبرص ، وبني هنالك حصوناً كما لماغوصة وحصن بانس وغير ذلك من الحصون التي بناها بقبرص ، وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية في سنة سبع وعشرين ، وشهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس ، فلما قتل الضحاك لجأ موسى بن نصير لعبد العزيز بن مروان ، ثم لما دخل مروان بلاد مصر كان معه فتركه عند ابنه عبد العزيز ، ثم لما أخذ عبد الملك بلاد العراق جعله وزيراً عند أخيه بشر بن مروان .

وكان موسى بن نصير هذا ذا رأى وتدبير وحزم وخبرة بالحرب ، قال البغوى^(٢) . ولى موسى ابن نصير إمرة بلاد إفريقية سنة سبع وسبعين فافتتح بلاداً كثيرة جداً ومدناً وأقاليم ، وقد ذكرنا أنه

(١) كذا بالأصول وقد تقدمت وفاة علي بن الحسين قبل هذا . (٢) في المصرية الفسوى .

افتتح بلاد الاندلس ، وهي بلاد ذات مدن وقرى وريف ، فسبي منها ومن غيرها خلقاً كثيراً ، وغنم أموالاً كثيرة جزيلة ، ومن الذهب والجواهر النفيسة شيئاً لا يحصى ولا يعد ، وأما الآلات والمتاع والدواب فشيء لا يدرى ما هو ، وسبي من الغلمان الحسان والنساء الحسان شيئاً كثيراً ، حتى قيل إنه لم يسلب أحد مثله من الأعداء ، وأسلم أهل المغرب علي يديه ، وبث فيهم الدين والقرآن ، وكان إذا سار إلى مكان تحمل الأموال معه على العجل لكثرتها وعجز الدواب عنها

وقد كان موسى بن نصير هذا يفتح في بلاد المغرب ، وقتيبة يفتح في بلاد المشرق ، فجزاهما الله خيراً ، فكلاهما فتح من الأقاليم والبلدان شيئاً كثيراً ، ولكن موسى بن نصير حظى بأشياء لم يحظ بها قتيبة ، حتى قيل إنه لما فتح الاندلس جاءه رجل فقال له : ابعث معي رجلاً حتى أدلك على كنز عظيم ، فبعث معه رجلاً فأتى بهم إلى مكان فقال : احفروا ، فحفروا فأفضى بهم الحفر إلى قاعة عظيمة ذات لوامين حسنة ، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبتهم ، وأما الذهب فشيء لا يعبر عنه ، ووجدوا في ذلك الموضع الطنافس ، الطنفسة منها منسوجة بقضبان الذهب ، منظومة باللؤلؤ الغالي المفتح ، والطنفسة منظومة بالجواهر المثلث ، واليواقيت التي ليس لها نظير في شكلها وحسنها وصفاتها ، ولقد سمع يومئذ مناد ينادى لابرون شخصه : أيها الناس ، إنه قد فتح عليكم باب من أبواب جهنم فخذوا حذرکم . وقيل إنهم وجدوا في هذا الكنز مائة سليمان بن داود التي كان يأكل عليها . وقد جمع أخباره وما جرى له في حروبه وغزواته رجل من ذريته يقال له أبو معاوية معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير النصيري .

وروى الحافظ ابن عساكر أن عمر بن عبد العزيز سأل موسى بن نصير حين قدم دمشق أيام الوليد عن أعجب شيء رأيت في البحر ، فقال : انتهينا مرة إلى جزيرة فيها ست عشرة جرة مخنومة بخاتم سليمان بن داود عليهما السلام ، قال : فأمرت بأربعة منها فأخرجت ، وأمرت بواحدة منها فنقبت فإذا قد خرج منها شيطان ينفذ رأسه ويقول : والذي أكرمك بالنبوة لأعود بعدها أفسد في الأرض ، قال : ثم إن ذلك الشيطان نظر فقال : إني لأرى بهاء سليمان وملكه ، فانساخ في الأرض فذهب ، قال : فأمرت بالثلاث البواقى فرددن إلى مكانهن .

وقد ذكر السمعاني وغيره عنه أنه سار إلى مدينة النحاس التي بقرب البحر المحيط الأخضر ، في أقصى بلاد المغرب ، وأنهم لما أشرفوا عليها رأوا بريق شرفاتها وحيطانها من مسافة بعيدة ، وأنهم لما أتوها نزلوا عندها ، ثم أرسل رجلاً من أصحابه ومعه مائة فارس من الأبطال ، وأمره أن يدور حول سورها لينظر هل لها باب أو منفذ إلى داخلها ، فقيل : إنه سار يوماً و ليلة حول سورها ، ثم رجع إليه فأخبره أنه لم يجد باباً ولا منفذاً إلى داخلها ، فأمرهم فجمعوا مامعهم من المتاع بعضه على بعض ، فلم

يبلغوا أعلى سورها ، فأمر فعمل سلام فصعدوا عليها ، وقيل إنه أمر رجلا فصعد على سورها ، فلما رأى ما في داخلها لم يملك نفسه أن ألقاها في داخلها فكان آخر العهد به ، ثم آخر فكذلك ، ثم امتنع الناس من الصعود إليها ، فلم يحط أحد منهم بما في داخلها علما ، ثم ساروا عنها فقطعوها إلى بحيرة قريبة منها ، فقيل : إن تلك الجرار المذكورة وجدها فيها ، ووجد عليها رجلا قائما ، فقال له : ما أنت ؟ قال : رجل من الجن وأبي محبوس في هذه البحيرة حبسه سليمان ، فأنا أجيء إليه في كل سنة مرة أزوره . فقال له : هل رأيت أحداً خارجاً من هذه المدينة أو داخلها إليها ؟ قال : لا ، إلا أن رجلا يأتي في كل سنة إلى هذه البحيرة يتعبد عليها أياما ثم يذهب فلا يعود إلى مثلها ، والله أعلم ما هو . ثم رجع إلى إفريقية ، والله أعلم بصحة ذلك ، والعهد على من ذكر ذلك أولاً .

وقد استسقى موسى بن نصير بالناس في سنة ثلاث وتسعين حين أخطوا بأفريقية ، فأمرهم بصيام ثلاثة أيام قبل الاستسقاء ، ثم خرج بين الناس وميز أهل الذمة عن المسلمين ، وفرق بين البهائم وأولادها ، ثم أمر بارتفاع الضجيج والبكاء ، وهو يدعو الله تعالى حتى انتصف النهار ، ثم نزل فقيل له : ألا دعوت لأمر المؤمنين ؟ فقال : هذا موطن لا يذكر فيه إلا الله عز وجل ، فسقام عز وجل لما قال ذلك . وقد وفد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه ، فدخل دمشق في يوم الجمعة والوليد على المنبر ، وقد لبس موسى ثيابا حسنة وهيئة حسنة ، فدخل ومعه ثلاثون غلاما من أبناء الملوك الذين أسرهم ، والأسبان ، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة ، فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق بهت إليهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة ، وجاء موسى بن نصير فسلم على الوليد وهو على المنبر ، وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله ، فحمد الله الوليد وشكره على ما أيده به ووسع ملكه ، وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة ، ثم نزل فصلى بالناس ، ثم استدعى بموسى بن نصير فأحسن جائزته وأعطاه شيئا كثيرا ، وكذلك موسى بن نصير قدم معه بشيئا كثيرا ، من ذلك مائة سليمان بن داود عليهما السلام ، التي كان يأكل عليها ، وكانت من خليطين ذهب وفضة ، وعليها ثلاثة أطواق لؤلؤ وجوهر لم ير مثله ، وجدها في مدينة طليطلة من بلاد الأندلس مع أموال كثيرة . وقيل إنه بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف رأس ، وبعث ابن أخيه في جيش فأصاب من السبي مائة ألف رأس أيضا من البربر ، فلما جاء كتابه إلى الوليد وذكر فيه أن خمس الغنائم أربعون ألف رأس قال الناس : إن هذا أحق ، من أين له أربعون ألف رأس خمس الغنائم ؟ فبلغه ذلك فأرسل أربعين ألف رأس وهي خمس ما غنم ، ولم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير أمير المغرب .

وقد جرت له عجائب في فتحه بلاد الأندلس وقال : ولو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية - وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج - ثم ليفتحها الله علي يدي إن شاء الله تعالى ، ولما قدم علي الوليد قدم معه بثلاثين ألفاً من السبي غير ما ذكرنا ، وذلك خمس ما كان غنمه في آخر غزاة غزاها ببلاد المغرب ، وقدم معه من الأموال والتحف والآلاتي والجواهر مالا يحد ولا يوصف ، ولم يزل مقبلاً بدمشق حتى مات الوليد وتولى سليمان ، وكان سليمان عاتباً علي موسى فحبسه عنده وطالبه بأموال عظيمة . ولم يزل في يده حتى حج بالناس سليمان في هذه السنة وأخذه معه فمات بالمدينة ، وقيل بوادي القرى ، وقد قارب الثمانين ، وقيل توفي في سنة تسع وتسعين فآله أعلم ورحمه الله وعفا عنه عنه وفضله آمين .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

ففي هذه السنة جهز سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين أخاه مسلمة بن عبد الملك لغزو القسطنطينية وراء الجيش الذين هم بها ، فسار إليها ومعه جيش عظيم ، ثم التف عليه ذلك الجيش الذين هم هناك وقد أمر كل رجل من الجيش أن يحمل معه علي ظهر فرسه مدين من طعام ، فلما وصل إليها جمعوا ذلك فاذا هو أمثال الجبال ، فقال لهم مسلمة : أتركوا هذا الطعام وكلوا مما تجدونه في بلادهم ، وازرعوا في أماكن الزرع واستغلوه ، وابنوا لكم بيوتاً من خشب ، فانا لا نرجع عن هذا البلد إلا أن نفتحها إن شاء الله . ثم إن مسلمة داخل رجلاً من النصارى يقال له اليون ، وواطأه في الباطن ليأخذ له بلاد الروم ، فظهر منه نصيح في بادئ الأمر ، ثم إنه توفي ملك القسطنطينية ، فدخل اليون في رسالة من مسلمة وقد خافته الروم خوفاً شديداً ، فلما دخل إليهم اليون قالوا له : رده عنا ونحن نملكك علينا نخرج فأعمل الخيلة في القدر والمكر ، ولم يزل قبجه الله حتى أحرق ذلك الطعام الذي للمسلمين ، وذلك أنه قال لمسلمة : إنهم ماداموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم في القتال ، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البلد سريعاً ، فأمر مسلمة بالطعام فأحرق ، ثم انشمر اليون في السفن وأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش في الليل ، وأصبح وهو في البلد محارباً للمسلمين ، وأظهر العداوة الأكيدة ، وتمحصن واجتمعت عليه الروم ، وضاق الحال علي المسلمين حتى أكلوا كل شيء إلا التراب ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءهم وفاة سليمان بن عبد الملك وتولية عمر بن عبد العزيز ، فكروا راجعين إلى الشام ، وقد جهدوا جهداً شديداً ، لكن لم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية شديد البناء محكماً ، رحب الفناء شاهقاً في السماء .

وقال الواقدي : لما ولي سليمان بن عبد الملك أراد الإقامة ببيت المقدس ، ثم يرسل العساكر إلى القسطنطينية ، فأشار عليه موسى بن نصير بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق والحصون ،

حتى يباع المدينة ، فلا يأتها إلا وقد هدمت حصونها ووهنت قوتها ، فإذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلوا لك البلد ، ثم استشار أخاه مسلمة فأشار عليه بأن يدع مادونها من البلاد ويفتحها عنوة ، ففنى ما فتحت فان باقى مادونها من البلاد والحصون بيدك ، فقال سليمان : هذا هو الرأى ، ثم أخذ فى تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة فجهز فى البر مائة وعشرين ألفاً ، وفى البحر مائة وعشرين ألفاً من المقاتلة ، وأخرج لهم الأغطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو القسطنطينية والاقامة إلى أن يفتحوها ، ثم سار سليمان من بيت المقدس فدخل دمشق وقد اجتمعت له العساكر فأمر عليهم أخاه مسلمة ، ثم قال : سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف . ثم سار سليمان حتى نزل مرج دابق ، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة المحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم ير مثله ، ثم أمر مسلمة أن يرحل بالجيوش وأخذ معه إيون الرومى المرعشى ، ثم ساروا حتى نزلوا على القسطنطينية فحاصرها إلى أن برح بهم وعرض أهلها الجزية على مسلمة فأبى إلا أن يفتحها عنوة ، قالوا : فابعث إلينا إيون نشاوره ، فأرسله إليهم ، فقالوا له : رده هذه العساكر عنا ونحن نعطيك ونملكك علينا ، فرجع إلى مسلمة : فقال : قد أجابوا إلى فتحها غير أنهم لا يفتحونها حتى تتنحى عنهم ، فقال مسلمة : إني أخشى غدرك ، فحلف له أنه يدفع إليه مفاتيحها وما فيها ، فلما تنحى عنهم أخذوا فى ترميم ما تهدم من أسوارها واستعدوا للحصار . وغدر إيون بالمسلمين قبحه الله .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة أخذ سليمان بن عبد الملك العهد لولده أيوب أنه الخليفة من بعده ، وذلك بعد موت أخيه مروان بن عبد الملك ، فعُدل عن ولاية أخيه يزيد إلى ولاية ولده أيوب ، وتربص بأخيه الدوائر ، فمات أيوب فى حياة أبيه ، فبايع سليمان إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز أن يكون الخليفة من بعده ، ونعم ما فعل . وفيها فتحت مدينة الصقالبة . قال الواقدي : وقد أغارت البرجان على جيش مسلمة وهو فى قلة من الناس فى هذه السنة . فبعث إليه سليمان جيشاً فقاتل البرجان حتى هزمهم الله عز وجل . وفيها غزا يزيد بن المهلب قهستان من أرض الصين فحاصرها وقاتل عندها قتالاً شديداً ، ولم يزل حتى تسلبها ، وقتل من الترك الذين بها أربعة آلاف صبياً ، وأخذ منها من الأموال والأثاث والأمتعة مالا يحصى ولا يوصف كثرة وقيمة وحسناً ، ثم سار منها إلى جرجان فاستجاش صاحبها بالديلم ، فقدموا لنجدته فقاتلهم يزيد بن المهلب وقتلوه ، فحمل محمد بن عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي - وكان فارساً شجاعاً باهراً - على ملك الديلم فقتله وهزمهم الله ، ولقد بارز ابن أبي سبرة هذا يوماً بعض فرسان الترك ، فضربه التركي بالسيف على البيضة فنشب فيها ، وضربه ابن أبي سبرة فقتله ، ثم أقبل إلى المسلمين وسيفه يقطر دماً وسيف التركي ناشب فى

خودته ، فنظر إليه يزيد بن المهلب فقال : ما رأيت منظرًا أحسن من هذا ، من هذا الرجل ؟ قالوا : ابن أبي سبرة . فقال : نعم الرجل لولا انهما كه في الشراب . ثم صمم يزيد على محاصرة جرجان ، وما زال يضيق على صاحبها حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف دينار ، ومائتي ألف نوب ، وأربعمائة حمار موقرة زعفرانا ، وأربعمائة رجل على رأس كل رجل ترس ، على الترس طيلسان وجام من فضة وسرفة من حرير ، وهذه المدينة كان سعيد بن العاص فيها فتحها صلحا على أن يحملوا الخراج في كل سنة مائة ألف ، وفي سنة مائتي ألف ، وفي بعض السنين ثلاثمائة ألف ، ويمنعون ذلك في بعض السنين ، ثم امتنعوا جملة وكفروا ، فغزاهم يزيد بن المهلب وردها صلحا على ما كانت عليه في زمن سعيد بن العاص . قالوا : وأصاب يزيد بن المهلب من غيرها أموالا كثيرة جدا ، فكان من جملة ما تاج فيه جواهر نفيسة ، فقال : أترون أحدا يزهد في هذا ؟ قالوا : لانعله ، فقال : والله إني لأعلم رجلا لو عرض عليه هذا وأمثاله لزهد فيه ، ثم دعا بمحمد بن واسع - وكان في الجيش مغازيا - فعرض عليه أخذ التاج فقال : لا حاجة لي فيه ، فقال : أقسمت عليك لتأخذنه ، فأخذه وخرج به من عنده ، فأمر يزيد رجلا أن يتبعه فينظر ماذا يصنع بالتاج ، فمر بسائل فطلب منه شيئا فأعطاه [التاج] بكامله وانصرف ، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج وعوضه عنه مالا كثيرا

وقال علي بن محمد المدائني قال أبو بكر الهذلي : كان شهر بن حوشب على خزائن يزيد بن المهلب فرفعوا إليه أنه أخذ خريطة فيها مائة دينار ، فسأله عنها فقال : نعم وأحضرها ، فقال له يزيد : هي لك ، ثم استدعى الذي وشى به فشمته ، فقال في ذلك القطامي الكلبى ، ويقال إنها لسنان بن مكل التميمي

لقد باع شهر دينة بخريطة * فن يأمن القراء بملكك يا شهر
أخذت به شيئا طفيفا وبعته * من ابن جونبوذان هذا هو الغدر

وقال مرة بن النخعي :

يا ابن المهلب ما أردت إلى امرئ * لولاك كان كصالح القراء

قال ابن جرير : ويقال إن يزيد بن المهلب كان في غزوة جرجان في مائة ألف وعشرين ألفا ، منهم ستون ألفا من جيش الشام أنابهم الله ، وقد تمهدت تلك البلاد بفتح جرجان وسلكت الطرق ، وكانت قبل ذلك مخوفة جدا ، ثم عزم يزيد على المسير إلى خوزستان ، وقدم بين يديه سرية هي أربعة آلاف من سراة الناس ، فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل من المسلمين في المعركة أربعة آلاف إن الله وإنا إليه راجعون . ثم إن يزيد عزم على فتح البلاد لا محالة ، وما زال حتى صالحه صاحبها - وهو الاصبهني - بمال كثير ، سبعمائة ألف في كل عام ، وغير ذلك من المتاع والرقيق . ومن توفي فيها

عبدالله بن عبدالله بن عتبة

من الأعيان :

كان إماماً حجة ، وكان مؤدب عمر بن عبد العزيز ، وله روايات كثيرة عن جماعات من الصحابة .
أبو الحنفى النخعي . عبد الله بن محمد بن الحنفية . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل والله سبحانه
وتعالى أعلم . ثم دخلت سنة تسع وتسعين

فيها كانت وفاة سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين يوم الجمعة امشر مضين ، وقيل بقين من صفر
منها ، عن خمس وأربعين سنة ، وقيل عن ثلاث وأربعين ، وقيل إنه لم يجاوز الأربعين . وكانت
خلافته سنتين وثمانية أشهر ، وزعم أبو أحمد الحاكم أنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشر بقية من رمضان
منها ، وأنه استكمل في خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام ، وله من العمر تسع وثلاثون
سنة ، والصحيح قول الجمهور وهو الأول ، والله أعلم .

وهو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي
الأموي ، أبو أيوب . كان مولده بالمدينة في بني جذيلة ، ونشأ بالشام عند أبيه ، وروى الحديث عن
أبيه عن جده عن عائشة أم المؤمنين في قصة الاوك ، رواه ابن عساکر من طريق ابنه عبد الواحد
ابن سليمان عنه ، وروى عن عبد الرحمن بن هنيذة أنه صحب عبد الله بن عمر إلى الغابة قال فسكت
فقال لي ابن عمر : مالك ؟ فقال : إني كنت أتمنى . فقال ابن عمر : فما تسمى يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال
لي : لو أن لي أحداً هذا ذهباً أعلم عدده وأخرج زكاته ما كرهت ذلك ، أو قال : ما خشيت أن
يضر بي . رواه محمد بن يحيى الذهلي عن أبي صالح بن الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن
الزهري عنه

قال ابن عساکر : وكانت داره بدمشق موضع ميضأة جيرون الآن في تلك المساحة جميعها ،
وبني داراً كبيرة مما يلي باب الصغير ، موضع الدرب المعروف بدرب محرز ، وجعلها دار الامارة ،
وعمل فيها قبة صفراء تشبها بالقبة الخضراء ، قال : وكان فصيحاً مؤثراً للعدل محباً للغزو ، وقد أنفذ
الجيش لحصار القسطنطينية حتى صالحهم على بناء الجامع بها .

وقد روى أبو بكر الصولي أن عبد الملك جمع بنيه ، الوليد وسليمان ومسلمة ، بين يديه فاستقرأهم
القرآن فأجادوا القراءة ، ثم استنشدهم الشعر فأجادوا ، غير أنهم لم يكلوا أو يحكموا شعر الأعشى ،
فلامهم على ذلك ، ثم قال : لينشدني كل رجل منكم أرق بيت قاله العرب ولا يفتش ، هات
يا وليد ، فقال الوليد :

مامركبٍ وركوبُ الخليلِ يعجبني • كمركبٍ بينَ دملوجٍ وخلخالِ

فقال عبد الملك : وهل يكون من الشعر أرق من هذا ؟ هات يا سليمان ، فقال :

حبذا رجعها يديها إليها • في يدي درعها تحمل الأزارا

فقال : لم تصب ، هات يا مسلمة ، فأنشده قول امرئ القيس :

وما ذرفت عينك إلا لتضربني • بسهميك في أعشار قلب مقل

فقال : كذب امرؤ القيس ولم يصب ، إذا ذرفت عينها بالوجد فما بقي إلا اللقاء ، وإنما ينبغي

للعاشق أن يفتضى "منها الجفاء ويكسوها المودة" ، ثم قال : أنا مؤجلكم في هذا البيت ثلاثة أيام فمن

أتاني به فله حكمه ، أي مهما طلب أعطيته ، فتهضوا من عنده فبينما سليمان في موكب إذا هو بأعرابي

يسوق إبله وهو يقول :

لوضربوا بالسيف رأسي في مودتها • لمال يهوي سريعاً نحوها راسي

فأمر سليمان بالأعرابي فاعتقل ، ثم جاء إلى أبيه فقال : قد جئتكم بما سألت ، فقال : هات ،

فأنشده البيت فقال : أحسنت ، وأنى لك هذا ؟ فأخبره خبر الأعرابي ، فقال : سل حاجتك ولا تنس

صاحبك . فقال : يا أمير المؤمنين إنك عهدت بالامر من بعدك للوليد ، وإني أحب أن أكون ولياً

العهد من بعده ، فأجابه إلى ذلك ، وبعثه على الحج في إحدى وثمانين ، وأطلق له مائة ألف درهم ،

فأعطاهما سليمان لذلك الأعرابي الذي قال ذلك البيت من الشعر ، فلما مات أبوه سنة ست وثمانين

وصارت الخلافة إلى أخيه الوليد ، كان بين يديه كالوزير والمشير ، وكان هو المستحث على عمارة جامع

دمشق ، فلما توفي أخوه الوليد يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، كان

سليمان بالرملة ، فلما أقبل تلقاه الأمراء ووجوه الناس ، وقيل إنهم ساروا إليه إلى بيت المقدس فبايعوه

هناك ، وعزم على الإقامة بالقدس ، وأتته الوفود إلى بيت المقدس ، فلم يروا وفادة هناك ، وكان يجلس

في قبة في صحن المسجد مما يلي الصخرة من جهة الشمال ، وتجلس أكبر الناس على الكراسي ، وتقس

فيهم الأموال ، ثم عزم على المجئ إلى دمشق . فدخلها وكل عمارة الجامع .

وفي أيامه جددت المقصورة واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشاراً ووزيراً ، وقال له :

إنا قد ولينا ماترى وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة العامة فر به فليكتب ، وكان من

ذلك عزل نواب الحجاج وإخراج أهل السجون منها ، وإطلاق الأسرا ، وبذل الأغطية بالعراق ،

ورد الصلاة إلى ميقاتها الأول ، بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها ، مع أمور حسنة كان يسمها

من عمر بن عبد العزيز ، وأمر بغزو القسطنطينية فبعث إليها من أهل الشام والجزيرة والموصل في البر

نحواً من مائة ألف وعشرين ألف مقاتل ، وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب في البحر

عليهم عمر بن هبيرة ، وعلى جماعة الناس كلهم أخوه مسلمة ، ومعه ابنه داود بن سليمان بن عبد الملك

(١) يفتضى الجفاء أي يفتضى عنه . ولعله «يفتضى» بمعنى يخلع ، في مقابل قوله «ويكسوها»

في جماعة من أهل بيته ، وذلك كله عن مشورة موسى بن نصير ، حين قدم عليه من بلاد المغرب ،
والصحيح أنه قدم في أيام أخيه الوليد والله أعلم .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الكوفي عن جابر بن عون الأسدي . قال :
أول كلام تكلم به سليمان بن عبد الملك حين ولي الخلافة أن قال : الحمد لله الذي ما شاء صنع وما شاء
رفع وما شاء وضع ، ومن شاء أعطى ومن شاء منع . إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، وزينة قلب ،
تضحك باكياً وتبكي ضاحكاً ، وتخيف آمنات وتؤمن خائفات ، تقفر مثرها ، وتثرى فقيرها ، مبالاة لآفة
بأهلها . يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إماماً ، وارضوا به حكماً ، واجعلوه لكم قائداً ، فإنه ناسخ لما
قبله ، ولن ينسخه كتاب بعده . اعملوا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه كما
يجلو ضوء الصبح إذا تنفس أديار الليل إذا عسعس . وقال يحيى بن معين عن حجاج بن محمد عن
أبي معشر عن محمد بن قيس قال : سمعت سليمان بن عبد الملك يقول في خطبته : فضل القرآن على
سائر الكلام كفضل الله على خلقه . وقال حماد بن زيد عن يزيد بن حازم . قال : كان سليمان بن
عبد الملك يخطبنا كل جمعة لا يدع أن يقول في خطبته : وإنما أهل الدنيا على رحيل ، لم تمض لهم نية
ولم تطلن بهم حتى يأتي أمر الله ووعده وهم على ذلك ، كذلك لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فحائمها ولا
تبقى من شر أهلها ثم يتلوا [أفرايت إن متعنا سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا
يتمنون] وروى الأصمعي أن نقش خاتم سليمان [كان] : آمنت بالله مخلصاً ، وقال أبو مسهر عن أبي
مسلم سلمة بن العيار الفزاري . قال : كان محمد بن سيرين يترحم على سليمان بن عبد الملك ، ويقول :
افتتح خلافته بخير وختمها بخير ، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقبتها ، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز .
تد أجمع علماء الناس والتواريخ أنه حج بالناس في سنة سبع وتسعين وهو خليفة ، قال الهيثم
ابن عدى قال الشعبي : حج سليمان بن عبد الملك فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز :
ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يسع رزقهم غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين
هؤلاء رعيتك اليوم ، وهم غدا خصاؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديداً ثم قال : بالله أستمع .
وقال ابن أبي الدنيا : ثنا إسحاق بن إسماعيل ثنا جرير عن عطاء بن السائب . قال : كان عمر بن
عبد العزيز في سفر مع سليمان بن عبد الملك فأصابهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة ، حتى
فزعوا لذلك ، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك ، فقال له سليمان : ما يضحكك يا عمر ؟ أما ترى ما نحن
فيه ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين هذه آثار رحمة فيها شدائد ما ترى ، فكيف بآثار سخطه وغضبه ؟
ومن كلامه الحسن رحمه الله قوله : الصمت منام العقل والنطق يقظته ، ولا يتم هذا إلا بهذا . ودخل
عليه رجل فكلمه فأعجبه منطقه ثم فقهه فلم يحمد عقله ، فقال : فضل منطق الرجل على عقله خدعة ،

وفضل عقله على منطقته هجئة ، وخير ذلك ما أشبهه بفضله بهضاً وقال : العاقل أحرص على إقامة لسانه
منه على طلب معاشه ، وقال أيضاً : إن من تكلم فأحسن قادر على أن يسكت فيحسن ، وليس كل
من سكت فأحسن قادراً على أن يتكلم فيحسن . ومن شعره يتسلى عن صديق له مات فقال :
وهوَنَ وجدى فى شراحيل أنى • متى شئت لأقبت امرءاً مات صاحبه
ومن شعره أيضاً :

ومن شيمى ألا أفارقى صاحبي • وإن ملئنى إلا سألتُ له رُشداً
وإن دام لي بالودِ دمتُ ولم أكن • كآخر لا يرعى ذماماً ولا عهداً

وسمع سليمان ليلة صوت غناء في معسكره فلم يزل يفحص حتى أتى بهم ، فقال سليمان : إن الفرس
ليسهل فتستودق له الرمكة ، وإن الجمل ليهدر فتضبع له الناقة ، وإن النيس لينب فتستخذي له
العنز وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة ، ثم أمر بهم فقال : اخصوم ، فيقال إن عمر بن عبد العزيز
قال : يا أمير المؤمنين إنها مثله ، ولكن انهم ، فنظام . وفي رواية أنه خصى أحدهم ، ثم سأل عن
أصل الغناء فقيل إنه بالمدينة ، فكتب إلى عامله بها وهو أبو بكر بن محمد بن حزم يأمره أن يخصى من
عنده من المغنين المحنثين .

وقال الشافعي : دخل أعرابي على سليمان فدعاه إلى أكل الفالودج وقال له : إن أكلها يزيد في
الدماغ فقال : لو كان هذا صحيحاً لكان ينبغي أن يكون رأس أمير المؤمنين مثل [رأس] البغل .
وذكروا أن سليمان كان نهما في الأكل ، وقد نقلوا عنه أشياء في ذلك غريبة ، فمن ذلك أنه اصطحب
في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية ، وأربع وثمانين كلوة بشحمها ، وثمانين جردقة ، ثم أكل مع
الناس على العادة في السباط العام ^(١) . ودخل ذات يوم بستانا له وكان قد أمر قيمه أن يجنى ثماره ،
فسخله ومعه أصحابه فأكل القوم حتى ملوا ، واستمر هو يأكل أكلأ ذريعا من تلك الفواكه ، ثم
استدنى بشاة مشوية فأكلها ثم أقبل على أكل الفاكهة ، ثم أتى بدجاجتين فأكلهما ، ثم عاد إلى
الفاكهة فأكل منها ، ثم أتى بقعب يقعد فيه الرجل مملوءاً سويقاً وصمناً وسكراً فأكله ثم عاد إلى دار
الخليفة . وأتى بالسباط فما فقدوا من أكله شيئاً ^(٢) . وقد روى أنه عرضت له حمى عقب هذا الأكل أدته
إلى الموت ، وقد قيل إن سبب مرضه كان من أكل أربعائة بيضة وسلتين تيناً فآله أعلم .

وذكر الفضل بن أبي المهلب أنه لبس في يوم الجمعة حلة صفراء ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء

(١) هذا وامثاله من مبالغات الاعجم التي كانوا يتقربون بها إلى بني العباس . وسيأتي في ص ١٨٣

أن سليمان رحمه الله أنه كان نحيفاً جميلاً ، وهي صفة لا تتفق مع ما نسبوه إليه (٢) الذي اخترع هذه

الأكاديب نسي أن المعدة لا تقبل زيادة على حجمها ، وقد قيل إذا كنت كنفوباً فكن ذكوراً .

واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وقد بسط ما حوله بالخضرة ، ثم نظر في المرآة فأعجب حسنه ، وشمر عن ذراعيه وقال : أنا الخليفة الشاب ، وقيل إنه كان ينظر في المرآة من فرقه إلى قدمه ويقول : أنا الملك الشاب ، وفي رواية أنه كان ينظر فيها ويقول : كان محمد نبياً ، وكان أبو بكر صديقاً وكان عمر فاروقاً ، وكان عثمان حياً ، وكان علي شجاعاً ، وكان معاوية حليماً ، وكان يزيد صبوراً ، وكان عبد الملك سائساً ، وكان الوليد جباراً ، وأنا الملك الشاب . قالوا : فما حال عليه بعد ذلك شهر ، وفي رواية جمعة ، حتى مات . قالوا : ولما حم شرع يتوضأ فدعا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للإنسان

أنت خلوت من العيوب ومما * يكره الناس غير أنك فان

قالوا : فصاح بها وقال : عزتني في نفسي ، ثم أمر خاله الوليد بن العباس القمقاع العنسي (١) أن

يصب عليه وقال :

قرب وضوءك يا وليد فأنما * دنياك هدى بلفه ومتاع

فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً * فالدهر فيه فرقة وجماع

ويروى أن الجارية لما جاءت به بالطست جعلت تضرب من الحمى ، فقال : أين فلانة ؟ فقالت :

محمومة ، قال : فلانة ؟ قالت : محمومة ، وكان بمرج دابق من أرض قنسرين ، فأمر خاله فوضأه ثم خرج يصلي بالناس فأخذته بحجة في الخطبة ، ثم نزل وقد أصابته الحمى فمات في الجمعة المقبلة ، ويقال : إنه أصابه ذات الجنب فمات به رحمه الله .

وكان قد أقسم أنه لا يبرح بمرج دابق حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية ، أو يموت قبل

ذلك ، فمات قبل ذلك رحمه الله وأكرم مثواه ، قالوا : وجعل يلهج في مرضه ويقول :

إن بني صغار * أفلح من كان له كبار

فيقول له عمر بن عبد العزيز : قد أفلح المؤمنون يا أمير المؤمنين ، ثم يقول

إن بني صبية صفيون * قد أفلح من كان له ربيعون

ويروى أن هذا آخر ما تكلم به ، والصحيح أن آخر ما تكلم به أن قال : أسألك منقلبا كريما ،

ثم قضى . وروى ابن جرير عن رجاء بن حيوة - وكان وزير صدق لبني أمية - قال : استشارني

سليمان بن عبد الملك وهو مريض أن يولى له ابنا صغيراً لم يبلغ الحلم ، فقلت : إن مما يحفظ الخليفة

في قبره أن يولى على المسلمين الرجل الصالح ، ثم شاورني في ولاية ابنه داود ، فقلت : إنه غائب

عنك بالقسطنطينية ولا تدري أحي هو أو ميت ، فقال : من ترى ؟ فقلت : رأيك يا أمير المؤمنين ،

(١) في المصرية العباسي .

قال : فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟ قلت : أعلمه والله خيراً فاضلاً مسلماً يحب الخير وأهله ، ولكن أتخوف عليه إخوتك أن لا يرضوا بذلك ، فقال : هو والله على ذلك وأشار رجال^(١) أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولي العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليرضى بذلك بنو مروان ، فكتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، إني قد وليته الخلافة من بعدى ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيقطع فيكم عدوكم . وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن حامد العباسي صاحب الشرطة ، فقال له : اجمع أهل بيتي فرهم فليبايعوا على ما في هذا الكتاب محتوماً ، فمن أبي منهم ضرب عنقه . فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا على أمير المؤمنين ، فقال لهم : هذا الكتاب عهدي إليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا وبايعوا من وليت فيه ، فبايعوا لذلك رجلاً رجلاً ، قال رجاء : فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال : أنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان كتب لي ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة ، قلت : والله لا أخبرك حرفاً واحداً . قال : ولقيه هشام بن عبد الملك فقال : يارجاء إن لي بك حرمة ومودة قديمة ، فأخبرني هذا الأمر إن كان إلى علمت ، وإن كان لغيري فما مثلي قصر به عن هذا . قلت : والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسرّه إلى أمير المؤمنين ، قال رجاء : ودخلت على سليمان فاذا هو يموت ، فجمعت إذا أخذته السكره من سكرات الموت أحرفه إلى القبلة ، فاذا أفاق يقول : لم يأن لذلك بعد يارجاء ، فلما كانت الثالثة قال : من الآن يارجاء إن كنت تريد شيئاً ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فحرفته إلى القبلة فمات رحمه الله . قال : ففطينته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب عليه وأرسلت إلى كعب بن حامد فجمع الناس في مسجد دابق ، قلت : بايعوا لمن في هذا الكتاب ، فقالوا : قد بايعنا ، قلت : بايعوا ثانية ، ففعلوا ، ثم قلت : قوموا إلى صاحبكم فقد مات ، وقرأت الكتاب عليهم ، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بني مروان ، فلما قرأت وإن هشام بن عبد الملك بعده ، تراجعوا بعض الشيء . ونادى هشام لا نبأ به أبداً ، قلت : أضرب عنقك والله ، قم فبايع ، ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز وهو في مؤخر المسجد ، فلما تحقق ذلك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم تحمله رجلاه حتى أخذوا بضبعيه فأصعدوه على المنبر ، فسكت حيناً ، فقال : رجاء بن خبوة : ألا تقوموا إلى أمير المؤمنين فتبايعوه ، فنهض القوم فبايعوه ، ثم أتى هشام فصعد المنبر ليبايع وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال عمر : نعم إنا لله وإنا إليه راجعون الذي صرت أنا وأنت

(١) في المصرية : وأشار سليمان بن رجاء . ولعله : وأشار رجاء .

تتنازع هذا الأمر. ثم قام فخطب الناس خطبة بليغة وبأيعوه، فكان مما قال في خطبته: أيها الناس، إني لست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال، ثم نزل، فأخذوا في جهاز سليمان، قال الأوزاعي: فلم يفرغوا منه حتى دخل وقت المغرب، فصلى عمر بالناس صلاة المغرب، ثم صلى على سليمان ودفن بعد المغرب، فلما انصرف عمر أتى بمراكب الخلافة [فأبى أن يركبها] وركب دابته وانصرف مع الناس حتى أتوا دمشق، فقالوا به نحو دار الخلافة فقال: لا أنزل إلا في منزلي^(١) حتى تفرغ دار أبي أيوب، فاستحسنوا ذلك منه، ثم استدعى بالكاتب فجعل يملئ عليه نسخة الكتاب الذي يبائع عليه الأمصار، قال رجاء: فما رأيت أفصح منه.

قال محمد بن إسحاق: وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر ليال خلت من صفر سنة تسع وتسعين، على رأس سنتين وتسعة أشهر وعشرين يوماً من متوفى الوليد، وكذا قال الجمهور في تاريخ وقاته، ومنهم من يقول: لعشر بقين من صفر، وقالوا: كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر، زاد بعضهم إلا خمسة أيام والله أعلم.. وقول الحاكم أبي أحمد: إنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشر بقين من رمضان سنة تسع وتسعين، حكاه ابن عساكر، وهو غريب جداً، وقد خالفه الجمهور في كل ما قاله، وعندما أنه جاوز الأربعين فقيل بثلاث وقيل بخمس والله أعلم. قالوا: وكان طويلاً جميلاً أبيض نحيفاً، حسن الوجه، مقرون الحاجبين، وكان فصيحاً بليغاً، يحسن العربية ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة، وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله، وقد كان رحمه الله آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق - ودابق قريبة من بلاد حلب - لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى المسماة بالقسطنطينية، أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت، فمات هنالك كما ذكرنا، فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله، فهو إن شاء الله ممن يجرى له ثوابه إلى يوم القيامة رحمه الله.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة شراحيل بن عبيدة بن قيس العقيلي ماضونه: إن مسلة ابن عبد الملك لما ضيق بمحاصرته على أهل القسطنطينية، وتبع المسالك واستحوذ على ما هنالك من الممالك، كتب إليون ملك الروم إلى ملك البرجان^(٢) يستنصره على مسلة، ويقول له: ليس لهم

(١) كان منزله في موضع مدرسة السيساطية الآن مما يلي باب مسجد بني أمية الشمالي. أما قصر الخلافة الذي يسمى (الدار الخضراء) فكان وراء الجدار القبلي من مسجد بني أمية. ويسمى موضعه الآن (المصبغة الخضراء) (٢) الأرجح أنهم أمة البلغار، وهم أقرب الأمم النصرانية إلى القسطنطينية.

همة إلا في الدعوة إلى دينهم ، الأقرب منهم فالأقرب ، وإنهم متى فرغوا مني خلصوا إليك ، فهما كنت صانعاً حينئذ فاصنعه الآن ، فعند ذلك شرع لعنه الله في المكر والخديعة ، فكتب إلى مسلمة يقول له : إن إليون كتب إلى يستنصرني عليك ، وأنا معك فمرفني بما شئت . فكتب إليه مسلمة : إني لا أريد منك رجلاً ولا عدداً ، ولكن أرسل إلينا بالميرة فقد قل ما عندنا من الأزواد . فكتب إليه : إني قد أرسلت إليك بسوق عظيمة إلى مكان كذا وكذا ، فأرسل من يتسلمها ويشتري منها . وأذن مسلمة لمن شاء من الجيش أن يذهب إلى هناك فيشتري له ما يحتاج إليه ، فذهب خلق كثير فوجدوا هنالك سوقاً هائلة ، فيها من أنواع البضائع والأمتعة والأطعمة ، فأقبلوا يشترون ، واشتغلوا بذلك ، ولا يشعرون بما أرصد لهم الخبيث من السكان بين تلك الجبال التي هنالك ، فخرجوا عليهم بعتة واحدة فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين وأسروا آخرين ، وما رجع إلى مسلمة إلا القليل منهم ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، فكتب مسلمة بذلك إلى أخيه سليمان يخبره بما وقع من ذلك ، فأرسل حينئذ كتيفاً صحبة شراحيل من عبدة هذا ، وأمرهم أن يعبروا خليج القسطنطينية أولاً فيقاتلوا ملك البرجان ، ثم يعودوا إلى مسلمة ، فذهبوا إلى بلاد البرجان وقطعوا إليهم تلك الخلجان ، فاقتلوا معهم قتلاً شديداً ، فمزمهم المسلمون بأذن الله ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً ، وخلصوا أسرى المسلمين ، ثم نجحوا إلى مسلمة فكانوا عنده حتى استقدم الجميع عمر بن عبد العزيز خوفاً عليهم من غائلة الروم وبلادهم ، ومن ضيق العيش ، وقد كان لهم قبل ذلك مدة طويلة أتابهم الله .

خليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قد تقدم أنه بويع له بالخلافة يوم الجمعة لعشر مضين ، وقد قيل بقين من صفر من هذه السنة - أعني سنة تسع وتسعين - يوم مات سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه إليه من غير علم من عمر كما قدمنا ، وقد ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة ، من أول حركة بست منه ، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة ، وهي الخيول الجبان الجياد المعدة لها ، والاجترأ بمركوبه الذي كان يركبه ، وسكنى منزله رغبة عن منزل الخلافة ، ويقال إنه خطب الناس فقال في خطبته : أيها الناس ، إن لي نفساً نواقة لا تعطى شيئاً إلا ناقت إلى ما هو أعلى منه ، وإني لما أعطيت الخلافة ناقت نفسي إلى ما هو أعلى منها وهي الجنة ، فأعينوني عليها برحمتك الله . وستأتي ترجمته عند وفاته إن شاء الله ، وكان مما بادر إليه عمر في هذه السنة أن بعث إلى مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين وهم بأرض الروم محاصرو القسطنطينية ، وقد اشتد عليهم الحال وضاق عليهم المجال ، لأنهم عسكر كثير ، فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع إلى الشام إلى منازلهم . وبعث إليهم بطعام كثير وخيول كثيرة عناق ، يقال خمسمائة فرس ، وفرح الناس بذلك ،

وفيهما أغلرت الترك على أذربيجان فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين ، فوجه إليهم عمرُ حاتم بن النعمان الباهلي فقتل أولئك الأتراك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وبعث منهم أسارى إلى عمر وهو بمخاضرة . وقد كان المؤذنون يذكرونه بعد أذانهم باقتراب الوقت وضيقه لئلا يؤخرها كما كان يؤخرها من قبله ، لكثرة الأشغال ، وكان ذلك عن أمره لهم بذلك والله أعلم . فروى ابن عساکر في ترجمة جرير بن عثمان الرحبي الحمصي قال : رأيت مؤذني عمر بن عبد العزيز يسلمون عليه في الصلاة : السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، حتى على الصلاة حتى على الفلاح ، الصلاة قد قاربت .

وفي هذه السنة عزل عمر يزيد بن المهلب عن إمارة العراق وبعث عدي بن أرطاة الفزاري على إمارة البصرة ، فاستنقى عليها الحسن البصري ، ثم استغفاه فأعفاه ، واستنقى مكانه إياس بن معاوية الذكي المشهور ، وبعث على إمارة الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وضم إليه أبا الزناد كاتباً بين يديه ، واستنقى عليها عامراً الشمي . قال الواقدي : فلم يزل قاضياً عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز ، وجعل على إمارة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى إمارة المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة ، وعزل عن إمارة مصر عبد الملك بن أبي وداعة وولى عليها أيوب بن شرحبيل ، وجعل الفتيا إلى جعفر بن ربيعة ويزيد بن أبي حبيب وعبيد الله بن أبي جعفر ، فهؤلاء الذين كانوا يفتون الناس ، واستعمل على إفريقية وبلاد المغرب إسماعيل بن عبد الله الحزومي ، وكان حسن السيرة ، وأسلم في ولايته على بلاد المغرب خلق كثير من البربر والله سبحانه وتعالى أعلم . ومن توفى فيها من الأعيان :

الحسن بن محمد بن الحنفية

تأبى جليل ، يقال إنه أول من تكلم في الأرجاء ، وقد تقدم أن أبا عبيد قال : توفى في سنة خمس وتسعين . وذكر خليفة أنه توفى في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وذكر شيخنا الذهبي في الأعلام أنه توفى هذا العام ، والله أعلم .

عبدالله بن محيرز بن جنادة بن عبيد

القرشي الجمعي المكي ، نزيل بيت المقدس ، تأبى جليل ، روى عن زوج أم أبي محنورة المؤذن ، وعبادة بن الصامت ، وأبي سعيد ، ومعاوية ، وغيرهم ، وعنه خالد بن معدان ، ومكحول ، وحسان بن عطية ، والزهرى ، وآخرون . وقد وثقه غير واحد ، وأثنى عليه جماعة من الأئمة ، حتى قال رجاء بن حيوة : إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدم ابن عمر ، فانا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله ابن محيرز . وقال بعض ولده : كان يختم القرآن كل جمعة ، وكان يفرش له الفراش فلا ينام عليه .

قالوا : وكان صمونا معتزلاً للفتن ، وكان لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يذكر شيئاً من خصاله المحمودة ، ورأى علي بن بعض الأمراء حلة من حرير فأنكر عليه ، فقال : إنما البسها من أجل هؤلاء . وأشار إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين - فقال له ابن محيريز : لا تمدل بخوفك من الله خوف أحد من المخلوقين . وقال الاوزاعي : من كان مقتدياً فليقتد بمثله ، فان الله لا يضل أمة فيها مثله . قال بعضهم : توفي أيام الوليد ، وقال خليفة بن خياط : توفي أيام عمر بن عبد العزيز ، وذكر الذهبي في الأعلام أنه توفي في هذا العام ، والله سبحانه أعلم .

دخل ابن محيريز مرة حانوت بزاز ليشتري منه ثوباً فرجع في السوم ، فقال له جاره : وبمك هذا ابن محيريز ضع له ، فأخذ ابن محيريز بيد غلامه وقال : اذهب بنا ، إنما جئت لئشتري بأموالنا لا بأدياننا ، فذهب وتركه .

محمود بن لبيد بن عقبة

أبو نعيم الأنصاري الأشعبي ولد في حياة النبي (س) ، وروى عنه أحاديث لكن حكمها حكم الارسال . وقال البخاري : له صحبة . وقال ابن عبد البر : هو أحسن من محمود بن الربيع . قيل إنه توفي سنة ست وقيل سبع وتسعين ، وذكر الذهبي في الأعلام أنه توفي في هذا العام والله أعلم باليقين

نافع بن جبير بن مطعم

ابن عدي بن نوفل القرشي النوفلي المدني ، روى عن أبيه وعثمان وعلي والعباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم ، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، وكان ثقة عابداً يمج ماشياً ومركوبه يقاد معه ، قال غير واحد : توفي سنة تسع وتسعين بالمدينة .

كريب بن مسلم

مولى ابن عباس ، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان عنده حمل كتب ، وكان من الثقات المشهورين بالخير والديانة .

محمد بن جبير بن مطعم

كان من علماء قریش وأشرفها ، وله روايات كثيرة ، وكان يعقل حجة مجها النبي (س) ، في وجهه وعمره أربع سنين : توفي وعمره ثلاث وتسعون سنة بالمدينة .

مسلم بن يسار

أبو عبد الله البصري ، الفقيه الزاهد ، له روايات كثيرة ، كان لا يفضل عليه أحد في زمانه ، وكان عابداً ورعاً زاهداً كثير الصلاة كثير الخشوع ، وقيل إنه وقع في داره حريق فأطلقه وهو في الصلاة لم يشعر به ، وله مناقب كثيرة رحمه الله . قلت : وانهمت مرة ناحية من المسجد ففرغ أهل السوق لهبتها ، وإنه لني المسجد في صلاته فما التفت . وقال ابنه : رأيت ساجداً وهو يقول : متى ألقاك

وأنت عنى راض ، ثم ينهب فى الدعاء ، ثم يقول : متى ألقاك وأنت عنى راض ، وكان إذا كان فى غير صلاة كأنه فى الصلاة ، وقد تقدمت ترجمته

حنس بن عمرو الصنعاني

كان والى إفريقية وبلاد المغرب ، وبإفريقية توفى غازياً وله روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة.

خارجة بن زيد

ابن الضحاك الأنصارى المدنى الفقيه ، كان يفتى بالمدينة ، وكان من فقهاها المعدودين ، كان عالماً بالفرائض وتقسيم الموارث. وهو أحد الفقهاء السبعة الذين مدار الفتوى على قولهم .

سنة مائة من الهجرة النبوية

قال الامام أحمد : حدثنا على بن حفص أنبأ ورقاء عن منصور عن المنهال بن عمرو عن نعيم بن دجاجة قال : دخل ابن مسعود على على فقال : أنت القائل قال رسول الله -س- : « لا يأتى على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة » ؟ إنما قال رسول الله -س- : « لا يأتى على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة من هوى ، وإن رخاء هذه الأمة بعد المائة » . تفرد به أحمد . وفى رواية لابنه عبد الله أن علياً قال له : يافروخ أنت القائل لا يأتى على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف من هوى اليوم ، وإنما رخاء هذه الأمة وفرحها بعد المائة ؟ إنما قال رسول الله -س- : « لا يأتى على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف . أخطأت أستاذك الحفرة ، وإنما أراد من هو اليوم حى » . تفرد به (١) وهكذا جاء فى الصحيحين عن ابن عمر . فوهل الناس فى مقالة رسول الله -س- ، تلك ، وإنما أراد أنخرام قرنه وفيها خرجت خارجة من الحرورية بالعراق فبعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد نائب الكوفة ، يأمره بأن يدعوهم إلى الحق ، ويتلطف بهم ، ولا يقاتلهم حتى يفسدوا فى الأرض ، فلما فعلوا ذلك بعث إليهم جيشاً فكسروهم الحرورية ، فبعث عمر إليه يلومه على جيشه ، وأرسل عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك من الجزيرة إلى حربهم ، فأظفروهم الله بهم ، وقد أرسل عمر إلى كبير الخوارج - وكان يقال له بسطام - يقول له : ما أخرجك على ؟ فان كنت خرجت غضاً لله فأنا أحق بملك منك ، ولست أولى بذلك منى . وهلم أنا ظرك ، فان رأيت حقاً اتبعته ، وإن أبديت حقاً نظرنا فيه . فبعث طائفة من أصحابه إليه فاختر منهم عمر رجلين فسألهما : ماذا تنقون ؟ فقالا : جعلك يزيد بن عبد الملك من بعدك ، فقال : إن لم أجعله أبداً وإنما جعله غيرى . قال : فكيف ترضى به أمينا للأمة من بعدك ؟ فقال : أنظرانى ثلاثة ، فيقال ان بنى أمية دست إليه ما قتلوه خشية أن يخرج الامر من أيديهم ويمنعهم الأموال والله أعلم .

(١) كذا بالأصول . ولعله سقط منه لفظ « عبد الله بن أحمد »

وفيهما غزا عمر بن الوليد بن هشام الميظلي ، وعمر بن قيس الكندي من أهل حمص ، الصائفة
وفيهما ولي عمر بن عبد العزيز عمر بن هبيرة الجزيرة فسار إليها . وفيها حل يزيد بن المهلب إلى عمر
ابن عبد العزيز من العراق ، فأرسله عدى بن أرطاة نائب البصرة مع موسى بن وجيه ، وكان عمر يبنض
يزيد بن المهلب وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ، فلما دخل على عمر طالبه بما
قبله من الأموال التي كان قد كتب إلى سليمان أنها معاصلة عنده ، فقال : إنما كتبت ذلك لأرهب
الأعداء بذلك ، ولم يكن بيني وبين سليمان شيء ، وقد عرفت مكائتي عنده . فقال له عمر : لا أسمع
منك هذا ، ولست أطلقك حتى تؤدي أموال المسلمين ، وأمر بسجنه . وكان عمر قد بعث على إمرة
خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي عوضه ، وقدم ولد يزيد بن المهلب ، مخلد بن يزيد ، فقال :
يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قدمن على هذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكون نحن أشقى الناس بك
فعلام تحبس هذا الشيخ وأنا أقوم له أتصالحني عنه ؟ فقال عمر : لا أصلحك عنه إلا أن تقوم بجميع
ما يطلب منه ، ولا آخذ منه إلا جميع ما عنده من مال المسلمين . فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت
لك بينة عليه بما تقول وإلا فاقبل بيته أو فصالحني عنه ، فقال : لا آخذ منه إلا جميع ما عنده .
فخرج مخلد بن يزيد من عند عمر ، فلم يلبث أن مات مخلد . وكان عمر يقول : هو خير من أبيه . ثم
إن عمر أمر بأن يلبس يزيد بن المهلب جبة صوف ويركب على بعير إلى جزيرة دهلك التي كان ينفي
إليها الفساق ، فشفعوا فيه فرده إلى السجن ، فلم يزل به حتى مرض عمر مرضه الذي مات فيه ، فهرب
من السجن وهو مريض ، وعلم أنه يموت في مرضه ذلك ، وبذلك كتب إليه كما سياتي ، وأظنه
كان علما أن عمر قد سقى سما .

وفيهما في رمضان منها عزل عمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الله الحكمي عن إمرة خراسان ،
بعد سنة وخمسة أشهر ، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية من أسلم من الكفار ويقول : أنتم إنما
تسلمون فراراً منها . فامتنعوا من الإسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية ، فكتب إليه عمر : إن
الله إنما بعث محمداً ، داعياً ، ولم يبعثه جانياً . وعزله وولى بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيري
على الحرب ، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج . وفيها كتب عمر إلى عماله يأمرهم بالخير وينهاهم
عن الشر ، ويبين لهم الحق ويوضحه لهم ويمظهم فيما بينه وبينهم ، ويخوفهم بأس الله واتقاه ، وكان
فيما كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم القشيري :

أما بعد فكن عبداً لله ناصحاً لله في عباده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك
من الناس ، وحق عليك أعظم ، ولا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ،

والتوفير عليهم . وأدعى الامانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق ، فان الله لا يخفى عابيه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهبا ، فانه لا ملجأ من الله إلا إليه . وكتب مثل ذلك مواعظ كثيرة إلى العمال . وقال البخارى فى صحيحه : وكتب عمر إلى عدى بن عدى : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً ، من استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فان أعش فأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على محبتكم بحريص .

وفىها كان بدو دعوة بني العباس

وذلك أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس - وكان مقبلاً بأرض اشراة - بعث من جهته رجلاً يقال له ميسرة ، إلى العراق ، وأرسل طائفة أخرى وهم محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج ، وهو أبو محمد الصادق ، وحيبان المطار - خال إبراهيم بن سلمة - إلى خراسان ، وعليها يومئذ الجراح ابن عبد الله الحكى قبل أن يعزل فى رمضان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب منهم إلى ميسرة الذى بالعراق ، فبعث بها إلى محمد بن على ففرح بها واستبشروا سره أن ذلك أول مبادئ أمر قد كتب الله إمامه ، وأول رأى قد أحكم الله إبراهيم ، أن دولة بنى أمية قد بان عليها مخايل الوهن والضعف ، ولا سيما بعد موت عمر بن عبد العزيز ، كما سيأتى بيانه . وقد اختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على اثني عشر نقيباً ، وهم سليمان بن كثير الخزاعى ، ولاهز بن قريظ التميمى ، وقحطبة بن شبيب الطائى ، وموسى بن كعب التميمى ، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بنى عمرو بن شيبان بن ذهل ، والقاسم بن مجاشع التميمى ، وعمران بن إسماعيل أبو النجم - مولى لآل أبي مُعيط - ومالك بن الهيثم الخزاعى ، وطاحمة بن زريق الخزاعى ، وعمرو ابن أعين أبو حمزة - مولى خزاعة - ، وشبل بن طهمان أبو على الهروى - مولى لبني حنيفة - وعيسى ابن أعين مولى خزاعة أيضاً . واختار سبعين رجلاً أيضاً . وكتب إليهم محمد بن على كتاباً يكون مثلاً وسيرة يقتدون بها ويسرون بها .

وقد حج بالناس فى هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، نائب المدينة . والنواب على الأمصار المذكورون فى التى قبلها ، سوى من ذكرنا من عزل وتولى غيره والله أعلم . ولم يهج عمر ابن عبد العزيز فى أيام خلافته لشفاة بالأموار ، وإن كان يبرء البريد إلى المدينة فيقول له : سلم على رسول الله (ص) ، عنى ، وسيأتى باسناده إن شاء الله .

ومن توفى فيها من الأعيان

(سالم بن أبى الجعد الأشجعى) مولا م الكوفى . أخو زياد وعبد الله وعبيد الله وعمران

ومسلم، وهو تابعي جليل، روى عن ثوبان^(١) وجابر وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، والنعمان ابن بشير وغيرهم. وعنه قتادة والأعمش وآخرون، وكان ثقة نبيلاً جليلاً.

أبو أمامة سهل بن حنيف

الأَنْصَارِيُّ الأَوْسِيُّ المَدَنِيُّ، ولد في حياة النبي (س)، وولاه وحدث عن أبيه وعمر وعثمان وزيد بن ثابت ومعاوية وابن عباس. وعنه الزهري وأبو جازم وجماعة، قال الزهري: كان من عليّة الأنصار وعلماهم، ومن أبناء الذين شهدوا بدرًا. وقال يوسف بن الماجشون عن عتبة بن مسلم، قال: آخر خريجة خرجها عثمان بن عفان إلى الجمعة حصبه الناس وحلوا بينه وبين الصلاة، فصل بالناس يومئذ أبو أمامة سهل بن حنيف. قالوا: توفي سنة مائة والله أعلم.

أبو الزاهرية حدير بن كريب المحصي

تابعي جليل، سمع أبا أمامة صدى بن مجلان، وعبد الله بن بسر، ويقال إنه أدرك أبا الدرداء، الصحيح أن روايته عنه وعن حذيفة مرسله، وقد حدث عنه جماعة من أهل بلده، وقد وثقه ابن معين وغيره. ومن أغرب ما روى عنه قول قتيبة: ثنا شهاب بن خراش عن حميد عن أبي الزاهرية قال: أغفيت في صخرة بيت المقدس فجاءت السدنة فأغلقتوا على الباب، فما اتقيت إلا بتسبيح الملائكة فوثبت مدعوراً فاذا الملائكة صفوف، فدخلت معهم في الصف. قال أبو عبيدة وغيره: مات سنة مائة.

أبو الطفيل عامر بن واثلة

ابن عبد الله بن عمرو الليثي الكِنَانِيُّ، صحابي، وهو آخر من رأى النبي (س)، وافته بالاجماع قال: رأيت النبي (س)، يستلم الركن بمحجنه، وذكر صفة النبي (س)، وروى عن أبي بكر وهرم وعلي ومعاذ وابن مسعود، وحدث عنه الزهري وقاتدة وعمرو بن دينار وأبو الزبير وجماعة من التابعين، وكان من أنصار علي بن أبي طالب، شهد معه حروبه كلها، لكن نقم بعضهم عليه كونه كان مع المختار بن أبي عبيد، ويقال إنه كان حامل رايته، وقد روى أنه دخل على معاوية فقال: ما أبقى لك الدهر من ثكالك علياً؟ فقال: ثكل المعجوز المقلدة والشيخ الرقوب، فقال: كيف حبك له؟ قال حب أم موسى لموسى، وإلى الله أشكو التقصير. قيل إنه أدرك من حياة النبي (س)، ثمان سنين، ومات سنة مائة وقيل سنة سبع ومائة والله أعلم. قال مسند بن الحجاج زوهو آخر من مات من الصحابة مطلقاً ومات سنة مائة.

أبو عثمان النهدي

واسمه عبد الرحمن بن مُلِّ البصري، أدرك الجاهلية وحج في زمن الجاهلية مرتين، وأسلم في حياة

(١) في خلاصة تذهيب الكمال قال أحمد: لم يلق ثوبان. وقال البخاري: لم يسمع منه.

النبي (س) ، ولم يره ، وأدى في زمانه الزكاة ثلاث سنين إلى عمال النبي (س) ، ومثل هذا يسبب أئمة الحديث مخضرمًا ، وهاجر إلى المدينة في زمان عمر بن الخطاب ، فسمع منه ومن علي وابن مسعود وخلق من الصحابة وصحب سلمان الفارسي ثنتي عشرة سنة حتى دفنه ، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، منهم أيوب ، وحيد الطويل ، وسليمان بن طرخان التيمي ، وقال عاصم الأحول : سمعته يقول : أدركت في الجاهلية ينفث صنًا من رصاص يحمل على جمل أجرد ، فإذا بلغ واديا برك فيه فيقولون : قد رضى ربكم لكم هذا الوادي فينزلون فيه ، قال : وسمعته وقد قيل له أدركت النبي (س) ؟ فقال : نعم ! أسلمت على عهده ، وأديت إليه الزكاة ثلاث مرات ، ولم ألقه ، وشهدت البرموك والقادسية وجولاء ونهاوند . كان أبو عثمان صوامًا قوامًا ، يسرد الصوم ويقوم الليل لا يتركه ، وكان يصلي حتى يفشى عليه ، وحج سنين مرة ما بين حجة وعمره ، قال سليمان التيمي : إني لأحسبه لا يصيب ذنبًا ، لأنه ليله قائمًا ونهاره صائمًا ، وقال بعضهم : سمعت أبا عثمان النهدي يقول : أتت على ثلاثون ومائة سنة وما مني شيء إلا وقد أنكرته خلا أملى فاني أجده كما هو . وقال ثابت البناني عن أبي عثمان . قال : إني لأعلم حين يذكرني ربي عز وجل ، قال فيقول : من أين تعلم ذلك ؟ فيقول قال الله تعالى [فاذكروني أذكري] فإذا ذكرت الله ذكرني . قال : وكنا إذا دعونا الله قال : والله لقد استجاب الله لنا ، قال الله تعالى [وقال ربكم ادعوني أستجب لكم] قالوا : وعاش مائة وثلاثين سنة ، قاله هشيم وغيره . قال المدائني وغيره : توفي سنة مائة ، وقال الفلاس : توفي سنة خمس وتسعين ، والصحيح سنة مائة والله أعلم .

وفيهما توفي عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، وكان يفضل على والده في العبادة والاقطاع عن الناس ، وله كلمات حسان مع أبيه ووعظه إياه .

ثم دخلت سنة إحدى ومائة

فيها كان هرب يزيد بن المهلب من السجن حين بلغه مرض عمر بن عبد العزيز ، فواعد غلمانه يلقونه بالخليل في بعض الأماكن ، وقيل بابل له ، ثم نزل من محبسه ومعه جماعة وامراته عاتكة بنت الفرات العامرية ، فلما جاء غلمانه ركب رواحله وسار ، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز : إني والله ما خرجت من سجنك إلا حين بلغني مرضك ، ولو رجوت حياتك ما خرجت ، ولكني خشيت من يزيد بن عبد الملك فانه يتوعدني بالقتل ، وكان يزيد يقول : لئن وليت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة ، وذلك أنه لما ولي المراق عاقب أصهاره آل عقيل ، وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان يزيد بن عبد الملك مزوجًا ببنت محمد بن يوسف ، وله ابنه الوليد بن يزيد الفاسق المقتول كما سيأتي . ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أن يزيد بن المهلب هرب من السجن قال : اللهم إن كان يريد بئنه الأمة

سواءً فاكفهم شره واردد كيدته في نحره ، ثم لم يزل المرض يتزايد بعمر بن عبد العزيز حتى مات وهو بخصاصة ، من دير سمعان بين حماه وحلب ، في يوم الجمعة ، وقيل في يوم الاربعاء لخمس بقين من رجب من هذه السنة - أعني سنة إحدى ومائة - عن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر فآله أعلم .

وكانت خلافته فيما ذكر غير واحد سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وكان حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً وورعاً دينياً ، لا تأخذه في الله لومة لأثم رحمه الله تعالى .

وهذه ترجمة عمر بن عبد العزيز الأمام المشهور رحمه الله

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو حفص القرشي الأموي المعروف أمير المؤمنين ، وأمه أم عاصم ليلي بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ويقال له أشج بن مروان ، وكان يقال : الأشج والناقص أعدلا بني مروان . فهذا هو الأشج وسبب آتى ذكر الناقص . كان عمر تابعياً جليلاً ، روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد ، ويوسف بن عبد الله بن سلام ، ويوسف صحابي صغير . وروى عن خلق من التابعين . وعنه جماعة من التابعين وغيرهم . قال الأمام أحمد بن حنبل : لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز . بويع له بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه له بذلك كما تقدم ، ويقال : كان مولده في سنة إحدى وستين ، وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي بمصر ، قاله غير واحد . وقال محمد بن سعد : ولد سنة ثلاث وستين ، وقيل سنة تسع وخمسين ، فآله أعلم . وكان له جماعة من الأخوة ولكن الذين هم من أبويه أبو بكر وعاصم ومحمد ، وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين عن يحيى بن بكير عن الليث . قال : بلغني أن عمران بن عبد الرحمن ابن شرحبيل بن حسنة كان يحدث أن رجلاً رأى في المنام ليلة ولد عمر بن عبد العزيز - أو ليلة ولي الخلافة شك أبو بكر - أن منادياً بين السماء والأرض ينادي : أياكم اللين والدين وإظهار العمل الصالح في المصلين ، فقلت : ومن هو ؟ فنزل فكتب في الأرض ع م ر . وقال آدم بن إياس : ثنا أبو علي ثروان مولى عمر بن عبد العزيز . قال : دخل عمر بن عبد العزيز إلى اصطبل أبيه فضربه فرس فشجه ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : إن كنت أشج بن أمية إنك إذا لسعيد . رواه الحافظ ابن عساكر من طريق هارون بن معروف عن ضمرة ، وقال نعيم بن حماد : ثنا ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير ، فبلغ أمه فأرسلت إليه فقالت : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت الموت ، فبكت أمه . وكان قد جمع القرآن وهو صغير ، وقال الضحاك بن عثمان الخزامي . كان أبوه قد جعله عند صالح بن كيسان يؤدبه ، فلما حج أبوه اجتاز به في

المدينة فسأله عنه فقال : ماخبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام وروى يعقوب بن سفيان أن عمر بن عبد العزيز تأخر عن الصلاة مع الجماعة يوماً فقال صالح بن كيسان : ما شغلك ؟ فقال : كانت مرّجلتى تسكن شعري ، فقال له : قد مته ذلك على الصلاة ؟ وكتب إلى أبيه وهو على مصر يعلمه بذلك ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق رأسه . وكان عمر بن عبد العزيز يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه ، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص علياً ، فلما أتاه عمر عرض عبيد الله عنه وقام يصلي ، فجلس عمر ينتظره ، فلما سلم أقبل على عمر مغضباً وقال له : متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضوا عنهم ؟ قال ففهمها عمر وقال : معذرة إلى الله ثم إليك ، والله لا أعود ، قال : فما سمع بعد ذلك يذكر علياً إلا بخير . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا أبي ثنا المفضل بن عبد الله عن داود بن أبي هند . قال : دخل علينا عمر بن عبد العزيز من هذا الباب - وأشار إلى باب من أبواب مسجد النبي ص . - فقال رجل من القوم : بعث الفاسق لنا بابنه هذا يتعلم الفرائض والسنن ، ويزعم أنه لن يموت حتى يكون خليفة ، ويسير سيرة عمر بن الخطاب . قال داود : والله ما مات حتى رأينا ذلك فيه .

وقال الزبير بن بكار : حدثني العتبي قال : إن أول ما استقبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب ، إن أباه ولي مصر وهو حديث السن يشك في بلوغه ، فأراد أبوه إخراجه معه إلى مصر من الشام ، فقال : يا أبة أو غير ذلك لعله يكون أنفع لي ولك ؟ قال : وما هو ؟ قال : ترحلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهاها وأتأدب بأدابهم . فعند ذلك أرسله أبوه إلى المدينة ، وأرسل معه الخدم ، فقعده مع مشايخ قریش ، وتجنب شبابهم ، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره ، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة ، وهي التي يقول الشاعر فيها :

بنتُ الخليفةِ والخليفةُ جدُها * أختُ الخلائفِ والخليفةُ زوجها

قال : ولا تعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها .

قال العتبي : ولم يكن حاسد عمر بن عبد العزيز ينقم عليه شيئاً سوى متابته في النعمة ، والاختيال في المشية ، وقد قال الأحنف بن قيس : الكامل من عدت هفواته ولا تعد إلا من قلة . وقد ورث عمر من أبيه من الأموال والمتاع والدواب هو وإخوته ما لم يرثه غيره فيما نعلم ، كما تقدم ذلك ، ودخل يوماً على عمه عبد الملك وهو يتجانف في مشيته فقال : يا عمر مالك تمشي غير مشيتك ؟ قال : إن في جرحاً ، فقال : وأين هو من جسدك ؟ قال : بين الرانقة والصفن - يعني بين طرف الالبة وجلدة الخصى - فقال عبيد الملك لروح بن زنباع : بالله لو رجل من قومك سئل عن هذا ما أجاب بمثل

هذا الجواب . قالوا : ولما مات عمه عبد الملك حزن عليه ولبس المسوح نحت ثيابه سبعين يوماً ، ولما
ولى الوليد عامه بما كان أبوه يعامله به ، وولاد المدينة ومكة والطائف من سنة ست وثمانين إلى سنة
ثلاث وتسعين ، وأقام للناس الحج سنة تسع وثمانين ، وسنة تسعين ، وحج الوليد بالناس سنة إحدى
وتسعين ، ثم حج بالناس عمر سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين .

و بنى في مدة ولايته هذه مسجد النبي (ص) ، ووسعه عن أمر الوليد له بذلك ، فدخل فيه قبر
النبي (ص) ، وقد كان في هذه المدة من أحسن الناس معاشرة ، وأعدلهم سيرة ، كان إذا وقع له أمر
مشكل جمع فقهاء المدينة عليه ، وقد عين عشرة منهم ، وكان لا يقطع أمراً بدونهم أو من حضر
منهم ، وهم عروة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ،
وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد بن حزم ، وسالم بن عبد الله ،
وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب ،
وقد كان سعيد بن المسيب لا يأتي أحداً من الخلفاء ، وكان يأتي إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة ،
وقال إبراهيم بن عتبة : قدمت المدينة وبها ابن المسيب وغيره ، وقد نديهم عمر يوماً إلى رأي

وقال ابن وهب : حدثني الليث حدثني قادم البربري أنه ذا كر ربيعة بن أبي عبد الرحمن يوماً
شيئاً من قضايا عمر بن عبد العزيز إذ كان بالمدينة ، فقال له الربيع : كأنك تقول : أخطأ ، والذي
نفسى بيده ما أخطأ قط . وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك . قال : ماصليت وراء إمام أشبه
بصلاة رسول الله (ص) من هذا الفتى - يعني عمر بن عبد العزيز - حين كان على المدينة . قالوا :
وكان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود ، وفي رواية صحيحة أنه كان يسبح في الركوع
والسجود عشراً عشراً ، وقال ابن وهب : حدثني الليث عن أبي النضر المدني ، قال : رأيت سليمان
ابن يسار خارجاً من عند عمر بن عبد العزيز فقلت له : من عند عمر خرجت ؟ قال : نعم ! قلت :
تعلمونه ؟ قال : نعم ، فقلت : هو والله أعلمكم . وقال مجاهد : أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه .
وقال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة ، وفي رواية قال ميمون : كان
عمر بن عبد العزيز معلم العلماء . وقال الليث : حدثني رجل كان قد صحب ابن عمرو ابن عباس ،
مكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة ، قال : ما التمنا علم شيء إلا وجدنا عمر بن
عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه ، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة . وقال
عبد الله بن طاووس : رأيت أبي نواقف هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا ،
فلما افتراقا قلت : يا أبا من هذا الرجل ؟ قال هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو من صالحى هذا البيت -

يعنى بنى أمية - وقال عبد الله بن كثير قلت لعمر بن عبد العزيز ما كان بدء إفايتك؟ قال: أردت ضرب غلام لى فقال لى: اذ كر ليلة صبيحتها يوم القيامة^(١)

وقال الامام مالك: لما عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة - يعنى فى سنة ثلاث وتسعين - وخرج منها التفت إليها وبكى وقال لمولاه: يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة - يعنى أن المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكبير خبث الحديد - وينصع طيبها. قلت: خرج من المدينة فنزل بمكان قريب منها يقال له السويداء حيناً^(٢)، ثم قدم دمشق على بنى عمه. قال محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أبى حكيم. قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: خرجت من المدينة وما من رجل أعلم منى، فلما قدمت الشام نسيت. وقال الامام أحمد: حدثنا عفان ثنا حماد بن زيد عن معمر بن الزهرى قال: سهرت مع عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فحدثته، فقال: كل ما حدثت فقد سمعته ولكن حفظت ونسيت. وقال ابن وهب عن الأيث عن عقيل عن الزهرى قال قال عمر بن عبد العزيز: بعث إلى الوليد ذات ساعة من الظهر، فدخلت عليه فاذا هو عابس، فأشار إلى أن اجلس، فجلست فقال: ماتقول فيمن يسب الخلفاء أيقتل؟ فسكت، ثم عاد فسكت، ثم عاد فقلت: أقتل يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن سبب، فقلت: ينكأ به، ففضب وانصرف إلى أهله، وقال لى ابن اليبان السيف: اذهب، قال: فخرجت من عنده وما تهب ربح إلا وأنا أظن أنه رسول يردنى إليه. وقال عثمان بن زبر: أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين معه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان، وفيه تلك الخيول والأجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: ماتقول يا عمر فى هذا؟ فقال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً وأنت المسئول عن ذلك كله، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة فى فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها، ونهب نعبه، فقال له سليمان: ما هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري، فقال: ماظنك أنه يقول؟ قلت: كأنه يقول: من أين جاءت وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبتك؟ فقال عمر: اعجب ممن عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها.

وتقدم أنه لما وقف سليمان وعمر بعرفة ورأى سليمان كثرة الناس فقال له عمر: هؤلاء رعيتك

(١) بالأصول « يوماً صبيحتها يعنى يوم القيامة » وصحاحه من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صفحة ١٤٩ (٢) السويداء أرض كان يملكها عمر بن عبد العزيز، واستنبت فيها من عطاها عين ماء، وله فيها قصر مبنى. ولما تنازل لبيت المال عن جميع ما ورثه عن آباءه أبقى (السويداء) و (خير) لأنه اطمان إلى أنهما حلال خالص ليس فيه أية شبهة. وكان هو خليفة يأكل من غلتها وينفق ما يزيد عن الضرورة

اليوم وأنت مسئول عنهم غدا . وفي رواية وهم خصمواك يوم القيامة ، فبكي سليمان وقال : بالله نستعين . وتقدم أنهم لما أصابهم ذلك المطر والرعد فزع سليمان وصحك عمر فقال له : أتضحك ؟ فقال : نعم هذه آثار رحمة ونحن في هذه الحال ، فكيف بآثار غضبه وعقابه ونحن في تلك الحال ؟ وذكر الامام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة فقال له سليمان في جملة الكلام : كذبت ، فقال : تقول كذبت ؟ والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله ، ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر ، فلم يمكنه سليمان ، ثم بعث إليه فصالحه وقال له : ما عرض لي أمر يهمني إلا خطرت على بالي . وقد ذكرنا أنه لما حضرته الوفاة أوصى بالأمر من بعده إلى عمر بن عبد العزيز فانتظم الأمر على ذلك وبالله الحمد .

فصل

وقد كان منتظراً فيما يؤثر من الأخبار

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون ثنا عبد الله ابن دينار قال قال ابن عمر : يا عجبا ! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلى رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر ، قال : وكانوا يرونه بلال بن عبد الله بن عمر ، قال : وكان بوجه أثر ، فلم يكن هو ، وإذا هو عمر بن عبد العزيز ، وأمه ابنة عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وقال البيهقي : أنبأ الحاكم أنبأ أبو حامد بن علي المقرئ ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أحمد بن إبراهيم ثنا عفان ثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق عن جويرية بن أسماء عن نافع . قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب قال : إن من ولدى رجلا بوجهه شجان يلى فيما لأرض عدلا . قال نافع من قبله : ولا أحسبه إلا عمر ابن عبد العزيز . ورواه مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن نافع . وقال : كان ابن عمر يقول : لست شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا ؟ قال وهيب بن الورد : بينما أنا نائم رأيت كأن رجلا دخل من باب بني شيبه وهو يقول : يا أيها الناس ! ولى عليكم كتاب الله . فقلت : من ؟ فأشار إلى ظفره فاذا مكتوب عليه عمر ، قال فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز . وقال بقية عن عيسى بن أبي رزين حدثني الخزاعي عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله ص . في روضة خضراء فقال له : « إنك سنلى أمر أمتي فزع عن الدم فزع عن الدم » ، فان اسمك في الناس عمر بن عبد العزيز ، واسمك عند الله جابر . وقال أبو بكر بن المقرئ : ثنا أبو عمرو بن الحسين بن محمد بن مودود الحراني ثنا أيوب بن محمد الوزان ثنا ضمرة بن ربيعة ثنا السري بن يحيى عن رباح بن عبيدة . قال : خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده ، فقلت في نفسي : إن

(١) وزعه بزعه فأتزع ، أى كفت عنه .

هذا الشيخ جاف ، فلما صلى ودخل لحقته فقلت : أصلح الله الأمير ، من هذا الشيخ الذي أتى بك
يدك ؟ فقال : يا رياح رأيتك ؟ قلت : نعم ! قال : ما أحسبك يا رياح إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخي
الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة وأنى سأعدل فيها .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو عمير ثنا ضمرة عن علي بن خولة عن أبي عنبس . قال :
كنت جالساً مع خالد بن يزيد بن معاوية فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد ، فقال : هل
علينا من عين ؟ فقال أبو عنبس : فقلت عليكما من الله عين بصيرة ، وأذن سماعة ، قال : فترقت
عيننا الفقى . فأرسل يده من يد خالد وولى ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخي
أمير المؤمنين ، ولئن طالت بك حياة لترينه إمام هدى . قلت : قد كان عند خالد بن يزيد بن
معاوية شيء جيد من أخبار الأوائل وأقوالهم ، وكان ينظر في النجوم والطب . وقد ذكرنا في ترجمة
سليمان بن عبد الملك أنه لما حضرته الوفاة أراد أن يمهّد إلى بعض أولاده ، فصرفه وزيره الصالح
رجاء بن حيوة عن ذلك ، وما زال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده وصوب ذلك رجاء
فكتب سليمان المهدي في صحيفة وختمها ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بني مروان سوى سليمان
ورجاء ، ثم أمر صاحب الشرطة باحضار الأمراء ورؤوس الناس من بني مروان وغيرهم ، فبايعوا
سليمان على ما في الصحيفة المحتومة ، ثم انصرفوا ، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة فبايعوا
ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة ، ثم فتحها فقرأها عليهم ، فاذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز ،
فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه فانعدت له البيعة .

وقد اختلف العلماء في مثل هذا الصنيع في الرجل يوصي الوصية في كتاب ويشهد على ما فيه
من غير أن يقرأ على الشهود . ثم يشهدون على ما فيه فينفذ ، فسوغ ذلك جماعات من أهل العلم ، قال
القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجربري : أجاز ذلك وأمضاه وأنفذ الحكم به جمهور أهل الحجاز ،
وروى ذلك عن سالم بن عبد الله . وهو مذهب مالك ومحمد بن مسلمة المخزومي ومكحول ، ونعيم بن
أوس وزرعة بن إبراهيم ، والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، ومن وافقهم من فقهاء الشام . وحكى
نحو ذلك خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه وقضاة جنده ، وهو قول الليث بن سعد فيمن وافقه
من فقهاء أهل مصر والمغرب ، وهو قول فقهاء أهل البصرة وقضاةهم . وروى عن قتادة وعن سوار
ابن عبد الله وعبيد الله بن الحسن ومعاذ بن معاذ العنبري فيمن سلك سبيلهم ، وأخذ بهذا عدد
كثير من أصحاب الحديث ، منهم أبو عبيد وإسحاق بن راهويه . قلت : وقد اعتنى به البخاري في
صحيفة . قال المعافى : رأيت ذلك جماعة من فقهاء العراق ، منهم إبراهيم وحماة والحسن ، وهو مذهب
الشافعي وأبي ثور ، قال : وهو قول شيخنا أبي جعفر ، وكان بعض أصحاب الشافعي بالعراق يذهب

الى القول الأول ، قال الجريري : و إلى القول الأول نذهب . و تقدم أن عمر بن عبد العزيز لما رجع من جنازة سليمان أتى براكب الخلافة ليركبها فامتنع من ذلك وأنشأ يقول : -

فلولا التقى ثم النهى خشية الردى * لعاصيت في حب الصبا كل زاجر

قضى ما قضى بما مضى ثم لا ترى * له صبوة أخرى الليالي الغواجر

ثم قال : ماشاء الله لا قوة إلا بالله . قدموا إلى بفتى ، ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفة فيمن يزيد ، وكانت من الخيول الجياد المثمنة ، فباعها وجعل أثمانها في بيت المال . قالوا : ولما رجع من الجنازة وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه ، انقلب وهو مغتم مهموم ، فقال له مولاه : مالك هكذا مغتما مهموما وليس هذا بوقت هذا ؟ فقال : ويحك ومالي لا أختم وليس أحد من أهل المشرق والمغرب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه إليه ، كتب إلى في ذلك أو لم يكتب ، طلبه مني أو لم يطلب . قالوا : ثم إنه خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها ، وبين أن تلحق بأهلها ، فبكت وبكى جواربها لبكائها ، فسمعت ضجة في داره ، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رحمها الله . وقال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين ، فأنشأ يقول :

قد جاء شغل شغل * وعدلت عن طرق السلامة

ذهب الفراغ فلا فرا * غ لنا إلى يوم القيامة

وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن سلام عن سلام بن سليم قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر وكان أول خطبة خطبها حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقتنا . يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويمينا على الخير بجهد ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه ، ولا يفتابن عندنا أحدا ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه . فانقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسمنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله . وقال سفيان ابن عيينة : لما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله فقال لهم : قد ترون ما ابتليت به وما قد ينزل بي ، فما عندكم ؟ فقال محمد بن كعب : اجعل الشيخ أبا ، والشاب أخا ، والصغير ولدا ، وبر أباك وصل أخاك ، وتعطف على ولدك . وقال رجاء : ارض للناس ما ترضى لنفسك ، وما كرهت أن يؤتى إليك فلا تأته إليهم ، واعلم أنك أول خليفة تموت . وقال سالم : اجعل الأمر واحدا وصم فيه عن شهوات الدنيا ، واجعل آخر فطرك فيه الموت . فكان قد . فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال غيره : خطب عمر بن عبد العزيز يوما الناس فقال - وقد خنفته العبرة - أيها الناس أصلحوا آخرتكم يصلح الله دنياكم ، وأصلحوا أسياركم يصلح لكم علائبتكم ، والله إن عبدا ليس

بينه وبين آدم أب إلا قدمات ، إنه لمعرق له في الموت . وقال في بعض خطبه : كم من عامر موثق عما قليل ينجرب ، وكم من مقيم مفتبط عما قليل يظمن . فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس قريير العين فيها يانع ، إذ دعاه الله بقدره ، وورماه بسهم حنقه ، فسلبه آثارة دنياه ، وصير إلى قوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، تسر قليلا وتحزن طويلا . وقال إسماعيل بن عياش عن عمرو بن مهاجر قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد عليه السلام ، وإني لست بقاض ولكني منفذ ، وإني لست بمتبع ولكني متبع ، إن الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم إلا أن الامام الظالم هو العاصي ، ألا لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل . وفي رواية أنه قال فيها : وإني لست بخير من أحد منكم ، ولكني أثقلكم حملا ، ألا لاطاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا هل أسمت .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أحمد بن يحيى الحلواني ثنا محمد بن عبيد ثنا إسحاق بن سليمان عن شعيب بن صفوان حدثني ابن لسميد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فانكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فحباب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانياً بيباق ، ونافلاً بما لا نفاذ له ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم للباقيين ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً وراثماً إلى الله لا يرجع ، قد قضى نجه حتى تغيبوه في صدع من الأرض ، في بطن صدع غير موسد ولا ممد ، قد فارق الأحياب ، وواجه التراب والحساب ، فهو مرتين بعمله ، غنى عما ترك ، فقير لما قدم ، فاتقوا الله قبل القضاء ، راقبوه قبل نزول الموت بكم ، أما إني أقول هذا ، ثم وضع طرف رداثه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وفي رواية : وإيم الله إني لأقول قولي هذا ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ، ولكنها منن من الله عادلة ، أمر فيها بطاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، وأستغفر الله ، ووضع كفه على وجهه فبكى حتى بل لحيته ، فما عاد لمجلسه حتى مات رحمه الله .

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله (ص) في النوم وهو يقول : « ابن ياهر ، فدنوت حتى خشيت أن أصيبه ، فقال : إذا وليت فأعمل نحواً من عمل هذين ، فاذا كهلان قد اكتنفاه ، فقلت : ومن هذان ؟ قال : هذا أبو بكر وهذا عمر . » وروينا أنه قال : لسالم بن عبد الله بن عمر : اكتب لي سيرة عمر حتى أعمل بها ، فقال له سالم : إنك لا تستطيع ذلك ،

قال : ولم ؟ قال : إنك إن عملت بها كنت أفضل من عمر ، لأنه كان يجحد على الخير أعوانا ، وأنت لا تجحد من يمينك على الخير . وقد روى أنه كان نقش خاتمه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وفي رواية آمنت بالله ، وفي رواية الوفاء عزيز . وقد جمع يوما رهوس الناس نخطبهم فقال : إن فديك كانت بيد رسول الله (س) ، يضعها حيث أراه الله ، ثم واها أبو بكر وعمر كذلك ، قال الأصمعي : وما أدري ما قال في عثمان ، قال : ثم إن مروان أقطعها فحصل لي منها نصيب ، ووهبني الوليد وسليمان نصيبهما ، ولم يكن من مالي شيء أردته أغلى منها ، وقد رددتها في بيت المال على ما كانت عليه في زمان رسول الله (س) . قال : فيئس الناس عند ذلك من المظالم ، ثم أمر بأموال جماعة من بني أمية فردها إلى بيت المال وسماها أموال المظالم ، فاستشفعوا إليه بالناس ، وتوسلوا إليه بعمته فاطمة بنت مروان فلم ينجع فيه شيء ، وقال لهم : لتدعني وإلا ذهبت إلى مكة فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به ، وقال : والله لو أقت فيكم خمسين عاما ما أقت فيكم إلا ما أريد من العدل ، وإني لأريد الأمر فما أنفذه إلا مع طمع من الدنيا حتى تسكن قلوبهم .

وقال الامام أحمد عن عبد الرزاق عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال : إن كان في هذه الأمة مهدي فهو عمر بن عبد العزيز ، ونحو هذا قال قتادة وسعيد بن المسيب وغير واحد . وقال طاووس : هو مهدي وليس به ، إنه لم يستكمل العدل كله ، إذا كان المهدي ثبت على المسي من إساءته ، وزيد المحسن في إحسانه ، سمح بالمال شديد على العمال رحيم بالمساكين . وقال مالك عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه قال : الخلفاء أبو بكر والعمران ، فقيل له : أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر الآخر ؟ قال : يوشك إن عشت أن تعرفه ، يريد عمر بن عبد العزيز ، وفي رواية أخرى عنه أنه قال : هو أشج بن مروان . وقال عباد السباك وكان يجالس سفیان الثوري - : سمعت الثوري يقول : الخلفاء خمسة ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز . وهكذا روى عن أبي بكر بن عياش والشافعي وغير واحد . وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين . وذكره غير واحد في الأئمة الاثني عشر ، الذين جاء فيهم الحديث الصحيح : « لا يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى يكون فيهم اثني عشر خليفة كلهم من قريش » .

وقد اجتهد رحمه الله في مدة ولايته - مع قصرها - حتى رد المظالم ، وصرف إلى كل ذي حق حقه ، وكان مناديه في كل يوم ينادي : ابن الغارمون ؟ ابن الناكحون ؟ ابن المساكين ؟ ابن اليتامى ؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء . وقد اختلف العلماء أيهم أفضل هو أو معاوية بن أبي سفيان ؟ ففضل بعضهم عمر لسيرته ومعدلته وزهده وعبادته ، وفضل آخرون معاوية لسابقته وصحبته ، حتى قال بعضهم : ليوم شهده معاوية من رسول الله (س) . خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه وأهل بيته . وذكر ابن

عساكر في تاريخه أن عمر بن عبد العزيز كان يعجبه جارية من جواري زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، فكان سألها إياها إمامياً أو هبة ، فكانت تأتي عليه ذلك ، فلما ولي الخلافة ألبستها وطيبتها وأهدتها إليه ووهبتها منه ، فلما أختها به أعرض عنها ، فتمرضت له فصدف عنها ، فقالت له : يا سيدي فأين ما كان يظهر لي من محبتك إياي ؟ فقال : والله إن محبتك لباقية كما هي ، ولكن لا حاجة لي في النساء ، فقد جاءني أمر شغلني عنك وعن غيرك ، ثم سألتها عن أصلها ومن أين جلبوها ، فقالت : يا أمير المؤمنين إن أبي أصاب جنابة ببلاد المغرب فصادره موسى بن نصير فأخذت في الجنابة ، وبعث بي إلى الوليد فوهبني الوليد إلى أخته فاطمة زوجتك ، فأهدتني إليك . فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك ، ثم أمر بردها مكرمة إلى بلادها وأهلها .

وقالت زوجته فاطمة : دخلت يوماً عليه وهو جالس في مصلاه واضعاً يده على يده ودموعه تسيل على خديه ، فقالت : مالك ؟ فقال : ويحك يا فاطمة ، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعمري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور . والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذو العيال الكثير ، والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي عز وجل سيأتي عنهم يوم القيامة ، وأن خصي دونهم محمد (س) ، فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته ، فرحمت نفسي فبكت . وقال ميمون بن مهران ولاني عمر بن عبد العزيز عمالة ثم قال لي : إذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الأرض . وكتب إلى بعض عماله : إذا دعيتك قدرتك على الناس إلى مظلمة ، فاذكر قدرة الله عليك ونفاد ما تأتي إليهم ، وبقاء ما يأتون إليك . وقال عبد الرحمن بن مهدي عن جرير بن حازم عن عيسى بن عاصم قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي : إن للأسلام سننا وفرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فان أعش أئبئها لكم لتعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحر يصب . وذكر البخاري في صحيحه تعليقا مجزوماً به . وذكر الصولي أن عمر كتب إلى بعض عماله : عليك بتقوى الله فانها هي التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثاب إلا عليها ، وإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل . وقال : من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه ، ومن أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير . وقال : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطايا ، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه . وكله رجل يوماً حتى أغضبه فهم به عمر ثم أمسك نفسه ، ثم قال للرجل : أردت أن يستغزني الشيطان بعزة السلطان فأقال منك ماتنالم مني غداً ؟ قم عافاك الله لا حاجة لنا في مقاولتك . وكان يقول : إن أحب الأمور إلى الله القصد في الجد ، والمغفر في المقرة ، والرفق في الولاية ، ومارفق عبد

بعبد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة . وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشبهه صبي منهم ، فاحتلموا الصبي الذي شج ابنه وجاءوا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج اليهم ، فاذا مريئة تقول : إنه ابني وإنه يتيم ، فقال لها عمر : هوني عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء في الديوان ؟ قالت : لا ، قال : فاكتبوه في الندية . فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هذا به وقد شج ابنك ؟ فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية . فقال : ويحك ، إنه يتيم وقد أفزعتموه . وقال مالك بن دينار : يقولون مالك زاهد ، أي زهد عندي ؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة . قالوا : ولم يكن له سوى قميص واحد فكان إذا غسلوه جلس في المنزل حتى يبس ، وقد وقف مرة على راهب فقال له : ويحك عظمي ، فقال له : عليك بقول الشاعر : -

نجرّد من الدنيا فانك إنما * خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

قال : وكان يعجبه ويكرهه وعمل به حق العمل . قالوا : ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهما أو فلوسا يشتري له بها عنباً ، فلم يجد عندها شيئاً ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنباً ؟ فقال : هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غداً في نار جهنم . قالوا : وكان سراج بيته على ثلاث قصبات في رأسهن طين ، قالوا : وبعث يوماً غلامه ليشوي له لحمه فجاءه بها سريعاً مشوية ، فقال : أين شويتها ؟ قال : في المطبخ ، فقال : في مطبخ المسلمين ؟ قال : نعم . فقال : كلها فاني لم أزرقتها ، هي رزقك . وسخنوا له الماء في للمطبخ العام فرد بدل ذلك بدمر حطباً . وقالت زوجته : ما جامع ولا احتلم وهو خليفة . قالوا : وبلغ عمر بن عبد العزيز عن أبي سلام الأسود أنه يحدث عن ثوبان بمحدث الحوض فبعث إليه فأحضره على البريد وقال له ، كالتوجع له : يا أبا سلام ما أردنا المشقة عليك ، ولكن أردت أن تشافهني بالحديث مشافهة ، فقال : سمعت ثوبان يقول قال رسول الله (س) : «حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وأول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤساء ، الدنس ثياباً ، الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم السدد » . فقال عمر : لكنني نكحت المتنعمات ، فاطمة بنت عبد الملك ، فلا جرم لا أغسل رأسي حتى يشعث ، ولا ألقى ثوبي حتى يتسخ . قالوا : وكان له سراج يكتب عليه حوائجه ، وسراج لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين ، لا يكتب على ضوءه لنفسه حرفاً . وكان يقرأ في المصحف كل يوم أول النهار ، ولا يطيل القراءة ، وكان له ثلاثمائة شرطى ، وثلاثمائة حرمي ، وأهدى له رجل من أهل بيته تفاحاً فاشتبهه ثم رده مع الرسول ، وقال له : قل له قد بلغت محلها ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (س) ، كان يقبل الهدية ، وهذا رجل من أهل بيتك ، فقال : إن الهدية

كانت لرسول الله ص. هدية ، فأما نحن فهي لنا رشوة . قالوا : وكان يوسع على عماله في النفقة ، يعطى الرجل منهم في الشهر مائة دينار ، ومائتي دينار ، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين ، فقالوا له : لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك ؟ فقال : لا أمنعهم حقاً لهم ، ولا أعطيهم حق غيرهم . وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً من قبل ذلك ، وقال يوماً لرجل من ولد علي : إني لأستحي من الله أن تقف بيابي ولا يؤذن لك ، وقال لآخر منهم : إني لأستحي من الله وأرغب بك أن أدنسك بالدنيا لما أكرمكم الله به . وقال أيضاً : كنا نحن و بنو عمنا بنو هاشم مرة لنا ومرة علينا ، نلجأ إليهم ويلجئون إلينا ، حتى طلعت شمس الرسالة فأكسبت كل نافع ، وأخرست كل منافق ، وأسكتت كل ناطق .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أبو بكر ابن أخي خطاب ثنا خالد بن خديش ثنا حماد بن زيد عن موسى بن أيمن الراعي - وكان يرعى الغنم لمحمد بن عيينة - قال : كانت الأسد والغنم والوحش ترعى في خلافة عمر بن عبد العزيز في موضع واحد ، فعرض ذات يوم لشاة منها ذئب فقلت : إنا لله ، ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك . قال فحسبناه فوجدناه قد هلك في تلك الليلة . ورواه غيره عن حماد فقال : كان يرعى الشاة بكرمان فذكر نحوه ، وله شاهد من وجه آخر ، ومن دعائه : اللهم إن رجلاً أطاعوك فيما أمرتهم وانتهوا عما نهيتهم ، اللهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك ، فوقفتي . ومنه : اللهم إن عمر ليس بأهل أن تناله رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر . وقال له رجل : أبقاك الله ما كان البقاء خيراً لك ، فقال : هذا شيء قد فرغ منه ، ولكن قل : أحياك الله حياة طيبة ، وتوفاك مع الأبرار . وقال له رجل : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أصبحت بطيئاً بطيئاً ، متلوثاً بالخطايا ، أتمنى على الله عز وجل . ودخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين ، وأنت زين الخلافة ، وإنما مثلك يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

وإذا الدر زان حسن وجوه • كان للدر حسن وجهك زينا

قال : فأعرض عنه عمر . وقال رجاء بن حيوة : سمعت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فمشى السراج فقلت : يا أمير المؤمنين : ألا أنبه هذا الغلام يصلحه ؟ فقال : لا ادعه ينام ، لا أحب أن أجمع عليه عملين . فقلت : أفلا أقوم أصلحه ؟ فقال : لا ، ليس من المروءة استخدام الضيف ، ثم قام بنفسه فأصلحه وصب فيه زيتاً ثم جاء وقال : قت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر ابن عبد العزيز ، وقال : أكثروا ذكر النعم فإن ذكرها شكرها . وقال : إنه ليمعنى من كثرة ذكرها مخافة البهاة ، وبلغه أن رجلاً من أصحابه توفي ، فجاء إلى أهله ليعزيهم فيه ، فصرخوا في وجهه

لَا تَلَا

بالبكاء عليه ، فقال : مه ، إن صاحبكم لم يكن برزقكم ، وإن الذي برزقكم حتى لا يموت ، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئاً من حفركم ، وإنما سد حفرة نفسه ، ألا وإن لكل امرئ منكم حفرة لا بد والله أن يسدها ، إن الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب ، وعلى أهلها بالفناء ، وما امتلأت دار خبيرة إلا امتلأت عبرة ، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا ، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم با كيا فليبك على نفسه ، فإن الذي صار إليه صاحبكم كل الناس يصيرون إليه غدا .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر إلى القبور فقال لي : يا أبا أيوب ! هذه قبور آبائي بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أما ترام صرعى قد خلت بهم المثلاث ، واستحكّم فيهم البلاء ؟ ثم بكى حتى غشى عليه ، ثم أفاق فقال : انطلقوا بنا فوالله لا أعلم أحداً أنعم من صار إلى هذه القبوز ، وقد أمن من عذاب الله ، ينتظر ثواب الله . وقال غيره : خرج عمر بن عبد العزيز في جنازة فلما دفنت قال لأصحابه : قفوا حتى آتى قبور الأجابة : فأتاهم فجعل يبكي ويدعو ، إذ هتف به التراب فقال : يا عمر ألا تسألني ما فعلت في الأجابة ؟ قال قلت : وما فعلت بهم ؟ قال : مرقت الأ كفان ، وأكلت اللحوم ، وشدخت المقلتين ، وأكلت الحدقتين ، ونزعت الكفين من الساعدين ، والساعدين من المضدين ، والمضدين من المنكبين ، والمنكبين من الصلب ، والقدمين من الساتين ، والساقين من الفخذين ، والفخذين من الورك ، والورك من الصلب . فلما أراد أن يذهب قال له : يا عمر أدلك على أ كفان لا تبلى ؟ قال : وما هي ؟ قال : تقوى الله والعمل الصالح . وقال مرة لرجل من جلسائه : لقد أرققت الليلة مفكراً ، قال : وفيم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث في قبره ، وما صار إليه ، لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته ، ولرأيت بيتاً نجول فيه الهوام ، وتخرق فيه الديدان ، ويجرى فيه الصديد ، مع تغير الريح ، وبلى الأ كفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، وبقاء الثوب ، قال : ثم شقق شقة خر منشياً عليه . وقال مقاتل بن حيان : صليت وراء عمر بن عبد العزيز ققرأ [وقوم إنهم مسؤولون] فجعل يكررها وما يستطيع أن يتجاوزها . وقالت امرأته فاطمة : مارأيت أحداً أكثر صلاة وصياماً منه ، ولا أحداً أشد فرقا من ربه منه ، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم يفتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه ، قالت : ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض المصفور في الماء ، ويجلس يبكي ، فأطرح عليه اللعاف رحمة له ، وأنا أقول : ياليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله مارأينا سروراً منذ دخلنا فيها .

وقال علي بن زيد : مارأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن وعمر بن عبد العزيز .
وقال بعضهم : رأيتهم يبكي حتى بكى دما ، قالوا : وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ [إن ربكم الذي خلق
السموات والأرض في ستة أيام] الآية ، ويقرأ [أفامن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون]
ونحو هذه الآيات ، وكان يجتمع كل ليلة إليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة ،
ثم يبكون حتى كأن بينهم جنازة ، وقال أبو بكر الصوفى : كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بقول الشاعر :

فا تزودَ مما كانَ يجمعه * سوى حنوطِ غداةِ البينِ في خرقِ
وغيرِ نفحةِ أعوادٍ تشبُّ له * وقلَّ ذلكَ من زادٍ لمنطلقِ
بأما بلدٍ كانتَ منيتهُ * إن لايسرُ طائعا في قصدها يُسقِ

ونظر عمر بن عبد العزيز وهو في جنازة إلى قوم قد تلمسوا من الغبار والشمس ، انحازوا إلى
الظل فبكى وأنشد :

من كانَ حينَ تصيبُ الشمسُ جبهتهُ * أو الغبارُ يخافُ الشينَ والشعنا
ويألفُ الظلَّ كي تبقى بشاشتهُ * فسوفَ يسكنُ يوما راعما جدنا
في قعرِ مظلةٍ غبراءَ موحشةٍ * يطيلُ في قعرها تحتَ الثرى اللبنا
تجهزى بجهازٍ تبلغينَ بهِ * يانفسُ قبلَ الردى لم تخلقِ عبنا

هذه الأبيات ذكرها الأجرى في أدب النفوس بزيادة فيها فقال : أخبرنا أبو بكر أنبأنا
أبو حفص عمر بن سعد القراطيسى حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي الدنيا حدثني محمد بن صالح
القرشى أخبرني عمر بن الخطاب الأزدى حدثني ابن لعبد الصمد بن عبد الأعلى بن أبي عمرة قال :
أراد عمر بن عبد العزيز أن يبعثه رسولا إلى اليون طاغية الروم يدعوهم إلى الاسلام ، فقال له
عبد الأعلى : يا أمير المؤمنين ! إنني لى في بعض بنى يئرج معى - وكان عبد الأعلى له عشرة من
الذكور - فقال له : انظر من يخرج معك من ولدك . فقال : عبد الله ، فقال له عمر : إني رأيت ابناك
عبد الله يمشى مشية كرهتها منه ومقته عليها ، وبلغنى أنه يقول الشعر . فقال عبد الأعلى : أما مشيته
تلك ففريزة فيه ، وأما الشعر فأنما هو نواحة ينوح بها على نفسه ، فقال له : مر عبد الله يأتينى وخذ
معك غيره ، فراح عبد الأعلى بابنه عبد الله إليه ، فاستنشد فأنشده ذلك الشعر المتقدم :

تجهزى بجهازٍ تبلغينَ بهِ * يانفسُ قبلَ الردى لم تخلقِ عبنا
ولا تكدى لمن يبقى وتفترى * إن الردى وارثُ الباقي وما ورتنا
واخشى حوادثِ صرفِ الدهرِ في مهلٍ * واستيقظى لانكوى كالذى بحنا
عن مديتهِ كانَ فيها قطعُ مدتهِ * فوافتِ الحارثَ موفورا كما خرنا

لا تأمني فجع دهرٍ مترفٍ ختلٍ • قد استوى عندهم من طابٍ أو خبنا
 ياربٍ ذي أملٍ فيه على وجلٍ • أضحى به آمناً امسى وقد حدا
 من كان حين تصيب الشمس جبهته • أو الغبار يخاف الشين والشعنا
 ويألف الظل كي تبقى بشاشته • فكيف يسكن يوماً راعماً جدنا
 قراءاً موحشةً غيراءً مظلمةً • يطيل تحت الثرى من قعرها اللبنا
 وقد ذكرها ابن أبي الدنيا فعمر أنشدها عنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وكان عمر يتمثل بها كثيراً ويكي.

وقال الفضل بن عباس الجلبى : كان عمر بن عبد العزيز لا يجف فوه من هذا البيت :
 ولا خير في عيشٍ امرئٍ لم يكن له • من الله في دارٍ القرار نصيبُ
 وزاد غيره معه بيتاً حسناً وهو قوله :

فان تُعجب الدنيا أناساً فانها • متاع قليل والزوال قريب
 ومن شعره الذي أنشده ابن الجوزى :

أنا ميتٌ وعز من لا يموتُ • قد تيقنتُ أنني ساموتُ
 ليس ملكٌ يزيله الموتُ ملكاً • إنما الملكُ ملكٌ من لا يموتُ
 وقال عبد الله بن المبارك : كان عمر بن عبد العزيز يقول :

تسرُّ بما يفنى وتفرحُ بالمنى • كما اغترَّ بالذاتِ في النومِ حلمُ
 نهاركُ يامرورٍ سهوٍ وغفلةٍ • وليلكُ نومٌ والردى لكُ لازمُ
 وسعيكُ فيما سوف تكررُه غبهُ • كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ
 وقال محمد بن كثير : قال عمر بن عبد العزيز يلوم نفسه :

أيقظان أنتَ اليوم أم أنتَ نائمٌ • وكيف يطيقُ النومَ حيرانُ هائمُ
 فلو كنتَ يقظاناً الغداة لحرقتُ • محاجرَ عينيكُ الدموعُ السواجمُ
 أصبحتَ في النومِ الطويلِ وقد دنتُ • إليك أمورٌ مغلطاتُ عظامُ
 وتكدحُ فيما سوف تكررُه غباً • كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ
 فلا أنتَ في النومِ يوماً بسالمٍ • ولا أنتَ في الايقاظِ يقظانُ حازمُ

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : انتبه عمر ذات ليلة وهو يقول :
 لقد رأيت الليلة رؤيا عجيبة ، فقلت : أخبرني بها ، فقال : حتى نصبح ، فلما صلى بالمسلمين دخل

فأنته فقال : رأيت كأنى دفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر كأنه الفضة نخرج منه خارج فنأى ابن محمد بن عبد الله ، ابن رسول الله ؟ إذ أقبل رسول الله (س) ، حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنأى : ابن أبو بكر الصديق ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنأى ابن عمر بن الخطاب ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنأى ابن عثمان بن عفان ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنأى ابن علي بن أبي طالب ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنأى ابن عمر بن عبد العزيز ؟ ثم فتحت فدخلت فجلست إلى جانب أبي عمر بن الخطاب ، وهو عن يسار رسول الله (س) ، وأبو بكر عن يمينه ، وبينه وبين رسول الله (س) رجل ، قلت : لابي : من هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم ، ثم سمعت هاتفاً يهتف بيني وبينه نور لا أراه ، وهو يقول : يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه ، وأثبت على ما أنت عليه ، ثم كأنه أذن لي في الخروج فخرجت ، فالتفت فاذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر وهو يقول : الحمد لله الذى نصرنى ربى ، وإذا على فى إثره وهو يقول : الحمد لله الذى غفر لى ربى .

فَضْرِيكَ

وقد ذكرنا فى دلائل النبوة الحديث الذى رواه أبو داود فى سننه أن رسول الله (س) قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجد لها أمر دينها » . فقال جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل فيما ذكره ابن الجوزى وغيره : إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى ، وإن كان هو أولى من دخل فى ذلك وأحق ، لأمامته وعموم ولايته ، وقيامه واجتهاده فى تنفيذ الحق ، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب ، وكان كثيراً ما تشبه به . وقد جمع الشيخ أبو الفرج ابن الجوزى سيرة لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وقد أفردنا سيرة عمر بن الخطاب فى مجلد على حدة ، ومسند فى مجلد ضخمة ، وأما سيرة عمر بن عبد العزيز فقد ذكرنا منها طرفاً صالحاً هنا ، يستدل به على ما لم نذكره .

وقد كان عمر رحمه الله يعطى من انقطع إلى المسجد الجامع من بلده وغيرها ، للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن ، فى كل عام من بيت المال مائة دينار ، وكان يكتب إلى عماله أن يأخذوا بالسنة ، ويقول : إن لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله ، وكتب إلى سائر البلاد أن لا يركب ذمى من اليهود والنصارى وغيرهم على سرج ، ولا يلبس قباء ولا طيلساناً ولا السراويل ، ولا يمشين أحد منهم إلا بزنا من جلد ، وهو مقرون الناصية ، ومن وجد منهم فى منزله سلاح أخذ منه . وكتب أيضاً أن لا يستعمل على الأعمال إلا أهل القرآن ، فإن لم يكن عندهم خير فقيرهم أولى أن لا يكون عنده خير . وكان يكتب إلى عماله : اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلاة ، فإن من أضعافها فهو لما سواها

من شرائع الاسلام أشد تضييماً . وقد كان يكتب الموعدة إلى العامل من عماله فينخلع منها ، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة وطوى البلاد من شدة ما تقع موعظته منه ، وذلك أن الموعدة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ . وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة ، وقد كتب إليه الحسن البصرى بمواعظ حسان ولو تفصينا ذلك لطال هذا الفصل . ولكن قد ذكرنا ما فيه إشارة إلى ذلك . وكتب إلى بعض عماله : أذكر ليلة تمخض بالساعة فصباحها القيامة ، فيالها من ليلة وياله من صباح ، وكان يوماً على الكافر بن عسيرا . وكتب إلى آخر : أذكر طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك ، وانقطع الرجاء منك ، قالوا : نخلع هذا العامل نفسه من العمالة وقدم على عمر فقال له : مالك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين ، والله لا أعود إلى ولاية أبداً .

فصل في كمال

وقد رد جميع المظالم كما قدمنا ، حتى انه رد فص خاتم كان في يده ، قال : أعطانيه الوليد من غير حقه ، وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم في الملابس والمأكل والمتاع ، حتى انه ترك التمتع بزوجه الحسناء ، فاطمة بن عبد الملك ، يقال كانت من أحسن النساء ، ويقال إنه رد جهازها إلى بيت المال ، والله أعلم . وقد كان دخله في كل سنة قبل أن يلي الخلافة أربعين ألف دينار ، فترك ذلك كله حتى لم يبق له دخل سوى أربعين ديناراً في كل سنة ، وكان حاصله في خلافته ثلاثمائة درهم ، وكان له من الأولاد جماعة ، وكان ابنه عبد الملك أجملهم ، فمات في حياته في زمن خلافته ، حتى يقال إنه كان خيراً من أبيه ، فلما مات لم يظهر عليه حزن ، وقال : أمر رضى الله فلا أكرهه ، وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جداً فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه ، فلما ولي الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ولا يغسله حتى يتسخ جداً ، ويقول : ما أحسنه لولا لينه . وكان يلبس الفرزة الغليظة ، وكان سراجة على ثلاث قصبات في رأسه طين ، ولم يكن شيئاً في أيام خلافته ، وكان يخدم نفسه بنفسه ، وقال : ما تركت شيئاً من الدنيا إلا عوضني الله ما هو خير منه ، وكان يأكل الغليظ ولا يبالي بشيء من النعيم ، ولا يتبعه نفسه ولا يوده . حتى قال أبو سليمان الداراني : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني ، لأن عمر ملك الدنيا بمخادفها وزهد فيها ، ولا ندرى حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟ ليس من جرب كمن لم يجرب . وتقدم قول مالك بن دينار : إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز . وقال عبد الله بن دينار : لم يكن عمر يرتزق من بيت المال شيئاً ، وذكروا أنه أمر جارية تروحه حتى ينام فروحته ، فنامت هي ، فأخذ المروحة من يدها وجعل

بروحها ويقول : أصابك من الحر ما أصابني . وقال له رجل : جزاك الله عن الاسلام خيراً . فقال : بل جزى الله الاسلام عنى خيراً . ويقال إنه كان يلبس نحت ثيابه مسحا غليظا من شعر ، ويضع في رقبته غلا إذا قام يصلي من الليل ، ثم إذا أصبح وضعه في مكان وختم عليه فلا يشعر به أحد ، وكانوا يظنونهم مالا أو جوهرا من حرصه عليه ، فلما مات فتحوا ذلك المكان فاذا فيه غل ومسح .

وكان يبكي حتى يبكي الدم من الدموع ، ويقال إنه بكى فوق سطح حتى سال دمه من الميزاب ، ولكن يأكل من العدس ليرق قلبه وتفزر دمه ، وكان إذا ذكر الموت اضطربت أو صاله ، وقرأ رجل عنده [وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين] الآية ، فبكى بكاء شديدا ثم قام فدخل منزله وتفرق الناس عنه ، وكان يكثر أن يقول : اللهم سلم سلم ، وكان يقول : اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة محمد .، وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد .، وقال : أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم . وقال : لو أن المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يحكم أمر نفسه لتواكل الناس الخير ، ولذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة . وقال : الدنيا عدوة أولياء الله ، وولية أعداء الله ، أما الأولياء فغتهم وأحزنتهم ، وأما الأعداء ففرتهم وشتتتهم وأبعدتهم عن الله . وقال : قد أفلح من عصم من المرء والغضب والطمع . وقال لرجل : من سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم تقله . وقال : أزهدي الناس في الدنيا على بن أبي طالب . وقال : لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها سؤال ربه ، أعطى أو منع . وقال : قيدوا العلم بالكتاب ، وقال لرجل : علم ولدك الفقه الأكبر : القناعة وكف الأذى . وتكلم رجل عنده فأحسن فقال : هذا هو السحر الحلال . وقصته مع أبي حازم مطولة حين رآه خليفة وقد شحب وجهه من التقشف ، وتغير حاله ، فقال له : ألم يكن ثوبك نقيا ؟ ووجهك وضيا ؟ وطعامك شهييا ؟ ومركبك وطيا ؟ فقال له : ألم تخبرني عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « إن من ورائكم عقبة كئودا لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول » ؟ ثم بكى حتى غشى عليه ، ثم أفاق فذكر أنه لقي في شبته تلك أن القيامة قد قامت ، وقد استدعى بكل من الخلفاء الأربعة ، فأمر بهم إلى الجنة ، ثم ذكر من بينه وبينهم فلم يدر ما صنع بهم ، ثم دعى هو فأمر به إلى الجنة ، فلما انفصل لقيه سائل فسأله عما كان من أمره فأخبره ، ثم قال للسائل : فمن أنت ؟ قال : أنا الحجاج بن يوسف ، قتلتني ربي كل قتلة قتلة ، ثم ها أنا أنتظر ما ينتظره الموحدون . وفضائله وآثره كثيرة جدا ، وفيها ذكرنا كفاية والله الحمد والمنة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة لنا إلا به .

ذكر سبب وفاته رحمه الله

كان سببها السل ، وقيل سببها أن مولى له ممح في طعام أو شراب ، وأعطى على ذلك ألف

دينار، فحصل له بسبب ذلك مرض، فأخبر أنه مسموم، فقال: لقد علمت يوم سميت السم، ثم استدعى مولاة الذي سقاه، فقال له: ويحك! ما حملك على ما صنعت؟ فقال: ألف دينار أعطيتها. فقال: هاتها، فأحضرها فوضعها في بيت المال، ثم قال له: اذهب حيث لا يراك أحد فهلك. ثم قيل لعمر: تدارك نفسك، فقال: والله لو أن شفائي أن أمس شحمة أذني أو أوتى بطيب فأشمه ما فعلت، فقيل له: هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشئ فانهم فقراء؟ فقال: [إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين] والله لا أعطيتهم حق أحد وهم بين رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه. وفي رواية فلا أبالي في أي وادهلك. وفي رواية أفادع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت؟ ما كنت لأفعل. ثم استدعى بأولاده فودعهم وعزاهم بهذا، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم. قال: فلقد رأينا بعض أولاد عمر ابن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرس في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك - مع كثرة ما ترك لهم من الأموال - يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمر وكل ولده إلى الله عز وجل، وسليمان وغيره إنما يكون أولادهم إلى ما يدعون لهم، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم. وقال يعقوب بن سفيان: ثنا أبو النعمان ثنا حماد بن زيد عن أيوب قال قيل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة، فان قضى الله موتا دفنت في القبر الرابع مع رسول الله -، وأبي بكر وعمر، فقال: والله لأن يعذبني الله بكل عذاب، إلا النار فانه لا صبر لي عليها، أحب إلى من أن يعلم الله من قلبي أني لذلك الموضع أهل. قالوا: وكان مرضه بدير سمعان من قرى حمص وكانت مدة مرضه عشرين يوما، ولما احتضر قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: إلهي أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ثلاثا، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحد النظر، فقالوا: إنك لتنظر نظرا شديدا يا أمير المؤمنين، فقال: إني لأرى حضرة مأم بانس ولا جان، ثم قبض من ساعته. وفي رواية أنه قال لأهله: اخرجوا عني، فخرجوا وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة، فسمعه يقول: مرحبا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان ثم قرأ [تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين] ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه فوجدوه قد غمض وسوى إلى القبلة وقبض.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: ثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن الدراوردي عن عبد العزيز بن أبي سلمة أن عمر بن عبد العزيز لما وضع عند قبره هبت ريح شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب

قراؤها فاذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . فأدخلوها بين أكفانه ودفنوها معه .

وروى نحو هذا من وجه آخر ابن عساكر في ترجمة عبد الصمد بن إسماعيل بسنده عن عمير ابن حبيب السلمي ، قال : أسرت أنا وثمانية في زمن بني أمية ، فأمر ملك الروم بضرب رقابنا ، فقتل أصحابي وشفع في بطريق من بطارقة الملك ، فأطلقني له ، فأخذني إلى منزله ، وإذاله ابنة مثل الشمس ، فعرضها عليّ عليّ أن يقاسمني نعمته وأدخل معه في دينه فأبيت ، وخلصت بي ابنته فعرضت نفسها عليّ فامتنعت ، فقالت : ما يمنعك من ذلك ؟ فقلت : يمنعني ديني ، فلا أترك ديني لامرأة ولا شيء . فقالت : تريد الذهاب إلى بلادك ؟ قلت : نعم ، فقالت : سر على هذا النجم بالليل واكن بالهيار ، فانه يلتقيك إلى بلادك ، قال : فسرت كذلك ، قال فبينما أنا في اليوم الرابع مكن إذا بخيل مقيلة فخشيت أن تكون في طلي ، فاذا أنا بأصحابي الذين قتلوا ومعهم آخرون على دواب شهب ، فقالوا : عمير ؟ فقلت : عمير . فقلت : لهم أوليس قد قتلتم ؟ قالوا : بلى ، ولكن الله عز وجل نشر الشهداء وأذن لهم أن يشهدوا جنازة عمر بن عبد العزيز ، قال : ثم قال لي بعضهم : ناولني يدك يا عمير ، فأردفتي فسرنا يسيراً ثم قذف بي قذفة وقعت قرب منزلي بالجزيرة ، من غير أن يكون لحفتي شر . وقال رجاء بن حيوة : كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إلى أن اغسله وأكفنه ، فاذا حلت عقدة الكفن أن أنظر في وجهه فادلى ، ففعلت فاذا وجهه مثل القراطيس بيضا ، وكان قد أخبرني أنه كل من دفنه قبله من الخلفاء وكان يحمل عن وجوههم فاذا هي مسودة . وروى ابن عساكر في ترجمة يوسف ابن ماهك قال : بينما نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا من السماء كتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . ساقه من طريق إبراهيم بن بشار عن عباد بن عمرو عن محمد بن يزيد البصري عن يوسف بن ماهك فذكره ، وفيه غرابة شديدة والله أعلم وقد رثيت له منامات صالحة ، وتأسف عليه الخاصة والعامة ، لاسيما العلماء والزهاد والعباد . ورتاه الشعراء ، فمن ذلك ما أنشده أبو عمرو الشيباني لكثير غزوة برثي عمر :-

عمت صنائعه فعم هلاكه * فالتاس فيه كلهم ماجور
والناس ماتهم عليه واحد * في كل دار رنة وزفير
يشني عليك لسان من لم توله * خيراً لأنك بالثناء جدير
ردت صنائعه عليه حياته * فكأنه من نشرها منشور

وقال جرير برثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله :-

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا * ياخير من حج بيت الله واعتمرا

حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به * وسرت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة ليست بطالعة * تبكي عليك نجوم الليل والقمر
وقال محارب بن دينار رحمه الله يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى :-

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقع * لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد نعثت لهم * كادت تموت وأخرى منك تفتقر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي * على المدول التي تغتالها الحفر
ثلاثة ما رأيت عيني لهم شهباً * تضم أعظمتهم في المسجد الحفر
وأنت تتبعهم لم تال مجتهداً * سقياً لها سنن بالحق تفتقر
لو كنت أملك والأقدار غالباً * تأتي رواحاً وتبيناً وتبتكر
صرفت عن عمر الخيرات مصرعة * بدير سمان نكن يغلب القدر

قالوا : وكانت وفاته بدير سمان من أرض حمص ، يوم الخميس ، وقيل الجمعة لحسن مصين ، وقيل
بقين من رجب ، وقيل لعشر بقين منه ، سنة إحدى وقيل ثنتين ومائة ، وصلى عليه ابن عمه مسلمة
ابن عبد الملك ، وقيل صلى عليه يزيد بن عبد الملك ، وقيل ابنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ،
وكان عمره يوم مات تسعاً وثلاثين سنة وأشهرًا ، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر ، وقيل بسنة .
وقيل بأكثر ، وقيل إنه عاش ثلاثاً وستين سنة ، وقيل ستاً وثلاثين ، وقيل سبعمائة وثلاثين ، وقيل
ثمانياً وثلاثين سنة ، وقيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين ولم يبلغها . وقال أحمد بن عبد الرزاق
عن معمر : مات على رأس خمس وأربعين سنة . قال ابن عساکر : وهذا وهم ، والصحيح الأول
تسعمائة وثلاثين سنة وأشهرًا . وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وقيل أربعة عشر يوماً ،
وقيل سنتان ونصف .

وكان رحمه الله أسمر دقيق الوجه حسنه نحيف الجسم حسن اللحية غائر العينين ، بجمته أثر شجة
وكان قد شاب وخضب رحمه الله ، والله سبحانه أعلم .

فضيلة أميرنا

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع
الخلفاء قبله ، فقال له عمر : مالي ولك ؟ تنح عني ، إنما أنا رجل من المسلمين . ثم سار وساروا معه
حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال : أيها الناس ! إني قد ابتليت بهذا الأمر
عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم
من بيعتي ، فاختروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون . فصاح المسلمون ضيعة واحدة : قد اخترناك

لأنفسنا وأمرنا، ورضينا كلنا بك . فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف ، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات ، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في كتابها ولا في نبيها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطى أحداً باطلاً ، ولا أمتع أحداً حقاً ، ثم رفع صوته فقال : أيها الناس ! من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . ثم نزل فدخل فأمر بالسور فهتكت والنياب التي كانت تبسط للخلفاء أمر بها فبيعت ، وأدخل أثمانها في بيت المال ، ثم ذهب يتبواً مقيلاً ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ما ذا تريد أن تصنع ؟ قال : يا بني أقبل ، قال : تقبل ولا ترد المظالم إلى أهلها ؟ فقال : إني سهرت البارحة في أمر سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم . فقال له ابنه : ومن لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال : ادن مني أي بني ، فدنا منه فقبل بين عيبيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبى من يعيننى على دينى . ثم قام وخرج وترك القادة وأمر مناديه فنادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه رجل ذمى من أهل حمص (١) فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : ما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي . والعباس جالس ، فقال له عمر : يا عباس ما تقول ؟ قال : نعم ! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلاً ، فقال عمر : ما تقول يا ذمى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى . فقال عمر : نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ، قم فاردد عليه ضيعته ، فردها عليه . ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه ، فأرفعت إليه مظلمة لإردها ، سواء كانت في يده أو في يد غيره حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم ، مما كان في أيديهم بغير استحقاق ، فاستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس ، فلم يقدم ذلك شيئاً ، فأتوا عمته فاطمة بنت مروان - وكانت عمته - فشكوا إليها ما لقوا من عمر ، وأنه قد أخذ أموالهم ويستنصون عنده ، وأنه لا يرفع بهم رأساً ، وكانت هذه المرأة لا تحجب عن الخلفاء ، ولا ترد لها حاجة ، وكانوا يكرمونها ويعظمونها ، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة ، وقامت فركبت إليه ، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها ، لأنها أخت أبيه ، وألقى لها وسادة ، وشرع يجادتها ، فأراها غضبي وهي على غير العادة ، فقال لها عمر : يا عمه مالك ؟ فقالت : بنو أخي عبد الملك وأولادهم يهانون في زمانك وولايتك ؟ وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم ، ويسبون عندك فلا تنكر ؟ فضحك عمر وعلم أنها متحملة ، وأن عقلها قد كبر ، ثم شرع يجادتها والغضب لا يتعجز عنها ، فلما رأى ذلك أخذ معها في الجد ، فقال : يا عمه ! اعلم أن النبي -

(١) في الأصل « من أهل خضر » وصححناه من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحوزي صفحة ١٠٤

مات وترك الناس على نهر مورود ، فولى ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر رجل آخر فكري منه ساقية ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه ، وإيم الله لئن أبقاني الله لأردنّه إلى مجراه الأول ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، وإذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالى ، والوالى لا يزيل ذلك ، فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناه عنه في غيرهم ؟ فقالت : فلا يسبوا عندك ؟ قال : ومن يسبهم ؟ إنما يرفع الرجل مظلمته فأخذه بها . ذكر ذلك ابن أبي الدنيا وأبو نعيم وغيرهما ، وقد أشار إليه المؤلف إشارة خفية .

وقال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر في مرضه فاذا عليه قميص وسخ ، فقلت لفاطمة : ألا تفسلوا قميص أمير المؤمنين ؟ فقالت : والله ماله قميص غيره ، وبكى فبكت فاطمة فبكى أهل الدار ، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء ، فلما انجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : ما أبكاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إني ذكرت منصور الخلائق من بين يدي الله ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، ثم صرخ وغشى عليه .

وعرض عليه مرة مسك من بيت المال فسدّ أنفه حتى وضع ، فقيل له في ذلك فقال : وهل ينتفع من المسك إلا بريجه ؟ ولما احتضر دعا بأولاده وكانوا بضعة عشر ذكراً ، فنظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال : بنفسى الفتية . وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل كثيراً بهذه الأبيات : -

بِرَى مُسْتَكِينًا وَهُوَ لِلْقَوْلِ مَاقْتُ * بِهِ عَنِ حَدِيثِ الْقَوْمِ مَا هُوَ شَاغِلُهُ
وَأَزْجَعَهُ عِلْمٌ عَنِ الْجَهْلِ كَلْبٌ * وَمَا عَالَمٌ شَيْئًا كَمَنْ هُوَ جَاهِلُهُ
عَبُوسٌ عَنِ الْجَهَالِ حِينَ يَرَامُ * فَلَيْسَ لَهُ مِنْهُمْ خَبِيرٌ يَهَازِلُهُ
تَذَكَّرْتُ مَا يَبْقَى مِنَ الْعَيْشِ فَارْعَوِي * فَأَشْغَلُهُ عَنِ عَاجِلِ الْعَيْشِ آخِلُهُ

وروى ابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده

سابق البربرى وهو ينشده شعراً ، فاتمى في شعره إلى هذه الأبيات : -

فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ بَاتَ لِلْمَوْتِ آمِنًا * أَتَهُ الْمَنَآيَا بَغْتَةً بَعْدَ مَا هَجَعَ
فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِذْ جَاءَهُ الْمَوْتُ بَغْتَةً * فَرَارًا وَلَا مِنْهُ بِقُوَّتِهِ امْتَنَعَ
فَأَصْبَحَ تَبْكِيهِ النِّسَاءُ مَقْنَعًا * وَلَا يَسْمَعُ الدَّاعِيَ وَإِنْ صَوْتُهُ رُفِعَ
وَقَرَّبَ مِنْ لَحْدِ فَصَارَ مَقْبَلُهُ * وَفَارِقَ مَا قَدَّ كَانَ بِالْأَمْسِ قَدْ جُمِعَ
فَلَا يَتْرَكُ الْمَوْتَ الْغَنَى لِلَّهِ * وَلَا مَعْدَمًا فِي الْمَالِ إِذَا حَاجَهُ يَدَعُ

وقال رجا بن حيوة : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده

في الخلافة ، أنه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال يزيد يا أمير المؤمنين إن هذا المرأى - يعني عمر ابن عبد العزيز - قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين ، في بيتين في داره مملوءين ، وهما مقفولان على ذلك الدر والجوهر . فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر : بلغني أن عمر خاف جوهراً ودرّاً في بيتين مقفولين . فأرسلت إليه : يا أخي ما ترك عمر من سبد ولا لبد ، إلا ما في هذا المنديل . وأرسلت إليه به ، فله فوجد فيه قميصاً غليظاً مرقوعاً ، ورداء قشياً ، وجبة محشوة غليظة واهية البطانة . فقال يزيد للرسول : قل لها : ليس عن هذا أسأل ، ولا هذا أريد ، إنما أسأل عما في البيتين . فأرسلت تقول له : والذي فجعتي بأمر المؤمنين ما دخلت هذين البيتين منذ ولي الخلافة ، لعلمى بكرهته لذلك ، وهذه مفاتيحهما فتعال فحول ما فيهما لبيت مالك . فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد حتى دخل الدار ففتح أحد البيتين فاذا فيه كرسي من آدم وأربع آجرات مبسوطات عند الكرسي ، وقمقم . فقال عمر بن الوليد : أستغفر الله ، ثم فتح البيت الثاني فوجد فيه مسجداً مفروشاً بالحصى ، وسلسلة معلقة بسقف البيت ، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الانسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق ، كان إذا فتر عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه وضعها في رقبته ، وربما كان يضعها إذا نكس لئلا ينام ، ووجدوا صندوقاً مقللاً ففتح فوجدوا فيه سفظاً ففتحها فاذا فيه دراعة وتبان ، كل ذلك من مسوح غليظ ، فبكي يزيد ومن معه وقال : يرحمك الله يا أخي ، إن كنت لنتى السريرة ، نقي العالانية . وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول وهو يقول : أستغفر الله ، إنما قات ما قيل لي .

وقال رجاء : لما احتضر جعل يقول : اللهم رضني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحب لما عجلت تأخيراً ، ولا لما أخرت تعجيلاً . فلا زال يقول ذلك حتى مات . وكان يقول : لقد أصبحت ومالي في الأمور هوى إلا في مواضع قضاء الله فيها .

وقال شعيب بن صفوان : كتب سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة : أما بعد يا عمر فانه قد ولي الخلافة والمالك قبلك أقوام ، فماتوا على ما قد رأيت ، ولقوا الله فرادى بعد الجوع والحفدة والحشم ، وعالجوا نزع الموت الذي كانوا منه يفرون ، فانفقت عينهم التي كانت لا تفتأ تنظر لذاتها ، واندفنت رقابهم غير موسدين بعد لين الوسائد ، وتظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم ، وانشقت بطونهم التي كانت لا تشبع من كل نوع ولون من الأموال والأطعمة ، وصاروا جيفا بعد طيب الروائح العطرة ، حتى لو كانوا إلى جانب مسكين ممن كانوا يحقرونه وهم أحياء لتأذى بهم ، ولنفر منهم ، بعد إنفاق الأموال على أغراضهم من الطيب والثياب الفاخرة اللينة ، كانوا ينفقون الأموال إسرافاً في أغراضهم وأهوائهم ، ويقترون في حق

الله وأمره ، فان استطعت أن تلقاهم يوم القيامة وهم محبوبون مرتنون بما عليهم ، وأنت غير محبوب ولا مرتين بشيء فافعل ، واستعن بالله ولا قوة إلا بالله سبحانه .

وما ملك عما قليل بسالم * ولو كثرت أحراسه ومواكبه
ومن كان ذاباب شديد وحاجب * فما قليل يهجر الباب حاجبه
وما كان غير الموت حتى تفرقت * إلى غيره أعوانه وحبايبه
فأصبح مسروراً بكل حاسد * وأسلمه أصحابه وحبايبه

وقيل إن هذه الأبيات لغيره .

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص : حدثنا عاصم بن عامر حدثنا أبي عن عبد ربه بن أبي هلال عن ميمون بن مهران قال : تكلم عمر بن عبد العزيز ذات يوم وعنده رهن من إخوانه ففتح له منطلق وموعظة حسنة ، فنظر إلى رجل من جلسائه وقد ذرفت عيناه بالدموع ، فلما رأى ذلك عمر قطع منطلقه ، فقالت له : يا أمير المؤمنين امض في موعظتك فاني أرجو أن ين الله به على من سمعه أو بلغه ، فقال إليك عنى يا أبا أيوب ، فان في القول على الناس فتنة لا يخلص من شرها متكلم عليهم ، والنعال أولى بالؤمن من المقال . وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : استعملنا أقواماً كنا نرى أنهم أبرار أخيار ، فلما استعملناهم إذا هم يعملون أعمال الفجار ، قاتلهم الله ، أما كانوا يمشون على القبور !! وروى عبد الرزاق قال : سمعت معمرًا يذكر قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة - وبلغه عنه بعض ما يكره - : أما بعد فانه غرني بك مجالستك القراء ، وعمامتك السوداء ، وإرسالك إياها من وراء ظهرك ، وإنك أحسنت العلانية فأحسننا بك الظن ، وقد أطلعنا الله على كثير مما تعملون .

وروى الطبراني والدارقطني وغير واحد من أهل العلم بأسانيدهم إلى عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامل له : أما بعد فاني أوصيك بتقوى الله واتباع سنة رسوله ، والاقتصاد في أمره ، وترك ما أحدث المحدثون بعده ، ممن قد حارب سنته ، وكفوا مؤنته ، ثم اعلم أنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل على بطلانها - أو قال دليل عليها - فعملك لزوم السنة ، فانه إنما منها من قد علم ما في خلافها من الزيغ والزلل ، والحق والخطأ والتعمق ، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وعلى العمل الشديد أشد ، وإنما كان عملهم على الأسد ، ولو كان فيما يحملون أنفسهم فضل لكانوا فيه أحرى ، وإليه أجرى ، لأنهم السابقون إلى كل خير ، فان قلت : قد حدث بعدم خير ، فاعلم أنه إنما أحدثه من قد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وحاد عن طريقهم ، ودرغبت نفسه عنهم ، ولقد تكلموا منه ما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فأين لا أين ، فمن دونهم مقصر ، ومن فوقهم غير محسن ، ولقد

قصر أقوام دينهم فحفوا، وطمح عنهم آخرون ففلوا، فرحم الله ابن عبد العزيز. ما أحسن هذا القول الذي ما يخرج إلا من قلب قد امتلأ بالمتابعة ومحبة ما كان عليه الصحابة، فمن الذي يستطيع أن يقول مثل هذا من الفقهاء وغيرهم؟ فرحمه الله وعفا عنه.

وروى الخطيب البغدادي من طريق يعقوب بن سفيان الحافظ عن سعيد بن أبي مرثد عن رشيد بن سعيد قال: حدثني عقيل عن شهاب عن عمر بن عبد العزيز. قال: سن رسول الله (ص) وخلفاؤه بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، ليس على أحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خلفها، فمن اقتدى بما سبق هدى، ومن استبصر بها أبصر، ومن خلفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصله جهنم وساءت مصيرا.

وأمر عمر بن عبد العزيز مناديه ذات يوم فنادى في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم فقال في خطبته: إني لم أجمعكم إلا أن المصدق منكم بما بين يديه من لقاء الله والدار الآخرة ولم يعمل لذلك ويستعد له أحق، والمكذب له كافر. ثم تلا قوله تعالى [ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم] وقوله تعالى [وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون]

وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه أرسل أولاده مع مؤدب لهم إلى الطائف يعلمهم هناك، فكتب إليه عمر: بئس ما علمت، إذ قدمت إمام المسلمين صبيا لم يعرف النية - أولم تدخله النية - ذكره في كتاب النية له. وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الرقة والبكاء، عن مولى لعمر بن عبد العزيز أنه قال له: يا بني ليس الخير أن يسمع لك وتطاع، وإنما الخير أن تكون قد غفلت عن ربك عز وجل ثم أطعته، يا بني لا تأذن اليوم لأحد على حتى أصبح ويرتفع النهار، فاني أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عني، فقال له مولاه: رأيتك البارحة بكيت بكاء ما رأيتك بكيت مثله، قال فبكيت ثم قال: يا بني إني والله ذكرت الوقوف بين يدي الله عز وجل. قال: ثم غشي عليه فلم يفق حتى علا النهار، قال: فما رأيت بعد ذلك متبسا حتى مات.

وقرأ ذات يوم [وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا] الآية، فبكى بكاء شديدا حتى صممه أهل الدار، فجاءت فاطمة فجلست تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما، فجاء ابنه عبد الملك فدخل عليهم وهم على تلك الحال، فقال له: يا أبة ما يبكيك؟ فقال: يا بني خير، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك وأن أكون من أهل النار.

وروى ابن أبي الدنيا عن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنبري. قال: رأيت عمر بن عبد العزيز

خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة ، وراهه خبثي يمشي ، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي ، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال : هكذا رحمك الله ، حتى صعد المنبر فخطب فقرأ [إذا الشمس كورت] فقال : وما شأن الشمس [وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت] فبكى وبكى أهل المسجد ، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت حيطان المسجد تبكي معه ، ودخل عليه أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين جاءت بي إليك الحاجة ، وانتهيت إلى الغاية ، والله سائلك عني . فبكى عمر وقال له : كم أنتم ؟ فقال : أنا وثلاث بنات . ففرض له على ثلاثمائة ، وفرض لبناته مائة مائة ، وأعطاه مائة درهم من ماله ، وقال له : اذهب فاستنقها حتى تخرج أعطيات المسلمين فتأخذ معهم .

وجاءه رجل من أهل أذربيجان فقام بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين اذكر بمقامي هذا بين يديك مقامك غداً بين يدي الله ، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق ، من يوم تلقاه بلائقة من العمل ، ولا براءة من الذنب ، قال : فبكى عمر بكاء شديداً ثم قال له : ما حاجتك ؟ فقال : إن عاملك بأذربيجان عدا عليّ فأخذ مني اثني عشر ألف درهم فجعلها في بيت المال . فقال عمر : اكتبوا له الساعة إلى عاملها ، فليرد عليه ، ثم أرسله مع البريد . وعن زياد مولى ابن عياش قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز في ليلة باردة شاتية ، فجعلت أصطلي على كانون هناك ، فجاء عمر وهو أمير المؤمنين فجعل يصطلي معي على ذلك الكانون ، فقال لي : يا زياد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : قصّ عليّ ، قلت ما أنا بفصاص ، فقال : تكلم ، فقلت زياد ، فقال : ماله ؟ قلت : لا ينفعه من دخل الجنة إذا دخل النار ، ولا يضره من دخل النار إذا دخل الجنة ، فقال : صدقت ، ثم بكى حتى أظفأ الجمر الذي في الكانون .

وقال له زياد العبدى : يا أمير المؤمنين لا تعمل نفسك في الوصف واعملها في المخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرة فيك نطقت بحمد الله وشكره والثناء عليه ما بلغت كنه ما أنت فيه ، ثم قال له زياد : يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد ما حاله ؟ قال : سيء الحال ، قال : فان كانا خصمين الدين ؟ قال : فهو أسوأ حالا ، قال : فان كانوا ثلاثة ؟ قال : ذاك حيث لا يهنئه عيش . قال : فوالله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد (ص) ، إلا وهو خصمك ، قال : فبكى عمر حتى تمنيت أني لم أكن حدثته ذلك . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة وأهل البصرة : أما بعد فان من الناس من شاب في هذا الشراب ، ويفشون عنده أموراً انتهكوا عندها عقولهم ، وسفه أحلامهم ، فسفكوا له الدم الحرام ، وارتكبوا فيه الفروج الحرام ، والمال الحرام ، وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من أشربة حلال ، فن انقبذ فلا ينتبذ إلا من أسقية الأدم ، واستغنوا بما أحل الله عما حرم ، فاننا من وجدناه شرب شيئاً مما حرم الله بعد ما تقدمنا إليه ، جعلنا له عقوبة شديدة ،

ومن استخف بما حرم الله عليه فالله أشد عقوبة له وأشد تنكيلا

خلافة يزيد بن عبد الملك

بويع له بهد من أخيه سليمان بن عبد الملك أن يكون ولي الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز ،
فلما توفي عمر في رجب من هذه السنة - أعني سنة إحدى ومائة - بإيه الناس البيعة العامة ، وعمره
إذ ذلك تسع وعشرون سنة ، فعزل في رمضان منها عن إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن
حزم ، وولي عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ، فحرت بينه وبين أبي بكر بن حزم منافسات
وضغائن ، حتى آل الأمر إلى أن استدرك عليه حكومة فحده حدين فيها

وفيهما كانت وقعة بين الخوارج ، وهم أصحاب بسطام الخارجي ، وبين جنود الكوفة ، وكانت
الخوارج جماعة قليلة ، وكان جيش الكوفة نحواً من عشرة آلاف فارس ، وكادت الخوارج أن
تكسبهم ، فنداموا بينهم فطحنوا الخوارج طحناً عظيماً ، وقتلواهم عن آخرهم ، فلم يبقوا منهم نائرة .
وفيهما خرج يزيد بن المهلب نخلع يزيد بن عبد الملك واستحوذ على البصرة ، وذلك بعد محاصرة
طويلة ، وقتال طويل ، فلما ظهر عليها بسط المدل في أهلها ، وبذل الأموال ، وحبس عاملها عدى
ابن أرطاة ، لأنه كان قد حبس آل المهلب الذين كانوا بالبصرة ، حين هرب يزيد بن المهلب من
محبس عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا ، ولما ظهر على قصر الأمانة أتى بعدى بن أرطاة فدخل عليه
وهو يضحك ، فقال يزيد بن المهلب : إني لأعجب من ضحكك ، لأنك هربت من القتال كما تهرب
النساء ، وإنك جئتني وأنت تثلُّ كما يتلُّ العبد . فقال عدى : إني لأضحك لأن بقائي بقاء لك
وأن من ورأى طالباً لا يتركني ، قال : ومن هو ؟ قال : جنود بني أمية بالشام ، ولا يتركونك ، فدارك
نفسك قبل أن يرمى إليك البحر بأواجه ، فتطالب الاقالة فلا تقال . فرد عليه يزيد جواباً . قال ،
ثم سجنه كما سجن أهله ، واستقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة ، وبعث نوابه في النواحي والجهات ،
واستتاب في الأهواز ، وأرسل أخاه مدرك بن المهلب على نيابة خراسان ، ووجه جماعة من المقاتلة ،
فلما بلغ خبره الخليفة يزيد بن عبد الملك جهز ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في أربعة
آلاف ، مقدمة بين يدي عمه مسلمة بن عبد الملك ، وهو في جنود الشام ، قاصدين البصرة لقتاله ، ولما
بلغ يزيد بن المهلب مخرج الجيوش إليه خرج من البصرة واستتاب عليها أخاه مروان بن المهلب ،
وجاء حتى نزل واسط ، واستشار من معه من الأمراء فيما ذا يعتمده ؟ فاختلّفوا عليه في الرأي ، فأشار
عليه بعضهم بأن يسير إلى الأهواز ليتحصن في رؤس الجبال ، فقال : إنما تريدون أن تجعلوني طائراً في
رأس جبل ؟ وأشار عليه رجال أهل العراق أن يسير إلى الجزيرة فينزلها بأحصن حصن فيها ، ويجتمع

عليه أهل الجزيرة فيقاتل بهم أهل الشام، وانسلخت هذه السنة وهو نازل بواسط وجيش الشام قاصده. وحج بالناس في هذه السنة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس أمير المدينة، وعلى مكة عبد العزيز ابن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعلى قضائها عامر الشعبي، وعلى البصرة يزيد بن المهلب. قد استحوذ عليها وخلع أمير المؤمنين يزيد ابن عبد الملك. وفيها توفي عمر بن عبد العزيز، وربي بن حراش، وأبو صالح السمان وكان عابداً صادقاً ثباتاً، وقد ترجمناه في كتابنا التكميل والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين ومائة

فيها كان اجناب مسلمة بن عبد الملك مع يزيد بن المهلب، وذلك أن يزيد بن المهلب ركب من واسط واستخلف عليها ابنه معاوية، وسار هو في جيش، وبين يديه أخوه عبد الملك بن المهلب، حتى بلغ مكاناً يقال له العقرة، وانتهى إليه مسلمة بن عبد الملك في جنود لا قبل ليزيد بها، وقد التقت المقدمة أولاً فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم أهل البصرة أهل الشام، ثم تذاصر أهل الشام فملا على أهل البصرة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة من الشجعان، منهم المنتوف، وكان شجاعاً مشهوراً، وكان من موالى بكر بن وائل، فقال في ذلك الفرزدق:

تبكى على المنتوف بكر بن وائل • وتنبى عن ابني مسمع من بكاهما

فأجابه الجعد بن درهم مولى الثوريين من همدان، وهذا الرجل هو أول الجهمية، وهو الذي ذبحه خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى فقال الجعد:-

تبكى على المنتوف في نصر قومه • وليتنا نبكى الشائد بن أباهما

أرادا فناء الحى بكر بن وائل • فز تيمم لو أصيب فناهما

فلا لقياً روحاً من الله ساعة • ولا رقأت عينا شجى بكاهما

أفى الفش نبكى إن بكينا عليهما • وقد لقياً بالفش فينا رداها

ولما اقترب مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد من جيش يزيد بن المهلب، خطب يزيد بن المهلب الناس وحرضهم على القتال - يعنى قتال أهل الشام - وكان مع يزيد نحو من مائة ألف، وعشرين ألفاً، وقد بايعوه على السمع والطاعة، وعلى كتاب الله وسنة رسوله، وعلى أن لا يظأ الجنود بلادهم، وعلى أن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج، ومن بايعنا على ذلك قبلنا منه، ومن خالفنا قاتلناه.

وكان الحسن البصرى في هذه الأيام يمرض الناس على الكف وترك الدخول في الفتنة، وبينهم أشد النهى، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض في أيام ابن الأشعث، وما قتل بسبب

ذلك من النفوس العديدة ، وجعل الحسن يخطب الناس ويظهرهم في ذلك ، وبأمرهم بالكف ، فبلغ ذلك نائب البصرة عبد الملك بن المهلب ، فقام في الناس خطيباً فأمرهم بالجد والجهاد ، والنفر إلى القتال ، ثم قال : ولقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرأى - ولم يسمه - يثبط الناس ، أما والله ليكفن عن ذلك أو لأفعلن ولا أفعلن ، وتوعد الحسن ، فلما بلغ الحسن قوله قال : أما والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه ، فسلمه الله منه حتى زالت دولتهم ، وذلك أن الجيوش لما تواجهت تبارز الناس قليلاً ، ولم ينشب الحرب شديداً حتى فر أهل العراق سريعاً ، وبلغهم أن الجسر الذي جاؤا عليه حرق فانهزموا ، فقال : يزيد بن المهلب : ما بال الناس ؟ ولم يكن من الأمر ما يفتر من مثله ، فقيل له : إنه بلغهم أن الجسر الذي جاؤا عليه قد حرق . فقال : قبحهم الله ، ثم رام أن يرد المنهزمين فلم يمكنه ، فثبت في عصابة من أصحابه وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقي في شردمة قليلة ، وهو مع ذلك يسير قدما لا يمر بخيل إلا هزمهم ، وأهل الشام يتجاوزون عنه يميناً وشمالاً ، وقد قتل أخوه حبيب بن المهلب ، فازداد حنقا وغيظاً ، وهو على فرس له أشهب ، ثم قصد نحو مسلة بن عبد الملك لا يريد غيره ، فلما واجهه حملت عليه خيول الشام فقتلوه ، وقتلوا معه أخاه محمد بن المهلب ، وقتلوا السميذع ، وكان من الشجعان ، وكان الذي قتل يزيد بن المهلب رجل يقال له القجل بن عياش ، فقتل إلى جانب يزيد ابن المهلب ، وجاؤا برأس يزيد إلى مسلة بن عبد الملك ، فأرسله مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى أخيه أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ، واستخوذ مسلة على مافي معسكر يزيد بن المهلب ، وأمر منهم نحواً من ثلاثمائة ، فبعث بهم إلى الكوفة ، وبعث إلى أخيه فيهم ، فجاء كتابه بقتلهم ، فسار مسلة فنزل الحيرة

ولما انتهت هزيمة ابن المهلب إلى ابنه معاوية وهو بواسط ، عمد إلى نحو من ثلاثين أسيراً في يده فقتلهم ، منهم نائب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، عدى بن أرطاة رحمه الله وابنه ، ومالك وعبد الملك ابنا مسمع ، وجماعة من الأشراف ، ثم أقبل حتى أتى البصرة ومعه الخزان من الأموال ، وجاء معه عمه المفضل بن المهلب إليه ، فاجتمع آل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا أتم الجهاز واستعدوا للهرب ، فساروا بعيالهم وأثقالهم حتى أتوا بحال كرمان فنزلوها ، واجتمع عليهم جماعة ممن قل من الجيش الذي كان مع يزيد بن المهلب ، وقد أمروا عليهم المفضل بن المهلب ، فأرسل مسلة جيشاً عليهم هلال بن ماجور المحاربي في طلب آل المهلب ، ويقال إنهم أمروا عليهم رجلاً يقال له مدرك بن صب الكلبى ، فلحقهم بجبال كرمان فاقتلوا هنالك قتلاً شديداً ، فقتل جماعة من أصحاب المفضل وأسر جماعة من أشرافهم وانهزم بقيتهم ، ثم حنوا المفضل فقتلوه وحمل رأسه إلى مسلة بن عبد الملك ، وأقبل جماعة من أصحاب يزيد بن المهلب فأخذوا لهم أماناً من أمير الشام

منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر النخعي ، ثم أرسلوا بالأثقال والأموال والنساء والقدية فوردت على مسلة بن عبد الملك ومعهم رأس المفضل ورأس عبد الملك بن المهلب ، فبعث مسلة بالرؤس وتسعة من الصبيان الحسان إلى أخيه يزيد ، فأمر بضرب أعناق أوائك ، ونصبت رؤسهم بدمشق ثم أرسلها إلى حلب فنصبت بها ، وحلف مسلة بن عبد الملك لبييعن ذراري آل المهلب ، فأشترام بعض الأمراء إبراراً لقسمه بمائة ألف ، فأعتقهم وخلي سبيلهم ، ولم يأخذ مسلة من ذلك إلا مير شينا وقد رثا الشعراء يزيد بن المهلب بقصائد ذكرها ابن جرير .

ولاية مسلة على بلاد العراق وخراسان

وذلك أنه لما فرغ من حرب آل المهلب كتب إليه أخوه يزيد بن عبد الملك بولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة ، فاستناب على الكوفة وعلى البصرة ، وبعث إلى خراسان ختنة - زوج ابنته - سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص ، الملقب بخديته ، فسار إليها فحرض أهلها على الصبر والشجاعة ، وعاقب عمالاً ممن كان ينوب لآل المهلب ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة ، ومات بعضهم تحت العقوبة .

ذكر وقعة جرت بين الترك والمسلمين

وذلك أن خاقان الملك الأعظم ملك الترك ، بعث جيشاً إلى الصفد لقتال المسلمين ، عليهم رجل منهم يقال له كورصول ، فأقبل حتى نزل على قصر الباهلي ، فحصره وفيه خلق من المسلمين ، فصالحهم نائب سمرقند - وهو عثمان بن عبيد الله بن مطرف - على أربعين ألفاً ، ودفع إليهم سبعة عشر دهباً نارهاً عندهم ، ثم نهب عثمان الناس فانتدب رجل يقال له المسيب بن بشر الرياحي في أربعة آلاف ، فساروا نحو الترك ، فلما كان في بعض الطريق [خطبهم] فغهم على القتال وأخبرهم أنه ذاهب إلى الأعداء لطلب الشهادة ، فرجع عنه أكثر من ألف ، ثم لم يزل في كل منزل يخطبهم ويرجع عنه بعضهم ، حتى بقي في سبعمائة مقاتل ، فسار بهم حتى غالق جيش الأتراك ، وهم محاصرو ذلك القصر ، وقد عزم المسلمون الذين هم فيه على قتل نسايتهم وذبح أولادهم أمامهم ، ثم ينزلون فيقاتلون حتى يقتلوا عن آخرهم ، فبعث إليهم المسيب يثبتهم يومهم ذلك ، فثبتوا ومكث المسيب حتى إذا كان وقت السحر فكبر وكبر أصحابه ، وقد جعلوا شعارهم يا محمد ، ثم حملوا على الترك حملة صادقة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وعقروا دواب كثيرة ، ونهض إليهم الترك فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى فرأ أكثر المسلمين ، وضربت دابة المسيب في عجزها فترجل وترجل معه الشجعان ، فقاتلوا وهم كذلك قتالاً عظيماً ، والتف الجماعة بالمسيب وصبروا حتى فتح الله عليهم ، وفر المشركون بين أيديهم هاربين لا يلوون على شيء ، وقد كان الأتراك في غاية الكثرة ، فنادى منادى المسيب :

أن لا تتبعوا أحداً ، وعليكم بالقصر وأهله ، فاحتملوهم وحازوا مافي ممسك أولئك الأتراك من الأموال والأشياء النفيسة وانصرفوا راجعين سالمين بمن معهم من المسلمين الذين كانوا محصورين ، وجاءت الترك من الغد فلم يجدوا به داعياً ولا مجيباً ، فقالوا في انفسهم : هؤلاء الذين لقونا بالأمس لم يكونوا إنسا ، إنما كانوا جنأ . ومن توفى فيها من الأعيان والسادة :

الضحاك بن مزاحم الهلالي

أبو القاسم ، ويقال أبو محمد ، الخراساني ، كان يكون ببلخ وسمرقند ونيسا بور ، وهو تابعي جليل روى عن أنس وابن عمر وأبي هريرة ، وجماعة من التابعين ، وقيل إنه لم يصح له سماع من الصحابة حتى ولا من ابن عباس سماع ، وإن كان قد روى عنه أنه جاوره سبع سنين ، وكان الضحاك إماماً في التفسير ، قال الثوري : خذوا التفسير عن أربعة ، مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ، وقال الامام أحمد : هو ثقة ، وأنكر شعبة سماعه من ابن عباس ، وقال : إنما أخذ عن سعيد عنه ، وقال ابن سعيد القطان : كان ضعيفاً . وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : لم يشافه أحداً من الصحابة ، ومن قال : إنه لقي ابن عباس فقد وهم ، وحملت به أمه سنتين ، ووضعته وله أسنان ، وكان يعلم الصبيان حسبة ، وقيل إنه مات سنة خمس وقيل سنة ست ومائة والله أعلم .

أبو المتوكل الناجي

اسمه علي بن البصري ، تابعي جليل ، ثقة ، رفيع القدر ، مات وقد بلغ الثمانين رحمه الله تعالى ثم دخلت سنة ثلاث ومائة

فيها عزل أمير العراق وهو عمر بن هبيرة سعيد - الملقب خذينة - عن نيابة خراسان ، وولى عليها سعيد بن عمرو الجريشي ، باذن أمير المؤمنين ، وكان سعيد هذا من الأبطال المشهورين ، انزعج له الترك وخافوه خوفاً شديداً ، وتقهروا من بلاد الصغد إلى ساوراء ذلك ، من بلاد الصين وغيرها ، وفيها جمع يزيد بن عبد الملك لعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس بين إمرة المدينة وإمارة مكة ، وولى عبد الرحمن الواحد بن عبد الله النضري نيابة الطائف . وحج بالناس فيها أمير الحرمين عبد الرحمن ابن الضحاك بن قيس والله سبحانه وتعالى أعلم . ومن توفى فيها من الأعيان :

يزيد بن أبي مسلم

أبو العلاء المدني . عطاء بن يسار الهلالي ، أبو محمد القاص المدني ، مولى ميمونة ، وهو أخو سليمان ، وعبد الله ، وعبد الملك ، وكلهم تابعي . وروى هذا عن جماعة من الصحابة ، ووثقه غير واحد من الأئمة ، وقيل إنه توفى سنة ثلاث أو أربع ومائة ، وقيل توفى قبل المائة بالأسكندرية ، وقد جاوز الثمانين والله سبحانه أعلم .

مجاهد بن جبير المكي

أبو الحجاج القرشي المخزومي ، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ، أحد أئمة التابعين والمفسرين كان من أخصاء أصحاب ابن عباس ، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير ، حتى قيل إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وطاوس ، وقال مجاهد : أخذ ابن عمر بركابي وقال : وددت أن ابني سالما وغلami نافعا يحفظان حفظك . وقيل إنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وقيل مرتين ، أفته عند كل آية وأسأله عنها ، مات مجاهد وهو ساجد سنة مائة ، وقيل إحدى وقيل ثنتين وقيل ثلاث ومائة ، وقيل أربع ومائة ، وقد جاوز الثمانين والله أعلم .

فضائله

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم ، عن ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وابن عمرو وأبي سعيد ورافع بن خديج . وعنه خلق من التابعين . قال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ثنا عبد الرزاق عن أبي بكر بن عياش قال : أخبرني أبو يحيى أنه سمع مجاهداً يقول : قال لي ابن عباس : لا تنامن إلا على وضوء فان الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .
وروى الطبراني عنه أنه قال في قوله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن) قال : يسلم عليه إذا لقيه وقيل هي المصافحة . وروى عمرو بن مرة عنه أنه قال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : اتق لا يأخذك الله على ذنب لا ينظر فيه إليك فتلقاه حين تلقاه وليست لك حاجة . وروى ابن أبي شيبة عن أبي أمامة عن الأعمش عن مجاهد . قال : كان بالمدينة أهل بيت ذوى حاجة ، عندما رأس شاة فأصابوا شيئاً ، فقالوا : لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا ، فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم أولاً . وروى ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص عن منصور عن مجاهد قال : ما من مؤمن يموت إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحاً . وقال : فلا أنفسهم يمهدون . قال : في القبر . وروى الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبانة عن مجاهد قال : كان يهج من بني إسرائيل مائة ألف ، فإذا بلغوا أوصاف الحرم خلعوا نعالم ثم دخلوا الحرم حفاة . وقال يحيى بن سعيد القطان قال مجاهد في قوله تعالى : [يا مريم اقنتي لربك] قال : اطلبي الركود . وفي قوله تعالى : [واستغزز من استطعت منهم بصوتك] قال المزامير . وقال في قوله تعالى [أنكالا وجعياً] قال : قيود . وقال في قوله : [لا حجة بيننا وبينكم] قال لا خصومة . وقال : [ثم لتسألن يومئذ عن النعيم] قال : عن كل لذة في الدنيا . وروى أبو الدبيع عن جرير ابن عبد الحسيب عن منصور عن مجاهد . قال : رن إبليس أربع رنات ، حين لمن ، وحين أهبط ،

وحيث بعث النبي (ص)، وحين أنزلت [الحمد لله رب العالمين] وأنزلت بالمدينة . وكان يقال : الرنة والخنزة من الشيطان ، فلمن من رن أو نخر . وروى ابن نجيب عنه في قوله تعالى [أتبنون بكل ريع آية تعبثون] قال : بروج الحمام . وقال في قوله تعالى [أنفقوا من طيبات ما كسبتم] قال : التجارة . وروى ليث عن مجاهد قال [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا] قال : استقاموا فلم يشركوا حتى ماتوا . وروى يحيى بن سعيد عن سفيان عن ابن أبي عمير عن طلحة بن مصرف عن مجاهد [ولم يكن له كفوا أحد] قال : صاحبة . وقال ليث عن مجاهد قال : النملة التي كلمت سليمان كانت مثل الذئب العظيم

وروى الطبراني عن أبي نجيب عن مجاهد . قال : كان الغلام من قوم عاد لا يحتمل حتى يبلغ مائتي سنة . وقال : [سألت سائل] دعادع . وفي قوله [ماء غدقا لفتنهم فيه] حتى يرجعوا إلى علمي فيه [لا يشركون بي شيئا] قال لا يحبون غيري . [الذين يمكرون السيئات] قال هم المراءون . وفي قوله تعالى : [قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله] قال هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم . ثم قرأ [وذكروا أيام الله] قال : أيامه نعمه ونعمه . [فردوه إلى الله والرسول] فردوه إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حيا ، فإذا مات فإلى سنته . [وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة] قال : أما الظاهرة فالاسلام والقرآن والرسول والرزق ، وأما الباطنة فإسعاد من العيوب والذنوب . وروى الحكم عن مجاهد قال : لما قدمت مكة نساء على سليمان عليه السلام رأته حطبا جزلا فقالت لغلام سليمان : هل يعرف مولاك كم وزن دخان هذا الحطب ؟ فقال الغلام : دعى مولاى أنا أعرف كم وزن دخانه ، فكيف مولاى ؟ قالت : فكم وزنه ؟ فقال الغلام : يوزن الحطب ثم يحرق الحطب ويوزن رماده فما نقص فهو دخانه . وقال في قوله تعالى : [ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون] قال : من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين . وقال ما من يوم ينقضى من الدنيا إلا قال ذلك اليوم : الحمد لله الذى أراحنى من الدنيا وأهلها ، ثم يطوى عليه فيختم إلى يوم القيامة ، حتى يكون الله عز وجل هو الذى يفض خاتمه . وقال في قوله تعالى : [يؤتى الحكمة من يشاء] قال : العلم والفقهاء ، وقال إذا ولى الأمر منكم الفقهاء . وفي قوله تعالى : [ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] قال : البدع والشبهات . وقال : أفضل العبادة رأى الحسن - يعنى اتباع السنة - وقال : ما أدرى أى نعمتين أفضل ، أن هدانى للإسلام ، أو عافانى من الأهواء ؟ . وقال في رواية : ألو الأمر منكم ، أصحاب محمد ، وربما قال : أولو العقل والفضل فى دين الله عز وجل [بما صنعوا قارعة] قال السرية . [ويخلق ما لا تعلمون] . قال : السوس فى الثياب . [وهن العظم منى] قال : الأضراس . [حفيا] قال رحبا . وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : وجدت فى كتاب محمد بن أبي جاتم بخط يده : حدثنا

بشر بن الحارث - ثنا يحيى بن يمان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد. قال : لو أن رجلاً أنفق مثل أحد في طاعة الله عز وجل لم يكن من المسرفين . وفي قوله تعالى [وهو شديد المحال] قال : العداوة [بينهما برزخ لا يبغيان] قال : بينهما حاجز من الله فلا يبغي الخلو على المالح ولا المالح على الخلو . وقال ابن منده : ذكر محمد بن حميد : حدثنا عمده الله بن عبد القدوس عن الأعمش قال : كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها ، قال : وذهب إلى حضرموت إلى بشر برهوت قال : وذهب إلى بابل ، قال : وعليها وال صديق لمجاهد : فقال مجاهد : تعرض علي هاروت وماروت . قال : فدعا رجلاً من السحرة فقال : اذهب بهذا فاعرض عليه هاروت وماروت . فقال اليهودي : بشرط أن لا تدعو الله عندهما ، قال مجاهد : فذهب بي إلى قلعة فقطع منها حجراً ثم قال : خذ برجلي ، فهوى بي حتى انتهى إلى حوطة ، فاذا هما معلقين منكسين كالجبلين العظيمين ، فلما رأيتهما قلت : سبحان الله خالقكما ، قال : فاضطر بافكان جبال الدنيا قد تكنت ، قال : فغشى علي وعلى اليهودي ، ثم أفاق اليهودي قبلي ، فقال : قم اكدت أن تهلك نفسك وتهلكني .

وروى ابن فضيل عن ليث عن مجاهد قال : يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر ، بالغنى ، والمريض ، والعبد المملوك . قال : فيقول الله عز وجل للغنى : ما شغلك عن عبادتي التي إنما خلقتك لها ؟ فيقول يارب أكثر لي من المال فطغيت . فيؤتى بسليمان عليه السلام في ملكه فيقول لها : أنت كنت أكثر مالا وأشد شغلا أم هذا ؟ قال : فيقول : بل هذا يارب ، فيقول الله له : فان هذا لم يمنعه ما أوتى من الملك والمال والشغل عن عبادتي . قال : ويؤتى بالمريض فيقول : ما منعك عن عبادتي التي خلقتك لها ؟ فيقول : يارب شغلني عن هذا مرض جسدي ، فيؤتى بأيوب عليه السلام في ضربه وبلائه ، فيقول له : أنت كنت أشد ضرا ومرضا أم هذا ؟ فيقول : بل هذا ، فيقول : إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتي . ثم يؤتى بالمملوك فيقول الله له : ما منعك من عبادتي التي خلقتك لها ؟ فيقول رب فضلت علي أربابا فملكوني وشغلوني عن عبادتك . فيؤتى بيوسف عليه السلام في رقه وعبوديته فيقول الله له : أنت كنت أشد في رقبك وعبوديتك أم هذا ؟ فيقول : بل هذا يارب ، فيقول الله : فان هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتي . وروى حميد عن الأعرج عن مجاهد . قال : كنت أصحب ابن عمر في السفر فاذا أردت أن أركب منك ركابي ، فاذا ركبت سوى علي ثيابي فرآني مرة كأني كرهت ذلك في ، فقال : يا مجاهد إنك لضيق الخلق ، وفي رواية : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا الثوري عن رجل عن مجاهد . قال : جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث شاء ، وجعل له أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها

منهم . وقال : لما هبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولد للفناء . وروى قتيبة عن جرير عن منصور عن مجاهد . [ويأمنهم اللاعنون] قال : تلعن عصاة بني آدم دواب الأرض وماشاء الله حتى الحيات والعقارب ، : يقولون : منعنا القطر بذنوب بني آدم . وقال غيره : تسلط الحشرات على العصاة في قبورهم ، لما كان ينالهم من الشدة بسبب ذنوبهم . فتلك الحشرات من العقارب والحيات هي السيئات التي كانوا يعملونها في الدنيا ويستلذونها ، صارت عذاباً عليهم . نسأل الله العاقبة . وقال : [إن الإنسان لربه لكنود] لكفور . وقال الامام أحمد : حدثنا عمر بن سليمان حدثني مسلم أبو عبد الله عن ابيث عن مجاهد قال : من لم يستحي من الحلال خفت مؤنته وأراح نفسه . وقال عمرو بن زروق حدثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد . قال [فظن أن لن نقدر عليه] أن لن نعاقيه بذنبه . وبهذا الاسناد قال : لم أكن أحسن ما الزخرف حتى سمعتها في قراءة عبد الله بيتنا من ذهب . وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا خلف بن خليفة عن ليث عن مجاهد : إن الله عز وجل ليصلح بصلاح العبد ولده . قل : وبلغني أن عيسى عليه السلام كان يقول : طوبى للمؤمن كيف يخلفه الله فيمن ترك بخير . وقال الفضيل بن عياض عن عبيد المكتب عن مجاهد في قوله تعالى [وتقطع بهم الأسباب] الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا . وروى سفيان بن عيينة عن سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : [لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة] قال : الا لله عز وجل . وقال في قوله تعالى [بقية الله خير لكم] طاعة الله عز وجل . وفي قوله تعالى [ولن خاف مقام ربه جنتان] قال : هو الذي يذكر الله عند الهم بالمعاصي . وقال الفضيل بن عياض عن منصور عن مجاهد : [سيأثم في وجوههم] الخشوع . وفي قوله تعالى : [وقوموا لله قانتين] قال القنوت الركود والخشوع وغض البصر ، وخفض الجناح من رهبة الله . وكان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره أو يلتفت أو يقلب الحصى ، أو يعيث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا ، إلا خاشعاً مادام في صلاته . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عمرو وحدثنا ابن إدريس حدثني عقبة بن إسحاق - وأثنى عليه خيراً - حدثنا ليث عن مجاهد . قال : كنت إذا رأيت العرب استخفيتها وجدتها من وراء دينها ، فإذا دخلوا في الصلاة فكأنما أجساد ليست فيها أرواح . وروى الأعمش عنه قال : إنما القلب منزلة الكف ، فإذا أذنب الرجل ذنباً قبض هكذا - وضم الخنصر حتى ضم أصابعه كلها أصبعاً أصبعاً - قال : ثم يطبع ، فكأنوا يرون ذلك الران : قال الله تعالى : [كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون] وروى قبيصة عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد : [بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته] قال : الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبني على الشيء المحيط ، كلما عمل ذنباً ارتفعت حتى تفسى القلب حتى تكون هكذا - ثم قبض يده - ثم قال : هو الران . وفي قوله : [بما

قدم وأخر [قال : أول عمل العبد وآخره] [وإلى ربك فارغب] قال : إذا فرغت من أمر الدنيا فممت إلى الصلاة فأجمل رغبتك إليه ، ونيتك له .

وعن منصور عن مجاهد [النفس المطمئنة] قال : هي النفس التي قد أيقنت أن الله ربها وضربت حاشا لأمره وطاعته . وروى عبد الله بن المبارك عن ليث عن مجاهد : قال : ما من ميت يموت إلا عرض عليه أهل مجلسه ، إن كان من أهل الذكرك فمن أهل الذكرك ، وإن كان من أهل اللهوف فمن أهل اللهوف . وقال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن مجاهد . قال : قال إبليس : إن يعجزني ابن آدم فلن يعجزني من ثلاث خصال : أخذ مال بغير حق ، وإفناقه في غير حقه ^(١) وقال أحمد : حدثنا ابن نمير قال قال الأعمش : كنت إذا رأيت مجاهداً ظننت أنه حر مندم قد ضل حماره فهو مهم . وعن ليث عن مجاهد قال : من أكرم نفسه وأعزها أذل دينه ، ومن أذل نفسه أعز دينه . وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد قال قال لي : يا أبا الغازی كم لبث نوح في الأرض ؟ قال : قلت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قال : فان الناس لم يزدادوا في أعمارهم وأجسادهم وأخلاقهم إلا نقصاً . وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي علية عن ليث عن مجاهد قال : ذهب العلماء فما بقي إلا المتعلمون ، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم . وروى ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن إدريس عن ليث عن مجاهد قال : لو لم يصب المسلم من أخيه إلا أن حياه منه بمنعه من المعاصي لكان في ذلك خير . وقال : الققيه من يخاف الله وإن قل علمه ، والجاهل من عصى الله وإن كثرت علمه . وقال : إن العبد إذا أقبل على الله بقلبه أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه . وقال في قوله تعالى : [وثيابك فطهر] قال : عملك فأصاح ، [واسألوا الله من فضله] قال : ليس من عرض الدنيا [والذي جاء بالصدق وصدق به] قال : هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه وعملوا بما فيه . وقال : يقول القرآن للعبد إني معك ما اتبعتني ، فإذا لم تعمل بي اتبعتك . [ولا تنس نصيبك من الدنيا] قال : خذ من دنياك لا آخرتك ، وذلك أن تعمل فيها بطاعة الله عز وجل . وقال داود بن الحبر عن عباد بن كثير عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه مجاهد بن جبير قال : قلت لابن عمر : أي حجاج بيت الله أفضل وأعظم أجراً ؟ قال : من جمع ثلاث خصال ، نية صادقة ، وعقلاً وافراً ، ونفقة من حلال ، فذكرت ذلك لابن عباس فقال : صدق . فقلت : إذا صدقت نيته وكانت نفقته من حلال فماذا يضره قلة عقله ؟ فقال : يا أبا حجاج ، سألتني عما سألت عنه رسول الله (ص) ، فقال : « والذي نفسي بيده ما أطاع العبد الله بشيء أفضل من حسن العقل ، ولا يقبل الله صوم عبده ولا صلاته ، ولا شيئاً مما يكون من عمله من أنواع الخير إن لم يعمل بعقل . ولو أن جاهلاً فاق المجتهدين في العبادة ، كان ما يفسد أكثر

(١) كذا بالأصل . . .

مما يصلح . قلت : ذكر العقل في هذا الحديث ورفع إلى النبي (ص) من المنكرات والموضوعات ،
والثلاث الخصال موقوفة على ابن عمر ، من قوله من جمع ثلاث خصال ، إلى قوله : قال ابن عباس
صدق ، والباقي لا يصح رفعه ولا وقفه ، وداود بن المحبر كنيته أبو سليمان ، قال الحاكم : حدث بيغدار
عن جماعة من الثقات بأحاديث موضوعة ، حدث بها عنه الحارث بن أبي أسامة ، وله كتاب العقل ،
أكثر ما أودع ذلك الكتاب موضوع على رسول الله (ص) ، وذكر العقل مرفوعاً في هذه الرواية
لعله من جعلها ، والله أعلم . وقد كذب أحمد بن حنبل [(١)]

مصعب بن سعد بن أبي وقاص

تابعي جليل القدر . موسى بن طلحة بن عبيد الله النخعي ، كان يلقب بالمهدي لصلاحه ، كان
تابعياً لجليل القدر من سادات المسلمين رحمه الله

ثم دخلت سنة اربع ومائة

فيها قاتل سعيد بن عمرو الحرشي نائب خراسان أهل الصغد وحاصر أهل خجندة وقتل خلقاً
كثيراً ، وأخذ أموالاً جزيلة ، وأسر رقيقاً كثيراً جداً ، وكتب بذلك إلى يزيد بن عبد الملك ،
لأنه هو الذي ولاه . وفي ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن
ابن الضحاك بن قيس ، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك ، فألح
عليها وتوعدها ، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه ، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب
الطائف فولاه المدينة ، وأن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين
وهو متكئ على فراشه بدمشق ، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار ، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب
إلى دمشق واستجار بمسلة بن عبد الملك ، فدخل على أخيه فقال : إن لي إليك حاجة ، فقال : كل
حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك ، فقال : هو والله حاجتي ، فقال : والله لا أقبلها ولا
أعفو عنه ، فرده إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف ، فسأل
الناس بالمدينة ، وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهرًا ، وكان الزهري قد أشار عليه برأى
سديد ، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ، ولم يفعل ، فأبغضه الناس وذمه الشعراء
ثم كان هذا آخر أمره .

وفيها عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي ، وذلك أنه كان يستخف بأمر ابن هبيرة ،
فلما عزله أحضره بين يديه وعاقبه وأخذ منه أموالاً كثيرة ، وأمر بقتله ثم عفا عنه ، وولى على
خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلبي ، فسار إليها فاستخلص أموالاً كانت منكسرة في

(١) من أول الفصل إلى هنا زيادة من المصرية .

أيام سعيد بن عمرو الحرشي . وفيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمي نائب أرمينية وأذربيجان ، أرض الترك ، ففتح بلنجر وهزم الترك وغرقهم وذارهم في الماء ، وسبى منهم خلقا كثيرا ، وافتتح عامة الحصون التي تلي بلنجر ، وأجلى عامة أهلها ، والتقى هو وإخاقتان الملك فجرت بينهما وقعة هائلة آل الأمر فيها إلى أن انهزم خاقان ، وتبعهم المسلمون ، قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير لا يحصون . وحج بالناس في هذه السنة عبد الواحد بن عبد الله النضري أمير الحرمين والطائف ، وعلى نيابة العراق وخراسان عمر ، ونائبه على خراسان مسلم بن سعيد يومئذ . وفي هذه السنة ولد السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح ، أول خلفاء بني العباس وقد بايع أباه في الباطن جماعة من أهل العراق . وفيها توفي من الأعيان :

خالد بن معدان الكلاعي

[له روايات عن جماعة من الصحابة ، وكان تابعيا جليلا ، وكان من العلماء وأئمة الدين المعدودين المشهورين ، وكان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة وهو صائم ، وكان إمام أهل حمص ، وكان يصلي التراويح في شهر رمضان ، فكان يقرأ فيها في كل ليلة ثلث القرآن ، وروى الجوزجاني عنه أنه قال : من اجترأ على الملاوم في مراد الحق ، قلب الله تلك المحامد عليه ذما . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : ما من عبد إلا وله أربعة أعين . عينان في وجهه يبصر بهما أمر دنياه ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر آخرته ، فإذا أراد الله بالعبد خيرا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما أمر آخرته وهما غيب ، فأمن الغيب بالغيب ، وإذا أراد الله بالعبد خلافاً ذلك ترك العبد القلب على ما هو عليه ، فتراه ينظر فلا ينتفع ، فإذا نظر بقلبه نفع ، وقال : بصر القلب من الآخرة ، وبصر العينين من الدنيا وله فضائل كثيرة رحمه الله تعالى]^(١)

عامر بن سعد بن أبي وقاص الليثي

له روايات كثيرة عن أبيه وغيره ، وهو تابعي جليل ، ثقة مشهور

عامر بن شراحيل الشعبي

توفي فيها في قول [كان الشعبي من شعب همدان ، كنيته أبو عمرو ، وكان علامة أهل الكوفة ، كان إماماً حافظاً ، ذا فنون ، وقد أدرك خلقا من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة من التابعين ، وعنه أيضا روى جماعة من التابعين ، قال أبو مجلز : ما رأيت أفقه من الشعبي . وقال مكحول : ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية منه . وقال داود الأودي : قال لي الشعبي : قم معي ها هنا حتى أفيديك علما ، بل هو رأس العلم . قلت : أي شيء تفيدني ؟ قال : إذا سئلت عما لا تعلم فقل : الله أعلم ، فإنه

(١) زيادة من المصريه .

علم حسن . وقال : لو أن رجلاً سافر من أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيها يستقبل من عمره ما رأيت سفره ضائعاً ، ولو سافر في طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد ، لرأيت سفره عقوبة وضياعا وقال : العلم أكثر من عدد الشعر ، نخذ من كل شيء أحسنه | (١) .

ابو بردة بن ابو موسى الأشعري

تولى قضاء الكوفة قبل الشعبي ، فان الشعبي تولى في خلافة عمر بن عبد العزيز ، واستمر إلى أن مات ، ولما أبو بردة فانه كان قاضياً في زمن الحجاج ، ثم عزله الحجاج وولى أخاه أبا بكر ، وكان أبو بردة فقهاً حافظاً عالماً ، له روايات كثيرة .

ابو قلابة الجرمي

[عبد الله بن يزيد البصري ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان من كبار الأئمة والفقهاء ، وطلب للقضاء فهرب منه وتغرب ، قدم الشام فنزل دارياً وبها مات رحمه الله . قال أبو قلابة : إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة ، ولم يكن همك ما تحدث به الناس ، فلعل غيرك يفتنك ويستغنى وأنت في الظلمة تتعثر ، وإني لأرى هذه المجالس إنما هي مناخ البطالين . وقال : إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذراً جهديك ، فان لم تجد له عذراً فقل : لعل لأخي عذراً لا أعلمه] (٢) ثم دخلت سنة خمس ومائة

فيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمي بلاد اللان ، وفتح حصونا كثيرة ، وبلاداً متسعة الأكناف من وراء بلنجر ، وأصاب غنائم جمّة ، وسبي خلقاً من أولاد الأتراك . وفيها غزا مسلم بن سعيد بلاد الترك وحاصر مدينة عظيمة من بلاد الصغد ، فصالحه ملكها على مال كثير يحمله إليه . وفيها غزا سعيد بن عبد الملك بن مروان بلاد الروم ، فبعث بين يديه سرية ألف فارس ، فأصيبوا جميعاً وفيها لحس بقين من شعبان منها توفي أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بن مروان بأربد من أرض البلقاء ، يوم الجمعة ، وعمره ما بين الثلاثين والأربعين ، وهذه ترجمته :

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو خالد القرشي الأموي ، أمير المؤمنين ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، قيل إنها دفنت بقبر عاتكة فنسبت المحلة إليها والله أعلم . بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب من سنة إحدى ومائة بعهد من أخيه سليمان ، أن يكون الخليفة بعد عمر ابن عبد العزيز ، لحس بقين من رجب ، قال محمد بن يحيى الذهلي : حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر ابن برقان حدثني الزهري قال : كان لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم في عهد رسول الله (ص) ، وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، فلما ولى الخلافة معاوية ورث المسلم من الكافر . ولم يرث الكافر من

(١) (٢) زيادة من المصرية .

المسلم ، وأخذ بذلك الخلفاء من بعده ، فلما قام عمر بن عبد العزيز راجع السنة الأولى ، وتبعه في ذلك يزيد بن عبد الملك ، فلما قام هشام أخذ بسنة الخلفاء - يعني أنه ورث المسلم من الكافر - وقال الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال : بينما نحن عند مكحول إذ أقبل يزيد بن عبد الملك فهممنا أن نوسع له ، فقال مكحول : دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ، يتعلم التواضع .

وقد كان يزيد هذا يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة ، فلما ولي عزم على أن يتأسي بعمر بن عبد العزيز ، فسا تركه قرناء السوء ، وحسنوا له الظلم ، قال حرمة عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما ولي يزيد بن عبد الملك قال سيروا بسيرة عمر ، فكث كذلك أربعين ليلة ، فأتى بأربعين شيخاً فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب ، وقد اتهمه بعضهم في الدين ، وليس بصحيح ، إنما ذلك ولده الوليد بن يزيد كما سيأتي ، أما هذا فما كان به بأس ، وقد كتب إليه عمر بن عبد العزيز : أما بعد فإني لأراني إلا ملماً بي ، وما أرى الأمر إلا سيفضى إليك ، فالله الله في أمة محمد ، فانك عما قليل ميت فتدع الدنيا إلى من لا يمدرك ، والسلام . وكتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام : أما بعد فان أمير المؤمنين قد بلغه أنك استبطلت حياته وتمنيت وفاته ورمت الخلافة ، وكتب في آخره

فنى رجال أن أموت وإن أمت * فتلك سبيل لست فيها بأوحد
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم * متى مت ما الباعى على بمخلد
منينته تجرى لوقت وحتفه * يصادفه يوماً على غير موعد
فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى * نهياً لأخرى مثلها وكان قد

فكتب إليه هشام : جعل الله يومى قبل يومك ، وولدى قبل ولدك ، فلا خير في العيش بعدك وقد كان يزيد هذا يحب حظية من حظاياها يقال لها حيابة - بتشديد الباء الأولى - والصحيح تخفيفها - واسمها العالية ، وكانت جميلة جداً ، وكان قد اشتراها في زمن أخيه بأربعة آلاف دينار ، من عثمان بن سهل بن حنيف ، فقال له أخوه سليمان : لقد هممت أحجر عني يدك ، فباعها ، فلما أفضت إليه الخلافة قالت له امرأته سعدة يوماً : يا أمير المؤمنين ، هل بقى في نفسك من أمر الدنيا شيء ؟ قال : نعم ، حيابة ، فبعثت امرأته فاشتريتها له ولبستها وصنعتهما وأجلستهما من وراء الستارة ، وقالت له أيضاً : يا أمير المؤمنين هل بقى في نفسك من أمر الدنيا شيء ؟ قال : أو ما أخبرتك ؟ فقالت : هذه حيابة - وأبرزتها له وإخلته بها وتركنه وإياها - فحظيت الجارية عنده ، وكذلك زوجته أيضاً ، فقال يوماً : أشتهي أن أخلو بحيابة في قصر مدة من الدهر ، لا يكون عندنا أحد ، ففعل ذلك ، وجمع إليه في قصره ذلك حيابة ، وليس عنده فيه أحد ، وقد فرش له بأنواع الفرش والبسط الهائلة ، والنعمة الكثيرة السابقة ،

فبينما هو معها في ذلك القصر على أسرّ حال وأنعم بال ، وبين يديهما عنب يأكلان منه ، إذ رماها بحجة عنب وهي تضعك فشرقت بها فماتت ، فكث أياما يقبلها ويرشفها وهي ميتة حتى أنقنت وجيقت فأمر بدفنها ، فلما دفنها أقام أياما عندها على قبرها هائما ، ثم رجع إلى المنزل ثم عاد إلى قبرها فوقف عليه وهو يقول :

فان تسلُّ عنك النفسُ أو تدعُ الصبا * فبالئاسِ تسلو عنك لا بالتجلدِ
وكلُّ خليلٍ زارني فهو قائلٌ ~ * من أجلك هذا هامةُ اليوم أو غدِ

ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج بنعشه وكان مرضه بالسل . وذلك بالسواد سواد الاردن يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من هذه السنة - اعنى سنة خمس ومائة -

وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور ، وقيل أقل من ذلك ، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة ، وقيل خمسا وقيل سنا وقيل ثمانياً وقيل تسعا وثلاثين . وقيل إنه بلغ الأربعين فإله أعلم . وكان طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه أقم الفم لم يشب ، وقيل إنه مات بالجولان ، وقيل بحوران وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد ، وعمره خمس عشرة سنة ، وقيل بل صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك ، وهو الخليفة بعده ، وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق ، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ، ومن بعده لولده الوليد بن يزيد ، فبايع الناس من بعده هشاماً

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

بويح له بالخلافة يوم الجمعة بعد موت أخيه لخمس بقين من شعبان من هذه السنة - أعنى سنة خمس ومائة - وله من العمر أربع وثلاثون سنة وأشهر ، لأنه ولد لما قتل أبوه عبد الملك مصعب بن الزبير في سنة ثنتين وسبعين ، فسماه منصور اتفاؤلاً ، ثم قدم فوجد أمه قد أسمته باسم أبيها هشام ، فأقره . قال الواقدي : أته الخلافة وهو بالديثونة في منزل له ، فجاءه البريد بالعصا والخاتم ، فسلم عليه بالخلافة فركب من الرصافة حتى أتى دمشق ، فقام بأمر الخلافة أتم القيام ، فعزل في شوال منها عن إمرة العراق وخراسان عمر بن هبيرة ، وولى عليها خالد بن عبد الله القسري ، وقيل إنه استعمله على العراق في سنة ست ومائة ، والمشهور الأول . وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الخزومي خال أمير المؤمنين ، أخو أمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل ، ولم تلد من عبد الملك سواه حتى طلقها ، لأنها كانت حقاء . وفيها قوى أمر دعوة بني العباس في السرب أرض العراق ، وحصل لدعاتهم أموال جزيلة يستعينون بها على أمرهم ، ومأم بصدده . وفيها توفي من الأعيان :

أبان بن عثمان بن عفان

تقدم ذكر وقته سنة خمس وثمانين ، كان من فقهاء التابعين وعلماهم ، قال عمرو بن شعيب

ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقہ ، وقال يحيى بن سعيد القطان : فقهاء المدينة عشرة ، فذكر أبان بن عثمان أحدهم ، وخارجة بن زيد ، وسالم بن عبد الله ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة ، وعروة ، والقاسم ، وقبيصة بن ذؤيب ، وأبوسلعة بن عبد الرحمن . قال محمد ابن سعد : كان به صمم ووضوح ، وأصابه الفالج قبل أن يموت بسنة ، وتوفي سنة خمس ومائة . أبورجاء العطاردي . عامر الشعبي . في قول وقد تقدم ، وكثير عزة في قول . وقيل في التي بعدها كما سيأتي :

ثم دخلت سنة ست ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك عن إمرة المدينة ومكة والطائف ، عبد الواحد بن عبد الله النضري ، وولى على ذلك كله ابن خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الحزومي ، وفيها غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة ، وفيها غزا مسلم بن سعيد مدينة فرغانة ومعاملتها ، فلقبه عندها الترك ، وكانت بينهم وقعة هائلة ، قتل فيها الخاقان وطائفة كبيرة من الترك ، وفيها أوغل الجراح الحكمي في أرض الخزر ، فصالحوه وأعطوه الجزية والخراج . وفيها غزا الحجاج بن عبد الملك اللان ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم وسلم . وفيها عزل خالد بن عبد الله القسري عن إمرة خراسان مسلم بن سعيد ، وولى عليها أخاه أسد بن عبد الله القسري . وحج بالناس في هذه السنة أمير المؤمنين هشام بن الملك ، وكتب إلى أبي الزناد قبل دخوله المدينة ليتلقاه ويكتب له مناسك الحج ، ففعل ، فتلقاه الناس من المدينة إلى أثناء الطريق ، وفيهم أبو الزناد قد امتثل ما أمر به ، وتلقاه فيمن تلقاه سعيد بن عبد الله ابن الوليد بن عثمان بن عفان ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن أهل بيتك في مثل هذه المواطن الصالحة لم يزالوا يلعنون أبا تراب ، فالعنه أنت أيضاً ، قال أبو الزناد : فشق ذلك على هشام واستنقله ، وقال : ما قدمت لشم أحد ، ولا لعنة أحد ، إنما قدمنا حججاً . ثم أعرض عنه وقطع كلامه وأقبل على أبي الزناد بمحادثته ولما انتهى إلى مكة عرض له إبراهيم بن طلحة فتظلم إليه في أرض ، فقال له : أين كنت عن عبد الملك ؟ قال : ظمني ، قال : فالوليد ؟ قال : ظمني ، قال : فسليمان ؟ قال : ظمني ، قال فعمر ابن عبد العزيز ؟ قال ردها علي ، قال : فيزيد ؟ قال : انتزعها من يدي ، وهي الآن في يدك ، فقال له هشام : أما لو كان فيك مضرب لضربتك ، فقال : بلي في مضرب بالسوط والسيف ، فانصرف عنه هشام وهو يقول لمن معه : ما رأيت أفصح من هذا . وفيها كان العامل على مكة والمدينة والطائف ، إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وعلى العراق وخراسان خالد القسري والله سبحانه أعلم . ومن توفي فيها ، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عمرو والفقهاء ، أحد الفقهاء وأحد العلماء وله روايات عن أبيه وغيره ، وكان من العباد الزهاد ، ولما حج هشام بن عبد الملك دخل

الكعبة فاذا هو بسالم بن عبد الله ، فقال له : سالم ؟ ^(١) سئلتني حاجة ، فقال : إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره ، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له : الآن قد خرجت من بيت الله فسئلتني حاجة ، فقال سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ قال : من حوائج الدنيا ، فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألكم من لا يملكها ؟ وكان سالم خشن العيش ، يلبس الصوف الخشن ، وكان يعالج بيده أرضاله وغيرها من الأعمال ، ولا يقبل من الخلفاء ، وكان متواضعا وكان شديد الأدمة وله من الزهد والورع شيء كثير .

وطاوس بن كيسان البجلي من أكبر أصحاب ابن عباس وقد ترجمناهم في كتابنا التكميل والله الحمد انتهى وقد زدنا هنا في ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب زيادة حسنة . فأما طاوس فهو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان البجلي ، فهو أول طبقة أهل اليمن من التابعين ، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن .

أدرك طاوس جماعة من الصحابة وروى عنهم ، وكان أحد الأئمة الأعلام ، قد جمع العبادة والزهادة ، والقيام بالنافع ، والعمل الصالح ، وقد أدرك خمسين من الصحابة ، وأكثر روايته عن ابن عباس ، وروى عنه خلق من التابعين وأعلامهم ، منهم مجاهد وعطاء وعمر بن دينار ، وإبراهيم ابن ميسرة ، وأبو الزبير ومحمد بن المنكدر ، والزهرى وحبيب بن أبي ثابت ، وليث بن أبي سليم ، والضحاك بن مزاحم . وعبد الملك بن ميسرة ، وعبد الكريم بن المخارق ووهب بن منبه ، والمغيرة ابن حكيم الصنعاني ، وعبد الله بن طاوس ، وغير هؤلاء .

توفي طاوس بمكة حاجا ، وصلى عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ، ودفن بها رحمه الله تعالى . قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال قال أبي : مات طاوس بمكة فلم يصلوا عليه حتى يموت هشام ابنه بالحرس ، قال فلقد رأيت عبد الله بن الحسن واضعا السرير على كاهله ، قال : ولقد سقطت قلنسوة كانت عليه ومزق رداؤه من خلفه - يعني من كثرة الزحام - فكيف لا وقد قال النبي (ص) : « الايمان يمان » وقد خرج من اليمن خلق من هؤلاء المشار إليهم في هذا وغيره ، منهم أبو مسلم ، وأبو إدريس ، ووهب وكعب وطاوس وغير هؤلاء كثير . وروى ضمرة عن ابن شوذب قال : شهدت جنازة طاوس بمكة سنة خمس ومائة ، فجمعوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمن ، حج أربعين حجة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا أبي قال : توفي طاوس بالمزدلفة - أو بعني - حاجا ، فلما حمل أخذ عبد الله بن الحسن بن علي بقائمة سريره . فما زايله حتى بلغ القبر . وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق

(١) كذا بالأصل ولعل المراد ياسالم .

قال : قدم طاوس بمكة ، فقدم أمير المؤمنين ، فقبل لطاوس : إن من فضله ومن ، ومن ، فلو أتيته
قال : مالي إليه حاجة ، فقالوا : إنا نخاف عليك ، قال : فما هو إذا كما تقولون : وقال ابن جرير قال لي
عطاء : جاءني طاوس فقال لي : يا عطاء إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل
دونه حجاباً . وعليك بطلب من بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعوه ووعده
الاجابة . وقال ابن جرير عن مجاهد عن طاوس [أوائلك ينادون من مكان بعيد] قال : بعيد من
قلوبهم ، وروى الأحمري عن سفيان عن ليث قال قال لي طاوس : ما تعلمت من العلم فتعلمه
لنفسك ، فإن الأمانة والصدق قد ذهبوا من الناس . وقال عبد الرحمن بن مهدي عن حماد بن زيد
عن الصلت بن راشد . قال : كنا عند طاوس فجاءه مسلم بن قتيبة بن مسلم ، صاحب خراسان ،
فسأله عن شيء فأنهره طاوس ، فقلت : هذا مسلم بن قتيبة بن مسلم صاحب خراسان ، قال : ذاك
أهون له علي . وقال لطاوس : إن منزلك قد استرم ، فقال : أمسينا .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس في قوله تعالى [وخلق الانسان ضعيفا] قال : في
أمور النساء ، ليس يكون في شيء أضعف منه في النساء . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا يحيى بن
بكير حدثنا إبراهيم بن نافع عن ابن طاوس عن أبيه قال : لقي عيسى بن مريم عليه السلام إبليس
فقال إبليس لعيسى : أما علمت أنه إن يصيبك إلا ما كتب الله لك ؟ قال : نعم ، قال إبليس : فأوف
بذروة هذا الجبل فترد منه . فانظر أتعيش أم لا . قال عيسى : أما علمت أن الله تعالى قال : لا يجربني
عبدى ، فاني أفعل ما شئت . وفي رواية عن الزهري عنه قال قال عيسى : إن العبد لا يختبر ربه ،
ولكن الرب يختبر عبده ، وفي رواية أخرى : إن العبد لا يبتلى ربه ، ولكن الرب يبتلى عبده .
قال : فخصمه عيسى عليه السلام . وقال فضيل بن عياض عن ليث عن طاوس قال : حج الأبرار
على الرحال ، رواه عبد الله بن أحمد عنه .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو نعيم عن ابن أبي داود . قال : رأيت طاوساً وأصحاباً له إذا صلوا
العصر استقبلوا القبلة ولم يكلموا أحداً ، وابتهلوا إلى الله تعالى في الدعاء . وقال : من لم يبخل ولم
يل مال يقيم لم ينله جهد البلاء . روى عنه أبو داود الطيالسي ، وقد رواه الطبراني عن محمد بن
يحيى بن المنذر عن موسى بن إسماعيل عن أبي داود فذكره . وقال لابنه : يا بني صاحب العقلاء
تنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، واعلم أن
لكل شيء غاية : وغاية المرء حسن عقله . وسأله رجل عن مسألة فأنهره ، فقال : يا أبا عبد الرحمن
إني أخوك ، قال : أخى من دون الناس ؟ . وفي رواية أن رجلاً من الخوارج سأله فأنهره ، فقال :
إني أخوك ، قال : قال : أمن بين المسلمين كلهم ؟ . وقال عفان عن حماد بن زيد عن أيوب قال : سألت

رجل طاوساً عن شيء فأنهره ، ثم قال : تريد أن تجعل في عنقي حبلاً ثم يطاف بي ؟ ورأى طاوس رجلاً مسكيناً في عينه عمش وفي ثوبه وسخ ، فقال له : عد ! إن الفقر من الله ، فأين أنت من الماء ؟ وروى الطبراني عنه قال : إقرار ببعض الظلم خير من القيام فيه ، وعن عبد الرزاق عن داود ابن إبراهيم أن الأسد حبس الناس ليلة في طريق الحج ، فدق الناس بعضهم بعضاً ، فلما كان السحر ذهب عنهم الأسد ، فنزل الناس يمينا وشمالاً فألقوا أنفسهم ، وقام طاوس يصلي ، فقال له رجل - وفي رواية فقال ابنه - : ألا تنام فانك قد سهرت ونصبت هذه الليلة ؟ فقال : وهل ينام السحر أحد ؟ وفي رواية : ما كنت أظن أحداً ينام السحر . وروى الطبراني من طريق عبد الرزاق عن أبي جريح وابن عيينة . قالوا : حدثنا ابن طاوس قال : قلت لأبي : ما أفضل ما يقال على الميت ؟ قال الاستغفار .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الرزاق قال سمعت النعمان بن الزبير الصنعاني يحدث أن محمد بن يوسف - أو أيوب بن يحيى - بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار وقال للرسول : إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك . قال : فخرج بها حتى قدم على طاوس الجند ، فقال : يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها الأمير إليك ، فقال : مالي بها من حاجة ، فأرادته على أخذها بكل طريق فأبى أن يقبلها ، ففعل طاوس فرمى بها الرجل من كوة في البيت ثم ذهب راجعاً إلى الأمير ، وقال : قد أخذها ، فمكتوا حيناً ثم بلغهم عن طاوس ما يكرهون - أو شيء يكرهونه - فقالوا : ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا ، فجاءه الرسول فقال : المال الذي بعثه إليك الأمير رده إلينا ، فقال : ما قبضت منه شيئاً ، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم ، فعرفوا أنه صادق ، فقالوا : انظروا الذي ذهب بها إليه ، فأرسلوه إليه ، فجاءه فقال : المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن ، قال : هل قبضت منك شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فقام إلى المكان الذي رمى به فيه فوجدتها كما هي ، وقد بنت عليها المنكبوت ، فأخذها فذهب بها إليهم .

ولما حج سليمان بن عبد الملك قال : انظروا إلى فقيرها أسأله عن بعض المناسك ، قال : فخرج الحاجب يلتمس له ، فرط طاوس فقالوا : هذا طاوس البهاني ، فأخذته الحاجب فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : اعفني ، فأبى ، فأدخله عليه ، قال طاوس : فلما وقفت بين يديه قلت : إن هذا المقام يسألني الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن صخرة كانت على شفير جهنم هوت فيها سبعين خريفاً حتى استقرت في قرارها ، أتدرى لمن أعدها الله ؟ قال : لا ! ! ويلك لمن أعدها الله ؟ قال : لمن أشركه الله في حكمه فجار . وفي رواية ذكرها الزهري أن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت ، له جمال وكمال ، فقال : من هذا يا زهري ؟ فقلت : هذا طاوس ، وقد أدرك عدة من الصحابة ، فأرسل

إليه سليمان فأتاه فقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثني أبو موسى قال : قال رسول الله (ص) : « إن أهنون الخلق على الله عز وجل من ولى من أمور المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم » . فتغير وجه سليمان فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه فقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثني رجل من أصحاب النبي (ص) - قال ابن شهاب : ظننت أنه أراد علياً - قال : دعاني رسول الله (ص) ، إلى طعام في مجلس من مجالس قريش ، ثم قال : « إن لكم على قريش حقاً ، ولهم على الناس حق ، ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا ائتمنوا أدوا ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » . قال : فتغير وجه سليمان وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه وقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله : [واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون] .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثني أبو معمر عن ابن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة قال قال عمر بن عبد العزيز لطاوس : ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين - يعني سليمان - فقال طاوس مالى إليه من حاجة ، فكأنه عجب من ذلك ، قال : سفيان وحلف لنا إبراهيم وهو مستقبل الكعبة : ورب هذا البيت ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة إلا طاوس . قال : وجاء ابن لسليمان بن عبد الملك فجلس إلى جنب طاوس فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ؟ قال : أردت أن يعلم هو وأبوه أن الله عبداً يزهدون فيهم وفيما في أيديهم . وقد روى عبد الله بن أحمد عن ابن طاوس قال : خرجنا حججاً فترلنا في بعض القرى ، وكنت أخاف أبي من الحكام لشدته وغلظه عليهم ، قال : وكان في تلك القرية عامل لمحمد بن يوسف - أخى الحجاج بن يوسف - يقال له أيوب بن يحيى ، وقيل يقال له ابن نجيح ، وكان من أخبث عمالهم كبراً ونجراً ، قال : فشهدنا صلاة الصبح في المسجد ، فاذا ابن نجيح قد أخبر بطاوس فجاء فقمع بين يدي طاوس ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم كلمه فأعرض عنه ، ثم عدل إلى الشق الآخر فأعرض عنه ، فلما رأيت ما به قمت إليه وأخذت بيده ثم قلت له : إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك ، فقال طاوس : بلى ! إني به لعارف ، فقال الأمير : إنه بي لعارف ، ومعرفته بي فعلت بي ما رأيت . ثم مضى وهو ساكت لا يقول شيئاً ، فلما دخلت المنزل قال لي أبي : يالكع ، بينما أنت تقول أريد أخرج عليهم بالسيف لم تستطع أن نجس عنهم لسانك .

وقال أبو عبد الله الشامي : أتيت طاوساً فاستأذنت عليه فخرج إلى ابنه شيخ كبير ، فقلت : أنت طاوس ؟ فقال : لا ! أنا ابنه ، فقلت : إن كنت أنت ابنه فان الشيخ قد خرف ، فقال : إن العالم لا يخرف ، فدخلت عليه فقال طاوس : سل فأوجز ، فقلت : إن أوجزت أوجزت لك ،

فقال يزيد أن أجمع لك في مجلسي هذا التوراة والانجيل والفرقان؟ قال: قلت نعم! قال: خف الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه، وارجعه رجاء هو أشد من خوفك إياه، وأحب للناس ما تحب لنفسك.

وقال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه. قال: يجاء يوم القيامة بالمال وصاحبه فيحتاجان، فيقول صاحب المال للمال: جمعتك في يوم كذا في شهر كذا في سنة كذا، فيقول المال: أم أقض لك الحوائج؟ أنا الذي حلت بينك وبين أن تصنع فيما أمرك الله عز وجل من حبك إياي، فيقول صاحب المال إن هذا الذي نفذ على حبال أوثق بها وأقيد، وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا أبي حدثنا يحيى بن الضريس عن أبي سنان عن حبيب ابن أبي ثابت قال: اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثاهم قط، عطاء وطاوس، ومجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة. وقال سفيان: قلت لعبيد الله بن أبي يزيد: مع من كنت تدخل على ابن عباس؟ قال: مع عطاء والعمامة، وكان طاوس يدخل مع الخاصة، وقال حبيب: قال لي طاوس إذا حدثتك حديثاً قد أثبتته فلا تسأل عنه أحداً - وفي رواية - فلا تسأل عنه غيري.

وقال أبو أسامة، حدثنا الأعمش عن عبد الملك بن ميسرة عن طاوس قال: أدركت خمسين من أصحاب رسول الله - . وقال الامام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر أخبرني ابن طاوس قال: قلت لأبي: أريد أن أتزوج فلانة، قال: اذهب فانظر إليها، قال: فذهبت فلبست من صالح ثيابي، وغسلت رأسي، وادهنت، فلما رأني في تلك الحال قال: اجلس فلا تذهب. وقال عبد الله بن طاوس: كان أبي إذا سار إلى مكة سار شهراً، وإذا رجع رجع في شهر، فقلت له في ذلك، فقال: بلغني أن الرجل إذا خرج في طاعة لا يزال في سبيل الله حتى يرجع إلى أهله. وقال حمزة عن هلال بن كعب. قال: كان طاوس إذا خرج من اليمن لم يشرب إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية، وقال له رجل: ادع الله لي، فقال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

وقال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه. قال: كان رجل فيما خلا من الزمان، وكان عاقلاً لبيباً، فكبر فقمع في البيت، فقال لابنه يوماً: إني قد اغتممت في البيت، فلو أدخلت علي رجلاً يكلموني؟ فذهب ابنه فجمع نفراً فقال: ادخلوا علي أبي فحدثوه، فإن سمعتم منه منكرأ فاعذروه فإنه قد كبر، وإن سمعتم منه خيراً فاقبلوه. قال: فدخلوا عليه فكان أول ما تكلم به أن قال: إن أ كيس الكيس التقى، وأعجز العجز الفجور، وإذا تزوج الرجل فليتزوج من معدن صالح، فإذا اطلعت على فجرة رجل فاحذروه فان لها أخوات

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا أحمد بن نصر بن مالك حدثنا عبد الله بن عمر بن مسلم الجبيري عن أبيه قال قال طاوس لابنه : إذا قبرتني فانظر في قبري ، فان لم تجدني فاحمد الله تعالى ، وإن وجدتني فانا لله وإنا إليه راجعون . قال عبد الله : فأخبرني بعض ولده أنه نظر فلم يره ولم يجد في قبره شيئاً ، ورؤي في وجه السرور ، وقال قبيصة : حدثنا سفيان عن سعيد بن محمد قال : كان من دعاء طاوس يدعو : اللهم احرمني كثرة المال والولد ، وارزقني الإيمان والعمل . وقال سفيان عن معمر حدثنا الزهري قال : لورأيت طاوس بن كيسان علمت أنه لا يكذب .

وقال عون بن سلام : حدثنا جابر بن منصور - أخو إسحاق بن منصور - السلولي عن عمران ابن خالد الخزاعي . قال كنت جالساً عند عطاء فجاء رجل فقال : أبا محمد إن طاوساً يزعم أن من صلى العشاء ثم صلى بعدها ركعتين يقرأ في الأولى : ألم تنزّل السجدة ، وفي الثانية تبارك الذي بيده الملك كتب له مثل وقوف عرفة و ليلة القدر . فقال عطاء : صدق طاوس ما تركتهما . وقال ابن أبي السرى : حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه . قال : كان رجل من بني إسرائيل ، وكان ربما داوى المجانين ، وكانت امرأة جميلة ، فأخذها الجنون ، فحجى بها إليه ، فزلت عنده فأعجبته ، فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : إن علم بها افتضحت ، فأقتلها وادفنها في بيتك ، فقتلها ودفنها ، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها ، قال : ماتت ، فلم يهتموه لصلاحه ومنزلته ، فجاءهم الشيطان فقال : إنها لم تمت ، ولكن قد وقع عليها فحملت فقتلها ودفنها في بيته ، في مكان كذا وكذا ، فجاء أهلها فقالوا : ماتهمك ولكن أخبرنا أين دفنتها ، ومن كان معك ؟ فنبشوا بيته فوجدوها حيث دفنها ، فأخذوه فحبسوه وسجنوه ، فجاءه الشيطان فقال : أنا صاحبك ، فان كنت تريد أن أخرجك مما أنت فيه فاكفر بالله فأطاع الشيطان فكفر بالله عز وجل ، فقتل فتبرأ منه الشيطان حينئذ . وقال طاوس : ولا أعلم أن هذه الآية نزلت إلا فيه وفي مثله [كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين] .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه . قال : كان رجل من بني إسرائيل له أربعة بنين ، فرض ، فقال أحدهم : إما أن تمرضوا أبانا وليس لكم من ميراثه شيء ، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء ، فرضه حتى مات ودفنه ولم يأخذ من ميراثه شيئاً ، وكان فقيراً وله عيال ، فأتى في النوم فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فاحفره تجد فيه مائة دينار فخذها ، فقال للآتي في المنام : بركة أو بلا بركة ؟ فقال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت : اذهب فخذها فان من بركتها أن تكسوني منها ونعيش منها . فأبى وقال : لا آخذ شيئاً ليس فيه بركة . فلما أمسى أتى في منامه فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ

منه عشرة دنانير ، فقال : بركة أو بلا بركة ؟ قال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت له مثل ذلك فأبى أن يأخذها ، ثم أتى في الليلة الثالثة فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ منه ديناراً ، فقال : بركة أو بلا بركة ؟ قال : بركة ، قال ، نعم إذاً ، فلما أصبح ذهب إلى ذلك المكان الذي أشير إليه في المنام فوجد الدينار فأخذه ، فوجد صياداً يحمل حوتين فقال : بكم هما ؟ قال : بدينار ، فأخذهما منه بذلك الدينار ثم انطلق بهما إلى امرأته فقامت تصلحهما ، فشقت بطن أحدهما فوجدت فيه درة لا يقوم بها شيء ، ولم ير الناس مثلها ، ثم شقت بطن الآخر فاذا فيه درة مثلها ، قال : فاحتاج ملك ذلك الزمان درة فبعث يطلبها حيث كانت ليشتريها ، فلم توجد إلا عنده ، فقال الملك : إيت بها ، فأناه بها ، فلما رآها حلاها الله عز وجل في عينيه ، فقال : بعنيها ، فقال : لا أنقصها عن وقر ثلاثين بفلا ذهباً ، فقال الملك : أرضوه ، فخرجوا به فوقروا له ثلاثين بفلا ذهباً ، ثم نظر إليها الملك فأعجبته إعجاباً عظيماً ، فقال : ما تصلح هذه إلا بأختها ، اطلبوا لي أختها ، قال : فأتوه فقالوا له : هل عندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم . فأتى الملك بها ، فلما رآها أختت بقلبه فقال أرضوه ، فأضفوا له ضعف أختها ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا وهيب بن الورد حدثنا عبد الجبار بن الورد قال حدثني داود ابن سابور قال قلنا لطاوس : أدع بدعوات ، فقال : لا أجد لذلك حصة . وقال ابن جرير عن ابن طاوس عن أبيه قال : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشح أن يحب أن له ما في أيدي الناس بالحرام لا يقنع : وقيل الشح هو ترك القناعة ، وقيل : هو أن يشح بما في يد غيره ، وهو مرض من أمراض القلب ينبئ للعبد أن يعزله عن نفسه وينفيه ما استطاع ، وهو يأمرنا بالبخل كما في الحديث الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم [أمرم] بالبخل فبخلوا وبالقطيعة فقطعوا وهذا هو الحرص على الدنيا وحبها » وقال ابن أبي شيبة : حدثنا الحاربي عن ليث عن طاوس قال : ألا رجل يقوم بمشرايات من الليل فيصبح قد كتب له مائة حسنة أو أكثر من ذلك ، ومن زاد زيد في ثوابه ، وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس . قال : لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج . وعن سفيان عن إبراهيم بن ميسرة قال : قال لي طاوس : لتسكنن أولاً قولن لك ما قال عمر بن الخطاب لأبي الزوائد : ما يمنعك من النكاح إلا همز أو فجور . وقال طاوس : لا يجرز دين المؤمن إلا حفرته . وقال عبد الرزاق عن معمر بن طاوس وغيره أن رجلاً كان يسير مع طاوس ، فسمع الرجل غراباً ينعب ، فقال : خير : فقال طاوس : أي خير عند هذا أو شر لا تصحبنى ولا تمس معي . وقال بشر بن موسى : حدثنا الحميدي حدثنا سفيان عن ابن طاوس عن أبيه . قال : إذا غدا الإنسان اتبعه الشيطان ، فاذا أتى المنزل فلم نكس الشيطان

وقال : لا مقيل ، فاذا أتى بغدائه فذ كر لسم الله قال : ولا غداء ولا مقيل ، فاذا دخل ولم يعلم قال الشيطان : أدر كنا المقيل ، فاذا أتى بغدائه ولم يذكر اسم الله عليه قال للشيطان : مقيل وغداء ، وفي العشاء مثل ذلك . وقال : إن الملائكة يكتبون صلاة بني آدم : فلان زاد فيها كذا وكذا ، وفلان نقص فيها كذا وكذا وذلك في الركوع والخشوع والسجود .

وقال : لما خلقت النار طارت أفردة الملائكة ، فلما خلق آدم سكنت ، وكان إذا سمع صوت لرعد يقول : سبحان من سبحت له . وقال الامام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح قال قال مجاهد لطاوس يا أبا عبد الرحمن ! رأيتك تصلي في الكعبة والنبي - صلى الله عليه وسلم - على بابها يقول لك : اكشف قناعك ، وبين قراءتك . فقال له : اسكت لا يسمع هذا منك أحد . ثم تخيل إلى أن انبسط في الحديث . وقال أحمد أيضا بهذا الأسناد : إن طاوسا قال لأبي نجيح : يا أبا نجيح ! من قال واتق الله خير ممن صمت واتق . وقال مسعر عن رجل إن طاوسا أتى رجلا في السحر فقالوا : هو قائم ، فقال : ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن يزيد حدثنا ابن يمان عن مسعود ، فذكره . قال الثوري : كان طاوس يجلس في بيته ، فقيل له في ذلك فقال : حيف الأئمة وفساد الناس .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال أخبرني أبي قال : كان طاوس يصلي في غداة باردة معتمة ، فمر به محمد بن يوسف صاحب اليمن وحاجبها - وهو أخو الحجاج بن يوسف - وطاوس ساجد ، والأمير راكب في مركبه ، فأمر بساج أو طيلسان مرتفع القيمة فطرح على طاوس وهو ساجد ، فلم يرفع رأسه حتى فرغ من حاجته ، فلما سلم نظر فاذا الساج عليه فانتفض فألقاه عنه ، ولم ينظر إليه ومضى إلى منزله وتركه ملقى على الأرض . وقال نعيم بن حماد : حدثنا حماد بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس : ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليه حتى أتينه في مرضه ، فلما مرض الامام أحمد أن فقيل له : إن طاوسا كان يكره أن ينال المرض فتركه . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن أبيه عن داود بن شاور . قال : قال رجل لطاوس : ادع الله لنا ، فقال : ما أجد بقلبي خشية فأدعوك . وقال ابن طلوت : حدثنا عبد السلام بن هاشم عن الحسن بن أبي الحصين العنبري . قال : مر طاوس برواس قد أخرج رؤسا ففشى عليه . وفي رواية كان إذا رأى الرأس المشوية لم يتعش تلك الليلة .

وقال الامام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا الأشجعي عن سفيان الثوري . قال قال طاوس إن الموتى يفتنون في قبورهم سفيا ، وكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام . وقال ابن إدريس : سمعت لبتا يذكر عن طاوس وذكر النساء فقال : فيهن كفر من مضى وكفر من بقى . وقال

أبو عاصم عن بقیة عن سلمة ابن وهرام عن طاوس قال : كان يقال : اسجد للقرء في زمانه ، ای اطعمه في المعروف . وقال أبو بكر بن أبي شیبة : حدثنا أسامة حدثنا نافع بن عمر عن بشر بن عاصم . قال قال طاوس : ما رأيت مثل ^(١) أحد آمن على نفسه ، ولقد رأيت رجلاً لو قبل لي : من أفضل من تعرف ؟ قلت : فلان ذلك الرجل ، فكثت على ذلك حينئذ أخذه وجع في بطنه ، فأصاب منه شيئاً استنضح بطنه عليه ، فاشتبهاه ، فرأيت في نطع ما أدرى أي طرفيه أسرع حتى مات عراقاً . وروى أحمد حدثنا هشيم قال أخبرنا أبو بشر عن طاوس أنه رأى فتيةً من قریش يرفلون في مشيتهم ، فقال : إنكم لتلبسون لبسة ما كانت آباؤكم تلبسها ، وتمشون مشية ما يحسن الزفافون أن يمشوها . وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر أن طاوساً قام على رفيق له مرض حتى فاته الحج - لعله هو الرجل المتقدم قبل هذا استنضح بطنه - وقال مسعر بن كدام عن عبد الكبير المعلم قال طاوس قال ابن عباس : سئل النبي (س) : من أحسن قراءة ؟ قال : « من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله عز وجل » . وقد روى هذا أيضاً من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار عن طاوس قال قال ابن عباس : إن النبي (س) قال : « إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به » . وعنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : رأيت رسول الله (س) وعلى ثوبان معصفران فقال : « أمك أمرتك بهذا ؟ قلت : أغسلهما ؟ قال : بل أحدهما » رواه مسلم في صحيحه عن داود بن راشد عن عمر بن أبوب عن إبراهيم بن نافع عن سليمان الأحول عن طاوس به .

وروى محمد بن مسلمة عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عمرو قال قال رسول الله (س) : « الجلاوة والشرط واعوان الظلمة كلاب النار » . انفرد به محمد بن مسلم الطالقي .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن الحسن الأتباعي البغدادي حدثنا عبد المنعم بن إدريس حدثنا أبي عن وهب بن منبه عن طاوس عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله (س) يقول لعلي بن أبي طالب : « يا علي استكثر من المعارف من المؤمنين فكم من معرفة في الدنيا بركة في الآخرة » . فمضى على فأقام حيناً لا يلقى أحداً إلا انخذه للآخرة ، ثم جاء من بعد ذلك فقال له رسول الله (س) : « ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قال : قد فعلت يا رسول الله ، فقال له النبي (س) : اذهب قابل أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبي (س) وهو منكس رأسه ، فقال له النبي (س) : اذهب قابل أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبي (س) تبسم [فقال] : ما أحسب يا علي ثبت معك إلا أبناء الآخرة ؟ فقال له علي : لا والذي بعثك بالحق ، فقال له النبي (س) : [الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عبادي لا خوف عليكم] يا علي أقبل على شأنك ، وأملك لسانك ، وأغفل من

(١) كذا بالأصل ، ولعلها : ما رأيت مثلي أحداً آمناً .

تعاشر من أهل زمانك تكن سالماً غانماً ، لم يرو إلا من هذا الوجه فيما نعلم والله أعلم
ثم دخلت سنة سبع ومائة

فيها خرج باليمن رجل يقال له عباد الرعيني فدعا إلى مذهب الخوارج واتبعه فرقة من الناس
وحملوا ققاتلهم يوسف بن عمر قتله وقتل أصحابه ، وكانوا ثلاثمائة . وفيها وقع بالشام طاعون شديد ،
وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة وعلى جيش أهل الشام ميمون بن مهران ، فقطعوا البحر إلى قبرص
وغزا مسلمة في البر في جيش آخر . وفيها ظفر أسد بن عبد الله القسري بجماعة من دعاة بني العباس
بخراسان فصلبهم وأشهرهم . وفيها غزا أسد القسري جبال نمرود ، ملك القرقيسيان ، مما يلي جبال
الطالقان ، فصالحه نمرود وأسلم على يديه . وفيها غزا أسد القسري - وهي جبال هراة - فعمد أهلها إلى
حواصلهم وأموالهم وأثقالهم فجعلوا ذلك كله في كهف منيع ، لا سبيل لأحد عليه ، وهو مستعل
جداً ، فأمر أسد بالرجال فحملوا في توابع ودلام إليه ، وأمر بوضع ما هناك في التوابيت ورفعهم
فسلموا وغنموا ، وهذا وأى شديد . وفيها أمر أسد بجمع ماحول بلخ إليها . واستناب عليها برمك
والد خالد بن برمك وبنائها بناء جيداً محكماً وحصنها وجعلها مقعداً للمسلمين . وفيها حج
بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين . ومن توفى فيها من الأعيان :

سليمان بن يسار أحد التابعين

وهو أخو عطاء بن يسار ، له روايات كثيرة ، وكان من المجتهدين في العبادة ، وكان من أحسن
الناس وجهاً ، توفى بالمدينة وعمره ثلاث وسبعون سنة ، دخلت عليه امرأة من أحسن الناس وجهاً
فأرادته على نفسها فأبى وتركها في منزله وخرج هاربا منها ، فرأى يوسف عليه السلام في المنام .
فقال له : أنت يوسف ؟ فقال : نعم أنا يوسف الذي هممت ، وأنت سليمان الذي لم تهتم . وقيل إن
هذه الحكاية إنما وقعت في بعض منازل الحجاج ، وكان معه صاحب له ، فبعثه إلى سوق الحجاج
ليشترى شيئاً فانحطت على سليمان امرأة من الجبل حسناء فقالت له : هيت لك ، فبكى واشتد بكاءه
فلما رأته ذلك منه ارتفعت في الجبل ، وجاء صديقه فوجده يبكي فقال له : مالك تبكي ؟ فقال خير ،
فقال : لملك ذكرت بعض وللك أو بعض أهلك ؟ فقال : لا . فقال : والله لتخبرني ما أبكاك أنت .
قال : أبكاني حزني على نفسي ، لو كنت مكانك لم أصبر عنها ، ثم ذكر أنه تام فرأى يوسف في منامه

كما تقدم والله أعلم

عكرمة هولي ابن عباس
أحد التابعين ، والمفسرين الكثيرين والعلماء الربانيين ، والرحالين الجوالين . [وهو أبو عبد الله ،
وقد روى عن خلق كثير من الصحابة ، وكان أحد أوعية العلم ، وقد أفق في حياة مولاه ابن عباس ،

قال عكرمة : طلبت العلم أربعين سنة ، وقد طاف عكرمة البلاد ، ودخل إفريقية واليمن والشام والعراق وخراسان ، وبث علمه هناك ، وأخذ الصلوات وجوائز الأمراء ، وقد روى ابن أبي شيبة عنه قال : كان ابن عباس يجمل في رجل الكيل يلعن القرآن والسنن ، وقال حبيب بن أبي ثابت : اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبدا ، عطاء ، وطاوس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد فأقبل سعيد ومجاهد يلتقيان على عكرمة التفسير فلم يبالاه عن آية إلا فسرها لهما ، فلما نفذ ما عندهما جعل يقول : أنزلت آية كذا في كذا ، قال : ثم دخلوا الحمام ليلا . قال جابر بن زيد : عكرمة أعلم الناس وقال الشعبي ، ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة . وروى الإمام أحمد عن عبد الصمد عن سلام بن مسكين سمعت قتادة يقول : أعلمهم بالتفسير عكرمة . وقال سعيد بن جبير نحوه ، وقال عكرمة : لقد فسرت ما بين اللوحين . وقال ابن عليه عن أيوب : سألت رجل عكرمة عن آية فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل - وأشار إلى سلع - وقال عبد الرزاق عن أبيه : لما قدم عكرمة الجند حمله طاوس على نجيب فقال : ابتمت علم هذا الرجل ، وفي رواية أن طاوسا حمله على نجيب ثمه ستون دينارا وقال : ألا تشتري علم هذا العبد بستين دينارا ؟

ومات عكرمة وكثير عزة في يوم واحد فأخرجت جنازتهما فقال الناس : مات أفعه الناس وأشعر الناس ، وقال عكرمة : قال لي ابن عباس : انطلق فأفت الناس فمن سألك عما يعنيه فأفته ، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته ، فانك تطرح عنى ثلثي مؤنة الناس . وقال سفيان عن عمرو قال : كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف يضعون ويقتلون . وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق قال سمعت معمرأ يقول : سمعت أيوب يقول : كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفق من الآفاق ، قال فاني لفي سوق البصرة فاذا رجل على حمار ، فقيل : هذا عكرمة ، قال : واجتمع الناس إليه فما قدرت أنا على شيء أسأله عنه ، ذهبت مني المسائل ، وشردت عنى فممت إلى جنب حماره فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظه . وقال شعبة عن خالد الحذاء قال قال عكرمة لرجل وهو يسأله : مالك أخبرت ؟ أي فنتت . وقال زياد بن أبي أيوب : حدثنا أبو ثيملة حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد قال قلت لعكرمة بنيسابور : الرجل يريد الخلاه وفي إصبعه خاتم فيه اسم الله ، قال : يجمل فسه في باطن يده ثم يقبض عليه .

وقال الامام أحمد : حدثنا أمية بن خالد قال : سمعت شعبة يقول قال خالد الحذاء : كل شيء قال فيه محمد بن سيرين : ثبت عن ابن عباس ، إنما سمعه من عكرمة ، لقيه أيام المختار بالكوفة . وقال سفيان الثوري : خذوا المناسك عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة . وقال أيضا : خفوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك . وقال عكرمة : أدركت مثنين من أصحاب رسول الله

س. في هذا المسجد . وقال محمد بن يوسف للفريابي : حدثنا إسرائيل عن سعيد بن مسروق عن
عكرمة : قال : كانت الخليل التي شغلت سليمان بن داود عليه السلام عشرين ألفا فقرها ، وقال
أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا معمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن عكرمة : [الذين يعملون السوء
بجهالة ثم يتوبون من قريب] قال : الدنيا كلها قريب وكلها جهالة . وفي قوله : [الذين لا يريدون
علا في الأرض] قال : عند سلاطينها وملوكها . [ولا فساداً] لا يعملون بماصى الله عز وجل .
[والعاقبة] هي الجنة . وقال في قوله تعالى : [فلما نسوا ما ذكروا به] أى تركوا ما وعظوا [بعذاب
بئس] أى شديد [فلما عتوا عما نهوا عنه] أى تمادوا وأصرّوا . [خاسئين] صاغرين . [فجعلناها
نكالا لما بين يديها] أى من الأمم الماضية [وما خلفها] من الأمم الآتية ، من أهل زمانهم وغيرهم
[وموعظة] تقي من تعظ بها الشرك والمعاصي .

وقال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة بمث الله الذين اعتدوا ويحاسب الذين تركوا الأمر والنهي
كان المسخ لهم عقوبة في الدنيا حين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقال عكرمة : قال
ابن عباس : هلك والله القوم جميعاً ، قال ابن عباس فالذين أصرّوا ونهوا نجوا ، والذين لم يأصرّوا ولم
ينهوا هلكوا فيمن هلك من أهل المعاصي . قال : وذلك أهل ايلة - وهي قرية على شاطئ البحر -
وكان الله قد أمر بني إسرائيل أن يتفرغوا ليوم الجمعة فقالوا : بل نتفرغ ليوم السبت ، لأن الله فرغ
من الخلق يوم السبت ، فأصبحت الاشياء مسبوته . وذكرنا قصة أصحاب السبت ، وتحريم الصيد
عليهم ، وأن الحيتان كانت تأتيمهم يوم السبت ولا تأتيمهم في غيره من الأيام ، وذكرنا احتيالهم على
صيدها في يوم السبت فقال قوم : لا ندعكم تصيدون في يوم السبت ووعظوم ، فجاء قوم آخرون
مداهنون فقالوا : [لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟] قال الناهون [معذرة إلى
ربكم ولعلمهم يتقون] أى ينتهون عن الصيد في يوم السبت . وقد ذكر عكرمة أنه لما قال لابن عباس
إن المداهنين هلكوا مع الغافلين ، كساه توبين . وقال حويزة عن مفيرة عن عكرمة قال : كانت
القضاة ثلاثة - يعنى في بني إسرائيل - فأت واحد فجعل الآخر مكانه ، قضاوا ما شاء الله أن يقضوا
فبعث الله ملكا على فرس فر على رجل يسقى بقره معها عجل ، فدعا الملك العجل فتبع العجل
الفرس ، فجاء صاحبه ليرده فقال : يا عبد الله اعجلى وابن بقرتى ، فقال الملك : بل هو عجلى وابن
فرسى ، فخاصمه حتى أعبأ ، فقال : القاضى بينى وبينك ، قال : لقد رضيت ، فارتضوا إلى أحد القضاة
فتكلم صاحب العجل فقال له : مرى على فرس فدعا عجلى فتبعه فأبى أن يردّه ، قال : ومع الملك
ثلاث درات لم ير الناس مثلها ، فأعطى القاضى درة وقال : اقض لى ، قال : كيف يسوغ هذا ؟ فقال :
نرسل العجل خلف الفرس والبقره فأيهما تبعها فهو ابنها ، ففعل ذلك فتبع الفرس قضى له . قال

صاحب العجل : لأرضي ، بيني وبينك القاضي الآخر ، فعلا مثل ذلك ، ثم أتيا الثالث فقصا عليه قصتهما ، وتناول الملك الدرّة الثالثة فلم يأخذها ، وقال لا أقضي بينكما اليوم ، فقالا : ولم لا تقضي بيننا ؟ قال : لأنني حائض ، فقال الملك : سبحان الله ! رجل يحيض ! . فقال القاضي : سبحان الله ! وهل تنتج الفرس عجلا ؟ قضى لصاحب البقرة . فقال الملك : إنكم إنما ابتليتم ، وقد رضى الله عنك وسخط على صاحبك .

وقال أبو بكر بن عياش عن أبي حمزة الثمالي عن عكرمة أن ملكا من الملوك نادى في مملكته : إني إن وجدت أحدا يتصدق بصدقة قطعت يده ، فجاء سائل إلى امرأة فقال : تصدق على بشي ؟ قالت : كيف أتصدق عليك والملك يقطع يد من يتصدق ؟ قال : أسألك بوجه الله إلا تصدقت على بشي ، فتصدقت عليه برغيفين ، فبلغ ذلك الملك فأرسل إليها فقطع يديها ، ثم إن الملك قال لأمه : دليني على امرأة جميلة لأتزوجها ، فقالت : إن ههنا امرأة ما رأيت مثلها ، لولا عيب بها . قال : أي عيب هو ؟ قالت مقطوعة اليدين ، قال : فأرسل إليها ، فلما رآها أعجبت - وكان لها جمال - فقالت : إن الملك يريد أن يتزوجك : قالت : نعم إن شاء الله ، فتزوجها وأكرمها ، فتهد إلى الملك عدو فخرج إليهم ، ثم كتب إلى أمه : انظري فلانة فاستوصي بها خيرا وافعلي وافعلي معها ، فجاء الرسول فنزل على بعض ضرائرها فحسدتها فأخذن الكتاب فغيرنه وكتبن إلى أمه : انظري فلانة قد بلغني أن رجلا يأتونها فأخرجها من البيت وافعلي وافعلي ، فكتبت إليه الأم إنك قد كذبت ، وإنها لامرأة صدق ، فذهب الرسول إليهن فنزل بهن فأخذن الكتاب فغيرنه فكتبتن إليه : إنها فاجرة وقد ولدت غلاما من الزنا ، فكتب إلى أمه : انظري فلانة فاجعلى ولدها على رقبتها واضربي على جيبها وأخرجها . قال : فلما جاءها الكتاب قرأته عليها وقالت لها : أخرجي ، فجعلت الصبي على رقبتها وذهبت ، فمرت بنهر وهي عطشانة فنزلت لتشرب والصبي على رقبتها فوقع في الماء ففرق ، فجلست تبكي على شاطئ النهر ، فمر بها رجلان فقالا : ما يبكيك ؟ فقالت : ابني كان على رقبتى وليس لي يدان فسقط في الماء ففرق . فقالا لها : ما تحبين أن يرد الله عليك يدك كما كانتا ؟ قالت : نعم ! فدعوا الله ربهما لها فاستوت يداها ، ثم قال لها : أتدريين من نحن ؟ قالت : لا قال : نحن الرغيفان اللذان تصدقت بهما . وقال في قوله : [طيرا أبابيل] قال : طير خرجت من البحر لها رؤس كرؤس السباع فلم تزل ترميهم حتى جدرت جلودهم ، وما رؤى الجدرى قبل يومئذ وما رؤى الطير قبل يومئذ ولا بعد . وفي قوله تعالى : [ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة] قال : لا يقولون لا إله إلا الله ، وفي قوله [قد أفلح من تزكى] قال : من يقول لا إله إلا الله ، وفي قوله : [هل لك إلى أن تزكى] إلى أن تقول لا إله إلا الله ، وفي قوله : [إن الذين قالوا ربنا الله ثم

استقاموا [على شهادة أن لا إله إلا الله . وفي قوله [أليس منذكم رجل رشيد] أليس منكم من يقول : لا إله إلا الله ، وفي قوله : [وقال صواباً] قال : لا إله إلا الله . وفي قوله : [إنك لا تخلف الميعاد] لمن قال : لا إله إلا الله . وفي قوله [لا عدوان إلا على الظالمين] على من لا يقول : لا إله إلا الله . وفي قوله : [واذا كرر بك إذا سبت] قال : إذا غضبت [سيئام في وجوههم] قال : السهر وقال : إن الشيطان ليزين للعبد الذنب ، فإذا عمله تبرأ منه ، فلا يزال يتضرع إلى ربه ويتمسك له ويبيكي حتى يغفر الله له ذلك وما قبله . وقال قال جبريل عليه السلام : إن ربي ليبعثني إلى الشيء لا مضيه فأجد الكون قد سبقني إليه . وسئل عن الماعون قال : العارية . قلت : فان منع الرجل غربالاً أو قدراً أو قصعة أو شيئاً من متاع البيت فله الويل ؟ قال : لا ! ولكن إذا نهى عن الصلاة ومنع الماعون فله الويل . وقال : البضاعة المزجاة التي فيها تجوز . وقال : السائحون ، هم طلبة العلم وقال : [كما يتس الكفار من أصحاب القبور] قال : إذا دخل الكفار القبور وعابنوا ما أعد الله لهم من الخزي ، يتسوا من نعمة الله . وقال غيره . [يتس الكفار من أصحاب القبور] أي من حياتهم وبعثهم بعد موتهم . وقال : كان إبراهيم عليه السلام يدعى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد ، وقال : أنكالا ، أي قيودا . وقال في كاهن سبأ : إنه قال لقومه لما دنا منهم العذاب : من أراد سفراً بعيداً وحملاً شديداً ، فعليه بعمان ، ومن أراد الحمر والخير ، وكذا وكذا والعصير ، فعليه ببصرى - يعنى الشام - ومن أراد الراسخات في الوحل ، والمقبات في المحل فعليه بيثرب ذات النخل . فخرج قوم إلى عمان وقوم إلى الشام ، وهم غسان ، وخرج الأوس والخزرج - وهم بنو كعب بن عمرو - وخزاعة حتى نزلوا يثرب ، ذات النخل ، فلما كانوا يبطن مرّ قالت خزاعة : هذا موضع صالح لا يزيد به بدلاً ، فنزلوا ، فنم سميت خزاعة ، لأنهم تخزعوا من أصحابهم . وتقدمت الأوس والخزرج حتى نزلوا بيثرب ، فقال الله عز وجل ليوسف عليه السلام يا يوسف ابعفوك عن إخوانك رفعت لك ذكرك مع الذاكرين . وقال : قال لقمان لابنه : قد دقت المرار فلم أذق شيئاً أمراً من الفقر . وحملت كل حمل ثقيل فلم أحمل أثقل من جار السوء . ولو أن الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . رواه وكيع بن الجراح عن سفیان عن أبيه عن عكرمة : [وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى] قال : ما وقع شيء منها إلا في عين رجل منهم . وقال : في قوله تعالى [زنيم] هو اللثيم الذي يعرف اللؤمة كما يعرف الشاة بذنبتها . وقال في قوله تعالى [الذين يؤذون الله ورسوله] قال : هم أصحاب التصاوير ، [وبلغت القلوب الحناجر] قال : لو أن القلوب تحركت أو زالت لخرجت نفسه ، وإنما هو الخوف والفرع . [ففتنم أنفسكم] أي بالشهوات [وتربصنم] بالتوبة [وغرتمكم الأمانى] أي التسوييف [حتى جاء أمر الله] الموت [وغرتم بالله الفرور]

الشیطان . وقال : من قرأ يس والقرآن الحکیم لم یزل ذلك الیوم فی سرور حتی ینسی .

قال سلفة بن شعیب : حدثنا ابراهیم بن الحکم عن ابان عن ابيه . قال : كنت جالسا مع عكرمة عند البحر فذكروا الذين یغرقون فی البحر فقال عكرمة : الذين یغرقون فی البحر تقسم لحومهم الحینان فلا یبقى منهم شیء إلا العظام ، حتی تصیر حائلا نخرة فذری بها الابل فتأكلها ، ثم تسیر الابل فتسیرها ، ثم یجئ بعمد قوم فینزلون ذلك المنزل فیاخذون ذلك البحر فیوقدونه ثم یصیر ماداً فتجئ الريح فتأخذنه فتذریه فی كل مكان من الأرض حیث یشاء الله من بره وبحره ، فاذا جاءت النفخة - نفخة المبعث - فیخرج أولئك وأهل القبور المحجوعین سواء . وبهذا الاسناد عنه قال : إن الله أخرج رجلین ، رجلا من الجنة ورجلا من النار ، فقال لصاحب الجنة : عبدی ! کیف وجدت مقیلك ؟ قال خیر مقیل . ثم قال لصاحب النار : عبدی کیف وجدت مقیلك ؟ فقال : شر مقیل قاله القائلون ، ثم ذكر من عقاربها وحیاتها وزنا بیریها ، ومن أنواع ما فیها من العذاب واللوانه ، فیسأل الله تعالی لصاحب النار : عبدی ! ماذا تعطینی إن أنا أعفیتك من النار ؟ فیسأل العبد : إلهی وماذا عندی ما أعطیک ، فقال له الرب تعالی : لو كان لك جبل من ذهب أكنت تعطینی فأعفیک من النار ؟ فقال نعم : فقال له للرب : كذبت لقد سألتك فی الدنیا ما هو أیسر من ذلك ! تدعونی فأبتجیب لك ، وتستغفرنی فأغفر لك ، وتسألنی فأعطیک ، فكنت تتولی ذاهباً .

وبهذا الاسناد قال : ما من عبد یقر به الله عز وجل یوم القیامة للحساب إلا قام بن عند الله بعفوه ، وبه عنه : لكل شیء أساس ، وأساس الاسلام الخلق الحسن . وبه عنه قال : شكنا نبی من الانبیاء إلى ربه عز وجل الجوع والعری ، فأوحى الله إلیه : أما ترضی أنى سددت عنك باب الشر الناشئ عنها ؟ . وبه عنه قال : إن فی السماء ملكا یقال له إسماعیل لو أذن الله له بفتح أذن من آذانه یسبح الرحمن عز وجل لمات من فی السموات والأرض . وبه عنه قال : سمعة الشمس سمعة الأرض وزیادة ثلاث مرات ، وسمعة القمر سمعة الأرض مرة ، وإن الشمس إذا غربت دخلت بحراً تحت العرش تسبح الله حتی إذا أصبحت استعفت ربها تعالی من الطلوع فیسألها : ولم ذاك - وهو أعلم - فنقول : لتلا أعبد من دونك ، فیسألها : اطلعی فلیس علیك شیء من ذلك ، حسبهم جهنم أبینها إلیهم مع ثلاث عشرة ألف ملك تقودها حتی یدخلوم : وهذا خلاف ما ثبت فی الحدیث الصحیح « إن جهنم یؤتی بها تقاد بسبعین ألف زمام : مع كل زمام سبعون ألف ملك » . وقال مندل عن أسد ابن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس . قال قال رسول الله ص . « لا یقفن أحدكم علی رجل یضرب ظلما فان اللعنة تنزل من السماء علی من یحضره إذا لم تدفوا عنه . ولا یقفن أحدكم علی رجل یتل ظلما فان اللعنة تنزل من السماء علی من یحضره إذا لم تدفوا عنه » . لم یرفعه إلا مندل هذا .

وروى شعبة عن عمارة بن حفصة عن عكرمة عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) « كان إذا عطس غطى وجهه بثوبه ، ووضع يديه على حاجبيه » ، هذا حديث عال من حديث شعبة . وروى بقية عن إسحاق بن مالك الخضري عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي (ص) ، قال : « من حلف على أحد يمينا ، وهو يرى أنه سيبره فلم يفعل ، فأنما إثمه على الذي لم يبره » . تفرد به بقية بن الوليد مرفوعا . وقال عبد الله بن أحمد في مسند أبيه : حدثنا عبيد بن عمر التواريري حدثنا يزيد بن ربيع حدثنا عمارة بن أبي حفصة حدثنا عكرمة حدثنا عائشة أن النبي (ص) كان عليه بردان قطريان خشنان غليظان ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، إن ثوبيك هذين غليظان خشنان ، ترشح فيهما فيثقلان عليك ، فأرسل إلى فلان فقد أتاه برد من الشام فاشتر منه ثوبين إلى ميسرة ، فأرسل إليه فاتاه الرسول فقال : إن رسول الله (ص) بعث إليك لتبئعه ثوبين إلى ميسرة . فقال : قد علمت والله ، ما يريد نبي الله إلا أن يذهب بثوبي ويمطني بثمنهما ، فرجع الرسول إلى رسول الله (ص) فأخبره فقال (ص) : كذب ! قد علموا أني أتقاهم الله ، وآدام الأمانة » . وفي هذا اليوم قال النبي (ص) : « لأن يلبس أحدكم من رقع شتى خير له من أن يستدين ما ليس عنده » والله سبحانه أعلم [(١)] .

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق

كان أحد الفقهاء المشهورين ، له روايات كثيرة ، عن الصحابة وغيرهم ، وكان من أفضل أهل المدينة ، وأعلم أهل زمانه ، قتل أبوه بمصر وهو صغير ، فأخذته خالته فنشأ عندها ، وساد له مناقب كثيرة . أبو رجاء العطاردي .

وفيه توفى كثير عزة الشاعر المشهور

وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر ، أبو صخر الخزاعي الحجازي ، المعروف بابن أبي جمعة ، وعزة هذه المشهور بها المنسوب إليها ، لتغزله فيها ، هي أم عمرو عزة بالعين المهملة ، بنت جميل بن حفص ، من بني حاجب بن غفار ، وإنما صغر اسمه لقبيل كثير ، لأنه كان دميم الخلق قصيراً ، طوله ثلاثة أشبار . قال ابن خلدكان : كان يقال له رب الدبان ، وكان إذا مشى يظن أنه صغير من قصره ، وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان يقول له : طأطأ رأسك لا يؤذيك السقف ، وكان يضحك إليه ، وكان يفتد على عبد الملك ، ووفد على عبد الملك بن مروان مرات ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان يقال إنه أشعر المسلمين ، على أنه كان فيه تشيع ، وربما نسبة بعضهم إلى منهج التناسخية ، وكان محتج على ذلك من جهله وقلة عقله إن صح النقل عنه ، في قوله تعالى [في أي صورة ما شاء ركبك] وقد استأذن يوماً على عبد الملك فلما دخل عليه قال عبد الملك : لأن

(١) زيادة من المصرية .

تسمع بالمعدي خبر من أن تراه ، فقال : حَيْهَلا يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان ، وإن قاتل قاتل بجنان ، وأنا الذي أقول

وجربتُ الأورَ وجربتني • وقد أبدت عريكتي الأورُ
وما نخفي الرجالَ على أني • بهم لاخو مشاقفة خبيرُ
تري الرجلَ النحيفَ قتردريه • وفي أنوابه أسدٌ زبيرُ
ويجيكُ الطيرُ فتخبه • فيخلفُ ظنكُ الرجلُ الطيرُ
وما هامُ الرجالُ لها بزِين • ولكن زينها دينٌ وخيرُ
بذاك الطيرُ أطولها جسوما • ولم تطلُ البزاةُ ولا الصقورُ
وقد عظمَ البعيرُ بغيرِ لب • فلم يستغنَ بالعظمِ البعيرُ
فيركبُ ثم يضربُ بالهراوي • ولا عرفَ لديرٍ ولا نكيرُ
وعودُ النبعِ ينبتُ مستمراً • وليس يطولُ والضبباءُ حورُ

وقد تكلم أبو الفرج بن طرار على غريب هذه الحكاية وشعرها بكلام طويل ، قالوا : ودخل كثير عزة يوما على عبد الملك بن مروان فمتدحه بقصيدته التي يقول فيها : -

على ابن أبي العاصي دروع حصينة • أجاد المسدي سردها وأدالها
قال له عبد الملك : أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معد يكرب : -

وإذا نجى كتيبة ملومة • شهاباً يخشى الذائدون صيالها
كنت المقدم غير لابس جبة • بالسيف يضرب معلماً أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفه بالخرق ووصفك بالحزم . ودخل يوماً على عبد الملك وهو يتجهز للخروج إلى مصعب بن الزبير فقال : ويحك يا كثير ، ذكرتك الآن بشرك فان أصبته أعطيتك حكك ، فقال : يا أمير المؤمنين كأنك لما ودعت عاتكة بنت يزيد بكت لفراقك فبكي لبكتها حشها فذكرت قولي :

إذا ما أراد الغزو لم تثن عزمه • حصان عليها نظم در بزينا
ننته فلما لم تر النهى عاقه • بكت فبكي مما عراها قطينها

قال : أصبت فاحتكم ، قال : مائة فاقه بن نوقك المختارة ، قال : هي لك ، فلما سار عبد الملك إلى العراق نظر يوماً إلى كثير عزة وهو مفكر في أمره فقال : علي به ، فلما جئ به قال له : أرايت إن أخبرتك بما كنت تفكر به تعطيني حكى ؟ قال : نعم ، قال : والله ؟ قال : والله ، قال له عبد الملك إنك تقول في نفسك : هذا رجل ليس هو علي مذهبي ، وهو ذاهب إلى قتال رجل ليس هو علي

مذهبي ، فان أصابني سهم غرب من بينهما خسرت الدنيا والآخرة ، فقال : إبي والله يا أمير المؤمنين فاحذركم ، قال : أحذركم حذركم أن أردك إلى أهلك وأحسن جزئتك ، فأعطاه مالا وأذن له بالانصراف وقال حماد الراوية عن كثير عزة : وفدت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة ، ونحن نمت بصحبتنا إياه وما اشتريته ، لما كان بالمدينة ، وكل منا يظن أنه سيشاركه في الخلافة . ونحن نسير ونختال في رحالتنا ، فلما اتينا إلى خُداعة ولاحت لنا أعلامها ، تلقانا مسامة بن عبد الملك فقال : ما أقدمكم ؟ أو ما علمتم أن صاحبكم لا يحب الشعر ولا الشعراء ؟ قال : فوجنا لذلك ، فانزلنا مسامة عنده وأجرى علينا النفقات وعانق دوابنا ، وأقاما عنده أربعة أشهر لا يمكنه أن يستأذن لنا على عمر ، فلما كان في بعض الجمع دنوت منه لأسمع خطبته فسلم عليه بعد الصلاة ، فسمعته يقول في خطبته : اسكل سفر زاد ، فزودوا سفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عين ما أعد الله له من عذابه وثوابه فترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتفسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم . فانه والله ما بسط أهل من لا يدري لعلم لا يسي بعد إصباحه ولا يصبح بعد إمسائه ، وربما كانت له كرامة بين ذلك خطرات الموت والمنايا ، وإنما يطمئن من وثق بالنجاة من عذاب الله وأهوال يوم القيامة ، فاما من لا يدوي من الدنيا كلما إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يطمئن ، أعوذ بالله أن آمرم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفتي وتبدو مسكنتي في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق ، ثم بكى حتى ظننا أنه قاض نحيبه ، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والمويل : قال : فانصرفت إلى صاحبي فقلت : خد مسرحا من الشعر شير ما كما نقول لعمر وآبائه فانه رجل أخرى ليس برجل دنيا . قال : ثم استأذن لنا مسامة عنده يوم الجمعة فلما دخلنا عليه سلمت عليه ثم قلت : يا أمير المؤمنين طال الثواء وقلت الفائدة ، وتحدث بجفائك إيانا وفود العرب . فقال : [إنما الصدقات للفقراء والمساكين] وقرأ الآية ، فان كنتم من هؤلاء أعطيتم وإلا فلا حق لكم فيها ، فقلت : يا أمير المؤمنين إني مسكين وعابر سبيل ومنقطع ، فقال : ألسن عند أبي سعيد ؟ - يعني مسامة بن عبد الملك - فقلنا : بلى ! فقال : إنه لا ثواب على من هو عند أبي سعيد ، فقلت : ائذن لي يا أمير المؤمنين بالأنشاد ، قال : نعم ولا تقل إلا حقا ، فأشدته قصيدة فيه :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف • بريئاً ولم تقبل إشارة مجرم
 وصدقت بالفعل المقال مع الذي • أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
 ألا إنما يكني الفتى بعد ربه • من الأود النادي ثقاف المقوم
 وقد ابست تسمى اليك ثيابها • تراهي لك الدنيا بكف ومعصم
 وتوهض أحياناً بعين مريضة • وتبسم عن مثل الجان المنظم

فأعرضت عنها مشمراً كأنما * سقتك مذوقاً من سهامٍ وعلقم
وقد كنت من أجبالها في ممنع * ومن بجرها في مزيدٍ الموجِ مصمم
ومازلت توافاً إلى كل غاية * بلغت بها أعلى البناءِ المقدم
فلما أتاك الملك عفواً ولم تكن * لطالبٍ دنيا بمدته في تكلم
تركت الذي يقنى وإن كان موقفاً * وآثرت ما يبقى برأي مصمم
وأضرت بالفاني وشمرت للفي * أمالك في يومٍ من الشرِّ مظلم
ومالك إذ كنت الخليفة مانعاً * سوى الله من مالٍ رعيت ولادم
سما لك هم في الفؤادِ مؤرقاً * بلغت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها * منادٍ ينادي من فصيحٍ وأعجم
يقول أمير المؤمنين ظلمني * بأخذك ديناراً وأخذك درهماً
ولا بسط كفي لأمري غير مجرم * ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلون لقسوا * لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فمشت بها ما حجج الله راكباً * ملب مطيفاً بالقسامِ وزمزم
فأربح بها من صفقةٍ لمبايع * وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

قال : فأقبل عليَّ عمر بن عبد العزيز وقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة ، ثم استأذنه الأحوص
فأنشده قصيدة أخرى فقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة . ثم استأذنه نصيب فلم يأذن له وأمر
لكل واحد منهم بمائة وخمسين درهماً ، وأغزى نصيباً إلى مرج دابق . وقد وفد كثير عزة بعد
ذلك عليَّ يزيد بن عبد الملك فامتدحه بقصائده فأعطاه سبعمائة دينار . وقال الزبير بن بكار : كان
كثير عزة شبيهاً خبيثاً برى الجمعة ، وكان برى التناسخ ويمنج بقوله تعالى [في أي صورة
ما شاء ربك] وقال موسى بن عقبة هول كثير عزة ليلة في منامه فأصبح يمتدح آل الزبير ويرى
عبد الله بن الزبير ، وكان يسئ الرأي فيه :

بمفترض البطحا تأول أنه * أقام بها ما لم ترمها الأخاب
سرحنا سروباً آمين ومن يخف * بوائق ما يخشى تنبه النواب
تبرأت من عيب ابن أسماء إنني * إلى الله من عيب ابن أسماء نائب
هو المرء لا ترزى به أمهاته * وآباؤه فينا الكرام الأطياب

وقال مصعب بن عبد الله الزبيرى : قالت عائشة بنت طلحة لكثير عزة : ما الذى يدعوك إلى
ماتقول من الشعر في عزة وليست على نصف من الحسن والجمال ؟ فلو قلت ذلك في ربي أمثال فانا

أشرف وأفضل وأحسن منها - وكانت عائشة بنت طلحة قد فقت النساء حسنا وجمالا وأصالة -
وإنما قالت له ذلك لتختبره وتبلوه فقال:

ضحى قلبه يا عزر أو كاد يذهل • وأضحى يريد الصوم أو يتبدل
وكيف يريد الصوم من هو وواق • لوزة لا قال ولا متبدل
إذا واصلتنا خلة كي نزيلنا • أيينا وقلنا الحاجبية أول
سنوليك عرفاً إن أردت وصالنا • ونحن لتيك الحاجبية أوصل
وحدثها الواشون أني هجرتها • فحملها غيظاً على الحمل

فقلت له عائشة: قد جعلتني خلة ولست لك بخلة، وعلاقت كما قال جميل فهو والله أشعر
منك حيث يقول:

يارب عارضة علينا وصلماً • بالجدر تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تسيّر • حبي بثينة عن وصالك شاعلي
لو كان في قلبي بقدر قلامة • فضل وصلتك أو أتتك رسائلي

فقال: والله ما أنكر فضل جميل، وما أنا إلا حسنة من حسناته، واستحيا. ومما أنشده ابن
الأنباري لكثير عزة:

بأبي وأمي أنت من معشوقتي • طبن العدو لها فغير حالها
ومشى إلي بعيب عزة نسوة • جعل الآله خدودهن ناملها
الله يعلم لو جمن ومثلت • لأخنت قبل تأمل ناملها
ولو ان عزة خاصمت شمس الضحى • في الحسن عند موقى لفضي لها

وأنشد غيره لكثير عزة:

فما أحدث النأي الذي كان بيننا • سلوا ولا طول اجتماع تقاليا
وما زادني الواشون إلا صباية • ولا كثرة الناهين إلا تماديا
غيره له: فقلت لها يا عزر كل مصيبة • إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر • لوزة من أعراضنا ما استحللت
وقال كثير عزة أيضاً وفيه حكمة أيضاً:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه • وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتبع جاهداً كل عثرة • يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب

وذكروا أن عزة بنت جميل بن حفص أحد بني حاجب بن عبد الله بن غفار أم عمرو الضمرية

وفدت على عبد الملك بن مروان تشكو إليه ظلامه فقال : لا أفضيها لك حتى تشدني شيئاً من شعره ، فقالت : لا أحفظ لكثير شعراً ، لكن سمعتمهم يحكون عنه أنه قال في هذه الأبيات :

قضى كل ذي دين علمتُ غربته * وعزةٌ ممطولٌ معنى غربتها

فقال : ليس عن هذا أسألك ولكن أنشدني قوله :

وقد زعمتُ أنني تغيرتُ بعدها * ومن ذا الذي ياعزُّ لا يتغيرُ

تغيرَ جسمي والمحبةُ كلذي * عهدتِ ولمْ يخبرْ بذاك مخبرُ

قال فاستجبت وقالت : أما هذا فلا أحفظه ولكن سمعتمهم يحكونه عنه ، ولكن أحفظ له قوله :

كأنني أنادي صخرةً حينَ أعرضتُ * من الظلم لو تمشى بها العصمُ زاتِ

صفوحٌ فما تلقاك إلا بنجيلةٍ * ومن ملَّ منها ذلك الوصلُ ملتِ

قال فقضى لها حاجتها وردّها ورد عليها ظلامتها وقال : أدخلوها الحرم ليتعلموا من أدبها . وروى عن بعض نساء العرب قالت : اجتازت بنا عزة فاجتمع نساء الحاضر إليها لينظرن حوشها ، فاذا هي حمراء حلوة لطيفة ، فلم تقع من النساء بذاك الموقع حتى تكلمت فاذا هي أبرع النساء وأحلاهن حديثاً ، فما بقي في أعيننا امرأة تفوقها حسناً وجمالاً وحلاوة . وذكر الأصمعي عن سفيان بن عيينة قال : دخلت عزة على سكينه بنت الحسين فقالت لها : إني أسألك عن شيء فاصدقيني ، ما الذي أريد كثير في قوله لك :

قضى كل ذي دين فوفى غربته * وعزةٌ ممطولٌ معنى غربتها

فقال : كنت وعدته قبلة فمطلته بها ، فقالت : أنجز بها له وإثمها علي ، وقد كانت سكينه بنت الحسين من أحسن النساء حتى كان يضرب بحسنها المثل . وروى أن عبد الملك بن مروان

أراد أن يزوج كثيراً من عزة فأبت عليه وقالت : يا أمير المؤمنين أبعده ما فضحني بين الناس

وشهرني في العرب ؟ وامتنعت من ذلك كل الأمتناع ، ذكره ابن عساکر . وروى أنها اجتازت مرة

بكثير وهو لا يعرفها فتكرت عليه وأرادت أن تختبر ما عنده ، فعرض لها فقالت : فأين حبك

عزة ؟ فقال : أفا لك الفداء لو أن عزة أمة لي لوهبته لك ، فقالت : وبحك لا تفعل ألسن القائل :

إذا وصلتنا خلة كي نزيلنا * أئينا وقلنا الحاجبية أول ؟

فقال : بأبي أنت وأمي ، أقصرى عن ذكرها واسمعي ما أقول :

هل وصل عزة إلا وصل غانية * في وصل غانية من وصلها بدل

فقال : فهل لك في المجالسة ؟ قال : ومن لي بذلك ؟ قالت : فكيف بما قلت في عزة ؟ قال :

أقلبه فيتحول لك ، قال فسفرت عن وجهها وقالت : أغدراً وتنا كئنا يافسق ، وإنك لها هنا ياعدو

الله ، فببت وأبأس ولم ينطق ونحبر وخجل ، ثم قالت : قاتل الله جيلاً حيث يقول : -
 مح الله من لا ينفع الودُّ عنده * * * ومن حبله إن صدَّ غيرُ متينِ
 ومن هو ذو وجهين ليس بدائمٍ * * * على العهدِ حلفاً بكلِّ بينِ
 ثم شرع كثير يمتدرو ويتنصل مما وقع منه ويقول في ذلك الأشعار ذا كراً وآثراً . وقد ماتت
 عزة بصرف في أيام عبد العزيز بن مروان ، وزار كثير قبرها ورتابها وتغير شعره بعدها ، فقال له قائل :
 ما بال شعرك تغير وقد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة ولا أطرب ، وذهب الشباب فلا أعجب ،
 ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب ، وإنما ينشأ الشعر عن هذه الخلال .
 وكانت وفاته و وفاة عكرمة في يوم واحد ، وإكن في سنة خمس ومائة على المشهور . وإنما ذكره
 شيخنا الذهبي في هذه السنة - أعني سنة سبع ومائة - والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان ومائة

| ففيها افتتح مسلمة بن عبد الملك قيسارية من بلاد الروم ، وفتح إبراهيم بن هشام بن عبد الملك
 حصناً من حصون الروم أيضاً ، وفيها غزا أسيد بن عبد الله القسري أمير خراسان فكسر الأتراك
 كسرة فاضحة . وفيها زحف خاقان إلى أذربيجان وحاصر مدينة ورتان ورمها بالمناجيق ، فسار إليه
 أمير تلك الناحية الحارث بن عمرو نائب مسلمة بن عبد الملك ، فالتقى مع خاقان ملك الترك فهزمه
 وقتل من جيشه خاق كثير ، وهرب الخاقان بعد أن كان قتل في جملة من قتل من جيشه ، وقتل
 الحارث بن عمرو شهيداً ، وذلك بعد أن قتلوا من الأتراك خلقاً كثيراً . وفيها غزا معاوية بن هشام بن
 عبد الملك أرض الروم ، وبعث البطل على جيش كثيف فافتتح جنجرة وغنم منها شيئاً كثيراً (١)
 وفيها توفي من الأعيان بكر بن عبد الله المزني البصري . | كان عالماً عابداً زاهداً متواضعاً قليل
 الكلام ، وله روايات كثيرة عن خاق من الصحابة والتابعين . قال بكر بن عبد الله : إذا رأيت
 من هو أكبر منك من المسلمين فقل : سبقته إلى المعاصي فهو خير مني ، وإذا رأيت إخوانك يكرهونك
 ويعظمونك فقل : هذا من فضل ربي ، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل : هذا بذنب أحدثته . وقال :
 من مثلك يا ابن آدم ؟ خلى بينك وبين الماء والحراب متى شئت تطهرت ودخلت على ربك عز وجل
 ليس بينك وبينه ترجمان ولا حاجب . وقال : لا يكون العبد تقياً حتى يكون تقي الطمع تقي الغضب .
 وقال : إذا رأيتم الرجل موكلاً بهيوب الناس تاسياً لعيبه فاعلموا أنه قد مكر به . وقال : كان الرجل
 من بني إسرائيل إذا باع المبيع الصالح من العمل فشي في الناس أظلمة غمامة ، قال : فر رجل قد
 أظلمته غمامة على رجل فأظلمه لما رآه مما آتاه الله ، فاحتقره صاحب الغمامة فأمرها الله أن تتحول

(١) زيادة من المصرية .

عن رأسه إلى رأس الذي احتقره ، وهو الذي عظم أمر الله عز وجل . وقال : ما سبقهم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ، ولكن بشئ قرأ في صدره . وله كلام حسن كثير يطول ذكره [(١) راشد بن سعد المقراني المحصي عمر دهرآ ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وقد كان عبداً صالحاً زاهداً . رحمه الله تعالى ، وله ترجمة طويلة محمد بن كعب القرظي

توفي فيها في قول [وهو أبو حمزة ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وكان عالماً بتفسير القرآن ، صالحاً عبداً ، قال الأصمعي : حدثنا أبو المقدم - هشام بن زياد - عن محمد بن كعب القرظي أنه سئل : ما علامة الخذلان ؟ قال : أن يقبح الرجل ما كان يستحسن ، ويستحسن ما كان قبيحاً . وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا عبد الله بن عبد الله بن وهب قال : سمعت ابن كعب يقول : لأن أقرأ في ليلة حتى أصبح إذا زلزلت والقارعة لا أزيد عليهما وأردد فيهما الفكر ، أحب إلى من أن أهد القرآن هداً - أو قال أنثره نثرآ - . وقال : لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزيار عليه السلام ، قال تعالى : [آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والأبكار] فلو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص له ، ولرخص للذين يقاتلون في سبيل الله ، قال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون] وقال في قوله تعالى : [اصبروا وصابروا ورابطوا] قال : اصبروا على دينكم وصابروا لوعدهم الذي وعدتم ، ورابطوا عدوكم الظاهر والباطن ، واتقوا الله فيما بيني وبينكم ، لعلكم تفلحون إذا لقيتموني . وقال في قوله تعالى : [لولا أن رأى برهان ربه] : علم ما أحل القرآن مما حرم [منها قائم وحصيد] قال : القائم ما كان من بنائهم قائماً ، والحصيد ما حصد فهم . [إن عذابها كان غراما] قال : غرموا ما نعموا به من النعم في الدنيا ، وفي رواية سألمهم ممن نعمة فلم يقدرُوا عليها ولم يؤدوها ، فأغرمهم ثمنها . فأدخلهم النار . وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي قال : سمعت محمد بن كعب في هذه الآية [وما آتيتم من ربا أيربوني أموال الناس فلا يربو عند الله] قال : هو الرجل يعطي الآخر من ماله ليكافئه به أو يزداد ، فهذا الذي لا يربو عند الله ، والمضعفون هم الذين يمطون لوجه الله لا يبتغي مكافأة أحد . وفي قوله تعالى : [أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق] قال : اجعل سريرتي وعلايتي حسنة . وقيل : أدخلني مدخل صدق في العمل الصالح ، أي الاخلاص ، وأخرجني مخرج صدق أي سلماً . [أو ألقى السمع وهو شهيد] أي يسمع القرآن وقلبه معه في مكان آخر . [فاسمعوا إلى ذكر الله] قال : السمع العمل نيس بالشد . وقال : الكبائر ثلاثة ، أن تأمن مكر الله ، وأن تقنط من رحمة الله ، وأن تياس من روح الله .

(١) زيادة من المصرية .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خصال ، فقها في الدين ، وزهادة في الدنيا ، وبصراً بعيوب نفسه . وقال : الدنيا دار قلق ، رغب عنها السعداء ، وانزعجت من أيدي الأشقياء ، فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها ، وأزهد الناس فيها أسعد الناس بها ، هي الغاوية لمن أضاعها ، المهلكة لمن اتبعها ، الخائنة لمن انقاد لها ، علمها جهل ، وغناؤها فقر ، وزيادتها نقصان ، وأيامها دول . وروى ابن المبارك عن داود بن قيس قال سمعت محمد بن كعب يقول : إن الأرض لتبكي من رجل وتبكي على رجل ، تبكي على من كان يعمل على ظهرها بطاعة الله ، وتبكي ممن كان يعمل على ظهرها بمعصية الله ، قد أثقلها . ثم قرأ [فما بكت عليهم السماء والأرض] وقال في قوله تعالى : [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] : من يعمل مثقال ذرة خيراً من كافر يرى ثوابها في نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له خير . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، من مؤمن يرى عقوبتها في نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له شر . وقال : ما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني ، وقال : اذهب لا أغفر لك ، مع أن عجائب القرآن تردني على أمور حتى أنه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن كعب يسأله أن يبيعه غلامه سالماً - وكان عابداً خيراً زاهداً - فكتب إليه : - إني قد دبرته ، قال : فازدد فيه ، فأتاه سالم فقال له عمر : إني قد ابتليت بما نرى ، وأنا والله أتخوف أن لا أنجو ، فقال له سالم : إن كنت كما تقول فهذا نجاته ، وإلا فهو الأمر الذي يخاف . قال : يا سالم عظمي ، قال : آدم عليه السلام أخطأ خطيئة واحدة خرج بها من الجنة ، وأنتم مع عمل الخطايا ترجون دخول الجنة ، ثم سكت . قلت : والأمر كما قيل في بعض كتب الله : زرعون السيئات وترجون الحسنات ، لا يجتنى من الشوك العنب .

تصلُ الذنوبُ إلى الذنوبِ وترتجى * درجُ الجنانِ وطيبُ عيشِ العابدِ
ونسيتُ أن اللهَ أخرجَ آدمًا * منها إلى الدنيا بذنوبٍ واحدٍ

وقال : من قرأ القرآن متع بعقله وإن بلغ من العمر مائتي سنة . وقال له رجل : ماتقول في التوبة ؟ قال : لا أحسنها ، قال : أفرأيت إن أعطيت الله عهداً أن لا تعصيه أبداً ؟ قال : فمن أعظم جرماً منك ، تتألى على الله أن لا ينفذ فيك أمره .

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني : حدثنا ابن عبد العزيز حدثنا أبو عبيد القاسم ابن سلام حدثنا عباد بن عباد عن هشام بن زياد أبي المقدم . قالوا كلهم : حدثنا محمد بن كعب القرظي قال : حدثنا ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : « من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن

بما في يد الله أوثق مما في يده ، ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفقته ، وجلد عبده ، أفأنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من لا يقبل عثرة ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنباً ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من لا يرجي خيره ، ولا يؤمن شره ، إن عيسى بن مريم قام في بني إسرائيل خطيباً فقال : يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها - وقال مرة فتظلموهم - ولا تظلموا ظلماً ، ولا تطاولوا ظلماً فيبطل فضلكم عند ربكم ، يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة ، أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله . وهذه الألفاظ لا تحفظ عن النبي (ص) بهذا السياق إلا من حديث محمد بن كعب عن ابن عباس ، وقد روى أول الحديث إلى ذكر عيسى من غير طريقه ، وسيأتي أن هذا الحديث تفرد به الطبراني بطوله والله سبحانه وتعالى أعلم [(١)]

وفيها توفي أبو نضرة المنذر بن مالك بن قِطعة العبدي ، وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل .

ثم دخلت سنة تسع ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك أسد بن عبد الله القسري عن إمرة خراسان وأمره أن يقدم إلى الحج ، فأقبل منها في رمضان ، واستخلف على خراسان الحكم بن عوانة الكلبي ، واستتاب هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلي ، وأمره أن يكتب خالد بن عبد الله القسري ، وكان أشرس فاضلاً خيراً ، وكان سمي الكامل لذلك ، وكان أول من اتخذ المرابطة بخراسان ، واستعمل المرابطة عبد الملك بن زياد الباهلي ، وتولى هو الأمور بنفسه كبيرها وصغيرها ، وفرح بها أهلها . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين .

سنة عشر ومائة من الهجرة النبوية

فيها قاتل مسلة بن عبد الملك ملك الترك الأعظم خاقان ، فزحف إلى مسلة في جموع عظيمة فتواقفوا نحواً من شهر ، ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء ، ورجع مسلة سالماً غانماً ، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام ، وتسمى هذه الغزاة غزاة الطين ، وذلك أنهم سلكوا على مفارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة ، وتوكل فيها خاق كثير ، فماتوا حتى قاسوا شدائد وأهوالاً صعباً وشدائد عظيماً ، وفيها دعا أشرس بن عبد الله السلي نائب خراسان أهل الذمة بسمرقند ومن وراء النهر إلى الدخول في الإسلام ، ويضع عنهم الجزية فأجابوه إلى ذلك ، وأسلم غالبهم ، ثم طالبهم

(١) زيادة من المصرية .

بالجزية فنصبوا له الحرب وقتلوه ، ثم كانت بينه وبين الترك حروب كثيرة ، أطال ابن جرير بسطها وشرحها فوق الحاجة . وفيها أرسل أمير المؤمنين هشام بن عبيدة إلى إفريقية متولياً عليها ، فلما وصل جهز ابنه وأخاه في جيش فالتقوا مع المشركين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا بطريقهم وانهمزم باقيهم ، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً . وفيها افتتح معاوية بن هشام حصنين من بلاد الروم ، وغنم غنائم جمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام ، وعلى العراق خالد القسري ، وعلى خراسان أشرس السلي

ذكر من توفي فيها من الأعيان :

جرير الشاعر

وهو جرير بن الخطفي ويقال ابن عطية بن الخطفي واسم الخطفي حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن طابخة بن الياس ابن مضر بن نزار ، أبو حرزة الشاعر البصري ، قدم دمشق مراراً ، وامتدح يزيد بن معاوية والخلفاء من بعده ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان في عصره من الشعراء الذين يقارنونهم الفرزدق والأخطل ، وكان جرير أشعرهم وأخيرهم ، قال غير واحد : هو أشعر الثلاثة ، قال ابن دريد ثنا الأشنانداني ثنا الثوري عن أبي عبيدة عن عثمان بن عيسى قال : رأيت جريراً وما تظم شفتاه من التسبيح ، فقلت : وما ينفعك هذا ؟ فقال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والله الحمد إن الحسنات يذهبن السيئات ، وعد من الله حق . وقال هشام بن محمد الكلابي عن أبيه قال : دخل رجل من بني عذرة على عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة وعنده الشعراء الثلاثة ، جرير والفرزدق والأخطل ، فلم يعرفهم الأعرابي ، فقال عبد الملك للأعرابي : هل تعرف أحمى بيت قالته العرب في الإسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

فَفُضُّوا الطرفَ إنك من نَمِيرٍ * فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فقال : أحسنت ، فهل تعرف أمدح بيت قيل في الإسلام ؟ قال نعم ! قول جرير :

أَلَسَمَ خَيْرٌ من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح

فقال : أصبت وأحسنت ، فهل تعرف أرق بيت قيل في الإسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

إن العيون التي في طرفها رَضٌ * قَتَلْنَا نَمَّ لم يُحْيِينَا قَتْلَانَا

يصرعن ذاللب حتى لاحرك به * وهن أضعف خلق الله أركاناً

فقال : أحسنت ، فهل تعرف جريراً ؟ قال : لا والله ، وإني إلى رؤيته لمشتاق ، قال : فهذا

جرير وهذا الفرزدق وهذا الأخطل ، فأنشأ الأعرابي يقول : -

فَيَا إِلَهَ أبا جِرْزَةَ * وَأَرْغَمَ أَنْفَكَ يَا أَخْطَلُ
وَجَدَّ الْفَرَزْدَقِ أَمْسَ بِهِ * وَرَقَّ خِيَاشِيمَهُ الْجَنْسِدُ

فَأَنشَأَ الْفَرَزْدَقُ يَقُولُ :

يَا أَرْغَمَ اللَّهُ أَنفَا أَنْتَ حَامِلُهُ * يَا ذَا الْخَلْنَا وَمَقَالِ الزُّورِ وَالْخَطَلِ
مَا أَنْتَ بِالْحَكِيمِ التَّرَضَى حُكُومَتُهُ * وَلَا الْأَصِيلُ وَلَا ذِي الرَّأْيِ وَالْجَدَلِ

ثُمَّ أَنشَأَ الْأَخْطَلُ يَقُولُ :-

يَاشِرُ مِنْ حَمَلَتِ سَاقٍ عَلَى قَدَمٍ * مَا مِثْلُ قَوْلِكَ فِي الْأَقْوَامِ يَحْتَمَلُ
أَنَّ الْحُكُومَةَ لَيْسَتْ فِي أَيْبِكَ وَلَا * فِي مَعْشَرٍ أَنْتَ مِنْهُمْ أَنْهُمْ سَفَلُ

فَقَامَ جَرِيرٌ مَغْضَبًا وَقَالَ :-

أَنْشَمَانِ سَفَاهًا خَيْرَكُمْ حَسَبًا * فَفِيكَمَا - وَإِلَهِي - الزُّورُ وَالْخَطَلُ
شَتَمَاهُ عَلَى رَفْعِي وَوَضْعِكَمَا * لَا زَلِيمًا فِي سَفَالٍ أَبِهَا السَّفَلُ

ثُمَّ وَثَبَ جَرِيرٌ فَقَبِلَ رَأْسَ الْأَعْرَابِيِّ وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَانِزَنِي لَهُ ، وَكَانَتْ خَمْسَةَ آلَافٍ ،
فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : وَهَلْ مِثْلُهَا مِنْ مَالِي ، فَقَبِضَ الْأَعْرَابِيُّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَخَرَجَ . وَحَكَى يَعْقُوبُ بْنُ السَّكَيْتِ
أَنَّ جَرِيرًا دَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ وَفْدِ أَهْلِ الْعِرَاقِ مِنْ جِهَةِ الْحِجَابِ فَأَنشَدَهُ مَدِيحَهُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ :

أَلَسْتُ خَيْرُ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا * وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونُ رَاحِ

فَأَطَاقَ لَهُ مِائَةٌ نَاقَةٌ وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الرِّعَاءِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّوْبَةِ وَأَرْبَعَةٌ مِنَ السَّبْيِ الَّذِينَ قَدِمَ بِهِمْ مِنَ
الصَّفَدِ قَالَ جَرِيرٌ : وَبَيْنَ يَدَيْ عَبْدِ الْمَلِكِ جَامَانٌ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَهْدَيْتَ لَهُ ، وَهُوَ لَا يَعْبَأُ بِهَا شَيْئًا ،
فَهُوَ يَقْرَعُهَا بِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ ، فَقَامَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحَلْبُ ، فَالْتَقَى إِلَى وَاحِدًا مِنْ تِلْكَ
الْجَامَاتِ ، وَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْحِجَابِ أَعْجَبَهُ إِكْرَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ فَأَطَاقَ الْحِجَابِ لَهُ خَمْسِينَ نَاقَةً تَحْمِلُ
طَعَامًا لِأَهْلِهِ .

وَحَكَى نَفْطُوِيَهُ أَنَّ جَرِيرًا دَخَلَ بِوَمَا عَلَى بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ وَعِنْدَهُ الْأَخْطَلُ ، فَقَالَ بَشْرِ بْنُ جَرِيرٍ :
أَتَعْرِفُ هَذَا ؟ قَالَ : لَا ، وَمَنْ هَذَا أَبِهَا الْأَمِيرُ ؟ فَقَالَ : هَذَا الْأَخْطَلُ ، فَقَالَ الْأَخْطَلُ : أَنَا الَّذِي
قَدَفْتَ عَرْضَكَ ، وَأَسْهَرْتَ لَيْلَكَ ، وَأَذَيْتَ قَوْمَكَ ، فَقَالَ جَرِيرٌ : أَمَا قَوْلَكَ شَتَمْتَ عَرْضَكَ فَمَا ضَرُّ
الْبَحْرِ أَنْ يَشْتَمَهُ مِنْ غَرَقٍ فِيهِ ، وَأَمَا قَوْلَكَ وَأَسْهَرْتَ لَيْلَكَ ، فَلَوْ تَرَكْتَنِي أَنَامَ لِكَانَ خَيْرًا لَكَ ، وَأَمَا قَوْلَكَ
وَأَذَيْتَ قَوْمَكَ فَكَيْفَ تُوذِي قَوْمًا أَنْتَ تُوذِي الْجَزِيَّةَ إِلَيْهِمْ ؟ وَكَانَ الْأَخْطَلُ مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ
الْمُنْتَصِرَةِ ، قَبِحَهُ اللَّهُ وَأَبْعَدَ مِثْوَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَنشَدَ بَشْرِ بْنُ مَرْوَانَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

قَدْ اسْتَوَى بَشْرُ عَلَى الْعِرَاقِ * مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مَهْرَاقِ

وهذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه ، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك ، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه ، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً ، فانه إنما يقال استوى على الشيء إذا كان ذلك الشيء عاصياً عليه قبل استيلائه عليه ، كاستيلاء بشر على العراق ، واستيلاء الملك على المدينة بعد عصيائها عليه ، وعرش الرب لم يكن ممتنعاً عليه نفساً واحداً ، حتى يقال استوى عليه ، أو معنى الاستواء الاستيلاء ، ولا نجد أضغف من حجج الجهمية ، حتى أدام الافلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح وليس فيه حجة والله أعلم .

وقال الهيثم بن عدى عن عوانة بن الحكم قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أياماً لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم ، فسأهم ذلك وهموا بالرجوع إلى بلادهم ، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير :-

يا أيها الرجلُ المرخى عمامته * هذا زمانك فاستأذنْ لنا عمرا

فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئاً ، فمرَّ بهم عدى بن أرطاة فقال له جرير منشداً :

يا أيها الراكبُ المرخى مطينه * هذا زمانك إني قد مضى زمني

أبغَ خليفتنا إن كنتَ لاقيه * أنى لدى البابِ كالمصْفودِ في قرنِ

لا تنسَ حاجتنا لاقيتَ مغفرةً * قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فدخل عدى على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة ، فقال : ويحك يا عدى ، مالي وللشعراء ، فقال : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) قد كان يسمع الشعر ويمجزي عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحه فأعطاه حاة ، فقال له عمر : أتروى منها شيئاً ؟ قال : نعم فأنشده :-

رايتك يا خيرَ البريةِ كلها * نشرتَ كتاباً جاء بالحقِ معلماً

شرعتَ لنا دينَ الهدى بعد جورنا * عن الحقِ لما أصبحَ الحقُ مظالمًا

ونورتَ بالبرهانِ أمراً مدلساً * واطفأتَ بالقرآنِ ناراً تضرُّ ما

فن مبلغٍ عني النبيُّ محمداً * وكلُّ امرئٍ يجزي بما كانَ قدماً

أقمتَ سبيلَ الحقِ بعد اعوجاجه * وكانَ قدماً ركنه قد تهديماً

تعالى علواً فوقَ عرشِ إلهنا * وكانَ مكانُ اللهِ أعلا وأعظماً

فقال عمر : من بالباب منهم ؟ فقال : عمر بن أبي ربيعة ، فقال أليس هو الذي يقول :

ثم نبتها فهبت كعابا * طفلة ما تبين رجع الكلام

ساعة ثم إنها بعدُ قالت * ويلنا قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعده جئت تسرى * تتخطى إلى رهوس النيام
ما تجشمت ما تريد من الأمر * ولا حيث طارقاً لخصام
فلو كان عدو الله إذ فجر كتم وستر على نفسه ، لا يدخل والله أبداً ، فمن بالباب سواء ؟ قال :
همام بن غالب - يعني الفرزدق - فقال عمر : أوليس هو الذي يقول في شعره :
ها دلياني من ثمانين قاماً * كما انقض باز أقم الريش كاسرة
فلما استوت رجلاي بالأرض قلنا * أحي برجي أم قتل نحاذره
لا يظأ والله بساطي وهو كاذب ، فمن سواء بالباب ؟ قال : الأخطل ، قال : أوليس هو الذي يقول :
ولست بصائم رمضان طوعاً * ولست بأكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عيساً بكور * إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بزائر بيتاً بعيداً * بمكة أبتغي فيه صلاحي
ولست بقاتم كالعير أدعو * قبيل الصبح حتى على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً * وأسجد عند منبلج الصباح
والله لا يدخل على وهو كافر أبداً ، فهل بالباب سوى من ذكرت ؟ قال : نعم الأحوص ، قال :
أليس هو الذي يقول :

الله بيني وبين سيدها * يفر مني بها وأتبعه
فما هو دون من ذكرت ، فمن هنا غيره ؟ قال جميل بن معمر ، قال : الذي يقول : -
إلا ليتنا نمينا جميعاً وإن نمت * يوافق في الموتى خريجي خريجها
فما أنا في طول الحياة براغب * إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحاً ويتوب ، والله لا يدخل على أبداً ، فهل
بالباب أحد سوى ذلك ؟ قلت : جريبر ، قال أما إنه الذي يقول :

طرتك صائدة القلوب وليس ذا * حين الزيارة فارجعي بسلام
فان كان لا بد فأذن لجريبر ، فأذن له فدخل على عمر وهو يقول :
إن الذي بعث النبي محمداً * جعل الخلافة للإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووقاؤه * حتى ارعوى وأقام ميل المائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً * والنفس مولمة بحب العاجل
فقال له : ويحك يا جريبر ، اتق الله فيما تقول ، ثم إن جريبر استأذن عمر في الانشاد فلم يأذن له ولم

ينبه ، فأشده قصيدة طويلة مدحه بها ، فقال له : ويحك يا جرير لا أرى لك فيها همتاً ، فقال : إني مسكين وابن سبيل ، قال : إنا ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلاثمائة درهم ، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد بقيت مائة ، فأمر له بها ، فخرج على الشعراء فقالوا : ما وراءك يا جرير ؟ فقال : ما يسوءكم ، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزّه * وقد كان شيطاني بن الجن راقيا

وقال بعضهم فيها حكاه المعافي بن زكريا الجريري قالت جارية للحجاج بن يوسف : إنك تدخل هذا علينا ، فقال : إنه ما علمت عفيفا ، فقالت : أما إنك لو أخليتني وإياه ستري ما يصنع ، فأمر باخلائها مع جرير في مكان يراهما الحجاج ولا يريانه ، ولا يشعر جرير بشيء من ذلك ، فقالت له : يا جرير ، فأطرق رأسه ، وقال : هأنذا ، فقالت : أنشدني من قولك كذا وكذا - شعر فيه رقة - فقال : لست أحفظه ولكن أحفظ كذا وكذا - ويعرض عن ذلك وينشدها شعرا في مدح الحجاج - فقالت : لست أريد هذا ، إنما أريد كذا وكذا - فيعرض عن ذلك وينشدها في الحجاج - حتى انقضى المجلس فقال الحجاج : لله درك ، أبيت إلا كرما وتكرما . وقال عكرمة أنشدت أعرابيا بيتا لجرير الخطافي :

أبدل الليل لا تجرى كواكبهُ * أو طال حتى حبت النجم حيرانا

فقال الأعرابي : إن هذا حسن في معناه وأعوذ بالله من مثله ، ولكني أنشدك في ضده من قولي

وليلٌ لم يقصره رقادٌ * وقصره لنا وصل الحبيب

نعيم الحب أوردق فيه * حتى تناولنا جناه من قريب

بمجلس لذة لم نقف فيه * على شكوى ولا عيب الذنوب

نخشينا أن نقطعه بالفظ * فترجمت العيون عن القلوب^(١)

فقلت له : زدني ، قال : أما من هذا فحسبك ولكن أنشدك غيره فأنشدني :

وكنْتُ إذا عقدت حبال قومٍ * صحبتهم وشيئتي الوفاء

فأحسن حين يحسن محسنوم * وأجتنب الإساءة إن أساءوا

أشياء سوى مشيئتهم فآتي * مشيئتهم وأترك ما أشاء

قال ابن خلكان : كان جرير أشعر من الفرزدق عند الجمهور ، وأخبر بيت قاله جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم * حسبت الناس كلهم غضابا

قال وقد سأله رجل : من أشعر الناس ؟ فأخذ يديه وأدخله على ابنه ، وإذا هو يرتضع من ثدي

(١) في هذه الأبيات تحريف ، ولم نقف عليها في مرجع آخر .

عنز ، فاستدعاه فنهض والابن يسيل على لحيته ، فقال جرير الذي سأله : أتبصر هذا ؟ قال : نعم ، قال :
 أنعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا أبي ، وإنما يشرب من ضرع العزائلا يحلبها فيسمع جيرانه حس الحلب
 فيطلبوا منه لبنا ، فأشعر الناس من فاخر بهذا ثمانين شاعرا فغلبهم ، وقد كان بين جرير والفرزدق
 ، قباولات ومهاجاة كثيرة جدا يطول ذكرها ، وقد مات في سنة عشر ومائة ، قاله خليفة بن خياط وغير
 واحد ، قال خليفة : مات الفرزدق وجرير بعده بأشهر ، وقال الصولي : ماتا في سنة إحدى عشرة
 ومائة ، ومات الفرزدق قبل جرير بأربعين يوماً ، وقال الكريبي عن الأصمعي عن أبيه قال : رأى
 رجل جريراً في المنام بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفرت لي ، فقيل : بماذا ؟ قال بتكبيره
 كبرتها بالبادية ، قيل له : فما فعل الفرزدق ؟ قال أهبأت أهليكم قذف المحصنات . قال الأصمعي لم
 يدعه في الحياة ولا في الممات

وأما الفرزدق

واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن
 حنظلة بن زيد بن مناة بن مر بن أد بن طابخة أبو فراس بن أبي خطل التيمي البصري الشاعر
 المعروف بالفرزدق ، وجده صعصعة بن ناجية صحابي ، وفد إلى رسول الله ﷺ ، وكان يحبي المؤودة
 في الجاهلية ، حدث الفرزدق عن علي أنه ورد مع أبيه عليه . فقال من هذا ؟ قال ابني وهو شاعر ،
 قال علمه القراءة فهو خير له من الشعر . وسمع الفرزدق الحسين بن علي وراة وهو ذاهب إلى العراق
 وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري وعرفجة بن أسعد ، وزرارة بن كرب ، والطرمح بن عدى الشاعر ،
 وروى عنه خالد الحذاء ومروان الأصغر وحجاج بن حجاج الأحول ، وجماعة ، وقد وفد على معاوية
 يطلب ميراث عمه الحباب ، وعلى الوليد بن عبد الملك وعلى أخيه ، ولم يصح ذلك ، وقال أشعث بن
 عبد الله عن الفرزدق قال نظر أبو هريرة إلى قدمي فقال : يا فرزدق إني أرى قدميك صغيرين
 فأطلب لهما موضعاً في الجنة ، فقالت : إن ذنوبي كثيرة ، فقال : لا بأس فاني سمعت رسول الله ﷺ ،
 يقول : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » . وقال معاوية بن
 عبد الكريم عن أبيه قال : دخلت على الفرزدق فتجرك فاذا في رجله قيد ، فقالت : ما هذا ؟ فقال :
 حلفت أن لا أنزعه حتى أحفظ القرآن . وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت بدويًا أقام بالحضر إلا فسد
 لسانه إلا روبة بن المعجاج والفرزدق فانهما زادا على طول الإقامة جدة وحدة ، وقال راويته أبو سفل
 طاق الفرزدق امرأته الزوار ثلاثاً ثم جاء فأشهد على ذلك الحسن البصري ، ثم ندم على طلافها
 وإشهاده الحسن على ذلك فأنشأ يقول : -

فلو أني ملكت يدي وقلبي * لكان عليّ للتقدير الخيار

ندمتُ ندامةَ الكسبي لما * غدتُ مني مطلقاً نواراً
وكانتُ جنيتي نخرجتُ منها * كآدم حينَ أخرجهُ الضرارُ

وقال الأصمعي وغير واحد : لما ماتت النزار بنت أعين بن ضبيعة الجاشعي امرأة الفرزدق - وكانت قد أوصت أن يصلى عليها الحسن البصرى - فشهدا أعيان أهل البصرة مع الحسن والحسين على بعثته ، والفرزدق على بعيره ، فسار فقال الحسن للفرزدق : ماذا يقول الناس ؟ قال : يقولون شهد هتبه الجنازة اليوم خير الناس - يعنونك - وشر الناس - يعنونى - فقال له : يا أبا فراس لست أنا بخير الناس ولست أنت بشر الناس ، ثم قال له الحسن : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها فأنشأ الفرزدق يقول :

أخافَ وراءَ القبرِ أنْ لمْ يعافني * أشدُّ منِ القبرِ التهابُ وأضيقا
إذا جاءني يومَ القيامةِ قائدٌ * عنيفٌ وسواقٌ يسوقُ الفرزدقا
لقد خابَ منْ أولادِ دارمَ منْ مشى * إلى النارِ مفلولَ القلادةِ أزرقا
يساقُ إلى نارِ الجحيمِ مسربلاً * سراييلَ قطرانٍ لباساً مخرقا
إذا شربوا فيها الصديدَ رأيتهم * يذوبونَ منْ حرِّ الصديدِ تمزقا

قال : فبكى الحسن حتى بل الثرى ثم التزم الفرزدق ، وقال : لقد كنت من أبنض الناس إلى ، وإنك اليوم من أحب الناس إلى . وقال له بعض الناس : ألا تخاف من الله في قذف المحصنات ، فقال : والله لله أحب إلى من عيني اللتين أبصر بهما ، فكيف يعذبني ؟ وقد قدمنا أنه مات سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوماً ، وقيل بأشهر فالله أعلم .

وأما الحسن وابن سيرين فقد ذكرنا ترجمة كل منهما في كتابنا التكميل مبسوطة وحسبنا الله ونحم

الوكيل . فأما الحسن بن ابي الحسن

فاسم أبيه يسار وأبجد هو أبو سعيد البصرى مولى زيد بن ثابت ، ويقال مولى جابر بن عبد الله وقيل غير ذلك ، وأمه خيرة مولاة لأم سلمة كانت تخدمها ، وربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع ، فتشاكله أم سلمة بثديها فيدران عليه فيرتضع منهما ، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أوتيتها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدي المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له ، وكان في جملة من يدعو له عمر بن الخطاب ، قال : اللهم فقها في الدين ، وحببه إلى الناس . وسئل مرة أنس بن مالك عن مسألة فقال : سلوا عنها مولانا الحسن ، فإنه سمع وسمعنا ، فحفظ ونسينا ، وقال أنس مرة : إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين - الحسن وابن سيرين - وقال قتادة : ما جالست رجلاً قطبها إلا رأيت فضل الحسن عليه ،

وقال أيضا : ما رأيت عيناى أفقه من الحسن ، وقال أبو ب : كان الرجل يجالس الحسن ثلاث جمع ما يسأله عن مسألة هيبه له ، وقال الشعبي لرجل يريد قدوم البصرة : إذا نظرت إلى رجل أجهل أهل البصرة وأهيبهم فهو الحسن ، فأقرأه منى السلام . وقال يونس بن عبيد : كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله ولم يسمع كلامه ، وقال الأعمش : ما زال الحسن يعنى الحكمة حتى لطن بها ، ولكن أبو جعفر إذا ذكره يقول : ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء .

وقال محمد بن سعد : قالوا كان الحسن جامعا للعالم والعمل ، عالما رفيعا فقيها ثقة مأمونا عابدا زاهدا ناسكا كثير العلم والعمل فصيحاً جميلاً وسبياً ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، وجلس العلماء حوله ، واجتمع الناس إليه فحدثهم . قال أهل التاريخ : مات الحسن عن ثمان وثمانين سنة ، عام عشر ومائة فى رجب منها ، بينه وبين محمد بن سيرين مائة يوم .

وأما ابن سيرين

فهو محمد بن سيرين أبو بكر بن أبي عمرو الأنصارى مولى أنس بن مالك النضرى ، كان أبو محمد من سبى عين التمر ، أسره خالد بن الوليد فى جملة السبى ، فاشتراه أنس ثم كاتبه ، ثم ولده من الأولاد الأخيار جماعة ، محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، وهيب ويحيى وحفصة وكريمة ، وكلهم تابعيون ثقات أجلاء رحمهم الله . قال البخارى : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ، وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا عالما رفيعا فقيها إماما كثير العلم ورعا . وكان به صمم ، وقيل مؤرق العجلي : ما رأيت رجلا أفقه فى ورعه ، وأورع فى فقهه منه ، قال ابن عيون : كان محمد بن سيرين أرجب الناس لهذه الأمة ، وأشد الناس إزارا على نفسه ، وأشدم خوفا عليها . قال ابن عيون : ما بكى فى الدنيا مثل ثلاثة ، محمد بن سيرين فى العراق ، والقاسم بن محمد فى الحجاز ، ورجاء بن حيوة بالشام . وكانوا يأتون بالحديث على حروفه ، وكان الشعبي يقول : عليكم بذاك الأصم - يعنى محمد بن سيرين - وقال ابن شاذب : ما رأيت أحدا أجرا على تعبير الرؤيا منه . وقال عثمان البتى : لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء منه . قالوا : ومات فى تاسع شوال من هذه السنة بعد الحسن بمائة يوم .

فضيلة

كان اللاتقى ، بالمؤلف أن يذكر تراجم هؤلاء العلماء الأخيار قبل تراجم الشعراء المتقدم ذكرهم فيبدأ بهم ثم يأتى بتراجم الشعراء ، وأيضا فانه أطال القول فى تراجم الشعراء واختصر تراجم العلماء ، ولو كان فيها حسن وحكم جمة ينتفع بها من وقف عليها ، ولعلها أفيد من مدحهم والثناء عليهم ، ولا سببا

كلام الحسن وابن سيرين ووهب بن منبه - كما ذكره بعد وكما سيأتي ذكر ترجمته في هذه الزيادة - فانه قد اختصرها جداً وإن المؤلف أقدر وأوسع علماً، فما ينبغي أن ينخل ببعض كلامهم وحكمهم، فإن النفوس مستشرفة إلى معرفة ذلك والنظر فيه، فإن أقوال السلف لها موقع من القلوب، والمؤلف غالباً في التراجم يحيل على ما ذكره في التكميل الذي صنعه في أسماء الرجال، وهذا الكتاب لم تقف عليه نحن ولا من سألناه عنه من العلماء، فانا قد سألنا عنه جماعة من أهل الفن فلم يذكر غير واحد أنه اطلع عليه. فكيف حل غيرهم.؟ وقد ذكرت في غالب التراجم زيادات على ما ذكره المؤلف مما وصلت إليه معرفتي واطلعنا عليه، ولو كان عندي كتب لأشعبت القول في ذلك، إذ الحكمة هي ضالة المؤمن. ولعل أن يقف على هذا راغب في الآخرة، طالب ما عند الله عز وجل فينتفع به أعظم مما ينتفع به من تراجم الخلف والملوك والأمراء، وإن كانت تلك أيضاً نافعة لمعتير ومزدجر، فإن ذكر أئمة العدل والجور بعد موتهم فيها فضل أولئك، وغم هؤلاء، ليعلم الظالم أنه وإن مات لم يمت ما كان متلبس به من الفساد والظلم، بل هو مدون في الكتب عند العلماء. وكذلك أهل العدل والصلاح والخير، فإن الله قد قص في القرآن أخبار الملوك والفراعنة والكفار والمفسدين، تحذيراً من أحوالهم وما كانوا يعملون، وقص أيضاً أخبار الأتقياء والمحسنين والأبرار والأخيار والمؤمنين، الاقتداء والتأسي بهم والله سبحانه أعلم. فنقول وبالله التوفيق: **أما الحسن**

فهو أبو سعيد البصرى الامام الفقيه المشهور، أخذ التابعين الكبار الأجلاء علماء وعملوا وإخلاصاً فروى ابن أبي الدنيا عنه قال: كان الرجل يتعبد عشرين سنة لا يشعر به جاره، وأحدهم يصلى ليلة أو بعض ليلة فيصبح وقد استطال على جاره، وإن كان القوم ليجتمعون فينذرون فتجسّء الرجل عبرته فيردها ما استطاع، فإن غاب قام عنهم. وقال الحسن: تنفس رجل عند عمر بن عبد العزيز فلكزه عمر - أو قال: لكه - وقال: إن في هذا لفتنة. وقد ذكره ابن أبي الدنيا عن الحسن عن عمر بن الخطاب. وروى الطبراني عنه أنه قال: إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة، يقول أحدهم: إني لحسن الظن بالله، وأرجو رحمة الله. وكذب، لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله، ولو جازحمة الله لطلبها بالأعمال للصالحه، يشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك. وروى ابن أبي الدنيا عنه قال: حادثوا هذه القلوب فانها سرية الدثور، واقعدوا هذه لأنفس فانها تنزع إلى شرغاية.

وقال مالك بن دينار: قلت للحسن: ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا؟ قال: موت القلب، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحل عنه بركات العالم ويبقى عليه رحمه. وروى الفتى عن أبيه قال: عاد الحسن عليلاً فوجده قد شفى من علته، فقال: أيها الرجل إن الله قد ذكرك

فاذكره ، وقد أفالك فاشكره ، ثم قال الحسن : إنما المرض ضربة سوط من ملك كريم ، فأما أن يكون العليل بعد المرض فرساجواداً ، وإما أن يكون حماراً عشوراً معقوراً . وروى العتيبي عن أبيه أيضاً قال : كتب الحسن إلى فرقد :

أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله ، والعمل بما علمك الله ، والاستعداد لما وعد الله ، بما لا حيلة لأحد في دفعه ، ولا ينفع الندم عند نزوله ، فاحسر عن رأسك قناع الغافلين ، وانقبه من رقدة الجاهلين ، وشمر الساق ، فان الدنيا ميدان مسابقة ، والغاية الجنة أو النار ، فان لي ولك من الله تماماً يسألني وإياك فيه عن الحقير والدقيق ، والجليل والخفي ، ولا آمن أن يكون فيما يسألني وإياك عنه وساوس الصدور ، ولحظ العيون ، وإصغاء الأسماع . وما أعجز عنه .

وروى ابن قتيبة عنه أنه مر على باب ابن هبيرة فرأى القراء - وكانوا هم الفقهاء - جلوساً على باب ابن هبيرة فقال : طفحتم نعالكم ، وبيضتم ثيابكم . ثم أتيتهم تسعون؟ ثم قال لأصحابه : ما ظنكم بهؤلاء الخذا؟ ليست مجالسهم من مجالس الأتقياء ، وإنما مجالسهم مجالس الشرط . وروى الخرائطي عن الحسن أنه كان إذا اشترى شيئاً وكان في ثمنه كسر جبره لصاحبه . ومر الحسن بقوم يقولون : نقص دائق أي عن الدرهم الكامل والدينار الكامل - إما أن يكون درهما ينقص نصفاً أو ربعاً ، والعشرة تسعة ونصف ، وقس على هذا ، فكان الحسن يستحب جبران هذه الأشياء ، وإن كان اشترى السلعة بدرهم ينقص دائقاً كله درهما ، أو بتسعة ونصف كلها عشرة ، مروءة وكرماً . وقال عبد الأعلى السمسار ، قال الحسن : يا عبد الأعلى ! أما يبيع أحدكم النوب لأخيه فينقص درهمين أو ثلاثة؟ قلت لا والله ولا دائق واحد ، فقال الحسن : إن هذه الأخلاق فما بقي من المروءة إذا؟ . قال : وكان الحسن يقول : لا دين إلا بمروءة . وباع بقلعة له فقال له المشتري : أما تحط لي شيئاً يا أبا سعيد؟ قال لك خمسون درهماً ، أزيدك؟ قال : لا ! رضيت ، قال : بارك الله لك . وروى ابن أبي الدنيا عن حمزة الأعشى قال : ذهبت بي أمي إلى الحسن فقالت : يا أبا سعيد : ابني هذا قد أحببت أن يلزمك فلعل الله أن ينفعه بك ، قال : فكنت أختلف إليه ، فقال لي يوماً : يا بني آدم الحزن على خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه ، وأبك في ساعات الليل والنهار في الخلو : لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين ، قال : وكنت أدخل على الحسن منزله وهو يبكي ، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوماً : إنك تكثير البكاء ، فقال يا بني أماذا يصنع المؤمن إذا لم يبكي؟ يا بني إن البكاء داع إلى الرحمة ، فان استطعت أن تكون عمرك باكياً فافعل لعله تعالى أن يرحمك ، فإذا أنت نجوت من النار ، وقال : ما هو إلا حلول الدار إما الجنة وإما النار ، ما هناك منزل ثالث . وقال : بلغنا أن الباكي من خشية الله لا تقطر من دموعه

قطرة حتى تمتق رقبتنه من النار . وقال : لو أن با كيا بكى في ملاً من خشية الله لرحموا جميعا ، وليس شئ من الأعمال إلا له وزن إلا البكاء من خشية الله فانه لا يقوّم الله بالدمعة منه شيئا . وقال : ما بكى عبد إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب .

وروى ابن أبي الدنيا عنه في كتاب اليقين قال : من علامات المسلم قوة دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وحكم في علم ، وحبس في رفق ، وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتحمل في فاقة وإحسان في قدرة ، وطاعة معها نصيحة ، وتورع في رغبة ، وتعفف وصبر في شدة ، لا ترديه رغبته ، ولا يبدره لسانه ، ولا يسبقه بصره ، ولا يغلبه فرجه ، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه لسانه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته . كذا ذكر هذه الألفاظ عنه ^(١) . قال : حدثنا عبد الرحمن ابن صالح عن الحكم بن ظهير عن يحيى بن المختار عن الحسن فذكره ، وقال فيه أيضا عنه : يا ابن آدم إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يدي الله عز وجل .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا علي بن إبراهيم اليشكري حدثنا موسى بن إسماعيل الجبلي حدثنا حفص بن سليمان أبو مقاتل عن عون بن أبي شداد عن الحسن قال قال لقمان لابنه : يا بني ! العمل لا يستطاع إلا باليقين ، ومن يضعف يقينه يضعف عمله . وقال : يا بني إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريب فاغلبه باليقين والنصيحة ، وإذا جاءك من قبل الكسل والسامة فاغلبه بذكر القبر والقيامة ، وإذا جاءك من قبل الرغبة والرغبة فاخبره أن الدنيا مفارقة متروكة . وقال الحسن : ما أيقن عبد بالجنة والنار حتى يقينهما إلا خشع وذبل واستقام واقتصد حتى يأتيه الموت . وقال : باليقين طلبت الجنة ، وباليقين هربت من النار ، وباليقين أدبت الفرائض على أكمل وجهها ، وباليقين أصبر على الحق وفي معافاة الله خير كثير ، قد والله رأيناهم يتعاونون في العافية ، فاذا نزل البلاء تفارقوا . وقال : الناس في العافية سواء ، فاذا نزل البلاء تبين عنده الرجال . وفي رواية : فاذا نزل البلاء تبين من يعبد الله وغيره ، وفي رواية فاذا نزل البلاء سكن المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه .

وقال الفريابي في فضائل القرآن : حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إن هذا القرآن قد قرأه عبید وصبيان لا علم لهم بتأويله ، لم يأتوا الأمر من قبل أوله ، قال الله عز وجل : [كتاب أنزلناه مبارك ليذكروا آياته وليتذكروا أولو الألباب] وماتدبر آياته إلا أتباعه ، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفا واحدا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ، حتى ان أحدهم ليقول : والله إني لأقرأ السورة في نفس ، لا والله ما هؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا بالحكام

(١) كذا بالأصل ولم يعين اسم الذاكر

ولا الورعة ، ومتى كانت القراءة هكذا أو يقول مثل هذا ، لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء . ثم روى الحسن عن جنسب قال : قال لنا حذيفة : هل تخافون من شيء ؟ قال : قلت والله إنك وأصحابك لأهون الناس عندنا ، فقال : أما والذي نفسي بيده لا تؤتون إلا من قبلنا ، ومع ذلك نشأ آخر يقرؤن القرآن يكونون في آخر هذه الأمة ينثرونه نثر الدقل ، لا يجاوزون رقابهم ، تسبق قراءتهم إيمانهم .

وروى ابن أبي الدنيا عنه في ذم الغيبة له قال : والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده . وكان يقول . ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تصيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك كان ذلك شغلك في طاعة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال الحسن : ليس بينك وبين الفاسق حرمة . وقال : ليس لمبتدع غيبة . وقال أصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال : إذا ظهر فجوره فلا غيبة له . وقال : ثلاثة لا تحرم عليك غيبتهم : الجاهر بالفسق ، والامام الجائر ، والمبتدع . وقال له رجل : إن قوما يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الويمة فيك سبيلا ، فقال : هون عليك يا هذا فاني أطعمت نفسي في الجنان فطعمت ، وأطعمتها في النجاة من النار فطعمت ، وأطعمتها في السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلا ، فان الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم ؟ وقال : كانوا يقولون : من رمى أخاه بذنوب قد تاب منه لم يمت حتى يصيب ذلك الذنب . وقال الحسن : قال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال الحسن : اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فان الله عز وجل لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه ، فان سمعت قولاً حسناً فرويداً بصاحبه ، فان وافق قول عملاً فنعمة ونعمت عين أخته وأخيه ، وإذا خالف قول عملاً فماذا يشبه عليك منه ، أم ماذا يخفى عليك منه ؟ إياك وإياه لا يخذعك كما خدع ابن آدم ، إن لك قولاً وعملاً ، فعملك أحق بك من قولك ، وإن لك سريرة وعلانية ، فسريرتك أحق بك من علانيتك ، وإن لك عاجلة وعاقبة ، فعاقبتك أحق بك من عاجلتك .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا حمزة بن العباس أنبأ عبدان بن عثمان أنبأ معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إذا شبت لقيت الرجل أبيض حديد اللسان حديد النظر ميت القلب والعمل ، أنت أبصر به من نفسه ، ترى أبدانا ولا تاربا ، وتسمع الصوت ولا أنيس ، أخصب السنة وأجاب قلوباً ، يأكل أحدم من غير ماله ويبكى على عماله ، فإذا كفضته البطنة قال : يا جارية أوي غلام ايتنى بهاضم ، وهل هضمت يا مسكين إلا دينك ؟ . وقال : من رقى توبه رقى دينه ، ومن سمن جسده هزل دينه ، ومن طاب طعامه أنتن كسبه . وقال فيما رواه عنه الآجري : رأس مال المؤمن

دين حيث ما زال زال معه ، لا يخلفه في الرحال ، ولا ياتمن عليه الرجال . وقال في قوله تعالى :
 [فلا أقسم بالنفس اللوامة] قال : لا تلتقى المؤمن إلا يلوم نفسه ، ما أردت بكلمة كذا ، ما أردت
 بأكلة كذا ، ما أردت بمجلس كذا ، وأما الفاجر فيمضي قدما قدما لا يلوم نفسه . وقال : تصبروا
 وتشددوا فانما هي ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ،
 فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم ، إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما يصبر
 على هذا الحق من عرف فضله وعاقبته . وقال : لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت
 المحاسبة من همته .

وقال ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس : حدثنا عبد الله حدثنا إسماعيل بن زكريا حدثنا عبد الله
 ابن المبارك عن معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله
 عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم
 القيامة على أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجأه الشيء ويهجه فيقول : والله
 إنك لمن حاجتي وإني لأشتهيك ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات حيل بيني وبينك ، ويفرط
 منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا أبدا إن شاء الله : إن المؤمنين قوم قد أوثقهم
 القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكك رقبتك ، لا يأمن شيئا
 حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه ، وفي جوارحه كلها . وقال : الرضا
 صعب شديد ، وإنما معول المؤمن الصبر . وقال : ابن آدم عن نفسك فكائس ، فإك إن دخلت
 النار لم تجبر بعدها أبدا . وقال ابن أبي الدنيا : أنبا إسحاق بن إبراهيم قال : سمعت حماد بن زيد يذكر
 عن الحسن قال : المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في غيرها ولا يجزع من ذلها ، للناس حال وله
 حال ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في شغل . وقال : لولا البلاء ما كان في أيام قلائل ما يهلك المرء
 نفسه . وقال : أدركت صدر هذه الأمة وخيارها وطال عمرى فيهم ، فوالله إنهم كانوا فيما أحل الله
 لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم ، أدركتهم عاملين بكتاب ربهم ، متبعين سنة نبيهم ، ما طوى
 أحدهم ثوبا ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر أهله بصنع طعام ، كان أحدهم يدخل منزله فان
 قرب إليه شيء أكل وإلا سكت فلا يتكلم في ذلك . وقال إن المناق إذا صلى صلى رياء أو حياء من
 الناس أو خوفا ، وإذا صلى صلى فقرهم الدنيا ، وإن فاتته الصلاة لم يندم عليها ولم يحزنه فواتها .
 وقال الحسن فيما رواه عنه صاحب كتاب النكت : من جعل الحمد لله على النعم حصنا وحابسا
 وجعل أداء الزكاة على المال سياجا وحارما ، وجعل العلم له دليلا وسائسا ، أمن العطب ، وبلغ أعلى
 الرتب . ومن كان للمال قانصا ، وله عن الحقوق حابسا ، وشغله وألهاه عن طاعة الله كان لنفسه ظلما

ولقلبه بما جنت يدهام كالماء ، وسلطه الله على ماله سالباً وخالسا ، ولم يأمل العطب في سائر وجوده الطلب وقيل : إن هذا لغيره ، والله أعلم .

وقال الحسن : أربع من كن فيه أتى الله عليه محبته . ونشر عليه رحمته : من رقى لوالديه ، وورق لملوكه ، وكفل اليتيم ، وأعان الضميف . وسئل الحسن عن النفاق فقال : هو اختلاف السر والملائية والمخيل والمخرج ، وقال : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق - يعني النفاق - وحلف الحسن : ما مضى مؤمن ولا بقى إلا وهو بخفاف النفاق ، وفي رواية : إلا وهو من النفاق مشفق ، ولا مضى منافق ولا بقى إلا وهو من النفاق آمن . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : كيف حبك الدينار والدرهم ؟ قال : لا أحبهما ، فكتب إليه : تولى فانك تعدل . وقال إبراهيم بن عيسى : ما رأيت أطول حزنا من الحسن ، وما رأيت قط إلا حسبته حديث عهد بصيبة ، وقال مسمع : لو رأيت الحسن لقلت : قد بث عليه حزن الخلائق . وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أحزن من الحسن وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تخلق إلا لهيا . وقال ابن أسباط : مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وأربعين سنة لم يمزح . وقال : ما سمع الخلائق بعورة بادية ، وعين باكية مثل يوم القيامة . وقال : ابن آدم ! إنك ناظر غداً إلى عملك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تنقيه ، فانك إذا رأيت غداً في ميزانك شرك^(١) مكانه . وقال : ذهبت الدنيا وبقيت أعمالكم فلائد في أعناقكم وقال : ابن آدم ! بع دنياك بآخرتك تربيهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، وهذا مأثور عن لقمان أنه قاله لولده .

وقال الحسن : تجمد الرجل قد لبس الأحمر والأبيض فقال : هلوا فانظروا إلى ، قال الحسن : قد رأيتك يا أفسق الفاسقين فلا أهلا بك ولا سهلاً ، فأما أهل الدنيا فقد اكتسبوا بنظرهم إليك مزيد حرص على دنياهم ، وجرأة على شهوات الغنى في بطونهم وظهورهم . وأما أهل الآخرة فقد كرهوك ومقتوك . وقال : إنهم وإن هملجت بهم البراذين ، وزفرت بهم البغال ، ووطئت أعقابهم الرجال ، إن ذل المعاصي لا يفارق رقابهم ، يا بئى الله إلا أن يذل من عصاه .

وقال فرقد : دخلنا على الحسن فقلنا : يا أبا سعيد : ألا يعجبك من محمد بن الاهتم ؟ فقال : ماله ؟ فقلنا : دخلنا عليه آنفاً وهو يجود بنفسه فقال : انظروا إلى ذاك الصندوق - وأوماً إلى صندوق في جانب بيته - فقال : هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار - أو قال : درهم - لم أؤد منها زكاة ، ولم أصل منها رحماً ، ولم يأكل منها [محتاج] . فقلنا : يا أبا عبد الله ، فلن كنت تجمعها ؟ قال : لروعة الزمان ، ومكاثرة الأقران ، وجفوة السلطان . فقال : انظروا من أين أتاه شيطانه فخوفه روعة زمانه ،

(١) كذا بالأصل وفيه نقص يظهر بالتأمل .

ومكاثرة أقرانه ، وجفوة سلطانه ؟ ثم قال : أيها الوارث : لا تخدعن كما خدع صوبجيك بالأمس ، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه عين ، ولم يعرق لك فيه جبين ، جاءك ممن كان له جموعاً منوعاً ، من باطل جمعه ، من حق منعه ، ثم قال الحسن : إن يوم القيامة لذو حسرات ، الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره فيرزقه الله فيه الصلاح والانفاق في وجوه البر ، فيجد ماله في ميزان غيره . وكان الحسن يتمثل بهذا البيت في أول النهار يقول :

وما الدنيا بياقيةٍ لحى * ولا حنى على الدنيا بياقٍ

وبهذا البيت في آخر النهار :

يسرُ الفقى ما كانَ قدمَ من تقي * إذا عرفَ لئلاءَ الذى هو قاتلهُ

ولد الحسن في خلافة عمر بن الخطاب وأتى به إليه فدعاه وحسكه . ومات بالبصرة في سنة عشر ومائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

محمد بن سيرين

أبو بكر بن أبي عمر و الأنصارى ، مولى أنس بن مالك النضرى ، كان أبوه من سبي عين التمر أسره في جملة السبي خالد بن الوليد فاشتراه أنس ثم كاتبه . وقد ولد له من الاخيار جماعة ، محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعبد ، ويحيى ، وحفصة ، وكريمة ، وكلهم تابعيون ثقات أجلاء ، رحمهم الله تعالى .

قال البخارى : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان . وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر . وقد تقدم هذا كله فيما ذكره المؤلف .

كان ابن سيرين إذا ذكر عنده رجل بسوء ذكره بأحسن ما يعلم . وقال خلف بن هشام : كان محمد بن سيرين قد أعطى هدياً وصمتاً وخشوعاً ، وكان الناس إذا رأوه ذكروا الله . ولما مات أنس بن مالك أوصى أن يغسله محمد بن سيرين . وكان محمد محبوباً . فقالوا له في ذلك ، فقال : أنا محبوبس فقالوا : قد استأذنا الأمير في إخراجك ، قال : إن الأمير لم يحبسنى ، إنما حبسنى من له الحق ، فأذن له صاحب الحق فغسله . وقال يونس : ما عرض لمحمد بن سيرين أمران إلا أخذ بأوثقهما في دينه ، وقال : إني لأعلم الذند . الذى حملت بسببه ، إني قلت يوماً لرجل : يا فلان ، فذكر هذا لأبي سليمان الداراني فقال : قلت ذنوبهم فعرفوا من أين أتوا . ومثلنا قد كثرت ذنوبنا فلم ندر من أين نؤتى ، ولا بأى ذنب نؤخذ . وكان إذا دعى إلى وليمة يدخل منزله فيقول : ايتونى بشربة سويق فيشربها ويقول : إني أكره أن أحمل جوعى إلى ، وائدم وطمامهم : وكان يدخل السوق نصف النهار فيكبر الله ويسبحه ويذكره ويقول : إنها ساعة غفلة الناس ، وقال : إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظاً

من قلبه يأمره وينهاه . وقال : ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه وتكتم خيراً .
 مروال : العزلة عيادة ، وكان إذا ذكر الموت مات منه كل عضو على حدته . وفي رواية كان يتمبر
 ونه وينكر حاله ، حتى كأنه ليس بالذي كان ، وكان إذا سئل عن الرؤيا قال للسائل : اتق الله في
 اليقظة ولا يفرك ما رأيت في المنام . وقال له رجل : رأيت كأنني أصب الزيت في الزيتون ، فقال : ففس
 على امرأتك فانها أمك ، ففتش فاذا هي أمه . وذلك أن الرجل أخذ من بلاده صغيراً سبباً مكن
 في بلاد الاسلام إلى أن كبر ، ثم سببت أمه فاشتراها جاهلاً بأنها أمه ، فلما رأى هذه الرؤيا وذكرها
 لابن سيرين فأمره أن يفتش على ذلك ، ففتش فوجد الأمر على ما ذكره . وقال له آخر : رأيت كأنني
 دست - أو قال وطئت - نمره فخرجت منها فأرة ، فقال له : تنزوج امرأة - أو قال . تطأ امرأة - صلح
 تلد بنتاً فاسقة ، فكان كما قال . وقال له آخر : رأيت كأن علي سطح بيتي حبات شمير فجاء ديك
 فلتطها ، فقال له : إن سرق لك شيء في هذه الأيام فأتني . فوضعوا بساطاً على سطحهم فسرق ، فجاء
 إليه فأخبره ، فقال : اذهب إلى مؤذن محلتك فخذ منه ، فجاء إلى المؤذن فأخذ البساط منه . وقال
 له رجل : رأيت الحمام تلتط الياصمين . فقال : مات علماء البصرة . وأناه رجل فقال : رأيت رجلاً عرياناً
 واقفاً على مزبلة وبيده طنبور يضرب به ، فقال له ابن سيرين : لا تصلح هذه الرؤيا في زماننا هذا
 إلا للحسن البصري ، فقال : الحسن هو والله الذي رأيت . فقال : نعم ، لأن المزبلة الدنيا وقد جعلها
 تحت رجليه ، وعريه تجرده عنها ، والطنبور يضرب به هي المواعظ التي يقرع بها آذان الناس .
 وقال له آخر : رأيت كأنني أستاك والدم يسيل . فقال له : أنت رجل تقع في أعراض الناس وتأكل
 لحومهم وتخرج في بابه وتأتيه (١) .

وقال له آخر : رأيت كأنني أرى اللؤلؤ في الحماة ، فقال له : أنت رجل تضع القرآن والعالم عند
 غير أهله ومن لا ينتفع به . وجاءته امرأة فقالت : رأيت كأن سنوراً أدخل رأسه في بطن زوجي فأخذ
 منه قطعة ، فقال لها ابن سيرين : سرق لزوجك ثلاثمائة درهم ، وستة عشر درهماً ، فقالت : صدقت
 من أين أخذته ؟ فقال : من هجاء حروفه وهي حساب الجمل ، فالسبع ستون ، والنون خمسون ، والواو ستة
 والراء مائتان ، وذلك ثلاثمائة وستة عشر ، وذكرت السنور أسود فقال : هو عبد في جوارمك ، فالزهوا
 عبداً أسود كان في جوارمك وضرب فأقر بالمال المذكور . وقال له رجل : رأيت لحيتي قد طالت وأنا
 أنظر إليها . فقال له : أمؤذن أنت ؟ قال : نعم ، قال له : اتق الله ولا تنظر إلى دور الجيران . وقال له
 آخر : رأيت كأن لحيتي قد طالت حتى جزتها ونسحتها كساء وبعته في السوق . فقال له : اتق الله
 فانك شاهد زور . وقال له آخر : رأيت كأنني آكل أصابعي ، فقال له : تأكل من عمل يدك . وقال لرجل

(١) كذا الأصل ، وفيه تحريف .

انظر هل ترى في المسجد أحدا؟ فذهب فنظر ثم رجع إليه فقال: ليس في المسجد أحد، فقال: ليس أمرتك أن تنظر هل ترى أحداً قد يكون في المسجد من الأمراء^(١)؟ وقال عن رجل ذكر له ذلك الأسود، ثم قال: أستغفر الله! ما أراي إلا قد اغتبت الرجل - وكان الرجل أسود - وقال: اشترك سببة في قتل امرأة فقتلهم عمر، فقال لو أن أهل صنعاء اشتركوا في قتلها لأبديت خضراءم.

وهيب بن منبه الياني

تابعي جليل، وله معرفة بكتب الأوائل، وهو يشبهه كعب الأخبار، وله صلاح وعبادة، ويروى عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ، وقد بسطنا ترجمته في كتابنا التكميل والله الحمد. قال الواقدي: توفي بصنعاء سنة عشر ومائة، وقال غيره: بعدها بسنة، وقيل بأكثر، والله أعلم. ويزعم بعض الناس أن قبره غربى بصرى بقرية يقال لها عصم، ولم أجد لذلك أصلاً، والله أعلم. انتهى ما ذكره المؤلف.

فضائل

أدرك وهب بن منبه عدة من الصحابة، وأسند عن ابن عباس وجابر والنعمان بن بشير. وروى عن معاذ بن جبل وأبي هريرة، وعن طاوس. وعنه من التابعين عدة. وقال وهب: مثل من تعلم علماً لا يعمل به كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به. وعن منير مولى الفضل بن أبي عياش قال: كنت جالساً مع وهب بن منبه فأتاه رجل فقال له: إني مررت بفلان وهو يشتك، ففضب وقال: ما وجد الشيطان رسولا غيرك؟ فما برحت من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم فلم على وهب فرد عليه السلام، ومد يده إليه وصافحه وأجلسه إلى جنبه. وقال ابن طاوس: سمعت وهبا يقول: ابن آدم احتل لدينك فان رزقك سيأتيك. وقال وهب: كسى أهل النار والعري كان خيراً لهم، وطعموا والجوع كان خيراً لهم، وأعطوا الحياة والموت كان خيراً لهم. وقال: قال داود عليه السلام: اللهم أيما فقير سأل غنيا فتصام عنه، فأسألك إذا دعاك فلا تجبه، وإذا دعاك فلا تعطه. وقال: قرأت في بعض كتب الله: ابن آدم، لا خير لك في أن تعلم ما لم تعلم، ولم تعمل بما قد علمت، فان مثلك كمثل رجل احتطب حطباً فحزم حزمة فذهب يحملها فمجز عنها فضم إليها أخرى. وقال: إن لله ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء.

وروى الطبراني عنه أنه قال: إذا أردت أن تعمل بطاعة الله عز وجل فاجتهد في نصحك وعملك لله، فان العمل لا يقبل من ليس بناصح، والنصح لله لا يكمل إلا بطاعة الله، كمثل الثمرة الطيبة ريحها وطعمها، كذلك مثل طاعة الله، والنصح ريحها، والعمل طعمها، ثم زين طاعتك بالحلم

(١) كذا الاصل، وفيه تحريف.

والمقل ، والفقہ والعمل ، ثم أكبر نفسك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا ، وعبدها على أخلاق الأنبياء والعلماء العاملين ، وعودها فعل الحكماء ، وامنعها عمل الأشقياء ، وأزمها سيرة الأتقياء ، واعزبها عن سبيل الخبثاء ، وما كان لك من فضل فأعن به من دونك ، وما كان فيمن دونك من نقص فأعنه عليه حتى يبلغه ، فان الحكيم من جمع فواضله وعاد بها على من دونه ، وينظر في نقائص من دونه فيقوبها ويرجئها حتى يبلغه ، إن كان قبيها حمل من لافقه له إذا رأى أنه يريد صحابته ومعاونته وإذا كان له مال أعطى منه من لا مال له ، وإذا كان مصلحا استغفر للمذنب ورجا توبته ، وإذا كان محسنا أحسن إلى من أساء إليه واستوجب بذلك أجره ، ولا يمتز بالقول حتى يحسن منه الفعل ، فاذا أحسن الفعل نظر إلى فضل الله وإحسانه إليه ، ولا يتمنى الفعل حتى يفعله ، فاذا بلغ من طاعة الله مبلغا حمد الله على ما بلغ منها ثم طلب ما لم يبلغ منها ، وإذا ذكر خطيئة سترها عن الناس واستغفر الله الذي هو قادر على أن يغفرها ، وإذا علم من الحكمة شيئا لم يشبعه بل يطلب ما لم يبلغ منها ، ثم لا يستعين بشيء من الكذب ، فان الكذب كالأكل في الجسد تكاد تأكله ، أو كالأكل في الخشب ، يرى ظهرا حسنا وجوفها نخر تفر من براها حتى تنكسر على ما فيها وتهلك من اغتربها . وكذلك الكذب في الحديث لا يزال صاحبه يغتر به ، يظن أنه معينه على حاجته ورائد له في رغبته ، حتى يعرف ذلك منه ، ويتبين لذوى العقول غروره ، فتستنبط الفقهاء ما كان يستخفي به عنه ، فاذا اطلعوا على ذلك من أمره وتبين لهم ، كذبوا خبره ، وأباروا شهادته ، واتهموا صدقه ، وحقروا شأنه ، وأنفضوا مجلسه ، واستخفوا منه بسرازمهم ، وكتبهوه حديثهم ، وصرقوا عنه أمانيهم ، وغيبوا عنه أمرهم ، وحذروه على دينهم ومعيشتهم ، ولم يحضروه شيئا من محاضرتهم ، ولم يأمنوه على شيء من سرهم ، ولم يحكوه فيما شجر بينهم .

وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال لقمان لابنه : إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة . وقال : قرأت في التوراة أربعة أسطر متواليات : من قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله ، ومن شكك مصيبة نزلت به فانما يشكوره به عز وجل ، ومن أسف على ما فاته من الدنيا سخط قضاء ربه عز وجل ، ومن تضعف لغنى ذهب ثلث دينه . وقال وهب : قرأت في التوراة : أيما دار بنيت بقوة الضعفاء جعلت عاقبتها إلى الخراب ، وأيما مال جمع من غير حله أسرع الفقر إلى أهله .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا معمر عن محمد بن عمرو قال : سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت في بعض الكتب : يقول الله تعالى : إذا أطاعني عبدي استجبت له من قبل أن يدعوني ، وأعطيته من قبل أن يسألني ، وإن عبدي إذا أطاعني لو أن أهل السموات وأهل الأرض أجلبوا

عليه جعلت له المخرج من ذلك ، وإن عبدي إذا عصاني قطعت يديه من أبواب السماء ، وجعلته في الهواء فلا يمتنع من شيء أراده من خلقي . وقال ابن المبارك أيضا : حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال الله تعالى فيما يعيب به أحبار بني إسرائيل : تفقهون لغير الدين ، وتعلمون لغير العمل ، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة ، وتلبسون جلود الضأن ، وتحملون نفس الذباب ، وتتغذون الغذاء من شرابكم ، وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام ، وتنقلون الدين على الناس أمثال الجبال ، ثم لا تعينوهم برفع الخناصر ، تطيلون الصلاة وتبيضون الثياب ، تنتقصون بذلك مال اليتيم والأرملة ، فبعزتي حافظ لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأى ذى الرأى وحكمة الحكيم .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد الصنعاني حدثنا همام بن مسleme حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله ليس بمحمد أحداً على طاعة ، ولا ينال أحد من الله خيراً إلا برحمته ، وليس يرجو الله خير الناس ولا يخاف شرم ، ولا يعطف الله على الناس إلا برحمته إياهم ، إن مكروا به أباد مكرم ، وإن خادعوه رد عليهم خداعهم ، وإن كاذبوه كذب بهم ، وإن أدبروا قطع دابرهم ، وإن أقبلوا قبل منهم ولا يقبل منهم شيئاً من حيلة ، ولا مكر ولا خداع ولا سخط ولا مشادة ، وإنما يأتي بالخير من الله تعالى رحمته ، ومن لم يبتغ الخير من قبل رحمته لا يجيد باباً غير ذلك يدخل منه ، فإن الله تعالى لا ينال الخير منه إلا بطاعته ، ولا يعطف الله على الناس شيئاً إلا تعبد لهم ، وتضرعهم إليه حتى يرحمهم ، فإذا رحمهم استخرجت رحمته منهم حاجتهم ، وليس ينال الخير من الله من وجه غير ذلك ، وليس إلى رحمة الله سبيل تؤتى من قبله إلا تعبد العباد له وتضرعهم إليه ، فإن رحمة الله عز وجل باب كل خير يبتغى من قبله ، وإن مفتاح ذلك الباب التضرع إلى الله عز وجل والتعبد له ، فمن ترك المفتاح لم يفتح له ، ومن جاء بالمفتاح فتح له به ، وكيف يفتح الباب بغير مفتاح ، والله خزائن الخير كله ، وباب خزائن الله رحمته ، ومفتاح رحمة الله التذلل والتضرع والافتقار إلى الله ، فمن حفظ ذلك المفتاح فتحت له الخزائن ودخل ، فله فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وفيها ما تشاؤون وما تدعون في مقام أمين ، لا يحولون عنه ولا يخافون ولا ينصبون ولا يهرمون ولا يهتقرون ولا يموتون ، في نعيم مقيم ، وأجر عظيم ، وثواب كريم ، نزلاً من غفور رحيم .

وقال سفيان بن عيينة : قال وهب : أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا ، وأسرعها رداً اتباع الهوى وحب المال والشرف ، ومن حب المال والشرف تنزهك المحارم ، ومن انتهك المحارم بغضب الرب ، وغضب الله ليس له دواء . وقال : يقول الله تعالى في بعض كتبه يعنب به بني إسرائيل : إني إذا أطمت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وليس إبركتي نهاية ، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ، وإن اللعنة مني تبلغ السابع من الولد . وقال : كان في بني إسرائيل رجل

عصى الله عز وجل ما مئتي سنة ، ثم مات فأخذوا برجله فألقوه على مزبلة ، فأوحى الله إلى موسى : أن صل عليه ، فقال : يارب إن بنى إسرائيل شهدوا أنه قد عصاك مائتي سنة ، قال الله له : نعم هكذا كان ، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ورأى أسم محمد ص . قبله ووضع على عينيه وصلى عليه ، فشكرت ذلك له فغفرت له ذنوبه وزوجته سبعين حوراء . كذا روى وفيه علة ، ولا يصح مثله ، وفي إسناده غرابة وفي متنه نكارة شديدة . وروى ابن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال موسى : يارب احبس عني كلام الناس ، فقال الله له : يا موسى ما فعلت هذا بنفسى : وقال لما دعى يوسف إلى الملك وقف بالباب وقال : حسبي ديني من دنياي ، حسبي ربي من خلقه ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ثم دخل على الملك ، فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره وخر له ساجداً ثم أقعدته الملك معه على السرير ، وقال : [إنك اليوم لدينا مكين أمين] فقال : [اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عليم] حفيظ بهذه السنين وما استودعتني فيها ، عليم بلغة من يأتيني .

وقال الإمام أحمد : حدثنا منذر بن النعمان الأفيطس أنه سمع وهباً يقول : لما أمر الله الحوت أن لا يضره ولا يكلمه - يعني يونس - قال : [فلو لا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون] قال : من العابدين قبل ذلك ، فذكره الله بعبادته المتقدمة ، فلما خرج من البحر نام فأندبت الله شجرة من يقطين - وهو الدباء - فلما رآها قد أظلمت ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام فاستيقظ فإذا هي قد يبست ، فجعل يتحزن عليها ، فقيل له : أنت لم تخلق ولم تسبق ولم تنبت ونحزن عليها ، وأنا الذي خلقت مائة ألف من النار أو يزيدون ثم رحمتهم فشق ذلك عليك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد الغساني حدثنا رباح حدثني عبد الملك بن عبد المجيد ابن خشك عن وهب قال : لما أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين ، قال : يارب كيف أصنع بالأسد والبقر ؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب ؟ وكيف أصنع بالحمام والهر ؟ قال : من ألقى بينهم العداوة ؟ قال : أنت يارب ، قال : فإني أولف بينهم حتى لا يتضررون .

وقال وهب لمطاء الخراساني : ويحك يا عطاء ، ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا ، وأبواب الأمراء ؟ ويحك يا عطاء ، أتأني من يغلغلك عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويواري عنك غناه ، وتترك باب من يقول : [ادعوني أستجب لكم] ؟ ويحك يا عطاء ، إن كان يفتيك ما يكفيك فأوهى ما في الدنيا يكفيك ، وإن كان لا يفتيك ما يكفيك فليس في الدنيا شيء يكفيك ، ويحك يا عطاء ، إنما بطنك ببحر من البحور ، وواد من الأودية ، لا يملؤه شيء إلا التراب . وسئل وهب عن رجلين يصليان ، أحدهما أطول قنوتاً وصمتاً ، والآخر أطول سجوداً ، فأيهما أفضل ؟ قال : أنصحهما لله عز وجل . وقال : من خصال المنافق أن يحب الحمد ويكره الذم ، أي

يحب أن يحمده على ما لم يفعل ، ويكره أن يذم بما فيه . قال : وقال لقمان لابنه : يا بني اعقل عن الله فان أعقل الناس من عقل عن الله ، وإن الشيطان ليفر من العاقل . ما يستطيع أن يكايده . وقال لرجل من جلسائه : ألا أعلمك طباً لا يتعافيه الأطباء ، وفقها لا يتعافيه الفقهاء ، وحلماً لا يتعافيه الحلما ، قال : بلى يا أبا عبد الله ، قلل : أما الطب فلا تأكل طعاماً إلا سميت الله على أوله وخدمته على آخره ، وأما الفقه فان سميت عن شيء عندك فيه علم فأخبر بما تعلم وإلا فقل : لا أدري ، وأما الحلم فان كثرت الصمت إلا أن تسأل عن شيء . وقال : إذا كان في الصبي خلقتان ، الحياء والرغبة ، طمع في رشده .

وقال : لما بلغ ذو القرنين مطامع الشمس قال له ملك هناك : صف لي الناس ، فقال محادثتك من لا يعقل كمن يفنى الموتى ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يبيل الصخر الأصم كي يلين ، وكمن يطبخ الحديد يلتمس أدمه ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يضع المائدة لأهل القبور ، ونقل الحجارة من رؤس الجبال أيسر من محادثة من لا يعقل . وقال : قرأت في بعض الكتب أن منادياً ينادى من السماء الراحمة كل صباح : أبناء الأربعة زرع قد دنا حصاده ، أبناء الخمسين ماذا قدمتم ؟ أبناء الستين لا عذر لكم ، لبت الخلق لم يخلقوا ، ولينهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، قد أتكم الساعة فخذوا حذركم . وقال : قال دانيال : يالهي على زون يلتمس فيه الصالحون فلا يوجد منهم أحد ، إلا كالسنبلة في أثر الحاصد ، أو كالخصلة في أثر القاطف ، يوشك نوائح أولئك وبواكبهم أن تبكيهم . وروى عبد الرزاق عن عبد الصمد بن معقل . قال : سمعت وهباً يقول في قوله تعالى : [ولضع الموازين القسط ليوم القيامة] قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وإذا أراد الله بعبد خيراً ختم له بخير عمله ، وإذا أراد الله بعبد شراً ختم له بشر عمله . وقال وهب : إن الله تعالى لما فرغ من الخلق نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض فقال : أنا الله لا إله إلا أنا الذي خلقتكم وأفنيكم بحكمي حق قضائي وناقذ أمري ، أنا أعيدكم كما خلقتكم ، وأفنيكم حتى أبقى وحدي ، فان الملك والخلود لا يبق إلا لي ، أدعو خلقي وأجمعهم بقضائي ، يوم أحشر أعدائي ، وتجل القلوب من هيبتى ، وتبتر الألسنة من عبدا دوني .

قال : وذكر وهب أن الله لما فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت فمدح نفسه بما هو أهله وذكر عصمته وجبروته وكبريائه ، وسلطانه وقدرته وملكه ورؤيته ، فأنتصت كل شيء وأطرق له ، فقال : أنا الملك لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى ، أنا الله لا إله إلا أنا ذو العرش المجيد والأمثال العلاء ، أنا الله لا إله إلا أنا ذو الطول والمن والآلاء والكبرياء ، أنا الله لا إله إلا أنا بديع السموات والأرض ، ملأت كل شيء عظمي ، وقهر كل شيء ملكي ، وأحاطت بكل شيء قدرتي ، وأحصى كل شيء علمي ، ووسعت كل شيء رحمتي ، وبلغ كل شيء لطفي ، فانا الله يا معشر الخلائق

فاعرفوا مكاني ، فليس شيء في السموات والأرضين إلا أنا ، وخلقني كلهم لا يقوم ولا يدوم إلا بي ، ويتقلب في قبضتي ، و يهيش برزقي ، وحياته وموته وبقاؤه وفناؤه بيدي ، فليس له محيص ولا ملجأ غيري ، لو تخليت عنه طرفة عين لدمر كاه ، وكنت أنا على حال لا ينقصني ذلك شيئاً ، ولا ينقص ذلك ملكي شيئاً ، وأنا مستغن بالعرز كله في جبروتي وملكتي ، وبرهان نوري ، وشديد بطشي ، وعلو مكاني ، وعظمة شأني ، فلا شيء مثلي ، ولا إله غيري ، وليس ينبغي لشيء خلقته أن يعدل بي ولا ينكرني ، وكيف ينكرني من خلقته يوم خلقته على معرفتي ؟ أم كيف يكابرني من قهر قهره ملكي ؟ أم كيف يعجزني من ناصيته بيدي ؟ أم كيف يعدل بي من أعمره وأسقم جسمه وأنقص عقله وأنوفى نفسه وأخلقه وأهرمه فلا يتمتع مني ؟ أم كيف يستسكف عن عبادتي عبدي وابن عبدي وابن أمي ، ومن لا ينسب إلى خالق ولا وارث غيري ؟ أم كيف يعبد دوني من تخلقه الأيام ، ويفنى أجله اختلاف الليل والنهار ؟ وهما شعبة يسيرة من سلطاني ؟ فإلى يا أهل الموت والفتناء ، لا إلى غيري ، فإني كتبت الرحمة على نفسي وقضيت العفو والمغفرة لمن استغفرني ، أغفر الذنوب جميعاً ، صغيرها وكبيرها لمن استغفرني ، ولا يكبر ذلك على ولا يتعاطمني ، فلا تعلقوا بأيديكم إلى التهلكة ولا تقنطوا من رحمتي ، فإن رحمتي سبقت غضبي ، وخزائن الخير كلها بيدي ، ولم أخلق شيئاً مما خلقت لحاجة كانت مني إليه ، ولكن لأبين به قدرتي ، ولينظر الناظرون في ملكي ، ويتدبروا حكمتي ، وليسبحوا بحمدي ويعبدوني لا يشركوا بي شيئاً ، ولتعلنوا الوجوه كلها إلى .

وقال أشرس عن وهب قال قال داود : إلهي أين أجذك ؟ قال عند المنكسرة قلوبهم من مخافتني . وقال كان رجل من بني إسرائيل صام سبعين أسبوعاً يفطر في كل أسبوع يوماً وهو يسأل الله أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس ، فلما أن طال ذلك عليه ولم يجب ، قال في نفسه : لو أقبلت على خطيئتي وعلى ذنوبي وما بيني وبين ربي لكان خيراً من هذا الأمر الذي أطلب ، ثم أقبل على نفسه فقال : يا نفس من قبلك أتيت ، لو علم الله فيك خيراً لفضى حاجتك . فأرسل الله ملكاً إلى نبيهم : أن قل لفلان العابد : إزراؤك على نفسك وكلامك الذي تكلمت به ، أعجب إلى مما مضى من عبادتك ، وقد أجاب الله سؤالك ، وفتح بصرك فانظر الآن ، فنظر فإذا أحبولة لابليس قد أحاطت بالأرض ، وإذا ليس أحد من بني آدم الا وحوله شياطين مثل الذباب ، فقال : إي رب ، ومن ينجو من هؤلاء ؟ قال صاحب القلب الوداع اللين .

وقال وهب : كان رجل من الساميين فأتى على أرض فيها قنأ فدعته نفسه إلى أخذ شيء منه ، فمأقبا فقام مكانه يهلي ثلاثة أيام ، فرآه رجل وقد لوحته الشمس والريح ، فلما نظر إليه قال :

سبحان الله !! لكأنما أحرق هذا الانسان بالنار ، فقال السامع : هكذا بلغ مني ما ترى خوف النار ، فكيف بي لو قد دخلتها ؟

وقال : كان رجل من الأولين أصاب ذنبا فقال : لله على أن لا يظلمني سقف بيت ابدأ حتى تأتي براءة من النار ، فكان بالصحراء في الحر والقر ، فر به رجل فرأى شدة حاله فقال : يا عبد الله ما بلغ بك ما أرى ؟ فقال : بلغ ما ترى ذكر جهنم ، فكيف بي اذا أنا وقعت فيها ؟ . وقال : لا يكون البطلال من الحكماء أبدا ، ولا يرث الزناة من ملكوت السماء . وقال وهب في موعظته : اليوم يعظ السعيد ، ويستكثر من منافعه اللبيب ، يا ابن آدم إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجهالة عنك ، وإنما أوقدت فيه مصابيح الهدى لتنبيه لجز بك ، فلم أر كاللوم ضل مع نوره منحير داع لمداداة سليم ، يا ابن آدم ! إنه لا أقوى من خالق ، ولا أضعف من مخلوق ، ولا أفدر عن طلبته في يده ، ولا أضعف ممن هو في يد طالبه ، يا ابن آدم إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام عندك ما سيذهب ، فما الجزع مما لا بد منه ؟ وما الطمع فيما لا يرتجى ؟ وما الحيلة في بقاء ما سيذهب ؟ يا ابن آدم اقصر عن طلب ما لا تدرك ، وعن تناول ما لا تناله ، وعن ابتغاء ما لا يوجد . واقطع الرجاء عنك كما قدمت به عنك الأشياء ، واعلم أنه ربّ مطلوب هو شر لطالبه ، يا ابن آدم إنما الصبر عند المصيبة ، وأعظم من المصيبة سوء الخلق منها ، يا ابن آدم أي أيام الدهر ترتجى ؟ يوم يجي في غم أو يوم تستأخر عاقبته عن أوان مجيئه ؟ فانظر إلى الدهر تجده ثلاثة أيام ، يوم مضى لا ترجوه ، ويوم لا بد منه ، ويوم يجي لا تأمنه ، فأمس شاهد عليك مقبول ، وأمين مؤد ، وحكيم مؤدب ، قد فجمك بنفسه ، وخلف فيك حكمته . واليوم صديق مودع ، كان طويل الغيبة عنك ، وهو سريع الظن إياك ولم يأت ، وقد مضى قبله شاهد عدل ، فان كان ما فيه لك فاشفعه بمثله أوثق لك باجتماع شهادتهما عليك . يا ابن آدم إنما أهل الدنيا سفر لا يحلون عقد رحالمهم إلا في غيرها ، وإنما يتقبلون بالعوارى فيما أحسنه - يعني الشكر - للنعيم والتسليم للعماد ، يا ابن آدم إنما الشيء من مثله وقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله ؟ إنما يقر الفرع بعد الاصل . يا ابن آدم إنه لا أعظم رزية في عقله ممن ضيع اليقين وأخطأ العمل . أيها الناس ! إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خلقنا ولم نكن ، وسنبلى ثم نعود ، ألا وإنما العوارى اليوم والهبات غدا ، ألا وإنه قد تقارب منا سلب فاحش ، أو عطاء جزيل ، فأصاحوا ما تقدمون عليه بما تظنون عنه . أيها الناس ! إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، وإن ما أنتم فيه من دنياكم نهب للمصائب ، لا تتألون فيها نعمة إلا بفراق الأخرى ، ولا يستقبل منكم معمر يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا يتخذ له زيادة في ماله إلا بنفاد ما قبله من رزقه ، ولا يجي له أثر إلا مات له أثر . نسأل الله أن يبارك لنا ولكم فيما مضى من هذه العظة .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن مروان عن وهب بن منبه . عن طريق ولم تستقم ^(١) لسائقها ، وإن فتر سائقها حزنت ، ولم تتبع قائدها : فإذا اجتمعا استقامت طوعاً أو كرها ، ولا تستطيع الدين إلا بالطوع والكره ، وإن كان كرهاً الإنسان شيئاً من دينه رزقه ، أو شك أن لا يبقى معه من دينه شيء . وقال وهب : إن من حكمة الله عز وجل أنه خلق الخلق مختلفاً خلقه ومقاديره ، فنه خلق يدوم مادامت الدنيا ، لا تنقصه الأيام ولا تهرسه وتبليه ويموت ، ومنه خلق لا يطعم ولا يرزق ، ومنه خلق يطعم ويرزق ، خلقه الله وخلق معه رزقه ، ثم خلق الله من ذلك خلقاً في البر وخلقاً في البحر ، ثم جعل رزق ما خلق في البحر وفي البر ، ولا ينفع رزق دواب البر دواب البحر ، ولا رزق دواب البحر دواب البر ، لو خرج مافي البحر إلى البر هلك ، ولو دخل مافي البر إلى البحر هلك ، ففي ذلك ممن خلق الله في البر والبحر عبرة لمن أهمته قسمة الأرزاق والمعيشة فليعتبر ابن آدم فيما قسم الله من الأرزاق ، فإنه لا يكون فيها شيء إلا كما قسمه سبحانه بين خلقه ، لا يستطيع أحد أن يغيرها ولا أن يخلطها ، كما لا يستطيع دواب البر أن تعيش بأرزاق دواب البحر ، ولا دواب البحر بأرزاق دواب البر ، ولو اضطرت إليه هلكت كلها ، فإذا استقرت كل دابة منها فيما رزقت أصلحها ذلك وأحيائها ، وكذلك ابن آدم إذا استقر وقع بما قسم الله له من رزقه أحياء ذلك وأصلحه ، فإذا تعاطى رزق غيره نقصه ذلك وضره وفضحه .

وقال لعطاء الخراساني : كان العلماء قبلكم قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلى أهل الدنيا ، ولا إلى مافي أيديهم ، فكان أهل الدنيا يبذلون إليهم دنياهم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في الدنيا ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من شؤم موضعه عندهم ، فأياك يعطاء وأبواب السلطان فان عند أبوابهم فتنا كعبارك الأبل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله .

وقال إبراهيم الجنيدي : حدثنا عبد الله بن أبي بكر المدمي حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عمر بن عبد الرحمن الصنعاني قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم ، فقال : كيف صلاتك ؟ فقال : ما أحسب أحداً سمع يذكر الجنة والنار يأتي عليه ساعة لا يصلح فيها ، قال : فكيف ذكرك للدوت ؟ قال : ما أرفع قدماً ولا أضع أخرى إلا رأيت أني ميت . فقال : فكيف صلاتك أنت أيها الرجل ؟ فقال : إني لأصلي وأبكي حتى ينبت العشب من دموعي ، فقال العالم : أما إنك إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خير لك من أن تبكي وأنت مدلل بملكك ، فان المدلل لا يرفع له عمل فقال : أوصني فاني أراك حكياً ، فقال ازهد في الدنيا ولا تنازع أهلها فيها ، وإن فيها كالنخلة ، إن

(١) كذا بالأصل وفيه نقص أو تحريف فليحرر .

أكلت أكلت طيبا ، وإن وضعت وضعت طيبا ، وإن وقعت على عدو لم تكسره ، وانصح الله
 نصح الكلب لأهله ، فاتهم بجمونه ويطردونه ويضربونه وهو يأبى إلا أن يحوطهم ويحفظهم ،
 وينصح لهم . فكان وهب إذا ذكر هذا الحديث قال : واسوأناه إذا كان الكلب أنصح لأهله
 منك يا ابن آدم لله عز وجل . وفي رواية أنه قال : إني لأصلي حتى ترم قدمي ، فقال له : إنك إن
 تبت تائبا ، وتصبح نادما ، خير لك من أن تبيت قائما ونسبح معجبا ، إلى آخره . وروى سفیان
 عن رجل من أهل صنعاء عن وهب . فذكر الحديث كما تقدم .

وقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى حدثنا الطلح بن عاصم المرادي
 عن أبيه عن وهب قال : لما أهبط آدم من الجنة استوحش لفقد أصوات الملائكة ، فهبط عليه جبريل
 فقال : يا آدم ألا أهلك شيئا تفتنع به في الدنيا والآخرة ؟ قال : بلى . قال قل : اللهم تمم لي النعمة
 حتى تهينني المعيشة ، اللهم اختم لي بخير حتى لا تضرنني ذنوبي ، اللهم اكفني مؤنة الدنيا وكل هول
 في القيامة حتى تدخلني الجنة في عافية

وقال عبد الرزاق : حدثني بكار بن عبد الله عن وهب قال : قرأت في بعض الكتب فوجدت
 الله تعالى يقول : يا ابن آدم ما أنصفتني ، تذكر بي وتنساني ، وتدعو إلى وتفر مني ، خيري إليك
 نازل ، وشرك إلى صاعد ، ولا يزال ملك كريم قد نزل إليك من أجلك ، يا ابن آدم إن أحب ما تكون
 إلى وأقرب ما تكون مني إذا رضيت بما قسمت لك . وأبغض ما تكون إلى ، وأبعد ما تكون مني إذا
 سخطت بما قسمت لك . يا ابن آدم أطعني فيما أمرتك ، ولا تعلمني بما يصلحك ، إني عالم بخلق ، وأنا
 أعلم بحاجتك التي ترفعك من نفسك ، إني إنما أكرم من أكرمني ، وأهين من هان عليه أمرى ،
 لست بناظر في حق عبدي حتى ينظر العبد في حقى . وقال وهب : قرأت نيضا وتسمين كتابا من كتب
 الله تعالى فوجدت في جميعها : أن من وكل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر . وقال : لا يسكن ابن
 آدم ، إن الله هو قسم الأرواق متفاضلة ومختلفة ، فان تقلل ابن آدم شيئا من رزقه فليردد إلى الله
 رغبة ، ولا يقولن : لو اطلع الله على هذا من حالى ، أو شعر به غيره ؟ فكيف لا يطلع على شئ الذى
 خلقه وقدره ؟ أو يعتبر ابن آدم في غير ذلك مما يتفاضل فيه الناس ، كأن الله فاضل بينهم في
 الأجسام والاموال والالوان والعقول والأحلام ، فلا يكبر على ابن آدم أن يفضل عليه في الرزق
 والمعيشة ، ولا يكبر عليه أن يفضل عليه في الحلم والعلم والعقل والدين ، أولا يعلم ابن آدم أن الذى
 رزقه في ثلاثة أزمان من عمره لم يكن له في واحد منها كسب ولا حيلة ، أنه سوف يرزقه في الزمن
 الرابع . أول زمان من أزمانه حين كان في بطن أمه ، يخلق فيه ويرزق من غير مال كسبه ، وهو
 في قرار مكين ، لا يؤذيه فيه حر ولا برد ، ولا شئ ولا هم ولا حزن ، وليس له هناك يد تبطش ،

ولا رجل تسي ، ولا لسان ينطق . فساق الله عز وجل إليه رزقه هنك على أنم الوجوه وأهناها وأمرها ، ثم إن الله عز وجل أراد أن يحوله من تلك المنزلة إلى غيرها . ويحدث له في الزمن الثاني رزقا من أمه يكفيه ويغنيه ، من غير حول منه ولا قوة ، ولا بطش ولا سعي ، بل تفضلا من الله وجوداً ، ورزقا أجراه وصافه إليه ، ثم أراد الله سبحانه أن ينقله من الزمن الثاني إلى الزمن الثالث من ذلك اللبن إلى رزق يحدثه له من كسب أبويه ، بأن يجعل له الرحمة في قلوبهما حتى يؤثره على نفسيهما بكسبهما ، ويغنيهما ويغنيهما بأطيب ما يقدران عليه من الأغذية ، وهو لا يعينهما على شيء من ذلك بكسب ولا حيلة ، حتى إذا عقل حدث نفسه بأنه إنما يرزق بحيلته ومكسبه وسعيه ، ثم يدخل عليه في الزمن الرابع إساءة الظن بربه عز وجل ، فيضيع أوامر الله في طلب المعاش وزيادة المال وكثرته ، وينظر إلى أبناء الجنس وما عليه من التنافس في طاب الدنيا ، فيكسب بذلك ضعف اليقين والایمان ، ويمتلئ قلبه فقراً وخوفاً منه مع المتاع ، ويبتلئ بموت القلب وعدم العقل ، ولو نظر ابن آدم فطر معرفة وعقل لعم أنه لن يغنيه في الزمن الرابع إلا من أغناه ورزقه في الأزمان الثلاثة قبل ، فلا مقال له ولا معذرة مما سلط عليه في الزمن الرابع إلا برحمة الله ، فان ابن آدم كثير الشك يقصر به حكمه وعلمه عن علم الله والتفكر في أمره ، ولو تفكر حتى يفهم ، وتفهم حتى يعلم ، علم أن علامة الله التي بها يعرف ، خلقه الذي خلق ، ثم رزقه لما خلق ، وقدره لما قدر .

وقال عطاء الخراساني : لقيت وهباً في الطريق فقلت : حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامى هذا وأوجز . فقال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : يا داود ، أما وعزتي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي أعلم ذلك من نيته ، فتكيد السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا ، أما وعزتي وجلالي لا يعتصم عبد من عبادي بخلق دوني أعلم ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخت الأرض من تحته ولا أبالي في أي واد هلك .

وقال أبو بلال الأشعري عن أبي هشام الصنعاني قال : حدثني عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : كفايتي للعبد ما لا ، إذا كان عسدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني ، وأستجيب له من قبل أن يدعوني ، فاني أعلم بحاجته التي رفق به من نفسه . وقال : قرأت في بعض الكتب أن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل لأنه إذا كان مؤمناً عاقلاً ذا بصيرة فهو أثقل على الشيطان من الجبال الصم ، إنه إنزال المؤمن للعاقل فلا يستطيعه ، فيحول عنه إلى الجاهل فيستأمره ويتمكن من قياده . وقال : قام موسى عليه السلام فلما رآته بنتو إسرائيل قاموا ، فقال : على مكانكم ، ثم ذهب إلى الطور فاذا هو بنهر أبيض

فيه مثل رؤس الكشبان كافور محفوف بالرياحين ، فلما رآه أعجبه فدخل عليه فاغتسل وغسل ثوبه ،
ثم خرج وجفف ثوبه ، ثم رجع إلى الماء فاستنضح فيه إلى أن جف ثوبه ، فلبسه ثم أخذ نحو الكشيب
الآخر الذي فوق الطور ، فاذا هو برجلين بحفران قبراً ، فقام عليهما فقال : ألا أعينكما ؟ قال : إي
فتزل فحفر ، فقال لهما : لتحدثاني مثل من الرجل ؟ فقلا : على طولك وهينتك ، فاضطجع فيه
لينظر وا فالتأمت عليه الأرض ، فلم ينظر إلى وجه موسى عليه السلام إلا الرخم ، فأصمها الله وأبكمها .
وقال : يقول الله عز وجل : لولا أنى كتبت التنين على الميت لحبسہ الناس في بيوتهم ، ولولا أنى كتبت
الفساد على اللحم لحرمه الأغنياء على الفقراء .

وقال : مرَّ عابد براهب فقال له : منذ كم أنت في هذه الصومعة ؟ قال : منذ ستين سنة ، قال :
وكيف صبرت فيها ستين سنة ؟ قال : مرَّ فان الزمان يمر ، وإن الدنيا تمر ، ثم قال له : يا راهب كيف
ذكرك للموت ؟ قال : ما أحسب عبداً يعرف الله تأنى عليه ساعة إلا يذكر الموت فيها ، وما أرفع
قدما إلا وأنا أظن أن لا أضمرها حتى أموت ، وما أضع قدما إلا وأنا أظن أن لا أرفعها حتى أموت ،
فجعل العابد يبكي ، فقال له الراهب : هذا بكاؤك إذا خلوت ؟ - أو قال : كيف أنت إذا خلوت ؟ -
فقال العابد : إني لأبكي عند إفطاري فأشرب شرابي بدموعي ، ويصرعني النوم فأقبل متاعى
بدموعي ، فقال له الراهب : إياك إن أضحك وأنت معترف بذنبك خير لك من أن تبكى وأنت
مدل على الله بعلمك . فقال : أوصنى بوصية ، قال : كن في الدنيا بمنزلة النخلة ، إن أكلت أكلت
طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن سقطت على شئ لم تضره ، ولا تكن في الدنيا بمنزلة الحمار
إنما همته أن يشبع ثم يرمى بنفسه في التراب ، وانصح لله نصح الكلب لأهله ، فانهم يجيئونونه
ويطردونه ، وهو يأنى إلا أن يحرسهم ويحفظهم . قال أبو عبد الرحمن أشرس : وكان طاوس إذا ذكر
هذا الحديث بكى وقال : عز علينا أن تكون الكلاب أنصح لأهلها منا مولانا عز وجل . وقد
تقدم نحو هذا المتن .

وقال وهب : تخلى راهب في صومعته في زمن المسيح : فأراد إبليس أن يكيدته فلم يقدر عليه ،
فأناه بكل مراد فلم يقدر عليه ، فأناه متشبهاً بالمسيح فناده : أيها الراهب اشرف على أكلك فأنا
المسيح ، فقال : إن كنت المسيح فإلى إليك من حاجة ، أليس قد أمرتنا بالعبادة ؟ ووعدتنا
القيامة ؟ انطلق لشأنك فلا حاجة لي فيك . قال : فذهب عنه الشيطان خاسماً وهو حسير ، فلم
يعد إليه . ومن طريق أخرى عنه قال : أتى إبليس راهباً في صومعته فاستفتح عليه ، فقال له : من
أنت ؟ قال : أنا المسيح ، فقال الراهب : والله لئن كنت إبليس لأخلون بك ، ولئن كنت المسيح
فما عسى أن أصنع بك اليوم شيئاً ، لقد بلغت رسالة ربك عز وجل قبلناها عنك ، وشرعت لنا الدين

فدخن عليه ، فذهب فليست بفاتح لك فقال : صدقت ، أنا إبليس ولا أريد إضلالك بعد اليوم أبداً
نسألني عما بدالك أخبرك به . قال : وأنت صادق ؟ قال : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك فيه . قال
فأخبرني أي أخلاق بني آدم أوثق في أنفسكم أن تضلوم به ؟ قال ثلاثة أشياء : الجدة ، والشح ، والشكر
وقال وهب : قال موسى : يارب أي عبادك قال : من لا تنفعه موعظة ، ولا يذكرك إذا خلا ،
قال : إلهي فما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال : يا موسى أظله يوم القيامة بظل عرشى ،
وأجعله في كنفى . وقال وهب : اتق عالم عالما هو فوقه في العلم فقال له : رحمك الله ما هذا البناء الذي
لا إسراف فيه ؟ قال : ما سترك من الشمس ، وأكنك من الغيث . قال : فما هذا الطعام الذي
لا إسراف فيه ؟ قال : فوق الجوع ودون الشبع من غير تكاف . قال : فما هذا اللباس الذي
لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما ستر العورة ومنع الحر والبرد من غير تنوع ولا تلون . قال : فما هذا
الضحك الذي لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما أسفر وجهك ولا يسمع صوتك . قال : فما هذا البكاء الذي
لا إسراف فيه ؟ قال : لا تمل من البكاء من خشية الله عز وجل ، ولا تبك على شيء من الدنيا .
قال : كم أخفى من عملي ؟ قال : ما أظن بك أنك لم تعمل حسنة . قال : ما أعلن من عملي ؟ قال :
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يأتى بك الحريص ، واحذر النظر إلى الناس . وقال : لكل
شيء طرفان ووسط ، فاذا أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسكت بالوسط اعتدلا ، فمليكم
بالوسط من الأشياء . وقال : أربعة أحرف في التوراة : من لم يشاور يندم ، ومن استغنى استأثر ،
والفقر الموت الأحر ، وكما تدين تدان ، ومن نجر فجر .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن ميه يقول : كان رجل
من أفضل أهل زمانه ، وكان يزار فيعظهم ، فاجتمعوا إليه ذات يوم فقال : إنا قد خرجنا عن الدنيا
وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان ، وقد خفنا أن يكون قد دخل علينا في حالنا هذه من الطغيان
أعظم وأكثر مما يدخل على أهل الأموال في أموالهم ، وعلى الملوك في ملكهم ، أرانا يجب أحدنا
أن تقضى له الحاجة ، وإذا اشترى شيئاً أن يجابى لمكان دينه ، وأن يعظم إذا لقي الناس لمكان
دينه ، وجعل يعدد آفات العلماء والعباد الذين يدخل عليهم في دينهم من حب الشرف والتعظيم .
قال : فشاع ذلك الكلام عنه حتى بلغ ملك تلك البلاد ، فعجب منه الملك وقال لرؤس دوانه : ينبغي
لهذا أن يزار ، ثم اتهدوا لزيارته يوماً ، فركب إليه الملك ليسلم عليه ، فأشرف العابد - وكان عالماً جيد
العلم بآفات العلوم والأعمال ودسائس النفوس - فرأى الأرض التي نحت مكانه قد سدت بانخيل
والفرسان ، فقال ما هذا ؟ فقيل له : هذا الملك قاصد إليك يسلم عليك لما بلغه من حسن كلامك

فقال : إنا لله ، وما أصنع به ؟ هلكننا والله إن لم نلقن الحجة من عند الله مع هذا الرجل ، وينصرف عنا وهو ماقت لنا ، ثم سأل خادمه : هل عندك طعام ؟ قال : نعم . قال : فأت به فضمه بين أيدينا ، قال : هو شيء من ثمر الشجر ، وهو شيء من بقل وزيتون ، قال : فأت به ، فأتى به ، ثم أمر بجماعته فاجتمعوا حول ذلك الطعام ، فقال : إذا دخل عليكم هذا الرجل فلا يلتفت أحد منكم إليه ، ولا يقيم له أحد ، وأقبلوا على الأكل العنيف ، ولا يرفع أحد منكم رأسه ، امل الله أن يصرفه عنا وهو كاره لنا فإني أخاف الفتنة والشهرة وامتلاء القاب منهما ، فلا نخاص إلا بنار جهنم . قال : فبكي القوم وبكى ذلك الرجل العالم ، فلما اقترب الملك من جبلهم الذي هم فيه ، ترجل الملك ومن معه من أعيان دولته وصعد في الجبل ، فلما وصل إلى قرب مكانهم أخذوا في الأكل العنيف ، فدخل عليهم الملك وهم يأكلون فلم يرفعوا رؤسهم إليه ، وجعل ذلك العالم الفاضل يلف البقل مع الزيتون مع الكسرة الكبيرة من الخبز ويدخلها في فمه ، فسلم عليهم الملك وقال : أيكم العابد ؟ فأشاورا إليه ، فقال له الملك : كيف أنت أيها الرجل ؟ فقال له : كالناس - وهو يأكل ذلك الأكل العنيف - فقال الملك : ليس عند هذا خير ، ثم أدبر الملك خارجا عنه ، وقال : ما عند هذا من علم . فلما نزل الملك من الجبل نظر إليه العابد من كوة وقال : أيها الملك ! الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي كاره - ثم قال : الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به - وفي رواية ذكر ابن المبارك أنه قال : الحمد لله الذي صرفه عني وهو لي لائم .

وفي رواية أن هذا العابد كان ملكا ، وكان قد زهد في الدنيا وتركها ، لأنه كان قد دخل عليه رجل من بقايا أهل الجنة والعمل الصالح فوعظه ، فاعتمد معه أن يصحبه ، وأنه يخرج عن الملك طلبا لما عنده في الدار الآخرة ، وأنه وافقه جماعة من بنيه وأهله ورؤس دولته ، فخرجوا برقتهم ، لا يدري أين ذهبوا ، وكان هذا الملك من أهل المدل والخير والخوف من الله عز وجل ، وكان متسع الملك والمملكة ، كثير الأموال والرجال ، فساروا حتى أتوا جبلا في أطراف مملكته ، كثير الشجر والمياه ، فأقاموا به حيناً ، فقال الملك : إن نحن طال أمرنا ومقامنا في هذا الجبل ، سمع بنا الناس من أهل مملكتنا فلا يدعونا ، وإني أرى أن نذهب إلى غير مملكتنا فنزل مكانا بعيداً عن الناس ، لعل أن نسلم منهم ويسلوا منا ، فساروا من ذلك الجبل طالبين بلاداً لا يعرفون ، فوجدوا بها جبلا نائياً عن الناس ، كثير الأشجار والمياه ، قابل الطوارق ، وإذا في فذوته عين ماء جارئة وأرض متسعة ، تزرع لمن أراد الزرع بها ، فزولوا به وبنوا به أما كن للعبادة والسكنى ، وزرعوا لهم على ماء تلك العين بعض بقول يأتدعون بها ، وأشجار زيتون ، وجعلوا يزرعون بأيديهم ويأكلون ثم شاع أمرهم في بعض تلك البلاد القريبة من جبلهم ، فجعلوا يأتونهم ويوزرونهم ، إلى أن شاع

ذلك الكلام المتقدم عن ذلك العالم ، فبلغ ملك تلك البلاد فتصدمم لازيارة ، فذكر الفضة كما تقدم ، والله أعلم .

وقال وهب : أزهد الناس في الدنيا - وإن كان عليها حر يصا - من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب ، مع حفظ الامانات ، وأرغب الناس فيها وإن كان عنها معرضا ، من لم يبالي من أين كسبه منها حلالا كان أو حراما ، وإن أجود الناس في الدنيا من جاد بحقوق الله عز وجل ، وإن رآه الناس بخيلا فيما سوى ذلك ، وإن أنجل الناس في الدنيا من بخل بحقوق الله عز وجل وإن رآه الناس جوادا فيما سوى ذلك .

وقال الطبراني : حدثنا معاذ بن المنثري حدثنا علي بن المديني حدثنا محمد بن عمرو بن مقسم قال سمعت عطاء بن مسلم يقول : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله تعالى كلم موسى عليه السلام في ألف مقام ، وكان إذا كلمه رؤى النور على وجهه موسى ثلاثة أيام ، ولم يمس موسى امرأة منذ كلمه ربه عز وجل . وقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا عبد الله بن عامر بن زرارة حدثنا عبد الله بن الأجلح عن محمد بن إسحاق قال : حدثني ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال : سمعت ابن منبه البجلي يقول : إن للنبوة أثقالا ومؤنة لا يحمّلها إلا القوى ، وإن يونس بن متى كان عبداً صالحاً ، وكان في خلقه ضيق ، فلما حملت عليه النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل ، فرفضها من يده وخرج هاربا ، فقال الله تعالى لنبيه (ص) : [فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل] وقال : [فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم] الآية ، وقال يونس بن بكير عن أبي إسحاق بن وهب بن منبه عن أبيه قال : أمر الله الريح أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء في الأرض إلا ألقته في أذن سليمان ، فلذلك سمع كلام النملة .

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن وهب قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا ساح أربعين سنة أرى شيئا ، كأن يرى علامة القبول ، قال : فساح رجل من ولد ربيعة أربعين سنة فلم ير شيئا ، فقال : يارب إذا أحسنت وأساء والداي فما ذنبي ؟ قال : فأرى ما كان يرى غيره . وفي رواية أنه قال : يارب إذا كان والداي قد أضرس أنا ؟ وفي رواية عنه أنه قال : يارب إذا كان والداي قد أساءا أحرم أنا إحسانك وبرك ؟ فأظلمته غمامة .

وروى عبد الله بن المبارك عن رباح بن زيد عن عبد العزيز بن مروان . قال : سمعت وهب ابن منبه يقول : مثل الدنيا والآخرة مثل ضربتين ، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وقال : إن أعظم الذنوب عند الله بعد الشرك بالله السحر . وروى عبد الرزاق قال : أخبرني أبي عن وهب قال : إذا صام الانسان زاغ بصره ، فاذا أفطر على حلاوة عاد بصره . وقال ابن المبارك

عن بكر بن عبد الله قال سمعت وهباً يقول : مرّ رجل عابد على رجل عابد فرآه مفكراً ، فقال له : مالك ؟ فقال له : أعجب من فلان ، إنه كان قد بلغ من عبادته ما بلغ ، ثم مالت به الدنيا . فقال : لا تعجب من مال كيف مال ، ولكن أعجب ممن استقام كيف استقام .

وقال عبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل : حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق حدثنا بكر بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن بني إسرائيل أصابتهم عقوبة وشدة ، فقال النبي : يا بني إسرائيل ما الذي يرضى ربنا فنقبه ، فأوحى الله عز وجل إليه : إن قومك يقولون : إذا أرضوهم رضيت ، وإذا أسخطوهم أسخطت . وقال عبد الله بن أحمد أيضا : حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن خالد حدثني عمر بن عبد الرحمن قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن عيسى عليه السلام كن واقفا على قبر ومعه الحواريون - أو نفر من أصحابه - قال : وصاحب القبر يدلي فيه ، قال : فذكروا من ظلمة القبر وضيقة ، فقال عيسى : قد كنتم فيما هو أحق من ذلك ، في أرحام أمهاتكم ، فاذا أحب الله أن يوسع وسع ، أو كما قال .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكر بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : كان رجل عابد من السياح أراد الشيطان من قبل الشهوة والرغبة والغضب ، فلم يستطع منه شيئا من ذلك ، فتمثل له حية وهو يصلي ، فمضى ولم يلتفت إليه ، فالتوى على قدميه فلم يلتفت إليه ، فدخل ثيابه وأخرج رأسه من عند رأسه فلم يلتفت ولم يستأخر ، فلما أراد أن يسجد التوى في موضع سجوده ، فلما وضع رأسه ليسجد فتح فاه ليلتقم رأسه ، فوضع رأسه فجعل يعرکه حتى استمكن من السجود على الأرض . ثم جاءه على صورة رجل فقال له : أنا صاحبك الذي أخوفك ، أتيتك من قبل الشهوة والغضب والرغبة ، وأنا الذي كنت أتمثل لك بالسباع والحيات فلم أستطع منك شيئا ، وقد بدا لي أن أصادقك ولا آتيتك في صلاتك بعد اليوم . فقال له العابد : لا يوم خوفني خفتك ، ولا اليوم بي حاجة في مصادقك . قال : سئني عما شئت أخبرك قال فما عسيت أن أسألك ؟ قال : ألا تسألني عن مالك ما فعل به بعدك ؟ قال : لو أردت ذلك ما فارقته . قال : أفلا تسألني عن أهلك من مات منهم ومن بقي ؟ قال : أنا مت قبلهم . قال أفلا تسألني عما أضل به الناس ؟ قال : أنت أضلهم . فأخبرني عن أوثق ما في نفسك تضل به بني آدم . قال : ثلاثة أخلاق ، الشح ، والحدّة ، والسكر . فان الرجل إذا كان شحيحاً قلنا ماله في عينه ورغبناه في أموال الناس ، وإذا كان حديداً تداولناه بيننا كما يتداول الصبيان الكرة ، ولو كان يجي الموتى بدعوته لم نياس منه ، وكل ما يدينه نهيمه ، لنا كلمة واحدة . وإذا سكر قدناه إلى كل شر وفضيحة وخزي وهوان كما تقاد القط إذا أخذ بأذنها كيف شدنا

وقال وهب : أصاب أوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف في السجن سبع سنين ، ومسح بختنصر في السبع سبع سنين . وسئل وهب عن الدنانير والدرهم فقال : هي خواتيم رب العالمين ، فالأرض لعائش بنى آدم لا تؤكل ولا تشرب ، فأينما ذهبت بخاتم رب العالمين قضيت حاجتك ، وهي أزمه المنافقين بها يقادون إلى الشهوات . وروى داود بن عمر الضبي عن ابن المبارك عن معمر عن سماك بن الفضل عن وهب قال : مثل الذي يدعو بغير عمل مثل الذي يرمى بغير وتر . وقال ابن المبارك : أخبرني عمر بن عبد الرحمن بن مهرب قال : سمعت وهبا يقول : قال حكيم من الحكماء : إني لأستحي من الله عز وجل أن أعبد رجاء ثواب الجنة فقط ، فأكون كالأجير السوء ، إن أعطى عمل وإن لم يعط لم يعمل ، وإني لأستحي من الله أن أعبده مخافة النار فقط ، فأكون كالعبد السوء إن رهب عمل وإن ترك لم يعمل ، وإني ليستخرج مني حب الله ما لا يستخرج مني غيره .

وقال السري بن يحيى : كتب وهب إلى مكحول : إني قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام عند الناس محبة وشرفا ، فأطلب بما بطن من علم الأنسان عند الله محبة وزانف ، وإعلم أن إحدى المحبتين تمنع الأخرى - أو قال : سوف تمنع الأخرى - وقال زافر بن سليمان عن أبي سنان الشيباني قال : بلغنا أن وهب بن منبه قال قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تريد بهارح الدنيا والآخرة ، والإيمان سفينتك التي تحمل عليها . والتوكل على الله شراعها ، والدنيا بحرك ، والأيام هوجك ، والأعمال الصالحة تجارتك التي ترجو ربحها ، والنافلة هي هديتك التي ترجو بها كرامتك ، والحرص عليها يسيرها ويزجيها ، ورد النفس عن هواها مراسيها ، والموت ساحلها ، والله ملكها وإليه مصيرها . وأحب التجار إلى الله وأفضلهم وأقربهم منه أكثرهم بضاعة وأصفاهم نية ، وأخلصهم هدية . وأفضلهم إليه أقلهم بضاعة ، وأردأهم هدية ، وأخبثهم طوية ، فكأما حسنت تجارتك ازداد ربحك ، وكأما خلصت هديتك تكرم . وفي رواية عنه أنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله بضاعة تأمك الأرباح من كل مكان ، واجعل سفينتك تقوى الله ، وحشوها التوكل على الله ، وشراعها الإيمان بالله ، وبحرك العلم النافع والعمل الصالح لملك أن تنجو ، وما أراك بناج . وقال عبد الله بن المبارك عن رباح بن زيد عن رجل قال : إن لاعلم طغيانا كطغيان المال .

وقال الطبراني : حدثنا عبيد بن محمد الصنعاني حدثنا أبو قدامة همام بن مسلمة بن عقبة حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن منبه قال : سمعت عبي وهب بن منبه يقول : الأجر من الله عز وجل معروض ، ولكن لا يستوجبه من لا يعمل ، ولا يجده من لا يبتغيه ، ولا يبصره من لا ينظر إليه ، وطاعة الله قريبة ممن يرغب فيها ، بعيدة ممن زهد فيها ، ومن يحرص عليها يصل إليها ، ومن لا يحرص عليها لا يجدها ، لا تسبق من سعى إليها ، ولا يدركها من أبطأ عنها ، وطاعة الله تشرف من أكرمها ،

وتبين من أضعافها ، وكتاب الله يدل عليها ، والإيمان بالله يحض عليها .

وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا عمر بن عبد الرحمن سمعت وهب بن منبه يقول قال داود عليه السلام : يارب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة حسن العمل . قال : يارب أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : كافر حسن الصورة كفر أو شكر ، هذان . وفى رواية ذكرها أحمد بن حنبل : أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارنى فى أمر فخرت له فلم يرض به . وقال إبراهيم بن الجنيد : حدثنى إبراهيم بن سعيد عن عبد المنعم بن إدريس حدثنا عبد الصمد ابن معقل عن وهب بن منبه قال : كان سائح يعبد الله تعالى ، فجاءه إبليس أو شيطان فتمثل بإنسان فجعل يريه أنه يعبد الله تعالى ، وجعل يزيد عليه فى العبادة ، فأحبه ذلك السائح لما رأى من اجتهاده وعبادته ، فقال له الشيطان - والسائح فى مصلاه - : لو دخلنا إلى المدينة فخالطنا الناس وصبرنا على أذىهم وأمرنا ونهينا ، كان أعظم لأجرنا ، فأجابه السائح إلى ذلك ، فلما أخرج السائح إحدى رجله من باب مكانه لينطلق معه ، هتف به هاتف فقال : إن هذا شيطان أراد أن يفتنك . فقال السائح . رجل خرجت فى معصية الله وطاعة الشيطان لا تدخل معى : فما حولها من موضعها ذلك حتى فارق الدنيا ، فأنزل الله تعالى ذكره فى بعض كتبه فقال : وذو الرجل .

وقال وهب . أتى رجل من أفضل أهل زمانه إلى ملك كان يفتن الناس على أكل لحم الخنزير ، فأعظم الناس مكانه ، وهالهم أمره ، فقال له صاحب شرطة الملك - سرّاً بينه وبينه - : أيها العالم ، اذبح جدياً مما يحمل لك أكل . ثم ادفعه إلى حتى أصنعه لك على حدته ، فاذا دعا الملك بلحم الخنزير أمرت به فوضع بين يديك ، فتأكل منه حلالاً ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنزير ، فذبح ذلك العالم جدياً ، ثم دفعه إلى صاحب الشرطة فصنعه له ، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدم إلى هذا العالم لحم الخنزير ، أن يضعوا بين يديه لحم هذا الجدى واجتمع الناس ، لينظروا أمر هذا العالم فيه أياكل أم لا ، وقالوا إن أكلنا وإن امتنع امتنعنا ، فجاء الملك فدعا لهم بلحم الخنزير فوضعت بين أيديهم ، ووضع بين يدي ذلك العالم لحم ذلك الجدى الحلال المذكى ، فألم الله ذلك العالم فأتى فى روعه وفكره ، فقال : هب أتى أكلت لحم الجدى الذى أعلم حله أنا ، فماذا أصنع بمن لا يعلم ؟ والناس إنما ينتظرون أكلى ليقنطوا بى ، وهم لا يعلمون إلا أتى إنما أكلت لحم الخنزير فإياكون اقتداء بى ، فأكون ممن يحمل أو زارهم يوم القيامة ، لا أفضل والله وإن قتلت وحرقت بالنار ، وأبى أن يأكل ، فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويومئ إليه ويأمره بأكله ، أى إنما هو لحم الجدى ، فأبى أن يأكل ، ثم أمره الملك أن يأكل فأبى ، فألحوا عليه فأبى ، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله ، فلما ذهبوا به ليقنطروه . قال له صاحب الشرطة : ما منعك أن تأكل من اللحم الذى ذكيت أنت ودفنته

إلى ؟ أظننت أني أتيتك بغيره وخنثك فيما أئتمنتني عليه ؟ ما كنت لأفعل والله . فقال له العالم قد علمت أنه هو ، ولكن خفت أن يتأذى الناس بي ، وهم إنما ينتظرون أكلى منه ، ولا يعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير ، وكذلك كل من أريد غلى أكله فيما يأتي من الزمان يقول : قد أكله فلان ، فأكون فتنة لهم . فقتل رحمه الله . فينبغي للعالم أن يحذر المعاييب ، ويجتنب المحذورات ، فان زلته وناقصته منظورة يقتدى بها الجاهل . وقال معاذ بن جبل : اتقوا زيفة الحكيم ، وقال غيره : اتقوا زلة العالم ، فانه إذا زل زل بزنته عالم كبير . ولا ينبغي له أن يستهين بالزلة وإن صغرت ، ولا يفعل الرخص التي اختلف فيها العلماء ، فان العالم هو عصاة كل أعمى من العوام ، بها يصول على الحق ليدحضه ، ويقول : رأيت فلانا العالم ، وفلانا وفلانا يفعلون ويفعلون . وليجتنب العوائد النفسية ، فانه قد يفعل أشياء على حكم العادة فيظنها الجاهل جائزة أو سنة أو واجبة ، كما قيل : سل العالم يصدقك ولا تقصد بفعله الغريب ، ولكن سله عنه يصدقك إن كان ذا دين ، وكم أفسد النظر إلى غالب علماء زمانك هذا من خلق ، فما الظن بمخالطتهم ومجالستهم ولكن [من يهدي الله فهو المهتدي ، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا] .

وقال محمد بن عبد الملك بن زنجويه : حدثنا عبد الرزاق عن أبيه قال : قلت لوهب بن منبه : كنت ترى الرؤيا فتخبرنا بها ، فلا نلبث أن نراها كما رأيتها ، قال : ذهب ذلك عني منذ وليت القضاء . قال عبد الرزاق : فحدثت به معمرأ فقال : والحسن بعد ماولى القضاء لم يحمدا فهمه ، فمن يأمن القراء بعدك يا شهر ؟ فكيف حال من قد غرق في قاذورات الدنيا من علماء زمانك هذا ، ولا سيما من بعد فتنة تمرلنك ؟ فان القلوب قد امتلأت بحب الدنيا ، فلا يجسد العلم فيها موضعا ، فجالس من شئت منهم لتنظر مبادئ مجالستهم وغاياتها ، ولا تستخفك البدوات ، فانما الأمور بعواقبها وخواتيمها ونتائجها ، وغاياتها . [ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب] وقال وهب : البلاء للهؤم كالشكال للدابة . وقال أبو بلال الأشعري عن أبي شهاب الصنعاني عن عبد الصمد عن وهب قال : من أصيب بشئ من البلاء فقد سلك به طريق الأنبياء . وقال عبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق قال : أنبأنا منذر قال : سمعت وهبا يقول : قرأت في كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك طريق - أو قال سبيلا - أهل البلاء فطب نفسك ، فقد سلك بك طريق الأنبياء والصالحين وقال الامام أحمد : حدثنا أحمد بن جعفر حدثنا إبراهيم بن خالد حدثني أمية بن شبل عن عثمان بن بزديوه قال : كنت مع وهب وسعيد بن جبير يوم عرفة تحت نخيل ابن عامر ، فقال وهب لسعيد : يا أبا عبد الله اكلمك منذ خفت من الحجاج ؟ قال : خرجت عن امرأتى وهي حامل فجاهنى الذى فى بطنها وقد خرج [شعر] وجهه ، فقال له وهب : إن من كان قبلكم كان إذا أصابه بلاء عده رجاء ،

وإذا أصابه رجاء عده بلاء . وروى عبد الله بن أحمد بسنده عن وهب قال : قرأت في بعض الكتب : ليس من عبادى من سحر أو سحر له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو تطير أو تطير له ، فمن كان كذلك فليدع غيرى ، فانما هو أنا وخلقى كلهم لى . وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا رباح بن جعفر بن محمد عن التيمي عن وهب أنه قال : دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الأغنياء الجنة . قلت : هذا إنما هو لشدة الحساب وطول وقوف الأغنياء في الكرب ، كما قد ضربت الأمثال للشدائد . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا بكار قال سمعت وهبا يقول : ترك المكافأة من التطفيف . وقال الامام أحمد : حدثنا الحجاج وأبو النصر قالا : حدثنا محمد بن طلحة عن محمد بن جحادة عن وهب قال : من يتعبد يزدد قوة ، ومن يتكسل يزدد فترة . وقد قال غيره : إن حوراء جاءت في المنام في ليلة باردة فقالت له : قم إلى مصلاتك فمن خير لك من نومة توهن بدنك . ورأيت في ذلك حديثاً لم يحضرني الآن . وهذا أمر مجرب أن العبادة تنشط البدن وتلينه ، وأن النوم يكسل البدن فيقسيه ، وقد قال بعض السلف لما تبع ضلة ابن أشيم حين دخل تلك الفيضة ، وأنه قام ليلته إلى أن أصبح ، قال فأصبح كأنه بات على الحشايا ، وأصبحت ولى من الكسل والفتور مالا يعلمه إلا الله عز وجل .

وقد قيل للحسن : ما بال المتعبدين أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : لأنهم خلوا بالليل فألبسهم نوراً من نوره . وقال يحيى بن أبي كثير : والله ما رجل يخلو بأهله عروساً أقر ما كانت نفسه وآنس ، بأشد سروراً منهم بمناجاة ربهم تعالى إذا خلوا به . وقال عطاء الخراساني : قيام الليل محياة للبدن ، ونور في القلب ، وضياء في الوجه ، وقوة في البصر والأعضاء كلها ، وإن الرجل إذا قام بالليل أصبح فرحاً مسروراً ، وإذا نام حزبه أصبح حزينا مكسوراً القلب كأنه قد فقد شيئاً ، وقد فقد أعظم الأمور له نفعاً .

وقال ابن أبي الدنيا ، حدثنا أبو جعفر أحمد بن منيع حدثنا هاشم بن القاسم أبو النصر حدثنا بكر بن حبيش عن محمد القرشي عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن بلال قال قال رسول الله (ص) : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الاثم ، وتكفير عن السيئات ، ومطرودة للشيطان عن الجسد » وقد رواه غيره من طرق : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم » ويكفي في هذا الباب ما رواه أهل الصحيح والمسانيد عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد . فإذا استيقظ وذكر الله انحلت

عقدة ، وإذا توضع انحلت عقدة ، فان صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان . وهذا باب واسع . وقد قال هود فيما أخبر الله عنه : [اعبدوا الله ما لكم من إله غير ه] ثم قال : [ويزدكم قوة إلى قوتكم] وهذه القوة تشمل جميع القوى ، فيزيد الله عابديه قوة في إيمانهم و يقينهم ودينهم وتوكلهم ، وغير ذلك مما هو من جنس ذلك ، ويزدهم قوة في أسماءهم وأبصارهم وأجسادهم وأموالهم وأولادهم وغير ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثني عبد الصمد أنه سمع وهبا يقول : تصدق صدقة رجل يعلم أنه إنما قدم بين يديه ماله وما خلف مال غيره .

قالت : وهذا كما في الحديث « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ فقالوا : كلما ماله أحب إليه من مال وارثه ، فقال : إن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » . قال : وسمعت وهبا على المنبر يقول : احفظوا عني ثلاثا ، إياكم وهوى متبعا ، وقرين سوء ، وإعجاب المرء بنفسه . وقد رويت هذه الألفاظ في حديث . وقال الأمام أحمد : حدثنا يونس بن عبد الصمد بن معقل حدثنا إبراهيم بن الحجاج قال : سمعت وهبا يقول : أحب بني آدم إلى الشيطان التؤوم الأكل .

وقال الامام أحمد : حدثنا غوث بن جابر حدثنا عمران بن عبد الرحمن أبو الهذيل أنه سمع وهبا يقول : إن الله عز وجل يحفظ بالعبد الصالح القليل من الناس . وقال أحمد أيضا : حدثنا إبراهيم بن عقيل حدثنا عمران أبو الهذيل من الأنبياء عن وهب بن منبه قال : ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان موكل به ، فأما الكافر فيأكل كل معه ويشرب معه ، وينام معه على فراشه . وأما المؤمن فهو بجانب له ينتظر متى يصيب منه غفلة أو غرة . وأحب الآدميين إلى الشيطان الأكل التؤوم . وقال محمد بن غالب : حدثنا أبو المعتمر ابن أخي بشر بن منصور عن داود بن أبي هند عن وهب . قال : قرأت في بعض الكتب الذي أنزلت من السماء على بعض الأنبياء : أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه الصلاة والسلام : أتدرى لم اتخذتك خليلا ؟ قال : لا يا رب ، قال : لذل مقامك بين يدي في الصلاة .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن أيوب حدثنا أبو بكر بن عياش عن إدريس ابن وهب بن منبه قال : حدثني أبي قال : كان لسليمان بن داود ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد فركب الريح يوما فمر بحراث فنظر إليه الحراث فاستهظم ما أوتي سليمان من الملك ، فقال : لقد أوتي آل داود ملكا عظيما ، فحملت الريح كلام الحراث فألقته في أذن سليمان ، قال : فأمر الريح فوقف ، ثم نزل بمشي حتى أتى الحراث فقال له : إني قد سمعت قولك ، وإنما مشيت إليك لئلا تمنى مالا تقدر عليه مما أقدرني الله عليه تفضلا وإحسانا منه علي ، لأنه هو الذي أقامني لهذا وأعانني . ثم قال : والله لتسيحبة واحدة يقبلها الله عز وجل منك أو من مؤمن خير مما أوتي آل داود من الملك ، لأن

ما أوتى آل داود من ملك الدنيا يفنى ، والتسبيحة تبقى ، وما يبقى خير مما يقى . فقال الحراث :
أذهب الله همك كما أذهبت همي

وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن عقيل بن معقل حدثني أبي عن وهب بن منبه . قال :
إن الله عز وجل أعطى موسى عليه السلام نوراً ، فقال له هارون : هبه لي يا أخي ، فوهبه له ، فأعطاه
هارون ابنه ، وكان في بيت المقدس آنية تعظمها الأنبياء والملوك ، فكان ابنا هارون يسقيان في
تلك الآنية الخمر ، فنزلت نار من السماء فاختلفت ابني هارون فصعدت بهما ، ففرع هارون لذلك
قيام مستغيثاً متوجهاً بوجهه إلى السماء بالدعاء والنضرع ، فأوحى الله إليه : يا هارون هكذا أفعل بمن
عصاني من أهل طاعتي ، فكيف فعلت بمن عصاني من أهل معصيتي ؟ . وقال الحكم بن أبان : نزل
بي ضيف من أهل صنعاء فقال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن لله عز وجل في السماء السابعة داراً
يقال لها البيضاء يجمع فيها أرواح المؤمنين ، فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح فيسألونه
عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم . وقال : من جعل شهوته تحت قدمه
فزع الشيطان من ظلمه ، فمن غلب علمه هواه فذلك العالم الغلاب . وقال فضيل بن عياض : أوحى
الله تعالى إلى بعض أنبيائه : بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلى ، وما يكابدون في طلب
مرضاتي ، فكيف بهم إذا صاروا إلى داري ، وتبجحوا في رياض نعمتي ؟ هنالك فليبشر المضعفون
لله أعمالهم بالنظر العجيب من الحبيب القريب ، أتراني أنسى لهم عملاً ؟ وكيف وأنا ذو الفضل العظيم
أجود على المولين المرغبين عني ، فكيف بالمقبلين علي ؟ وما غضبت على شيء كغضبي على من أخطأ
خطيئة فاستعظمها في جنب عفوي ، ولو تعاجلت بالعقوبة أحداً ، أو كانت العجلة من شأني ، لعاجلت
القائطين من رحمتي . ولو رأيت عبادي المؤمنون كيف أستوهمهم ممن اعتدوا عليه ، ثم أحكم لمن
وهبهم بالخلد المقيم ، اتهموا فضلي وكرمي ، أنا الديان الذي لا نحل معصيتي ، والذي أطاعني أطاعني
برحمتي ، ولا حاجة لي بهوان من خاف مقامي . ولو رأيت عبادي يوم القيامة كيف أرفع قصوراً تحار
فيها الأبصار فيسألوني : لمن ذا ؟ فأقول : لمن وهب لي ذنبا مالم يوجب على نفسه معصيتي والقنوط
من رحمتي ، وإني مكافئ على المدح فامدحوني .

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا سلمة بن عاصم حدثنا عبد الله بن محمد بن عقبة حدثنا عبد الرحمن
أبو طلوت حدثني مهاجر الأسدي عن وهب . قال : مر عيسى بن مريم ومعه الخواريون بقرية قد
مات أهلها ، إنسها وجننها ، وهوامها وأنعامها وطيورها ، فقام عليها ينظر إليها ساعة ثم أقبل على
أصحابه فقال : إنما مات هؤلاء بعذاب من عند الله ، ولولا ذلك لما اتوا متفرقين . ثم ناداهم عيسى :
يا أهل القرية ، فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله ، فقال : ما كانت جنائتكم وسبب هلاككم ؟ قال

عبادة الطاغوت وحب الدنيا ، قال : وما كانت عبادتكم للطاغوت ؟ قال : طاعة أهل المعاصي هي عبادة الطاغوت . قال : وما كان حبيكم للدنيا ؟ قال : كحب الصبي لأمه ، كنا إذا أقبلت فرحنا ، وإذا أدبرت حزنا ، مع أمل بعيد ، وإدبار عن طاعة الله ، وإقبال على مساخطه . قال : فكيف كان هلاككم ؟ قال : بقنا ليلة في عافية وأصبحنا في هاوية ، قال : وما الهاوية ؟ قال : سجين ، قال : وما السجين ؟ قال : جرة من نار مثل أطباق الدنيا كلها دفنت أرواحنا فيها ، قال : فما بال أصحابك لا يتكلمون ؟ قال : لا يستطيعون أن يتكلموا . قال : وكيف ذلك ؟ قال : هم ملجمون بلجم من نار . قال : وكيف كلمتني أنت من بينهم ؟ قال : كنت فيهم لما أصابهم العذاب ولم أكن منهم ولا على أعمالهم ، فلما جاء البلاء عني معهم ، وأنا معاق بشعرة في الهاوية لا أدرى أكرس فيها أم أنجو . فقال عيسى عليه السلام عند ذلك لأصحابه : بئق أقول لكم : نخبز الشعير وشرب الماء القراح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة

وروى الطبراني عنه أنه قال : لا يكون المرء حكما حتى يطيع الله عز وجل ، وما عصى الله حكيم ، ولا يعصى الله إلا أحمق ، وكما لا يكمل النهار إلا بالشمس ، ولا يعرف الليل إلا بالظلام ، كذلك لا تكمل الحكمة إلا بطاعة الله عز وجل ، ولا يعصى الله حكيم ، كما لا يطير الطير إلا بجناحين ، ولا يستطيع من لا جناح له أن يطير ، كذلك لا يطيع الله من لا يعمل له ، ولا يطيق عمل الله من لا يطيعه . وكما لا مكث للنار في المساء حتى تطفأ ، كذلك لا مكث لعمل الرياء حتى يبور . وكما يبدي سر الزانية وفضيحتها فعلها ، كذلك يفتضح بالفعل السيئ من كان يقرأ لجليسه بالقول الحسن ولم يعمل به . وكما تكذب معنرة السارق بالسرقة إذا ظهر عليها عنده ، كذلك تكذب معصية القارئ لله قراءته إذا كان يقرؤها لغير الله تعالى .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن النضر حدثنا علي بن بحر بن بري حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل . قال سمعت وهبا يقول : في زامير آل داود : طوبى لمن يسلك سبيل الخطابين ولا يجالس البطالين ، وطوبى لمن يسلك طريق الأئمة ويستقيم على عبادة ربه ، فمثل كمثل شجرة نابتة على ساقية لاتزال فيها الحياة ، ولا تزال خضراء . وروى الطبراني أيضا عنه قال : إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء ، وقطرت العضاء دما . وروى عنه أنه قال : ما من شيء إلا يبدو صغيرا ثم يكبر ، إلا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر . وروى عنه أيضا أنه قال : وقف سائل على باب داود عليه السلام ، فقال : يا أهل بيت النبوة تصدقوا علينا بشيء رزقكم الله رزق التاجر المقيم في أهله . فقال داود : اعطوه ، فوالذي نفسي بيده إنها لفي الزبور . وقال : من عرف بالكذب لم يجز صدقه ، ومن عرف بالصدق ائتمن على حديثه ، ومن أكثر الغيبة

والبغضاء لم يوثق منه بالنصيحة ، ومن عرف بالفجور والخديعة لم يؤمن إليه في المحنة ، ومن انتحل فوق قدره جحد قدره ، ولا تستحسن فيك ما تستبجح في غيرك . هذه الآثار رواها الطبراني عنه من طرق .

وروى داود بن عمرو عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عثمان بن خثيم . قال : قدم علينا وهب مكة فطفق لا يشرب ولا يتوضأ إلا من زمزم ، فقيل له : مالك في الماء العذب ؟ فقال : ما أنا بالذي أشرب وأتوضأ إلا من زمزم حتى أخرج منها ، إنكم لاتدرون ما ماء زمزم ، والذي نفسى بيده إنها في كتاب الله طعام طهم ، وشفاء سقم ، ولا يعمد أحد إليها يتضلع منها رياء ، ابتداء بركتها ، إلا نزعته منه داء وأحدثت له شفاء . وقال : النظر في زمزم عبادة . وقال : النظر فيها يحط الخطايا خطأ . وقال وهب : مسخ يختنصر أسداً فكان ملك السباع ، ثم مسخ نسراً فكان ملك للطيور ، ثم مسخ ثوراً فكان ملك الدواب ، وهو في كل ذلك يعقل عقل الانسان ، وكان ملكه قائماً يدبر ، ثم رد الله عليه روحه إلى حالة الانسان ، فدعا إلى توحيد الله وقال : كل إله باطل إلا إله السماء . فقيل له : أمات مؤمناً ؟ فقال : وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : آمن قبل أن يموت ، وقال بعضهم : قبل الأنبياء ، وحرق الكتب ، وحرق بيت المقدس ، فلم يقبل منه التوبة . هكذا رواه الطبراني عن محمد بن أحمد بن النرج عن عباس بن يزيد عن عبد الرزاق عن بكر بن عبد الله . قال : سمعت وهب بن منبه يقول ، فذكره .

وقال وهب : كان رجل بمصر فسألهم ثلاثة أيام أن يطعموه فلم يطعموه ، فمات في اليوم الرابع فكفنوه ودفنوه ، فأصبحوا فوجدوا الكفن في محرابهم مكتوب عليه : قتلتموه حياً وبررتموه ميتاً ؟ قال يحيى : فأنا رأيت القرية التي مات فيها ذلك الرجل ، وما بها أحد إلا وله بيت ضيافة ، لا غنى ولا فقير هكذا رواه يحيى بن عبد الباقي عن علي بن الحسن عن عبد الله بن أخي وهب ، قال : حدثني عمي وهب بن منبه فذكره . قال : وأهل القرية يعترفون بذلك . فمن ثم اتخذوا بيوتاً للضيغان والفقراء خوفاً من ذلك . وقال عبد الرزاق عن بكر بن وهب . قال : إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوة . وقال إبراهيم بن الجنيد : حدثنا إبراهيم بن سعيد عن عبد المنعم بن إدريس عن عبد الصمد عن وهب بن منبه قال : مر نبي من الأنبياء على عابد في كهف جبل ، فقال إليه فلم عليه وقال له : يا عبد الله منذكم أنت هاهنا ؟ قال : منذ ثلثمائة سنة . قال : من أين معيشتك ؟ قال : من ورق الشجر ، قال : فمن أين شرابك ؟ قال : من ماء العيون ، قال : فأين تكون في الشتاء ؟ قال : تحت هذا الجبل ، قال : فكيف صبرك على العبادة ؟ قال : وكيف لا أصبر وإنما هو يومى إلى الليل ، وأما أمس فقد مضى بما فيه ، وأما غد فلم يأت بعد . قال : فعجب النبي من قوله : وإنما هو

يومي إلى الليل . وبهذا الاسناد أن رجلاً من العباد قال لمعلمه : قطعت الهوى فليست أهوى من الدنيا شيئاً . فقال له معلمه : أتفرق بين النساء والدواب إذا رأيتهم معاً ؟ قال : نعم ، قال أتفرق بين الدناير والدرام والحصا ؟ قال نعم ، قال : يا بني إنك لم تقطع الهوى عنك ولكنك قد أوثقت فاحذر انقلابه .

وقال غوث بن جابر بن غيلان بن منبه : حدثني عتبيل بن معقل عن وهب قال : اعمل في نواحي الدين الثلاث ، فان للدين نواحي ثلاثاً ، هن جماع الأعمال الصالحة لمن أراد جمع الصالحات «أولاهن» تعمل شكراً لله على الأنعم الكثيرات الغايات الرانجات ، الظاهرات الباطنات ، الحاديات القديتات ، يعمل المؤمن شكراً لله ورجاء تمامهن «والناحية الثانية من الدين» رغبة في الجنة التي ليس لها ثمن وليس لها مثل ، ولا يزهد فيها وفي العمل لها إلا سفيه فاجر ، أو منافق كافر «والناحية الثالثة من الدين» أن يعمل المؤمن فراراً من النار التي ليس لأحد عليها صبر ، ولا لأحد بها طاقة ولا يدان ، وإيست مصيبتها كالمصيبات ، ولا حزن أهلها كالأحزان ، نباها عظيم ، وشأنها شديد ، والآخرة وحزنها فظيع ، ولا يغفل عن الفرار والتعود بالله منها إلا سفيه أحمق خاسر ، [قد خسر الدنيا ذلك هو الخسران المبين] .

وقال إسحاق بن راهويه : حدثنا عبد الملك بن محمد الدماذي قال أخبرني محمد بن سعيد بن رمانة قال أخبرني أبي قال قيل لوهب : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان ، فمن أتى الباب بمفتاح بأسنانه فتح له ، ومن لم يأت الباب بمفتاح بأسنانه لم يفتح له . وقال محمد : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا يقول : ركب ابن ملك في جند من قومه وهو شاب ، فصرع عن فرسه فدى عنقه فمات في أرض قريبة من القرى ، فغضب أبوه وحلف أن يقتل أهل تلك القرية عن آخرهم ، وأن يطأهم بالأفيال ، فما أبت الأفيال وطنته الخيل ، فما أبت الخيل وطنته الرجال ، فتوجه إليهم بعد أن سقى الأفيال والخيل الخمر وقال : طأوم بالأفيال ، وإلا فما أبت الأفيال فلتطأه الخيل ، فما أخطأته الخيل فلتطأه الرجال فلما سمع بذلك أهل تلك القرية وعرفوا أنه قد قصدهم لذلك ، خرجوا بأجمعهم فجأروا إلى الله سبحانه وعجوا إليه وابتهلوا يدعونه تعالى ليكشف عنهم شر هذا الملك الظالم ، وما قصده من هلاكهم . فبينما الملك وجيشه سائرون على ذلك ، وأهل القرية في الأبتهل والدعاء والتضرع إلى الله تعالى . إذ نزل فارس من السماء فوق بينهم ، فنفرت الأفيال فطفت على الخيل وطفت الخيل على الرجال ، قتل الملك ومن معه وطأ بالأفيال والخيل ، ونجى الله أهل تلك القرية من بأسهم وشرهم . وروى عبد الرزاق عن المنذر بن النعمان أنه سمع وهبا يقول : قال الله تعالى لصخرة بيت

المقدس : لأضعن عليك عرشى ، ولأحشرن عليك خلقى ، وليأتينك داود يومئذ راكبا . وروى
سماك بن المفضل عن وهب قال : إني لأتفقد أخلاقى وما فيها شئ يعجبني . وروى عبد الرزاق عن
أبيه قال قال وهب : ربما صليت الصبح بوضوء العتمة . وقال بقية بن الوليد : حدثنا زيد بن خالد
عن خالد بن معدان عن وهب قال : كان نوح عليه السلام من أجل أهل زمانه ، وكان يلبس البرقع
فأصابهم مجاعة في السفينة ، فكان نوح إذا تجلى لهم شبعوا . وقال قال عيسى : الحق أقول لكم :
إن أشدكم جزعا على المصيبة أشدكم حبا للدينا . وقال جعفر بن برقان : بلغنا أن وهبا كان يقول :
طوبى لمن نظر في عيبه عن عيب غيره ، وطوبى لمن تواضع لله من غير مسكنة ، ورحم أهل الذل
والمسكنة ، وتصدق من مال جمعه من غير معصية ، وجالس أهل العلم والحلم والحكمة ، ووسعته السنة
ولم يتعداها إلى البدعة . وروى سيار عن جعفر عن عبد الصمد بن معقل عن وهب قال : وجدت
في زبور داود : يا داود هل تدري من أسرع الناس مرآ على الصراط ؟ الذين يرضون بحمى ،
والسنتهم رطبة بذكرى . وقيل إن عابداً عبد الله تعالى خمسين سنة فأوحى الله إلى نبيهم : إني قد
غفرت له ، فأخبره ذلك النبي ، فقال : أى رب ، وأى ذنب تغفرلى ؟ فأمر عرقا في عنقه فضرب
عليه ، فلم ينم ولم يهدأ ولم يصل ليلته ، ثم سكن العرق ، فشكا ذلك إلى النبي ، فقال : ما لاقيت
من عرق ضرب على في عنقك ثم سكن . فقال له النبي : إن الله يقول : إن عبادتك خمسين سنة
ما تعدل سكون هذا العرق . وقال وهب : رءوس النعم ثلاثة « إحداهما » نعمة الاسلام التي لا تتم
نعمة إلا بها . « والثانية » نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها . « والثالثة » نعمة الغنى التي
لا يتم العيش إلا بها . ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضع وهو يقول : الحمد لله على
نعمة ، فقال له رجل كان مع وهب : أى شئ بقى عليك من النعمة محمد الله عليه ؟ فقال المبتلى : آدم
بصرك إلى أهل المدينة وانظر إلى كثرة أهلها ، أولا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى ؟ .
وقال وهب : المؤمن يخالط ليعلم ، ويسكت ليعلم ، ويتكلم ليقفهم ، ويخلو ليقم . وقال : المؤمن مفكر
مذكر مدخر ، تذكر فغلبته السكينة ، سكن فتواضع فلم يتهم ، رفض الشهوات فصارحرا ، ألقي عنه
الحسد فظهرت له المحبة ، زهد في كل فان فاستكمل العقل ، رغب في كل باق فعقل المعرفة ، قلبه
متعلق بهمه ، وهمه موكل بعماده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه عليه سرمد ، وفرحه إذا
نامت العيون يتلو كتاب الله ويردده على قلبه ، فمرة يفرغ قلبه ومرة تدمع عينه ، يقطع عنه الليل
بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالتلاوة والعزلة ، مفكراً في ذنوبه ، مستصغراً لأعماله . وقال وهب : فهذا
ينادى يوم القيامة في ذلك الجمع العظيم على رءوس الخلائق : قم أيها الكريم فادخل الجنة .
وقال إبراهيم بن سعيد عن عبند الرحمن بن مسعود عن ثور بن يزيد . قال قال وهب بن منبه :

الويل لكم إذا سماكم الناس صالحين ، وأكرمواكم على ذلك . وقال الطبراني : حدثنا عبيد بن محمد الكشوري حدثنا همام بن سلمة بن عقبة حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن معقل بن منبه قال : سمعت عمي وهب بن منبه يقول : يا بني ! اخلص طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق بها فملك في العلانية ، فان من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب مواضعه ، وأبلغه قراره ، ووضع عند حافظه وإن من أسر عملاً صالحاً لم يطلع عليه إلا الله ، فقد أطلع عليه من هو حسبه ، واستحفظه واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره ، فلا تخافن يا بني علي من عمل صالحاً أسره إلى الله عز وجل ضياعاً ، ولا تخافن ظلمة ولا هزيمة ، ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة ، فان مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجرة مع عرقها ، العلانية ورقها والسريرة أصلها ، إن يحرق العرق هلكت الشجرة كلها ، وإن صلح الأصل صلحت الشجرة ، ثمها وورقها ، والورق يأتي عليه حين يجف ويصير هباء تذرؤه الرياح ، بخلاف العرق ، فانه لا يزال مظهر من الشجرة في خير وعافية ما كان عرقها مستخفياً لا يرى منه شيء ، كذلك الدين والعلم والعمل ، لا يزال صالحاً ما كان له سريرة صالحة يصدق الله بها علانية العبد ، فان العلانية تنفع مع السريرة الصالحة ، ولا تنفع العلانية مع السريرة الفاسدة ، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها ، وإن كان حياته من قبل عرقها ، فان فرعها زينتها وجمالها ، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين ، فان العلانية معها تزين الدين وتجمله إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضا ربه عز وجل .

وقال الهيثم بن جميل : حدثنا صالح المري عن أبان عن وهب قال : قرأت في الحكمة : الكفر أربعة أركان ، ركن منه الغضب ، وركن منه الشهوة ، وركن منه الطمع ، وركن منه الخوف . وقال : أوحى الله تعالى إلى موسى : إذا دعوتني فكن خائفاً مشفقاً وجلاً ، وعفر خدك بالتراب ، واسجد لي بمكرم وجهك ويديك ، وصلني حين تسألني بخشية من قلبك ووجل ، واخشني أيام الحياة ، وعلم الجهال آلائي ، وقل لعبادي لا يتبادوا في غي مام فيه فان أخذني أليم شديد . وقال وهب : إذا هم الوالي بالجور أو عمل به دخل النقص على أهل مملكته ، وقلت البركات في التجارات والزراعات والضروع والمواشي ، ودخل الحق في ذلك ، وأدخل الله عليه الذل في ذاته وفي ملكه . وإذا هم بالعدل والخير كان عكس ذلك ، من كثرة الخير ونمو البركات . وقال وهب : كان في مصحف إبراهيم عليه السلام أيها الملك المبلى ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولا لتبني البنيان ، وإنما بعثتك لترفع لي دعوة المظلوم فاني لأردّها ولو كانت من كافر .

وروى ابن أبي الدنيا عن محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أن ذا القرنين قال لبعض الملوك : ما بال ملتكم واحدة ، وطريقتكم مستقيمة ؟ قال : من قبل أنا لا نخادع ولا نفتاب بعضنا بعضاً . وروى

ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه أصاب البر ، سخاوة النفس ، والصبر على الأذى ، وطيب الكلام . وقال ابن أبي الدنيا : حدثني سلمة بن شبيب حدثنا سهل بن عاصم عن سلمة بن ميمون عن المعافى بن عمران عن إدريس قال : سمعت وهبا يقول : كان في بني إسرائيل رجلان ، بلغت بهما عبادتهما أنهما مشيا على الماء ، فبينما هما يشيان على البحر إذاهما برجل يمشى في الهواء ، فقالا له : يا عبد الله بأي شيء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : يسير من البر فعلته ، ويسير من الشر تركته ، فطمت نفسي عن الشهوات ، وكففت لساني عما لا يعنيني ، ورغبت فيما دعاني إليه خالقي ، ولزمت الصمت فإن أقسمت على الله عز وجل أبرق مني ، وإن سألته أعطاني . وقال : حدثني أبو العباس البصرى الأزدي عن شيخ من الأزد . قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : علمني شيئا ينفعني الله به ، قال : أ أكثر من ذكر الموت ، واقصر أملك ، وخصلة ثالثة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى ، وظفرت بالعبادة الكبرى قال : وما هي ؟ قال : التوكل .

ومن توفى فيها من الأعيان

سليمان بن سعد

كان جميلا فصيحاً عالماً بالعربية ، وكان يعلمها الناس هو وصالح بن عبد الرحمن الكاتب ، وتوفى صالح بعده بقليل ، وكان صالح فصيحاً جميلاً عارفاً بكتابة الديوان ، وبه يخرج أهل العراق من كتابة الديوان وقد ولاة سليمان بن عبد الملك خراج العراق .

أم الهذيل

لها روايات كثيرة ، وقد قرأت القرآن وعمرها اثنتي عشرة سنة ، وكانت فقيرة عالة ، من خيار النساء ، عاشت سبعين سنة .

عائشة بنت طلحة بن عبد الله التميمي

أمها أم كلثوم بنت أبي بكر ، تزوجت بابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، ثم تزوجت بعده بمصعب بن الزبير ، وأصدقها مائة ألف دينار ، وكانت بارعة الجمال ، عظيمة الحسن لم يكن في زمانها أجمل منها . توفيت بالمدينة .

عبد الله بن سعيد بن جبير

له روايات كثيرة ، وكان من أفضل أهل زمانه ،

عبد الرحمن بن أبان

ابن عثمان بن عفان . له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة



ثم دخلت سنة احدى عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى^(١)، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى^(٢)، حتى بلغ قيسارية من بلاد الروم. وفيها عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله السلي عن إمرة خراسان وولى عليها الجنيد بن عبد الرحمن، فلما قدم خراسان تلقته خيول الاتراك منهزمين من المسلمين، وهو في سبعة آلاف فتصافوا واقتتلوا قتالا شديداً، وطمعوا فيه وفيمن معه لقتلهم بالنسبة إليهم، ومعهم ملكهم خاقان، وكاد الجنيد أن يهلك، ثم أظفره الله بهم فهزمهم هزيمة منكرة، وأسر ابن أخى ملكهم، وبعث به إلى الخليفة. وخرج بالناس فيها إبراهيم بن هشام الخزومي، وهو أمير الحرمين والطائف، وأمير العراق خالد القسري، وأمير خراسان الجنيد بن عبد الرحمن المري.

ثم دخلت سنة ثني عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح حصوناً من ناحية ملاطية. وفيها سارت الترك من اللان فلقبهم الجراح بن عبد الله الحكى فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان، فاقتتلوا قبل أن يتكامل إليه جيشه، فاستشهد الجراح رحمه الله وجماعة معه بمرج أردبيل، وأخذ العدو أردبيل. فلما بلغ ذلك هشام بن عبد الملك بعث سعيد بن عمرو الجرشي بجيش وأمره بالأسراع إليهم، فلحق الترك وهم يسرون بأسارى المسلمين نحو ملكهم خاقان، فاستنقذ منهم الأسارى ومن كان معهم من نساء المسلمين، ومن أهل الذمة أيضاً، وقتل من الترك مقتلة عظيمة جداً، وأسر منهم خلقاً كثيراً فقتلهم صبرا، وشفي ما كان تغلث من القلوب، ولم يكتف الخليفة بذلك حتى أرسل أخاه مسلة بن عبد الملك في أثر الترك، فسار إليهم في برد شديد وشتاء عظيم، فوصل إلى باب الأبواب واستخلف عنه أميراً وسار هو بن معه في طلب الاتراك وملكهم خاقان، وكان من أمره معهم ما سئد كره. ونهض أمير خراسان في طلب الاتراك أيضاً في جيش كثيف، فوصل إلى نهر بلخ ووجه إليهم سرية ثمانية عشر ألفاً، وأخرى عشرة آلاف يمنة ويسرة، وجاشت الترك وجيشت، فأتوا سمرقند فكتب أميرها إليه يعلمه بهم، وأنه لا يقدر على صون سمرقند منهم، ومعهم ملكهم الاعظم خاقان، فالنوث النوث. فسار الجنيد مسرعاً في جيش كثيف هو نحو سمرقند حتى وصل إلى شعب سمرقند وبقى بينه وبينها أربعة فراسخ، فصبغ خاقان في جمع عظيم، فحمل خاقان على مقدمة الجنيد فأنجازوا إلى السكر والترك تقبعم من كل جانب، فترامى الجمعان والمسلمون يتغدون ولا يشعرون بانهمزام مقدمتهم وأنحيازها إليهم، فهضوا إلى السلاح واصطفوا على منازلهم، وذلك في مجال واسع، ومكان بارز، فالتقوا وحملت الترك على ميمنة المسلمين وفيها بنو تميم والازد، فقتل منهم ومن غيرهم خلق

(١) أي البلاد الواقعة في ساحل بلاد الأناضول (٢) أي بر الأناضول من جهة البلاد الداخلية

كثير ، ممن أراد الله كرامته بالشهادة ، وقد برز بعض شجعان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم ، فناداه منادى خاقان : إن صرت إلينا جعلناك ممن يرتص الصنم الأعظم فنعبدك . فقال : و يحكم ، إنما أقاتلكم على أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله . ثم تناخى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان ، وصبروا وصابروا ، وحملوا على الترك حملة رجل واحد ، فهزهم الله عز وجل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم عطفت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقاً حتى لم يبق سوى ألفين ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، وقتل يومئذ سودة بن أبيجر واستأسروا من المسلمين جماعة كثيرة فمهلهم إلى الملك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم ، فانا لله وإنا إليه راجعون وهذه الوقعة يقال لها وقعة الشيب . وقد بسطها ابن جرير جداً . وممن توفي فيها من الأعيان :

رجاء بن حيوة الكندي

أبو المقدام ، ويقال أبو نصر ، وهو تابعي جليل ، كبير القدر ، ثقة فاضل عادل ، وزير صدق خلفاء بني أمية ، وكان مكحول إذا سئل يقول : سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه في الرواية ، وله روايات وكلام حسن رحمه الله .

شهر بن حوشب الأشعري المحصي

ويقال إنه دمشقي ، تابعي جليل ، روى عن ولاته أسماء بنت يزيد بن السكن وغيرها ، وحدث عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، وكان عالماً عابداً ناسكاً ، لكن تكلم فيه جماعة بسبب أخذه خريطة من بيت المال بغير إذن ولي الأمر ، فعابوه وتركوه عرضة ، وتركوا حايثه وأنشدوا فيه الشعر ، منهم شعبة وغيره ، ويقال إنه سرق غيرها فأنه أعلم . وقد وثقه جماعات آخرون وقبلوا روايته وأثنوا عليه وعلى عبادته ودينه واجتهاده ، وقالوا : لا يقدح في روايته ما أخذه من بيت المال إن صح عنه ، وقد كان والياعليه متصرفاً فيه فأنه أعلم . قال الواقدي : توفي شهر في هذه السنة - أعني سنة اثنتي عشرة ومائة / وقيل قبلها بسنة وقيل سنة مائة فأنه أعلم . ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش ، وفيها صار جماعة من دعاة بني العباس إلى خراسان وانتشروا فيها ، وقد أخذ أميرهم رجلاً منهم فقتله وتوعد غيره بمثل ذلك . وفيها وغل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الترك فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ودانت له تلك الممالك من ناحية بلنجر وأعمالها . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هاشم الخزومي ، فأنه أعلم . ونواب البلاد المذكورون في التي قبلها . وممن توفي فيها من الأعيان قال ابن جرير : فيها كان مهلك

الأمير عبد الوهاب بن بخت

وهو مع البطل عبد الله بأرض الروم قتل شبيداً وهذه ترجمته

هو عبد الوهاب بن بخت أبو عبيدة ويقال أبو بكر ، مولى آل مروان مكي ، سكن الشام ثم تحول إلى المدينة ، روى عن ابن عمر وأنس وأبي هريرة وجماعة من التابعين . وعنه خلق منهم أبو بوب ومالك ابن أنس ويحيى بن سعيد الأنصاري وعبيد الله العمري ، حديثه عن أنس مرفوعاً « نصر الله امرأ سمع مقاتلي هذه فروعاً ثم بلغها غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن صدر مؤمن ، إخلاص العمل لله ، ومناصحة أولى الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، كأن دعوتهم تحيط من ورثتهم » . وروى ابن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) : « إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه فان حالت بينهما شجرة ثم لقيه فليسلم عليه » . وقد وثق عبد الوهاب هذا جماعات من أئمة العلماء . وقال مالك : كان كثير الحج والعمرة والغزو ، حتى استشهد ولم يكن أحق بما في رحله من رفاقه ، وكان صحابياً جواداً ، استشهد ببلاد الروم مع الأمير أبي محمد عبد الله البطل ، ودفن هناك رحمه الله . توفي في هذه السنة قاله خليفة وغيره ، وذلك أنه لقي العدو ففر بهض المسلمين ، فجعل ينادى ويركض فرسه نحو العدو : أن هلموا إلى الجنة ، وبحكم أفراراً من الجنة ؟ أتفرون من الجنة ؟ إلى أين وبحكم لا مقام لكم في الدنيا ولا بقاء ؟ ثم قاتل حتى قتل رحمه الله .

مكحول الشامي

تأبى جليل القدر ، إمام أهل الشام في زمانه ، وكان مولى لامرأة من هذيل ، وقيل مولى امرأة من آل سعيد بن العاص ، وكان نوبياً ، وقيل من سبي كابل ، وقيل كان من الأبناء من سلالة الأكرسة وقد ذكرنا نسبه في كتابنا التكميل . وقال محمد بن إسحاق : سمعته يقول : طفت الأرض كلها في طلب العلم : وقال الزهري : العلماء أربعة ، سعيد بن المسيب بالحجاز ، والحسن البصري بالبصرة ، والشعبي بالكوفة ، ومكحول بالشام . وقال بعضهم : كان لا يستطيع أن يقول قل ، وإنما يقول كل وكان له وجهة عند الناس ، مهما أمر به من شيء يفعل . وقال سعيد بن عبد العزيز : كان أفقه أهل الشام ، وكان أفقه من الزهري . وقال غير واحد : توفي في هذه السنة ، وقيل بعدها قاله أعلم :

[مكحول الشامي هو ابن أبي مسلم ، واسم أبي مسلم شهزاب بن شاذل . كذا نقلته من خط عبد الهادي ، وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زيد في عقله . وقال مكحول في قوله تعالى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قال : بارد الشراب ، وظلال المساكن وشبع البطون ، واعتدال الخلق ، ولذاذة النوم . وقال : إذا وضع المجاهدون أقدامهم عن دوابهم أتتبا الملائكة ، فسحت ظهورها ودعت لها بالبركة ، إلا دابة في عنقها جرس] (١) .

(١) زيادة من المصرية .

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وعلى النبي سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام : وفيها التقى عبد الله البطل وملك الروم المسمى فيهم قسطنطين ، وهو ابن هرقل الأول الذي كتب إليه النبي (ص) ، فأسره البطل ، فأرسله إلى سليمان بن هشام ، فسار به إلى أبيه . وفيها عزل هشام عن إمرة مكة والمدينة والطائف إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وولى عليها أخاه محمد بن هشام فخرج بالناس في هذه السنة في قول ، وقال الواقدي وأبو معشر : إنما حج بالناس خالد بن عبد الملك بن مروان والله أعلم . ومن توفي فيها من الأعيان :

عطاء بن أبي رباح

الفهري مولاهم أبو محمد المكي ، أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء ، يقال إنه أدرك مائتي صحابي وقال ابن سعد : سمعت بعض أهل العلم يقول : كان عطاء أسود أعور أفتس أشل أعرج ، ثم عمى بعد ذلك ، وكان ثقة فقيها عالما كثير الحديث ، وقال أبو جعفر الباقر وغير واحد : ما بقي أحد في زمانه أعلم بالناسك منه ، وزاد بعضهم ، وكان قد حج سبعين حجة ، وعمر مائة سنة ، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف ويفدى عن إبطاره ، ويتأول الآية [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] وكان ينادى منادى بنى أمية في أيام منى : لا يفتي الناس في الحج إلا عطاء بن أبي رباح ، وقال أبو جعفر الباقر : ما رأيت فيمن لقيت أفقه منه ، وقال الأوزاعي : مات عطاء يوم مات وهو أَرْضَى أهل الأرض عندهم . وقال ابن جريج : كان في المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس به صلاة . وقال قتادة : كان سعيد بن المسيب والحسن وإبراهيم وعطاء هؤلاء أئمة الأمصار . وقال عطاء إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنتصت له كأنني لم أكن سمعته ، وقد سمعته قبل أن يولد ، فأريه أني إنما سمعته الآن منه . وفي رواية : أنا أحفظ منه له فأريه أني لم أسمع . الجمهور على أنه مات في هذه السنة رحمه الله تعالى والله أعلم .

فضائله

أسند أبو محمد عطاء بن أبي رباح - واسم أبي رباح أسلم - عن عدد كثير من الصحابة ، منهم ابن عمر وابن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو هريرة ، وزيد بن خالد الجهني ، وأبو سعيد . وسمع من ابن عباس التفسير وغيره . وروى عنه من التابعين عدة ، منهم الزهري ، وعمرو بن دينار ، وأبو الزبير ، وقتادة ، ويحيى بن كثير ، ومالك بن دينار ، وحبيب بن أبي ثابت ، والأعمش ، وأيوب السختياني ، وغيرهم من الأئمة والأعلام كثير . قال أبو هرزان : سمعت عطاء بن أبي رباح يقول :

من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل . قال أبو هريرة : قلت لعطاء : ما مجلس الذكر ؟ قال : مجالس الحلال والحرام ، كيف تصلي ، كيف تصوم ، كيف تنكح وتطلق وتبيع وتشتري .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة الصنعاني . قال : سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى : [وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون] قال : كانوا يقرضون الدرام ، قيل كانوا يقصون منها ويقطعونها . وقال الثوري عن عبد الله بن الوليد - يعني الوصافي - قال : قلت لعطاء : ما ترى في صاحب قام إن هو كتب به عاش هو وعياله في سعة ، وإن هو تركه افتقر ؟ قال : من الرأس ؟ قلت القسري لخالد . قال عطاء : قال العبد الصالح : [رب بما أنعمت علي فإن أكون ظهيراً للمجرمين] . وقال : أفضل ما أوتي العباد العقل عن الله وهو الدين . وقال عطاء : ما قال العبد : يا رب ، يا رب ، ثلاث مرات إلا نظر الله إليه ، قال : فذكرت ذلك للحسن فقال : أما تقرؤن القرآن [ربنا إنا ممنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا] إلى قوله : [فاستجاب لهم ربهم] الآيات .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عبد الله السلمي حدثنا ضمرة عن عمر بن الورد قال قال عطاء : إن استطعت أن تخلو بنفسك عشية عرفة فافعل . وقال سعيد بن سلام البصري : سمعت أبا حنيفة النعمان يقول : لميت عطاء بمكة فسألته عن شيء فقال : من أين أنت ؟ قلت : من أهل الكوفة . قال : أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً ؟ قلت : نعم . قال : فمن أي الأصناف أنت ؟ قلت : من لا يسب الساف ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب : فقال عطاء : عرفت فالزم . وقال عطاء : ما اجتمعت عليه الأمة أقوى عندنا من الاسناد . وقيل لعطاء : إن هاهنا قوما يقولون : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فقال : [والذين اهتدوا زادهم هدى] فما هذا الهدى الذي زادهم ؟ قلت : ويرجعون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله ، فقال : قال تعالى : [وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة] فجعل ذلك ديناً . وقال يعلى بن عبيد : دخلنا على محمد بن سوقة فقال : ألا أحدثكم بحديث لعله أن ينفعكم ، فإنه نفعي ، قال لي عطاء بن أبي رباح : يا ابن أخي إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يمدون فضول الكلام إثمًا ، ما عدا كتاب الله أن يقرأ ، وأمر بمعرف أو نهى عن منكر ، أو ينطق العبد بمحاجته في مميسته التي لا بد له منها ، أتتكرون : [وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين] و : [عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] أما يستحي أحدكم

لونشرت عليه صحيفته التي أملاها صدر نهاره فرأى أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ .
 وقال : إذا أنت خفت الحر من الليل فاقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .
 وروى الطبراني وغيره أن الحلقة في المسجد الحرام كانت لابن عباس ، فلما مات ابن عباس
 كانت لعطاء بن أبي رباح . وروى عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن الفضل بن دكين عن سفيان عن
 سلمة بن كهيل قال : ما رأيت أحداً يطلب بعمله ما عند الله تعالى إلا ثلاثة ، عطاء ، وطاوس ،
 وبجاهد . وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا عمر بن ذر قال : ما رأيت مثل عطاء قط ،
 وما رأيت على عطاء قيصا قط ، ولا رأيت عليه ثوبا يساوي خمسة دراهم . وقال أبو بلال الأشعري :
 حدثنا قيس عن عبد الملك بن جريج عن عطاء : أن يعلى بن أمية كانت له صحبة ، وكان يقعد في
 المسجد ساعة ينوي فيها الاعتكاف . وروى الأوزاعي عن عطاء قال : إن كانت فاطمة بنت رسول
 الله (ص) لتعجن ، وإن كانت قصتها لتضرب بالجفنة . وعن الأوزاعي عنه قال : [ولا تأخذكم بهما
 رافة في دين الله] قال : ذلك في إقامة الحد عليهما .

وقال الأوزاعي : كنت باليمامة وعليها رجل وال يمتحن الناس من أصحاب رسول الله (ص) ،
 إنه منافق وما هو بمؤمن ، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتاق أن يسمى المسى منافقا وما يسميه مؤمنا ،
 فأطاعوه على ذلك وجعلوه له ، قال : فلقيت عطاء فيما بعد فسألته عن ذلك فقال : ما أرى بذلك بأسا
 يقول الله تعالى : [إلا أن تتقوا منهم تقاة] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا إسماعيل بن أمية قال : كان عطاء يطيل الصمت
 فاذا تكلم تخيل الينا أنه يؤيد . وقال في قوله تعالى : [لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله] قال :
 لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله تعالى التي افترضها عليهم أن يؤدوها في أوقاتها
 وأوائلها . وقال ابن جرير : رأيت عطاء يطوف بالبیت فقال لقائده : امسكوا احفظوا عني خسا :
 القدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله عز وجل ، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض . وأهل قبلتنا
 مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بمحقها . وقتال الفئة الباغية بالأيدي والذغال والسلاح ، والشهادة
 على الخوارج بالضلالة . وقال ابن عمر : تجمعون لي المسائل وفيكم عطاء بن أبي رباح .

وقال معاذ بن سعد : كنت جالسا عند عطاء فحدث بحديث ، فعرض رجل له في حديثه فنضب
 عطاء وقال : ماهنه الأخلاق ؟ وماهنه الطبائع ؟ والله إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه
 فأريه أني لأحسن شيئا منه . وكان عطاء يقول : لأن أرى في بيتي شيطانا خيرا من أن أرى فيه
 وسادة ، لأنها تدعو إلى النوم . وروى عثمان بن أبي شيبة عن علي بن المديني عن يحيى بن سعيد
 عن ابن جرير قال : كان عطاء بعد ما بكر وضعف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة

وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك . وقال ابن عيينة : قلت لابن جرير : ما رأيت مصليا مثلك . فقال : لو رأيت عطاء ؟ . وقال عطاء : إن الله لا يحب الفتي يلبس الثوب المشهور ، فيعرض الله عنه حتى يضع ذلك الثوب . وكان يقال : ينبغي للعبد أن يكون كالريض لا بدله من قوت ، وليس كل الطعام يواقة . وكان يقال : الدعوة تسمى عين الحكيم فكيف بالجاهل ؟ ولا تقبطن ذا نعمة بما هو فيه فانك لا تدري إلى ماذا يصير بعد الموت [(١)]

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة

ففيها وقع طاعون بالشام ، وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل وهو نائب الحرمين والطائف . والنواب في سائر البلاد المذكورون في التي قبلها والله أعلم . ومن توفي فيها من الأعيان

ابو جعفر الباقر

وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبو جعفر الباقر ، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي ، وهو تابعي جليل ، كبير القدر كثيرا ، أحد أعلام هذه الأمة علماء وعملا وسيادة وشرفا ، وهو أحد من تدعى فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر ، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم ، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر ، وذلك عنده صحيح في الأثر ، وقال أيضا : ما أدركت أحدا من أهل بيتي إلا وهو يتولاها رضى الله عنهما . وقد روى عن غير واحد من الصحابة ، وحدث عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم . فمن روى عنه ابنه جعفر الصادق ، والحكم بن عتيبة ، وربيعة ، والأعمش ، وأبو إسحاق السبيعي ، والأوزاعي والأعرج ، وهو أسن منه ، وابن جريج وعطاء وعمرو بن دينار والزهري . وقال سفيان بن عيينة عن جعفر الصادق قال : حدثني أبي وكان خير محمدي يومئذ على وجه الأرض ، وقال العجلي : هو مدني تابعي ثقة ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وكانت وفاته في هذه السنة في قول وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها أو في التي هي بعدها وبعد بعدها والله أعلم . وقد جاوز السبعين وقيل لم يجاوز الستين فآله أعلم .

قضية

أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، كان أبوه علي زين العابدين ، وجهه الحسين قتلا شهيدين بالعراق . وصحى الباقر لبقرة العلوم واستنباطه الحكم ، كان ذا كرا خاشعا صابرا وكان من سلالة النبوة ، رفيع النسب عالي الحسب ، وكان عارفا بالخطرات ، كثير البسكاه والمعبرات معرضا عن الجدال والخصومات .

(١) زيادة من المصرية .

قال أبو بلال الأشعري : حدثنا محمد بن مروان عن ثابت عن محمد بن علي بن الحسين في قوله تعالى : [أولئك يجزون الغرفة بما صبروا] قال : الغرفة الجنة بما صبروا على الفقر في الدنيا . وقال عبد السلام بن حرب عن زيد بن خيثمة عن أبي جعفر قال : الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولا تصيب الذاكر . قلت : وقد روى نحو هذا عن ابن عباس قال : لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذاكر . وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر إني لمحزون ، وإني لمشتغل القلب . قلت : وما حزنك وشغل قلبك ؟ قال : يا جابر إنه من دخل قلبه صافي دين الله عز وجل شغله عما سواه ، يا جابر ما الدنيا ؟ وما عسى أن تكون ؟ هل هي إلا مركبا ركبتك ؟ أو نوبا لبسته ؟ أو امرأة أصبتها ؟ يا جابر إني المؤمن لم يطمئنا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار . إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة ، وأكثرم لك معونة ، إن نيت ذكرك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوالين بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قطعوا المحبة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم ، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها عليهم كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكما أصبته في منامك فلما استيقظت إذا ليس في يدك منه شيء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته .

وقال خالد بن يزيد : سمعت محمد بن علي يقول : قال عمر بن الخطاب : إذا رأيتم القارئ يجب الأغنياء فهو صاحب الدنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص . وكان أبو جعفر يصلي كل يوم ليلة بالمكتوبة . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : سلاح اللئام قبيح الكلام . وروى أبو الأحوص عن منصور عنه قال : لكل شيء آفة ، وآفة العلم النسيان . وقال لابنه : إياك والكسل والضجر فانهما مفتاح كل خبيثة ، إنك إذا كسلت لم تؤد حقا ، وإن ضجرت لم تصبر على حق . وقال : أشد الأعمال ثلاثة ذكر الله على كل حال ، وإصافك من نفسك ، ومواساة الأخ في المال . وقال خلف بن حوشب : قال أبو جعفر : الإيمان ثابت في القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد ، ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلب عبد شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه .

وقال جابر الجعفي : ما يقول فقهاء العراق في قوله تعالى : [لولا أن رأى برهان ربه] قال : رأى يعقوب عاضاً على إبهامه . فقال : لا ! حدثني أبي عن جدي علي بن أبي طالب أن البرهان الذي رآه أنها حين همت به وهم بها أي طمع فيها ، قامت إلى صنم لها مكال بالدر والياقوت في ناحية البيت فسرتة بثوب أبيض خشية أن يراها ، أو استحياء منه . فقال لها يوسف : ما هذا ؟ فقالت إلهي أستحي

منه أن براني على هذه الصورة . فقال يوسف : تستحين من صنم لا ينفع ولا يضر ، ولا يسمع ولا يبصر ، أفلا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال : والله لا تتالين مني أبدا . فهو البرهان . وقال بشر بن الحارث الحافي : سمعت سفيان الثوري يقول : سمعت منصوراً يقول : سمعت محمد بن علي يقول : الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أوطناه . وقال : إن الله يلقى في قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا ، وظهر مديننا كان الرجل منهم أجراً من ليث وأمضى من سيف . وقال : شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه . وقال : إياكم والخصومة فانها تفسد القلب ، وتورث النفاق ، وقال : [الذين يخوضون في آيات الله] هم أصحاب الخصومات .

وقال عروة بن عبد الله : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال : لا بأس به ، قد حل لي أبو بكر الصديق سيفه . قال : قلت : وتقول الصديق ؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق ، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة . وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر ! بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك ، فأبلغهم عنى أني إلى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده - يعني نفسه - لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم ، لافلتني شفاعة محمد (س) . إن لم أكن أستغفر لهما ، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما ، فأبلغهم أني بريء منهم ومن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وقال : من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة . وقال في قوله تعالى : [إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا] الآية ، قال : هم أصحاب محمد (س) ، قال : قلت : يقولون : هو علي قال : علي من أصحاب محمد (س) .

وقال عبد الله بن عطاء : ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي ، قال : رأيت الحكم عنده كأنه متعلم ، وقال : كان لي أخ في عيني عظيم ، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، وقال جعفر بن محمد : ذهبت بغلة أبي فقال : لئن ردها الله علي لأحمدته بمحمد يرضاه ، فما كان بأسرع من أن أتى بها بسرجها لم يفقد منها شيء ، فقام فركبها ، فلما استوى عليها وجع إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء وقال : الحمد لله ، لم يزد علي ذلك ، فقيل له في ذلك ، فقال : فهل تركت أو أبقيت شيئاً ؟ جعلت الحمد كله لله عز وجل . وقال عبد الله بن المبارك : قال محمد بن علي : من أعطى الخلق والرفق فقد أعطى الخير والراحة ، وحسن حاله في دنياه وآخرته ، ومن حرّمهما كان ذلك سبيلاً إلى كل شر وبلية ، إلا من عصمه الله . وقال : أيدخل أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ ما يريد تاماً إلا قال : فلستم إخواناً كما تزعمون ، وقال : اعرف مودة أخيك لك بماله في قلبك من المودة .

فان القلوب تنكافأ . وسمع عصفير يصحن فقال : أتدري ماذا يقلن ؟ قلت : لا . قال : يسبلن الله ويسألنه رزقهن يوما بيوم . وقال : تدعو الله بما تحب ، وإذا وقع الذي تكره لم تخالف الله عز وجل فيما أحب .

وقال : ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج ، وما من شيء أحب إلى الله عز وجل من أن يسأل . وما يدفع القضاء إلا الدعاء . وإن أسرع الخير ثوابا البر ، وأسرع الشر عقوبة البغي ، وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله ، وينهى الناس بما لا يستطيع أن يتحول عنه . وأن يؤذى جليسه بما لا يعنيه . هذه كلمات جوامع موانع لا ينبغي إعاقل أن يفعلها . وقال القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق . وقال أبو جعفر : صحب عمر بن الخطاب رجلا إلى مكة فمات في الطريق ، فاحتبس عليه عمر حتى صلى عليه ودفنه ، فقل يوم إلا كان عمر يتمثل بهذا البيت :

وبالغ أمر كان يأمل دونه * ومحتاج من دون ما كان يأمل

وقال أبو جعفر : والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد . وقال : ما اغرو رقت عين عبد بماها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار ، فان سألت على الخدين لم يرهق وجهه قر ولا ذلة ، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة فان الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو أن با كيا بكى من خشية الله في أمة رحم الله تلك الأمة . وقال : بثس الأخ أخ برعاك غنياً ويقطعك فقيراً . قلت : البيت الذي كان يتمثل به قبله بيتان وهو ثالثهما ، وهذه الأبيات تتضمن حكما وزهدا في الدنيا قال :

لقد غرت الدنيا رجالاً فأصبحوا * بمنزلة ما بعدها متحول
فساخط أمر لا يبدل غيره * وراض بأمر غير سيبدل
وبالغ أمر كان يأمل دونه * ومحتاج من دون ما كان يأمل^(١)

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة ، وفيها وقع طاعون عظيم بالشام والعراق ، وكان معظم ذلك في واسط . وفي المحرم منها توفي الجنيد بن عبد الرحمن المري أمير خراسان من مرض أصابه في بطنه ، وكان قد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فتغضب عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فمزله وولى مكانه عاصم بن عبد الله على خراسان ، وقال له : إن أدركته قبل أن يموت فأزهق روحه . فاقدم عاصم بن عبد الله خراسان حتى مات الجنيد في المحرم منها بمرو ، وقال فيه أبو الجير عيسى بن عصمة يرثيه :

هلك الجود والجنيد جميعا * فعلى الجود والجنيد السلام

(١) زيادة من المصرية .

أصبعا ثاويين في بطن مرو • ما تفتى على الفصون الحمام
 كنا نزهة الكرام فلما • مات الندي ومات الكرام

ولما قدم عاصم خراسان أخذ نواب الجنيد بالضرب البليغ وأنواع العقوبات ، وعسفهم في المصادر والجنائيات ، فخرج عن طاعته الحارث بن شريح فبارزه بالحرب ، وجرت بينهما أمور يطول ذكرها ، ثم آل الأمر إلى أن انكسر الحارث بن شريح وظهر عاصم عليه . قال الواقدي : وفيها حج بالناس الوليد بن يزيد وهو ولي الأمر من بعد عمه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وسليمان بن هشام الصائفة اليمنى ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام . وفيها بعث مروان بن محمد - وهو مروان الحمار - وهو على أرمينية بعثين ففتح حصونا من بلاد اللان ، ونزل كثير منهم على الإيمان : وفيها عزل هشام عاصم بن عبد الله الهلالي الذي ولاه في السنة قبلها خراسان مكان الجنيد ، فعزله عنها وضمها إلى عبد الله بن خالد القسري مع العراق معادة اليه جريا على ما سبق له من العادة ، وكان ذلك عن كتاب عاصم بن عبد الله الهلالي المعزول عنها ، وذلك أنه كتب إلى أمير المؤمنين هشام : إن ولاية خراسان لا تصلح إلا مع ولاية العراق ، رجاء أن يضيفها إليه ، فانعكس الأمر عليه فأجابته هشام إلى ذلك قبولا إلى نصيحته ، وأضافها إلى خالد القسري . وفيها توفي

قتادة بن دعامة السدوسي

أبو الخطاب البصري الأعمى ، أحد علماء التابعين ، والأئمة العاملين ، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب ، والبصري ، وأبو العالية ، وزرارة بن أوفى ، وعطاء ومجاهد ، ومحمد بن سيرين ، وسرووق ، وأبو مجلز وغيرهم ، وحدث عنه جماعات من الكبار كأيوب وحامد بن مسلمة ، وحמיד الطويل ، وسعيد بن أبي عروبة ، والأعمش ، وشعبة ، والأوزاعي ، وسمر ، ومعمر ، وهمام . قال ابن المسيب : ماجاهني عراقي أفضل منه . وقال بكر المزني : مارأيت أحفظ منه . وقال محمد بن سيرين : هو من أحفظ الناس ، وقال مطر : كان قتادة إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزويل حتى يحفظه ، وقال الزهري : هو أعلم من مكحول . وقال معمر : مارأيت أقه من الزهري وحامد وقتادة . وقال قتادة : ما سمعت شيئا إلا وعاه قلبي . وقال أحمد بن حنبل : هو أحفظ أهل البصرة ، لا يسمع شيئا إلا حفظه . وقرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها . وذكر يوماً فأننى على علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك ، وقال أبو حاتم : كانت وفاته بواسط

في الطاعون - يعني في هذه السنة - وعمره ست أو سبع وخمسون سنة
 [قال قتادة : من وثق بالله كان الله معه ، ومن يكن الله معه تكن معه الفضة التي لا تغلب ،
 والحارس الذي لا ينام ، والهادى الذي لا يضل ، والعالم الذي لا ينسى . وقال . في الجنة كوة إلى النار
 فيقولون : ما بال الأشقياء دخلوا النار ، وإنما دخلنا الجنة بفضل تاديبكم ، فقالوا : إنا كنا نأمركم
 ولا نأمر ، وننهاكم ولا ننهي . وقال : باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه وصلاح
 دينه وصلاح الناس ، أفضل من عبادة حول كامل . وقال قتادة : لو كان يكتفي من العلم بشيء لا يكتفي
 موسى عليه السلام بما عنده ، ولكنه طلب الزيادة] (١)
 وفيها توفي : أبو الحباب سعيد بن يسار والأعرج ، وابن أبي مليكة ، وعبد الله بن أبي زكريا
 الخزاعي ، وميمون بن مهران بن موسى بن وردان

فَضِيلَةُ

فأما سعيد بن يسار فكان من العباد الزهاد ، روى عن جماعة من الصحابة ، وكذلك الأعرج
 وابن أبي مليكة . وأما ميمون بن مهران فهو من أجلاء علماء التابعين وزهادهم وعبادهم وأئمتهم . كان
 ميمون إمام أهل الجزيرة . روى الطبراني عنه أنه قيل له : مالك لا يفارقك أخ لك عن قلى ؟ قال :
 لأنى لا أماريه ولا أشاريه . قال عمر بن ميمون : ما كان أبى يكثر الصلاة ولا الصيام ، ولكن كان
 يكره أن يعصى الله عز وجل . وروى ابن أبي عدى عن يونس عنه قال : لا تمارين علما ولا جاهلا ،
 فانك إن ماريت علما خزن عنك علمه ، وإن ماريت جاهلا خشن بصدرك . وقال عمر بن ميمون :
 خرجت بأبى أقوده فى بعض سكك البصرة ، فررنا بجداول فلم يستطع الشيخ أن يتخطاه ،
 فاضطجعت له فر على ظهري ، ثم قمت فأخذت بيده . ثم دفعنا إلى منزل الحسن فطرقت الباب
 فخرجت إلينا جارية سداسية ، فقالت : من هذا ؟ فقلت : هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ،
 فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ قلت لها : نعم ، قالت : يا شقى ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟
 قال : فبكى الشيخ فسمع الحسن بكاءه فخرج إليه فاعتنقا ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد إني
 قد أنست من قلى غايظة فاستكن لى منه ، فقرأ الحسن : [أفرأيت إن متعنهم سنين ثم جاءهم
 ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتنون] فسقط الشيخ مغشيا عليه ، فرأيته يفحص برجليه
 كما تفحص الشاة إذا ذبحت ، فأقام طويلا ثم جاءت الجارية فقالت : قد أتعبتم الشيخ ، قوموا تفرقوا ،
 فأخذت بيد أبى فخرجت فقلت : يا أبت أهذا هو الحسن ؟ قال : نعم . قلت : قد كنت أحسب فى

(١) زيادة من المصرية .

نفسى أنه أكبر من هذا ، قال : فوكز في صدرى وكزة ثم قال : يا بنى لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كلوما .

وروى الطبرانى عنه أنه قال : ما أحب أنى أعطيت درهما فى هو وأن لى مكانه مائة ألف ، أخشى أن تصيبنى هذه الآية : [ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله] الآية وقال جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : كنت عند عمر بن عبد العزيز فلما قت قال عمر : إذا ذهب هذا وأضرابه لم يبق من الناس إلا مجاجة

وروى الامام أحمد عن معمر بن سليمان الرقى عن فرات بن سليمان عن ميمون بن مهران قال : ثلاث لا تلبون نفسك بهن : لا تدخل على سلطان وإن قلت أمره بطاعة الله ، ولا تدخل على امرأة وإن قلت أهلها كتاب الله ، ولا تصفين بسمك إلى ذى هوى فانك لا تدري ما يعلق بقلبك من هواه . وروى عبد الله بن أحمد عنه فى قوله تعالى : [إن جهنم كانت مرصدا] و [إن ربك لبالمرصاد] فقال : التمسوا هذين المرصدين جوازا . وفى قوله تعالى : [ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون] فيها وعيد شديد للظالم ، وتمزية للمظلوم . وقال : لو أن أهل القرآن صاحوا لصلح الناس . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا عيسى بن سالم الشاشى حدثنا أبو المليح قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : لا خير فى الدنيا إلا رجلين ، رجل تائب - أو قال : يتوب - من الخطيئات ، ورجل يعمل فى الدرجات ، فلا خير فى العيش والبقاء فى الدنيا إلا لهذين الرجلين ، رجل يعمل فى الكفارات ورجل يعمل فى الدرجات ، وبقاء ماسواهما وبال عليه . وقال جعفر بن برقان : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن هذا القرآن قد خلق فى صدور كثير من الناس فالتمسوا ماسواه من الأحاديث ، وإن فىمن يقبض هذا العلم قوما يتخذونه بضاعة يلتمس بها الدنيا ، ومنهم من يريد أن يمارى به ، وخيرهم من يتعلمه ويطيع الله عز وجل به . وقال : من اتبع القرآن قاده القرآن حتى يحل به الجنة ، ومن ترك القرآن لم يدعه القرآن يتبعه حتى يقذفه فى النار .

وقال الامام أحمد : حدثنا خالد بن حيان حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : لا يسلم للرجل الحلال حتى يجمل بينه وبين الحرام حاجزا من الحلال . وقال ميمون : من كان يريد أن يعلم مامتزته عند الله فلينظر فى عمله فانه قادم عليه كائنا ما كان . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن عثمان الحربى حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران . قال : نظر رجل من المهاجرين إلى رجل يصلى فأخنى الصلاة فعاتبه ، فقال : إني ذكرت ضيعة لى . فقال : أ أكبر الضيعة أضعته . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا جعفر بن محمد الدسقى حدثنا أبو جعفر النخيلى حدثنا عثمان ابن عبد الرحمن عن طلحة بن زيد قال قال ميمون : لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه . وروى

عبد الله بن أحمد عنه أيضا قال : لأن أوتمن على بيت مال أحب إلى من أن أوتمن على امرأة .
وقال أبو يلى الموصلى : حدثنا هاشم بن الحارث حدثنا أبو المليح الرقى عن حبيب بن أبي مرزوق
قال قال ميمون : وددت أن إحدى عيني ذهبت وبقيت الأخرى أتمتع بها ، وأنى لم آل عملاق .
قلت : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ولا لعمر بن عبد العزيز ، لا خير في العمل لا لعمر ولا لعمره .
وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا سفيان حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران
قال : ما عرضت قولى على عملى إلا وجدت من نفسى اعتراضا . وقال الطبرانى : حدثنا المقدم بن
داود حدثنا على بن معبد حدثنا خالد بن حيان حدثنا جعفر عن ميمون قال : قال لى ميمون : قل
لى فى وجهى ما أكره ، فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره . وروى عبد الله
ابن أحمد عنه فى قوله تعالى : [خافضة رافعة] قال : تخفض أوقاما وترفع آخرين . وقال عبد الله بن
أحمد بن حنبل : حدثنى عيسى بن سالم حدثنا أبو المليح حدثنا بعض أصحابى قال : كنت أمشى مع
ميمون فنظر فرأى على ثوب كتان فقال : أما بلفك أنه لا يلبس الكتان إلا غنى أو غاؤ ؟ وبهذا
الاسناد سمعت ميمون بن مهران يقول : أول من مشى الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس
الكندى ، ولقد أدركت السلف وهم إذا نظروا إلى رجل راكب ورجل يحضر معه ، قالوا : قاتله جبار .
وقال عبد الله بن أحمد : بلغنى عن عبد الله بن كريم بن حبان - وقد رأيتنه - حدثنا أبو المليح
قال قال ميمون : ما أحب أن لى ما بين باب الرها إلى حوران بخمسة دراهم . وقال ميمون : يقول
أحدهم : اجلس فى بيتك واغلق عليك بابك وانظر هل يأتىك رزقك ؟ نعم والله لو كان له مثل يقين
مرىم وإبراهيم عليهما السلام ، وأغلق عليه بابه ، وأرخى عليه سترة ، لجاءه رزقه . وقال : لو أن كل
إنسان منا يتعاهد كسبه فلم يكسب إلا طيبا ، فأخرج ما عليه ، ما احتجج إلى الأغنياء ، ولا احتج
الفقراء . وقال أبو المليح عن ميمون قال : ما بلغنى عن أخ لى مكروه قط إلا كان إسقاط المكروه
عنه أحب إلى من تخفيفه عليه ، فان قال : لم أقل ، كان قوله لم أقل أحب إلى من ثمانية يشهدون
عليه ، فان قال : قلت ولم يعتذر : أبفضته من حيث أحببته . وقال : سمعت ابن عباس يقول : ما
بلغنى عن أخ لى مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل ، إن كان فوقى عرفت له قدره ، وإن
كان نظيرى تفضلت عليه ، وإن كان دونى لم أحفل به . هذه سيرتى فى نفسى ، فمن رغب عنها
فان أرض الله واسعة .

وقال أبان بن أبى راشد التشيرى : كنت إذا أردت الصائفة أتيت ميمون بن مهران أو دعه ،
فما يزيدنى على كلمتين . اتق الله ولا يفرنك طمع ولا غضب . وقال أبو المليح عن ميمون قال : العلماء
هم ضالتي فى كل بلدة ، وهم أحبتي فى كل مصر ، ووجدت صلاح قلبى فى مجالسة العلماء . وقال فى قوله

تعالى : [إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب] قال : عزقا . وقال : لأن أتصدق بدرهم في حياتي أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم بعد موتي . وقال : كان يقال : الذكركر ان ، ذكر الله باللسان ، وأفضل من ذلك أن تذكره عند ما أحل وحرّم ، وعند المعصية فتكف عنها وقد أشرفت . وقال : ثلاث الكافر والمؤمن فيهن سواء ، الأمانة تؤديها إلى من ائتمنتك عليها من مسلم وكافر ، وبر الوالدين وإن كانا كافرين ، والعهد تفي به للمؤمن والكافر . وقال صفوان عن خلف بن حوشب عن ميمون قال : أدركت من لم يكن بملاً عفيفه من السماء فرقا من ربه عز وجل .

وقال أحمد بن بزيع : حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا هارون أبو محمد البربري أن عمر بن عبد العزيز استعمل ميمون بن مهران على الجزيرة وعلى قضائها وخراجها ، فمكث حيناً ثم كتب إلى عمر يستعفيه عن ذلك ، وقال : كلفتني مالا أطبق ، أفضى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق فكتب إليه عمر : اجب من الخراج الطيب ، واقض بما استبان لك ، فاذا التبس عليك أمر فارفعه إلى ، فإن الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام لهم دين ولا دنيا .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فاذا تاب محبت من قلبه فترى قلب المؤمن مجلياً مثل المرآة ، ما يأتية الشيطان من ناحية إلا أبصره ، وأما الذي يتتابع في الذنوب فإنه كلما أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فلا يبصر الشيطان من أين يأتية . وقال الامام أحمد : حدثنا علي بن ثابت حدثنا جعفر عن ميمون قال : ما أقل أكياس الناس : ألا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أدوا به ، وإلى ما بدأ كبوا عليه من الدنيا ، فيقول : ما هؤلاء إلا أمثال الأباعر ، لاهم لها إلا ما يجعل في أجوافها ، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه فقال : والله إني لأراني من شرم بعيراً واحداً . وبهذا الأسناد عنه : ما من صدقة أفضل من كلمة حق عند إمام جائر . وقال : لا تعذب المملوك ولا تضرب به على كل ذنب ، ولكن احفظ ذلك له ، فاذا عصي الله عز وجل فعاقبه على معصية الله وذكره الذنوب التي أذنب بينك وبينه . وقال قتيبة : حدثنا جعفر بن برقان سمعت ميمون بن مهران يقول : لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه ، حتى يعلم من أين مطعمه ، ومن أين مشربه ، أمن حلال ذلك أم من حرام ؟ .

وقال أبو زرعة الدارمي : حدثنا سعيد بن حفص النخيلي حدثنا أبو المبيع عن ميمون قال : الفاسق بمنزلة السبع فاذا كلمت فيه نخلت سبيله فقد خليت سبعا على المسلمين . وقال جعفر بن برقان : قلت لميمون بن مهران : إن فلانا يستبطئ نفسه في زيارتك ، قال : إذا ثبتت المودة في القلوب فلا

بأس وإن طال المكث . وقال أحمد : حدثنا ميمون الرقي حدثنا الحسن أبو المليح عن ميمون قال :
 لا نجد غرباً أهون عليك من بطنك أو ظهرك . وقال الامام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الله بن ميمون
 حدثنا الحسن عن حبيب بن أبي مرزوق قال : رأيت علي ميمون جبة صوف تحت ثيابه فقلت له :
 ما هذا ؟ قال : نعم ! فلا تخبر به أحداً . وقال عبد الله بن أحمد : حدثني يحيى بن عثمان حدثنا أبو
 المليح عن ميمون قال : من أساء سرّاً فليتب سرّاً ، ومن أساء علانية فليتب علانية ، فان الله
 يَغْفِرُ ولا يعير ، وإن الناس يعيرون ولا يغفرون .

وقال جعفر قال ميمون : في المال ثلاث آفات ، إن نجما صاحبه من واحدة لم ينج من اثنتين ،
 وإن نجما من اثنتين كان قميناً أن لا ينجو من الثالثة ، ينبغي أن يكون حلالاً طيباً ، فأبى الذي يسلم
 كسبه فلم يدخله إلا طيباً ؟ فان سلم من هذه فينبغي أن يؤدي الحقوق التي تلزمه في ماله ، فان سلم من
 هذه فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتر . وقال : سمعت ميمونا يقول : أهون الصوم ترك
 الطعام والشراب . وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا يحيى بن عثمان الحربي حدثنا أبو المليح عن ميمون
 ابن مهران قال : ما نال رجل من جسم الخير نبي أو غيره إلا بالصبر . وبهذا الاسناد قال : الدنيا حلوة
 خضرة قد حفت بالشهوات ، والشيطان عدو حاضر ، فيظن أن أمر الآخرة آجل ، وأمر الدنيا عاجل .
 وقال يونس بن عبيدة : كان طاعون قبل بلاد ميمون بن مهران ، فكتبت إليه أسأله عن أهله :
 فكتب إلي : بلغني كتابك تسألني عن أهلي ، وانه مات من أهلي وخاصتي سبعة عشر إنساناً ،
 وإني أكره البلاء إذا أقبل ، فاذا أدبر لم يسرنى أنه لم يكن ، وأما أنت فعليك بكتاب الله ، فان
 الناس قد بهتوا عنه - يعني أيسوا - واختاروا الأحاديث ، أحاديث الرجال ، وإياك والمرأى في
 الدين . قال أبو عبيد في الغريب بهتوا به مهوزاً ، ومعناه : أنسوا به .

وقال عمر بن ميمون : كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة فلتقى أبي شيخ فماتقه ، ومع الشيخ
 فتى نحو مني ، فقال له أبي : من هذا ؟ قال : ابني . فقال : كيف رضاك عنه ؟ فقال : ما بقيت خصلة
 يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه ، إلا واحدة . قال : وما هي ؟ قال : أن يموت فأوجر فيه
 - أو قال فأحتسبه - ثم فارقه أبي ، فقلت : من هذا الشيخ ؟ فقال : مكحول . وقال : شر الناس
 الميابون ، ولا يلبس الكتان إلا غنى أو غوى .

وروى الامام أحمد عنه قال : يا ابن آدم خفف عن ظهرك فان ظهرك لا يطيق كل هذا الذي
 بحمل ، من ظلم هذا ، وأكل مال هذا ، وغشم هذا ، وكل هذا على ظهرك تحمله ، تخفف عن ظهرك .
 وقال : إن أعمالكم قليلة فأخلصوا هذا القليل . وقال : ما أتى قوم في ناديتهم المنكر إلا حق هلاكهم .
 وروى عبد الله بن أحمد عنه أنه قرأ [وامتازوا اليوم أيها المجرمون] ثم فارق حتى بكى ، ثم قال :

ما سمع الخلائق بنعت قط أشد منه . وقال أبو عوانة : حدثنا إبراهيم بن عبد الله حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا خالد بن حصين بن عبد الرحمن عن ميمون قال : أربيع لا تكلم فيهم : علي ، وعثمان ، والقدر ، والنجوم . وقال : احذروا كل هوى يسمي بغير الإسلام . وروى شيبان عن فرات بن السائب قال : سألت ميمون أعلى أفضل عندك أم أبو بكر وعمر ؟ فارتعد حتى سقطت عصاه من يده ثم قال : ما كنت أظن أن أبقى إلى زمان يعدل بهما غيرهما ، إنهما كاتا رداي الإسلام ، ورأس الإسلام ، ورأس الجماعة . فقلت : فأبو بكر كان أول إسلام أم علي ؟ فقال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم زمن بجزيرة الراهب حين مر به ، وكان أبو بكر هو الذي يختلف بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه . وذلك كله قبل أن يولد علي ، وكان صاحبه وصديقه قبل ذلك . وروى ميمون بن مهران عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل ما يوجد في آخر الزمان درهم من حلال ، أو أخ يوثق به » . وروى عن ابن عمر أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « شر المال في آخر الزمان المماليك » . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : من طلب مرضاة الإخوان بلا شيء فليصادق أهل القبور . وقال : من ظلم أحدا ففاته أن يخرج من مظلمته فاستغفره دبر كل صلاة خرج من مظلمته . وهذا إن شاء الله يدخل فيه الأعراض والأموال وسائر المظالم . وقال ميمون : القاتل ، الأمر والمأمور ، والظالم والراضي بالظلم ، كلهم في الوزر سواء . وقال : أفضل الصبر الصبر على ماتكركه نفسك . من طاعة الله عز وجل .

روى ميمون عن جماعة من الصحابة ، وكان يسكن الرقة ، رحمه الله تعالى [(1)]

نافع مولى ابن عمر

أبو عبد الله المدني أصله من بلاد المغرب ، وقيل من نيسابور ، وقيل من كابل ، وقيل غير ذلك . روى عن مولاة عبد الله بن عمر وجماعة من الصحابة ، مثل رافع بن خديج ، وأبي سعيد وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة وغيرهم : وروى عنه خلق من التابعين وغيرهم ، وكان من الثقات النبلاء ، والأئمة الأجلاء ، قال البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، وقال غيره . كان عمر بن عبد العزيز قد بعثه إلى مصر يعلم الناس السنن ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه ومات في هذه السنة على المشهور

ذو الرمة الشاعر

واسمه غيلان بن عتبة بن بهيس ، من بني عبد مناة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ، أبو الحارث أحد فحول الشعراء ، وله ديوان مشهور ، وكان ينزل في مي بنت مقاتل بن طلحة بن قيس

(1) زيادة من المصرية .

ابن عاصم المنقري ، وكانت جميلة ، وكان هو دميم الخلق أسود اللون ، ولم يكن بينهما فحش ولا خنا ولم يكن رآها قط ولا رآته ، وإنما كانت تسمع به ويسمع بها ، ويقال : إنها كانت تنذر إن هي رآته أن تذبح جزورا ، فلما رآته قالت : واسواتناه واسواتناه ، ولم تبد له وجهها قط إلا مرة واحدة ، فأنشأ يقول :

على وجهي لمحة من حلاوة * وتحت الثياب العار لو كان باديا
قال فانسخت من ثيابها فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه * وإن كان لون الماء أبيض صافيا
فقلت : تريد أن تذوق طعمه ؟ فقال : إي والله ، فقلت : تذوق الموت قبل أن تذوقه .
فأنشأ يقول :

فواضية الشعر الذي راح وانقضى * بمي ولم أملك ضلال فؤاديا
قال ابن خلكان : ومن شعره السائر بين الناس ما أنشده :

إذا هبت الأرياح من نحو جانب * به أهل مي هاج شوق هبوبها
هوى تدرف العينان منه وإنما * هوى كل نفس أين حل حبيبها
وأنشد عند الموت :

يا قابض الأرواح في جسمي إذا احتضرت * وغافر الذنب زحزحني عن النار
ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائة

فيها غزا معاوية وسليمان ابنا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بلاد الروم ، وفيها قصد شخص يقال له : عمار بن يزيد ، ثم سمى بخدش ، إلى بلاد خراسان ودعا الناس إلى خلافة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاستجاب له خلق كثير ، فلما التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الحزمية الزنادقة ، وأباح لهم نساء بعضهم بعضا ، وزعم لهم أن محمد بن علي يقول ذلك ، وقد كذب عليه فأظهر الله عليه الدولة فأخذ فجىء به إلى خالد بن عبد الله القسري أمير العراق وخراسان ، فأمر به فقطعت يده وسل لسانه ثم صلب بعد ذلك . وفيها حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل أمير المدينة ، وقيل إن إمرة المدينة كانت مع خالد بن عبد الملك بن مروان ، والصحيح أنه كان قد عزل وولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل ، وكان أمير العراق القسري . وفيها كانت وفاة :

علي بن عبد الله بن عباس

ابن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو الحسن ، ويقال أبو محمد ، وأمه زرعة بنت مسرح بن معديكرب الكندي ، أحد الملوك الأربعة الأقبال المذكورين في الحديث الذي رواه أحمد ، وهم مسرح ، وحمل ، ومخولس ، وأبضعة : وأختهم العمرة وكان مولد علي هذا يوم قتل علي بن أبي

طالب ، فسماه أبوه باسمه ، وكناه بكنيته ، وقيل إنه ولد في حياة علي وهو الذي سماه وكناه ولقبه بأبي
الأملاك ، فلما وفد على عبد الملك بن مروان أجلسه معه على السرير وسأله عن اسمه وكنيته فأخبره
فقال له : ألك ولد ؟ قال : نعم ولدي ولد سميت محمداً ، فقال له : أنت أبو محمد ، وأجزل عطيتك .
وأحسن إليه . وقد كان علي هذا في غاية العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل والعدالة والثقة
كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة ، قال عمرو بن علي الفلاس : كان من خيار الناس ، وكانت وفاته
بالجهمية من أرض البلقاء في هذه السنة ، وقد قارب الثمانين . وقد ذكر ابن خلدان أنه تزوج لياحة
بنت عبد الله بن جعفر ، التي كانت تحت عبد الملك بن مروان ، فطلقها ، وكان سبب طلاقه إياها أنه
عض تفاحة ثم رمى بها إليها فأخذت السكين فحزت من التفاحة ماس فيه منها ، فقال : ولم تفعلين
هذا ؟ فقالت : أزيل الأذى عنها . وذلك لأن عبد الملك كان أبخر - فطلقها عبد الملك ، فلما تزوجها
علي بن عبد الله بن عباس هذا نعم عليه الوليد بن عبد الملك لأجل ذلك ، فضربه بالسياط ، وقال
إنما أردت أن تذبل بنيتها من الخلفاء ، وضربه مرة ثانية لأنه اشتهر عنه أنه قال : الخلافة صائرة إلى
بيته ، فوقع الأمر كذلك . وذكروا المبرد أنه دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابنه السفاح
والمصور وهما صغيران ، فأكرمه هشام وأدنى مجلسه ، وأطلق له مائة وثلاثين ألفاً ، وجعل علي بن
عبد الله يوصيه بابنيه خيراً ، ويقول : إنهما سيليان الأمر ، فجعل هشام يتمجب من سلامة باطنه
وينسبه في ذلك إلى الحق ، فوقع الأمر كما قال . قالوا : وقد كان علي في غاية الجمال وتمام القامة ، كان
بين الناس كأنه راكب ، وكان إلى منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس ،
وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب ، وقد يلعب كثير من الناس لابنه محمد بالخلافة قبل أن
يموت علي هذا قبل هذه السنة بسنوات ، ولكن لم يظهر أمره حتى مات فقام بالأمر من بعده ولده
عبد الله أبو العباس السفاح ، وكان ظهوره في سنة اثنتين وثلاثين كما سيأتي إن شاء الله تعالى
عمرو بن شعيب ، وعبادة بن نسي ، وأبو صخرة جامع بن شداد ، وأبو عياش المماقري .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

ففيها غزا الوليد بن القممقاع بلاد الروم . وفيها قتل أسد بن عبد الله القسري ملك الترك الأعظم
خاقان ، وكان سبب ذلك أن أسد بن عبد الله أمير خراسان عمل نيابة عن أخيه خالد بن عبد الله
على العراق ، ثم سار بجيوشه إلى مدينة ختل فافتتحها ، وتفرقت في أرضها جنوده يقتلون ويأسرون
ويغنمون ، فجاءت العيون إلى ملك الترك خاقان أن جيش أسد قد تفرق في بلاد ختل ، فاغتنم
خاقان هذه الفرصة فركب من فوره في جنوده قاصداً إلى أسد ، وتزود خاقان وأصحابه سلاحاً كثيراً ،
وقديداً وملحاً ، وساروا في حنق عظيم ، وجاء إلى أسد فأعلموه بقصد خاقان له في جيش عظيم

كثيف ، فتجهز لذلك وأخذ أهفته ، فأرسل من فوره إلى أطراف جيشه ، فلها وأشاع بعض الناس أن خاقان قد هجم على أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه ، ليحصل بذلك خذلان لأصحابه فلا يجتمعون إليه ، فردّ الله كيدهم في نحورهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الاسلام وازدادوا حنقا على عدوهم ، وعزموا على الأخذ بالنار ، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد ، فاذا هو حي قد اجتمعت عليه المساكر من كل جانب ، وصار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح ، وأراد أن يخوض نهر بلخ ، وكان معهم أغنام كثيرة ، فكره أسد أن يتركها وراء ظهره ، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة وعلى عنقه شاة ، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد ، وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر ، فما خلصوا منه جيداً حتى دهمهم خاقان من ورائهم في خيل دم ، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر و بعض الضعفة ، فلما وقفوا على حافة النهر أحجموا وظن المسلمون أنهم لا يقطعون إليهم النهر ، فتشاور الأتراك فيما بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحملوا حملة واحدة - وكانوا خمسين ألفاً - فيقتحمون النهر ، فضربوا بكؤوساتهم ضرباً شديداً حتى ظن المسلمون أنهم معهم في عسكرهم ، ثم رموا بأنفسهم في النهر رمية واحدة ، فجعلت خيولهم تنخر أشد النخير ، وخرجوا منه إلى ناحية المسلمين فثبت المسلمون في معسكرهم ، وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً لا يخلصون إليهم منه ، فبات الجيشان تترامى ناراهما ، فلما أصبحا مال خاقان على بعض الجيش الذي المسلمين قتل منهم خلقاً وأسراً مما وإبلا موقرة ، ثم إن الجيشين تواجها في يوم عيد الفطر حتى خاف جيش أسد أن لا يصلوا صلاة العيد ، فما صالوها إلا على وجل ، ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ ، حتى انقضى الشتاء ، فلما كان يوم عيد الأضحى خطب أسد الناس واستشارهم في الذهاب إلى مرو أو في لقاء خاقان ، أو في التحصن ببلخ . فمنهم من أشار بالتحصن ، ومنهم من أشار بلقائه والتوكل على الله ، فوافق ذلك رأى أسد الأسد ، فقصده بجيشه نحو خاقان ، وصلى بالناس ركعتين أطال فيهما ، ثم دعا بدعاء طويل ، ثم انصرف وهو يقول : نصرتم إن شاء الله ، ثم سار بمن معه من المسلمين فالتقت مقدمته بمقدمة خاقان ، فقتل المسلمون منهم خلقاً وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه ، ثم ساق أسد فأنهى إلى أغنامهم فاستنقها ، فاذا هي مائة ألف وخمسون ألف شاة ، ثم التقى معهم ، وكان خاقان إنما معه أربعة آلاف أو نحوها ، ومعه رجل من العرب قد خامر إليه ، يقال له الحارث بن شريح ، فهو يدلهم على عورات المسلمين ، فلما أقبل الناس هربت الأتراك في كل جانب ، وانهمزم خاقان ومعه الحارث ابن شريح بحميه ويتبعه ، فتبعهم أسد ، فلما كان عند الظهره انخذل خاقان في أربعائة من أصحابه ، عليهم الخبز ومعهم الكؤوسات ، فلما أدركه المسلمون أمر بالكؤوسات فضربت ضرباً شديداً ضرب الانصراف ثلاث مرات فلم يستطيعوا الانصراف ، فتقدم المسلمون فاحتاطوا على معسكرهم فاحتازوه

بما فيه من الأمتعة العظيمة ، والأواني من الذهب والفضة ، والدساء والصبيان ، من الأتراك ومن معهم من الأسارى من المسلمين وغيرهم ، مما لا يحمد ولا يوصف لكثرة وعظمه وقيمه وحسنه . غير أن خاقان لما أحس بالهلاك ضرب امرأته بخنجر فقتلها ، فوصل المسلمون إلى المسكروهي في آخر رمق تتحرك ، ووجدوا قدورهم تملئ باطمئنانهم ، وهرب خاقان بمن معه حتى دخل بعض المدن فتحصن بها ، فاتفق أنه لعب بالنرد مع بعض الأمراء فغلبه الأمير فتوعده خاقان بقطع اليد ، فحنق عليه ذلك الأمير ثم عمل على قتله فقتله ، وتفرقت الأتراك يمدو بعضهم على بعض ، وينهب بعضهم بعضا ، وبعث أسد إلى أخيه خالد يعلمه بما وقع من النصر والظفر بخاقان ، وبعث إليه بطبول خاقان وكانت كباراً لها أصوات كلرعد وبشيء كثير من حواصله وأمتعته ، فأوفدها خالد إلى أمير المؤمنين هشام ففرح بذلك فرحاً شديداً ، وأطلق للرسول أموالاً جزيلة كثيرة من بيت المال وقد قال بعض الشعراء في أسد مدحه على ذلك :-

لوسرت في الأرض تقيس الأرض * تقيس منها طولها والعرض
لم تلق خيراً إمرأة ونقضا * من الأمير أسد وأمضى
افضى إلينا الخير حتى افضا * وجمع الشمل وكان ارفضاً
ما فاته خاقان إلا ركضا * قد فض من جموعه ما فضا
يا ابن شريح قد لقيت حمضا * حمضاً به تشفى صداع المرضى

وفيها قتل خالد بن عبد الله القسري المغيرة بن سعيد وجماعة من أصحابه الذين تابوه على باطله ، وكان هذا الرجل ساحراً فاجراً شيعياً خبيثاً ، قال ابن جرير: ثنا ابن حميد ثنا جرير عن الأعمش قال: سمعت المغيرة بن سعيد يقول: لو أراد أن يحيي عاداً وثموداً وقرناً بين ذلك لأحييهم. قال الأعمش: وكان المغيرة هذا يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجرادة على القبور ، أو نحو هذا من الكلام . وذاكر ابن جرير له غير ذلك من الأشياء التي تدل على سحره وثجوره . ولما بلغ خالد أمره أمر بأحضارده فجئى به في ستة نفر أو سبعة نفر ، فأمر خالد فأبرز سريره إلى المسجد ، وأمر بأحضار أطباء القصب والنفط فصب فوقها ، وأمر المغيرة أن يحتضن طبناً منها ، فامتنع فضرب حتى احتضن منها طبناً واحداً وصب فوق رأسه النفط ، ثم أضرم بالنار . وكذلك فعل ببقية أصحابه .

وفي هذه السنة خرج رجل يقال له بهلول بن بشر ويلقب بكثارة ، واتبعه جماعات من الخوارج دون المائة ، وقصدوا قتل خالد القسري ، فبعث إليهم بالبعوث فكسروا الجيوش واستنحل أمرهم جداً لشجاعتهم وجلدهم ، وقلة نصيح من يقاثلهم من الجيوش ، فردوا العساكر من الألوف المؤلفة ، ذوات الأساحة والخيال المسومة ، هذا وهم لم يبلغوا المائة ، ثم إنهم راموا قدوم الشام لقتل الخليفة

هشام ، ففصدوا نحوها ، فاعترضهم جيش بأرض الجزيرة فاقتتلوا معهم قتالا عظيما ، فقتلوا عامة أصحاب بلول الخارجي . ثم إن رجلا من جديلة يكنى أبا الموت ضرب بهلولا ضربة فصرعه وتفرقت عنه بقية أصحابه ، وكانوا جميعهم سبعين رجلا ، وقد رثاهم بعض أصحابهم ^(١) فقال :-

بَدَلْتُ بَعْدَ أَبِي بَشْرٍ وَصُحْبَتِهِ * قَوْمًا عَلِيٍّ مَعَ الْأَحْزَابِ أَعْوَانَا
بَانُوا كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا مِنْ صَحَابَتِنَا * وَلَمْ يَكُونُوا لَنَا بِالْأَمْسِ خِلَانَا
يَا عَيْنُ أَذْرِي دُمُوعًا مِنْكَ تَهْتَانَا * وَابْكِي لَنَا صُحْبَةً بَانُوا وَجِيرَانَا
خَلَوْا لَنَا ظَاهِرَ الدُّنْيَا وَبَاطِنَهَا * وَأَصْبَحُوا فِي جَنَّاتِ الْخَلْدِ جِيرَانَا

ثم تجمع طائفة منهم أخرى على بعض أمرائهم فقاتلوا وقتلوا وقتلوا ، وجهزت إليهم العساكر من عند خالد القسري ، ولم يزل حتى أباد خضراءهم ولم يبق لهم باقية . وفيها غزا أسد القسري بلاد الترك ، فعرض عليه ملكهم طرخان خان ألف ألف فلم يقبل منه شيئا ، وأخذ قهرا فقتله صبرا بين يديه ، وأخذ مدينته وقلعته وحواصله ونساءه وأمواله . وفيها خرج الصحاري بن شبيب الخارجي واتبعه طائفة قليلة نحو من ثلاثين رجلا ، فبعث إليهم خالد القسري جندا فقتلوه وجميع أصحابه ، فلم يتركوا منهم رجلا واحدا . وحج بالناس في هذه السنة أبو شاذان مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وحج معه ابن شهاب الزهري ليعلمه مناسك الحج ، وكان أمير مكة والمدينة والطائف محمد بن هشام بن إسماعيل ، وأمير العراق والمشرق وخراسان خالد القسري ، ونائبه علي خراسان بكاملها أخوه أسد ابن عبد الله القسري ، وقد قيل إنه توفي في هذه السنة ، وقيل في سنة عشرين فله أعلم . ونائب أرمينية وأذربيجان مروان الحمار والله أعلم .

سنة عشرين ومائة من الهجرة

فيها غزا سليمان بن هشام بلاد الروم وافتتح فيها حصونا ، وفيها غزا إسحاق بن مسلم العقيلي تومان شاه ، وافتتحها وخرّب أراضيها . وفيها غزا مروان بن محمد بلاد الترك ، وفيها كانت وفاة أسد ابن عبد الله القسري أمير خراسان ، وكانت وفاته بسبب أنه كانت له دُبيلة في جوفه ، فلما كان مهرجان هذه السنة قدمت الدهاقين - وهم أمراء المدن الكبار - من سائر البلدان بالهدايا والتحف على أسد ، وكان فيمن قدم نائب هراة ودهقانها ، واسم دهقانها خراسان شاه ، فقدم بهدايا عظيمة وتحف عزيزة ، وكان من جملة ذلك قصر من ذهب ، وقصر من فضة ، وأباريق من ذهب ، وصحاف من ذهب وفضة ، وتفصيل من جرب تلك البلاد ألوان ملونة ، فوضع ذلك كله بين يدي أسد حتى امتلأ المجلس ، ثم قام الدهقان خطيبا فامتدح أسدا بخصال حسنة ، على عقله ورياسته وعدله ومنعه أهله وخاصته أن يظلموا أحدا من الرعايا بشيء قل أو كثير ، وأنه قهر الخان الأعظم ، وكان في مائة ألف

(١) هو الضحّاك بن قيس . أنظر الطبري (٢ : ١٦٢٧) طبع أوربا

فكسره وقتله ، وأنه يفرح بما يفد إليه من الأموال ، وهو بما خرج من يده أفرح وأشد سرورا ، فأننى عليه أسد وأجلسه ، ثم فرق أسد جميع تلك الهدايا والأموال وما هناك أجمع على الأمراء والأكابر بين يديه ، حتى لم يبق منه شيء ، ثم قام من مجلسه وهو عليل من تلك الدبيلة ، ثم أفاق إفاقة وجىء بهدية كثرى فجعل يفرقها على الحاضرين واحدة واحدة ، فالتقى إلى دهقان خراسان واحدة فانفجرت دبيلته وكان فيها حنظل ، واستخلف على عمله جعفر بن حنظلة البهراني ، فكث أميراً أربعة أشهر حتى جاء عهد نصر بن سيار في رجب منها ، فعلى هذا تكون وفاة أسد في صفر من هذه السنة ، وقد قال فيه ابن عرس العبدي يرثيه :

نعي أسد بن عبد الله ناعٍ * فربح القلبُ للملكِ المطاعِ
 يبلخ وافقُ المقدارُ يسرى * وما لقضاء ربك من دفاعِ
 فجودى عينُ بالعبراتِ سحاً * ألم يحزنك تفريقُ الجماعِ
 أناه حمامه في جوفِ ضيعٍ * وكم بالضيع من بطلٍ شجاعِ
 أناه حمامه في جوفِ صيغٍ * وكم بالصيغ من بطلٍ شجاعِ
 كئائبُ قد يجيبونُ المنادى * على جردٍ مسومةٍ سراعِ
 سقيت الغيثَ إنك كنتَ غيثاً * مريعاً عندَ مرئادِ النجاعِ

وفيها عزل هشام خالد بن عبد الله القسري عن نيابة العراق ، وذلك أنه انحصر منه لما كان يبلغه من إطلاق عبارة فيه ، وأنه كان يقول عنه ابن الحمقاء ، وكتب إليه كتابا فيه غلظة ، فرد عليه هشام رداً عنيفاً ، ويقال إنه حسده على سعة ما حصل له من الأموال والحواصل والغلات ، حتى قيل إنه كان دخله في كل سنة ثلاثة عشر ألف ألف دينار ، وقيل درهم ، ولولده يزيد بن خالد عشرة آلاف ألف ، وقيل إنه وفد إليه رجل من أزام أمير المؤمنين من قريش يقال له ابن عمرو ، فلم يرحب به ولم يعبا به ، فكتب إليه هشام يعنفه ويبكته على ذلك ، وأنه - حال وصول هذا الكتاب إليه يقوم من فورهِ من حوله من أهل مجلسه فينطلق على قدميه حتى يأتي باب ابن عمرو صاغراً ذليلاً مستأذناً عليه ، متنصلاً إليه مما وقع ، فإن أذن لك وإلا فقف على بابه حولا غير متحلل من مكانك ولا زائل ، ثم أمرك إليه إن شاء عزلك وإن شاء أبقاك ، وإن شاء انتصر ، وإن شاء عفا . وكتب إلى ابن عمرو يعلمه بما كتب إلى خالد ، وأمره إن وقف بين يديه أن يضربه عشرين سوطاً على رأسه ، إن رأى ذلك مصلحة . ثم إن هشاماً عزل خالداً وأخفى ذلك ، وبعث البريد إلى نائبه على اليمن وهو يوسف ابن عمر فولاه إمرة العراق ، وأمره بالمسير إليها والقدوم عليها في ثلاثين راكبا ، فقدموا الكوفة وقت السحر ، فدخلوها ، فلما أذن المؤذن أمره يوسف بالاقامة : فقال : إلى أن يأتي الأمام - يعني خالداً -

فأنهره وأمره بالاقامة وتقديم يوسف فصلى وقرأ [إذا وقعت الواقعة] و [سأل سائل] ثم انصرف
فبعث إلى خالد وطارق وأصحابهما ، فاحضروا فأخذ منهم أموالا كثيرة ، صادر خالداً بمائة ألف ألف
درهم ، وكانت ولاية خالد في شوال سنة خمس ومائة ، وعزل عنها في جمادى الأولى من هذه السنة
- أعني سنة عشرين ومائة - وفي هذا الشهر قدم يوسف بن عمر على ولاية العراق مكان خالد بن
عبد الله القسري ، واستناب على خراسان جديع بن علي الكرماني ، وعزل جعفر بن حنظلة الذي
كان استنابه أسد ، ثم إن يوسف بن عمر عزل جديعا في هذه السنة عن خراسان ، وولى عليها نصر
ابن سيار ، وذهب جميع ما كان اقتناه وحصله خالد من العقار والأموال وهلة واحدة ، وقد كان أشار
عليه بعض أصحابه لما بلغهم عتب هشام عليه أن يبعث إليه يعرض عليه بعض أملاكه ، فما أحب
منها أخذه وما شاء ترك ، وقالوا له : لأن يذهب البعض خير من أن يذهب الجميع مع العزل والاختراق
فامتنع من ذلك واغتر بالدنيا وعزت نفسه عليه أن يذل ، ففجأه العزل ، وذهب ما كان حصله وجمعه
ومنع ، واستقرت ولاية يوسف بن عمر على العراق وخراسان ، واستقرت نيابة نصر بن سيار على
خراسان ، فتمهدت البلاد وأمن العباد لله الحمد والمنة . وقد قال سوار بن الأشعري في ذلك :

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة * من ظلم كل غشوم الحكم جبار
لما أتى يوسف أخبارا مألقت * اختار نصراً لها نصر بن سيار

وفي هذه السنة استبطنت شيعة آل العباس كتاب محمد بن علي إليهم ، وقد كان عتب عليهم
في اتباعهم ذلك الزنديق الملقب بمخداش ، وكان خرميا ، وهو الذي أحل لهم المنكرات ودنس المحارم
والمصاهرات ، فقتله خالد القسري كما تقدم ، فعتب عليهم محمد بن علي في تصديقتهم له واتباعهم إياه على
الباطل ، فلما استبطنوا كتابه إليهم بعث إليهم رسولا يخبرهم أمره ، وبعثوا هم أيضا رسولا ، فلما جاء
رسولهم أخذه محمد بما ذا عتب عليهم بسبب الخرمي ، ثم أرسل مع الرسول كتابا مختوما ، فلما فتحوه
لم يجدوا فيه سوى : بسم الله الرحمن الرحيم ، تعلموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرمي . ثم أرسل
رسولا إليهم فلم يصدقوه كثير منهم وهو ابوه ، ثم جاءت من جهته عصي ملوياً عليها حديد ونحاس ،
فعلوا أن هذا إشارة لهم إلى أنهم عصاة ، وأنهم مختلفون كاختلاف ألوان النحاس والحديد . قال ابن
جرير : وحج بالناس فيها محمد بن هشام المخزومي فيما قاله أبو معشر ، قال : وقد قيل إن الذي حج
بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقيل ابنه يزيد بن هشام فله سبحانه وتعالى أعلم ،

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

ففيها غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح مطامير وهو حصن ، وافتتح مروان بن محمد بلاد صاحب
الذهب ، وأخذ قلاعته وخرّب أرضه ، فأذعن له بالجزية في كل سنة بألف رأس يؤديها إليه ، وأعطاه

رها علي ذلك . وفيها في صفر قتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الذي تنسب
 إليه الطائفة الزيدية ، في قول الواقدي ، وقال هشام السكابي : إنما قتل في صفر من سنة ثنتين
 وعشرين فإله أعلم . وقد ساق محمد بن جرير سبب مقتله في هذه السنة تبعاً للواقدي ، وهو أن زيدا
 هذا وفد علي يوسف بن عمر فسأله هل أودع خالد القسري عندك مالا ؟ فقال له زيد بن علي : كيف
 يودعني مالا وهو يشتم أبائي علي منبره في كل جمعة ؟ فأحلفه أنه ما أودع عنده شيئا ، فأمر يوسف بن
 عمر باحضار خالد من السجن فجيء به في عباءة ، فقال : أنت أودعت هذا شيئا نستخلصه منه ؟
 قال : لا ، وكيف وأنا أشتم أباه كل جمعة ؟ فتركه عمر وأعلم أمير المؤمنين بذلك فمعا عن ذلك ، ويقال
 بل استحضرهم فحلفوا بما حلفوا . ثم إن طائفة من الشيعة النفث علي زيد بن علي ، وكانوا نحواً من
 أربعين ألفاً ، فنهاه بعض النصحاء عن الخروج ، وهو محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ، وقال له :
 إن جسدك خير منك ، وقد النفث علي بيعته من أهل العراق ثمانون ألفاً ، ثم خاتوه أحوج ما كان
 إليهم ، وإني أحذرك من أهل العراق . فلم يقبل بل استمر يبائع الناس في الباطن في الكوفة ، علي
 كتاب الله وسنة رسوله حتى استفحل أمره بها في الباطن ، وهو يتحول من منزل إلى منزل ،
 وما زال كذلك حتى دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائة ، فكان فيها مقتله كما سنذكره قريباً . وفيها
 غزا نصر بن سيار أمير خراسان غزوات متعددة في الترك ، وأسر ملكهم كورصول في بعض
 تلك الحروب وهو لا يعرفه ، فلما تيقنه وتحققه ، سأل منه كورصول أن يطلقه علي أن يرسل له ألف
 بعير من إبل الترك . وهي البخاتي . وألف بردون ، وهو مع ذلك شيخ كبير جدا ، فشاور نصر من
 بحضرتة من الأمراء في ذلك ، ففهم من أشار باطلاقه ، ومنهم من أشار بقتله . ثم سأله نصر بن سيار
 كم غزوت من غزوة ؟ فقال : ثنتين وسبعين غزوة ، فقال له نصر : ما مثلك يطلق ، وقد شهدت
 هذا كله ، ثم أمر به فضربت عنقه وصلبه ، فلما بلغ ذلك جيشه من قتله باتوا تلك الليلة يجعرون
 ويبكون عليه ، وجذوا لحام وشعورهم وقطعوا آذانهم وحرقوا خياما كثيرة ، وقتلوا أنعاما كثيرة ،
 فلما أصبح أمر نصر باحراقه لئلا يأخذوا جثته ، فكان حريقه أشد عليهم من قتله ، وانصرفوا
 خائبين صاغرين خاسرين . ثم كر نصر علي بلادهم فقتل منهم خلقا وأسر أمما لا يحصون كثرة ،
 وكان فيمن حضر بين يديه عجوز كبيرة جدا من الأعاجم أو الأتراك ، وهي من بيت مملكة ،
 فقالت لنصر بن سيار : كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء فهو ليس بملك ، وزبر صادق يفصل
 خصومات الناس ويشاوره ويناصحه ، وطباخ يصنع له ما يشتهي ، وزوجة حسناء إذا دخل عليها
 مغما فنظر إليها سرته وذهب غمه ، وحصن منيع إذا فزع رعاياه لجأوا إليه فيه ، وضيف إذا قارع به
 الأقران لم يخش خيافته ، وذخيرة إذا حملها فابن ما وقع من الأرض عاش بها .

وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل نائب مكة والمدينة والطائف ، ونائب العراق يوسف بن عمر ، ونائب خراسان نصر بن سيار ، وعلى أرمينية مروان بن محمد .
ذكر من توفي فيها من الأعيان :

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

والمشهور أنه قتل في التي بعدها كما سيأتي بيانه إن شاء الله

مسلمة بن عبد الملك

ابن مروان القرشي الأموي ، أبو سعيد وأبو الأصبع الدمشقي ، قال ابن عساکر : وداره بدمشق في حجة القباب عند باب الجامع القبلي ، ولي الموسم أيام أخيه الوليد ، وغزا الروم غزوات وحاضر القسطنطينية ، وولاه أخوه يزيد إمرة المراقين ، ثم عزله وتولى أرمينية . وروى الحديث عن عمر بن عبد العزيز ، وعنه عبد الملك بن أبي عثمان ، وعبيد الله بن قزعة ، وعيينة والد سفيان بن عيينة وابن أبي عمير ، ومعاوية بن خديج ، ويحيى بن يحيى الفسائي .

قال الزبير بن بكار : كان مسلمة من رجال بني أمية ، وكان يلقب بالجرادة الصفراء ، وله آثار كثيرة ، وحروب ونكايه في العدو من الروم وغيرهم . قلت : وقد فتح حصونا كثيرة من بلاد الروم . ولما ولي أرمينية غزا الترك فباع باب الأبواب فهدم المدينة التي عنده ، ثم أعاد بناءها بعد تسع سنين . وفي سنة ثمان وتسعين غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصقالبة ، وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية . قال الأوزاعي : فأخذوه وهو يغازيهم صداع عظيم في رأسه ، فبعث ملك الروم اليه بقلنسوة وقال : ضعها على رأسك يذهب صداعك ، نخشى أن تكون مكيدة فوضعها على رأس بهيمة فلم ير إلا خيراً ، ثم وضعها على رأس بعض أصحابه فلم ير إلا خيراً ، فوضعها على رأسه فذهب صداعه ، ففتقها فاذا فيها سبعون سطرا هذه الآية [إن الله يمكس السموات والأرض أن تزولا] الآية مكررة لاغير ، رواه ابن عساکر .

وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة ، وجاع المسلمون عندها جوعاً شديداً ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أن لا يقطع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعاً ومنازة ، فوهبها إلى الآن يصلى فيه المسلمون الجمعة والجماعة ، قلت : وهي آخر ما يفتحه المسلمون قبل خروج الدجال في آخر الزمان ، كما منورده في الملاحم والفتن من كتابنا هذا إن شاء الله . ونذكر الأحاديث الواردة في ذلك هناك ، وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساعي مشكورة ، وغزوات متتالية مشهورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعاً ، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعاً ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد

في أيامه ، في كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه ، وشدة بأسه ، وجوده تصرفه في نقضه وإبرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة ، وقال يوماً لنصيب الشاعر : ساني ، قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان . فأعطاه ألف دينار . وقال أيضاً : الأنبياء [لا يتنابون] كما يتناب الناس ما ناب نبي قط [وقد أوصى بثلاث ماله لأهل الأدب ، وقال : إنها صنعة جحف أعلمها . وقال الوليد بن مسلم وغيره : توفي يوم الأربعاء لسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل في سنة عشرين ومائة ، وكانت وفاته بموضع يقال له الحانوت ، وقد رثاه بعضهم ، وهو ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتل :

أقول وما البعد إلا الردى * أمسلم لا تبعدن مسلة
فقد كنت نوراً لنا في البلاد * مضيناً فقد أصبحت مظلمة
ونكنتم موتك نخشى اليقين * فأبدي اليقين لنا الجمجة

نمير بن قيس

الأشعري قاضي دمشق ، تابعي جليل ، روى عن حذيفة مرسلًا وأبي موسى مرسلًا وأبي الدرداء وعن معاوية مرسلًا وغير واحد من التابعين ، وحدث عنه جماعة كثيرون ، منهم الأوزاعي وسعيد ابن عبد العزيز ويحيى بن الحارث الذماری . ولاد هشام بن عبد الملك القضاء بدمشق بعد عبد الرحمن ابن الخشخاش العذري ، ثم استعفى هشاماً فعفاد وولى مكانه يزيد بن عبد الرحمن بن أبي ملك . وكان نمير هذا لا يحكم باليمين مع الشاهد ، وكان يقول : الأدب من الآباء ، والصلاح من الله . قال غير واحد : توفي سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل سنة ثنتين وعشرين ومائة ، وقيل سنة خمس عشرة ومائة ، وهو غريب والله سبحانه أعلم

ثم دخلت سنة ثنين وعشرين ومائة

ففيها كان مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة ، أمرهم في أول هذه السنة بالخرج والتأهب له ، فشرعوا في أخذ الأهبة لذلك . فانطلق رجل يقال له سليمان بن سراقه إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره - وهو بالحيرة يومئذ - خبر زيد بن علي هذا ومن معه من أهل الكوفة ، فبعث يوسف بن عمر يتطلبه ويلح في طلبه ، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له : ما قولك برحمتك الله في أبي بكر وعمر ؟ فقال : غفر الله لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما ، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً ، قالوا : فلم تطلب إذا بدم أهل البيت ؟ فقال : إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر ، ولكن القوم ساءتروا علينا به ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرة ، قد ولوا فعدلوا ، وعملوا بالكتاب

والسنة . قالوا : فلم تقاتل هؤلاء إذا ؟ قال : إن هؤلاء ليسوا كأولئك ، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم ، وإني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه (ص) ، وإحياء السنن وإماتة البدع ، فان تسمعوا يكن خيراً لكم ولي ، وإن تابوا فليست عليكم بوكيل . فرفضوه وانصرفوا عنه وتقصوا بيعته وتركوه ، فلهذا سموا الرافضة من يومئذ ، ومن تابعه من الناس على قوله سموا الزيدية ، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة ، وغالب أهل مكة إلى اليوم على مذهب الزيدية ، وفي مذهبهم حق ، وهو تعديل الشيخين ، وباطل وهو اعتقاد تقديم علي عليهما ، وإيس علي مقدما عليهما ، بل ولا عثمان على أصح قولي أهل السنة الثابتة ، والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة ، وقد ذكرنا ذلك في سيرة أبي بكر وعمر فيما تقدم . ثم إن زيدا عزم على الخروج بمن بقي معه من أصحابه ، فواعدهم ليلة الأربعاء من مستهل صفر من هذه السنة . فبلغ ذلك يوسف بن عمر ، فكتب إلى نائبه على الكوفة وهو الحكم بن الصلت يأمره بجمع الناس كلهم في المسجد الجامع ، فجمع الناس لذلك في يوم الثلاثاء سلمخ المحرم ، قبل خروج زيد بيوم ، وخرج زيد ليلة الأربعاء في برد شديد ، ورفع أصحابه النيران ، وجعلوا ينادون يا منصور يا منصور ، فلما طلع الفجر إذا قد اجتمع معه مائتان وثمانية عشر رجلاً ، فجعل زيد يقول : سبحان الله ! أين الناس ؟ فقيل : هم في المسجد محصورون . وكتب الحكم إلى يوسف يعلمه بخروج زيد بن علي ، فبعث إليه سرية إلى الكوفة ، وركبت الجيوش مع نائب الكوفة ، وجاء يوسف بن عمر أيضاً في طائفة كبيرة من الناس ، فالتقى بمن معه جرثومة منهم فبين خمسمائة فارس ، ثم أتى الكناسة فحمل علي جمع من أهل الشام فهزمهم ، ثم اجتاز بيوسف بن عمر وهو واقف فوق تل ، وزيد في مائتي فارس ولو قصد يوسف بن عمر لقتله ، ولكن أخذ ذات اليمين ، وكلما لقي طائفة هزمهم ، وجعل أصحابه ينادون : يا أهل الكوفة اخرجوا إلى الدين والعز والدنيا ، فانكم لستم في دين ولا عز ولا دنيا ، ثم لما أمسوا انضاف إليه جماعة من أهل الكوفة ، وقد قتل بعض أصحابه في أول يوم ، فلما كان اليوم الثاني اقتتل هو وطائفة من أهل الشام فقتل منهم سبعين رجلاً ، وانصرفوا عنه بشر حال ، وأمسوا فعبأ يوسف بن عمر جيشه جداً ، ثم أصبحوا فالتقوا مع زيد فكشفهم حتى أخرجهم إلى السبخة ، ثم شد عليهم حتى أخرجهم إلى بني سليم ، ثم تبعهم في خيله ورجله حتى أخذوا على الساء ، ثم اقتتلوا هناك قتالاً شديداً جداً ، حتى كان جنح الليل رمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى ، فوصل إلى دماغه ، فرجع ورجع أصحابه ، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا لأجل المساء والليل ، وأدخل زيد في دار في سكة البريد ، ووجى بطبيب فانتزع ذلك السهم من جبهته ، فما عدا أن انتزعه حتى مات من ساعته رحمه الله .

فاختلف أصحابه أين يدفونه ، فقال بعضهم : ألبسوه درعه وألقوه في الماء ، وقال بعضهم :

احتزوا رأسه وأتركوا جسده في القنلى ، فقال ابنه : لا والله لا تأكل أبى الكلاب . وقال بعضهم :
 ادفنوه في العباسية ، وقال بعضهم : ادفنوه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين ، ففعلوا ذلك وأجرى على
 قبره الماء لئلا يعرف ، وانفعل أصحابه حيث لم يبق لهم رأس يقاتلون به ، فما أصبح الفجر ولحم قائمه
 ينهضون بها ، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى على يد ريدا بينهم ، وجاء مولى يزيد سندی قد شهد
 دفنه فدل على قبره فأخذ من قبره ، فأمر يوسف بن عمر بصلبه على خشبة بالكناسة ، ومعه نصر بن
 خزاعة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري ، وزيد النهدي ، ويقال إن زيدا مكث
 مصلوبا أربع سنين ، ثم أنزل بعد ذلك وأحرق فإله أعلم . وقد ذكر أبو جعفر ابن جرير الطبري
 أن يوسف بن عمر لم يعلم بشئ من ذلك حتى كتب له هشام بن عبد الملك : إلك لغانل ، وإن زيد
 ابن علي غارز ذنبه بالكوفة يبايع له ، فألح في طلبه وأعطاه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله ، فنطلبه
 يوسف حتى كان من أمره ماتقدم ، فلما ظهر على قبره حزر رأسه وبمته إلى هشام ، وقام من بعده الوليد
 ابن يزيد فأمر به فأنزل وحرق في أيامه قبح الله الوليد بن يزيد . فأما ابنه يحيى بن زيد بن علي فاستجار
 بعبد الملك بن بشر بن مروان ، فبعث إليه يوسف بن عمر يتهدده حتى يحضره ، فقال له عبد الملك
 ابن بشر : ما كنت لأوى مثل هذا الرجل وهو عدونا وابن عدونا . فصدقه يوسف بن عمر في
 ذلك ، ولما هدا الطلب عنه سيره إلى خراسان فخرج يحيى بن زيد في جماعة من الزيدية إلى خراسان
 فأقاموا بها هذه المدة .

قال أبو مخنف : ولما قتل زيد خطب يوسف بن عمر أهل الكوفة فتهددهم وتوعدهم وشتهم وقال
 لهم فيما قال : والله لقد استأذنت أمير المؤمنين في قتل خلق منكم ، ولو أذن لي لقتلت مقاتلتكم
 وسبيت ذراريتكم ، وما صعدت لهذا المنبر إلا لأسممكم ما تكرهون .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل عبد الله البطل في جماعة من المسلمين بأرض الروم ، ولم
 يزد ابن جرير على هذا ، وقد ذكر هذا الرجل الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير فقال :

عبدالله ابو يحيى المعروف بالبطل

كان ينزل إنطاكية ، حكى عنه أبو مروان الأنطاكي ، ثم روى بأسناده أن عبد الملك بن
 مروان حين عقد لابنه مسلمة على غزو بلاد الروم ، ولي على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطل ،
 وقال لابنه : سيره على طلائعك ، وأمره فليمس بالليل العسكر ، فانه أمين ثقة مقدم شجاع . وخرج
 معهم عبد الملك يشيهم إلى باب دمشق . قال : فقدم مسلمة البطل على عشرة آلاف يكونون بين
 يديه ترما من الروم أن يصلوا إلى جيش المسلمين . قال محمد بن عائذ الدمشقي : ثنا الوليد بن مسلمة
 حدثني أبو مروان - شيخ من أهل إنطاكية - قال : كنت أغازي مع البطل وقد أوطأ الروم ذلا .

قال البطال فسألني بهض ولاية بني أمية عن أعجب ما كان من أمرى في مغازى فيهم ، فقلت له : خرجت في سرية ليلا فدفننا إلى قرية فقلت لأصحابي : ارجوا لجم خيلكم ولا تحركوا أحداً بقتل ولا بشيء حتى تستمكنوا من القرية ومن سكانها ، ففعلوا وافترقوا في أزقتها ، فدفعت في أناس من أصحابي إلى بيت يزهر سراجة ، وإذا امرأة تسكت ابنها من بكائه ، وهي تقول له : لتسكتن أو لأدفعنك إلى البطال يذهب بك ، وانتقلته من سريره وقالت : خذها يا بطل ، قال : فأخذته .

وروى محمد بن عائد عن الوليد بن مسلم عن أبي مروان الأنطاكي عن البطال قال : انفردت مرة ليس معي أحد من الجنود ، وقد سمعت خلفي مخللة فيها شمير ، ومعى منديل فيه خبز وشواء ، فبينما أنا أسير لعلى ألقى أحداً منفرداً ، أو أطلع على خبر ، إذا أنا ببستان فيه بقول حسنة ، فنزلت وأكأت من ذلك البقل بالخبز والشواء مع النقل ، فأخذني إسهال عظيم فمت منه مراراً ، فنفخت أن أضعف من كثرة الإسهال ، فركبت فرسى والإسهال مستمر على حاله ، وجعلت أخشى إن أنا نزلت عن فرسى أن أضعف عن الركوب ، وأفرط بي الإسهال في السير حتى خشيت أن أسقط من الضعف ، فأخذت بعنان الفرس ونحيت على وجهي لا أدري أين يسير الفرس بي ، فلم أشعر إلا بقرع نعاله على بلاط ، فأرفع رأسي فإذا دير ، وإذا قد خرج منه نسوة صحبة امرأة حسناء جميلة جداً ، فجعلت تقول بلسانها : أنزانه ، فأنزلتني فغسلن عني ثيابي ومرجبي وفرسي ، ووضعنني على سربر وعملن لي طعاماً وشرباً ، فمكثت يوماً وليلة مستويًا ، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى ترد إلى حالي ، فبينما أنا كذلك إذ أقبل البطريق وهو يريد أن يتزوجها ، فأمرت بفرسي فحول وعلق على الباب الذي أنا فيه ، وإذا هو بطريق كبير فيهم ، وهو إنما جاء لخطبتها ، فأخبره من كان هنالك بأن هذا البيت فيه رجل وله فرس ، فهم بالم هجوم على فمته المرأة من ذلك ، وأرسلت تقول له : إن فتح عليه الباب لم أقض حاجته ، فثناه ذلك عن الهجوم على ، وأقام البطريق إلى آخر النهار في ضيافتهم ، ثم ركب فرسه وركب معه أصحابه وانطلق . قال البطال : فهضت في أثرهم فهمت أن تمنعني خوفاً على منهم فلم أقبل ، وسقت حتى لحقتهم ، فحملت عليه فانفرج عنه أصحابه ، وأراد الفرار فألحقه فأضرب عنقه واستلبته وأخذت رأسه مسطاً على فرسي ، ورجعت إلى الدير ، فخرجت إلى ووقفن بين يدي ، فقلت : اركبن ، فركبن ما هنالك من الدواب وسقت بهن حتى أتيت أمير الجيش فدفعتن إليه ، فنقلني ماشئت منهن ، فأخذت تلك المرأة الحسنة بعينها ، فهي أم أولادي . والبطريق في لغة الروم عبارة عن الأمير الكبير فيهم ، وكان أبوها بطريقاً كبيراً فيهم - يعني تلك المرأة - وكان البطال بعد ذلك يكتب أباهاً ويهاديه .

وذكر أن عبد الملك بن مروان لما ولاء المصيصة بمث البطال سرية إلى أرض الروم ، فغاب عنه خبرها فلم يدرك ما صنعوا ، فركب بنفسه وحده على فرس له وسار حتى وصل عمورية ، فطرق بابها ليلا

فقال له البواب : من هذا ؟ قال البطال : فقلت أنا سياف الملك ورسوله إلى البطريق ، فأخذني طريقاً إليه ، فلما دخلت عليه إذا هو جالس على سرير فجلست معه وعلى السرير إلى جانبه ، ثم قلت له : إني قد جئت في رسالة فر هؤلاء ، فليصرفوا ، فأمر من عنده فذهبوا ، قال : ثم قام فأغلق باب الكنيسة على وعليه ، ثم جاء فجلس مكانه ، فاخترط سيفي وضربت به رأسه صنحاً وقلت له : أنا البطال فأصدقني عن السرية التي أرسلتها إلى بلادك وإلا ضربت عنقك الساعة ، فأخبرني ما خبرها . فقال : هم في بلاد يتهبون ماتمياً لهم ، وهذا كتاب قد جاءني يخبر أنهم في وادي كذا وكذا ، والله لقد صدقتك . فقلت : هات الأمان ، فأعطاني الأمان ، فقلت : إيتني بطعام ، فأمر أصحابه فجاؤا بطعام فوضع لي ، فأكلت فقلت لا تصرف فقال لأصحابه : اخرجوا بين يدي رسول الملك ، فانطلقوا يتعادون بين يدي ، وانطلقت إلى ذلك الوادي الذي ذكر فإذا أصحابي هنالك ، فأخذتهم ورجعت إلى المصيصة . فهذا أغرب ماجري

قال الوليد : وأخبرني بعض شيوخنا أنه رأى البطال وهو قافل من حجته ، وكان قد شغل بالجهاد عن الحج ، وكان يسأل الله دائماً الحج ثم الشهادة ، فلم يتمكن من حجة الاسلام إلا في السنة التي استشهد فيها رحمه الله تعالى ، وكان سبب شهادته أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس ، فبعث البطريق - الذي البطال متزوج بابنته التي ذكرنا أمرها - إلى البطال يخبره بذلك ، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك ، وكان الأمير مالك بن شبيب ، وقال له : المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران ، فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الاسلامية ، فأبى عليه ذلك ودهمهم الجيش ، فاقبلوا قتالاً شديداً والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفاً عليه من الروم ، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلظاً منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة ، فاقتلوه من سرجه برأحهم فالتوه إلى الأرض ، ورأى الناس يقتلون ويأسرون ، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب ، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها ، وأصبح اليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال باخر رمق فقال له ليون : ما هذا يا أبا يحيى ؟ فقال : هكذا تقتل الأبطال ، فاستدعى ليون بالأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله ، فقال له ليون : هل من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، فأمر من معك من المسلمين أن يلوا غسلهم والصلاة على ودفني ، ففعل الملك ذلك وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى ، وانطلق ليون إلى جيش المسلمين الذين تحصنوا فحاصرهم ، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البرد بقدم سليمان بن هشام في الجيوش الاسلامية ، ففر ليون في جيشه الخبيث هاربا راجعا إلى بلاده ، قبضه الله ، فدخل القسطنطينية وتمحصن بها .

قال خليفة بن خياط : كانت وفاة البطال ومقتله بأرض الروم في سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقال ابن جرير : في سنة ثنتين وعشرين ومائة ، وقال ابن حبان الزبدي : قتل في سنة ثلاث عشرة ومائة ، قيل وقد قاله غيره ، وإنه قتل هو والأمر عبد الوهاب بن بخت في سنة ثلاث عشرة ومائة كما ذكرنا ذلك فله أعلم ، ولكن ابن جرير لم يورخ وفاته إلا في هذه السنة فله أعلم .

قلت : فهذا ما يخص ابن عساكر في ترجمة البطال مع تفصيله للاخبار واطلاعه عليها ، وأما ما يذكره العمامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلمة والبطال والأمر عبد الوهاب والقاضي عقبة ، في كذب واقتراء ووضع بارد ، وجهل وتخبط فاحش ، لا يروج ذلك إلا على غبي أو جاهل ردي . كما يروج عليهم سيرة عنزة العيسى المكنة ، وكذلك سيرة البكري والذنف وغير ذلك ، والكذب المقتل في سيرة البكري أشد إنما وأعظم جرماً من غيرها ، لأن واضعها يدخل في قول النبي (ص) : « من كذب على متعمداً فليتبوأ عقده من النار » . ومن توفي في هذه السنة من الأعيان :

أياس الذكي

وهو أياس بن معاوية بن مرة بن أياس بن هلال بن رباب بن عبيد بن دريد بن أوس بن سواه ابن عمرو بن سارية بن ثعلبة بن ذبيان بن ثعلبة بن أوس بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، هكذا نسبه خليفة بن خياط ، وقيل غير ذلك في نسبه ، وهو أبو وائلة المزني قاضي البصرة ، وهو تابعي ولجده صحبة ، وكان يضرب المثل بذكائه ، روى عن أبيه عن جده مرفوعاً في الحياء عن أنس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ونافع وأبي مجلز ، وعنه الحمادان وشعبة والأصمعي وغيرهم . قال عنه محمد بن سيرين : إنه لفهم إنه لفهم ، وقال محمد بن سعد والعملي وابن معين والنسائي : ثقة . زاد ابن سعد وكان عاقلاً من الرجال فطنا ، وزاد العملي وكان فقيراً غنياً . وقدم دمشق في أيام عبد الملك بن مروان ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، ومرة أخرى حين عزله عدي بن أرطاة عن قضاء البصرة . قال أبو عبيدة وغيره : نحاكم أياس وهو صبي شاب وشيخ إلى قاضي عبد الملك بن مروان بدمشق ، فقال له القاضي : إنه شيخ وأنت شاب فلا تسأله في الكلام ، فقال أياس : إن كان كبيراً فالحق أكبر منه ، فقال له القاضي : اسكت ، فقال : ومن ينسلكم بمحجتي إذا سكنت ؟ فقال القاضي : ما أحسبك تنطق بحق في مجلسي هذا حتى تقوم ، فقال أياس : أشهد أن لا إله إلا الله ، زاد غيره فقال القاضي : ما أظنك إلا ظالماً له ، فقال : ما على ظن القاضي خرجت من منزلي . فقام القاضي فدخل على عبد الملك فأخبره خبره فقال : اقض حاجته واخرجه الساعة من دمشق لا يفسد على الناس .

وقال بعضهم : لما عزله عدي بن أرطاة عن قضاء البصرة فرّم منه إلى عمر بن عبد العزيز فوجده

قدمت ، فكان يجلس في حلقة في جامع دمشق ، فنكلم رجل من بني أمية فرد عليه إياس ، فأغلظ له الأموي فقام إياس ، فقيل للأموي : هذا إياس بن معاوية المزني ، فلما عاد من الغد اعتذر له الأموي وقال : لم أعرفك ، وقد جلست إلينا بذياب السوق وكلمتنا بكلام الاشراف فلم نحتمل ذلك .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا نعيم بن حماد ثنا ضمرة عن أبي شوذب قال : كان يقال يولد في كل مائة سنة رجل تام العقل ، فكانوا يرون أن إياس بن معاوية منهم . وقال العجلي : دخل على إياس ثلاث نسوة فلما رآهن قال : أما إحداهن فمرضع ، والأخرى بكر ، والأخرى ثيب ، فقيل له بم علمت هذا ؟ فقال : أما المرضع فكلمنا فعدت أمسكت ثديها بيدها ، وأما البكر فكلمنا دخلت لم تلتفت إلى أحد ، وأما الثيب فكلمنا دخلت نظرت ودمت بعينها . وقال يونس بن صعلب (۱) :

ثنا الأحنف بن حكيم بأصبهان ثنا حماد بن سلمة سمعت إياس بن معاوية يقول : أعرف الليلة التي ولدت فيها ، وضعت أمي على رأسي جفنة . وقال المدائني قال إياس بن معاوية لأمه : ماشي سمعته وأنت حامل بي وله جلبه شديدة ؟ قالت : ذاك طست من نحاس سقط من فوق الدار إلى أسفل ، ففرغت فوضعتك تلك الساعة . وقال أبو بكر الخرائطي عن عمر بن شيبه النميري قال : بلغني أن إياساً قال : ما يسرني أن أكنب كذبة يطلع عليها أبي معاوية . وقال : ما خاصمت أحداً من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية ، قلت لهم أخبروني عن الظالم ما هو ؟ قالوا : أخذ الانسان ماله ، قلت : فان الله له كل شيء . قال بعضهم عن إياس قال : كنت في الكتاب وأنا صبي فجعل أولاد النعماري يضحكون من المسلمين ويقولون : إنهم يزعمون أنه لا فضلة لطعام أهل الجنة ، فقلت للفقير - وكان نصرانياً - : ألسنت تزعم أن في الطعام ما ينصرف في غذاء البدن ؟ قال : بلى ، قلت فما ينكر أن يجعل الله طعام أهل الجنة كغذاء لأبدانهم ؟ فقال له فعمله : ما أنت إلا شيطان .

وهذا الذي قاله إياس وهو صغير بعقله قد ورد به الحديث الصحيح كما سند كره إن شاء الله في أهل الجنة أن طعامهم ينصرف جشاه وعرقاً كماك ، فاذا البطن ضامر . وقال سفيان : وحين قدم إياس واسط فجاهه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها ، فقال له : أتأذن لي أن أسألك ؟ قال : سل وقد ارتبت حين استأذنت ، فسأله عن سببين مسألة يجيبه فيها ، ولم يختلفا إلا في أربع مسائل ، رده إياس إلى قوله ، ثم قال له إياس : أتقرأ القرآن ؟ قال : نعم ! قال أتحمض قوله [اليوم أكملت لكم دينكم] ؟ قال : نعم ! قال : وما قبلها وما بعدها ؟ قال : نعم ! قال : فهل أبقيت هذه الآية لآل شبرمة رأياً ؟

وقال عباس بن يحيى بن معين : حدثنا سعيد بن عامر بن عمر بن علي قال قال رجل لإياس ابن معاوية : يا أبا وائله حتى متى يبقى الناس ؟ وحتى متى يتوالد الناس ويموتون ؟ فقال لجلسائه : أجيوبه فلم يكن عندهم جواب ، فقال إياس : حتى تتكامل المعدتان ، عدة أهل الجنة ، وعدة أهل النار .

(۱) كذا . ولم نجد له ترجمة

وقال بعضهم: أكثرى إياس بن معاوية من الشام قاصدا الحج، فركب معه في المحارة غيلان القدرى، ولا يعرف أحدهما صاحبه، فمكنا ثلاثا لا يكلم أحدهما الآخر، فلما كان بعد ثلاث نحادنا فتعارفا وتمعجب كل واحد منهما من اجتماعه مع صاحبه، لمباينة ما بينهما في الاعتقاد في القدر، فقال له إياس: هؤلاء أهل الجنة يقولون حين يدخلون الجنة: [الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله] ويقول أهل النار [ربنا غلبت علينا شقوتنا] وتقول الملائكة [سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا] ثم ذكر له من أشعار العرب وأمثال العجم ما فيه إثبات القدر ثم اجتمع مرة أخرى إياس وغيلان عند عمر بن عبد العزيز فناظر بينهما فقهره إياس، وما زال يحصره في الكلام حتى اعترف غيلان بالمعجز وأظهر التوبة، فدعا عليه عمر بن عبد العزيز إن كان كاذبا، فاستجاب الله منه فأمكن من غيلان فقتل وصلب بعد ذلك والله الحمد والمنة.

ومن كلام إياس الحسن: لأن يكون في فعال الرجل فضل عن مقاله خير من أن يكون في مقاله فضل عن فعاله. وقال سفيان بن حسين: ذكرت رجلا بسوء عند إياس بن معاوية فنظر في وجهي وقال: أغزوت الروم؟ قلت: لا! قال: السندي والهندي والتركي؟ قلت: لا. قال: أفسلم منك الروم والسندي والهندي والتركي ولم يسلم منك أخوك المسلم؟ قال: فلم أعد بعدها. وقال الأصمعي عن أبيه: رأيت إياس بن معاوية في بيت ثابت البناني، وإذا هو أحمر طويل الذراع غليظ الثياب، يلون عمامته، وهو قد غاب على الكلام فلا يتكلم معه أحد إلا علاه، وقد قال له بعضهم: ليس فيك عيب سوى كثرة كلامك، فقال: بحق أتتك أم يبازل؟ فقيل بل بحق، فقال: كلما كثر الحق فهو خير، ولامه بعضهم في لباسه الثياب الغليظة فقال: إنما ألبس ثوبا يخدمني ولا ألبس ثوبا أخدمه، وقال الأصمعي قال إياس بن معاوية: إن أشرف خصال الرجل صدق اللسان، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فجع بأكرم أخلاقه. وقال بعضهم: سأل رجل إياسا عن النبيذ فقال: هو حرام، فقال الرجل: فأخبرني عن الماء فقال: حلال، قال: فالكسور، قال: حلال، قال فالتمر قال حلال، قال فما باله إذا اجتمع حرم؟ فقال إياس: رأيت لورميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحفنة من الزين؟ قال لا توجعني، قال: فهذه العرقة من الماء؟ قال لا توجعني شيئا، قال: أفرايت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طينا ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك أتوجعك؟ قال: إياي والله وتقتلني، قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت. وقال المدائني: بعث عمر بن عبد العزيز عدي ابن أرطاة على البصرة نائبا وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجوشني، فأيهما كان أفضقه فليوله القضاء، فقال إياس وهو يريد أن لا يتولى: أيها الرجل سل فقهي البصرة، الحسن وابن سيرين، وكان إياس لا يأتيهما، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به - يعني بالقاسم - لأنه كان

يأتيهما ، فقال القاسم لعدي : والله الذي لا إله إلا هو إن إياساً أفضل مني وأفقه مني ، وأعلم بالقضاء ، فإن كنت صادقاً فوله ، وإن كنت كاذباً فما ينبغي أن تولى كاذباً القضاء . فقال إياس : هذا رجل أوقف على شفير جهنم فافتدى منها بيمين كاذبة يستغفر الله ، فقال عدي : أما إذ فطنت إلى هذا فقد وليتك القضاء . فكث سنة يفصل بين الناس ويصلح بينهم ، وإذا تبين له الحق حكم به ، ثم هرب إلى عمر بن عبد العزيز بدمشق فاستغفاه القضاء ، فولى عدي بعده الحسن البصري .

قالوا : لما تولى إياس القضاء بالبصرة فرح به العلماء حتى قال أيوب : لقد رموها بحجرها ، وجاءه الحسن وابن سيرين فسما عليه ، فبكى إياس وذكر الحديث « القضاء ثلاثة ، قاضيان في النار وواحد في الجنة » . فقال الحسن [وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث] إلى قوله [وكلا آتينا حكماً علماً] قالوا : ثم جاس للناس في المسجد واجتمع عليه الناس للخصومات ، فما قام حتى فصل سبعين قضية ، حتى كان يشبه بشرح القاضي . وروى أنه كان إذا أشكل عليه شيء بعث إلى محمد بن سيرين فسأله منه . وقال إياس : إني لا أكرم الناس بنصف عقلي ، فاذا اختصم إلي اثنان جمعت لهما عقلي كله . وقال له رجل : إنك لتعجب برأيك ، فقال : لو لا ذلك لم أفض به ، وقال له آخر : إن فيك خصالاً لا تهجيني ، فقال : ما هي ؟ فقال : تحمق قبل أن تفهم ، ولا تجالس كل أحد ، وتلبس الثياب الغليظة . فقال له : أيها أكثر الثلاثة أو الاثنان ؟ قال : الثلاثة . فقال : ما أسرع ما فهمت وأجبت ، فقال أو يجمل هذا أحد ؟ فقال : وكذلك ما أحكم أنا به ، وأما مجالستي لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لي قدرى أحب إلي من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدرى ، وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا . قالوا ، وتحمق إليهما اثنان فادعى أحدهما عند الآخر مالا ، وجعله الآخر ، فقال إياس للودع : أين أودعته ؟ قال : عند شجرة في بستان . فقال : انطلق إليها فقف عندها لعلك تتذكر ، وفي رواية أنه قال له : هن تستطيع أن تذهب إليها فتأني بورق منها ؟ قال : نعم . قال فانطلق ، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه ، ثم استدعاه فقال له : أوصل صاحبك بعد إلى المكان ؟ فقال : لا بعد أصلحك الله . فقال له : قم يا عدو الله فاد إليه حقه ، وإلا جعلتك نكالا . وجاء ذلك الرجل فقام معه فدفن إليه وديته بكاملها . وجاء آخر فقال له : إني أودعت عند فلان مالا وقد جحدني ، فقال له : اذهب الآن وائتني غدا ، وبعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحد فقال له : إنه قد اجتمع عندنا ههنا مال فلم نر له أميناً نضعه عنده إلا أنت ، فضعه عندك في مكان حرير . فقال له ممما وطاعة ، فقال له اذهب الآن وائتني غدا ، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء فقال له : اذهب الآن إليه فقل له اعطني حقي وإلا رفعتك إلى القاضي ، فقال له ذلك فخاف أن لا يودع إذا سمع الحاكم خبره ، فدفن إليه ماله بكامله ، فجاء إلى

إياس فأعلمه ، ثم جاء ذلك الرجل من الغد رجاء أن يودع فانتهره إياس وطرده وقال له : أنت خان .
وتحاجم إليه اثنان في جارية فادعى المشتري أنها ضعيفة العقل ، فقال لها إياس : أي رجلك أطول ؟
فقلت : هذه . فقال لها : أتذكرين ليلة ولدتِ ؟ فقلت نعم . فقال للبائع رد رد .
وروى ابن عساكر أن إياس سمع صوت امرأة من بينها فقال : هذه امرأة حامل بصبي ، فلما
ولدت ولدت كما قال ، فسئل بم عرفت ذلك ؟ قال : سمعت صوتها ونفسها معه فعلمت أنها حامل ، وفي
صوتها ضحيل فعلمت أنه غلام . قالوا ثم مر يوماً بيهض المكاتب فاذا صبي هنالك فقال : إن كنت
أدرى شيئاً فهذا الصبي ابن تلك المرأة ، فاذا هو ابنها . وقال مالك عن الزهري عن أبي بكر قال شهد
رجل عند إياس فقال له : ما اسمك ؟ فقال أبو العنفر فلم يقبل شهادته . وقال الثوري عن الأعمش :
دعوني إلى إياس فاذا رجل كلما فرغ من حديث أخذ في آخر . وقال إياس : كل رجل لا يعرف عيب
نفسه فهو أحمق ، فقيل له : ما عيبك ؟ فقال كثرة الكلام . قالوا : ولما ماتت أمه بكى عليها فقيل له
في ذلك فقال : كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة فغلق أحدهما . وقال له أبوه : إن الناس يلدون أبناء
وولدت أنا أباً . وكان أصحابه يجاسون حوله ويكتبون عنه الفراسة ، فبينما هم حوله جلوس إذ نظر إلى
رجل قد جاء فجلس على دكة حانوت ، وجعل كلما مر أحد ينظر إليه ، ثم قام فنظر في وجه رجل ثم
عاد ، فقال لأصحابه : هذا فقيه كتاب قد أبق له غلام أعور فهو يتطلبه ، فقاموا إلى ذلك الرجل
فسألوه فوجدوه كما قال إياس ، فقالوا لإياس : من أين عرفت ذلك ؟ فقال : لما جلس على دكة الحانوت
علمت أنه ذو ولاية ، ثم نظرت فاذا هو لا يصلح إلا لفقهاء المكتب ، ثم جعل ينظر إلى كل من مر به
فعرفت أنه قد فقد غلاماً ، ثم لما قام فنظر إلى وجه ذلك الرجل من الجانب الآخر ، عرفت أن
غلامه أعور . وقد أورد ابن خلكان أشياء كثيرة في ترجمته ، من ذلك أنه شهد عنده رجل في
بستان فقال له : كم عدد أشجاره ؟ فقال له : كم عدد جذوع هذا المجلس الذي أنت فيه من مدة
سنتين ؟ فقلت : لا أدرى وأقررت شهادته .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة

ذكر المدائني عن شيوخه أن خاقان ملك الترك لما قتل في ولاية أسد بن عبد الله القسري على
خراسان ، تفرق شمل الأتراك ، وجعل بعضهم يغير على بعض ، وبعضهم يقتل بعضاً ، حتى كادت
أن تخرب بلادهم ، واشتغلوا عن المسلمين . وفيها سأل أهل الصفد من أمير خراسان نصر بن سيار
أن يردهم إلى بلادهم ، وسألوه شروطاً أنكرها العلماء ، منها أن لا يعاقب من ارتد منهم عن الإسلام ،
ولا يؤخذ أسير المسلمين منهم ، وغير ذلك ، فأراد أن يوافقهم على ذلك لشدة نكايتهم في المسلمين ،
فعاب عليه الناس ذلك ، فكتب إلى هشام في ذلك فتوقف ، ثم لما رأى أن هؤلاء إذا استمروا على

معانديهم للمسلمين كان ضرهم أشد ، أجابهم إلى ذلك ، وقد بعث يوسف بن عمر أمير العراق وفدا إلى أمير المؤمنين يسأل منه أن يضم إليه نيابة خراسان ، وتكلموا في نصر بن سيار بأنه وإن كان شهما شجاعا ، إلا أنه قد كبر وضعف بصره فلا يعرف الرجل إلا من قريب بصوته ، وتكلموا فيه كلاما كثيرا ، فلم يلتفت إلى ذلك هشام ، واستمر به على إمرة خراسان وولايتها . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها يزيد بن هشام بن عبد الملك ، والعمال فيها من تقدم ذكركم في التي قبلها . وتوفي في هذه السنة ربيعة بن يزيد التصير من أهل دمشق ، وأبو يونس سليمان بن جبير ، وسماك بن حرب ، ومحمد ابن واسع بن حيان ، وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل والله الحمد

[قال محمد بن واسع : أول من يدعى يوم القيامة إلى الحساب القضاة . وقال : خمس خصال تميم القلب : الذنب على الذنب ، ومجالسة الموتى ، قيل له : ومن الموتى ؟ قال : كل غنى مترف ، وسلطان جار . وكثرة مشاققة النساء ، وحديثهن ، ومخالطة أهله . وقال مالك بن دينار : إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافا فيقع به . فقال محمد بن واسع : أغبط منه والله عندي من يصبح جائعا وهو عن الله راض . وقال : ما آسى عن الدنيا إلا على ثلاث : صاحب إذا عوججت قومي ، وصلاة في جماعة يحمل عنى سهوها وأفوز بفضلها ، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منة ، ولا لله على فيه تبعه . وروى رواد بن الربيع قال : رأيت محمد بن واسع بسوق بزور وهو يعرض حماراً له للبيع ، فقال له رجل : أرضاه لي ؟ فقال لو رضيته لم أبعه .

ولما ثقل محمد بن واسع كثر عليه الناس في العبادة ، قال بعض أصحابه : فدخلت عليه فاذا قوم قعود وقوم قيام ، فقال : ماذا يعني هؤلاء عنى إذا أخذ بناصيتي وقدمي غداً وألقيت في النار ؟ ! وبعث به بعض الخلفاء مالا مستكثراً إلى البصرة ليفرق في فقراء أهلها ، وأمر أن يدفع إلى محمد بن واسع منه فلم يقبله ولم يلمس منه شيئاً ، وأما مالك بن دينار فانه قبل ما أمر له به ، واشترى به أرقاء وأعتقهم ولم يأخذ لنفسه منه شيئاً ، فجاهد محمد بن واسع يلومه على قبوله جوائز السلطان . فقال له : يا مالك قبلة جوائز السلطان ؟ فقال له مالك : يا أبا عبد الله ! سل أصحابي ماذا فعلت منه ، فقالوا له : إنه اشترى به أرقاء وأعتقهم ، فقال له : سألتك بالله أقتلك الآن لهم مثل ما كان قبل أن يملوك . فقام مالك وحشى على رأسه التراب وقال : إنما يعرف الله محمد بن واسع ، إنما مالك حمار إنما مالك حمار ، وكلام محمد بن واسع كثير جداً رحمه الله [(١)

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة

فيها غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم فاقى ملك الروم سيون فقاتله فسلم وغنم .

(١) زيادة من الله

وفيها قدم جماعة من دعاة بني العباس من بلاد خراسان قاصدين إلى مكة فمروا بالكوفة فبلغهم أن في السجن جماعة من الأمراء من نواب خالد القسري ، قد حبسهم يوسف بن عمر ، فاجتمعوا بهم في السجن فدعواهم إلى البيعة لبني العباس ، وإذا عندهم من ذلك جانب كبير ، فقبلوا منهم ووجدوا عندهم في السجن أبا مسلم الخراساني ، وهو إذ ذاك غلام يخدم عيسى بن مقبل العجلي ، وكان محبوبا فأعجبهم شهامته وقوته واستجابته مع مولاه إلى هذا الأمر ، فاشترى بكر بن ماهان منه بأربعمائة درهم وخرجوا به معهم فاستنبدوه لهذا الأمر ، فكانوا لا يوجهونه إلى مكان إلا ذهب وتنج ما يوجهونه إليه ، ثم كان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى فيما بعد . قال الواقدي : ومات في هذه السنة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو الذي يدعو إليه دعاة بني العباس ، فقام مقامه ولده أبو العباس السفاح ، والصحيح أنه إنما توفي في التي بعدها . قال الواقدي وأبو معشر : وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، ومعه امرأته أم مسلم بن هشام بن عبد الملك ، وقيل إنما حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل قاله الواقدي ، والأول ذكره ابن جرير والله أعلم . وكان نائب الحجاز محمد بن هشام بن إسماعيل يقف على باب أم مسلم ويهدي إليها الألفاظ والتحف ويعتذر إليها من التقصير ، وهي لا تلتفت إلى ذلك ، ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي :

القاسم بن أبي بزة (١)

أبو عبد الله المكي القاري ، مولى عبد الله بن السائب ، تابعي جليل ، روى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، وعنه جماعة ، ووثقه الأئمة . توفي في هذه السنة على الصحيح ، وقيل بعدها بسنة ، وقيل سنة أربع عشرة ، وقيل سنة خمس عشرة والله أعلم

الزهري

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة ، أبو بكر الترشى الزهري أحد الأعلام من أئمة الإسلام ، تابعي جليل ، سمع غير واحد من التابعين وغيرهم . روى الحافظ ابن عساكر عن الزهري قال : أصاب أهل المدينة جهد شديد فارتحلت إلى دمشق ، وكان عندي عيال كثيرة ، فجئت جامعها فجلست في أعظم حلقة ، فإذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، فقال : إنه قد نزل بأمر المؤمنين مسألة - وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئا وقد شد عنه في أمهات الأولاد برويه عن عمر بن الخطاب - فقلت : إني أحفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ، فأخذني فأدخلني على عبد الملك : فسألني ممن أنت ؟ فانتسبت له ، وذكرت له حاجتي وعيالي ، فسألني هل تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم والفرائض والسنن ،

(١) في نسخة القسطنطينية : القاسم بن أبي يسرة . وفي المصرية : القاسم بن مرة .

فألني عن ذلك كله فأجبت ، قضي ديني وأمر لي بمجازة ، وقال لي : اطلب العلم فاني أرى لك عينا حافظة وقلبا ذكيا ، قال : فرجعت إلى المدينة أطلب العلم وأتبعه ، فبلغني أن امرأة بقاء رأت رؤيا عجيبة ، فأتيها فسألها عن ذلك ، فقالت : إن بعلي غاب وترك لنا خادما وداجنا ونخيلات ، نشرب من لبنها ، ونأكل من ثمرها ، فبينما أنا بين النائمة واليقظي رأيت كأن ابني الكبير - وكان مشندا - قد أقبل فأخذ الشفرة فذبح ولد الداجن ، وقال : إن هذا يضيق علينا اللبن ، ثم نصب القدر وقطعها ووضعها فيه ، ثم أخذ الشفرة فذبح بها أخاه ، وأخوه صغير كما قد جاء ، ثم استيقظت مذعورة ، فدخل ولدي الكبير فقال : أين اللبن ؟ فقلت : يا بني شربه ولد الداجن ، فقال : إنه قد ضيق علينا اللبن ، ثم أخذ الشفرة فذبحه وقطعه في القدر ، فبقيت مشقة خائفة مما رأيت ، فأخذت ولدي الصغير فبقيته في بعض بيوت الجيران ، ثم أقبلت إلى المنزل وأنا مشقة جدا مما رأيت ، فأخذتني عيني فتمت فرأيت في المنام قائلا يقول : مالك مغتمة ؟ فقلت : إني رأيت مناما فأنا أحذر منه فقال : يارؤيا يارؤيا ، فأقبلت امرأة حسناء جميلة ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ قالت : ما أردت إلا خيرا ، ثم قال يا أحلام يا أحلام ، فأقبلت امرأة دونها في الحسن والجمال ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت : ما أردت إلا خيرا ، ثم قال : يا أضغاث يا أضغاث ، فأقبلت امرأة سوداء شنيعة فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت إنها امرأة صالحة فأحببت أن أعلمها ساعة ، ثم استيقظت فجاء ابني فوضع الطعام وقال : أين أخي ؟ فقلت : درج إلى بيوت الجيران ، فذهب وراءه فكأنما هدى إليه ، فأقبل به يقبله ، ثم جاء فوضعه وجلسنا جميعا فأكلنا من ذلك الطعام

ولد الزهري في سنة ثمان وخمسين في آخر خلافة معاوية ، وكان قصيرا قليل اللحية ، له شعرات طوال خفيف العارضين . قالوا : وقد قرأ القرآن في نحو من ثمان وثمانين يوما ، وجالس سعيد بن المسيب ثمان سنين ، تمس ركبته ركبته ، وكان يخدم عبيد الله بن عبد الله يستسقى له الماء المالح ، وياور على مشايخ الحديث ، ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث ، ويكتب عنهم كل ما سمع منهم ، حتى صار من أعلم الناس وأعلمهم في زمانه ، وقد احتاج أهل عصره إليه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهري قال : كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا أن لا نمنعه أحدا من المسلمين . وقال أبو إسحاق : كان الزهري يرجع من عند عروة فيقول لجارية عنده فيها الكنة : ثنا عروة ثنا فلان ، ويسرد عليها ما سمعه منه ، فنقول له الجارية : والله ما أدري ما تقول ، فيقول لها : اسكتي لكاع ، فاني لا أريدك ، إنما أريد نفسي . ثم وفد على عبد الملك بدمشق كما تقدم فأكرمه وقضى دينه وفرض له في بيت المال ، ثم كان بعد من أصحابه وجلسائه ، ثم كان كذلك عند أولاده من بعده ، الوليد وسليمان ، وكذا عند عمر

ابن عبد العزيز ، وعند يزيد بن عبد الملك ، واستقضاء يزيد مع سليمان بن حبيب ، ثم كان حظياً عند هشام ، وحج معه وجعله معلم أولاده إلى أن توفي في هذه السنة ، قبل هشام بسنة . وقال ابن وهب : سمعت الليث يقول : قال ابن شهاب : ما استودعت قلبي شيئاً قط ففسدته ، قال : وكان يكره أكل التفاح وسؤر الفأرة ، ويقول : إنه ينسى ، وكان يشرب العسل ويقول إنه يذكي ، وفيه يقول فايد بن أقرم .

زرذا وأثن على الكريم محمد * واذكر فواضله على الأصحاب

وإذا يقال من الجواد بماله * قيل الجواد محمد بن شهاب

أهل المدائن يعرفون مكانه * وربيع ناديه على الأعراب

يشري وفاء جفانه ويمدها * بكسور إنتاج وفتق لباب

وقال ابن مهدي : سمعت مالكا يقول : حدث الزهري يوماً بحديث فلما قام أخذت بلجام

نابته فاستفهمته فقال : أتستفهمني ؟ ما استفهمت عالماً قط ، ولا رددت على عالم قط ، ثم جعل ابن مهدي يقول فتلك الطوال وتلك المغازي .

وروى يعقوب بن سفيان عن هشام بن خالد السلامي عن الوليد بن مسلم عن سعيد - يعني ابن عبد العزيز - أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبيه شيئاً من حديثه ، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها ، ثم إن هشاماً قال للزهري : إن ذلك الكتاب ضاع ، فقال : لا عليك ، فأملى عليهم تلك الأحاديث فأخرج هشام الكتاب الأول فإذا هو لم يغادر حرفاً واحداً ، وإنما أراد هشام امتحان حفظه . وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت أحداً أحسن سوقاً للحديث إذا حدث من الزهري . وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً أنص للحديث من الزهري ، ولا أهون من الدينار والدرهم عنده ، وما الدرهم والدنانير عند الزهري إلا بمنزلة البعر . قال عمرو بن دينار : ولقد جالست جابراً وابن عباس وابن عمر وابن الزبير فما رأيت أحداً أسبق للحديث من الزهري .

وقال الإمام أحمد : أحسن الناس حديثاً وأجودهم إسناداً الزهري ، وقال النسائي : أحسن الأسانيد الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي عن رسول الله ص . وقال سعيد عن الزهري : مكثت خمساً وأربعين سنة أختلف من الحجاز إلى الشام ، ومن الشام إلى الحجاز ، فما كنت أسمع حديثاً أستطرفه . وقال الليث : ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب ، ولو سمعته يتحدث في الترغيب والترهيب لقلت : ما يحسن غير هذا ، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن الأعراب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدءاً جامعاً ، وكان يقول : اللهم إني أسألك من كل خير أحاط به عليك

وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك في الدنيا والآخرة . قال الليث : وكان الزهري أسخى من رأيت ، يعطى كل من جاء وسأله ، حتى إذا لم يبق عنده شيء استسلف . وكان يطعم الناس التريد ويسقيهم العسل ، وكان يستمر على شراب العسل كما يستمر أهل الشراب على شراهم ، ويقول استونا وحدثونا ، فإذا نفس أحدهم يقول له : ما أنت من سمار قريش ، وكانت له قبة معصرة ، وعليه ملحفة معصرة ، وتحتة بساط معصر ، وقال الليث قال يحيى بن سعيد : ما بقي عند أحد من العلم ما بقي عند ابن شهاب .

وقال عبد الرزاق : أنبأ معمر قال قال عمر بن عبد العزيز : عليكم بابن شهاب فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه ، وكذا قال مكحول . وقال أيوب : ما رأيت أحداً أعلم من الزهري ، فقيل له : ولا الحسن ؟ فقال : ما رأيت أعلم من الزهري ، وقيل لمكحول : من أعلم من لقيت ؟ قال : الزهري ، قيل : ثم من ؟ قال الزهري ، قيل ثم من ؟ قال الزهري . وقال مالك : كان الزهري إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحداً حتى يخرج . وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة : محدثو أهل الحجاز ثلاثة ، الزهري ويحيى بن سعيد وابن جريج . وقال علي بن المديني : الذين أفتوا أربعة ، الزهري ، والحكم ، وحماد وقتادة ، والزهري أفتهم عندي . وقال الزهري : ثلاثة إذا كن في القاضي فليس بقاض ، إذا كره الملامم وأحب المحامد ، وكره العزل . وقال أحمد بن صالح : كان يقال فصحاء زمانهم الزهري وعمر بن عبد العزيز وموسى بن طلحة وعبيد الله ، رحمهم الله . وقال مالك عن الزهري : أنه قال : إن هذا العلم الذي أدب الله به رسول الله (ص) ، وأدب رسول الله به أمته أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدى إليه ، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل .

وقال محمد بن الحسين عن يونس عن الزهري قال : الاعتصام بالسياسة نجاة ، وقال الوليد عن الأوزاعي عن الزهري قال : أمرتوا أحاديث رسول الله (ص) كما جاءت . وقال محمد بن إسحاق عن الزهري : إن من غوائل العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه ، وفي رواية أن يترك العالم العمل بالعلم حتى يذهب ، فإن من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه ، ومن غوائله النسيان والكذب ، وهو أشد الغوائل . وقال أبو زرعة عن نعيم بن حماد عن محمد بن ثور عن معمر عن الزهري قال : القراءة على العالم والسماع عليه سواء إن شاء الله تعالى .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : إذا طال الجاس كان للشيطان فيه حظ ونصيب ، وقد قضى عنه هشام مرة ثمانين ألف درهم ، وفي رواية سبعة عشر ألفاً ، وفي رواية عشرين ألفاً . وقال الشافعي : عتب رجاء بن حيوة على الزهري في الاسراف وكان يستدين ، فقال له : لا آمن أن يجبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانيك ، قال : فوعده الزهري أن يقصر ،

فر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل ، فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر ما هذا بالذي
 تارقتنا عليه ، فقال له الزهري : انزل فان السخى لا تؤدبه التجارب . وقد أشد بعضهم في هذا المعنى
 له سحابٌ جودٍ في أنامله * أمطارها الفضة البيضاء والذهب
 يقول في العسر إن أسرت ثانية * أقصرت عن بعض ما أعطى وما أهب
 حتى إذا عاد أيام اليسار له * رأيت أمواله في الناس تنهب
 وقال الواقدي : ولد الزهري سنة ثمان وخمسين ، وقدم في سنة أربع وعشرين ومائة إلى أمواله
 بثلاث بشعب زبدا ، فأقام بها فرض هناك ومات وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ، وكانت وفاته
 لسبع عشرة من رمضان في هذه السنة ، وهو ابن خمس وسبعين سنة ، قالوا : وكان ثقة كثير الحديث
 والعلم والرواية ، فقيها جامعاً ، وقال الحسين بن المتوكل العسقلاني : رأيت قبر الزهري بشعب زبدا
 من فلسطين مسماً بمجصصا ، وقد وقف الأوزاعي يوماً على قبره فقال : يا قبر كم فيك من علم ومن حلم
 * يا قبر كم فيك من علم ومن كرم * وكم جمعت روايات وأحكاما . وقال الزبير بن بكار : توفي الزهري
 بأمواله بشعب ثنين ، ليلة الثلاثاء لسبع عشر ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائة ، عن
 ثنتين وسبعين سنة ، ودفن على قارعة الطريق ليدعوه المارة ، وقيل إنه توفي سنة ثلاث وعشرين
 ومائة ، وقال أبو معشر : سنة خمس وعشرين ومائة ، والصحيح الأول والله أعلم .

فَضِيلَةُ الزَّهْرِيِّ

وروى الطبراني عن إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرني صالح بن
 كيسان قال : اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم قلنا : نحن نكتب السنن ، فكتبنا ما جاء
 عن النبي (ص) ، ثم قال لي : هلم فلنكتب ما جاء عن أصحابه فانه سنة ، قلت : إنه ليس بسنة فلا
 نكتب ، قال : فكتب ما جاء عنهم ولم أكتب ، فأصبح وضيعت . وروى الامام أحمد عن معمر
 قال : كنا نرى أنا وقد أكثرنا عن الزهري حتى قتل الوليد ، فاذا الدفاتر قد حملت على الدواب من
 خزائنه يقول : من علم الزهري . وروى عن الليث بن سعد قال : وضع الطست بين يدي ابن
 شهاب فنذرت حديثاً فلم تزل يده في الطست حتى طلع الفجر وصححه . وروى اصبح بن الفرج عن
 ابن وهب عن يونس عن الزهري قال : للعلم واد فاذا هبطت واديه فعليك بالنوذة حتى تخرج منه ،
 فانك لا تقطعه حتى يقطع بك .

وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن يحيى ثقات حدثنا الزبير بن بكار حدثني محمد بن الحسن بن
 زباله عن مالك بن أنس عن الزهري قال : خدمت عبيد الله بن عتبة ، حتى أن كان خادمه ليخرج
 فيقول : من الباب ؟ فنقول الجارية : غلامك الأعمش ، فنظن أني غلامه ، وإن كنت لأخسه

حتى أستقي له وضوءه . وروى عبد الله بن أحمد عن محمد بن عباد عن الثوري عن مالك بن أنس أراه عن الزهري . قال : تبعنا سعيد بن المسيب ثلاثة أيام في طلب حديث . وروى الأوزاعي عن الزهري قال : كنا نأتي العالم فما تعلم من أدبنا أحب إلينا من علمه . وقال سفيان : كان الزهري يقول حدثني فلان ، وكان من أوعية العلم ، ولا يقول كان علماً . وقال مالك : أول من دون العلم ابن شهاب . وقال أبو المليح : كان هشام هو الذي أكره الزهري على كتابة الحديث ، فكان الناس يكتبون بعد ذلك . وقال رشيد بن سعد قال الزهري : العلم خزانة وتفتحها المسائل . وقال الزهري : كان يصطاد العلم بالسئلة كما يصاد الوحش . وكان ابن شهاب ينزل بالأعراب يعلمهم لتلايفي العلم ، وقال : إنما ينهب العلم النسيان وترك المذاكرة . وقال : إن هذا العلم إن أخذته بالكثرة غلبك ولم تظفر منه بشيء ، ولكن خذ مع الأيام والليالي أحناء رفيقا تظفر به . وقال : ما أحدث الناس مروءة أعجب إلى من الفصاحة . وقال : العلم ذكر لا يجبه إلا الذكور من الرجال ويكرهه مؤنثوم . ومر الزهري على أبي حازم وهو يقول : قال رسول الله (ص) ، فقال : مالي أرى أحاديث ليس لها خطم ولا أزمة ؟ . وقال : ما عبد الله بشيء أفضل من العلم .

وقال ابن مسلم أبي عاصم : حدثنا دحيم حدثنا الوليد بن مسلم عن القاسم بن هزان أنه سمع الزهري يقول : لا يوثق الناس علم عالم لا يعمل به ، ولا يؤمن بقول عالم لا يرضى . وقال ضمرة عن يونس عن الزهري قال : إياك وغلول الكتب ، قلت : وما غلولها ؟ قال : حبسها عن أهلها . وروى الشافعي عن الزهري قال : حضور المجلس بلا نسخة ذل . وروى الأصمعي عن مالك بن أنس عن ابن شهاب قال : جلست إلى ثعلبة بن أبي معين فقال : أراك تحب العلم ؟ قلت : نعم ! قال : فعليك بذلك الشيخ - يعني سعيد بن المسيب - قال : فلزمت سعيداً سبع سنين ثم نحوأت عنه إلى عروة ففجرت تبسج بحره . وقال الليث : قال ابن شهاب : ما صبر أحد على العلم صبري ، وما نشره أحد قط لتري ، فأما عروة بن الزبير فيئر لا تكدره الدلاء ، وأما ابن المسيب فانتصب للناس فذهب اسمه كل مذهب . وقال مكى بن عبدان : حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عبد الله الأوسى حدثنا مالك بن أنس أن ابن شهاب سأله بعض بني أمية عن سعيد بن المسيب فذكر علمه بخير وأخبره بحاله ، فبلغ ذلك سعيداً فلما قدم ابن شهاب المدينة جاء فسلم على سعيد فلم يرد عليه ولم يكلمه ، فلما انصرف سعيد مشى الزهري معه فقال : مالي سلمت عليك فلم تكلمني ؟ ماذا بلغك عني وما قلت إلا خيراً ؟ قال له : ذكرتني لبني مروان ؟ . وقال أبو حاتم : حدثنا مكى بن عبدان حدثنا محمد بن يحيى حدثني عطاء ابن خالد الخزومي عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة عن ابن شهاب قال : أصاب أهل المدينة حاجة زمان فتنة عبد الملك بن مروان ، فعمت أهل البلد ، وقد خيل إلى أنه قد أصابنا أهل

البيت من ذلك ما لم يصب أحداً من أهل البلد ، وذلك لخبرتي بأهلي ، فندكرت : هل من أحد أمت إليه برحم أو مودة أرجو إن خرجت إليه أن أصيب عنده شيئاً ؟ فما علمت من أحد أخرج إليه ، ثم قلت : إن الرزق بيد الله عز وجل ، ثم خرجت حتى قدمت دمشق فوضعت رجلي ثم أتيت المسجد فنظرت إلى أعظم حلقة رأيتها وأكبرها فجلست فيها ، فبينما نحن على ذلك إذ خرج رجل من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، كأجسم الرجال وأجلهم وأحسنهم هيئة ، فجاه إلى المجلس الذي أنا فيه فتحشحوا له - أي أوسعوا - فجلس فقال : لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله منذ استخلفه الله ، قالوا : ما هو ؟ قال : كتب إليه عامله على المدينة هشام بن إسماعيل يذكر أن ابناً لمصعب بن الزبير من أم ولد مات ، فأرادت أمه أن تأخذ ميراثاً منه فنهها عروة بن الزبير ، وزعم أنه لا ميراث لها ، فتوهم أمير المؤمنين حديثاً في ذلك سمعه من سعيد بن المسيب يذكر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في أمهات الأولاد ، ولا يحفظه الآن ، وقد شد عنه ذلك الحديث . قال ابن شهاب فقلت : أنا أحدثه به ، فقام إلى قبيصة حتى أخذ بيدي ثم خرج حتى دخل الدار على عبد الملك فقال السلام عليك ، فقال له عبد الملك مجيباً : وعليك السلام . فقال قبيصة : أندخل ؟ فقال عبد الملك ادخل : فدخل قبيصة على عبد الملك وهو أخذ بيدي وقال : هذا يا أمير المؤمنين يحدثك بالحديث الذي سمعته من ابن المسيب في أمهات الأولاد . فقال عبد الملك : إيه ، قال الزهري فقلت : سمعت سعيد بن المسيب يذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بأمهات الأولاد أن يقو من في أموال أبنائهن بقيمة عدل ثم يعتنن ، فكتب عمر بذلك صدرأ من خلافته ، ثم توفي رجل من قريش كان له ابن من أم ولد ، وقد كان عمر يعجب بذلك الغلام ، فمر ذلك الغلام على عمر في المسجد بعد وفاة أبيه بليال ، فقال له عمر : ما فعلت يا ابن أخي في أمك ؟ قال : فعلت يا أمير المؤمنين خيراً ، خير وني بين أن يسترقوا أمي ^(١) فقال عمر : أولست إنما أمرت في ذلك بقيمة عدل ؟ ما أرى رأياً وما أمرت بأمر إلا قاتم فيه ، ثم قام فجلس على المنبر فاجتمع الناس إليه حتى إذا رضى من جماعتهم قال : أيتها الناس ! إني قد كنت أمرت في أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم حدث رأى غير ذلك ، فأما امرئ كان عنده أم ولد فملكها بيمينه ما عاش ، فإذا مات فهي حرة لا سبيل له عليها .

فقال لي عبد الملك : من أنت ؟ قلت أنا محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب ، فقال : أما والله إن كان أبوك لأباً نعاراً في الفتنة مؤذياً لنا فيها . قال الزهري فقلت : يا أمير المؤمنين قل كما قال العبد الصالح : [لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم] فقال : أجل ، [لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم] قال فقلت : يا أمير المؤمنين افرض لي فاني منقطع من الديوان ، فقال : إن بلدك ما فرضنا فيه

(١) كذا بالأصل وهو ناقص .

لأحد منذ كان هذا الأمر . ثم نظر إلى قبيصة وأنا وهو قائمان بين يديه ، فكأنه أوماً إليه أن افرض له ، فقال : قد فرض إليك أمير المؤمنين ، فقلت : إني والله ما خرجت من عند أهلي إلا وهم في شدة وحاجة ما يعلمها إلا الله ، وقد عمت الحاجة أهل البلد . قال : قد وصلك أمير المؤمنين . قال قلت : يا أمير المؤمنين وخادم بخدمنا ، فان أهلي ليس لهم خادم إلا أختي ، فانها الآن تعجن وتخبز وتطحن قال : قد أخدمك أمير المؤمنين .

وروى الأوزاعي عن الزهري أنه روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . فقلت للزهري : ما هذا ؟ فقال : من الله العلم ، وعلى رسوله البلاغ ، وعلينا التسليم ، أمرتوا أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما جاءت . وعن ابن أخي ابن شهاب عن عمه قال : كان عمر بن الخطاب يأمر برواية قصيدة لببدي بن ربيعة التي يقول فيها :

إن تقوى ربنا خيرٌ نَفَلٌ * وبأذنِ اللهِ ريثي والعجل
أحمدُ اللهُ فلا نَدُّ له * بيديه الخيرُ ما شاءَ فعلٌ
من هداةٍ سبيلَ الخيرِ اهتدى * ناعمَ البالِ ومن شاءَ أضلُّ

وقال الزهري : دخلت على عبيد الله بن عبد الله بن عتبة منزله فاذا هو مغتاض ينفخ ، فقلت : مالي أراك هكذا ؟ فقال : دخلت على أميركم آنفا - يعني عمر بن عبد العزيز - ومعه عبد الله بن عمرو بن عثمان فسلمت عليهما فلم يردا علي السلام ، فقلت :

لا تعجبا أن تؤتيا فتكلما * فما حشى الأقدامُ شرَّاً من الكبرِ
ومسَّاترابِ الأرضِ منه خُلِقَما * وفيها المعادُ والمصيرُ إلى الحشرِ

فقلت : يرحمك الله ! ! مثلك في فقهك وفضلك وسنك تقول الشعر ؟ ! فقال : إن المصدور إذا نفث برأ . وجاء شيخ إلى الزهري فقال : حدثني ، فقال : إنك لا تعرف اللغة ، فقال الشيخ : لعل أعرفا ، فقال : فما تقول في قول الشاعر :

صريعٌ ندامي برفعِ الشربِ رأسهُ * وقد ماتَ منه كلُّ عضوٍ ومفصلٍ ؟

ما المفصل ؟ قال : اللسان ، قال : عد علي أحدثك . وكان الزهري يتمثل كثيراً بهذا :

ذهبَ الشبابُ فلا يعودُ جمانا * وكانَ ما قد كانَ لم يكُ كانا
فطويتُ كفي يا جمانُ على العصا * وكفى جمانُ بطيهاً حدانا

وكان نقش خاتم الزهري : محمد يسأل الله العافية . وقيل لابن أخي الزهري : هل كان عمك ينطيب ؟ قال : كنت أشم ريح المسك من سوط دابة الزهري . وقال : استكنروا من شيء لا تمسه النار ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وامتدحه رجل مرة فأعطاه قبيصة ، فقيل له : أعطى علي كلام

الشيطان؟ فقال: إن من ابتغاه الخير اتقاء الشر. وقال سفیان: سئل الزهري عن الزاهد فقال: من لم يمنع الحلال شكره، ولم يغلّب الحرام صبره. وقال سفیان: قالوا للزهري: لو أنك الآن في آخر عرك أقت بالمدينة، فقممت إلى مسجد رسول الله (ص)، ودرجت وجلستنا إلى عمود من أعمده فذكرت الناس وعلمتهم؟ فقال: لو أني فعلت ذلك لوطن عتي، ولا ينبغي لي أن أفعل ذلك حتى أزهّد في الدنيا وأرغب في الآخرة. وكان الزهري يحدث أنه هلك في جبال بيت المقدس بضعة وعشرون نبيا، ماتوا من الجوع والعمل. كانوا لا يأكلون إلا ما عرفوا، ولا يلبسون إلا ما عرفوا وكان يقول: العبادة هي الورع والزهد، والعلم هو الحسنه، والصبر هو احتمال المكاره، والدعوة إلى الله على العمل الصالح [١].

ومن توفي في خلافة هشام بن عبد الملك كما أورده ابن عساكر
بلال بن سعد

ابن نعيم السكوني أبو عمرو، وكان من الزهاد الكبار، والعباد الصوام القوام، روى عن أبيه وكان أبوه له صحبة، وعن جابر وابن عمر وأبي الدرداء وغيرهم، وعنه جماعات منهم أبو عمرو والأوزاعي وكان الأوزاعي يكتب عنه ما يقوله من الفوائد العظيمة في قصصه ووعظه، وقال: ما رأيت واعظاً قط مثله. وقال أيضاً: ما بلغني عن أحد من العبادة ما بلغني عنه، كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة. وقال غيره وهو الأصمعي: كان إذا نكس في ليل الشتاء ألقى نفسه في ثيابه في البركة، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك فقال: إن ماء البركة أهون من عذاب جهنم. وقال الوليد بن مسلم: كان إذا كبر في المحراب سمعوا تكبيره من الأوزاع. قلت: وهي خارج باب الفراديس. وقال أحمد بن عبد الله الدجلى: هو شامي تابعي ثقة. وقال أبو زرعة الدمشقي: كان أحد العلماء قاصاً حسن القصص، وقد اتهمه رجاء بن حيوة بالتدبر حتى قال بلال بوما في وعظه: رب مسرور مفرور، ورب مفرور لا يشعر، فويل لمن له الويل وهو لا يشعر، يأكل ويشرب، ويضحك، وقد حق عليه في قضاء الله أنه من أهل النار، فياويل لك روحاً، ياويل لك جسداً، فلتبك ولتبعك عليك البواكي لطول الأبد. وقد ساق ابن عساكر شيئاً حسناً من كلامه في مواضعه البليغة، فمن ذلك قوله: والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها، زاهدكم راغب، وعالمكم جاهل، ومجتهدكم مقصر. وقال أيضاً: أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله، وأخبرك بعيبك، أحب إليك، وخير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك ديناراً. وقال أيضاً: لاتكن ولياً لله في العلانية وعدوه في السر ولا تكن عدو إبليس والنفس والشهوات في العلانية وصديقهم في السر، ولا تكن ذا وجهين وذا لسانين

(١) زيادة من المصرية.

فتنظر للناس أنك تمشي الله ليحمدوك وقلبك فاجر . وقال أيضا : أيها الناس إنكم لم تخلتوا للفناء وإما خلقتم لبقاء ، ولكنكم تفتنون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصباب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الجنة أو النار . وقال أيضا : عباد الرحمن إنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال إلى دار مقام ، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، فمن لم يعمل على يقين فلا تنفعن ، عباد الرحمن لو قد غفرت خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون لكم شغلا ، ولو عملتم بما تعلمون لكان لكم مقتدا وملتجا ، عباد الرحمن أما ما وكلتم به فتضيعونه ، وأما ما تكفل الله لكم به فتطلبونه ، ما هكذا نعمت الله عباده الموقنين ، أذو وعقل في الدنيا وبله في الآخرة ، وعسى عما خلقتكم له بصراء في أمر الدنيا ؟ فكما ترجون رحمة الله عما تؤدون من طاعته ، فكذلك اشفقوا من عذابه بما تذهبكون من معاصيه ، عباد الرحمن اهل جباهم مخبر يخبركم أن شيئا من أعمالكم قد تقبل منكم ؟ أو شيئا من خطاياكم قد غفر لكم ؟ [أم حسبتم أنما خلقناكم عبنا وأنكم إلينا لا ترجعون] والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقلتم ما فرض عليكم . أترغبون في طاعة الله لدار معمورة بالآفات ؟ ولا ترغبون وتنافسون في جنة أكلها دائم وظلها ، وعرضها عرض الأرض والسموات [تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار] وقال أيضا : الذكر ذكران ذكر الله باللسان حسن جميل ، وذكر الله عند ما أحل وحرم أفضل . عباد الرحمن يقال لأحدنا : نحب أن نموت ؟ فيقول : لا ! فيقال له : لم ؟ فيقول : حتى أعمل ، فيقال له : اعمل ، فيقول سوف أعمل ، فلا نحب أن نموت ، ولا نحب أن نعمل ، وأحب شيء إليه يجب أن يؤخر عمل الله ، ولا يجب أن يؤخر الله عنه عرض دنياه . عباد الرحمن إن العبد يعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضع مساواها ، فما يزال يمني الشيطان ويزين له حتى ما يرى شيئا دون الجنة ، مع إقامته على معاصي الله . عباد الرحمن قبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ماذا تريدون بها ، فان كانت خالصة فامضوها وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم ، فان الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا ، فانه قال [إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه] وقال أيضا : إن الله ليس إلى عذابكم بالسريع ، يقبل المقبل ويدعو المدبر ، وقال أيضا : إذا رأيت الرجل متحرجا لحوحا مما رآه معجبا برأيه فقد نمت خسارته . وقال الأوزاعي : خرج الناس بدمشق يستقون قمام بهم بلال بن سعد فقال : يا معشر من حضر ! ألسنم مقربين بالاساءة ؟ قالوا : نعم ، فقال : اللهم إنك قلت [ما على المحسنين من سبيل] وقد أقرنا بالاساءة فاعف عنا واغفر لنا . قال : فسقوا يومهم ذلك : وقال أيضا : سمعته يقول : لقد أدركت أقواما يشتدون بين الأغراض ، ويضحك بعضهم إلى بعض ، فاذا جئهم الليل كانوا رهباننا . وسمعته أيضا يقول : لا تنظر إلى صغر الذنب وانظر إلى من عصيت . وسمعته يقول : من بادأك بالود قد استرقك بالشكر .

وكان من دعائه : اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب ، ومن تبعات الذنوب ، ومن مرديات الأعمال .
 ومضات العين . وقال الأوزاعي عنه أنه قال : عياد الرحمن لو أنتم لم تدعوا إلى الله طاعة إلا عملتموها
 ولا معصية إلا اجتنبتموها ، إلا أنكم تحبون الدنيا لكفكم ذلك عقوبة عند الله عز وجل . وقال :
 إن الله يغفر الذنوب لمن تاب منها ، ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف العبد عليها يوم القيامة .

ترجمة الجعد بن درهم

هو أول من قال بخلق القرآن ، وهو الذي ينسب إليه مروان الجعدي ، وهو مروان الحمار ، آخر
 خلفاء بني أمية . كان شيخه الجعد بن درهم ، أصله من خراسان ، ويقال إنه من موالى بني مروان ،
 سكن الجعد دمشق ، وكانت له بها دار بالقرب من القلايين إلى جانب الكنيسة ، ذكره ابن
 عساكر . قلت : وهي محلة من الخواصين اليوم غربها عند حمام القطنين الذي يقال له حمام قلينس .
 قال ابن عساكر وغيره : وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سحمان ، وأخذها بيان عن طلوت ابن
 اخت لبيد بن أعصم ، زوج ابنته ، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر رسول الله (ص) ،
 عن يهودى باليمن ، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الخزري ، وقيل الترمذي ، وقد أقام ببلخ ،
 وكان يصلي مع مقاتل بن سليمان في مسجده ويتماظران ، حتى نفى إلى ترمذ ، ثم قتل الجهم بأصبهان ،
 وقيل بمر و ، قتله نائبها سلم بن أحوز رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً ، وأخذ بشر المريسي عن
 الجهم ، وأخذ أحمد بن أبي دواد عن بشر ، وأما الجعد فانه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق
 القرآن ، فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة ، فلقبه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ،
 ثم إن خالد بن عبد الله القسري قتل الجعد يوم عيد الاضحى بالكوفة ، وذلك أن خالفاً خطب الناس
 فقال في خطبته تلك : أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم
 أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً . ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم
 نزل فذبجه في أصل المنبر .

وقد ذكر هذا غير واحد من الحفاظ منهم البخاري وابن أبي حاتم والبيهقي وعبد الله بن أحمد
 وذكره ابن عساكر في التاريخ ، وذكر أنه كان يتردد إلى وهب بن منبه ، وأنه كان كلما راح إلى
 وهب يغتسل ويقول : أجمع للعقل ، وكان يسأل وهباً عن صفات الله عز وجل فقال له وهب يوماً :
 ويحك يا جعد ، أقصر المسألة عن ذلك ، إني لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له
 يداً ما قلنا ذلك ، وأن له عيناً ما قلنا ذلك ، وأن له نفساً ما قلنا ذلك ، وأن له سمماً ما قلنا ذلك ،
 وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك ، ثم لم يلبث الجعد أن صلب ثم قتل . ذكره ابن
 عساكر ، وذكر في ترجمته أنه قال للحجاج بن يوسف ويروي لعمران بن حطان :

ليثَ عليّ وفي الحروبِ نعمةً * فتخاة تجفلُ من صفيهِ الصافرِ
هلا برزتَ، إلى غزاةٍ في الوغى • بلْ كانَ قلبك في جناحي طائرٍ

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا رزق الله بن موسى ثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب بن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه قال قال رسول الله (س): : ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة، وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن أبي كريب عن ابن أبي فديك عن عبد الملك بن سعيد بن زيد بن نفيل عن مصعب بن مصعب عن الزهري به. قلت: وهذا حديث غريب منكر، ومصعب بن مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف الزهري تكلم فيه وضعفه علي بن الحسين بن الجنيد: وكذا تكلم في الراوي عنه أيضا والله أعلم. وفيها غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفة من بلاد الروم، وفي ربيع الآخر منها توفي أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان.

ذكر وفاته وترجمته رحمه الله

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي، أمير المؤمنين. وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل الخزومي، وكانت داره بدمشق عند باب الخواصين، وبعضها اليوم مدرسة نور الدين الشهيد التي يقال لها النورية الكبيرة، وتعرف بدارالقبابين - يعني الذين يبيعون القباب وهي الخيام - فكانت تلك المحلة داره والله أعلم. وقد بويع له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك بهد منه إليه، وذلك يوم الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وكان له من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة، وكان جميلا أبيض أحول يخضب بالسواد، وهو الرابع من ولد عبد الملك الذين ولوا الخلافة، وقد كان عبد الملك رأى في المنام كأنه بال في الحراب أربع مرات، فندس إلى سعيد بن المسيب من سألته عنها ففسرها له بأنه يلي الخلافة من ولده أربعة، فوقع ذلك، فكان هشام آخرهم، وكان في خلافته حازم الرأي جماعا للأموال يبخل، وكان ذكيا مدبرا له بصر بالأموال جليلها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال: أتشتعني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحيا وقال: اقتص مني بدلها أو قال بمثلها، فقال: إذا أكون سفيرا منك، قال فخذ عوضا قال: لا أفعل، قال: فتركها الله، قال: هي لله ثم لك، فقال هشام عند ذلك: والله لا أعود إلى مثلها.

وقال الأصمعي: أسمع رجلا هشاما كلاما فقال له: أتقول لي مثل هذا وأنا خليفتك؟ وغضب مرة على رجل فقال له: اسكت وإلا ضربتك بسوطا، وكان علي بن الحسين قد اقترض من مروان

ابن الحكم مالا أربعة آلاف دينار . فلم يتعرض له أحد من بني مروان ، حتى استخلف هشام فقال :
ما فعل حقتنا قبلك ؟ قال : موفور مشكور ، فقال ! هو لك .

[قلت : هذا الكلام فيه نظر ، ذلك أن علي بن الحسين مات سنة الفقهاء ، وهي سنة أربع
ونسعين ، قبل أن يلي هشام الخلافة بأحدى عشرة سنة ، فانه إنما ولي الخلافة سنة خمس ومائة ، فتقول
المؤلف : إن أحداً من خلفاء بني مروان لم يتعرض لمطالبة علي بن الحسين حتى ولي هشام فطالبه
بالمال المذكور ، فيه نظر ولا يصح . لتقدم موت علي بن علي خلافة هشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم !
وكان هشام من أكره الناس لسفك الدماء ، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن علي وابنه يحيى أمر
شديد وقال : وددت أني اقتديتهما بجميع ما أمالك . وقال المدائني عن رجل من حبي عن بشر بن
هشام قال : أتى هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط ، فقال : يا الطيبور علبى رأسه
فبكى الشيخ ، قال بشر : فضربه ، قال أتراني أبكي للضرب ، إنما أبكي لاحتقارك البربط حتى
طارت ، وأغلاظ هشام رجل يوماً في الكلام فقال : ليس لك أن تقول هذا لامالك . وتنفذ أحدت ولا
يوم الجمعة فبعث إليه ، أنك لم تشهد الجمعة ؟ فقال : إن بغلتي عجزت عني ، فبعث إليه أما كان يمكنك
المشي ، ومنعه أن يركب سنة ، وأن يشهد الجمعة ماشياً

وذكر المدائني أن رجلاً أهدى إلى هشام طيرين فأوردتهما السفير إلى هشام ، وهو جالس على
سرير في وسط داره ، فقال له : أرسلهما في الدار ، فأرسلهما ، ثم قال : جازتني يا أمير المؤمنين فقال :
وبحك وما جازتلك على هدية طيرين ؟ خذ أحدهما ، فجعل الرجل يسمي خلف أحدهما ، فقال :
وبحك ما بالاك ؟ فقال أختار أجودهما : قال : وتختار أيضاً الجيد وتترك الردي . ثم أمر له بأربعين
أو خمسين درهما . وذكر المدائني عن محرم ، كاتب يوسف بن عمر . قال : بعثني يوسف ، إلى هشام
بباقوتة حمراء ولؤلؤة كانتا لرابعة ، جارية خالد بن عبد الله القسري ، مشتري الباقوتة ثلاثة وسبعون
ألف دينار ، قال : فدخات عليا وهو على سرير فوقه فرش لم أر رأس هشام من علو تلك الفرش ،
فأوريتها له ، فقال : كم زنتها ؟ فقلت : إن مثل هذه لا مثل لها ، فسكت . قالوا : ورأى قوما يفرطون
الزيتون فقال القطوه لقطا ولا تنفضوه نفضا ، فتفتأ عيونهم وتكسر غصونه ، وكان يقول : ثلاثة
لا يضمن الشريف : تعاهد الصنيفة ، وإصلاح المعيشة ، وطلب الحق وإن قل . وقال أبو بكر الخرائطي :

يقال إن هشاما لم يقل من الشعر سوى هذا البيت :

إذا أنت لم نص المهري قادم الهوى * إلى كل ما فيه عليك مقال

وقد روى له شعر غير هذا ، وقال لمدائني عن ابن يسار الاعرجي حدثني ابن أبي بجيلة عن عقاب بن

(١) زيادة من المصرية .

شبة قال : دخلت على هشام وعليه قباء فتك أخضر ، فوجهني إلى خراسان ، ثم جعل يوصيني وأنا أنظر إلى القباء ، ففطن فقتال : مالك ؟ قلت : عليك قباء فتك أخضر ، [وكنت رأيت عليك مثله] قبل أن تلي الخلافة ، فجعلت أتأمل هذا هو ذاك أم غيره ، قال : والله الذي لا إله غيره هو ذاك ، مالي قباء غيره ، وما ترون من جمعي لهذا المال وصونه إلا لكم . قال عقال : وكان هشام محشوا بخلا .

وقال عبد الله بن علي عم السفاح : جمعت دواوين بني أمية فلم أر أصلح للامانة والسلطان من ديوان هشام . وقال المدائني عن هشام بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بني مروان أشد نظراً في أصحابه ودواوينه ، ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام ، وهو الذي قتل غيلان التمدرى ، ولما أحضر بني يديه قال له : ويحك قل ما عندك ، إن كان حقاً انبعضناه ، وإن كان باطلا رجعت عنه ، فناظره ميمون بن مهران فقال لميمون أشياء فقتال له : أيعصى الله كارهاً ؟ فسكت غيلان ففنده حينئذ هشام وقتله . وقال الأصمعي عن أبي الزناد عن منذر بن أبي وقال : أصبنا في خزائن هشام اثني عشر ألف قميص كلها قد أتربها . وشكى هشام إلى أبيه ثلاثاً إذ أنه يهاب الصعود إلى المنبر ، والثانية قلة تناول الطعام ، والثالثة أن عنده في القصر مائة جاريد ر حسان النساء لا يكاد يصل إلى واحدة منهن . فكتب إليه أبوه : أما صدك إلى المنبر فاذا علوت فوقه فارم ببصرك إلى مؤخر الناس فإنه أهون عليك ، وأما قلة الطعام فمر الطباخ فليكثر الألوان فملك أن تتناول من كل لون لكمة ، وعليك بكل بيضاء بضة ، ذات جمال وحسن . وقال أبو عبد الله الشافعي : لما بنى هشام بن عبد الملك الرصافة قال : أحب أن أخلوها يوماً لا يأتيني فيه خبر غم ، فما انصرف النهار حتى أتته ريشة دم من بعض الثغور ، فقتال : ولا يوماً واحداً ؟ ! وقال سفيان بن عيينة : كان هشام لا يكتب إليه بكتاب فيه ذكر الموت . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ثنا حسين ابن زيد عن شهاب بن عبد ربه عن عمر بن علي قال : مشيت مع محمد بن علي - يعني ابن الحسين ابن علي بن أبي طالب - إلى داره عند الحمام فقلت له : إنه قد طال ملك هشام وسلطانه ، وقد قرب من العشرين سنة ، وقد زعم الناس أن سليمان سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فزعم الناس أنها العشرون ، فقال : ما أدري ما أحاديث الناس ، ولكن أبي حدثني عن أبيه عن علي عن النبي (ص) قال : « لن يعمر الله ملكاً في أمة نبي مضى قبله ما بلغ ذلك النبي من العمر في أمته ، فإن الله عمر نبيه (ص) ثلاث عشرة سنة ، مكة وعشراً بالمدينة » . وقال ابن أبي خيثمة : ليس حديث فيه توقيت غير هذا ، قرأه يحيى بن معين على كتابي فقال : من حدثك به ؟ فقلت : إبراهيم ، فتلف أن لا يكون سمعه ، وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن أحمد بن زهير عن إبراهيم بن المنذر الحزامي . وروى جسيم بن إبراهيم ثنا القاسم بن الفضل حدثني عباد بن المعرف الفسكي^(١) عن عاصم بن

(١) كذا الاصل .

المنذر بن الزبير عن عبد الله بن الزبير أنه سمع علياً يقول : هلاك ملك بني أمية على رجل أحول - يعني هشاماً - .

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن عمر بن أبي معاذ النميري عن أبيه عن عمرو بن كليع عن سالم كاتب هشام بن عبد الملك : قال خرج علينا يوماً هشام وعليه كآبة وقد ظهر [عليه] الحزن ، فاستدعى الأبرش بن الوليد فجاءه فقال : يا أمير المؤمنين مالي أراك هكذا ؟ فقال : مالي لا أكون وقد زعم أهل العلم بالنجوم أنني أموت إلى ثلاث وثلاثين من يومى هذا . قال : فكتبنا ذلك ، فلما كان آخر ليلة من ذلك جاءني رسوله في الليل يقول : احضر معك دواء للذبحة ، وكان قد أصابته قبل ذلك ، فاستعمل منه فعوفي ، فذهبت إليه ومعى ذلك الدواء فتناولته وهو في وجع شديد ، واستمر فيه عامة الليل ، ثم قال : ياسالم اذهب إلى منزلك فقد وجدت خفة وقر الدواء عندي ، فذهبت فما هو إلا أن وصلت إلى منزلي حتى سمعت الصباح عليه ، فجئت فإذا هو قد مات .

وذكر غيره أن هشاماً نظر إلى أولاده وهم يبكون حوله فقال : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ما جمع ، وتركتم له ما كسب ، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له . ولما مات جاءت الخزنة فحتموا على حواصله وأرادوا تسخين الماء فلم يقدروا له على فحم حتى استعاروا له ، وكان نقش خانته الحكم للحكم الحكيم . وكانت وفاته بالرصافة يوم الأربعاء لست بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو ابن بضع وخمسين سنة ، وقيل إنه جاوز الستين ، وصلى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذي ولى الخلافة بعده ، وكانت خلافة هشام تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشر يوماً ، وقيل وثمانية أشهر وأيام فالله أعلم .

وقال ابن أبي فديك : ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن رسول الله (ص) قال : « ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة » . قال ابن أبي فديك : زينتها نور الإسلام وبهجته ، وقال غيره - يعني الرجال - والله أعلم .

قلت : لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية ، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحو من سبع سنين ، ولكن في اختلاف وهيج ، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة كما سيأتي إن شاء الله تعالى ذلك بسوطاً مقدرًا في مواضع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



بحمد الله قد تم الجزء التاسع من البداية والنهاية ويليه الجزء العاشر

وأوله خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

فهرست الجزء السابع

من كتاب البداية والنهاية

صحيفة	صحيفة
٣٣ جبير بن نفير	٢ ثم دخلت سنة اربع وسبعين
عبدالله بن جعفر بن ابي طالب	٣ ذكر من توفي فيها من الأعيان
٣٤ ابو ادريس الخولاني	ابو سعيد الخدري
معبد الجهني القدري	عبدالله بن عمر
ثم دخلت سنة احدى وثمانين	٥ عبيد بن عمير
٣٥ فتنة ابن الأشعث	٦ ابو جحيفة سلمة بن الأكوع
٣٧ سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر	مالك بن ابي عامر ابو عبد الرحمن السامي
عبدالله بن شداد ابن الهاد	ابو معرض الأسدي
٣٨ محمد بن علي بن ابي طالب	٧ بشر بن مروان
٣٩ ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين	ثم دخلت سنة خمس وسبعين
٤٠ وقعة دير الجماجم	١١ ابو ثعلبة الخشني
٤٣ اسماء بن خارجة الفزاري الكوفي	١٢ لأسود بن يزيد حران بن أبان
المغيرة بن المهلب الحارث بن عبدالله	ثم دخلت سنة ست وسبعين
محمد بن اسامة بن زيد بن حارثة	١٥ صلة بن اشيم العدوي
عبدالله بن ابي طلحة بن ابي الأسود	١٦ زهير بن قيس الهلوي
عبد الله بن كعب بن مالك	١٧ ثم دخلت سنة سبع وسبعين
٤٤ عفان بن وهب جميل بن عبدالله	١٩ مقتل شبيب عند ابن الكلبي
٤٦ عمر بن عبيد الله كميل بن زياد	٢١ عياض بن غنم الأشعري
٤٧ ذاذان ابو عمرو الكندي	مطرف بن عبدالله
ام الدرداء الصفري	ثم دخلت سنة ثمان وسبعين
ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين	٢٢ شريح بن الحارث
٥١ بناء واسط عبد الرحمن بن جحيرة	٢٦ عبدالله بن غنم جنادة بن أمية الأزدي
طارق بن شهاب عبيدالله بن عدي	العلاء بن زياد البصري
٥٢ ثم دخلت سنة اربع وثمانين	٢٧ ثم دخلت سنة تسع وسبعين
ايوب بن القرية	٣١ ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة
٥٣ روح بن زنباع الجذامي	٣٢ ومن توفي في هذه السنة من الأعيان
٥٤ ايوب بن القرية	اسلم مولى عمر بن الخطاب
روح بن زنباع	

صحيفة

- ٥٥ ثم دخلت سنة خمس وثمانين
 ٥٧ عبد العزيز بن مروان
 ٦٠ بيعة عبد الملك لولده الوليد ثم
 من بعده لولده سليمان
 ٦١ ثم دخلت سنة ست وثمانين
 عبد الملك بن مروان والد الخلفاء
 الأمويين
 ٦٩ ارطاة بن زفر مطرف بن عبدالله
 ٧٠ خلافة الوليد بن عبد الملك
 ٧١ ثم دخلت سنة سبع وثمانين
 ٧٣ نعتبة بن عبد السلمي
 المقدم بن معدى كرب
 ابو امامة الباهلي قبيصة بن زؤيب
 عروة بن المغيرة بن شعبة
 ٧٤ شريح بن الحارث بن قيس القاضي
 ثم دخلت سنة ثمان وثمانين
 ٧٥ ومن توفي فيها من الأعيان
 عبدالله بن بسر بن أبي بسر المازني
 عبدالله بن أبي أوفى
 ٧٦ وفيها توفي هشام بن اسماعيل
 عمير بن حكيم
 ثم دخلت سنة تسع وثمانين
 ٧٧ ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة
 ٨٠ يتاذوق الطيب خالد بن يزيد بن معاوية
 عبدالله بن الزبير
 ٨١ ثم دخلت سنة احدى وتسعين
 ٨٢ سهل بن سعد الساعدي
 ٨٣ ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين
 ٨٤ طويس المغني

صحيفة

- ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين
 ٨٥ فتح سمرقند
 ٨٨ انس بن مالك
 ٩٢ عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة
 ٩٣ بلال بن أبي الدرداء بشر بن سعيد
 زرارة بن أوفى خبيب بن عبدالله
 حفص بن عاصم سعيد بن عبد الرحمن
 فروة بن مجاهد ابو الشعثاء جابر بن زيد
 ٩٥ ثم دخلت سنة أربع وتسعين
 ٩٦ مقتل سعيد بن جبير رحمه الله
 ٩٨ ذكرى من توفي فيها من المشاهير
 ٩٩ سعيد بن المسيب
 ١٠١ طالق بن حبيب العنزي
 عروة بن الزبير بن العوام
 ١٠٣ علي بن الحسين
 ١١٥ ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث
 ١١٦ ثم دخلت سنة خمس وتسعين
 ١١٧ نزجة الحجاج بن يوسف الثقفي ووفاته
 فَضَيْلٌ
 ١٢٨ فَضَيْلٌ
 فيما روى عنه من الكلمات النافعة
 والجرأة البالغة .
 ١٤٠ ومن توفي فيها من الأعيان
 الحسن بن محمد بن الحنفية
 حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري
 ثم دخلت سنة ست وتسعين
 ١٥٤ فَضَيْلٌ
 فيما روى في جامع دمشق من الآثار وما

ابو الزاهرية حدير بن كريب الحمصي
 ابو الطفيل عامر بن وائلة
 ابو عثمان النهدي
 ١٩١ ثم دخلت سنة احدى ومائة
 ١٩١ وهذه ترجمة عمر بن عبد العزيز
 الامام المشهور رحمه الله
 ١٩٦ فضيلتك
 وقد كان منتظراً فيما يؤثر من الأخبار
 ٢٠٧ فضيلتك
 ٢٠٩ فضيلتك
 ٢٠٨ ذكر سبب وفاته رحمه الله
 ٢١٢ فضيلتك
 ٢١٩ خلافة يزيد بن عبد الملك
 ٢٢٠ ثم دخلت سنة ثنتين ومائة
 ٢٢٢ ولاية مسلمة علي بلاد العراق
 وخراسان
 ذكر وقعة جرت بين الترك والمسامين
 ٢٢٣ الضحاك بن مزاحم الهلالي
 ابو المتوكل الناجي
 ١٩١ ثم دخلت سنة ثلاث ومائة
 يزيد بن ابي مسلم
 ٢٢٤ مجاهد بن جبير المكي
 فضيلتك
 ٢٢٩ مصعب بن سعد بن ابي وقاص
 ثم دخلت سنة اربع ومائة
 ٢٣٠ خالد بن سعدان الكلاعي
 عامر بن سعد بن ابي وقاص الليثي
 عامر بن شراحيل الشعبي

ورد في فضله من الأخبار عن جماعة من
 السادة الأخيار
 ١٥٦ الكلام على ما يتعلق برأس يحيى
 بن زكريا عليها السلام
 ١٥٨ ذكر الساعات التي على بابه
 ١٥٩ ذكر ابتداء امر السبع بالجامع الاموي
 ١٦٠ فضيلتك
 ١٦١ وهذه ترجمة الوايد بن عبد الملك باني
 جامع دمشق وذكر وفاته في هذا العام
 ١٦٦ عبدالله بن عمر بن عثمان
 خلافة سليمان بن عبد الملك
 ١٦٧ مقتل قتيبة مسلم رحمه الله
 ١٦٩ ثم دخلت سنة سبع وتسعين
 ١٧٠ الحسن بن الحسن بن علي
 ١٧١ موسى بن نصير
 ١٧٤ ثم دخلت سنة ثمان وتسعين
 ١٧٧ عبدالله بن عبدالله بن عتبة
 ثم دخلت سنة تسع وتسعين
 ١٨٤ خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه
 ١٨٥ الحسن بن محمد بن الحنفية
 عبدالله بن محيريز بن جنادة بن عبيد
 ١٨٦ محمود بن لبيد بن عقبة
 نافع بن جبير بن مطعم كريب بن مسلم
 محمد بن جبير بن مطعم مسلم بن يسار
 ١٨٧ حنش بن عمرو الصنعاني
 خارجة بن زيد
 سنة مائة من الهجرة النبويه
 ١٨٩ وفيها كان بدو دعوة بني العباس
 ومن توفي فيها من الأعيان
 ١٩٠ ابو امامة سهل بن حنيف

صحيفة

٢٣١ ابو بردة بن ابو موسى الأشعري

ابو قلابة الجرمي

ثم دخلت سنة خمس ومائة

٢٣٣ خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

ابان بن عثمان بن عفان

ثم دخلت سنة ست ومائة

٢٥٠ القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق

وفيهما توفي كثير عزة الشاعر المشهور

٢٥٦ ثم دخلت سنة ثمان ومائة

٢٥٧ محمد بن كعب القرظي

ثم دخلت سنة تسع ومائة

٢٦٠ سنة عشر ومائة من الهجرة النبوية

٢٦٥ جرير الشاعر

وأما الفردق

٢٦٦ فأما الحسن بن ابي الحسن

٢٦٧ وأما ابن سيرين

فصل

٢٦٨ أما الحسن

٢٧٤ محمد بن سيرين

٢٧٦ وهيب بن منبه الياني

فصل

٣٠٢ سليمان بن سعد ام الهذيل

عائشة بنت طلحة بن عبدالله التميمي

عبدالله بن سعيد بن جبير

عبد الرحمن بن أبان

٣٠٣ ثم دخلت سنة احدى عشرة ومائة

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة ومائة

٣٠٤ رجاء بن حيوة الكندي

صحيفة

شهر بن حوشب الأشعري المحصي

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة

الأمير عبد الوهاب بن بخت

٣٠٥ مكحول الشامي

٣٠٦ ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة

عطاء بن ابي رباح

٣٠٩ ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة

ابو جعفر الباقر

فصل

٣١٢ ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة

٣١٢ ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة

قتادة بن دعامة السدوسي

٣١٤ فصل

٣١٩ نافع مولى ابن عمر

ذو الرمة الشاعر

٣٢٠ ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائة

علي بن عبدالله بن عباس

٣٢١ ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

٣٢٤ سنة عشرين ومائة من الهجرة

٣٢٦ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

٣٢٨ زيد بن علي بن الحسين بن علي بن

ابي طالب

مسلمة بن عبد الملك

٣٢٩ نمير بن قيس

ثم دخلت سنة ثنين وعشرين ومائة

٣٣١ عبدالله ابو يحيى المعروف بالبطل

٣٣٤ اياس الذكي

صحيفة

٣٣٨ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة
 ٣٣٩ ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة
 ٣٤٠ القاسم بن ابي بزة (١)

الزهري

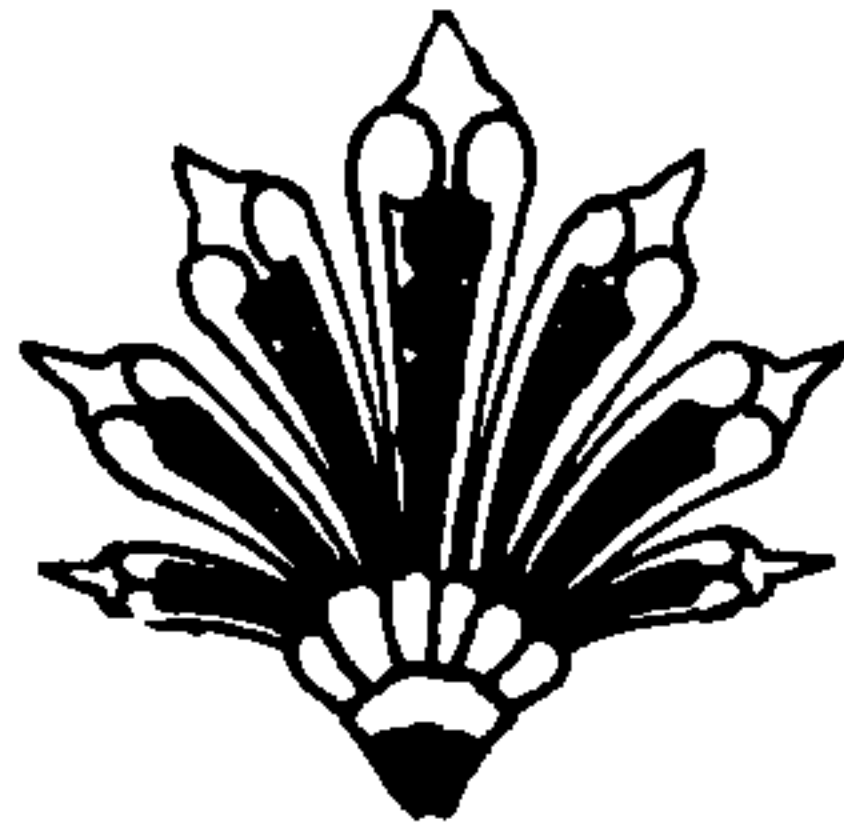
٣٤٤ فضيلة

٣٤٨ بلال بن سعد

٣٥٠ ترجمة الجعد بن درهم

٣٥١ ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة
 ذكر وفاته وترجمته رحمه الله

انتهى القهرست





الحافظ ابن كثير
الدمشقي المتوفى ٧٧٤هـ

الْبَيْدَانِيُّ وَالنَّهْشَابِيُّ

٥٥٥

الجزء العاشر

الطبعة الاولى ١٩٦٦

الطبعة الثانية ١٩٧٧

الطبعة الثالثة ١٩٨٠

ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ وذيلت بشروح
قامت بها هيئة باشراف الناشر

مكتبة المعارف
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

قال الواقدي : بويغ له بالخلافة يوم مات عمه هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء است خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة . وقال هشام بن الكلابي : بويغ له يوم السبت في ربيع الآخر ، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة . وكان سبب ولايته أن أباه يزيد بن عبد الملك كان قد جعل الأمر من بعده لأخيه هشام ثم من بعده لولده الوليد هذا ، فلما ولي هشام أكرم ابن أخيه الوليد حتى ظهر عليه أمر الشراب وخلطاء السوء ومجالس اللهو ، فأراد هشام أن يقطع ذلك عنه فأمره على الحج سنة ست عشرة ومائة ، فأخذ معه كلاب الصيد خفية من عمه ، حتى يقال إنه جعلها في صناديق فسقط منها صندوق فيه كلب فسمع صوته فاحلوا ذلك على الجمال فضرب على ذلك . قالوا : واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة ، ومن عزمه أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك ، واستصحب معه الخمر والآلات الملاحى وغير ذلك من المنكرات ، فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه ، من الجلوس فوق ظهر الكعبة خوفاً من الناس ومن إنكارهم عليه ذلك ، فلما تحقق عمه ذلك منه نهاه مراراً فلم يفته ، واستمر على حاله القبيح ، وعلى فعله الردي ، فمزم عمه على حمله من الخلافة - وليته فعل - وأن يولى بعده مسleme بن هشام ، وأجابه إلى ذلك جماعة من الامراء ، ومن أخواله ، ومن أهل المدينة ومن غيرهم ، وليت ذلك تم . ولكن لم ينتظم حتى قال هشام يوماً للوليد : وبحك ! والله ما أدري أعلى الأسلام أنت أم لا ، فانك لم تدع شيئاً من

المنكرات إلا أتيته غير متعاش ولا مستتر . فكتب إليه الوليد :

يا أيها السائل عن ديننا * ديني على دين أبي شاكر
نشرها صرفاً وممزوجة * بالسخن أحياناً وبالفتار

فغضب هشام على ابنه مسلمة ، وكان يسمى أباشاكر ، وقال له : تشبه الوليد بن يزيد وأنا أريد
أن أرقبك إلى الخلافة ، وبعثه على الموسم سنة تسع عشرة ومائة فأظهر النسك والوقار ، وقسم بمكة
والمدينة أموالاً ، فقال مولى لأهل المدينة :

يا أيها السائل عن ديننا * نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها * ليس بزندق ولا كافر

ووقعت بين هشام وبين الوليد بن يزيد وحشة عظيمة بسبب تعاطي الوليد ما كان يتعاطاه من
الفواحش والمنكرات ، فتنكر له هشام وعزم على خلعه وتولية ولده مسلمة ولاية العهد ، ففر منه الوليد
إلى الصحراء ، وجعل يتراسلن بأقبح المراسلات ، وجعل هشام يتوعده وعيداً شديداً ، ويتهدده ،
ولم يزل كذلك حتى مات هشام والوليد في البرية ، فلما كانت الليلة التي قدم في صبيحتها عليه البرد
بالخلافة ، قلق الوليد تلك الليلة قلقاً شديداً ، وقال لبعض أصحابه : ويحك قد أخذني الليلة قلق
عظيم فاركب لعلنا نسط ، فساروا ميلين يتكلمان في هشام وما يتعلق به ، من كتبه إليه بالتهديد
والوعيد ، ثم رأيا من بعد رجما وأصواتا وغباراً ، ثم انكشف ذلك عن برد يصدونه بالولاية ، فقال
لصاحبه : ويحك ! إن هذه رسل هشام ، اللهم اعطنا خيرها ، فلما اقتربت البرد منه وتبينوه ترجلوا
إلى الأرض وجاؤا فسلوا عليه بالخلافة ، فهت وقال : ويحكم أمات هشام ؟ قالوا : نعم ، قال : فمن
بعثكم ؟ قالوا : سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل ، وأعطوه الكتاب فقرأه ثم سألهم عن
أحوال الناس وكيف مات عمه هشام ، فأخبروه . فكتب من فوره بالاحتياط على أموال هشام
وحواله بالرصافة وقال :

ليت هشاماً عاش حتى يرى * مكياً الأوفر قد طبعما
كناه بالصاع الذي كاله * وما ظلمناه به إصبما
وما أتينا ذلك عن بدعة * أحله الفرقان لي أجمعا

وقد كان الزهري يحث هشاماً على خلع الوليد هذا ويستنهضه في ذلك ، فيحجم هشام عن ذلك
خوف الفضيحة من الناس ، ولئلا تنكر قلوب الأجناد من أجل ذلك ، وكان الوليد يفهم ذلك من
الزهري ويبغضه ويتوعده ويتهدده ، فيقول له الزهري : ما كان الله ليسلطك على يافاسق ، ثم مات
الزهري قبل ولاية الوليد ، ثم فر الوليد من عمه إلى البرية فلم يزل بها حتى مات ، فاحتاط على أموال

عنه ثم ركب من فوره من البرية وقصد دمشق ، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق ، وجاءته الوفود ، وكتب إليه مروان بن محمد - وهو إذ ذاك نائب أرمينية - يبارك له في خلافة الله له على عباده والتمكين في بلاده ، ويهنئه بموت هشام وظفره به ، والتحكيم في أمواله وحواسله ، ويذكر له أنه جدد البيعة له في بلاده ، وأنهم فرحوا واستبشروا بذلك ، ولولا خوفه من الثغر لاستتاب عليه وركب بنفسه شوقاً إلى رؤيته ، ورغبة في مشافهته ، ثم إن الوليد سار في الناس سيرة حسنة بادي الرأي وأمر باعطاء الزمنى والمجنومين والعميان لكل إنسان خادماً ، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين ، وزاد في أعطيات الناس ، ولا سيما أهل الشام والوفود ، وكان كريماً ممدحاً شاعراً مجيداً ، لا يسأل شيئاً قط فيقول لا ، ومن شعره قوله بمدح نفسه بالكرم :

ضمنت لكم إن لم تعنى عوائق * بان ساء الضر عنكم مستقلع
سيوشك الحاقّ معاً وزيادة * وأعطيه مني إليكم تبرع
محرمكم دوانكم وعطاؤكم * به يكتب الكتاب شهراً وتطبع

وفي هذه السنة عقد الوليد البيعة لابنه الحكم ثم عمان ، على أن يكونا وليي العهد من بعده ، وبعث البيعة إلى يوسف بن عمر أمير العراق وخراسان ، فأرسلها إلى نائب خراسان نصر بن سيار ، فخطب بذلك نصر خطبة عظيمة بليغة طويلة ، ساقها ابن جرير بكاملها ، واستوثق للوليد المالك في المشرق والمغرب ، وأخذت البيعة لولديه من بعده في الآفاق ، وكتب الوليد إلى نصر بن سيار بالاستقلال بولاية خراسان ، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فسأله أن يرد إليه ولاية خراسان فردها إليه كما كانت في أيام هشام ، وأن يكون نصر بن سيار ونوابه من تحت يده ، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يستوفده إلى أمير المؤمنين بأهله وعياله ، وأن يكثر من استصحاب الهدايا والتحف . فحمل نصر بن سيار ألف مملوك على الخيل ، وألف وصيفة وشيئا كثيراً من أباريق الفضة والذهب ، وغير ذلك من التحف ، وكتب إليه الوليد يستحثه سريعاً ويطلب منه أن يحمل معه طنابيراً وبرايط ومغنيات وبازات وبراذين فره ، وغير ذلك من آلات الطرب والفسق ، فكره الناس ذلك منه وكرهوه . وقال المنجمون لنصر بن سيار : إن الفتنة قريباً ستقع بالشام ، فجعل يتشاغل في سيره ، فلما أن كان بيهض الطريق جاءته البرد فأخبروه بأن الخليفة الوليد قد قتل وهاجت الفتنة العظيمة في الناس بالشام ، فعدل بما معه إلى بعض المدن فأقام بها ، وبلغه أن يوسف بن عمر قد هرب من العراق واضطربت الأمور ، وذلك بسبب قتل الخليفة على ما سنده ، وبالله المستعان .

وفي هذه السنة ولي الوليد يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ولاية المدينة ومكة والطائف ، وأمره أن يقيم إبراهيم ومحمداً ابني هشام بن إسماعيل الخزومي بالمدينة مهانين لكونهما خالي هشام ، ثم يبعث

بهما إلى يوسف بن عمر نائب العراق فبعثهما إليه . فما زال يعذبهما حتى ماتا وأخذ منهما أموالاً كثيرة .
وفي هذه السنة ولى يوسف بن محمد بن يحيى بن سعيد الانصارى قضاء المدينة ، وفيها بعث الوليد بن
يزيد إلى أهل قبرص جيشاً مع أخيه وقال : خبرهم فمن شاء أن يتحول إلى الشام ، ومن شاء أن
يتحول إلى الروم ، فكان منهم من اختار جوار المسلمين بالشام ، ومنهم من انتقل إلى بلاد الروم .
قال ابن جرير : وفيها قدم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب
فلقوا - في قول بعض أهل السير - محمد بن علي فأخبروه بقصة أبي مسلم فقال : أحر هو أم لا ؟ فقالوا :
أما هو فيزعم أنه حر ، وأما مولاه فيزعم أنه عبده ، فاشتروه فأعتقوه ، ودفعوا إلى محمد بن علي مائتي
ألف درهم وكسوة بثلاثين ألفاً ، وقال لهم : لعنكم لا تلقوني بعد عامكم هذا ، فان مات فان صاحبكم
إبراهيم بن محمد - يعني ابنه - فانه ابني ، فأوصيكم به . ومات محمد بن علي في مستهل ذي القعدة في
هذه السنة بعد أبيه بسبع سنين . وفيها قتل يحيى بن زيد بن علي بخراسان . وحج بالناس فيها يوسف
ابن محمد الثقفي أمير مكة والمدينة والطائف . وأمير العراق يوسف بن عمر ، وأمير خراسان نصر بن
سيار ، وهو في همة الوفود إلى الوليد بن يزيد أمير المؤمنين بما معه من الهدايا والتحف ، فقتل الوليد
قبل أن يجتمع به . ومن توفى فيها من الأعيان :

محمد بن علي

ابن عبد الله بن عباس أبو عبد الله المدني ، وهو أبو السفاح والمنصور ، روى عن أبيه وجده
وسعيد بن جبير وجماعة ، وحدث عنه جماعة منهم ابنه الخليفة ، أبو العباس عبد الله السفاح ،
وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وقد كان عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى إليه بالأمر من بعده
وكان عنده علم بالأخبار ، فبشره بأن الخلافة ستكون في ولدك ، فدعا إلى نفسه في سنة سبع
وثمانين ، ولم يزل أمره يتزايد حتى توفى في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها ،
عن ثلاث وستين سنة ، وكان من أحسن الناس شكلاً ، فأوصى بالأمر من بعده لولده إبراهيم ، فما
أبرم الأمر إلا لولده السفاح ، فاستلب من بني أمية الأمر في سنة ثنتين وثلاثين كما سيأتي .

وأما يحيى بن يزيد

ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فانه لما قتل أبوه زيد في سنة إحدى وعشرين ومائة ،
لم يزل يحيى مختفياً في خراسان عند الحرّيش بن عمرو بن داود ببلخ ، حتى مات هشام ، فكتب
عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سييار يخبره بأمر يحيى بن زيد ، فكتب نصر بن سييار إلى
نائب بلخ مع عقيل بن معقل العجلي ، فأحضر الحرّيش فعاقبه ستمائة سوط فلم يدل عليه ، وجاء ولد
الحرّيش فدلهم عليه فجلس ، فكتب نصر بن سييار إلى يوسف بذلك ، فبعث إلى الوليد بن يزيد

يخبر بذلك ، فكتب الوليد إلى نصر بن سيار يأمره بإطلاقه من السجن وإرساله إليه صحبة أصحابه ، فأطلقهم وأطلق لهم وجهزهم إلى دمشق ، فلما كانوا ببعض الطريق نوسم نصر منه غدرآ ، فبعث إليه جيشا عشرة آلاف فكسرهم يحيى بن زيد ، وإنما معه سبعون رجلا ، وقتل أميرهم واستلب منهم أموالا كثيرة ، ثم جاءه جيش آخر فقتلوه واحتزوا رأسه وقتلوا جميع أصحابه رحمهم الله ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهذه ترجمته

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، أبو العباس الأموي الدمشقي ، بويع له بالخلافة بعد عمه هشام في السنة الخالية بعهد من أبيه كما قدمنا . وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي . وكان مولده سنة تسعين ، وقيل ثنتين وتسعين ، وقيل سبع وثمانين ، وقتل يوم الخميس ليلتين بقيتا في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ، ووقعت بسبب ذلك فتنة عظيمة بين الناس بسبب قتله ، ومع ذلك إنما قتل لفسقه ، وقيل وزندقته . وقد قال الامام أحمد : حدثنا أبو المنيرة ثنا بن عياش حدثني الأوزاعي وغيره عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : ولد لآخي أم سلمة زوج النبي (ص) غلام فسموه الوليد ، فقال النبي (ص) : « سميتوه باسم فراعيسكم ، ليكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد ، هو أشد فسادا لهذه الأمة من فرعون لقومه » . قال الحافظ ابن عساکر : وقد رواد الوليد بن مسلم ومعتل بن زياد ومحمد بن كثير وبشر بن بكر عن الأوزاعي فلم يذكر وا عمر في إسناده وأرسلوه ، ولم يذكر ابن كثير سعيد بن المسيب ، ثم ساق طريقه هذه كلها بأسانيدها وألفاظها . وحكى عن البيهقي أنه قال : هو مرسل حسن ، ثم ساق من طريق محمد بن محمد بن عمر بن عطاء عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت : « دخل النبي (ص) ، وعندى غلام من آل المنيرة اسمه الوليد ، فقال : من هذا يا أم سلمة ؟ قالت : هذا الوليد ، فقال النبي (ص) : قد اتخذتم الوليد خنانا (حسانا) غيروا اسمه ، فإنه سيكون في هذه الأمة فرعون يقال له الوليد » . وروى ابن عساکر من حديث عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا محمد بن غالب الأنطاكي ثنا محمد بن سليمان بن أبي داود ثنا صدقة عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة ابن الجراح عن النبي (ص) قال : « لا يزال هذا الأمر قائما بالتسقط حتى ينلمه رجل من بني أمية » .

مقتله وزوال دولته

كان هذا الرجل مجاهرا بالفواحش مصرا عليها ، منتهكا محارم الله عز وجل ، لا يتحاشى من مصيبة . وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين ، فالله أعلم ، لكن الذي يظهر أنه كان عاضيا شاعرا ما جنا متعاطيا للمعاصي ، لا يتحاشاها من أحد ، ولا يستحي من أحد ، قبل أن يلي

الخلافة وبعد أن ولي ، وقد روى أن أخاه سليمان كان من جملة من سعى في قتله ، قال : أشهد أنه كان شروباً للخمر ما جنا فاسقاً ، ولقد أرادني على نفسي الفاسق . وحكى المعافى بن زكريا عن ابن دريد عن أبي حاتم عن العتبي أن الوليد بن يزيد نظر إلى نصرانية من حسان نساء النصارى اسمها سفري فأحبها ، فبعث براودها عن نفسها فأبت عليه ، فألح عليها وعشقها فلم تطاوعه ، فاتفق اجتماع النصارى في بعض كنائسهم لعيد لهم ، فذهب الوليد إلى بستان هناك فتنكر وأظهر أنه مصاب ، فخرج النساء من الكنيسة إلى ذلك البستان ، فرأينه فأحدقن به ، فجعل يكلم سفري ويحدثها وتضحك ولا تعرفه ، حتى اشتفى من النظر إليها ، فلما انصرفت قيل لها : ويحك أتدريين من هذا الرجل ؟ فقالت : لا أفتيل لها هو الوليد . فلما تحققت ذلك حنت عليه بعد ذلك وكانت عليه أحرص منه عليها قبل أن نحن عليه . فقال الوليد في ذلك أبياتا :

أضحك فؤادك يا وليد عبيداً * صبأ قديماً للحسان صيودا
في حبٍ واضحة العوارض طفلةٍ * برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
مازلت أرمقها بعيني واهقٍ * حتى بصرتُ بها تقبلُ عودا
عود الصليب فويح نفسي من رأى * منكم صليباً مثله معبودا
فسألتُ ربي أن أكون مكانه * وأكون في لهب الجحيم وقودا

وقال فيها أيضا لما ظهر أمره وعلم بحاله الناس . وقيل إن هذا وقع قبل أن يلي الخلافة :

الأحبذا سفري وإن قيل إنني * كلفت بنصرانية تشرب الخمر
يهون علينا أن نظل نهارنا * إلى الليل لاظهر أنصلي ولا عصرا

قال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري المعروف بابن طرار النهرواني بعد إرادته هذه الأشياء : لا وليد في نحو هذا من الخلاعة والمجون وسخافة الدين ما يطول ذكره ، وقد ناقضناه في أشياء من منظوم شعره المتضمن ركيك ضلالة وكفره . وروى ابن عساكر بسنده أن الوليد سمع بخمار صاف بالحيرة فقصدته حتى شرب منه ثلاثة أرتال من الخمر ، وهو راكب على فرسه ، ومعه اثنان من أصحابه ، فلما انصرف أمر للخمار بخمسمائة دينار . وقال القاضي أبو الفرج : أخبار الوليد كثيرة قد جمعها الأخباريون مجموعة ومفردة ، وقد جمعت شيئاً من سيرته وأخباره ، ومن شعره الذي ضمنه ما فجر به من جرأته وسفاهته وحمقه وهزله ومجونه وسخافة دينه ، وما صرح به من الالحاد في القرآن العزيز ، والكفر بمن أنزله وأنزل عليه ، وقد عارضت شعره السخيف بشعر حصيف ، وباطله بحق نبيه شريف ، وترجيت رضاه الله عز وجل واستيجاب مغفرته .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا سليمان بن أبي شيخ ثنا صالح بن سليمان ، قال : أراد الوليد

ابن يزيد الحج وقال : أشرب فوق ظهر الكعبة الحمر ، فبهوا ان يفتكوا به إذا خرج ، فجاءوا إلى خالد ابن عبد الله القسري فسألوه أن يكون معهم فأبى ، فقالوا له : فاكتم علينا ، فقال : أما هذا فنعيم ، فجاء إلى الوليد فقال : لا تخرج فاني أخاف عليك ، فقال : ومن هؤلاء الذين تخافهم علي ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : إن لم تخبرني بهم بعثت بك إلى يوسف بن عمر ، قال : وإن بعثت بي إلى يوسف ابن عمر ، فبعثته إلى يوسف فعاقبه حتى قتله . وذكر ابن جرير أنه لما امتنع أن يعلمه بهم سجنه ثم سلمه إلى يوسف بن عمر يستخلص منه أموال العراق فقتله ، وقد قيل إن يوسف لما وفد إلى الوليد اشترى منه خالد بن عبد الله القسري بخمسين ألف ألف يخلصها منه ، فما زال يعاقبه ويستخلص منه حتى قتله ، ففضبت أهل اليمن من قتله ، وخرجوا على الوليد .

قال الزبير بن بكار : حدثنا مضعب بن عبد الله قال سمعت أبي يقول : كنت عند المهدي فذكر الوليد بن يزيد فقال رجل في المجلس : كان زنديقاً ، فقال المهدي : خلافة الله عنده أجل من أن يجملها في زنديق . وقال أحمد بن عمر بن حوصاء الدمشقي : ثنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا الوليد ابن مسلم ثنا حصين بن الوليد عن الأزهرى بن الوليد قال : سمعت أم الدرداء تقول : إذا قتل الخليفة الشاب من بني أمية بين الشام والعراق مظلوماً لم يزل طاعة مستخف بها ودم مسفوك على وجه الأرض بغير حق . قال الامام أبو جعفر بن جرير الطبري .

قتل يزيد بن الوليد الناقص للوليد بن يزيد

فقد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخيالاته ومجاناته وفسقه وما ذكر عن تهاونه بالصلوات واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته وبعدها . فانه لم يزد في الخلافة إلا شراً وهواً ولذة وركوباً للصيد وشرب المسكر ومنادمة الفساق ، فمآزده الخلافة على ما كان قبلها إلا تمادياً وغروراً ، فقتل ذلك على الأمراء والرعية والجنود ، وكرهوه كراهة شديدة ، وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه ، إفساده على نفسه بنى عميه هشام والوليد بن عبد الملك مع إفساده اليمانية ، وهي أعظم جند خراسان ، وذلك أنه لما قتل خالد بن عبد الله القسري وسلمه إلى غريمه يوسف بن عمر الذي هو نائب العراق إذ ذاك ، فلم يزل يعاقبه حتى هلك ، انقلبوا عليه وتسكروا له وساءم قتله كما سنذكره في ترجمته . ثم روى ابن جرير بسنده أن الوليد بن يزيد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان فحبسه بها ، فلم يزل هناك حتى قتل الوليد ، وأخذ جارية كانت لآل عمه الوليد بن عبد الملك ، فكلمه فيها عمر بن الوليد فقال : لا أردّها ، فقال : إذا تكثرت لصواهل حول عسكري . وحبس الأقمم يزيد بن هشام ، وبايع لولديه الحكم وعثمان ، وكانا دون

بببب

البلوغ ، فشق ذلك على الناس أيضا ونصحوه فلم ينتصح ، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل .
قال المدائني في روايته : ثقل ذلك على الناس ورواه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر والزندقه
وغشيان أمهات أولاد أبيه ، وباللواط وغيره ، وقالوا : قد اتخذنا مائة جامعة على كل جامعة اسم رجل
من بني هاشم ليقتله بها ، ورموه بالزندقة ، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان
الناس إلى قوله أميل ، لأنه أظهر الفسك والتواضع ، ويقول ما يسعنا الرضا بالوليد حتى حمل الناس
على الفتك به ، قالوا : وانتدب للقيام عليه جماعة من قضاة واليهامية وخلق من أعيان الأمراء وآل
الوليد بن عبد الملك ، وكان انقائم بأعباء ذلك كاه والداعي إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ،
وهو من سادات بني أمية ، وكان ينسب إلى الصلاح والدين والورع ، فبايعه الناس على ذلك ، وقد
نهض أخوه العباس بن الوليد فلم يقبل ، فقال : والله لولا أمي أخاف عليك لقيدتك وأرسلتك إليه ،
واتفق خروج الناس من دمشق من وباء وقع بها ، فكان ممن خرج الوليد بن يزيد أمير المؤمنين
في طائفة من أصحابه نحو المائتين ، إلى ناحية مشارف دمشق ، فانتظم إلى يزيد بن الوليد أمره وجعل
أخوه العباس ينهيه عن ذلك أشد النهي ، فلا يقبل ، فقال العباس في ذلك :

إني أعينكم بالله من قتل * مثل الجبال تسمى ثم تندفع
إن البرية قد ملئت سيامتكم * فاستمروا بعباد الدين وارتدعوا
لا تلجمن ذئب الناس أنفسكم * إن الذئب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم * فتم لا حسرة تغني ولا جزع

فلما استوثق ليزيد بن الوليد أمره ، وبايعه من بايعه من الناس ، قصد دمشق فدخلها في غيبة
الوليد فبايعه أكثر أهلها في الليل ، وبلغه أن أهل المزة قد بايعوا كبيرهم معاوية بن مصاد ، فمضى
إليه يزيد ماشيا في نفر من أصحابه ، فأصابهم في الطريق خطر شديد ، فأثوه فطرقوا بابه ليلا ثم دخلوا
فكلمه يزيد في ذلك فبايعه معاوية بن مصاد ، ثم رجع يزيد من ليلته إلى دمشق على طريق القنطرة
وهو على حمار أسود ، فخلف أصحابه أنه لا يدخل دمشق إلا في السلاح ، فلبس سلاحا من تحت ثيابه
فدخلها ، وكان الوليد قد استناب على دمشق في غيبته عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف
الثقفي ، وعلى شرطها أبو العجاج كثير بن عبد الله السلمي ، فلما كان ليلة الجمعة اجتمع أصحاب يزيد
بين المشائين عند باب الفراديس ، فلما أذن العشاء الآخرة دخلوا المسجد ، فلما لم يبق في المسجد
غيرهم بعثوا إلى يزيد بن الوليد فجاءهم فقصوا باب المتصورة ففتح لهم خادم ، فدخلوا فوجدوا أبا العجاج
وهو سكران ، فأخذوا خزائن بيت المال وتسلوا الحواصل ، وتوقوا بالأسلحة ، وأمر يزيد باغلاق
أبواب البلد ، وأن لا يفتح إلا لمن يعرف ، فلما أصبح الناس قدم أهل الحواضر من كل جانب

ببببب

فدخلوا من سائر أبواب البلد ، كل أهل محلة من الباب الذي يليهم ، فكثرت الجيوش حول يزيد ابن الوليد بن عبد الملك في نصرته ، وكلهم قد بايعه بالخلافة . وقد قال فيه بعض الشعراء في ذلك : -

فجاءتهم أنصارهم حين أصبحوا * سكاسكها أهل البيوت الصنادير
وكلب فجاؤهم بخيل وعدة * من البيض والابدان ثم السواعد
فأكرم بها أحياء انصار سنّة * هم منعوها حرمتها كل جاحد
وجاءتهم شيبان والازد شرعاً * وعبس ونلم بين حام وذائد
وغسان والحيان قيس وتغلب * واحجم عنها كل وان وزاهد
فما أصبحوا إلا وهم أهل ملكها * قد استوثقوا من كل عات ومراد

و بعث يزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مصاد في مائتي فارس إلى قطنا ليأتوه بعبد الملك بن محمد ابن الحجاج نائب دمشق وله الأمان ، وكان قد تحصن هناك ، فدخلوا عليه فوجدوا عنده خرجين في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار ، فلما مروا بالمرزة قال أصحاب ابن مصاد : خذ هذا المال فهو خير من يزيد بن الوليد ، فقال : لا والله لا تحدث العرب أني أول من خان ، ثم أتوا به يزيد بن الوليد فاستخدم من ذلك المال جندا للقتال قريباً من أنفي فارس ، و بعث به مع أخيه عبدالعزيز بن الوليد بن عبد الملك خلف الوليد بن يزيد ليأتوا به ، وركب بعض موالى الوليد فرسا سابقاً فساق به حتى انتهى إلى مولاة من الليل ، وقد نفق الفرس من السوق ، فأخبره الخبر فلم يصدقه وأمر بضربه ، ثم تواترت عليه الأخبار فأشار عليه بعض أصحابه أن يتحول من منزله ذاك إلى حصن فانها حصينة . وقال الأبرش سعيد بن الوليد السكابي : انزل على قومي بتدمر ، فأبى أن يقبل شيئاً من ذلك ، بل ركب بمن معه ، وهو في مائتي فارس ، وقصد أصحاب يزيد فالتقوا بثقله في أثناء الطريق فأخذوه ، وجاء الوليد فنزل حصن البغراء الذي كان للزمان بن بشير ، وجاءه رسول العباس بن الوليد إني آتيتك - وكان من أنصاره - فأمر الوليد بإبراز سريره فجلس عليه وقال . أعلى يتوذب الرجال وأنا أثب على الأسد وأنخصر الأفاعي ؟ وقدّم عبد العزيز بن الوليد بمن معه ، وإنما كان قد خلاص معه من الأنفي فارس ثمانمائة فارس ، فتصافوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل من أصحاب العباس جماعة حملت رؤسهم إلى الوليد ، وقد كان جاء العباس بن الوليد لنصرة الوليد بن يزيد ، فبعث إليه أخوه عبد العزيز فجئ به قهراً حتى بايع أخيه يزيد بن الوليد ، واجتمعوا على حرب الوليد بن يزيد ، فلما رأى الناس اجتماعهم فروا من الوليد إليهم ، وبقي الوليد في ذل وقل من الناس ، فلجأ إلى الحصن فجاؤا إليه وأحاطوا به من كل جانب يحاصرونه ، فدنا الوليد من باب الحصن فنادى ليكلمني رجل شريف ، فكلمه يزيد بن عنبسة السكبي ، فقال الوليد : ألم أدفع الموت عنكم ؟

ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم نساءكم ؟ فقال يزيد : إنما نقم عليك انتهائك المحارم وشرب الخمر
ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله عز وجل . فقال ، حسبك يا أبا السكاك ، لقد
أكثر وأغرقت ، وإن فيما أحل الله لي لسعة عما ذكرته . ثم قال : أما والله لئن قتلتني لارتعن
فتنتكم ولا يلم شمشكم ولا تجتمع كلتكم . ورجع إلى القصر فجلس ووضع بين يديه مصحفا فشره
وأقبل يقرأ فيه وقال : يوم كيوم عثمان ، واستسلم ، وتسور عليه أولئك الحائط ، فكان أول من نزل
إليه يزيد بن عنبسة ، فتقدم إليه وإلى جانبه سيف فقال : نحه عنك ، فقال الوليد : لو أردت القتال
به لكان غير هذا ، فأخذ بيد وهو يريد أن يجده حتى يبعث به إلى يزيد بن الوليد ، فبادره
عليه عشرة من الأمراء فأقبلوا على الوليد يضربونه على رأسه ووجهه بالسيوف حتى قتلوه ، ثم جروه
برجله ليخرجوه ، فصاحت النسوة فتركوه ، واحتز أبو علفة القضاء رأسه ، واحتاطوا على ما كان
مه مما كان خرج به في وجهه ذلك ، وبعثوا به إلى يزيد مع عشرة نفر ، منهم منصور بن جمهور
وروح بن مقبل وبشر مولى كنانة من بني كلب ، وعبد الرحمن الملقب بوجه الفرس ، فلما انتهوا إليه
بشروه بقتل الوليد وسلوا عليه بالخلافة ، فأطلق لكل رجل من العشرة عشرة آلاف ، فقال له
روح بن بشر بن مقبل : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد الفاسق ، فسجد شكرا لله ورجعت
الجيش إلى يزيد ، فكان أول من أخذ يده المبايع يزيد بن عنبسة السكسكي فانتزع يده من يده
وقال : اللهم إن كان هذا رضى لك فأعني عليه ، وكان قد جعل لمن جاءه برأس الوليد مائة ألف
درهم ، فلما جرى به - وكان ذلك ليلة الجمعة وقيل يوم الأربعاء - لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة
سنة ست وعشرين ومائة . فأمر يزيد بنصب رأسه على رمح وأن يطاف به في البلد ، فقيل له إنما
ينصب رأس الخارجى ، فقال : والله لأنصبه ، فشهره في البلد على رمح ثم أودعه عند رجل شهر ثم
بعث به إلى أخيه سليمان بن يزيد ، فقال أخوه بعدله : أشهد أنك كنت شروبا للخمر ماجنا فاستقا
والقد أراذنى على نفسى هذا الفاسق وأنا أخوه ، لم يأنف من ذلك . وقد قيل إن رأسه لم يزل معلقا
بمحائط جامع دمشق الشرقى مما يلي الصحن حتى انقضت دولة بني أمية ، وقيل إنما كان ذلك أنردمه ،
وكان عمره يوم قتل ستا وثلاثين سنة ، وقيل ثمانيا وثلاثين ، وقيل إحدى وثلاثين ، وقيل ثنتان وقيل
خمس ، وقيل ست وأربعون سنة . ومدة ولايته سنة وستة أشهر على الأشهر ، وقيل ثلاثة أشهر . قال
ابن جرير : كان شديد البطش طويل أصابع الرجلين ، كانت تضرب له سكة الحديد في الأرض ويربط
فيها خيط إلى رجله ثم يثب على الفرس فيركبها ولا يمس الفرس ، فتقطع تلك السكة من الأرض
مع وثبته .

خلاقة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وهو الملقب بالناقص لنتقصه الناس من أعطيتهم ما كان زاده الوليد بن يزيد في أعطيتهم ،

وهي عشرة عشرة ، و رده إليهم إلى ما كانوا عليه في زمن هشام ، ويقال إن أول من لقبه بذلك مروان بن محمد ، بويع له بالخلافة بعد مقتل الوايد بن يزيد ، وذلك ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة من هذه السنة - حتى سنة ست وعشرين ومائة - وكان فيه صلاح وورع قبل ذلك ، فأول ما عمل انتقاصه من أرزاق الجند ما كان الوايد زاعم ، وذلك في كل سنة عشرة عشرة ، فسمى الناقص لذلك ، ويقال في المثل الأشج والناقص أعدلا خلفاء بني مروان - يعني عمر بن عبد العزيز وهذا - ولكن لم تطل أيامه ، فإنه توفي من آخر هذه السنة ، واضطربت عليه الأمور ، وانتشرت الفتن واختلفت كلمة بني مروان فنهض سليمان بن هشام ، وكان معتقلا في سجن الوايد بعمان فاستحوز على أموالها وحواصلها ، وأقبل إلى دمشق فجعل يلعن الوايد ويعيبه ويرميه بالكفر ، فأكرمه يزيد ورد عليه أمواله التي كان أخذها من الوليد ، وتزوج يزيد أخت سليمان ، وهي أم هشام بنت هشام ، ونهض أهل حمص إلى دار العباس بن الوليد التي عندهم فهدموها ، وحبسوا أهلها وبنيد ، وهرب هو من حمص فاحق يزيد بن الوليد إلى دمشق ، وأظهر أهل حمص الأخذ بدم الوايد بن يزيد ، وأغلقوا أبواب البلد ، وأقاموا النوائح والبواكي على الوليد ، وكتبوا الأجناد في طلب الأخذ بالنار ، فأجابهم إلى ذلك طائفة كبيرة منهم ، على أن يكون الحكيم بن الوليد بن يزيد الذي أخذ له العهد هو الخليفة ، وخلصوا نائهم ، وهو مروان بن عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ثم قتلوه وقتلوا ابنه وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد كتب إليهم كتابا مع يعقوب بن هاني ، ومضمون الكتاب أنه يدعو إلى أن يكون الأمر شوري ، فقال عمرو ابن قيس : فإذا كان الأمر كذلك فقد رضينا بولي عهدنا الحكم بن الوليد ، فأخذ يعقوب بلحينه وقال : ويحك ! لو كان هذا الذي تدعو إليه يتبعها تحت حجرك لم يحل لك أن تدفع إليه ماله ، فكيف أمر الأمة ، فوثب أهل حمص على رسل يزيد بن الوليد فطردوهم عنهم وأخرجوهم من بين أظهرهم . وقال لهم أبو محمد السفياي : لو قدمت دمشق لم يختلف على منهم اثنان ، فركبوا معه وساروا نحو دمشق وقد أمروا عليهم السفياي ، فتلقاهم سليمان بن هشام في جيش كثيف قد جهزهم معه يزيد ، وجهز أيضا عبد العزيز بن الوليد في ثلاثة آلاف يكونون عند ثنية العقاب ، وجهز هشام بن مصاد المزني في ألف وخمسمائة ليكنوا على عقبة السلمية ، فخرج أهل حمص فساروا وتركوا جيش سليمان ابن هشام ذات اليسار وتعدود . فلما سمع بهم سليمان ساق في طلبهم فلحقهم عند السلمانية فجعلوا الزيتون عن أيمنهم والجبل عن شمائلهم والحيات من خلفهم ، ولم يبق نخلص إليهم إلا من جهة واحدة ، فاقتتلوا هنالك في قبالة الحر قتالا شديدا ، فقتل طائفة كثيرة من الفريقين ، فبينما هم كذلك إذ جاء عبد العزيز بن الوليد بمن معه فحمل على أهل حمص فاخترق جيشهم حتى ركب التل الذي

في وسطهم ، وكانت الهزيمة ، فهرب أهل حصص وتفرقوا ، فاتبعهم الناس يقتلون ويأسرون ، ثم تنادوا بالكف عنهم على أن يبايعوا يزيد بن الوليد ، وأسروا منهم جماعة ، منهم أبو محمد السفيناني ويزيد ابن خالد بن معاوية ، ثم ارتحل سليمان وعبد العزيز قزلا عذراء ومعهم الجيوش وأشرف الناس ، وأشرف أهل حصص من الأسارى ومن استجاب من غير أسر ، بعد ما قتل منهم ثلاثمائة نفس ، فدخلوا بهم على يزيد بن الوليد ، فأقبل عليهم وأحسن إليهم وصفح عنهم ، وأطلق الأعتيات لهم ، لاسيما لأشرفهم ، وولى عليهم الذي اختاروه وهو معاوية بن يزيد بن الحصين ، وطابت عليه أنفسهم ، وأقاموا عنده في دمشق سامعين مطيعين له .

وفيها بايع أهل فلسطين يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن بنى سليمان كانت لهم أملاك هناك ، وكانوا يتركونها يبدلون لها ، وكان أهل فلسطين يحبون مجاورتهم ، فلما قتل الوليد بن يزيد كتب سعيد بن روح بن زنباع - وكان رئيس تلك الناحية - إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك يدعوهم إلى المبايعة له ، فأجابوه إلى ذلك . فلما بلغ أهل الأردن خبرهم بايعوا أيضا محمد بن عبد الملك ابن مروان ، وأمرود عليهم ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد أمير المؤمنين بعث إليهم الجيوش مع سليمان بن هشام في الدماشقة وأهل حصص الذين كانوا مع السفيناني ، فصالحهم أهل الأردن أولا ورجعوا إلى الطاعة ، وكذلك أهل فلسطين . وكتب يزيد بن الوليد ولاية الامرة بالرملة وتلك النواحي إلى أخيه إبراهيم بن الوليد ، واستقرت الممالك هنالك ، وقد خطب أمير المؤمنين يزيد ابن الوليد الناس بدمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد أيها الناس ، أما والله ما خرجت أشرا ولا بطرا ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطرأ نفسي إني اظلم لنفسي ، إن لم يرحمني ربي فاني هالك ، واكسى خرجت غضبا لله ولرسوله ولدينه ، وداعيا إلى الله وكتابه وسنة نبيه محمد ص . ، لما هدمت معالم الدين ، وأطفى نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العبيد المستحل لكل حرمة ، والراكب كل بدعة ، مع أنه والله ما كان مصدقا بالكتاب ، ولا مؤمنا بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في النسب ، وكفوى في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجايني من أهل ولايتي ، وصعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد ، بحول الله وقوته لا بحولى ولا بفوتى . أيها الناس ! إن لكم على أن لا أضع حجرا على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة ، ولا ولدا . ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغر ذلك البلد ، وخصاصة أهله عما يغنيهم ، فإن فضل عن ذلك فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه ، ولا أجمركم في ثمركم فأنفتم وأقتن أهليكم ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويمكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل

جزيتكم ما يجلبهم عن بلادهم ويقطع سبلهم ، وإن لكم عندي أعطياتكم في كل سنة ، وأرزاقكم في كل شهر ، حتى تستمروا المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ، فإن أنا رفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن أنا لم أوف لكم فلمكم أن نخلموني وإلا أن تستنبيوني ، فإن تبت قبلتم مني ، وإن علمتم أحدا من أهل الصلاح والدين يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته . أيها الناس ! إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، إنما الطاعة طاعة الله فمن أطاع الله فأطيعوه ما أطاع الله ، فإذا عصى أو دعا إلى معصية فهو أهل أن يعصى ولا يطاع ، بل يقتل ويهان ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

وفي هذه السنة عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمر عن إمرة العراق لما ظهر منه من الخلق على اليمانية ، وهم قوم خالد بن عبد الله القسري ، حتى قتل الوليد بن يزيد ، وكان قد سجن غالب من ببلاده منهم ، وجعل الأرصاء على الثغور خوفاً من جند الخليفة ، فمزله عنها أمير المؤمنين يزيد بن الوليد ، وولي عليها منصور بن جمهور مع بلاد السند وسجستان وخراسان ، وقد كان منصور بن جمهور أعرابياً جلفاً ، وكان يدين بمتدب الفيلانية القدرية ، ولكن كانت له آثار حسنة ، وعناء كثير في مقتل الوليد بن يزيد ، فحظى بذلك عند يزيد بن الوليد ، ويقال إنه لما فرغ الناس من الوليد ذهب من فوره إلى العراق فأخذ البيعة من أهلها إلى يزيد ، وقرر بالأقاليم نواباً وعمالاً وكر اجماً إلى دمشق في آخر رمضان ، فذلك ولاء الخليفة ما ولاء والله أعلم .

وأما يوسف بن عمر فإنه فر من العراق فلاحق ببلاد البلقاء ، فبعث إليه أمير المؤمنين يزيد فأحضره إليه ، فلما وقف بين يديه أخذ بلحيته - وكان كبير اللحية جدا ، ربما كانت تجاوز سرتة وكان قصير القامة - فوبخه وأنبه ثم سجنه وأمر باستخلاص الحقوق منه . ولما انتهى منصور بن جمهور إلى العراق قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليهم في كيفية مقتل الوليد ، وأن الله أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وأنه قد ولي عليهم منصور بن جمهور لما يعلم من شجاعته ومعرفته بالحرب ، فبايع أهل العراق ليزيد بن الوليد ، وكذلك أهل السند وسجستان .

وأما نصر بن سيار نائب خراسان فإنه امتنع من السمع والطاعة لمنصور بن جمهور ، وأبى أن ينقاد لأوامره ، وقد كان نصر هذا جهز هدايا كبيرة للوليد بن يزيد فاستمرت له . وفي هذه السنة كتب مروان الملقب بالحمار كتاباً إلى عمر بن يزيد أخى الوليد بن يزيد ، يحثه على القيام بطلب دم أخيه الوليد ، وكان مروان يومئذ أميراً على أذربيجان وأرمينية ، ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور ابن جمهور عن ولاية العراق وولى عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقال له : إن أهل العراق يحبون أباك فقد وليتها ، وذلك في شوال ، وكتب له إلى أمراء الشام الذين بالعراق بوصيهم به

خشية أن يمتنع منصور بن جمهور من تسليم البلاد إليه ، فسلم إليه وسمع وأطاع وسلم . وكتب الخليفة إلى نصر بن سيار باستمراره بولاية خراسان مستقلاً بها ، فخرج عليه رجل يقال له الكرمانى ، لأنه ولد بكرمان ، وهو أبو على جديع بن على بن شبيب المعنى ، واتبه خلق كثير بحيث إنه كان يشهد الجمعة في نحو من ألف وخمسمائة ، وكان يسلم على نصر بن سيار ولا يجلس عنده ، فتحير نصر بن سيار وامراؤه فيما يصنع به ، فاتفق رأيهم بعد جهد على سجنه ، فسجن قريباً من شهر ، ثم أطلقه فاجتمع إليه ناس كثير ، وجم غفير ، وركبوا معه ، فبعث إليهم نصر من قائلهم قتلهم وفهرم وكسرهم واستخف جماعات من أهل خراسان بنصر بن سيار وتلاشوا أمره وحرمة ، وألحوا عليه في أعطياتهم وأجمعوه غليظ ما يكره وهو على المنبر ، بسفارة سلم بن احوز أدى إليه ذلك ، وخرجت الباعة من المسجد الجامع وهو يخطب ، وانفض كثير من الناس عنه ، فقال لهم نصر فيما قال : والله لقد نشرتكم وطويتكم وطويتكم ونشرتكم فما عندي عشرة منكم على دين ، فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنين الرجل منكم أن ينخلع من أهله وماله وولده ، ولم يكن رآها ، ثم تمثل بقول النابغة :

فان يغلب شقاؤكم عليكم • فاني في صلاحكم سميت

وقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن الورد بن المغيرة الجعد : -

أبيت أرمي النجوم مرتفقا * إذا استقلت نحوى أوائلها
من فتنه أصبحت مجلاة * قد عم أهل الصلاة شامها
من بخراسان والعراق ومن * بالشام كل شجاة شاغلها
يمشى السفية الذى يعنف بال * جهل سواها فيها وعاقها
فالناس منها فى لون مظلمة * دهماء ملتجة غباطها
والناس فى كربة يكادها * تنبذ اولادها حواملها
يفدون منها فى كل مبهمة * عمياء تمنى لهم غوائلها
لا ينظر الناس من عواقبها * إلا التى لا بين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبه * لى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا تزرى بوجهته * فيها خطوب حمر زلازها

وفى هذه السنة أخذ الخليفة البيعة من الأمراء وغيرهم بولاية العهد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ثم من بعد إبراهيم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان ، وذلك بسبب مرضه الذى مات فيه . وكان ذلك فى شهر الحجة منها ، وقد حرضه على ذلك جماعة من الأمراء والأكابر والوزراء . وفيها عزل يزيد عن إمرة الحجاز يوسف بن محمد الثقفى وولى عليها

عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، فقدمها في أو آخر ذى القعدة منها ، وفيها أظهر مروان الحمار الخلاف ليزيد بن الوليد ، وخرج من بلاد أرمينية يظهر أنه يطلب بدم الوليد بن يزيد ، فلما وصل إلى حران أظهر الموافقة وبايع لأمير المؤمنين يزيد بن الوليد . وفيها أرسل إبراهيم بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس أبا هاشم بكر بن ماهان إلى أرض خراسان ، فاجتمع بجماعة من أهل خراسان بمر و ، فقرأ عليهم كتاب إبراهيم بن محمد الامام إليه وإليهم ، ووصيته ، فتلقوا ذلك بالتبول ، وأرسلوا معه ما كان عندهم من النفقات . وفي سابع ذى القعدة ، وقيل في سابع ذى الحجة ، وقيل لعشر ماضين منه ، وقيل بعد الأضحى منها كان وفاة أمير المؤمنين .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي . أبو خالد الأموي ، أمير المؤمنين ، بويغ له بالخلافة أول ما بويغ بها في قرية المزة ، من قرى دمشق ، ثم دخل دمشق فغلب عليها ، ثم أرسل الجيوش إلى ابن عمه الوليد بن يزيد فقتله ، واستحوذ على الخلافة في أو آخر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان يلقب بالناقص لقصه الناس العشرات التي زادهم إياها الوليد بن يزيد ، وقيل إنما سماه بذلك مروان الحمار ، وكان يقول : الناقص ابن اليد ، وأمه شاهفرد بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، كسروية .

وقال ابن جرير : وأمه شاه آفرید بنت فيروز بن يزدجرد بن شهر يار بن كسرى ، وهو القائل :

أنا ابن كسرى وأبي مروان * وقيصراً جدي وجدى خاقان

وإنما قال ذلك لأن جده فيروز ، وأم أمه بنت قيصر ، وأم شيرويه وهي بنت خاقان ملك الترك ، وكانت قد سباها قتيبة بن مسلم ، هي وأخت لها فبعتهما إلى الحجاج ، فأرسل بهذه إلى الوليد واستبقى عنده الأخرى ، فولدت هذه الوليد بن يزيد الناقص هذا ، وهذه أخذها الحجاج فكانت عنده بالعراق ، وكان مولده في سنة تسعين ، وقيل في سنة ست وتسعين ، وقد روى عنه الأوزاعي مسألة السلم . وقد ذكرنا كيفية ولايته فيما سلف في هذه السنة ، وأنه كان عادلاً ديناً محباً للخير مبغضاً للشر . فاصداً للحق . وقد خرج يوم عيد الفطر من هذه السنة إلى صلاة العيد بين صفين من الخيالة والسيوف مسللة عن يمينه وشماله ، ورجع من المصلى إلى الخضراء كذلك ، كان رجلاً صالحاً ، يقال في المثل الأشج والناقص أعـدلاً بنى مروان ، والمراد عمر بن عبد العزيز وهذا . وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني إبراهيم بن محمد المروزي عن أبي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد الناقص : يا بني أمية إياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الحمر ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم لا بد فاعلمين فجنبوه النساء فانه داعية الزنا . وقال ابن عبد الحكيم

عن الشافعي : لما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي يقال له الناقص دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب غيلان . قاله ابن عساكر . قال : ولعله قرب أصحاب غيلان ، لأن غيلان قتل هشام بن عبد الملك . وقال محمد بن المبارك : آخر ما تكلم به يزيد بن الوليد الناقص واحزنناه واشقآه . وكان نقش خاتمه العظمة لله . وكانت وفاته بالخضراء من طاعون أصابه ، وذلك يوم السبت لسبع مضين من ذى الحجة ، وقيل يوم الاضحى منه ، وقيل بعه بأيام ، وقيل لعشر بقين منه ، وقيل في سلخه ، وقيل في سلخ ذى القعدة من هذه السنة . وأكثر ما قيل في عمره ست وأربعون سنة ، وقيل ثلاثون سنة ، وقيل غير ذلك فالله أعلم . وكانت مدة ولايته ستة أشهر على الأشهر ، وقيل خمسة أشهر وأيام . وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد ، وهو ولي العهد من بعده رحمه الله . وذكر سعيد بن كثير بن عفير أنه دفن بين باب الجابية وباب الصغير ، وقيل إنه دفن بباب الفراديس ، وكان أسمر نحيفا حسن الجسم حسن الوجه . وقال علي بن محمد المدني : كان يزيد أسمر طويلا صغير الرأس بوجهه خال ، وكان جميلا ، في فمه بعض السمة وليس بالمفرط . وحج بالناس فيها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب الحجاز ، وأخوه عبد الله نائب العراق ، ونصر بن سيار على نيابة خراسان ، والله سبحانه أعلم . وممن توفي في هذه السنة من الأعيان :

خالد بن عبد الله بن يزيد

ابن أسد بن كرز بن عامر بن عبقرى ، أبو الهيثم البجلي القسرى الدمشقي ، أمير مكة والحجاز للوليد ثم سليمان ، وأمير العراقيين لهشام خمس عشرة سنة . قال ابن عساكر : كانت داره بدمشق في أربعة الفز وتعرف اليوم بدار الشريف اليزيدي ، وإليه ينسب الحمام الذي داخل باب نوما ، روى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا أسد^(١) أتحب الجنة ؟ قال : نعم ! قال : فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك » . رواه أبو يعلى عن عثمان بن أبي شيبة عن هيثم عن سيار عن أبي الحكم أنه سمعه على المنبر يقول ذلك . وممن روى عنه إسماعيل بن أوسط وإسماعيل بن أبي خالد ، وحبيب بن أبي حبيب ، وحميد الطويل . وروى أنه روى عن جده عن النبي (ص) في تكفير المرض الذنوب . وكانت أمه نصرانية ، وذكره أبو بكر بن عياش في الأشراف ، فيمن أمه نصرانية . وقال المدائني : أول ما عرف من رياسته أنه وطأ صبيا بدمشق بفرسه فحمله فأشهد طائفة من الناس أنه هو صاحبه ، فان مات فعليه ديته ، وقد استنابه الوليد على الحجاز من سنة تسع وثمانين إلى أن توفي الوليد ثم سليمان ، وفي سنة ست ومائة استنابه هشام على العراق إلى سنة عشرين ومائة . وسأله إلى يوسف بن عمر الذي ولاه مكانه فمأقبه وأخذ منه أموالا ثم أطلقه ، وأقام بدمشق إلى الحريم من هذه السنة فسأله الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر يستخلص منه خمسين ألف ألف ، فأتت تحت

(١) في تاريخ ابن عساكر (٥ : ٦٧) : « يا يزيد بن أسد » .

العقربة البليغة ، كسر قدميه ثم ساقيه ثم فخذه ، ثم صدره ، فمات ولا ينكح كلمة واحدة ، ولاناوه حتى خرجت روحه رحمه الله .

قال الليثي عن أبيه : خطب خالد القسري يوماً فأرتج عليه فقال : أيها الناس إن هذا الكلام يحسب أحياناً ويعزب أحياناً ، فيتسبب عند مجيئه سببه ويتعذر عند عزو به مطلبه ، وقد يرد إلى السلب بانه ويثيب إلى الحصر كلامه ، وسيعود إلينا ما نحبون ، ونعود لكم كما تريدون . وقال الأصمعي وغيره : خطب خالد القسري يوماً بواسطة فقال : يا أيها الناس تنافسوا في المكارم وسارعوا إلى المغايرة واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكتسبوا بالمطل ذماً ، ولا تعتمدوا بمعروف لم تعجلوه ، ومهما تكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها فالله أحسن له جراً ، وأجزل عطاءً ، واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعم فلا تملوها فتحول نقماً ، فإن أفضل المال ما كسب أجراً وأورث ذكراً ، ولورأيتم المعروف لرأيتموه رجلاً حسناً جميلاً يسر الناس إذا نظروا إليه ، ويفوق العالمين . ولورأيتم البخل لرأيتموه رجلاً مشوهاً قبيحاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الأَبصار . إنه من جاد ساد ومن بخل ذل ، وأكرم الناس من أعطى من لا يرجوه ، ومن عفا عن قدرة ، وأفضل الناس من وصل عن قطيعة ، ومن لم يطب حرته لم يرك نبتة ، والفروع عند مفارستها تنمو ، وبأصولها تسمو . وروى الأصمعي عن عمر ابن المهيم أن أعرابياً قدم على خالد فأنشده قصيدة امتدحه بها يقول فيها :

إليك ابن كرزٍ الخيرِ أقبلتُ راعباً * لنجبرُ مني ما وها وتبديداً
إلى الماجدِ البهلُولِ ذِي الحلمِ والندى * واكرمِ خلقِ اللهِ فرعاً ومحنداً
إذا ما أناسٌ قصرُوا بفعالهم * نهضتُ فلمَ تلقى هنالكَ مفقداً
فيالكَ بجرّاً يغيرُ الناسَ موجهُ * إذا يسألُ المعروفُ جاشٍ وأزبداً
بلوتُ ابنَ عبدِ اللهِ في كلِّ موطنٍ * فألفيتُ خيرَ الناسِ نفساً وأمجداً
فلو كانَ في الدنيا منَ الناسِ خالدٌ * لجودَ بمعروفٍ لكنتُ مخلداً
فلا تحرمني منك ما قد رجوتهُ * فيصبحُ وجهي كالخِ اللونِ أربداً

قال : فحفظها خالد ، فلما اجتمع الناس عند خالد قام الأعرابي ينشد ما فابتدره إليها خالد فأنشدها قبله وقال : أيها الشيخ إن هذا شعر قد سبقناك إليه . فنهض الشيخ فولى ذاهباً فأتبعه خالد من بسمع ما يقول فاذا هو ينشد هذه الأبيات .

ألا في سبيلِ اللهِ ما كنتُ أرتجى * لديه ومالاً قيتُ من نكدِ الجهدِ
دخلتُ على بحرٍ يجودُ بماله * ويعطى كثيرَ المالِ في طلبِ الحمدِ
نخالفني الجدُ المشومُ لشقوتي * وقاربنى نحسى وفارقني سعدى

فلو كان لي رزقٌ لديه لنته * ولكنه أمره من الواحد الفرد
 فرده إلى خالد وأعلمه بما كان يقول فأمر له بمشرة آلاف درهم . وقال الأصمعي : سأل أعرابي
 خالداً القسري أن يملأ له جرابه دقيقاً فأمر بملئه له دراهم ، فقيل للأعرابي حين خرج : ما فعل
 معك ؟ فقال : سألته بما أشتهى فأمر لي بما يشتهي هو . وقال بعضهم : بينما خالد يسير في موكبه إذ
 تلقاه أعرابي فسأله أن يضرب عنقه ، فقال ويحك ولم ؟ أقطعت السبيل ؟ أخرجت يدا من طاعة ؟
 فكل ذلك يقول لا ا قال : فلم ؟ قال : من الفقر والفاقة . فقال : سل حاجتك ، قال ثلاثين ألفاً . فقال
 خالد : ما ربح أحد مثل ما ربحت اليوم ، إني وضعت في نفسي أن يسألني مائة ألف فسأل ثلاثين
 فربحت سبعين . ارجعوا بنا اليوم ، وأمر له بثلاثين ألفاً . وكان إذا جلس يوضع [المال] بين يديه
 ويقول . إن هذه الأموال ودائع لا بد من تفرقتها . وسقط خاتم لجارته رابعة يساوي ثلاثين ألفاً ،
 في بالوعة الدار ، فسألت أن تؤتى بمن يخرجها ، فقال : إن يدك أكرم علي من أن تلبسه بعد ما صار
 إلى هذا الموضع القدر ، وأمر لها بخمسة آلاف دينار بدله . وقد كان لرابعة هذه من الحلبي شئ عظيم ،
 من جملة ذلك ياقوتة وجوهرة ، كل واحدة بثلاثة وسبعين ألف دينار .

وقد روى البخاري في كتاب أفعال العباد ، وابن أبي حاتم في كتاب السنة ، وغير واحد من
 صنف في كتب السنة أن خالد بن عبد الله القسري خطب الناس في عيد أضحى فقال : أيها الناس ،
 ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجمد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم
 يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فأنجبه في أصل المنبر .
 قال غير واحد من الأئمة : كان الجعد بن درهم من أهل الشام ، وهو مؤدب مروان الحمار ، ولهذا
 يقال له مروان الجعدي ، فنسب إليه ، وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية
 الذين يقولون إن الله في كل مكان بذاته ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكان الجعد بن درهم
 قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له أبان بن سمان ، وأخذة أبان عن طالوت ابن أخت لبيد
 ابن أعصم ، عن خاله لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي (ص) في مشط وماشطة وجف طلعة
 ذكر له ، ونحمت راعوفة ببئر ذي اروان الذي كان ماؤها نقاعة الحناء . وقد ثبت الحديث بذلك في
 الصحيحين وغيرهما . وجاء في بعض الأحاديث أن الله أنزل بسبب ذلك سورتي المودتين .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : حدثنا محمد بن يزيد الرفاعي سمعت أبا بكر بن عياش قال : رُببت
 حالماً القسري حين أتى بالمغيرة وأصحابه ، وقد وضع له سرير في المسجد ، فجلس عليه ثم أمر برجل
 من أصحابه فضربت عنقه ثم قال المغيرة : أحياه - وكان المغيرة يزعم أنه يحيى الموتى - فقال : والله
 صلحك الله ما أحيا الموتى . قال : لتحيينه أولاً ضرب بن عنقك . قال : والله ما أقدر على ذلك . ثم أمر

بطن قصب فأضرموا فيه ناراً ثم قال المغيرة : اعتنقه ، فأبى ، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه ، قال أبو بكر : فرأيت النار تأكله وهو يشير بالسبابة . قال خالد : هذا والله أحق بالرياسة منك . ثم قتله وقتل أصحابه . وقال المدائني : أتى خالد بن عبد الله برجل تنبأ بالكوفة فقيل له ما علامة نبوتك ؟ قال : قد نزل على قرآن ، قال : إنا أعطيناك الكماهر ، فصل لربك ولا تجاهر . ولا تطع كل كافر وفاجر . فأمر به فصلب فقال وهو يصلب : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على عود ، فأنا ضامن لك ألا تعود . وقال المبرد : أتى خالد بشاب قد وجد في دار قوم وادعى عليه السرقة ، فسأله فاعترف فأمر بقطع يده فتقدمت حسناء فقالت :

أخالدُ قد أوطأتَ واللهِ عثرةً * وما العاشقُ المسكينُ فينا بسارقٍ
أقرُّ بما لم يجنِّهِ غيرُ أنهُ * رأى القطعَ أولى من فضيحةِ عاشقٍ

فأمر خالد باحضار أبيها فزوجها من ذلك الغلام وأمرها عنه عشرة آلاف درهم . وقال الأصمعي : دخل أعرابي على خالد فقال : إني قد مدحتك بيبيتين ولست أنشدكما إلا بعشرة آلاف وخادم ، فقال : نعم ! فأنشأ يقول :

لزمتَ نعمَ حتى كأنك لم تكن * سمعتُ من الأشياءِ شيئاً سوى نعمٍ
وأنكرتَ لا حتى كأنك لم تكن * سمعتُ بها في سالفِ الدهرِ والأُممِ

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم وخادم بحملها . قال : ودخل عليه أعرابي فقال له : سل حاجتك فقال : مائة ألف . فقال : أكرت حط منها . قال : أضع تسمين ألفاً ، فتعجب منه خالد فقال : أيها الأمير سألتك على قدرك ووضعت على قدرى ، فقال له : لن تغلبني أبداً ، وأمر له بمائة ألف ، قال : ودخل عليه أعرابي ، فقال : إني قد قلت فيك شعراً وأنا أستصغره فيك ، فقال : قل فأنشأ يقول :

تعرضتُ لي بالجوِّدِ حتى نعثتني * وأعطيتني حتى ظننتكُ تلعبُ
فأنتَ الندى وابنُ الندى وأخو الندى * حليفُ الندى ما للندى عنك مذهبُ

قال : سل حاجتك . قال : على خمسون ألف دينار ، فقال : قد أمرت لك بها وأضعفتها لك ، فأعطاه مائة ألف . قال أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوسائي : دخل أعرابي على خالد القسري فأنشده

كتبتُ نعمَ ببابكُ فهي تدعو * اليكُ الناسُ مسفرةً النقابِ
وقلتُ للاعليكُ ببابِ غيري * فانكُ لن ترى أبداً ببابي

قال فأعطاه على كل بيت خمسين ألفاً . وقد قال فيه ابن معين : كان رجل سوء يقع في علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ودكر الأصمعي عن أبيه : أن خالدًا حفر بئراً بمكة ادعى فضلها على زمزم ، وله في رواية عنه

تفضيل الخليفة على الرسول ، وهذا كفر إلا أن يريد بكلامه غير ما يبدو منه والله أعلم .
[والذي يظهر أن هذا لا يصح عنه، فإنه كان قائماً في إطفاء الضلال والبدع كما قدمنا من قتله للجمد
ابن درم وغيره من أهل الحاد ، وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح ، لأن صاحب العقد
كان فيه تشيع شنيع ومغلاة في أهل البيت ، وربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع ، وقد
اغتر به شيخنا الذهبي فدحه بالحفظ وغيره] (١) .

وقد ذكر ابن جرير وابن عساكر وغيرهما أن الوليد بن يزيد كان قد عزم على الحج في إمارته
فمن نيته أن يشرب الخمر على ظهر الكعبة ، فلما بلغ ذلك جماعة من الأمراء اجتمعوا على قتله وتولية
غيره من الجماعة ، فحذر خالد أمير المؤمنين منهم ، فسأله أن يسميهم فأبى عليه فماتوا عقاباً شديداً ،
ثم بعث به إلى يوسف بن عمر فمات حتى مات شرقتة وأسوتها ، وذلك في محرم من هذه السنة - أعني
سنة ست وعشرين ومائة - وذكره القاضي ابن خلكان في الوفيات وقال : كان منهما في دينه ، وقد
بنى لأمه كنيسة في داره ، قال فيه بعض الشعراء وقال صاحب الأعيان كان في نسبه يهود فانتصروا
إلى القرب ، وكان يقرب [من] شق ومصطبح . قال القاضي ابن خلكان : وقد كانا ابني خالة ،
وعاش كل منهما ستائة ، وولدا في يوم واحد ، وذلك يوم ماتت طريفة بنت الحر بعد ما تفلت في فم
كل منهما وقالت : إنه سيقوم مقامى في الكهانة ، ثم ماتت من يومها .

ومن توفي في هذه السنة جبلة بن سحيم ودراج أبو السمح وسعيد بن مسروق في قول ، وسليمان
ابن حبيب المحاربي ، قاضي دمشق ، وعبد الرحمن بن قاسم شيخ مالك وعبيد الله بن أبي يزيد
وعمر بن دينار . وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة

استهلت هذه السنة والخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بوصية أخيه يزيد الناقص إليه ، وبايعه
الأمراء بذلك ، وجميع أهل الشام إلا أهل حمص فلم يبايعوه ، وقد تقدم أن مروان بن محمد الملقب
بالحمار كان نائباً بأذربيجان وأرمينية ، وتلك كانت لأبيه من قبله ، وكان تقم على يزيد بن الوليد في
قتله الوليد بن يزيد ، وأقبل في طلب دم الوليد ، فلما انتهى إلى حران أناب وبايع يزيد بن الوليد ،
فلم يلبث إلا قليلاً حتى بلغه موته ، فاقبل في أهل الجزيرة حتى وصل قنسرين فحاصر أهلها فنزلوا على
طاعته ، ثم أقبل إلى حمص وعليها عبيد العزيز بن الحجاج من جهة أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد
فحاصروا حتى يبايعوا إبراهيم بن الوليد ، وقد أصروا على عدم مبايعته ، فلما بلغ عبد العزيز بن
مروان بن محمد ترحل عنها ، وقدم مروان إليها فبايعوه وصاروا معه قاصدين دمشق ، ومعهم جنود

(١) وجدت هذه العبارة في نسخة ثانية بالاستانة .

الجزيرة وجند قنسرين ، فتوجه مروان إلى دمشق في ثمانين ألفاً ، وقد بعث إبراهيم بن الوليد بن هشام بن عبد الملك في مائة وعشرين ألفاً ، فالتقى الجيشان عند عين الجر من البقاع ، فدعاهم مروان إلى الكف عن القتال وأن يتخلوا عن ابني الوليد بن يزيد وهما الحكم وعثمان اللذان قد أخذ العهد لهما ، وكان يزيد قد سجنهما بدمشق ، فأبوا عليه ذلك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً من حين ارتفاع النهار إلى العصر ، وبعث مروان سرية تآنى جيش ابن هشام من ورائهم ، فم لهم ما أرادوه ، وأقبلوا من ورائهم يكبرون ، وحمل الآخرون من تلقاهم عليهم ، فكانت الهزيمة في أصحاب سليمان ، فقتل منهم أهل حمص خلقاً كثيراً ، واستبيح عسكرهم ، وكان مقدار ما قتل من أهل دمشق في ذلك اليوم قريبا من سبعة عشر ألفاً أو ثمانية عشر ألفاً وأسروا منهم مثلهم ، فأخذ عليهم مروان البيعة للغلامين ابني الوليد ، الحكم وعثمان ، وأطلقهم كلهم سوى رجلين وهما يزيد بن العقار والوليد ابن مصاد الكلبيان ، فضربهما بين يديه بالسياط وجبسهما فماتا في السجن ، لأنهما كانا ممن باشر قتل الوليد بن يزيد حين قتل . وأما سليمان وبقية أصحابه فانهم استمروا منهزمين ، فما أصبح لهم الصبح إلا بدمشق فأخبروا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد بما وقع ، فاجتمع معهم رؤس الأمراء في ذلك الوقت وهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد بن عبد الله القسري ، وأبو علفة السككي ، والاصبغ بن ذؤالة الكلبي ونظراؤهم ، على أن يعمدوا إلى قتل ابني الوليد الحكم وعثمان ، خشية أن يلبيا الخلافة فهلكا من عاداهما وقتل أباهما ، فبعثوا إليهما يزيد بن خالد بن عبد الله القسري ، فعمد إلى السجن وفيه الحكم وعثمان ابنا الوليد وقد بلغا ، ويقال وولد لاحدهما ولد فشدخها بالعمد ، وقتل يوسف بن عمر - وكان مسجوناً معهم - وكان في سجنهما أيضاً أبو محمد السفيناني فهرب فنخل في بيت داخل السجن وجعل وراء الباب ردماً ، فحاصروه فامتنع ، فأتوا بنار ليحرقوا الباب . ثم اشتغلوا عن ذلك بقدم مروان بن محمد وأصحابه إلى دمشق في طلب المنهزمين .

دخول مروان الحمار دمشق وولايته الخلافة.

لما أقبل مروان بن معاوية من الجنود من عين الجر واقترب من دمشق وقد انهزم أهلها بين يديه بالأمس ، هرب إبراهيم بن الوليد وعمد سليمان بن هشام إلى بيت المال ففتحته وأنفق ما فيه على أصحابه ومن اتبعه من الجيوش ، ونار موالى الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه فيها وانتهبوها ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية ، ودخل مروان بن محمد دمشق فقتل في أعاليها وأتى بالغلامين الحكم وعثمان وهما مقتولان وكذلك يوسف بن عمر فدفنوه . وأتى بأبي محمد السفيناني وهو في حبسه فسلم على مروان بالخلافة فقال مروان : مه ، فقال : إن هذين الغلامين جعلها لك من بعدهما ثم أنشد قصيدة قالها الحكم في السجن وهي طويلة منها قوله :

ألا من مبلغ مروان عني * وعنى الغمر طال بذا حنيننا
باني قد ظلمت وصار قومي * على قتل الوليد متابعينا
فان أهلك أنا وولي عهدي * فمروان أمير المؤمنين

ثم قال أبو محمد السفيناني لمروان : ابسط يدك ، فكان أول من بايعه بالخلافة ، فعاوية بن يزيد بن حصين بن نعيم ثم بايعه رؤس أهل الشام من أهل دمشق وحمص وغيرهم ، ثم قال لهم مروان : اختاروا أمراء نوابهم عليكم ، فاختار أهل كل بلد أميراً فولاه عليهم ، فعلى دمشق زامل بن عمرو والجزبراني ، وعلى حمص عبد الله بن شجرة الكندي ، وعلى الأردن الوليد بن معارية بن مروان ، وعلى فلسطين ثابت بن نعيم الجندامي . ولما استوت الشام لمروان بن محمد رجع إلى حران وعند ذلك طلب منه إبراهيم بن الوليد الذي كان خليفة وابن عمه سليمان بن هشام الأمان فأمنهما ، وقدم عليه سليمان بن هشام في أهل تدمر فبايعوه ، ثم لما استقر مروان في حران أقام فيها ثلاثة أشهر فانتقض عليه ما كان انبرم له من مبايعة أهل الشام ، فنقض أهل حمص وغيرهم ، فأرسل إلى أهل حمص جيشاً فوافوهم ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، وقدم مروان إليها بعد الفطر بيومين ، فنازلها مروان في جنود كثيرة ، ومعه يومئذ إبراهيم بن الوليد المخلوع ، وسليمان بن هشام ، وهما عنده مكرمان خصيصان لا يجلس إلا بهما وقت الغداء والعشاء ، فلما حاصر حمص نادوه إنا على طاعتك ، فقال : افتحوا باب البلد ففتحوه . ثم كان منهم بعض القتال فقتل منهم نحو الخمسمائة أو الستائة ، فأمر بهم فصلبوا حول البلد ، وأمر بهدم بعض سورها . وأما أهل دمشق فأما أهل الغوطة فحاصروا أميرهم زامل بن عمرو وأمروا عليهم يزيد ابن خالد القسري وثبت في المدينة نائبها ، فبعث إليه أمير المؤمنين مروان من حمص عسكراً نحو عشرة آلاف ، فلما اقتربوا من دمشق خرج النائب فيمن معه والتقواهم والعسكر بأهل الغوطة فهزمهم وحرقوا المزة وقرى أخرى معها ، واستجار يزيد بن خالد القسري وأبو علاقة البكلي برجل من أهل المزة من لحم ، فدل عليهم زامل بن عمرو وقتلهم وأبعث برأسيهما إلى أمير المؤمنين مروان وهو بجمص . وخرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين على الخليفة وأتوا طبرية فحاصروها ، فبعث الخليفة إليهم جيشاً فأجلوهم عنها واستباحوا عسكرهم ، وفر ثابت بن نعيم هارباً إلى فلسطين فاتبعه الأمير أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق عنه أصحابه ، وأسر أبو الورد ثلاثة من أولاده فبعث بهم إلى الخليفة وهم جرحى فأمر بمدواتهم ، ثم كتب أمير المؤمنين إلى نائب فلسطين وهو الرماحس بن عبد العزيز الكناني يأمره بطلب ثابت بن نعيم حيث كان ، فإزال يتلطف به حتى أخذه سيراً ، وذلك بعد شهرين ، فبعثه إلى الخليفة وأمر بقطع يديه ورجليه ، وكذلك جماعة كانوا معه ، وبعث بهم إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدتها ، لأن أهل دمشق كانوا قد أرجفوا بأن ثابت بن نعيم ذهب

إلى ديار مصر فتغلب عليها وقتل نائب مروان فيها ، فأرسل إليهم مقطوع اليدين والرجلين ليعرفوا بطلان ما كانوا به أرجفوا . وأقام الخليفة مروان بدير أيوب عليه السلام مدة حتى بايع لابنه عبد الله ثم عبید الله وزوجهما ابنتي هشام ، وهما أم هشام وعائشة ، وكان مجرماً حافلاً وعقداً هائلاً ، ومبايعة عامة ، ولكن لم تكن في نفس الأمر تامة . وقدم الخليفة إلى دمشق وأمر بثابت وأصحابه بعد ما كانوا تقطعوا أن يصلبوا على أبواب البلد ، ولم يستبق منهم أحداً إلا واحداً وهو عمرو بن الحارث الكلبي ، وكان عنده فيما زعم علم بودايح كان ثابت بن نعيم أودعها عند أقوام . واستوسق أمر الشام لمروان ماعداً تدمر ، فسار من دمشق فنزل القسطل من أرض حمص ، وبلغه أن أهل تدمر قد غوروا ما بينه وبينهم من المياه ، فاشتد غضبه عليهم ومعه جحافل من الجيوش ، فتكلم الأبرش بن الوليد وكانوا قومه فسأل منه أن يرسل إليهم أولاً ليعذر إليهم ، فبعث عمرو بن الوليد أخا الأبرش ، فلما قدم عليهم لم يلتفتوا إليه ولا سمعوا له قولاً فرجع ، فهم الخليفة أن يبعث الجنود فسأله الأبرش أن يذهب إليهم بنفسه فأرسله ، فلما قدم عليهم الأبرش كلهم واستألمهم إلى السمع والطاعة ، فأجابهم أكثرهم وامتنع بعضهم ، فكتب إلى الخليفة يعلم بما وقع ، فأمره الخليفة أن يهدم بعض سورها ، وأن يقبل بمن أطاعه منهم إليه ، ففعل . فلما حضروا عنده سار بمن معه من الجنود نحو الرصافة على طريق البرية ، ومعه من الرؤس إبراهيم بن الوليد الخلويع ، وسليمان بن هشام ، وجماعة من ولد الوليد ويزيد وسليمان ، فأقام بالرصافة أياماً ثم شخص إلى البرية ، فاستأذنه سليمان بن هشام أن يقيم هناك أياماً ليستريح ويجم ظهره فأذن له ، فأنحدر مروان فنزل عند واسط على شط الفرات فأقام ثلاثاً ثم مضى إلى قرقيسيا ، وابن هبيرة بها ليعثه إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري ، واشتغل مروان بهذا الأمر ، وأقبل عشرة آلاف فارس ممن كان مروان قد بعثهم في بعض السرايا ، فاجتازوا بالرصافة وفيها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان استأذن الخليفة في المقام هناك للراحة ، فدعوه إلى البيعة له وخلع مروان بن محمد ومحاربتة ، فاستزله الشيطان فأجابهم إلى ذلك ، وخلع مروان وسار بالجيوش إلى قنسرين ، وكاتب أهل الشام فانفضوا إليه من كل وجه ، وكتب سليمان إلى ابن هبيرة الذي جهزه مروان لقتال الضحاك بن قيس الخارجي بأمره بالمسير إليه ، فالتف إليه نحو من سبعين ألفاً ، وبعث مروان إليهم عيسى بن مسلم في نحو من سبعين ألفاً فالتقوا بأرض قنسرين فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وجاء مروان والناس في الحرب فقاتلهم أشد القتال فهزمهم وقتل يومئذ إبراهيم بن سليمان بن هشام ، وكان أكبر ولده ، وقتل منهم نيفا وثلاثين ألفاً ، وذهب سليمان مغلوباً فأتى حمص فالتف عليه من انهزم من الجيش فمسك بهم فيها ، وبني ما كان مروان هدم من سورها . فجاء مروان فحاصرهم بها ونصب عليهم نيفا وثمانين

منجنيقا ، فكث كذلك ثمانية أشهر يرميهم ليلا ونهاراً ، ويخرجون إليه كل يوم ويقاتلون ثم يرجعون . هذا وقد ذهب سليمان وطائفة من الجيش معه إلى تدمر وقد اعترضوا جيش مروان في الطريق وهموا بالفتك به وأن يذهبوه فلم يمكنهم ذلك ، ونهباً لهم مروان فقاتلهم فقتلوا من جيشه قريبا من ستة آلاف وهم تسعمائة ، وانصرفوا إلى تدمر ، ولزم مروان محاصرة حمص كال عشرة أشهر ، [فلما تتابع عليهم البلاء ، ولزمهم النذل ، سألوه أن يؤمنهم فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، ثم سألوه الأمان على أن يمكنوه من سعيد بن هشام]^(١) وابنيه مروان وعثمان ومن السكسكي الذي كان حبس معه ، ومن حبشي كان يفترى عليه ويشتمه فأجابهم إلى ذلك فأمنهم وقتل أولئك ، ثم سار إلى الضحاك ، وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق قد صالح الضحاك الخارجي على ما بيده من الكوفة وأعمالها ، وجاءت خيول مروان قاصدة إلى الكوفة ، فتلقاهم نائبا من جهة الضحاك - ملحان الشيباني - فقاتلهم فقتل ملحان ، واستناب الضحاك عليها المثني بن عمران من بني عائدة ، وسار الضحاك في ذي القعدة إلى الموصل ، وهار ابن هبيرة إلى الكوفة فانتزعها من أيدي الخوارج ، وأرسل الضحاك جيشا إلى الكوفة فلم يجد شيئا .

وفي هذه السنة خرج الضحاك بن قيس الشيباني ، وكان سبب خروجه أن رجلا يقال له سعيد بن بهدل - وكان خارجيا - اغتتم غفلة الناس واشتغلهم بمقتل الوليد بن يزيد ، فثار في جماعة من الخوارج بالعراق ، فالتف عليه أربعة آلاف - ولم يجتمع قبلها لخارجي - فقصدهم الجيوش فاقتلوا معهم ، فثاره يكسرون وثاره يكسرون ، ثم مات سعيد بن بهدل في طاعون أصابه ، واستخلف على الخوارج من بعده الضحاك بن قيس هذا ، فالتف أصحابه عليه ، والتقى هو وجيش كثير فغلبت الخوارج وقتلوا خلقا كثيرا ، منهم عاصم بن عمر بن عبد العزيز - أخو أمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز - فرناه بأشعار . ثم قصد الضحاك بطائفة من أصحابه مروان فاجتاز بالكوفة ، فنهض إليه أهلها فكسروهم ودخل الكوفة فاستحوذ عليها ، واستناب بها رجلا اسمه حسان ، ثم استناب ملحان الشيباني في شعبان من هذه السنة ، وسار هو في طلب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق ، فالتقوا فجرت بينهم حروب كثيرة يطول ذكرها وتفصيلها .

وفي هذه السنة اجتمعت جماعة من الدعوة إلى بني العباس عند إبراهيم بن محمد الامام ومعهم أبو مسلم الخراساني ، فدفعوا إليه نفقات كثيرة ، وأعطوه خمس أموالهم ، ولم ينتظم لهم أمر في هذه السنة لكثرة الشرور المنتشرة ، والفتن الواقعة بين الناس . وفي هذه السنة خرج بالكوفة معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فدعا إلى نفسه وخرج إلى محاربة أمير العراق عبد الله بن عمر

(١) زيادة من المصرية .

ابن عبد العزيز، فجرت بينهما حروب يطول ذكرها، ثم أجلاه عنها فلحق بالجبال فتغلب عليها .
 وفي هذه السنة خرج الحارث بن سريج الذي كان لحق ببلاد الترك ومالاً ثم على المسلمين فمن الله عليه
 بالمداية ووقفه حتى خرج إلى بلاد الشام، وكان ذلك عن دعاء يزيد بن الوليد إلى الرجوع إلى الاسلام
 وأهله فأجابه إلى ذلك، وخرج إلى خراسان فأكرمه نصر بن سيار نائب سورة^(١)، واستمر الحارث
 ابن سريج على الدعوة إلى الكتاب والسنة وطاعة الامام، وعندئذ بعض المناوئة لنصر بن سيار .
 قال الواقدي وابو معشر: وحج بالناس في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز أمير
 الحجاز ومكة والمدينة والطائف، وأمير العراق نصر بن سعيد الحرشي، وقعد خرج عليه الضحاك
 الحروري، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز. وأمير خراسان نصر بن سيار، وقد خرج عليه
 الكرماني والحارث بن سريج. ومن توفي في هذه السنة :
 بكر بن الأشج وسعد بن إبراهيم وعبد الله بن دينار وعبد الملك بن مالك الجزري وعمير بن
 هاني ومالك بن دينار وهب بن كيسان وأبو إسحاق السبيعي .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الحارث بن سريج، وكان سبب ذلك أن يزيد بن الوليد الناقص كان قد كتب
 إليه كتاب أمان، حتى خرج من بلاد الترك وصار إلى المسلمين ورجع عن موالاته المشركين إلى
 نصرته الاسلام وأهله. وأنه وقع بينه وبين نصر بن سيار نائب خراسان وحشة ومنافسات كثيرة
 يطول ذكرها، فلما صارت الخلافة إلى مروان بن محمد استوحش الحارث بن سريج من ذلك. وتولى
 ابن هبيرة نيابة العراق، وجاءت البيعة لمروان، فامتنع الحارث من قبولها وتكلم في مروان، وجاءه
 مسلمة بن أحوز أمير الشرطة، وجماعة من رؤس الأجناد والأمرأء، وطلبوا منه أن يكف لسانه
 ويده، وأن لا يفرق جماعة المسلمين، فأبى وبرز ناحية عن الناس، ودعا نصر بن سيار إلى ما هو
 عنده من الدعوة إلى الكتاب والسنة فامتنع نصر من موافقته، واستمر هو على خروجه على الاسلام .
 وأمر الجهم بن صفوان مولى بني راسب ويكنى بأبي محرز - وهو الذي نسبت إليه الفرقة الجهمية - أن
 يقرأ كتاباً فيه سيرة الحارث على الناس، وكان الحارث يقول أنا صاحب الرايات السود. فبعث إليه
 نصر يقول: لئن كنت ذاك فلعمرى إنكم الذين نخر بون سور دمشق وتزيلون بني أمية، نخذمني
 خمائة رأس ومائة بعير، وإن كنت غيره فقد أهلكت عشيرتك. فبعث إليه الحارث، يقول:
 لعمرى إن هذا لكائن. فقال له نصر: فابدأ بالكرماني أولاً، ثم سر إلى الري، وأنا في طاعتك
 إذا وصلتها. ثم تناظر نصر والحارث ورضياً أن يحكم بينهما، فقاتل بن حيان والجهم بن صفوان [فحكما
 (١) كذا. واصل فيه تحريفاً صوابه (نائب خراسان) .

أن يعزل نصر ويكون الأمر شورى . فامتنع نصر من قبول ذلك ، ولزم الجهم بن صفوان [(١)]
 وغير قراءة سيرة الحارث على الناس في الجامع والطرق ، فاستجاب له خلق كثير ، وجم غفير
 فعند ذلك انتدب لقتاله جماعات من الجيوش عن أمر نصر بن سيار ، فقصده فحارب دونه أصحابه ،
 قتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان ، طعنه رجل في فيه فقتله ، ويقال بل أسر الجهم فأوقف
 بين يدي سلم بن أحوز فأمر بقتله ، فقال : إن لي أماتا من أبيك ، فقال : ما كان له أن يؤمنك ،
 ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاة كواكب ، وأنزلت عيسى بن مريم ، ما نجوت ، والله ولو
 كنت في بطنى لشقت بطنى حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله . ثم اتفق الحارث بن سريج والكرمانى
 على نصر ومخالفته ، والدعوة إلى الكتاب والسنة واتباع أئمة الهدى وتحريم المنكرات إلى غير ذلك
 مما جاءت به الشريعة ، ثم اختلفا فيما بينهما واقتتلا قتالا شديدا ، فغلب الكرمانى وانهزم أصحاب
 الحارث . وكان راكبا على بغل فتحول إلى فرس فخرنت أن تمشى ، وهرب عنه أصحابه ولم يبق معه
 منهم سوى مائة ، فأدرکه أصحاب الكرمانى فقتلوه تحت شجرة زيتون ، وقيل تحت شجرة عيبرا .
 وذلك يوم الأحد لست بقين من رجب من هذه السنة ، وقتل معه مائة من أصحابه ، واحتاط الكرمانى
 على حواصله وأمواله ، وأخذ أموال من خرج معه أيضاً ، وأمر بصلب الحارث بلا رأس على باب
 مرو ، ولما بلغ نصر بن سيار مقتل الحارث : ذلك :

يا مدخل الذل على قومه * بعداً وسحقاً لك من هالك
 شوئك أردى مضراً كلها * وغض من قومك بالحارك
 ما كانت الازد وأشياءها * تطمع في عمرو ولا مالك
 ولا بنى سعد إذ ألبوا * كل طير لونه حالك

وقد أجابه عباد (٢) بن الحارث بن سريج فيما قال :

ألا يا نصر قد برح الخفاء * وقد طال النوى والرجاء
 وأصبحت المزون بأرض مرو * تقضى في الحكومة ما تشاء
 يجوز قضاؤها في كل حكم * على مضرو وإن جار القضاء
 وجرير في مجالسها قعود * تفرق في رقابهم الدماء
 فإن مضربنا رضيت وذلت * فطال لها المنلة والشقاء
 وإن هي أعتبت فيها وإلا * فخل على عساكرها العفاء

وفي هذه السنة بعث إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو مسلم الخراساني إلى خراسان

(١) زيادة من المصرية (٢) في المصرية عتاب وفي نسخة القسطنطينية غياث وصحناه من

تاريخ ابن جرير الطبري ٩ : ٧٤

وكتب معه. كتبنا إلى شيعتهم بها: إن هذا أبو مسلم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد وليته علي ماغلب عليه من أرض خراسان. فلما قدم أبو مسلم خراسان وقرأ على أصحابه هذا الكتاب، لم يلتفتوا إليه ولم يعملوا به وأعرضوا عنه ونبذوه وراء ظهورهم، فرجع إلى إبراهيم بن محمد أيام الموسم، فاشتكاكم إليه وأخبره بما قالوه من المخالفة، فقال له: يا عبد الرحمن! إنك رجل منا أهل البيت، إرجع إليهم وعليك بهذا الحى من اليمن فأكرمهم وانزل بين أظهرهم فإن الله لا يتمم هذا الأمر إلا بهم. ثم حذره من بقية الأحياء وقال له: إن استطعت أن لاتدع بتلك البلاد لسانا عربيا فافعل، لومن بلغ من أبنائهم خمسة أشبار واتهمته فاقتله، وعليك بذلك البلاد لسانا عربيا فافعل، لومن بلغ من ما كان من أمر أبي مسلم الخراساني فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة قتل الضحاك بن قيس الخارجي في قول أبي مخنف، وكان سبب ذلك أن الضحاك حاصر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط وواقفه على محاصرته منصور بن جمهور، فكتب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إليه: إنه لافائدة لك في محاصرتي ولكن عليك بروان بن محمد فسر إليه، فان قتلته اتبعتك. فاصطاحا على مخالفة مروان بن محمد أمير المؤمنين، فلما اجتاز الضحاك بالموصل كاتبه أهلها فقال إليهم فدخلها، وقتل نائبا واستحوذ عليها، وبلغ ذلك مروان وهو محاصر حص، ومشغول بأهلها وعدم مبايعتهم إياه، فكتب إلى ابنه عبد الله بن مروان. وكان الضحاك قد النف عليه مائة ألف وعشرون ألفا فحاصروا نضيبين - وساق مروان في طلبه فالتقيا هنالك، فاقتلا قتالا شديداً فقتل الضحاك في المعركة وحجز الليل بين الفريقين، ووقد أصحاب الضحاك الضحاك وشكوا في أمره حتى أخبرهم من رآه قد قتل، فبكوا عليه وناحوا، وجاء الخبر إلى مروان فبعث إلى المعركة بالمشاعل ومن يعرف مكانه بين القتلى، وجاء الخبر إلى مروان وهو مقتول، وفي رأسه ووجهه نحو من عشرين ضربة، فأمروا برأسه فطيف به في مدائن الجزيرة. واستخلف الضحاك على جيشه من بعده رجلا يقال له الخبيري، فالتف عليه بقية جيش الضحاك، والتف مع الخبيري سليمان ابن هشام بن عبد الملك وأهل بيته ومواليه، والجيش الذين كانوا قد بايعوه في السنة الماضية على الخلافة، وخلعوا مروان بن محمد عن الخلافة لأجله، فلما أصبحوا اقتتلوا مع مروان، فحمل الخبيري في أربعائة من شجعان أصحابه على مروان، وهو في القلب، فكر منهزما واتبعوه حتى أخرجوه من الجيش، ودخلوا عسكره وجلس الخبيري على فرشه، هذا وميمنة مروان ثابتة وعليها ابنه عبد الله، وميسرته أيضا ثابتة وعليها إسحاق بن مسلم العقيلي. ولما رأى عبد الله العسكر فارين مع الخبيري، وأن الميمنة والميسرة من جهتهم باقيتان طمعوا فيه فأقبلوا إليه بعمد الخيام فقتلوه بها، وبلغ قتله مروان وقد سار عن الجيش نحواً من خمسة أميال أو ستة، فرجع مسرورا وانهمزم أصحاب الضحاك،

وقد ولوا عليهم شيبان ، فقصدهم مروان بعد ذلك ، فكان يقال له الكراديس فهزمهم .
 وفيها بعث مروان الحمار على إمارة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ليقاتل من بها من الخوارج .
 وفي هذه السنة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب المدينة ومكة والطائف ،
 وأمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار .
 ومن توفي في هذه السنة بكر بن سوادة وجابر الجعفي والجهم بن صفوان ، مقتولا كما تقدم ، والحارث
 ابن سريج أحد كبراء الأبراء ، وقد تقدم شيء من ترجمته ، وعاصم بن عبدلة ، وأبو حصين عثمان بن
 عاصم ، ويزيد بن أبي حبيب ، وأبو التياح يزيد بن حميد ، وأبو حمزة النعنعين ، وأبو الزبير المكي
 وأبو عمران الجوني وأبو قبيل المغافري . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل .
 ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة

فيها اجتمعت الخوارج بعد الخيبري على شيبان بن عبد العزيز بن الحليس اليشكري الخارجي
 فأشار عليهم سليمان بن هشام أن يتحصنوا بالموصل ويجعلوها منزلا لهم ، فتحولوا إليها وتبعهم مروان
 ابن محمد أمير المؤمنين ، فمكروا بظاھرھا وخندقوا عليهم مما يلي جيش مروان . وقد خندق مروان
 على جيشه أيضا من ناحيتهم ، وأقام سنة يحاصرهم ويقتلون في كل يوم بكرة وعشية ، وظفر مروان
 بابن أخ سليمان بن هشام ، وهو أمية بن معاوية بن هشام ، أسره بعض جيشه ، فأمر به فقطعت
 يده ثم ضرب عنقه ، وعمه سليمان والجيش ينظرون إليه . وكتب مروان إلى نائبه بالعراق يزيد بن
 عمر بن هبيرة يأمره بقتال الخوارج الذين في بلاده . فجرت له معهم وقعات عديدة ، فظفر بهم
 ابن هبيرة . وأباد خضراءهم ولم يبق لهم بقية بالعراق ، واستنقذ الكوفة من أيدي الخوارج ، وكان
 عليها المنى بن عمران العائذي - عائذة قریش - في رمضان من هذه السنة ، وكتب مروان إلى ابن
 هبيرة لما فرغ من الخوارج أن يمدد بعبار بن صبارة - وكان من الشجمان - فبعثه إليه في سبعة آلاف
 أو ثمانية آلاف ، فأرسلت إليه سرية في أربعة آلاف فاعترضوه في الطريق فهزمهم ابن صبارة
 وقتل أميرهم الجون بن كلاب الشيباني الخارجي ، وأقبل نحو الموصل ، ورجع فل الخوارج إليهم .
 فأشار سليمان بن هشام عليهم أن يرتحلوا عن الموصل ، فإنه لم يكن يمكنهم الإقامة بها ، ومروان من
 أمامهم وابن صبارة من ورائهم ، قد قطع عنهم الميرة حتى لم يجدوا شيئا يأكلونه ، فارتحلوا عنها
 وساروا على حلوان إلى الأهواز ، فأرسل مروان ابن صبارة في آثارهم في ثلاثة آلاف ، فاتبعهم يقتل
 من تخلف منهم ويلحقهم في موطن فيقائلهم ، وما زال وراءهم حتى فرق شملهم شذرا مذر ، وهناك
 أميرهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري بالأهواز في السنة القابلة ، قبله خالد بن مسعود بن جعفر بن
 خليل الأزدي . وركب سليمان بن هشام في مواليه وأهل بيته السفن وساروا إلى السند ، ورجع

مروان من الموصل فأقام بمنزله بجران وقد وجد سروراً بزوال الخوارج ، ولكن لم يتم سروره ، بل أعقبه القدر من هو أقوى شوكة وأعظم أتباعاً ، وأشد بأساً من الخوارج ، وهو ظهور أبي مسلم الخراساني الداعية إلى دولة بني العباس .

أول ظهور أبي مسلم الخراساني

وفي هذه السنة ورد كتاب من إبراهيم بن محمد الامام العباسي بطلب أبي مسلم الخراساني من خراسان ، فسار إليه في سبعين من النقباء ، لا يمرون ببلد إلا سألوهم إلى أين تنهبون ؟ فيقول أبو مسلم : نريد الحج . وإذا توسم أبو مسلم من بعضهم ميلاً إليهم دعاهم إلى ما هم فيه فيجيبه إلى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق جاء كتاب ثان من إبراهيم الامام إلى أبي مسلم : إني بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة ، وأمر قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الامام فيوافيه في الموسم ، فرجع أبو مسلم بالكتاب فدخل خراسان في أول يوم من رمضان فرفع الكتاب إلى سليمان بن كثير وفيه : أن أظهر دعوتك ولا تتر بص . فقدموا عليهم أبا مسلم الخراساني داعياً إلى بني العباس ، فبعث أبو مسلم دعاته في بلاد خراسان ، وأمير خراسان - نصر بن سيار - مشغول بقتال الكرمانى ، وشيبان بن سلمة الحرورى ، وقد بلغ من أمره أنه كان يسلم عليه أصحابه بالخلافة في طوائف كثيرة من الخوارج ، فظهر أمر أبي مسلم وقصده الناس من كل جانب ، فكان ممن قصده في يوم واحد أهل ستين قرية ، فأقام هناك اثنين وأربعين يوماً ، ففتحت على يديه أقاليم كثيرة . ولما كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان في هذه السنة ، عقد أبو مسلم اللواء الذى بعثه إليه الامام ، ويدعى الظل ، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، وعقد الراية التى بعث بها الامام أيضاً ، وتدعى السحاب ، على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ، وهما سوداوان ، وهو يتلو قوله تعالى [أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير] ولبس أبو مسلم وسليمان بن كثير ومن أجابهم إلى هذه الدعوة ، السواد ، وصارت شعارهم ، وأوقدوا في هذه الليلة ناراً عظيمة يدعون بها أهل تلك النواحي ، وكانت علامة بينهم فتجمعوا . ومعنى تسمية إحدى الرايتين بالسحاب أن السحاب كما يطبق جميع الأرض كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم أهل الأرض ، ومعنى تسمية الأخرى بالظل أن الأرض كما أنها لا تخلو من الظل فكذلك بنو العباس لا تخلو الأرض من قائم منهم . وأقبل الناس إلى أبي مسلم من كل جانب ، وكثر جيشه . ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلى بالناس ، ونصب له منبراً ، وأن يخالف في ذلك بنى أسية ، ويعمل بالسنة ، فتودى للصلاة جامعة ، ولم يؤذن ولم يقم خلافاً

لهم ، وبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، وكبر ستاً في الأولى قبل القراءة ، لا أربعاً . وخمساً في الثانية لا ثلاثاً ، خلافاً لهم . وابتدأ الخطبة بالذكر والتكبير وختمها بالقراءة ، وانصرف الناس من صلاة العبد وقد أعد لهم أبو مسلم طعاماً فوضعه بين أيدي الناس ، وكتب إلى نصر بن سيار كتاباً بدأ فيه بنفسه ثم قال إلى نصر بن سيار . بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فإن الله غير أقواماً في كتابه فقال [وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم] إلى قوله [تحويلاً] فمظم على نصر أن قدم اسمه على اسمه ، وأطال الفكر ، وقال : هذا كتاب له جواب .

قال ابن جرير : ثم بعث نصر بن سيار خيلاً عظيمة لمحاربة أبي مسلم ، وذلك بعد ظهوره بثمانية عشر شهراً ، فأرسل أبو مسلم إليهم مالك بن الهيثم الخزاعي ، فالتقوا : فدعاهم مالك إلى الرضا عن آل رسول الله ص . فأبوا ذلك ، فتصافوا من أول النهار إلى العصر ، فجاء إلى مالك مدد فقوى فظفر بهم مالك ، وكان هذا أول موقف اقتتل فيه جند بني العباس وجند بني أمية .

وفي هذه السنة غلب خازم بن خزيمه على مرو الروذ وقتل عاملها من جهة نصر بن سيار ، وهو بشر بن جعفر السعدي ، وكتب بالفتح إلى أبي مسلم ، وكان أبو مسلم إذ ذاك شاباً حدثاً قد اختاره إبراهيم لدعوتهم . وذلك لشهامته وصرامته ، وقوة فهمه وجودة ذهنه ، وأصله من سواد الكوفة ، وكان مولى لادريس بن معقل العجلي ، فاشتراه بعض دعاة بني العباس بأربعمائة درهم ، ثم أخذه محمد بن علي ثم آل ولاؤه لآل العباس ، وزوجه إبراهيم الامام بابنة أبي النجم إسماعيل بن عمران ، وأصدقها عنه وكتب إلى دعائهم بخراسان والعراق أن يسمعوا منه ، فامتثلوا أمره ، وقد كانوا في السنة الماضية قبل هذه السنة ردوا عليه أمره لصغره فيهم ، فلما كانت هذه السنة أكد الامام كتابه إليهم في الوصاية به وطاعته ، وكان في ذلك الخير له ولهم [وكان أمر الله قدراً مقدوراً] ولما فشا أمر أبي مسلم بخراسان تعاقبت طوائف من العرب الذين بها على حربه ومقاتلته ، ولم يكره الكرمانى وشيبان لأنهما خرجا على نصر وأبو مسلم مخالف لنصر كحالمهما ، وهو مع ذلك يدعو إلى خلع مروان الحمار ، وقد طلب نصر من شيبان أن يكون معه على حرب أبي مسلم ، أو يكف عنه حتى يتفرغ لحربه ، فاذا قتل أبا مسلم عادا إلى عداوتهما ، فأجابه إلى ذلك ، فبلغ ذلك أبا مسلم فبعث إلى الكرمانى يعلمه بذلك فلام الكرمانى شيبان على ذلك ، وثناه عن ذلك ، وبعث أبو مسلم إلى هراة النضر بن نعيم فأخذها من عاملها عيسى بن عقيل الليثي ، وكتب إلى أبي مسلم بذلك ، وجاء عاملها إلى نصر هاربا ، ثم إن شيبان وادع نصر بن سيار سنة على ترك الحرب بينه وبينه ، وذلك عن كره من الكرمانى ، فبعث ابن الكرمانى إلى أبي مسلم إني معك على قتال نصر ، وركب أبو مسلم في خدمة الكرمانى فاتفقا على حرب نصر ومخالفته . وتحول أبو مسلم إلى موضع فسيح وكثر جنده وعظم جيشه ، واستعمل على الحرس والشرط

والرسائل والديوان وغير ذلك مما يحتاج إليه الملك عمالا ، وجعل القاسم بن مجاشع التميمي - وكان أحد النقباء - على القضاء وكان يصلي بأبي مسلم الصلوات ، ويقص بعض القصص فيذكر محاسن بني هاشم ويذم بني أمية . ثم تحول أبو مسلم إلى قرية يقال لها بالين ، وكان في مكان منخفض ، نخشى أن يقطع عنه نصر بن سيار الماء ، وذلك في سادس ذى الحجة من هذه السنة ، وصلى بهم يوم النحر القاضي القاسم بن مجاشع ، وصار نصر بن سيار في جحافل كالسحاب قاصدا قتال أبي مسلم ، واستخلف على البلاد نوابا وكان من أمرهما ما سند كره في السنة الآتية .

مقتل ابن الكرماني

ونشبت الحرب بين نصر بن سيار وبين ابن الكرماني - وهو جديع بن علي الكرماني - فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير ، وجعل أبو مسلم يكتب كلاما من الطائفتين ويستميلهم إليه ، يكتب إلى نصر وإلى ابن الكرماني : إن الامام قد أوصاني بكم خيرا ولست أعدد رأيه فيكم ، وكتب إلى الكور يدعو إلى بني العباس فاستجاب له خلق كثير وجم غفير ، وأقبل أبو مسلم فنزل بين خندق نصر وخندق ابن الكرماني ، فهابه الفريقان جميعا ، وكتب نصر بن سيار إلى مروان يعله بأمر أبي مسلم ، وكثرة من معه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، وكتب في جملة كتابه :

أرى بين الرمادِ وميضَ جمرٍ * وأحرى أن يكونَ له ضرامٌ

فان النارُ بالعيدانِ تذكى • وإنَّ الحربَ مبدؤها الكلامُ

فقلتُ من التعجبِ ليتَ شعري * أيقاظُ أميةُ أمْ نيامُ

فكتب إليه مروان : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، فقال نصر : إن صاحبكم قد أخبركم أن

لا نصر عنده . وبعضهم يرونها بلفظ آخر : -

أرى خللَ الرمادِ وميضَ نارٍ * فيوشكُ أن يكونَ لها ضرامٌ

فانَّ النارُ بالعيدانِ تذكى • وإنَّ الحربَ أولها كلامُ

فان لم يطفها عقلاءُ قومٍ * يكونُ وقودها جنثٌ وهامٌ

أقولُ من التعجبِ ليتَ شعري * أيقاظُ أميةُ أمْ نيامُ

فان كانوا لحينهم نياماً * فقل قوموا فقد حان القيامُ

قال ابن خلدكان : وهذا كما قال بعض علوية الكوفة حين خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن

الحسين على المنصور أخى السفاح :

أرى ناراً تشبُّ على بقاعٍ * لها في كل ناحية شعاعٌ

وقد رقدت بنو العباسِ عنها * وبانت وهي آمنة رناعٌ

كما رقدت أميةٌ ثم هبت * تدافع حين لا يفي الدفَاعُ

وكتب نصر بن سيار أيضا إلى نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يستمهه وكتب إليه :

أبلغ يزيد وخير القول أصدق * وقد تحققت أن لا خير في الكذب

بان أرض خراسان رأيت بها * بيضا إذا أفرخت حدثت بالمعجب

فراخ عامين إلا أنها كبرت * ولم يظن وقد سر بلن بالزغب

فان يظن ولم يحتل لمن بها * يلهم نيران حرب أيما هب

بعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان ، واتفق في وصول الكتاب إليه أن وجدوا رسولا من جهة إبراهيم الامام ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم ، وهو يشتمه فيه ويسبه ، ويأمره أن يناهض نصر بن سيار وابن الكرماني ، ولا يترك هناك من يحسن العربية . فعند ذلك بعث مروان وهو مقيم بمران كتابا إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، يأمره فيه أن يذهب إلى الحيمة ، وهي البلدة التي فيها إبراهيم بن محمد الامام ، فيقيده ويرسله إليه . فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم الامام جالسا فقيده وأرسل به إلى دمشق ، فبعث نائب دمشق من فوره إلى مروان ، فأمر به فسجن ثم قتل كما سيأتي .

وأما أبو مسلم فإنه لما توسط بين جيش نصر وابن الكرماني ، كاتب ابن الكرماني : إني معك فال إليه ، فكتب إليه نصر ويحك لا تغتر فانه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك ، فسلم حتى نكتب كتابا بيننا بالوادعة ، فدخل ابن الكرماني داره ثم خرج إلى الرحبة في مائة فارس ، وبعث إلى نصر هلم حتى تتكاتب ، فأبصر نصر غرة من ابن الكرماني فنهض إليه في خلق كثير ، فحملوا عليه فقتلوه وقتلوا من جماعته جماعة ، وقتل ابن الكرماني في المعركة ، طعنه رجل في خاصرته نخر عن دابته ، ثم أمر نصر بصلبه وصلب معه جماعة ، وصلب معه محكمة ، وانضاف ولده إلى أبي مسلم الخراساني ومعه طوائف من الناس من أصحاب ابن الكرماني ، فصاروا كتفا واحدا على نصر .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة تغلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على فارس وكورها ، وعلى حلوان وقومس واصبهان والري ، بعد حرب يطول ذكرها ، ثم التقى عامر بن ضبارة معه باصطخر فهزمه ابن ضبارة وأسر من أصحابه أربعين ألفا . فكان منهم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، فنسبه ابن ضبارة وقال له : ما جاء بك مع ابن معاوية وقد عدت خلفه لأمر المؤمنين ؟ فقال : كان علي دين فأتيته فيه . فقام إليه [حرب بن] قطن بن وهب الهلالي فاستوهبه منه وقال : هو ابن أختنا فوهبه له ، وقال : ما كنت لأقدم على رجل من قريش ، ثم استعلم ابن ضبارة منه أخبار ابن معاوية فدمه ورماه هو وأصحابه باللواط ، وجيء من الأسارى بمائة غلام عليهم الثياب المصبغة ، وقد كان يعمل معهم الفاحشة ، وحمل ابن ضبارة عبد الله بن علي بن علي البريدل بن هبيرة ليخبره بما أخبر به

ابن ضبارة عن ابن معاوية . وقد كتب الله عز وجل أن زوال ملك بني أمية يكون على يدي هذا الرجل ، وهو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولا يشعر واحد منهم بذلك . قال ابن جرير : وفي هذه السنة ولي الموسم أبو حمزة الخارجي فأظهر التحكم والمخالفة لمروان ، وتبرأ منه . فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ أمير مكة والمدينة والطائف ، وإليه أمر الحجيج في هذه السنة ، ثم صالحهم على الأمان إلى يوم النفر ، فوقفوا على حدة بين الناس بعرفات ، ثم تميزوا عنهم ، فلما كان يوم النفر الأول تعجل عبد الواحد وترك مكة فدخلها الخارجي بغير قتال ، فقال بعض الشعراء في ذلك : -

زار الحجيج عصابة قد خالفوا * دين الاله ففر عبد الواحد
ترك الحلائل والامارة هارباً * ومضى يخبط كالبعير الشارد
لو كان والده تنصل عرقه * لصفته موارد بعرق الوارد

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة شرع في تجهيز السرايا إلى قتال الخارجي ، وبذل النفقات وزاد في إعطية الأجناد ، وسيرهم سريراً . وكان أمير العراق يزيد بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار ، وقد استحوذ على بعض بلاده أبو مسلم الخراساني . ومن توفى فيها من الأعيان : سالم أبو النضر ، وعلي بن زيد بن جدعان ، في قول ، ويحيى بن أبي كثير . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل والله الحمد .

سنة ثلاثين ومائة

في يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الأولى منها ، دخل أبو مسلم الخراساني مرو ، ونزل دار الامارة بها ، وانتزعها من يد نصر بن سيار ، وذلك بمساعدة علي بن الكرماني ، وهرب نصر بن سيار في شردمة قليلة من الناس ، نحو من ثلاثة آلاف ، ومعه امرأته المرزبانية ، حتى لحق سرخس وترك امرأته وراهه ، ونجا بنفسه ، واستفحل أمر أبي مسلم جداً ، والنفث عليه العساكر .

مقتل شيبان بن سامة الحروري

ولما هرب نصر بن سيار بقي شيبان وكان مماثله على أبي مسلم ، فبعث إليه أبو مسلم رسلاً فحبسهم فأرسل أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث يأمره أن يركب إلى شيبان فيقاتله ، فسار إليه فالتقوا فهزمه بسام فقتله واتبع أصحابه يقتلهم ويأسرهم ، ثم قتل أبو مسلم عليا وعثمان ابني الكرماني ، ثم وجه أبو مسلم أبا داود إلى بلخ فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة . ثم إن أبا مسلم اتفق مع أبي داود على قتل عثمان بن الكرماني في يوم كذا ، وفي ذلك اليوم بعينه يقتل أبو مسلم على بن جديع الكرماني ، فوقع ذلك كذلك .

وفي هذه السنة وجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب إلى نيسابور لقتال نصر بن سيار، ومع قحطبة جماعة من كبار الأمراء، منهم خالد بن برمك. فالتقوا مع تميم بن نصر بن سيار وقد وجهه أبوه لقتالهم بطوس، فقتل قحطبة من أصحاب نصر نحواً من سبعة عشر ألفاً في المعركة، وقد كان أبو مسلم بعث إلى قحطبة مدداً نحو عشرة آلاف فارس، عليهم علي بن معقل، فاقتتلوا فقتلوا من أصحاب نصر خلقاً كثيراً، وقتلوا تميم بن نصر، وغنموا أموالاً جزيلة جداً، ثم إن يزيد بن عمر بن هبيرة نائب مروان على العراق بعث سرية مدداً لنصر بن سيار، فالتقى معهم قحطبة في مستهل ذي الحجة، وذلك يوم الجمعة، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم جند بني أمية، وقتل من أهل الشام وغيرهم عشرة آلاف، منهم نباتة بن حنظلة عامل جرجان، فبعث قحطبة برأسه إلى أبي مسلم.

ذكر دخول أبي حمزة الخارجي المدينة النبوية واستلانه عليها

قال ابن جرير: وفي هذه السنة كانت وقعة بقديد بين أبي حمزة الخارجي الذي كان عام أول في أيام الموسم، فقتل من أهل المدينة من قريش خلقاً كثيراً، ثم دخل المدينة وهرب نائبها عبد الواحد ابن سليمان، فقتل الخارجي من أهلها خلقاً، وذلك لتسع عشرة ليلة خلت من صفر من هذه السنة، ثم خطب على منبر رسول الله (ص)، فوبخ أهل المدينة، فقال: يا أهل المدينة إني مرت بك أيام الأحول - يعني هشام بن عبد الملك - وقد أصابكم عاهة في ثماركم فكتبتم إليه تسألونه أن يضع الخرص عنكم فوضعه، فزاد غنيكم غنى وزاد فقيركم فقراً، فكتبتم إليه جزاك الله خيراً، فلا جزاء الله خيراً. في كلام طويل. فأقام عندهم ثلاثة أشهر بقية صفر وشهر ربيع وبعض جمادى الأولى فيما قال الواقدي وغيره. وقد روى المدائني أن أبا حمزة رقى يوماً منبر رسول الله (ص)، ثم قال: تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من بلادنا بطراً ولا أشراً، ولا لدولة نريد أن نخوض فيها النار، وإنما أخرجنا من ديارنا أننا رأينا مصابيح الحق طمست، وضمف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، فلما رأينا ذلك ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وصممنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله [ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض] أقبلنا من قبائل شتى، النفر منا على أمير واحد عليه زادم وأنفسهم، يتماورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض، فأوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا والله بنعمة الله إخواناً، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بني مروان، فشتان لعمر الله بين الغي والرشد، ثم أقبلوا نحونا يهرعون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله، وصدق عليهم ظنه فاتبعوه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب، بكل مهند ذي رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو

بأيدينا ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، يا أهل المدينة أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر ، يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم ، إلا مشركا عابدا وثنا أو كافرا أهل كتاب ، أو إماما جائرا . يا أهل المدينة من زعم أن الله يكاف نفسا فوق طاقتها ، أو يسألها ما لم يؤتها ، فهو الله عدو ، وأنا له حرب . يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القوى والضعيف ، فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذها لنفسه ، مكابرا محاربا لربه ، يا أهل المدينة بلغني أنكم تفتقصون أصحابي قلم شباب أحداث ، وأعراب جفاة أجلاف ، ويحكم فهل كان أصحاب رسول الله (ص) إلا شبابا أحداثا ، شبابا والله مكتملون في شبابهم ، غضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن السعي في الباطل أقدامهم ، قد باعوا الله أنفسا تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية اصلاهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار ، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة . فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت ، وإلى الرماح قد شرعت ، وإلى السهام قد فوقت ، واعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا والله وعيد الكتيبة لوعيد الله في القرآن ، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين في مناقير الطير طال مافاضت في جوف الليل من خشية الله ، وطال ما بكت خالية من خوف الله ، وكم من يد زالت عن مفصلها طال ما ضربت في سبيل الله وجاهدت أعداء الله . وطال ما اعتمدها صاحبها في طاعة الله . أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيري ، وما توفيقي إلا بالله .

ثم روى المدائني عن العباس عن هارون عن جده قال : كان أبو حمزة الخارجي قد أحسن السيرة في أهل المدينة فالوا إليه حتى معهوه [يقول] برح الخلفا أين عن بابك نذهب [ثم قال] من زنا فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، فعند ذلك أبفضوه ورجعوا عن محبته . وأقام بالمدينة حتى بعث مروان الحمار عبد الملك بن محمد بن عطية أحد بني سعد في خيل أهل الشام أربعة آلاف ، قد انتخبها مروان من جيشه ، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرسا عربية ، وبغلا لثقله ، وأمره أن يقاتله ولا يرجع عنه ، ولو لم ينحقه إلا باليمن فليتبعه إليها ، وليقاتل نائب صنعاء عبد الله بن يحيى . فسار ابن عطية حتى باغ وادي القرى فلتقاه أبو حمزة الخارجي قاصدا قتال مروان بالشام ، فاقتلوا هنالك إلى الليل ، فقال له : ويحك يا ابن عطية ! إن الله قد جعل الليل سكنا فأخر إلى غد ، فأبى عليه أن يقلع عن قتاله ، فما زال يقاتلهم حتى كسرهم فولوا ورجع فلم يبق لهم إلى المدينة ، فنهض إليهم أهل المدينة فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ودخل ابن عطية المدينة ، وقد انهزم جيش أبي حمزة عنها ، فيقال إنه أقام بها شهرا ثم استخلف عليها ، ثم استخلف على مكة وسار إلى اليمن فخرج إليه عبد الله ابن يحيى نائب صنعاء ، فاقتلوا قتله ابن عطية وبعث برأسه إلى مروان وجاء كتاب مروان إليه

بأمره باقاة الحج للناس في هذه السنة ، ويستعجله في المسير إلى مكة . فخرج من صنعاء في اثني عشر راجبا ، وترك جيشه بصنعاء ، ومعه خرج فيه أربعون ألف دينار ، فلما كان ببعض الطريق نزل منزلا إذ أقبل إليه أميران يقال لهما ابنا جمانة من سادات تلك الناحية ، فقالوا و بحكم أنتم لصوص . فقال : أنا ابن عطية وهذا كتاب أمير المؤمنين إلى بأرة الحج ، فذمنا نمجمل السير لنذكر الموسم ، فقالوا : هذا باطل ، ثم حملوا عليهم فقتلوا ابن عطية وأصحابه ولم يفلت منهم إلا رجل واحد ، وأخذوا مامعهم من المال .

قال أبو معشر : وحج بالناس في هذه السنة محمد بن عبد الملك بن مروان ، وقد جعلت إليه إمرة المدينة ومكة والطائف ، ونائب العراق ابن هبيرة ، وإمارة خراسان إلى نصر بن سيار ، غير أن أبا مسلم قد استحوذ على مدن وقرى كثيرة من خراسان ، وقد أرسل نصر إلى ابن هبيرة يستمده بعشرة آلاف قبل أن لا يكفيه مائة ألف ، وكتب أيضا إلى مروان يستمده ، فكتب مروان إلى ابن هبيرة بعه بما أراد .

ومن توفي فيها من الأعيان شعيب بن الحبحاب ، وعبد العزيز بن صهيب ، وعبد العزيز بن ربيع ، وكعب بن علقمة ، ومحمد بن المنكدر . والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة

في المحرم منها وجه قحطبة بن شبيب ولده الحسن إلى قوميس لقتال نصر بن سيار ، وأردفه بالامداد ، فخامر بعضهم إلى نصر وارتحل نصر فتنزل الري ، فأقام بها يومين ثم مرض فسار منها إلى همدان . فلما كان بساوه قريبا من همدان توفي لمضى ثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ، عن خمس وثمانين سنة . فلما مات نصر تمكن أبو مسلم وأصحابه من بلاد خراسان ، وقويت شوكتهم جدا ، وسار قحطبة من جرجان ، وقدم أمامه زياد بن زرارة القشيري ، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم ، فترك الجيش وأخذ جماعة معه وسلك طريق أصبهان ليأتي ابن ضبارة ، فبعث قحطبة وراه جيشا فقتلوا عامة أصحابه ، وأقبل قحطبة وراه فقدم قومس وقد افتتحها ابنه الحسن فأقام بها ، وبعث ابنه بين يديه إلى الري ثم ساق وراه فوجده قد افتتحها فأقام بها وكتب إلى أبي مسلم بذلك . وارتحل أبو مسلم من مرو فتنزل نيسابور واستفحل أمره ، وبعث قحطبة بعد دخوله الري ابنه الحسن بين يديه إلى همدان ، فلما اقترب منها خرج منها مالك بن آدم وجماعة من أجناد الشام وخراسان ، فنزلوا نهاوند ، فافتتح الحسن همدان ثم سار وراهم إلى نهاوند ، وبعث إليه أبوه بالامداد فحاصرهم حتى افتتحها .

وفي هذه السنة مات عامر بن ضبارة ، وكان سبب ذلك أن ابن هبيرة كتب إليه أن يسير إلى

قحطبة وأمه بالعساكر ، فسار ابن ضبارة حتى التقى مع قحطبة في عشرين ألفاً ، فلما تواجه الفريقان رفع قحطبة وأصحابه المصاحف ونادى المنادى : يا أهل الشام ، إنا ندعوكم إلى ماني هذا المصحف ، فشتوا المنادى وشتوا قحطبة ، فأمر قحطبة أصحابه أن يحملوا عليهم ، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أصحاب ابن ضبارة ، واتبهم أصحاب قحطبة فقتلوا منهم خاقا كثيرا ، وقتلوا ابن ضبارة في العسكر [لشجاعته فإنه لم يول] وأخذوا من عسكرهم مالا يحد ولا يوصف .

وفيها حاصر قحطبة نهاوند حصارا شديداً حتى سأله أهل الشام الذين بها أن يمهل أهلها حتى يفتحوا له الباب ، ففتحوا له الباب وأخذوا لهم منه أماناً ، فقال لهم من بها من أهل خراسان : ما فعلتم ؟ فقالوا : أخذنا لنا ولكم أماناً ، نخرجوا ظانين أنهم في أمان ، فقال قحطبة للأمراء الذين معه : كل من حصل عنده أسير من الخراسانيين فليضرب عنقه وليأتنا برأسه ، ففعلوا ذلك ولم يبق ممن كان هرب من أبي مسلم أحد ، وأطلق الشاميين وأوفى لهم عهدهم وأخذ عليهم الميثاق أن لا يمالئوا عليه عدواً . ثم بعث قحطبة أبا عون إلى شهر زور ، عن أمر أبي مسلم في ثلاثين ألفاً فافتتحها ، وقتل نائبها عثمان بن سفيان . وقيل لم يقتل بل تحول إلى الموصل والجزيرة وبعث إلى قحطبة بذلك ، ولما بلغ مروان خبر قحطبة وأبي مسلم وما وقع من أمرهما ، تحول مروان من حران فنزل بمكان يقال له الزاب الأكبر .

وفيها قصد قحطبة في جيش كثيف نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة . فلما اقترب منه تقهر ابن هبيرة إلى ورائه ، وما زال يتقهر إلى أن جاوز الفرات ، وجاء قحطبة فجازها وراه ، وكان من أمرهما ما سئد كره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة

في المحرم منها جاز قحطبة بن شبيب الفرات ومعه الجنود والفرسان ، وابن هبيرة مخيم على فم الفرات مما يلي الفلوجة ، في خلق كثير وجم غفير ، وقد أمده مروان بجنود كثيرة ، وانضاف إليه كل من انهزم من جيش ابن ضبارة . ثم إن قحطبة عدل إلى الكوفة ليأخذها ، فاتبعه ابن هبيرة . فلما كانت ليلة الأربعاء ثمان ماضين من المحرم اقتتلوا قتالا شديداً وكثرا قتل في الفريقين ، ثم ولي أهل الشام منهزمين واتبهم أهل خراسان ، وفقد قحطبة من الناس فأخبرهم رجل أنه قتل وأوصى أن يكون أمير الناس من بعده ولده الحسن ، ولم يكن الحسن حاضراً ، فبايعوا حميد بن قحطبة لأخيه الحسن وذهب البريد إلى الحسن ليحضر . وقتل في هذه الليلة جماعة من الأمراء . والذي قتل قحطبة مع ابن زائدة ، وبجي بن حصين . وقيل بل قتله رجل ممن كان معه أخذاً بثار ابني نصر بن سيار فأنه أعلم . ووجد قحطبة في القتلى فدفن هنالك ، وجاء الحسن بن قحطبة فسار نحو الكوفة ، وقد خرج بها

محمد بن خالد بن عبد الله القسري ودعا إلى بني العباس وسود ، وكان خروجه ليلة عاشوراء المحرم من هذه السنة ، وأخرج عاملها من جهة ابن هبيرة ، وهو زياد بن صالح الحارثي ، ونحو محمد بن خالد إلى قصر الامارة فقصده حوثة في عشرين ألفاً من جهة ابن هبيرة ، فلما اقترب من الكوفة أصحاب حوثة يذهبون إلى محمد بن خالد فيبايعونه لبني العباس ، فلما رأى حوثة ذلك ارتحل إلى واسط ، ويقال بل دخل الحسن بن قحطبة الكوفة ، وكان قحطبة قد جمل في وصيته أن تكون وزارة الخلافة إلى أبي سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع الكوفي الخلال ، وهو بالكوفة ، فلما قدموا عليه أشار أن يذهب الحسن بن قحطبة في جماعة من الأمراء إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، وأن يذهب أخوه حميد إلى المدائن ، وبعث البهوث إلى كل جانب يفتتحونها ، وفتحوا البصرة ، افتتحها مسلم بن قتيبة لابن هبيرة ، فلما قتل ابن هبيرة جاء أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي فأخذ البصرة لأبي مسلم الخراساني .

وفي هذه السنة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر منها ، أخذت البيعة لأبي العباس السفاح ، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . قاله أبو معشر وهشام بن الكلبي . وقال الواقدي : في جمادى الأولى من هذه السنة فله أعلم .

ذکر مقتل ابراهيم بن محمد السفاح

قد ذكرنا في سنة تسع وعشرين ومائة أن مروان اطلع على كتاب من إبراهيم الامام إلى أبي مسلم الخراساني ، يأمره فيه بأن لا يبقى أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعربية إلا أباده ، فلما وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم فقيل له هو بالبلقاء ، فكتب إلى نائب دمشق أن يحضره فبعث نائب دمشق بريداً معه صفته ونعته ، فذهب الرسول فوجد أخاه أبا العباس السفاح ، فاعتقد أنه هو فأخذه فقيل له : إنه ليس به ، وإنما هو أخوه ، فدل على إبراهيم فأخذه وذهب معه بأم ولد له كان يحبها ، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة ، فارتحلوا من يومهم إليها ، منهم أعمامه الستة وهم : عبد الله ، وداود ، وعيسى ، وصالح ، وإسماعيل ، وعبد الصمد ، بنوا علي ، وأخوه أبو العباس السفاح ، ومحمد ابنا محمد بن علي ، وابناه محمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الامام الممسوك ، وخلق سوام . فلما دخلوا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد ، مولى بني هاشم ، وكنتم أصراً نحواً من أربعين ليلة من القواد

والأمراء ، ثم ارتحل بهم إلى موضع آخر ، ثم لم يزل ينقلهم من مكان إلى مكان حتى فتحت البلاد .
ثم بويع للسفاح . وأما إبراهيم بن محمد الامام فانه سير به إلى أمير المؤمنين في ذلك الزمان مروان
ابن محمد وهو بخران فحبسه ، وما زال في السجن إلى هذه السنة ، فمات في صفر منها في السجن ، عن
ثمان وأربعين سنة . وقيل إنه غم بمرققة وضمت على وجهه حتى مات عن إحدى وخمسين سنة ،
وصلى عليه رجل يقال له بهلول بن صفوان ، وقيل إنه هدم عليه بيت حتى مات ، وقيل بل سقى
لبناً سمياً فمات ، وقيل إن إبراهيم الامام شهد الموسم عام إحدى وثلاثين ، واشتهر أمره هنالك لأنه
وقف في أبهة عظيمة ، ونجائب كثيرة ، وحرمة وافرة ، فأنهى أمره إلى مروان وقيل له : إن أبا مسلم
يدعو الناس إلى هذا ويسمونه الخليفة ، فبعث إليه في المحرم من سنة ثنتين وثلاثين وقتله في صفر
من هذه السنة ، وهذا أصح مما تقدم : وقيل إنه إنما أخذه من الكوفة لامن حمية البلقاء فأنه أعلم .
وقد كان إبراهيم هذا كريمة جواداً له فضائل وفواضل ، وروى الحديث عن أبيه عن جده ،
وأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وعنه أخواه عبد الله السفاح ، وأبو جعفر عبد الله المنصور ،
وأبو سلمة عبد الرحمن بن مسلم الخراساني ، ومالك بن هاشم . ومن كلامه الحسن : الكامل المروءة
من أحرز دينه ، ووصل رحمه ، واجتنب ما يلام عليه .

خليفة أبي العباس السفاح

لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد ، أراد أبو سلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل علي
ابن أبي طالب ، فغلبه بقية النقباء والأمراء ، وأحضرُوا أبا العباس السفاح وسلوا عليه بالخلافة ،
وذلك بالكوفة ، وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة . وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة
الخلال ، وذلك ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، فلما كان وقت
صلاة الجمعة خرج السفاح على بردون أباق ، والجنود ملبسة معه ، حتى دخل دار الامارة ، ثم خرج
إلى المسجد الجامع وصلى بالناس ، ثم صعد المنبر وبايعه الناس وهو على المنبر في أعلاه ، وعمه داود
ابن علي واقف دونه بثلاث درج ، وتكلم السفاح ، وكان أول ما نطق به أن قال : الحمد لله الذي
اصطفى الاسلام لنفسه ديناً ، وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه
والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، خصنا برحم
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته ، ووضعنا بالاسلام وأهله في الموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على
أهل الاسلام كتاباً يتلى عليهم . فقال تعالى [إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيراً] وقال [قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى] وقال : [وأنذر عشيرتكَ

الأقربين [وقال: ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين] الآية . فأعلمهم عز وجل فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من النبی والغنیمة نصیبنا تکرمة لنا ، وتفضلة علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السباییة الضلال أن غیرنا أحق بالریاسة والسیاسة والخلافة منا ، فشاھت وجوھم . أیها الناس بنا ھدی الله الناس بعد ضلالتهم ، ونصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد ھلکتهم وأظھر بنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منھم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسیسة ، وأتم النقیصة وجمع الفرقة ، حتی عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فی دنیائهم ، وإخوانا علی سرر متقابلین فی أخراھم ، فتح الله علینا ذلك منة ومنحة بمحمد ص . ، فلما قبضه إلیه قام بذلك الأمر بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بینهم ، فخوراً موارث الأمم فمدلوا فیها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خصاصاً منھا . ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها لأنفسهم ، وتداولوها . فجاروا فیها واستأثروا بیها ، وظلموا أهلها ، فأبلی الله لهم حیناً [فلما آسفونا انتقمنا منهم] فانزع منهم ما بأيديهم بأيدينا ، ورد الله علینا حقنا ، وتدارك بنا امتنا ، وتولى أمرنا والقیام بنصرنا لمن بنا علی الذین استضعفوا فی الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإنی لأرجو [أن] لا یأتیکم الجور من حیث جاءكم الخیر ، ولا الفساد من حیث جاءكم الصلاح ، وما توفیقنا أهل البیت إلا بالله . یا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علینا ، وقد زدتم فی أعطیاتكم مائة درهم ، فاستعدوا فانا السفاح الهاجج والنار المبیر . وكان به وعك فاشتد علیه حتی جلس علی المنبر ونهض عمه داود فقال : الحمد لله شكراً الذی أهلك عدونا وأصار إلینا میراثنا من بیتنا . أیها الناس الآن انقضت حنادس الظلمات وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، فطلعت شمس الخلافة من مظلمها ، ورجع الحق إلی نصابه ، إلی أهل نبیکم أهل الرأفة والرحمة والھطف علیکم ، أیها الناس إنا والله ما خرجنا لهذا الأمر لنكنز لجننا ولا سقیاناً ولا لنحفر نهراً ولا لنبنى قصرآ ولا لنجمع ذهباً ولا فضة ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ارتزاع حقنا والغضب لبني عمنا ، ولسوء سيرة بنی أمیة فیكم ، واستدلالهم لكم ، واستئثارهم بفتنكم وصدقاتكم ، فلکم علینا ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس ، أن نحكم فیكم بما أنزل الله ، ونعمل بكتاب الله ، ونسیر فی العامة والخاصة بسيرة رسول الله ، تبا تبا لبني أمیة وبني مروان ، آثروا العاجلة علی الآجلة ، والدار الفانیة علی الدار الباقیة ، فركبوا الآثام وظلموا الأثام ، وارتكبوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا فی سیرتھم فی العباد ، وسننھم فی البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار ، وتجلبب الآصار ، ومرحوا فی أعنة المعاصی ، وركضوا فی میادين النبی ، جهلاً منهم باستدراج الله ، وعمياً عن أخذ الله . وأما لمسكر الله ، فأنام بأس الله بیاتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحادیث ومزقوا كل ممزق ،

فبعدا للقوم الظالمين . وأدان الله من مروان ، وقد غره بالله الفرور ، أرسل عدو الله في عنانه حتى
عثر جواده في فضل خطامه ، أظن عدو الله أن لن يقدر عليه أحد ؟ فزادى حزبه وجمع جنده ورمى
بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته من مكر الله وبأسه ونقمة
ما أمت باطله ، ومحق ضلاله ، وأحل دائرة السوء به ، وأحاط به خطيئته ، ورد إلينا حقنا وآوانا .
أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً ، وإنما عاد إلى المنبر بعد صلاة الجمعة لأنه
كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك ، فادعوا الله
لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة
الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون المتوكل على الله المقتدى بالأبرار الذين أصلحوا
الأرض بعد فسادها بمالم الهدى ، ومناهج التقى . قال فميج الناس له بالدعاء ثم قال : واعلموا يا أهل
الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله (ص) ، إلا أمير المؤمنين حلي بن أبي طالب
وأمير المؤمنين هذا - وأشار بيده إلى السفاح - واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا ، حتى
نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . ثم نزل أبو
العباس وداود حتى دخلا القصر . ثم دخل الناس يبأيعون إلى العصر ، ثم من بعد العصر إلى الليل .
ثم إن أبا العباس خرج فمسك بظاهر الكوفة واستخلف عليها عمه داود ، وبعث عمه عبد الله
ابن علي إلى أبي عون بن أبي يزيد ، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة . وهو
يومئذ بواسط يحاصر ابن هبيرة ، وبعث يحيى بن [جعفر بن] تمام بن العباس إلى حميد بن قحطبة
بالمدائن ، وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام
بالأهواز ، وبعث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف . وأقام هو بالعسكر شهراً ، ثم
ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الامارة ، وقد تنكر لأبي سلمة الخلال ، وذلك لما كان بلغه عنه
من العدول بالخلافة عن ابن العباس إلى آل علي بن أبي طالب والله سبحانه وتعالى أعلم .

مقتل مروان بن محمد بن مروان

آخر خلفاء بني أمية ، ونحو الخلافة إلى بني العباس مأخوذ من قوله تعالى [والله يؤتي ملكه
من يشاء] وقوله [قل اللهم مالك الملك] الآية . وقد ذكرنا أن مروان لما بلغه خبر أبي مسلم وأتباعه
وما جرى بأرض خراسان ، تحول من حران فنزل على نهر قريب من الموصل ، يقال له الزاب من
أرض الجزيرة ثم لما بلغه أن السفاح قد بويع له بالكوفة والتفت عليه الجنود ، واجتمع له أمره ، شق
عليه جداً ، وجمع جنوده فتقدم إليه أبو عون بن أبي يزيد في جيش كثيف وهو أحد أمراء السفاح ،
فنازله على الزاب وجاءته الأمداد من جهة السفاح ، ثم نذب السفاح الناس ممن يلي القتال من أهل

بيته ، فاتتدب له عبد الله بن علي فقال : سر على بركة الله ، فسار في جنود كثيرة فقدم على أبي عون فتحول له أبو عون عن سرادقه وخلاه له وما فيه ، وجعل عبد الله بن علي على شرطته حياش ابن حبيب الطائي ، ونصير بن المحتفز ، ووجه أبو العباس موسى بن كعب في ثلاثين رجلا على البريد إلى عبد الله بن علي يحثه على مناجزة مروان ، والمبادرة إلى قتاله ونزاله قبل أن يحدث أمور ، وتبرد نيران الحرب . فتقدم عبد الله بن علي بجنوده حتى واجه جيش مروان ، ونهض مروان في جنوده وتصاف الفريقان في أول النهار ، ويقال إنه كان مع مروان يومئذ مائة ألف وخمسون ألفاً ، ويقال مائة وعشرون ألفاً ، وكان عبد الله بن علي في عشرين ألفاً . فقال مروان لعبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز : إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم ، وإن قاتلونا قبل الزوال فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله المواعدة ، فقال عبد الله : كذب ابن زريق ، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخليل إن شاء الله ، وكان ذلك يوم السبت لاحدى عشر ليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة ، فقال مروان : قفوا لا تبتدون بقتال ، وجعل ينظر إلى الشمس يخالفه الوليد بن معاوية بن مروان - وهو ختن مروان على ابنته - فحمل ، ففضب مروان فشمته فقاتل أهل الميمنة فأنحاز أبو عون إلى عبد الله بن علي ، فقاتل موسى بن كعب لعبد الله بن علي ، فأمر الناس فنزلوا ونودي الأرض الأرض ، فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب وقاتلهم ، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنما يدفعون ، وجعل عبد الله يمشى قدما ، وجعل يقول : يارب حتى متى تقتل فيك ، ونادى : يا أهل خراسان ، ياشارات إبراهيم الامام ، يا محمد يا منصور ، واشتد القتال جداً بين الناس ، فلا تسمع إلا وقعاً كالمراذب على النحاس ، فأرسل مروان إلى قضاة يأمرهم بالنزول فقالوا : قل لبني سليم فلينزلوا ، وأرسل إلى السكاسك أن احموا فقالوا : قل لبني عامر أن يحموا ، فأرسل إلى السكون أن احموا فقالوا : قل إلى غطفان فليحموا . فقال لصاحب شرطته : انزل فقال لا والله لا أجعل نفسي غرضاً . قال : أما والله لأسوءنك . قال : وددت والله لو قدرت على ذلك .

ويقال : إنه قال ذلك لابن هبيرة . قالوا : ثم انهزم أهل الشام واتبعتهم أهل خراسان في أدبارهم يقتلون ويأسرون ، وكان من غرق من أهل الشام أكثر من قتل وكان في جملة من غرق إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الخلويع ، وقد أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر ، واستخراج من غرق في الماء ، وجعل يتلو قوله تعالى [إذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون] وأقام عبد الله ابن علي في موضع المعركة سبعة أيام ، وقد قال رجل من ولد سعيد بن العاص في مروان وفراره يومئذ :
لج الفرار بمروان فقلت له * عاد الظوم ظليماً همه الهرب

أَبْنُ الْفِرَارِ وَتَرَكَ الْمَلِكُ إِذْ ذَهَبَتْ * عَنْكَ الْهُوَيْنَا فَلَا دِينَ وَلَا حِسْبَ
فِرَاشَةَ الْحَلْمِ فَرَعُونَ الْعِقَابِ وَإِنَّ * تَطَلَّبُ نَدَاهُ فَكَلْبُهُ دُونَهُ كَابُ

واحتاز عبد الله ماني معسكر مروان من الأموال والامتعة والحواصل ، ولم يجسد فيه امرأة سوى جارية كانت لعبد الله بن مروان ، وكتب إلى أبي العباس السفاح بما فتح الله عليه من النصر ، وما حصل لهم من الأموال . فصلى السفاح ركعتين شكراً لله عز وجل ، وأطلق لكل من حضر الوقعة خمسمائة خمسمائة ، ورفع في أرزاقهم إلى ثمانين ، وجعل يتلو قوله [فلما فصل طالوت بالجنود] الآية

صفة مقتل مروان

لما انهزم مروان سار لابلوى على أحد ، فأقام عبد الله بن علي في مقام المعركة سبعة أيام ، ثم سار خلفه بمن معه من الجنود ، وذلك عن أمر السفاح له بذلك ، فلما مر مروان بجران اجتازها وأخرج أبا محمد السفياي من سجنه ، واستخلف عليها أبان بن يزيد - وهو ابن أخته ، وزوج ابنته أم عثمان - فلما قدم عبد الله على حران خرج إليه أبان بن يزيد مسوداً فأمنه عبد الله بن علي وأقره على عمله ، وهدم الدار التي سجن فيها إبراهيم الامام ، واجتاز مروان قنسرين قاصداً حصص ، فلما جاءها خرج إليه أهلها بالأسواق والمعاش ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم شخض منها ، فلما رأى أهل حصص قلة من معه اتبعوه ليقتلوه ونهبوا ماله ، وقالوا : مرعوب مهزوم ، فأدركوه بواد عند حصص فأكن لهم أمير بن ، فلما تلاحقوا بمروان عطف عليهم فنأشدهم أن يرجعوا فأبوا إلا مقاتلته ، فنار القتال بينهم ونار الكمينان من ورائهم ، فانهزم الخصبون ، وجاء مروان إلى دمشق وعلى نياتها من جهة زوج ابنته الوليد ابن معاوية بن مروان ، فتركها واجتاز عنها قاصداً إلى الديار المصرية ، وجعل عبد الله بن علي لا يمر ببلد وقد سودوا فيبايمونه ويمطيمهم الأمان ، ولما وصل إلى قنسرين وصل إليه أخوه عبد الصمد ابن علي في أربعة آلاف ، قد بعثهم السفاح مدداً له ، ثم سار عبد الله حتى أتى حصص ، ثم سار منها إلى بعلبك ، ثم منها حتى أتى دمشق من ناحية المزة فنزل بها يومين أو ثلاثة ، ثم وصل إليه أخوه صالح ابن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح ، فنزل صالح بمرج عذراء ، ولما جاء عبد الله بن علي دمشق نزل على الباب الشرقي ، ونزل صالح أخوه على باب الجابية ، ونزل أبو عون على باب كيسان ، ونزل بسام على الباب الصغير ، وحديد بن قحطبة على باب تونس ، وعبد الصمد وبجي بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس ، فحاصرها أياماً ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان هذه السنة ، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأباحها ثلاث ساعات ، وهدم سورها ، ويقال إن أهل دمشق لما حاصروهم عبد الله اختلفوا فيما بينهم ، ما بين عباسي وأموي ، فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً ، وقتلوا نائبيهم ثم سلموا البلد ، وكان أول من صعد السور من ناحية الباب الشرقي رجل يقال له عبد الله الطائي ، ومن

ناحية الباب الصغير بسام بن إبراهيم ، ثم أبيحت دمشق ثلاث ساعات حتى قيل إنه قتل بها في هذه المدة نحواً من خمسين ألفاً .

وذكر ابن عساكر في ترجمة عبيد بن الحسن الأعرج من ولد جعفر بن أبي طالب ، وكان أميراً على خمسة آلاف مع عبد الله بن علي في حصار دمشق ، أنهم أقاموا محاصرها خمسة أشهر ، وقيل مائة يوم ، وقيل شهراً ونصفاً ، وأن البلد كان قد حصنه نائب مروان تحصيناً عظيماً ، ولكن اختلف أهلها فيما بينهم بسبب العمانية والمضرية ، وكان ذلك سبب الفتح ، حتى إنهم جعلوا في كل مسجد محرابين للقبليين حتى في المسجد الجامع منبرين ، وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبرين ، وهذا من عجيب ما وقع ، وغريب ما اتفق ، وقطيع ما أحدث بسبب الفتنة والهوى والعصبية ، نسأل الله السلامة والعافية . وقد بسط ذلك ابن عساكر في هذه الترجمة المذكورة ، وذكر في ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال : كنت مع عبد الله بن علي أول ما دخل دمشق ، دخلها بالسيف ، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات ، وجعل جامعها سبعين يوماً اسطبلًا لدوابه وجماله ، ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء ، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة ، وكان يجد في القبر العضو بعد العضو ، إلا هشام بن عبد الملك فانه وجدته صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياماً ثم أحرقه ودق رماده ثم ذره في الريح ، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي ، حين كان قد اتهم بقتل ولد له صغير ، سبعائة سوط ، ثم نفاه إلى الحيمة بالبلقاء . قال : ثم تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين ألفاً عند نهر بالرملة ، و بسط عليهم الأنطاع ومد عليهم سباطاً فأكل وهم يمسجون تحته ، وهذا من الجبروت والظلم الذي يجازيه الله عليه ، وقد مضى ولم يدم له ما أراد ورجاه ، كما سيأتي في ترجمته . وأرسل امرأة هشام بن عبد الملك وهي عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال ، مع نفر من الخراسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة عن وجهها وجسدها عن ثيابها ثم قتلوها . ثم أحرق ما وجدته من عظم ميت منهم . وأقام بها عبد الله خمسة عشر يوماً .

وقد استدعى بالأوزاعي فأوقف بين يديه فقال له : يا أبا عمرو ما تقول في هذا الذي صنعناه ؟ قال فقلت له : لا أدري ، غير أنه قد حدثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم عن علقمة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله (ص) : « إنما الأعمال بالنيات » فذكر الحديث . قال الأوزاعي : وانتظرت رأسي أن يسقط بين رجلي ثم أخرجت ، وبعثت إلى بمائة دينار . ثم سار

وراء مروان فنزل على نهر الكسوة ووجه يحيى بن جعفر الهاشمي نائبا على دمشق ، ثم سار فنزل مرج الروم ، ثم أتى نهر أبي فطرس فوجد مروان قد هرب فدخل مصر ، وجاءه كتاب السفاح : ابعث صالح بن علي في طلب مروان وأقم أنت بالشام نائبا عليها ، فسار صالح يطلب مروان في ذى القعدة من هذه السنة ، ومعه أبو عمرو وعامر بن إسماعيل ، فنزل على ساحل البحر وجمع ما هناك من السفن وبلغه أن مروان قد نزل الفرما ، وقيل الفيوم ، فجعل يسير على الساحل والسفن تقاد معه في البحر حتى أتى العريش ، ثم سار حتى نزل على النيل ثم سار إلى الصعيد ، فعب مروان النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله من العلف والطعام ، ومضى صالح في طلبه . فالتقى بخيل لمروان فهزمهم ، ثم جعل كلما التقوا مع خيل لمروان يهزمونهم حتى سألوا بهض من أسروا عن مروان فدلهم عليه ، وإذا به في كنيسة أبو صير ، فواقوه من آخر الليل فانهمز من معه من الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير معه فأحاطوا به حتى قتلوه ، طعنه رجل من أهل البصرة يقال له معود ، ولا يعرفه حتى قال رجل صرع أمير المؤمنين . فابتدره رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه ، فبعث به عامر بن إسماعيل أمير هذه السرية إلى أبي عون ، فبعث به أبو عون إلى صالح بن علي ، فبعث به صالح مع رجل يقال له خزيمية بن يزيد بن هاني كان على شرطته ، لأمر المؤمنين السفاح .

وكان مقتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة ، وقيل يوم الخميس لست مضين منها سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على المشهور ، واختلفوا في سنة قبيل أربعون سنة ، وقيل ست وقيل ثمان وخمسون سنة ، وقيل ستون وقيل اثنتان وقيل ثلاث وقيل تسع وستون سنة ، وقيل ثمانون فانه أعلم .

ثم إن صالح بن علي سار إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد والله سبحانه أعلم .

وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، القرشي الأموي ، أبو عبد الملك أمير المؤمنين آخر خلفاء بني أمية ، وأمه أمة كردية يقال لها لبابة ، وكانت لابراهيم بن الأشتر النخعي ، أخذها محمد بن مروان يوم قتله فاستولدها مروان هذا ، ويقال إنها كانت أولا لمصعب بن الزبير ، وقد كانت دار مروان هذا في سوق الأكايفين ، قاله ابن عساكر . بويغ له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد ، وبعد موت يزيد بن الوليد ، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد ، واستمر له الأمر في نصف صفر سنة سبع وعشرين ومائة . وقال أبو معشر : بويغ له بالخلافة في ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائة ، وكان يقال له مروان الجعدي ، نسبة إلى رأى الجعد بن درهم ، وتلقب بالحمار ، وهو آخر من ملك من بني أمية ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وقيل

خمس مائة وشهراً ، وبنى بعد أن بويع للسفاح تسعة أشهر ، وكان أبيض مشرباً حجرة ، اوراق العينين ، كبير اللحية ، ضخمة الهامة ، ربة ، ولم يكن يخضب . ولاء هشام نيابة أذر بيجان وأرمينية والجزيرة ، في سنة أربع عشرة ومائة ، ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة ، وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله ، وقاتل طوائف من الناس الكفار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم ، فكسرهم وقهرهم ، وقد كان شجاعاً بطلاً مقدماً حازم الرأي ، لولا أن جنده خذلوه بتقدير الله عز وجل لما له في ذلك من حكمة سلب الخلافة لشجاعته وصرامته . ولكن من يخذل الله يخذل ، ومن ين الله فواله من مكرم .

قال الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله : كان بنو أمية يرون أنه تذهب منهم الخلافة إذا وليها من أمه أمة ، فلما وليها مروان هذا أخذت منهم في سنة ثنتين وثلاثين ومائة . وقد قال الحافظ ابن عساكر : أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الحسين أخبرنا سهل بن بشر أنبأ الخليل ابن هبة الله بن الخليل أنبأ عبد الوهاب الكلبي حدثنا أبو الجهم أحمد بن الحسين أنبأ العباس ابن الوليد بن صبح ثنا عباس بن يحيى أبو الحارث حدثني الهيثم بن حميد حدثني راشد بن داود عن أسماء عن ثوبان قال . قال رسول الله ص : « لا تزال الخلافة في بني أمية يتلقفونها تلقف الغلمان الكرة ، فاذا خرجت من أيديهم فلا خير في عيش » . هكذا أورد ابن عساكر وهو منكر جداً ، وقد سأل الرشيد أبا بكر بن عياش : من خير الخلفاء نحن أو بنو أمية ؟ فقال : هم كانوا أنفع للناس ، وأنتم أقوم للصلاة ، فأعطاه ستة آلاف . قالوا وقد كان مروان هذا كثير المروءة كثير العجب ، يعجبه الله والطرب ، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب .

قال ابن عساكر : قرأت بخط أبي الحسين علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن الأمير في مجموع له : كتب مروان بن محمد إلى جارية له تركها بالرملة عند ذهابه إلى مصر منهزماً :

وما زال يدعوني إلى الصبر ما أرى * فأبى ويدنيني الذي لك في صدري
وكان عزيزاً أن تبتني وبيننا * حجاب فقد أمسيت مني على عشر
وأنكاهما والله للقلب فاعلى * إذا زدت مثلها فصرت على شهر
وأعظم من هذين والله أنى * أخاف بأن لانتقى آخر الدهر
سأبكيك لاستبقياً فيض عبرة * ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

وقال بعضهم : اجناز مروان وهو هارب يراهب فاطلع عليه الراهب فسلم عليه فقال له : يراهب هل عندك علم بالزمان ؟ قال : نعم ، عندى من تلونه ألوان . قال : هل تبلغ الدنيا من الانسان أن يجعله مملوكاً بعد أن كان مالكا ؟ قال : نعم ، قال : فكيف ؟ قال : بحبه لها وحرصه على نيل شهواتها

وتضييع الحزم وترك انتهاز الفرص . فان كنت تحبها فان عبدها من أحبها قال فما السبيل إلى العتق ؟ قال : يبغيها والتجاني عنها . قال : هذا مالا يكون . قال الراعب : اما إنه سيكون ، فبادر بالهرب منها قبل أن تسلبها . قال : هل تعرفني ؟ قال : نعم ! أنت ملك العرب مروان ، تقتل في بلاد السودان : وتدفن بلا أكفان ، فلولا أن الموت في طلبك لدلائك على موضع هربك . قال بعض الناس : كان يقال في ذلك الزمان يقتل ع بن ع بن ع م بن م بن م يعنون يقتل عبد الله بن علي بن عباس مروان بن محمد بن مروان .

وقال بعضهم : جلس مروان يوماً وقد أحيط به وعلى رأسه خادم له قائم ، فقال مروان لبعض من يخاطبه : ألا ترى ما نحن فيه ؟ لهفي على أيد ما ذكرت ، ونعم ماشكرت ، ودولة مانصرت . فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين من ترك القليل حتى يكبر ، والصغير حتى يكبر ، والخفي حتى يظهر ، وآخر فعل اليوم لغد ، حل به أكثر من هذا . فقال مروان : هذا القول أشد على من فقد الخلافة . وقد قيل إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وقد جاوز الستين وبلغ الثمانين . وقيل إنما عاش أربعين سنة . والصحيح الأول . وهو آخر خلفاء بني أمية به انقضت دولتهم .

ما ورد في انقضاء دولة بني أمية وابتداء بني العباس من الأخبار النبوية

قال العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) : « إذا بلغ بنو العاص أربعين رجلاً اتخذوا دين الله دغلاً ، وعباد الله خولاً ، ومال الله دولاً » . ورواه الأعمش عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً بنحوه ، وروى ابن لهيعة عن أبي قبيل عن ابن وهب أنه كان عند معاوية فدخل عليه مروان بن الحكم فتكلم في حاجة فقال : اقض حاجتي فاني لأبو عشرة ، وأخو عشرة وعم عشرة . فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير : أما تعلم أن رسول الله (ص) قال : « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دولاً ، وعباد الله خولاً ، وكتاب الله دغلاً ، فاذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة ، كان هلاكهم أسرع من لوك نمرة » . فقال ابن عباس : اللهم نعم ؟ فلما أدبر مروان قال معاوية : أنشدك بالله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله (ص) ذكر هذا فقال : « أبو الجبابرة الأربعة » . فقال ابن عباس : اللهم نعم . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا القاسم بن الفضل ثنا يوسف بن مازن الراسبي قال : قام رجل إلى الحسين بن علي فقال : يا سود وجوه المؤمنين ! فقال الحسين : لا تؤنبنني رحمك الله ، فان رسول الله (ص) رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فسأه ذلك فنزلت [إنا أعطيناك الكوثر] وهو نهر في الجنة ، ونزلت [إنا أنزلناه



في ليلة القدر [السورة إلى قوله] [خير من ألف شهر] مملكة بني أمية . قال : فحسبنا ذلك فاذا هو كما قال لا يزيد ولا ينقص . وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن أبي داود الطيالسي ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدي . قال : وشيخه يوسف بن سعد ويقال يوسف بن مازن ، رجل مجهول ، ولا يعرف هذا بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه . وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث القاسم بن الفضل الحداني ، وقد تكلمت على نكارة هذا الحديث في التفسير بكلام مبسوط ، وإنما يكون متجها إذا قيل إن دولتهم ألف شهر بأن نقط منها أيام ابن الزبير ، وذلك أن معاوية يبيع به مستقلا بالملك في سنة أربعين ، وهي عام الجماعة حين سلم إليه الحسن بن علي الأمر بعد سنة أشهر من قتل علي ، ثم زالت الخلافة عن بني أمية في هذه السنة ، وهي سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وذلك ثنتان وتسعون سنة ، وإذا أسقط منها تسع سنين خلافة ابن الزبير بقي ثلاث وثمانون سنة ، وهي مبينة لما ورد في هذا الحديث ، ولكن ليس هذا الحديث مرفوعاً إلى النبي (ص) ، أنه فسر هذه الآية بهذا العدد ، وإنما هذا من قول بعض الرواة ، وقد تكلمنا على ذلك مطولا في التفسير ، وتقدم في الدلائل أيضا تقريره والله أعلم .

وقال علي بن المديني عن يحيى بن سعيد عن سفیان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله (ص) قال : « رأيت بني أمية يصعدون منبري فشق ذلك علي فأنزات . إنا أنزلناه في ليلة القدر » فيه ضعف وإرسال . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا يحيى بن معين ثنا عبد الله بن نمير عن سفیان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب في قوله [وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس] قال : رأى ناساً من بني أمية على المنابر فساء ذلك ، فقبل له : إنما هي دنيا يعطونها وتضمحل عن قليل فسرى عنه . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع قال : لما أسرى برسول الله (ص) رأى فلاناً وهو من بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس فشق ذلك عليه فأنزل الله [وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين] وقال مالك بن دينار : سمعت أبا الجوزاء يقول والله كيعزّن الله ملك بني أمية كما أعز ملك من كان قبلهم ، ثم ليذلن ملكهم كما أذل ملك من كان قبلهم ، ثم تلا قوله تعالى [وتلك الأيام نداولها بين الناس] . وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن سعيد ثنا أبو أسامة ثنا عمر بن حمزة أخبرني عمر بن سيف مولى عثمان بن عفان قال سمعت سعيد بن المسيب وهو يقول لأبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة - وذكروا بني أمية - فقال : لا يكون هلاكهم إلا بينهم . قالوا كيف ؟ قال : يهلك خلفاؤهم ويبقى شرارهم فيقتنافسونها ، ثم يكثر الناس عليهم فيهلكونهم . وقال يعقوب بن سفیان : أنبا أحمد بن محمد الأزرق ثنا الزنجبي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « رأيت في النوم بني أبي

الحكم أبو بنى أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة : قال فاروقى رسول الله (س) ، مستجمعا ضاحكا بعدها حتى توفى . قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارى [لعنه الدارمى] : حدثنا مسلم بن إبراهيم ثنا سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - عن علي بن الحكم البنائى عن أبي الحسن هو الحمصى عن عمرو بن مرة - وكانت له صحبة - قال : جاء الحكم بن أبي العاص يستأذن على رسول الله (س) ، فعرف كلامه فقال : « ائذنوا له صبت عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل مأم ، يشرفون فى الدنيا ويوضعون فى الآخرة ، ذروا دهاء وخديمة ، يعطون فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من خلاق » .

وقال أبو بكر الخطيب البغدادي : أنبأ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد أنبأ محمد بن المظفر الخافظ أنبأ أبو القاسم تمام بن خريم بن محمد بن مروان الدمشقى أنبأ أحمد بن إبراهيم بن هشام بن ملبس ثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد [مولى أم الحكم بنت عبد العزيز ، حدثنا يزيد]^(١) بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث الصنعائى عن ثوبان قال : « كان رسول الله (س) ، نائماً واضعاً رأسه على فخذه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فنحبت ثم تبسم ، فقالوا : يا رسول الله رأيناك نحبت ثم تبسمت ، فقال : رأيت بنى أمية يتماورون على منبري فساءنى ذلك ، ثم رأيت بنى العباس يتماورون على منبري فسرفنى ذلك » . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنى محمد بن خالد بن العباس ثنا الوليد بن مسلم حدثنى أبو عبد الله عن الوليد بن هشام المعيطى عن أبان بن الوليد عن عقبة بن أبي معيط . قال : قدم ابن عباس على معاوية وأنا حاضر فأجازه فأحسن جائزته ، ثم قال : يا أبا العباس ! هل يكون لكم دولة ؟ فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال : لتخبرنى ، قال نعم ! قال فن أنصاركم ؟ قال : أهل خراسان . ولبنى أمية من بنى هاشم نطحات .

وقال المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير : سمعت ابن عباس يقول : يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح ، والمنصور ، والمهدى . رواه البيهقى من غير وجه ، ورواه الأعمش عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً . وروى ابن أبي خيثمة عن ابن معين عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي معبد عن ابن عباس قال : كما افتتح الله بأولنا فأرجو أن يفتحنا بنا . وهذا إسناد صحيح إليه ، وكذا وقع ويقع للمهدى إن شاء الله . وروى البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي معاوية عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد . قال قال رسول الله (س) : « يخرج رجل من أهل بيتى عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يقال له السفاح ، يعطى المال حشياً » . وقال عبد الرزاق : حدثنا الثورى عن خالد الخذاء عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال قال رسول

(١) زيادة من المصرية .

الله (س) : « يقتل عند حرمتكم هذه ثلاثة كلهم ولد خليفة لا تصير إلى واحد منهم ، ثم تقبل الرايات من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم ير مثلها . ثم ذكر شيئاً فاذا كان كذلك فأنوه ولو حبوا على الثلج ، فانه خليفة الله المهدي » . ورواه بعضهم عن ثوبان فوقفه وهو أشبهه والله أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثني يحيى بن غيلان وقتيبة بن سعيد قالا : ثنا راشد بن سعد حدثني يونس ابن يزيد عن ابن شهاب عن قبيصة هو ابن ذؤيب عن أبي هريرة عن رسول الله (س) ، أنه قال : « يخرج من خراسان رايات سود لا بردها شيء حتى تنصب بايليا » . وقد رواه البيهقي في الدلائل من حديث راشد بن سعد المصري ، وهو ضعيف . ثم قال : قد روى قريبا من هذا عن كعب الأحمار وهو أشبهه . ثم رواه عن كعب أيضاً قال : « تظهر رايات سود لبني العباس حتى ينزلوا الشام ، ويقتل الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم » . وروى إبراهيم بن الحسين عن ابن أبي أويس عن ابن أبي ذؤيب عن محمد بن عبد الرحمن العامري عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة . أن رسول الله (س) قال للعباس : « فيكم النبوة وفيكم المملكة » . وروى عبد الله بن أحمد عن ابن معين عن عبيد بن أبي قرعة عن الليث عن أبي قبيل عن أبي ميسرة مولى العباس قال سمعت العباس يقول : كنت عند رسول الله (س) ذات ليلة فقال : « انظر هل ترى في السماء من شيء ؟ قلت : نعم اقل : ما ترى ؟ قلت : الثريا ، قال : أما إنه سيملك هذه الأمة بعددتها من صلبك » . قال البخاري : عبيد بن أبي قرعة لا يتابع على حديثه . وروى ابن عدي من طريق سويد بن سعيد عن حجاج بن تميم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : « مرت برسول الله (س) ، ومعه جبريل وأنا أظنه دحية الكلبي ، فقال جبريل لرسول الله (س) : إنه لوسخ الثياب ، وسيلبس ولده من بعده السواد » . وهذا منكر من هذا الوجه ، ولا شك أن بني العباس كان السواد من شعارهم ، أخذوا ذلك من دخول رسول الله (س) مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، فأخذوا بذلك وجعلوه شعارهم في الأعياد والجمع والمحافل . وكذلك كان جندهم لا بد أن يكون على أحدهم شيء من السواد ، ومن ذلك الشربوش الذي يلبسه الأمراء إذا خلع عليهم . وكذلك دخل عبد الله بن علي دمشق يوم دخلها وعليه السواد ، فجعل النساء والفلمان يعجبون من لباسه ، وكان دخوله من باب كيسان . وقد خطب الناس يوم الجمعة وصلى بهم وعليه السواد . وقد روى ابن عساكر عن بعض الخراسانية قال : لما صلى عبد الله بن علي بالناس يوم الجمعة صلى إلى جاني رجل فقال : الله أكبر ، سبحانك اللهم وبمحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، أنظروا إلى عبدا لله بن علي ما أقبح وجهه وأشنع سواده ؟ شعارهم إلى يومك هذا كما تراه على الخطباء يوم الجمعة والأعياد .

❦❦❦

استقره ركني العباسي السفاح

واستقلاله بالخلافة وما اعتمده في ايامه من السيرة الحسنة

قد تقدم أنه أول ما يوبع له بالخلافة بالسكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر، وقيل الأول من هذه السنة، سنة ثنتين وثلاثين ومائة، ثم جرد الجيوش إلى مروان فطردوه عن المملكة وأجلوه عنها، وما زالوا خلفه حتى قتلوه ببوصير من بلاد الصعيد، بأرض مصر، في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة على ما تقدم بيانه، وحينئذ استقل السفاح بالخلافة واستقرت يده على بلاد العراق وخراسان والحجاز والشام والديار المصرية، خلا بلاد الأندلس، فانه لم يحكم عليها ولا وصل سلطانه إليها، وذلك أن بعض من دخلها من بني أمية استحوذ عليها وملكها كما سيأتي بيانه. وقد خرج على السفاح في هذه السنة طوائف، فمنهم أهل قنسرين بعد ما بايعوه على يدي عمه عبد الله بن علي وأقر عليهم أميرهم مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلبي، وكان من أصحاب مروان وأمرائه، نخلع السفاح ولبس البياض، وحمل أهل البلد على ذلك فواقوه، وكان السفاح يومئذ بالحيرة، وعبد الله بن علي مشغول بالبلقاء يقاتل بها حبيب بن مرة المزني ومن واقفه من أهل البلقاء والبتنية وهوران على خلع السفاح، فلما بلغه عن أهل قنسرين ما فعلوا صالح حبيب بن مرة وسار نحو قنسرين، فلما اجتاز بدمشق - وكان بها أهله وثقله - استخلف عليها أبا غانم عبد الحميد بن ربيعي الكناني في أربعة آلاف، فلما جاوز البلد وانتهى إلى حمص، نهض أهل دمشق مع رجل يقال له عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه نخلعوا السفاح وبيضوا وقتلوا الأمير أبا غانم وقتلوا جماعة من أصحابه وانتهبوا ثقل عبد الله بن علي وحواصله، ولم يتعرضوا لأهله. وتفانم الأمر على عبد الله وذلك أن أهل قنسرين ترأسوا مع أهل حمص وتزمروا واجتمعوا على أبي محمد السفياي، وهو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فبايعوه بالخلافة وقام معه نحو من أربعين ألفاً فقصدت عبد الله بن علي فالتقوا بمرج الأخرم، فاقتتلوا مع مقدمة السفياي وعليها أبو الورد فاقتتلوا قتالاً شديداً وهزموا عبد الصمد وقتل من الفريقين ألوف، فتقدم إليهم عبد الله بن علي ومعه حميد بن قحطبة فاقتتلوا قتالاً شديداً جداً، وجعل أصحاب عبد الله يفرون وهو ثابت هو وحميد. وما زال حتى هزم أصحاب أبي الورد، وثبت أبو الورد في خمسمائة فارس من أهل بيته وقومه، فقتلوا جميعاً وهرب أبو محمد السفياي ومن معه حتى لحقوا بتدمر، وأمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وبايعوه ورجعوا إلى الطاعة، ثم كر عبد الله راجعاً إلى دمشق وقد بلغه ما صنعوا، فلما دنا منها تفرقوا عنها ولم يكن منهم قتال فأمهم ودخلوا في الطاعة. وأما أبو محمد السفياي فانه ما زال مضيقاً ومشتتاً حتى لحق بأرض الحجاز فقاتله

نائب أبي جعفر المنصور في أيام المنصور ، فقتله وبعث رأسه وبابنين له أخذهما أسيرين فأطلقهما المنصور في أيامه . وقد قيل إن وقعة السفياتي يوم الثلاثاء آخر يوم من ذى الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة فالله أعلم .

ومن خلع السفاح أيضا أهل الجزيرة حين بلغهم أن أهل قنسرين خلعوا ، فوافقهم وبيضوا وركبوا إلى نائب حران من جهة السفاح - وهو موسى بن كعب - وكان في ثلاثة آلاف قد اعتصم بالبلد ، فحاصروه قريبا من شهرين ، ثم بعث السفاح أخاه أبا جعفر المنصور فيمن كان بواسطة محاصري ابن هبيرة ، فمر في مسيره إلى حران بقرقيسيا وقد بيضوا فغلقوا أبوابها دونه ، ثم مر بالرقعة وعليها بكار بن مسلم وهم كذلك ، ثم بحاجر وعليها إسحاق بن مسلم فيمن معه من أهل الجزيرة يحاصرونها فرحل إسحاق عنها إلى الرها ، وخرج موسى بن كعب فيمن معه من جنود حران فتلقاه المنصور ودخلوا في جيشه ، وقدم بكار بن مسلم على أخيه إسحاق بن مسلم بالرها فوجهه إلى جماعة ربيعة بدارا وماردين ، ورئيسهم حروري يقال له بُريكة ، فصارا حزبا واحداً ، فقصده إليهم أبو جعفر فقاتلهم قتالا شديداً ، فقتل بُريكة في المعركة ، وهرب بكار إلى أخيه بالرها ، فاستخلفه بها ومضى بمعظم العسكر [حتى نزل] سميساط وخذق على عسكره ، وأقبل أبو جعفر فحاصر بكاراً بالرها ، وجرت له معه وقعت . وكتب السفاح إلى عمه عبد الله بن علي أن يسير إلى سميساط وقد اجتمع على إسحاق بن مسلم ستون ألفاً من أهل الجزيرة ، فسار إليهم عبد الله واجتمع إليه أبو جعفر المنصور ، فكاتبهم إسحاق وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى ذلك ، على إذن أمير المؤمنين . وولى السفاح أخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، فلم يزل عليها حتى أفضت إليه الخلافة بعد أخيه ، ويقال إن إسحاق بن مسلم العقيلي إنما طلب الأمان لما تحقق أن مروان قد قتل ، وذلك بعد مضي سبعة أشهر وهو محاصر ، وقد كان صاحباً لأبي جعفر المنصور قائمه .

وفي هذه السنة ذهب أبو جعفر المنصور عن أمر أخيه السفاح إلى أبي مسلم الخراساني وهو أميرها ، ليستطلع رأيه في قتل أبي سلمة ، لأنه كان يريد أن يصرف الخلافة عنهم ، فيسأله هل ذلك كان عن مملأة أبي مسلم لأبي سلمة في ذلك أم لا ؟ فسكت القوم ، فقال السفاح : لئن كان هذا عن رأيه إنا لبعير بلاء عظيم ، إلا أن يدفعه الله عنا . قال أبو جعفر فقال لي أخي : ما ترى ؟ فقلت : الرأي رأيك . فقال : إنه ليس أحد أخص بأبي مسلم منك ، فاذهب إليه فاعلم لي علمه ، فان كان عن رأيه احتلنا له ، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا . قال أبو جعفر : فخرجت إليه قاصداً على وجل . قال المنصور : فلما وصلت إلى الري إذا كتاب أبي مسلم إلى نائبها يستحثني إليه في المسير ، فازددت وجلاً ، فلما انتهيت إلى نيسابور إذا كتابه يستحثني أيضاً وقال لنا بها : لاتدعه يقر ساعة

واحدة . فان أرضك بها خوارج ، فالشرحت لذلك . فلما صرت من مرو على فرسخين ، خرج يتلقاني ومعه الناس ، فلما واجهني ترجل فقبل يدي ، فأمرته فركب . فلما دخلت مرو نزلت في داره فمكث ثلاثاً لا يسألني في أي شيء جئت ، فلما كان في اليوم الرابع سألني ما أقدمك ؟ فأخبرته بالأمر . فقال : أفعلمها أبو سلمة ؟ أنا أ كفيكموه . فدعا مرار بن أنس الضبي فقال : اذهب إلى الكوفة فحيث لقيت أبا سلمة فاقتله ، وافته في ذلك إلى رأى الامام . فقدم مرار الكوفة الهاشمية ، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح ، فلما خرج قتله مرار وشاع أن الخوارج قتلوه ، وغلقت البلد . ثم صلى عليه يحيى بن محمد بن علي أخو أمير المؤمنين ، ودفن بالهاشمية ، وكان يقال له وزير آل محمد . ويقال لأبي مسلم أمير آل محمد . قال الشاعر : -

إن الوزير وزير آل محمد * أودى فمن يشنك كان وزيراً

ويقال إن أبا جعفر إنما سار إلى أبي مسلم بعد قتل أبي سلمة وكان معه ثلاثون رجلاً على البريد ، منهم الحجاج بن أرطاة ، وإسحاق بن الفضل الهاشمي ، وجماعة من السادات . ولما رجع أبو جعفر من خراسان قال لأخيه : لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً حتى تقتله ، لما رأى من طاعة العساكر له ، فقال له السفاح : اكتبها فسكت . ثم إن السفاح بعث أخاه أبا جعفر إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، فلما اجتاز بالحسن بن قحطبة أخذه معه ، فلما أحيط بابن هبيرة كتب إلى محمد بن عبد الله بن حسن ليبياع له بالخلافة فأبطأ عليه جوابه ، فقال إلى مصالحة أبي جعفر ، فاستأذن أبو جعفر أخاه السفاح في ذلك فأذن له في المصالحة ، فكتب له أبو جعفر كتاباً بالصلح ، فمكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً . ثم خرج يزيد بن عمر بن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة من البخارية ، فلما دنا من سرادق أبي جعفر هم أن يدخل بفرسه فقال الحاجب سلام : انزل أبا خالد . فنزل . وكان حول السرادق عشرة آلاف من أهل خراسان ، ثم أذن له في الدخول فقال : أنا ومن معي ؟ قال : لا بل أنت وحدك ، فدخل ووضع له وسادة فجلس عليها ، فحدثه أبو جعفر ساعة ثم خرج من عنده فأتبعه أبو جعفر بصره ، ثم جعل يأتيه يوماً بعد يوم في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل ، فشكوا ذلك إلى أبي جعفر فقال أبو جعفر للحاجب : مره فليأت في حاشيته ، فكان يأتي في ثلاثين نفساً ، فقال الحاجب : كأنك تأتي متأهباً^(١) ؟ فقال : لو أمرتموني بالمشي لمشيت إليكم ، ثم كان يأتي في ثلاثة أنفس . وقد خاطب ابن هبيرة يوماً لأبي جعفر فقال له في غبون كلامه : ياهناه - أو قال يا أيها المرء - ثم اعتذر إليه بأنه قد سبق لسانه إلى ذلك ، فأعذره . وقد كان السفاح كتب إلى أبي مسلم يستشيريه في مصالحة ابن هبيرة فهناه عن ذلك ، وكان السفاح لا يقطع أمراً دونه ، فلما وقع الصلح على يدي أبي جعفر لم يحب السفاح ذلك ولم يهجه ، وكتب إلى أبي جعفر يأمره بقتله ، فراجعه أبو جعفر مراراً

(١) في تاريخ ابن جرير « مباحياً » .

لا يفيد ذلك شيئاً ، حتى جاء كتاب السفاح أن اقتله لاحتالة لاحتول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كيف يعطى الامان وينسكت ؟ هذا فعل الجبارة وأقسم عذبه في ذلك . فأرسل إليه أبو جعفر طائفة من الخراسانية فدخلوا عليه وعنده ابنه داود وفي حجره صبي صغير ، وحوله مواليه وحاجبه ، فدافع عنه ابنه حتى قتل وقتل خلق من مواليه ، وخلصوا إليه ، فألقى الصبي من حجره وخر ساجداً فقتل وهو ساجد ، واضطرب الناس ، فنادى أبو جعفر في الناس بالامان إلا عبد الملك بن بشر وخالده ابن سلمة الخزومي وعمر بن ذر . فسكن الناس ثم استؤمن لبعض هؤلاء وقتل بعضاً .

وفي هذه السنة بعث أبو مسلم الخراساني محمد بن الأشعث إلى فارس وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة الخلال فيضرب أعناقهم ، ففعل ذلك . وفيها ولي السفاح أخاه يحيى بن محمد الموصل وأعمالها ، وولى عمه داود مكة والمدينة واليمن والعمامة ، وعزله عن الكوفة وولى مكانه عليها عيسى بن موسى ، وولى قضاءها ابن أبي ليلى ، وكان على نيابة البصرة سفيان بن معاوية المهلبى ، وعلى قضائها الحجاج ابن أرتاة ، وعلى السند منصور بن جمهور ، وعلى فارس محمد بن الأشعث . وعلى أرمينية وأذربيجان والجزيرة أبو جعفر المنصور ، وعلى الشام وأعمالها عبد الله بن علي عم السفاح ، وعلى مصر أبو عون محمد الملك بن يزيد . وعلى خراسان وأعمالها أبو مسلم الخراساني ، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك . وحج بالناس فيها داود بن علي .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أبو عبد الملك الأموي ، آخر خلفاء بني أمية ، فقتل في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة كما تقدم ذلك مبسوطاً ، ووزيره عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بنى عامر بن لؤى ، الكاتب البليغ الذي يضرب به المثل ، فيقال فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد . وكان إماماً في الكتابة وجميع فنونها ، وهو القدوة فيها . وله رسائل في ألف ورقة ، وأصله من قيسارية ثم سكن الشام ، وتعلم هذا الشأن من سالم مولى هشام بن عبد الملك وكان يعقوب بن داود وزير المهدي يكتب بين يديه ، وعليه تخرج ، وكان ابنه إسماعيل بن عبد الحميد ماهراً في الكتابة أيضاً ، وقد كان أولاً يعلم الصبيان ثم تقلبت به الأحوال أن صار وزيراً لمروان ، وقتله السفاح ومثل به ، وكان اللائق بمثله العفو عنه . ومن مستجاد كلامه : العلم شجرة ثمراها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة . ومن كلامه وقد رأى رجلاً (١) يكتب خطاً رديئاً فقال : أطل جلفة فملك وأسمنها ، وحرّف قطنك وأيمنها . قال الرجل : ففعلت ذلك فجاد خطي . وسأله رجل أن يكتب له كتاباً إلى بعض الأكارب بوصيه به ، فكتب إليه : حق موصل كتابي إليك كعقّه عليّ

(١) هو ابراهيم بن جبلة

إذ رآك. وضماً لأوله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد قضيت أنا حاجته فصدق أنت أمه . وكان كثيراً ما ينشد هذا البيت : —

إذا خرج الكتابُ كانَ دويهمُ • قسيماً وأقلامُ القسي لها نبلا

وأبو سلة حفص بن سليمان ، هو أول من وزر لآل العباس ، قتله أبو مسلم بالأندلس من أمر السفاح ، بعد ولايته بأربعة أشهر ، في شهر رجب . وكان ذا هيئة فاضلا حسن المفاكة ، وكان السفاح يأنس به ويحب مسامرتة لطيب محاضرتة ، ولكن توهم ميله لآل علي فذس أبو مسلم عليه من قبله غيلة كما تقدم ، فأنشد السفاح عند قتله :

إلى النارِ فليذهبُ ومن كانَ مثلهُ * على أي شيءٍ فانتنا منه نأسفُ

كان يقال له وزير آل محمد ، ويعرف بالخلال ، لسكناه بدرب الخلالين بالكوفة ، وهو أول من سمى بالوزير ، وقد حكى ابن خلكان عن ابن قتيبة أن اشتقاق الوزير من الوزر وهو الحمل ، فكان السلطان حمله أثقالا لاستناده إلى رأيه ، كما يلجأ الخائف إلى جبل بعنصم به .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة

فيها ولي السفاح عمه سليمان البصرة وأعمالها ، وكوردجلة والبحرين وعمان . ووجه عمه إسماعيل ابن علي إلى كور الأهواز . وفيها قتل داود بن علي من بمكة والمدينة من بني أمية ، وفيها توفي داود ابن علي بالمدينة في شهر ربيع الأول ، واستخلف ابنه موسى على عمله ، وكانت ولايته على الحجاز ثلاثة أشهر ، فلما بلغ السفاح موته استناب على الحجاز خاله زياد بن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي ، وولي اليمن لابن خاله محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الدار ، وجعل إمرة الشام لعبيه عبد الله وصالح بن علي ، وأقر أبا عون على الديار المصرية نائبا . وفيها توجه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتلهم قتالا شديدا حتى فتحها . وفيها خرج شريك بن شيخ المهري ببخارى على أبي مسلم وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على سفك الدماء وقتل الأنفس ؟ واتبعه على ذلك نحو من ثلاثين ألفا ، فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله فقتله .

وفيها عزل السفاح أخاه يحيى بن محمد عن الموصل ، وولى عليه عمه إسماعيل . وفيها ولي الصائفة من جهته صالح بن علي بن سعيد بن عبيد الله وغزا ما وراء الدروب . وحج بالناس خال السفاح زياد ابن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي . ونواب البلاد هم الذين كانوا في التي قبلها سوى من ذكرنا أنه عزل .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة

فيها خلع بسام بن إبراهيم بن بسام الطاعة وخرج على السفاح ، فبعث إليه خازم بن خزيمه فقاتله فقتل عامة أصحابه ، واستباح عسكره . ورجع فر يلا من بني عبد الدار أخوال السفاح فسألم

عن بعض مافيه نصرة للخليفة ، فلم يردوا عليه ، واستهانوا به ، وأمر بضرب أعناقهم - وكانوا قريباً من عشرين رجلاً ومثلهم من مواليهم - فاستمدى بنو عبد الدار على خازم بن خزيمه إلى السفاح ، وقالوا : قتل هؤلاء بلا ذنب ، فهم السفاح بقتله فأشار عليه بعض الأمراء بأن لا يقتله ولكن ليمنه بمناصبها ، فان سلم فذاك ، وإن قتل كان الذي أراد . فبعثه إلى عمان وكان بها طائفة من الخوارج قد تمردوا وجهز معه سبعمائة رجل ، وكتب إلى عمه سليمان بالبصرة أن يحملهم في السفن إلى عمان ففعل ، فقاتل الخوارج فكسرهم وقهرهم واستحوذ على ما هنالك من البلاد ، وقتل أمير الخوارج الصفريه وهو الجندى ، وقتل من أصحابه وأنصاره نحواً من عشرة آلاف ، وبعث برؤسهم إلى البصرة ، فبعث بها نائب البصرة إلى الخليفة . ثم بعد أشهر كتب إليه السفاح أن يرجع فرجع سالماً غانماً منصوراً .

وفيها غزا أبو مسلم بلاد الصغد وغزا أبو داود أحد نواب أبي مسلم بلاد كمش ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم من الأواني الصينية المنقوشة بالذهب شيئاً كثيراً جداً . وفيها بعث السفاح موسى ابن كعب إلى منصور بن جمهور وهو بالهند في اثني عشر ألفاً ، فالتقاء موسى بن كعب وهو في ثلاثة آلاف فهزمه واستباح عسكره . وفيها مات عامل اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد الدار ، فاستخلف السفاح عليها عمه ، وهو خال الخليفة . وفيها تحول السفاح من الحيرة إلى الأنبار وحج بالناس نائب الكوفة عيسى بن موسى ، ونواب الأقاليم هم هم . وفيها توفي من الأعيان أبو هارون العبدي ، وعمارة بن جوين ، وبزید بن يزيد بن جابر الدمشقي والله أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة

فيها خرج زياد بن صالح من وراء نهر بلخ على أبي مسلم فأظفره الله بهم فبدد شملهم واستقر أمره بتلك النواحي . وحج بالناس فيها سليمان بن علي نائب البصرة . والنواب هم المذكورون قبلها . ومن توفي فيها من الأعيان : يزيد بن سنان ، وأبو عقيل زهرة بن معبد ، وعطاء الخراساني

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة

فيها قدم أبو مسلم من خراسان على السفاح ، وذلك بعد استئذانه الخليفة في القدوم عليه ، فكتب إليه أن يقدم في خمسمائة من الجند ، فكتب إليه : إني قد وترت الناس ، وإني أخشى من قلة الخمسمائة . فكتب إليه أن يقدم في ألف ، فقدم في ثمانية آلاف ، فرقمهم وأخذ معه من الأموال والتحف والهدايا شيئاً كثيراً . ولما قدم لم يكن معه سوى ألف من الجند ، فتلقاء القواد والأمراء إلى مسافة بعيدة . ولما دخل على السفاح أكرمه وعظمه واحترمه وأنزله قريبا منه ، وكان يأتي إلى

الخليفة كل يوم ، واستأذن الخليفة في الحج فأذن له ، وقال : لولا أني عيذت الحج لأخى أبي جعفر لأمرتك على الحج . وكان الذي بين أبي جعفر وأبي مسلم خراباً وكان يبغضه ، وذلك لما رأى ما هو فيه من الحرمة حين قدم عليه نيسابور في البيعة للسفاح وللمنصور بعده ، فخار في أمره لذلك ، فخذ عليه المنصور وأشار على السفاح بقتله ، فأمره بكتف ذلك . وحين قدم أمره بقتله أيضاً وحرضه على ذلك ، فقال له السفاح : قد علمت بلاءه معنا وخدمته لنا فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين إنما ذلك بدواتنا ، والله لو أرسلت سنوراً لسمعوا لها وأطاعوا ، وإنك إن لم تتعش به تغدى بك هو . فقال له : كيف السبيل إلى ذلك ؟ فقال : إذا دخل عليك فحادثه ثم أجبني أنا من ورائه فأضربه بالسيف . قال : كيف بن معه ؟ قال : هم أذل وأقل . فأذن له في قتله ، فلما دخل أبو مسلم على السفاح ندم على ما كان أذن لأخيه فيه ، فبعث إليه الخادم يقول له : إن ذاك الذي بينك وبينه ندم عليه فلا تفعله . فلما جاءه الخادم وجدته محتبياً بالسيف قد تهباً لما يريد من قتل أبي مسلم . فلما نهاه عن ذلك غضب أبو جعفر غضباً شديداً . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور عن ولاية أخيه السفاح ، وسار معه إلى الحجاز أبو مسلم الخراساني عن أمر الخليفة ، وأذن له في الحج ، فلما رجعا من الحج وكانا بذات عرق جاء الخبر إلى أبي جعفر - وكان يسير قبل أبي مسلم بمرحلة - بموت أخيه السفاح ، فكتب إلى أبي مسلم أن قد حدث أمر فالعجل العجل ، فلما استعلم أبو مسلم الخبر عجل السير وراءه ، فلحقه إلى الكوفة . وكانت بيعة المنصور على ماسياتي بيانه وتفصيله قريبا والله سبحانه وتعالى أعلم .

ترجمة أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس

هو عبد الله السفاح - ويقال له المرتضى ، والقاسم أيضاً - ابن محمد ابن الامام ابن علي السجاد ابن عبد الله الخبير ابن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أمير المؤمنين ، وأمه ريطة - ويقال رايطة - بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الدار الحارثي ، كان مولد السفاح بالحميمة من أرض الشراء من البلقاء بالشام ، ونشأ بها حتى أخذ مروان أخاه إبراهيم الامام فانتقلوا إلى الكوفة . بويع له بالخلافة بعد مقتل أخيه في حياة مروان يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول بالكوفة كما تقدم . وتوفي بالجدري بالأنبار يوم الأحد الحادي عشر ، وقيل الثالث عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وكان عمره ثلاثاً ، وقيل ثنتين ، وقيل إحدى وثلاثين سنة ، وقيل ثمان وعشرين سنة . قاله غير واحد . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان أبيض جميلاً طويلاً ، أفتى الأنف ، جمع الشعر ، حسن اللحية ، حسن الوجه ، فصيح الكلام ، حسن الرأي ، جيد البديهة . دخل عليه في أول ولايته عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ومعه مصحف وعند السفاح وجوه بني هاشم من أهل بيته وغيرهم ، فقال له : يا أمير المؤمنين اعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا

المصحف . قال : فأشفق عليه الحاضرون أن يجعل السفاح عليه بشيء أو يترك جوابه فيبقى ذلك مسبة عليه وعليهم . فأقبل السفاح عليه غير مغضب ولا منزعج ، فقال : إن جدك علياً كان خيراً مني وأعدل ، وقد ولي هذا الأمر فأعطى جدك الحسن والحسين وكانا خيراً منك ، شيئاً قد أعطيتك وزدتك عليه ، فما كان هذا جزائي منك . قال : فما رد عليه عبد الله بن حسن جواباً ، وتعجب الناس من سرعة جوابه وجدته وجودته على البديهة .

وقد قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري . قال قال رسول الله (س) : « يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح ، يكون إعطاؤه المال حثياً ، وكذا رواه زائدة وأبو معاوية عن الأعمش به . وهذا الحديث في إسناده عطية العوفي وقد تكلموا فيه . وفي أن المراد بهذا الحديث هذا السفاح نظر والله أعلم . وقد ذكرنا فيما تقدم عند زوال دولة بني أمية أخباراً وآثاراً في مثل هذا المعنى . وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن سلمة بن محمد بن هشام أخبرني محمد بن عبد الرحمن الخزومي حدثني داود بن عيسى عن أبيه عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس - وهو والد السفاح - قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من النصارى فقال له عمر : من تجدون الخليفة بعد سليمان ؟ قال له : أنت . فأقبل عمر بن عبد العزيز عليه فقال له : زدني من بيانك . فقال ثم آخر ، إلى أن ذكر خلافة بني أمية إلى آخرها . قال محمد بن علي : فلما كان بعد ذلك جعلت ذلك النصراني في بالي فرأيناه يوماً فأمرت غلامي أن يجبسه علي ، وذهبت إلى منزلي فسألته عما يكون في خلفاء بني أمية فذكرهم واحداً واحداً ، وتجاوز عن مروان بن محمد . قلت : ثم من ؟ قال : ثم ابن الحارثية ، وهو ابنك . قال : وكان ابني ابن الحارثية إذ ذاك حملاً . قال ووفد أهل المدينة على السفاح فبادروا إلى تقبيل يده غير عمران بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع العدوي ، فإنه لم يقبل يده ، وإنما حياه بالخلافة فقط . وقال : والله يا أمير المؤمنين لو كان تقبيلها يزيدك رفعة ويزيدني وسيلة إليك ماسبقني إليها أحد من هؤلاء ، وإني لغني عما لا أجر فيه ، وربما قادنا عمله إلى الوزر ثم جلس . قال : فوالله ما نقصه ذلك عنده حظاً من حظ أصحابه ، بل أحبه وزاده . وذكر القاضي المعافى بن زكريا أن السفاح بعث رجلاً ينادي في عسكر مروان بهذين البيتين ليلاً ثم رجع :

يا آل مروان إن الله مهلككم * ومبدل أمنكم خوفاً وتشريداً

لا عمر الله من أنسالكم أحداً * وبشكم في بلاد الخوف تطريداً

وروى الخطيب البغدادي أن السفاح نظر يوماً في المرأة - وكان من أجمل الناس وجهاً - فقال : اللهم لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك : أنا الخليفة الشاب . ولكن أقول : اللهم عمرني طويلاً في

طاعتك ممتاً بالمعافية . فما استتم كلامه حتى سمع غلاماً يقول لا آخر : الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام . فتطير من كلامه وقال : حسبى الله لا قوة إلا بالله عليه توكلت وبه أستعين . فمات بعد شهرين وخمسة أيام . وذكر محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي أن الرشيد أمر ابنه أن يسمع من إسحاق بن عيسى بن علي ما يرويه عن أبيه في قصة السفاح ، فأخبره عن أبيه عيسى أنه دخل على السفاح يوم عرفة بكرة فوجده صائماً ، فأمره أن يحادثه في يومه هذا ثم يختم ذلك بفطره عنده . قال : لحادثته حتى أخذته النوم فقامت عنه وقلت : أقبل في منزلي ثم أجيء بعد ذلك . فذهبت فتمت قليلاً ثم قمت فأقبلت إلى داره فاذا على بابي بشير يبشر بفتح السند وبيعتهم للخليفة وتسلم الأمور إلى نوابه . قال : فحمدت الله الذي وفقني في الدخول عليه بهذه البشارة ، فدخلت الدار فاذا بشير آخر معه بشارة بفتح إفريقية ، فحمدت الله فدخلت عليه فبشرت به بذلك وهو يسرح لحيته بعد الوضوء ، فسقط المشط من يده ثم قال : سبحان الله ، كل شيء بائد سواه ، نعت والله إلى نفسي ، حدثني إبراهيم الإمام عن أبي هشام عن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عن رسول الله (ص) ، أنه قال : « يقدم على في مدينتي هذه وافدان والسند والآخرون وافد إفريقية بسمعهم وطاعتهم وبيعتهم ، فلا يمضي بعد ذلك ثلاثة أيام حتى أموت . قال : وقد أتاني الوافدان فأعظم الله أجرك يا عم في ابن أخيك . فقلت : كلا ، يا أمير المؤمنين إن شاء الله . قال بلى إن شاء الله ! لئن كانت الدنيا حبيبة إلى فالآخرة أحب إلى ، ولقاء ربي خير لي ، وصحة الرواية عن رسول الله بذلك أحب إلى منها ، والله ما كذبت ولا كذبت . ثم نهض فدخل منزله وأمرني بالجلوس ، فلما جاء المؤذن يعلمه بوقت الظهر خرج الخادم يعلمني أن أصلي عنه ، وكذلك العصر والمغرب والعشاء ، وبت هناك ، فلما كان وقت السحر أتاني الخادم بكتاب معه يأمرني أن أصلي عنه الصبح والعيند ثم أرجع إلى داره ، وفيه يقول : يا عم إذا مت فلا تعلم الناس بموتى حتى تقرأ عليهم هذا الكتاب فيبايعوا لمن فيه . قال : فصليت بالناس ثم رجعت إليه فاذا ليس به بأس ، ثم دخلت عليه من آخر النهار فاذا هو على حاله غير أنه قد خرجت في وجهه جبتان صغيرتان ، ثم كبرتاً ، ثم صار في وجهه حب صفار بيض يقال إنه جدري ، ثم بكترت إليه في اليوم الثاني فاذا هو قد هجر وذهبت عنه معرفتي ومعرفة غيري ، ثم رجعت إليه بالعشي فاذا هو انتفخ حتى صار مثل الزق ، وتوفي اليوم الثالث من أيام التشريق ، فسجيته كما أمرني ، وخرجت إلى الناس فقرأت عليهم كتابه فاذا فيه : من عبد الله أمير المؤمنين إلى الأولياء وجماعة المسلمين ، سلام عليكم أما بعد فقد قلد أمير المؤمنين الخلافة عليكم بعد وفاته أخاه فاسمعوا وأطيعوا ، وقد قلدها من بعده عيسى بن موسى إن كان . قال : فاختلف الناس في قوله « إن كان » قيل إن كان أهلاً لها . وقال آخرون إن كان حياً . وهذا القول الثاني هو الصواب ، ذكره الخطيب

وابن عساكر مطولا . وهذا ملخص منه . وفيه ذكر الحديث المرفوع وهو منكر جدا . وذكر ابن عساكر أن الطبيب دخل عليه فأخذ بيده فأنشأ يقول عند ذلك :

انظر إلى ضعف الحرا * كِ وذل بعد السكون * يفتيك أن بيانه * هذا مقدمة المنون
فقال له الطبيب : أنت صالح . فأنشأ يقول :

ييشرفني باقى ذو صلاح * يبين له وبي داء دفين * لقد أيقنت أنى غير باقر * ولا شك إذا وضح اليقين
قال بعض أهل العلم : كان آخر ماتكلم به السفاح : الملك لله الحى القيوم ، ملك الملوك ، وجبار الجبابرة . وكان نقش خاتمه الله ثقة عبد الله . وكان موته بالجدرى فى يوم الأحد الثالث عشر من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بالأبواب العتيقة ، عن ثلاث وثلاثين سنة . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر على أشهر الأقوال . وصلى عليه عمه عيسى بن على . ودفن فى قصر الامارة من الأبواب . وترك تسع جبات وأربعة أقمصة وخمس سراويلات وأربعة طبالسة وثلاثة مطارف خز . وقد ترجمه ابن عساكر فذكر بعض ما أوردناه والله أعلم .

ومن توفى فيها من الأعيان السفاح كما تقدم ، وأشعث بن سوار ، وجعفر بن أبى ربيعة ، وحصين بن عبد الرحمن ، وربيعه الراعى ، وزيد بن أسلم ، وعبد الملك بن عمير ، وعبد الله بن أبى جعفر ، وعطاء بن السائب . وقد ذكرنا تراجمهم فى التكميل والله الحمد .

خلافة ابى جعفر المنصور

واسمه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس

قد تقدم أنه لما مات السفاح كان فى الحجاز فبلغه موته وهو بذات عرق راجعا من الحج ، وكان معه أبو مسلم الخراسانى ، فمجل السير وعزاه أبو مسلم فى أخيه ، فبكى المنصور عند ذلك ، فقال له : أتبكى وقد جاءتك الخلافة ؟ أنا أكنيكها إن شاء الله . فسرى عنه ، وأمر زياد بن عبيد الله أن يرجع إلى مكة واليا عليها ، وكان السفاح قد عزله عنها بالعباس بن عبد الله بن معبد بن عباس فأقره عليها . والنواب على أعمالهم حتى انساخت هذه السنة ، وقد كان عبد الله بن على قدم على ابن أخيه السفاح الأبواب فأمره على الصائفة ، فركب فى جيوش عظيمة إلى بلاد الروم ، فلما كان ببعض الطريق بلغه موت السفاح فمكر راجعا إلى حران ، ودعا إلى نفسه ، وزعم أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى الشام أن يكون ولى العهد من بعده ، فالتفت عليه جيوش عظيمة ، وكان من أمره ما سئد كره فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة

ذكر خروج عبد الله بن على ابن أخيه المنصور

لما رجع أبو جعفر المنصور من الحج بعد موت أخيه السفاح ، دخل الكوفة فخطب بأهلها يوم

الجمعة وصلى بهم ، ثم ارتحل منها إلى الأنبار . وقد أخذت له البيعة من أهل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام ، وقد ضبط عيسى بن علي بيوت الأموال والحواصل للمنصور حتى قدم ، فسلم إليه الأمر ، وكتب إلى عمه عبد الله بن علي يعلمه بوفاة السفاح ، فلما بلغه الخبر نادى في الناس الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه الأمراء والناس ، فقرأ عليهم وفاة السفاح ، ثم قام فيهم خطيباً فذكر أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى مروان أنه إن كسره كان الأمر إليه من بعده ، وشهد له بذلك بعض أمراء العراق ، ونهضوا إليه فبايعوه ، ورجع إلى حران فتسلهها من نائب المنصور بعد محاصرة أربين ليلة ، وقتل مقاتل العنكي نائبها . فلما بلغ المنصور ما كان من أمر عمه بعث إليه أبا مسلم الخراساني ومعه جماعة من الأمراء وقد تحصن عبد الله بن علي بخران ، وأرصد عنده مما يحتاج إليه من الأظعمة والسلاح شيئاً كثيراً جداً ، فسار إليه أبو مسلم الخراساني وعلي مقدمته مالك بن هيثم الخزاعي ، فلما تحقق عبد الله قدوم أبي مسلم إليه خشى من جيش العراق أن لا يناصره ، فقتل منهم سبعة عشر ألفاً ، وأراد قتل حميد بن قحطبة فهرب منه إلى أبي مسلم ، فركب عبد الله بن علي قنزل نصيبين وخندق حول عسكره ، وأقبل أبو مسلم فنزل ناحية وكتب إلى عبد الله : إني لم أؤمر بقتالك ، وإنما بعثني أمير المؤمنين واليا على الشام فأنا أريدها . فخاف جنود الشام من هذا الكلام فقالوا : إنا نخاف على ذرارينا وديارنا وأموالنا ، فنحن نذهب إليها نمنعهم منه . فقال عبد الله : ويحكم ! والله إنه لم يأت إلا لقتالنا . فأبوا إلا أن يرتحلوا نحو الشام ، فتحول عبد الله من منزله ذلك وقصد ناحية الشام ، فمض أبو مسلم فنزل موضعه وغور ما حوله من المياه - وكان موضع عبد الله الذي تحول منه موضعاً جيداً جداً - فاحتاج عبد الله وأصحابه فنزلوا في موضع أبي مسلم فوجدوه منزلاً رديئاً ، ثم أنشأ أبو مسلم القتال فخار بهم خمسة أشهر ، وكان على خيل عبد الله أخوه عبد الصمد بن علي ، وعلى ميمنته بكار بن مسلم العقيلي ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي . وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة ، وعلى ميسرته أبو نصر خازم بن خزيم ، وقد جرت بينهم وقعتات وقتل منهم جماعات في أيام نحسات ، وكان أبو مسلم إذا حمل يرتجز ويقول :

من كان ينوي أهله فلا رجع * فر من الموت وفي الموت وقع

وكان يعمل له عرش فيكون فيه إذا التقى الجيشان فما رأى في جيشه من خلل أرسل فأصلحه . فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة التقوا فاقتلوا قتالاً شديداً ، فكر بهم أبو مسلم بعث إلى الحسن بن قحطبة أمير الميمنة فأمره أن يتحول بمن معه إلا القليل إلى الميسرة ، فلما رأى ذلك أهل الشام انحازوا إلى الميمنة بازاء الميسرة التي تعجرت ، فأرسل حينئذ أبو مسلم إلى القلب أن يحمل بمن بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام فطموم ، فجاء أهل القلب

والمبينة من الشاميين فعمل الخراسانيون على أهل الشام وكانت الهزيمة ، وانهرم عبد الله بن علي بمد تلوم ، واحتار أبو مسلم ما كان في معسكرهم ، وأمن أبو مسلم بقية الناس فلم يقتل منهم أحداً ، وكتب إلى المنصور بذلك ، فأرسل المنصور مولاة أبا الخصيب ليحصى ما وجدوا في معسكر عبد الله ، ففضب من ذلك أبو مسلم الخراساني . واستوسقت الممالك لأبي جعفر المنصور ، ومضى عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد على وجهيهما ، فلما مررا بالرصافة أقام بها عبد الصمد ، فلما رجع أبو الخصيب وجده بها فأخذه معه مقيداً في الحديد فأدخله على المنصور فدفعه إلى عيسى بن موسى فاستأن له المنصور ، وقيل بل استأن له إسماعيل بن علي . وأما عبد الله بن علي فإنه ذهب إلى أخيه سليمان ابن علي بالبصرة فأقام عنده زمناً مختلفياً ، ثم علم به المنصور فبعث إليه فسجنه [في بيت بني أسامة على الملح ثم أطلق عليه الماء فذاب الملح وسقط البيت على عبد الله فمات . وهذه من بعض دواهي المنصور والله سبحانه أعلم] (١) فلبث في السجن سبع سنين ثم سقط عليه في البيت الذي هو فيه فمات كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

رسالة أبي مسلم الخراساني

في هذه السنة أيضاً لما فرغ أبو مسلم من الحج سبق الناس بمرحلة فجاهه خبر السفاح في الطريق فكتب إلى أبي جعفر يعزبه في أخيه ولم يهنته بالخلافة ، ولا رجع إليه . ففضب المنصور من ذلك مع ما كان قد أضمر له من سوء ، إذا أفضت إليه الخلافة ، وقيل إن المنصور هو الذي كلن قد تقدم بين يدي الحج بمرحلة ، وأنه لما جاءه خبر موت أخيه كتب إلى أبي مسلم يستعجله في السير كما قدمنا . فقال لأبي أيوب : اكتب له كتاباً غايظاً ، فلما بلغه الكتاب أرسل يهنته بالخلافة وانقمع من ذلك . وقال بعض الأمراء للمنصور : إنا نرى أن لا تجامعه في الطريق فان معه من الجنود من لا يخالفه . وهم له أهيب ، وعلى طاعته أحرص ، وليس معك أحد ، فأخذ المنصور برأيه ثم كان من أمره في مبايعته لأبي جعفر ما ذكرنا ، ثم بعثه إلى عمه عبد الله فكمراه كما تقدم ، وقد بعث في غبون ذلك الحسن بن قحطبة لأبي أيوب كاتب رسائل المنصور يشافهه ويخبره بأن أبا مسلم متهم عند أبي جعفر ، فإنه إذا جاءه كتاب منه يقرأه ثم يلوى شذقيه ويرمى بالكتاب إلى أبي نصر ويضحكان استهزاء ، فقال أبو أيوب : إن تهمة أبي مسلم عندنا أظهر من هذا . ولما بعث أبو جعفر مولاة أبا الخصيب يقطين ليحتاط على ما أصيب من معسكر عبد الله من الأموال والجواهر الثمينة وغيرها ، غضب أبو مسلم فشم أبا جعفر وهم بأبي الخصيب ، حتى قيل له : إنه رسول فتركه ورجع . فلما قدم أخبر المنصور بما كان وبما هم به أبو مسلم من قتله ، ففضب المنصور وخشى أن يذهب أبو مسلم إلى

(١) زيادة وجدت بهامش نسخة الاستانة .

خراسان فيشق عليه تحصيله بعد ذلك ، وأن تحدث حوادث ، فكتب إليه مع يقطين إني قد وليتك الشام ومصر وهما خير من خراسان . فابعث إلى مصر من شئت وأقم أنت بالشام ، لتكون أقرب إلى أمير المؤمنين ، إذا أراد لقاءك كنت منه قريباً . فغضب أبو مسلم وقال : قد ولاني الشام ومصر ، ولي ولاية خراسان ، فإذا أذهب إليها وأستخلف على الشام ومصر . فكتب إلى المنصور بذلك فقلق المنصور من ذلك كثيراً . ورجع أبو مسلم من الشام قاصداً خراسان وهو عازم على مخالفة المنصور . فخرج المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم بالسير إليه ، فكتب إليه أبو مسلم وهو على الزاب عازم على الدخول إلى خراسان : إنه لم يبق لأمر المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة . فان أرضاك ذلك فانا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت

إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى عن مقامات الذل والاهانة . فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم : قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة إلى ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، وإنما راحتهم في تبدد نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعت بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك مع ولا طاعة ، وقد حمل أمير المؤمنين عيسى بن موسى إليك رسالة ليسكن إليها قلبك إن أصغيت إليها ، وأسأله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده من هذا ولا أقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك . ويقال إن أبا مسلم كتب إلى المنصور : أما بعد فاني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه ، وكان في محلة العلم نارلاً وفي قرابته من رسول الله ، قريباً ، فاستجهلني بالقرآن فخره عن مواضعه طمعاً في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه ، وكان كالذي دلى بفرور ، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقبل العثرة . ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يجهلكم ، وأطاعكم من كان عدوكم ، وأظهركم الله بي بعد الاخفاء والحقارة والذل ، ثم استنقذني الله بالتوبة . فان يعف عني فقد عفا عني به ونسب إليه ، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد . ذكره المدائني عن شيوخي .

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي - وقد كان أوجد أهل زمانه - في جماعة من الأمراء ، وأمره أن يكلم أبا مسلم بالابن كلاماً يقدر عليه ، وأن يكون في جملة ما يكلمه به

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

انه يريد رفع قدرك وعلو منزلتك والاطلاقات لك ، فان جاء بهذا فذاك ، وإن أبى قتل هو برئ من العباس إن شقت العصا وذهبت على وجهك ليدركك بنفسه وليقاتلك دون غيره ، ولو خضت البحر انضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك . ولا تقل له هذا حتى تياس من مرجوعه بالتي هي أحسن فلما قدم عليه أمراء المنصور بجلوان دخلوا عليه ولاموه فيما هم به من منابذة أمير المؤمنين ، وما هو فيه من مخالفته ، ورغبوه في الرجوع إلى الطاعة ، فشاور ذوي الرأي من أمراء فكلهم نهاه عن الرجوع إليه ، وأشاروا بأن يقيم في الري فتكون خراسان تحت حكمه ، وجنوده طوعاً له ، فان استقام له الخليفة وإلا كان في عز ومنة من الجند . فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم : ارجعوا إلى صاحبكم فليست ألقاه . فلما استياسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذي كان المنصور أمرهم به . فلما سمع ذلك كسره جداً وقال قوموا عني الساعة .

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد ، فكتب إليه المنصور في غيبة أبي مسلم حين اتهم : إن ولاية خراسان لك ما بقيت ، فقد وليتها وعزلت عنها أبا مسلم . فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبي مسلم حين بلغه ما عليه من منابذة الخليفة : إنه ليس يليق بنا منابذة خلفاء أهل بيت رسول الله (ص) ، فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً والسلام . فزاده ذلك كسراً أيضاً فبعث إليهم أبو مسلم : إني سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به . فبعث أبا إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعدته بنبابة العراق إن هو رده . فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له : ما وراءك ؟ قال : رأيتهم معظمين لك يعرفون قدرك . ففره ذلك وعزم على الذهاب إلى الخليفة ، فاستشار أميراً يقال له نيزك ، فقهاه ، فصمم على الذهاب ، فلما رآه نيزك عازماً على الذهاب تمثل بقول الشاعر : -

ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الأقسام

ثم قال له : احفظ عني واحدة . قال : وما هي ؟ قال : إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فان الناس لا يخالفونك . وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدمه عليه . قال أبو أيوب كاتب الرسائل : فدخلت على المنصور وهو جالس في خباء شعر جالس في مصلاه بعد العصر ، وبين يديه كتاب فالتاه إلى فاذا هو كتاب أبي مسلم يعلمه بالقدوم عليه ، ثم قال الخليفة : والله لئن ملأت عيني منه لأقتله . قال أبو أيوب : فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون . وبت تلك الليلة لا يأتيني نوم : أفكر في هذه الواقعة ، وقلت : إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شر إلى الخليفة ، والمصلحة تقتضي أن يدخل آمنًا لئلا يتمكن منه الخليفة . فلما أصبحت طلبت رجلاً من الأمراء وقلت له : هل لك أن تتولى مدينة كسكر فانها مغلقة في هذه السنة ؟ فقال : ومن لي بذلك ؟ فقلت له : فاذهب إلى أبي مسلم فتلقاه في الطريق فاطلب منه أن يوليكَ تلك البلد ، فان أمير المؤمنين يريد أن يوليهِ ما وراء بابه

ببب

ويستريح لنفسه . واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له ، وقال له : سلم عليه وقل له : إنا بالاشواق إليه . فسار ذلك الرجل - وهو سلمة بن فلان - ^(١) إلى أبي مسلم فأخبره بأشواق الخليفة إليه ، فسرره ذلك وأشرح ، وإنما هو غرور ومكر به ، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى منيته ، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والامراء أن يتلقوه ، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم ، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤخر قتله في ساعته هذه إلى الغد ، فقبل ذلك منه . فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشي أظهر له الكرامة والتعظيم ، ثم قال : اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام ، فإذا كان الغد فأتني . فخرج من عنده وجاءه الناس يسلمون عليه ، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له : كيف بلائي عندك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها . قال : فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم ؟ قال : فوجم ساعة ثم قال له أبو أيوب : مالك لا تتكلم ؟ فقال قولة ضعيفة : أقتله . ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرضهم على قتله ، وقال لهم : كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه . ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلا تترى يتبع بعضها بعضاً ، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتمس ، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة ، فيعتذر عن ذلك كله . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرجو أن تكون نفسك قد طابت علي . فقال المنصور : أما والله ما زادني هذا إلا غيظاً عليك . ثم ضرب باحدى يديه على الأخرى فخرج عثمان وأصحابه فضربوه بالسيوف حتى قتلوه ولفوه في عباءة ثم أمر بالقائه في دجلة ، وكان آخر العهد به ، وكان مقتله في يوم الأربعاء لأربع بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة .

وكان من جملة ما عاتبه به المنصور أن قال : كتبت إلى مرات تبدأ بنفسك ، وأرسلت تخطب عمتي أمينة ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس إلى غير ذلك . فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين لا يقال لي هذا وقد سميت في أمركم بما علمه كل أحد . فقال : ويحك لو قامت في ذلك أمة سوداء لأتته الله لجدنا وحيطتنا . ثم قال : والله لأقتلنك . فقال : استبقني يا أمير المؤمنين لأعدائك . فقال : وأي عدوى أعدى منك . ثم أمر بقتله كما تقدم : فقال له بعض الأمراء : يا أمير المؤمنين الآن صرت خليفة . ويقال إن المنصور أنشد عند ذلك :

فألت عصاها واستقر بها النوى * كما قرَّ عيناً بالاياب المسافر

وذكر ابن خلكان أن المنصور لما أراد قتل أبي مسلم تحير في أمره هل يستشير أحداً في ذلك أو يستبد هو به لئلا يشيع وينشر ، ثم استشار واحداً من نصحاء أصحابه فقال : يا أمير المؤمنين

(١) كذا بالأصلين . وفي الطبري : سلمة بن سميد بن جابر .

قال الله تعالى [لو كان فهما آلهة إلا الله لفسدنا] فقال له : لقد أودعتها أذنًا واعية . ثم عزم على ذلك

زوجة النبي مسلم الخدرساني

هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم صاحب دولة بني العباس ، ويقال له أمير آل بيت رسول الله ص . ، وقال الخطيب : يقال له عبد الرحمن بن شيرون بن اسفنديار أبو مسلم المروزي ، صاحب الدولة العباسية ، بروى عن أبي الزبير وثابت البناني و إبراهيم وعبد الله ابني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، زاد ابن عساكر في شيوخه محمد بن علي وعبد الرحمن بن حرمله وعكرمة مولى ابن عباس . قال ابن عساكر : روى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ ، وبشر والد مصعب بن بشر ، وعبد الله بن شيرمة وعبد الله بن المبارك وعبد الله بن منيب المروزي وقديد بن منيع صهر أبي مسلم . قال الخطيب : وكان أبو مسلم فاتكا ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ، قتله أبو جعفر المنصور بالمداين . وقال أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان : كان اسمه عبد الرحمن بن عثمان بن يسار ، قيل إنه ولد بأصبهان ، وروى عن السدي وغيره ، وقيل كان اسمه إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سندوس ابن حوذون ، من ولد بزرجهر ، وكان يكنى أبا إسحاق ، ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى به إلى عيسى ابن موسى السراج ، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين ، فلما بعته إبراهيم بن محمد الامام إلى خراسان قال له : غير اسمك وكنيتك . فسمى عبد الرحمن بن مسلم ، واكتنى بأبي مسلم ، فسار إلى خراسان وهو ابن سبع عشرة سنة راكبا على حمار با كاف ، وأعطاه إبراهيم بن محمد نفقة ، فدخل خراسان وهو كذلك ، ثم آل به الحال حتى صارت له خراسان بأزمتها وحذافيرها ، وذكر أنه في ذهابه إليها عدا رجل من بعض الحانات فقطع ذنب حماره ، فلما تمكن أبو مسلم جعل ذلك المكان دكا فكان بعد ذلك خرابا . وذكر بعضهم أنه أصابه سبي في صغره وأنه اشتراه بعض دعاة بني العباس بأربعمائة درهم ، ثم إن إبراهيم بن محمد الامام استوهبه واشتراه فانتمى إليه وزوجه إبراهيم بنت أبي النجم إسماعيل الطائي ، أحد دعاةهم ، لما بعته إلى خراسان ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم فولد لأبي مسلم بنتان إحداهما أسماء أعقت ، وفاطمة لم تعقب .

وقد تقدم ذكر كيفية استقلال أبي مسلم بأمور خراسان في سنة تسع وعشرين ومائة ، وكيف نشر دعوة بني العباس ، وقد كان ذا هيبه وصرامة وإقدام وتسرع في الأمور . وقد روى ابن عساکر باسناده أن رجلا قام إلى أبي مسلم وهو يخطب فقال : ما هذا السواد الذي أرى عليك ؟ فقال . حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله « أن رسول الله ص . دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء » . وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة . يا غلام اضرب عنقه . وروى من حديث عبد الله بن منيب عنه عن محمد بن علي عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس . قال : قال رسول الله

س : « من أراد هوان قريش أهانه الله » . وقد كان إبراهيم بن ميمون الصائغ من أصحابه وجلسائه في زمن الدعوة ، وكان يعده إذا ظهر أن يقبم الحدود ، فلما تمكن أبو مسلم ألح عليه إبراهيم ابن ميمون في القيام بما وعده به حتى أخرجته ، فأمر بضرب عنقه ، وقال له : لم لا كنت تنكر على نصر بن سيار وهو يعمل أوانى الخمر من الذهب فيبيعها إلى بنى أمية ؟ فقال له : إن أولئك لم يقر بوني من أنفسهم و يعدوني منها ما وعدتني أنت . وقد رأى بعضهم لإبراهيم بن ميمون هذا منازل عالية في الجنة بصبره على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فانه كان آمراً تاهياً قائماً في ذلك ، فقتله أبو مسلم رحمه الله .

وقد ذكرنا طاعة أبي مسلم للسفاح واعتناؤه بأمره وامتناله مراسيمه ، فلما صار الأمر إلى المنصور استخف به واحقره ، ومع هذا بعثه المنصور إلى عمه عبد الله إلى الشام فكسره واستنقذ منه الشام وردها إلى حكم المنصور . ثم شمخت نفسه على المنصور وهم بقتله ، ففطن لذلك المنصور مع ما كان مبطناً له من البغضة ، وقد سأل أخاه السفاح غير مرة أن يقتله كما تقدم ذلك فأبى عليه ، فلما تولى المنصور مازال بما كره ويخادعه حتى قدم عليه فقتله . قال بعضهم : كتب المنصور إلى أبي مسلم أما بعد فانه يرين على القلوب ويطبع عليها المعاصي ، فع أيها الطائش ، وافق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم ، فانك مفرور بأضغاث أحلام كاذبة ، في برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك وسم بها سوائف القرون [هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا] وإن الله لا يعجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب ، فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي ، فكأنهم قد صالحوا عليك بعد أن صالحوا معك ، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدالك من الله مالم تكن تحتسب ، مهلا ، احذر البغي أبا مسلم فانه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه لليدين والقم ، واحذر أن تكون سنة في الذين قد خلوا من قبلك ، ومثله لمن يأتي بعدك ، فقد قامت الحجة وأهدرت إليك ، وإلى أهل طاعتي فيك . قال تعالى [وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين]

فأجابه أبو مسلم : أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانبا ، وعن الحق حائدا إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها ، وكتبت إلى فيه آيات منزلة من الله للكافرين ، وما يستوى الذين يعلون والذين لا يعلون ، وإني والله ما انسلخت من آيات الله ، ولكنني يا عبد الله بن محمد كنت رجلا متأولا فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة ، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما ، فكنت لهما شيعة متدينين أحسبني هاديا مهتديا ، وأخطأت في التأويل وقدمت أخطأ المتأولون ، وقد قال تعالى [وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على

نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم] وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقبل العثرة ، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة سلطانتكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم . ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم واستنقذني بالتوبة ، فإن يمت غني ويصفرح فانه كان للأوابين غفورا ، وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد .

فكتب إليه المنصور : أما بعد أيها المجرم العاصي ، فإن أخى كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من ربه ، فأوضح لك السبيل ، وحملك على المنهج السديد ، فلو بأخى اقتديت لما كنت عن الحق حائداً ، وعن الشيطان وأوامره صادراً ، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدتهما تاركا ، ولأغواهما راكباً ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش ببطش الجبارة ، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين ، ثم من خبرى أيها الفاسق أنى قد وليت موسى ابن كعب خراسان ، وأمرته أن يقيم بنيسابور ، فإن أردت خراسان لتيك بمن معه من قوادى وشيعتى ، وأنا موجه للقائك أقرانك ، فاجمع كيدك وأمرك غير مسدد ولا موفق ، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه الله ونعم الوكيل .

ولم يزل المنصور يرأسه تارة بالرغبة وتارة بالرهبة ، ويستخف أحلام من حوله من الأمراء والرسول الذين يبعثهم أبو مسلم إلى المنصور ويعدمهم ، حتى حسنوا لأبى مسلم في رأيه القديوم عليه سوى أمير معه يقال له نيزك ، فانه لم يوافق على ذلك ، فلما رأى أبا مسلم وقد انطاع لهم أنشد عند ذلك البيت المتقدم ، وهو : ماللرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الأتقوام

وأشار عليه بأن يقتل المنصور ويستخلف بدله فلم يمكنه ذلك ، فانه لما قدم المدائن تلقاه الأمراء عن أمر الخليفة ، فما وصل إلا آخر النهار ، وقد أشار أبو أيوب كاتب الرسائل أن لا يقتله يومه هذا كما تقدم [فلما وقف بين يدي الخليفة أكرمه وعظمه وأظهر احترامه ، وقال : اذهب الليلة فأذهب عنك وعشاء السفر ثم اتقنى من الغد .] (١) فلما كان الغد أرصد له من الأمراء من يقتله ، منهم عثمان بن نهبك ، وشبيب بن وياج ، فقتلوه كما تقدم . ويقال بل أقام أياماً يظهر له المنصور الاكرام والاحترام ، ثم نشق منه الوحشة فخاف أبو مسلم واستشفع بعيسى بن موسى واستجار به ، وقال : إني أخافه على نفسى . فقال : لا بأس عليك فانطلق فاني آت وراك ، أنت في ذمتى حتى آتيك ، - ولم يكن مع عيسى خبر بما يريد به الخليفة - فجاء أبو مسلم يستأذن على المنصور فقالوا له : اجلس ههنا فان أمير المؤمنين يتوضأ ، فجلس وهو يود أن يطول مجلسه ليحسب عيسى بن موسى فأبطأ ، وأذن له الخليفة

(١) زيادة من المصرية .

فدخل عليه فجعل يعاتبه في أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً ، حتى قال له : فلم قتلت سليمان بن كثير ، وإبراهيم بن ميمون ، وفلانا وفلانا ؟ قال : لأنهم عصوني وخالفوا أمرى . فغضب عند ذلك المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل إذا عصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتنى ؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله - ، فبادروا إليه ليقنلوه فضربه أحدهم فقطع حائل سيفه : فقال : يا أمير المؤمنين استبقنى لأعدائك ، فقال : وأى عدوى أعدى منك . ثم زجره المنصور فقطعوه قطعاً ولفوه في عباءة ، ودخل عيسى بن موسى على إثر ذلك فقال : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا أبو مسلم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له المنصور : احمد الله الذى هجمت على نعمة ، ولم تهجم على نعمة ، ففى ذلك يقول أبو دلالة : -

أبا مسلم ما غير الله نعمة * على عبده حتى يغيرها العبد
أبا مسلم خوفتى القتل فانتخى * عليك بما خوفتى الأسد الورد

وذكر ابن جرير أن المنصور تقدم إلى عثمان بن نهيك وشبيب بن واخ وأبى خنيفة حرب بن قيس وآخر من الحرس أن يكونوا قريباً منه ، فاذا دخل عليه أبو مسلم وخاطبه وضرب باحدى يديه على الأخرى فليقتلوه . فلما دخل عليه أبو مسلم قال له المنصور : ما فعل السيفان اللذان أصبتهما من عبد الله بن على ؟ فقال : هذا أحدهما . فقال : أرنيه ، فناوله السيف فوضعه تحت ركبته ثم قال له : ما حملك على أن تكتب لأبى عبد الله السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ؟ قال : إبنى ظننت أن أخذه لا يحل ، فلما جاءنى كتاب أمير المؤمنين علمت أنه وأهل بيته معدن العلم . قال : فلم تقدمت على فى طريق الحج ؟ قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمت الناس الرفق . قال : فلم لا رجعت إلى حين أنك خبر موت أبى العباس ؟ قال : كرهت التضيق على الناس فى طريق الحج ، وعرفت أنا منجتمع بالكوفة ، وليس عليك منى خلاف . قال : فجارية عبد الله بن على أردت أن تتخذها لنفسك ؟ قال : لا ، ولكن خفت أن تضيق فحملتها فى قبة ووكلت بها من يحفظها . ثم قال له : ألسن الكاتب إلى تبدأ بنفسك والكاتب إلى تخطب آمنة بنت على ؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟ هذا كاه ويد المنصور فى يده يعر كها ويقبلها ويعتذر ، ثم قال له : فما حملك على مراغمتى ودخولك إلى خراسان ؟ قال : خفت أن يكون دخلك منى شىء فأردت أن أدخل خراسان وأكتب إليك بعذرى . قال : فلم قتلت سليمان بن كثير وكان من نقبائنا ودعاتنا قبلك ؟ قال : أراد خلافى . فقال : ويحك وأنت أردت خلافى وعصيتنى ، قتلنى الله إن لم أقتلك . ثم ضربه بعمود الخيمة وخرج إليه أولئك فضربه عثمان فقطع حائل سيفه ، وضربه شبيب فقطع رجله ، وحمل عليه بقيتهم بالسيوف ، والمنصور يصيح : وبحكم اضربوه قطع الله أيديكم . ثم ذبحوه

وقطعوه قطعاً قطعاً ، ثم ألقى في دجلة . ويروي أن المنصور لما قتله وقف عليه فقال : رحمك الله أبا مسلم ، بايعتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفينا لك ، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكنا عليك حكك على نفسك لنا . ويقال إن المنصور قال : الحمد لله الذي أرانا يومك يا عدو الله . قال ابن جرير وقال المنصور عند ذلك : -

زعمت أن الدين لا يقتضى * فاستوفى بالكيل أبا مجرم

سقيت كاساً كنت نسقي بها * أمراً في الخلق من العلقم

ثم إن المنصور خطب في الناس بعد قتل أبي مسلم فقال : أيها الناس ، لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر ، فتحل بكم النقم ، ولا تسروا غش الأئمة فان أحدا لا يسر منكم شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وطوالع نظره وإنا لن نجعل حقوقكم ما عرقتم حقنا ، ولا ننسى الاحسان إليكم ما ذكرتم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميص أو طائفاً من رأسه ، حتى يستقيم رجالكم ، وترتدع عمالكم . وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من ذلك بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكث وغدر وفجر وكفر ، فحكنا عليه لأنفسنا حكاه على غيره لنا ، وإن أبا مسلم أحسن مبتدياً وأساء منتهياً ، وأخذ من الناس بنا لنفسه أكثر مما أعطانا . ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من حيث سريرته وفساد نيته ما لو علم اللأم لنا فيه لما لام ، ولو اطلع على ما اطلعنا عليه منه لعذرنا في قتله ، وعنفنا في إمهاله ، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكنا فيه حكاه في غيره ممن شق العصا ، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه ، وما أحسن ما قال النابغة الذبياني للنعمان - يعني ابن المنذر :-

فمن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك والله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمير

وقد روى البيهقي عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ، ولكن كان الحجاج شراً منه ، قد اتهمه بعضهم على الاسلام ، ورموه بالزندقة ، ولم أرفبها ذكره عن أبي مسلم ما يدل على ذلك ، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه ، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية والله أعلم بأمره .

وقد روى الخطيب عنه أنه قال : ارتدبت الصبر ، وآثرت الكفاف ، وحالفت الأحزان والأشجان ، وشاخنت المقادير والأحكام ، حتى بلغت غاية همتي ، وأدركت نهاية بغيتي . ثم أنشأ يقول :

قد نلت بالعزم والكتمان ما عجزت * عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
مازلت أضربهم بالسيف فانتبهوا * من رقدة لم ينمها قبلهم أحد
وظفت أسمى عليهم في ديارهم * والقوم في ملكهم في الشام قد رقدوا
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وقد كان قتل أبي مسلم بالمداين يوم الأربعاء لسبع خلون ، وقيل لخمس بقين ، وقيل لأربع ،
وقيل لليلتين بقيتا من شعبان من هذه السنة - أعنى سنة سبع وثلاثين ومائة - قال بعضهم : كان
ابتداء ظهوره في رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة ، وقيل في شعبان سنة سبع وعشرين ومائة .
وزعم بعضهم أنه قتل ببغداد في سنة أربعين ، وهذا غلط من قائله ، فإن ببغداد لم تكن بنيت بعد
كما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ، ورد هذا القول .

ثم إن المنصور شرع في تأليف أصحاب أبي مسلم بالأعطية والرغبة والرغبة والولايات ، واستدعى
أبا إسحاق - وكان من أعز أصحاب أبي مسلم - وكان على شرطة أبي مسلم ، وهم بضرب عنقه فقال : يا أمير
المؤمنين والله ما أمنت قط إلا في هذا اليوم ، وما من يوم كنت أدخل عليك إلا تمنحت ولبت
كفني . ثم كشف عن ثيابه التي تلى جسده فاذا هو محنط وعليه أدرع أكفان ، فرق له المنصور وأطلقه
وذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه وما كان يتماطاه لأجل دولة بني العباس ستائة ألف
صبراً زيادة عن من قتل بغير ذلك . وقد قال للمنصور وهو يعاتبه على ما كان يصنعه : يا أمير المؤمنين
لا يقال لي هذا بعد بلائي وما كان مني . فقال له : يا ابن الخبيثة ، لو كانت أمة مكانك لأجزأت
ناحيتها ، إنما عملت ما عملت بدولتنا وبريختنا ، لو كان ذلك إليك لما وصلت إلى فتيل . ولما قتله
المنصور لف في كساء وهو مقطع إرباً إرباً ، فدخل عيسى بن موسى فقال : يا أمير المؤمنين ابن أبو مسلم ؟
قال : قد كان هاهنا آنفاً . فقال : يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى إبراهيم الامام
فيه . فقال له : يا أتوك والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه ، هاهو ذاك في البساط . فقال :
إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال له المنصور : خلع الله قلبك ، وهل كان لكم مكان أو سلطان أو أمر
أونهى مع أبي مسلم ؟ ثم استدعى المنصور برؤس الأمراء فجعل يستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن
يصلوا بقتله ، فكلهم يشير بقتله ، ومنهم من كان إذا تكلم أسر كلامه خوفاً من أبي مسلم لثلاثين نقل إليه ،
فلما أطلعهم على قتله أفرعهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً . ثم خطب المنصور الناس بذلك كما تقدم .
ثم كتب المنصور إلى نائب أبي مسلم على أمواله وحواصله بكتاب على لسان أبي مسلم أن
يقدم بجميع ما عنده من الحواصل والذخائر والأموال والجواهر ، وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم
بكاله ، مطبوعاً بكل فص الخاتم ، فلما رآه الخازن استراب في الأمر ، وقد كان أبو مسلم تقدم إلى

خازنه أنه إذا جاءك كتابي فان رأيت مختوماً بنصف الفص فامض لما فيه ، فاني إنما أختم بنصف فصه على كتي ، وإذا جاءك الكتاب مختوماً عليه بكامله فلا تقبل ولا تمض ما فيه . فامتنع عند ذلك خازنه أن يقبل ما بعث به المنصور ، فأرسل المنصور بعد ذلك إليه من أخذ جميع ذلك وقتل ذلك الرجل الخازن ، وكتب المنصور إلى أبي داود إبراهيم بن خالد بأمره خراسان كما وعده قبل ذلك عوضاً عن أبي مسلم .

وفي هذه السنة خرج سنباذ يطلب بدم أبي مسلم ، وقد كان سنباذ هذا مجوسياً تغلب على قومس وأصبهان ، ويسمى بفيروز اصهبند ، فبعث إليه أبو جعفر المنصور جيشاً هم عشرة آلاف فارس عليهم جهور بن مرار العجلي - فالتقوا بين همدان والري بالمفازة ، فهزم جهور لسنباذ وقتل من أصحابه ستين الفاً وسبى ذراريهم ونساءهم ، وقتل سنباذ بعد ذلك فكانت أيامه سبعين يوماً . وأخذ ما كان استحوذ عليه من أموال أبي مسلم التي كانت بالري . وخرج في هذه السنة أيضاً رجل يقال له ملبد [بن حرمة الشيباني] في ألف من الخوارج بالجزيرة فجهز إليه المنصور جيوشاً متعددة كثيفة كلها تنفر منه وتنكسر ثم قاتله حميد بن قحطبة نائب الجزيرة ، فهزمه ملبد وتحصن منه حميد في بعض الحصون ثم صالحه حميد بن قحطبة على مائة ألف فدفعها إليه وقبلها ملبد وتقلع عنه . وحج بالناس في هذه السنة عم الخليفة اسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس قاله الواقدي . وكان نائب الموصل - يعني عم المنصور - وعلى نيابة الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة سليمان ابن علي ، وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة ، وعلى مصر صالح بن علي ، وعلى خراسان أبو داود إبراهيم ابن خالد ، وعلى الحجاز زياد بن عبد الله . ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل الخليفة بسنباذ وغيره . ومن مشاهير من توفي فيها أبو مسلم الخراساني كما تقدم ، ويزيد بن أبي زياد أحد من تكلم فيه كما ذكرناه في التكميل ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة

فيها دخل قسطنطين ملك الروم ملطية عنوة فهدم سورها وعفا عن قدر عليه من مقاتلتها . وفيها غزا الصائفة صالح بن علي نائب مصر ، فبنى ما كان هدم ملك الروم من سور ملطية ، وأطلق لأخيه عيسى بن علي أربعين ألف دينار ، وكذلك أعطى لابن أخيه العباس بن محمد بن علي أربعين ألف دينار . وفيها بايع عبد الله بن علي الذي كسره أبو مسلم وانهمز إلى البصرة واستجار بأخيه سليمان بن علي ، حتى بايع للخليفة في هذه السنة ورجع إلى طاعته . ولكن حبس في سجن بغداد كما سيأتي . وفيها خلع جهور بن مرار العجلي الخليفة المنصور بعد ما كسر سنباذ واستحوذ على حواصله وعلى أموال أبي مسلم ، فقويت نفسه بذلك وظن أنه لا يقدر عليه بعد ، فأرسل إليه



الخليفة محمد بن الأشعث الخزاعي في جيش كثيف فاقتلوا قتالا شديداً ، فهزم جهور وقتل عامة من معه ، وأخذ ما كان معه من الأموال والحواصل والذخائر ، ثم لحقوه فقتلوه . وفيها قتل الملبد الخارجي على يدي خازم بن خزيمه في ثمانية آلاف ، وقتل من أصحاب الملبد ما يزيد على ألف وانهمزم بقيتهم .

قال الواقدي : وحج بالناس فيها الفضل بن علي ، والنواب فيها هم المذكورون بالتي قبلها

ومن توفي فيها من الأعيان زيد بن واقد ، والعلاء بن عبد الرحمن ، وليث بن أبي سليم في قوله . وفيها كانت خلافة الداخل من بني أمية إلى بلاد الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان الهاشمي . قلت : ليس هو بهاشمي إنما هو من بني أمية ويسمى أمويًا ، كان قد دخل إلى بلاد المغرب فراراً من عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاجتاز بمن معه من أصحابه الذين فروا معه بقوم يقتلون على عصبية اليمانية والمضرية ، فبعث مولاه بدرًا إليهم فاستألم إليه فبايعوه ودخل بهم ففتح بلاد الأندلس واستحوز عليها وانتزعها من نائبها يوسف بن عبد الرحمن ابن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وقتله . وسكن عبد الرحمن قرطبة واستمر في خلافته في تلك البلاد من هذه السنة إلى سنة ثنتين وسبعين ومائة . فتوفي فيها وله في الملك أربع وثلاثون سنة وأشهر . ثم قام من بعده ولده هشام ست سنين وأشهرًا . ثم مات فولى بعده الحكم بن هشام ستا وعشرين سنة وأشهرًا ثم مات . ثم ولي بعده ولده عبد الرحمن بن الحكم ثلاثا وثلاثين سنة ثم مات . ثم ولي بعده محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ستا وعشرين سنة . ثم ابنه المنذر بن محمد ، ثم أخوه عبد الله بن محمد بن المنذر . وكانت أيامه بعد الثلاثمائة بدهر ، ثم زالت تلك الدولة كما سند كره من زوال تلك السنون وأهلها وما قضاوا فيها من النعم والعيش الرغيد والنساء الحسان ثم انقضت تلك السنوات وأهلها كأنهم على ميعاد ، ثم أضحوا كأنهم ورق جف ألوت عليه الصبا والذبول

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة

فيها أكمل صالح بن علي بناء ملطية ثم غزا الصائفة على طريق الحدث ، فوغل في بلاد الروم ، وغزا معه أخته أم عيسى ولبابة ابنتا علي ، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن يجاهدا في سبيل الله عز وجل . وفيها كان الفداء الذي حصل بين المنصور وبين ملك الروم ، فاستنقذ بعض أسرى المسلمين ثم لم يكن للناس صائفة في هذه السنة إلى سنة ست وأربعين ، وذلك لاشتغال المنصور بأمر ابني عبد الله بن حسن كما سند كره . ولكن ذكر بعضهم أن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الامام سنة أربعين فالله أعلم .

وفيها وسع المنصور المسجد الحرام ، وكانت هذه السنة خصبة جداً - أي كثيرة الخصب فكان



يقال لها السنة الخصبية - وقيل إنما كان ذلك في سنة أربعين . وفيها عزل المنصور عمه سليمان عن إمرة البصرة ، فاختمني عبد الله بن علي وأصحابه خوفاً على أنفسهم ، فبعث المنصور إلى نائبه على البصرة ، وهو سفيان بن معاوية ، يستحثه في إحضار عبد الله بن علي إليه ، فبعثه في أصحابه فقتل بعضهم وسجن عبد الله بن علي عمه ، وبعث بقية أصحابه إلى أبي داود نائب خراسان فقتلهم هناك وحج بالناس فيها العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي عمرو بن مجاهد ، وبزيد بن عبد الله بن الهاد ، ويونس بن عبيد ، أحد العباد وصاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة أربعين ومائة

فيها نار جماعة من الجند على أبي داود نائب خراسان ، وحاصروا داره ، فأشرف عليهم وجعل يستغيث بجنده ليحضروا إليه ، واتكأ على آجرة في الحائط فانكسرت به فسقط فانكسر ظهره فمات ، خلفه على خراسان عاصم ، صاحب الشرطة حتى قدم الأمير من جهة الخليفة عليها ، وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، فتسلم بلاد خراسان ، وقتل جماعة من الأمراء لأنه بلغه عنهم أنهم يدعون إلى خلافة آل علي بن أبي طالب ، وحبس آخرين ، وأخذ نواب أبي داود بجباية الأموال المنكسرة عندهم .

وفيها حج بالناس الخليفة المنصور أحرم من الحجرة ورجع بعد انقضاء الحج إلى المدينة ، ثم رحل إلى بيت المقدس فزاره ، ثم سلك الشام إلى الرقة ، ثم سار إلى الهاشمية - هاشمية الكوفة - ونواب الأقاليم المذكورون في التي قبلها ، سوى خراسان فإنه مات نائبها أبو داود ، خلفه مكانه عبد الجبار الأزدي . وفيها توفي داود بن أبي هند ، وأبو حازم سلمة بن دينار ، وسهيل بن أبي صالح ، وعمارة بن غزية بن قيس السكوني .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة

فيها خرجت طائفة يقال لها الراوندية على المنصور . ذكر ابن جرير عن المدائني أن أصلهم من خراسان ، وهم على رأي أبي مسلم الخراساني ، كانوا يقولون بالتناسخ ، ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم أبو جعفر المنصور . وأن الهيثم بن معاوية جبريل ، قبضهم الله .

قال ابن جرير : فأتوا يوماً قصر المنصور فحملوا يطوفون به ويقولون : هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، ففضبوا من ذلك وقالوا : علام تحبسهم ؟ ثم عمدوا إلى نعش فحملوه على كواهلهم وليس عليه أحد ، واجتمعوا حوله كأنهم يشيعون جنازة ، واجتازوا بباب السجن ، فألقوا النعش ودخلوا السجن قهراً واستخرجوا من فيه من أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور

وهم في سائمة ، فنادى الناس وغلقت أبواب البلد ، وخرج المنصور من القصر ماشياً ، لأنه لم يجد دابة يركبها ، ثم جرى بدابة فركبها وقصد نحو الراوندية وجاء الناس من كل ناحية ، وجاء معن بن زائدة ، فلما رأى المنصور ترجل وأخذ بلجام دابة المنصور ، وقال : يا أمير المؤمنين ارجع ونحن نكفيكم . فأبى وقام أهل الأسواق إليهم فقاتلهم ، وجاءت الجيوش فالتفوا عليهم من كل ناحية فحصدوم عن آخرهم ، ولم يبق منهم بقية . وجرحوا عثمان بن نهيك بسهم بين كنفه ، ففرض أياماً ثم مات ، فصلى عليه الخليفة ، وقام على قبره حتى دفن ودعاه ، وولى أخاه عيسى بن نهيك على الحرس ، وكان ذلك كله بالمدينة الهاشمية من الكوفة .

ولما فرغ المنصور من قتال الراوندية ذلك اليوم صلى بالناس الظهر في آخر وقتها ، ثم أتى بالطعام فقال أين معن بن زائدة ؟ وأمسك عن الطعام حتى جاء معن فأجلسه إلى جنبه ، ثم أخذ في شكره لمن بحضرتة لما رأى من شهامته يومئذ . فقال معن : والله يا أمير المؤمنين لقد جئت وإني لوجل ، فلما رأيت استهانتك بهم وإقدامك عليهم قوى قلبي واطمأن ، وماظننت أن أحداً يكون في الحرب هكذا ، فذلك الذي شجعتني يا أمير المؤمنين . فأمر له المنصور بعشرة آلاف ورضى عنه وولاه اليمن . وكان معن بن زائدة قبل ذلك محتفياً ، لأنه قاتل المسودة مع ابن هبيرة ، فلم يظهر إلا في هذا اليوم . فلما رأى الخليفة صدقه في قتاله رضى عنه . ويقال : إن المنصور قال عن نفسه : أخطأت في ثلاث : قتلت أبا مسلم وأنا في جماعة قليلة ، وحين خرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ، ويوم الراوندية لو أصابني سهم غرب لذهبت ضياعاً . وهذا من حزمه وصرامته .

وفي هذه السنة ولى المنصور ابنه محمداً العهد من بعده ودعاه بالمهدى وولاه بلاد خراسان وعزل عنها عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وذلك أنه قتل خلقاً من شيعة الخليفة ، فشكاه المنصور إلى أبي أيوب كاتب الرسائل فقال : يا أمير المؤمنين اكتب إليه ليعث جيشاً كثيفاً من خراسان إلى غزو الروم ، فاذا خرجوا بعثت إليه من شئت فأخرجوه من بلاد خراسان ذليلاً . فكتب إليه المنصور بذلك ، فرد الجواب بأن بلاد خراسان قد عانت بها الأتراك ، ومتى خرج منها جيش خيف عليها وفسد أمرها . فقال المنصور لأبي أيوب : ماذا ترى ؟ قال : فاكذب إليه : إن بلاد خراسان أحق بالمدد لتغور المسلمين من غيرها ، وقد جهزت إليك بالجنود . فكتب إليه أيضاً : إن بلاد خراسان ضيقة في هذا العام أقواتها ، ومتى دخلها جيش أفسدها . فقال الخليفة لأبي أيوب : ماتقول ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا رجل قد أبدى صفحته وخلع فلا تناظره . فحينئذ بعث المنصور ابنه محمداً المهدي ليقيم بالري ، فبعث المهدي بين يديه خازم بن خزيمه مقدمة إلى عبد الجبار ، فما زال به يخدعه ومن معه حتى هرب من معه وأخنوه هو فأركبوه بعيراً محولاً وجهه إلى ناحية ذنب البعير . وسيره كذلك

في البلاد حتى أقدموه على المنصور ومعه ابنه وجماعة من أهله ، فضرب المنصور عنقه وسير ابنه ومن معه إلى جزيرة في طرف اليمن ، فأمرتهم الهنود بعد ذلك ، ثم فودى بعضهم بعد ذلك . واستقر المهدي نائبا على خراسان ، وأمره أبوه أن يغزو طبرستان ، وأن يحارب الأصبهيند بمن معه من الجنود وأمه بجيش عليهم عمر بن العلاء ، وكان من أعلم الناس بحرب طبرستان ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ * نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي الْمَتَمِّهِ
إِذَا أَيْقَظَكَ حُرُوبَ الْعَدَى * فَنَبَّةٌ لَهَا عُمْرٌ آتَمٌ نَمٌ
فَتَى لَا يَنَامُ عَلَى دَمْنَةٍ * وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بِدَمِّ

فلما تواقفت الجيوش على طبرستان فتحوها وحصرها الأصبهيند حتى أُلجؤه إلى قلعته فصالحهم على ما فيها من الذخائر ، وكتب المهدي إلى أبيه بذلك ، ودخل الأصبهيند بلاد الديلم فمات هناك . وكسروا أيضا ملك الترك الذي يقال له المصفغان ، وأسروا أمما من الذراري ، فهذا فتح طبرستان الأول . وفيها فرغ بناء المصيصة على يدي جبريل بن يحيى الخراساني ، وفيها رابط محمد بن إبراهيم الامام ببلاد ملطية . وفيها عزل المنصور زياد بن عبيد الله عن إمرة الحجاز وولى المدينة محمد بن خالد القسري وقدمها في رجب . وولى مكة والطائف الهيثم بن معاوية العمكي . وفيها توفى موسى بن كعب وهو على شرطة المنصور . وعلى مصر من كان عليها في السنة الماضية ، ثم ولى مصر محمد بن الأشعث ثم عزله عنها وولى عليها نوفل بن الفرات . وحج بالناس فيها صالح بن علي وهو نائب قنشرين وحصص ودمشق ، وبقية البلاد عليها من ذكرنا في التي قبلها والله أعلم .

وفيها توفى أبان بن تغلب ، وموسى بن عقبة ، صاحب المغازي ، وأبو إسحاق الشيباني في قول والله سبحانه أعلم . ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين وومائة

فيها خلع عيينة بن موسى بن كعب نائب السند الخليفة ، فجهز إليه العساكر محبة عمر بن حفص ابن أبي صفرة ، وولاه السند والهند ، فخاربه عمر بن حفص وقهره على الأرض وتسلمها منه . وفيها نكث أصبهيند طبرستان المهدي الذي كان بينه وبين المسلمين ، وقتل طائفة ممن كان بطبرستان ، فجهز إليه الخليفة الجيوش محبة خازم بن خزيمية ، وروح بن حاتم ، ومعهم مرزوق أبو الخصيب ، مولى المنصور ، فحاصروه مدة طويلة ، فلما أعيام فتح الحصن الذي هو فيه احتالوا عليه ، وذلك أن أبا الخصيب قال : اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي ، ففعلوا ذلك ، فذهب إليه كأنه مغاضب للمسلمين قد ضربوه وحلقوا لحيته ، فدخل الحصن ففرح به الأصبهيند وأكرمه وقربه ، وجعل أبو الخصيب يظهر له النصيح والخدمة حتى خدعه ، وحظى عنده جدا وجعله من جملة من يتولى فتح الحصن وغلقه ، فلما تمكن من ذلك كاتب المسلمين وأعلمهم أنه في الليلة الغلانية يفتح لهم ، فاقتربوا من الباب حتى

أفتحه لكم ، فلما كانت تلك الليلة فتح لهم باب الحصن فدخلوا فقتلوا من فيه من المقاتلة وسبوا الذرية وامتص الأصهبند خاتماً مسموماً فبات . وكان فيمن أمروا يومئذ أم منصور بن المهدي ، وأم إبراهيم ابن المهدي ، وكانتا من بنات الملوك الحسان .

وفيهما بنى المنصور لأهل البصرة قبلتهم التي يصلون عندها بالجبان ، وتولى بناءها سلمة بن سعيد ابن حابر نائب الفرات والأبلة . وصام المنصور شهر رمضان بالبصرة وصلى بالناس العيد في ذلك المصلى . وفيها عزل المنصور نوفل بن الفرات عن إمرة مصر وولى عليها حميد بن قحطبة . وحج بالناس فيها إسماعيل بن علي . وفيها توفي سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة ونائب البصرة . كان ذلك يوم السبت لسبع بقين من جمادى الآخرة ، وهو ابن تسع وخمسين سنة ، وصلى عليه أخوه عبد الصمد . روى عن أبيه وعكرمة وأبي بردة بن أبي موسى . وعنه جماعة منهم بنوه جعفر ، ومحمد ، وزينب والأصمعي . وكان قد شاب وهو ابن عشرين سنة وخضب لحيته من الشيب في ذلك السن ، وكان كريماً جواداً ممدحاً . كان يعتق عشية عرفة في كل سنة مائة نسمة ، وبلغت صلواته لبني هاشم وسائر قريش والأنصار خمسة آلاف ألف واطلع يوماً من قصره فرأى نسوة يفرزن في دار من دور البصرة ، فاتفق في نظره هذا اليهن أن قالت واحدة منهن : لو أن الأمير نظر إلينا واطلع على حالنا فأغنانا عن الغزل ؟ فنهض من فوره فجعل يدور في قصره ويجمع من حلى نسائه من الذهب والجواهر وغيرها ما ملأ به منديلاً كبيراً ، ثم دلاه إليهن ونثر عليهن من الدنانير والدرهم شيئاً كثيراً ، فانت إحداهن من شدة الفرح ، فأعطى دينها وما تركته من ذلك لورثتها . وقد ولى الحج في أيام السفاح ، وولى البصرة أيام المنصور ، وكان من خيار بني العباس ، وهو أخو إسماعيل وداود وصالح وعبد الصمد وعبد الله وعيسى ومحمد ، وهو عم السفاح والمنصور .

ومن توفي فيها من الأعيان خالد الحذاء ، وعاصم الأحول ، وعمرو بن عبيد القدرى في قول . وهو عمرو بن عبيد بن ثوبان . ويقال ابن كيسان ، التيمى مولا أم أبو عثمان البصرى ، من أبناء فارس ، شيخ القدرية وال معتزلة . روى الحديث عن الحسن البصرى وعبيد الله بن أنس ، وأبي العالية وأبي قلابة ، وعنه الحمادان وسفيان بن عيينة والأعمش . وكان من أقرانه . وعبد الوارث ابن سعيد ، وهارون بن موسى ، وبجى القطان ، ويزيد بن زريع . قال الامام أحمد بن حنبل : ليس بأهل أن يحدث عنه . وقال علي بن المديني وبجى بن معين : ليس بشيء ، وزاد ابن معين وكان رجل سوء وكان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع . وقال الفلاس : متروك صاحب بدعة . كان بجى القطان يحدثنا عنه ثم تركه وكان ابن مهدي لا يحدث عنه . وقال أبو حاتم : متروك . وقال النسائي ليس بثقة . وقال شعبة عن بونس بن عبيد : كان عمرو بن عبيد يكتب في الحديث .

وقال حماد بن سلمة : قال لي حميد : لا تأخذ عنه فإنه كان يكذب على الحسن البصرى . وكذا قال أيوب وعوف وابن عون . وقال أيوب : ما كنت أعده عقلاً ، وقال مطر الوراق : والله لا أصدقه في شيء . وقال ابن المبارك : إنما تركوا حديثه لأنه كان يدعو إلى التدر . وقد ضعفه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل ، وأثنى عليه آخرون في عبادته وزهده وتقشفه . قال الحسن البصرى : هذا سيد شباب القراء ما لم يحدث . قالوا : فأحدث والله أشد الحديث . وقال ابن حبان : كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه فسماوا المعتزلة ، وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث ، وهما لا تعمداً . وقد روى عنه أنه قال : إن كانت تبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ فما تعد منه على ابن آدم حجة . وروى له حديث ابن مسعود : حدثنا الصادق المصدوق « ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً » حتى قال : « فيؤمر بأربع كلمات . رزقه وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد » إلى آخره . فقال : لو سمعت الأعمش يرويه لكذبته ، ولو سمعته من زيد بن وهب لما أحببته ، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته ، ولو سمعته من رسول الله رسلاً لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت ما على هذا أخذت علينا الميثاق . وهذا من أقبح الكفر ، لعنه الله إن كان قال هذا . وإذا كان مكذوباً عليه فعلى من كذبه عليه ما يستحقه وقد قال عبد الله ابن المبارك رحمه الله :

أبي الطالبُ علماً * إيت حماد بن زيد * فخذ العلم بحلم * ثم قيد بقيد

وذو البدعة من * آثار عمرو بن عبيد

وقال ابن عدى : كان عمرو يفر الناس بتقشفه ، وهو مذموم ضعيف الحديث جداً ، معلن بالبدع . وقال الدارقطني : ضعيف الحديث . وقال الخطيب البغدادي : جالس الحسن واشتهر بصحبته ثم أزاله [واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة وقال بالتدر ودعا إليه ، واعتزل أصحاب الحديث ، وكان له سمت وإظهار زهد . وقد قيل : إنه]^(١) وواصل بن عطاء ولدا سنة ثمانين ، وحكى البخارى أن عمراً مات سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين ومائة بطريق مكة ، وقد كان عمرو محظياً عند أبي جعفر المنصور ، كان المنصور يحبه ويعظمه لأنه كان ينفذ على المنصور مع القراء فيعطيهم المنصور فيأخذون ، ولا يأخذ عمرو منه شيئاً ، وكان يسأله أن يقبل كما يقبل أصحابه فلا يقبل منه ، فكان ذلك مما يفر المنصور ويروج به عليه حاله ، لأن المنصور كان بخيلاً وكان يعجبه ذلك منه وينشد :

كلكم يمشي رويد * كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد

ولو تبصر المنصور لعلم أن كل واحد من أولئك القراء خير من ملء الأرض مثل عمرو بن عبيد ،

(١) زيادة من المصرية .

والزهد لا يدل على صلاح ، فان بهض الرهبان قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه عمرو ولا كثير من المسلمين في زمانه . وقد روينا عن إسماعيل بن خالد القعنبى قال : رأيت الحسن بن جعفر في المنام بعد ما مات بهبادان فقال لى : أيوب ويونس وابن عون فى الجنة . قلت : فعمر و بن عبید ؟ قال : فى النار . ثم رآه مرة ثانية و يروى ثالثة ، فیسأله فيقول له مثل ذلك . وقد رويت له منامات قبيحة ، وقد أطل شيخنا فى تهذيبه فى ترجمته وخلصنا حاصلها فى كتابنا التكميل ، وأشرنا ههنا إلى نبذ من حاله ليعرف فلا يغتر به والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة

ففيها نذب المنصور الناس إلى غزو الديلم ، لأنهم قتلوا من المسلمين خلقا . وأمر أهل الكوفة والبصرة من كان منهم يقدر على عشرة آلاف فصاعداً فليذهب مع الجيش إلى الديلم ، فانتدب خلق كثير وجم غفير لذلك . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى نائب الكوفة وأعمالها . وفيها توفى حجاج الصواف ، وحميد بن ربيعة الطويل ، وسليمان بن طرخان التبعي ، وقد ذكرناه فى التى قبلها ، وعمرو بن عبید فى قول ، وليث بن أبى سليم على الصحيح . ويحيى بن سعيد الأنصارى .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائة

ففيها سار محمد بن أبى العباس السفاح عن أمر عمه المنصور إلى بلاد الديلم ومعه الجيوش من الكوفة والبصرة وواسط والموصل والجزيرة . وفيها قدم محمد بن جعفر المنصور المهدي على أبيه من بلاد خراسان ودخل بآبنة عمه رابطة بنت السفاح بالحيرة . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور واستخلف على الحيرة والعسكر خازم بن خزيمه ، وولى رباح بن عثمان المزنى المدينة وعزل عنها محمد بن خالد القسرى ، وتلقى الناس أبا جعفر المنصور إلى أثناء طريق مكة فى حجه فى سنة أربع وأربعين ومائة . وكان فى جملة من تلقاه عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، فأجلسه المنصور معه على السباط ، ثم جعل يحادثه بأقبال زائد بحيث إن المنصور اشتغل بذلك عن عامة غدائه ، وسأله عن ابنه إبراهيم ومحمد لم لا جاآنى مع الناس ؟ فحلف عبد الله بن حسن أنه لا يدري أين صار من أرض الله . وصدق فى ذلك ، وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز فى أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان ، وكان فى جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور ، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بنى العباس ، فلما صارت الخلافة إلى أبى جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً .

وذلك لأن المنصور توهم منهما أنهما لا بد أن يخرجاه عليه كما أراد أن يخرجاه على مروان ، والذي توهم منه المنصور وقع فيه ، فذهب هرباً فى البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن ، ثم سارا إلى الهند فاختفيا

بها ، فدل على مكانهما الحسن بن زيد فهربا إلى موضع آخر ، فاستبدل عليه الحسن بن زيد ودل عليهما ، ثم كذلك . وانتصب إلباً عليهما عند المنصور . والعجب منه أنه من أتباعهما . واجتهد المنصور بكل طريق على تحصيلهما فلم يتفق له ذلك ، وإلى الآن . فلما سأل أباهما عنهما حلف أنه لا يدري أين صارا من أرض الله ، ثم ألح المنصور على عبد الله في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال : والله لو كانا تحت قدمي مادلتك عليهما . فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله ، فلبث في السجن ثلاث سنين ، وأشاروا على المنصور بحبس بنى حسن عن آخرهم فحبسهم ، وجد في طلب إبراهيم ومحمد جدا ، هذا وهما بحضرة الحج في غالب السنين ويكنان في المدينة في غالب الأوقات ، ولا يشمر بهما من ينم عليهما والله الحمد . والمنصور يعزل نائبا عن المدينة ويولي عليها غيره ويحرضه على إمساكهما والفحص عنهما ، وبذل الأموال في طلبهما ، وتمجزه المقادير عنهما لما يريد الله عز وجل .

وقد واطأهما على أمرهما أمير من أمراء المنصور يقال له أبو العساكر خالد بن حسان ، فعزموا في بعض الحجرات على الفتنك بالمنصور بين الصفا والمروة ، فهام عبد الله بن حسن لشرف البقعة . وقد اطلع المنصور على ذلك وعلم بما مالاها ذلك الأمير ، فعذبه حتى أفر بما كانوا تمالؤا عليه من الفتنك به . فقال : وما الذي صرفكم عن ذلك ؟ فقال : عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك ، فأمر به الخليفة فتيب في الأرض فلم يظهر حتى الآن . وقد استشار المنصور من يعلم من أمراءه ووزرائه من ذوى الرأي في أمر ابني عبد الله بن حسن ، وبعث الجواسيس والقصاد في البلاد فلم يقع لهما على خبر ، ولا ظهر لهما على عين ولا أثر ، والله غالب على أمره . وقد جاء محمد بن عبد الله بن حسن إلى أمه فقال يا أمه ! إني قد شققت على أبي وعموتي ، ولقد هممت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي . فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها ، فقالوا : لا ولا كرامة ، بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً ، ونحن نصبر وفرجنا بيد الله إن شاء فرج عنا ، وإن شاء ضيق . وتمالؤا كلهم على ذلك رحمهم الله .

وفيهما نقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس بالعراق وفي أرجلهم القيود ، وفي أعناقهم الأغلال . وكان ابتداء تقييدهم من الرينة بأمر أبي جعفر المنصور ، وقد أشخص معهم محمد بن عبد الله العثماني ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وقد حملت قريباً ، فاستحضره الخليفة وقال : قد حلفت بالعناق والطلاق إنك لم تغشني ، وهذه ابنتك حامل ، فإن كان من زوجها فقد حبلت منه وأنت تعلم به ، وإن كان من غيره فأنت ديوث . فأجابته العثماني بجواب أحفظه به ، فأمر به فجردت عنه ثيابه فاذا جسمه مثل الفضة النقية ، ثم

ضربه بين يديه مائة وخمسين سوطاً ، منها ثلاثون فوق رأسه ، أصاب أحدها عينه فسالت ، ثم رده إلى السجن وقد بقي كأنه عبد أسود من زرقه الضرب ، وتراكم الدماء فوق جلده ، فأجلس إلى جانب أخيه لأمه عبد الله بن حسن ، فاستسقى ماءً ، فما جسر أحد أن يسقيه حتى سقاه خراساني من جملة الجلاوزة الموكلين بهم . ثم ركب المنصور هودجه وأركبوا أولئك في محامل ضيقة ، وعليهم القيود والأغلال ، فاجتاز بهم المنصور وهو في هودجه ، فزاداه عبد الله بن حسن : والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسرائكم يوم بدر ، فأخسأ ذلك المنصور وثقل عليه ونفر عنهم . ولما انتهوا إلى العراق حبسوا بالهاشمية ، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وكان جميلاً فتياً ، فكان الناس يذهبون لينظروا إلى حسنه وجماله . وكان يقال له : الديباج الأصفر ، فأحضره المنصور بين يديه وقال له : أما لأقتلنك قتلة ما قتلها أحداً . ثم ألقاه بين أسطواناتين وسد عليه حتى مات . فعلى المنصور ما يستحقه من عذاب الله ولعنته . وقد هلك كثير منهم في السجن حتى فرج عنهم بمد هلاك المنصور على ما سنذكره . فكان فيمن هلك في السجن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، وقد قيل والأظهر أنه قتل صبراً ، وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما ، وقل من خرج منهم من الحبس ، وقد جعلهم المنصور في سجن لا يسمعون فيه أذاناً ، ولا يعرفون فيه وقت صلاة إلا بالتلاوة ، ثم بعث أهل خراسان يشفعون في محمد بن عبد الله العثماني ، فأمر به فضربت عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان ، لا جزاء الله خيراً ، ورحم الله محمد بن عبد الله العثماني .

وهو محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي رحمه الله ، أبو عبد الله المدني المعروف بالديباج ، لحسن وجهه . وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي ، روى الحديث عن أبيه وأمه وخارجة بن زيد وطاوس وأبي الزناد والزهرى ونافع وغيرهم ، وحدث عنه جماعة ، وثقه النسائي وابن حبان ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته رقية زوجة ابن أخيه إبراهيم بن عبد الله ، وكانت من أحسن النساء ، وبسببها قتله أبو جعفر المنصور في هذه السنة . وكان كريماً جواداً ممدحاً . قال الزبير بن بكار : أنشدني سليمان بن عباس السعدي لأبي وجرة السعدي بمدحه .

وجدنا المحض الأبيض من قريش * فتى بين الخليفة والرسول
 أنك المجد من هنا وهناك * وكنت له بمعتلج السيول
 فما للمجد دونك من مبيت * وما للمجد دونك من مقيل
 ولا يمضى وراءك يبتغيه * ولا هو قابل بك من بديل
 ثم دخلت سنة خمس ورابعين ومائة

فما كان فيها من الأحداث مخرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة وأخيه إبراهيم بالبصرة ،

على ما سنبيته إن شاء الله . أما محمد فانه خرج على أثر ذهاب أبي جعفر المنصور بأهله بنى حسن من المدينة إلى العراق على الصفة والذمت الذى تقدم ذكره ، وسجنهم فى مكان ساء مستقراً ومقاماً ، لا يسمعون فيه أذاناً ولا يعرفون فيه دخول أوقات صلوات إلا بالأذكار والتلاوة . وقد مات أكثر أكابرهم هنالك رحمهم الله . هذا كله ومحمد الذى يطلبه مخنف بالمدينة ، حتى أنه فى بعض الأحيان اختفى فى بئر نزل فى مائه كله إلا رأسه ، وباقية مغمور بالماء ، وقد تواعد هو وأخوه وقتاً معيناً يظهران فيه ، هو بالمدينة وإبراهيم بالبصرة ، ولم يزل الناس - أهل المدينة وغيرهم - يؤنبون محمد بن عبد الله فى اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج ، وذلك لما أضرب به شدة الاختفاء وكثرة إلحاح رياح نائب المدينة فى طلبه ليلاً ونهاراً ، فلما اشتد به الأمر وضاق الحال واعد أصحابه على الظهور فى الليلة الفلانية ، فلما كانت تلك الليلة جاء بعض الوشاة إلى متولى المدينة فأعلمه بذلك ، فضاق ذرعاً وانزعج لذلك انزعاجاً شديداً ، وركب فى جحافل فطاف بالمدينة وحول دار مروان ، وهم مجتمعون بها ، فلم يشعر بهم . فلما رجع إلى منزله بعث إلى بنى حسين بن على فجمعهم ومعهم رؤس من سادات قريش وغيرهم ، فوعظهم وأنهم وقال : يا معشر أهل المدينة ، أمير المؤمنين يتطلب هذا الرجل فى المشارق والمغرب وهو بين أظهركم ، ثم ما كفاكم حتى بايعتموه على السمع والطاعة ؟ والله لا يبلغنى عن أحد منكم خرج معه إلا ضربت عنقه . فأنكر الذين هم هنالك حاضرون أن يكون عندهم علم أو شعور بشئ من هذا ، وقالوا : نحن نأتيك برجال مسلحين يقاتلون دونك إن وقع شئ من ذلك . فنهضوا فجأؤه بجماعة مسلحين فاستأذنوه فى دخولهم عليه ، فقال : لا إذن لهم ، إني أخشى أن يكون ذلك خديعة . فجلس أولئك على الباب ومكث الناس جلوساً حول الأمير وهو واجم لا يتكلم إلا قليلاً حتى ذهب طائفة من الليل ، ثم ما فجئ الناس إلا وأصحاب محمد بن عبد الله قد ظهروا وأعلنوا بالتكبير ، فانزعج الناس فى جوف الليل ، وأشار بعض الناس على الأمير أن يضرب أعناق بنى حسين ، فقال أحدهم : علام ونحن مقرون بالطاعة ؟ واشتغل الأمير عنهم بما فجأه من الأمر ، فاغتموا الغفلة ونهضوا سراعاً فتسوروا جدار الدار وألقوا أنفسهم على كنانة هنالك .

وأقبل محمد بن عبد الله بن حسن فى مائتين وخمسين ، فر بالسجن فأخرج من فيه ، وجاء دار الامارة فحاصرها فافتتحها ومسك الأمير رياح بن عثمان نائب المدينة فسجنه فى دار مروان ، وسجن معه ابن مسلم بن عقبة ، وهو الذى أشار بقتل بنى حسين فى أول هذه الليلة فنجوا وأحيط به . وأصبح محمد بن عبد الله بن حسن وقد استظهر على المدينة ودان له أهلها ، فصلى بالناس الصبح وقرأ فيها سورة إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً . وأسفرت هذه الليلة عن مستهل رجب من هذه السنة . وقد خطب محمد بن عبد الله أهل المدينة فى هذا اليوم ، فتكلم فى بنى العباس وذكر عنهم أشياء ذمهم

بها ، وأخبرهم أنه لم ينزل بلدًا من البلدان إلا وقد بايعوه على السمع والطاعة ، فبايعه أهل المدينة كلهم إلا القليل .

وقد روى ابن جرير عن الامام مالك أنه أفتى الناس بمبايعته ، فقيل له فان في أعناقنا بيعة للنصور ، فقال : إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة . فبايعه الناس عند ذلك عن قول مالك ، ولزم مالك بيته . وقد قال له إسماعيل بن عبد الله بن جعفر حين دعاه إلى بيعته : يا ابن أخي إنك مقتول . فارتدع بعض الناس عنه واستمر جمهورهم معه ، فاستناب عليهم عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله الخزومي ، وعلى شرطتها عثمان بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن مسور بن مخزومة ، وتلقب بالمهدى طمعاً أن يكون هو المذكور في الأحاديث فلم يكن به ، ولا تم له مارجاه ولا ما تمناه ، فانا لله . وقد ارتحل بعض أهل المدينة عنها ليلة دخلها ، فطوى المراحل البعيدة إلى المنصور في سبع ليال ، فورد عليه فوجده قائماً في الليل ، فقال للربيع الحاجب : استأذن على الخليفة ، فقال : إنه لا يوقظ في هذه الساعة . فقال : إنه لا بد من ذلك فأخبر الخليفة فخرج فقال : ويحك ! ما وراءك ؟ فقال : إنه خرج ابن حسن بالمدينة . فلم يظهر المنصور لذلك أكثرًا وانزعاجاً ، بل قال : أنت رأيتني ؟ قال : نعم ! فقال : هلك والله وأهلك معه من اتبعه . ثم أمر بالرجل فسجن ، ثم جاءت الأخبار بذلك فتواترت . فأطلقه المنصور وأطلق له عن كل ليلة ألف درهم فأعطاه سبعة آلاف درهم .

ولما تحقق المنصور الأمر من خروجه ضاق ذرعاً ، فقال له بعض المنجمين : يا أمير المؤمنين لا عليك منه ، فوالله لو ملك الأرض بمخذا فيرها فانه لا يقيم أكثر من سبعين يوماً . ثم أمر المنصور بجميع رؤس الأمراء أن يذهبوا إلى السجن فيجتمعوا بعبد الله بن حسن - والد محمد - فيخبروه بما وقع من خروج ولده ويسمعوا ما يقول لهم . فلما دخلوا عليه أخبروه بذلك فقال : ما ترون ابن سلامة فاعلا ؟ - يعني المنصور - فقالوا : لا ندري . فقال : والله لقد قتل صاحبكم البخل ينفى له أن ينفق الأموال ويستخدم الرجال ، فان ظهر فاسترجاع ما أنفق سهل ، وإلا لم يكن لصاحبكم شيء في الخزائن وكان ماخزن لغيره . فرجعوا إلى الخليفة فأخبروه بذلك ، وأشار الناس على الخليفة بمناجزته ، فاستدعى عيسى بن موسى فندبه إلى ذلك ، ثم قال : إني سأكتب إليه كتاباً أنذره به قبل قتاله فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ا من عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله : [إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً] الآية إلى قوله [فاعلموا أن الله غفور رحيم] ثم قال : فلك عهد الله وميثاقه وذيمنته وذمة رسوله ، إن أنت رجعت إلى الطاعة لأؤمنتك

ومن اتبعك ، ولأعطيتك ألف ألف درهم ، ولأدعئك تقيم في أحب البلاد إليك ، ولأقضين لك جميع حوائجك ، في كلام طويل . فكتب إليه محمد جواب كتابه :

من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله بن حسن : [بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، وتريد أن تمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين] ثم قال : وإني أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت عليّ ، فأنا أحق بهذا الأمر منكم ، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا ، فإن علياً كان الوصي وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ونحن أشرف أهل الأرض نسباً ، فرسول الله خير الناس وهو جدنا ، وجدتنا خديجة وهي أفضل زوجاته ، وفاطمة ابنته أمنا وهي أكرم بناته ، وإن هاشما ولد عليا مرتين ، وإن حسنا ولده عبد المطلب مرتين ، وهو وأخوه سيّد شباب أهل الجنة ، وإن رسول الله (س) ولد أبي مرتين ، وإني أوسط بني هاشم نسباً ، [وأمرحهم أباً ، لم تترق في العجم . ولم تنازع في أمهات الأولاد] (١) فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأخفهم عذاباً في النار . فأنا أولى بالأمر منك ، وأولى بالعهد وأوفى به منك ، فانك تعطى العهد ثم تنكث ولا تفي ، كما فعلت بابن هبيرة فانك أعطيته العهد ثم غدرت به ، ولا أشد عذاباً من إمام غادر ، وكذلك فعلت بمك عبد الله بن علي ، وأبي مسلم الخراساني . ولو أعلم أنك تصدق لأجبتك لما دعوتني إليه ، ولكن الوفاء بالعهد من مثلك لمثلي بعيد والسلام .

فكتب إليه أبو جعفر جواب ذلك في كتاب طويل حاصله : أما بعد فقد قرأت كتابك فاذا جل نفرك وإدلالك قرابة النساء لتضل به الجفأة والفرغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعنومة والآباء ، ولا كالعصية والأولياء ، وقد أنزل الله [وأنذر عشيرتك الأقربين] وكان له حينئذ أربعة أعمام ، فاستجاب له اثنان أحدهما جدنا ، وكفر اثنان أحدهما أبوك - يعني جده أباطالب - فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينهما إلا ولائمة ، وقد أنزل الله في عدم إسلام أبي طالب [إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء] وقد نفرت به وأنه أخف أهل النار عذاباً ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن أن يفخر بأهل النار ، ونفرت بأن عليا ولده هاشم مرتين . وأن حسنا ولده عبد المطلب مرتين ، فهذا رسول الله (س) ، وإنما ولده عبد الله مرة واحدة ، وقولك إنك لم تملك أمهات أولاد ، فهذا إبراهيم ابن رسول الله (س) ، من مارية ، وهو خير منك ، وعلي بن الحسن من أم ولد وهو خير منك ، وكذلك ابنه محمد بن علي ، وابن جعفر بن محمد ، جداتهما أمهات أولاد وهما خير منك ،

(١) زيادة من الطبري جئنا بها للمناسبة .

وأما قولك بنو رسول الله (ص)، فقد قال تعالى: [ما كان محمد أباً أحد من رجالكم] وقد جاءت السنة التي لا خلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخاللة لا يورثون، ولم يكن لفاطمة ميراث من رسول الله (ص)، بنص الحديث: وقد مرض رسول الله (ص)، وأبوك حاضر فلم يأمره بالصلاة بالناس، بل أمر غيره. ولما توفي لم يعدل الناس بأبي بكر وعمر أحداً، ثم قدموا عليه عثمان في الشورى والخلافة، ثم لما قتل عثمان اتهمه بعضهم به، وقاتله طلحة والزبير على ذلك، وامتنع سعد من مبايعته ثم بعد ذلك معاوية، ثم طلبها أبوك وقاتل عليها الرجال، ثم اتفق على التحكيم فلم يف به، ثم صارت إلى الحسن فباعها بخرق ودرهم، وأقام بالحجاز يأخذ مالا من غير حله، وسلم الأمر إلى غير أهله، وتبرك شيعته في أيدي بني أمية ومعاوية. فان كانت لكم فقد تركتموها وبعتموها بثمنها. ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوك وصلبوك على جذوع النخل، وحرقوك بالنار، وحملوا نساءكم على الابل كالسبايا إلى الشام، حتى خرجنا عليهم نحن فأخذنا بثأركم، وأدر كنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم، وذكركمنا فضل سلفكم، فجعلت ذلك حجة علينا، وظننت أنا إنما ذكرنا فضله على أمثاله على حمزة والعباس وجهفر، وليس الأمر كما زعمت، فان هؤلاء مضوا ولم يدخلوا في الفتن، وسلبوا من الدنيا فلم تنقصهم شيئاً، فاستوفوا نوابهم كاملاً، وابتلى بذلك أبوك. وكانت بنو أمية تلغنه كما تلغن الكفرة في الصلوات المكتوبات، فأحيينا ذكره وذكركمنا فضله وعنفناهم بما نالوا منه، وقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية بسقاية الحجيج الأعظم، وخدمة زمزم، وحكم رسول الله (ص)، لنا بها. ولما قهط الناس زمن عمر استسقى بأبينا العباس، وتوسل به إلى ربه وأبوك حاضر، وقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد رسول الله (ص)، إلا العباس، فالسقاية سقايته، والوراثة وراثته، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف في الجاهلية والاسلام إلا والعباس وارثه وهو ورثه، في كلام طويل فيه بحث ومناظرة وفصاحة. وقد استقصاه ابن جرير بطوله والله سبحانه أعلم.

فَضْلُكَ

مقتل محمد بن عبد الله بن حسن

بعث محمد بن عبد الله بن حسن في غبون ذلك رسولا إلى أهل الشام يدعوهم إلى بيعته وخلافته فأبوا قبول ذلك منه، وقالوا: قد ضجرتنا من الحروب وللنا من القتال. وجعل يستميل رؤس أهل المدينة، فمنهم من أجابه ومنهم من امتنع عليه، وقال له بعضهم: كيف أبايعك وقد ظهرت في بلد ليس فيه مال تستعين به على استخدام الرجال؟ ولزم بعضهم منزله فلم يخرج حتى قتل محمد. وبعث محمد هذا الحسين بن معاوية في سبعين رجلا ونحواً من عشرة فوارس إلى مكة نائباً إن هو دخلها

فساروا إليها ، فلما بلغ أهلها قدومهم خرجوا إليهم في ألوف من المقاتلة ، فقال لهم الحسين بن معاوية
علام تقاتلون وقد مات أبو جعفر ؟ فقال السري بن عبد الله زعيم أهل مكة : إن برده جاءتنا من
أربع إيال وقد أرسلت إليه كتاباً فأنا أنتظر جوابه إلى أربع ، فان كان ما تقولون حقا سلمتكم البلد
وعلى وثنة رجالكم وخيلكم . فامتنع الحسن بن معاوية من الانتظار وأبى إلا المناجزة ، وحلف لا يبيت
الليلة إلا بمكة ، إلا أن يموت . وأرسل إلى السري أن ابرز من الحرم إلى الحل حتى لا تراق الدماء
في الحرم . فلم يخرج ، فتقدموا إليهم فصافوهم فحمل عليه الحسن وأصحابه حملة واحدة فهزموم وقتلوا
منهم نحو سبعة ، ودخلوا مكة . فلما أصبحوا خطب الحسن بن معاوية الناس وأغرام بأبي جعفر ،
ودعاهم إلى محمد بن عبد الله بن حسن المهدي .

خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن

وظهر بالبصرة أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وجاء البريد إلى أخيه محمد فأنهى إليه
ليلاً فاستؤذن له عليه وهو بدار مروان فطرق بابها . فقال : اللهم إني أعوذ بك من شر طوارق الليل
والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن . ثم خرج فأخبر أصحابه عن أخيه فاستبشروا جداً وفرحوا
كثيراً ، وكان يقول للناس بعد صلاة الصبح والمغرب : ادعوا لله لاخوانكم أهل البصرة ، وللعسرين
ابن معاوية بمكة ، واستنصروه على أعدائكم .

وأما ما كان من المنصور فإنه جهز الجيوش إلى محمد بن عبد الله بن حسن ، صحبة عيسى بن
موسى عشرة آلاف فارس من الشجعان المنتخبين ، منهم محمد بن أبي العباس السفاح وجعفر بن
حنظلة البهراني ، وحيد بن قحطبة ، وكان المنصور قد استشاره فيه فقال : يا أمير المؤمنين ادع بمن
شئت ممن تثق به من مواليك فابعث بهم إلى وادي القرى بمنعوتهم من ميرة الشام ، فيموت هو ومن
معه جوعاً ، فإنه ببلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح . وقدم بين يديه كثير بن الحصين
العبيدي وقد قال المنصور لعيسى بن موسى حين ودعه : يا عيسى إني أبعثك إلى جنبي هذين ، فان
ظفرت بالرجل فشم سيفك وناد في الناس بالأمان وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به ، فانهم أعلم
بمذاهبه . وكتب معه كتباً إلى رؤساء قریش والأنصار من أهل المدينة يدفعها إليهم خفية يدعوم
إلى الرجوع إلى الطاعة . فلما اقترب عيسى بن موسى من المدينة بعث الكتب مع رجل فأخذه
حرس محمد بن عبد الله بن حسن فوجدوا معه تلك الكتب فدفعوها إلى محمد فاستحضر جماعة
من أولئك فمأقهم وضربهم ضرباً شديداً وقيدهم قيوداً ثقلاً ، وأودعهم السجن . ثم إن محمداً استشار
أصحابه بالقيام بالمدينة حتى يأتي عيسى بن موسى فيحاصروها ، أو أنه يخرج بمن معه فيقاتل أهل
العراق ؟ ففهم من أشار بهذا ، ومنهم من أشار بذلك ، ثم اتفق الرأي على المقام بالمدينة ، لأن رسول

الله (س.) ندم يوم أحد على الخروج منها، ثم اتفقوا على حفر خندق حول المدينة كما فعل رسول الله (س.) يوم الأحزاب، فأجاب إلى ذلك كله، وحفر مع الناس في الخندق بيده اقتداء برسول الله (س.)، وقد ظهر لهم لبنة من الخندق الذي حفره رسول الله (س.)، وفرحوا بذلك وكبروا وبشروه بالنصر. وكان محمد حاضراً عليه قباء أبيض وفي وسطه منطقة، وكان شكلاً ضخماً أسمر عظيم الهامة. ولما نزل عيسى بن موسى الأعوص واقرب من المدينة، صعد محمد بن عبد الله المنبر فخطب الناس وحثهم على الجهاد - وكانوا قريباً من مائة ألف - فقال لهم في جملة ما قال: إني جعلتكم في حل من بيعتي، فمن أحب منكم أن يقيم عليها فعل. ومن أحب أن يتركها فعل. فقتل كثير منهم أو أكثرهم عنه، ولم يبق إلا شذمة قليلة معه، وخرج أكثر أهل المدينة بأهلهم منها لئلا يشهدوا القتال بها، فنزلوا الأعراض ورؤس الجبال. وقد بعث محمد أبا الليث ليردهم عن الخروج فلم يمكنه ذلك في أكثرهم، واستمروا ذاهبين. وقال محمد لرجل أتأخذ سيفاً ورمحاً وترد هؤلاء الذين خرجوا من المدينة؟ فقال: نعم إن أعطيتني رمحاً أطعنهم وهم بالأعراض، وسيفاً أضربهم وهم في رؤس الجبال فعلت. فسكت محمد ثم قال لي: ويحك؟ إن أهل الشام والعراق وخراسان قد بيضوا - يعني لبسوا البياض - موافقة لي وخلعوا السواد. فقال: وماذا يتفنى أن لو بقيت الدنيا زبدة بيضاء - وأنا في مثل صوفة الدواة، وهذا عيسى بن موسى نازل بالأعوص. ثم جاء عيسى بن موسى فنزل قريباً من المدينة، على ميل منها، فقال له دليله ابن الأصم: إني أخشى إذا كشفتموهم أن يرجعوا إلى معسكرهم سريعاً قبل أن تدر كههم الخليل. ثم ارتحل به فأنزله الجرف على سقاية سليمان بن عبد الملك على أربعة أميال من المدينة، وذلك يوم السبت لصبح اثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان من هذه السنة. وقال: إن الراجل إذا هرب لا يقدر على الهرولة أكثر من ميلين أو ثلاثة فتدركه الخليل. وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس فنزلوا عند الشجرة في طريق مكة، وقال لهم هذا الرجل إن هرب فليس له ملجأ إلا مكة، فحولوا بينه وبينها. ثم أرسل عيسى إلى محمد يدعو إلى السمع والطاعة لأمر المؤمنين المنصور، وأنه قد أعطاه الأمان له ولا أهل بيته إن هو أجابه. فقال محمد للرسول: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك. ثم بعث إلى عيسى بن موسى يقول له: إني أدعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله، فاحذر أن تمتنع فأقتلك فتكون شريكاً، أو تقتلني فتكون قتلت من دعاك إلى الله ورسوله. ثم جعلت الرسل تتردد بينهما ثلاثة أيام. هذا يدعو هذا، وهذا يدعو هذا. وجعل عيسى بن موسى يقف في كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على الثنية عند سلع فينادي: يا أهل المدينة إن دماءكم علينا حرام فنجاهنا فوقف تحت رايتنا فهو آمن، ومن خرج من المدينة فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن أتى سلاحه فهو آمن، فليس لنا في قتالكم أرب، وإنما نريد محمداً

وحده لنذهب به إلى الخليفة . فعملوا يسبونه وينالون من أمه ، ويكلمونه بكلام شنيع ، ويخاطبونه مخاطبة فظيمة . وقالوا له : هذا ابن رسول الله (س) ، معنا ونحن معه ، نقاتل دونه .

فلما كان اليوم الثالث أنام في خيل ورجال وسلاح ورماح لم ير مثلها ، فناداه يا محمد إن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أدعوك إلى الطاعة ، فان فملت أمك وقضى دينك وأعطاك أموالاً وأراضى ، وإن أبيت قاتلتك فقد دعوتك غير مرة . فناداه محمد : إنه ليس لكم عندي إلا القتال . فذسبت الحرب حينئذ بينهم ، وكان جيش عيسى بن موسى فوق أربعة آلاف ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة ، وعلى ميمنته محمد بن السفاح ، وعلى ميسرته داود بن كرار ، وعلى الساقة الهيثم بن شعبة ، ومعهم عدد لم ير مثلها . وفرق عيسى أصحابه في كل قطر طائفة . وكان عهد وأصحابه على عدة أصحاب أهل بدر ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً جداً ، وترجل محمد إلى الأرض فيقال إنه قتل بيده من جيش عيسى بن موسى سبعين رجلاً من أبطالهم ، وأحاط بهم أهل العراق فقتلوا طائفة من أصحاب محمد بن عبد الله بن حسن ، فافتحموا عليهم الخندق الذي كانوا حفروه وعلوا أبواباً على قدره ، وقيل إنهم ردموه بمخارج الجبال حتى أمكنهم أن يجوزوه ، وقد يكونون فعلوا هذا موضع منه ، وهذا في موضع آخر والله أعلم .

ولم تزل الحرب ناشبة بينهم حتى صليت العصر . فلما صلى محمد العصر نزلوا إلى مسيل الوادي بسلع فكسر جفن سيفه وعقر فرسه وفعل أصحابه مثله وصبروا أنفسهم للقتال وحمت الحرب حينئذ جداً ، فاستنظر أهل العراق ورفعوا راية سوداء فوق سلع ، ثم دنوا إلى المدينة فدخلوها ونصبوا راية سوداء فوق مسجد رسول الله (س) .

فلما رأى ذلك أصحاب محمد تنادوا : أخذت المدينة ، وهربوا وبقي محمد في شذمة قليلة جداً ثم بقي وحده وليس معه أحد ، وفي يده سيف صلت يضرب به من تقدم إليه ، فكان لا يقوم له شيء إلا أنامه ، حتى قتل خلقاً من أهل العراق من الشجعان ، ويقال إنه كان في يده يومئذ ذو الفقار ثم تكاثر عليه الناس فتقدم إليه رجل فضربه بسيفه تحت شحمة أذنه اليمنى فسقط لركبته وجعل يحمي نفسه ويقول : ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم . وجعل حميد بن قحطبة يقول : ويحكم ادعوه لا تقتلوه ، فأحجم عنه الناس وتقدم إليه حميد بن قحطبة فحز رأسه وذهب به إلى عيسى بن موسى فوضعه بين يديه . وكان حميد قد حلف أن يقتله متى رآه ، فما أدركه إلا كذلك ولو كان على حاله وقوته لما استطاعه حميد ولا غيره من الجيش .

وكان مقتل محمد بن عبد الله بن حسن عند أحجار الزيت يوم الاثنين بعد العصر ، لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وقال عيسى بن موسى لأصحابه حين وضع

رأسه بين يديه : ما تقولون فيه ؟ فقال منه أقوام وتكلموا فيه ، فقال رجل : كذبتم والله ! لقد كان صواماً قواماً ، ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصي المسلمين فقتلناه على ذلك . فسكتوا حينئذ وأما سيفه ذو الفقار فانه صار إلى بني العباس يتوارثونه حتى جرب به بعضهم فضرب به كلباً فانقطع . ذكره ابن جرير وغيره . وقد بلغ المنصور في غيـون هذا الأمر أن محمداً فر من الحرب فقال : هذا لا يكون ، فانا أهل بيت لا نفر .

وقال ابن جرير : حدثني عبد الله بن راشد حدثني أبو الحجاج قال : إني لقائم على رأس المنصور وهو يسألني عن مخرج محمد ، إذ بلغه أن عيسى بن موسى قد انهزم وكان متكئاً فجلس فضرب بقضيب معه مصلاه وقال : كلا وأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء ؟ ما أنى لذلك بعد . وبعث عيسى بن موسى بالبشارة إلى المنصور مع القاسم بن الحسن وبالرأس مع ابن أبي الكرام ، وأمر بدفن الجثة فدفن بالبقيع ، وأمر بأصحابه الذين قتلوا معه فصلبوا صفيـن ظاهر المدينة ثلاثة أيام ثم طرحوا على مقبرة اليهود عند سلع . ثم نقلوا إلى خندق هناك . وأخذ أموال بني حسن كلها فسوغها له المنصور ، ويقال إنه ردها بعد ذلك إليهم ، حكاه ابن جرير . وتوذي في أهل المدينة بالأمان فأصبح الناس في أسواقهم ، وترفع عيسى بن موسى في الجيش إلى الجرف من مطر أصاب الناس يوم قتل محمد ، وجعل ينتاب المسجد من الجرف ، وأقام بالمدينة إلى اليوم التاسع عشر من رمضان ، ثم خرج منها قاصداً مكة وكان بها الحسن بن معاوية من جهة محمد ، وكان محمد قد كتب إليه يقدم عليه ، فلما خرج من مكة وكان ببعض الطريق تلقته الأخبار بقتل محمد ، فاستمر طاراً إلى البصرة إلى أخي محمد إبراهيم بن عبد الله ، الذي كان قد خرج بها ثم قتل بعد أخيه في هذه السنة على ما سنذكره . ولما جئ المنصور برأس محمد بن عبد الله بن حسن فوضع بين يديه أمر به فطيف به في طبق أبيض ثم طيف به في الأقاليم بعد ذلك ، ثم شرع المنصور في استدعاء من خرج مع محمد من أشرف أهل المدينة ، فمنهم من قتله ومنهم من ضربه ضرباً مبرحاً ، ومنهم من عفا عنه . ولما توجه عيسى إلى مكة استناب على المدينة كثير بن حصين ، فاستمر بها شهراً حتى بعث المنصور على نياتها عبد الله بن الربيع ، فعاث جنده في المدينة فصاروا إذا اشترى من الناس شيئاً لا يعطونهم ثمنه ، وإن طولبوا بذلك ضربوا المطالب وخوفوه بالقتل ، فنار عليهم طائفة من السودان واجتمعوا ونفخوا في بوق لهم فاجتمع على صوته كل أسود في المدينة ، وحملوا عليهم حملة واحدة وهم ذاهبون إلى الجمعة . لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة ، وقيل لخمس بقين من شوال منها ، فقتلوا من الجند طائفة كثيرة بالمزاريق وغيرها ، وهرب الأمير عبد الله بن الربيع وترك صلاة الجمعة . وكان رؤس السودان : وثيق ويعقل ورمقة وحديا وعنقود ، ومسر ، وأبو النار . فلما رجع عبد الله بن الربيع ركب في جنوده

والنقى مع السودان فهزموه أيضا فلحقوه بالبقيع فألقى لهم رداءه يشغلهم فيه حتى بجأ بنفسه ومن اتبعه ، فلحق ببطن نخل على ليلتين من المدينة ، ووقع السودان على طعام المنصور كان مخزونا في دار مروان قد قدم به في البحر فتهبوه ونهبوا ما للجند الذين بالمدينة من دقيق وسويق وغيره ، وباعوا ذلك بأرخص ممن . وذهب الخبر إلى المنصور بما كان من أمر السودان ، وخاف أهل المدينة من مرة ذلك ، فاجتمعوا وخطبهم ابن أبي سبرة - وكان مسجونا - فصعد المنبر وفي رجليه القيود ، فحتم على السمع والطاعة للمنصور ، وخوفهم شرماسنعه مواليهم ، فانفق رأيهم على أن يكفوا مواليهم ويفرقهم ويذهبوا إلى أميرهم فيردوه إلى عمله ، ففعلوا ذلك ، فسكن الأمر وهدأ الناس وانطفت الشرور ، ورجع عبد الله بن الربيع إلى المدينة فقطع يد وثيق وأبى النار ويمتل ومسر .

ذكر خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة

كان إبراهيم قد هرب إلى البصرة فنزل في بني ضبيعة من أهل البصرة ، في دار الحارث بن عيسى ، وكان لا يرى بالنهار ، وكان قدومه إليها بعد أن طاف بلاداً كثيرة جداً ، وجرت عليه وعلى أخيه خطوب شديدة هائلة ، وانعمد أسباب هلاكهما في أوقات متعددة ، ثم كان آخر ما استقر أمره بالبصرة في سنة ثلاث وأربعين ومائة ، بعد منصرف الحجيج . وقيل إن قدومه إليها كان في مستهل رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، بعثه أخوه إليها بعد ظهوره بالمدينة ، قاله الواقدي . قال : وكان يدعو في السر إلى أخيه ، فلما قتل أخوه أظهر الدعوة إلى نفسه في شوال من هذه السنة ، والمشهور أنه قدمها في حياة أخيه ودعا إلى نفسه كما تقدم والله أعلم .

ولما قدم البصرة نزل عند يحيى بن زياد بن حسان النبطي ، فاختمت عنده هذه المدة كلها ، حتى ظهر في هذه السنة في دار أبي فروة ، وكان أول من بايعه نائلة بن مرة ، وعبد الله بن سفيان ، وعبد الواحد بن زياد ، وعمر بن سلمة الهجيمي ، وعبيد الله بن يحيى بن حصين الرقاشي . وندبوا الناس إليه فاستجاب له خلق كثير فتحول إلى دار أبي مروان في وسط البصرة ، واستفحل أمره ، وبايعه فقام من الناس ، وتفاقم الخطب به ، وبلغ خبره إلى المنصور فزاد غمماً إلى غمه بأخيه محمد ، وذلك لأنه ظهر قبل مقتل أخيه وإنما كان سبب تعجيله الظهور كتاب أخيه إليه فامتثل أمره ودعا إلى نفسه ، فانتظم أمره بالبصرة ، وكان نائبها من جهة المنصور سفيان بن معاوية وكان ممالئاً لإبراهيم هذا في الباطن ، ويباغه أخباره فلا يكثرث بها ، ويكذب من أخبره ويود أن يتضح أمر إبراهيم ، وقد أمده المنصور بأمرين من أهل خراسان معهما ألفا فارس وراجل ، فأنزلهما عنده ليتقوى بهما على محاربة إبراهيم ، وتحول المنصور من بغداد - وكان قد شرع في عمارتها - إلى الكوفة ، فجعل كلما اتهم رجلاً من أهل الكوفة في أمر إبراهيم بعث إليه من يقنله في الليل في منزله ، وكان الفرافصة

العجلى قدم بالوثوب بالكوفة فلم يمكنه ذلك لمكان المنصور بها ، وجعل الناس يقصدون البصرة من كل فج لمبايعة إبراهيم ، ويفدون إليها جماعات وفرادى ، وجعل المنصور يرصد لهم المسالخ فيقتلونهم في الطريق وياتونه برؤسهم فيصلبها بالكوفة ليعظ بها الناس . وأرسل المنصور إلى حرب الراوندى - وكان مرابطاً بالجزيرة في أنى فارس لقتال الخوارج - يستدعيه إليه إلى الكوفة ، فأقبل بمن معه فاجتاز ببلدة بها أنصار لا إبراهيم فقالوا له : لا ندعك نجتاز ، لأن المنصور إنما دعاك لقتال إبراهيم . فقال : ويحكم ! دعوني ، فأبوا فقاتلهم فقتل منهم خمسمائة وأرسل برؤسهم إلى المنصور . فقال : هذا أول الفتح . ولما كانت ليلة الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة ، خرج إبراهيم في الليل إلى مقبرة بنى يشكر في بضعة عشر فارساً ، وقدم في هذه الليلة أبو حماد الأبرص في أنى فارس مدداً سفیان ابن معاوية ، فأنزلهم الأمير في القصر ، ومال إبراهيم وأصحابه على دواب أولئك الجيش وأسلحتهم فأخذوها جميعاً ، فتقووا بها ، فكان هذا أول ما أصاب . وما أصبح الصباح إلا وقد استظهر جداً ، فصلى بالناس صلاة الصبح في المسجد الجامع ، والتف الخلائق عليه ما بين ناظر وناصر ، ونحصر سفیان بن معاوية نائب الخليفة بقصر الامارة وحبس عنده الجنود فحاصروا إبراهيم ، فطلب سفیان ابن معاوية من إبراهيم الأمان فأعطاه الأمان ، ودخل إبراهيم قصر الامارة فبسطت له حصير ليجلس عليها في مقدم إيوان القصر ، فهبت الريح فقلبت الحصير ظهراً لبطن ، فتطير الناس بذلك ، فقال إبراهيم : إنا لا نتطير . وجلس على ظهر الحصير ، وأمر بحبس سفیان بن معاوية مقيداً وأراد بذلك براءة ساحته عند المنصور ، واستحوذ على ما كان في بيت المال فاذا فيه ستمائة ألف ، وقيل ألفا ألف . فقوى بذلك جداً .

وكان في البصرة جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي ، وهما أبناء الخليفة المنصور ، فركباني ستمائة فارس إليه فهزمهما ، وأركب إبراهيم المضاء بن القاسم في ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلاً فهزم ستمائة فارس كانت لهما . وآمن من بقي منهم ، وبعث إبراهيم إلى أهل الأهواز فبايعوه وأطاعوه ، وأرسل إلى نائبها مائتي فارس عليهم المغيرة فخرج إليه محمد بن الحصين نائب البلاد في أربعة آلاف فارس فهزمه المغيرة واستحوذ على البلاد ، وبعث إبراهيم إلى بلاد فارس فأخذها ، وكذلك واسط والمدائن والسواد ، واستفحل أمره جداً ، ولكن لما جاءه نعي أخيه محمد انكسر جداً ، وصلى بالناس يوم العيد وهو مكسور . قال بعضهم : والله لقد رأيت الموت في وجهه وهو يخطب الناس فنعى إلى الناس أخاه محمداً ، فازداد الناس حنقا على المنصور وأصبح فمسكروا بالناس واستناب على البصرة نائلة وخلف ابنه حسنا معه .

ولما بلغ المنصور خبره تخير في أمره وجعل يتأسف على ما فرق من جنده في الممالك ، وكان قد

بعث مع ابنه المهدي ثلاثين ألفاً إلى الري ، وبعث مع محمد بن الأشعث إلى إفريقية أربعين ألفاً والباقيون مع عيسى بن موسى بالحجاز ، ولم يبق مع المنصور سوى ألفي فارس . وكان يأمر بالنيران الكثيرة فتوقد ليلاً ، فيحسب الناظر إليها أن ثم جنداً كثيراً . ثم كتب المنصور إلى عيسى بن موسى : إذا قرأت كتابي هذا فأقبل من فورك ودع كل ما أنت فيه . فلم ينشب أن أقبل إليه فقال له : اذهب إلى إبراهيم بالبصرة ولا يهولك كثرة من معه ، فانهم جملة بني هاشم المقتولان جميعاً ، فأبسط يدك وثق بما عندك وستذكر ما أقول لك فكان الأمر كما قال المنصور . وكتب المنصور إلى ابنه المهدي أن بوجه خازم بن خزيمه في أربعة آلاف إلى الأهواز ، فذهب إليها فأخرج منها نائب إبراهيم - وهو المغيرة - وأباحها ثلاثة أيام ، ورجع المغيرة إلى البصرة ، وكذلك بعث إلى كل كورة من هذه الكور التي نقضت بيعته جنداً يردون أهلها إلى الطاعة . قالوا : ولزم المنصور موضع مصلاه فلا يبرح منه ليلاً ونهاراً في ثياب بذلة قد اتسخت ، فلم يزل مقبياً هناك بضماً وخمسين يوماً حتى فتح الله عليه . وقد قيل له في غبون ذلك : إن نساءك قد خبثت نفسهن لغيبتك عنهن . فانتهر القائل وقال : ويحك ليست هذه أيام نساء ، حتى أرى رأس إبراهيم بين يدي ، أو يحمل رأسي إليه . وقال بعضهم : دخلت على المنصور وهو مهوم من كثرة ما وقع من الشرور ، وهو لا يستطيع أن يتابع الكلام من كثرة همه ، وما تفتق عليه من الفتوق والخروق ، وهو مع ذلك قد أعد لكل أمر ما يسد خلله به ، وقد خرجت عن يده البصرة والأهواز وأرض فارس والمدائن وأرض السواد ، وفي الكوفة عنده مائة ألف مغمدة سيوفها تفتظر به صيحة واحدة ، فيثبون مع إبراهيم ، وهو مع ذلك يترك النوائب ويمررها ولم تقعد به نفسه وهو كما قال الشاعر :

نفسُ عصامٍ سودتْ عصاماً * وعلتهُ الكركُ والإقداما * فصيرتهُ ملكاً هماماً

وأقبل إبراهيم بعساكر من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف . وجاء إبراهيم فنزل في باخرى في جحافل عظيمة ، فقال له بعض الأمراء : إنك قد اقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك لأخذت بقفاه فانه ليس عنده من الجيوش ما يردون عنه . وقال آخرون : إن الأولى أن تنجز هؤلاء الذين بازائنا ، ثم هو في قبضتنا . فثنام ذلك عن الرأي الأول . ولو فعله لم لهم الأمر . ثم قال بعضهم : خندق حول الجيش . وقال آخرون : إن هذا الجيش لا يحتاج إلى خندق حوله ، فترك ذلك . ثم أشار بعضهم أن يبني جيش عيسى بن موسى فقال إبراهيم : أنا لا أرى ذلك ، فتركه . ثم أشار آخرون بأن يجعل جيشه كراديس فان غلب كردوس ثبت الآخر ، وقال آخرون : الأولى أن تقاتل صفوفاً لقوله تعالى [إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً

كانهم بنيان مرصوص] . والامر لله وما شاء فعل ولو ساروا إلى الكوفة وبيتوا الجيش أو جعل جيشه كراديس لثم له الأمر مع تقدير الله تعالى وأقبل الجيشان فتصافوا في باخرى وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتلاً شديداً فانهزم حميد بن قحطبة بمن معه من المقدمة ، فجعل عيسى يناشدهم الله في الرجوع والسكر فلا يلوى عليه أحد ، وثبت عيسى بن موسى في مائة رجل من أهله ، فتبيل له : لو تنحيت من مكانك هذا لثلا يحطمك جيش إبراهيم فقال : والله لا أزول منه حتى يفتح الله لي أو أقتل هاهنا وكان المنصور قد تقدم إليه بما أخبره به بعض المنجمين أن الناس يكون لهم جولة عن عيسى بن موسى ثم يقومون إليه وتكون العاقبة له ، فاستمر المنهزمون ذاهبين فأنهوا إلى نهر بين جبلين فلم يمكنهم خوضه فكروا راجعين بأجمعهم ، وكان أول راجع حميد بن قحطبة الذي كان أول من انهزم . ثم اجنلوا هم وأصحاب إبراهيم فاقتتلوا قتلاً شديداً ، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير ، ثم انهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في خمسمائة ، وقيل في أربعمائة . وقيل في تسعين رجلاً ، واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه ، وقتل إبراهيم في جملة من قتل واختلط رأسه مع رؤس أصحابه ، فجعل حميد يأتي بالرؤس إلى عيسى بن موسى حتى عرفوا رأس إبراهيم فبعثوه مع البشير إلى المنصور ، وكان نبيخت المنجم قد دخل على المنصور قبل مجيء الرأس فأخبره أن إبراهيم مقتول فلم يصدقه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن لم تصدقني فأحبسني فإن لم يكن الأمر كما ذكرت فاقتلني . فبينما هو عنده إذ جاء البشير بهزيمة جيش إبراهيم ، ولما جرى بالرأس تمثل المنصور ببیت معقر بن أوس بن حمار البارقى :
فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرأ عيناً بالاياب المسافر

وقيل إن المنصور لما رأى الرأس بكى حتى جعلت دموعه تسقط على الرأس وقال : والله لقد كنت لهذا كارها ، ولكنك ابتليت بي وابتليت بك . ثم أمر بالرأس فنصب بالسوق . وأقطع نبيخت المنجم الكذاب ألفي جريب .

فهذا المنجم إن كان قد أصاب في قضية واحدة فقد أخطأ في أشياء كثيرة ، فهم كذبه كفره وقد كان المنصور في ضلال مع منجمه هذا ، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين وذلك ضلال لا يجوز

وذكر صالح مولى المنصور قال : لما جرى برأس إبراهيم جلس المنصور مجلساً عاماً وجعل الناس يدخلون عليه فيهنثونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور ، والمنصور ساكت متغير اللون لا يتكلم ، حتى دخل جعفر بن حنظلة البهراني فوقف فسلم ثم قال : أعظم الله

أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقدك . قال فاصفر لون المنصور وأقبل عليه وقال له : يا أبا خالد مرحباً وأهلاً ، ههنا فاجلس . فعلم الناس أن ذلك وقع منه موقعاً جيداً . فجعل كل من جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة . قال أبو نعيم الفضل بن دكين : كان مقتل إبراهيم في يوم الخميس لخمس بقين من ذى الحجة من هذه السنة .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

فن أعيان أهل البيت عبد الله بن حسن وابناه محمد وإبراهيم ، وأخوه حسن بن حسن ، وأخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج . وقد تقدمت ترجمته .
وأما أخوه عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي فتابعي ، روى عن أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو صحابي جليل ، وغيرهم . وروى عنه جماعة منهم سفيان الثوري والدراوردي ومالك ، وكان معظماً عند العلماء ، وكان عابداً كبير القدر . قال يحيى بن معين : كان ثقة صدوقاً ، وفد على عمر بن عبد العزيز فأكرمه ، ووفد على السفاح فعظمه وأعطاه ألف ألف درهم ، فلما ولي المنصور عامله بعكس ذلك ، وكذلك أولاده وأهله ، وقد مضوا جميعاً والتقوا عند الله عز وجل ، وأخذ المنصور وأهل بيته مقيدين مغلولين مهانين من المدينة إلى الهاشمية ، فأودعهم السجن الضيق كما قدمنا ، فمات أكثرهم فيه ، فكان عبد الله بن حسن هذا أول من مات فيه بعد خروج ولده محمد بالمدينة ، وقد قيل إنه قتل في السجن عمداً . وكان عمره يوم مات خمسا وسبعين سنة ، وصلى عليه أخوه لأمه الحسن بن الحسن بن علي . ثم مات بعده أخوه حسن فصلى عليه أخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . ثم قتل بعدهما وحمل رأسه إلى خراسان كما تقدم .

وأما ابنه محمد الذي حرج بالمدينة فروى عن أبيه ونافع ، وعن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة في كيفية الهوى إلى السجود ، وحدث عنه جماعة ، ووثقه النسائي وابن حبان وقال البخاري : لا يتابع على حديثه . وقد ذكر أن أمه حملت به أربع سنين ، وكان طويلاً سميناً أسمر ضخماً ذا همة سامية ، وسطورة عالية وشجاعة باهرة ، قتل بالمدينة في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وله خمس وأربعون سنة . وقد حملوا برأسه إلى المنصور ، وطيف به في الأقاليم .
وأما أخوه إبراهيم فكان ظهوره بالبصرة بعد ظهور أخيه بالمدينة وكان مقتله بعد مقتل أخيه في ذى الحجة من هذه السنة وليس له شيء في الكتب الستة ، وحكى أبو داود السجستاني عن أبي عوانة أنه قال : كان إبراهيم وأخوه محمد خارجين . قال داود : ليس كما قال ، هذا رأي الزيدية . قلت : وقد حكى عن جماعة من العلماء والأئمة أنهم مالوا إلى ظهورهما .

وفيهما توفي من المشاهير والأعيان

الأجلح بن عبد الله ، وإسماعيل بن أبي خالد في قول ، وحبیب بن الشهيد ، وعبد الملك بن أبي سليمان ، وعمرو مولى عفرة ، ويحيى بن الحارث الذماري ، ويحيى بن سعيد أبو حيان التيمي ، ورؤبة بن المعجاج والمعجاج لقب واسمه أبو الشعثاء عبد الله بن رؤبة ، وأبو محمد التيمي البصري ، الراجز بن الراجز ، ولكل منهما ديوان رجز ، وكل منهما بارع في فنه لا يجاري ولا يماري ، عالم باللاغة . وعبد الله بن المقفع الكاتب المفوه ، أسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور ، وكتب له ، وله رسائل وألفاظ صحيحة ، وكان منهما بالزندقة ، وهو الذي صنف كتاب كلية ودمنة ، ويقال : بل هو الذي عربها من المجوسية إلى العربية . قال المهدي : ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد . قالوا ونسى الجاحظ وهو رابعهم . وكان مع هذا فاضلا بارعا فصيحاً . قال الأصمعي : قيل لابن المقفع من أدبك ؟ قال : نفسي ، إذا رأيت من غيري قبيحاً أبيت ، وإذا رأيت حسناً أتيت . ومن كلامه : شربت من الخطب رياء ، ولم أضبط ذاروياً ، ففاضت ثم فاضت ، فلا هي نظاماً ، ولا نسيت غيرها كلاماً ،

وكان قتل ابن المقفع على يد سفیان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة نائب البصرة ، وذلك أنه كان يعبث به ويسب أمه ، وإنما كان يسميه ابن المعلم ، وكان كبير الأنف ، وكان إذا دخل عليه يقول : السلام عليكما - على سبيل التهم - وقال لسفیان بن معاوية مرة : ما ندمت على سكوت قط . فقال : صدقت ، الخرس لك خير من كلامك . ثم اتفق أن المنصور غضب على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفیان بن معاوية هذا أن يقتله ، فأخذه فأحمى له تنورا وجعل يقطعه إرباً إرباً ويلقيه في ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق ، وقيل غير ذلك في صفة قتله . قال ابن خلدكان : ومنهم من يقول إن ابن المقفع نسب إلى بيع القفاح وهي من الجر يد كالزنبيل بلا آذان ، والصحيح أنه ابن المقفع وهو أبو دارويه كان الحجاج قد استعمله على الخراج فخان فعاقبه حتى تقفعت يده والله أعلم .

وفيهما خرج الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة . وحج بالناس في هذه السنة نائب المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي . وعلى الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة مسلم بن قتيبة ، وعلى مصر يزيد بن حاتم .

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة

فيها تكامل بناء مدينة السلام ببغداد ، وسكنها المنصور في صفر من هذه السنة ، وكان مقبلاً قبل

ذلك بالهاشمية المناخة للكوفة ، وكان قد شرع في بنائها في السنة الخارجة ، وقيل في سنة أربع وأربعين ومائة فالله أعلم .

وقد كان السبب الباعث له على بنائها أن الراوندية لما وثبوا عليه بالكوفة ووقاه الله شرهم ، بقيت منهم بقية نخشى على جنده منهم ، فخرج من الكوفة يرتاد لهم موقعا لبناء مدينة ، فسار في الأرض حتى بلغ الجزيرة فلم ير موقعا أحسن لوضع المدينة من موضع بغداد الذي هي فيه الآن ، وذلك بأنه موضع يفدا إليه ويراح بخيرات ما حوله في البر والبحر ، وهو محصن بدجلة والفرات من ههنا وههنا ، لا يقدر أحد أن يتوصل إلى موضع الخليفة إلا على جسر ، وقد بات به المنصور قبل بنائه ليالي فرأى الرياح تهب به ليلا ونهاراً من غير انجمار ولا غبار ، ورأى طيب تلك البقعة وطيب هواؤها ، وقد كان في موضعها قرى وديور لعباد النصارى وغيرهم - ذكر ذلك مفصلاً بأسمائه وتعداده أبو جعفر ابن جرير - فحينئذ أمر المنصور باختطاطها فرسموها له بالرماد فحشي في طرقها ومسالكها فأعجبه ذلك ، ثم سلم كل ربيع منها لأمير يقوم على بنائه ، وأحضر من كل البلاد فعالا وصناعاً ومهندسين ، فاجتمع عنده ألوف منهم ، ثم كان هو أول من وضع لبنة فيها بيده وقال : بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله . وأمر ببنائها مدورة سمك سورها من أسفلها خمسون ذراعاً ، ومن أعلاها عشرون ذراعاً ، وجعل لها ثمانية أبواب في السور البراني ، ومثلها في الجواني ، وليس كل واحد تجاه الآخر ، ولكن جعله أزور عن الذي يليه ، ولهذا سميت بغداد الزوراء ، لازورار أبوابها بعضها عن بعض ، وقيل سميت بذلك لانحراف دجلة عندها .

وبني قصر الامارة في وسط البلد ليكون الناس منه على حد سواء ، واختط المسجد الجامع إلى جانب القصر ، وكان الذي وضع قبلته الحجاج بن أرطاة . وقال ابن جرير : ويقال إن في قبلته انحرافاً يحتاج المصلى فيه أن ينحرف إلى ناحية باب البصرة ، وذكر أن مسجد الرصافة أقرب إلى الصواب منه لأنه بني قبل القصر ، وجامع المدينة بني على القصر ، فاختلفت قبلته بسبب ذلك . وذكر ابن جرير عن سليمان بن مجالد أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء بها فأبى وامتنع فحلف المنصور أن يتولى له ، وحلف أبو حنيفة أن لا يتولى له ، فولاه القيام بأمر المدينة وضرب اللبن ، وأخذ الرجال بالعمل ، فتولى ذلك حتى فرغوا من استتمام حائط المدينة مما يلي الخندق ، وكان استتمامه في سنة أربع وأربعين ومائة . قال ابن جرير : وذكر عن الهيثم بن عدي أن المنصور عرض على أبي حنيفة القضاء والمظالم فامتنع ، فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل له ، فأخبر بذلك أبو حنيفة فقام بقصبة فعد اللبن ليبر بذلك بمن أبي جعفر ، ومات أبو حنيفة ببغداد بعد ذلك . وذكر أن خالد بن برمك هو الذي أشار على المنصور ببنائها ، وأنه كان مستحثاً فيها للصناع ، وقد شاور المنصور

الأبراء في نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد لأجل قصر الامارة بها ، فقالوا : لا تفعل فإنه آية في العالم ، وفيه مصلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . فخالفهم ونقل منه شيئاً كثيراً فلم يف ما تحصل منه بأجرة ما يصرف في حمله فتركه ، ونقل أبواب قصر واسط إلى أبواب قصر الامارة ببغداد . وقد كان الحجاج نقل حجارتها من مدينة هناك كانت من بناء سليمان بن داود ، وكانت الجن قد عملت تلك الأبواب ، وهي حجارة هائلة . وقد كانت الأسواق وضجيجها تسمع من قصر الامارة ، فكانت أصوات الباعة وهوسات الأسواق تسمع منه ، فعاب ذلك بعض بطارقة النصارى ممن قدم في بعض الرسائل من الروم ، فأمر المنصور بنقل الأسواق من هناك إلى موضع آخر ، وأمر بتوسعة الطرقات أربعين ذراعاً في أربعين ذراعاً ، ومن بني في شيء من ذلك هدم .

قال ابن جرير : وذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال : وجدت في خزائن المنصور في الكتب أنه أنفق على بناء مدينة السلام ومسجدها الجامع وقصر الذهب بها والأسواق وغير ذلك ، أربعة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثلاثة وثمانين ألف درهم ، وكان أجرة الأستاذ من البنائين كل يوم قيراط فضة ، وأجرة الصانع من الحبتين إلى الثلاثة . قال الخطيب البغدادي : وقد رأيت ذلك في بعض الكتب ، وحكى عن بعضهم أنه قال : أنفق عليه ثمانية عشر ألف ألف فأنفق أعلم .

وذكر ابن جرير أن المنصور ناقص أحد المهندسين الذي بنى له بيتاً حسناً في قصر الامارة فنقصه درهما عما ساومه ، وأنه حاسب بعض المستحقين على الذي كان عنده ففضل عنده خمسة عشر درهما فحبسه حتى جاء بها وأحضرها وكان شحيحاً . قال الخطيب : وبنائها مدورة ، ولا يعرف في أقطار الأرض مدينة مدورة سواها ، ووضع أساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم . ثم ذكر عن بعض المنجمين قال قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد : خذ الطالع لها ، فنظرت في طالعها - وكان المشتري في القوس - فأخبرته بما تدل عليه النجوم ، من طول زمانها ، وكثرة عمارتها ، وانصباب الدنيا إليها وقر الناس اليها فيها . قال : ثم قلت له : وأبشرك يا أمير المؤمنين أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبداً . قال : فرأيت يبتسم ثم قال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً منه :

قضى ربها أن لا يموت خليفة * بها إن شاء في خلقه يقضي

وقد قرره على هذا الخطأ الخطيب وسلم ذلك ولم ينقضه بشيء بل قرره مع اطلاعه ومعرفته . قال : وزعم بعض الناس أن الأمين قتل بدرب الأنبار منها فذكرت ذلك للقاضي أبي القاسم علي بن حسن التنوخي فقال : محمد الأمين لم يقتل بالمدينة ، وإنما كان قد نزل في سفينة إلى دجلة لبتنزه فقبض عليه في وسط دجلة وقتل هناك . ذكر ذلك الصولي وغيره .

وذكر عن بعض مشايخ بغداد أنه قال : اتساع بغداد مائة وثلاثون جريباً ، وذلك بقدر ميلين في ميلين ، قال الامام أحمد : بغداد من الصراة إلى باب التبن . وذكر الخطيب أن بين كل بابين من أبوابها الثمانية ميلاً ، وقيل أقل من ذلك . وذكر الخطيب صفة قصر الامارة وأن فيه القبة الخضراء طولها ثمانون ذراعاً ، على رأسها تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يدور به فأى جهة استقبلها واستمر مستقبلها ، علم الساطن أن في تلك الجهة قد وقع حدث فلم يلبث أن يأتي الخليفة خبره . [وهذه القبة وهي على مجلس في صدر إيوان المحكمة وطوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً . وقد سقطت هذه القبة في ليلة برد ومطر ورعد وبرق ، ليلة الثلاثاء لسبع خلون من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة] . (١)

وذكر الخطيب البغدادي أنه كان يباع في بغداد في أيام المنصور الكبش الغنم بدرهم والحمل بأربعة دوانق ، وينادي على لحم الغنم كل ستين رطلاً بدرهم ، ولحم البقر كل تسعين رطلاً بدرهم ، والتمر كل ستين رطلاً بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، والاعسل عشرة أرطال بدرهم . ولهذا الامن والرخص كثير ساكنوها وعظم أهلها وكثير الدارج في أسواقها وأزقتها ، حتى كان المار لا يستطيع أن يجتاز في أسواقها لكثرة زحام أهلها . قال بعض الأمراء وقد رجع من السوق : طال والله ما طردت خلف الأرانب في هذا المكان .

وذكر الخطيب أن المنصور جلس يوماً في قصره فسمع ضجة عظيمة ثم أخرى ثم أخرى فقال للربيع الحاجب : ما هذا ؟ فكشف فإذا بقرة قد نفرت من جازرها هاربة في الأسواق ، فقال الرومي : يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب ، بعده من الماء ، وقرب الأسواق منه ، وليس عنده خضرة ، والعين خضرة تحب الخضرة . فلم يرفع بها المنصور رأساً ثم أمر بتغيير ذلك ، ثم بعد ذلك ساق إليها الماء وبني عندها البساتين ، وحول الأسواق من ثم إلى الكرخ . قال يعقوب بن سفيان : كمل بناء بغداد في سنة ست وأربعين ومائة ، وفي سنة سبع وخمسين حول الأسواق إلى باب الكرخ وباب الشمير وباب المحول وأمر بتوسعة الأسواق أربعين ألفاً ، وبعد شهرين من ذلك شرع في بناء قصره المسمى بالخلد ، فكل سنة ثمان وخمسين ومائة .

وجعل أمر ذلك إلى رجل يقال له الوضاح ، وبني للعامة جامعاً للصلاة والجمعة لئلا يدخلوا إلى جامع المنصور ، فأما دار الخلافة التي كانت ببغداد بعد ذلك فإنها كانت للحسن بن سهل ، فانتقلت من بعده إلى بوران زوجة المأمون ، فطلبها منها المعتضد - وقيل المعتمد - فأنعمت له بها ، ثم استنظرت أياماً حتى تفتقل منها فأنظرها ، فشرعت في تلك الأيام في ترميمها وتبييضها وتحسينها ، ثم فرشتها

(١) زيادة من المصرية .

بأنواع الفرش والبسط ، وعلقت فيها أنواع الستور ، وأرصدت فيها ما ينبغي للخلافة من الجوارى والخدم ، وألبستهم أنواع الملابس ، وجمعت في الخزائن ما ينبغي من أنواع الأطعمة والمأكول ، وجمعت في بعض بيوتها من أنواع الأموال والذخائر ، ثم أرسلت بمفاتيحها إليه ، ثم دخلها فوجد فيها ما أرصدته بها ، فهاله ذلك واستعظمه جداً ، وكان أول خليفة سكنها وبني عليها سوراً . ذكره الخطيب .

وأما التاج فبناه المكتفي على دجلة وحوله القباب والمجالس والميدان والثريا وحير الوحوش . وذكر الخطيب صفة دار الشجرة التي كانت في زمن المقتدر بالله ، وما فيها من الفرش والستور والخدم والماليك والحشمة الباهرة ، والدنيا الظاهرة ، وأنها كان بها إحدى عشر ألف طواشي ، وسبعمائة حاجب . وأما الماليك فالوف لا يحصون كثرة ، وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً في أيامهم ودواتهم التي ذهبت كأنها أحلام نوم ، بعد سنة ثلثمائة . وذكر الخطيب دار الملك التي بالمحرم ، وذكر الجوامع التي تقام فيها الجمعات ، وذكر الأنهار والجسور التي بها ، وما كان في ذلك في زمن المنصور ، وما أحدث بعده إلى زمانه ، وأنشد لبعض الشعراء في جسور بغداد التي على دجلة :

يوم سرقنا العيش فيه خلسة * في مجلسٍ ببناء دجلة مفرد
رقّ الهواء برقةٍ وقدامة * فغدوت رقا للزمان المسعد
فكان دجلة طيلساناً أبيض * والجسر فيها كالطراز الأسود
وقال آخر : يا حبذا جسر على متن دجلة * باتقان تأسيس وحسن وروني
جمال وحسن للعراق ونزهة * وسلوة من أضناه فرط التشوق
تراه إذا ما جثته متاملاً * كسطرٍ عبيرٍ خط في وسطٍ مبرق
أو العاج فيه الأبنوس مرقش * مثال فيولٍ تحتها أرض زئبق

وذكر الصولي قال : ذكر أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد أن ذراع بغداد من الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب ، وأن الجانب الشرقي ستة وعشرون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً وأن عدة حماماتها ستون ألف حمام ، وأقل ما في كل حمام منها خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء ، وأن بازاء كل حمام خمسة مساجد ، فذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر - يعني إماماً وقياً ومأذوناً ومأمومين - ثم تناقصت بعد ذلك ، ثم دثرت بعد ذلك حتى صارت كأنها خربة صورة ومعنى . على ما سيأتي بيانه في موضعه .

وقال الحافظ أبو بكر البغدادي : لم يكن لبغداد نظير في الدنيا في جلاله قدرها ، ونخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ،

وكثرة دورها ودروبها ومنازلها وشوارعها ومساجدها وحماماتها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد، ثم ذكرتنا قص أحوالها وهلم جرا إلى زمانه. قلت: وكذا من بعده إلى زماننا هذا، ولا سيما في أيام هولاء كوف بن تولى بن جنكز بن خان التركي الذي وضع معالمها وقتل خليفتها وعالمها وخرّب دورها وهدم قصورها وأباد الخواص والعوام من أهلها في ذلك العام، وأخذ الأموال والحواصل، ونهب الذراري والأصائل، وأورث بها حزنا يمدد به في المبكرات والأصائل، وصيرها مثلة في الأقاليم، وعبرة لكل معتبر عليم، وتذكرة لكل ذي عقل مستقيم، وبدلت بعد تلاوة القرآن بالنغمات والألحان، وإنشاد الأشعار، وكان، وكان. وبعد سماع الأحاديث النبوية بدرس الفلسفة اليونانية، والمناهج الكلامية والتأويلات القرمطية، وبعد العلماء بالأطباء، وبعد الخليفة العباسي بشر الولاية من الأناسي، وبعد الرياسة والنباهة بالخساسة والسفاهة، وبعد الطلبة المشتغلين بالظلمة والعيارين، وبعد العلم بالفقه والحديث وتعبير الرؤيا، بالموشح ودوبيت ومواليا. وما أصابهم ذلك إلا ببعض ذنوبهم [ومار بك بظلام للعبيد] والتحول منها في هذه الأزمان لكثرة ما فيها من المنكرات الحسية والمعنوية، وأكل الحشيشة، والانتقال عنها إلى بلاد الشام الذي تكفل الله بأهلها أفضل وأكل وأجل. وقد روى الامام أحمد عن رسول الله (ص): أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام، وشرار أهل الشام إلى العراق».

ما ورد في مدينة بغداد من الآثار وما فيها من الأخبار

فيها أربع لغات بغداد وبغداد باهمال الذال الثانية وإعجمها، وبغدان بالنون آخره وباليم مع ذلك أولا مفدان، وهي كلمة أعجمية قيل إنها مركبة من بغي وداد فقيل بغي بستان وداد اسم رجل، وقيل بغي اسم صنم وقيل شيطان وداد عطية أي عطية الصنم، ولهذا كره عبد الله بن المبارك والأصمعي وغيرهما تسميتها ببغداد وإنما يقال لها مدينة السلام، وكذا أسماها بانها أبو جعفر المنصور، لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام، ومنهم من يسميها الزوراء.

فروى الخطيب البغدادي من طريق عمار بن سيف - وهو منهم - قال: سمعت عاصم الأحول يحدث عن سفیان الثوري عن أبي عثمان عن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله (ص): «تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطر بل والصرارة نجبي إليها خزائن الأرض، وملوكها جبابرة، فلهي أسرع ذهابا في الأرض من الوند الحديد في الأرض الرخوة». قال الخطيب: وقد رواه عن عاصم الأحول سيف ابن أخت سفیان الثوري، وهو أخو عمار بن سيف. قلت: وكلاهما ضعيف منهم يرمى بالكذب، ومحمد بن جابر اليماني ضعيف، وأبو شهاب الخنطلي ضعيف. وروى عن سفیان الثوري

عن عاصم من طرق ثم أسند ذلك كله . وأورد من طريق يحيى بن معين عن يحيى بن أبي كثير عن
عمار بن سيف عن الثوري عن عاصم عن أبي عثمان عن جرير عن النبي (ص) . وقال أحمد ويحيى :
يس لهذا الحديث أصل . وقال أحمد : ما حدث به إنسان ثقة ، وقد علاه الخطيب من جميع طرقه
وساقه أيضاً من طريق عمار بن سيف عن الثوري عن أبي عبيدة حميد الطويل ، عن أنس بن
مالك ، ولا يصح أيضاً . ومن طريق عمر بن يحيى عن سفیان عن قيس بن مسلم عن ربي عن حذيفة
مرفوعاً بنحوه ، ولا يصح . ومن غير وجه عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وثوبان وابن عباس ،
وفي بعضها ذكر السفيناني « وأنه يخرّبها » ولا يصح إسناد شيء من هذه الأحاديث . وقد أوردها
الخطيب بأسانيدھا وألفاظها ، وفي كل منها نكارة ، وأقرب ما فيها عن كعب الأخبار وقد جاء في
آثار عن كتب متقدمة أن بابها يقال له مقلص وذو الدوانيق لبخله .

فضائل

محاسن بغداد ومساوئها وما روى في ذلك عن الأئمة

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي : قال لي الشافعي : هل رأيت بغداد ؟ قلت لا فقال : ما رأيت
الدنيا . وقال الشافعي : ما دخلت بلدا قط إلا عدته سفرا ، إلا بغداد فاني حين دخلتها عدتها
وطنا . وقال بعضهم : الدنيا بادية و بغداد حاضرتها . وقال ابن علية : ما رأيت أعقل في طلب
الحديث من أهل بغداد ، ولا أحسن دعة منهم . وقال ابن مجاهد : رأيت أبا عمرو بن العلاء في
النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال لي : دعني من هذا ، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات
نقل من جنة إلى جنة . وقال أبو بكر بن عياش : الاسلام ببغداد ، وإنها لصيادة تصيد الرجال ،
ومن لم يرها لم ير الدنيا . وقال أبو معاوية : بغداد دار دنيا وآخرة . وقال بعضهم : من محاسن الاسلام
يوم الجمعة ببغداد ، وصلاة التراويح بمكة ، ويوم العيد بطرسوس . قال الخطيب : من شهد يوم
الجمعة بمدينة السلام عظم الله في قلبه محل الاسلام ، لأن مشايخنا كانوا يقولون يوم الجمعة ببغداد كيوم
العيد في غيرها من البلاد . وقال بعضهم : كنت أواظب على الجمعة بجامع المنصور فعرض لي شغل
فصليت في غيره فرأيت في المنام كأن قائل يقول : تركت الصلاة في جامع المدينة وإنه ليصلي فيه
كل جمعة سبعون ولياً . وقال آخر : أردت الانتقال من بغداد فرأيت كأن قائل يقول في المنام :
أنتقل من بلد فيه عشرة آلاف ولي لله عز وجل ؟ وقال بعضهم : رأيت كأن ملكين أتيا ببغداد
فقال أحدهما لصاحبه : اقلها . فقد حق القول عليها : فقال الآخر كيف أقلب ببلد يتختم فيها
القرآن كل ليلة خمسة آلاف ختم ؟ وقال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز بن سليمان بن موسى
قال : إذا كان علم الرجل حجازيا وخلقه عراقيا وصلاته شامية فقد كل . وقالت زبيدة لمنصور

النمرى قل شعرا تحبب فيه بغداد إلى . فقد اختار عليها الراققة فقال :
 ماذا ببغداد من طيب الأفاين * ومن منازةً للدنيا وللدين
 تحبب الرياح بها المرضى إذا نسمت * وجوشت بين أغصان الرياحين
 قال . فأعطته ألفي دينار . وقال الخطيب : وقرأت في كتاب طاهر بن مظفر بن طاهر الخازن
 بخده من شعره :

سقى الله صوب الغاديات محلة * ببغداد بين الكرخ فالخلد فالجسر
 هي البلدة الحسنة أخصت لأهلها * بأشياء لم يجمعن مذكن في مصر
 هواه رقيق في اعتدال وصحة * وماء له طعم ألد من الحر
 ودجلتها شيطان قد نظا لنا * بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
 تراها كسك والمياه كفضة * وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

وقد أورد الخطيب في هذا أشعاراً كثيرة وفيها ذكرنا كفاية . وقد كان الفراغ من بناء بغداد
 في هذه السنة - أعني سنة ست وأربعين ومائة - وقيل في سنة ثمان وأربعين ، وقيل إن خندقها
 وسورها كمل في سنة سبع وأربعين ، ولم يزل المنصور يزيد فيها ويتأنق في بنائها حتى كان آخر ما بنى
 فيها قصر الخلد ، فظن أنه يخلد فيها ، أو أنها تخلص فلا تخرب ، فعند كماله مات . وقد خربت بغداد
 مرات كما سيأتي بيانه .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة عزل المنصور سلم بن قتيبة عن البصرة وولى عليها محمد بن
 سليمان بن علي ، وذلك لأنه كتب إلى سلم يأمره بهدم بيوت الذين بايعوا إبراهيم بن عبد الله بن حسن
 فتوانى في ذلك فعزله ، وبعث ابن عمه محمد بن سليمان فعاث بها فساداً ، وهدم دوراً كثيرة . وعزل
 عبد الله بن الربيع عن إمرة المدينة وولى عليها جعفر بن سليمان ، وعزل عن مكة السري بن
 عبد الله وولى عليها عبد الصمد بن علي . قال : وحج بالناس في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم
 ابن محمد بن علي قاله الواقدي وغيره . قال : وفيها غزا الصائفة من بلاد الروم جعفر بن حنظلة
 البهراني . وفيها توفي من الأعيان أشعث بن عبد الملك ، وهشام بن السائب الكلابي ، وهشام بن
 عروة . ويزيد بن أبي عبيد في قول .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

فيها أغار اشترخان الخوارزمي في جيش من الأتراك على ناحية أرمينية فدخلوا تفليس وقتلوا
 خلقاً كثيراً وأسروا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة ، ومن قتل يومئذ حرب بن عبد الله الراوندي
 الذي تنسب إليه الحربية ببغداد ، وكان مقبياً بالموصل في ألفين لمقابلة الخوارج ، فأرسله المنصور

لمساعدة المسلمين ببلاد أرمينية ، وكان في جيش جبريل بن يحيى ، فهزم جبريل وقتل حرب رحمه الله . وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن علي عم المنصور .

وهو الذي أخذ الشام من أيدي بني أمية ، كان عليها واليا حتى مات السفاح ، فلما مات دعا إلى نفسه فبعث إليه المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه أبو مسلم وهرب عبد الله إلى عند أخيه سليمان ابن علي وإلى البصرة فاختمني عنده مدة ثم ظهر المنصور على أمره فاستدعى به وسجنه ، فلما كان في هذه السنة عزم المنصور على الحج فطلب عمه عيسى بن موسى - وكان ولي العهد من بعد المنصور عن وصية السفاح - وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وقال له : إن هذا عدوى وعدوك ، فاقتله في غيبتي عنك ولا تتواني . وسار المنصور إلى الحج وجعل يكتب إليه من الطريق يستحثه في ذلك ويقول له : ماذا صنعت فيما أودعت إليك فيه ؟ مرة بعد مرة . وأما عيسى بن موسى فإنه لما تسلم عمه حار في أمره وشاور بعض أهله فأشار بعضهم ممن له رأى أن المصلحة تقتضي أن لا تقتله وابقه عندك وأظهر قتله فانا نخشى أن يطالبك به جبهة فتقول : قتلته ، فيأمر بالقود فتدعى أنه أمرك بقتله بالسري بينك وبينه فتعجز عن إثبات ذلك فيقتلك به ، وإنما يريد المنصور قتله وقتلك ليستريح منكما معا . فتغير عيسى بن موسى عند ذلك وأخفى عمه وأظهر أنه قتله . فلما رجع المنصور من الحج أمر أهله أن يدخلوا عليه ويشفعوا في عمه عبد الله بن علي ، وألحوا في ذلك فأجابهم إلى ذلك ، واستدعى عيسى بن موسى وقال له : إن هؤلاء شفَعوا في عمه عبد الله بن علي وقد أجبتهم إلى ذلك فسلمه إليهم . فقال عيسى : وأين عبد الله ؟ ذاك قتلته منذ أمرتني . فقال المنصور : لم أورك بذلك ، وجحد ذلك وأن يكون تقدم إليه منه أمره في ذلك ، فأحضر عيسى الكتب التي كتبها إليه المنصور مرة بعد مرة في ذلك فأنكر أن يكون أراد ذلك ، وصمم على الإنكار ، وصمم عيسى ابن موسى أنه قد قتله ، فأمر المنصور عند ذلك بقتل عيسى بن موسى قصاصاً بعبد الله ، فخرج به بنو هاشم ليقتلوه ، فلما جاؤا بالسيف قال : ردوني إلى الخليفة ، فردوه إليه فقال له : إن عمك حاضر ولم أقتله ، فقال : هلم به . فأحضره فسقط في يد الخليفة وأمر بسجنه بدار جدرانها مبنية على ملح ، فلما كان من الليل أرسل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فهلك . ثم إن المنصور خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدي ، وكان يجاسه فوق عيسى بن موسى عن يمينه ، ثم كان لا يلتفت إلى عيسى بن موسى ويهينه في الأذن والمشورة والدخول عليه والخروج من عنده ، ثم ما زال يقصيه ويبعده ويتهدده ويتوعده حتى خلع نفسه بنفسه ، وباع محمد بن منصور وأعطاه المنصور على ذلك نحواً من اثني عشر ألف ألف درهم ، وانصلح أمر عيسى بن موسى وبنيه عند

ببب

المنصور ، وأقبل عليه بعدما كان قد أعرض عنه . وكان قد جرت . بينهما قبل ذلك مكاتبات في ذلك كثيرة جداً ، ومراديات في تمهيد البيعة لابنه المهدي وخلع عيسى نفسه ، وأن العامة لا يعدلون بالمهدي أحداً . وكذلك الأمراء والخواص . ولم يزل به حتى أجاب إلى ذلك مكرها ، فموضه عن ذلك ما ذكرنا ، وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، وفرح المنصور بذلك فرحاً شديداً ، واستقرت الخلافة في ذريته إلى زماننا هذا ، فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالة [ذلك تقدير العزيز العليم] .

وفيها توفي عبيد الله بن عمر العمري ، وهاشم بن هاشم ، وهشام بن حسان صاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

فيها بمث المنصور حميد بن قحطبة لغزو الترك الذين عاثوا في السنة الماضية ببلاد تفليس ، فلم يجد منهم أحداً فانهم انشروا إلى بلادهم . وحج بالناس فيها جعفر بن أبي جعفر ، ونواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي جعفر بن محمد الصادق المنسوب إليه كتاب اختلاج الأعضاء وهو مكذوب عليه . وفيها توفي سليمان بن مهران الأعمش أحد مشايخ الحديث في ربيع الأول منها وعمر بن الحارث ، والعوام بن حوشب ، والزيبيدي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . ومحمد بن عجلان .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

فيها فرغ من بناء سور بغداد وخذقتها . وفيها غزا الصائفة العباس بن محمد فدخل بلاد الروم ومعه الحسين بن قحطبة ومحمد بن الأشعث . ومات محمد بن الأشعث في الطريق . وفيها حج بالناس محمد بن إبراهيم بن علي وولاه المنصور على مكة والحجاز عوضاً عن عمه عبد الصمد بن علي . وعمال الأمصار فيها هم الذين كانوا في السنة قبلها . وفيها توفي زكريا بن أبي زائدة ، وكهمس بن الحسن ، والمثنى بن الصباح . وعيسى بن عمر أبو عمرو والثقفى البصري النحوى شيخ سيبويه . يقال إنه من موالى خالد بن الوليد ، وإنما نزل في تقيف فنسب إليهم . كان إماماً كبيراً جليلاً في اللغة والنحو والقراءات ، أخذ ذلك عن عبيد الله بن كثير وابن المحيص وعبيد الله بن أبي إسحاق ، وسمع الحسن البصري وغيرهم . وعنه الخليل بن أحمد والأصمعي وسيبويه . ولزمه وعرف به وانتفع به ، وأخذ كتابه الذي سماه بالجامع فزاد عليه وبسطه ، فهو كتاب سيبويه اليوم ، وإنما هو كتاب شيخه ، وكان سيبويه يسأل شيخه الخليل بن أحمد عما أشكل عليه فيه ، فسأله الخليل أيضاً عما صنف عيسى بن عمر فقال : جمع بعضاً وسبعين كتاباً ذهبت كلها إلا كتاب الاكمال ،

١٠٥

وهو بأرض فارس . وهو الذي أشتغل فيه وأسألك عن غوامضه ، فاطرق الخليل ساعة ثم أنشد :

ذهبَ النحوُ جميعاً كلهُ * غيرَ ما أحدثَ عيسى بن عمر
ذاكَ إكمالٌ وهذا جامعٌ * وهما للناسِ شمسٌ وقرصٌ

وقد كان عيسى يغرب ويتقعر في عبارته جداً . وقد حكى الجوهري عنه في الصحاح أنه سقط يوماً عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأ تكأ كأنم على تكأ كؤمك على ذي مرة؟ افرنقوا عني . معناه : مالكم تجتمعون على تكأ تكأ كأنم على تكأ كؤمك على ذي مرة؟ افرنقوا عني . فسقط بسببه فاعتقد الناس أنه مصروع . فعملوا يعودونه ويقرؤن عليه ، فلما أفاق من غشيته قال ، ما قال . فقال بعضهم : إني حسبتك . يتكلم بالفارسية . وذكر ابن خلكان أنه كان صاحباً لأبي عمرو بن العلاء ، وأن عيسى بن عمر قال يوماً لأبي عمرو بن العلاء : أنا أفصح من معد بن عدنان . فقال له أبو عمرو كيف تقرأ هذا البيت .

قد كنَ بخبانَ الوجوه تستراً * فاليومَ حينَ بدانَ للنظارِ

أو بدین ؟ فقال بدین . فقال أبو عمرو : أخطأت ، ولو قال : بدان لا خطأ أيضاً . وإنما أراد أبو عمرو تغليطه ، وإنما الصواب بدون من بداييد وإذا ظهر ، وبدأ يبدأ إذا شرع في الشيء .

ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة

فيها خرج رجل من الكفرة يقال له استاذسيس في بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها ، والنف معه نحو من ثلاثمائة ألف ، وقتلوا من المسلمين هناك خلقاً كثيراً ، وهزموا الجيوش التي في تلك البلاد ، وسبوا خلقاً كثيراً ، وتحكم الفساد بسببهم ، وتفاقم أمرهم ، فوجه المنصور خازم بن خزيمه إلى ابنه المهدي ليوليه حرب تلك البلاد ، ويضم إليه من الأجناد ما يقاوم أولئك . فنهض المهدي في ذلك نهضة هاشمية ، وجمع لخازم بن خزيمه الأصرة على تلك البلاد والجيوش ، وبعثه في نحو من أربعين ألفاً ، فسار إليهم وما زال يراوغهم وبما كرم ويعمل الخديعة فيهم حتى فاجأهم بالحرب ، وواجههم بالطعن والضرب ، فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً ، وأسر منهم أربعة عشر ألفاً ، وهرب ملكهم استاذسيس فتحرز في جبل ، فجاء خازم إلى تحت الجبل وقتل أولئك الأسرى كلهم ، ولم يزل يحاصره حتى نزل على حكم بعض الأمراء ، فحكم أن يقيد بالحديد هو وأهل بيته ، وأن يعتق من معه من الأجناد . وكانوا ثلاثين ألفاً . ففعل خازم ذلك كله وأطلق لكل واحد ممن كان مع استاذسيس ثوبين ، وكتب بما وقع من الفتح إلى المهدي ، فكتب المهدي بذلك إلى أبيه المنصور . وفيها عزل الخليفة عن إمرة المدينة جعفر بن سليمان وولاه الحسن بن زيد بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن علي عم الخليفة . وتوفي فيها

جعفر ابن أمير المؤمنين المنصور ودفن أولاً بمقابر بني هاشم من بغداد ، ثم نقل منها إلى موضع آخر .
وفيهما توفي عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أحد أئمة أهل الحجاز ، ويقال إنه أول من جمع
السنن . وعثمان بن الأسود ، وعمر بن محمد بن زيد . وفيها توفي الامام أبو حنيفة .

ذكر ترجمته

هو الامام أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي ، فقيه العراق ، وأحد أئمة
الاسلام ، والسادة الأعلام ، وأحد أركان العلماء ، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتنوعة ،
وهو أقدمهم وفاة ، لأنه أدرك عصر الصحابة ، ورأى أنس بن مالك ، قبل وغيره . وذكر بعضهم
أنه روى عن سبعة من الصحابة فإله أعلم .

وروى عن جماعة من التابعين منهم الحكم وحماد بن أبي سليمان ، وسلمة بن كهيل ، وعامر
الشعبي ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والزهرى ، ونافع مولى ابن عمر ، ويحيى بن سعيد الأنصارى
وأبو إسحاق السبيعي . وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان ، وإسحاق بن يوسف
الأزرق ، وأسد بن عمرو القاضي ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وحمزة الزيات ، وداود الطائى ، وزفر ،
وعبد الرزاق ، وأبو نعيم ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وهشيم ، ووكيع ، وأبو يوسف القاضي . قال
يحيى بن معين : كان ثقة ، وكان من أهل الصدق ولم ينهم بالكذب ، ولقد ضربه ابن هبيرة على
القضاء فأبى أن يكون قاضياً . وقد كان يحيى بن سعيد يختار قوله فى الفتوى ، وكان يحيى يقول :
لا نكذب الله ! ما سمعنا أحسن من رأى أبى حنيفة ، وقد أخذنا بأكثر أقواله . وقال عبد الله بن
المبارك : لولا أن الله أعاننى بأبى حنيفة وسفيان الثورى لكنت كسائر الناس . وقال فى الشافعى :
رأيت رجلاً لو كلمك فى هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته : وقال الشافعى : من أراد الفقه فهو
عيال على أبى حنيفة ، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد الحديث فهو
عيال على مالك ، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان . وقال عبد الله بن داود الحريبي :
ينبغى للناس أن يدعوا فى صلاتهم لأبى حنيفة ، لحفظه الفقه والسنن عليهم . وقال سفيان الثورى
وابن المبارك : كان أبو حنيفة أفتى أهل الأرض فى زمانه . وقال أبو نعيم : كان صاحب غوص فى
المسائل . وقال مكى بن إبراهيم : كان أعلم أهل الأرض . وروى الخطيب بسنده عن أسد بن عمرو
أن أبا حنيفة كان يصلى بالليل ويقرأ القرآن فى كل ليلة ، ويبكى حتى يرحمه جيرانه . ومكث أربعين
سنة يصلى الصبح بوضوء العشاء ، وختم القرآن فى الموضع الذى توفى فيه سبعين ألف مرة ، وكانت
وفاته فى رجب من هذه السنة - أعنى سنة خمسين ومائة - وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين .
وقال غيره : سنة ثلاث وخمسين . والصحيح الأول .

وكان مولده في سنة ثمانين قم له من العمر سبعون سنة ، وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام ، وقبره هناك رحمه الله .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وهائة

فيها عزل المنصور عمر بن حفص عن السند وولى عليها هشام بن عمرو التغلبي ، وكان سبب عزله عنها أن محمد بن عبد الله بن حسن لما ظهر بعث ابنه عبد الله الملقب بالأشتر ومعه جماعة بهدية وخبول عتاق إلى عمر بن حفص هذا إلى السند فقبلها ، فدعوه إلى دعوة أبيه محمد بن عبد الله بن حسن في السرفأجابهم إلى ذلك ولبسوا البياض . ولما جاء خبر مقتل محمد بن عبد الله بالمدينة سقط في أيديهم وأخذوا في الاعتذار إلى عبد الله بن محمد ، فقال له عبد الله : إني أخشى على نفسي . فقال : إني سأبعثك إلى ملك من المشركين في جوار أرضنا ، وإنه من أشد الناس تعظيماً لرسول الله (ص) ، وإنه متى عرفك أنك من سلالة أحببك . فأجابه إلى ذلك ، وصار عبد الله ابن محمد إلى ذلك الملك وكان عنده آمناً ، وصار عبد الله يركب في موكب من الزيدية ويتصيد في جحفل من الجنود ، وانضم إليه خلق وقدم عليه طوائف من الزيدية .

وأما المنصور فإنه بعث يعتب على عمر بن حفص نائب السند ، فقال رجل من الأمراء ابغضني إليه واجعل القضية مسندة إلى ، فاني سأعتذر إليه من ذلك ، فان سلمت وإلا كنت فداءك وفداء من عندك من الأمراء . فأرسله سفيراً في القضية إلى المنصور ، فلما وقف بين يدي المنصور أمر بضرب عنقه ، وكتب إلى عمر بن حفص بعزله عن السند وولاه بلاد إفريقية عوضاً عن أميرها ، ولما وجه المنصور هشام بن عمرو إلى السند أمره أن يجتهد في تحصيل عبد الله بن محمد ، فجعل يتواني في ذلك ، فبعث إليه المنصور يستحثه في ذلك ، ثم اتفق الحال أن سيفاً أخاه هشام بن عمرو لقي عبد الله بن محمد في بعض الأماكن فاقتلوا فقتل عبد الله وأصحابه جميعاً واشتبه عليهم مكانه في القتلى فلم يقدروا عليه . فكتب هشام بن عمرو إلى المنصور يعلمه بقتله ، فبعث يشكره على ذلك ويأمره بقتال الملك الذي آواه ، ويعلمه أن عبد الله كان قد تسرى بجارية هنالك وأولدها ولماً أسماه محمداً ، فاذا ظفرت بالملك فاحتفظ بالغلام فنهض هشام بن عمرو إلى ذلك الملك فقاتله فغلبه وقهره على بلاده وأمواله وحواصله ، وبعث بالفتح والأخماس وبذلك الغلام والملك إلى المنصور ، ففرح المنصور بذلك وبعث بذلك الغلام إلى المدينة ، وكتب المنصور إلى نائبها يعلمه بصحة نسبه ، ويأمره أن يلحقه بأهله يكون عندهم لثلاً يضيع نسبه ، فهو الذي يقال له أبو الحسن بن الأشتر . وفي هذه السنة قدم المهدي بن المنصور على أبيه من خراسان فتلقيه أبوه والأمراء والأكابر

إلى أثناء الطريق ، وقدم بعد ذلك نواب البلاد والشام وغيرها للسلام عليه وتمنئته بالسلامة والنصر .
وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لا يحصى ولا يوصف .

بناء الرصافة

قال ابن جرير : وفي هذه السنة شرع المنصور في بناء الرصافة لابنه المهدي بعد مقدمه من خراسان ، وهي في الجانب الشرقي من بغداد ، وجعل لها سوراً وخندقاً ، وعمل عندها ميداناً وبستاناً ، وأجرى إليها الماء من نهر المهدي . قال ابن جرير :

وفيها جدد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده ، ولعيسى بن موسى من بعدهما ، وجاء الأمراء والخواص فبايعوا وجعلوا يقبلون يد المنصور ويد ابنه ويلمسون يد عيسى بن موسى ولا يقبلونها . قال الواقدي : وولى المنصور معن بن زائدة سجستان .

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو نائب مكة والطائف ، وعلى المدينة الحسن بن زيد ، وعلى الكوفة محمد بن سليمان ، وعلى البصرة جابر بن زيد الكلبي ، وعلى مصر يزيد بن حاتم . ونائب خراسان حميد بن قحطبة ، ونائب سجستان معن بن زائدة . وغزا الصائفة فيها عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد .

وفيها توفي حنظلة بن أبي سفيان ، وعبد الله بن عون ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، صاحب السيرة النبوية التي جمعها وجعلها علماً يهتدى به ، ونفراً يستجلى به ، والناس كلهم عيال عليه في ذلك ، كما قال الشافعي وغيره من الأئمة .

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عن إمرة مصر يزيد بن حاتم وولاهها محمد بن سعيد ، وبعث إلى نائب إفريقية وكان قد بلغه أنه عصي وخالف ، فلما جيء به أمر بضرب عنقه . وعزل عن البصرة جابر ابن زيد الكلبي وولاهها يزيد بن منصور . وفيها قتلت الخوارج معن بن زائدة بسجستان . وفيها توفي عباد بن منصور ، ويونس بن يزيد الأيلي .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة

وفيها غضب المنصور على كاتبه أبي أيوب المورياني وسجنه وسجن أخاه خالداً وبني أخيه الأربعة سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً ، وطالبهم بالأهوال الكثيرة . وكان سبب ذلك ما ذكره ابن عساکر في ترجمة أبي جعفر المنصور ، وهو أنه كان في زمن شببته قد ورد الموصل وهو فقير لا شيء له ولا معه شيء ، فأجر نفسه من بعض الملاحين حتى اكتسب شيئاً تزوج به امرأة ، ثم جعل يعدها ويمنيها أنه من بيت سيصير الملك إليهم سريعاً ، فانفق حبلها منه ، ثم تطلبه بنو أمية فهرب عنها

وتركها حاملاً ، ووضع عندها رقعة فيها نسبته ، وأنه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأمرها إذا بلغت أمره أن تأتيه ، وإذا ولدت غلاماً أن تسميه جعفرآ . فولدت غلاماً فسمته جعفرآ . ونشأ الغلام فتعلم الكتابة وغوى العربية والأدب ، وأتقن ذلك إتقاناً جيداً ، ثم آل الأمر إلى بني العباس ، فسألت عن السفاح فاذا هو ليس صاحبها ، ثم قام المنصور وصار الولد إلى بغداد فاختلط بكتّاب الرسائل فأعجب به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الانشاء للمنصور ، وحظى عنده وهدمه على غيره ، فاتفق حضوره معه بين يدي الخليفة فجعل الخليفة يلاحظه ، ثم بعث يوماً الخادم ليأتيه بكتاب فدخل ومعه ذلك الغلام ، فكتب بين يدي المنصور كتاباً وجعل الخليفة ينظر إليه ويتأمله ، ثم سأله عن اسمه فأخبره أنه جعفر ، فقال : ابن من ؟ فسكت الغلام ، فقال : مالك لا تتكلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن من خبري كيت وكيت ، فتغير وجه الخليفة ثم سأله عن أمه فأخبره ، وسأله عن أحوال بلد الموصل فجعل يخبره والغلام يتعجب . ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه وقال : أنت ابني . ثم بعثه بعقد ثمين ومال جزيل وكتاب إلى أمه يعلمها بحقيقة الأمر وحال الولد . وخرج الغلام ومعه ذلك من باب سر الخليفة فأحرز ذلك ثم جاء إلى أبي أيوب فقال : ما بطأ بك عند الخليفة ؟ فقال : إنه استكتبني في رسائل كثيرة ، ثم تقاولا ، ثم فارقه الغلام مغضباً ونهض من فوره فاستأجر إلى الموصل ليعلم أمه ويحملها وأهلها إلى بغداد ، إلى أبيه الخليفة . فسار مراحل ، ثم سأل عنه أبو أيوب فقيل سافر فظن أبو أيوب أنه قد أفشى شيئاً من أسرارهِ إلى الخليفة وفر منه ، فبعث في طلبه رسولا وقال : حيث وجدته فرده على . فسار الرسول في طلبه فوجده في بعض المنازل فخنقه وألقاه في بئر وأخذ ما كان معه فرجع به إلى أبي أيوب . فلما وقف أبو أيوب على الكتاب أسقط في يده وندم على بعثه خلفه . وانتظر الخليفة عود ولده إليه واستبظأه وكشف عن خبره فاذا رسول أبي أيوب قد لحقه وقتله . فحينئذ استحضر أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة ، وما زال في العقوبة حتى أخذ جميع أمواله وحواصله ثم قتله ، وجعل يقول : هذا قتل حبيبي . وكان المنصور كلما ذكر ولده حزن عليه حزناً شديداً .

وفيها خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية . فاجتمع منهم ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً ، ما بين فارس وراجل ، وعليهم أبو حاتم الانمطي ، وأبو عباد . وانضم إليهم أبو قرّة الصفري في أربعين ألفاً ، فقاتلوا نائب إفريقية فهزموا جيشه وقتلوه ، وهو عمر بن عثمان بن أبي صفة الذي كان نائب السند كما تقدم ، قتله هؤلاء الخوارج رحمه الله . وأكثرت الخوارج الفساد في البلاد ، وقتلوا الحرّيم والأولاد . وفيها ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً ، حتى كانوا يستمينون على رفعها من داخلها بالقضب ، فقال أبو دلامة الشاعر في ذلك :

وكنا نرجى من إمام زيادة * فزاد الامام المرتضى في القلائس
 تراها على هام الرجال كأنها * دنان يهود جلت بالبرانس
 وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجورى فأسر خلقاً كثيراً من الروم يذيف على سنة
 آلاف أسير، وغنم أموالاً جزيلة . وحج بالناس المهدي بن المنصور [وهو ولي العهد الملقب بالمهدي
 وكان على نيابة مكة والطائف محمد بن إبراهيم ، وعلى المدينة الحسن بن زيد وعلى الكوفة محمد بن
 سليمان وعلى البصرة يزيد بن منصور ، وعلى مصر محمد بن سعيد . وذكر الواقدي أن يزيد بن
 منصور كان ولاء المنصور في هذه السنة اليمن . فإله أعلم] (١) .
 وفيها توفي أبان بن صمعة ، وأسامة بن زيد اللبثي ، وثور بن يزيد الحمصي ، والحسن بن عمارة ،
 وقطر بن خليفة ، ومعمرو وهشام بن الغازي والله أعلم .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

فيها دخل المنصور بلاد الشام وزار بيت المقدس وجيز يزيد بن حاتم في خمسين ألفاً وولاه بلاد
 إفريقية ، وأمره بقتال الخوارج ، وأنفق على هذا الجيش نحواً من ثلاث وستين ألف درهم ، وغزا
 الصائفة زفر بن عاصم الهلالي . وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم . ونواب البلاد والأقاليم
 المذكورون في التي قبلها ، سوى البصرة فعلها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان . وفيها توفي أبو
 أيوب الكاتب وأخوه خالد ، وأمر المنصور ببني أخيه أن تقطع أيديهم وأرجلهم ثم تضرب بعد
 ذلك أعناقهم ففعل ذلك بهم . وفيها توفي :

أشعب الطامع

وهو أشعب بن جبير أبو العلاء ، ويقال أبو إسحاق المدني ، ويقال له أبو حميدة . وكان أبوه
 مولى لآل الزبير ، قتله المختار ، وهو خال الواقدي . روى عن عبد الله بن جعفر أن رسول الله
 (س) كان يتختم في اليمن . وأبان بن عثمان ، وسالم وعكرمة ، وكان ظريفاً ماجناً يحبه أهل زمانه
 لخلاصته وطمعه ، وكان حميد الغناء ، وقد وفد على الوليد بن يزيد دمشق فترجمه ابن عساكر ترجمة
 ذكر عنه فيها أشياء مضحكة ، وأسند عنه حديثين . وروى عنه أنه سئل يوماً أن يحدث فقال :
 حدثني عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله (س) قال : « خصلتان من عمل بهما دخل الجنة » ثم
 سكت فقيل له : وما هما ؟ فقال : نسي عكرمة الواحدة ونسيت أنا الأخرى . وكان سالم بن عبد الله
 ابن عمر يستخفه ويستحليه ويضحك منه ويأخذه معه إلى الغابة ، وكذلك كان غيره من أكابر
 الناس . وقال الشافعي : عبث الولدان يوماً بأشعب فقال لهم : إن ههنا أناساً يفرقون الجوز - ليتردم

(١) زيادة من المصرية .

عنه - فتسارع الصبيان إلى ذلك ، فلما رأهم مسرعين قال : لعله حق فتبعهم . وقال له رجل : ما بلغ من طمعك ؟ فقال : ما زفت عروس بالمدينة إلا رجوت أن تزف إلى فأكسح داري وأنظف أبي وأكنس بيتي . واجتاز يوماً برجل يصنع طبقاً من قش فقال له : زد فيه طورا أو طورين لعله أن يهدي يوماً لنا فيه هدية . وروى ابن عساكر أن أشعب غنى يوماً لسالم بن عبد الله بن عمر قول بعض الشعراء :

مضين بها والبدر يشبه وجهها * مطهرة الأثواب والدين وإفر
لها حسب زك وعرض مهنب * وعن كل مكروه من الأمر زاجر
من الخفرات البيض لم تلق ربيبة * ولم يستملها عن تقي الله شاعر
فقال له سالم : أحسنت فردنا . فغناه :

ألت بنا والليل داج كأنه * جناح غراب عنه قد نفص القطرا
فقلت أطرار ثوى في رحالنا * وما علمت ليلى سوى ربحها عطرا

فقال له : أحسنت ولولا أن يتحدث الناس لأجزات لك الجائزة ، وإنك من الأمر لمبكان .
وفيها توفي جعفر بن برقان ، والحكم بن أبان ، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر ، وقرّة بن خالد ، وأبو عمرو بن العلاء أحد أئمة القراء ، واسمه كنيته ، وقيل اسمه ريان والصحيح الأول .

وهو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري ، وقيل غير ذلك في نسبه ، كان علامة زمانه في الفقه والنحو وعلم القراءات ، وكان من كبار العلماء العاملين ، يقال إنه كتب ملء بيت من كلام العرب ، ثم تزهّد فأحرق ذلك كله ، ثم راجع الأمر الأول فلم يكن عنده إلا ما كان يحفظه من كلام العرب ، وكان قد لقي خلقاً كثيراً من أعراب الجاهلية ، كان مقدماً أيام الحسن البصري ومن بعده . ومن اختياراته في العربية قوله في تفسيره الغرة في الجنين : إنها لا يقبل فيها إلا أبيض غلاماً كان أو جارية . فهم ذلك من قوله عليه السلام : « غرة عبد أو أمة » ولو أريد أي عبد كان أو جارية لما قيده بالغرة ، وإنما الغرة البياض . قال ابن خلكان : وهذا غريب ولا أعلم هل يوافق قول أحد من الأئمة المجتهدين أم لا . وذكر عنه أنه كان إذا دخل شهر رمضان لا ينشد بيتاً من الشعر حتى ينسلخ ، وإنما كان يقرأ القرآن وأنه كان يشتري له كل يوم كوزاً جديداً وريحاناً طرياً ، وقد صحبه الأصمعي نحواً من عشر سنين .

كانت وفاته في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وخمسين ، وقيل تسع وخمسين فله أعلم . وقد قارب التسعين ، وقيل إنه جاوزها فله أعلم ، وقبره بالشام وقيل بالكوفة فله أعلم .

وقد روى ابن عساكر في ترجمة صالح بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده عبد الله

ابن عباس مرفوعاً «لأن بر بنی أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جرو كلب خیر له من أن بر بنی وولدآ لصنیه». وهذا منكر جداً وفي إسناده نظر. ذكره من طريق تمام عن خيشمة بن سليمان عن محمد ابن عوف الحصى عن أبي المغيرة عبد الله بن السمط عن صالح به، وعبد الله بن السمط هذا لأعرس، وقد ذكره شيخنا الحافظ الذهبي في كتابه الميزان وقال: روى عن صالح بن علي حديثاً موضوعاً.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

فيها دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية فافتتحها عوداً على بدء، وقتل من كان فيها ممن تغلب عليها من الخوارج، وقتل أمراءهم وأمير كبراهم وأذل نشرافهم واستبدل أهل تلك البلاد بالخوارج أمناً وسلاماً، وبالأهانة كرامة، وكان من جملة من قتل من أمراءهم أبو حاتم وأبو عباد الخارجيان. ثم لما استقامت له وبه الأمور في البلدان دخل بمد ذلك بلاد القيروان فهدمها وأقر أهلها وقرر أمورها وأزال محنورها والله سبحانه أعلم.

بناء الراققة وهي المدينة المشهورة

وفيها أمر المنصور ببناء الراققة على منوال بناء بغداد في هذه السنة، وأمر فيها ببناء سور وعمل خندق حول الكوفة، وأخذ ما غرم على ذلك من أموال أهلها، من كل إنسان من أهل الديار أربعين درهماً. وقد فرضها أولاً خمسة دراهم، خمسة دراهم، ثم جباها أربعين أربعين، فقال في ذلك بعضهم يا قومي ما رأينا * في أمير المؤمنين * قسم الخمسة فينا * وجبانا أربعيناً
وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي. وفيها طلب ملك الروم الصلح من المنصور على أن يحمل إليه الجزية. وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه أموالاً كثيرة. وفيها عزل محمد بن سليمان بن علي عن إمرة الكوفة، فقيل لأموار بلغته عنه في تعاطي منكرات، وأمور لا تليق بالعمل، وقيل تقتله محمد بن أبي العوجاء. وقد كان ابن أبي العوجاء هذا زنديقاً. يقال إنه لما أمر بضرب عنقه اعترف على نفسه بوضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم فيها الحلال، ويصوم الناس يوم الفطر ويفطرون في أيام الصيام، فأراد المنصور أن يجعل قتله له ذنباً فعزله به، وإنما أراد أن يقيد منه، فقال له عيسى بن موسى: يا أمير المؤمنين لا تعزله بهذا ولا تقتله به، فانه إنما قتله على الزندقة، ومتى عزلته به شكره العامة وذموك، فتركه حينئذ عزله وولى مكانه على الكوفة عمرو بن زهير. وفيها عزل عن المدينة الحسن بن زيد وولى عليها عمه عبد الصمد بن علي، وجعل معه فليح بن سليمان مشرفاً عليه. وعلى إمرة مكة محمد بن إبراهيم بن محمد، وعلى البصرة الهيثم بن معاوية، وعلى مصر محمد بن سعيد، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم. وفيها توفي صفوان

ابن عمرو وعثمان بن أبي العاتكة الدمشقيان ، وعثمان بن عطاء ، ومسر بن كدام .

حماد الراوية

وهو ابن أبي ليلى ميسرة - ويقال سابور - بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي ، مولى بكير ابن زيد الخليل الطائي ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتنا ، وهو الذي جمع السبع المعلقة الطوال ، وإنما سمي الراوية لكثرة روايته الشعر عن العرب ، اختبره الوليد بن يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين في ذلك فأنشده تسماً وعشرين قصيدة على حروف المعجم ، كل قصيدة نحواً من مائة بيت ، وزعم أنه لا يسمي شاعر من شعراء العرب إلا أنشد له مالا يحفظه غيره . فأطلق له مائة ألف درهم . وذكروا أبو محمد الحريري في كتابه درة الغواص ، أن هشام بن عبد الملك استدعاه من العراق من نائبه يوسف بن عمر ، فلما دخل عليه إذا هو في دارقوراء مرخنة بالرخام والذهب ، وإذا عنده جاريتان حسنتان جداً ، فاستنشده شيئاً فأنشده ، فقال له : سل حاجتك : فقال : كائنة ما كانت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : وما هي ؟ فقال تطلق لي إحدى هاتين الجاريتين . فقال : هما وما عليهما لك ، وأخلاه في بعض داره وأطلق له مائة ألف درهم . هذا ملخص الحكاية ، والظاهر أن هذا الخليفة إنما هو الوليد بن يزيد ، فإنه ذكر أنه شرب معه الخمر ، وهشام لم يكن يشرب . ولم يكن نائبه على العراق يوسف بن عمر ، إنما كان نائبه خالد بن عبد الله القسري ، وبعده يوسف بن عمر بن عبد العزيز . كانت وفاة حماد في هذه السنة عن ستين سنة . قال ابن خلكان : وقيل إنه أدرك أول خلافة المهدي في سنة ثمان وخمسين فأنشده ما علم .

وفيها قتل حماد مجرد على الزندقة . وهو حماد بن عمر بن يوسف بن كليب الكوفي ، ويقال إنه واسطي ، مولى بني سواد ، وكان شاعراً ماجناً ظريفاً زنديقاً متهماً على الإسلام ، وقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يشتهر إلا في أيام بني العباس ، وكان بينه وبين بشار بن برد مهاجاة كثيرة ، وقد قتل بشار هذا على الزندقة أيضاً كما سيأتي ، ودفن مع حماد هذا في قبره ، وقيل إن حماداً مجرد مات سنة ثمان وخمسين ، وقيل إحدى وستين ومائة فأنشده ما علم .

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة

فيها ظفر الهيثم بن معاوية نائب المنصور على البصرة ، بعمره بن شداد الذي كان عاملاً لابراهيم بن محمد على فارس ، فقبل أمر فقتل يدها ورجلاه وضربت عنقه ثم صلب . وفيها عزل المنصور الهيثم بن معاوية هذا الذي فعل هذه الفعلة عن البصرة وولى عليها قاضيها سوار بن عبد الله ، فجمع له بين القضاء والصلاة ، وجعل على شرطتها وأحداثها سعيد بن دعلج ، ورجع الهيثم بن معاوية قاتل عمرو بن شداد إلى بغداد فمات فيها فجأة في هذه السنة ، وهو على بطن جاريتة له ، وصلى عليه

المنصور ودفن في مقابر بني هاشم ، ويقال إنه أصابته دعوة عمر بن شداد الذي قتله تلك القتلة ، فليتنق العبدُ الظلمَ .

وحج بالناس العباس بن محمد أخو المنصور . ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وعلى فارس والأهواز وگور دجلة عمارة بن حمزة ، وعلى کرمان والسند هشام بن عمرو . وفيها توفي حمزة الزيات في قول . وهو أحد القراء المشهورين والعباد المذكورين ، وإليه تنسب المدود الطويلة في القراءة اصطلاحاً من عنده ، وقد تكلم فيه بسببها بعض الأئمة وأنكروها عليه . وسعيد بن أبي عروبة ، وهو أول من جمع السنن في قول ، وعبد الله بن شاذب ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ، وعمر بن ذر .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

فيها بنى المنصور قصره المسمى بالخلد في بغداد ، تفاؤلاً بالتخليد في الدنيا ، فعند كماله مات وخرب القصر من بعده ، وكان المستحث في عمارته أبان بن صدقة ، والربيع مولى المنصور وهو حاجبه . وفيها حول المنصور الأسواق من قرب دار الامارة إلى باب الكرخ . وقد ذكرنا فيما تقدم سبب ذلك . وفيها أمر بتوسعة الطرقات . وفيها أمر بعمل جسر عند باب الشعير . وفيها استعرض المنصور جنده وهم ملبسون السلاح وهو أيضاً لابس سلاحاً عظيماً ، وكان ذلك عند دجلة . وفيها عزل عن السند هشام بن عمرو وولى عليها سعيد بن الخليل . وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي فأوغل في بلاد الروم ، وبث سنانا مولى البطل مقدمة بين يديه ففتح حصونا وسبي وغنم . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي . ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي الحسين بن واقد ، والامام الجليل علاءة الوقت أبو عمرو وعبد الرحمن بن عمرو والأوزاعي فقيه أهل الشام وإمامهم . وقد بقي أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتين وعشرين سنة .

شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد أبو عمرو الأوزاعي . والأوزاع بطن من حمير وهو من أنفسهم ، قاله محمد بن سعد . وقال غيره : لم يكن من أنفسهم وإنما نزل في محلة الأوزاع ، وهي قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق ، وهو ابن عم يحيى بن عمرو الشيباني . قال أبو زرعة : وأصله من سى السند فنزل الأوزاع فغلب عليه النسبة إليها . وقال غيره : ولد بيمليك ونشأ بالبقيع يوماً فحجر أمه ، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد ، وتأدب بنفسه ، فلم يكن في أبناء الملوك واخلافا . والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه ، ولا أروع ولا أعلم ، ولا أفصح ولا أوفر ولا أحلم ، ولا أكثر صنفاً منه ، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه ، من حسنها ،

بنا

وكان يمانى الرسائل والكتابة ، وقد اكتب مرة في بئث إلى الإمامة فسمع الحديث من يحيى بن
أبي كثير وانقطع إليه فأرشدته إلى الرحلة إلى البصرة ليرى من الحسن وابن سيرين . فملأ إليها
فوجد الحسن قد توفي من شهرين ووجد ابن سيرين مريضاً ، فجعل يتردد لعبادته ، فقوى المرض
به ومات ولم يسمع منه الأوزاعي شيئاً . ثم جاء قنزل دمشق بحملة الأوزاع خارج باب الفراءيس ،
وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الإسلام . وقد
أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم ، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين ، كمالك بن أنس والثوري
والزهري ، وهو من شيوخه . وأثنى عليه غير واحد من الأئمة ، وأجمع المسلمون على عدلته وإمامته .
قال مالك : كان الأوزاعي إماماً يقتدى به . وقال سفیان بن عيينة وغيره : كان الأوزاعي إمام
أهل زمانه ، وقد حج مرة فدخل مكة وسفیان الثوري أخذ بزمام جملة ، ومالك بن أنس يسوق به ،
والثوري يقول : افسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة ، وجلسا بين يديه يأخذان عنه . وقد
تذاكر مالك والأوزاعي مرة بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر ، ومن العصر حتى صليا المغرب ،
فغمره الأوزاعي في المغازي ، وغمره مالك في الفقه . أو في شيء من الفقه . وتناظر الأوزاعي
والثوري في مسجد الخيف في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه . فاحتج الأوزاعي على الرفع
في ذلك بما رواه عن الزهري عن سالم عن أبيه « أن رسول الله (س) كان يرفع يديه في الركوع
والرفع منه » . واحتج الثوري على ذلك بحديث يزيد بن أبي زياد . ففضب الأوزاعي وقال :
تعارض حديث الزهري بحديث يزيد بن أبي زياد وهو رجل ضعيف ؟ فحار وجه الثوري ، فقال
الأوزاعي : لعلك كرهت ما قلت ؟ قال : نعم . قال : قم بنا حتى نلتعن عند الركن أينما على الحق .
فسكت الثوري . وقال هقل بن زياد : أفتى الأوزاعي في سبعين ألف مسألة بحدثننا . وأخبرنا . وقال
أبوزرعة : روى عنه ستون ألف مسألة . وقال غيرهما : أفتى في سنة ثلاث عشرة ومائة وعمره إذ
ذاك خمس وعشرون سنة ، ثم لم يزل يفتي حتى مات وعقله ذاك . وقال يحيى القطان عن مالك :
اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلت : أيهم أرجح ؟ قال : الأوزاعي . وقال محمد بن
عجلان : لم أر أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي . وقال غيره : ما روي الأوزاعي ضاحكاً مقهقها
قط ، ولقد كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه ، وما رأيناه يبكي في مجلسه
قط وكان إذا خلى بكى حتى يرحم . وقال يحيى بن معين : العلماء أربعة : الثوري ، وأبو حنيفة ،
ومالك ، والأوزاعي . قال أبو حاتم : كان ثقة متبعاً لما سمع . قالوا : وكان الأوزاعي لا يلحن في
كلامه ، وكانت كتبه ترد على المنصور فينظر فيها ويتأملها ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها .

بببب

وقد قال المنصور يوماً لأحظى كتابه عنده - وهو سليمان بن مجالد - : ينبغي أن نجيب الأوزاعي على ذلك دائماً ، لنستعين بكلامه فيما نكتب به إلى الآفاق إلى من لا يعرف كلام الأوزاعي . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على مثل كلامه ولا على شيء منه . وقال الوليد بن مسلم : كان الأوزاعي إذا صلى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس ، وكان يثر عن السلف ذلك . قال : ثم يقومون فيتذاكرون في الفقه والحديث . وقال الأوزاعي : رأيت رب العزة في المنام فقال : أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقلت : بفضلك أي رب . ثم قلت : يا رب أمتي على الإسلام . فقال : وعلى السنة . وقال محمد بن شعيب بن شابور : قال لي شيخ بجامع دمشق : أناميت في يوم كذا وكذا . فلما كان في ذلك اليوم رأيته في صحن الجامع يتغلى ، فقال لي : اذهب إلى سرير الموتى فحرزه لي عندك قبل أن تسبق إليه . فقلت : ماتقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، وإني رأيت كأن قائلاً يقول فلان قدرى ، وفلان كذا وعثمان بن العاتكة نعم الرجل ، وأبو عمرو الأوزاعي خير من يمشي على وجه الأرض ، وأنت ميت في يوم كذا وكذا . قال محمد بن شعيب : فاجاء الظهر حتى مات وصلينا عليه بعدها وأخرجت جنازته . ذكر ذلك ابن عساكر . وكان الأوزاعي رحمه الله كثير العبادة حسن الصلاة ورعاً ناسكاً طويل الصمت ، وكان يقول : من أطال القيام في صلاة الليل هون الله عليه طول القيام يوم القيامة ، أخذ ذلك من قوله تعالى [ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً] وقال الوليد بن مسلم : ما رأيت أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي في العبادة . وقال غيره : حج فنام على الراحة ، إنما هو في صلاة ، فاذا نَسَّ استند إلى القتب ، وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى . ودخلت امرأة على امرأة الأوزاعي فرأت الحصر الذي يصلي عليه مبلولاً فقالت لها : لعل الصبي بال هينا . فقالت : هذا أثر دموع الشيخ من بكائه في سجوده ، هكذا يصبح كل يوم . وقال الأوزاعي : عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس ، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه ، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم . وقال أيضاً : اصبر على السنة وقف حيث يقف القوم ، وقل ما قالوا وكف عما كفوا ، وليسمعك ما وسعهم . وقال : العلم ما جاء عن أصحاب محمد ، وما لم يجيء عنهم فليس بعلم . وكان يقول : لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلب مؤمن . وإذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجمل وسد عنهم باب العلم والعمل . قالوا : وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخامهم ، وكان له في بيت المال على الخلفاء أقطاع صار إليه من بني أمية وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعة آلاف دينار ، فلم يمك منها شيئاً ، ولا اقتنى شيئاً من عقار ولا غيره ، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه ، بل

كان ينفق ذلك كله في سبيل الله وفي الفقراء والمساكين .

ولما دخل عبد الله بن علي - عم السفاح الذي أجلى بني أمية عن الشام ، وأزال الله سبحانه دولتهم على يده - دمشق فطلب الأوزاعي فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه . قال الأوزاعي : دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسودة عن يمينه وشماله ، معهم السيوف مصلحة - والعمد الحديد - فسلمت عليه فلم يرد ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال : يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد ؟ أجهاداً ورباطاً هو ؟ قال : فقلت : أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله (ص) ، يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . قال فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية ؟ فقلت : قال رسول الله (ص) : « لا يجلب دم امرئ مسلم إلا بأحدي ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . فنكت بها أشد من ذلك ثم قال : ما تقول في أموالهم ؟ فقلت : إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالاً فلا تجلب لك إلا بطريق شرعي . فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ثم قال : ألا تولىك القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يشقون علي في ذلك ، وإني أحب أن يتم ما ابتدؤني به من الاحسان . فقال : كأنك تحب الانصراف ؟ فقلت : إن ورأى حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن ، وقلوبهن مشغولة بسببي . قال : وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي ، فأمرني بالانصراف . فلما خرجت إذا برسوله من ورأى ، وإذا معه مائتا دينار ، فقال يقول لك الأمير : استنق هذه . قال : فتصدقت بها ، وإنما أخذتها خوفاً . قال : وكان في تلك الأيام الثلاثة صائماً فيقال إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده .

قالوا : ثم رحل الأوزاعي من دمشق فتنزل بيروت مرابطاً بأهله وأولاده ، قال الأوزاعي : وأعجبتني في بيروت أني مرت بقبورها فاذا امرأة سوداء في القبور فقلت لها : أين العمارة ياهنتاه ؟ فقالت : إن أردت العمارة فهي هذه - وأشارت إلى القبور - وإن كنت تريد الخراب فأمامك - وأشارت إلى البلد - فعزمت على الإقامة بها . وقال محمد بن كثير : سمعت الأوزاعي يقول : خرجت يوماً إلى الصحراء فاذا رجل جراد وإذا شخص راكب على جرادة منها وعليه سلاح الحديد ، وكلما قال بيده هكذا إلى جهة مال الجراد مع يده ، وهو يقول : الدنيا باطل باطل باطل ، وما فيها باطل

باطل باطل . وقال الأوزاعي : كان عندنا رجل يخرج يوم الجمعة إلى الصيد ولا يفتنظر الجمعة فحسف بيغلته فلم يبق منها إلا أذناها ، وخرج الأوزاعي يوماً من باب مسجد بيروت وهناك دكان فيه رجل يبيع الناطف وإلى جانبه رجل يبيع البصل وهو يقول : يا بصل أحلى من العسل ، أو قال أحلى من الناطف . فقال الأوزاعي : سبحان الله ! أيظن هذا أن شيئاً من الكذب يباح ؟ فكان هذا ما يرى في الكذب بأساً .

وقال الواقدي قال الأوزاعي : كنا قبل اليوم نضحك ونلمب ، أما إذ صرنا أئمة يقتدى بنا فلا نرى أن يسعنا ذلك ، وينبغي أن نتحفظ . وكتب إلى أخ له : أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب ، وإنه يسار بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وأن يكون آخر العهد بك والسلام .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إدريس سمعت أبا صالح - كاتب الليث - يذكر عن المهمل بن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته : أيها الناس ، تقووا بهذه النعم التي أصبحت فيها على الحرب من نار الله الموقدة ، التي تطلع الأفتدة ، فانكم في دار النواء فيها قليل ، وأنتم عما قليل عنها راحلون ، خلافت بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الدنيا آتقها وزهرتها ، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً ، وأعظم أحلاماً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فخذدوا الجبال وجابوا الصخر بالواد ، وتنقلوا في البلاد ، مؤيدين ببطش شديد ، وأجساد كالعماد ، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت آثارهم ، وأخربت منازلهم وديارهم ، وأنست ذكركم ، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً ؟ كانوا بلهو الأمل آمنين ، وعن ميقات يوم موتهم غافلين ، فأبوا إياب قوم ناديين ، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بيانا من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم في ديارهم جائعين ، وأصبح الباقون المتخلفون يبصرون في نعمة الله وينظرون في آثار نعمته ، وزوال نعمته عن تقديمهم من المالكين ينظرون والله في مساكن خالية خاوية ، قد كانت بالعز محفوفة ، وبالنعم معروفة ، والقلوب إليها مصروفة ، والأعين نحوها ناظرة ، فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم ، وعبرة لمن يخشى . وأصبحتم بدم في أجل منقوص ودنيا منقوصة ، في زمان قد ولي عفوه وذهب رخاؤه وخيره وصفوه ، فلم يبق منه إلا حمة شر ، وصبابة كدر ، وأهاويل عبر ، وعقوبات غير ، وإرسال قن ، وتتابع زلازل ، وردالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر ، يضيقون الديار ويغلون الأسعار بما يرتكبونه من العار والشنار ، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل ، وغره طول الأجل ، ولعبت به الأماني ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن إذا دعى بدر ، وإذا نهى انتهى ، وعقل مثواه فهد لنفسه .

وقد اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين دخل الشام ووعظه وأحبه المنصور وعظمه ، ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد فأذن له ، فلما خرج قال المنصور للربيع

الحاجب : الحقه فاسأله لم كره لبس السواد ؟ ولا تعلمه أنى قلت لك . فسأله الربيع فقال : لأنى لم أرمحما أحرم فيه ، ولا مينا كفن فيه ، ولا عروسا جلست فيه ، فلهذا أكرهه . وقد كان الأوزاعى فى الشام معظما مكرما أمره أعز عندهم من أمر السلطان ، وقد هم به بعض الولاة مرة فقال له أصحابه : دعه عنك والله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك . ولما مات جلس على قبره بعض الولاة فقال : رحمك الله ، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذى ولائى - يعنى المنصور - وقال ابن أبى العشرين : مات الأوزاعى حتى جلس وحده وسمع شتمه بأذنه .

وقال أبو بكر بن أبى خيشمة : حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى قال : كنت جالسا عند الثورى فجاءه رجل فقال : رأيت كأن ربحانة من المغرب - يعنى قلعت - . قال : إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعى . فكتبوا ذلك فجاء موت الأوزاعى فى ذلك اليوم . وقال أبو مسهر : بلغنا أن سبب موته أن امرأته أغلقت عليه باب حمام فمات فيه ، ولم تكن عامدة ذلك ، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعثت رقبة . قال : وما خلف ذهباً ولا فضة ولا عقاراً ، ولا متاعاً إلا ستة وثمانين ، فضلت من عطائه . وكان قد اكتب فى ديوان الساحل . وقال غيره : كان الذى أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام ، أغلقه وذهب لحاجة له ثم جاء ففتح الحمام فوجده ميتا قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة رحمه الله .

قلت : لا خلاف أنه مات ببيروت مرابطاً ، واختلفوا فى سنه ووفاته ، فروى يعقوب بن سفيان عن سلمة قال قال أحمد : رأيت الأوزاعى وتوفى سنة خمسين ومائة . قال العباس بن الوليد البيرونى : توفى يوم الأحد أول النهار لليلتين بقينا من صفر سنة سبع وخمسين ومائة ، وهو الذى عليه الجمهور وهو الصحيح ، وهو قول أبى مسهر وهشام بن عمار والوليد بن مسلم - فى أصح الروايات عنه - ويحيى بن معين ودحيم وخليفة بن خياط وأبى عبيد وسعيد بن عبد العزيز وغير واحد . قال العباس بن الوليد : ولم يبلغ سبعين سنة . وقال غيره : جاوز السبعين ، والصحيح سبع وستون سنة ، لأن ميلاده فى سنة ثمان وثمانين على الصحيح . وقيل إنه ولد سنة ثلاث وسبعين ، وهذا ضعيف . وقد رآه بعضهم فى المنام فقال له : دلنى على عمل يقربنى إلى الله . فقال : ما رأيت فى الجنة درجة أعلا من درجة العلماء العاملين ، ثم المحزونين .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

فبها تكامل بناء قصر المنصور المسمى بالخلد وسكنه أياماً يسيرة ثم مات وتركه ، وبها مات طاغية الروم . وبها وجه المنصور ابنه المهدي إلى الرقة وأمره بعزل موسى بن كعب عن الموصل ، وأن يولى عليها خالد بن برمك ، وكان ذلك بعد نكتة غريبة اتفقت ليحيى بن خالد ، وذلك أن

المنصور كان قد غضب على خالد بن برمك ، وألزمه بحمل ثلاثة آلاف ألف ، فضاقت ذرعا بذلك ، ولم يبق له مال ولا حال وعجز عن أكثرها ، وقد أجله ثلاثة أيام ، وأن يحمل ذلك في هذه الثلاثة الأيام وإلا قدمه هدر فجعل يرسل ابنه يحيى إلى أصحابه من الأمراء يستقرض منهم ، فكان منهم من أعطاه مائة ألف ، ومنهم أقل وأكثر . قال يحيى بن خالد : فبينما أنا ذات يوم من تلك الأيام الثلاثة على جسر بغداد ، وأنا مهموم في تحصيل ما طلب منا مما لا طاقة لنا به ، إذ وثب إلى زاجر من أولئك الذين يكونون عند الجسر من الطارقة ، فقال لي : ابشر ، فلم ألتفت إليه ، فتقدم إلى حق أخذ بلجام فرسى ثم قال لي : أنت مهموم ، ليفرجن الله همك ولتبرن غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك ، فان كان ما قلت لك حقاً فلي عليك خمسة آلاف . فقلت : نعم . ولو قال خمسون ألفاً لقلت نعم ، لبعد ذلك عندي . وذهبت لشأنى ، وقد بقي علينا من الحمل ثلاثمائة ألف فورد الخبر إلى المنصور بانتقاض الموصل وانتشار الأكراد فيها ، فاستشار المنصور الأمراء من يصلح الموصل ؟ فأشار بعضهم بخالد بن برمك ، فقال له المنصور : أو يصلح لذلك بعد ما فعلنا به ؟ فقال : نعم وأنا الضامن أنه يصلح لها ، فأمر باحضاره فولاه إياها ووضع عنه بقية ما كان عليه ، وعقد له اللواء ، وولى ابنه يحيى أذربيجان وخرج الناس في خدمتهما . قال يحيى : فررنا بالجسر فنار لي ذلك الزاجر فطالبني بما وعدته به ، فأمرت له به فقبض خمسة آلاف .

وفي هذه السنة خرج المنصور إلى الحج فساق الهدى معه ، فلما جاوز الكوفة بمراحل أخذه وجعه الذي مات به وكان عنده سوء مزاج فاشتد عليه من شدة الحر وركوبه في الهواجر ، وأخذته إسهال وأفرط به ، فقوى مرضه ، ودخل مكة فتوفي بها ليلة السبت لست مضين من ذى الحجة ، وصلى عليه ودفن بكدا عند ثنية باب المعلاة التي بأعلام مكة ، وكان عمره يومئذ ثلاثاً وربعاً وأربعين وخمساً وستين ، وقيل إنه بلغ ثمانياً وستين سنة فله أعلم . وقد تم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من القواد ورؤس بني هاشم ، ثم دفن . وكان الذي صلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي ، وهو الذي أقام للناس الحج في هذه السنة .

ترجمة المنصور

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر المنصور . وكان أكبر من أخيه أبي العباس السفاح ، وأمه أم ولد اسمها سلامة . روى عن جده عن ابن عباس « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتختم في يمينه » أوردته ابن عساكر من طريق محمد بن إبراهيم السلمى عن المأمون عن الرشيد عن المهدي عن أبيه المنصور به ، بويغ له بالخلافة بعد أخيه في ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وعمره يومئذ إحدى وأربعون سنة ، لأنه ولد في سنة خمس وتسعين

على المشهور في صفر منها بالحجيمة من بلاد البلقاء ، وكانت خلافته ثنتين وعشرين سنة إلا أياماً ، وكان أسمر اللون موفر اللثة خفيف اللحية ، رحب الجبهة ، أفتى الأنف ، أعين كأن عينيه لسانان ناطقان ، يخالطه أبهة الملك ، وتقبله القلوب ، وتقبه العيون ، يعرف الشرف في مواضعه ، والعنف في صورته ، والليث في مشيته ، هكذا وصفه بعض من رآه . وقد صح عن ابن عباس أنه قال : « منا السفاح والمنصور » وفي رواية « حتى نسلها إلى عيسى بن مريم » . وقد روى مرفوعاً ولا يصح ولا وقفه أيضاً . وذكر الخطيب أن أمه سلامة قالت : رأيت حين حملت به كأنه خرج مني أسد فزار واقفاً على يديه ، فما بقي أسد حتى جاء فسجد له . وقد رأى المنصور في صفره مناما غريباً كان يقول : ينبغي أن يكتب في ألواح الذهب ، ويلق في أعناق الصبيان . قال : رأيت كأنى في المسجد الحرام وإذا رسول الله (س) في الكعبة والناس مجتمعون حولها ، فخرج من عنده مناد : أين عبد الله ؟ فقام أخى السفاح يتخطى الرجال حتى جاء باب الكعبة فأخذ بيده فأدخله إياها ، فما لبث أن خرج ومعه لواء أسود . ثم نودي أين عبد الله ؟ فقامت أنا وعمى عبد الله بن علي نستبق ، فسبقتني إلى باب الكعبة فدخلتها ، فاذا رسول الله (س) ، وأبو بكر وعمر وبلال ، فمقد لي لواء وأوصاني بأمنه وعمى عمامة كورها ثلاثة وعشرون كوراً ، وقال : « خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة » . وقد اتفق سجن المنصور في أيام بني أمية فاجتمع به نوبخت المنجم وتوسم فيه الرياسة فقال له : من تكون ؟ فقال : من بني العباس ، فلما عرف منه نسبه وكنيته قال : أنت الخليفة الذي تلى الأرض . فقال له : ويحك ماذا تقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، فضع لي خطك في هذه الرقعة أن تعطيني شيئاً إذا وليت . فكتب له ، فلما ولي أكرمه المنصور وأعطاه وأسلم نوبخت على يديه ، وكان قبل ذلك مجوسياً . ثم كان من أخص أصحاب المنصور . وقد حج المنصور بالناس سنة أربعين ومائة ، وأحرم من الحيرة ، وفي سنة أربع وأربعين ، وفي سنة سبع وأربعين . وفي سنة ثنتين وخسين ، ثم في هذه السنة التي مات فيها . وبني بغداد والرصافة والرافقة وقصره الخلد .

قال الربيع بن يونس الحاجب : سمعت المنصور يقول : الخلفاء أربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . والملوك أربعة معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، وأنا . وقال مالك : قال لي المنصور : من أفضل الناس بعد رسول الله (س) ؟ فقلت : أبو بكر . وعمر . فقال : أصبت وذلك رأى أمير المؤمنين . وعن إسماعيل البهرى قال سمعت المنصور على منبر عرفة يوم عرفة يقول : أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ورشده ، وخازنه على ماله أفسه بإرادته وأعطيه بأذنه ، وقد جعلني الله عليه قفلاً فان شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني عليه قفلني . فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي

وهبكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه ، إذ يقول : [اليوم أكملت لكم دينكم وأنعمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً] . أن يوفيني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والاحسان إليكم ويفتحني لاعطيائكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، فانه مسموع مجيب .

وقد خطب يوماً فاعترضه رجل وهو يثني على الله عز وجل ، فقال : يا أمير المؤمنين اذكر من أنت ذا كره ، واثق الله فيما تأتيه وتندره . فسكت المنصور حتى انتهى كلام الرجل فقال : أعوذ بالله أن أكون ممن قال الله عز وجل فيه [وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم] أو أن أكون جباراً عصياً ، أيها الناس ! إن الموعدة علينا نرات ومن عندنا نبتت . ثم قال للرجل : ما أظنك في مقاتلك هذه تريد وجه الله ، وإنما أردت أن يقال عنك وعظ أمير المؤمنين ، أيها الناس لا يغرنكم هذا فتفعلوا كفعله ثم أمر به فاحتفظ به وعاد إلى خطبته فأكملها ، ثم قال لمن هو عنده : أعرض عليه الدنيا فان قبلها فأعلمني ، وإن ردها فأعلمني ، فما زال به الرجل الذي هو عنده حتى أخذ المال ومال إلى الدنيا فولاه الحسبة والمظالم وأدخله على الخليفة في بزة حسنة ، وثياب وشارة وهيئة دنيوية ، فقال له الخليفة : ويحك ! لو كنت محتماً صريداً وجه الله بما قلت على رؤس الناس لما قبلت شيئاً مما أرى ، ولكن أردت أن يقال عنك إنك وعظت أمير المؤمنين ، وخرجت عليه ، ثم أمر به فضربت عنقه . وقد قال المنصور لابنه المهدي : إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة . والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعمو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه . وقال أيضاً : يا بني استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعمو ، والطاعة بالتأليف ، والنصر بالتواضع والرحمة للناس ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله .

وحضر عنده مبارك بن فضالة يوماً وقد أمر برجل أن يضرب عنقه وأحضر النطع والسيف ، فقال له مبارك : سمعت الحسين يقول قال رسول الله (س) : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم من كان أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » فأمر بالعمو عن ذلك الرجل . ثم أخذ يعدد على جلسائه عظيم جرائم ذلك الرجل وما صنعه . وقال الأصمعي : أتى المنصور برجل ليعاقبه فقال : يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والعمو فضل ، وتعود أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين ، وأدنى القسمين ، دون أرفع الدرجتين . قال فعفا عنه .

وقال الأصمعي : قال المنصور لرجل من أهل الشام : أحمد الله يا أعرابي الذي دفع عنكم الطاعون بولايتنا . فقال إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل ، ولا يتكم والطاعون . والحكايات في ذكر حلمه وعفوه كثيرة جداً . [ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة ، واذكر ليلة تمخض عن

يوم لاليلة بعده . قال : فأفهم المنصور قوله وأمر له بمال فقال : لو احتجت إلى مالك لما وعظنتك^(١) ودخل عمرو بن عبيد القدرى على المنصور فأكرمه وعظمه وقر به وسأله عن أهله وعياله ، ثم قال له : عظنى . فقرأ عليه سورة الفجر إلى [إن ربك لبالمرصاد] فبكى المنصور بكاء شديداً حتى كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل ذلك ، ثم قال له : زدنى . فقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صار لمن بعدك ، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة . فبكى المنصور أشد من بكائه الأول حتى اختلفت أجنفانه . فقال له سليمان بن مجالد : رفقا بأمر المؤمنين . فقال عمرو : وماذا على أمير المؤمنين أن يبكى من خشية الله عز وجل . ثم أمر له المنصور بعشرة آلاف درهم فقال : لا حاجة لى فيها . فقال المنصور : والله لتأخذنها . فقال : والله لا آخذنها . فقال له المهدي وهو جالس في سواده وسيفه إلى جانب أبيه : أيجلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت إلى المنصور فقال : ومن هذا ؟ فقال : هذا ابني محمد ولي العهد من بعدى . فقال عمرو : إنك سميت اسمها لم يستحقه لعمله ، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار ، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ثم التفت إلى المهدي فقال : يا ابن أخي ! إذا حلف أبوك وحلف عمك فلأن يحنث أبوك أيسر من أن يحنث عمك ، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك . ثم قال المنصور : يا أبا عثمان هل من حاجة ؟ قال : نعم ! قال : وما هي ؟ قال : لا تبعث إلى حتى آتيك . ولا تعطني حتى أسألك . فقال المنصور : إذا والله لا نلتقى . فقال عمرو : عن حاجتي سألتني . فودعه وانصرف . فلما ولي أمده بصره وهو يقول :

كلمكم بمشي رويد * كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد

ويقال إن عمرو بن عبيد أنشد المنصور قصيدة في موعظته إياه وهي قوله :

يا أيها الذي قد غره الأمل * ودون ما يامل التنغيص والأجل
ألا ترى أنما الدنيا وزينتها * كمنزل الركب حلوا نمت ارتحلوا
حنوفها رصد وعيشها نكد * وصفوها كدر وملكها دول
تظل تفرع بالروعات ساكنها * فما يسوغ له لين ولا جنل
كأنه للنايا والردى غرض * تظل فيه بنات الدهر تنقل
تديره ما تدور به دوارها * منها المصيب ومنها المخطئ الزلل
والنفس هاربة والموت يطلبها * وكل عسرة رجل عندها جلل
والمرء يسعى بما يسعى لو ارته * والقبر وارث ما يسعى له الرجل

(١) زيادة من المصرية .

وقال ابن دريد عن الريثي عن محمد بن سلام قال : رأيت جارية للمنصور ثوبه مرقوعاً فتالت :
 خليفة وقيص مرقوع ؟ فقال : ويحك أما سمعت ما قال ابن هريرة
 قد يدرك الشرف الفتي ورداؤه * خلق وبعض قيص مرقوع
 وقال بعض الزهاد للمنصور : اذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة مثلها ، واذكر ليلة
 تمخض عن يوم القيامة لآلية بعدها فأفحم المنصور قوله فأمر له بحال . فقال : لو احتجت إلى مالك
 ما وعظتكَ . ومن شعره لما عزم على قتل أبي مسلم : -

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا عزيمَةٍ * فإنَّ فلاءَ الرأيِ أنْ يترددا
 ولا تُنمِلِ الأعداءَ يوماً لغدرَةٍ * وبادرهمُ أنْ يملكوا مثلها غدا
 ولما قتله وراه طريحا بين يديه قال : -

قد اكتفنتُ ثلاثَ ثلاثٍ * جلينَ عليك محتومَ الحمامِ
 خلافتُ وامتاعك من يميني * وقودك للجماهيرِ العظامِ
 ومن شعره أيضاً : -

المرءُ يأملُ أنْ يعيدَ * من وطولِ عمرٍ قد يضره
 تبلى بشاشتهُ وبيدِ * في بعدِ حلِّ العيشِ مرة
 وتخونهُ الأيامُ حتى * لا يرى شيئاً يسره
 كم شلتني إنْ هلكتُ * تقاتلُ لله درة

قالوا : وكان المنصور في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل
 والنظر في مصالح العامة ، فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر ، فإذا صلاها جلس لأهل
 بيته ونظر في مصالحهم الخاصة ، فإذا صلى المشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق ،
 وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل ، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر ،
 فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه .
 وقد ولي بعض العمال على بلد فبلغه أنه قد تصدى للصيد وأعد لذلك كلابا وبراة ، فكذب إليه
 نكلتك أمك وعشيرتك ، ويحك إنما استكفيناك واستعملناك على أمور المسلمين ، ولم نستكفك
 أمور الوحوش في البراري ، فبيلم ماتلى من عملنا إلى فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً .

وأتى يوماً بخارجي قد هزم جيوش المنصور غير مرة فلما وقف بين يديه قال له المنصور : ويحك
 يا ابن الفاعلة ! مثلك يهزم الجيوش ؟ فقال الخارجى : ويلاك سوءة لك بيني وبينك أمس السيف
 والقتل واليوم القذف والسب ، وما يؤمنك أن أرد عليك وقد يئست من الحياة فما استقبلها أبداً .

قال فاستحبي منه المنصور وأطلقه . فما رأى له وجهاً إلى الحول [وقال لابنه لما ولاء العهد : يا بني
اتنعم النعمة بالشكر ، والقدره بالعفو ، والنصر بالتواضع ، والتألف بالطاعة ، ولا تنس نصيبك من
الدنيا ونصيبك من رحمة الله] (١)

وقال أيضاً : يا بني ليس العاقل من يمتثل للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكن العاقل
الذي يمتثل للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه . وقال المنصور : يا بني لا تجلس مجلساً إلا وعندهك من
أهل الحديث من يحدثك ، فان الزهري قال : علم الحديث ذكر لا يحبه إلا ذكران الرجال ، ولا يكرهه
إلا مئة ثنوم ، وصدق أخو زهرة . وقد كان المنصور في شببته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقهاء
فقال جانباً جيداً وطرفاً صالحاً ، وقد قيل له يوماً : يا أمير المؤمنين هل بقي شيء من اللذات لم تنله ؟
قال : شيء واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : قول المحدث للشيخ من ذكرت رحمتك الله . فاجتمع وزراؤه
وكتابه وجلسوا حوله وقالوا : لئيل علينا أمير المؤمنين شيئاً من الحديث ، فقال : لستم بهم ، إنما هم
الذنسة ثيابهم ، المشقة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، رواد الآفاق وقطاع المسافات ، تارة بالعراق
وتارة بالحجاز ، وتارة بالشام ، وتارة باليمن . فهؤلاء نقلة الحديث .

وقال يوماً لابنه المهدي : كم عندك من دابة ؟ فقال لا أدري . فقال : هذا هو التقصير ، فأنت لأمر
الخلافة أشد تضييماً فأتق الله يا بني . وقالت خالصة إحدى حظيات المهدي : دخلت يوماً على
المنصور وهو يشتكي ضره ويدهاه على صدغيه فقال لي : كم عندك من المال يا خالصة ؟ فقلت ألف
درهم . فقال : ضعي يدك على رأسي واحلفي ، فقلت : عندي عشرة آلاف دينار . قال : اذهبي فاحملها
إلي . قالت : فذهبت حتى دخلت على سيدي المهدي وهو مع زوجته الخيزران فشكوت ذلك إليه
فوكزني برجله وقال : ويحك ! إنه ليس به وجع ولكني سألته بالأمس مالا قمارض ، وإنه لا يسعك
إلا ما أمرك به . فذهبت إليه خالصة ومعها عشرة آلاف دينار ، فاستدعني بالمهدي فقال له : تشكو
الحاجة وهذا كله عند خالصة ؟ وقال المنصور لخازنه : إذا علمت بمجيء المهدي فائتني بخلفان الثياب
قبل أن يجيء ، فجاء بها فوضعها بين يديه ودخل المهدي والمنصور يقبلها ، فجعل المهدي يضحك ،
فقال : يا بني من ليس له خلق ليس له جديد ، وقد حضر الشتاء فنحتاج نعين العيال والولد . فقال
المهدي : على كسوة أمير المؤمنين وعياله ، فقال : دونك فافعل .

وذكر ابن جرير عن الهيثم أن المنصور أطلق في يوم واحد لبعض أعمامه ألف ألف درهم . وفي
هذا اليوم فرق في بيته عشرة آلاف درهم ، ولا يعلم خليفة فرق مثل هذا في يوم واحد . وقرأ بعض
القراء عند المنصور [الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل] فقال : والله لولا أن المال حصن

(١) زيادة من المصرية .

للسلطان ودعامة للدين والدنيا وعزيمهما مابت ليلة واحدة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهما لما جد لبذل المال من اللذة ، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة . وقرأ عنده قارئ آخر [ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط] الآية . فقال : ما أحسن ما أدبنا ربنا عز وجل . وقال المنصور : سمعت أبي يقول سمعت علي بن عبد الله يقول : سادة أهل الدنيا في الدنيا الأسخياء ، وسادة أهل الآخرة في الآخرة الأتقياء .

ولما عزم المنصور على الحج في هذه السنة دعا ولده المهدي فأوصاه في خاصة نفسه وبأهل بيته وبسائر المسلمين خيراً ، وعلمه كيف تفعل الأشياء وتسد الثغور ، وأوصاه بوصايا يطول بسطها وخرج عليه أن لا يفتح شيئاً من خزائن المسلمين حتى يتحقق وفاته فان بها من الأموال ما يكفي المسلمين لولم يجب إليهم من الخراج درهم عشر سنين ، وعهد إليه أن يقضى ما عليه من الدين وهو ثلاثمائة ألف دينار ، فانه لم يرقضها من بيت المال . فامتثل المهدي ذلك كله . وأحرم المنصور بحج وعمرة من الرصافة وساق بدنه وقال : يا بني إني ولدت في ذى الحجة وقد وقع لي أن أموت في ذى الحجة ، وهذا الذي جرأتني على الحج عامي هذا . وودعه وسار واعتراه مرض الموت في أثناء الطريق فما دخل مكة إلا وهو ثقيل جداً ، فلما كان بآخر منزل نزله دون مكة إذا في صدر منزله مكتوب :

(بسم الله الرحمن الرحيم) .

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم * لك اليوم من كرب النبوة مانع
فدعا بالحجبة فأقرأهم ذلك فلم يروا شيئاً عرف أن أجله قد نفي إليه . قالوا : ورأى المنصور في منامه ويقال بل هتف به هاتف وهو يقول : -

أما ورب السكون والحرك * إن المنايا كثيرة الشرك
عليك يانفس إن أسأت وإن * أحسنت يانفس كان ذاك لك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء في الفلك
إلا بنقل السلطان عن ملك * إذا انقضى ملكه إلى ملك
حتى يصير أنه إلى ملك * ماعز سلطانه بمشرك
ذاك بديع السماء والأرض والمر * سي الجبال المسخر الفلك

فقال المنصور : هذا أوان حضور أجلي وانقضاء عمري . وكان قد رأى قبل ذلك في قصره الخلد لدى بناء وتأنق فيه مناماً أفرغه فقال للزبيح : وبحك ياربيع لقد رأيت مناماً هالتي ، رأيت قائلاً يقف في باب هذا القصر وهو يقول :

❦❦❦

كأنى بهذا القصرِ قد بادَ أهله * وأوحشَ منه أهله ومنازله
 وصارَ رئيسَ القصرِ من بعدِ بهجة * إلى جدثِ يبنى عليه جنادله

فما أقام في الخلد إلا أقل من سنة حتى مرض في طريق الحج ، ودخل مكة مدنفاً ثقيلاً . وكانت وفاته ليلة السبت لست وقيل لسبع مضين من ذى الحجة ، وكان آخر ما تكلم به أن قال : اللهم بارك لي في لقاءك . وقيل : إنه قال يا رب إن كنت عصيتك في أمور كثيرة فتمد أظفرك في أحب الأشياء إليك شهادة أن لا إله إلا الله مخلصاً . ثم مات . وكان قص خاتمه . الله ثقة عبد الله وبه يؤمن . وكان عمره يوم وفاته ثلاثاً وستين سنة على المشهور ، منها ثقتان وعشرون سنة خليفة . ودفن بباب المعلاة رحمه الله . قال ابن جرير : ومما رثي به قول سلم الخاسر الشاعر :

عجياً للذي نعى الناعبان * كيف فاهت بموته الشفتان
 ملكٌ أن عدا على الدهر يوماً * أصبح الدهرُ ساطعاً للجوان
 ليت كفاحت عليه تراباً * لم تعد في عينها بينان
 حين دانت له البلاد على العدا * فوأغضى من خوفه الثقلان
 أين رب الزوراء قد قلده الـ * ملكٌ عشرين حجةً واثقتان
 إنما المرة كالزناد إذا ما * أخذته قوادح النيران
 ليس يثنى هواه زجر ولاية * مدح في حبله ذوو الأذهان
 قلده أعنة الملك حتى * قاد أعداءه بغير عنان
 يكسر الطرف دونه وترى الأيدى * يدى من خوفه على الأذقان
 ضم أطراف ملكه ثم أضحي * خلف أقصام ودون الداني
 هاشمي التشير لا يحمل النة * ل على غارب الشرود الهدان
 ذواته ينسى لها الخائف الخو * ف وعزم يلوى بكل جنان
 ذهب دونه النفوس حذاراً * غير أن الأرواح في الأبدان

وقد دفن عند باب المعلاة بمكة ولا يعرف قبره لأنه أعمى قبره ، فان الربيع الحاجب جفر مائة قبر ودفنه في غيرها لثلا يعرف .

أولاد المنصور

محمد المهدي وهو ولي عهده ، وجعفر الأكبر مات في حياته ، وأمهما أروى بنت منصور .
 وعيسى ، ويعقوب ، وسليمان ، وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله . وجعفر الأصغر
 من أم ولد كردية ، وصالح المسكين من أم ولد رومية - يقال لها قالي الفراشة - والقاسم من أم

ولد أيضاً . وإمالية من امرأة من بني أمية .

خلافة المهدي بن المنصور

لما مات أبوه بمكة لست أو لسبع ماضين من ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة أخذت البيعة للمهدي من رؤس بني هاشم والقواد الذين هم مع المنصور في الحج قبل دفنه ، وبعث الربيع الحاجب بالبيعة مع البرد إلى المهدي وهو ببغداد ، فدخل عليه البريد بذلك يوم الثلاثاء النصف من ذى الحجة ، فسلم عليه بالخلافة وأعطاه الكتب بالبيعة ، وبايعه أهل بغداد ، ونفذت بيعة إلى سائر الآفاق . وذكر ابن جرير أن المنصور قبل موته بيوم تحامل وتساند واستدعى بالأمراء فجدد البيعة لابنه المهدي ، ففساروا إلى ذلك وتباروا إليه . وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس عن وصية عمه المنصور ، وهو الذي صلى عليه ، وقيل إن الذي صلى على المنصور عيسى بن موسى ولي العهد من بعد المهدي ، والصحيح الأول ، لأنه كان نائب مكة والطائف ، وعلي إمارة المدينة عبد الصمد بن علي ، وعلي الكوفة عمرو بن زهير الضبي - أخو المسيب ابن زهير أمير الشرطة للخليفة - وعلي خراسان حميد بن قحطبة ، وعلي خراج البصرة وأرضها عمارة ابن حمزة ، وعلي صلاتها وقضاها عبد الله بن الحسن العنبري ، وعلي أحداثها سعيد بن دعلج .

قال الواقدي : وأصاب الناس في هذه السنة وباء شديد فتوفي فيه خلق كثير وجم غفير ، منهم أفلح بن حميد ، وحيوة بن شريح ، ومعاوية بن صالح بمكة ، وزفر بن الهذيل بن قيس بن سليم ثم ساق نسبه إلى معد بن عدنان ، يقال له التميمي العنبري الكوفي الفقيه الحنفي ، أقدم أصحاب أبي حنيفة وفاة ، وأكثرهم استمهالا للقياس ، وكان عابداً ، اشتغل أولاً بعلم الحديث ثم غلب عليه الفقه والقياس . ولد سنة ست عشرة ومائة ، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة عن ثنتين وأربعين سنة رحمه الله وإيانا .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

استهلت هذه السنة وخليفة الناس أبو عبد الله محمد بن المنصور المهدي ، فبعث في أولها العباس ابن محمد إلى بلاد الروم في جيش كثيف ، وركب معهم مشيماً لهم ، فساروا إليها فافتتحوا مدينة عظيمة للروم ، وغنموا غنائم كثيرة ورجعوا سالمين لم يفتقد منهم أحد . وفيها توفي حميد بن قحطبة نائب خراسان ، فولى المهدي مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد ، وولى حمزة بن مالك سجستان ، وولى جبريل بن يحيى سمرقند وفيها بنى المهدي مسجد الرصافة وخذقها . وفيها جهز جيشا كثيفا إلى بلاد الهند فوصلوا إليها في السنة الآتية ، وكان من أمرهم ما سند كره . وفيها توفي نائب السند معبد بن الخليل فولى المهدي مكانه روح بن حاتم بمشورة وزيره أبي عبد الله . وفيها أطلق المهدي من كان في السجون إلا من كان محبوباً على دم ، أو من سعى في الأرض فساداً ، أو من كان عنده

حق لأحد . وكان في جملة من أخرج من المطبق يعقوب بن داود مولى بنى سليم ، والحسن بن إبراهيم ابن عبد الله بن حسين ، وأمر بصيرورة حسن هذا إلى نصير الخادم ليحترز عليه . وكان الحسن قد عزم على الهرب من السجن قبل خروجه منه ، فلما خرج يعقوب بن داود ناصح الخليفة بما كان عزم عليه فتمله من السجن وأودعه عند نصير الخادم ليحتاط عليه ، وحظى يعقوب بن داود عند المهدي جداً حتى صار يدخل عليه في الليل بلا استئذان ، وجعله على أمور كثيرة ، وأطلق له مائة ألف درهم . وما زال عنده كذلك حتى تمكن المهدي من الحسن بن إبراهيم فسقطت منزلة يعقوب عنده . وقد عزل المهدي نواباً كثيرة عن البلاد وولى بدلهم . وفي هذه السنة تزوج المهدي بابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي ، وأعتق جاريتيه الخيزران وتزوجها أيضاً ، وهي أم الرشيد . وفيها وقع حريق عظيم في السفن التي في دجلة بغداد . ولما ولى المهدي سأل عيسى بن موسى - وكان ولى العهد من بعده - أن يخلع نفسه من الأمر فامتنع على المهدي ، وسأل المهدي أن يقيم بأرض الكوفة في ضيعة له فأذن له ، وكان قد استقر على إمرة الكوفة روح بن حاتم ، فكتب إلى المهدي : إن عيسى بن موسى لا يأتي الجمعة ولا الجماعة مع الناس إلا شهرين من السنة ، وإنه إذا جاء يدخل بدوابه إلى داخل باب المسجد فتروث دوابه حيث يصلى الناس . فكتب إليه المهدي أن يعمل خشباً على أفواه السكك حتى لا يصل الناس إلى المسجد إلا مشاة . فعلم بذلك عيسى بن موسى فاشترى قبل الجمعة دار المختار بن أبي عبيدة من ورثته - وكانت ملاصقة للمسجد - وكان يأتي إليها من يوم الخميس ، فاذا كان يوم الجمعة ركب حماراً إلى باب المسجد فنزل إلى هناك وشهد الصلاة مع الناس وأقام بالكلية بالكوفة بأهله ، ثم ألح المهدي عليه في أن يخلع نفسه وتوعده إن لم يفعل ، ووعدته إن فعل فأجابته إلى ذلك فأعطاه أقطاعاً عظيمة ، وأعطاه من المال عشرة آلاف ألف ، وقيل عشرين ألف ألف ، وبايع المهدي لولديه من بعده موسى الهادي ، ثم هارون الرشيد كما سيأتي .

وحج بالناس يزيد بن منصور خال المهدي ، وكان نائباً على اليمن فولاه الموسم واستقدمه عليه شوقاً إليه ، وغالب نواب البلاد عزلهم المهدي ، غير أن إفريقية مع يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد ابن سليمان أبو ضمرة ، وعلى خراسان أبو عون ، وعلى السند بسطام بن عمرو ، وعلى الأهواز وفارس عمارة بن حمزة ، وعلى اليمن رجاء بن روح ، وعلى اليمامة بشر بن المنذر ، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح ، وعلى المدينة عبيد الله بن صديان الجمحي ، وعلى مكة والطائف إبراهيم بن يحيى ، وعلى أحداث الكوفة إسحاق بن الصباح الكندي ، وعلى خراجها ثابت بن موسى ، وعلى قضائها شريك بن عبد الله النخعي ، وعلى أحداث البصرة عمارة بن حمزة وعلى صلاحها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النيمري ، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن العنبري .

وفيهما توفي عبد العزيز بن أبي رواد ، وعكرمة بن عمار ، ومالك بن مغول ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذيب المدني : نظير مالك بن أنس في الفقه ، وربما أنكر على مالك أشياء ترك الأخذ فيها ببعض الأحاديث ، كان يراها مالك من إجماع أهل المدينة وغير ذلك من المسائل .

ثم دخلت سنة ستين ومائة

فيها خرج رجل بخراسان على المهدي منكرآ عليه أحواله وسيره وما يتعاطاه ، يقال له يوسف البرم ، والتف عليه خلق كثير ، وتفاقم الأمر وعظم الخطب به ، فتوجه إليه يزيد بن يزيد فلقبه فاقنتلا قتالا شديداً حتى تنازلا وتعانقا ، فأسر يزيد بن يزيد يوسف هذا ، وأسر جماعة من أصحابه فبعثهم إلى المهدي فأدخلوا عليه ، وقد حملوا على جمال محولة وجوهم إلى ناحية أذنان الابل ، فأمر الخليفة هرثة أن يقطع يدي يوسف ورجليه ثم تضرب عنقه وأعناق من معه وصلبهم على جسر دجلة الأمامي على عسكر المهدي وأطفا الله نائزهم وكفى شرم .

البيعة لموسى الهاوي

ذكرنا أن المهدي ألح على عيسى بن موسى أن يخلع نفسه وهو مع كل ذلك يمتنع وهو مقيم بالكوفة ، فبعث إليه المهدي أحد القواد الكبار وهو أبو هريرة محمد بن فروخ في ألف من أصحابه لاحضاره إليه ، وأمر كل واحد منهم أن يحمل طبلا ، فاذا واجهوا الكوفة عند إضاءة الفجر ضرب كل واحد منهم على طبله ، ففعلوا ذلك فانجبت الكوفة ، وخاف عيسى بن موسى ، فلما انتهوا إليه دعوه إلى حضرة الخليفة فأظهر أنه يشتكي ، فلم يقبلوا ذلك منه بل أخذوه معهم فدخلوا به على الخليفة في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة ، فاجتمع عليه وجوه بني هاشم والقضاة والأعيان وسألوه في ذلك وهو يمتنع ، ثم لم يزل الناس به بالرغبة والرغبة حتى أجاب في يوم الجمعة لأربع مضين من المحرم بعد العصر . وبويع لولدي المهدي موسى وهارون الرشيد صباحة يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم وجلس المهدي في قبة عظيمة في إيوان الخلافة ، ودخل الأمراء فبايعوا ثم نهض فصعد المنبر وجلس ابنه موسى الهادي نخته ، وقام عيسى بن موسى على أول درجة ، وخطب المهدي فأعلم الناس بما وقع من خلع عيسى بن موسى نفسه وأنه قد حلل الناس من الإيمان التي له في أعناقهم وجعل ذلك إلى موسى الهادي . فصدق عيسى بن موسى ذلك وبايع المهدي على ذلك . ثم نهض الناس فبايعوا الخليفة على حسب مراتبهم وأسنانهم ، وكتب على عيسى بن موسى مكتوبا مؤكدا بالإيمان البالغة من الطلاق والعتاق ، وأشهد عليه جماعة الأمراء والوزراء وأعيان بني هاشم وغيرهم وأعطاه ما ذكرنا من الأموال وغيرها .

وفيهما دخل عبد الملك بن شهاب المسمى مدينة باربد من الهند في جحفل كبير فحاصروها

ونصبوا عليها المجانيق ، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة ، وهلك بشر كثير من أهلها ، وفتحوها عنوة وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك لاعتلاء البحر ، فأقاموا هناك فأصابهم داء في أفواههم يقال له حمام قرّ فمات منهم ألف نفس منهم الربيع بن صبيح ، فلما أمكنهم السير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح ففرق طائفة أيضا ، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعهم سبي كثير ، فيهم بنت ملكهم . وفيها حكم المهدي بالحق ولد أبي بكر الثقفى إلى ولاء رسول الله (ص) ، وقطع نسبهم من ثقيف ، وكتب بذلك كتابا إلى والى البصرة . وقطع نسبه من زياد ومن نسب نافع ففى ذلك يقول بعض الشعراء وهو خالد النجار : —

إن زياداً ونافعاً وأبا * بكرةً عندي من أعجب العجب
ذا قرشى كما يقول وذا * مولى وهذا بزعمه عربى

وقد ذكر ابن جرير أن نائب البصرة لم ينفذ ذلك .

وفى هذه السنة حج بالناس المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي ، واصتصحب معه ابنه هارون الرشيد وخلقا من الأمراء ، منهم يعقوب بن داود على منزله ومكاته ، وكان الحسن ابن إبراهيم قد هرب من الخادم فلحق بأرض الحجاز ، فاستأمن له يعقوب بن داود فأحسن المهدي صلته وأجزل جائزته ، وفرق المهدي فى أهل مكة مالا كثيرا جداً ، كان قد قدم معه ثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب ، وجاء من مصر ثلاثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتا ألف دينار ، فأعطاهما كلها فى أهل مكة والمدينة . وشكت الحجة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة أن تنهم من كثرة ما عليها من الكساوى ، فأمر بتجريدها ، فلما انتهوا إلى كساوى هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج نخين جداً ، فأمر بإزالتها وبقيت كساوى الخلفاء قبله وبعده ، فلما جردها طلاها بالخلاف وكساها كسوة حسنة جداً ، ويقال إنه استفتى مالكا فى إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير ، فقال مالك : دعها فاني أخشى أن يتخذها الملوك ملامبة . فتركها على ما هى .

وحمل له محمد بن سليمان نائب البصرة الثلج إلى مكة ، وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها . ولما دخل المدينة وسع المسجد النبوى ، وكان فيه مقصورة فأزالها وأراد أن ينقص من المنبر ما كان زاده معاوية بن أبى سفيان فقال له مالك : إنه يخشى أن ينكسر خشبه العتيق إذا زعزع ، فتركه . وتزوج من المدينة رقية بنت عمرو العنابية ، وانتخب من أهلها خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرسا بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم أرزاقاً غير أعطياتهم وأقطعتهم أقطاعاتهم . وفيها توفى الربيع بن صبيح ، وسفيان بن حسين ، أحد أصحاب الزهري ، وشعبة بن الحجاج بن الورد العتقى الأزدي أبو بسطام الواسطي ، ثم انتقل إلى البصرة . رأى شعبة الحسن وابن سيرين ،

وروى عن أمم من التابعين ، وحدث عنه خلق من مشايخه وأقرانه وأئمة الاسلام . وهو شيخ
المحدثين الملقب فيهم بأمر المؤمنين قاله الثوري . وقال يحيى بن معين : هو إمام المتقين ، وكان في
غاية الزهد والورع والتشف والحنظ وحسن الطريقة . وقال الشافعي : لولاه ما عرف الحديث بالعراق .
وقال الامام أحمد : كان أمة وحده في هذا الشأن ، ولم يكن في زمانه مثله . وقال محمد بن سعد : كان
ثقة مأمونا حجة صاحب حديث . وقال وكيع : إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات بذبه
عن حديث رسول الله (س) . وقال صالح بن محمد بن حرزة : كان شعبة أول من تكلم في الرجال
وتبعه يحيى القطان ثم أحمد وابن معين . وقال ابن مهدي : ما رأيت أعقل من مالك ، ولا أشد
تقشا من شعبة ، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك ، ولا أحفظ للحديث من الثوري . وقال مسلم بن
إبراهيم : ما دخلت على شعبة في وقت صلاة الا ورأيت يصلي ، وكان أبا للفقراء وأما لهم . وقال النضر
ابن شميل : ما رأيت أرحم بمسكين منه ، كان إذا رأى مسكينا لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عنه .
وقال غيره : ما رأيت أعبد منه لقد عبد الله حتى لصبق جلده بمظمه . وقال يحيى القطان : ما رأيت
أرق للمسكين منه ، كان يدخل المسكين في منزله فيعطيه ما أمكنه . قال محمد بن سعد وغيره : مات
في أول سنة ستين ومائة في البصرة عن ثمان وسبعين سنة .

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

فيها غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فتزل دابق ، وجاشت الروم عليه فلم يتمكن المسلمون من
الدخول إليها بسبب ذلك . وفيها أمر المهدي بحفر الركابا وعمل المصانع وبناء القصور في طريق مكة
وولى يقطين بن موسى على ذلك ، فلم يزل يعمل في ذلك إلى سنة إحدى وسبعين ومائة ، مقدار
عشر سنين ، حتى صارت طريق الحجاز من العراق من أرفق الطرقات وأمنها وأطيبها . وفيها وسع
المهدي جامع البصرة من قبلته وغربه . وفيها كتب إلى الآفاق أن لا تبقى مقصورة في مسجد
جماعة ، وأن تقصر المنابر إلى مقدار منبر رسول الله (س) ، ففعل ذلك في المدائن كلها . وفيها
اتضمت منزلة أبي عبيد الله وزير المهدي وظهرت عنده خيافته فضم إليه المهدي من يشرف عليه ،
وكان ممن ضم إليه إسماعيل بن علي ، ثم أبعده وأقصاه وأخرجه من معسكره . وفيها ولي القضاء
عافية بن يزيد الأزدي وكان يحكم هو وابن علاثة في عسكر المهدي بالرصافة . وفيها خرج رجل يقال
له المقنع بخراسان في قرية في قرى مرو ، وكان يقول بالتناسخ واتبه على ذلك خلق كثير ، فجهز
إليه المهدي عدة من أمراه وأنفذ إليه جيوشاً كثيرة ، منهم معاذ بن مسلم أمير خراسان ، وكان من
أمره وأمرهم ما سئد كره .

وحج بالناس فيها موسى الهادي بن المهدي . وفيها توفي إسرائيل بن يونس بن إسحاق السبيعي

وزائدة بن قدامة و سفیان بن سعید بن مسروق الثوري أحد أئمة الاسلام وعبادم و المقتدى به أبو عبد الله الكوفي . روى عن غير واحد من التابعين وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم ، قال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة و يحيى بن معين وغير واحد : هو أمير المؤمنين في الحديث . وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم . وقال أبو يوب : ما رأيت كوفياً أفضله عليه . وقال يونس بن عبيد : ما رأيت أفضل منه . وقال عبد الله : ما رأيت أحقه من الثوري . وقال شعبة : ساد الناس بالورع والعلم . وقال : أصحاب المذاهب ثلاثة : ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه . وقال الامام أحمد : لا يتقدمه في قلبي أحد . ثم قال : تدرى من الامام ؟ الامام سفیان الثوري . وقال عبد الرزاق : سمعت الثوري يقول : ما استودعت قلبي شيئاً قط فخافني حتى إني لأمر بالحنائك يتغنى فأسد أذني مخافة أن أحفظ ما يقول . وقال : لأن أترك عشرة آلاف دينار بحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس .

قال محمد بن سعد : أجمعوا أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ، وكان عمره يوم مات أربعاً وستين سنة ، وراه بعضهم في المنام يطير في الجنة من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقرأ [الحمد لله الذي صدقنا وعده] الآية . وقال : إذا ترأس الرجل سريراً آخر بكثير من العلم . ومن توفي فيها : أبو دلالة

زيد بن الجون الشاعر الماجن ، أحد الظرفاء ، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وحظي عند المنصور لأنه كان يضحك وينشده الأشعار ويمدحه ، حضر يوماً جنازة امرأة المنصور . وكانت ابنة عمه . يقال لها حمادة بنت عيسى ، وكان المنصور قد حزن عليها ، فلما سورا عليها التراب وكان أبو دلالة حاضراً ، فقال له المنصور : ويحك يا أبا دلالة ، ما أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : ابنة عم أمير المؤمنين . فضحك المنصور حتى استلقى ، ثم قال : ويحك فضحتنا . ودخل يوماً على المهدي يهنئه بقدمه من سفره وأنشده :

إني حلفت لئن رأيتك سالماً * بقرى العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبي محمد * ولتلاّن دراهماً حجري

فقال المهدي : أما الأول فنعم ، نصلى على النبي محمد (س) ، وأما الثاني فلا . فقال : يا أمير المؤمنين هما كلمتان فلا تفرق بينهما . فأمر أن يملأ حجره دراهم ، ثم قال له : قم ! فقال : ينخرق منها قميصي فأفرغت منه في أكياسها ثم قام فحملها وذهب . وذكر عنه ابن خلكان أنه مرض ابن له فداواه طبيب فلما عوفي قال له : ليس عندنا ما نعطيك ، ولكن ادع علي فلان اليهودي بمبلغ ما تستحقه عندنا من أجرتك حتى أشهد أنا وولدي عليه بالمبلغ المذكور . قال : فذهب الطبيب إلى قاضي الكوفة محمد

ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى - وقيل ابن شبرمة - فادعى عليه عنده فانكر اليهودى فشهد عليه أبو دلامة وابنه ، فلم يستطع القاضى أن يرد شهادتهما وخاف من طلب التزكية فأعطى الطبيب المدعى المال من عنده وأطلق اليهودى . وجمع القاضى بين المصالح . توفى أبو دلامة فى هذه السنة ، وقيل إنه أدرك خلافة الرشيد سنة سبعين فآله أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة

فبها خرج عبد السلام بن هاشم اليشكرى بأرض قنسرين واتبه خلق كثير ، وقويت شوكته فقاتله جماعة من الأمراء فلم يقدروا عليه ، وجهر إليه المهدي جيوشا وأنفق فيهم أموالا فهزمهم مرات ثم آل الأمر به أن قتل بعد ذلك . وفيها غزا الصائفة الحسن بن قحطبة فى ثمانين ألفا من المرتزة سوى المتطوعة ، فدمر الروم وحرق بلادا كثيرة ، وخرب أمانا وأسرى خلقا من الذرارى . وكذلك غزا يزيد بن أبى أسيد السلمى بلاد الروم من باب قاليبغا فغتم وسلم وسبى خلقا كثيرا .
وفيها خرجت طائفة بمرجان فلبسوا الحرمة مع رجل يقال له عبد القهار ، فغزاه عمرو بن العلاء من طبرستان فمهر عبد القهار وقتله وأصحابه . وفيها أجرى المهدي الأرزاق فى سائر الأقاليم والآفاق على المجذمين والمحبوسين ، وهذه مشوبة عظيمة ومكرمة جسيمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن جعفر بن المنصور . وفيها توفى من الأعيان :

إبراهيم بن أدهم

أحد مشاهير العباد وأكابر الزهاد . كانت له همة عالية فى ذلك رحمه الله . فهو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن عامر بن إسحاق التميمى ، ويقال له البعلجى ، أصله من بلخ ثم سكن الشام ودخل دمشق ، وروى الحديث عن أبيه والأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبى هريرة وأبى إسحاق السبىعى وخلق . وحدث عنه خلق منهم بقية والثورى وأبو إسحاق الفزارى ومحمد بن حميد . وحكى عنه الأوزاعى . وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجزرى عن إبراهيم بن أدهم عن محمد بن زياد عن أبى هريرة . قال : « دخلت على رسول الله (س) ، وهو يصلى جالسا فقلت : يا رسول الله إنك تصلى جالسا فما أصابك ؟ قال : الجوع يا أبا هريرة . قال : فبكيت فقال : لا تبك فان شدة يوم للقيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب فى دار الدنيا . » ومن طريق بقية عن إبراهيم بن أدهم حدثنى أبو إسحاق الهمداني عن عمارة بن غزيرة عن أبى هريرة . قال قال رسول الله (س) : « إن الفتنة نجى فتنسف العباد نسفا ، وينجو العالم منها بعله . »

قال النسائى : إبراهيم بن أدهم ثقة مأمون أحد الزهاد . وذكر أبو نعيم وغيره أنه كان ابن ملك من ملوك خراسان ، وكان قد حجب إليه الصيد ، قال : فخرجت مرة فآثرت ثعلبا فهتف بى هاتف

من قربوس سرجي : ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . قال : فوفقت وقلت : انتهيت انتهيت ، جاءني نذير من رب الملايين . فرجعت إلى أهلي فخليت عن فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت منه جبة وكساء ثم ألقيت ثيابي إليه ، ثم أقبلت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصف لي بها الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فأرشدني إلى بلاد الشام فأتيت طرسوس فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد ، وكان يقول : ما نهيت بالعيش إلا في بلاد الشام . أفر بديني من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل ، فمن يراؤي يقول هو موسوس . ثم دخل البادية ودخل مكة وصحب الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه مثل الحصاد وعمل الفاعل وحفظ البساتين وغير ذلك . وما روى عنه أنه وجد رجلاً في البادية فعلمه اسم الله الأعظم فكان يدعو به حتى رأى الخضر فقال له : إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم ، ذكره القشيري وابن عساكر عنه باسناد لا يصح . وفيه أنه قال له : إن إلياس علمك اسم الله الأعظم . وقال إبراهيم : أطب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار .

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان أكثر دعائه اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك . وقيل له إن اللحم قد غلا فقال : ارضصوه أي لا تشتروه فانه يرضص . وقال بعضهم : هتف به الهاتف من فوقه يا إبراهيم ما هذا العبث [أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون] اتق الله وعليك بالزاد . ليوم القيامة . فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة . وروى ابن عساكر باسناد فيه نظر في ابتداء أمره قال : بينما أنا يوماً في منظرية لي ببلخ وإذا شيخ حسن الهيئة حسن اللحية قد استظل بظلها فأخذ بمجامع قلبي ، فأمرت غلاماً فدعاه فدخل فعرضت عليه الطعام فأبى فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : من وراء النهر . قلت : أين تريد ؟ قال الحج . قلت في هذا الوقت ؟ - وقد كان أول يوم من ذى الحجة أو ثمانية - فقال : يفعل الله ما يشاء . قلت : الصعبة . قال : إن أحببت ذلك فوعدك الليل ، فلما كان الليل جاءني فقال : قم بسم الله فأخنت ثياب سفري وسرنا نمشي كأنما الأرض تجذب من تحتنا ، ونحن نمر على البلدان ونقول : هذه فلانة هذه فلانة ، فإذا كان الصباح فارقني ويقول : موعدك الليل ، فإذا كان الليل جاءني ففعلنا مثل ذلك . فأنهينا إلى مدينة النبي (ص) ، ثم سرنا إلى مكة فحجنا ليلاً قضيها الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام فزرنا بيت المقدس وقال : إني عازم على المقام بالشام ، ثم رجعت أنا إلى بلدي بلخ كسائر الضعفاء حتى رجعنا إليها ولم أسأله عن اسمه ، فكان ذلك أول أمرى .

[وروى من وجه آخر فيه نظر . وقال أبو حاتم الرازي عن أبي نعيم عن سفیان الثوري قال : كان إبراهيم بن آدم يشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة كان رجلاً فاضلاً سراراً وما رأيت

يظهر تسبيحاً ولا شيئاً ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يديه . (١)

وقال عبد الله بن المبارك : كان إبراهيم رجلاً فاضلاً له سرائر ومعاملات بينه وبين الله عز وجل وما رأيتُهُ يظهر تسبيحاً ولا شيئاً من عمله ، ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يده . وقال بشر بن الحارث الخافي : أربعة رفعهم الله بطيب المطعم ، إبراهيم بن آدم ، وسليمان بن الخواص ووهيب بن الورد ، ويوسف بن أسباط . وروى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال : إنما سمع إبراهيم بن آدم حديثاً واحداً فأخذ به فساد أهل زمانه . قال : حدثنا منصور عن ربيع بن خراش قال : جاء رجل إلى رسول الله (ص) ، فقال : يا رسول الله دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال : « إذا أردت أن يحبك الله فابغض الدنيا ، وإذا أردت أن يحبك الناس فما كان عندك من فضولها فانبذها إليهم » . وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال : جلس إبراهيم إلى بعض العلماء فجعلوا يتذاكرون الحديث وإبراهيم ساكت ، ثم قال : حدثنا منصور ثم سكت فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس : فمات به بعض أصحابه في ذلك ! فقال : إني لأخشى مضرة ذلك المجلس في قلوبنا إلى اليوم . وقال رشدين بن سعد : مر إبراهيم بن آدم بالأوزاعي وحوله حلقة فقال : لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم . فقام الأوزاعي وتركهم . وقال إبراهيم بن بشار قيل لابن آدم : لم تركت الحديث ؟ فقال : إني مشغول عنه بثلاث ، بالشكر على النعم ، وبالاستغفار من الذنوب ، وبالاستعداد للموت . ثم صاح وغشى عليه فسمعوا هاتفاً يقول : لا تدخلوا بيبي وبين أوليائي . وقال أبو حنيفة يوماً لإبراهيم بن آدم : قد رزقت من العبادة شيئاً صالحاً فليكن انك من بالك فانه رأس العبادة وقوام الدين . فقال له إبراهيم : وأنت فليكن العبادة والعمل بالعلم من بالك وإلا هلك . وقال إبراهيم : ماذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن جهاد ولا عن صلة رحم ، إنما يسأل ويحاسب هؤلاء المساكين الأغنياء . وقال شقيق بن إبراهيم : لقيت ابن آدم بالشام وقد كنت رأيتُهُ بالعراق وبين يديه ثلاثون شاكرًا . فقلت له : تركت ملك خراسان ، وخرجت من نعمتك ؟ فقال : اسكت ما تهنت بالعيش إلا ههنا ، أفر بديني من شاهق إلى شاهق ، فمن يراني يقول هو موسوس أو حمال أو ملاح ، ثم قال : بلغني أنه يؤتى بالفقير يوم القيامة فيوقف بين يدي الله فيقول له : يا عبدي مالك لم تحج ؟ فيقول : يا رب لم تعطني شيئاً أحج به . فيقول الله : صدق عبدي اذهبوا به إلى الجنة . وقال أقت بالشام أربعاً وعشرين سنة لم أقم بها لجهاد ولا رباط إنما نزلتها لأشبع من خبز حلال . وقال : الحزن حزنان حزن لك وحزن عليك ، فحزنك على الآخرة لك . وحزنك على الدنيا وزينتها عليك . وقال : الزهد ثلاثة ، واجب ،

(١) زيادة من المصرية .

ومستحب ، وزهد سلامة ، فأما الواجب فالزهد في الحرام ، والزهد عن الشهوات الحلال مستحب .
 والزهد عن الشهوات سلامة . وكان هو وأصحابه يتنعمون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء ولا يحملون
 في مناحمهم أوزاراً ، وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب رمى بطيبتها إلى أصحابه وأكل هو الخبز
 والزيتون . وقال قلة الحرص والطمع تودث الصدق والورع ، وكثرة الحرص والطمع تودث الغم
 والجزع . وقال له رجل : هذه جبة أحب أن تقبلها مني . فقال : إن كنت غنياً قبلتها ، وإن كنت
 فقيراً لم أقبلها . قال : أنا غني . قال : كم عندك ؟ قال ألفان . قال : تود أن تكون أربعة آلاف ؟
 قال : نعم ، قال فأنت فقير ، لا أقبلها منك . وقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : لو أمكنتني أن أطلق
 نفسي لطلقتها . ومكث بمكة خمسة عشر يوماً لا شيء له ولم يكن له زاد سوى الرمل بالماء ، وصلى بوضوء
 واحد خمس عشرة صلاة ، وأكل يوماً على حافة الشريعة كسيرات مبلولة بالماء وضعها بين يديه أبو
 يوسف الغسولي ، فأكل منها ثم قام فشرب من الشريعة ثم [جاء واستلقى على قفاه وقال : يا أبا يوسف
 لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ
 العيش . فقال له أبو يوسف : طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم . فتبسم إبراهيم
 وقال : من أين لك هذا الكلام ؟ وبينما هو بالمصيصة في جماعة من أصحابه إذ جاءه راكب فقال :
 أيكم إبراهيم بن آدم ؟ فأرشد إليه ، فقال : يا سيدي أنا غلامك ، وإن أباك قد مات وترك مالا هو
 عند القاضي ، وقد جئتك بعشرة آلاف درهم لتنفقها عليك إلى بلخ ، وفرس وبغلة . فسكت
 إبراهيم طويلاً ثم رفع رأسه فقال : إن كنت صادقاً فالدرهم والفرس والبغلة لك ، ولا تخبر به أحداً .
 ويقال : إنه ذهب بعد ذلك إلى بلخ وأخذ المال من الحاكم وجعله كله في سبيل الله .

وكان معه بعض أصحابه فسكنوا شهرين لم يحصل لهم شيء يأكلونه ، فقال له إبراهيم : ادخل إلى
 هذه الغيضة - وكان ذلك في يوم شات - قال : فدخلت فوجدت شجرة عليها خوخ كثير فمالت
 منه جرابي ثم خرجت ، فقال : ما معك ؟ قلت : خوخ . فقال : يا ضعيف اليقين ! لو صبرت لوجدت
 رطباً جنياً ، كما رزقت مريم بنت عمران . وشكاً إليه بعض أصحابه الجوع فصلى ركعتين فاذا حوله
 دنانير كثيرة فقال لصاحبه : خذ منها ديناراً ، فأخذه واشترى لهم به طعاماً . وذكروا أنه كان
 يعمل بالفاعل ثم يذهب فيشترى البيض والزبدة وتارة الشواء والجودبان والخبيص فيطعمه أصحابه
 وهو صائم ، فاذا أفطر يأكل من ردى الطعام ويحرم نفسه المطعم الطيب ليبر به الناس تأليفاً لهم
 ونحبياً وتودداً إليهم .

وأضاف الأوزاعي إبراهيم بن آدم قصر إبراهيم في الأكل فقال : مالك قصرت ؟ فقال :
 لأنك قصرت في الطعام . ثم عمل إبراهيم طعاماً كثيراً ودعا الأوزاعي فقال الأوزاعي : أما تخاف

أن يكون سريراً فقال : لا ! إنما السرف ما كان في معصية الله ، فأما ما أنفته الرجل على إخوانه فهو من الدين . وذكروا أنه حصد مرة بعشرين ديناراً ، فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤسهم ويحجمهم ، فكأنه تبرم بهم واشتغل عنهم بغيرهم ، فتأذى صاحبه من ذلك ثم أقبل عليهم الحجام فقال : ماذا تريدون ؟ قال إبراهيم : أريد أن نحلق رأسي ونحجمني ، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين ديناراً ، وقال : أردت أن لا تحقر بعدها فقيراً أبداً . وقال مضاء بن عيسى : مافاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا صلاة ولكن بالصدق والسخاء .

وكان إبراهيم يقول : فروا من الناس كفراركم من الأسد الضاري ، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة . وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يحدته إبراهيم ، وكان إذا حضر في مجلس فكأنما على رؤسهم الطير هيبة له وإجلالا . وربما تسامر هو وسفيان الثوري في الليلة الشاتية إلى الصباح ، وكان الثوري يتحرز معه في الكلام . ورأى رجلاً قيل له : هذا قاتل خالك ، فذهب إليه فسلم عليه وأهدى له وقال : بلغني أن الرجل لا يبلغ درجة اليقين حتى يأمنه عدوه . وقال له رجل : طوبى لك أفنيت عمرك في العبادة وتركت الدنيا والزوجات . فقال : ألك عيال ؟ قال : نعم . فقال : لروعة الرجل بعيله - يعني في بعض الأحيان من الفاقة - أفضل من عبادة كذا وكذا سنة . وراه الأوزاعي ببيروت وعلى عنقه حزمة حطب فقال : يا أبا إسحاق إن إخوانك يكفونك هذا . فقال له : اسكت يا أبا عمرو فقد بلغني أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة . وخرج ابن آدم من بيت المقدس فمر بطريق فأخذته المسلحة في الطريق فقالوا : أنت عبد ؟ قال : نعم . قالوا : آبق ؟ قال نعم . فسجنوه . فبلغ أهل بيت المقدس خبره فجاءوا برمتهم إلى نائب طبرية فقالوا : علام سجن إبراهيم بن آدم ؟ قال : ماسجنته . قالوا : بلى هو في سجنك . فاستحضره فقال : علام سجنك . فقال : سل المسلحة ، قالوا : أنت عبد ؟ قلت نعم وأنا عبد الله . قالوا : آبق ؟ قلت نعم وأنا عبد آبق من ذنوبي . نخلي سبيله .

وذكروا أنه مر مع رفقة فاذا الأسد على الطريق فتقدم إليه إبراهيم بن آدم فقال له : يا قسورة إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فودك على بدئك . قالوا : فولى السبع ذاهبا يضرب بذنبيه ، ثم أقبل علينا إبراهيم فقال : قولوا : اللهم راعنا بعينك التي لا تنام ، واكنفنا بكتفك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله ، يا الله ، يا الله . قال خلف بن تميم : فما زلت أقولها منذ سمعتها فما عرض لي لص ولا غيره .

وقد روى لهذا شواهد من وجوه أخر . وروى أنه كان يصلي ذات ليلة فجاءه . أسد

ثلاثة فتقدم إليه أحدهم فشم ثيابه ثم ذهب فربض قريباً منه ، وجاء الثاني ففعل مثل ذلك ، وجاء الثالث ففعل مثل ذلك ، واستمر إبراهيم في صلاته ، فلما كان وقت السحر قال لهم : إن كنتم أمرتم بشيء فلهوا ، وإلا فانصرفوا فانصرفوا . وصعد مرة جبلاً بمكة ومعه جماعة فقال لهم : لو أن ولياً من أولياء الله قال لجبل زل لزال . فتحرك الجبل تحته فوكزه برجله وقال : اسكن فانما ضربتك مثلاً لأصحابي . وكان الجبل أبا قبيس . وركب مرة سفينة فأخذم الموح من كل مكان فلف إبراهيم رأسه بكسائه واضطجع وعج أصحاب السفينة بالضجيج والدعاء ، وأيقظوه وقالوا : ألا ترى ما نحن فيه من الشدة ؟ فقال : ليس هذه شدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . ثم قال : اللهم أريقنا قدرتك فأرنا عفوك . فصار البحر كأنه قد سدح زيت . وكان قد طالبه صاحب السفينة بأجرة حملة دينارين وألح عليه ، فقال له : اذهب معي حتى أعطيك دينارينك ، فأتى به إلى جزيرة في البحر فتوضأ إبراهيم وصلى ركعتين ودعا وإذا ما حوله قد ملئ دنانير ، فقال له : خذ حقك ولا تزد ولا تذكر هذا لأحد . وقال حذيفة المرعشي : أويت أنا وإبراهيم إلى مسجد خراب بالكوفة ، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئاً ، فقال لي : كأنك جائع . قلت : نعم . فأخذ رقعة فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال ، المشار إليه بكل معنى ،

أنا حامدٌ أنا ذاكرٌ أنا شاكرٌ • أنا جائعٌ أنا حاسرٌ أنا عارى
هي ستةٌ وأنا الضمينُ لنصفها • فكن الضمينُ لنصفها يباري
مدحى لغيرك وهج نارٍ خضتها • فأجر عبيدك من دخول النارِ

ثم قال لي : اخرج بهذه الرقعة ولا تعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى ، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه . فخرجت فاذا رجل على بغلة فدفعتها إليه فلما قرأها بكى ودفع إلى ستائة دينار وانصرف ، فسألت رجلاً من هذا الذي على البغلة ؟ فقالوا : هو رجل نصراني . فجئت إبراهيم فأخبرته فقال : الآن يجي فيسلم . فما كان غير قريب حتى جاء فأكب على رأس إبراهيم وأسلم . وكان إبراهيم يقول : دارنا أماناً وحياتنا بعد وفاتنا . فاما إلى الجنة وإما إلى النار . مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك وانظر كيف تكون حينئذ ، ومثل له هول المضجع ومساءلة منكر ونكير وانظر كيف تكون . ومثل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب ، وانظر كيف تكون . ثم صرخ صرخة خر مغشياً عليه . ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك فقال له : لا تطمع فيما لا يكون ، ولا تنس ما يكون . فقيل له : كيف هذا يا أبا إسحاق ؟ فقال : لا تطمع في البقاء والموت يطلبك ، فكيف يضحك من يموت ولا يدري أين يذهب به إلى جنة أم إلى نار ؟ ولا تنس ما يكون الموت يأتيك صباحاً أو مساءً . ثم قال : أوه أوه ! ثم خر مغشياً عليه . وكان يقول : مالنا نشكو فقرنا إلى

مثلنا ولا نسأل كشفه من ربنا . ثم يقول : شككت عبداً أمه أحب الدنيا ونسى ما في خزان مولاه
وقال : إذا كنت بالليل نائماً وبالنهار هائماً وفي المعاصي دائماً فكيف ترضى من هو بأمرك قائماً .
ورآه بعض أصحابه وهو بمسجد بيروت وهو يبكي ويضرب بيديه على رأسه ، فقال : ما يبكيك ؟
فقال : ذكرت يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . وقال : إنك كلما أمنت النظر في مرآة التوبة
بان لك قبح شين المعصية .

وكتب إلى الثوري : من سرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن
أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه . وسأله بعض الولاة من أين معيشتك ؟ فأنشأ يقول :

نزعُ دنيا ما بتزيقِ ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نزعُ
وكان كثيراً ما يمثل بهذه الأبيات :

لما توعد الدنيا به من شرورها * يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
والآفا يبكي منها وإنها * لأروح مما كان فيه وأوسع
إذا أبصر الدنيا استهل كأنما * يرى ما سيلقى من أذاها ويسمع
وكان يمثل أيضا :

رأيت الذنوب تميمت القلوب * ويورثها الذل إيمانها
وترك الذنوب حياة القلوب * وخير لنفسك عصيانها
وما أفسد الدين إلا ملوك * وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس فلم يربحوا • ولم يقل بالبيع أمانها
لقد رتع القوم في جيفة • تبين لدى اللب أمانها

وقال : إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك ، والاشتغال عن عيوبهم بدينك ، وعليك
باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل ، فكر في ذنوبك وتب إلى ربك يذبت الورع في قلبك ،
واقطع الطمع إلا من ربك . وقال : ليس من أعلام الحب أن تحب ما يفضده حبيبك ، ذم مولانا
الدنيا فمدحناها ، وأنفضها فأحبيناها ، وزهدنا فيها فأثرناها ورغبنا في طلبها ، ووعدكم خراب
الدنيا فحصنتموها ، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها ، وأنذركم الكنوز فكثرتموها ، دعتمكم إلى هذه
الفرارة دواعيها ، فأجبتكم مسرعين منادياها ، خدعتكم بغير ورها ، ومنتمكم فانقدتم خاضعين لأمانها
تسرغون في زهراتها وزخارفها ، وتقمعون في لذاتها وتنقلبون في شهواتها ، وتتلوثون بقبحاتها ،
تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها ، وتحفرون بمعاول الطمع في معادنها . وشكى إليه رجل كثرة
عياله فقال : ابعث إلى منهم من لا رزقه على الله . فسكت الرجل . وقال : مررت في بعض جبال
فاذا حجر مكتوب عليه بالعربية :

كُلُّ حَيٍّ وَإِنْ بَقِيَ • فَمَنْ الْعَيْشِ يَسْتَقِي
فَاعْمَلِ الْيَوْمَ وَاجْتَهِدْ * واحذر الموت يا شقي

قال : فبينما أنا واقف أقرأ وأبكي ، وإذا برجل أشعر أغبر عليه مدرعة من شعر فسلم وقال : مم
تبكي ؟ فقلت : من هذا . فأخذ بيدي ومضى غير بعيد فاذا بصخرة عظيمة مثل المحراب فقال اقرأ
وابك ولا تقصر . وقام هو يصلي فاذا في أعلاه نقش بين عربي :

لا تبغين جاهاً وجاهك ساقط * عند الملك وكن لجاهك مصلحاً

وفي الجانب الآخر نقش بين عربي :

من لم يثق بالقضاء والقدر * لا في هموماً كثيرة الضرر

وفي الجانب الأيسر منه نقش بين عربي :

ما أزين التقى وما أقبح الخنا * وكل ما أخذ بما جنا * وعند الله الجزا

وفي أسفل المحراب فوق الأرض بذراع أو أكثر :

انما الفوز والغنى * في تقى الله والعمل

قال : فلما فرغت من القراءة التفت فاذا ليس الرجل هناك ، فما أدري انصرف أم حجب عني .
وقال : أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان ، ومن وفي العمل وفي له الأجر ، ومن لم يعمل
رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير . وقال : كل سلطان لا يكون عادلاً فهو واللص
بمنزلة واحدة ، وكل عالم لا يكون ورعاً فهو والذئب بمنزلة واحدة ، وكل من خدم سوى الله فهو
والكلاب بمنزلة واحدة . وقال : ما ينبغي لمن ذل لله في طاعته أن يذل لغير الله في مجاعته ، فكيف
بمن هو يتقلب في نعم الله وكفايته ؟ وقال : أعر بنا في كلامنا فلم نلحن ، ولحنا في أعمالنا فلم نعرب .
وقال : كنا إذا رأينا الشاب يتكلم في المجلس أيسنا من خيره . وقال : جانبوا الناس ولا تنقطعوا
عن جمعة ولا جماعة .

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسن بن محمد بن زامين
الأسترابادي قال : أنبأ عبد الله بن محمد الحميدي الشيرازي أنبأ القاضي أحمد بن خرزاد الأهوازي
حدثني علي بن محمد القصوي حدثني أحمد بن محمد الحلبي سمعت سرياً السقطي يقول سمعت بشر
ابن الحارث الحافي يقول : قال إبراهيم بن آدم : وقفت على راهب فأشرف علي فقلت له : عظمي
فأنشأ يقول :

خذ عن الناس جانباً • كن بعدوك راهباً

إن دهرًا أظلني * قد أراني العجائب
 قلب الناس كيف شئت * تجمدتم عقاربا
 قال بشر فقلت لا إبراهيم هذه موعظة الراهب لك ، فعظني أنت . فأنشأ يقول :
 توحش من الاخوان لا تبغ مونساً * ولا تتخذ خلا ولا تبغ صاحباً
 وكن سامري الفعل من نسل آدم * وكن أو حدياً ما قدرت بجانباً
 فقد فسد الاخوان والحب والاخا * فلت ترى إلا مذوقاً وكاذباً
 فقلت ونؤلا أن يقال مدهمة * وتسكر حالاتي لقد صرت راهباً

قال سري ! فقلت لبشر : هذه موعظة إبراهيم لك فعظني أنت ، فقال : عليك بالحوول ولزوم
 بيتك . فقلت بلغني عن الحسن أنه قال : لولا الليل وملاقة الاخوان ما باليت متى مت . فأنشأ بشر
 يقول :
 يا من يسر برؤية الاخوان * مهلاً أمنت مكايد الشيطان
 خلت القلوب من المعاد وذكره * وتشاغلوا بالحرص والخسران
 صارت مجالس من ترى وحديثهم * في هنك مستور وموت جنان
 قال الحلبي فقلت لسري : هذه موعظة بشر فعظني أنت . فقال : عليك بالاخمال فقلت
 أحب ذاك ، فأنشأ يقول :

يا من يروم بزعمه إخملاً * إن كان حقاً فاستعد خصلاً
 ترك المجالس والتذاكر يا أخي * واجعل خروجك للصلاة خيلاً
 بل كن بها حياً كأنك ميت * لا يرتجى منه القريب وصلاً

قال علي بن محمد القصري : قلت للحلي هذه موعظة سري لك فعظني أنت . فقال : يا أخي
 أحب الأعمال إلى الله ما صعد إليه من قلب زاهد في الدنيا ، فزهد في الدنيا بحبك الله . ثم أنشأ يقول :
 أنت في دار شنائ * فتأهب لشتاتك * واجعل الدنيا كيوم * صمته عن شهواتك
 واجعل الفطر إذا * ما صمته يوم وفاتك
 قال ابن خرزاد فقلت لعلي : هذه موعظة الحلبي لك فعظني أنت . فقال لي : احفظ وقتك
 واسخ بنفسك لله عز وجل ، وانزع قيمة الأشياء من قلبك يصفوك بذلك مرك ويدكوه
 ذكرك . ثم أنشدني :

حياتك أنفاس تمد فكلما * مضى نفس منها انتقصت به جزءاً
 فتصبح في نقص وتسمى بمنله * ومالك معقول تحس به رزءاً
 يمينك ما يبيحك في كل ساعة * وبحدوك حاد ما يزيد بك الهزءاً

قال أبو محمد قلت لأحمد : هذه موعظة على لك فعظي . فقال : يا أخي عليك بلزوم الطاعة
وإياك أن تفارق باب القناعة ، وأصلح مشواك ، ولا تؤثر هواك ، ولا تبغ آخرتك بدنياك ، واشتغل
بما يعينك بترك ما لا يعينك . ثم أنشدني :

ندمتُ على ما كان مني ندامةً * ومن يتبع ما تشتهي النفس يندمُ
نخافوا لكما تأمنوا بعد موتكم * ستلقون رباً عادلاً ليس يظلمُ
فليس مغرورٍ بدنياه زاجرٌ * سيندمُ إن زلت به النعلُ فاعلموا

قال ابن زامين فقلت لأبي محمد : هذه موعظة أحمد لك فعظي أنت . فقال : اعلم رحمك الله أن
الله عز وجل ينزل العبيد حيث نزلت قلوبهم بهمومها ، فانظر أين ينزل قلبك ، واعلم أن الله
سبحانه يقرب من القلوب على حسب ما تقرب منه . وتقرب منه على حسب ما قرب إليها . فانظر
من القريب من قلبك . وأنشدني :

قلوبُ رجالٍ في الحجابِ نزولُ * وأرواحهم فيما هناك حلولُ
تروحُ نعيمِ الأنسِ في عزِّ قربهِ * بأفرادٍ توحيدِ الجليلِ نحولُ
لهمُ بقناه القربِ من محضِ برهِ * عوائدُ بذلِ خطبهنِ جليلُ

قال الخطيب : فقلت لابن زامين : هذه موعظة الحميدي لك فعظي أنت . فقال : اتق الله وثق
به ولا تتهمه فان اختياره لك خير من اختيارك لنفسك وأنشدني :

اتخذ الله صاحباً * ودع الناسَ جانباً
جرب الناسَ كيف شدُّ * ت تجدهم عقارباً

قال أبو الفرج غيث الصوري : فقلت للخطيب : هذه موعظة ابن زامين لك فعظي أنت .
فقال : احذر نفسك التي هي أعدى أعدائك أن تتابعها على هواها ، فذاك أعضل دائك ، واستشرف
الخوف من الله تعالى بخلافها ، وكرر على قلبك ذكر نعوتها وأوصافها ، فانها الأمانة بالسوء والفحشاء ،
والموردة من أطاعها موارد العطب والبلاء ، واعمد في جميع أمورك إلى تحري الصدق ، ولا تتبع
الهوى فيضلك عن سبيل الله . وقد ضمن الله لمن خالف هواه أن يجعل الجنة انطلاقة قراره ومأواه
ثم أنشد نفسه :

إن كنت تبغى الرشاد محضاً * في أمر دنياك والمعادِ
نخالف النفس في هواها * إن الهوى جامع الفسادِ

قال ابن عساكر : المحفوظ أن إبراهيم بن آدم توفي سنة ثنتين وستين ومائة . وقال غيره : إحدى
وستين وقيل سنة ثلاث . والصحيح ما قاله ابن عساكر والله أعلم . وذكروا أنه توفي في جزيرة من

جزائر بحر الروم وهو مرابط ، وأنه ذهب إلى الخلاء ليلة مات نحواً من عشرين مرة ، وفي كل مرة يجدد الوضوء بدهنها ، وكان به البطن ، فلما كانت غشية الموت قال : أوتروا لي قوسى ، فأوتروه فقبض عليه فمات وهو قابض عليه يريد الرمي به إلى المدور رحمة الله وأكرم مثواه .

وقد قال أبو سعيد بن الأعرابي : حدثنا محمد بن علي بن يزيد الصائغ قال سمعت الشافعي يقول : كان سفيان معجباً به :

[أجاعتهم الدنيا فخافوا ولم يزل • كذلك ذوالنقوى عن العيش ملجماً
أخو طيء داود منهم ومسعر • ومنهم وهيب والعريب ابن أدهما
وفي ابن سعيد قدوة البر والنهي • وفي الوارث الفاروق صدقاً مقدماً
وحسبك منهم بالفضيل مع ابنه • ويوسف ان لم يال أن يتسلما
أولك أصحابي وأهل مودني • فصلى عليهم ذو الجلال وسلمنا
فما ضر ذا التقوى نصال أسنة • وما زال ذو التقوى أعز وأكرماً
وما زالت التقوى تريك على الفتى • إذا مَحَضَ التقوى من العز ميسماً]

وروى البخاري في كتاب الأدب عن إبراهيم بن آدم وأخرج الترمذي في جامعه حديثاً

معلقاً في المسح على الخفين . والله سبحانه أعلم ، [(١)

وفيها توفي أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي القتيه الزاهد ، أخذ الفقه عن أبي حنيفة . قال سفيان بن عيينة : ثم ترك داود الفقه وأقبل على العبادة ودفن كتبه . قال عبد الله بن المبارك : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي . وقال ابن معين : كان ثقة ، وفد على المهدي ببغداد ثم عاد إلى الكوفة . ذكره الخطيب البغدادي . وقال : مات في سنة ستين ومائة ، وقيل في سنة ست وخمسين ومائة . وقد ذكر شيخنا الذهبي في تاريخه أنه توفي في هذه السنة - أعني سنة ثنتين وستين ومائة قاله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة فيها حصر المقفع الزنديق الذي كان قد نبغ بخراسان وقال بالتناسخ ، واتبعه على جهالته وضلالته خلق من الطغام وسفهاء الأثام ، والسفلة من العوام ، فلما كان في هذا العام لجأ إلى قلعة كش فحاصره سعيد الحرثي فألح عليه في الحصار ، فلما أحس بالغلبة تحسبها وسم نساءه فأتوا جميعاً ، عليهم لعائن الله . ودخل الجيش الاسلامي قلعة فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى المهدي ، وكان المهدي بحلب . قال ابن خلدكان : كان اسم المقنع عطاء ، وقيل جكيم ، والأول أشهر . وكان أولاً قصاراً ثم ادعى الربوبية ، مع أنه كان أعور قبيح المنظر ، وكان يتخذ له وجهاً من ذهب ، وتابعه على جهالته خلق

(١) زيادة من المصرية .

كثير ، وكان يرى الناس قرأ يرى من مسيرة شهرين ثم يغيب ، فمظم اعتقادهم له وبنموه بالسلاح ، وكان يزعم لعنه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً أن الله ظهر في صورة آدم ، ولهذا سجدت له الملائكة ، ثم في نوح ، ثم في الأنبياء واحداً واحداً ، ثم تحول إلى أبي مسلم الخراساني ، ثم تحول إليه . ولما حاصره المسلمون في قاعته التي كان جددتها بناحية كش مما وراء النهر ويقال لها سنام ، نحسى هو ونساؤه سمياً فماتوا واستحوذ المسلمون على حواصله وأمواله

وفيها جهز المهدي البعوث من خراسان وغيرها من البلاد لغزو الروم ، وأمر على الجميع ولده هارون الرشيد ، وخرج من بغداد مشيعاً له ، فسار معه مراحل واستخلف على بغداد ولده موسى الهادي ، وكان في هذا الجيش الحسين بن قحطبة والربيع الحاجب وخالد بن برمك - وهو مثل الوزير للرشيد ولي العهد - ويحيى بن خالد - وهو كاتبه وإليه النفقات - وما زال المهدي مع ولده مشيعاً له حتى بلغ الرشيد إلى بلاد الروم ، وارتاد هناك المدينة المسماة بالمهدية في بلاد الروم ، ثم رجع إلى الشام وزار بيت المقدس ، فسار الرشيد إلى بلاد الروم في جحافل عظيمة ، وفتح الله عليهم فتوحات كثيرة ، وغنموا أموالاً جزيلة جداً ، وكان لخالد بن برمك في ذلك أثر جميل لم يكن لغيره ، وبعثوا بالبشارة مع سليمان بن برمك إلى المهدي فأكرمه المهدي وأجزل عطائه .

وفيها عزل المهدي عمه عبد الصمد بن علي عن الجزيرة وولى عليها زفر بن عاصم الهلالي ، ثم عزله وولى عبد الله بن صالح بن علي . وفيها ولى المهدي ولده هارون الرشيد بلاد المغرب وأذر بيجان وأرمينية ، وجعل على رسائله يحيى بن خالد بن برمك ، وولى وعزل جماعة من النواب . وحج بالناس فيها على بن المهدي .

وفيها توفي إبراهيم بن طهمان ، وحرير بن عثمان الحمصي الرحبي ، وموسى بن علي اللخمي المصري وشعيب بن أبي حمزة ، وعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وإليه ينسب قصر عيسى ، ونهر عيسى ببغداد ، قال يحيى بن معين : كان له مذهب جميل ، وكان معتزلاً للسلطان . توفي في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة . وهمام بن يحيى ، ويحيى بن أبي أيوب المصري ، وعبيدة بنت أبي كلاب العابدة ، بكت من خشية الله أربعين سنة حتى عميت . وكانت تقول : أشتى الموت فاني أخشى أن أجنى على نفسي جناية تكون سبب هلاكي يوم القيامة .

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة

فيها غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم ، فأقبل إليه ميهمائل البطريق في نحو من تسعين ألفاً ، فيهم طازاذ الأرمني البطريق فقتل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف راجعاً - فأراد المهدي ضرب عنقه فكلّم فيه فحبسه في المطبق .

وفي يوم الأربعاء في أواخر ذي القعدة أسس المهدي قصرآ من ابن بيساباذ ، ثم عزم على الذهاب إلى الحج فأصابه حمى فرجع من أثناء الطريق ، ففطش الناس في الرجعة حتى كاد بعضهم يهلك ، فتعذب المهدي على يقطين صاحب المصانع ، وبعث من حيث رجع المهلب بن صالح بن أبي جعفر ليحج بالناس فحج بهم عامئذ . وفيها توفي شيبان بن عبد الرحمن النحوي ، وعبد العزيز بن أبي سلمة الملقبون ، ومبارك بن فضالة صاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

فيها جهز المهدي ولده الرشيد لغزو الصائفة ، وأنفذ معه من الجيوش خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ، وكان معه من النفقة مائة ألف دينار ، وأربعة وتسعون ألف دينار ، وأربعمائة وخمسون ديناراً ، ومن الفضة إحدى وعشرون ألفاً وأربعمائة ألف ، وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم . قال ابن جرير . فبلغ بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الروم يومئذ أغسطه امرأة أليون ، ووهبها ابنها في حجرها من الملك الذي توفي عنها ، فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له سبعمائة ألف دينار في كل سنة ، وقبل ذلك منها ، وذلك بعد ما قتل من الروم في الواقع أربعة وخمسين ألفاً وأسرى من الذراري خمسة آلاف رأس وستمائة وأربعة وأربعين رأساً ، وقتل من الأسرى ألفي قتيل صبراً ، وغنم من الدواب بأدواتها عشرين ألف فرس ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس . وبيع البرذون بدرم والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم وعشرون سيفاً بدرم . فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :

أطفت بـقسطنطينية الروم مسنداً • إليها القنا حتى اكتسى اللؤلؤ سورها
وما رهنها حتى أتتك ملوكها • بجزيتها والحربُ تغلّ قدورها

وحج بالناس صالح بن أبي جعفر المنصور ، وفيها توفي سليمان بن المغيرة ، وعبد الله بن العلاء ابن دبر ، وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان . ووهب بن خالد .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة

في المحرم منها قدم الرشيد من بلاد الروم فدخل بغداد في أبهة عظيمة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره . وفيها أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي ، ولقب بالرشيد . وفيها سخط المهدي على يعقوب بن داود وكان قد حظى عنده حتى استوزره وارتفعت منزلته في الوزارة حتى فوض إليه جميع أمر الخلافة ، وفي ذلك يقول بشار بن برد : -

بني أمية هبوا طال نومكم • إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا • خليفة الله بين الحر^(١) والموذ

(١) رواية ابن جرير : بين الدثف والموذ .

فلم تزل السماة والوشاة بينه وبين الخليفة حتى أخرجه عليه ، وكما سمعوا به إليه دخل إليه فأصلح أمره معه ، حتى وقع من أمره ما سأذكره ، وهو أنه دخل ذات يوم على المهدي في مجلس عظيم قد فرش بأنواع الفرش وألوان الحرير ، وحول ذلك المكان أصحان مزهرة بأنواع الأزهير ، فقال : يا يعقوب كيف رأيت مجلسنا هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أحسن منه . فقال : هو لك بما فيه ، وهذا الجارية ليتم بها سرورك ، ولي إليك حاجة أحب أن تقضيها . قلت : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : حتى تقول نعم . فقلت : نعم اوعلى السمع والطاعة . فقال ! الله ؟ قلت : الله . قال : وحياة رأسى قلت وحياة رأسك . فقال : ضع يدك على رأسى وقل ذلك ، فعلت . فقال : إن هنا رجلا من العلويين أحب أن تكفينيه ، والظاهر أنه الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب . فقلت : نعم ، فقال : وعجل على ، ثم أمر بتحويل ما في ذلك المجلس إلى منزلى وأمر لي بمائة ألف درهم وتلك الجارية ، فافرحت بشئ فرح بها . فلما صارت بمنزلى حجبتها في جانب الدار في خدر ، فأمرت بذلك العلوى فجئ به فجلس إلى فتكلم ، فمأرت أعقل منه ولا أفهم . ثم قال لي : يا يعقوب تلقى الله بدمى وأنا رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله . قلت : لا والله ولكن اذهب حيث شئت وأين شئت . فقال : إني أختار بلاد كذا وكذا . فقلت : اذهب كيف شئت ، ولا يظهرن عليك المهدي قهلك وأهلك . فخرج من عندى وجهرت معه رجلين يسفرانه ويوصلانه بهض البلاد ، ولم أشعر بأن الجارية قد أحاطت علما بما جرى ، وأنها كالجاسوس على ، فبعثت بخادمها إلى المهدي فأعلمته بما جرى ، فبعث المهدي إلى تلك الطريق فردوا ذلك العلوى فحبسه عنده في بيت من دار الخلافة ، وأرسل إلى من اليوم الثانى فذهبت إليه ولم أشعر من أمر العلوى بشئ ، فلما دخلت عليه قال : ما فعل العلوى ؟ قلت : مات . قال : الله اقلت الله . قال : فضع يدك على رأسى واحلف بحياته ، ففعلت . فقال : يا غلام أخرج ما في هذا البيت ، فخرج العلوى فأسقط في يدي ، فقال المهدي : دمك لي حلال . ثم أمر به فألقى في بئر في المطبق . قال يعقوب : فكنت في مكان لا أسمع فيه ولا أبصر ، فذهب بصرى وطال شعرى حتى صرت مثل البهائم ، ثم مضت على مدد متطاولة ، فبينما أنا ذات يوم إذ دعيت فخرجت من البئر قبيل لي : سلم على أمير المؤمنين . فسلمت وأنا أظنه المهدي ، فلما ذكرت المهدي قال : رحم الله المهدي . فقلت : الهادي ؟ فقال : رحم الله الهادي . فقلت : الرشيد ؟ قال نعم . فقلت : يا أمير المؤمنين قد رأيت ما حل بي من الضعف والعلّة ، فان رأيت أن تطلقنى . فقال : أين تريد ؟ قلت : مكة . فقال : اذهب راشداً ، فسار إلى مكة فما لبث بها إلا قليلا حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد كان يعقوب هذا يعظ المهدي في تعاطيه شرب النبيذ بين يديه ، وكثرة سماع الغناء فكان

يلومه على ذلك ويقول : ما على هذا استوزرتي ، ولا على هذا صحبتك ، أبعث الصلوات الحسن في المسجد الحرام يشرب الخمر ويفنى بين يديك ؟ فيقول له المهدي : فقد سمع عبد الله بن جعفر ، فقال له يعقوب : إن ذلك لم يكن له من حسناته ، ولو كان هذا قرينة لكان كلما داوم عليه العبد أفضل . وفي ذلك يقول بعض الشعراء حسناً للمهدي على ذلك :

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً • وأقبل على صهباء طيبة النشر

وفيها ذهب المهدي إلى قصره المسمى بعيسا باذ - بنى له بالأجر بعد القصر الأول الذي بناه بالبن - فسكنه وضرب هناك لدرام والدانير . وفيها أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يفعل أحد هذا قبل هذه السنة . وفيها خرج موسى الهادي إلى جرجان . وفيها ولي القضاء أبا يوسف صاحب أبي حنيفة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد عامل الكوفة . ولم يكن في هذه السنة صائفة للهدنة التي كانت بين الرشيد وبين الروم . وفيها توفي صدقة بن عبد الله السمين ، وأبو الأشهب المطاردي ، وأبو بكر النهشلي ، وعفير بن معدان .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

فيها وجه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف لم ير مثله ، وجعل على رسائله أبان بن صدقة . وفيها توفي عيسى بن موسى الذي كان ولي العهد من بعد المهدي : مات بالكوفة فاشهد نائبها روح بن حاتم - علي وفاته القاضي وجماعة من الأعيان . ثم دفن . وكان قد امتنع من الصلاة عليه فكتب إليه المهدي يعنفه أشد التعنيف ، وأمر بحاسبته على عمله . وفيها عزل المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل وولاه الربيع بن يونس الحاجب ، فاستخلف فيه سعيد بن واقد وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته . وفيها وقع وباء شديد وسعال كثير ببغداد والبصرة ، وأظلمت الدنيا حتى كانت كالليل حتى تعالي النهار ، وكان ذلك ليال بقين من ذي الحجة من هذه السنة . وفيها تتبع المهدي جماعة من الزنادقة في سائر الأقطار فاستحضرهم وقتلهم صبراً بين يديه ، وكان المتولى أمر الزنادقة عمر الكلواذي . وفيها أمر المهدي بزيادة كثيرة في المسجد الحرام ، فدخل في ذلك دور كثيرة ، وولى ذلك ليقطين بن موسى الموكل بأمر الحرمين ، فلم يزل في عمارة ذلك حتى مات المهدي كما سيأتي . ولم يكن للناس صائفة للهدنة . وحج بالناس نائب المدينة إبراهيم بن محمد . وتوفي بعد فراغه من الحج بأيام . وولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس . ومن توفي فيها من الأعيان .

بشار بن برد أبو معاذ الشاعر مولى عقيل ، ولد أعمى ، وقال الشعر وهو دون عشرين سنين ، وله التشبيهات التي لم يهتد إليها البصراء . وقد أثنى عليه الأصمعي والجاحظ وأبو تمام وأبو عبيدة ، وقال

له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر . فلما بلغ المهدي أنه هجاه وشهد عليه قوم أنه زنديق أمر به فضرب حتى مات عن بضع وسبعين سنة . وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات ، فقال : بشار بن برد بن رجوخ القيلي مولاهم ، وقد نسيه صاحب الأغاني فأطال نسيه . وهو بصري قدم بغداد أصله من طخارستان ، وكان ضخماً عظيم الخلق ، وشعره في أول طبقات المولدين ، ومن شعره البيت المشهور :

هل تعلمين وراء الحب منزلة • تُدنى إليك فإن الحب أقصا

وقوله : أنا والله أشبهى سحر عيني • لك وأخشى مصارع العشاق

وله : يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة • والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا لم لا نرى عينك قلت لهم • الأذن كالعين تروى القلب مكانا^(١)

وله : إذا بلغ الرأي النشاور فاستمن • بحزم نصيح أو نصيحة طازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة • فريش الخوافي قوة للقوام

وما خير كف أمسك الفل أختها • وما خير سيف لم يؤيد بقاتم

كان بشار يمدح المهدي حتى وشى إليه الوزير^(٢) أنه هجاه وقذفه ونسبه إلى شيء من الزندقة ،

وأنه يقول بتفضيل النار على التراب ، وعند إبليس في السجود لا دم ، وأنه أنشد :-

الأرض مظلمة والنار مشرقة • والنار معبودة منذ كانت النار

فأمر المهدي بضربه فضرب حتى مات . ويقال : إنه غرق ثم نقل إلى البصرة في هذه السنة .

وفيها توفي الحسن بن صالح بن حي ، وحماد بن سلمة ، والربيع بن مسلم ، وسعيد بن عبد العزيز

ابن مسلم ، وعتبة الغلام : وهو عتبة بن أبان بن صمة أحد العباد المشهورين البكائين المذكورين ،

كان يأكل من عمل يده في الخوص ، ويصوم الدهر ويفطر على الخبز والملح . والقلم الحذاء ،

وأبو هلال محمد بن سليم ، ومحمد بن طلحة ، وأبو حمزة اليشكري محمد بن ميمون .

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

فها في رمضان منها تقضت الروم ما بينهم وبين المسلمين من الصلح الذي عقده هارون الرشيد

عن أمر أبيه المهدي ، ولم يستمروا على الصلح إلا ثنتين وثلاثين شهراً ، فبعث نائب الجزيرة

خيلاً إلى الروم قتلوا وأمسروا وغنموا وسلخوا . وفيها اتخذ المهدي دواوين الأئمة^(٣) ولم يكن بنو أمية

يعرفون ذلك . وفيها حج بالناس على بن محمد المهدي الذي يقال له ابن ربيعة . وفيها توفي الحسن

(١) في هذا البيت تحريف (٢) بهامش التركية : أي نسب الوزير لبشار .

(٣) ويسمى واحدها (ديوان الزمام) . وروى أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع تفكر فإذا

هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأئمة في خلافة المهدي .

ابن يزيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ، ولاء المنصور المدينة خمس سنين ، ثم غضب عليه فضربه وجبسه وأخذ جميع ماله . [وحماد مجرد . كان ظريفاً ماجناً شاعراً ، وكان ممن يماثر الوليد ابن يزيد وبهاجى بشار بن برد . وقدم على المهدي ونزل الكوفة واتهم بالزندقة . قال ابن قتيبة في طبقات الشعراء : ثلاثة حمادون بالكوفة يرمون بالزندقة حماد الراوية ، وحماد مجرد ، وحماد بن الزبرقان النحوي . وكانوا يتشاعرون ويتماجنون .] (١) وخارجه بن مصعب ، وعبد الله بن الحسن ابن الحسين بن أبي الحسن البصرى ، قاضى البصرة بعد سوار . سمع خالداً الخذاء وداود بن أبي هند ، وسعيداً الجريرى . وروى عنه ابن مهدي . وكان ثقة فقيهاً له اختيارات تعزى إليه غريبة في الأصول والفروع ، وقد سئل عن مسألة فخطأ في الجواب فقال له قائل : الحكم فيها كذا وكذا . فأضرق ساعة ثم قال : إذا أرجع وأنا صاغر ، لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلى من أن أكون رأساً في الباطل . توفى في ذى القعدة من هذه السنة ، وقيل بعد ذلك بعشر سنين فانه أعلم . غوث ابن سليمان بن زياد بن ربيعة أبو يحيى الجرمي ، قاضى مصر ، كان من خيار الحكام ، ولى الديار المصرية ثلاث مرات في أيام المنصور والمهدي . وفليح بن سليمان ، وقيس بن الربيع في قول ، ومحمد بن عبده الله بن علاثة بن علقمة بن مالك ، أبو اليسر العقيلي ، قاضى الجانب الشرقى من بغداد للمهدي ، هو وعافية بن يزيد . وكان يقال لابن علاثة قاضى الجن ، لأنه كانت يثر يصاب من أخذ منها شيئاً فقال : أيها الجن ! إنا حكمنا أن لكم الليل ولنا النهار . فكان من أخذ منها شيئاً في النهار لم يصبه شيء . قال ابن معين : كان ثقة . وقال البخارى : فى حفظه شيء .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

فيها فى المحرم منها توفى المهدي بن المنصور بمكان يقال له ما سبذان ، بالحلى ، وقيل مسموماً وقيل عضه فرس فمات . وهذه ترجمته

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، أبو عبد الله المهدي ، أمير المؤمنين وإنما لقب بالمهدي رجاء أن يكون الموعود به فى الأحاديث فلم يكن به ، وإن اشتركا فى الاسم فقد افترقا فى الفعل ، ذاك يأتى فى آخر الزمان عند فساد الدنيا فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . وقد قيل إن فى أيامه ينزل عيسى بن مريم بدمشق كما سيأتى ذلك فى أحاديث الفتن والملاحم . وقد جاء فى حديث من طريق عثمان بن عفان أن المهدي من بنى العباس ، وجاء موقوفاً على ابن عباس وكعب الأخبار ولا يصح ، وبتقدير صحة ذلك لا يلزم أن يكون على النعمين ، وقد ورد فى حديث آخر أن المهدي من ولد فاطمة فهو يعارض هذا والله أعلم . وأم المهدي بن المنصور أم موسى

(١) زيادة من المصرية .

بنت منصور بن عبد الله الحيرى . روى عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس « أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، جهر بيسم الله الرحمن الرحيم » . رواه عنه يحيى بن حمزة النهشلى قاضى دمشق ، وذكر أنه
صلى خلف المهدي حين قدم دمشق فجهر في السورتين بالبسملة ، وأسنده ذلك عن رسول الله ص ،
ورواه غير واحد عن يحيى بن حمزة ، ورواه المهدي عن المبارك بن فضالة ، ورواه عنه أيضا جعفر
ابن سليمان الضبعي ، ومحمد بن عبد الله الرقاشي ، وأبو سفيان سعيد بن يحيى بن مهدي .

وكان مولد المهدي في سنة ست أو سبع وعشرين ومائة ، أو في سنة إحدى وعشرين ومائة
ولى الخلافة بعد موت أبيه في ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون
سنة ، ولد بالحيمة من أرض البلقاء ، وتوفى في المحرم من هذه السنة أعنى سنة تسع وستين ومائة
عن ثلاث أو ثمان وأربعين سنة ، وكانت خلافته عشرين شهرا و بعض شهر ، وكان أعمر طويلا
جمد الشعر ، على إحدى عينيه نكتة بيضاء ، قيل على عينه اليمنى ، وقيل اليسرى . قال الربيع
الحاجب : رأيت المهدي يصلى في ليلة مقمرة في بهوله عليه ثياب حسنة ، فما أدري هو أحسن أم
القمر ، أم بهوه ، أم ثيابه . فقرأ [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم]
الآية . ثم أمرنى فأحضرت رجلا من أقاربه كان مسجونا فأطلقه . ولما جاء خبر موت أبيه بمكة كما
تقدم ، كتم الأمر يومين ثم نودى في الناس يوم الخميس الصلاة جامعة ، فقام فيهم خطيبا فأعلمهم
بموت أبيه وقال : إن أمير المؤمنين دعى فأجاب فعند الله أحقب أمير المؤمنين وأستمينه على خلافة
المسلمين . ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذ . وقد عزاه أبو دلامة وهناه في قصيدة له يقول فيها : -

عيناى واحدة ترى مسرورة * بأيرها جذلا وأخرى تدرى
تبكى وتضحك تارة ويسورها * ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسورها موت الخليفة محرما * ويسرها أن قام هذا الأراف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى * شعرا أرجله وأخرى يفتف
هلك الخليفة يال أمة أحمد * وأناكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة * ولذاك جنات النعيم تزخرف

وقد قال المهدي يوما في خطبة : أيها الناس أسروا مثلما تعلمون من طاعتنا تهكم العاقبة ،
وتحمدوا العاقبة ، واخفضوا جناح الطاعة لمن ينشر معدنته فيكم ، ويطوى ثوب الاصر عنكم .
وأهل عليكم السلامة وابن المعيشة من حيث أراه الله ، مقدما ذلك على فعل من تقدمه ، والله لأعفين
عمرى من عقوبتكم ، ولأحملن نفسى على الاحسان إليكم . قال : فأشرقت وجوه الناس من حسن
كلامه . ثم استخرج حواصل أبيه من الذهب والفضة التي كانت لا تحمد ولا توصف كثرة ، ففرقها

في الناس ، ولم يعط أهله ومواليه منها شيئاً ، بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال ، لكل واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات وقد كان أبوه حريصاً على توفير بيت المال ، وإنما كان ينفق في السنة ألفي درهم من مال السراة . وأمر المهدي ببناء مسجد الرصافة وعمل خندق وسور حولها ، وبني مدناً ذكرناها فيما تقدم .

وذكر له عن شريك بن عبد الله الفاضل أنه لا يرى الصلاة خلفه ، فأحضره فتكلم معه ثم قال له المهدي في جملة كلامه : يا ابن الزانية ! فقال له شريك : مه مه يا أمير المؤمنين . فلقد كانت صوامع قوامة . فقال له : يا زنديق لاقتلتك . فضحك شريك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للزنادقة علامات يعرفون بها ، شربهم القهوات ، وأنخاذم القينات . فأطرق المهدي وخرج شريك من بين يديه . وذكروا أنه حاجت ریح شديدة ، فدخل المهدي بيتاً في داره فألذق خده بالتراب وقال : اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فما أناذا بين يديك ، اللهم لا تسمت بي الأعداء من أهل الأديان . فلم يزل كذلك حتى انجلت . ودخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله (ص) ، قد أهديتها لك . فقال : هاتها ، فناوله إياها ، فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما انصرف الرجل قال المهدي : والله إني لأعلم أن رسول الله (ص) لم ير هذه النعل ، فضلاً عن أن يلبسها ، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس : أهديت إليه نعل رسول الله (ص) ، فردها علي ، فتصدقته الناس ، لأن العامة تميل إلى أمثالها ، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوى وإن كان ظالماً ، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ، ورأينا هذا أرجح وأصلح .

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها ، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن إبراهيم فحدثه بحديث أبي هريرة : « لاسبق إلا في خوف أو نعل أو حافر » . وزاد في الحديث « أو جناح » فأمر له بعشرة آلاف . ولما خرج قال : والله إني لأعلم أن عتاباً كذب علي رسول الله (ص) . ثم أمر بالحمام فذبح ولم يذكر عتاباً بعدها . وقال الواقدي : دخلت على المهدي يوماً فحدثته بأحاديث فكتبها عني ثم قام فدخل بيوت نسائه ثم خرج وهو ممتلي غيظاً فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : دخلت على الخيزران فقامت إلى ووزقت ثوبي وقالت : ما رأيت منك خيراً ، وإني والله يا واقدي إنما اشتريتها من نخاس ، وقد نالت عندي ما نالت ، وقد بايعت لولدها بامرة المؤمنين من بعدى . فقلت : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) قال : « إنهن يغلبن الكرام ويغلبن اللثام » . وقال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله ، وقد خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرتة » . وحدثته في هذا الباب بكلام حضرتي . فأمر لي بألفي دينار ، فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقني بألفي دينار إلا عشرة دنانير ، وإذا معه أثواب أخر ، وبعثت تشكرني وتثنى علي معروفاً .

وذكروا أن المهدي كان قد أهدر دم رجل من أهل الكوفة وجعل لمن جاء به مائة ألف ، فدخل الرجل بغداد متنكراً فلقبه رجل فأخذ بمجامع ثوبه ونادى : هذا طلبه أمير المؤمنين . وجعل الرجل يريد أن ينفلت منه فلا يقدر ، فبيناهما ، يتجاذبان وقد اجتمع الناس عليهما ، إذ مر أمير في موكبهِ - وهو معن بن زائدة - فقال الرجل ايا أبا الوليد خائف مستجير . فقال معن : ويحك مالك وله ؟ فقال هذا طلبه أمير المؤمنين ، جعل لمن جاء به مائة ألف . قال معن : أما علمت أني قد أجرته ؟ أرسله من يدك . ثم أمر بعض غلمانه فترجل وأركبه وذهب به إلى منزله ، وانطلق ذلك الرجل إلى باب الخليفة وأنهى إليهم الخبر ، فبلغ المهدي فأرسل إلى معن فدخل عليه فسلم فلم يرد عليه السلام وقال : يا معن أبلغ من أمرك أن تجير علي ؟ قال : نعم قال : ونعم أيضا قال : نعم ! قد قتلت في دولتكم أربعة آلاف مصل فلا يجار لي رجل واحد ؟ فأطرق المهدي ثم رفع رأسه إليه وقال : قد أجرنا من أجرته يا معن . فقال : يا أمير المؤمنين إن الرجل ضعيف ، فأمر له بثلاثين ألفا . فقال : إن جريرته عظيمة وإن جوائز الخلفاء على قدر جرائم الرعية . فأمر له بمائة ألف ، فحملت بين يدي معن إلى ذلك الرجل ، فقال له معن : خذ المال وادع لأمر المؤمنين وأصلح نيتك في المستقبل .

وقدم المهدي مرة البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين مر هؤلاء فلينظروني حتى أتوضأ - يعني المؤذنين - فأمرهم بانتظاره ، ووقف المهدي في المحراب لم يكبر حتى قيل له هذا لأعرابي قد جاء . فكبر ، فتهجب الناس من سماحة أخلاقه . وقدم أعرابي ومعه كتاب مخنوم فجعل يقول : هذا كتاب أمير المؤمنين إلى ، ابن الرجل الذي يقال له الربيع الحاجب ؟ فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فاذا هو قطعة أديم فيها كتابة ضعيفة ، والأعرابي يزعم أن هذا خط الخليفة ، فتبسم المهدي وقال : صدق الأعرابي ، هذا خطي ، إني خرجت يوماً إلى الصيد فضعت عن الجيش وأقبل الليل فتعوذت بتعويذ رسول الله - ص - ، فرفع لي نار من بعيد فقصدتها فاذا هذا الشيخ وامرأته في خباء بوقدان نارا ، فسلمت عليهما فردا السلام وفرش لي كساء وسقاني مذقة من لبن مشوب بماء ، فما شربت شيئاً إلا وهي أطيب منه ، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر أنني نمت أحلى منها . فقام إلى شويبة له فذبحها فسمعت امرأته تقول له : عمدت إلى مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها ، هلكت نفسك وعيالك . فما التفت إليها ، واستيقظت فاشتويت من لحم تلك الشويبة وقلت له : أعندك شيء أكتب لك فيه كتاباً ؟ فأناني بهذه القطعة فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمسمائة ألف ، وإنما أردت خمسين ألفا ، والله لا نفذنها له كلها ولولم يكن في بيت المسال سواها . فأمر له بخمسمائة ألف فقبضها الأعرابي واستمر مقبياً في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار ، فجعل يقرى الضيف ومن مرتبه من الناس ، فعرف منزله بمنزل مضيف أمير المؤمنين المهدي .

وعن سوار - صاحب رجة سوار - قال : انصرفت يوماً من عند المهدي فجت منزلي فوضع لي الغداء فلم تقبل نفسي عليه ، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم ، فاستدعيت بعض حظايي لأتلمى بها فلم تقبسط نفسي إليها ، فهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلاً حتى لقيتني رجل ومعه ألف درهم ، قلت : من أين هذه ؟ فقال : من ملكك الجديد . فاستصحبته معي وسرت في أزقة بغداد لا تشاغل عما أنا فيه من الضجر ، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات ، فنزلت لأصلي فيه ، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي فقال : إن لي إليك حاجة ، قلت : وما حاجتك ؟ فقال : إني رجل ضريب ولكنني لما شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة ، فأحببت أن أفضي إليك بما جرتي . قلت : وما هي ؟ فقال : إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا صغير ، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر ، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي ، فجت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئاً أتبلغ به لعملى أجمع بسوار ، فانه كان صاحباً لأبي ، فلمله أن يكون عنده سعة يجود منها علي . قلت : ومن أبوك ؟ فذكر رجلاً كان أصحب الناس إلى ، قلت : إني أنا سوار صاحب أبيك ، وقد منعتني الله يومك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجمع بك ، وأجلسني بين يديك ، وأمرت وكيلى فدفعت له الألفي الدرهم التي معه ، وقلت له : إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا . وركبت فجت دار الخلافة وقلت : ما أنحف المهدي الليلة في السر بأغرب من هذا . فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جداً وأمر لذلك الأعمى بألفي دينار ، وقال لي : هل عليك دين ؟ قلت نعم ، قال : كم ؟ قلت : خمسون ألف دينار . فسكت وحادثني ساعة ثم لما قمت من بين يديه فوصلت إلى المنزل إذا الجمالون قد سبقوني بخمسين ألف دينار وألفي دينار للأعمى ، فانتظرت الأعمى أن يجي في ذلك اليوم فتأخر فلما أمسيت عدت إلى المهدي فقال : قد فكرت في أمرك فوجدتك إذا قضيت دينك لم يبق معك شيء ، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى . فلما كان اليوم الثالث جاءني الأعمى قلت : قد رزقني الله بسببك خيراً كثيراً ، ودفعت له الألفي الدينار التي من عند الخليفة وزدته ألفي دينار من عندي أيضاً .

ووقفت امرأة للمهدي فقالت : يا عضبة رسول الله اقض حاجتي . فقال المهدي : ما سمعتها من أحد غيرها ، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درهم . ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها ابن الخياط وأنشأ يقول :-

أخذتُ بكفى كفه أبتغى الغنى • ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى • أفدت ، وأعداني فبددت ما عندي

قال : فبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً . وبالجملة فان المهدي مات ومحاسن كثيرة ، وقد كانت وفاته بما سبذان ، كان قد خرج إليها ليعث إلى ابنه الهادي ليحضر إليه من جرجان حتى يخله من ولاية العهد ويجمعه بعد هارون الرشيد ، فامتنع الهادي من ذلك ، فركب المهدي إليه قاصداً إحضاره ، فلما كان بما سبذان مات بها . وكان قد رأى في النوم وهو يقصره ببغداد - المهدي بقصر السلامة - كان شيخاً وقف بباب القصر ، ويقال إنه سمع هاتفاً يقول : -

كأني بهذا القصر قد باد أهله * وأزحش منه ربه ومنازله
وصار عميد التوم من بعد بهجة * وملك إلى قبر عليه جنادله
ولم يبق إلا ذكره وحديثه * تنادى عليه معولات حلاله

فما عاش بعدها إلا عشرأ حتى مات . وروى أنه لما قال له الهاتف : -

كأني بهذا القصر قد باد أهله * وقد درست أعلامه ومنازله
فأجابه المهدي : كذلك أمور الناس يبلى جديدها * وكل فتى يوماً سقلى فعائله
فقال الهاتف : تزود من الدنيا فانك ميت * وإنك مستول فما أنت قائله
فأجابه المهدي : أقول بأن الله حق شهادته * وذلك قول ليس نحصى فضائله
فقال الهاتف : تزود من الدنيا فانك راحل * وقد أرف الأمر الذي بك نازل
فأجابه المهدي : متى ذلك خبرني هديت فاني * سأفعل ما قد قلت لي وأعاجله
فقال الهاتف : تلبث ثلاثاً بعد عشرين ليلة * إلى منتهى شهر وما أنت كامله

قالوا : فلم يعيش بعدها إلا تسعاً وعشرين يوماً حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير اختلافاً في سبب موته ، فقيل إنه ساق خلف ظبي والكلاب بين يديه فدخل الظبي إلى خربة فدخلت الكلاب وراءه وجاء الفرس فحمل بمشواره فدخل الخربة فكسر ظهره ، وكانت وفاته بسبب ذلك . وقيل إن بعض حظاياها بعثت إلى أخرى ابناً مسموماً فر الرسول بالمهدي فأكل منه فمات . وقيل بل بعثت إليها بصينية فيها الكعري وفي أعلاها واحدة كبيرة مسمومة ، وكان المهدي يعجبه الكعري ، فمرت به الجارية ومها تلك الصينية فأخذت في أعلاها فأكلها فمات من ساعته ، فجعلت الحظية تندبه وتقول : وأمير المؤمنيناه ، أردت أن يكون لي وحدي فقتلته بيدي . وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة - أعني سنة تسع وستين ومائة - وله من العمر ثلاث وأربعون سنة على المشهور ، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وكسوراً ، ورتاه الشعراء برائي كثيرة قد ذكرها ابن جرير وابن عساكر .

وفيها توفي عبید الله بن زياد ، ونافع بن عمر الجمحي ، ونافع بن أبي نعيم القاري .

مخدوم موسى الراوي بن المهدي

توفي أبوه في المحرم من أول سنة تسع وستين ومائة وكان ولي العهد من بعد أبيه ، وكان أبوه قد عزم قبل موته على تقديم أخيه الرشيد عليه في ولاية العهد ، فلم يتفق ذلك حتى مات المهدي بمسبذان . وكان الهادي إذ ذاك بجزان ، فهم بعض الدولة منهم الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشيد عليه والمبايعة له ، وكان الرشيد حاضراً ببغداد ، وعزموا على النفقة على الجند لذلك تنفيذاً لما رآه المهدي من ذلك . فأسرع الهادي السير من جزان إلى بغداد حين بلغه الخبر ، فساق منها إليها في عشرين يوماً ، فدخل بغداد وقام في الناس خطيباً ، وأخذ البيعة منهم فبايعوه ، وتغيب الربيع الحاجب فتطلبه الهادي حتى حضر بين يديه ، فعفا عنه وأحسن إليه وأقره على حجو بيته ، وزاده الوزارة وولايات أخر . وشرع الهادي في تطلب الزنادقة من الآفاق فقتل منهم طائفة كثيرة ، واقتدى في ذلك بأبيه ، وقد كان موسى الهادي من أفكاه الناس مع أصحابه في الخلوة ، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه ، لما يعلوه من المهابة والرياسة ، وكان شاباً حسناً وقوراً مهيباً .

وفيها - أعنى سنة تسع وستين ومائة - خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وذلك أنه أصبح يوماً وقد لبس البياض وجلس في المسجد النبوي ، وجاء الناس إلى الصلاة فلما رأوه ولوا راجعين ، والتف عليه جماعة فبايعوه على الكتاب والسنة والرضى من أهل البيت . وكان سبب خروجه أن متوليها خرج منها إلى بغداد ليبنى الخليفة بالولاية ويعزبه في أبيه . ثم جرت أمور اقتضت خروجه ، والتف عليه جماعة وجعلوا مأواهم المسجد النبوي ، ومنعوا الناس من الصلاة فيه ، ولم يجبه أهل المدينة إلى ما أرادوه ، بل جعلوا يدعون عليه لانتهاكه المسجد ، حتى ذكر أنهم كانوا يقذرون في جنبات المسجد ، وقد اقتتلوا مع المسودة مرات فقتل من هؤلاء وهؤلاء . ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج ، فبعث إليه الهادي جيشاً فقاتلوه بعد فراغ الناس من الموسم فقتلوه وقتلوا طائفة من أصحابه ، وهرب بقيتهم وتفرقوا شذرمذرم . فكان مدة خروجه إلى أن قتل تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقد كان كرمياً من أجود الناس : دخل يوماً على المهدي فأطلق له أربعين ألف دينار ففرقها في أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة ، ثم خرج من الكوفة وما عليه قميص ، إنما كان عليه فروة وليس تحتها قميص .

وفيها حج بالناس سليمان بن أبي جعفر عم الخليفة . وغزا الصائفة من طريق درب الراهب معتوق بن يحيى في جحل كثيف ، وقد أقبلت الروم مع بطريقها فبلغوا الحدث . وفيها توفي الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب قتل في أيام التشريق كما تقدم .

والربيع بن يونس الحاجب مولى المنصور، وكان حاجبه ووزيره، وقد ورر للعهدى والهادى، وكان بعضهم يظمن في نسبه. وقد أورد الخطيب في ترجمته حديثاً من طريقه ولكنه منكر، وفي صحته عنه نظر. وقد ولى الحجوبية بعده ولده الفضل بن الربيع، ولاء إياها الهادى.

ثم دخلت سنة سبعين ومائة من الهجرة النبوية

وفيها عزم الهادى على خلع أخيه هارون الرشيد من الخلافة وولاية العهد لابنه جعفر بن الهادى فانقاد هارون لذلك ولم يظهر منازعة بل أجاب، واستدعى الهادى جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك، وأبت ذلك أمهما الخيزران، وكانت تميل إلى ابنها هارون أكثر من موسى، وكان الهادى قد منعها من التصرف فى شئ من المملكة لذلك، بعد ما كانت قد استحوذت عليه فى أول ولايته، وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء إلى جنبها، فحلف الهادى اثنى عاد أمير إلى بابها ليضرب عنقه ولا يقبل منه شفاعة، فامتنعت من الكلام فى ذلك، وحلفت لا تكلمه أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر. وألح هو على أخيه هارون فى الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك - وكان من أكبر الأمراء الذين هم فى صف الرشيد - فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابنى جعفر؟ فقال له خالد: إني أخشى أن تهون الايمان على الناس، ولكن المصلحة تقتضى أن تجعل جعفرأولى العهد من بعد هارون، وأيضاً فاني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ، فيتفاقم الامر ويختلف الناس. فأطرق ملياً - وكان ذلك ليلاً - ثم أمر بسجنه ثم أطلقه. وجاء يوماً إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً، فجعل الهادى ينظر إليه ملياً ثم قال: يا هارون! أطمع أن تكون ولياً للعهد حقاً؟ فقال: إى والله، وإئن كان ذلك لأصلن من قطعت، ولأنصفن من ظلمت، ولأزوجن بذك من بناتى. فقال ذاك الظن بك. فقام إليه هارون ليقبل يده فحلف الهادى ليجلس معه على السرير فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخيزران فأتته منها ما أراد، وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه. ففعل ذلك كله ورضى الهادى عن الرشيد. ثم سافر الهادى إلى حديثة الموصل بعد الصلح، ثم عاد منها فمات بعياباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول، وقيل لآخر سنة سبعين ومائة، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة، وكانت خلافته ستة أشهر^(١) وثلاثة وعشرون يوماً. وكان طويلاً جميلاً، أبيض، بشفته العليا تقلص. وقد توفى هذه الليلة خليفة وهو الهادى، وولى خليفة وهو الرشيد، وولد خليفة وهو المأمون بن الرشيد. وقد قالت الخيزران أمهما فى أول الليل: إنه بلغنى أن يولد خليفة ويموت خليفة ويولى خليفة. يقال إنها سمعت ذلك من الأوزاعى قبل ذلك بمدة، وقد سرها ذلك جداً. ويقال: إنها

(١) فى المصرية: سنة وشهراً وثلاثة وعشرين يوماً.

سمت ولدها الهادي خوفا منه على ابنها الرشيد ، ولأنه كان قد أبدها وأقصاها وقرب حظينه خالصة وأدناها فله أعلم .

وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي

هو موسى بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو محمد الهادي . ولي الخلافة في محرم سنة تسع وستين ومائة . ومات في النصف من ربيع الأول أو الآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث ، وقيل أربع ، وقيل ست وعشرون سنة ، والصحيح الأول ، ويقال إنه لم يل الخلافة أحد قبله في سنه ، وكان حسناً جميلاً طويلاً ، أبيض ، وكان قوى البأس يثب على الدابة وعليه درعان ، وكان أبوه يسميه ربحانتي . ذكر عيسى بن داب قال : كنت يوماً عند الهادي إذ جئ بطست فيه رأس جاريتين قد ذبحا وقطعا ، لم أر أحسن صوراً منهما ، ولا مثل شعورهما ، وفي شعورهما اللآليء والجواهر منضدة ، ولا رأيت مثل طيب ربحهما . فقال لنا الخليفة : أتدرون ما شأن هاتين ؟ قلت : لا . فقال : إنه ذكر أنه تركب إحداهما الأخرى يفعلان الفاحشة ، فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءني فقال : إنهما مجتمعتان ، فجئت فوجدتهما في لحاف واحد وهما على الفاحشة ، فأمرت بجز رقابهما . ثم أمر برفع رؤسهما من بين يديه ورجع إلى حديثه الأول كأنه لم يصنع شيئاً . وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً ، ومن كلامه : ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني ، والعفو عن الزلات ، ليقبل الطمع عن الملك . وغضب يوماً على رجل فاسترضى عنه فرضى ، فشرع الرجل يعتذر فقال الهادي : إن الرضا كفاك مؤنة الاعتذار . وعزى رجلا في ولده فقال له : سرّك وهو عدو وفتنة ، وساء لك وهو صلاة ورحمة . وروى الزبير بن بكار أن مروان بن أبي حفصة أنشد الهادي قصيدة له منها قوله : -

تشابة يوماً بأسه ونواله * فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي : أيما أحب إليك ؟ ثلاثون ألفاً معجلة أو مائة ألف تدور في الدواوين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أو أحسن من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : تكون ألفاً معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين . فقال الهادي : أو أحسن من ذلك ، نعجل الجميع لك . فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة . قال الخطيب البغدادي : حدثني الأزهرى ثنا سهل بن أحمد الديباجي ثنا الصولي ثنا الغلابي حدثني محمد بن عبد الرحمن التيمي المكي حدثني المطلب بن عكاشة المزني قال : قدمنا على أبي محمد الهادي شهوداً على رجل منا أنه شتم قریشاً ونحطى إلى رسول الله (ص) ، فجلس لنا مجلساً أحضر فيه فقهاء أهل زمانه ومن كان بالحضرة على بابه ، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه . فتغير وجه الهادي ثم نكس رأسه ثم رفعه ثم قال : إني سمعت أبي المهدي يحدث عن أبيه المنصور

عن أبيه علي بن عبد الله بن عباس قال : من أهان قريشاً أهانه الله ، وأنت يا عدو الله لم ترض بأن
ذبت قريشاً حتى تخطبت إلى ذكر رسول الله (ص) ؟ اضربوا عنقه . فما برحنا حتى قتل .
توفي الهادي في ربيع الأول من هذه السنة ، وصلى عليه أخوه هارون ، ودفن في قصر بناء
وسماه الأبيض بعيساباذ من الجانب الشرقي من بغداد ، وكان له من الولد تسعة ، سبعة ذكور وابتنان ،
قاله كورجمر ، وعباس ، وعبد الله ، وإسحاق ، وإسماعيل ، وسليمان ، وموسى الأعمى ، الذي ولد
بعد وفاته فسمى باسم أبيه . والبتنان هما أم عيسى التي تزوجها المأمون ، وأم العباس تلافب توبة .

خلفته هارون الرشيد بن المهدي

بويح له بالخلافة ليلة مات أخوه ، وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة سبعمائة ومائة
وكان عمر الرشيد يومئذ ثنتان وعشرين سنة ، فبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن ،
وقد كان الهادي عزم تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد ، وكان الرشيد ابنه من الرضاعة ،
فولاه حينئذ الوزارة ، وولى يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الأضواء . وكان هو الذي قام خطيباً
بين يديه حتى أخذت البيعة له على المنبر بعيساباذ ، ويقال إنه لما مات الهادي في الليل جاء يحيى
ابن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً فقال : قم يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : كم نروعي ،
لو سمعك هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنوبي عنده ؟ فقال : قد مات الرجل . فجلس هارون فقال :
أشر على في الولايات . فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوأيهم الرشيد ، فبينما هما كذلك إذ
جاء آخر فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعة غلام . فقال : هو عبد الله وهو المأمون . ثم
أصبح فصلى على أخيه الهادي ، ودفنه بعيساباذ ، وحلف لا يصلى الظهر إلا ببغداد . فلما فرغ من
الجنائز أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادي ، فزاحوا الرشيد على جسر
فقال أبو عصمة : اصبر وقف حتى يجوز ولي العهد . فقال الرشيد : السمع والطاعة للأمير . فجاز
جعفر وأبو عصمة ووقف الرشيد مكسوراً ذليلاً . فلما ولى أمر بضرب عنق أبي عصمة ، ثم سار إلى
بغداد . فلما انتهى إلى جسر بغداد استدعى بالنواصين فقال إنى سقط منى ههنا خاتم كان والدي
المهدي قد اشتراه لي بمائة ألف ، فلما كان من أيام بعث إلى الهادي يطلبه فألقته إلى الرسول فسقط
ههنا . ففاص النواصون وراه فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً . ولما ولى الرشيد يحيى بن
خالد الوزارة قال له : قد فوضت إليك امر الرعية وخلعت ذلك من عنق وجملته في عنقك ، فول
من رأيت واعزل من رأيت . ففي ذلك يقول إبراهيم بن الموصلي : -

الم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها

ثم إن هارون أمر بجي بن خالد أن لا يقطع أمراً إلا بمشاورة والدته الخيزران . فكانت هي المشاورة في الأمور كلها ، فتبرم وتحمل وتمضى وتحكم .

وفيها أمر الرشيد بسهم ذوى القربى أن يقسم بين بنى هاشم على السواء . وفيها تتبع الرشيد خنقا من الزنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة . وفيها خرج عليه بعض أهل البيت . وفيها ولد الأمين محمد بن الرشيد ابن زبيدة . وذلك يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة . وفيها كل بناء مدينة طرسوس على يدي فرج الخادم التركي ونزلها الناس . وفيها حج بالناس أمير المؤمنين الرشيد ، وأعطى أهل الحرمين أموالا كثيرة ، ويقال إنه غزا في هذه السنة أيضا . وفي ذلك يقول داود بن رزين الشاعر : -

بهارونَ لاحَ النورُ في كلِّ بلدةٍ * وقامَ بهِ في عدلِ سيرتهِ النهجُ
إمامَ بذاتِ اللهِ أصبحَ شغلُهُ * وأكثرُ ما يعنى بهِ الغزوُ والحجُ
تضيُّقُ عيونِ الناسِ عن نورِ وجهِهِ * إذا ما بدا للناسِ منظرُهُ البلجُ
وإنَّ أمينَ اللهِ هارونَ ذا النداءِ * يذبلُ الذي يرجوه أضعافَ ما يرجو

وغزا الصائفة فيها سليمان بن عبد الله البكائي .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم أبو عبد الرحمن الفراهيدي ، ويقال الفرهودي الأزدي ، شيخ للنحاة ، وعنه أخذ سيبويه والنضر بن شمائل ، وغير واحد من أكارم ، وهو الذي اخترع علم العروض . قسمه إلى خمس دوائر وفرعه إلى خمسة عشر بحراً ، وزاد الأخصف فيه بحراً آخر وهو الخبيب ، وقد قال بعض الشعراء : -

قد كانَ شعراً الوري صحيحاً * من قبل أن يخلق الخليلُ

وقد كان له معرفة بعلم النغم ، وله فيه تصنيف أيضاً ، وله كتاب العين في اللغة ، ابتداءه وأكمله النضر بن شمائل وأضرابه من أصحاب الخليل ، كمؤرج السدوسي ، ونصر بن علي الجهضني . فلم يناسبوا ما وضعه الخليل . وقد وضع ابن درستويه كتاباً وصف فيه ما وقع لهم من الخلل فأفاد . وقد كان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً وقوراً كاملاً ، وكان متقللاً من الدنيا جداً ، صبوراً على خشونة العيش وضيقة ، وكان يقول : لا يجاوز همي ما وراء بابي ، وكان ظريفاً حسن الخلق ، وذكر أنه اشتغل رجل عليه في العروض وكان بعيد الذهن فيه : قال فقلت له يوماً : كيف تقطع هذا البيت ؟

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه إلى ما تستطيع

فشرع معي في تقطيعه على قدر معرفته ، ثم إنه نهض من عندي فلم يعد إلى ، وكأنه فهم ما أشرت

إليه . ويقال إنه لم يسم أحد بعد النبي (ص) بأحمد سوى أبيه . روى ذلك عن أحمد بن أبي خينمة
والله أعلم . ولد الخليل سنة مائة من الهجرة ، ومات بالبصرة سنة سبعين ومائة على المشهور ، وقيل
سنة ستين ، وزعم ابن الجوزي في كتابه شذور العقود أنه توفي سنة ثلاثين ومائة ، وهذا غريب
جداً . والمشهور الأول .

وفيهما توفي الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي مولاهم ، المصري المؤدب راوية
الشافعي ، وآخر من روى عنه . وكان رجلاً صالحاً تفرس فيه الشافعي وفي البويطي والمزني وابن
عبد الحكم العلم فوافق ذلك ما وقع في نفس الأمر . ومن شعر الربيع هذا :

صبراً جميلاً ما أسرع الفرجا * من صدق الله في الأمور نجبا

من خشى الله لم ينله أذى * ومن رجا الله كان حيث رجا

فأما الربيع بن سليمان بن داود الجيزي فإنه روى عن الشافعي أيضاً . وقد مات في سنة ست
وخمسين ومائتين والله أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة

فيها أضاف الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد مع الوزارة . وفيها قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن
فروخ نائب الجزيرة صبراً في قصر الخلد بين يديه . وفيها خرج الفضل بن سعيد الحروري فقتل .
وفيها قدم روح بن حاتم نائب إفريقية . وفيها خرجت الخيزران إلى مكة فأقامت بها إلى أن شهدت
الحج ، وكان الذي حج بالناس فيها عبد الصمد بن علي عم الخلفاء .

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة

فيها وضع الرشيد عن أهل العراق العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف . وفيها خرج
الرشيد من بغداد يرتاد له موطئاً يسكنه غير بغداد فتشوش فرجع . وفيها حج بالناس يعقوب بن
أبي جعفر المنصور عم الرشيد . وفيها غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

فيها توفي بالبصرة محمد بن سليمان فأمر الرشيد بالاحتياط على حواصله التي تصلح للخلفاء ،
فوجدوا من ذلك شيئاً كثيراً من الذهب والفضة والأمتعة وغير ذلك ، فنضدوه ليستعان به على
الحرب وعلى مصالح المسلمين . وهو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأمه أم حسن
بنت جعفر بن حسن بن علي ، وكان من رجالات قريش وشجعانهم . جمع له المنصور بين
البصرة والكوفة ، وزوجه المهدي ابنته العباسية ، وكان له من الأموال شيء كثير ، كان دخله في كل
يوم مائة ألف . وكان له خاتم من ياقوت أحمر لم ير مثله . وروى الحديث عن أبيه عن جده الأكبر ،

وهو حديث مرفوع في مسح رأس اليتيم إلى مقدم رأسه ، ومسح رأس من له أب إلى مؤخر رأسه . وقد وفد على الرشيد فهناه بالخلافة فأكرمه وعظمه وزاده في عمله شيئاً كثيراً . ولما أراد الخروج خرج معه الرشيد يشيعه إلى كلواذا . توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة عن إحدى وخمسين سنة ، وقد أرسل الرشيد من اصطافى من ماله الصامت فوجد له من الذهب ثلاثة آلاف ألف دينار ، ومن الدراهم ستة آلاف ألف ، خارجاً عن الأملاك .

وقد ذكر ابن جرير أن وفاته و وفاة الخيزران في يوم واحد ، وقد وقفت جارية من جواريه على قبره فأنشأت تقول :

أمسى التراب لمن هويت مبيتنا * اتقى التراب قفل له حيننا
إنا نحبك يا تراب وما بنا * إلا كرامة من عليه حيننا

وفيها توفيت الخيزران جارية المهدي وأم أمير المؤمنين الهادي والرشيد ، اشتراها المهدي وحظيت عنده جداً ثم أعتقها وتزوجها وولدت له خليفتين : موسى الهادي والرشيد . ولم يتفق هذا لغيرها من النساء إلا الولادة بنت العباس العباسية ، زوجة عبد الملك بن مروان ، وهي أم الوليد وسليمان . وكذلك لشاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد ، ولدت لمولاه الوليد بن عبد الملك : مروان وإبراهيم . وكلاهما ولي الخلافة . وقد روى من طريق الخيزران عن ولدها المهدي عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبي (س) قال : « من اتقى الله وقاه كل شيء » . ولما عرضت الخيزران على المهدي ليشتريها أعجبتته لإدقة في ساقها ، فقال لها : يا جارية إنك لعلى غاية المنى والجمال لولا دقة ساقك وخوشهما . فقالت : يا أمير المؤمنين إنك أحوج ماتكون إليهما لا تراهما فاستحسن جوابها واشتراها وحظيت عنده جداً . وقد حجت الخيزران مرة في حياة المهدي فكتب إليها وهي بمكة يستوحش لها ويتشوق إليها بهذا الشعر : -

نحن في غاية السرور ولكن * ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي * أنكم غيب ونحن حضور
فأجدوا في السير بل إن قدرتم * أن تطيروا مع الرياح فطيروا
فأجابته أو أمرت من أجا به :

قد أتانا الذي وصفت من الشو * ق فكنا وما قدرنا نظير
ليت أن الرياح كن يؤدين * إليكم ما قد يكن الضمير
لم أزل صبة فان كنت بعدى * في سرور فدام ذلك السرور

وذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصرة الذي مات في اليوم الذي ماتت فيه مائة

وصيفة ، مع كل وصيفة جام من فضة مملوء مسكا . فكتبت إليه : إن كان ما بعثته ثمننا عنك فظننا فيك أكثر مما بعثت ، وقد بخصتنا في الثمن ، وإن كنت تريد به زيادة المودة فقد اتهمتنى في المودة . وردت ذلك عليه . وقد اشترت الدار المشهورة بها بمكة المعروفة بدار الخيزران ، فزادتها في المسجد الحرام .

وكان مغل ضياعها في كل سنة ألف ألف وستين ألفا . واتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة . وخرج ابنها الرشيد في جنازتها وهو حامل سريرها بحب في الطين . فلما انتهى إلى المقبرة أتى بماء فغسل رجليه ولبس خفاً وصلى عليها ، ونزل لحدها . فلما خرج من القبر أتى بسرير فجلس عليه واستدعى بالفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات . وأنشد الرشيد قول ابن نويرة حين دفن أمه الخيزران :

وكنا كندمانى جذيمة برهة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكاً • لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

غادر

وفيهما توفيت :

جارية كانت لموسى الهادى ، كان يحبها حبا شديداً جداً ، وكانت تحسن الغناء جداً ، فبينما هي يوماً تغنيه إذ أخذته فكرة غيبته عنها وتغير لونه ، فسأله بعض الحاضرين : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أخذتني فكرة أنى أموت وأخى هارون يتولى الخلافة بعدى ويتزوج جاريتى هذه . ففداه الحاضرون ودعوا له بطول العمر . ثم استدعى أخاه هارون فأخبره بما وقع فعوذه الرشيد من ذلك ، فاستحلفه الهادى بالأيمان المغلظة من الطلاق والعناق والحج ماشياً حافياً أن لا يتزوجها ، فحلف له واستحلف الجارية كذلك فحلفت له ، فلم يكن إلا أقل من شهرين حتى مات ، ثم خطبها الرشيد فقالت : كيف بالأيمان التي حلفناها أنا وأنت ؟ فقال : إنى أكفر عنى وعنك . فتزوجها وحظيت عنده جداً ، حتى كانت تنام في حجره فلا يتحرك خشية أن يزعجها . فبينما هي ذات ليلة نائمة إذ انقبت مذعورة تبكى ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين رأيت الهادى في منامى هذا وهو

يقول :

أخلفت عهدي بعد ما * جاورت سكان المقابر

ونسيتنى وحننتى فى * أيمانك الكذب الفواجر

ونكحت غادرة أخى * صدق الذى سماك غادر

أمسيت فى أهل البلى * وعددت فى الموتى الفواجر

لا يهنك الألف الجدير * دولا تدر عنك الدوائر

ولحقت بى قبل الصبا * حوصرت حيث غدوت صائر

فقال لها الرشيد : أضفنا أحلام . فقالت : كلا والله يا أمير المؤمنين ، فكأنما كتبت هذه الأبيات في قلبي . ثم ما زالت ترعد وتضطرب حتى ماتت قبل الصباح . وفيها ماتت :
هيلانة جارية الرشيد ، وهو الذي سماها هيلانة لكثرة قولها هي لانه . قال الأصمعي : وكان ما محباً ، وكانت قبله لخالد بن يحيى بن برمك ، فدخل الرشيد يوماً منزله قبل الخلافة فاعترضته في طريقه وقالت : أمالنا منك نصيب ؟ فقال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ فقالت : استوهبني من هذا الشيخ . فاستوهبها من يحيى بن خالد فوهبها له وحظيت عنده ، ومكثت عنده ثلاث سنين ثم توفيت فحزن عليها حزناً شديداً ورثاها وكان من قوله فيها : -

قد قلتُ لما ضمنوك النرى * وجالتِ الحسرةُ في صدري
 اذهبِ فلاقِ اللهَ لا سرنى * بمدكِ شيءَ آخرِ الدهرِ
 وقال العباس بن الأحنف في موتها :

يامنَ تبشرتِ القبورِ بموتها * قصدَ الزمانُ مساءً في فرماكِ
 أبني الأنيسَ فما أرى لي مؤنساً * إلا الترددَ حيثُ كنتُ أراكِ
 قال : فأمر له الرشيد بأربعين ألفاً ، لكل بيت عشرة آلاف ، فله أعلم .
 ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة من الهجرة

فيها وقعت عصبية بالشام ونحيط من أهلها . وفيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضي أبي يوسف وأبوه حى . وفيها غزا الصائفة عبد الملك بن صالح فدخل بلاد الروم . وفيها حج بالناس الرشيد ، فلما اقترب من مكة بلغه أن فيها وباء فلم يدخل مكة حتى كان وقت الوقوف وقف ثم جاء المزدلفة ثم منى ثم دخل مكة فطاف وسعى ثم ارتحل ولم ينزل بها .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

فيها أخذ الرشيد بولاية العهد من بعده لولده محمد بن زبيدة وسماه الأمين ، وعمره إذ ذاك خمس سنين ، فقال في ذلك سلم الخاسر :

قد وفقَ اللهُ الخليفةَ إذ بنى * بيتَ الخلافةِ للهجانِ الأزهرِ
 فهو الخليفةُ عن أبيه وجده * شهدا عليه بمنظرٍ وبمخبرِ
 قد بايعَ الثقلانِ في مهدِ الهدى * لمحمدِ بنِ زبيدةِ ابنةِ جعفرِ

وقد كان الرشيد يتوهم النجاة والرجاحة في عبد الله المأمون ، ويقول : والله إن فيه حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعزة نفس الهادي . ولو شئت أن أقول الرابعة منى لقلت ، وإني لأقدم محمد بن زبيدة وإني لأعلم أنه متبع هواه ولكن لا أستطيع غير ذلك . ثم أنشأ يقول :

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني • غلبت على الأمر الذي كان أحزماً
وكيف يرد الدر في الضرع بعدما • نوزع حتى سار نبياً مقسماً
أخاف التواء الأمر بعد استوائه • وأن ينقض الأمر الذي كان أبرماً

وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح ، في قول الواقدي . وحج بالناس الرشيد . وفيها سار يحيى
ابن عبد الله بن حسن إلى الديلم وتحرك هناك . وفيها توفي من الأعيان .

شعوانة العابدة الزاهدة

كانت أمة سوداء كثيرة العبادة ، روى عنها كلمات حسان ، وقد سأها الفضيل بن عياض الدعاء
فقلت : أما بينك وبينه ما إن دعوته استجاب لك ؟ فشق الفضيل ووقع مغشياً عليه . وفيها توفي
الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم . قال ابن خلكان : كان مولى قيس بن رفاعه
وهو مولى عبد الرحمن بن مسافر الفهمي ، كان الليث إمام الديار المصرية بلا مدافعة ، وولد
بقرقشنة من بلاد مصر سنة أربع وتسعين . وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة ، ونشأ بالديار
المصرية . وقال ابن خلكان : أصله من قلقشنة وضبطه بلامين الثانية متحركة . وحكى عن بعضهم
أنه كان جيد الذهن ، وأنه ولي القضاء بمصر فلم يحمدوا ذهنه بعد ذلك ، ولد سنة أربع وعشرين
ومائة ، وذلك غريب جداً . وذكروا أنه كان يدخله من ملكه في كل سنة خمسة آلاف دينار .
وقال آخرون : كان يدخله من الغلة في كل سنة ثمانون ألف دينار ، وما وجبت عليه زكاة ، وكان
إماماً في الفقه والحديث والعربية . قال الشافعي : كان الليث أقمه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه .
وبعث إليه مالك يستهديه شيئاً من العصف لأجل جهاز ابنته ، فبعث إليه بثلاثين حملاً ، فاستعمل
منه مالك حاجته وباع منه بخمسة دینار ، وبقيت عنده منه بقية . وحج مرة فأهدى له مالك طبقاً
فيه رطب فرد الطبق وفيه ألف دينار . وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار وما
يقارب ذلك . وكان يخرج إلى الاسكندرية في البحر هو وأصحابه في مركب ومطبخه في مركب .
ومناقبه كثيرة جداً . وحكى ابن خلكان أنه سمع قائلاً يقول يوم مات الليث :

ذهب الليث فلا ليث لكم • ومضى العلم غريباً وقبر

فالتفتوا فلم يروا أحداً . وفيها توفي :

المنذر بن عبد الله بن المنذر

القرشي ، عرض عليه المهدي أن يلي القضاء ويعطيه من بيت المال مائة ألف درهم ، فقال : إني
عاهدت الله أن لا ألي شيئاً ، وأعيد أمير المؤمنين بالله أن أخيس بهدي . فقال له المهدي : الله ؟
قال : الله . قال : انطلق فقد أعفيتك .

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

فيها كان ظهور يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ببلاد الديلم ، واتبه خلق كثير وجم غفير ، وقويت شوكته ، وارتحل إليه الناس من السكور والأمصار ، فانزعج لذلك الرشيد وخلق من أمره ، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في خمسين ألفاً ، وولاه كور الجبل والري وجرجان وطبرستان وقومس وغير ذلك . فسار الفضل بن يحيى إلى تلك الناحية في أمة عظيمة ، وكتب الرشيد تلمحته مع البرد في كل منزلة ، وأنواع التحف والبر ، وكان الرشيد صاحب الديلم ووعدته بألف ألف درهم إن هو سهل خروج يحيى إليهم ، وكتب الفضل إلى يحيى بن عبد الله يمدحه ويمنيه ويؤمله ويرجيه ، وأنه إن خرج إليه أن يقيم له العذر عند الرشيد . فامتنع يحيى أن يخرج إليهم حتى يكتب له الرشيد كتاب أمان بيده . فكتب الفضل إلى الرشيد بذلك ففرح الرشيد ووقع منه موقعا عظيما . وكتب الأمان بيده وأشهد عليه القضاة الفقهاء ومشايخ بني هاشم ، منهم عبد الصمد بن علي ، وبعث الأمان وأرسل معه جوائز وتحفا كثيرة إليهم ، ليدفعوا ذلك جميعه إليه . ففعلوا وسلّمه إليه فدخلوا به بغداد ، وتلقاه الرشيد وأكرمه وأجزل له في العطاء ، وخدمه آل برمك خدمة عظيمة ، بحيث إن يحيى بن خالد كان يقول : خدمته بنفسى وولدى : وعظم الفضل عند الرشيد جداً بهذه الفعلة حيث سعى بالصلح بين العباسيين والفاطميين ، ففي ذلك يقول مروان ابن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى ويشكره على صنيعه هذا :

ظفرت فلا شلت يد برمكية * رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعبا الراتقين النمامة * فكفوا وقالوا ليس بالسلام
فأصبحت قد فازت يداك بخطي * من المجد باق ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فازاً * لكم كلما ضمت قداح المسام

قالوا : ثم إن الرشيد تنكر ليحيى بن عبد الله بن حسن وتغير عليه ، ويقال : إنه سجنه ثم استحضره وعنده جماعات من الهاشمين ، وأحضر الأمان الذي بعث به إليه فسأل الرشيد محمد بن الحسن عن هذا الأمان أصحيح هو ؟ قال : نعم ! فتفيظ الرشيد عليه . وقال أبو البختري : ليس هذا الأمان بشيء فاحكم فيه بما شئت ، ومزق الأمان . وبصق فيه أبو البختري ، وأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال : هيه هيه ، وهو يديسم تبسم الغضب ، وقال : إن الناس يزعمون أنا سمناك . فقال يحيى : يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ورحما وحقا ، فعلام تعذبني وتجبسني ؟ فرق له الرشيد ، فاعترض بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير فقال : يا أمير المؤمنين لا يفرنك هذا الكلام من هذا ، فإنه عاص شاق ، وإنما هذا منه مكر وخبث . وقد أفسد علينا مدينتنا وأظهر

فيها العصيان فقال له يحيى : ومن أنتم عاقبكم الله ؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بأبائي وآباء هذا
ثم قال يحيى : يا أمير المؤمنين لقد جاءني هذا حين قتل أخي محمد بن عبد الله فقال : لعن الله قاتله ،
وأشدني فيه نحواً من عشرين بيتاً ، وقال لي ، إن تحركت إلى هذا الأمر فأنا أول من يبايعك ،
وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك ؟ قال : فتغير وجه الرشيد ووجه الزبيرى وأنكر وشرع
يحلف بالأيمان المغلظة إنه لكاذب في ذلك ، وتغير الرشيد . ثم قال لي يحيى : اتحفظ شيئاً من
المرثية ؟ قال : نعم . وأنشده منها جانباً . فآزداد الزبيرى في الإنكار : فقال له يحيى بن عبد الله :
فقل : إن كنت كاذباً فقد برئت من حول الله وقوته ، ووكلى الله إلى حولي وقوتي . فامتنع من
الحلف بذلك ، فعزم عليه الرشيد وتغيظ عليه ، فحلف بذلك فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد
فرماه الله بالفالج فمات من ساعته . ويقال إن امرأته غمت وجهه بمخدة فقتله الله .

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله وأطلق له مائة ألف دينار ، ويقال إنما حبسه بعض يوم
وقيل ثلاثة أيام . وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال ، وعاش
بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله .

وفيها وقعت فتنة عظيمة بالشام بين التزارية ، وهم قيس ، واليمانية وهم يمن ، وهذا كان أول بدو
أمر العشيرتين بحوران ، وهم قيس ويمن ، أعادوا ما كانوا عليه في الجاهلية في هذا الآن . وقتل
متهبم في هذه السنة بشر كثير . وكان على نيابة الشام كلها من جهة الرشيد ابن عمه موسى بن عيسى ،
وقيل عبد الصمد بن علي فأنه أعلم . وكان على نيابة دمشق بخصوصها سندی بن سهل أحد موالى
جعفر المنصور ، وقد هدم سور دمشق حين ثارت الفتنة خوفاً من أن يتغلب عليها أبو الهيثم المزى
رأس القيسية ، وقد كان مزى هذا دميم الخلق . قال الجاحظ : وكان لا يحلف المكارى ولا الملاح
ولا الحائك ، ويقول : القول قولهم ، ويستخير الله في الحال ومعلم الكتاب . وقد توفي سنة أربع
ومائتين . فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القواد
ورؤس الكتاب ، فأصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة واستقام أمر الرعية ، وحلوا جماعات من
رؤس الفتنة إلى الرشيد فرد أمرهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وأطلقهم ، وفي ذلك يقول بعض

الشعراء :
قد هاجت الشام هيجاً * يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها * بنجيله وجنوده
فدانت الشام لما * أتى بسنح وحيدة
هذا الجواد الذى ! * ذك كل جود بجوده

أعداهُ جودُ أبيه * يحيى وجودُ جدوده
 فجَادُ موسى بن يحيى * بطارفٍ وتليده
 ونالَ موسى ذرى الحج * يد وهو حشو مهوده
 خصصته بمديحي * منشوره وقصيده
 من البرامك عوداً * له فأكرم بعوده
 حووا على الشعر طراً * خفيفه ومديده

وفيهما عزل الرشيد النضر بن عطاء عن خراسان وولاهما حمزة بن مالك بن الهيثم الخزاعي الملقب بالعروس . وفيها ولي الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد نيابة مصر ، فاستناب عليها جعفر عمر بن مهران ، وكان رديء الخلق رديء الشكل زمن الكف أحول ، وكان سبب ولايته إياها أن نأبها موسى ابن عيسى كان قد عزم على خلع الرشيد . فقال الرشيد : والله لأعزلنه ولأولين عليها أحسن الناس . فاستدعى عمر بن مهران هذا فولاه عليها عن نائبه جعفر بن يحيى البرمكي . فسار إليها على بغل وغلامه أبو درة على بغل آخر ، فدخلها كذلك فأنهى إلى مجلس نائبها موسى بن عيسى فجلس في أخريات الناس ، فلما انفض الناس أقبل عليه موسى بن عيسى وهو لا يعرف من هو ، فقال : ألك حاجة يا شيخ ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير . ثم دفع الكتب إليه فلما قرأها قال : أنت عمر بن مهران ؟ قال : نعم ! قال : لعن الله فرعون حين قال : أليس لي ملك مصر ؟ ثم سلم إليه العمل وأرتحل منها ، وأقبل عمر بن مهران على عمله ، وكان لا يقبل شيئاً من الهدايا إلا ما كان ذهباً أو فضة أو قماشاً ، ثم يكتب على كل هدية اسم مهديها ، ثم يطالب بالخراج ويلج في طلبه عليهم ، وكان بعضهم يماطله به ، فأقسم لا يماطله أحد إلا فعل به وفعل . فجمع من ذلك شيئاً كثيراً ، وكان يبعث ما جمعه إلى بغداد ، ومن ماطله بعثه إلى بغداد . فتأدب الناس معه . ثم جاءهم القسط الثاني فعجز كثير منهم عن الأداء فجعل يستحضر ما كانوا أدوه إليه من الهدايا ، فان كان نقداً أداه عنهم ، وإن كان برأ باعه وأداه عنهم ، وقال لهم : إني إنما ادخرت هذا لكم إلى وقت حاجتكم . ثم أكمل استخراج جميع الخراج بديار مصر ولم يفعل ذلك أحد قبله ، ثم انصرف عنها لأنه كان قد شرط على الرشيد أنه إذا مهد البلاد وجب الخراج ، فذاك إذنه في الانصراف . ولم يكن معه بالديار المصرية جيش ولا غيره سوى مولاه أبو درة وحاجبه ، وهو منفذ أموره . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ففتح حصناً . وفيها حجت زبيدة زوجة الرشيد ومعها أخوها ، وكان أمير الحج سليمان بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد . وفيها توفي :

إبراهيم بن صالح

ابن علي بن عبد الله بن عباس ، كان أميراً على مصر ، توفي في شعبان . وإبراهيم بن هرمة

كان شاعراً . وهو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة أبو إسحاق الفهرى المدني ، وفد على المنصور في وفد أهل المدينة حين استوفدم عليه ، فجلسوا إلى ستر دون المنصور ، يرى الناس من ورائه ولا يرونه ، وأبو الخصب الحاجب واقف يقول : يا أمير المؤمنين هذا فلان الخطيب ، فيأمره فيخطب ، ويقول : هذا فلان الشاعر فيأمره فينشد . حتى كان من آخرم ابن هرمة هذا ، فسمته يقول : لا مرحباً ولا أهلاً ولا أنعم الله بك حيناً . قال : قتلت : هلكت ، ثم استنشدني نأشدته قصيدتي التي أقول فيها :
سرى نوبة هند الصبا المتجابل^(١) * وقرب لبين الخليط المزابل
حتى انتهيت إلى قولي :

فأما التي أمنتها يأمن الردي * وأما الذي حاولت بالشكل ناكل

قال : فأمر برفع الحجاب فاذا وجهه كأنه فلقة قر ، فاستنشدني بقية القصيدة وأمر لي بالقرب بين يديه ، والجلوس إليه ، ثم قال : ويحك يا إبراهيم الولا ذنوب بلغتني عنك لفضلتك على أصحابك ، قتلت : يا أمير المؤمنين كل ذنب بلغتني عنك لم تعف عنه فأنا مقرب به . قال : فتناول المحصرة فضربني بها ضربتين وأمر لي بعشرة آلاف وخلعة وعفاعة وألحفتني بنظرائي . وكان من جملة ما نغم المنصور عليه قوله :
ومهما ألام على جهنم * فاني أحب بني فاطمة
بني بنت من جاء بالمحكما * تر وبالدين وبالسنة القاعة
فلست أبالي بحبي لهم * سوام من النعم الساعه

قال الأخفش . قال لنا ثعلب قال الأصمعي : ختمت الشعراء بابن هرمة . ذكر وقاته في هذه السنة أبو الفرج ابن الجوزي . وفيها توفي الجراح بن مليح والد وكيع بن الجراح ، وصعيد بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن جميل أبو عبد الله المدني ، ولي قضاء بغداد سبعة عشر سنة لعسكر المهدي ، وثقه ابن معين وغيره . وفيها توفي :

صالح بن بشير المرسي

أحد العباد الزهاد ، كان كثير البكاء وكان يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثوري وغيره من العلماء ، ويقول : سفيان هذا نذير قوم ، وقد استدعاه المهدي ليحضر عنده فجاء إليه راكباً على حمار فدنا من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنه - ولي العهد من بعده موسى الهادي وهارون الرشيد - أن يقوموا إليه لينزلوه عن دابته ، فابتدراه فأنزلوه ، فأقبل صالح على نفسه فقال : لقد خبت وخسرت إن أنا داهنت ولم أصدع بالحق في هذا اليوم ، وفي هذا المقام . ثم جلس إلى المهدي فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه ، ثم قال له : اعلم أن رسول الله (ص) ، خصم من خالفه في أمته ، ومن كان محمد خنسه كان الله خصمه ، فأعد لخصمه الله ومخاصمة رسوله حججاً تضمن لك النجاة ، وإلا فاستسلم للهلكة ، واعلم أن أبطأ الصرع عن نهضة صريع هوى بدعته ، واعلم أن الله قاهر فوق عباده ، وأن أثبت الناس قدما

(١) كذا ولعل فيه تحريفاً .

آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكلام طويل . فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه .
 وفيها توفي عبد الملك بن محمد بن محمد بن أبي بكر عمرو بن حزم قدم قاغيا بالعراق . وفرج بن
 فضالة التنوخي الحمصي ، كان على بيت المال ببغداد في خلافة الرشيد ، فتوفي في هذه السنة ، وكان
 مولده سنة ثمان وثمانين فمات وله ثمان وثمانون سنة . ومن مناقبه أن المنصور دخل يوماً إلى قصر
 الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة فقال له وقد غضب عليه : لم لم تقم ؟ قال : خفت أن يسألني الله
 عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك ، وقد كره رسول الله (س) القيام للناس . قال : فبكى المنصور
 وقربه وقضى حوائجه . والمسيد بن زهير بن عمرو أبو سلمة الضبي ، كان والي الشرطة ببغداد في أيام
 المنصور والمهدي والرشيد ، وولي خراسان مرة للمهدي . عاش ستاً وتسعين سنة . والوضاح بن عبد الله
 أبو عوانة السري مولاهم ، كان من أئمة المشايخ في الرواية . توفي في هذه السنة وقد جاوز الثمانين .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة

فيها عزل الرشيد جعفر البرمكي عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان ، وعزل حمزة بن مالك
 عن خراسان وولى عليها الفضل بن يحيى البرمكي مضافاً إلى ما كان بيده من الأعمال بالرى وسجستان
 وغير ذلك . وذكر الواقدي أنه أصاب الناس ريح شديدة وظلمة في أواخر المحرم من هذه السنة ،
 وكذلك في أواخر صفر منها . وفيها حج بالناس الرشيد . وفيها توفي (شريك بن عبد الله) القاضي
 الكوفي النخعي ، سمع أبا إسحاق وغير واحد ، وكان مشكوراً في حكمه وتنفيذ الأحكام ، وكان لا يجلس
 للحكم حتى يتغدى ثم يخرج ورقة من خفه فينظر فيها ثم يأمر بتقديم الخصومة إليه ، فحرص بعض أصحابه
 على قراءة ما في تلك الورقة فاذا فيها يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته يا شريك بن عبد الله
 اذكر الموقف بين يدي الله عز وجل . كانت وفاته يوم السبت مستهل ذي القعدة منها .
 وفيها توفي عبد الواحد بن زيد ، ومحمد بن مسلم وموسى بن أعين .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

فيها وثبت طائفة من الحوفية من قيس وقضاة على عامل مصر إسحاق بن سليمان فقاتلوه وجرت
 فتنة عظيمة فبعث الرشيد هرثمة بن أعين نائب فلسطين في خلق من الأمراء مدداً لإسحاق ، فقاتلوه
 حتى أذعنوا بالطاعة وأدوا ما عليهم من الخراج والوظائف ، واستمر هرثمة نائباً على مصر نحواً من
 شهر عوضاً عن إسحاق بن سليمان ، ثم عزله الرشيد عنها وولى عليها عبد الملك بن صالح . وفيها
 وثبت طائفة من أهل إفريقية فقتلوا الفضل بن روح بن حاتم وأخرجوا من كان بها من آل المهلب ،
 فبعث إليهم الرشيد هرثمة فرجعوا إلى الطاعة على يديه . وفيها فوض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى
 يحيى بن خالد بن برمك . وفيها خرج الوليد بن طريف بالجزيرة وحكم بها وقتل خلقاً من أهلها ، ثم

مضى منها إلى أرمينية فكان من أمره ما سنذكره . وفيها سار الفضل بن يحيى إلى خراسان فأحسن السيرة فيها وبني فيها الربط والمساجد ، وغزا ما وراء النهر ، واتخذ بها جنداً من المعجم سهام العباسية ، وجعل ولاءهم له ، وكانوا نحواً من خمسمائة ألف ، وبعث منهم نحواً من عشرين ألفاً إلى بغداد ، فكانوا يعرفون بها بالكرمينية ، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

ما الفضلُ إلا شهابٌ لا أقولُ لهُ • عندَ الحروبِ إذا ما تأفلُ الشَّهبُ
 حلمٍ على مُلكِ قومٍ غرَّ سَهمُ • منَ الوراثةِ في أيديهمُ سببُ
 أمست يدُ لبني ساقِ الحجيجِ بها • كُتائبَ ما لما في غيرهمُ أربُ
 كُتائبُ لبني العباسِ قدَ عرفتُ • ما أَلَفَ الفضلُ منها المعجمُ والعربُ
 أثبتَ خمسَ مئينِ في عدادهمُ • من الألوفاً التي أحصتُ لها الكُتبُ
 يقارعونَ عنِ القومِ الذينَ همُ • أولى بأحدِ في الفرقانِ إنْ نسبوا
 إن الجوادَ ابنَ يحيى الفضلُ لا ورقَ • يبقى على جودِ كفيه ولا ذهبُ
 ما مع يومٍ له مَدَّ شَدَّ مزره • إلاَّ نَمولَ أقوامٍ بما يهبُ
 كم غايَةٍ في الندى والبأسِ أحرزها • للطالِبينَ مداها كُوتها تمبُ
 يعطى النهى حينَ لا يعطى الجوادَ ولا • ينبؤُ إذا سَلَّتِ الهِنديَّةُ القُضبُ
 ولا الرضى والرضى لله غايتهُ • إلى سوى الحقِ يدعوه ولا القُضبُ
 قد فاضَ عرفكُ حتى ما يعادلهُ • غيثٌ مغيثٌ ولا بجره له حُذبُ

وكان قد أنشده قبل خروجه إلى خراسان :

ألم تر أن الجودَ من يدِ آدمِ • تحدرُ حتى صارَ في راحةِ الفضلِ
 إذا ما أبو العباسِ سحتَ سماؤه • فذاك من هطلِ ويا لك من وبلِ
 وقال فيه أيضاً :

إذا أم طفلٍ راعها جوعُ طفلها • دعتُهُ باسمِ الفضلِ فاعتصمَ الطفلُ
 ليحيى بكِ الإسلامَ إنكِ عزه • وإنكِ من قومِ صغيرهمُ كهلُ
 قال فأمر له بمائة ألفِ درهم . ذكره ابن جرير . وقال سلم الخاسر فيهم أيضاً :

وكيف تخافُ من بؤسِ بدارٍ • يجاورها^(١) البرامكةُ البحورُ
 وقومٌ منهمُ الفضلُ بنُ يحيى • نفيهم ما يوازنه نفيهمُ
 له يومانِ يومُ ندى وبأسٍ • كأنَّ الدهرُ بينهما أسيرُ

(١) في المصرية والطبرى : تكنفها .

إذا ما البرمكي غدا ابن عشر • فهمته أمير أو وزير

وقد اتفق للفضل في هذه السفارة إلى خراسان أشياء غريبة ، وفتح بلادا كثيرة ، منها كابل وما وراء النهر ، وقهر ملك الترك وكان ممتعا ، وأطلق أموالا جزيلة جداً ، ثم قفل راجعا إلى بغداد ، فلما اقترب منها خرج الرشيد ووجوه الناس إليه ، وقدم عليه الشعراء والخطباء وأكابر الناس ، فجعل يطلق الألف ألف ، والخمسمائة ألف ونحوها ، وأنفذ في ذلك من الأموال شيئا كثيرا لا يمكن حصره إلا بتعب وكلفة ، وقد دخل عليه بعض الشعراء والبدر موضوعة بين يديه وهي تفرق على الناس فقال :

كفى الله بالفضل بن يحيى بن خالد * وجود يديه بخل كل بخيل

فأمر له بمال جزيل . وغزا الصائفة في هذه السنة معاوية بن زفر بن عاصم . وغزا الشامية سليمان ابن راشد . وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس نائب مكة . وفيها توفي جعفر بن سليمان ، وعنتر بن القاسم ، وعبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم القاضي ببغداد ، وصلى عليه الرشيد ودفن بها ، وقد قيل إنه مات في التي قبلها فله أعلم .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة

فيها كان قدوم الفضل بن يحيى من خراسان وقد استخلف عليها عمر بن جميل ، فولى الرشيد عليها منصور بن يزيد بن منصور الحميري . وفيها عزل الرشيد خالد بن برمك عن الحجوبة وردها إلى الفضل بن الربيع . وفيها خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستاني ، وكان من أمره ما سيأتي طرف منه . وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدت شوكته وكثر أتباعه ، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فراوغه حتى قتله وتفرق أصحابه ، فقالت الفارعة في أخيها الوليد ابن طريف ترثيه :

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتي لا يحب الزاد إلا من التقي * ولا المال إلا من قنأ وسيوف

وفيها خرج الرشيد معتمرا من بغداد شكرا لله عز وجل ، فلما قضى عمرته أقام بالمدينة حتى حج بالناس في هذه السنة ، فشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات ، وشهد المشاهد والمشاعر كلها ماشيا ، ثم انصرف إلى بغداد على طريق البصرة . وفيها توفي :

اسماعيل بن محمد

ابن يزيد بن ربيعة أبو هاشم الحميري الملقب بالسيد ، كان من الشعراء المشهورين المبرزين فيه ، ولكنه كان رافضيا خبيثا ، وشيعيا غثيا ، وكان ممن يشرب الخمر ويقول بالرجعة - أي بالدور - قال يوما لرجل : أقرضني دينارا ولك عندي مائة دينار إذا رجعنا إلى الدنيا . فقال له

الرجل : إني أخشى أن تعود كلباً أو خنزيراً فيذهب دينارى .

وكان قبجه الله يسب الصحابة في شعره . قال الأصمعي : ولولا ذلك ما قدمت عليه أحداً في طبقته ، ولا يسب الشيخين وابنيهما . وقد أورد ابن الجوزي شيئاً من شعره في ذلك كرهت أن أذكره لبشاعته وشناعته ، وقد اسود وجهه عند الموت وأصابه كرب شديد جداً . ولما مات لم يدفنه لسهب الصحابة رضى الله عنهم . وفيها توفي ، حماد بن زيد

أحد أئمة الحديث . وخالد بن عبد الله أحد الصالحاء ، كان من سادات المسلمين ، اشترى نفسه من الله أربع مرات . ومالك بن أنس الامام ، والهقل بن زياد صاحب الأوزاعي ، وأبو الأحوص . وكلهم قد ذكروا في التكميل .
والامام مالك

هو أشهرهم وهو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فهو مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان بن حشد بن عمرو بن الحارث ، وهو ذو أصبح الحميري ، أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة في زمانه ، روى مالك عن غير واحد من التابعين ، وحدث عنه خلق من الأئمة ، منهم السفينان ، وشعبة ، وابن المبارك ، والأوزاعي ، وابن مهدي وابن جريج والليث والشافعي والزهرى شيخه ، ويحيى بن سعيد الأنصارى وهو شيخه ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويحيى بن يحيى الأندلسي ، ويحيى بن يحيى النيسابورى . قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر . وقال سفينان بن عيينة : ما كان أشد انتقاده للرجال . وقال يحيى بن معين : كل من روى عنه مالك فهو ثقة ، إلا أبا أمية . وقال غير واحد : هو أثبت أصحاب نافع والزهرى . وقال الشافعي : إذا جاء الحديث فمالك النجم . وقال : من أراد الحديث فهو عيال على مالك . ومناقبه كثيرة جداً ، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يحصر في هذا المكان . قال أبو مصعب : سمعت مالكا يقول : ما أفنيت حتى شهد لي سبعون أنى أهل لذلك . وكان إذا أراد أن يحدث تنظف وتطيب وسرح لحيته ولبس أحسن ثيابه ، وكان يلبس حسناً . وكان نقش خاتمه حسبى الله ونعم الوكيل ، وكان إذا دخل منزله قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وكان منزله مبسوطاً بأنواع المفارش . ومن وقت خروج محمد بن عبد الله بن حسن لزم مالك بيته فلم يكن يأتي أحداً لا لعزاء ولا لهناء ، ولا يخرج لجمعة ولا لجماعة ، ويقول : ما كل ما يعلم يقال ، وليس كل أحد يقدر على الاعتذار ولما احتضر قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم جعل يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد ، ثم قبض في ليلة أربعة عشر من صفر ، وقيل من ربيع الأول من هذه السنة ، وله خمس وثمانون سنة . قال الواقدي : بلغ سبعين سنة ودفن بالبقيع . وقد روى الترمذى عن سفينان بن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة : « يوشك أن يضرب الناس أكبداً الأبل

يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة . ثم قال : هذا حديث حسن . وقد روى عن ابن عيينة أنه قال : هو مالك بن أنس . وكذا قال عبد الرزاق . وعن ابن عيينة رواية أنه عبد العزيز بن عبد الله العمري . وقد ترجمه ابن خلدكان في الوفيات فأطنب وأتى بفوائد جمة .

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة

فيها هاجت الفتنة بالشام بين التزارية والبنية ، فانزعج الرشيد لذلك فندب جعفر البرمكي إلى الشام في جماعة من الأمراء والجنود ، فدخل الشام فاتقاه الناس له ولم يدع جعفر بالشام فرساً ولا سيفاً ولا رحاً إلا استلبه من الناس ، وأطفاً الله به نار تلك الفتنة . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة * فهذا أوان الشام تحمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك * عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر * وفيه تلافى صدعها وانكسارها
رماها بميمون النقيب ماجد * تراضى به قحطانها ونزارها

ثم كر جعفر راجعاً إلى بغداد بعد ما استخلف على الشام عيسى العكي ، ولما قدم على الرشيد أكرمه وقربه وأدناه ، وشرع جعفر يذكر كثرة وحشته له في الشام ، ويحمد الله الذي من عليه برجوعه إلى أمير المؤمنين ورؤيته وجهه . وفيها ولي الرشيد جعفرأ خراسان وسجستان فاستعمل على ذلك محمد بن الحسن بن قحطبة ، ثم عزل الرشيد جعفرأ عن خراسان بعد عشرين ليلة . وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب كثرة الخوارج ، وجعل الرشيد جعفرأ على الحرس ، ونزل الرشيد الرقة واستوطنها واستناب على بغداد ابنه الأمين محمداً وولاه العراقيين ، وعزل هرثمة عن إفريقية واستدعاه إلى بغداد فاستنابه جعفر على الحرس . وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة سقط منها رأس منارة الاسكندرية . وفيها خرج بالجزيرة خراشة الشيباني فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي . وفيها ظهرت طائفة بجرجان يقال لها المحمرة لبسوا الحررة واتبعوا رجلاً يقال له عمرو بن محمد العمركي ، وكان ينسب إلى الزندقة ، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقتل وأطفاً الله نارهم في ذلك الوقت . وفيها غزا الصائفة زفر بن عاصم . وحج بالناس موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان :

إسماعيل بن جعفر بن ابي كثير الأنصاري

قارئ أهل المدينة ومؤدب علي بن المهدي ببغداد . وقد مات علي بن المهدي في هذه السنة أيضاً . وقد ولي إمارة الحج غير مرة ، وكان أسن من الرشيد بشهور .

حسان بن ابي سنان

ابن أبي أوفى بن عوف التنوخي الأنباري ، ولد سنة ستين ، ورأى أنس بن مالك ودعا له فجاء من

نسله قضاة ووزراء وصلاحاء ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية . وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه
وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية ، وكان يعرب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح
الأنبار . وفيها توفي : **عبد الوارث بن سعيد البيروتي أحد الثقات**

وعافية بن يزيد

ابن قيس القاضي للمهدي على جانب بغداد الشرقي ، هو وابن علاثة ، وكانا يحكان بجامع
الرصافة ، وكان عافية عابداً زاهداً ورعاً ، دخل يوماً على المهدي في وقت الظهيرة فقال : يا أمير المؤمنين
اعفني ، فقال له المهدي : ولم أعفنيك ؟ هل اعترض عليك أحد من الأمراء ؟ فقال له : لا ولكن كان
بين اثنين خصومة عندي فعمد أحدهما إلى رطب السكر - وكأنه سمع أنني أحبه - فأهدى إلي منه
طبقاً لا يصلح إلا لأمر المؤمنين ، فرددته عليه ، فلما أصبحنا : وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا
عندي في قلبي ولا نظري ، بل مال قلبي إلى المهدي منهما ، هذا مع أنني لم أقبل منه ما أهداه فكيف
لو قبلت منه ؟ فاعفني عفا الله عنك فأعفاه . وقال الأصمعي : كنت عند الرشيد يوماً وعنده عافية وقد
أحضره لأن قوماً استمدوا عليه إلى الرشيد ، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب عما يسأله .
وطال المجلس فعمس الخليفة فشمته الناس ولم يشمته عافية ، فقال له الرشيد : لم تشمتني مع الناس ؟
فقال : لأنك لم تحمد الله ، واحتج بالحديث في ذلك . فقال له الرشيد : ارجع لعملك فوالله ما كنت
لتفعل ما قيل عنك ، وأنت لم تسأحنى في عطسة لم أحمد الله فيها . ثم رده رداً جميلاً إلى ولايته .

سيبويه

وفيها توفي :

إمام النحاة ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر ، المعروف بسيبويه ، مولى بني الحارث بن
كعب ، وقيل مولى آل الربيع بن زياد ، وإنما سمي سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك ،
ومعنى سيبويه رائحة التفاح ، وقد كان في ابتداء أمره يصحب أهل الحديث والفقهاء ، وكان يستمل
على حماد بن سلمة ، فلحن يوماً فرد عليه قوله فأنف من ذلك ، فلزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو ،
ودخل بغداد وناظر الكسائي . وكان سيبويه شاباً حسناً جميلاً نظيفاً ، وقد تعلق من كل علم بسبب ،
وضرب مع كل أهل أدب بسهم ، مع حداثة سنه . وقد صنف في النحو كتاباً لا يلحق شأوه ، وشرحه
أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره ، واستخرجوا من درره ، ولم يبلغوا إلى قعره . وقد زعم
ثعلب أنه لم ينفرد بتصنيفه ، بل ساعده جماعة في تصنيفه نحواً من أربعين نفساً هو أحدهم ، وهو
أصول الخليل ، فداعاه سيبويه إلى نفسه . وقد استبعد ذلك السيرافي في كتاب طبقات النحاة .
قال : وقد أخذ سيبويه اللغات عن أبي الخطاب والأخفش وغيرهما ، وكان سيبويه يقول : سعيد بن
أبي العروبة ، والعروبة يوم الجمعة ، وكان يقول : من قال عروبة فقد أخطأ . فذكر ذلك ليونس فقال

أصابه الله دره ، وقد ارتحل إلى خراسان ليحظى عند طلحة بن طاهر فإنه كان يحب النحو فرض
هناك مرضه الذي توفي فيه فتمثل عند الموت :

يؤملُ دنياً لتبقى له * فماتَ المؤملُ قبلَ الأملِ

ربِّي فسيلاً ليبقى له * فعاشَ الفسيلُ وماتَ الرجلُ

ويقال : إنه لما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فدمعت عين أخيه فاستفاق فرآه يبكي فقال :

وكنا جميعاً فرقَ الدهرُ بيننا * إلى الأمدِ الأقصى فمن يأمن الدهراً

قال الخطيب البغدادي : يقال إنه توفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة . وفيها توفيت :

عفيرة العابدة

كانت طويلة الحزن كثيرة البكاء . قدم قريب لها من سفر فجعلت تبكي ، فقيل لها في ذلك
فقلت : لقد ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله ، فسرور ومشبور . وفيها مات مسلم بن
خالد الزنجي شيخ الشافعي ، كان من أهل مكة ، ولقد تكلموا فيه لسوء حفظه .

ثم دخلت سنة احدى وثمانين ومائة

فيها غزا الرشيد بلاد الروم فافتتح حصناً يقال له الصفصاف ، فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :

إن أمير المؤمنين المنصفا * قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفا

وفيها غزا عبد الملك بن صالح بلاد الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطورة . وفيها تغلبت الحمرة على
جرجان . وفيها أمر الرشيد أن يكتب في صدور الرسائل الصلاة على رسول الله (ص) ، بعد الثناء على
الله عز وجل . وفيها حج بالناس الرشيد وتعجل بالنفر ، وسأله يحيى بن خالد أن يعفيه من الولاية فأعفاه
وأقام يحيى بمكة . وفيها توفي : الحسن بن قحطبة

أحد أكبر الأمراء ، وحمزة بن مالك ، وولي إمرة خراسان في أيام الرشيد ، وخلف بن خليفة شيخ

الحسن بن عرفة عن مائة سنة : وعبدالله بن المبارك

أبو عبد الرحمن المروزي ، كان أبوه تركياً مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همدان ،
وكان ابن المبارك إذا قدمها أحسن إلى ولد مولاهم ، وكانت أمه خوارزمية ، ولد لثمان عشرة ومائة ،
وسمع إسماعيل بن خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة ، وحמיד الطويل ، وغيرهم من أئمة التابعين .
وحدث عنه خلائق من الناس ، وكان موصوفاً بالحفظ والفقہ والعربية والزهد والكرم والشجاعة والشعر ،
له التصانيف الحسان ، والشعر الحسن المتضمن حكماً جمة ، وكان كثير الغزو والحج ، وكان له رأس
مال نحو أربعمائة ألف يدور يتجر به في البلدان ، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه ، وكان يربو كسبه
في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم ، وربما أنفق من رأس ماله . قال

سفيان بن عيينة : نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلون عليه إلا في محبتهم رسول الله (س) . وقال إسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثله ، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في . ابن المبارك ، ولقد حدثني أصحابي أنهم محبوبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم . وقدم مرة الرقة وبها هارون الرشيد ، فلما دخلها احتفل الناس به وازدحم الناس حوله ، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت : ما للناس ؟ فقيل لها : قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فأنجفل الناس إليه . فقالت المرأة : هذا هو الملك ، لأملاك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والمعصا والرغبة والرهبة .

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر مهم فامر بالقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم ، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار ، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فقالت : أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الأزار ، وليس لنا قوت إلا ما يلقي على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل . فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار . فقال : عد منها عشرين ديناراً تكفيننا إلى مرو واعطها الباقي . فهذا أفضل من حجنا في هذا العام ، ثم رجع .

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقتي حتى أكون أنا أنفق عليه ، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق ، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب ، وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فاذا قضا حاجتهم فيقول لهم : هل أوصاكم أهلوكم بهدية ، فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها ، فاذا جاؤا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية ، فاذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورسم شتمها ، فاذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكسبهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجليل . وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد . وسأله مرة سائل فأعطاه درهما فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالوج ، وقد كان يكفيه قطعة . فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفالوج والشواء فانه لا يكفيه درهم . ثم أمر بعض غلماناه فقال : رده وادفع إليه عشرة دراهم . وفضائله ومناقبه كثيرة جداً .

قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله . توفي عبد الله بن المبارك بهيت في هذه السنة في رمضانها عن ثلاث وستين سنة

ومفضل بن فضالة

ولى قضاء مصر مرتين ، وكان ديناً ثقة ، فسأل الله أن يذهب عنه الأمل فأذهب ، فكان بعد ذلك لا يهنته العيش ولا شيء من الدنيا ، فسأل الله أن يردده عليه فردده فرجع إلى حاله .

ويعقوب التائب

العابد الكوفي ، قال علي بن الموفق عن منصور بن عمار : خرجت ذات ليلة وأنا أظن أنى قد أصبحت ، فاذا على ليل ، فجلست إلى باب صغير وإذا شاب يبكي وهو يقول : وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولكن سولت لى نفسى ، وغلبتني شقوتى ، وغرني سترك المرخى على فلا أن من عذابك من يستنقذنى ؟ وبجبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عنى ؟ واسوأتاه على ما مضى من أيامى فى معصية ربى ، يا ويلي كم أتوب وكم أعود ، قد حان لى أن أستحى من ربى عز وجل . قال منصور فقات : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) قال : فسمعت صوتاً واضطراباً شديداً فذهبت لحاجتى ، فلما رجعت مررت بذلك الباب فاذا جنازة موضوعة ، فسألت عنه فاذا ذاك الفتى قد مات من هذه الآية .

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة

فيها أخذ الرشيد لولده عبد الله المأمون ولاية العهد من بعد أخيه محمد الأمين بن زبيدة ، وذلك بالرفقة بعد مرجعه من الحج ، وضم ابنه المأمون إلى جعفر بن يحيى البرمكى وبعثه إلى بغداد ومعه جماعة من أهل الرشيد خدمة له ، وولاه خراسان وما يتصل بها ، وسماه المأمون . وفيها رجع يحيى بن خالد البرمكى من مجاورته بمكة إلى بغداد . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ مدينة أصحاب الكهف . وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن اليون وملكوا عليهم أمه رينى وتلقب أغسطس . وحج بالناس موسى بن عيسى بن العباس .

وفيها توفي من الأعيان إسماعيل بن عياش الحمصى أحد المشاهير من أئمة الشاميين ، وفيه كلام . ومروان بن أبى حفصة الشاعر المشهور المشكور ، كان يمدح الخلفاء والبرامكة .

ومعن بن زائدة

حصل من الأموال شيئاً كثيراً جداً ، وكان مع ذلك من أبخل الناس ، لا يكاد يأكل اللحم من بخله ، ولا يشعل فى بيته سراجاً ، ولا يلبس من الثياب الا الكرباسى والفرو الغليظ ، وكان رفيقه

سلم الخاسر إذا ركب إلى دار الخلافة يأتي على بردون وعليه حلة تساوي ألف دينار، والطيب ينفخ من ثيابه، ويأتي هو في شر حالة وأسوئها. وخزج يوماً إلى المهدي فقالت امرأة من أهله: إن أطلق لك الخليفة شيئاً فأجعل لي منه شيئاً. فقال: إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم. فأعطاه ستين ألفاً فأعطاه أربعة دوانيق. توفي ببغداد في هذه السنة، ودفن في مقبرة نصر بن مالك.

والقاضي أبو يوسف

واسمه يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حسنة، وهي أمه، وأبوه مجير بن معاوية، استصغر يوم أحد، وأبو يوسف كان أكبر أصحاب أبي حنيفة، روى الحديث عن الأعمش وهمام ابن عروة ومحمد بن إسحاق ويحيى بن سعيد وغيرهم. وعنه محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى ابن معين. قال علي بن الجعد: سمعته يقول: توفي أبي وأنا صغير فأسلتني أمي إلى قصار فكنت أمر علي حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلما طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته علي. فقال لها: اسكتي يارعناء، هاهوذا يتعلم العلم وسياً كل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفيروزج فقالت له: إنك شيخ قد خرفت. قال أبو يوسف: فلما وليت القضاء - وكان أول من ولاه القضاء الهادي وهو أول من لقب قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، لأنه كان يستناب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة - قال أبو يوسف: فبينما أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتني بفالوذج في صحن فيروزج فقال لي: كل من هذا، فإنه لا يصنع لنا في كل وقت. وقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الفالوذج. قال فتبسمت فقال: مالك تبسم؟ فقلت: لا شيء أبق الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني. فقصصت عليه القصة فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة. ثم قال: رحم الله أبا حنيفة، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه. وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف: إنه أعلم أصحابه. وقال المزني: كان أبو يوسف أتبعهم للحديث. وقال ابن المديني: كان صدوقاً. وقال ابن معين: كان ثقة. وقال أبو زرعة: كان سليماً من التجهم. وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرض مباينته، ولا يجوز السلام ولا رده عليه. ومن كلامه الذي ينبغي كتابته بماء الذهب قوله: من طلب المال بالكفا أفسس، ومن تتبع غرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تزندق. ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بمحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضراوات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيغان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم، وبأنه لم يكن الخضراوات يخرج فيها شيء في زمن الخلفاء الراشدين. فقال

أبو يوسف : لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت . وهذا انصاف منه .
وقد كان يحضر في مجلس حكمة العلماء على طبقاتهم ، حتى إن أحمد بن حنبل كان شاباً وكان
يحضر مجلسه في أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون ، وهو مع ذلك يحكم ويصنف أيضا . وقال :
وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولا ميل إلى أحد ، إلا يوما واحداً جاءني رجل
فذكر أن له بستانا وأنه في يد أمير المؤمنين ، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال : البستان لي
اشتراه لي المهدي . فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لا أسمع دعواه . فأحضره فادعى
بالبستان فقلت : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هو بستاني . فقلت للرجل : قد سمعت ما أجاب .
فقال الرجل : يحلف ، فقلت ، أتخلف يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ، فقلت سأعرض عليك اليمين
ثلاثاً فإن حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين . فعرضتها عليه ثلاثاً فامتنع فحكمت بالبستان
للمدعي . قال : فكنت في أثناء الخصومة أو دأن ينفصل ولم يمكني أن أجلس الرجل مع الخليفة .
وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان إلى الرجل .

وروى المعافى بن زكريا الجري عن محمد بن أبي الأزهر عن حماد بن أبي إسحاق عن أبيه
عن بشر بن الوليد عن أبي يوسف . قال : بينا أنا ذات ليلة قد نمت في الفراش ، إذا رسول الخليفة
يطرق الباب ، فخرجت متزعجاً فقال : أمير المؤمنين يدعوك ، فذهبت فإذا هو جالس ومعه عيسى
ابن جعفر فقال لي الرشيد : إن هذا قد طلبت منه جارية يهذيها فلم يفعل ، أو يبعنيها ، وإني أشهدك
إن لم يجيني إلى ذلك قتلته . فقلت لعيسى : لم لم تفعل ؟ فقال : إني حالف بالطلاق والعتاق وصدقة
مالي كله أن لا أبيعها ولا أهبها . فقال لي الرشيد : فهل له من مخلص ؟ فقلت : نعم يبيعك نصفها
ويهبك نصفها . فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار ، فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية ،
فلما رآها الرشيد قال : هل لي من سبيل عليها الليلة ؟ قلت : إنها مملوكة ولا بد من استبرائها ،
إلا أن تعتقها وتزوجها فإن الحرة لا تستبرأ . قال فأعتقها وتزوجها منه بعشرين ألف دينار ، وأمر
لي بمائتي ألف درهم وعشرين نختماً من ثياب ، وأرسلت إلى الجارية بعشرة آلاف دينار .

وقال يحيى بن معين : كنت عند أبي يوسف فجاءته هدية من ثياب ديبقى وطيب وقانيل ند وغير
ذلك ، فذا كرتي رجل في إسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه» ، فقال
أبو يوسف : إنما ذاك في الأقط والتمر والزبيب ، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ماترون ، يا غلام ارفع
هذا إلى الخزانة ، ولم يعطهم منها شيئاً . وقال بشر بن غياث المريسي : سمعت أبا يوسف يقول :
صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت على الدنيا سبع عشرة سنة ، وما أظن أجلى إلا أن
اقترب . فما مكث بعد ذلك إلا شهوراً حتى مات .

وقد مات أبو يوسف في ربيع الأول من هذه السنة عن سبع وستين سنة، ومكث في القضاء بعده ولده يوسف. وقد كان نائبه على الجانب الشرقي من بغداد. ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف كما يقوله عبد الله بن محمد البلوي الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي فقد أخطأ في ذلك، وإنما ورد [الشافعي] بغداد في أول قدمها إليها في سنة أربع وثمانين. وإنما اجتمع الشافعي بمحمد بن الحسن الشيباني فأحسن إليه وأقبل عليه، ولم يكن بينهما شأن كما يذكره بعض من لا خبرة له في هذا الشأن والله أعلم. وفيها توفي:

يعقوب بن داود بن طهيمان

أبو عبد الله مولى عبد الله بن حازم السلمي، استوزره المهدي وحظي عنده جداً، وسلم إليه أئمة الأمور، ثم لما أمر بقتل ذلك العلوي كما تقدم فأطلقه ونمت عليه تلك الجارية سجنه المهدي في بئر وبنيت عليه قبة، ونبت شعره حتى صار مثل شعور الأنعام، وعمى، ويقال بل غشى بصره، ومكث نحواً من خمسة عشر سنة في ذلك البئر لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً إلا في أوقات الصلوات يعلونه بذلك، ويدلى إليه في كل يوم رغيف وكوز ماء، فكث كذلك حتى انقضت أيام المهدي وأيام الهادي وصدر من أيام الرشيد، قال يعقوب: فأتاني آت في منامي فقال:

عسى الكربُ الذي أمسيتُ فيه * يكونُ وراءهُ فرجٌ قريبٌ

فيأمنُ خائفٌ ويفكُ عانٍ * ويأتي أهلهُ النائيَ الغريبُ

فلما أصبحت نوديت فظننت أني أعلم بوقت الصلاة، ودلى إلي حبل وقيل لي: اربط هذا الحبل في وسطك، فأخرجوني، فلما نظرت إلى الضياء لم أبصر شيئاً، وأوقفت بين يدي الخليفة فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين، فظننته المهدي فسلمت عليه باسمه، فقال: لست به، قلت الهادي؟ فقال: لست به. قلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد. فقال: نعم، ثم قال: والله إنه لم يشفع فيك عندي أحد، ولكنني البارحة حملت جارية لي صغيرة على عنقك فذكرت حملك إياي على عنقك فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك. ثم أنعم عليه وأحسن إليه. ففار منه يحيى بن خالد بن برمك، وخشى أن يعيده إلى منزله التي كان عليها أيام المهدي، وفهم ذلك يعقوب فاستأذن الرشيد في الذهاب إلى مكة فأذن له، فكان بها حتى مات في هذه السنة رحمه الله. وقال يخشى يحيى أن أرجع إلى الولايات لا والله ما كنت لأفعل أبداً، ولوردت إلي مكاني. وفيها (توفي يزيد بن زريع) أبو معاوية شيخ الإمام أحمد بن حنبل في الحديث، كان ثقة عالماً عابداً ورعاً، توفي أبوه وكان والي البصرة وترك من المال خمسمائة درهم، فلم يأخذ منها يزيد درهما واحداً، وكان يعمل الخوص بيده ويقنت منه هو وعياله. توفي بالبصرة في هذه السنة، وقيل قبل ذلك فله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

فيها خرجت الخزر على الناس من ثلثة أرمينية فعانوا في تلك البلاد فساداً، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مائة ألف، وقتلوا بشراً كثيراً، وانهمزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم، فأرسل الرشيد إليهم خازم بن خزيمعة ويزيد بن يزيد في جيوش كثيرة كثيفة، فأصلحوا ما فسد في تلك البلاد. وحج بالناس العباس بن موسى الهادي.

وفيها توفي من الأعيان **علي بن الفضيل بن عياض** في حياة أبيه. كان كثير العبادة والورع والخوف والخشية. **ومحمد بن صبيح** أبو العباس مولى بني عجل المذكور. ويعرف بابن السماك. روى عن إسماعيل بن أبي خالد والأعمش والثوري وهشام بن عروة وغيرهم، ودخل يوماً على الرشيد فقال: إن لك بين يدي الله موقفاً فانظر أين منصرفك، إلى الجنة أم النار؟ فبكى الرشيد، حتى كاد يموت.

وموسى بن جعفر

ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن الهاشمي، ويقال له الكاظم، ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائة، وكان كثير العبادة والبروة، إذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه أرسل إليه بالذهب والتحف، ولد له من الذكور والانات أربعون نسمة. وأهدى له مرة عبد صيدته فاشتراه واشترى المزرعة التي هو فيها بألف دينار وأعتقه، ووهب المزرعة له. وقد استدعاه المهدي إلى بغداد فخبسه، فلما كان في بعض الليالي رأى المهدي علي بن أبي طالب وهو يقول له: يا محمد [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم] فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأخرج من السجن ليلاً فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده، فقال: والله ما هذا من شأني ولا حدثت فيه نفسي، فقال: صدقت. وأمر له بثلاثة آلاف دينار، وأمر به فرداً إلى المدينة، فما أصبح الصباح إلا وهو على الطريق، فلم يزل بالمدينة حتى كانت خلافة الرشيد فحج، فلما دخل ليسلم على قبر النبي (ص) ومعه موسى بن جعفر الكاظم، فقال الرشيد: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم. فقال موسى: السلام عليك يا أبت. فقال الرشيد: هذا هو الفخر يا أبا الحسين. ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وستين وسجنه فأطال سجنه، فكتب إليه موسى رسالة يقول فيها: أما بعد يا أمير المؤمنين إنه لم ينقض عنى يوم من البلاء إلا انتقض عنك يوم من الرخاء، حتى يفضى بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون. توفي لخمس بقين من رجب من هذه السنة ببغداد وقبره هناك مشهور. وفيها توفي:

هاشم بن بشير بن أبي حازم

القاسم بن دينار أبو معاوية السلمي الواسطي، كان أبوه طباطبا للحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان

بعد ذلك يبيع الكواخج ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله ، فابى إلا أن يسمع الحديث . فاتفق أن هاشما مرض فجاءه أبو شيبة قاضى واسط عائداً له ومعه خاق من الناس ، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال : يا بنى أبلغ من أمرك أن جاء القاضى إلى منزلى ؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث . كان هاشم من سادات العلماء ، وحدث عنه مالك وشعبة والثورى وأحمد بن حنبل وخلق غير هؤلاء ، وكان من الصلحاء العباد . ومكث يصلى الصبح بوضوء المشاء قبل أن يموت بعشر سنين .

ويحيى بن زكريا

ابن أبي زائدة قاضى المدائن ، كان من الأئمة الثقات . وبنو بن حبيب أحد النحاة النجباء ، أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء وغيره ، وأخذ عنه الكسائى والفراء ، وقد كانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم والأدب والفصحاء من الحاضرين والغرباء . توفى في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الرقة إلى بغداد فأخذ الناس بأداء بقايا الخراج الذى عليهم ، وولى رجلا يضرب الناس على ذلك ويحبسهم ، وولى على أطراف البلاد . وعزل وولى وقطع ووصل . وخرج بالجزيرة أبو عمرو الشارى فبعث إليه الرشيد من قبله شهر زور . وحج بالناس فيها إبراهيم بن محمد العباسى . وفيها توفى :

احمد بن الرشيد

كان زاهداً عابداً قد تنسك ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده فى الطين ، كان يعمل فاعلا فيه ، وليس يملك الامرواً وزنبيلاً - أى مجرفة وقفة - وكان يعمل فى كل جمعة بدرهم ودائق يتقوت بهما من الجمعة إلى الجمعة ، وكان لا يعمل إلا فى يوم السبت فقط . ثم يقبل على العبادة بقية أيام الجمعة . وكان من زبيدة فى قول بعضهم ، والصحيح أنه من امرأة كان الرشيد قد أحبها فتزوجها فحملت منه بهذا الغلام ، ثم إن الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطها خاتماً من ياقوت أحمر ، وأشياء نفيسة ، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتيه . فلما صارت الخلافة إليه لم تأت ولا ولدها ، بل اختفيا ، وبلغه أنهما ماتا ، ولم يكن الأمر كذلك ، وفحص عنهما فلم يطلع لهما على خبر ، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها ، ثم رجع إلى بغداد ، وكان يعمل فى الطين ويأكل مدة زمانية . هذا وهو ابن أمير المؤمنين ، ولا يذكر للناس من هو إلى أن اتفق مرضه فى دار من كان يستعمله فى الطين فرضه عنده ، فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل : اذهب بهذا إلى الرشيد وقل له : صاحب هذا الخاتم يقول لك : إياك أن تموت فى سكرتك هذه فتندم حيث لا ينفع نادماً ندمه ، واحذر انصرافك من بين يدي الله إلى الدارين ، وأن يكون آخر العهد بك ، فان ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك ، وسيصير إلى غيرك وقد بلغك أخبار من مضى



قال : فلما مات دفنته وطلبت الحضور عند الخليفة ، فلما أوقفت بين يديه قال : ما حاجتك ؟ قلت : هذا الخاتم دفعه إلى رجل وأمرني أن أدفعه إليك ، وأوصاني بكلام أقوله لك ، فلما نظر الخاتم عرفه فقال : وبحك وأين صاحب هذا الخاتم ؟ قال فقلت : مات يا أمير المؤمنين . ثم ذكرت الكلام الذي أوصاني به ، وذكرت له أنه كان يعمل بالفاعل في كل جمعة يوماً بدرهم وأربع دوانيق ، أو بدرهم ودانق ، يتقوت به سائر الجمعة ، ثم يقبل على العبادة . قال : فلما سمع هذا الكلام قام فضرب بنفسه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهراً لبطن ويقول : والله لقد نصحتني يا بني ، ثم بكى ، ثم رفع رأسه إلى الرجل وقال : أتعرف قبره ؟ قلت : نعم ، أنا دفنته . قال : إذا كان العشي فأتتني . قال : فأتيته فذهب إلى قبره فلم يزل يبكي عنده حتى أصبح ، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم . وكتب له ولعياله رزقاً . وفيها مات :

عبدالله بن مصعب

ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، القرشي الأسدي ، والد بكار . أزمه الرشيد بولاية المدينة قبلها بشروط عدل اشترطها ، فأجابته إلى ذلك ، ثم أضاف إليه نيابة اليمن ، فكان من أعدل الولاة ، وكان عمره يوم تولى نحواً من سبعين سنة .

عبدالله بن عبد العزيز العمري

أدرك أبا طوالة ، وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد ، وكان عابداً زاهداً ، وعظ الرشيد يوماً فأطنب وأطيب . قال له وهو واقف على الصفا : أنتظركم حولها - يعني الكعبة - من الناس ؟ فقال : كثير . فقال : كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه ، وأنت تسأل عنهم كلهم . فبكى الرشيد بكاء كثيراً ، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل ينشف به دموعه . ثم قال له : يا هارون إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرف في أموال المسلمين كلهم ؟ ثم تركهم وانصرف والرشيد يبكي . وله معه مواقف محمودة غير هذه . توفي عن ست وستين سنة .

ومحمد بن يوسف بن معدان

أبو عبد الله الأصهباني ، أدرك التابعين ، ثم اشتغل بالعبادة والزهادة . كان عبد الله بن المبارك يسميه عروس الزهاد . وقال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت أفضل منه ، كان كأنه قد عاين . وقال ابن مهدي : ما رأيت مثله ، وكان لا يشتري خبزه من خباز واحد ، ولا بقله من بقال واحد ، كان لا يشتري إلا ممن لا يعرفه ، يقول : أخشى أن يجابوني فأكون ممن يعيش بدينه . وكان لا يضع جنبه للنوم صيفاً ولا شتاء . ومات ولم يجاوز الأربعين سنة رحمه الله .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة

فيها قتل أهل طبرستان متوليتهم هرويه الرازي ، فولى الرشيد عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي .
وفيها قتل عبد الرحمن الأنباري أبان بن قحطبة الخارجي بمرج العلقة . وفيها عاث حمزة الشاري
ببلاد باذغيس من خراسان ، فهض عيسى بن علي بن عيسى إلى عشرة آلاف من جيش حمزة فقتلهم ،
وسار وراء حمزة إلى كابل وزابلستان . وفيها خرج أبو الخصيب فتغلب على أبيورد وطوس ونيسابور
وحاصر مرو وقوى أمره . وفيها توفي يزيد بن يزيد بردعة ، فولى الرشيد مكانه ابنه أسد بن
يزيد . واستأذن الوزير يحيى بن خالد الرشيد في أن يعتمر في رمضان فأذن له ، ثم رابط بجنده إلى
وقت الحج . وكان أمير الحج في هذه السنة منصور بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن
عباس . وفيها توفي :

عبد الصمد بن علي

ابن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور . ولد سنة أربع ومائة ، وكان ضخماً الخلق جداً
ولم يبدل أسنانه ، وكانت أصولها صفيحة واحدة ، قال يوماً للرشيد : يا أمير المؤمنين هذا المجلس
اجتمع فيه عم أمير المؤمنين ، وعم عمه ، وعم عم عمه ، وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد ،
والعباس بن محمد بن علي عم سليمان ، وعبد الصمد بن علي عم السفاح ، وتلخيص ذلك أن عبد الصمد
عم عم الرشيد لأنه عم جده . روى عبد الصمد عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس عن النبي
(س) أنه قال : « إن البر والصلة ليظيلان الأعمار ، ويعمران الديار ، ويثريان الأموال ، ولو كان
القوم فجاراً » . وبه أن رسول الله (س) قال : « إن البر والصلة ليخففان الحساب يوم القيامة » ثم
تلا رسول الله (س) : [والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء
الحساب] . وغير ذلك من الأحاديث .

ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، المعروف بالامام ، كان على إمارة
الحاج ، وإقامة سقاينه في خلافة المنصور عدة سنين . توفي ببغداد فصلى عليه الأمين في شوال من
هذه السنة ، ودفن بالعباسية .

وفيها توفي من مشايخ الحديث تمام بن إسماعيل ، وعمرو بن عبيد . والمطلب بن زياد . والمعافى
ابن عمران . في قول . ويوسف بن الماجشون . وأبو إسحاق الفزاري إمام أهل الشام بعد الأوزاعي
في المغازي والعلم والعبادة .

ورابعة العدوية

وهي رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك ، العدوية البصرية العابدة المشهورة . ذكرها أبو نعيم
في الحلية والرسائل ، وابن الجوزي في صفوة الصفوة ، والشيخ شهاب الدين السهروردي في
المعارف ، والقشيري . وأثنى عليها أكثر الناس ، وتكلم فيها أبو داود السجستاني ، واتهمها بالزندقة ،

فلعله بلغه عنها أمر . وأنشد لها السهر وردى في المعارف : -

إني جعلتك في الفؤادِ محدثي * وأبحتُ جسمي من أرادِ جلوسي

فالجسمُ مني للجليلِ موانسٍ * وحبیبِ قلبي في الفؤادِ أنيسی

وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحة ، وصيام نهار وقيام ليل ، ورؤيت لها منامات صالحة فأنه

أعلم . توفيت بالقدس الشريف وقبرها شرقيه بالطور والله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة

فيها خرج علي بن عيسى بن ماهان من مرو لحرب أبي الخصب إلى نسا فقاتله بها ، وسبي نساء وذراريه . واستقامت خراسان . وحج بالناس فيها الرشيد ومعه ابنه محمد الأمين ، وعبد الله المأمون ، فبلغ جملة ما أعطى لأهل الحرمين ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وذلك أنه كان يعطى الناس فيذهبون إلى الأمين فيعطيهم ، فيذهبون إلى المأمون فيعطيهم . وكان إلى الأمين ولاية الشام والمراق ، وإلى المأمون من همدان إلى بلاد المشرق . ثم تابع الرشيد لولده القاسم من بعد ولديه ، ولقبه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور والمواسم ، وكان الباعث له على ذلك أن ابنه القاسم هذا كان في حجر عبد الملك بن صالح ، فلما بايع الرشيد لولديه كتب إليه : -

يا أيها الملكُ الذي * لو كان نجماً كان سعدا

اعقد لقاسمُ بيعةً * واقدح له في الملكِ زندا

فإنه فردٌ واحدٌ * فاجعل ولاية العهدِ فردا

ف فعل الرشيد ذلك ، وقد حمده قوم على ذلك ، وذمه آخرون . ولم ينتظم للقاسم هذا أمر ، بل اختطفته المنون والأقدار عن بلوغ الأمل والأوطار . ولما قضى الرشيد حجه أحضر من معه من الأمراء والوزراء ، وأحضر ولي العهد محمداً الأمين وعبد الله المأمون . وكتب بضمون ذلك صحيفة ، وكتب فيها الأمراء والوزراء خطوطهم بالشهادة على ذلك ، وأراد الرشيد أن يعلقها في الكعبة فسقطت فقيل : هذا أمر سريع انتقاضه . وكذا وقع كما سيأتي . وقال إبراهيم الموصلي في عقد هذه البيعة في الكعبة :

خيرُ الأمور مغبَةٌ * وأحقُّ أمرٍ بالتمام

أمرُ قضى أحكامه الر * حنُّ في البلدِ الحرامِ

وقد أطلال القول في هذا المقام أبو جعفر بن جرير وبعه ابن الجوزي في المنتظم .

وفيها توفي من الأعيان

أصبح بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبو ريان في رمضان منها . وحسان بن إبراهيم قاضي

كرمان عن مائة سنة . وسلم الخاسر الشاعر

وهو مسلم بن عمرو بن حماد بن عطاء ، وإنما قيل له الخاسر لأنه باع مصحفنا واشترى به ديوان شعر لأمير القيس ، وقيل لأنه أنفق مائتي ألف في صناعة الأدب . وقد كان شاعراً منطبقاً له قدرة على الانشاء على حرف واحد ، كما قال في موسى الهادي :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمز كم اعتبر ثم فتر وم قدر ثم غفر عدل السير باقى الأثر
خير البشر فرع مضر بدر بدر لمن نظر هو الوزر لمن حضر والمفتخر لمن غير

وذكر الخطيب أنه كان على طريقة غير مرضية من المجون والفسق ، وأنه كان من تلاميذ بشار ابن برد ، وأن نظمه أحسن من نظم بشار ، فما غلب فيه بشاراً قوله :

من راقب الناس لم يظفر بجأته • وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فقال سلم من راقب الناس مات غماً * وفاز بالسنن الجسور

فغضب بشار وقال : أخذ معاني كلامي فكساها ألفاظاً أخف من ألفاظي . وقد حصل له من الخلفاء والبرامكة نحواً من أربعين ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك . ولما مات ترك ستة وثلاثين ألف دينار وديعة عند أبي الشعر الغساني ، ففنى إبراهيم الموصلي يوماً الرشيد فأطرب به فقال له : سل . فقال : يا أمير المؤمنين أسألك شيئاً ليس فيه من مالك شيء ، ولا أرزأوك شيئاً سواه . قال : وما هو ؟ فذكر له وديعة سلم الخاسر ، وأنه لم يترك وارثاً . فأمر له بها . ويقال إنها كانت خمسين ألف دينار .

والعباس بن محمد

ابن علي بن عبد الله بن عباس عم الرشيد ، كان من سادات قريش ، وولى إمارة الجزيرة في أيام الرشيد ، وقد أطلق له الرشيد في يوم خمسة آلاف ألف درهم ، وإليه تنسب العباسية ، وبها دفن وعمره خمس وستون سنة ، وصلى عليه الامين .

ويقطين بن موسى

كان أحد الدعاة إلى دولة بني العباس ، وكان داهية ذا رأى ، وقد احتال مرة حيلة عظيمة لما حبس مروان الحمار إبراهيم بن محمد بجران ، فتحيرت الشيعة العباسية فيمن يولون ، ومن يكون ولى الأمر من بعده إن قتل ؟ فذهب يقطين هذا إلى مروان فوقف بين يديه في صورة تاجر فقال : يا أمير المؤمنين إني قد بعث إبراهيم بن محمد بضاعة ولم أقبض ثمنها منه حتى أخذته رسلك ، فان رأى أمير المؤمنين أن يجمع بيني وبينه لأطالبه بمالى فعل . قال : نعم ! فأرسل به إليه مع غلام ، فلما رآه قال : يا عدو الله إلى من أوصيت بعدك آخذ مالى منه ؟ فقال له : إلى ابن الحارثية - يعنى أخاه عبد الله السفاح - فرجع يقطين إلى الدعاة إلى بني العباس فأعلمهم بما قال ، فبايعوا السفاح ، فكان من أمره

ما ذكرناه . ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

فيها كان مهلك البرامكة على يدي الرشيد ، قتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، ودمر ديارهم واندرست آثارهم ، وذهب صغارهم وكبارهم . وقد اختلف في سبب ذلك على أقوال ذكرها ابن جرير وغيره ، قيل إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن إلى جعفر البرمكي ليسجنه عنده ، و زال يحيى يتبرق له حتى أطلقه ، فتم الفضل بن الربيع ذلك إلى الرشيد فقال له الرشيد : ويلاك لا تدخل بيني وبين جعفر ، فلمه أطلقه عن أمري وأنا لا أشعر . ثم سأل الرشيد جعفرًا عن ذلك فصده فتنظير عليه وحلف ليقتلنه ، وكره البرامكة ، ثم قتلهم وقلام بمد ما كانوا أحظى الناس عنده ، وأحبهم إليه ، وكانت أم جعفر والفضل أم الرشيد من الرضاعة ، وقد جعلهم الرشيد من الرفعة في الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيئاً كثيراً لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكارم والرؤساء ، بحيث إن جعفرًا بنى داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم ، وكان ذلك من جملة ما نغمه عليه الرشيد . ويقال : إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر ، ويقال إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة . وقيل إنما قتلهم بسبب العباسية . ومن العلماء من أنكر ذلك وإن كان ابن جرير قد ذكره .

وذكر ابن الجوزي أن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال : لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته . وقد كان جعفر يدخل على الرشيد بغير إذن حتى كان يدخل عليه وهو في الفراش مع حظاياه . وهذه وجاهة ومنزلة عالية . وكان عنده من أحظى العشاء على الشراب المسكر . فان الرشيد كان يستعمل في أواخر أيام خلافته المسكر . وكان أحب أهله إليه أخته العباسية بنت المهدي ، وكان يحضرها معه ، وجعفر البرمكي حاضر أيضاً معه ، فزوجه بها ليحل النظر إليها ، واشترط عليه أن لا يطأها . وكان الرشيد ربما قام وتركها وهما تاملان من الشراب فربما واقعا جعفر تحببت منه فولدت ولداً وبعثته مع بعض جواربها إلى مكة ، وكان يربي بها .

وذكر ابن خلدكان أن الرشيد لما زوج أخته العباسية من جعفر أحبها حباً شديداً ، فراودته عن نفسه فامتنع أشد الامتناع خوفاً من الرشيد ، فاحتالت عليه . وكانت أمه تهدي له في كل ليلة جمعة جارية حسناء بكرًا . فقالت لأمه : أدخليني عليه بصفة جارية . فهابت ذلك فتهددتها حتى فعلت ذلك . فلما دخلت عليه لم يتحقق وجهها فواقعا فقالت له : كيف رأيت خديمة بنات الملوك؟ وحملت من تلك الليلة ، فدخل على أمه فقال : بعيني والله برخيص . ثم إن والده يحيى بن خالد جعل يضيق على عيال الرشيد في النفقة حتى شكت زبيدة ذلك إلى الرشيد مرات ، ثم أفشت له سر العباسية ، فاستشاط غيظاً ، ولما أخبرته أن الولد قد أرسلت به إلى مكة حج عام ذلك حتى تحقق الأمر . ويقال :

إن بعض الجوارى نمت عليها إلى الرشيد وأخبرته بما وقع، وأن الولد بمكة وعنده جوار وأموال وحلى كثيرة . فلم يصدق حتى حج في السنة الخالية ، ثم كشف الأمر عن الحال ، فاذا هو كما ذكر . وقد حج في هذه السنة التي حج فيها الرشيد بجي بن خالد ، فجعل يدعو عند الكعبة : اللهم إن كان برضيك عنى سلب جميع مالى وولدى وأهلى فافعل ذلك وأبق على منهم الفضل ، ثم خرج . فلما كان عند باب المسجد رجع فقال : اللهم والفضل معهم فانى راض برضاك عنى ولا تستثن منهم أحداً .

فلما قفل الرشيد من الحج صار إلى الحيرة ثم ركب فى السفن إلى النمر من أرض الأنبار ، فلما كانت ليلة السبت سلخ الحرم من هذه السنة أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة فى جماعة من الجند ، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلاً ، فدخل عليه مسرور الخادم وعنده بخنثشوع المتطبب ، وأبوركانة الأعمى المغنى الكلوذانى ، وهو فى أمره وسروره ، وأبوركانة يفتنيه :

فلا تبعد فكل فتى سياتى * عليه الموت يطرق أو يغادى

فقال الخادم له : يا أبا الفضل هذا الموت قد طرقتك ، أجب أمير المؤمنين . فقام إليه يقبل قدميه ويدخل عليه أن يمكنه فيدخل إلى أهله فيوصى إليهم ويودعهم ، فقال : أما الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوص . فأوصى وأعتق جميع مماليكه أو جماعة منهم ، وجاءت رسل الرشيد تستجته فأخرج إخراجاً عنيفاً ، فجعلوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذى فيه الرشيد ، فحبسه وقيده بقيد حمار ، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل ، فأمر بضرب عنقه ، فجاء السيف إلى جعفر فقال : إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن آتية برأسك . فقال : يا أبا هاشم لعل أمير المؤمنين سكران ، فاذا صحا عاتبك فى ، فعاوده . فرجع إلى الرشيد فقال : إنه يقول : لملك مشغول . فقال : يا ماص بظر أمه اتقنى برأسه . فكرر عليه جعفر المقالة فقال الرشيد فى الثالثة : برئت من المهدي إن لم تأتني برأسه لأبعثن من يأتيني برأسك ورأسه . فرجع إلى جعفر فحز رأسه وأتى به إلى الرشيد فألقاه بين يديه ، وأرسل الرشيد من ليكته البرد بالاحتياط على البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها ، ومن كان منهم بسبيل . فأخذوا كلمهم عن آخرهم . فلم يفلت منهم أحد . وحبس يحيى بن خالد فى منزله ، وحبس الفضل بن يحيى فى منزل آخر وأخذ جميع ما كانوا يملكونه من الدنيا ، وبعث الرشيد برأس جعفر وجثته فنصب الرأس عند الجسر الأعلى ، وشقت الجثة باثنتين فنصب نصفها الواحد عند الجسر الأسفل ، والآخر عند الجسر الآخر ، ثم أحرقت بعد ذلك . ونودى فى بغداد : أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم ، إلا محمد بن يحيى بن خالد فإنه مستثنى منهم لنصحه للخليفة . وأتى الرشيد بانس بن أبى شيخ كان يتهم بالزندقة ، وكان مصاحباً لجعفر ، فدار بينه وبين الرشيد كلام ، ثم أخرج الرشيد من تحت فراشه سيفاً وأمر بضرب عنقه به . وجعل يتمثل بيت قيل فى قتل أنس قبل ذلك :

تلفظ السيف من شوق إلى أنس • فالسيف يلحظ والأقدار تنتظر

فصرت عنق أنس فسبق السيف الدم فقال الرشيد : رحم الله عبد الله بن مصعب ، فقال الناس : إن السيف كان للزبير بن العوام . ثم شحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها ، وزالت عنهم النعمة . وقد كان الرشيد في اليوم الذي قتل جعفراً في آخره ، هو وإياه راكبين في الصيد في أوله ، وقد خلا به دون ولاية العمود ، وطيبه في ذلك بالغالية بيده ، فلما كان وقت المغرب ودعه الرشيد وضه إليه وقال : لولا أن الليلة ليلة خلوتى بالنساء ما فارقتك ، فاذهب إلى منزلك واشرب واطرب وطب عيشا حتى تكون على مثل حالي ، فأكون أنا وأنت في اللذة سواء . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا أشتهى ذلك إلا منك . فقال : لا ! انصرف إلى منزلك . فانصرف عنه جعفر فما هو إلا أن ذهب من الليل بعضه حتى أوقع به من البأس والنكال ما تقدم ذكره . وكان ذلك ليلة السبت آخر ليلة من المحرم ، وقيل إنها أول ليلة من صفر في هذه السنة ، وكان عمر جعفر إذ ذاك سبعا وثلاثين سنة ، ولما جاء الخبر إلى أبيه يحيى بن خالد بقتله قال : قتل الله ابنه . ولما قيل له : قد خربت دارك قال : خرب الله دوره . ويقال : إن يحيى لما نظر إلى دوره وقد هتكت ستورها واستبيحت قصورها ، وانتهب ما فيها . قال : هكذا تقوم الساعة . وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزبه فيما جرى له ، فكتب إليه جواب التعزية : أنا بقضاء الله راض ، وباختياره عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما الله بظلام للعبيد . وما يغفر الله أكثر الله الحمد . وقد أكثر الشعراء من المرائي في البرامكة فمن ذلك قول الرقاشي ، وقيل إنها لأبي نواس :

الآن استرخنا واستراحت ركابنا * وأمسك من مجدي ومن كان يجتدي
نقل للمطايا قد أمنت من السرى * وطى الفياض فدفداً بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر * ولن تظفري من بعدهم بمسود
وقل للمطايا بعد فضل تعطلى * وقل للرزايا كل يوم نجددي
ودونك سيفاً برمكياً مهتداً * أصيب بسيف هاشمي مهتد

وقال الرقاشي ، وقد نظر إلى جعفر وهو على جذعه :

أما والله لولا خوف واش * وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلنا * كما للناس بالحجر استلام
فما أبصرت قبلك يا ابن يحيى * حساما فله السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً * ودولة آل برمك السلام

قال فاستدعاه الرشيد فقال له : كم كان يعطيك جعفر كل عام ؟ قال : ألف دينار . قال : فأمر له

بشعر

بأبي دينار . وقال الزبير بن بكار عن عمه مصعب الزبيري قال : لما قتل الرشيد جعفرًا وقفت امرأة على حمار فاره فتالت باسان فصيح : والله يا جعفر لئن صرت اليوم آية لقد كنت في المكارم غاية ، ثم أنشأت تقول :

ولما رأيتُ السيفَ خالطَ جعفرًا • ونادى متادٍ للخليفةِ في بحبي
بكيتُ على الدنيا وأيقنتُ أنها • قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
وما هي إلا دولةٌ بعدَ دولةٍ * تحولُ ذا نعمي وتعمبُ ذا بلوى
إذا أنزلتُ هذا منازلُ رفعةٍ * من الملكِ حطتْ ذالِ إلى الغايةِ بالقصوى

قال : ثم حركت حمارها فندعبت فكأنها كانت ربحاً لا أثر لها ، ولا يعرف أين ذهبت .

وذكر ابن الجوزي أن جعفرًا كان له جارية يقال لها فتينة مغنية ، لم يكن لها في الدنيا نظير ، كان يشتراها عليه بمائة الف دينار ، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلك ، فلما قتله الرشيد اصطفى تلك الجارية فأحضرها ليلة في مجالس شرابه وعند جماعة من جلسائه وسامره ، فأمر من معها أن يغنين فاندفعت كل واحدة تغني ، حتى انتهت النوبة إلى فتينة ، فأمرها بالغناء فأسبلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فغضب الرشيد غضباً شديداً ، وأمر بعض الحاضرين أن يأخذها إليه فقد وهبها له ، ثم لما أراد الانصراف قال له فيما بينه وبينه : لا تطأها . ففهم أنه إنما يريد بذلك كسرهما . فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهر أنه قد رضي عنها وأمرها بالغناء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فغضب الرشيد أشد من غضبه في المرة الأولى وقال : الطع والسيف ، وجاء السياف فوقف على رأسها فقال له الرشيد : إذا أمرتك ثلاثاً وعقدت أصابعي ثلاثاً فاضرب . ثم قال لها غن : فبكت وقالت : أما بعد السادة فلا . فعقد أصبعه الخنصر ، ثم أمرها الثانية فامتنعت ، فعقد اثنتين ، فارتعد الحاضرون وأشفقوا غاية الشفاق وأقبلوا عليها يسألونها أن تغني اثلاً تقتل نفسها ، وأن تجيب أمير المؤمنين إلى ما يريد . ثم أمرها الثالثة فاندفعت تغني كارهة :

لما رأيتُ الدنيا قد دُرستُ * أيقنتُ أن النعيمَ لم يعد

قال فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تكسر ، وأقبلت الدماء وتطايرت الجوار من حولها ، وحملت من بين يديه فماتت بعد ثلاث .

وروى أن الرشيد كان يقول : لعن الله من أغراني بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء ، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأنى تركتهم على حالهم .

وحكى ابن خلدكان أن جعفرًا اشترى جارية من رجل بأربعين ألف دينار ، فالتفت إلى بائعها وقالت : اذكر العهد الذي بيني وبينك ، لا تأكل من ثمنى شيئاً . فبكى سيدها وقال : اشهدوا أنها

حرة ، وأنى قد تزوجتها . فقال جعفر : اشهدوا أن النمر له أيضا . وكتب إلى نائب له : أما بعد فقد
كثر شاكوك ، وقل شاكر وك ، فأما أن تعمل ، وإما تعزل . ومن أحسن ما وقع منه من التلطف
في إزالة هم الرشيد ، وقد دخل عليه منجم يهودى فأخبره أنه سيموت في هذه السنة ، فحمل الرشيد
هما عظيما ، فدخل عليه جعفر فسأله : ما الخبر ؟ فأخبره بقول اليهودى فاستدعى جعفر اليهودى
فقال له : كم بقى لك من العمر ؟ فذكر مدة طويلة . فقال : يا أمير المؤمنين اقتله حتى تعلم كذبه فيما
أخبر عن عمره . فأمر الرشيد باليهودى فقتل ، وسرى عن الرشيد الذى كان فيه .

وبعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نبيك ، وذلك أنه حزن على البرامكة ،
ولا سيما على جعفر ، كان يكثر البكاء عليهم ، ثم خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ
بتأمرهم ، وكان إذا شرب فى منزله يقول لجاريته : ائتنى بسيفى ، فيسله ثم يقول : والله لأقتلن قاتله ،
فأكثر أن يقول ذلك ، فخشى ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم عن آخرهم ، ورأى أن
أباه لا ينزع عن هذا ، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه ، فأخبر الفضل الخليفة ، فاستدعى به
فاستخبره فأخبره ، فقال : من يشهد معك عليه ؟ فقال : فلان الخادم فجاء به فشهد ، فقال الرشيد :
لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصى ، لعلهما قد تواطأ على ذلك . فأحضره الرشيد معه
على الشراب ثم خلا به فقال : ويحك يا إبراهيم ! إن عندى سرا أحب أن أطلعك عليه ، أفلتني فى
الليل والنهار . قال : وما هو ؟ قال : إنى ندمت على قتل البرامكة ووددت أنى خرجت من نصف
ملكى ونصف عمرى ولم أكن فعلت بهم ما فعلت ، فانى لم أجد بعدهم لذة ولا راحة . فقال : رحمة الله
على أبى الفضل - يعنى جعفرآ - وبكى ، وقال : والله يا سيدي لقد أخطأت فى قتله . فقال له : قم
لعنك الله ، ثم حبسه ثم قتله بعد ثلاثة أيام . وسلم أهله وولده .

وفى هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بسبب أنه بلغه أنه يريد الخلافة ، واشتد
غضبه بسببه على البرامكة الذين هم فى الحبوس ، ثم سجنه فلم يزل فى السجن حتى مات الرشيد
فأخرجه الأمين وعقد له على نيابة الشام . وفيها نارت العصية بالشام بين المضرية والنزارية ،
فبعث إليهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم .

وفىها كانت زلزلة عظيمة بالمصيصة فأنهدم بعض سورها ونضب ماؤها ساعة من الليل . وفيها
بعث الرشيد ولده القاسم على الصائفة ، وجعله قربانا ووسيلة بين يديه ، وولاه العواصم ، فسار إلى
بلاد الروم فحاصرهم حتى أفتدوا بخلق من الأسارى يطلقونهم ويرجع عنهم ، ففعل ذلك . وفيها
نقضت الروم الصلح الذى كان بينهم وبين المسلمين ، الذى كان عقده الرشيد بينه وبين رنى ملكة
الروم الملقبة أغسطه . وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور ، وكان شجاعا ، يقال إنه

من سلالة آل جفنة ، فخلدوا رنى وسملوا عينيهما . فكتب نقفور إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلى أقاتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، وذلك من ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى هذا فاردد إلى ما حملته إليك من الأموال وافقد نفسك به ، وإلا فالسيف بيننا وبينك . فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذ الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه ، ولا يستطيع مخاطبته ، وأشفق عليه جلساؤه خوفاً منه ، ثم استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام . ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بياب هرقله ففتحها واصطفى ابنة ملكها ، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً ، وخرب وأحرق ، فطلب نقفور منه المودة على خراج يؤديه إليه فى كل سنة ، فأجابه الرشيد إلى ذلك . فلما رجع من غزوته وصار بالركة نقض الكافر العهد وخان الميثاق ، وكان البرد قد اشتد جداً ، فلم يقدر أحد أن يجيئ فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد ، حتى يخرج فصل الشتاء . وحج بالناس فيها عبد الله بن عباس بن محمد بن على .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكى الوزير ابن الوزير ، ولاء الرشيد الشام وغيرها من البلاد ، وبعثه إلى دمشق لما ثارت الفتنة العشران بجوران بين قيس و يمن ، وكان ذلك أول ما ظهرت بين قيس و يمن فى بلاد الاسلام ، كان خامداً من زمن الجاهلية فأثاروه فى هذا الأوان ، فلما قدم جعفر بجيشه خمدت الشرور وظهر السرور ، وقيل فى ذلك أشعار حسان ، قد ذكر ذلك ابن عساع كرمى خرجة جعفر من تاريخه منها : -

لقد أوقدت فى الشام نيران فتنة • فهذا أوان الشام نحمد نارها
إذا جاش سوح البحر من البرمك • عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر • وفيه تلافى صدعها وأنجبارها
هو الملك المأمول للبر والتقى • وصولاته لا يستطاع خطارها

وهى قصيدة طويلة ، وكانت له فصاحة و بلاغة و ذكاء و كرم زائد ، كان أبوه قد ضمه إلى القاضى أبى يوسف فتفقه عليه ، وصار له اختصاص بالرشيد ، وقد وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ، ولم يخرج فى شئ منها عن موجب الفقه . وقد روى الحديث عن أبيه عن عبد الحميد الكاتب عن عبد الملك بن مروان كاتب عثمان عن زيد بن ثابت كاتب الوحي . قال قال رسول الله

«س:» إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السنين فيه . . رواه الخطيب وابن عساكر من طريق أبي القاسم الكمي المتكلم ، واسمه عبد الله بن أحمد البلخي - وقد كان كاتباً لمحمد بن زيد - عن أبيه عن عبد الله بن طاهر عن طاهر بن الحسين بن زريق عن الفضل بن سهل ذي الرياستين عن جعفر بن يحيى به . وقال عمرو بن بحر الجاحظ قال جعفر الرشيد : يا أمير المؤمنين ! قال لي أبي يحيى : إذا أقبلت الدنيا عليك فاعط ، وإذا أدبرت فاعط ، فانها لا تبقى ، وأنشدني أبي :

لا تبخلنْ دُنْيَا وهي مقبلةٌ • فليس ينقصها التَّبذِيرُ والسرفُ
فإن تولتْ فأحرى أن تجودَ بها • فالخدمتها إذا ما أدبرتْ خَلْفُ

قال الخطيب : ولقد كان جعفر من علو القدر وفنائه والأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد على حالة انفرادها ، ولم يشاركه فيها أحد . وكان يسمع الأخلاق تطلق الوجه ظاهر البشر . أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فأشهر من أن يذكر . وكان أيضاً من ذوى الفصاحة والمدكورين بالبلاغة . وروى ابن عساكر عن مهنب حاجب العباس بن محمد صاحب قطيعة العباس والعباسية أنه أصابته فاقة وضائقة ، وكان عليه ديون ، فألحَّ عليه المطالبون وعنده سفظ فيه جواهر شراؤه عليه ألف ألف ، فأتى به جعفراً فعرضه عليه وأخبره بما هو عليه من الثمن ، وأخبره بالحاج المطالبين بديونهم ، وأنه لم يبق له سوى هذا السفظ . فقال : قد اشتريته منك بألف ألف ثم أقبضه المال وقبض السفظ منه ، وكان ذلك ليلاً . ثم أمر من ذهب بالمال إلى منزله وأجلسه معه في السر تلك الليلة ، فلما رجع إلى منزله إذا السفظ قد سبقه إلى منزله أيضاً . قال فلما أصبحت غدوت إلى جعفر لأشكر له فوجدته مع أخيه الفضل على باب الرشيد يستأذنان عليه ، فقال له جعفر : إني قد ذكرت أمرك للفضل ، وقد أمر لك بألف ألف : وما أظنها إلا قد سبقتك إلى منزلك ، وسأفاوض فيك أمير المؤمنين . فلما دخل ذكر له أمره وما لحقه من الديون فأمر له بثلاثمائة ألف دينار .

وكان جعفر ليلة في سمره عند بعض أصحابه فجاءت الخنفساء فركبت ثياب الرجل فألقاها عنه جعفر وقال : إن الناس يقولون : من قصده الخنفساء يبشر بمال يصيبه . فأمر له جعفر بألف دينار . ثم عادت الخنفساء ، فرجعت إلى الرجل فأمر له بألف دينار أخرى

وحج مرة مع الرشيد فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه : انظر جارية أشتريها تكون فائقة في الجمال والغناء والدعابة ، ففتش الرجل فوجد [جارية] على النعمت فطلب سيدها فيها مالا كثيراً على أن يراها جعفر ، فذهب جعفر إلى منزل سيدها فلما رآها أعجب بها ، فلما غنته أعجبه أكثر ، فسأومه صاحبها فيها ، فقال له جعفر : قد أحضرتنا مالا فان أعجبك وإلا زدناك ، فقال لها سيدها : إني كنت في نعمة وكنت عندي في غاية السرور ، وإنه قد انقبض على حالي ، وإني قد أحببت أن

أبيك لهذا الملك ، لكي تكوني عنده كما كنت عندي . فقالت له الجارية : والله يا سيدي لو ملكت منك كما ملكت مني لم أبعك بالدنيا وما فيها ، وأين ما كنت عاهدتني أن لا تبعيني ولا تأكل من ثمنى . فقال سيدها لجعفر وأصحابه : أشهدكم أنها حرة لوجه الله ، وأنى قد تزوجتها . فلما قال ذلك نهض جعفر وقام أصحابه وأمروا الحمال أن يحمل المال . فقال جعفر : والله لا يتبعني ، وقال للرجل : قد ملكتك هذا المال فأنفقه على أهلك ، وذهب وتركه .

هذا وقد كان يبخل بالنسبة إلى أخيه الفضل ، إلا أن الفضل كان أكثر منه مالا . وروى ابن عساكر من طريق الدارقطني بسنده أنه لما أصيب جعفر وجدوا له في جرة ألف دينار ، زنة كل دينار مائة دينار ، مكتوب على صفحة الدينار جعفر

وأصفر من ضرب دار الملوك * يلوح على وجه جعفر
يزيد على مائة واحدا * متى تمطر معسرا يوسر

وقال أحمد بن المعلى الراوية : كتبت عنان جارية الناطقي لجعفر تطلب منه أن يقول لأبيه بجي أن يشير على الرشيد بشرائها ، وكتبت إليه هذه الأبيات من شعرها في جعفر :-

بالأثم جهلاً ألا تقصر * من ذا على حر الهوى يصبر
لا تلحنى إذا شربت الهوى * صرفاً فمزوج الهوى سكر
أحاط بي الحب نغفني له * بجزم وقد أوى له أبحر
تخفق رايات الهوى بالردى * فوقى وحول للهوى عسكر
سيان عندي في الهوى لائم * أقل فيه والذي يكثر
أنت المصني من بني برمك * يا جعفر الخيرات يا جعفر
لا يبلغ الواصف في وصفه * ما فيك من فضل ولا يعشر
من وفر المال لأغراضه * فجعفر أغراضه أوفر
ديباجة الملك على وجهه * وفي يديه العارض المطر
سحت علينا منها ديمة * ينهل منها الذهب الأحمر
لومسحت كفاءه جلوده * نضر فيها الورق الأخضر
لا يستم المجد إلا فقى * يصبر للبذل كما يصبر
بهتر تاج الملك من فوقه * نخرأ وزهى تحت المنبر
أشبهه البدر إذا ما بدا * أو غرة في وجهه بزهر
والله ما أدرى أبرد الدجى * في وجه أم وجه أنور

يسمطر الزوار منك الندى * وأنت بالزوار تستبشر
وكتبت تحت أياتها حاجتها ، فركب من فوره إلى أبيه فأدخله على الخليفة فأشار عليه بشرائها
فقال : لا والله لا أشتريها ، وقد قال فيها الشعراء فأكثرنا ، واشتهر أمرها وهي التي يقول فيها أبو نواس :
لا يشتريها إلا ابن زانية * أو قلطان يكون من كانا
وعن ثمامة بن أشرس قال : بت ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد ، فانتبه من منامه يبكي مذعوراً
فقلت : ما شأنك ؟ قال : رأيت شيخاً جاء فأخذ بعضادتي هذا الباب وقال :
كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسر بمكة سامر
قال فأجبت : بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العوائر
قال ثمامة : فلما كانت الليلة القابلة قتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر ثم خرج الرشيد فنظر
إليه فتأمل ثم أنشأ يقول :

تقاضاك دهرك ما أسلفا * وكدر عيشك بعد الصفا
فلا تعجبن فان الزمان * رهين بتفريق ما ألفا
قال : فنظرت إلى جعفر وقلت : أما لئن أصبحت اليوم آية فلقد كنت في الكرم والجود غاية ،
قال : فنظر إلى كأنه جل صؤول ثم أنشأ يقول : -

ما يعجب العالم من جعفر * ما عينوه فبنا كانا
من جعفر أو من أبوه ومن * كانت بنو برك لولانا
ثم حول وجه فرسه وانصرف .

وقد كان مقتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر من سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان عمره سبعاً
وثلاثين سنة ، ومكث وزيراً سبع عشرة سنة . وقد دخلت عبادة أم جعفر على أناس في يوم عيد
أضحى تستمنحهم جلد كبش تدفأ به ، فسألوها عن ما كانت فيه من النعمة فقالت : لقد أصبحت في
مثل هذا اليوم وإن علي رأسي أربع مائة وصيفة ، وأقول إن ابني جعفر آق لي . وروى الخطيب
البغدادي بإسناده أن سفيان بن عيينة لما بلغه قتل الرشيد جعفرًا وما أحل بالبرامكة ، استقبل القبلة
وقال : اللهم إن جعفرًا كان قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة .

حكاية غريبة

ذكر ابن الجوزي في المنتظم أن المأمون بلغه أن رجلاً يأتي كل يوم إلى قبور البرامكة فيبكي
عليهم ويندبهم ، فبعث من جاء به فدخل عليه وقد يئس من الحياة ، فقال له : ويحك ! ما يحملك على
صنيعك هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنهم أسدوا إلى معرُوفاً وخيراً كثيراً . فقال : وما الذي

أسدوه إليك؟ فقال: أنا المنذر بن المغيرة من أهل دمشق، كنت بدمشق في نعمة عظيمة واسعة، فزالت عني حتى أفضى بي الحال إلى أن بعت داري، ثم لم يبق لي شيء، فأشار بعض أصحابي على بقصد البرامكة ببغداد، فأتيت أهلي وتحملت بعالي، فأتيت ببغداد ومعى نيف وعشرون امرأة فأنزلتهن في مسجد مهجور ثم قصدت مسجداً مأهولاً أصلي فيه. فدخلت مسجداً فيه جماعة لم أر أحسن وجوهاً منهم، فجلست إليهم فجعلت أدبر في نفسي كلاماً أطلب به منهم قوتاً للعيال الذين معى، فيمنعني من ذلك السؤال الحياء، فبينما أنا كذلك إذا بخادم قد أقبل فدعاهم فقاموا كلهم وقت معهم، فدخلوا داراً عظيمة، فاذا الوزير يحيى بن خالد جالس فيها فجلسوا حوله، فمقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له ونثروا فلق المسك وبنادق العنبر، ثم جاء الخدم إلى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينار، ومعها فتات المسك، فأخذها القوم ونهضوا وبقيت أنا جالسا، وبين يدي الصينية التي وضعوها لي، وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها في نفسي، فقال لي بعض الحاضرين: ألا تأخذها وتذهب؟ فددت يدي فأخذتها فأفرغت ذهبها في جيبى وأخذت الصينية تحت إبطى وقت، وأنا خائف أن تؤخذ منى، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إلى وأنا لا أشعر، فلما بلغت الستارة أمرم فردوني فيئست من المال، فلما رجعت قال لي: ما شأنك خائف؟ فقصصت عليه خبرى، فبكى ثم قال لأولاده: خذوا هذا فضموه إليكم. فجاءنى خادم فأخذ منى الصينية والذهب وأقت عندهم عشرة أيام من ولد إلى ولد، وخاطرى كله عند عيالى، ولا يمكننى الانصراف، فلما انقضت العشرة الأيام جاءنى خادم فقال: ألا تذهب إلى عيالك؟ فقلت: بلى والله، فقام يمشى أمامى ولم يعطنى الذهب ولا الصينية، فقلت: يا ليت هذا كان قبل أن يؤخذ منى الصينية والذهب، ياليت عيالى رأوا ذلك. فسار يمشى أمامى إلى دار لم أر أحسن منها، فدخلتها فاذا عيالى يتمرغون فى الذهب والحرير فيها، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، وكتابا فيه تملك الدار بما فيها، وكتابا آخر فيه تملك قريتين جليلتين، فكننت مع البرامكة فى أطيب عيش، فلما أصيبوا أخذ منى عمرو بن مسعدة القرينتين وأزمنى بخراجهما، فكلما لحقتني فاقة قصدت دورم وقبورم فبكى عليهم. فأمر المأمون برد القرينتين، فبكى الشيخ بكاء شديداً فقال المأمون: مالك؟ ألم استأنف بك جيلا؟ قال: بلى ولكن هو من بركة البرامكة. فقال له المأمون: امض مصاحباً فان الوفاء مبارك، ومراعاة حسن العهد والصحبة من الإيمان. وفيها توفى:

الفضيل بن عياض

أبو على التميمي أحد أئمة العباد الزهاد، وهو أحد العلماء والأولياء، ولد بخراسان بكورة دينور وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب وحصين بن

عبد الرحمن وغيرهم . ثم انتقل إلى مكة فتعبد بها ، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام ، وكان سيداً جليلاً ثقة من أئمة الرواية رحمه الله ورضي عنه . وله مع الرشيد قصة طويلة ، وقد روينا ذلك مطولاً في كيفية دخول الرشيد عليه منزله ، وما قال له الفضيل بن عياض ، وعرض عليه الرشيد المال فأبى أن يقبل منه ذلك . توفي بمكة في المحرم من هذه السنة . وذكروا أنه كان شاطراً يقطع الطريق ، وكان يتعشق جارية ، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً إذ سمع قارئاً يقرأ [ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله] فقال : بلى ! وتاب وأقلع عما كان عليه . ورجع إلى خربة فبات بها فسمع سفاراً يقولون : خذوا حذرکم إن فضيلاً أمامكم يقطع الطريق ، فأمهم واستمر على توبته حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة ، ثم صار علماً يقتدى به ويهتدى بكلامه وفعاله . قال الفضيل : لو أن الدنيا كلها حلال لا أحاسب بها لكنت أتقنرها كما يتقنر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه ، وقال : العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل لأجل الناس رياء ، والاخلاص أن يعافيك الله منيها . وقال له الرشيد يوماً : ما أزهديك ، فقال : أنت أزهدي مني ، لأنني أما زهدت في الدنيا التي هي أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت في الآخرة التي لا قيمة لها ، فأنا زاهد في الفاني وأنت زاهد في الباقي . ومن زهد في درة أزهدي من زهد في بكرة . وقد روى مثل هذا عن أبي حازم أنه قال ذلك لسليمان بن عبد الملك .

وقال : لو أن لي دعوة مستجابة لجعلتها للامام ، لأن به صلاح الرعية ، فإذا صلح أمنت البلاد والبلاد . وقال : إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق حمارى وخادمى وامرأتى وفاربيتى [وقال في قوله تعالى : [ليلوكم أيكم أحسن عملاً] . قال : يعنى أخلصه وأصوبه ، إن العمل يجب أن يكون خالصاً لله ، وصواباً على متابعة النبي (ص)]^(١) وفيها توفى :

بشر بن المفضل . وعبد السلام بن حرب . وعبد العزيز بن محمد الدراوردي . وعبد العزيز العمى . وعلى بن عيسى ، الأمير ببلاد الروم مع القاسم بن الرشيد في الصائفة . ومعتز بن سليمان وأبو شعيب البرائى الزاهد ، وكان أول من سكن برائاً في كوخ له يتعبد فيه ، فهو يته امرأة من بنات الرؤساء فأنخلعت مما كانت فيه من الدنيا والسعادة والحشمة ، وتزوجته وأقامت معه في كوخه تتعبد حتى ماتا ، يقال إن اسمها جوهرة .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

فيها غزا إبراهيم بن إسرائيل الصائفة فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج النقفور للقائه فخرج النقفور ثلاث جراح ، وانهمزم ، وقتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفاً ، وغنموا أكثر من

(١) زيادة من المصرية .

أربعة آلاف دابة . وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق . وفيها حج بالناس الرشيد ، وكانت آخر حجاته . وقد قال أبو بكر حين رأى الرشيد منسرفاً من الحج - وقد اجتاز بالكوفة - لا يحج الرشيد بعدها ، ولا يحج بعده خليفة أبداً . وقد رأى الرشيد بهلول الموله فوعظه موعظة حسنة ، فروينا من طريق الفضل بن الربيع الحاجب قال : حججت مع الرشيد فمررتنا بالكوفة فإذا بهلول المجنون يهذي ، فقلت : اسكت فتمه أقبل أمير المؤمنين ، فسكت . فلما حاذاه الهودج قال : يا أمير المؤمنين حدثني أيمن بن نائل ثنا قدامة بن عبد الله العامري قال . رأيت النبي (ص) ، بمنى على جبل وتمتته رحل رث ، ولم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك . قال الربيع فقلت : يا أمير المؤمنين إنه بهلول ، فقال : قد عرفته ، قل يا بهلول فقال :

هَبْ أَنْ قَدْ مَلَكْتَ الْأَرْضَ طَرَا * وَدَانَ لَكَ الْعِبَادُ فَكَانَ مَاذَا

أَلَيْسَ غَدَاً مَصِيرُكَ جَوْفَ قَبْرِ * وَبِخَوْعِيكَ التَّرَابَ هَذَا ثُمَّ هَذَا

قال : أجدت يا بهلول ، أفغيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! من رزقه الله مالا وجمالاً فعف في جماله ، وواسى في ماله ، كتب في ديوان الله من الأبرار . قال : فظن أنه يريد شيئاً ، فقال : إنا أمرنا بقضاء دينك . فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك . قال : إنا أمرنا أن يجرى عليك رزق تفتت به . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني . وإها أنا قد عشت عمراً لم تجر على رزقا ، انصرف لاحاجة لي في جرايتك . قال : هذه ألف دينار خذها . فقال : ارددها على أصحابها فهو خير لك ، وما أصنع أنا بها ؟ انصرف عني فقد آذنتني . قال : فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا . ومن توفى فيها من الأعيان :

ابو اسحاق الفزاري

إبراهيم بن محمد بن الحارث بن إسماعيل بن خارجة ، إمام أهل الشام في المغازي وغير ذلك . أخذ عن الثوري والأوزاعي وغيرهما ، توفي في هذه السنة . وقيل قبلها .

وإبراهيم الموصلي

النديم ، وهو إبراهيم بن ماهان بن بهمن أبو إسحاق ، أحد الشعراء والمغنين والندماء للرشيد وغيره ، أصله من الفرس وولد بالكوفة وصحب شبانها وأخذ عنهم الغناء ، ثم سافر إلى الموصل ثم عاد إلى الكوفة فقالوا : الموصلي . ثم اتصل بالخلفاء أولهم المهدي وحظي عند الرشيد ، وكان من جملة ساره وندمائه ومغنيه ، وقد أثرى وكثر ماله جداً ، حتى قيل إنه ترك أربعة وعشرين ألف ألف

❦❦❦

درم ، وكانت له طرف وحكايات غريبة ، وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة في الكوفة ، ونشأ في كفالة بني تميم ، فتعلم منهم ونسب إليهم ، وكان فاضلاً بارعاً في صناعة الغناء ، وكان مزوجاً بأخت المنصور الملقب بززل ، الذي كان يضرب معه ، فاذا غنى هذا وضرب هذا اهتز المجلس . توفي في هذه السنة على الصحيح ، وحكى ابن خلدكان في الوفيات أنه توفي وأبو العتاهية وأبو عمر والشيباني ببغداد في يوم واحد من سنة ثلاث عشرة ومائتين . وصحح الأول . ومن قوله في شعره عند احتضاره

قوله : ملِّ واللهِ طيبي * من مقاساة الذي بي

سوف أنى عن قريب * لعدوٍ وحبيبٍ

وفيها مات جرير بن عبد الحميد . ورشد بن سعد . وعبد بن سليمان . وعقبة بن خالد . وعمر ابن أيوب العابد أحد مشايخ أحمد بن حنبل . وعيسى بن يونس في قول .

تم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الحج وسار إلى الري فولى وعزل . وفيها رد علي بن عيسى إلى ولاية خراسان ، وجاءه نواب تلك البلاد بالهدايا والتحف من سائر الأشكال والألوان ، ثم عاد إلى بغداد فأدركه عيد الأضحى بقصر اللصوص فضحى عنده ، ودخل إلى بغداد لثلاث بقين من ذى الحجة ، فلما اجتاز بالجسر أمر بجثة جعفر بن يحيى البرمكي فأحرقت ودفنت ، وكانت مصلوبة من حين قتل إلى هذا اليوم ، ثم ارتحل الرشيد من بغداد إلى الرقة ليسكنها وهو متأسف على بغداد وطيبها ، وإنما مراده بمقامه بالرقة ردع المفسدين بها ، وقد قال العباس بن الأحنف في خروجهم من بغداد مع الرشيد :

ما أنحنأ حتى ارتحلنا فما ن * فرق بين المناخ والارتحال

سألونا عن حالنا إذ قدمنا * فقرئنا وداعهم بالسؤال

وفيها قادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم ، حتى يقال إنه لم يترك بها أسيراً من المسلمين . فقال فيه بعض الشعراء :

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها * محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعياء المسلمين فكأكم * وقالوا سجون المشركين قبورها

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق بمحاصر الروم . وفيها حج بالناس العباس بن موسى ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز أبو الحسن الأسدي مولاهم ، الكوفي المعروف بالكسائي لأحرامه في كساء ، وقيل لاشتغاله على حمزة الزيات في كساء ، كان نحوياً لغوياً أحد أئمة القراء ، أصله

من الكوفة ثم استوطن بغداد ، فأدب الرشيد وولده الأمين ، وقد قرأ على حمزة بن حبيب الزيات قراءته ، وكان يقرئ بها ، ثم اختار لنفسه قراءة وكان يقرأ بها . وقد روى عن أبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة وغيرهما ، وعنه يحيى بن زياد الفراء وأبو عبيد . قال الشافعي : من أراد النحو فهو عيال على الكسائي . أخذ الكسائي عن الخليل صناعة النحو فسأله يوماً : عن من أخذت هذا العلم ؟ قال : من بوادي الحجاز . فرحل الكسائي إلى هناك فكتب عن العرب شيئاً كثيراً ، ثم عاد إلى الخليل فاذا هو قد مات وتصدر في موضعه بونس ، فجرت بينهما مناظرات أقر له فيها بونس بالفضل ، وأجلسه في موضعه .

قال الكسائي : صليت يوماً بالرشيد فأعجبني قراءته ، فغلطت غلطة ما غلطها صبي ، أردت أن أقول لعلمهم يرجعون ، فقلت لعلمهم ترجمين ، فما تجاسر الرشيد أن يردّها . فلما سلمت قال : أي لغة هذه ؟ فقلت : إن الجواد قد يعثر . فقال : أما هذا فنعم . وقال بعضهم : لقيت الكسائي فاذا هو مهموم ، فقلت : مالك ؟ فقال : إن يحيى بن خالد قد وجه إلى ليسألني عن أشياء فأخشى من الخطأ ، فقلت : قل ما شئت فأنت الكسائي ، فقال : قطع الله - يعني لسانه - إن قلت ما لم أعلم . وقال الكسائي يوماً قات لنجار : بكم هذان البابان ؟ فقال : بسالجيان يا مصفعان .

توفي الكسائي في هذه السنة على المشهور ، عن سبعين سنة . وكان في صحبة الرشيد ببلاد الري فمات بنواحيها هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد ، وكان الرشيد يقول : دفنت الفقه والعريضة بالري . قال ابن خلكان : وقيل إن الكسائي توفي بطوس سنة ثنتين وثمانين ومائة ، وقد رأى بعضهم الكسائي في المنام ووجهه كالبدر فقال : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي بالقرآن . فقلت : ما فعل حمزة ؟ قال : ذاك في عمليين ، ما نراه إلا كما نرى الكوكب . وفيها توفي :

محمد بن الحسن بن زفر

أبو عبد الله الشيباني مولاهم ، صاحب أبي حنيفة . أصله من قرية من قرى دمشق ، قدم أبوه العراق فولد بواسط سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة ومسعر والثوري وعمر بن ذر ومالك بن مغول ، وكتب عن مالك بن أنس والأوزاعي وأبي يوسف ، وسكن بغداد وحدث بها ، وكتب عنه الشافعي حين قدمها في سنة أربع وثمانين ومائة ، وولاه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله . وكان يقول لأهله : لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي . وخذوا ما شئتم من مالي فإنه أقل لهمى وأفرغ لقلبي . وقال الشافعي : ما رأيت حبراً سمياً مثله ، ولا رأيت أخف روحاً منه ، ولا أفصح منه . كنت إذا سمعته يقرأ القرآن كأنما ينزل القرآن بلفته . وقال أيضاً : ما رأيت أعقل منه ، كان بلاء العين والقلب ، قال الطحاوي : كان الشافعي قد طلب من محمد بن الحسن

كتاب السير فلم يجبه إلى الاعارة فكتب إليه :-

قل للذي لم تر عيناي مثله * حتى كان من رآه قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله * لعله يبذل لأهله لعله

قال : فوجه به إليه في الحال هدية لاعارية . وقال إبراهيم الحاربي : قيل لأحمد بن حنبل : هذه المسائل الدقاق من أين هي لك ؟ قال : من كتب محمد بن الحسن رحمه الله . وقد تقدم أنه مات هو والكسائي في يوم واحد من هذه السنة . فقال الرشيد : دفنت اليوم اللغة والفقهاء جميعاً . وكان عمره ثمانية وخمسين سنة .

ثم دخلت سنة تسعين ومائة من الهجرة

فيها خلع رافع بن ليث بن نصر بن سيار نائب سمرقند الطاعة ودعا إلى نفسه ، وتابعه أهل بلده وطائفة كثيرة من تلك الناحية ، واستفعل أمره ، فسار إليه نائب خراسان علي بن عيسى فهزمه رافع وتفاقم الأمر به . وفيها سار الرشيد ليز وبلاد الروم لعشر بقين من رجب ، وقد لبس على رأسه قلنسوة فقال فيها أبو المصعب الكلابي :

فن يطلب لقاءك أو يرده * فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر * وفي أرض الترفه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق * من المتخلفين على الأمور

فسار حتى وصل إلى الطوانة فمسكرها وبعث إليه نقفور بالطاعة وحمل الخراج والجزية حتى عن رأس ولده ورأسه ، وأهل مملكته ، في كل سنة خمسة عشر ألف دينار ، وبعث يطلب من الرشيد جارية قد أسروها وكانت ابنة ملك هرقل ، وكان قد خطبها على ولده ، فبعث بها الرشيد مع هدايا وتحف وطيب بعث يطلبه من الرشيد ، واشترط عليه الرشيد أن يحمل في كل سنة ثلثمائة ألف دينار ، وأن لا يعمر هرقل . ثم انصرف الرشيد راجعاً واستناب على الغزو عقبة بن جعفر . ونقض أهل قبرص العهد فزاهم معيوف بن يحيى ، فسبى أهلها وقتل منهم خلقاً كثيراً . وخرج رجل من عبد القيس فبعث إليه الرشيد من قتله . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى الهادي .

من توفي فيها من الأعيان والمشاهير

أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلي الكوفي صاحب أبي حنيفة ، حكم ببغداد وبواسط ، فلما انفك بصره عزل نفسه عن القضاء . قال أحمد بن حنبل : كان صدوقاً . ووثقه ابن معين ، وتكلم فيه علي بن المديني والبخاري ومعدون المجنون صام ستين سنة نحف دماغه فسماه الناس مجنوناً ، وقف يوماً على حلقة ذي النون المصري فسمع كلامه فصرخ ثم أنشأ يقول :

ولا خير في شكوى إلى غير مشتكى * ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر

بببب

وقال الأصمعي : مررت به وهو جالس عند رأس شيخ سكران يذب عنه ، فقلت له : مالي أراك عند رأس هذا الشيخ ؟ فقال : إنه مجنون . فقلت : أنت مجنون أو هو ؟ قال : لا بل هو ، لأنني صليت الظهر والعصر في جماعة وهو لم يصل جماعة ولا فرادى . وهو مع هذا قد شرب الخمر وأنا لم أشربها . قلت : فهل قلت في هذا شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشأ يقول : —
 تركت النبيذ لأهل النبيذ • وأصبحتُ أشربُ ماءً قراحاً
 لأنَّ النبيذَ يذلُّ العزيزَ * ويكسو السوادَ الوجوهَ الصباحا
 فان كانَ ذا جائزاً للشبابِ * فما العذرُ منه إذا الشيبُ لاحا
 قال الأصمعي : فقلت له : صدقت ، أنت العاقل وهو المجنون .

وعبيدة بن حميد بن صهيب ، أبو عبد الرحمن النخعي الكوفي ، مؤدب الأمين . روى عن الأعمش وغيره ، وعنه أحمد بن حنبل . وكان يثني عليه . وفيها توفي :

بجعي بن خالد بن برمك

أبو علي الوزير والد جعفر البرمكي ، ضم إليه المهدي ولده الرشيد فرباه ، وأرضعته امرأته مع الفضل بن بجعي ، فلما ولي الرشيد عرف له حقه ، وكان يقول : قال أبي ، قال أبي . وفوض إليه أمور الخلافة وأزمتهما ، ولم يزل كذلك حتى نكبت البرامكة فقتل جعفر وخلد أباه بجعي في الحبس حتى مات في هذه السنة . وكان كريماً فصيحاً ، ذا رأي سديد ، يظهر من أموره خير وصلاح . قال يوماً لولده : خذوا من كل شيء طرفاً ، فان من جمل شيئاً عاداه . وقال لأولاده : اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون . وكان يقول لهم : إذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، وإذا أدبرت فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، وكان إذا سأله سائل في الطريق وهو راكب أقل ما يأمر له بمائتي درهم فقال رجل يوماً : ب —

يا سمى الحصورِ بجعي * أتيتك لك من فضل ربناجنتانِ
 كلُّ من مرَّ في الطريقِ عليكم * فله من نوالكم مائتانِ
 مائتا درهمٍ لمثلٍ قليلٍ • هي للفرسِ العجلانِ

فقال : صدقت . وأمر فسبق به إلى الدار ، فلما رجع سأل عنه فاذا هو قد تزوج وهو يريد أن يدخل على أهله فأعطاه صداقها أربعة آلاف ، وعن دار أربعة آلاف ، وعن الأمتعة أربعة آلاف . وكلفة الدخول أربعة آلاف ، وأربعة آلاف يستظهر بها . وجاء رجل يوماً فسأله شيئاً فقال : وبجك لقد جئتني في وقت لا أملك فيه مالا ، وقد بعث إلى صاحب لي يطلب مني أن يهدي إلي ما أحب ، وقد بلغني أنك تريد أن تبيع جارية لك ، وأنت قد أعطيت فيها ثلاثة آلاف دينار ، وإني سأطلبها

فلا تبعها منه بأقل من ثلاثين ألف دينار . فجاؤني فبلغوا معي بالمساومة إلى عشرين ألف دينار ، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها ، وأجبت إلى بيعها ، فأخذها وأخذت العشرين ألف دينار . فأهداها إلى يحيى ، فلما اجتمعت بيحيى قال : بكم بيعتها ؟ قلت : بعشرين ألف دينار . قال : إنك لخسيس خذ جاريتك إليك وقد بعث إلى صاحب فارس يطلب مني أن أسئديه شيئاً ، وإني سأطلبها منه فلا تبعها بأقل من خمسين ألف دينار . فجاؤني فوصلوا في ثمنها إلى ثلاثين ألف دينار ، فبيعها منهم . فلما جئته لأمي أيضاً وردّها عليّ ، فقلت : أشهدك أنها حرة وأني قد تزوجتها ، وقلت : جارية قد أفادتني خمسين ألف دينار لا أفرط فيها بعد اليوم .

وذكر الخطيب أن الرشيد طلب من منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم ، ولم يكن عنده منها سوى ألف ألف درهم ، فضايق ذرعاً ، وقد توعدّه بالقتل وخراب الديار إن لم يحملها في يومه ذلك ، فدخل على يحيى بن خالد وذكر أمره فأطلق له خمسة آلاف ألف ، واستطلق له من ابنة الفضل أني ألف ، وقال لابنه : يا بني بلغني أنك تريد أن تشتري بها ضيعة . وهذه ضيعة تغل الشكر وتبقى مدى الدهر . وأخذ له من ابنة جعفر ألف ألف ، ومن جاريته دنانير عقداً اشتراه بمائة ألف دينار ، وعشرون ألف دينار ، وقال للمترسم عليه : قد حسبناه عليك بألفي ألف . فلما عرضت الأموال على الرشيد رد العقد ، وكان قد وهبه لجارية يحيى ، فلم يعد فيه بعد إذ وهبه . وقال له بعض بنيه وم في السجن والقيود : يا أبت بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال ، فقال : يا بني دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ولم يغفل الله عنها . ثم أنشأ يقول :

ربّ قوم قد غدوا في نعمة * زمناً والدهر ريان غدق

سكت الدهر زماناً عنهم * ثم أبكاهم دماً حين نطق

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجري على سفیان بن عيينة كل شهر ألف درهم ، وكان سفیان يدعو له في سجوده يقول : اللهم إنه قد كفاني المؤنة وفرغني للعبادة فكفه أمر آخرته . فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه في المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بدعاء سفیان .

وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله في الحبس في الراقعة لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة عن سبعين سنة ، وصلى عليه ابنه الفضل ، ودفن على شط الفرات ، وقد وجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه : قد تقدم الخصم والمدعا عليه بالأثر ، والحاكم الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة . فحملت إلى الرشيد فلما قرأها بكى يومه ذلك ، وبقى أياماً يتبين الأسى في وجهه . وقد قال بعض الشعراء في يحيى بن خالد : -

سألت النداء هل أنت حرٌّ فقال لا * ولكنني عبدٌ ليحيى بن خالد

قلتُ شراءً قالَ لابلَ وراثَةً • توارثَ رقيَ والدُه بعدَ والدِه
ثم دخلت سنة احدى وتسعين ومائة

فيها خرج رجل بسواد العراق يقال له ثروان بن سيف ، وجعل يتنقل فيها من بلد إلى بلد ، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك فهزمه وجرح ثروان وقتل عامة أصحابه ، وكتب بالفتح إلى الرشيد . وفيها خرج بالشام أبو النداء فوجه إليه الرشيد يحيى بن معاذ واستنابه على الشام . وفيها وقع الثلج ببغداد . وفيها غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف ، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس ، وانهمز الباقون ، وولى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين ، وضم إليه ثلاثين ألفاً فيهم مسرور الخادم ، وإليه النفقات . وخرج الرشيد إلى الحدث ليكون قريباً منهم . وأمر الرشيد بهدم الكنائس والدبور ، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهياتهم في بغداد وغيرها من البلاد . وفيها عزل الرشيد على بن موسى عن إمرة خراسان وولاه هرتمة بن أعين . وفيها فتح الرشيد هرقله في شوال وخرّبها وسبى أهلها وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة ، والكنيسة السوداء . وكان دخل هرقله في كل يوم مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر ، ودخل جزيرة قبرص فسبى أهلها وحملهم حتى باعهم بالرافقة ، فبلغ ثمن الأسقف ألفي دينار ، باعهم أبو البختری القاضي .

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدي المأمون . وحج بالناس فيها الفضل بن عباس بن محمد بن علي العباسي ، وكان والي مكة ، ولم يكن للناس بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين . وفيها توفي من الأعيان :

سلمة بن الفضل الأبرش . وعبد الرحمن بن القاسم الفقيه الراوي عن مالك بن يونس بن أبي إسحاق ، قدم على الرشيد فأمر له بمال جزيل ، نحواً من خمسين ألفاً فلم يقبله . والفضل بن موسى الشيباني . ومحمد بن سلمة . ومحمد بن الحسين المصيصي أحد الزهاد الثقات . قال لم أتكلم بكلمة أحتاج إلى الاعتذار منها منذ خمسين سنة . وفيها توفي معمر الرقي .

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة

فيها دخل هرتمة بن أعين إلى خراسان نائباً عليها ، وقبض على علي بن عيسى فأخذ أمواله وحواصله وأركبه على بعير وجهه لذنبه ونادى عليه ببلاد خراسان ، وكتب إلى الرشيد بذلك فشكره . علي ذلك ، ثم أرسله إلى الرشيد بعد ذلك فحبس بداره ببغداد . وفيها ولى الرشيد ثابت بن نصر بن مالك نيابة الثغور فدخل بلاد الروم وفتح مطمورة . وفيها كان الصلح بين المسلمين والروم على يد ثابت

ابن نصر . وفيها خرجت الخرمية بالجبل وبلاد أذربيجان . فوجه الرشيد إليهم عبد الله بن مالك بن المهيم الخزاعي في عشرة آلاف فارس قتل منهم خلقاً وأسر وسبي ذراريهم ، وقدم بهم بغداد فأمر له الرشيد بقتل الرجال منهم ، وبالذرية فبيعوا فيها . وكان قد غزاهم قبل ذلك خزيمه بن خازم . وفي ربيع الأول منها قدم الرشيد من الرقة إلى بغداد في السفن وقد استخلف على الرقة ابنه القاسم وبين يديه خزيمه بن خازم ، ومن نية الرشيد الذهاب إلى خراسان لغزو رافع بن ليث الذي كان قد خلع الطاعة واستحوز على بلاد كثيرة من بلاد سمرقند وغيرها ، ثم خرج الرشيد في شعبان قاصداً خراسان ، واستخلف على بغداد ابنه محمداً الأمين ، وسأل المأمون من أبيه أن يخرج معه خوفاً من غدر أخيه الأمين ، فأذن له فسار معه وقد شكك الرشيد في أثناء الطريق إلى بعض أمرائه جفاء بنيه الثلاثة الذين جعلهم ولاية للعهد من بعده ، وأراه داء في جسده ، وقال إن لكل واحد من الأمين والمأمون والقاسم عندي عيناً على ، وهم يعدون أنفاسي ويتمنون انقضاء أيامي ، وذلك شر لهم لو كانوا يعلمون . فدعا له ذلك الأمير ثم أمر له الرشيد بالانصراف إلى عمله وودعه ، وكان آخر العهد به .

وفيها تحرك ثروان الحروري وقتل عامل السلطان بطف البصرة . وفيها قتل الرشيد الهيصم البغاني . ومات عيسى بن جعفر وهو يريد اللحاق بالرشيد فمات في الطريق . وفيها حج بالناس العباس ابن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وفيها توفي :

اسماعيل بن جامع

ابن إسماعيل بن عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة أبو القاسم ، أحد المشاهير بالفناء ، كان ممن يضرب به المثل ، وقد كان أولاً يحفظ القرآن ثم صار إلى صناعة الغناء وترك القرآن ، وذكّر عنه أبو الفرج بن علي بن الحسين صاحب الأغاني حكايات غريبة ، من ذلك أنه قال كنت يوماً مشرفاً من غرفة بجران إذ أقبلت جارية سوداء معها قرية تستقي الماء ، فجلست ووضعت قربتها واندفعت تغني :

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي * لها عسلٌ مِنِّي وتبدلُ علقماً

فردّي مصابَ القلبِ أنتِ قتلتي * ولا تتركه هائم القلبِ مغرماً

قال : فسمعت مالا صبر لي عنه ورجوت أن تعيده فقامت وانصرفت ، فنزلت وانطلقت وراءها وسألتها أن تعيده فقالت : إن علي خراجاً كل يوم درهمين ، فأعطيتها درهمين فأعادته فحفظته وسلكته يومئذ ، فلما أصبحت أنسيته فأقبلت السوداء فسألتها أن تعيده فلم تفعل إلا بدرهمين ، ثم قالت : كأنك تستكثر أربعة دراهم ، كأنني بك وقد أخذت عليه أربعة آلاف دينار . قال فغيبته ليلة للرشيد فأعطاني ألف دينار ، ثم استعادنيه ثلاث مرات أخرى وأعطاني ثلاثة آلاف دينار ، فغيبته فقال : مم تبسمت ؟ فذكرت له القصة فضحك وألقى إلى كيسها آخر فيه ألف دينار . وقال :

لا أكذب السوداء . وحكى عنه أيضاً قال : أصبحت يوماً بالمدينة وليس معي إلا ثلاثة دراهم، فإذا جارية على رقبتها جرة تريد الركي وهي تسمى وتترنم بصوت شجي :-

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا • فقالوا لنا ما أقصرَ الليلَ عندنا
وذاك لأنَّ النومَ يفتي عيونهم • سريعاً ولا يفتي لنا النومَ أعيننا
إذا مادنا الليلَ المضرُ بنى الهوى • جزعنا وهم يستبشرونَ إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقونَ مثلنا • فلاقى لكانوا في المضاجعِ مثلنا

قال : فاستعدته منها وأعطيتها الدرهم الثلاثة فقالت : لناخذن بدلها ألف دينار، وألف دينار وألف دينار . فأعطاني الرشيد ثلاثة آلاف دينار في ليلة على ذلك الصوت . وفيها توفي :

بكر بن النطاح أبو وائل الحنفي البصري الشاعر المشهور، نزل بغداد زمن الرشيد، وكان يخالط أبا العتاهية . قال أبو عذان : أشعر أهل العدل من المحدثين أربعة ، أولهم بكر بن النطاح . وقال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول اجتمع جماعة من الشعراء ومهمهم بكر بن النطاح يقناشدون ، فلما فرغوا من طواهم أنشد بكر بن النطاح لنفسه :

ما ضرها لو كتبت بالرضى • فجفَّ جفنُ العينِ أو أغمضا
شفاعاً مردودةً عندها • في عاشقٍ بودٍ لو قد قضى
يانفسَ صبراً واعلمى أنما • يأمل منها مثلما قد مضى
لم تمرض الأجنانُ من قاتلٍ • بلحظهِ إلا لأنَّ أمرضا

قال : فابتدروه يقبلون رأسه . ولما مات رثاه أبو العتاهية فقال :

ماتَ ابنُ نطاحٍ أبو وائلٍ • بكرٍ فأمسى الشعرُ قد بانا

وفيها توفي بهلول المجنون ، كان يأوي إلى مقابر الكوفة ، وكان يتكلم بكلمات حسنة ، وقد وعظ الرشيد وغيره كما تقدم . **وعبد الله بن إدريس**

الأودي الكوفي ، سمع الأعمش وابن جريج وشعبة ومالكا وخلقا سوام . وروى عنه جماعات من الأئمة ، وقد استدعاه الرشيد ليؤليه القضاء فقال : لا أصلح ، وامتنع أشد الامتناع ، وكان قد سأل قبله وكيعاً فامتنع أيضاً ، فطلب حفص بن غياث فقبل . وأطلق لكل واحد خمسة آلاف عوضاً عن كلفته التي تكافها في السفر ، فلم يقبل وكيع ولا ابن إدريس ، وقبل ذلك حفص ، فخلف ابن إدريس لا يكلمه أبداً . وحج الرشيد في بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضي أبو يوسف والأمين والمأمون ، فأمر الرشيد أن يجتمع شيوخ الحديث ليسمعوا ولديه ، فاجتمعوا إلا ابن إدريس هذا ، وعيسى بن يونس . فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما على من اجتمع من

المشايخ إلى ابن إدريس فأسمعها مائة حديث ، فقال له المأمون : يا عم إن أردت أعدتها من حفظي ، فأذن له فأعطاها من حفظه كما سمعها ، فتعجب لحفظه . ثم أمر له المأمون بمال فلم يقبل منه شيئاً ، ثم سارا إلى عيسى بن يونس فسمعا عليه ثم أمر له المأمون بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فظن أنه استقلها فأضعفها فقال : والله لو ملأت لي المسجد مالا إلى سقفه ما قبلت منه شيئاً على حديث رسول الله (ص) . ولما احتضر ابن إدريس بكت ابنته فقال : علام تبكي ؟ فقد خدعت في هذا البيت أربعة آلاف ختمة .

صعصعة بن سلام

ويقال ابن عبد الله أبو عبد الله الدمشقي ، ثم تحول إلى الأندلس فاستوطنها في زمن عبد الملك ابن معاوية وابنه هشام ، وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس ، وولى الصلاة بقرطبة ، وفي أيامه غرست الأشجار بالمسجد الجامع هناك كما يراه الأوزاعي والشاميون ويكرهه مالك وأصحابه . وقد روى عن مالك والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز . وروى عنه جماعة منهم عبد الملك بن حبيب الفقيه ، وذكره في كتاب الفقهاء ، وذكره ابن يونس في تاريخه - تاريخ مصر - والحميدي في تاريخ الأندلس ، وحرر وفاته في هذه السنة . وحكى عن شيخه ابن حزم أن صعصعة هذا أول من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس . وقال ابن يونس : أول من أدخل علم الحديث إليها . وذكر أنه توفي قريبا من سنة ثمانين ومائة ، والذي حرره الحميدي في هذه السنة أثبت

علي بن ظبيان

أبو الحسن العباسي قاضي الشرقية من بغداد ، ولاء الرشيد ذلك . كان ثقة عالماً من أصحاب أبي حنيفة ، ثم ولاء الرشيد قضاء القضاة ، وكان الرشيد يخرج معه إذا خرج من عنده ، مات بقوميسين في هذه السنة .

العباس بن الأحنف

ابن الأسود بن طلحة الشاعر المشهور ، كان من عرب خراسان ونشأ ببغداد ، وكان لطيفاً ظريفاً مقبولاً حسن الشعر . قال أبو العباس قال عبد الله بن المعتز : لو قيل لي من أحسن الناس شعراً تعرفه ؟ لقلت العباس : -

قد سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا • وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقًا

فَكَانَتْ قَد رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرُكُمْ • وَصَادِقٌ لَيْسَ يَنْتَرِي أَنَّهُ صَدَقَا

وقد طلبه الرشيد ذات ليلة في أثناء الليل فأتزعج لذلك وخاف نساؤه ، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له : ويحك إنه قد عن لي بيت في جارية لي فأحببت أن تشفعه بمنله ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خفت أعظم من هذه الليلة ، فقال : ولم ؟ فذكر له دخول الحرس عليه في الليل ، ثم جلس حتى سكن روعه ثم قال : ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

حنانٌ قد رأيناها فلم نرَ مثلها بشراً • يزيدك وجهها حسناً إذا مازدته نظراً
فقال الرشيد : زد . فقال :

إذا ما الليلُ مألٌ عليك بالاطلامِ واعتكرا • ودجٌ فلم ترَ فجراً فبرزها ترَ قراً
فقال : إنا قد رأيناها ، وقد أمرنا لك بمشرة . آلاف درهم . ومن شعره الذي أقر له فيه بشار
ابن برد وأثبتته في سلك الشعراء بسببه قوله :

أبكي الذين أذاقوني مودتهم • حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستهضوني فلما قتُ منتصباً • بثقل ما حلوني منهم فعدوا
وله أيضا وحدتني يا سعدُ عنها فزدتني • جنونا فزدني من حديتك يا سعدُ
هواها هوى لم يعرف القلب غيره • فليس له قبلٌ وليس له بعدُ

قال الأصمعي : دخلت على العباس بن الأحنف بالبصرة وهو طريح على فراشه يجود بنفسه وهو
يقول :

يا بعيدَ الدارِ عن وطنه • مفرداً يبكي على شجنه
كلما جدَّ النحيبُ به • زادت الأسمامُ في بدنه

ثم أغمى عليه ثم انقبه بصوت طائر على شجرة فقال :

ولقد زاد الفؤادُ شجاً • هاتفاً يبكي على فننه
شاقه ما شاقني فبكي • كلنا يبكي على سكنه

قال ثم أغمى عليه أخرى فحركته فاذا هو قد مات . قال الصولي : كانت وفاته في هذه السنة ،
وقيل بعدها ، وقيل قبلها في سنة ثمان وثمانين ومائة فله أعلم . وزعم بعض المؤرخين أنه بقي بعد
الرشيد . عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور

أخو زبيدة ، كان نائباً على البصرة في أيام الرشيد فمات في أثناء هذه السنة . وفيها توفي :

الفضل بن يحيى

ابن خالد بن برمك أخو جعفر وأخوته ، كان هو والرشيد يتراضعان . أرضعت الخيزران فضلاً ،
وأرضعت أم الفضل وهي زبيدة بنت بن بريح هارون الرشيد . وكانت زبيدة هذه من مولدات بتبين
البرية ، وقد قال في ذلك بعض الشعراء :

كفي لك فضلاً أن أفضل حرة • غدتك بشدي وانجليزية واحدة

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها • كما زان يحيى خالداً في المشاهد

قالوا : وكان الفضل أكرم من أخيه جعفر ، ولكن كان فيه كبر شديد ، وكان عبوساً ، وكان
جعفر أحسن بشراً منه وأطلق وجهها ، وأقل عطاء . وكان الناس إليه أميل ، ولكن خصلة الكرم

أعطى جميع القبائح ، فهي تستر تلك الخصلة التي كانت في الفضل . وقد وهب الفصل اطباخه مائة ألف درهم فمابه أبوه على ذلك ، فقال : يا أبت إن هذا كان يصحبي في العسر واليسر والعيش الخشن ، واستمر معي في هذا الحال فأحسن صحبتي ، وقد قال بعض الشعراء :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيَسَّرُوا ذَكَرُوا • مَنْ كَانَ يَمْتَادُمُ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ

ووهب يوماً لبعض الأدياء عشرة آلاف دينار فبكى الرجل فقال له : مم تبكي ، أمتقلتها ؟ قال : لا والله ، ولكني أبكي أن الأرض تأكل منك ، أو نواري مثلك .

وقال علي بن الجهم عن أبيه : أصبحت يوماً لا أملك شيئاً حتى ولا علف الدابة . فقصدت الفضل ابن يحيى ، فاذا هو قد أقبل من دار الخلافة في موكب من الناس ، فلما رأي رحب بي وقال : هلم . فسرت معه ، فلما كان ببعض الطريق سمع غلاماً يدعو جارية من دار ، وإذا هو يدعوها باسم جارية له مجبها ، فارتزعج لذلك وشكا إلى ما لقي من ذلك ، فقلت : أصابك ما أصاب أخي بني عامر حيث يقول :

وَدَاءٌ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى • فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الْفَوَادِ وَلَا يَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلٍ غَيْرَهَا وَكَأَنَّمَا • أَطَارَ بَلْبِلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

فقال : اكتب لي هذين البيتين . قال : فنحبت إلى بقال فرهنت عنده خاتمي على ثمن ورقة وكتبتهما له ، فأخذهما وقال : انطلق راشداً . فرجعت إلى منزلي فقال لي غلامي : هات خاتمك حتى زهنه على طعام لنا وعلف للدابة ، فقلت : إني رهنته . فما أمسينا حتى أرسل إلى الفضل بثلاثين ألفاً من الذهب ، وعشرة آلاف من الورق ، أجراه على كل شهر ، وأسلفني شهراً . ودخل على الفضل يوماً بعض الأكارب فأكرمه الفضل وأجلسه معه على السرير ، فشكا إليه الرجل دينا عليه وسأله أن يكلم في ذلك أمير المؤمنين . فقال : نعم ، وكم دينك ؟ قال ثلاثمائة ألف درهم . فخرج من عنده وهو مهموم لضعف رده عليه ، ثم مال إلى بعض إخوانه فاستراح عنده ثم رجع إلى منزله فاذا المال قد سبقه إلى داره . وما أحسن ما قال فيه بعض الشعراء :

لَكَ الْفَضْلُ يَا فَضْلُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ • وَمَا كُلُّ مَنْ يَدْعِي بِفَضْلٍ لَهُ فَضْلٌ

رَأَى اللَّهُ فَضْلًا مِنْكَ فِي النَّاسِ وَأَسْمًا • فَسَاكَ فَضْلًا فَالْتَقَى الْأَسْمُ وَالْفَعْلُ

وقد كان الفضل أكبر رتبة عند الرشيد من جعفر ، وكان جعفر أحظى عند الرشيد منه وأخص . وقد ولي الفضل أعمالاً كباراً ، منها نيابة خراسان وغيرها . ولما قتل الرشيد البرامكة وجسهم جلد الفضل هذا مائة سوط وخلده في الحبس حتى مات في هذه السنة ، قبل الرشيد بشهور خمسة في الرقة وصلى عليه بالقصر الذي مات فيه أصحابه ، ثم أخرجت جنازته فصلى عليها الناس ، ودفن هناك وله خمس وأربعون سنة ، وكان سبب موته ثقل أصابه في لسانه اشتد به يوم الخميس ويوم الجمعة ، وتوفي

قبل أذان الغداة من يوم السبت . قال ابن جرير : وذلك في المحرم من سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقال ابن الجوزي : في سنة ثنتين وتسعين قاله أعلم .
وقد أطل ابن خلكان ترجمته وذكر طرفاً صالحاً من محاسنه ومكارمه ، من ذلك أنه ورد بلخ حين كان نائباً على خراسان ، وكان بها بيت النار التي كانت تعبدها المجوس ، وقد كان جده برمك من خدامها ، فهدم بعضه ولم يتمكن من هدمه كله ، لقوة إحكامه ، وبني مكانه مسجداً لله تعالى .
وذكر أنه كان يتمثل في السجن بهذه الأبيات ويبكي :

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى • ففي يدو كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها • فلانحن في الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة • عجبتنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ومحمد بن أمية الشاعر الكاتب ، وهو من بيت كلهم شعراء ، وقد اختلط أشعار بعضهم في بعض
ومنصور بن الزبرقان

ابن سلمة أبو الفضل النخعي الشاعر ، امتدح الرشيد ، وأصله من الجزيرة وأقام ببغداد ويقال
لجده مطعم الكبش الرخم ، وذلك أنه أضاف قوماً فجعلت الرخم محوم حولهم ، فأمر بكبش يذبح
للرخم حتى لا يتأذى بها ضيفانه ، ففعل له ذلك . قال الشاعر فيه :

أبوك زعيم بن قاسط • وخالك ذو الكبش يغذي الرخم
وله أشعار حسنة ، وكان يروى عن كلثوم بن عمرو ، وكان شيخه القتي أخذ عنه الفناء .

يوسف بن القاضي أبي يوسف

مع الحديث من السري بن يحيى وبونس بن أبي إسحاق ، ونظر في الرأي وفقه ، وولى قضاء
الجانب الشرقي ببغداد في حياة أبيه أبي يوسف ، وصلى بالناس الجمعة بجامع المنصور عن أمر الرشيد .
توفي في رجب من هذه السنة وهو قاضي ببغداد .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

قال ابن جرير : في المحرم منها توفي الفضل بن يحيى ، وقال ابن الجوزي توفي الفضل في سنة ثنتين
وتسعين كما تقدم . وما قاله ابن جرير أقرب . قال : وفيها توفي سعيد الجوهري ، قال : وفيها وافى
الرشيد جرجان وانتهت إليه خزائن علي بن عيسى تحمل على ألف وخمسة مائة بعير ، وذلك في صفر
منها ، ثم تحول منها إلى طوس وهو عليل ، فلم يزل بها حتى كانت وفاته فيها . وفيها واقع هرثمة نائب
العراق هو ورافع بن الليث فكسره هرثمة وافتتح بخاري وأسر أخاه بشير بن الليث ، فبعثه إلى
الرشيد وهو بطوس قد ثقل عن السير ، فلما وقف بين يديه شرع يترقق له فلم يقبل منه ، بل قال :

والله لو لم يبق من عمري إلا أن أحرك شفتي بقتلك لقتلنك ، ثم دعا بقصاب فجزأه بين يديه أربعة عشر عضواً ، ثم رفع الرشيد يديه إلى السماء يدعو الله أن يمكنه من أخيه رافع كما يمكنه من أخيه بشير .

وفاة الرشيد

كان قد رأى وهو بالكوفة رؤيا أفرغته وغمه ذلك ، فدخل عليه جبريل بن بختيشوع فقال : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت كفا فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريري وقائلاً يقول : هذه تربة هارون . فهون عليه جبريل أمرها وقال : هذه من أضغاث الأحلام من حديث النفس ، فتناسها يا أمير المؤمنين . فلما سار يريد خراسان وصر بطوس واعتقلته العلة بها ، ذكر رؤياه فهاله ذلك : قال لجبريل : وبحك ! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا ؟ فقال : بلى . فدعا مسروراً الخادم وقال : ائتني بشيء من تربة هذه الأرض ، فجاءه بتربة حمراء في يده ، فلما رآها قال : والله هذه الكف التي رأيت ، والتربة التي كانت فيها . قال جبريل : فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفي ، وقد أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها ، وهي دار حميد بن أبي غانم الطائي ، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول : يا ابن آدم تصير إلى هذا . ثم أمر أن يقرأوا القرآن في قبره ، فقرأوه حتى ختموه وهو في محفة على شفير القبر . ولما حضرته الوفاة احتجى بملاءة وجلس يقاسى سكرات الموت ، فقال له بعض من حضر : لو اضطجعت كان أهون عليك . فضحك ضحكا صحيحاً ثم قال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني من قوم كرام يزيدهم • شامساً وصبراً شدة الحدان
مات ليلة السبت ، وقيل ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، عن خمس ، وقيل سبع وأربعين سنة . وكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة .

وهذه ترجمته

هو هارون الرشيد أمير المؤمنين ابن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، القرشي الهاشمي ، أبو محمد ، ويقال أبو جعفر . وأمه الخيزران أم ولد . كان مولده في شوال سنة ست وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعين ومائة ، وقيل إنه ولد سنة خمسين ومائة ، وبويج له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، بعهد من أبيه المهدي . روى الحديث عن أبيه وجده ، وحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن بن أنس بن مالك أن رسول الله ص . قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . وأورده وهو على المنبر وهو يخطب الناس ، وقد حدث عنه ابنه وسليمان الهاشمي والد إسحاق ، ونباتة بن عمرو . وكان الرشيد أبيض طويلاً مميماً جميلاً ، وقد غزا الصائفة في حياة أبيه مراراً ، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية ، وقد لقي المسلمون من ذلك جهداً جهيداً وخوفاً شديداً ، وكان

الصلح مع امرأة ليون وهي الملقبة بأغسطه على حمل كثير تبغله للمسلمين في كل عام ، ففرح المسلمون بذلك ، وكان هذا هو الذي حدا أباه على البيعة له بعد أخيه في سنة ست وستين ومائة ، ثم لما أفضت إليه الخلافة في سنة سبعين كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزواً وحجاً ، ولهذا قال فيه أبو السعدي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده • فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر • وفي أرض الترفه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق • من المتخلفين على الأمور

وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم ، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابعة والكسوة التامة ، وكان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء ، فإنه كان سريع العطاء جزيله ، وكان يحب الفقهاء والشعراء ويعطيهم ، ولا يضيع لديه بر ومعرف ، وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله . وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعاً ، إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علة ، وكان ابن أبي مریم هو الذي يضحكه ، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها ، وكان الرشيد قد أنزله في قصره وخلطه بأهله . نبه الرشيد يوماً إلى صلاة الصبح فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ [ومالي لا أعبد الذي فطرني] فقال ابن أبي مریم : لا أدري والله . فضحك الرشيد وقطع الصلاة ، ثم أقبل عليه وقال : ويحك اجتنب الصلاة والقرآن وقل فيما عدا ذلك . ودخل يوماً العباس بن محمد على الرشيد ومعه برنية من فضة فيها غالبية من أحسن الطيب ، فجعل يمدحها ويزيد في شكرها ، وسأل من الرشيد أن يقبلها منه فقبلها فاستوهبها منه ابن أبي مریم فوهبها له ، فقال له العباس : ويحك اجئت بشيء منعتك نفسي وأهلي وآثرت به أمير المؤمنين سيدي فأخذته . فحلف ابن أبي مریم ليطيبين به استه ، ثم أخذ منها شيئاً فطلى به استه ودهن جوارحه كلها منها ، والرشيد لا يتمالك نفسه من الضحك . ثم قال لخادم قائم عندهم يقال له خاقان : اطلب لي غلامي . فقال الرشيد : ادع له غلامه . فقال له : خذ هذه الغالية واذهب بها إلى سنك فرها فلنطيب منها إستها حتى أرجع إليها فأنيكها . فذهب الضحك بالرشيد كل مذهب ، ثم أقبل ابن أبي مریم على العباس بن محمد فقال له : جئت بهذه الغالية تمدحها عند أمير المؤمنين الذي ما تخطر السماء زيتها ولا تنبت الأرض شيئاً إلا وهو تحت تصرفه وفي يده ؟ وأعجب من هذا أن قيل لملك الموت : ما أمرك به هذا فأنفذه . وأنت تمدح هذه الغالية عنده كأنه يقال أو خباز أو طباخ أو تمار ، فكاد الرشيد يهلك من شدة الضحك . ثم أمر لابن أبي مریم بمائة ألف درهم .

وقد شرب الرشيد يوماً دواء فسأله ابن أبي مریم أن يلي الحجابة في هذا اليوم ، ومهما حصل له كان بينه وبين أمير المؤمنين ، فولاه الحجابة ، فجاءت الرسل بالهدايا من كل جانب ، من عند زبيدة

والبرامكة وكبار الأمراء ، وكان حاصله في هذا اليوم ستين ألف دينار ، فسأله الرشيد في اليوم الثاني عما تحصل فأخبره بذلك ، فقال له : فأين نصيبي ؟ فقال ابن أبي مریم : قد صالحتك عليه بعشرة آلاف تفاع .

وقد استدعى إليه أبا معاوية الضرب محمد بن حازم لیسمع منه الحديث قال أبو معاوية : ما ذكرت عنده حديثاً إلا قال صلى الله وسلم على سيدي ، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبيل الثرى ، وأكلت عنده يوماً ثم قلت لأغسل يدي فصب الماء على وأنا لا أراه . ثم قال : يا أبا معاوية أتدرى من يصب عليك الماء ؟ قلت : لا . قال : يصب عليك أمير المؤمنين . قال أبو معاوية : فدعوت له ، فقال : إنما أردت تعظيم العلم . وحدثه أبو معاوية يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم ، موسى ، فقال عم الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً ، وقال : أتعترض على الحديث ؟ على بالنطع والسيف ، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه فقال الرشيد : هذه زندقة . ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من أتى إليه هذا ، فأقسم عمه بالإيمان المفظلة ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها . فأطلقه .

وقال بعضهم : دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول ، فقال الرشيد : قتلته لأنه قال القرآن مخلوق ، فقتله على ذلك قربة إلى الله عز وجل . وقال بعض أهل العلم : يا أمير المؤمنين انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بعر سلطانك ، فقال الرشيد : أولست كذلك ؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبغضهما . وقال له ابن السماك : إن الله لم يجعل أحداً فوقك فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك . فقال : لئن كنت أقصرت في الكلام لقد أبلغت في الموعظة .

وقال له الفضيل بن عياض - أو غيره - إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك في الدنيا . فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك في الآخرة ، فأكدح لنفسك وأعملها في طاعة ربك . ودخل عليه ابن السماك يوماً فاستسقى الرشيد فأنى بقله فيها ماء مبرد فقال لابن السماك : عطني . فقال : يا أمير المؤمنين ! بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعها ؟ فقال : بنصف ملكي . فقال : اشرب هنيئاً ، فلما شرب قال : رأيت لو منعت خر وجها من بدالك بكم كنت تشتري ذلك ؟ قال بنصف ملكي الآخر . فقال : إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء ، وقيمة نصفه الآخر بولة ، فخلق أن لا يتنافس فيه . فبكى هارون .



وقال ابن قتيبة : ثنا الرياشي سمعت الأصمعي يقول : دخلت على الرشيد وهو يقرأ أظفاره يوم الجمعة فقلت له في ذلك فقال : أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة ، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر . فقلت : يا أمير المؤمنين أو تخشى الفقر ؟ فقال : يا أصمعي وهل أحد أخشى للفقر مني ؟ . وروى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي قال : كنت يوماً عند الرشيد فدعا طبائخه فقال : أعندك في الطعام لحم جزور ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضره مع الطعام فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه فضحك جعفر البرمكي ، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال : مم تضحك ؟ قال : لا شيء يا أمير المؤمنين ، ذكرت كلاماً بيني وبين جاريتي البارحة . فقال له : بحق عليك لما أخبرتني به . قال : حتى تأكل هذه اللقمة ، فألقاها من فيه وقال : والله لتخبرني . فقال : يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك ؟ قال : بأربعة دراهم . قال : لا والله ، يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم . قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طبائخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يخلون المطبخ من لحم جزور ، فنحن نتحرك كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين ، لأننا لا نشترى من السرقة لحم جزور . فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم . قال جعفر : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة . فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف

قال : فبكى الرشيد بكاء شديداً وأمر برفع السماط من بين يديه ، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول : هلكت والله يا هارون . ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر ، وقد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة ، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جاني بغداد الغربي والشرقي ، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة . ثم خرج إلى صلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب ، ثم رجع ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين يا كيا في هذا اليوم ؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة . فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ما تذبجونه من الجزور يفسد ، أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس . فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية ، وبما يسره الله عليك من الصدقة ، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى [ولن خاف مقام ربه جنتان] . فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف . ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في هذا اليوم عشاء .

وقال عمرو بن بحر الجاحظ : اجتمع للرشيد من الجسد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بدمه ، كان أبو يوسف قاضيه ، والبرامكة وزراهه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدّهم تعاطفاً ، وندبته عمر بن العباس بن محمد صاحب العباسية . وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته ، ومضحكه ابن أبي مریم ، وزامره برصوما . وزوجته أم جعفر - یعنی زبیده - وكانت أرغب الناس في كل خير وأسرعهم إلى كل بر ومعرف ، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك ، إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها .

وروى الخطيب البغدادي أن الرشيد كان يقول : إنا من قوم عظمت رزيتهم ، وحسنت بعثتهم ، ورتنا رسول الله (ص) ، وبقيت فينا خلافة الله . وبينما الرشيد يطوف يوماً بالبیت إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلّمك بكلام فيه غلظة ، فقال لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولاً لنا . وعن شعيب بن حرب قال : رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فخوفتني فقالت : إنه الآن يضرب عنقك . فقلت : لا بد من ذلك ، فناديت فقلت : يا هارون ا قد أتعبت الأمة والبهائم . فقال : خذوه . فأدخلت عليه وفي يده لت من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي ، فقال : بمن الرجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين . فقال ثمكلك أمك ممن أنت ؟ فقلت : من الأنبار . فقال : ما حملك على أن دعوتني باسمي ؟ قال : فخطر بيالي شيء لم يخطر قبل ذلك ، فقلت : أنا أدعو الله باسمه يا الله ، أفلا أدعوك باسمك ؟ وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم : يا آدم ، يا نوح ، يا هود ، يا صالح ، يا إبراهيم ، يا موسى يا عيسى ، يا محمد ، وكفى أبغض خلقه إليه فقال : ثبت يدا أبي لهب . فقال الرشيد : أخرجوه أخرجوه .

وقال له ابن السماك يوماً : إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل ، والوقوف بين الجنة والنار ، حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال ، ولا يقبل فداء بمال . فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته فقال يحيى بن خالد له : يا ابن السماك لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة . فقام فخرج من عنده وهو يبكي . وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليلّة وعظه بمكة - : يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلهم ، وقد قال تعالى [وتقطعت بهم الأسباب] قال حينئذنا ليث عن مجاهد : الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا . فبكي حتى جعل يشق . وقال الفضيل : استدعاني الرشيد يوماً وقد رخرق منازلها وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها ، ثم استدعني أبا العتاهية فقال له : صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال : -

عش ما بدا لك سالماً • في ظل شاهقة القصور
 نسي عليك بما اشتبه • ت لدى الرواح إلى البكور
 فاذا النفوس تقفقت • عن ضيق حشرجة الصدور
 فبنائك نعلم موقناً • ما كنت إلا في غرور

قال : فبكي الرشيد بكاءً كثيراً شديداً . فقال له الفضل بن يحيى : دعاك أمير المؤمنين تسر .
 فأحزنته ؟ فقال له الرشيد : دعه فإنه رأى نافي عمى فكره أن يزيدنا عمى . ومن وجه آخر أن الرشيد
 قال لأبي العتاهية : عظني بأبيات من الشعر وأوجز فقال : -

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس • ولو تمتعت بالحجاب والحرس
 واعلم بأن سهام الموت صائبة • لكل مدرع منها ومترس
 ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها • إن السفينة لا تجري على اليبس
 قال : نخر الرشيد مغشياً عليه . وقد حبس الرشيد مرة أبا العتاهية وأرصد عليه من يأتيه بما
 يقول ، فكتب مرة على جدار الحبس :

أما والله إن الظلم شوم • وما زال المسىء هو الظلوم
 إلى ديان يوم الدين نمضي • وعند الله تجتمع الخصوم
 قال : فاستدعاه واستجده في حل ووهبه ألف دينار وأطلقه . وقال الحسن بن أبي الفهم : ثنا
 محمد بن عباد عن سفیان بن عيينة قال : دخلت على الرشيد فقال : ما خبرك ؟ فقلت :
 بين الله ما تخفي البيوت • فقد طال التحمل والسكوت
 فقال : يا فلان مائة ألف لابن عيينة تغنيه وتغني عقبه ، ولا تضر الرشيد شيئاً . وقال الأصمعي
 كنت مع الرشيد في الحج فمررنا بوا . فاذا على شفيره امرأة حسناء بين يديها قصعة وهي تسال
 منها وهي تقول : -

طحطحتنا طحاطح الأعوام • ورمتنا حوادث الأيام
 فأتيناكم نمسداً أكفاً • نائلات لزادكم والطعام
 فاطلبوا الأجر والثوبة فينا • أهبها الزأرون بيت الحرام
 من رأني فقد رأني ورحلي • فارحما غربتي وذل مقامي

قال الأصمعي : فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرحها وبكى
 وأمر مسروراً الخادم أن يملأ قصعتها ذهباً ، فملأها حتى جعلت تفيض يمينا وشمالاً . وسمع مرة
 الرشيد أعرابياً يحدو إبله في طريق الحج :

أبها المجمعُ هما لاسهم • أنت تفضي ولك الحمى نحم
كيف ترقيك وقد جفَّ العلم • حطت الصحة منك والسقم

فقال الرشيد لبعض خدمه : ما معك ؟ قال : أر بعائة دينار ، فقال : ادفعها إلى هذا الأعرابي .

فلما قبضها ضرب رفيقه بيده على كتفه وقال منمئلا :

وكنت جليسَ قعقاع بن عمرو • ولا يشقى بقمقاع جليسُ

فأمر الرشيد بعض الخدم أن يعطى المتمثل ما معه من الذهب فاذا معه مائتا دينار . قال أبو عبيد
إن أصل هذا المثل أن معاوية بن أبي سفيان أهديت له هدية جامات من ذهب فرقها على
جلسائه وإلى جانبه قعقاع بن عمرو ، وإلى جانب القعقاع أعرابي لم يفضل له منها شيء . فأتى
الأعرابي حياء فدفع إليه القعقاع الجمام الذي حصل له ، فهض الأعرابي وهو يقول وكنت جليس
قعقاع بن عمرو إلى آخره .

وخرج الرشيد يوما من عند زبيدة وهو يضحك فقبل له مم تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال :
دخلت اليوم إلى هذه المرأة - يعني زبيدة - فأقلت عندها وبت ، فما استيقظت إلا على صوت
ذهب يصب ، قالوا : هذه ثلثمائة ألف دينار قدمت من مصر ، فقالت زبيدة : هبهالي يا ابن عم ،
فقلت : هي لك ، ثم ماخرجت حتى عربدت على وقالت : أى خير رأيته منك ؟ وقال الرشيد مرة
للمفضل الضبي : ما أحسن ما قيل في الذئب : ولك هذا الخاتم ، وشراؤه ألف وستمائة دينار ، فأنشد
قول الشاعر :
ينامُ بإحدى مقلتيه ويتقي • بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم
فقال : ما قلت هذا إلا لتسلبنا الخاتم . ثم ألقاه إليه فبعثت زبيدة فاشترته منه بألف وستمائة
دينار ، وبعثت به إلى الرشيد وقالت : إني رأيتك معجبا به . فرده إلى المفضل والدنانير ، وقال :
ما كنا نهب شيئا ونرجع فيه .

وقال الرشيد يوما للعباس بن الأحنف : أى بيت قالت العرب أرق ؟ فقال : قول جميل في بئينة :

ألا ليئتني أعمى أصمُّ تقودني • بئينة لا يخفى علي كلامها

فقال له الرشيد : أرق منه قولك في مثل هذا :

طاف الهوى في عباد الله كلهم • حتى إذا مر بي من بينهم وقفا

فقال له العباس : فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذا كله :

أما يكفيك أنك تملكيني • وأن الناس كلهم عبيدي

وأنت لو قطعت يدي ورجلي • لقلت من الهوى أحسنت زبدي

قال : فضحك الرشيد وأعجبه ذلك . ومن شعر الرشيد في ثلاث حظيات كن عند من الخواص

قوله : ملكُ الثلاثِ الناشآتُ عناني * وحلانٌ من قلابي بكلِّ مكانٍ
مالي تطاوعني البريةُ كلها * وأطيعُهنَّ وهنَّ في عصياني
ماذاكَ إلا أن سلطانَ الهوى * وبه قوين أعزُّ من سلطاني

ومما أورد له صاحب المقد في كتابه :

تبدى الصدودُ وتمخى الحبُّ عاشقةً * فالنفسُ راضيةٌ والطرفُ غضبانُ

وذكر ابن جرير وغيره أنه كان في دار الرشيد من الجوارى والحظايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلاف جارية ، وأنهن حضرن يوماً بين يديه فغنته المطربات منهن فطرب جداً ، وأمر بمال فنثر عليهن . وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم في ذلك اليوم . رواه ابن عساكر أيضاً

وروى أنه اشترى جارية من المدينة فأعجب بها جداً فأمر باحضار موالها ومن يلوذ بهم ليقضى حوائجهم ، فقدموا عليه بثمانين نفساً فأمر الحاجب - وهو الفضل بن الربيع - أن يتلقاهم ويكتب حوائجهم ؛ فكان فيهم رجل قد أقام بالمدينة لأنه كان يهوى تلك الجارية ، فبعثت إليه فأتى به فقال له الفضل : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن يجلسني أمير المؤمنين مع فلانة فأشرب ثلاثة أرطال من خمر ، وتغنيني ثلاثة أصوات . فقال : أجنون أنت ؟ فقال : لا ولكن أعرض حاجتي هذه على أمير المؤمنين . فذكر للرشيد ذلك فأمر باحضاره وأن تجلس معه الجارية بحيث ينظر إليهما ولا يريانه فجلست على كرسي والخدام بين يديها ، وأجلس على كرسي فشرب رطلا وقال لها غني :

خَلِيلِي عُوْجَا بَارِكُ اللهُ فِيكَ * وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هُنْتُ بِأَرْضِكَ قَصْداً
وقولا لها ليس الضلالُ أجازنا * ولو كُننا جزنا لنلقاكم عمداً
غداً يكثر البادونُ منا ومنكم * ونزدادُ داري من دياركم بعداً

قال : فغنته ثم استعجله الخدم فشرب رطلاً آخر ، وقال : غني جعلت فداك :

تَكَلَّمْ مَنَافِي الْوَجْوِهِ عِيُونَنَا * فَنَحْنُ سَكُوتُ وَالْهَوَى يَتَكَلَّمُ
ونفضبُ أحياناً ونرضى بظرفنا * وذلكَ فيما بيننا ليسَ يعلمُ

قال : فغنته : ثم شرب رطلاً ثالثاً وقال : غني جعلني الله فداك :

أَحْسَنُ مَا كُنَّا تَفَرَّقْنَا * وَخَانَا الدَّهْرُ وَمَا خَنَا
فليت ذا الدهر لنا مرةً * عاد لنا يوماً كما كنا

قال ثم قام الشاب إلى درجة هناك ثم ألقى نفسه من أعلاها على أم رأسه فمات . فقال الرشيد :

عجل الفتى ، والله لو لم يعجل لوهبتها له .

وفضائل الرشيد ومكارمه كثيرة جداً . قد ذكر الأئمة من ذلك شيئاً كثيراً فذكرنا منه أنه وذجا صالحا . وقد كان الفضيل بن عياض يقول : ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد ، لما تخوف بعده من الحوادث ، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري قالوا : فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات ، وظهر القول بخناق القرآن ، فعرفنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك . وقد تقدمت رؤياه لذلك الكف وتلك التربة الحمراء وقائل يقول : هذه تربة أمير المؤمنين فكان موته بطوس . وقد روى ابن عساکر أن الرشيد رأى في منامه قائلا يقول : كآني بهذا القصر قد باد أهله . الشعر إلى آخره .

وقد تقدم أن ذلك إنما رآه أخوه موسى الهادي . وأبوه محمد المهدي فأنه أعلم . وقد منا أنه أمر بحفر قبره في حياته ، وأن تقرأ فيه ختمة تامة ، وحمل حتى نظر إليه فجعل يقول : إلى هنا تصير يا ابن آدم . ويبكي ، وأمر أن يوسع عند صدره وأن يمد من عند رجله ، ثم جعل يقول : [ما أغنى عنى ماله هلاك عنى سلطانيه] ويبكي . وقيل : إنه لما احتضر قال : اللهم انفعنا بالاحسان ، واغفر لنا الاساءة ، يا من لا يموت ارحم من يموت . وكان مرضه بالدم ، وقيل بالسل ، وجبريل الطبيب يكتم ما به من العلة ، فأمر الرشيد رجلا أن يأخذ ماءه في قارورة وينهب به إلى جبريل فيريه إياه ، ولا يذكر له بول من هو ، فان سأله قال : هو بول مريض عندنا . فلما رآه جبريل قال لرجل عنده : هذا مثل ماء ذلك الرجل . ففهم صاحب القارورة من عنى به ، فقال له : بالله عليك أخبرني عن حال صاحب هذا الماء . فان لى عليه مالا ، فان كان به رجاء وإلا أخذت مالى منه . فقال : اذهب فتخلص منه فانه لا يعيش إلا أياما . فلما جاء وأخبر الرشيد بعث إلى جبريل فتغيب حتى مات الرشيد . وقد قال الرشيد وهو في هذه الحال :

إني بطوسٍ مقيمٌ مالى بطوسٍ حميمٌ أرجو إلهي لما بي فانهُ بي رحيمٌ
لقد أتى بي طوساً قضاؤه المحتومٌ وليس إلا رضائي والصبر والتسليمُ

مات بطوس يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقيل إنه توفي في جمادى الأولى ، وقيل في ربيع الأول ، وله من العمر خمس ، وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعون سنة . ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية عشر يوماً . وقيل ثلاثة أشهر . وصلى عليه ابنه صالح ودفن بقرية من قرى طوس يقال لها سناباذ . وقال بعضهم : قرأت على خيام الرشيد بسناباذ والناس منصرفون من طوس من بعد موته .

منازل العسكر معمورة * والمنزل الأعظم مهجور
خليفة الله بدار البلى * تسمى على أجدائه المور

أقبلت العيرُ تباهى به • وانصرفت تندبه العيرُ

وقد رثاه أبو الشيبس فقال :

غربت في الشرقِ شمسٌ • فلها العينانِ تدمعُ
ما رأينا قطُّ شمساً • غربت من حيثُ تطلعُ

وقد رثاه الشعراء بقصائد . قال ابن الجوزي : وقد خلف الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحد من الخلفاء ، خلف من الجواهر والأثاث والأمتعة سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينار ، وخمسة وثلاثون ألف دينار . قال ابن جرير : وكان في بيت المال سبعمائة ألف ألف ونيّف .

ذكر زوجاته وبناته

تزوج أم جعفر زبيدة بنت عمه جعفر بن أبي جعفر المنصور ، تزوجها في سنة خمس وستين ومائة في حياة أبيه المهدي ، فولدت له محمداً الأمين . وماتت زبيدة في سنة ست عشرة ومائتين كما سيأتي . وتزوج [أمة العزيز] أم ولد كانت لأخيه موسى الهادي فولدت له علي بن الرشيد . وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين ، والعباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر فزفنا إليه في ليلة واحدة سنة سبع وثمانين ومائة بالرقّة ، وتزوج عزيزة بنت الغطريف ، وهي بنت خاله أخي أمه الخيزران ، وتزوج ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العثمانية ، ويقال لها الجرشية ، لأنها ولدت بجرش باليمن . وتوفى عن أربع : زبيدة ، وعباسة ، وابنة صالح ، والعثمانية هذه . وأما الخطايا من الجوار فكثير جداً حتى قال بعضهم : إنه كان في داره أربعة آلاف جارية سراري حسان . وأما أولاده الذكور فمحمد الأمين بن زبيدة ، وعبد الله المأمون من جارية اسمها مراجل ، ومحمد أبو إسحاق المعتصم من أم ولد يقال لها ماردة ، والقاسم المؤمن من جارية يقال لها قصف . وعليّ أمه أمة العزيز . وصالح من جارية اسمها رثم . ومحمد أبو يعقوب . ومحمد أبو عيسى . ومحمد أبو العباس . ومحمد أبو عليّ كل هؤلاء من أمهات أولاد . وكان من الإناث سكينه من قصف . وأم حبيب من ماردة . وأروى . وأم الحسن . وأم محمد وهي حمدونة وفاطمة وأما غصص . وأم سلمة . وخديجة . وأم القاسم رملة . وأم علي . وأم الغالية . وريطة كلهن من أمهات أولاد .

مخرفة محمد الأمين

لما توفى الرشيد بطوس في جمادى الآخرة من هذه السنة - أعني سنة ثلاث وتسعين ومائة كتب صالح بن الرشيد إلى أخيه ولي العهد من بعد أبيه محمد الأمين بن زبيدة وهو ببغداد يعلمه بوفاة أبيه ويعزيه فيه ، فوصل الكتاب صحبة رجاء الخادم ومعه الخاتم والقضيب والبردة ، يوم

الخميس الرابع عشر من جمادى الآخرة ، فركب الأمين من قصره انخلد إلى قصر أبي جعفر المنصور - وهو قصر الذهب - على شط بغداد ، فصلى بالناس ثم صعد المنبر فخطبهم وعزاهم في الرشيد ، وبسط آمال الناس ووعدهم الخير . فبايعه الخواص من قومه ووجوه بني هاشم والأمراء ، وأمر بصرف أعطيات الجند عن سنتين ، ثم نزل وأمر عمه سليمان بن جعفر أن يأخذ له البيعة من بقية الناس فلما انتظم أمر الأمين واستقام حاله حسده أخوه المأمون ووقع الخلف بينهما على ما سئذ كره إن شاء الله تعالى .

اختلاف المؤمنين والمومنين

كان السبب في ذلك أن الرشيد لما وصل إلى أول بلاد خراسان وهب جميع ما فيها من الخواص والدواب والسلاح لولده المأمون ، وجدد له البيعة ، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتز بكتب في خفية ليوصلها إلى الأمراء إذا مات الرشيد ، فلما توفي الرشيد نفذت الكتب إلى الأمراء وإلى صالح بن الرشيد ، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة ، فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين ، وارتمل الفضل بن الربيع بالجيش إلى بغداد وقد بقي في نفوسهم تخرج من البيعة التي أخذت للمأمون ، وكتب إليهم المأمون يدعومهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، فوقعت الوحشة بين الأخوين ، ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين ، فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم ، وبعث إليه من هدايا خراسان ونحفها من الدواب والمسك وغير ذلك ، وهو نائبه عليها ، وقد أمر الأمين في صبيحة يوم السبت بعد أخذ البيعة يوم الجمعة ببناء ميدانين للصيد ، فقال في ذلك بعض الشعراء : -

بني أمينُ اللهُ ميدانا * وصيرَ الساحةَ بستانا

وكانت الغزلانُ فيه بانا * يهدى إليه فيه غزلانا

وفي شعبان من هذه السنة قدمت زبيدة من الرقة بالخزائن وما كان عندها من التحف والقماش من الرشيد ، فتلقاها ولدها الأمين إلى الأنبار ومعه وجوه الناس . وأقر الأمين أخاه المأمون على ما نحت يده من بلاد خراسان والرى وغير ذلك ، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور ، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم .

وفيها مات نفور ملك الروم ، قتله البرجان ، وكان ملكه تسع سنين ، وأقام بعده ولده استبراق شهرين فمات ، فملكهم ميخائيل زوج أخت نفور لعنهم الله . وفيها تواقع هرثمة نائب خراسان ورافع ابن الليث فاستجاش رافع بالترك ثم هربوا وبقي رافع وحده فضعف أمره . وحج بالناس نائب الحجاز داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي . وفيها توفي :

إسماعيل بن عليّة

وهو من أئمة العلماء والمحدثين الرفعاء ، روى عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ، وقد ولى المظالم ببغداد ، وكان ناظر الصدقات بالبصرة ، وكان ثقة نبيلاً جليلاً كبيراً ، وكان قليل التبسم وكان يتجبر في البر وينفق على عياله منه ويحج منه ، ويبر أصحابه منه مثل السفيايين وغيرهما ، وقد ولاء الرشيد القضاء فلما بلغ ابن المبارك أنه تولى القضاء كتب إليه يلومه نظماً ونثراً ، فاستعفى ابن عليّة من القضاء فأعفاه . وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة ، ودفن في مقابر عبد الله بن مالك وفيها مات :

محمد بن جعفر

الملقب بغندر . روى عن شعبة وسعيد بن أبي عروبة وعن خلق كثير ، وعنه جماعة منهم أحمد بن حنبل ، وكان ثقة جليلاً حافظاً متقناً . وقد ذكر عنه حكايات تدل على تفهيمه في أمور الدنيا ، كانت وفاته بالبصرة في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها . وقد لقب بهذا اللقب جماعة من المتقدمين والمتأخرين . وفيها توفي :

أبو بكر بن العياش

أحد الأئمة ، سمع أبا إسحاق السبيعي والأعمش وهشام وهمام بن عروة وجماعة . وحدث عنه خلق منهم أحمد بن حنبل . وقال يزيد بن هارون : كان حبراً فاضلاً لم يضع جنبه إلى الأرض أربعين سنة ، قالوا : ومكث ستين سنة يختم القرآن في كل يوم ختمة كاملة ، وصام ثمانين رمضاناً ، وتوفي وله ست وتسعون سنة . ولما احتضر بكى عليه ابنه فقال : يا بني علام تبكي ؟ والله ما أتى أبوك فاحشة قط .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

فيها خلع أهل حمص نائبهم فزله عنهم الأمين وولى عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي قتل طائفة من وجوه أهلها وحرقت نواحيها ، فسألوه الأمان فأمنهم ثم هاجوا فضرب أعناق كثير منهم أيضاً . وفيها عزل الأمين أخاه القاسم عن الجزيرة والثغور ، وولى على ذلك خزيم بن خازم ، وأمر أخاه بالمقام عنده ببغداد . وفيها أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر في سائر الأمصار ، وبالامرة من بعده ، وسماه الناطق بالحق ، ثم يدعى من بعده لأخيه المأمون ثم لأخيه القاسم ، وكان من نية الأمين الوفاء لأخويه بما شرط لهما ، فلم يزل به الفضل بن الربيع حتى غير نيته في أخويه ، وحسن له خلع المأمون والقاسم ، وصغر عنده شأن المأمون . وإنما حمل على ذلك خوفه من المأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يخلمه من الحجابة . فوافقه الأمين على ذلك وأمر بالدعاء لولده موسى وبولاية العهد من بعده ، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة . فلما بلغ المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز ، وتنكر للأمين . وبعث رافع بن الليث إلى المأمون يسأل منه الأمان فأمنه

فسار إليه بمن معه فأكرمه المأمون وعظمه ، وجاء هرثمة على إثره فتلقيه المأمون ووجوه الناس وولاه الحرس ، فلما بلغ الأمين أن الجنود التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره ، وكتب إلى المأمون كتاباً وأرسل إليه رسلاً ثلاثة من أكابر الأمراء ، سأله أن يجيبه إلى تقديم ولده عليه ، وأنه قد سمع الناطق بالحق ، فأظهر المأمون الامتناع فشرع الأمراء في مطايبته وملاينته ، وأن يجيبهم إلى ذلك فأبى كل الإباء ، فقال له العباس بن موسى بن عيسى : فقد خلع أبي نفسه فإذا كان ؟ فقال المأمون إن أبك كان امرأً مكرهاً ، ثم لم يزل المأمون يعد العباس ويمنيه حتى بايعه بالخلافة ، ثم لما رجع إلى بغداد كان يرأسه بما كان من أمر الأمين ويناصحه ، ولما رجع الرسل إلى الأمين أخبروه بما كان من قول أخيه ، فعند ذلك صمم الفضل بن الربيع على الأمين في خلع المأمون ، فخلعه وأمر بالدعاء لولده في سائر البلاد ، وأقاموا من يتكلم في المأمون ويذكر مساويه ، وبعثوا إلى مكة فأخذوا الكتاب الذي كتبه الرشيد وأودعه في الكعبة ، فرقه الأمين وأكده البيعة إلى ولده الناطق بالحق على ما ولاءه من الأعمال ، وجرت بين الأمين والمأمون مكاتبات ورسول يطول بسطها . وقد استقصاها ابن جرير في تاريخه ، ثم آل بهما الأمر إلى أن احتفظ كل منهما على بلاده وحصنها وهيا الجيوش والجنود وتآلف الرعايا . وفيها غدرت الروم بمالكهم ميخائيل فراموا خلعه وقتله فترك الملك وترهب وولوا عليهم اليون . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود بن عيسى ، وقيل على بن الرشيد . وفيها توفي من الأعيان :

سالم بن سالم أبو بحر البلخي

قدم بغداد وحدث بها عن إبراهيم بن طهمان والثوري . وعنه الحسن بن عرفة . وكان عابداً زاهداً ، مكث أربعين سنة لم يفرش له فراش ، وصامها كلها إلا يومى العيد ، ولم يرفع رأسه إلى السماء ، وكان داعية الأرجاء ضعيف الحديث ، إلا أنه كان رأساً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان قد قدم بغداد فأنكر على الرشيد وشنع عليه فحبسه وقيده باثني عشر قيداً ، فلم يزل أبو معاوية يشفع فيه حتى جعلوه في أربعة قيود ، ثم كان يدعو الله أن يرده إلى أهله . فلما توفي الرشيد أطلقته زبيدة فرجع - وكانوا بمكة قد جاؤا حجاجاً - فرض بمكة . واشتهى يوماً برداً فسقط في ذلك الوقت برد حين اشتهاه فأكل منه . مات في ذي الحجة من هذه السنة .

وعبد الوهاب بن عبد المجيد

الثقفي كانت غلته في السنة قريباً من خمسين ألفاً ينفقها كلها على أهل الحديث . توفي عن أربع وثمانين سنة .

وأبو النصر الجهني المصاب

كان مقياً بالمدينة النبوية بالصفة من المسجد في الحائط الشمالي منه ، وكان طويل السكوت ، فإذا سئل أجاب بجواب حسن ، ويتكلم بكلمات مفيدة تؤثر عنه وتكتب ، وكان يخرج يوم الجمعة

قبل الصلاة فيقف على مجامع الناس فيقول : [يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً] و [يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل] ثم ينتقل إلى جماعة أخرى ثم إلى أخرى ، حتى يدخل المسجد فيصلّي فيه الجمعة ثم لا يخرج منه حتى يصلي العشاء الآخرة .

وقد وعظ مرة هارن الرشيد بكلام حسن فقال : اعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فأعد لذلك جواباً ، وقد قال عمر بن الخطاب لو ماتت سبخلة بالعراق ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عنها . فقال الرشيد : إني لست كعمر ، وإن دهرى ليس كدهره . فقال : ما هذا بمن عنك شيئاً . فأمر له بثمائة دينار ، فقال : أنا رجل من أهل الصفة فمر بها فلتقسم عليهم وأنا واحد منهم .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

فيها في صفر منها أمر الأمين الناس أن لا يتعاملوا بالدرهم والدنانير التي عليها اسم أخيه المأمون ونهى أن يدعى له على المنابر ، وأن يدعى له ولولده من بعده : وفيها تسمى المأمون بامام المؤمنين . وفي ربيع الآخر فيها عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان الأمانة على الجبل وهمدان واصهبان وقم وتلك البلاد ، وأمره بحرب المأمون وجهرت معه جيشاً كبيراً ، وأنفق فيهم نفقات عظيمة ، وأعطاه مائتي ألف دينار ، ولولده خمسين ألف دينار وألني سيف محلي ، وستة آلاف ثوب للخلع . فخرج علي بن موسى بن ماهان من بغداد في أربعين ألف مقاتل فارس ، ومعه قيد من فضة ليأتي فيه بالمأمون . وخرج الأمين معه مشياً فسار حتى وصل الري فتلقاه الأمير طاهر في أربعة آلاف ، فجرت بينهم أمور آل الحال فيها أن اقتتلوا ، فقتل علي بن عيسى وأصحابه ومحمل رأسه وجنته إلى الأمير طاهر فكتب بذلك إلى وزير المأمون ذي الرياستين ، وكان الذي قتل علي بن عيسى رجل يقال له طاهر الصغير فسمى ذا اليمينين ، لأنه أخذ السيف بيديه الثنتين فذبح به علي بن عيسى بن ماهان ، ففرح بذلك المأمون وذووه ، وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من دجلة ، فقال : ويحك دعني من هذا فان كوثراً قد صاد سمكتين . ولم أصد بعد شيئاً . وأرجف الناس ببغداد وخافوا غائلة هذا الأمر ، وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخيه المأمون ، وما وقع من الأمر الفظيع . وكان رجوع الخبر إليه في شوال من هذه السنة . ثم جهز عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في عشرين ألفاً من المقاتلة إلى همدان ليقاتلوا طاهر بن الحسين بن مصعب ومن معه من الخراسانية ، فلما اقتربوا منهم تواجبوا فقتلوا قتلاً شديداً حتى كثرت القتلى بينهم ، ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن ابن جبلة فلجئوا إلى همدان فحاصروهم بها طاهر حتى اضطروهم إلى أن دعوا إلى الصلح ، فصالحهم وأمنهم ووفى لهم ، وانصرف عبد الرحمن بن جبلة على أن يكون راجعاً إلى بغداد ، ثم غدروا بأصحاب

طاهر وحملوا عليهم وهم غافلون فقتلوا منهم خلقاً وصبر لهم أصحاب طاهر ثم نهضوا إليهم وحملوا عليهم فهزموهم وقتل أميرهم عبد الرحمن بن جبلة ، وفر أصحابه خائبين .
فلما رجعوا إلى بغداد اضطربت الأمور وكثرت الأراجيف ، وكان ذلك في ذى الحجة من هذه السنة ، وطرده طاهر عمال الأمين عن قزوين وتلك النواحي ، وقوى أمر المأمون جداً بتلك البلاد . وفي ذى الحجة من هذه السنة ظهر أمر السفيناني بالشام ، واسمه علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فعزل نائب الشام عنها ودعا إلى نفسه ، فبعث إليه الأمين جيشاً فلم يقدموا عليه بل أقاموا بالرقعة ، ثم كان من أمره ما سندر . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود ابن عيسى . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان منهم :

إسحاق بن يوسف الأزرق

أحد أئمة الحديث . روى عنه أحمد وغيره . ومنهم :

بكار بن عبدالله

ابن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، كان نائب المدينة للرشيد ثنتي عشرة سنة وشهرآ ، وقد أطلق الرشيد على يديه لأهلها ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وكان شريفاً جواداً معظماً .
وفيها توفي :

أبو نوح الأسع

واسمه الحسن بن هانيء بن صباح بن عبد الله بن الجراح بن هنب بن داود بن غنم بن سليم ، ونسبه عبد الله بن سعد إلى الجراح بن عبد الله الحكمي ، ويقال له أبو نوح البصري ، كان أبوه من أهل دمشق من جند مروان بن محمد ، ثم صار إلى الأهواز وتزوج امرأة يقال لها خلبان ، فولدت له أبا نوح وابناً آخر يقال له أبا معاذ ، ثم صار أبو نوح إلى البصرة فتأدب بها على أبي زيد وأبي عبيدة ، وقرأ كتاب سيبويه ولزم خلفاً الأحمر ، وصحب يونس بن حبيب الجرمي النحوي . وقد قال القاضي ابن خلكان : صحب أبا أسامة وابن الحباب الكوفي ، وروى الحديث عن أزهر بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الواحد بن زياد ومعتز بن سليمان ، ويحيى القطان . وعنه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي . وحدث عنه جماعة منهم الشافعي وأحمد بن حنبل وغندر ومشاهير العلماء ومن مشاهير حديثه ما رواه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله (س) : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ، فان حسن الظن بالله نمن الجنة » . وقال محمد بن إبراهيم : دخلنا عليه وهو في الموت فقال له صالح بن علي الهاشمي : يا أبا علي ! أنت اليوم في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، وبينك وبين الله هنات ، فتب إلى الله من عمالك . فقال : إياي تخوف ؟ بالله اسندوني . قال : فأسندناه فقال : حدثني حماد بن سلمة

عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (س) : « لكل نبي شفاعة وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبار من أمي يوم القيامة ». ثم قال : أفلا تراني منهم . وقال أبو نواس : ما قلت الشعر حتى رويت عن ستين امرأة منهن خنساء وليلى ، فما الظن بالرجال ؟ وقال يعقوب بن السكيت : إذا رويت الشعر عن امرئ القيس والأعشى من أهل الجاهلية ، ومن الإسلاميين جرير والفرزدق ، ومن المحدثين عن أبي نواس فحسبك . وقد أثنى عليه غير واحد منهم الأصمعي والجاحظ والنظام . قال أبو عمرو والشيباني : لولا أن أبا نواس أفسد شعره بما وضع فيه من الأقدار لاحتججنا به - يعني شعره الذي قاله في الخريبات والمردان ، وقد كان يميل إليهم - ونحو ذلك مما هو معروف في شعره . واجتمع بطائفة من الشعراء عند المأمون فقيل لهم : أيكم القائل :

فلما تحسناها وقفنا كأننا * نرى قرآ في الأرض يبلغ كوكبا

قالوا : أبو نواس . قال : فأيكم القائل : -

إذا نزلت دون اللهاة من الفتي * دعي هم عن قلبه برحيل

قالوا أبو نواس . قال : فأيكم القائل : -

فتمشيت في مفاصلهم * كتمشي البرؤ في السقيم

قالوا : أبو نواس . قال : فهو أشعركم . وقال سفيان بن عيينة لابن مناذر : ما أشعر ظريفكم أبا نواس

في قوله : يا قرآ أبصرت في ماتم * يندب شجوا بين أتراب

أبرزه الماتم لي كارها * برغم ذي باب وحجاب

يبكي فيندري الدم من عينه * ويلطم الورد بعناب

لا زال موتاً داب أحببه * ولم تزل رؤيته دابي

قال ابن الأعرابي أشعر الناس أبو نواس في قوله : -

تسرت من دهري بكل جناحيه * فعيني ترى دهري وليس براني

فلو تسأل الأيام عني ما درت * وأين مكاني ما عرفن مكاني

وقال أبو العتاهية : قلت في الزهد عشرين ألف بيت ، وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة

التي قالها أبو نواس وهي هذه ، وكانت مكتوبة على قبره :

يا نواسي توقر * أو تغير أو نصبره

إن يكن ساءك دهر * فلما سرك أكثر

يا كثير الذنب * عفو الله من ذنبك أكبر

ومن شعر أبي نواس بمدح بعض الأمراء : -

أوجدَهُ اللهُ فَمَا مِثْلُهُ • بطالِبِ ذَاكَ وَلَا نَاشِدِ
لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمَسْتَكْرٍ • أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ
وَأَنشَدُوا سَفِيَانَ بْنَ عَيْنَةَ قَوْلَ أَبِي نَوَاسٍ :

مَا هَوَى إِلَّا لَهُ سَبَبٌ • يَبْتَدِي مِنْهُ وَيُنشِئُ
فَنَنْتَ قَابِي حَجَبَةٍ • وَجَهَّهَا بِالْحَسَنِ مَنِيْقِبُ
خِلْتَهُ وَالْحَسَنُ تَأْخُذُهُ • تَنْتَقِي مِنْهُ وَتَنْتَجِبُ
فَاكْتَسَتْ مِنْهُ طَرَائِفُهُ • وَاسْتَرَدَّتْ بِهِضَ مَا تَهَبُ
فَهِيَ لَوْ صَيَّرْتُ فِيهِ لَهَا • عَوْدَةً لَمْ يَنْقُهَا أَرْبُ
صَارَ جِدًّا مَا مَزَحْتُ بِهِ • رَبِّ جِدِّ جِرَّةَ اللَّعْبِ

فَقَالَ ابْنُ عَيْنَةَ : آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَهَا . وَقَالَ ابْنُ دَرِيدٍ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : لَوْ أَنَّ الْعَامَةَ بَدَتْ هَذِينَ
الْبَيْتَيْنِ كَتَبْتَهُمَا بِمَاءِ الذَّهَبِ :

لَوْ أَنِّي اسْتَرَدْتُكَ فَوْقَ مَا بِي • مِنْ الْبَلْوَى لِأَعْوَزَكَ الْمَزِيدُ

وَلَوْ عَرَّضْتُ عَلَى الْمَوْتِ حَيَاتِي • بِعَيْشٍ مِثْلِ عَيْشِي لَمْ يُرِيدُوا

وَقَدْ سَمِعَ أَبُو نَوَاسٍ حَدِيثَ سَهِيلَ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ص) قَالَ : « الْقُلُوبُ
جُنُودٌ مَجْنُونَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا ائْتَلَفَ » . فَنَظَمَ ذَلِكَ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ فَقَالَ :

إِنَّ الْقُلُوبَ لِأَجْنَادَ مَجْنُونَةٍ • لَهَا فِي الْأَرْضِ بِالْأَهْوَاءِ تَعَرُفُ

فَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا فَهِيَ مُخْتَلَفَةٌ • وَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا فَهِيَ مُؤْتَلَفَةٌ

وَدَخَلَ يَوْمًا أَبُو نَوَاسٍ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ عَلَى عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ الْوَاحِدِ
لِيَخْتَرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَشْرَةَ أَحَادِيثَ أَحَدْتَهُ بِهَا ، فَاخْتَارَ كُلُّ وَاحِدٍ عَشْرَةَ إِلَّا أَبَا نَوَاسٍ ، فَقَالَ لَهُ :
مَالِكٌ لَا تَخْتَارُ كَمَا اخْتَارُوا ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا • عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ • عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمَسْدِيِّ • مِبْرَثُ سَعِيدِ بْنِ عَبَادَةَ

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ وَالشَّامِ • بِي شَيْخٍ ذُو جِلَادَةَ • وَعَنِ الْأَخْيَارِ نَحْكِي • وَعَنِ أَهْلِ الْإِفَادَةَ

أَنْ مَنْ مَاتَ مَحْبَبًا • فَلَهُ أَجْرُ شَهَادَةٍ

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْوَاحِدِ : قُمْ عَنِّي يَا فَاجِرُ ، لِأَحَدْتِكَ وَلَا حَدَّثْتَ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ أَجْلِكَ . فَبَلَغَ
ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي يَحْيَى فَقَالَا : كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَحْدِثَهُ لَعَلَّ اللهُ أَنْ يَصْلَحَهُ .

قَالَتْ : وَهَذَا الَّذِي أَنشده أَبُو نَوَاسٍ قَدْ رَوَاهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي كِتَابِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا
« مَنْ عَشِقَ فَعَفَ فَكَيْفَ مَاتَ شَهِيدًا » . وَمَعْنَاهُ أَنْ مَنْ ابْتَلَى بِالْعَشْقِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْهُ فَصَبَرَ

وعنف عن الفاحشة ولم يفش ذلك فمات بسبب ذلك حصل له أجر كثير . فان صح هذا كان ذلك له نوع شهادة والله أعلم .

وروى الخطيب أيضاً أن شعبة اتي ابا نواس فقال له : حدثنا من طرفك ، فقال مرتجلاً : حدثنا الخفاف عن وائل وخاله الخذاء عن جابر ومعه عن بعض اصحابه يرفعه الشيخ إلى عامر قالوا جميعاً : أما طفلة علقها ذو خاق طاهر فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكر ، كانت له الجنة مفتوحة يرتع في مرتعها الزاهر ، وأى معشوق جفا عاشقاً بعد وصال دائم ناصر ا فني عذاب الله بعداً له ثم وسحقاً دائماً ذاخر . فقال له شعبة : إنك لجميل الأخلاق ، وإني لأرجو لك . وأنشد أبو نواس أيضاً

يا ساحرَ المقلتينِ والجيدِ * وقاتلي منكَ بالمواعيدِ
تُوعِدُنِي الوصلَ ثم تُخَلِّفُنِي * ويلايَ مِنْ خُلْفِكَ موعودِي
حدثني الأزرُقُ المحدثُ عن * شهرٍ وعوفٍ عن ابنِ مسعودِ
ما يُخَلِّفُ الوعدَ غيرَ كافرةٍ * وكافرٍ في الجحيمِ مصفودِ

فبلغ ذلك إسحاق بن يوسف الأزرُق فقال : كذب عدو الله على وعلى التابعين وعلى اصحاب محمد . . . وعن سليم بن منصور بن عمار قال : رأيت ابا نواس في مجلس أبي يبكي بكاء شديداً فقلت : إني لأرجو أن لا يعذبك الله بعد هذا البكاء فأنشأ يقول :

لم أبكِ في مجلسِ منصور * شوقاً إلى الجنةِ والخورِ
ولا مِنْ القبرِ وأهوالهِ * ولا من النفخةِ في الصورِ
ولا مِنْ النارِ وأغلالها * ولا مِنْ الخذلانِ والجورِ
لكنْ بكائي لِمكا شادينِ * تقيهِ نفسي كلَّ محذورِ

ثم قال : إنما بكيت ابكاء هذا الأمر الذي إلى جانب أبيك - وكان صبياً حسن الصورة يسمع الوعظ فيبكي خوفاً من الله عز وجل -

قال : أبو نواس : دعاني يوماً بهض الحماكة وألح على ليضيفني في منزله ، ولم يزل بي حتى أجبته فسار إلى منزله وسرت معه فاذا منزل لا بأس به ، وقد احتفل الحائك في الطعام وجمع جمعاً من الحياك ، فأكلنا وشربنا ثم قال : ياسيدي أشتهي أن تقول في جاريتي شيئاً من الشعر - وكان مغرماً بجارية له - قال فقلت أرنيها حتى أنظم على شكلها وحسنها ، فكشف عنها فاذا هي أسمى خلق الله وأوحشهم ، سوداء شمطاء ديدانية يسيل لعابها على صدرها . فقلت لسيدها : ما اسمها ؟ فقال تسنيم ، فأنشأت

أقول : أسهرَ ليلى حبُّ تسنيم * جاريةٍ في الحسنِ كالبومِ
كأنما نكَّهها كامنخ * أو حزمةً من حزمِ الثومِ

ضَرَطْتُ مِنْ حَبِي لَهَا ضَرْطَةً * أَفْرَعْتُ مِنْهَا مَلِكَ الرُّومِ

قال فقام الحائك يرقص ويصفق سائر يومه ويفرح ويقول : إنه شبهها والله بملك الروم . ومن شعره أيضاً (١) أرمي الناسُ يقولون * بزعمهم كثرت أوزاربه إن كنتُ في النارِ أم في جنة * ماذا عليكم يا بني الزانية

وبالجملة فقد ذكرناه أموراً كثيرة ، ومجونا وأشعاراً منكرة ، وله في الخبريات والقاذورات والنسب بالردان والنسوان أشياء بشعة شنيعة ، فمن الناس من يفسقه ويرميه بالفاحشة ، ومنهم من يرميه بالزندقة ، ومنهم من يقول : كان إنما يخرب على نفسه ، والأول أظهر ، لما في أشعاره . فأما الزندقة فبמידة عنه ، ولكن كان فيه مجون وخلاعة كثيرة . وقد عزوا إليه في صغره وكبره أشياء منكرة الله أعلم بصحتها ، والعمامة تنقل عنه أشياء كثيرة لا حقيقة لها . وفي صحن جامع دمشق قبة يفور منها الماء يقول الدماشق قبة أبي نواس ، وهي مبنية بعد موته بأزيد من مائة وخمسين سنة ، فما أدري لأي شيء نسبت . إليه فالله أعلم بهذا .

وقال محمد بن أبي عمر : سمعت أبا نواس يقول : والله ما فتحت سراويلي لحرام قط . وقال له محمد الأمين بن الرشيد : أنت زنديق . فقال : يا أمير المؤمنين لست بزنديق وأنا أقول :

أصلي الصلاة الحسن في حين وقتها * وأشهد بالتوحيد لله خاضعا
وأحسنُ غسلي إن ركبتُ جنابةً * وإن جاءني المسكين لم أك مانعا
وإني وإن حانت من الكأس دعوة * إلى بيعة الساقى أجبت مسارعا
وأشربها صرفاً على جنب ما عز * وجدى كثير الشغم أصبح راضعا
وجوذاب حواري ولوز وسكره * وما زال للخمار ذلك نافعا
وأجملُ تخليط الروافضِ كلهم * لنفخة بختيشوع في النار طائما

فقال له الأمين : وبحك ! وما الذي أجنأك إلى نفخة بختيشوع ؟ فقال : به تمت القافية . فأمر له بجائزة . وبختيشوع الذي ذكره هو طبيب الخلفاء . وقال الجاحظ : لا أعرف في كلام الشعراء أرق ولا أحسن من قول أبي نواس حيث يقول :

أية نار قدح القادح * وأي جد بلغ المازح
لله درُّ الشيب من واعظ * وناصر لو خطى الناصح
يأبي الفتى إلا اتباع الهوى * ومنهج الحق له واضح
فاسمُ بعينيك إلى نوسة * مهورهن العملُ الصالح
لا يجتلي الحوراء في خدرها * إلا امرؤ ميزانه راجح

(١) في البيت تحريف .

بُنِ اتَّقَى اللَّهَ فَذَكَ الَّذِي • سَبَقَ إِبْنَهُ الْمُنَجَّرَ الرَّابِعُ
 فَاغْدُ فَمَا فِي الدِّينِ أَغْلُوطَةٌ • وَرَخَّ لَمَّا أَنْتَ لَهُ رَاغِبٌ
 وَقَدْ اسْتَنْشَدَهُ أَبُو عَفَانَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي فِي أَوَّلِهَا : لَا تَنْسَ لَيْلِي وَلَا تَنْظُرْ إِلَى هِنْدٍ . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا
 سَجَدَ لَهُ أَبُو عَفَانَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو نُوَاسٍ : وَاللَّهِ لَا أَكَلِمَكَ مَدَّةً . قَالَ : فَغَمِنِي ذَلِكَ ، فَلَمَّا أَرَدْتَ
 الْإِنْصِرَافَ قَالَ : مَتَى أَرَاكَ ؟ فَقُلْتُ : أَلَمْ تَقَسِّمْ ؟ فَقَالَ : الْدَّهْرُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ هَجْرٌ .
 وَمِنْ مُسْتَجَادِ شِعْرِهِ قَوْلُهُ :

أَلَا رَبُّ وَجْهِ فِي التُّرَابِ عَنِيْقٍ • وَيَا رَبِّ حَسَنٍ فِي التُّرَابِ رَقِيْقٍ
 وَيَا رَبُّ حَزْمٍ فِي التُّرَابِ وَنَجْدَةٍ • وَيَا رَبِّ رَأْيٍ فِي التُّرَابِ وَنَيْقٍ
 فَقُلْ لِقَرِيْبِ الدَّارِ إِنَّكَ ظَاغِنٌ • إِلَى سَفَرِ نَائِي الْمَحَلِّ سَجِيْقٍ
 أَرَى كُلَّ حَيٍّ هَالِكًا وَابْنَ هَالِكٍ • وَذَا نَسَبٍ فِي الْهَالِكِيْنَ عَرِيْقٍ
 إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبًا تَكْشِفَتْ • لَهُ عَنْ عَدُوِّ فِي لِبَاسِ صَدِيْقٍ
 لَا تَشْرَهْنَ فَإِنَّ الدَّلَّ فِي الشَّرِّهِ • وَالْعَزْفُ فِي الْجَلْمِ لَافِي الطَّيْشِ وَالسَّفْرِ
 وَقُلْ لِمُعْتَبِطٍ فِي النَّيْرِ مِنْ حَقِيْقٍ • لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ مَا فِي النَّيْرِ لَمْ تَتَرِ
 النَّيْرَ مَفْسِدَةً لِلدِّينِ مَنْقُصَةً • لِلْعَقْلِ مَهْلِكَةً لِلْعُرْضِ فَانْتَبِهْ

وقوله

وَجَلَسَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ الْقَاسِمُ بْنُ إِسْمَاعِيْلَ عَلَى دُكَّانٍ وَرَاقٍ فَكَتَبَ عَلَى ظَهْرِ دَفْتَرِهِ هَذِهِ الْآيَاتُ :

أَيَا عَجِبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَهِ • نَهْ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُ الْجَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ • تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

ثُمَّ جَاءَ أَبُو نُوَاسٍ فَقَرَأَهَا فَقَالَ : أَحْسَنَ قَائِلُهُ وَاللَّهِ . وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهَا لِي بِجَمِيْعِ شَيْءٍ قُلْتُهُ ، لَمَنْ
 هَذِهِ ؟ قِيلَ لَهُ : لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ ، فَأَخَذَ فَكَتَبَ فِي جَانِبِهَا :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ • قِيٌّ مِنْ ضَعْفٍ مَهِيْنٍ

يَسُوْقُهُ مِنْ قَرَارٍ • إِلَى قَرَارٍ مَبْكِيْنٍ

يَخْلُقُ شَيْئًا فَشَيْئًا • فِي الْحَجَبِ دُونَ الْعِيُونِ

حَتَّى بَدَتْ حَرَكَاتٌ • مَخْلُوقَةٌ فِي سَكُونِ

وَمِنْ شِعْرِهِ الْمُسْتَجَادِ قَوْلُهُ :

انْقَطَعَتْ شِدَّتِي فَهَفَّتُ الْمَلَاهِي إِذِ • رَمَى الشَّيْبُ مَفْرَقِي بِالذَّوَاهِي

وَنَهَيْتَنِي النَّهْيَ فَمَاتُ إِلَى الْعَدْلِ • وَأَشْفَقْتُ مِنْ مَقَالَةِ نَاهِي

أَيُّهَا الْغَافِلُ الْمُقَرَّبُ عَلَى السُّهُوِ • وَلَا عِذْرَ فِي الْمَعَادِ لِسَاهِي

لا بأعمالنا نُطبقُ خلاصاً • يومَ تبدو السماءُ فوقَ الجبابرِ
 على أَنَا على الاساءةِ والتف • ريطرِ نرجو من حسنِ عفوِ الاله
 وقوله : نموتُ ونبلى غيرَ أنَ ذُنوبنا • إذا نحنُ متنا لا نموتُ ولا تبلى
 الأربُّ ذي عينينِ لا تنفعانه • وما تنفعُ العينانِ من قلبه أعمى
 وقوله : لو أنَّ عيناً أوهمتها نفسها • يومَ الحسابِ ممثلاً لم تطرفِ
 سبحانَ ذى الملكوتِ أيةَ ليلةٍ • محمتٌ صبيحتها بيومِ الموقفِ
 كتبَ الفناءَ على البريةِ ربها • فالناسُ بينَ مقدمٍ ومخلفِ
 وذكر أن أبانواس لما أراد الاحرام بالحج قال :

يامالِكاً ما أعدلكَ مليكٌ كلِّ من ملكَ • لبيكُ إن الحمدَ لكُ والمَلِكُ لا شريكَ لكُ
 عبدكُ قد أهلَّ لكَ أنتَ له حيثُ سلكَ • لولاكُ ياربُّ هلاكُ لبيكُ إن الحمدَ لكُ
 والمَلِكُ لا شريكَ لكُ والليلُ لما أن حلكَ • والسابحاتِ فى الفلكِ على مجاري تنسلكُ
 كلِّ نبيٍّ وهـ... لكُ وكلِّ من أهلَّ لكُ • سبِّحْ أو صلى فلكَ لبيكُ إن الحمدَ لكُ
 والمَلِكُ لا شريكَ لكُ يا مخطئاً ما أجهلكَ • عصيتُ رباً عدلكَ وأفدركَ وأمهلكَ
 عجله وبادرهُ أمكُ واختمْ بخيرِ عملكُ • لبيكُ إن الحمدَ لكُ والمَلِكُ لا شريكَ لكُ

وقال المغانى بن زكريا الحريرى : ثنا محمد بن العباس بن الوليد سمعت أحمد بن يحيى بن ثعلب
 يقول : دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلا تمه نفسه لا يجب أن يكثر عليه كأن النيران قد
 سمعت بين يديه ، فازلت أترفق به وتوسلت إليه أنى من موالى شيبان حتى كلمنى ، فقال : فى أى
 شئ نظرت من المعلوم ؟ فقلت : فى اللغة والشعر . قال : رأيت بالبصرة جماعة يكتبون عن رجل
 الشعر ، قيل لى هذا أبو نواس . فتخللت الناس ورأى فلما جلست إليه أملى علينا :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل • خلوتُ ولكن فى الخلاءِ رقيبُ
 ولا تحسبنَّ اللهَ يفتلُ ساعةً • ولا آتماً يخفى عليه يغيبُ
 لهوناً عن الآتام حتى تتابته • ذنوبٌ على آثارهن ذنوبُ
 فياليت أن اللهَ يفتنرُ ما مضى • ويأذنُ فى توباتنا فتنوبُ
 وزاد بعضهم فى رواية عن أبى نواس بعد هذه الأبيات :

أقولُ إذا ضاقتْ عليّ مذاهبي • وحلتْ بقلبي للهمومِ ندوبُ
 لطولِ جنائياتي وعُظمِ خطيئتي • هلكتُ ومالي فى المتابِ نصيبُ
 واغرقُ فى بحرِ الخفاةِ آيساً • وترجعُ نفسى تارةً فتتوبُ

وتذكرني عفو الكريم عن الوري • فأحيا وأرجو عفوهُ فأنيبُ
وأخضعُ في قولي وأرغبُ سائلاً • عسى كاشفُ البلوى على يتوبُ

قال ابن طراز الجريري : وقد رويت هذه الأبيات لمن ؟ قيل لأبي نواس وهي في زهدياته .
وقد استشهد بها النحاة في أما كن كثيرة قد ذكرناها . وقال حسن بن الداية : دخلت على أبي نواس
وهو في مرض الموت فقلت : عظمي . فأنشأ يقول :

فَكثُرَ ما استطمتُ مِنَ الخطايا • فانك لاقياً رباً غفوراً
ستبصرُ إن وردتَ عليه عفواً • وتلقى سيداً ملكاً قديراً
تعضُ ندامةً كفيكُ مما • تركتَ مخافةً النارِ الشرورا

فقلت : ويحك ! يمثل هذا الحال تعظني بهذه الموعظة ؟ فقال : اسكت حدثنا حماد بن سلمة عن
ثابت عن أنس قال قال النبي (ص) : « ادخرت شفاعتي لأهل الكبار من أمتي » . وقد تقدم بهذا
الاسناد عنه « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » . وقال الربيع وغيره عن الشافعي قال :

دخلنا على أبي نواس في اليوم الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فقلنا : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فأنشأ
يقول :

تماظمني ذنبي فلما قرنته • بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
ومازلت ذاعفوعن الذنب لم تزل • تجود وتمفو منةً وتكرماً
ولولاك لم يقدر لا بليس عابداً • وكيف وقد أغوى صفيك آدماً

رواه ابن عساكر . وروى أنهم وجدوا عند رأسه رقعة مكتوباً فيها بخطه :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة • فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً • فاذا رددت يدي فن ذا يرحم
إن كان لا يرجوك إلا محسن • فمن الذي يرجو المسئء المجرم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا • وجميل عفوك ثم أنى مسلم

وقال يوسف بن الداية : دخلت عليه وهو في السياق فقلت : كيف تجددك ؟ فأطرق ملياً ثم رفع

رأسه فقال :

دب في الفناء سفلاً وعلواً • وأراني أموت عضواً فعضواً
ليس بمضى من لحظة بي إلا • نقصتني بمرها في جزواً
ذهبت جدتي بلذة عيشي • وتذكرت طاعة الله نضواً
قد أسانا كل الإساءة فالأ • هم صفحاً عنا وغفراً وعفواً

ثم مات من بساعته سبحانه الله وإياه آمين .

وقد كان نقش خاتمه لا إله إلا الله مخلصاً ، فأوصى أن يجعل في فمه إذا غسلوه ففعلوا به ذلك . ولما

مات لم يجدوا له من المال سوى ثلثمائة درهم وثيابه وأثائه ، وقد كانت وفاته في هذه السنة ببغداد ودفن في مقابر الشونيزي في تل اليهود . وله خمسون سنة . وقيل ستون سنة ، وقيل تسع وخمسون سنة . وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بأبيات قلتها في النرجس :

تفكر في نبات الأرض وانظر * إلى آثار ما صنع الملك
عيون من جبين شاخصات * بأبصار هي الذهب السبك
على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

وفي رواية عنه أنه قال : غفر لي بأبيات قلتها وهي تحت وسادتي فجاؤا فوجدوها برقعة في خطه يارب إن عظمت ذنوبي كثرة * فلقد علمت أن عفوك أعظم

الآيات . وقد تقدمت . وفي رواية لابن عساكر قال بعضهم : رأيت في المنام في هيئة حسنة ونعمة عظيمة فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت : بماذا وقد كنت مخلطاً على نفسك ؟ فقال : جاء ذات ليلة رجل صالح إلى المقابر فبسط رداءه وصلى ركعتين قرأ فيهما ألقي قل هو الله أحد ثم أهدى ثواب ذلك لأهل تلك المقابر فدخلت أنا في جملتهم ، فغفر الله لي . وقال ابن خلكان : أول شعر قاله أبو نواس لما صحب أبا أسامة والبة بن الحباب :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب * إن بكى بحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحب ينتحب * تعجبين من سقمي صحتي هي العجب
وقال المأمون : ما أحسن قوله :

وما الناس إلا هالك وابن هالك * وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو في لباس صديق

قال ابن خلكان : وما أشد رجاءه بربه حيث يقول :

تحمل ما استطعت من الخطايا * فأنك لاقياً رباً غفورا
سقبصر إن قدمت عليه عفواً * وتلقى سيّداً ملكاً كبيراً
نعض ندامة كفيك مما * تركت مخافة النار الشرورا

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

فيها توفي أبو معاوية الضرير أحد مشايخ الحديث النقات المشهورين . والوليد بن مسلم الدمشقي تلميذ الأوزاعي . وفيها حبس الأمين أسد بن يزيد لأجل أنه نقم على الأمين لعمه وتهاونه في أمر الرعية ، وارتكابه للصيد وغيره في هذا الوقت . وفيها وجه الأمين أحمد بن يزيد وعبد الله بن حميد ابن قحطبة في أربعين ألفاً إلى حلوان لقتال طاهر بن الحسين من جهة المأمون ، فلما وصلوا إلى قريب

من حلوان خندق طاهر على جيشه خندقاً وجعل يعمل الحيلة في إيقاع الفتنة بين الأميرين ، فاختلفا فرجعا ولم يقانللاه ، ودخل طاهر إلى حلوان وجاءه كتاب المأمون بتسليم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين ، وأن يتوجه هو إلى الأهواز . ففعل ذلك . وفيها رفع المأمون وزبره الفضل بن سهل وولاه أعمالاً كباراً وسماه ذا الرياستين . وفيها ولي الأمين نيابة الشام لعبد الملك بن صالح بن علي - وقد كان أخرجه من سجن الرشيد - وأمره أن يبعث له رجالاً وجنوداً لقتال طاهر وهرثمة ، فلما وصل إلى الرقة أقام بها وكتب إلى رؤساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة ، فقدم عليه منهم خلق كثير ، ثم وقعت حروب كان مبدؤها من أهل حمص ، وتفاقم الأمر وطال القتال بين الناس ، ومات عبد الملك ابن صالح هنالك فرجع الجيش إلى بغداد صحبة الحسين بن علي بن ماهان ، فلتقاه أهل بغداد بالأكرام ، وذلك في شهر رجب من هذه السنة . فلما وصل جاء رسول الأمين يطلبه فقال : والله ما أنا بمسامر ولا مضحك ، ولا وليت له عملاً ولا جبي على يدي مالا ، فلماذا يطلبني في هذه الليلة ؟

سبب خلع الأمين وكيف افضت الخلافة إلى أخيه المأمون

لما أصبح الحسين بن علي بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه ، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الشام ، قام في الناس خطيباً وألبهم على الأمين ، وذكر لعبه وما يتعاطاه من اللهو وغير ذلك من المعاصي ، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله ، وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس ، ثم حثهم على القيام عليه والنهوض إليه ، وندبهم لذلك ، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير ، وبعث محمد الأمين إليه خيلاً فاقتلوا ملياً من النهار ، فأمر الحسين أصحابه بالترجل إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيف والرمح ، فانهزم جيش الأمين وخلعه وأخذ البيعة لعبد الله المأمون ، وذلك يوم الأحد الحادي عشر من شهر رجب من هذه السنة ، ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد ، وضيق عليه وقيده واضطرده ، وأمر العباس بن عيسى بن موسى أمه زبيدة أن تنتقل إلى هناك فامتنعت فضربها بالسوط وقهرها على الانتقال فانتقلت مع أولادها ، فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن علي أعطيائهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين ، فرقة مع الأمين وفرقة عليه ، فاقتلوا قتالاً شديداً فغلب حزب الخليفة أولئك ، وأسروا الحسين بن علي ابن عيسى بن ماهان وقيده ودخلوا به على الخليفة فكفوا عنه قيوده وأجلسوه على سريرته ، فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحاً من الخزائن ، فانهب الناس الخزائن التي فيها السلاح بسبب ذلك ، وأمر الأمين فأتى بالحسين بن علي بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك . فعفا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه

الخاتم وولاه ما وراء بابه ، وولاه الحرب وسيره إلى حلوان ، فلما وصل إلى الجسر هرب في حاشيته وخدمه فبعث إليه الأمين من يرده ، فركبت الخيول وراه فأدركوه فقاتلهم وقتلوه فقتلوه لمنتصف رجب ، وجاؤا برأسه إلى الأمين ، وجدد الناس البيعة للأمين يوم الجمعة ، ولما قتل الحسين بن علي بن عيسى هرب الفضل بن الربيع الحاجب واستحوذ طاهر بن الحسين على أكثر البلاد للمأمون ، واستناب بها النواب ، وخلع أكثر أهل الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون ، ودنا طاهر إلى المدائن فأخذها مع واسط وأعمالها ، واستناب من جهته على الحجاز واليمن والجزيرة والموصل وغير ذلك ، ولم يبق مع الأمين من البلاد إلا القليل . وفي شعبان منها عقد الأمين أربع مائة لواء مع كل لواء أمير ، وبعثهم لقتال هرثمة ، فالتقوا في شهر رمضان فكسروهم هرثمة وأسر مقدمهم علي بن محمد بن عيسى بن نهبك ، وبعث به إلى المأمون . وهرب جماعة من جند طاهر فساروا إلى الأمين فأعطاهم أموالاً كثيرة ، وأكرمهم وغاف لحامم بالغالية فسماوا جيش الغالية . ثم ندبهم الأمين وأرسل معهم جيشاً كثيراً لقتال طاهر فهزمهم طاهر وفرق شملهم ، وأخذ ما كان معهم . واقترب طاهر من بغداد فحاصرها وبعث القصاد والجواسيس يلقون الفتنة بين الجند حتى تفرقوا شيعاً ، ثم وقع بين الجيش وتشعبت الأصاغر على الأكابر واختلفوا على الأمين في سادس ذي الحجة فقال بمض البغادة :

قل لأمين الله في نفسه * ما شئت الجند سوى الغالية
وطاهر نفسى فدا طاهر * برسله والعدة الكافية
أضحى زمام الملك في كفه * مقاتلاً للفتنة الباغية
يا ناكثاً أسلمه نكثه * عيوبه في خبثه فاشية
قد جاءك الليث بشداته * مستكلباً في أسد ضارية
فاهرب ولا مهرب من مثله * إلا إلى النار أو الهاوية

فتفرق على الأمين شمله ، وحاد في أمره ، وجاء طاهر بن الحسين بجيوشه فنزل على باب الأنبار يوم الثلاثاء لثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ، واشتد الحال على أهل البلد وأخاف الدعار والشطار أهل الصلاح ، وخربت الديار ، ونارت الفتنة بين الناس ، حتى قاتل الأخ أخاه للاهواء المختلفة ، والابن أباه ، وجرت شرور عظيمة ، واختلفت الأهواء وكثر الفساد والقتل داخل البلد .

وحج بالناس فيها العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي من قبل طاهر ، ودعا للمأمون بالخلافة بمكة والمدينة ، وهو أول موسم دعى فيه للمأمون .
وفيهما توفي بقية بن الوليد الحمصي إمام أهل حمص وفقهها ومحدثها .

وحنص بن غياث القاضي

عاش فوق التسعين ، ولما احتضر بكى بعض أصحابه فقال له : لا تبك ! والله ما حلت سراويلي على حرام قط ، ولا جلس بين يدي خصمان فبايت على من وقع الحكم عليه منهما ، قريبا كان أو بعيداً ، ملكاً أو سوقة .

وعبد الله بن مرزوق أبو محمد الزاهد ، كان وزيراً للرشد فترك ذلك كله وتزهد وأودى عند موته أن يطرح قبل موته على مزبلة لعل الله أن يرحمه .

ابو شيبص

الشاعر محمد بن رزين بن سليمان ، كان أستاذ الشعراء ، وإنشاء الشعر ونظمه أسهل عليه من شرب الماء ، كذا قال ابن خلكان وغيره . وكان هو وأبو مسلم بن الوليد - الملقب صريع الفواني - وأبو نواس ودعبل يجتمعون ويتناشدون . وقد عصى أبو الشيبص في آخر عمره ، ومن جيد شعره قوله :

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي • متأخرٌ عنهُ ولا متقدمٌ
أجد الملامة في هوائك لذينة * حباً لذكرك فليلهني اللوم
أشبهت أعدائي فصرتُ أحبهم • إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً • ما من يهونُ عليكِ ممن تكرمُ

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

استهلت هذه السنة وقد ألح طاهر بن الحسين وهرثة بن أعين ومن معهما في حصار بغداد والتضييق على الأمين ، وهرب القاسم بن الرشيد وعنه منصور بن المهدي إلى المأمون فأكرمهما ، وولى أخاه القاسم جرجان ، واشتد حصار بغداد ونصب عليها الجنايق والعرادات . وضاق الأمين بهم ذرعا ، ولم يبق معه ما ينفق في الجند ، فاضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير ، وهرب كثير من جنده إلى طاهر ، وقتل من أهل البلد خلق كثير ، وأخذت أموال كثيرة منهم ، وبعث الأمين إلى قصور كثيرة ودور شهيرة مزخرفة وأما كن ومحال كثيرة فخرقها بالنار لما رأى في ذلك من المصلحة ، فعل كل هذا فراراً من الموت ولتدوم الخلافة له فلم تدم ، وقتل وخربت دياره كما سيأتي قريباً ، وفعل طاهر مثل ما فعل الأمين حتى كادت بغداد تنخر بأكملها ، فقال بعضهم في ذلك :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ * ألم تكوني زماناً قرّة العينِ
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم * وكان قريتهم زيناً من الزينِ
صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا * ماذا لقيت بهم من لوعة البينِ
استودعُ الله قوماً ما ذكرتهم * إلا تحدر ماء العين من عيني

كانوا ففرقهم دهرٌ وصدعهم • والدهرُ يصدعُ ما بينَ الفريقينِ
وقد أكثر الشعراء في ذلك . وقد أورد ابن جرير من ذلك طرفاً صالحاً ، وأورد في ذلك قصيدة
طويلة جداً فيها بسط ما وقع ، وهي هول من الأهوال اقتصرناها بالكلية .

واستحوذ طاهر على ما في الضياع من الغلات والحواصل الأمراء وغيرهم ، ودعاهم إلى الأمان
والبيعة للمأمون فاستجابوا جميعهم ، منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وبجى بن علي بن ماهان ،
ومحمد بن أبي العباس الطوسي ، وكاتبه خلق من الهاشميين والأمراء ، وصارت قلوبهم معه . واتفق في
بعض الأيام أن ظفر أصحاب الأئمين بيهض أصحاب طاهر فقتلوا منهم طائفة عند قصر صالح ، فلما
سمع الأئمين بذلك بطر وأشر وأقبل على اللهو والشرب واللعب ، ووكّل الأمور وتدبيرها إلى محمد بن
عيسى بن نهبك ، ثم قويت شوكة أصحاب طاهر وضعف جانب الأئمين جداً ، وانحاز الناس إلى
جيش طاهر - وكان جانبه آمناً جداً لا يخاف أحد فيه من سرقة ولا نهب ولا غير ذلك - وقد أخذ
طاهر أكثر محال بغداد وأرباضها ، ومنع الملاحين أن يحملوا طعاماً إلى من خلفه ، فغلت الاسعار
جداً عند من خلفه ، وندم من لم يكن خرج من بغداد قبل ذلك ، ومنعت التجار من القدوم إلى
بغداد بشيء من البضائع أو الدقيق ، وصرفت السفن إلى البصرة وغيرها ، وجرت بين الفريقين
حروب كثيرة ، فمن ذلك وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأئمين ، قتل فيها خلق من أصحاب
طاهر كان الرجل من العيارين والحرافشة من البغاددة يأتي عريانا ومعه بارية مقيرة ، وتحت كتفه
مخلاة فيها حجارة ، فاذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم اتقاء بياريته فلا يؤذيه ، وإذا اقترب منه
رماه بحجر في المقلاع أصابه ، فهزموم لذلك . ووقعة الشماسية أسر فيها هرثمة بن أعين ، فشق ذلك
على طاهر وأمر بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية ، وعبر طاهر بنفسه ومن معه إلى الجانب الآخر
فقاتلهم بنفسه أشد القتال حتى أزالهم عن مواضعهم ، واسترد منهم هرثمة وجماعة ممن كانوا أسروهم
من أصحابه ، فشق ذلك على محمد الأئمين وقال في ذلك : -

منيتُ بأشجعِ الثقلينِ قلباً • إذا ما طالَ ليسَ كما يطولُ
له مع كل ذي بدرٍ رقيبٌ • يشاهدُه ويعلمُ ما يقولُ
فليسَ بمنفلٍ أمراً عناداً • إذا ما الأمرُ ضيعةُ الغفولِ

وضعف أمر الأئمين جداً ولم يبق عنده مال ينفقه على جنده ولا على نفسه ، وتفرق أكثر
أصحابه عنه ، وبقى مضطهداً ذليلاً . ثم انقضت هذه السنة بكاملها والناس في بغداد في قلاقل وأهوية
مختلفة ، وقتال وحريق ، وسرقات ، وسامت بغداد فلم يبق فيها أحد برد عن أحد كما هي عادة الفتن .
وحج بالناس فيها العباس بن موسى الهاشمي من جهة المأمون . وفيها توفي شعيب بن حرب أحد

الزهاد . وعبد الله بن وهب إمام أهل الديار المصرية . وعبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر .
وعثمان بن سعيد الملقب بورش أحد القراء المشهورين الرواة عن نافع بن أبي نعيم . ووكيع بن
الجراح الرواسي أحد أعلام المحدثين . مات عن ست وستين سنة .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

فيها خامر خزيمه بن خازم علي محمد الأمين وأخذ الأمان من طاهر . ودخل هرثمة بن أعين من
الجانب الشرقي . وفي يوم الأربعاء ثمان خلون من المحرم وثب خزيمه بن خازم ومحمد بن علي بن
عيسى علي جسر بغداد فقطعاه ونصبا رأيتهما عليه . ودعوا إلى بيعة عبد الله المأمون وخلع محمد
الأمين ، ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقي فباشر القتال بنفسه ، ونادى بالأمان لمن لزم
منزله ، وجرت عند دار الوقيق والكرخ وغيرهما وقعت ، وأحاطوا بمدينة أبي جعفر والخلد وقصر
زبيدة ، ونصب المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة ، ورماه بالمنجنيق ، فخرج الأمين بأهله
وولده إلى مدينة أبي جعفر ، وتفرق عنه عامة الناس في الطريق ، لا يلوي أحد على أحد ، حتى دخل
قصر أبي جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمي المنجنيق ، وأمر بتحريق ما كان فيه
من الأثاث والبسط والأمتعة وغير ذلك ، ثم حصر حصاراً شديداً . ومع هذه الشدة والضيق وإشرافه
على الهلاك خرج ذات ليلة في ضوء القمر إلى شاطئ دجلة واستدعى بنبيد وجارية فغنته فلم ينطلق
لسانها إلا بالفراقيات وذكر الموت وهو يقول : غير هذا ، وتذكر نظيره حتى غنته آخر ما غنته :

أما ورب السكون والحرك * إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان من ملك * قد انقضى ملكه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبداً * ليس بفان ولا بمشرك

قال : فسبها وأقامها من عنده فعثرت في قدح كان له من بلور فكسرت فتطير بذلك . ولما ذهبت
الجارية سمع صارخاً يقول [قضى الأمر الذي فيه تستفتيان] فقال لجليسه : وبحك ألا تسمع ،
فتسمع فلا يسمع شيئاً ، ثم عاد الصوت بذلك فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل في رابع صفر يوم
الأحد ، وقد حصل له من الجهد والضيق في حصره شيئاً كثيراً بحيث إنه لم يبق له طعام يأكله
ولا شراب بحيث إنه جاع ليلة فما أتى برغيف ودجاجة إلا بعد شدة عظيمة ، ثم طلب ماء فلم يوجد
له فبات عطشاً فلما أصبح قتل قبل أن يشرب الماء .

كيفية مقتله

لما اشتد به الأمر اجتمع عنده من بقي معه من الأمراء والخدم والجند ، فشاورهم في أمره فقالت

طائفة : تنهب عن بقى معك إلى الجزيرة أو الشام فتتقوى بالأموال وتستخدم الرجال . وقال بعضهم نخرج إلى طاهر وتأخذ منه أماناً وتبايع لأخيك ، فإذا فعلت ذلك فإن أخاك سيأمر لك بما يكفيك ويكفي أهلك من أمر الدنيا ، وغاية مرادك الدعة والراحة ، وذلك يحصل لك تماماً . وقال بعضهم : بل هرثة أولى بأن يأخذ لك منه الأمان فإنه مولاكم وهو أحق عليكم . فقال إلى ذلك ، فلما كانت ليلة الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخرة واعد هرثة أن يخرج إليه ، ثم لبس ثياب الخلافة وطيلساناً واستدعى بولديه فشمهما وضمهما إليه وقال : أستودعكما الله ، ومسح دموعه بطرف كفه ، ثم ركب على فرس سوداء وبين يديه شمعة ، فلما انتهى إلى هرثة أكرمه وعظمه وركبا في حراقة في دجلة ، وبلغ ذلك طاهراً فغضب من ذلك وقال : أنا الذي فعلت هذا كما ويذهب إلى غيري ، وينسب هذا إلى هرثة ؟ فلتحمهما وهما في الحراقة فأمالها أصحابه ففرق من فيها ، غير أن الأمين سبى إلى الجانب الآخر وأمره بعض الجند . وجاء فأعلم طاهراً فبعث إليه جنداً من المعجم فجاءوا إلى البيت الذي هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له : ادن مني فاني أجد وحشة شديدة ، وجعل يلتف في ثيابه شديداً وقلبه يخفق خفقاناً عظيماً ، كاد يخرج من صدره . فلما دخل عليه أولئك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول : وبحكم أنا ابن عم رسول الله (ص) ، أنا ابن هارون ، أنا أخو المأمون ، الله الله في دمي . فلم يلتفتوا إلى شيء من ذلك ، بل تكاثروا عليه وذبحوه من قفاه وهو مكبب على وجهه وذهبوا برأسه إلى طاهر وتركوا جثته ، ثم جاؤا بكرة إليها فلفوها في جل فرس وذهبوا بها . وذلك ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر من هذه السنة .

شيء من ترجمته

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور ، أبو عبد الله ويقال أبو موسى الهاشمي العباسي ، وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، كان مولده بالرصافة سنة سبعين ومائة [قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا عياش بن هشام عن أبيه قال : ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد في شوال سنة سبعين ومائة (١)] . وأنته الخلافة بمدينة السلام بغداد لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وقيل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم ، وقتل سنة ثمان وتسعين ومائة ، قتله قریش الدنداني ، وحمل رأسه إلى طاهر بن الحسين فصبه على ربح وتلا هذه الآية [قل اللهم مالك الملك] وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام ، وكان طويلاً سمينا أبيض أفتى الأنف صغير العينين ، عظيم الكراديس بعيداً ما بين المنكبين . وقد رماه بعضهم بكثرة اللعب والشرب وقلة الصلاة . وقد ذكر ابن جرير طرفاً من سيرته في إكثاره من

(١) زيادة من المصرية .

قتناه السودان والخصيان ، وإعطائه الأموال والجواهر ، وأمره بإحضار الملاحى والمغنين من سائر
 لبلاد ، وأنه أمر بعمل خمس حراقات على صورة الفيل والأسد والعقاب والحية والفرس ، وأنفق
 على ذلك أموالاً جزيلاً جداً ، وقد امتدحه أبو نواس بشعر أقبیح فى معناه من صنيع الأمين فانه قال
 فى أوله : سخر الله للأمين مطايا * لم تسخر لصاحب المحراب
 فاذا ماركابه سرن برأ * سار فى الماء راكباً ليث غاب

ثم وصف كلا من تلك الحراقات . واعتنى الأمين ببنايات هائلة للنزهة وغيرها ، وأنفق فى ذلك
 أموالاً كثيرة جداً . فكثرت النكير عليه بسبب ذلك .

وذكر ابن جرير أنه جلس يوماً فى مجلس أنفق عليه مالا جزيلاً فى الخلد ، وقد فرش له بأنواع
 الحرير ، ونضد بآنية الذهب والفضة ، وأحضر ندماءه وأمر القهرمانه أن تهى له مائة جارية حسناء
 وأمرها أن تبعثن إليه عشراً بعد عشر يغنينه ، فلما جاءت العشر الأول اندفعن يغنين بصوت واحد :
 همو قتلوه كي يكونوا مكانه * كما غدرت يوماً بكسرى مرارته
 فنضب من ذلك وتبرم وضرب رأسها بالكأس ، وأمر بالقهرمانه أن تلقى إلى الأسد فأكلها .
 ثم استدعى بعشرة فاندفعن يغنين :

من كان مسروراً بقتل مالك * فليات نسوتنا بوجه نهار
 يجد النساء حواسراً يندبنه * يلطن قبل تبلج الأسحار
 فطردهن واستدعى بعشر غيرهن ، فلما حضرن اندفعن يغنين بصوت واحد :
 كليب لعمرى كان أكثر ناصرأ * وأيسر ذنباً منك ضرج بالدم
 فطردهن وقام من فوره وأمر بتخريب ذلك المجلس وتحرىق ما فيه .

وذكر أنه كان كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر ويعطى عليه الجوائز الكثيرة ، وكان شاعره
 أبا نواس ، وقد قال فيه أبو نواس مدائح حسانا ، وقد وجدته مسجوناً فى حبس الرشيد مع الزنادقة
 فأحضره وأطلقه وأطلق له مالا وجعله من ندمائه ، ثم حبسه مرة أخرى فى شرب الخمر وأطال حبسه
 ثم أطلقه وأخذ عليه العهد أن لا يشرب الخمر ولا يأتى الذكور من المردان فامتثل ذلك ، وكان
 لا يفعل شيئاً من ذلك بعد ما استنابه الأمين ، وقد تأدب على الكسائى وقرأ عليه القرآن . وروى
 الخطيب من طريقه حديثاً أورده عنه لما عزى فى غلام له توفى بمكة فقال : حدثنى أبى عن أبى
 عن المنصور عن أبىه عن على بن عبد الله عن أبىه قال : سمعت رسول الله (س) يقول . « من
 مات محرماً حشر مليباً » .

وقد قدمنا ما وقع بينه وبين أخيه من الاختلاف والفرقة ، حتى أفضى ذلك إلى خلعه وعزله ، ثم

إلى التضيق عليه ، ثم إلى قتله ، وأنه حصر في آخر أمره حتى احتاج إلى مصانعة هرثمة ، وأنه ألقى في حراقة ثم ألقى منها فسبح إلى الشط الآخر فدخل دار بعض العامة وهو في غاية الخوف والدهش والجوع والعري ، فجعل الرجل يلقيه الصبر والاستغفار ، فاشتغل بذلك ساعة من الليل ، ثم جاء الطلب وراعه من جهة طاهر بن الحسين بن مصعب ، فدخلوا عليه وكان الباب ضيقاً فندافعوا عليه وقام إليهم فجعل يدافعهم عن نفسه بمخدة في يده ، فما وصلوا إليه حتى عرقبوه وضربوا رأسه وأخاضرته بالسيوف ، ثم ذبحوه وأخذوا رأسه وجثته فأتوا بهما طاهراً ، ففرح بذلك فرحاً شديداً ، وأمر بنصب الرأس فوق رمح هناك حتى أصبح الناس فظفروا إليه فوق الرمح عند باب الأنبار ، وكثر عدد الناس ينظرون إليه . ثم بعث طاهر برأس الأمين مع ابن عمه محمد بن مصعب ، وبعث معه بالبردة والتضيب والنعل - وكان من خوص مبطن - فسلمه إلى ذى الرياستين ، فدخل به على المأمون على ترس ، فلما رآه سجد وأمر لمن جاء به بألف ألف درهم . وقد قال ذى الرياستين حين قدم الرأس يؤلب على طاهر : أمرناه بأن يأتي به أسيراً فأرسل به إلينا عقيراً . فقال المأمون : مضى ما مضى . وكتب طاهر إلى المأمون كتاباً ذكر فيه صورة ما وقع حتى آل الحال إلى ما آل إليه . ولما قتل الأمين هدأت الفتن وخذت الشرور ، وأمن الناس ، وطابت النفس ، ودخل طاهر بغداد يوم الجمعة وخطبهم خطبة بليغة ذكر فيها آيات كثيرة من القرآن ، وأن الله يفعل ما يشاء وبحكم ما يريد ، وأمرهم فيها بالجماعة والسمع والطاعة ثم خرج إلى معسكره فأقام به وأمر بتحويل زبيدة من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد ، فخرجت يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، وبعث موسى وعبد الله ابني الأمين إلى عمهما المأمون بخراسان ، وكان ذلك رأياً سديداً . وقد وثب طائفة من الجند على ظاهر بعد خمسة أيام من مقتل الأمين وطلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده إذ ذاك مال ، فتحزبوا واجتمعوا وتهبوا بهض متاعه ونادوا : يا موسى يا منصور ، واعتقدوا أن موسى بن الأمين الملقب بالناطق هناك ، وإذا هو قد سيره إلى عمه . وانحاز طاهر بمن معه من القواد ناحية وعزم على قتالهم بمن معه ، ثم رجعوا إليه واعتذروا وندبوا ، فأمر لهم برزق أربعة أشهر بعشرين ألف دينار اقترضها من بعض الناس ، فطابت الخواطر . ثم إن إبراهيم بن المهدي قد أسف على قتل محمد الأمين بن زبيدة ورتاه بأبيات ، فبلغ ذلك المأمون فبعث إليه يعنفه ويلومه على ذلك . وقد ذكر ابن جرير مراني كثيرة للناس في الأمين ، وذكر من أشعار الذين هجوه طرفاً ، وذكر من شعر طاهر بن الحسين حين قتله قوله : -

ملكك الناس قسراً واقنداراً • وقتلت الجبابرة الكبارا
ووجهت الخلافة نحو مرو • إلى المأمون تبندر ابتدارا

خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد هارون

لما قتل أخوه محمد في رابع صفر من سنة ثمان وتسعين ومائة وقيل في المحرم ، استوسقت البيعة شرقاً وغرباً للمأمون : فولى الحسن بن سهل نيابة المراق وفارس والأهواز والكوفة والبصرة والحجاز واليمن ، وبعث نوابه إلى هذه الأقاليم ، وكتب إلى طاهر بن الحسين أن ينصرف إلى الرقة لحرب نصر بن شبث ، وولاه نيابة الجزيرة والشام والموصل والمغرب . وكتب إلى هرثمة بن أعين نيابة خراسان . وفيها حج بالناس العباس بن عيسى الهاشمي . وفيها توفي سفيان بن عيينة . وعبد الرحمن ابن مهدي . ويحيى القطان . فهؤلاء الثلاثة سادة العلماء في الحديث والفقه وأما الرجال .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة .

فيها قدم الحسن بن سهل بغداد نائبا عليها من جهة المأمون ، ووجه نوابه إلى بقية أعماله ، ونوجه طاهر إلى نيابة الجزيرة والشام ومصر وبلاد المغرب . وسار هرثمة إلى خراسان نائبا عليها ، وكان قد خرج في أواخر السنة الماضية في ذي الحجة منها ، الحسن الهرش يدعو إلى الرضى من آل محمد ، فجي الأموال وانتهب الأنعام وعاث في البلاد فساداً فبعث إليه المأمون جيشاً فقتلوه في المحرم من هذه السنة . وفيها خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة ، يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وهو الذي يقال له ابن طباطبا ، وكان القائم بأمره وتدبير الحرب بين يديه أبو السرايا النسري بن منصور الشيباني ، وقد اتفق أهل الكوفة على موافقته واجتمعوا عليه من كل فج عميق ، ووفدت إليه الأعراب من نواحي الكوفة ، وكان النائب عليها من جهة الحسن بن سهل سليمان ابن أبي جعفر المنصور ، فبعث الحسن بن سهل يلومه ويؤنبه على ذلك ، وأرسل إليه بعشرة آلاف فارس صحبة زاهر بن زهير بن المسيب ، فتقاتلوا خارج الكوفة فهزموا زاهرا واستباحوا جيشه ونهبوا ما كان معه ، وذلك يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة ، فلما كان الغد من الواقعة توفي ابن طباطبا أمير الشيعة فجأة ، يقال إن أبا السرايا صممه وأقام مكانه غلاماً أمرد يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن طالب . وانزل زاهر بمن بقي معه من أصحابه إلى قصر ابن هبيرة ، وأرسل الحسن بن سهل مع عبدوس بن محمد أربعة آلاف فارس ، صورة مدد زاهر ، فالتقوا وأبو السرايا فهزمهم أبو السرايا ولم يفلت من أصحاب عبدوس أحد ، وانتشر الطالبيون في تلك البلاد ، وضرب أبو السرايا الدرهم والدنانير في الكوفة ، ونقش عليه (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) الآية . ثم بعث أبو السرايا جيوشه إلى البصرة وواسط والمدائن فهزموا من فيها من النواب ودخلوها قهراً ، وقويت شوكتهم ، فأمر ذلك الحسن بن سهل وكتب إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا

فتمنع ثم قدم عليه فخرج إلى أبي السرايا فهزم أبا السرايا شير مرة وطرده حتى رده إلى الكوفة
ووثب الطالبيون على دور بنى العباس بالكوفة فتهبوا وخر بواضياعهم ، وفعلوا أفعالاً قبيحة .
وبعث أبو السرايا إلى المدائن فاستجابوا ، وبعث إلى أهل مكة حسين بن حسن الأقطس ليقبم لهم
الموسم فخاف أن يدخلها جهرة ، ولما سمع نائب مكة - وهو داود بن عيسى بن موسى بن علي بن
عبد الله بن عباس - هرب من مكة طالباً أرض العراق ، وبقى الناس بلا إمام فسئل مؤذنها أحمد
ابن محمد بن الوليد الأزرق أن يصلح بهم - فم فآبى ، فقيل لقاضيها محمد بن عبد الرحمن الخزومي
فامتنع ، وقال : لمن أدعو وقد هرب نواب البلاد . فقدم الناس رجلاً منهم فصلى بهم الظهر والعصر ،
وبلغ الخبر إلى حسين الأقطس فدخل مكة في عشرة أنفس قبل الغروب فطاف بالبيت ، ثم وقف
بعرفة ليلا وصلى بالناس الفجر بمردلفة وأقام بقية المناسك في أيام منى ، فدفع الناس من عرفة بغير
إمام . وفيها توفي إسحاق بن سليمان . وابن نمير . وابن سابور . وعمر والعنبري ، والد مطيع البلخي .
ويونس بن بكير .

ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة

في أول يوم منها جلس حسين بن حسن الأقطس على طنفسة مثلثة خلف المقام وأمر بتجريد
الكعبة مما عابها من كساوي بني العباس ، وقال : نظرها من كساويهم . وكساها ملاءتين صفراوتين
عليهما اسم أبي السرايا ، ثم أخذ ما في كنز الكعبة من الأموال ، وتبع ودائع بني العباس
فأخذها ، حتى أنه أخذ مال ذوى المال ويزعم أنه للسودة . وهرب منه الناس إلى الجبال ، وسبك
ما على رؤس الأساطين من الذهب ، وكان ينزل مقدار يسير بعد جهد ، وقلعوا ما في المسجد الحرام
من الشبايك وباعوها بالبخص ، وأسأوا السيرة جداً . فلما بلغه مقتل أبي السرايا كتم ذلك وأمر
رجلاً من الطالبين شيخاً كبيراً ، واستمر على سوء السيرة ، ثم هرب في سادس عشر المحرم منها ،
وذلك لما قهر هرثمة أبا السرايا وهزم جيشه وأخرجه ومن معه من الطالبين من الكوفة ، ودخلها
هرثمة ومنصور بن المهدي فأمنوا أهلها ولم يتعرضوا لأحد . وسار أبو السرايا بمن معه إلى القادسية ، ثم
سار منها فاعترضهم بعض جيوش المأمون فهزمهم أيضاً وجرح أبو السرايا جراحة منكرة جداً ،
وهربوا يريدون الجزيرة إلى منزل أبي السرايا برأس العين ، فاعترضهم بعض الجيوش أيضاً فأسروهم
وأثوا بهم الحسن بن سهل وهو بالنهر وان حين طردته الحربية ، فأمر بضرب عنق أبي السرايا فجزع
من ذلك جزعاً شديداً جداً وطيف برأسه وأمر بمجسده أن يقطع اثنتين وينصب على جسر
بفداد ، فكان بين خروجه وقتله عشرة أشهر . فبعث الحسن بن سهل بن محمد إلى المأمون مع
رأس أبي السرايا . وقال بعض الشعراء :

ألم تر ضرباً الحسن بن سهل * بسيفك يا أمير المؤمنين

أدارت مرو رأس أبي السرايا * وأبقت عبرة للعالمينا

وكان الذي في يده البصرة من الطالبين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي ، ويقال له زيد النار ، لكثرة ما حرق من البيوت التي للسودة ، فأمره علي بن سعيد وأمنه وبعث به وبين معه من القواد إلى اليمن لقتال من هناك من الطالبين .

وفيها خرج باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ويقال له الجزار الكثرة من قتل من أهل اليمن ، وأخذ من أموالهم . وهو الذي كان بمكة وفعل فيها ما فعل كما تقدم ، فلما بلغه قتل أبي السرايا هرب إلى اليمن ، فلما بلغ نائب اليمن خبره ترك اليمن وسار إلى خراسان واجتاز بمكة وخذ أمه منها . واستحوذ إبراهيم هذا علي بلاد اليمن وجرت حروب كثيرة يطول ذكرها ، ورجع محمد بن جعفر العلوي عما كان بزعمه ، وكان قد ادعى الخلافة بمكة ، وقال : كنت أظن أن المأمون قد مات وقد تحققت حياته ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما كنت ادعيت من ذلك ، وقد رجعت إلى الطاعة وأنا رجل من المسلمين . ولما هزم هرثمة أبا السرايا ومن كان معه من ولاية الخلافة وهو محمد بن محمد وشي بعض الناس إلى المأمون أن هرثمة راسل أبا السرايا وهو الذي أمره بالظهور ، فاستدعا المأمون إلى مرو فأمر به فضرب بين يديه ووطئ بطنه ثم رفع إلى الحبس ثم قتل بعد ذلك بأيام ، وانطوى خبره بالكافية . ولما وصل خبر قتله إلى بغداد عيشت العامة والحربية بالحسن ابن سهل نائب العراق وقالوا : لا نرضى به ولا بعماله ببلادنا ، وأقاموا إسحاق بن موسى المهدي نائباً ، واجتمع أهل الجانبين على ذلك ، والتفت على الحسن بن سهل جماعة من الأمراء والأجناد ، وأرسل من وافق العامة علي ذلك من الأمراء يحرضهم على القتال ، وجرت الحروب بينهم ثلاثة أيام في شعبان من هذه السنة . ثم اتفق الحلال على أن يعطيهم شيئاً من أرزاقهم ينفقونها في شهر رمضان ، فزال عظمهم إلى ذي القعدة حتى يدرك الزرع ، فخرج في ذي القعدة زيد بن موسى الذي يقال له زيد النار ، وهو أخو أبي السرايا ، وقد كان خروجه هذه المرة بناحية الأنبار ، فبعث إليه علي بن هشام نائب بغداد عن الحسن بن سهل والحسن بالمدائن إذ ذاك فأخذ وأتى به إلى علي ابن هشام ، وأطلق الله نأرتة .

بعث المأمون في هذه السنة يطلب من بقي من العباسيين ، وأحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ، ما بين ذكور وأناث . وفيها قتلت الروم ملكهم اليون ، وقد ملكهم سبع سنين ، وملكوا عليهم ميخائيل نائبه . وفيها قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل ، لأنه قال للمأمون : يا أمير الكافرين . فقتل صبراً بين يديه . وفيها حج بالناس محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد . وفيها توفي من الأعيان :

أسباط بن محمد . وأبو ضرة أنس بن عياض . ومسلم بن قتيبة . وعمر بن عبد الواحد . وابن أبي فديك . ومبشر بن إسماعيل . ومحمد بن جبير . ومماذ بن هشام .

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين

فبها راود أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك ، فراودوه على أن يكون نائبا للمأمون يدعوه في الخطبة فأجابهم إلى ذلك ، وقد أخرجوا على بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين أظهرهم بعد أن جرت حروب كثيرة بسبب ذلك . وفيها عم البلاء بالعيارين والشطار والفساق ببغداد وما حولها من القرى ، كانوا يأتون الرجل يسألونه مالا يقرضهم أو يضلهم به فيمتنع عليهم فيأخذون جميع ما في منزله ، وربما تعرضوا للغلمان والنسوان ، ويأتون أهل القرية فيستاقون من الأتعام والمواشي ويأخذون ما شاؤوا من الغلمان والنسوان ، ونهبوا أهل قطر بل ولم يدعوا لهم شيئا أصلا ، فانتدب لهم رجل يقال له خالد الدريوش ، وآخر يقال له سهل بن سلامة أبو حاتم الأنصاري من أهل خراسان . والتف عليهم جماعة من العامة فكفروا شرهم وقاتلوهم ومنعواهم من الفساد في الأرض ، واستقرت الأمور كما كانت ، وذلك في شعبان ورمضان . وفي شوال منها رجع الحسن بن سهل إلى بغداد وصالح الجند ، وانفصل منصور بن المهدي ومن وافقه من الأمراء . وفيها بايع المأمون لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب أن يكون ولي العهد من بعده ، وسماه الرضى من آل محمد ، وطرح لبس السواد وأمر بلبس الخضرة ، فلبسها هو وجنده ، وكتب بذلك إلى الآفاق والأقاليم ، وكانت مبايعته له يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، وذلك أن المأمون رأى أن عليا الرضى خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في عمله ودينه ، فجعله ولي عهده من بعده .

بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي

لما جاء الخبر أن المأمون بايع لعلي الرضى بالولاية من بعده اختلفوا فيما بينهم ، فمن مجيب مبايع ، ومن آب ممانع ، وجمهور العباسيين على الامتناع من ذلك ، وقام في ذلك ابننا المهدي إبراهيم ومنصور ، فلما كان يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذى الحجة أظهر العباسيون البيعة لإبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك . وكان أسود اللون . ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي ، وخلصوا المأمون . فلما كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذى الحجة أرادوا أن يدعوا للمأمون ثم من بعده لإبراهيم فقالت العامة : لا تدعوا إلا إلى إبراهيم فقط ، واختلفوا واضطربوا فيما بينهم ، ولم يصلوا الجمعة ، وصلى الناس فرادى أربع ركعات .

وفيها افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد اللارز والشيرز . وذكر ابن حزم أن سلما الخراس

قال في ذلك شعرا . وقد ذكر ابن الجوزي وغيره أن مسلماً توفي قبل ذلك بسبعين فأنه أعلم .
 وفيها أصاب أهل خراسان والري وأصبهان جماعة شديدة وغلا الطعام جداً . وفيها تحرك بابك
 الخرمي واتبعه طوائف من السفلة والجهلة وكان يقول بالناسخ . وسيأتي ما آل أمره إليه . وفيها حج
 بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي .
 وفيها توفي من الأعيان : أبو أسامة حماد بن أسامة . وحماد بن مسعدة وحرسي بن عمارة .
 وعلي بن عاصم . ومحمد بن محمد صاحب أبي السرايا الذي قد كان يابيه أهل الكوفة بعد ابن طباطبا .

ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين

في أول يوم منها بويج لبراهيم بن المهدي بالخلافة بيقداد وخلع المأمون ، فلما كان يوم الجمعة
 خامس المحرم صعد إبراهيم بن المهدي المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك ، وغلب على الكوفة وأرض
 السواد ، وطلب منه الجند أرزاقهم فمأطلمهم ثم أعطاهم مائتي درهم لكل واحد ، وكتب لهم بنوعويض
 من أرض السواد ، فخرجوا لا يملكون بشيء إلا انتهبوا ، وأخذوا حاصل الفلاح والسلطان ، واستتاب
 على الجانب الشرقي العباس بن موسى الهادي ، وعلى الجانب الغربي إسحاق بن موسى الهادي .
 وفيها خرج خارجي يقال له مهدي بن علوان ، فبعث إليهم إبراهيم جيشاً عليهم أبو إسحاق المعتصم
 ابن الرشيد في جماعة من الأمراء فكسره ورد كيده . وفيها خرج أخو أبي السرايا فيبيض بالكوفة
 فأرسل إليه إبراهيم بن المهدي من قاتله فقتل أخو أبي السرايا وأرسل برأسه إلى إبراهيم ، ولما كان
 ليلة أربع عشرة من ربيع الآخر من هذه السنة ظهرت في السماء حمرة ثم ذهبت وبقي بعدها
 عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل ، وجرت بالكوفة حروب بين أصحاب إبراهيم وأصحاب
 المأمون ، واقتتلوا قتالاً شديداً . وعلى أصحاب إبراهيم السواد ، وعلى أصحاب المأمون الخضر ،
 واستمر القتال بينهم إلى أواخر رجب .

وفيها ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوع فسجنه ، وذلك أنه التفت عليه جماعة من الناس
 يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن كانوا قد جاوزوا الحد وأنكروا على السلطان
 ودعوا إلى القيام بالكتاب والسنة ، وصار باب داره كأنه باب دار السلطان ، عليه السلاح والرجال
 وغير ذلك من أهبة الملك ، فقاتله الجند فكسروا أصحابه فألقى السلاح وصار بين النساء والنظارة
 ثم اختفى في بعض الدور ، فأخذ وجي به إلى إبراهيم فسجنه سنة كاملة . وفيها أقبل المأمون من
 خراسان قاصداً العراق ، وذلك أن علي بن موسى الرضي أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتن
 والاختلاف بارض العراق ، وبأن الهاشميين قد أقبلوا إلى الناس بأن المأمون مسحور ومسجون ،
 وأنهم قد تقوموا عليك ببيعتك لعلي بن موسى ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وبين إبراهيم

ابن المهدي . فاستدعى المأمون بجماعة من أمرائه وأقربائه فسألهم عن ذلك فصدقوا علياً فيما قال ، بعد أخذهم الأمان منه ، وقالوا له : إن الفضل بن سهل حسن لك قتل هرثة ، وقد كان ناصحاً لك . فمأجله بقتله ، وإن طاهر بن الحسين مهد لك الأمور حتى قاد إليك الخلافة بزمامها فطردته إلى الرقة ففقد لأعماله ولا تستنمضه في أمر ، وإن الأرض تفتت بالشرور والفتن من أقطارها . فلما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ، وقد فطن الفضل بن سهل بما تنمأ عليه أولئك الناصحون ، فضرب قوماً وتنفح لحي بعضهم . وسار المأمون فلما كان بسر خس عدا قوم على الفضل بن سهل وزير المأمون وهو في الحمام فقتلوه بالسيوف ، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شوال وله ستون سنة ، فبعث المأمون في آثارهم فحسب بهم وهم أربعة من المماليك فقتلهم ، وكتب إلى أخيه الحسن بن سهل يعزیه فيه ، وولاه الوزارة مكانه ، وارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر نحو العراق وإبراهيم بن المهدي بالمداين ، وفي مقابلته جيش يقاتلونه من جهة المأمون .

وفيها تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، وزوج علي بن موسى الرضى بابنته أم حبيب وزوج ابنه محمد بن علي بن موسى بابنته الأخرى أم الفضل . وحج بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو علي الرضى ، ودعا لأخيه بعد المأمون ، ثم انصرف بعد الحج إلى اليمن ، وقد كان تغلب عليها حمدويه بن علي بن موسى بن ماهان . وفيها توفي : أيوب بن سويد . وضمرة . وعمر بن حبيب . والفضل بن سهل الوزير . وأبو يحيى الحاماني .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين

فيها وصل المأمون العراق ومر بطوس فنزل بها وأقام عند قبر أبيه أياماً من شهر صفر ، فلما كان في آخر الشهر أكل علي بن موسى الرضى عنبا فمات فجأة فصلى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد ، وأسف عليه أسفاً كثيراً فيما ظهر ، وكتب إلى الحسن بن سهل يعزیه فيه ويخبره بما حصل له من الحزن عليه ، وكتب إلى بني العباس يقول لهم : إنكم إنما نعمتم علي بسبب توليتي المهدي من بعدى لعلي بن موسى الرضى ، وها هو قد مات فارجموا إلى السمع والطاعة . فأجابوه بأغلظ جواب كتب به إلى أحد . وفيها تغلبت الثوار على الحسن بن سهل حتى قيد بالحديد وأودع في بيت ، فكتب الأمراء بذلك إلى المأمون ، فكتب إليهم إني واصل علي إثر كتابي هذا . ثم جرت حروب كثيرة بين إبراهيم وأهل بغداد ، وتنكروا عليه وأبغضوه . وظهرت الفتن والشطار والنفاق ببغداد وتفاقم الحال ، وصلوا يوم الجمعة ظهراً ، أمهم المؤذنون فيها من غير خطبة ، صلوا أربع ركعات ، واشتد الأمر واختلف الناس فيما بينهم في إبراهيم والمأمون ، ثم غلبت المأمونية عليهم .

خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي

لما كان يوم الجمعة المقبلة دعا الناس المأمون وخلعوا إبراهيم ، وأقبل حميد بن عبد الحميد في جيش

من جهة المأمون فحاصر بغداد . وطمع جندها في العطاء إذا قدم فطاوعوه على السمع والطاعة للأمرن .
وقد قاتل عيسى بن محمد بن أبي خالد في جماعة من جهة إبراهيم بن المهدي ، ثم احتال عيسى حتى
صار في أيدي المأمونية أسيراً ، ثم آل الحال إلى اختفاء إبراهيم بن المهدي في آخر هذه السنة .
وكانت أيامه سنة وإحدى عشر شهراً وإحدى عشر يوماً . وقدم المأمون في هذا الوقت إلى همدان
وجيوشه قد استنقذوا بغداد إلى طاعته . وحجج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان
ابن علي . وفيها توفي من الأعيان :

علي بن موسى

ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، القرشي الهاشمي العلوي الملقب
بالرضي ، كان المأمون قد هم أن ينزل له عن الخلافة فأنى عليه ذلك ، فجعله ولي العهد من بعده كما
قدمنا ذلك . توفي في صفر من هذه السنة بطوس . وقد روى الحديث عن أبيه وغيره ، وعنه جماعة
منهم المأمون وأبو السلط الهروي وأبو عثمان المازني النحوي ، وقال سمعته يقول : الله أعدل من أن
يكلف العباد مالا يطيقون ، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون . ومن شعره :

كلنا يأملُ مدأً في الأجلِ * والمنايا هنُ آفاتُ الأملِ
لا تفرنكُ أباطيلُ المنى * والزمُ القصدُ ودع عنك العلالُ
إنما الدنيا كظلٍ زائلٍ * حلَّ فيه راكبٌ ثم ارتحلُ

ثم دخلت سنة أربع ومائتين

فيها كان قدوم المأمون أرض العراق ، وذلك أنه مر بمرجان فأقام بها شهراً ، ثم سار منها وكان
ينزل في المنزل يوماً أو يومين ، ثم جاء إلى النهروان فأقام بها ثمانية أيام ، وقد كتب إلى طاهر بن
الحسين وهو بالرقعة أن يوافيه إلى النهروان فوافاه بها وتلقاه رؤس أهل بيته والقواد وجمهور الجيش ،
فلما كان يوم السبت الآخر دخل بغداد حين ارتفع النهار لأربع عشرة ليلة خلت من صفر ، في
أهبة عظيمة وجيش عظيم ، وعليه وعلى جميع أصحابه وفتيانه الخضرة ، فلبس أهل بغداد وجميع
بنو هاشم الخضرة ، ونزل المأمون بالرصافة ثم تحول إلى قصر علي دجلة ، وجعل الأمراء ووجوه
الدولة يترددون إلى منزله على العادة ، وقد تحول لباس البغاددة إلى الخضرة ، وجعلوا يحرقون كل
ما يجدونه من السواد ، فكثروا كذلك ثمانية أيام . ثم استعرض حواشي طاهر بن الحسين فكان
أول حاجة سألها أن يرجع إلى لباس السواد ، فانه لباس آباءه من دولة ورثة الأنبياء . فلما كان
السبت الآخر وهو الثامن والعشرين من صفر جلس المأمون للناس وعليه الخضرة ، ثم إنه أمر بمخلعة
سوداء فلبسها طاهراً ، ثم ألبس بعده جماعة من الأمراء السواد ، فلبس الناس السواد وعادوا إلى

ذلك ، فلم منهم بذلك الطاعة والموافقة ، وقيل إنه مكث يلبس الخضر بعد قدومه بغداد سبعا وعشرين يوماً ، فإله أعلم .

ولما جاء إليه عمه إبراهيم بن المهدي بعد اختفائه ست سنين وشهوراً قال له المأمون : أنت الخليفة الأسود ، فأخذ في الاعتذار والاستغفار ، ثم قال : أنا الذي مننت عليه يا أمير المؤمنين بالعمو ، وأنشد المأمون عند ذلك :

ليس بزري السواد بالرجل الشهم * ولا بالفق الأديب الأريب

إن يكن للسواد منك نصيب * فبياض الأخلاق منك نصيب

قال ابن خلكان : وقد نظم هذا المعنى بعض المتأخرين وهو نصر الله بن قلانس الاسكندري

قال : رب سوداء وهي بياض فعل * حسد المسك عندها الكفور

مثل حب العيون بحسبه الناس * سواداً وإنما هو نور

وكان المأمون قد شاور في قتل عمه إبراهيم بن المهدي بعض أصحابه فقال له أحمد بن خالد الوزير

الأحول : يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء في ذلك ، وإن عفوت عنه فما لك نظير . ثم شرع

المأمون في بناء قصور على دجلة إلى جانب قصره ، وسكنت الفتن وانزاحت الشرور ، وأمر بتاسمة

أهل السواد على الحسين ، وكانوا يقاسمون على النصف . وأخذ القفيز الملاحم وهو عشرة مكاي

بالمكوك الأهوازي ، ووضع شيئاً كثيراً من خراجات بلاد شتى ، ورفق بالناس في مواضع كثيرة ،

وولى أخاه أبا عيسى بن الرشيد الكوفة ، وولى أخاه صالحاً البصرة ، وولى عبيد الله بن الحسين

ابن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب نيابة الحرمين ، وهو الذي حج بالناس فيها . وواقع

بجبي بن معاذ بابك الخرمي فلم يظفر به . وفيها توفي من الأعيان جماعة منهم :

أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي

وقد أوردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا طبقات الشافعيين ، ولندكر ههنا ما خصاً من ذلك

وبالله المستعان .

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم

ابن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، القرشي المطلبي ، والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر ، وابنه شافع

ابن السائب من صفار الصحابة ، وأمه أزدية . وقد رأت حين حملت به كأن المشركى خرج من

فرجها حتى انقض بمصر ، ثم وقع في كل بلد منه شظية . وقد ولد الشافعي بقرية ، وقيل بمسقلان ،

وقيل باليمن سنة خمسين ومائة ، ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين لئلا يضيع

نسبه ، فنشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر ، وأفتى وهو ابن

خمس عشرة سنة . وقيل ابن ثمانى عشرة سنة ، أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي ، وعنى باللغة والشعر ، وأقام في هذيل نحواً من عشر سنين ، وقيل عشرين سنة ، فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها ، وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ والأئمة ، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبه قراءته وهنئه ، وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي . وروى عنه خلق كثير قد ذكرنا أسماءهم مرتبين على حروف المعجم ، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبيل عن ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله (ص) عن جبريل عن الله عز وجل .

وأخذ الشافعي الفقه عن مسلم بن خالد عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، منهم عمرو بن علي وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم . وكلامهم عن رسول الله (ص) . وثقته أيضاً على مالك عن مشايخه ، وثقته به جماعة قد ذكرناهم ومن بعدهم إلى زماننا في تصنيف مفرد . وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي بشر الدولابي عن محمد بن إدريس وراق الحميدي عن الشافعي أنه ولي الحكم بنجران من أرض اليمن ، ثم تعصبوا عليه وشوا به إلى الرشيد أنه يروم الخلافة . فحمل على بغل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة ، فاجتمع بالرشيد فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد ، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن ، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه ، وأنزله محمد بن الحسن عنده . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة ، وقيل بسنتين ، وأكرمه محمد بن الحسن وكتب عنه الشافعي وقر بعير ، ثم أطلق له الرشيد ألفي دينار وقيل خمسة آلاف دينار . وعاد الشافعي إلى مكة ففرق عامة ما حصل له في أهله وذوي رحمه من بني عمه ، ثم عاد الشافعي إلى العراق في سنة خمس وتسعين ومائة ، فاجتمع به جماعة من العلماء هذه المرة منهم أحمد بن حنبل وأبو ثور والحسين بن علي الكرايبي ، والحارث بن شريح البقال ، وأبو عبد الرحمن الشافعي ، والزعفراني ، وغيرهم . ثم رجع إلى مكة ثم رجع إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة ، ثم انتقل منها إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في هذه السنة ، سنة أربع ومائتين . وصنف بها كتابه الأم وهو من كتبه الجديدة لأنها من رواية الربيع ابن سليمان ، وهو مصري . وقد زعم إمام الحرمين وغيره أنها من القديم ، وهذا بعيد وعجيب من مثله والله أعلم .

وقد أثنى على الشافعي غير واحد من كبار الأئمة منهم عبد الرحمن بن مهدي وسأله أن يكتب له كتاباً في الأصول فكتب له الرسالة ، وكان يدعو له في الصلاة دائماً ، وشيخه مالك بن أنس وقتيبة ابن سعيد . وقال : هو إمام . وسفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وكان يدعو له أيضاً في

صلاته . وأبو عبيد ، وقال : ما رأيت أفصح ولا أعتل ولا أورع من الشافعي . وبجى بن اكنم القاضي ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن الحسن ، وغير واحد ممن يطول ذكرهم وشرح أقوالهم . وكان أحمد بن حنبل يدعو له في صلاته نحواً من أربعين سنة ، وكان أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود من طريق عبد الله بن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد عن أبي غلقمة عن أبي هريرة عن النبي (س) : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . قال فعمربن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، والشافعي على رأس المائة الثانية . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا جعفر بن سليمان عن نصر بن معبد الكندي - أو العبدى - عن الجارود عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (س) : « لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً ، اللهم إنك إذ أذقت أولها عذاباً ووبالاً فأذق آخرها نوالاً » . وهذا غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الحاكم في مستدرکه عن أبي هريرة عن النبي (س) بنحوه . قال أبو نعيم عبد الملك بن محمد الاسفراييني : لا ينطبق هذا إلا على محمد بن إدريس الشافعي . حكاه الخطيب . وقال بجى بن معين عن الشافعي : هو صدوق لا بأس به . وقال مرة : لو كان الكذب له مباحاً مطلقاً لكانت مروءته تمنعه أن يكذب . وقال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول : الشافعي فقيه البدن ، صدوق اللسان . وحكى بعضهم عن أبي زرعة أنه قال : ما عند الشافعي حديث غلط فيه . وحكى عن أبي داود نحوه .

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة - وقد سئل هل سنة لم تبلغ الشافعي ؟ - فقال : لا . ومعنى هذا أنها تارة تبلغه بسندها ، وتارة مرسله ، وتارة منقطعة كما هو الموجود في كتبه والله أعلم . وقال حرمله : سمعت الشافعي يقول : سميت ببغداد ناصر السنة . وقال أبو ثور : ما رأينا مثل الشافعي ولا هو رأى مثل نفسه . وكذا قال الزعفراني وغيره . وقال داود بن علي الظاهري في كتاب جمعه في فضائل الشافعي : للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره ، من شرف نسبه ، وصحة دينه ومعتقده ، وسخاوة نفسه ، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه ، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف ، وجودة الأصحاب والتلامذة ، مثل أحمد بن حنبل في زهده وورعه ، وإقامته على السنة . ثم سرد أعيان أصحابه من البغدادية والمصريين ، وكذا عد أبو داود من جملة تلاميذه في الفقه أحمد بن حنبل . وقد كان الشافعي من أعلم الناس بعاني القرآن والسنة ، وأشد الناس نزعاً للدلائل منها ، وكان من أحسن الناس قصداً وإخلاصاً ، كان يقول : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إلى شيء منه أبداً فأوجر عليه ولا يحمدوني . وقد قال غير واحد عنه : إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله (س) ، فقولوا به ودعوا قولي ، فإني أقول به ، وإن لم تسمعوا مني .

وفي رواية فلا تقلدوني . وفي رواية فلا تلتفتوا إلى قولي . وفي رواية فاضربوا بقولي عرض الحائط ، فلا قول لي مع رسول الله (س) . وقال : لأن ياتي الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء . وفي رواية خير من أن يلقاه بعلم الكلام . وقال : لو علم الناس مافي الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد . وقال : حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجرید ، ويطاف بهم في القبائل وينادي عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقال البويطي : سمعت الشافعي يقول : عليكم بأصحاب الحديث فانهم أكثر الناس صواباً . وقال : إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله (س) ، جزاء الله خيراً ، حفظوا لنا الأصل ، فلهم علينا الفضل . ومن شعره في هذا المعنى قوله :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة * إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا * وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وكان يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر . وقد روى عن الربيع وغير واحد من رؤس أصحابه ما يدل على أنه كان يبر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ، على طريقة السلف . وقال ابن خزيمة : أنشدني المزني

وقال أنشدنا الشافعي لنفسه قوله :

ما شئتَ كانَ وإن لم أشأ * وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العبادَ على ما علمتَ * ففي العلمِ يجرى الفتى والمسئ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ * ومنهم قبيحٌ ومنهم حسنٌ
على ذا مننتَ وهذا خذاتٌ * وهذا أعنتَ وذا لم تعن

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : أفضل الناس بعد رسول الله (س) ، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي . وعن الربيع قال : أنشدني الشافعي :

قد عوجَ الناسَ حتى أحدثوا بدعاً * في الدينِ بالرأي لم تبعثَ بها الرسلُ
حتى استخفَ بحقِ الله أكثرهم * وفي الذي حملوا من حقهِ شغلٌ

وقد ذكرنا من شعره في السنة وكلامه فيها وفيما قال من الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول طبقات الشافعية . وقد كانت وفاته بمصر يوم الخميس ، وقيل يوم الجمعة ، في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ، وعن أربع وخمسين سنة ، وكان أبيض جميلاً طويلاً مهيباً يخضب بالحناء ، مخالفاً للشيعة رحمه الله وأكرم مثواه .

وفيهما توفي : إسحاق بن الفرات . وأشهب بن عبد العزيز المصري المالكي . والحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي الحنفي . وأبو داود سليمان بن داود الطيالسي صاحب المسند ، أحد الحفاظ . وأبو بدر شجاع بن الوليد . وأبو بكر الحنفي . وعبد الكريم . وعبد الوهاب بن عطا الخفاف . والنضر بن شمير أحد أئمة اللغة . وهشام بن محمد بن السائب الكلابي أحد علماء التاريخ .

ثم دخلت سنة خمس ومائتين

فيها ولى المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب نيابة بغداد والعراق وخراسان إلى أقصى عمل المشرق ، ورضى عنه ورفع منزلته جداً ، وذلك لأجل مرض الحسن بن سهل بالسواد . وولى المأمون مكان طاهر على الرقة والجزيرة يحيى بن معاذ . وقدم عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى بغداد في هذه السنة ، وكان أبوه قد استخلفه على الرقة وأمره بمقاتلة نصر بن شبث . وولى المأمون عيسى ابن يزيد الجلودي مقاتلة الزط . وولى عيسى بن محمد بن أبي خالد أذربيجان . ومات نائب مصر السري بن الحكم بها . ونائب السند داود بن يزيد ، فولى مكانه بشر بن داود على أن يحمل إليه في كل سنة ألف ألف درهم . وحج بالناس فيها عبید الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيها توفي من الأعيان : إسحاق بن منصور السلولي . وبشر بن بكر الدمشقي . وأبو عامر العقدي . ومحمد بن عبید الطنافسي . ويعقوب الحضري . وأبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية ، وقيل عبد الرحمن ابن أحمد بن عطية ، وقيل عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الداراني ، أحد أئمة العلماء العاملين ، أصله من واسط سكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا .

وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره ، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وجماعة . وأسند الحفاظ ابن عساكر من طريقه قال : سمعت علي بن الحسن بن أبي الربيع الزاهد يقول سمعت إبراهيم بن آدم يقول سمعت ابن عجلان يذكر عن القعقاع بن حكيم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله - ص - : « من صلى قبل الظهر أربعمائة غفر الله ذنوبه يومه ذلك » . وقال أبو القاسم القشيري : حكى عن أبي سليمان الداراني قال : اختلفت إلى مجلس قاص فأتى كلامه في قلبي ، فلما قلت لم يبق في قلبي منه شيء ، فعدت إليه ثانية فأتى كلامه في قلبي بعد ما قلت وفي الطريق ، ثم عدت إليه ثالثة فأتى كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي ، فكسرت آلات المخالفة ولزمت الطريق ، فحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال : عصفور اصطاد كركيا - يعني بالعصفور القاص وبالكركي أبا سليمان - وقال أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول : ليس لمن أهتم شيئاً من الخبر أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر ، فإذا سمع به في الأثر عمل به فكان نوراً على نور . وقال الجنيد قال أبو سليمان ربما يقع في قلبي النسكنة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة .

قال : وقال أبو سليمان : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس . وقال لكل شيء علم وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله . وقال : لكل شيء صداً وصداً نور القلب شبع البطن . وقال كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو شؤم . وقال : كنت ليلة في المحراب أدعو ويدي ممدودتان فغلبني البرد فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبسوطة أدعو بها ، وغلبتني عيني فمت فهتف بي هاتف : يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها . قال : فأليت على نفسي ألا أدعو إلا ويدي خارجتان ، حرّاً كان أو برداً . وقال : نمت ليلة عن وردى فإذا أنا بحوراء تقول لي : تنام وأنا أربي لك في الخدور منذ خمسمائة عام ؟ وقال أحمد بن أبي الخوارى سمعت أبا سليمان يقول : إن في الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهن الحور ، ينشئ الله خلق الحوراء إنشاء ، فإذا تكامل خلقها ضربت الملائكة عليهم الخيام ، الواحدة منهن جالسة على كرسى من ذهب ميل في ميل ، قد خرجت عجيزتها من جانب الكرمى ، فيجىء أهل الجنة من قصورهم يتزهون على شاطئ تلك الأنهار ما شاؤوا ثم يخلو كل رجل بواحدة منهن . قال أبو سليمان : كيف يكون في الدنيا حال من يريد اقتضاض الأبرار على شاطئ تلك الأنهار في الجنة .

وقال : سمعت أبا سليمان يقول : ربما مكثت خمس ليال لا أقرأ بعد الفاتحة بآية واحدة أتفكر في معانيها ، ولربما جاءت الآية من القرآن فيطير العقل ، فسبحان من يردده بعد . وسمعت يقول : أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل ، ومفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع . وقال لي يوماً : يا أحمد جوع قليل وعري قليل وفقير قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا . وقال أحمد : اشتهى أبو سليمان يوماً رغيفاً حاراً بملح فجثته به فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي ويقول : يارب عجبات لي شهوتي ، لقد أطأت جهدي وشهوتي وأنا نائب ؟ فلم يذق الملح حتى لحق بالله عز وجل . قال : وسمعت يقول : ما رضيت عن نفسي طرفة عين ، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعوني كأتضاعى عند نفسي ما قدروا . وسمعت يقول : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة . وسمعت يقول : من حسن ظنا بالله ثم لم يخفه ويطعه فهو مخدوع . وقال : ينبغي للخوف أن يكون على العبد أغلب الرجاء ، فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب . وقال لي يوماً : هل فوق الصبر منزلة ؟ فقالت : نعم - يعني الرضا - فصرخ صرخة غشى عليه ثم أفاق فقال : إذا كان الصابرون يوفون أجرهم بغير حساب ، فما ظنك بالآخرى وهم الذين رضى عنهم . وقال : ما يسرنى أن لي الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها أنفقته في وجوه البر ، وإني أغفل عن الله طرفة عين . وقال : قال زاهد زاهد : أوصني ، فقال : لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ، فقال : زدني . فقال : ما عندي زيادة . وقال من أحسن في نهاره كوفي في ليله ، ومن أحسن في ليله كوفي في نهاره ، ومن صدق في

ترك شهوة أذهبها الله من قلبه ، والله أكرم من أن يمدب قلباً بشهوة تركت له . وقال : إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة ، وإذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تراحمها ، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة ، لأن الدنيا لثيمة والآخرة كريمة ، وما ينبغي لكريم أن يراحم لثيمها . وقال أحمد بن أبي الخوارى : بت ليلة عند أبي سليمان فسمعته يقول : وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك ، وإن طالبتني ببغضك لأطالبنك بكرمك ، وإن أمرتني بالحق ما شئت من غيري . وكان يقول : لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي . وكان يقول : ما خلق الله خلقاً أهون عليّ من إبليس ، ولولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً ، ولو تبدى لي ما علمت إلا صفحة وجهه . وقال : إن اللص لا يجيئ إلى خربة ينقب حيطانها وهو قادر على الدخول إليها من أي مكان شاء ، وإنما يجيئ إلى البيت المعمور ، كذلك إبليس لا يجيئ إلا إلى كل قلب عامر ليستنزهه وينزله عن كرسيه ويسلبه أعز شئ . وقال : إذا أخلص العبد انقطعت عنه الوسوس والرؤيا . وقال : الرؤيا - يعني الجنابة - وقال : مكثت عشرين سنة لم أحتلم فدخلت مكة فماتتني صلاة العشاء جماعة فاحتلمت تلك الليلة . وقال : إن من خلق الله قوماً لا يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون بالدنيا عنه ؟ وقال : الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة فما الزهد فيها ، وإنما الزهد في الجنان والخور العين ، حتى لا يرى الله في قلبك غيره . وقال الجنيد : شئ يروى عن أبي سليمان أنا استحسنته كثيراً قوله : من اشتغل بنفسه شغل عن الناس ، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس . وقال : خير السخاء ما وافق الحاجة . وقال : من طلب الدنيا حلالاً واستغناء عن المسألة واستغناء عن الناس لقي الله يوم يلقاه ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ومن طلب الدنيا حلالاً مفاخرًا ومكائراً لقي الله يوم يلقاه وهو عليه غضبان . وقد روى نحو هذا مرفوعاً . وقال : إن قوماً طلبوا الغنى في المال وجمعه فأخطأوا من حيث ظنوا ، ألا وإنما العنى في القناعة ، وطلبوا الراحة في الكثرة وإنما الراحة في القلة ، وطلبوا الكرامة من الخلق وإنما هي في التقوى ، وطلبوا التمتع في اللباس الرقيق اللين ، والطعام الطيب ، والمسكن الأنيق المنيف ، وإنما هو في الإسلام والإيمان والعمل الصالح والستر والعافية وذكر الله . وقال : لولا قيام الليل ما أحببت البقاء في الدنيا وما أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا الكرى الأنهار . وإنما أحبها لصيام الهواجر وقيام الليل . وقال : أهل الطاعة في ليالهم أدمن أهل اللهو في لهوهم . وقال : ربما استقبلني الفرح في جوف الليل ، وربما رأيت القلب يضحك ضحكاً . وقال : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً فأقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم انى عيش طيب .

وقال أحمد بن أبي الخوارى : سمعت أبا سليمان يقول : بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النوم فاذا

أنا بها - يعني الحوراء - قد ركضتني برجلها فقالت : حبيبي أترقد عينك والملك يقظان ينظر إلى
 المتهجدين في تهجدهم ؟ يؤسا لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز ، قم فقد دنا الفراغ ولقي
 المحبون بعضهم بعضاً ، فما هذا الرقاد ؟ حبيبي ورقة عيني أترقد عينك وأنا أترب لك في الحدود منذ
 كذا وكذا ؟ قال : فوثبت فزعا وقد عرقت حياه من توبيخها إياي ، وإن حلاوة منطقتها التي سمى
 وقلبي . وقال أحمد : دخلت على أبي سليمان فاذا هو يبكي فقلت : مالك ؟ فقال : زجرت البارحة
 في منامي . قلت : ما الذي زجرك ؟ قال : بينا أنا نائم في محرابي إذ وقفت على جارية تفوق الدنيا
 حسناً ، ويدها ورقة وهي تقول : أتنام يا شيخ ؟ فقلت : من غابت عينه نام قالت : كلا إن طالب
 الجنة لا ينام ، ثم قالت : أترأ ؟ قلت : نعم ، فأخذت الورقة من يدها فاذا فيها مكتوب :

لَهتْ بِكَ لَذَّةً عَنْ حَسَنِ عَيْشٍ * مَعَ الْخَيْرَاتِ فِي غَرَفِ الْجَنَانِ
 تَعِيشُ مَخْلُوداً لَا مَوْتَ فِيهَا * وَتَنَعَمُ فِي الْجَنَانِ مَعَ الْحَسَانِ
 تَيْقِظُ مِنْ مَنَامِكَ إِنْ خَيْرًا * مِنَ النَّوْمِ التَّهْجِدِ فِي الْقِرَانِ

وقال أبو سليمان : أما يستحي أحدكم أن يلبس عباءة بثلاثة دراهم وفي قلبه شهوة بخمسة دراهم ؟
 وقال أيضاً : لا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات في قلبه ، فاذا لم يبق في قلبه شيء من
 الشهوات جازله أن يظهر إلى الناس الزهد بلبس العبا فانها علم من أعلام الزهاد ، ولو لبس ثوبين
 أبيضين ليستر بهما أبصار الناس عنه وعن زهده كان أسلم زهده من لبس العبا . وقال : إذا رأيت
 الصوفي يتنوق في لبس الصوف فليس بصوفي : وخيار هذه الأمة أصحاب القطن ، أبو بكر الصديق
 وأصحابه ، وقال غيره : إذا رأيت ضوء الفقير في لباسه فاعسل يديك من فلاحه . وقال أبو سليمان : الأخ
 الذي يعظك برؤيته قبل كلامه ، وقد كنت أنظر إلى الأخ من أصحابي بالعراق فانتفع برؤيته شهراً .
 وقال أبو سليمان قال الله تعالى : عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع
 الأرض ذنوبك ومحوت زلاتك من أم الكتاب ولم أناقشك الحساب يوم القيامة . وقال أحمد : سألت
 أبا سليمان عن الصبر فقال : والله إنك لا تقدر عليه في الذي تحب فكيف تقدر عليه فيما تكره ؟ وقال
 أحمد تنهدت عنده يوماً فقال : إنك مسؤول عنها يوم القيامة ، فان كانت على ذنب سلف فطوبى لك ،
 وإن كنت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك . وقال إنما رجع من رجع من الطريق قبل وصول ،
 ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا . وقال إنما عصي الله من عصاه لهوانهم عليه ، ولو عزوا عليه وكرموا
 لحجزهم عن معاصيه وحال بينهم وبينها . وقال : جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالاً
 الكرم والحلم والعلم والحكمة والرأفة والرحمة والفضل والصفح والاحسان والبر والعفو والल्प .
 وذكر أبو عبد الرحمن السلي في كتاب عن المشايخ أن أبا سليمان الداراني أخرج من دمشق

وقالوا : إنه يرى الملائكة ويكلمونه ، فخرج إلى بعض الثغور فرأى بعض أهل الشام في منامه أنه إن لم يرجع إليهم هلكوا . فخرجوا في طلبه وتشفعوا له وتذللوا له حتى رده .
وقد اختلف الناس في وفاته على أقوال فتيل : مات سنة أربع ومائتين ، وقيل سنة خمس ومائتين ، وقيل خمس عشرة ومائتين ، وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين فله أعلم . وقد قال مروان الطاطري يوم مات أبو سليمان : لقد أصيب به أهل الإسلام كلهم . قلت : وقد دفن في قرية داريا في قبلتها ، وقبره بها مشهور وعاليه بناء ، وقبلته مسجد بناه الأمير فاضل الدين عمر الزهرواني ، وروى علي المقيمين عند : وفقاً يدخل عليهم منه غلة ، وقد جدد مزاره في زماننا هذا ولم أر ابن عساكر تعرض لموضع دفنه بالكعبة ، وهذا منه عجيب . وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبي الخوارى قال كنت أشتهي أن أرى أبا سليمان في المنام فرأيت به بعد سنة فقلت له : ما فعل الله بك يا معلم ؟ فقال : يا أحمد دخلت يوماً من باب الصغير فرأيت حمل شيخ فأخذت منه عوداً فما أدري تخلت به أرميته ، فأنا في حسابه إلى الآن . وقد توفي ابنه سليمان بعده بنحو من سنتين رحمهما الله تعالى

ثم دخلت سنة ست ومائتين

فيها ولي المأمون داود بن ماسجور بلاد البصرة وكور دجلة والجمامة والبحرين ، وأمره بمحاربة الزط . وفيها جاء مد كثير ففرق أرض السواد وأهلك للناس شيئاً كثيراً . وفيها ولي المأمون عبد الله ابن طاهر بن الحسين أرض الرقة وأمره بمحاربة نصر بن شبث ، وذلك أن فائها يحيى بن معاذ مات وقد كان استخلف مكانه ابنه أحمد فلم يمض ذلك المأمون ، واستناب عليها عبد الله بن طاهر لشهامته وبصره بالأموور ، وحته على قتال نصر بن شبث ، وقد كتب إليه أبوه من خراسان بكتاب فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع الكتاب والسنة . وقد ذكر ابن جرير بطوله ، وقد تداوله الناس بينهم واستحسنوه وتهادوه بينهم ، حتى بلغ أمره إلى المأمون فأمر فترى بين يديه فاستجاده جداً ، وأمر أن يكتب به نسخ إلى سائر العمال في الأقاليم . وحج بالناس عبید الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيها توفي إسحاق بن بشر الكاهلي أبو حذيفة صاحب كتاب المبتدأ . وحجاج بن محمد الأعور . وداود بن المحبر الذي وضع كتاب العقل . وسبابة بن سوار (شبابة) ومحاضر بن الموردي . وقطرب صاحب المثلث في اللغة . ووهب بن جرير . وبزید بن هارون شيخ الامام أحمد .

ثم دخلت سنة سبع ومائتين

فيها خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عك في اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ، وذلك لما أساء العمال السيرة وظلموا الرعايا ، فلما ظهر بإيمه الناس فبعث إليه المأمون دينار بن عبد الله في جيش كثيف ومعه كتاب أمان لعبد الرحمن هذا إن هو سمع

وأطاع ، فحضروا الموسم ثم ساروا إلى اليمن وبعثوا بالكتاب إلى عبد الرحمن فسمع وأطاع وجاء حتى وضع يده في يد دينار ، فساروا به إلى بغداد ولبس السواد فيها .
وفي هذه السنة توفي طاهر بن الحسين بن مصعب نائب العراق وخراسان بكالها ، وجد في فراشه ميتاً بعد ما صلى العشاء الآخرة والنف في الفراش ، فاستبطناً أهله خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجداه ميتاً ، فلما بلغ موته المأمون قال : لليدين وللنم الحمد لله الذي قدمه وأخرنا . وذلك أنه بلغه أن طاهراً خطب يوماً ولم يدع للمأمون فوق المنبر ، ومع هذا ولي ولده عبد الله مكانه وأضاف إليه زيادة على ما كان ولاه أباه الجزيرة والشام نيابة فاستخلف على خراسان أخاه طلحة بن طاهر سبع سنين ، ثم توفي طلحة فاستقل عبد الله بجميع تلك البلاد ، وكان نائبه على بغداد إسحاق ابن إبراهيم وكان طاهر بن الحسين هو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله ، وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له ، ثم نظر إليه المأمون واغرورقت عيناه فقال له طاهر : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فلم يخبره ، فأعطى طاهر حسينا الخادم مائتي ألف درهم حتى استعلم له مما يبكي أمير المؤمنين فأخبره المأمون وقال لا تخبر به أحداً [أو إلا] أفتلك ، إني ذكرت قتله لأخي وما ناله من الإهانة على يدي طاهر ، ووالله لا تفوته مني . فلما تحقق طاهر ذلك سعى في النقلة من بين يدي المأمون ، ولم يزل حتى ولاه خراسان وأطلق له خادماً من خدامه ، وعهد المأمون إلى الخادم إن رأى منه شيئاً يريه أن يسمه ، ودفع إليه سما لا يطاق . فلما خطب طاهر ولم يدع للمأمون سمه الخادم في كاهن فمات من ليلته . وقد كان طاهر هذا يقال له ذو اليمينين ، وكان أعور بفرد عين . فقال فيه عمرو بن نباتة :

يا ذا اليمينين وعين واحدة * نقصان عين ويمين زائدة

واختلف في معنى قوله ذو اليمينين فقيل لأنه ضرب رجلاً بشماله فقدمه نصفين ، وقيل لأنه ولي العراق وخراسان . وقد كان كرى ممدحا بحب الشعراء ويعطيهم الجزيل ، ركب يوماً في حراقة فقال فيه شاعر : -

عجبت لحراقة ابن الحسين * لا غرقت كيف لا تفرق

وبجران من فوقها واحدة * وآخر من تحنها مطبق

وأعجب من ذلك أعوادها * وقد مسها كيف لا تورق

فأجازه بثلاثة آلاف دينار . وقال إن زدتنا زدناك . قال ابن خلدكان : وما أحسن مقاله بعض

الشعراء في بعض الرؤساء وقد ركب البحر :

ولما امتطى البحر ابتهلت نضرعاً * إلى الله يا مجري الرياح بلطفه

جمعت الندمان كفه مثل وجهه * فسلمه واجمل موجه مثل كفه

مات طاهر بن الحسين هذا يوم السبت لحس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين ، وكان مولده سنة سبع وخمسين ، وكان الذي سار إلى ولده عبد الله إلى الرقة يعزیه في أبيه ويهنيه بولاية تلك البلاد ، القاضي يحيى بن أكنم عن أمر المأمون . وفيها غلا السمر ببغداد والكوفة والبصرة ، حتى بلغ سعر القفيز من الخنطة أربعين درهما . وفيها حج بالناس أبو علي بن الرشيد آخر المأمون . وفيها توفي بشر بن عمر الزهراني . وجعفر بن عون . وعبد الصمد بن عبد الوارث . وقراد ابن نوح . وكثير بن هشام . ومحمد بن كناسه . ومحمد بن عمر الواقدي قاضي بغداد وصاحب السير والمغازي . وأبو النصر هاشم بن القاسم . والهيثم بن عدي صاحب التصانيف .

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور

أبو زكريا الكوفي نزيل بغداد مولى بني سعد المشهور بالفراء شيخ النحاة واللغويين والقراء ، كان يقال له أمير المؤمنين في النحو ، وروى الحديث عن حازم بن الحسن البصري عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك . قال : «قرأ رسول الله (ص) ، وأبو بكر وعمر وعثمان مالك يوم الدين بألف» رواه الخطيب قال : وكان ثقة إماماً . وذكر أن المأمون أمره بوضع كتاب في النحو فأملأه وكتبه الناس عنه ، وأمر المأمون بكتبه في الخزانة ، وأنه كان يؤدب ولديه ولي العهد من بعده ، فقام يوماً فابتدراه أيهما يقدم نعليه ، فتنازعا في ذلك ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما زملاً ، فأطلق لهما أبوهما عشرين ألف دينار ، والفراء عشرة آلاف درهم . وقال له : لا أعزمنك إذ يقدم نعليك ولدا أمير المؤمنين ووليا العهد من بعده . وروى أن بشر المريسي أو محمد بن الحسن سأل الفراء عن رجل سها في سجدتي السهو فقال : لا شيء عليه . قال : ولم ؟ قال : لأن أصحابنا قالوا المصغر لا يصغر . فقال : ما رأيت أن امرأة تلد مثلك . والمشهور أن محمداً هو الذي سأله عن ذلك وكان ابن خالة الفراء ، وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي : توفي الفراء سنة سبع ومائتين . قال الخطيب : كانت وفاته ببغداد ، وقيل بطريق مكة ، وقد امتدحوه وأثنوا عليه في مصنفاته .

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

فيها ذهب الحسن بن الحسين بن مصعب أخو طاهر فارا من خراسان إلى كرمان فعصى بها ، فسار إليه أحمد بن أبي خالد فحاصره حتى نزل قهراً ، فذهب به إلى المأمون فعفا عنه فاستحسن ذلك منه . وفيها استعفى محمد بن سماعة من القضاء فأعفاه المأمون وولى مكانه إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة . وفيها ولى المأمون محمد بن عبد الرحمن الخزومي القضاء بمسكن المهدي في شهر المحرم ، ثم عزله عن قريب وولى مكانه بشر بن سعيد بن الوايد الكندي في شهر ربيع الأول منها . فقال الخزومي في ذلك : -

ألا أيها الملك الموحد ربه • قاضيك بشر بن الوليد حمار
ينفي شهادة من يدين بما به • نطق الكتاب وجاءت الأخبار
ويعد عدلاً من يقول بانه • شيخ نحيط بجسمه الأقطار

وفيها حج بالناس صالح بن هارون الرشيد عن أمر أخيه المأمون .

وفيها توفي من الأعيان : الأسود بن عامر . وسعيد بن عامر . وعبد الله بن بكر أحمد مشايخ
الحديث . والفضل بن الربيع الحاجب . ومحمد بن مصعب . وموسى بن محمد الأمين الذي كان قد
ولاه المهدي من بعده ولقبه بالناطق فلم يتم له أمره حتى قتل أبوه وكان ما كان كما تقدم . وبجى بن
أبي بكر . وبجى بن حسان . ويعقوب بن إبراهيم الزهرى . ويونس بن محمد المؤدب .

وفاة السيدة نفيسة

وهي نفيسة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، القرشية الهاشمية ،
كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنين ، ثم غضب المنصور عليه فعزله عنها وأخذ
منه كل ما كان يملكه وما كان جمعه منها ، وأودعه السجن ببغداد . فلم يزل به حتى توفي المنصور
فأطلقه المهدي وأطلق له كل ما كان أخذ منه ، وخرج معه إلى الحج في سنة ثمان وستين ومائة ، فلما
كان بالحاجر توفي عن خمس وثمانين سنة . وقد روى له النسائي حديثه عن عكرمة عن ابن عباس
« أن رسول الله (س) ، احتجم وهو محرم » . وقد ضمنه ابن معين وابن عدي ، ووثقه ابن حبان .
وذكره الزبير بن بكار وأثنى عليه في رياسته وشهامته . والمقصود أن ابنته نفيسة دخلت الديار
المصرية مع زوجها المؤمن إسحاق بن جعفر ، فأقامت بها وكانت ذات مال فأحسنت إلى الناس والجذى
والزمنى والمرضى وعموم الناس ، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير . ولما ورد الشافعى مصر أحسنت
إليه وكان ربما صلى بها في شهر رمضان . وحين مات أمرت بجنائزته فأدخلت إليها المنزل فصلت
عليه . ولما توفيت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية فنعه أهل مصر من
ذلك وسألوه أن يدفنها عندهم ، فدفنت في المنزل الذى كانت تسكنه بمحلة كانت تعرف قديماً بدرب
السباع بين مصر والقاهرة ، وكانت وفاتها في شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكره ابن خلكان .
قال : ولأهل مصر فيها اعتقاد . قلت : وإلى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً
جداً ، ولا سباً عوام مصر فانهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك ،
والفاظاً كثيرة ينبغى أن يعرفوا أنها لا تجوز . وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من
سلالته . والذي ينبغى أن يعتقد فيها ما يليق بمثها من النساء الصالحات ، وأصل عبادة الأصنام من
المغلاة في القبور وأصحابها ، وقد أمر النبي (س) ، بتسوية القبور وطمسها ، والمغلاة في البشر حرام .

ومن زعم أنها تفك من الخشب أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك . رحمها الله وأكرمها .

الفضل بن الربيع

ابن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان ، كان الفضل هذا متمكناً من الرشيد ، وكان زوال دولة البرامكة على يديه ، وقد وزر مرة للرشيد ، وكان شديد التشبه بالبرامكة ، وكانوا يتشبهون به ، فلم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكوا كما تقدم . وذكر ابن خلكان أن الفضل هذا دخل يوماً على يحيى بن خالد وابنه جعفر بوقع بين يديه ، ومع الفضل عشر قصص فلم يقض له منها واحدة ، فجمه من الفضل بن الربيع وقال : ارجعن خائبات خاسئات ثم نهض وهو يقول :

عَسَى وَعَسَى يَثْنِي الزَّمَانَ عِنَانَهُ * بتصرفِ حالٍ والزمانُ عنورُ

فَتَقْضَى لُبَانَاتٍ وَتَشْفِي حَزَانَتَهُ • وَتُحَدِّثُ مِنْ بَعْدِ الْأُمُورِ أُمُورُ

فسمعه الوزير يحيى بن خالد فقال له : أقسمت عليك لما رجعت ، فأخذ منه القصص فوقع عليها .

ثم لم يزل يحفر خاتمهم حتى تمكن منهم وتولى الوزارة بعدهم ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

مَا رَعَى الدَّهْرَ آلَ بَرْمَكٍ لَمَّا * أَنْ رَمَى مَلِكَهُمْ بِأَمْرِ فَطِيحٍ

إِنْ دَهْرًا لَمْ يَرَعْ ذِمَّةَ لِيَحْيَى • غَيْرُ رَاعٍ ذِمَامَ آلِ الرَّبِيعِ

ثم وزر من بعد الرشيد لابنه الأمين فلما دخل المأمون بغداد اختفى فأرسل له المأمون أماناً فخرج فجاء فدخل على المأمون بعد اختفاء مدة فأمنه ، ثم لم يزل خاملاً حتى مات في هذه السنة ، وله

ثمان وستون سنة . ثم دخلت سنة تسع ومائتين

فيها حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شيبث بعد ما حاربه خمس سنين وضيق عليه جداً حتى أجهز إلى أن طلب منه الأمان ، فكتب ابن طاهر إلى المأمون يعلمه بذلك ، فأرسل إليه أن يكتب له أماناً عن أمير المؤمنين . فكتب له كتاب أمان فترّل فأمر عبد الله بتخريب المدينة التي كان متحصناً بها ، وذهب شره ، وفيها جرت حروب مع بابك الخرمي فأسر بابك بعض أمراء الأسلام وأحد مقدمي العساكر ، فاشتد ذلك على المسلمين . وفيها حج بالناس صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو والي مكة . وفيها توفي ملك الروم ميخائيل بن نففور (جرجس) وكان له عليهم تسع سنين ، فملكوا عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل .

وفيها توفي من مشايخ الحديث : الحسن بن موسى الأشيب ، وأبو علي الحنفي . وحنص بن عبد الله قاضي نيسابور . وعثمان بن عمر بن فارس . ويعلى بن عبيد الطنافسي .

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

في صفر منها دخل نصر بن شيبث بغداد ، بعثه عبد الله بن طاهر فدخلها ولم يتلقاه أحد من

الجندبل دخلها وحده ، فأنزل في مدينة أبي جعفر ثم حول إلى موضع آخر . وفي هذا الشهر ظفر المأمون بجماعة من كبراء من كان بايع إبراهيم بن المهدي فعاقبهم وحبسهم في المطبق ، ولما كان ليلة الأحد ثلاث عشرة من ربيع الآخر اجتاز إبراهيم بن المهدي - وكان مختفياً مدة ست سنين وشهوراً متنقياً في زى امرأة ومعه امرأتان - في بعض دروب بغداد في أثناء الليل ، فقام الحارس فقال : إلى أين هذه الساعة ؟ ومن أين ؟ ثم أراد أن يمسك فاعطاه إبراهيم خاتماً كان في يده من ياقوت ، فلما نظر إليه استراب وقال : إنما هذا خاتم رجل كبير الشأن ، فذهب بهن إلى متولى الليل فأمرهن أن يسفرن عن وجوههن ، فتمنع إبراهيم فكشفوا عن وجهه فاذا هو هو ، فعرفه فذهب به إلى صاحب الجسر فسلمه إليه ورفعته الآخر إلى باب المأمون ، فأصبح في دار الخلافة ونقابه على رأسه والملحفة في صدره ليراه الناس ، وليعلموا كيف أخذ . فأمر المأمون بالاحتفاظ به والاحتراس عليه مدة ، ثم أطلقه ورضى عنه . هذا وقد صلب جماعة ممن كان سجنهم بسببه لكونهم أرادوا الفتك بالموكلين بالسجن ، فصلب منهم أربعة .

وقد ذكروا أن إبراهيم لما وقف بين يدي المأمون أنبه على ما كان منه فترقق له عمه إبراهيم كثيراً ، وقال : يا أمير المؤمنين إن تعاقب فيحقتك ، وإن تعف فيفضلت . فقال : بل أعفوا يا إبراهيم إن القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة وبينهما عفو الله عز وجل ، وهو أكبر مما تسأله : فكبر إبراهيم وسجد شكراً لله عز وجل .

وقد امتدح إبراهيم بن المهدي ابن أخيه المأمون بقصيدة بالغ فيها ، فلما سمعها المأمون قال : أقول كما قال يوسف لأخوته [لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين] وذكروا ابن عساکر أن المأمون لما عفا عن عمه إبراهيم أمره أن يغنيه شيئاً فقال : إني تركته . فأمره فأخذ العود في حجره وقال : هذا مقام سرورٍ خربت منازلهُ ودوره . * نمت عليه عاداتهُ كذباً فعاقبهُ أميرهُ ثم عاد فقال :

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتُ عني * لوى الدهرُ بي عنها وولّى بها عني
فإن أباكِ نفسي أباكِ نفساً عزيزةً * وإن أحتقرها أحتقرها على ضغنٍ
وإني وإن كنتُ المسيءُ بعينهِ * فإني بربي موقنٌ حسنُ الظنِّ
عدوتُ على نفسي فعادَ بعفوه * عليّ فعادَ العفوُ منّا على من

فقال المأمون : أحسنت يا أمير المؤمنين حقاً . فرمى العود من حجره ووثب قائماً فرعاً من هذا الكلام ، فقال له المأمون : اجلس واسكن مرحباً بك وأهلاً ، لم يكن ذلك لشيء تتوهمه ، ووالله لا رأيت طول أيامي شيئاً تكرهه . ثم أمر له بعشرة آلاف دينار وخلع عليه ، ثم أمر له برد جميع

ما كان له من الأموال والضياع والدور فرددت إليه ، وخرج من عنده مكرماً معظماً .

عمر بن لؤلؤ

وفي رمضان منها بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ، وقيل إنه خرج في رمضان إلى معسكر الحسن بن سهل بفهم الصلح ، وكان الحسن قد عوفي من مرضه ، فنزل المأمون عنده بمن معه من وجوه الأمراء والرؤساء وأكابر بني هاشم ، فدخل ببوران في شوال من هذه السنة في ليلة عظيمة وقد أشعلت بين يديه شموع المنبر ، ونثر على رأسه الدر والجوهر ، فوق حصر منسوجة بالذهب الأحمر . وكان عدد الجوهر منه ألف درة ، فأمر به فجمع في صينية من ذهب كان الجوهر فيها فنالوا : يا أمير المؤمنين إنا نثرناه لتلقظه الجوارى ، فقال : لا أنا أتوضن من ذلك . فجمع كله ، فلما جاءت العروس ومعها جدتها زبيدة أم أخيه الأمين - من جملة من جاء معها - فأجلست إلى جانبه فصب في حجرها ذلك الجوهر وقال : هذا نحلة مني إليك وسلي حاجتك ، فأطرت حياء . فقالت جدتها : كلني سيدك وسليه حاجتك فقد أمرك . فقالت : يا أمير المؤمنين أسألك أن ترضى عن عمك إبراهيم بن المهدي ، وأن ترده إلى منزلته التي كان فيها ، فقال : نعم ! قالت : وأم جعفر - تعني زبيدة - تأذن لها في الحج . قال نعم ! فخلعت عليها زبيدة بدلها الأميرة وأطلقت له قرية مقورة . وأما والد العروس الحسن بن سهل فانه كتب أسماء قراه وضياعه وأملاكه في رقاع ونثرها على الأمراء ووجوه الناس ، فمن وقعت بيده رقعة في قرية منها بعث إلى القرية التي فيها نوابه فسلمها إليه ملكاً خالصاً . وأنفق على المأمون ومن كان معه من الجيش في مدة إقامته عنده سبعة عشر يوماً ما يعادل خمسين ألف ألف درهم . ولما أراد المأمون الانصراف من عنده أطلق له عشرة آلاف ألف درهم ، وأقطعه البلاد الذي هو نازل بها ، وهو إقليم فم الصلح مضافاً إلى ما بيده من الاقطاعات . ورجع المأمون إلى بغداد في أواخر شوال من هذه السنة . وفي هذه السنة ركب عبید الله بن طاهر إلى مصر فاستنقذها بأمر المأمون من يد عبید الله بن السري بن الحكم المنقلب عليها ، واستعادها منه بعد حروب يطول ذكرها . وفيها توفي من الأعيان أبو عمرو والشيباني اللغوي واسمه إسحاق بن مراد . ومروان بن محمد الطاطري . ويحيى بن إسحاق والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

فيها توفي أبو الجواب . وطلق بن غنام . وعبید الرزاق بن همام الصنعاني صاحب المصنف والمسند . وعبود الله بن صالح العجلي .

أبو العتاهية الشاعر المشهور

واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أصله من الحجاز ، وقد كان تمشق جارية للمهدي

اسمها عتبة ، وقد طلبها منه غير مرة فاذا سمح له بهالم ترده الجارية ، وتقول للخليفة : أعطيني لرجل
دويم الخلق كان يبيع الجرار ؟ فكان يكثر التفرز فيها ، وشاع أمره واشتهر بها ، وكان المهدي
يفهم ذلك منه . واتفق في بعض الأحيان أن المهدي استدعى الشعراء إلى مجلسه وكان فيهم أبو
العتاهية و بشار بن برد الأعمى ، فسمع صوت أبي العتاهية . فقال بشار لجليسه : أم ههنا أبو العتاهية ؟
قال : نعم . فانطلق يذكر قصيدته فيها التي أولها :

ألا ما لسيدي مالها * أدات فأجل إدلالها

فقال بشار لجليسه : ما رأيت أجسر من هذا . حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله :

أنته الخلافة منقادة * إليه تجرز أذيالها

فلم تك تصلح إلا له * ولم يك يصلح إلا لها

ولورامها أحد غيره * لزلزلت الأرض زلزالها

ولولم تطعم نبات القلوب * لما قبل الله أعمالها

فقال بشار لجليسه : انظروا أطار الخليفة عن فراشه أم لا ؟ قال : فوالله ما خرج أحد من

الشعراء يومئذ بجائزة غيره . قال ابن خلكان : اجتمع أبو العتاهية بأبي نواس - وكان في طبقته

وطبقة بشار - فقال أبو العتاهية لأبي نواس : كم تعمل في اليوم من الشعر ؟ قال : بيتاً أو بيتين .

فقال : لكني أعمل المائة والمائتين . فقال أبو نواس : لملك تعمل مثل قولك :

يا عتَبُ مالي ولك • يا ليتني لم أركُ

ولو عمت أنا مثل هذا لعمت الألف والألفين وأنا أعمل مثل قولي :

من كف ذات حر في زبي ذي ذكر • لها محببان : لوطي وزنأ

ولو أردت مثل لا عجزك الدهر . قال ابن خلكان : ومن لطيف شعر أبي العتاهية :

إني صبوت إليك • قى صرت من فرط التصابي

بجد الجليس إذا دنا • ربح التصابي في ثيابي

وكان مولده سنة ثلاثين ومائة . وتوفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وقيل

ثلاث عشرة ومائتين ، وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد :

إن عيشاً يكون آخرة الموت • ت لعيش معجل التنقيص

ثم دخلت سنة ثلثي عشرة ومائتين

فيها وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي على طريق الموصل لمحاربة بابك الخرمي في أرض

أذربيجان ، فأخذ جماعة من الملتزمين عليه فبعث بهم إلى المأمون . وفي ربيع الأول أظهر المأمون

في الناس بدعتين فظيمنتين إحداهما أطم من الأخرى ، وهي القول بخلق القرآن ، والثانية تفضيل علي بن أبي طالب على الناس بعد رسول الله . . . وقد أخطأ في كل منهما خطأ كبيراً فاحشاً ، وأثم إنهما عظيماً . وفيها حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسي . وفيها توفي أسد بن موسى الذي يقال له أسد السنة . والحسن بن جعفر . وأبو عاصم النبيل واسمه الضحاك بن مخلد . وأبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي الدمشقي . ومحمد بن يونس الفريابي شيخ البخاري .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

فيها ثار رجلان عبد السلام وابن جليس فخلعا المأمون واستحوذا على الديار المصرية ، وتابعهما طائفة من القيسية واليمانية ، فولى المأمون أخاه أبا إسحاق نيابة الشام ، وولى ابنه العباس نيابة الجزيرة والثغور والعواصم ، وأطلق لكل منهما ولعبد الله بن طاهر ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . فلم يرب يوم أكثر إطلاقاً منه ، أطلق فيه لهؤلاء الأمراء الثلاثة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . وفيها ولى السند غسان بن عباد . وحج بالناس أمير السنة الماضية . وفيها توفي عبد الله بن داود الجربني . وعبد الله بن يزيد المقرئ المصري . وعبد الله بن موسى العباسي . وعمر بن أبي سلمة الدمشقي . وحكي ابن خلكان أن بعضهم قال : وفيها توفي إبراهيم بن ما هان الموصلى النديم . وأبو العتاهية . وأبو عمر والشيباني النحوي في يوم واحد ببغداد : ولكنه صحح أن إبراهيم النديم توفي سنة ثمان وثمانين ومائة . قال السهيلي : وفيها توفي عبد الملك بن هشام راوي السيرة عن ابن إسحاق . حكاه ابن خلكان عنه ، والصحيح أنه توفي سنة ثمان عشرة ومائتين . كما نص عليه أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر .

العكوك الشاعر

أبو الحسن بن علي بن جبلة الخراساني يلقب بالعكوك ، وكان من الموالي ولد أعمى وقيل بل أصابه جدري وهو ابن سبع سنين ، وكان أسود أبرص ، وكان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً ، وقد أثنى عليه في شعره الجاحظ فن بعده . قال : مارأيت بدويّاً ولا حضريّاً أحسن إنشأ منه . فن ذلك قوله :

بأبي من زارني مُسكِّمًا * حُدْرًا من كل شيء جزعا
زاراً ثم عليه حُسنة * كيف يُخفي الليلُ بدرًا طلعا
رصد الخلوّة حتى أمكنت * ورعى السامرَ حتى هجما
ركب الأهوال في زورته • ثم ما سأم حتى رجما

وهو القائل في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي :

إنما الدنيا أبو دلفٍ * بين مغزاهُ ومختضرة
فاذا ولى أبو دلفٍ * ولت الدنيا على أثره

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيِهِ إِلَى حَضْرَةِ
بِرَنْجِيهِ نَيْلٌ مَكْرَمَةٌ * يَأْتِيهَا يَوْمَ مَفْتَحِرَةِ

ولما بلغ المأمون هذه الأبيات - وهي قصيدة طويلة - عارض فيها أبا نواس فتطلبه المأمون فهرب
منه ثم أحضر بين يديه فقال له : وبحك فضلت القاسم بن عيسى علينا . فقال : يا أمير المؤمنين أنتم
أهل بيت اصطفاكم الله من بين عباده ، وآناكم ملائكة عظاما ، وإنما فضلته على أشكاله وأقرانه .
فقال : والله ما أبقيت أحداً حيث تقول :

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيِهِ إِلَى حَضْرَةِ

ومع هذا فلا أستحل قتلك بهذا ، ولكن بشرتك وكفرك حيث تقول في عبد ذليل :

أَنْتَ الَّذِي تَنْزِلُ الْأَيَّامَ مِنْزَلَهَا * وَتَنْقُلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

وَمَامَدْتُ مَدَى طَرْفٍ إِلَى أَحَدٍ * إِلَّا قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ

ذاك الله يفعل ما ، أخرجوا لسانه من قفاه . فأخرجوا لسانه في هذه السنة فمات . وقد امتدح

حميد بن عبد الحميد الطوسي :

إِنَّمَا الدُّنْيَا حَمِيدٌ * وَأَيَادِيهِ جَسَامٌ * فَذَا وَلى حَمِيدٌ * فَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ

ولمات حميد هذا رثاه أبو العتاهية بقوله :

أَبَا غَانِمٍ أَمَا ذَرَاكَ فَوَاسِعٌ * وَقَبْرُكَ مَعْمُورُ الْجَوَانِبِ مُحْكَمٌ

وَمَا يَنْفَعُ الْمَقْبُورَ عِمْرَانُ قَبْرِهِ * إِذَا كَانَ فِيهِ جِسْمُهُ يَنْهَدَمُ

وقد أورد ابن خلدان لمعكوك هذا أشعاراً جيدة تركناها اختصاراً .

ثم دخلت سنة اربع عشرة ومائتين

في يوم السبت لخمس بقين من ربيع الأول منها التقى محمد بن حميد وبابك الخرمي لعنه الله ،
فقتل الخرمي خالقاً كثيراً من جيشه ، وقتله أيضاً وانهمزم بقية أصحاب ابن حميد ، فبعث المأمون
إسحاق بن إبراهيم وبجي بن أكرم إلى عبد الله بن طاهر يخبرانه بين خراسان ، ونيابة الجبال
وأذربيجان وأرمينية ومحاربة بابك ، فاختر المقام بخراسان لكثرة احتياجها إلى الضبط ، وللخوف
من ظهور الخوارج . وفيها دخل أبو إسحاق بن الرشيد الديار المصرية فانتزعها من يد عبد السلام
وابن جليس وقتلها . وفيها خرج رجل يقال له بلال الضبابي فبعث إليه المأمون ابنه العباس في
جماعة من الأمراء فقتلوا بلالا ورجعوا إلى بغداد . وفيها ولي المأمون علي بن هشام الجبيل وقم
وأصبهان وأذربيجان . وفيها حج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .
وفيها توفي أحمد بن خالد الموهبي .

احمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح

أبو جعفر الكاتب ولى ديوان الرسائل المأمون . ترجمه ابن عساكر وأورد من شعره قوله .
 قد برزق المرء من غير حيلة صدرت * ويصرف الرزق عن ذى الحيلة الداهى
 مامنى من غنى يوماً ولا عدم * إلا وقولى عليه الحمد لله
 ولا أيضاً : إذا قلت فى شيء نعم فآتته * فإن نعم دين على الحر واجب
 وإلا فقل لا تستريح بها * لئلا يقول الناس إنك كاذب
 وله : إذا المرء أفشى سره بلسانه * فلام عليه غيره فهو أحق
 إذا ضلقت صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق
 وحسن بن محمد المروزي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الحكم المصرى . ومعاوية بن عمر .

أبو محمد عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع المصري

أحد من قرأ الموطأ على مالك وتفقه بمذهبه ، وكان معظماً ببلاد مصر ، وله بها ثروة وأموال وافرة . وحين قدم الشافعى مصر أعطاه ألف دينار ، وجمع له من أصحابه ألفى دينار ، وأجرى عليه وهو والد محمد بن عبد الله بن الحكم الذى صحب الشافعى . ولما توفى فى هذه السنة دفن إلى جانب قبر الشافعى . ولما توفى ابنه عبد الرحمن دفن إلى جانب قبر أبيه من القبلة . قال ابن خلدكان فى ثلاثه أقبر الشافعى شامياً . وهما قبلته . رحمهم الله .

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

فى أواخر المحرم منها ركب المأمون فى العساكر من بغداد قاصداً بلاد الروم لغزوهم . واستخلف على بغداد وأعمالها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلما كان بتكريت تلقاه محمد بن على بن موسى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب من المدينة النبوية ، فأذن له المأمون فى الدخول على ابنته أم الفضل بنت المأمون . وكان معقود العقد عليها فى حياة أبيه على بن موسى ، فدخل بها ، وأخذها معه إلى بلاد الحجاز . وتلقاه أخوه أبو إسحاق بن الرشيد من الديار المصرية قبل وصوله إلى الموصل . وسار المأمون فى جحافل كثيرة إلى بلاد طرسوس فدخلها فى جمادى الأولى ، وفتح حصنها هناك عنوة وأمر بهدمه ، ثم رجع إلى دمشق فنزلها وعمر دبرمرات بسفح قيون ، وأقام بدمشق مدة . وحج بالناس فيها عبد الله بن عبيد الله بن العباس العبامى .

وفىها توفى أبو زيد الأنصارى . ومحمد بن المبارك الصورى . وقبيصة بن عقبة . وعلى بن الحسن بن شقيق . ومكى بن إبراهيم .

أبو زيد الأنصارى

فهو نسيب بن أوس بن ثابت البصرى اللغوى أحد الثقات الاثبات ويقال إنه كان يرى ليلة

القدر . قال أبو عثمان المازني : رأيت الأصمعي جاء إلى أبي زيد الأنصاري وقبل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة . قال ابن خلدان : وله مصنفات كثيرة ، منها خلق الانسان ، وكتاب الابل ، وكتاب المياه ، وكتاب الفرس والترس ، وغير ذلك توفي في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها أو التي بعدها ، وقد جاوز التسعين ، وقيل إنه قارب المائة . وأما أبو سليمان فقد قدمنا ترجمته .

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

فيها عدا ملك الروم وهو توفيل بن ميخائيل على جماعة من المسلمين فقتلهم في أرض طرسوس نحواً من ألف وستمائة إنسان ، وكتب إلى المأمون فبدأ بنفسه ، فلما قرأ المأمون كتابه نهض من فوره إلى بلاد الروم عوداً على بدء وصحبته أخوه أبو إسحاق بن الرشيد نائب الشام ومصر ، فافتتح بلدانا كثيرة صلحا وعنوة ، وافتتح أخوه ثلاثين حصنا ، وبعث بجي بن أكنم في سرية إلى طوانة فافتتح بلاداً كثيرة وأسر خلقاً وحرقت حصونا عدة ، ثم عاد إلى العسكر . وأقام المأمون ببلاد الروم من نصف جمادى الآخرة إلى نصف شعبان ، ثم عاد إلى دمشق وقد وثب رجل يقال له عبدوس الفهري في شعبان من هذه السنة ببلاد مصر ، فتغلب على نواب أبي إسحاق بن الرشيد واتبعه خلق كثير ، فركب المأمون من دمشق يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة إلى الديار المصرية ، فكان من أمره ما سنذكره

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد يأمره أن يأمر الناس بالتكبير عقيب الصلوات الخمس ، فكان أول ما بدى بذلك في جامع بغداد والرصافة يوم الجمعة لأربع عشر ليلة خلت من رمضان ، وذلك أنهم كانوا إذا قضاوا الصلاة قام الناس قياماً فكبروا ثلاث تكبيرات ، ثم استمروا على ذلك في بقية الصلوات . وهذه بدعة أحدثها المأمون أيضاً بلا مستند ولا دليل ولا معتمد ، فان هذا لم يفعله قبله أحد ، ولكن ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر كان على عهد رسول الله (ص) ، ليعلم حين ينصرف الناس من المكتوبة ، وقد استحب هذا طائفة من العلماء كابن حزم وغيره . وقال ابن بطال : المذاهب الأربعة على عدم استحبابه . قال النووي : وقد روى عن الشافعي أنه قال : إنما كان ذلك ليعلم الناس أن الذكر بعد الصلوات مشروع ، فلما علم ذلك لم يبق للجهر معنى . وهذا كما روى عن ابن عباس أنه كان يجهر في الفاتحة في صلاة الجنائز ليعلم الناس أنها سنة ، ولهذا نظائر والله أعلم

وأما هذه البدعة التي أمر بها المأمون فانها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف . وفيها وقع برد شديد جداً . وفيها حج بالناس الذي حج بهم في العام الماضي ، وقيل غيره والله أعلم . وفيها توفي حبان ابن هلال . وعبد الملك بن قريب الأصمعي صاحب اللغة والنحو والشعر وغير ذلك . ومحمد بن بكار بن

هلال . وهوذة بن خليفة . زبيدة امرأة الرشيد وابنة عمه

وهي ابنة جعفر أم العزيز الملقبة زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية الهاشمية القرشية ، كانت أحب الناس إلى الرشيد ، وكانت ذات حسن باهر وجمال طاهر ، وكان له معها من الخطايا والجوارى والزوجات غيرها كثيراً كما ذكرنا ذلك في ترجمته ، وإنما لقبت زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور كان يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة ويقول : إنما أنت زبيدة ، لبياضها ، فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به ، وأصل اسمها أم العزيز . وكان لها من الجمال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شئ كثير . وروى الخطيب أنها حجت فبانت نفقتها في سنين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم ، ولما هنأت المأمون بالخلافة قالت : هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، وإني كنت فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابناً خليفة لم ألده ، وما خسرت من اعتاض منك ، ولا تكلمت أم ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ ، وإمتاعاً بما عوض . توفيت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين .

ثم قال الخطيب : حدثني الحسين بن محمد الخلال لفظاً قال : وحدث أبا الفتح القواس قال ثنا صدقة بن هبيرة الموصلي ثنا محمد بن عبد الله الواسطي قال قال عبد الله بن المبارك : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقالت غفر لي في أول معول ضرب في طريق مكة . قلت : فما هذه الصفرة ؟ قالت : دفن بين ظهراني نارجل يقال له بشر المريسي زفرت عليه جهنم زفرة فاقشعر لها جسدي فهذه الصفرة من تلك الزفرة . وذكر ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم ، غير من قرأ منه ما قدر له وغير من لم يقرأ ، وكان يسمع هن في القصر دوى كدوى النحل ، وكان ورد كل واحدة عشر القرآن ، وورد أنها رؤيت في المنام فسئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات وما عملته في طريق الحج فقالت : ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله ، وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعها في السحر . وفيها جرت حوادث وأمور يطول ذكرها .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

في المحرم منها دخل المأمون مصر وظفر بعبدوس الفهري فأمر فضربت عنقه ، ثم كر راجعاً إلى الشام . وفيها ركب المأمون إلى بلاد الروم أيضاً فحاصر لؤلؤة مائة يوم ، ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها عجيفا فخذته الروم فأسروه فأقام في أيديهم ثمانية أيام ، ثم انفلت منهم واستمر محاصراً لهم ، فجاء ملك الروم بنفسه فأحاط بجيشه من ورائه ، فبلغ المأمون فسار إليه ، فلما أحس توفيل بقدمه هرب وبعث وزيره صنغل فسأله الأمان والمصالحة ، لكنه بدأ بنفسه قبل المأمون فرد عليه المأمون كتاباً بليغاً مضمونه التقرير والتوبيخ ، وإني إنما أقبل منك الدخول غي الخنيفة

وإلا فالسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان ابن علي . وفيها توفى الحجاج بن منهال . وشریح بن النعمان . وموسى بن داود الضبي والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين

في أول يوم من جمادى الأولى وجه المأمون ابنه العباس إلى بلاد الروم لبناء الطوارة وتجهيز عمارتها . وبعث إلى سائر الأقاليم في تجهيز الفعلة من كل بلد إليها ، من مصر والشام والعراق ، فاجتمع عليها خلق كثير ، وأمره أن يجعلها ميلا في ميل ، وأن يجعل سورها ثلاث فراسخ ، وأن يجعل لها

ذكر أول المحنة والفتنة

ثلاثة أبواب .

في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمنع القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم ، وكتب إليه يستعنه في كتاب مطول وكتب غيره قد سردها ابن جرير كلها ، ومضمونها الاحتجاج على أن القرآن محدث وكل محدث مخلوق ، وهذا احتجاج لا يوافق عليه كثير من المتكلمين فضلا عن المحدثين ، فان القائمين بأن الله تعالى تقوم به الأفعال الاختيارية لا يقولون بأن فعله تعالى القائم بذاته المقدسة مخلوق ، بل لم يكن مخلوقا ، بل يقولون هو محدث وليس بمخلوق ، بل هو كلام الله القائم بذاته المقدسة ، وما كان قائما بذاته لا يكون مخلوقا ، وقد قال الله تعالى [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث] وقال تعالى [ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم] فالأمر بالسجود صدر منه بعد خلق آدم ، فالكلام القائم بالذات ليس مخلوقا ، وهذا له موضع آخر . وقد صنف البخاري كتابا في هذا المعنى سماه خلق أفعال العباد . والمقصود أن كتاب المأمون لما ورد ببغداد قرئ على الناس ، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه ، وهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم المستملي ، ويزيد بن هارون^(١) وبجى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب ، وإسماعيل بن أبي مسعود . وأحمد ابن الدورقي . فبعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتنعهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك واطهروا موافقته وهم كارهون ، فردهم إلى بغداد وأمر بأشهار أمرهم بين الفقهاء ، ففعل إسحاق ذلك . وأحضر خلقا من مشايخ الحديث والفقهاء وأئمة المساجد وغيرهم ، فدعاهم إلى ذلك عن أمر المأمون ، وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين له على ذلك ، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم ، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم كتب المأمون إلى إسحاق أيضا بكتاب ثان يستدل به على القول بخلق القرآن بشبه من الدلائل أيضا لا تحقيق نحتها ولا حاصل لها ، بل هي من المتشابهة

(١) قد ذكر المؤلف وفاة يزيد بن هارون في سنة ست ومائتين ، ثم ذكره هنا في المحضرين فلا وجه إلا أن يكون غالطا هنا أو هناك .

وأورد من القرآن آيات هي حجة عليه . اورد ابن جرير ذلك كله . وأمر نائبه أن يقرأ ذلك على الناس وأن يدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن ، فأحضر أبو إسحاق جماعة من الأئمة وهم أحمد بن حنبل . وقتيبة . وأبو حيان الزيادي . وبشر بن الوليد الكندي . وعلي بن أبي مقاتل . وسعدويه الواسطي . وعلي بن الجعد . وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وابن الهرش ، وابن علي الأكبر ، وبجي ابن عبد الحميد العمري . وشيخ آخر من سلالة عمر كان قاضياً على الرقة ، وأبو نصر التمار ، وأبو معمر القطيبي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون . ومحمد بن نوح الجندي ساوري المضروب ، وابن الفرخان ، والنضر بن شمل . وأبو علي بن عاصم ، وأبو العوام البارد ، وأبو شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق وجماعة . فلما دخلوا على أبي إسحاق قرأ عليهم كتاب المأمون . فلما فهموه قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال : هو كلام الله . قال : ليس عن هذا أسألك . وإنما أسألك أهو مخلوق ؟ قال : ليس بخالق . قال : ولا عن هذا أسألك . فقال : ما أحسن غير هذا . وصمم على ذلك . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه ؟ قال : نعم ! فقال للكاتب : اكتب بما قال . فكتب . ثم امتحنهم رجلاً رجلاً فأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن ، فكان إذا امتنع الرجل منهم امتحنه بالرقعة التي وافق عليها بشر بن الوليد الكندي ، من أنه يقال لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه فيقول : نعم كما قال بشر . ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل فقال له : أتقول إن القرآن مخلوق ؟ فقال : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا . فقال له : ما تقول في هذه الرقعة ؟ فقال أقول [ليس كمثل شيء وهو السميع البصير] فقال رجل من المعتزلة : إنه يقول : سميع بأذن بصير بعين . فقال له إسحاق : ما أردت بقولك سميع بصير ؟ فقال : أردت منها ما أراد الله منها وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك . فكتب جوابات القوم رجلاً رجلاً وبعث بها إلى المأمون . وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرها لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق على بيت المال قطع ، وإن كان مفتياً منع من الافتاء ، وإن كان شيخ حديث ردع عن الاسماع والأداء . ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهباء فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فَضْلُكَ

فلما وصلت جوابات القوم إلى المأمون بعث إلى نائبه بمدحه على ذلك ويرد على كل فرد فرد ما قال في كتاب أرسله . وأمر نائبه أن يمتحنهم أيضاً فمن أجاب منهم شهر أمره في الناس ، ومن لم يجب منهم فابعثه إلى عسكر أمير المؤمنين مقيداً محتفظاً به حتى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه

رأيه ، ومن رأيه أن يضرب عنق من لم يقل بقوله . فعند ذلك تقدم النائب ببغداد مجلساً آخر وأحضر أولئك وفيهم إبراهيم بن المهدي ، وكان صاحباً ابشر بن الوليد الكندي ، وقد نص المأمون على قتلها إن لم يجيبا على الفور ، فلما امتحنهم إسحاق أجابوا كلهم مكرهين متأولين قوله تعالى [إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان] الآية . إلا أربعة وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والحسن ابن حماد سجاده ، وعبيد الله بن عمر القواريري . فقيدهم وأرصدهم لبيث بهم إلى المأمون ، ثم استدعى بهم في اليوم الثاني فامتحنهم فأجاب سجاده إلى القول بذلك فأطلق . ثم امتحنهم في اليوم الثالث فأجاب القواريري إلى ذلك فأطلق قيده . وآخر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجندي ساويري لأنهما أصرا على الامتناع من القول بذلك ، فأكد قيودهما وجههما في الحديد وبعث بهما إلى الخليفة وهو بطرسوس ، وأتت كتابا بارسالهما إليه . فسارا مقيدين في محارة على جبل متعادلين رضي الله عنهما . وجعل الأمام أحمد يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين المأمون ، وأن لا يرياه ولا يراهما . ثم جاء كتاب المأمون إلى نائبه أنه قد بلغني أن القوم إنما أجابوا مكرهين متأولين قوله تعالى [إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان] الآية . وقد أخطأوا في تأويلهم ذلك خطأ كبيراً ، فأرسلهم كلهم إلى أمير المؤمنين . فاستدعاهم إسحاق والزهمهم بالمسير إلى طرسوس فساروا إليها ، فلما كانوا ببعض الطريق بلغهم موت المأمون فردوا إلى الرقة ، ثم أذن لهم بالرجوع إلى بغداد . وكان أحمد ابن حنبل وابن نوح قد سبقا الناس ، ولكن لم يجتمعا به . بل أهلكه الله قبل وصولهما إليه ، واستجاب الله سبحانه دعاه عبده ووليه الأمام أحمد بن حنبل ، فلم يريا المأمون ولا رأهما ، بل ردوا إلى بغداد . وسـ يأتي تمام ما وقع لهم من الأمر الفظيع في أول ولاية المعتصم بن الرشيد ، وتمام باقي الكلام على ذلك في ترجمة الأمام أحمد عند ذكر وفاته في سنة إحدى وأربعين ومائتين وبالله المستعان .

عبد الله المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسي القرشي الهاشمي أبو جعفر أمير المؤمنين ، وأمه أم ولد يقال لها مراحل الباذغيسية ، وكان مولده في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ليلة توفي عمه الهادي ، وولي أبوه هارون الرشيد ، وكان ذلك ليلة الجمعة كما تقدم ، قال ابن عساکر : روى الحديث عن أبيه وهاشم بن بشر ، وأبي معاوية الضرير ، ويوسف بن قحطبة ، وعباد بن العوام ، وإسماعيل بن علي ، وحجاج بن محمد الأعور . وروى عنه أبو حذيفة إسحاق بن بشر - وهو أسن منه - وبجعي بن أكرم القاضي وابنه الفضل بن المأمون ومعمار بن شبيب وأبو يوسف القاضي وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي وأحمد بن الحارث الشعبي - أو البريدي - وعمر بن مسعدة وعبد الله بن طاهر بن الحسين ، ومحمد بن إبراهيم السلي ودعبل بن علي الخزاعي . قال : وقدم دمشق مرات وأقام بها مدة ، ثم روى ابن عساکر

من طريق أبي القاسم البغوي حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلی قال : سمعت المأمون في الشامية وقد أجرى الحلبة فجعل ينظر إلى كثرة الناس فقال ليحيى بن أكرم : أما ترى كثرة الناس ؟ قال : حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي (ص) قال : « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعيله ». ومن حديث أبي بكر المناجحي عن الحسين بن أحمد المالكي عن يحيى بن أكرم القاضي عن المأمون عن هشيم عن منصور عن الحسن عن أبي بكر أن رسول الله (ص) قال : « الحياء من الإيمان ». ومن حديث جعفر بن أبي عثمان الطيالسي أنه صلى العصر يوم عرفة خلف المأمون بالرافضة فلما سلم كبر الناس فجعل يقول : لا يا غوغاء لا يا غوغاء ، غدا التكبير سنة أبي القاسم (ص) . فلما كان الغد صعد المنبر فكبر ثم قال : أنبا هشيم بن بشر ثنا ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن دينار . قال قال رسول الله (ص) : « من ذبح قبل أن يصلي فانما هو لحم قدمه لأهله ، ومن ذبح بعد أن يصلي الغداة فقد أصاب السنة ». الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، اللهم اصلحني وأصلحني وأصلح على يدي . تولى المأمون الخلافة في الحرم الحس بقين منه بعد أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة ، واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر . وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة ، وقد بايع في سنة إحدى ومائتين بولاية العهد من بعده لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وخلع السواد ولبس الخضرة كما تقدم ، فأعظم ذلك العباسيون من البغاددة وغيرهم ، وخلعوا المأمون وولوا عليهم إبراهيم بن المهدي ، ثم ظفر المأمون بهم واستقام له الحال في الخلافة ، وكان على مذهب الاعتزال لأنه اجتمع بجماعة منهم بشر بن غياث المريسي فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل ، وكان يجب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه ، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل ، وراج عنده الباطل . ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً . وذلك في آخر أيام وانهت دولته . وقال ابن أبي الدنيا : كان المأمون أبيض ربة حسن الوجه قد وخطه الشيب يعلوه صفرة أعين طويل اللحية رقيقة ضيق الجبين ، على خده خال . أمه أم ولد يقال لها مراحل . وروى الخطيب عن القاسم بن محمد بن عباد قال : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء غير عثمان بن عفان والمأمون ، وهذا غريب جدا لا يوافق عليه ، فقد كان يحفظ القرآن عدة من الخلفاء . قالوا : وقد كان المأمون في شهر رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة ، وجلس يوماً لأملاء الحديث فاجتمع حوله القاضي يحيى ابن أكرم وجماعة فأملى عليهم من حفظه ثلاثين حديثاً . وكانت له بصيرة بهلوم متعددة ، فقهاً وطباً وشعراً وفرائض وكلاماً ونحواً وغريبه ، وغريب حديث ، وعلم النجوم . وإليه ينسب الزيج المأموني . وقد اختبر مقدار الدرجة في وطنه سنجار فاختلف عمله وعمل الأوائل من الفقهاء . وروى ابن عساكر

أن المأمون جلس يوماً للناس وفي مجلسه الأمراء والعلماء ، فجاءت امرأة تتظلم إليه فذكرت أن أخاها توفي وترك ستمائة دينار ، فلم يحصل لها سوى دينار واحد . فقال لها المأمون على البدنية : قد وصل إليك حقتك ، كان أخاك قد ترك بنتين وأما وزوجة واثني عشر أخاً وأختاً واحدة وهي أنت ، قالت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : للبنتين الثلاثين أربعمائة دينار ، وللأم السدس مائة دينار ، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون ديناراً ، بقي خمسة وعشرون ديناراً لكل أخ ديناران ديناران ، ولك دينار واحد . فعجب العلماء من فطنته وحده ذهنه وسرعة جوابه . وقد رويت هذه الحكاية عن علي بن أبي طالب . ودخل بعض الشعراء على المأمون وقد قال فيه بيتاً من الشعر يراد عظيماً ، فلما أنشده إياه لم يقع منه موقعاً طائلاً ، فخرج من عنده محروماً ، فلقبه شاعر آخر فقال له : ألا أعجبك ! أنشدت المأمون هذا البيت فلم يرفع به رأساً . فقال : وما هو ؟ قال قلت فيه :

أضحى إمام الهدى المأمونٌ مشتغلاً • بالدين والناسُ بالدنيا مشاغلاً

فقال له الشاعر الآخر : ما زدت علي أن جعلته عجوزاً في محرابها . فهلا قلت كما قال جرير في

عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مُضِيعٌ نصيبُهُ * ولا عرضُ الدنيا عن الدينِ شاغلهُ

وقال المأمون يوماً لبعض جلسائه : بيتان اثنان لاثنين ما يلحق بهما أحد ، قول أبي نواس :

إذا اختبر الدنيا لبيبٌ تكشفتْ * له عن عدوِّ في لباسِ صديقِ

وقول شريح : تهونُ على الدنيا الملامةُ إنه * حريصٌ على استصلاحها من يلومها

قال المأمون : وقد أجزاني الزحام يوماً وأنا في الموكب حتى خالطت السوقة فرأيت رجلاً في دكان

عليه أبواب خلقة ، فنظر إلى نظر من برحني أو من يتعجب من أمرى فقال :

أرى كلَّ مغرورٍ تمنيه نفسه * إذا ما مضى عامٌ سلامةً قابلِ

وقال يحيى بن أكنم : سمعت المأمون يوم عيد خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على

الرسول (ص) ، ثم قال : عباد الله ! عظم أمر الدارين وارتفع جزاء العالمين ، وطالت مدة الفريقين ،

فوالله إنه لا يجد لا اللعب ، وإنه للحق لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والميزان

والصراط ثم العقاب أو الثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز . ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في

الجنة ، والشركه في النار . وروى ابن عساکر من طريق النضر بن شميل قال : دخلت على المأمون

فقال : كيف أصبحت يا نضر ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين . فقال : ما الأرجاء ؟ فقلت دين يوافق

الملك يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم . قال : صدقت . ثم قال : يا نضر أتدرى

ما قلت في صبيحة هذا اليوم ؟ قلت : إني لمن علم الغيب لبعيد . فقال قلت أبيتا وهي :

أصبح ديني الذي أدينُ به • ولستُ منهُ الغداةُ معتذرا
 حبُّ عليٍّ بعد النبي ولا • أشتمُ صديقا ولا عمرا
 ثم ابن عفان في الجنان مع الـ * أبرارِ ذاك القتييل مصطبرا
 ألا ولا أشتمُ الزبيرَ ولا * طلحةً إن قال قائلٌ غدرا
 وعائشُ الام لستُ أشتمها • من يفترها فنحن منهُ برا

وهذا المذهب ثانی مراتب الشيعة وفيه تفضيل عليٍّ علي الصحابة . وقد قال جماعة من السلف والدارقطني : من فضل علياً علي عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأَنْصار - يعني في اجتهادهم ثلاثة أيام ثم اتفقوا علي عثمان وتقدّمه علي علي بعد مقتل عمر - وبعد ذلك ست عشرة مرتبة في التشيع ، علي ما ذكره صاحب كتاب البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم : وهو كتاب ينهيه به إلى الكفر الكفر . وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : لأوتى بأحد فضلي علي أبي بكر وعمر إلا جلده جلد المفترى . وتواتر عنه أنه قال : خير الناس بعد النبي - ، أبو بكر ثم عمر . فقد خالف المأمون الصحابة كلهم حتى علي بن أبي طالب . وقد أضاف المأمون إلى بدعته هذه التي أزرى فيها علي المهاجرين والأَنْصار ، البدعة الأخرى والطامة الكبرى وهي القول بخلق القرآن مع ما فيه من الانهماك علي تعاطي المسكر وغير ذلك من الأفعال التي تعدد فيها المنكر . ولكن كان فيه شهامة عظيمة وقوة جسيمة في القتال وحصار الأعداء ومصابرة الروم وحصرهم ، وقتل رجالهم وسبي نساءهم ، وكان يقول : كان لعمر بن عبد العزيز وعبد الملك حجاب وأنا بنفسي ، وكان يتحرى العدل ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل ، جاءتته امرأة ضعيفة قد تظلمت علي ابنه العباس وهو قائم علي رأسه ، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه ، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها ، فتناظرا ساعة فجعل صوتها يعلو علي صوته ، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون : اسكت فان الحق أنطقها والباطل أسكته ، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم

وكتب إلى بعض الأمراء : ليس المروءة أن يكون بيتك من ذهب وفضة وغريمك عار ، وجارك طاو و الفقير جائع . ووقف رجل بين يديه فقال له المأمون : والله لأقتلنك . فقال : يا أمير المؤمنين تأن علي فان الرفق نصف العفو ، فقال : ويلك ويحك ! قد حلفت لأقتلنك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن تلق الله حائثا خير من أن تلقاه قاتلا . فعفا عنه . وكان يقول : ليت أهل الجرائم يعرفون أن مذهبي العفو حتى يذهب الخوف عنهم ويدخل السرور إلى قلوبهم . وركب يوماً في حراقة فسمع ملاحاً يقول لأصحابه : ترون هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه الأمين - يقول ذلك وهو لا يشعر بمكان المأمون - فجعل المأمون يتبسم ويقول : كيف ترون الحيلة حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل

القدر؟ وحضر عند المأمون هدية بن خالد ليتفدى عنده فلما رفعت المائدة جعل هدية يلنقط ما تناثر منها من اللباب وغيره ، فقال له المأمون : أما شبيت يا شيخ؟ فقال : بلى ، حدثني حماد بن سامة عن ثابت عن أنس أن رسول الله (س) قال : « من أكل ماتحت مائدته أمن من الفقر » . قال فأمر له المأمون بألف دينار .

وروى ابن عساکر أن المأمون قال يوماً لمحمد بن عباد بن المهلب : يا أبا عبد الله قد أعطيتك ألف ألف ، وألف ألف ، وألف ألف وأعطيتك ديناراً . فقال : يا أمير المؤمنين إن منع الموجود سوء ظن بالعبود . فقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! اعطوه ألف ألف وألف ألف وألف ألف . ولما أراد المأمون أن يدخل بيوران بنت الحسن بن سهل جعل الناس يهدون لأبيها الأشياء النفيسة ، وكان من جملة من يعتربه رجل من الأدباء . فأهدى إليه مزوداً فيه ملح طيب ، ومزوداً فيه أشنان جيد ، وكتب إليه : إني كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر ولا أذكر فيها ، فوجهت إليك بالابتداء به ليمنه وبركته ، وبالختوم به لطيبه ونظافته . وكتب إليه :

بِضَاعَتِي تَقْصُرُ عَنْ هِمَّتِي * وَهَمَّتِي تَقْصُرُ عَنْ مَالِي
فَالْمَلْحُ وَالْأَشْنَانُ يَأْسِدِي * أَحْسَنُ مَا يَهْدِيهِ أَمْثَالِي

قال : فدخل بها الحسن بن سهل على المأمون فأعجبه ذلك وأمر بالمزودين ففرغوا وملأوا دنانير وبعث بهما إلى ذلك الأديب . وولد المأمون ابنه جعفر فدخل عليه الناس يهنئونه بصنوف التهاني ، ودخل بعض الشعراء فقال يهنئه بولده :

مَدَّ لَكَ اللهُ الْحَيَاةَ مَدًّا * حَتَّى تَرَى ابْنَكَ هَذَا جَدًّا
نَمْ يَفْدِي مِثْلَ مَا تُفْدِي * كَأَنَّهُ أَنْتَ إِذَا تَبَدَّى
أَشْبَهُ مِنْكَ قَامَةً وَقَدًّا * مُؤَزَّرًا بِمَجْدِهِ مُرَدًّا

قال فأمر له بعشرة آلاف درهم . وقدم عليه وهو بدمشق مال جزيل بعد ما كان قد أفلس وشكى إلى أخيه المعتصم ذلك ، فوزدت عليه خزائن من خراسان ثلاثون ألف الف درهم ، فخرج يستعرضها وقد زينت الجمال والأحمال ، ومعه يحيى بن أكرم القاضي ، فلما دخلت البلد قال : ليس من المروءة أن نحوز نحن هذا كله والناس ينظرون . ثم فرق منه أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب لم ينزل عن فرسه . ومن لطيف شعره -

لِسَانِي كَتَوَّمْتُ لِأَسْرَارِكُمْ * وَدَمْعِي نَوْمٌ لِسِرِّي مَذْبَعٌ
فَلَوْلَا دَمْعِي كَتَمْتُ الْهَوَى * وَلَوْلَا الْهَوَى لَمْ تَكُنْ لِي دُمُوعٌ

بعث خادماً ليلة من الليالي ليأتيه بجارية فأطال الخادم عندها المكث ، وتمنعت الجارية من

المجىء إليه حتى يأتي إليها المأمون بنفسه ، فانشأ المأمون يقول :

بعمتك مشتاقاً ففزت بنظرة * وأغفلتني حتى أسأت بك الظناً
فناجيت من أهوى وكننت مباعداً * فيا ليت شعري عن دنوك ما أغنى
ورددت طرفاً في محاسن وجهها * ومتمعت باستماع نغمتها أذناً
أرى أثراً منه بعينيك بيناً * لقد سرقت عيناك من عينها حسناً

ولما ابتدع المأمون ما ابتدع من التشيع والاعتزال ، فرح بذلك بشر المريسى - وكان بشر
هذا شيخ المأمون - فانشأ يقول :

قد قال مأموننا وسيدنا * قولاً له في الكتب تصديق
إنّ علياً أعني أبا حسن * أفضل من قد أقلت النوق
بعد نبي الهدى وإن لنا * أعمالنا ، والقران مخلوق
فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة :

يا أيها الناس لا قول ولا عمل * لمن يقول : كلام الله مخلوق
ما قال ذلك أبو بكر ولا عمر * ولا النبي ولم يذكره صديق
ولم يقل ذلك إلا كل مبتدع * على الرسول وعند الله زنديق
بشر أراد به إحقاق دينهم * لأن دينهم والله محقوق
يا قوم أصبح عقل من خليفتم * مقيداً وهو في الاغلال موثق

وقد سأل بشر من المأمون أن يطلب قائل هذا فيؤدبه على ذلك ، فقال : ويحك لو كان قهها
لأدبته ولكنه شاعر فلست أعرض له . ولما تجهز المأمون للغزو في آخر سفره سافرهما إلى طرسوس
استدعى بجارية كان يحبها وقد اشتراها في آخر عمره ، فضمها إليه فبكت الجارية وقالت : قتلتنى
يا أمير المؤمنين بسفرك ثم أنشأت تقول :

سأدعوك دعوة المضطرّ رباً * يثيب على الدعاء ويستجيب
لعل الله أن يكفيك حزناً * ويجمعنا كما تهوى القلوب

فضمها إليه وانشأ يقول متمثلاً : -

فيا حسنها إذ يفسل الدمع كحلها * وإذ هي تدرى الدمع منها الأنامل
صبيحة قالت في العناب قتلتنى * وقتلى بما قالت هناك تحاول

ثم أمر مسروراً الخادم بالاحسان إليها والاحتفاظ عليها حتى يرجع ، ثم قال : نحن كما قال الأخطل
قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت باطهار

ثم ودعها وسار ففرضت الجارية في غيبته هذه ، ومات المأمون أيضاً في غيبته هذه ، فلما جاء نعيه إليها تنفست الصعداء وحضرتها الوفاة وأنشأت تقول وهي في السياق :

إن الزمان سقانا من مرارتِهِ * بعدَ الخلاوةِ كاساتِ فأروانا
أبدى لنا تارةً منه فأضحكنا * ثمَ انثى نارةً أخرى فأبكانا
إنا إلى الله فيما لا يزالُ بنا * من القضاءِ ومن تلوينِ دنيانا
دنيا تراها ترينا من تصرفها * ما لا يدومُ بمصافاةٍ وأحزاننا
ونحنُ فيها كأننا لا يزالنا * للعيشِ أحياءٍ وما يبكونَ موتانا

كانت وفاة المأمون بطرسوس في يوم الخميس وقت الظهر وقيل بعد العصر ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وله من العمر نحو من ثمان وأربعين سنة ، وكانت مدة خلافته عشرين سنة وأشهرًا ، وصلى عليه أخوه المعتصم وهو ولي العهد من بعده ، ودفن بطرسوس في دار خاقان الخادم ، وقيل كانت وفاته يوم الثلاثاء ، وقيل يوم الأربعاء لثمان بقين من هذه السنة . وقيل إنه مات خارج طرسوس بأربع مراحل فحمل إليها فدفن بها ، وقيل إنه نقل إلى أذنة في رمضان فدفن بها فالله أعلم . وقد قال أبو سعيد الخزومي : —

هل رأيت النجومَ أغنت عن المأ * مون شيئاً أو مُلكِهِ المأسوسِ
خلفوةِ بعرضي طرسوس * مثل ما خلفوا أباهُ بطوسِ

وقد كان أوصى إلى أخيه المعتصم وكتب وصيته بمحضته وبحضرة ابنه العباس وجماعة القضاة والأمراء والوزراء والكتّاب . وفيها القول بخناق القرآن ولم يتب من ذلك بل مات عليه وانقطع عمله وهو على ذلك لم يرجع عنه ولم يتب منه ، وأوصى أن يكبر عليه الذي يصلى عليه خمساً ، وأوصى المعتصم بتقوى الله عز وجل والرفق بالرعية ، وأوصاه أن يعتقد ما كان يعتقده أخوه المأمون في القرآن ، وأن يدعو الناس إلى ذلك ، وأوصاه بعبد الله بن طاهر وأحمد بن إبراهيم وأحمد بن أبي دواد ، وقال شاوره في أمورك ولا تفارقه ، وإياك ويحبي بن أكرم أن تصحبه ، ثم نهاه عنه وذمه وقال : خانني ونفر الناس عني ففارقته غير راض عنه . ثم أوصاه بالعلويين خيراً ، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأن يواصلهم بصلاتهم في كل سنة

وقد ذكر ابن جرير للمأمون ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة لم يذكرها ابن عساكر مع كثرة ما يورده ، وفوق كل ذي علم عليم .

خَدَقْتَنِي الْمُعْتَصِمُ بِاللَّهِ لِيُحِبَّ حَسْبِي هَارُونَ

بويح له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس يوم الخميس الثاني عشر من رجب من سنة

ثمانى عشرة ومائتين ، وكان إذ ذاك مريضاً ، وهو الذى صلى على أخيه المأمون ، وقد سمى بعض الأسماء فى ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس فقال : ما هذا الخلف البارد ؟ أنا قد بايعت عمى المعتصم . فسكن الناس وخذت الفئنة وركب البرد بالبيعة للمعتصم إلى الآفاق ، وبالتعزية بالمأمون . فأمر المعتصم بهدم ما كان بناه المأمون فى مدينة طوانة ، ونقل ما كان حول إليها من السلاح وغيره إلى حصون المسلمين ، وأذن الفعلة بالانصراف إلى بلدانهم ، ثم ركب المعتصم بالجنود قاصداً بغداد وصحبته العباس بن المأمون ، فدخلها يوم السبت مستهل رمضان فى أبهة عظيمة وتجمل تام . وفيها دخل خلق كثير من أهل همدان وأصبهان وماسبذان ومهرجان فى دين الخرمية ، فتجمع منهم بشر كثير ، فجهز إليهم المعتصم جيوشاً كثيرة آخرهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فى جيش عظيم ، وعقد له على الجبال ، فخرج فى ذى القعدة وقرى كتابه بالفتح يوم التروية ، وأنه قهر الخرمية وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وهرب بقيتهم إلى بلاد الروم ، وعلى يدي هذا جرت فتنة الامام أحمد وضرب بين يديه كما سيأتى بسط ذلك فى ترجمة أحمد فى سنة إحدى وأربعين ومائتين . وفيها توفى من الأعيان :

بشر المريسي

وهو بشر بن غياث بن أبى كريمة أبو عبد الرحمن المريسي المتكلم شيخ المعتزلة ، وأحد من أضل المأمون ، وقد كان هذا الرجل ينظر أولاً فى شئ من الفقه ، وأخذ عن أبى يوسف القاضى ، وروى الحديث عنه وعن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وغيرهم ، ثم غلب عليه علم الكلام ، وقد نهاه الشافعى عن تعلمه وتماطيه فلم يقبل منه ، وقال الشافعى : لئن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك أحب إلى من أن يلقاه بعلم الكلام . وقد اجتمع بشر بالشافعى عند ما قدم بغداد . قال ابن خلكان : جدد القول بخناق القرآن وحكى عنه أقوال شنيعة ، وكان مرجئياً وإليه تنسب المريسية من المرجئة ، وكان يقول : إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، وإنما هو علامة للكفر ، وكان يناظر الشافعى وكان لا يحسن النحو ، وكان يلحن لحناً فاحشاً . ويقال : إن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة ، وكان يسكن درب المريسي ببغداد . والمريس عندهم هو الخبز الرقاق يمس بالسمن والتمر . قال : ومريس ناحية ببلاد النوبة تهب عليها فى الشتاء ريح باردة . وفيها توفى عبد الله بن يوسف الشيبى . وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الفسائى الدمشقى . ويحيى بن عبد الله البابلتى .

وأبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري

راوى السيرة عن زياد بن عبد الله البكائى عن ابن إسحاق مصنفها ، وإنما نسبت إليه فىقال سيرة ابن هشام ، لأنه هذبها وزاد فيها ونقص منها ، وحرر أماناً واستدرك أشياء . وكان إماماً فى

اللغة والنحو ، وقد كان متبياً بمصر واجتمع به الشافعي حين وردھا ، وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً . كانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، قاله ابن يونس في تاريخ مصر . وزعم السهيلي أنه توفي في سنة ثلاث عشرة كما تقدم فإله أعلم .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومازین

فيها ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان يدعو إلى الرضى من آل محمد ، واجتمع عليه خلق كثير وقتله قواد عبد الله بن طاهر مرات متعددة ، ثم ظهر وا عليه وهرب فأخذ ثم بعث به إلى عبد الله بن طاهر فبعث به إلى المعتصم فدخل عليه للنصف من ربيع الآخر فأمر به فحبس في مكان ضيق طوله ثلاثة أذرع في ذراعين ، فكث فيه ثلاثاً ، ثم حول لأوسع منه وأجرى عليه رزق ومن بخدمه ، فلم يزل محبوساً هناك إلى ليلة عيد الفطر فاشتغل الناس بالعيد فدلى له جبل من كوة كان يأتيه الضوء منها ، فذهب فلم يدرك كيف ذهب وإلى أين صار من الأرض .

وفي يوم الأحد لحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى دخل إسحاق بن إبراهيم إلى بغداد راجعاً من قتال الخرمية ، ومعه أسارى منهم ، وقد قتل في حرب به منهم مائة ألف مقاتل . وفيها بعث المعتصم عجيفاً في جيش كثيف لقتال الزط الذين عاثوا فساداً في بلاد البصرة ، وقطعوا الطريق ونهبوا الغلات ، فكث في قتالهم تسعة أشهر فقهرهم وقمع شرهم وأباد خضراهم . وكان القائم بأمرهم رجل يقال له محمد بن عثمان ومعه آخر يقال له سحاق ، وهو داهيتهم وشيطانهم ، فأراح الله المسلمين منه ومن شره .

وفيها توفي سليمان بن داود الهاشمي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الزبير الحميدي صاحب المسند وتلميذ الشافعي وعلي بن عياش . وأبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري . وأبو بشار الهندي .

ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من الهجرة

في يوم عاشوراء منها دخل عجيف في السفن إلى بغداد ومعه من الزط سبعة وعشرون الفاقد جاؤا بالأمان إلى الخليفة ، فأنزلوا في الجانب الشرقي ثم نفاهم إلى عين رومة ، فأغارت الروم عليهم فاجتاحوم عن آخرهم ، ولم يفلت منهم أحد . فكان آخر العهد بهم . وفيها عقد المعتصم للأفشين واسمه حيدر بن كاوس على جيش عظيم لقتال بابك الخرمي لعنه الله ، وكان قد استفحل أمره جداً ، وقويت شوكته ، وانتشرت أتباعه في أذربيجان وما والاها ، وكان أول ظهوره في سنة إحدى ومائتين ، وكان زنديقاً كبيراً وشيطاناً رجياً ، فسار الأفشين وقد أحكم صناعة الحرب في الأرصاد وعمارة الحصون وإرصاد المسدد ، وأرسل إليه المعتصم مع بغا الكبير أموالاً جزيلة نفقة لمن معه من

الجند والأتباع ، فالتقى هو وبابك فاقنتلا قتالا شديداً ، فقتل الأفسين من أصحاب بابك خلقاً كثيراً
أزيد من مائة ألف ، وهرب هو إلى مدينته فأوى فيها مكسوراً ، فكان هذا أول ما توضع من
أمر بابك ، وجرت بينهما حروب يطول ذكرها ، وقد استقصاها ابن جرير .

وفيها خرج المعتصم من بغداد فزل القاطول فأقام بها . وفيها غضب المعتصم على الفضل بن
مروان بعد المكانة العظيمة ، وعزله عن الوزارة وحبس وأخذ أمواله وجمل مكانه محمد بن عبد الملك
ابن الزيات . وحجج بالناس فيها صالح بن علي بن محمد أمير السنة الماضية في الحج .
وفيها توفي آدم بن أبي إياس . وعبد الله بن رجاء . وغفان بن مسلمة . وقالون أحد مشاهير
القراء . وأبو حذيفة الهندي .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

فيها كانت وقعة هائلة بين بغا الكبير وبابك فهزم بابك بغا وقتل خلقاً من أصحابه . ثم اقتتل
الأفسين وبابك فهزمه افسين وقتل خلقاً من أصحابه بعد حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير .
وحجج بالناس فيها نائب مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى العباسي .

وفيها توفي عاصم بن علي . وعبد الله بن مسلم القعنبى . وعبدان . وهشام بن عبيد الله الرازي .

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائتين

فيها جهز المعتصم جيشاً كثيراً مدداً للأفسين على محاربة بابك وبعث إليه ثلاثين ألف ألف
درهم نفقة للجند ، فاقنتلوا قتالا عظيماً ، وافتتح الأفسين البلد مدينة بابك واستباح ما فيها ، وذلك
يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان . وذلك بعد محاصرة وحروب هائلة وقتال شديد وجهد جهيد .
وقد أطال ابن جرير بسط ذلك جدا . وحاصل الأمر أنه افتتح البلد وأخذ جميع ما فيه من الأموال
مما قدر عليه .

ذكر مسك بابك

لما احتوى المسلمون على بلده المسمى بالبند وهي دار ملكه ومر سلطنته هرب بمن معه من أهله
وولده ومعه أمه وامراته ، فانفرد في شردمة قليلة ولم يبق معهم طعام ، فاجتازوا بحراث فبعث غلامه
إليه وأعطاه ذهباً فقال : اعطه الذهب وخذ ما معه من الخبز ، فنظر شريك الحراث إليه من بعيد
وهو يأخذ منه الخبز ، فظن أنه قد اغنصبه منه ، فذهب إلى حصن هناك فيه نائب للخليفة يقال له
سهل بن سنباط ليستعدى على ذلك الغلام ، فركب بنفسه وجاء فوجد الغلام فقال : ما خبرك ؟
فقال : لا شيء ، إنما أعطيت دنانير وأخذت منه الخبز . فقال : ومن أنت ؟ فأراد أن يعنى عليه
الخبز فألح عليه فقال : من غلمان بابك ، فقال : وأين هو ؟ فقال : ها هو ذا جالس يريد الغداء . فسار
إليه سهل بن سنباط فلما رآه ترجل وقبل يده وقال : يا سيدي أين تريد ؟ قال : أريد أن أدخل بلاد

الروم ، فقال : إلى عند من تذهب أحرز من حصني وأنا غلامك وفي خدمتك ؟ وما زال به حتى خدعه وأخذه معه إلى الحصن فأنزله عنده وأجرى عليه النفقات الكثيرة والتحف وغير ذلك ، وكتب إلى الأفشين يعلمه ، فأرسل إليه أميرين لقبضه ، فترلا قريباً من الحصن وكتبوا إلى ابن سبباط فقال : أقبلنا مكانكما حتى يأتيكما أمرى . ثم قال لبابك : إنه قد حصل لك هم وضيق من هذا الحصن وقد عزمتم على الخروج اليوم إلى الصيد ومعنا بزة وكلاب ، فان أحببت أن نخرج معنا لتشرح صدرك وتذهب همك فافعل . قال : نعم ! فخرجوا وبعث ابن سبباط إلى الأميرين أن كونوا مكان كذا وكذا في وقت كذا وكذا من النهار ، فلما كانا بذلك الموضع أقبل الأمهرا من معهما من الجنود فأحاطوا ببابك وهرب ابن سبباط ، فلما رأوه جاؤا إليه فمالوا : ترجل عن دابتك . فقال : ومن أنا ؟ فذكرا أنهما من عند الأفشين ، فترجل حينئذ عن دابته وعليه دراعة بيضاء وخف قصير وفي يده باز ، فنظر إلى ابن سبباط فقال : قبحك الله فما طلبت مني من المال ما شئت كنت أعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء ! ثم أركبوه وأخذوه معهما إلى الأفشين ، فلما اقتربوا منه خرج فتلقاه وأمر الناس أن يصطفوا صفين ، وأمر بابك أن يترجل فيدخل بين الناس وهو ماش ، ففعل ذلك ، وكان يوماً مشهوداً جداً . وكان ذلك في شوال من هذه السنة . ثم احتفظ به وسجنه عنده . ثم كتب الأفشين إلى المعتصم بذلك فأمره أن يقدم به وبأخيه ، وكان قد مسكه أيضاً . وكان اسم أخى بابك عبد الله ، فتجهز الأفشين بهما إلى بغداد في تمام هذه السنة ففرغت ولم يصل بهما إلى بغداد . وحج بالناس فيها الأمير المتقدم ذكره في التي قبلها .

وفيهما توفي أبو اليمان الحكيم بن نافع . وعمر بن حفص بن عياش . ومسلم بن إبراهيم . وبجى بن صالح الوحاظي . ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

في يوم الخميس ثالث صفر منها دخل الأفشين وصحبته بابك على المعتصم سامرا ، ومعه أيضاً أخو بابك في نجمل عظيم ، وقد أمر المعتصم ابنه هارون الواثق أن يتلقى الأفشين وكانت أخباره تفد إلى المعتصم في كل يوم من شدة اعتناء المعتصم بأمر بابك ، وقد ركب المعتصم قبل وصول بابك بيومين على البريد حتى دخل إلى بابك وهو لا يعرفه ، فنظر إليه ثم رجع ، فلما كان يوم دخوله عليه تأهب المعتصم واصطف الناس سباطين وأمر بابك أن يركب على فيل ليشهر أمره ويعرفوه ، وعليه قباء ديباج وقلنسوة سمور مدورة ، وقد هيئوا الفيل وخضبوا أطرافه ولبسوه من الحرير والأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً ، وقد قال فيه بعضهم :

قد خُضِبَ الفيلُ كعادته • بجمل شيطان خراسانِ

والفيلُ لا يُخضَبُ أعضاءهُ • الا لذي شأنٍ من الشأنِ

ولما أحضر بين يدي المعتصم أمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وشق بطنه ، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصب جثته على خشبة بسامرا ، وكان بابك قد شرب الخمر ليلة قتله وهي ليلة الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة . وكان هذا الملعون قد قتل من المسلمين في مدة ظهوره - وهي عشرون سنة - مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان - قاله ابن جرير - وأسر خلقاً لا يحصون ، وكان جملة من استنقذه الأفيشين من أسره نحواً من سبعة آلاف وستمائة إنسان ، وأسر من أولاده سبعة عشر رجلاً ، ومن حلائله وحلائل أولاده ثلاثة وعشرين امرأة من الخواتين ، وقد كان أصل بابك من جارية زرية الشكل جداً ، فأل به الحال إلى ما آل به إليه ، ثم أراح الله المسلمين من شره بعد ما أفتن به خلق كثير وجم غفير من العوام الطغام .

ولما قتله المعتصم توج الأفيشين وقلده وشاحين من جوهر ، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم ، وكتب له بولاية السند ، وأمر الشعراء أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من الخير إلى المسلمين ، وعلى تخريبه بلاد بابك التي يقال لها البند وتركه إياها قيعاً خراباً . فقالوا في ذلك فأحسنوا ، وكان من جلتهم أبو تمام الطائي وقد أورد قصيدته بتامها ابن جرير وهي قوله :

بَدَّ الْجِلَادُ الْبِنْدُ فَهُوَ دَفِينُ * مَا إِنْ بِهَا إِلَّا الْوَحُوشُ قَطِينُ
لَمْ يَقْرِهِ هَذَا السِّيفُ هَذَا الصَّبْرُ فِي * هَبْجَاءَ إِلَّا عَزَّ هَذَا الدِّينُ
قَدْ كَانَ عُدْرَةَ سُودٍ فَافْتَضَّهَا * بِالسِّيفِ فَحُلَّ الْمَشْرِقِ الْأَفْشِينُ
فَاعَادَهَا تَعْوِي الثَّعَالِبِ وَسَطَّهَا * وَلَقَدْ تَرَى بِالْأَمْسِ وَهِيَ عَرِينُ
هَطَلَتْ عَلَيْهَا مِنْ جَمَاجِمِ أَهْلِهَا * دِيمٌ إِمَارَتُهَا طُلَى وَشُؤُونُ
كَانَتْ مِنَ الْمُهْجَاتِ قَبْلَ مَفَازَةٍ * عُسْرًا فَأَضْحَتْ وَهِيَ مِنْهُ مَعِينُ

وفي هذه السنة - أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين - أوقع ملك الروم توفيل بن ميخائيل بأهل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة ، قتل فيها خلقاً كثيراً من المسلمين ، وأسر مالا يحصون كثرة ، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات . ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وحمل أعينهم قبحة الله . وكان سبب ذلك أن بابك لما أحيط به في مدينة البند استوسقت الجيوش حوله وكتب إلى ملك الروم يقول له : إن ملك العرب قد جهز إلى جمهور جيشه ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها ، فان كنت تريد الغنيمة فانض سريراً إلى ماحولك من بلاده فخذها فانك لا تجد أحداً يمانعك عنها . فركب توفيل بمائة ألف وانضاف إليه المحمرة الذين كانوا قد خرجوا في الجبال وقتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلم يقدر عليهم لأنهم تحصنوا بتلك الجبال فلما قدم ملك الروم صاروا معه على المسلمين فوصلوا إلى ملطية فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً

وأسروا نساءهم ، فلما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير ، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه . وخرج من بغداد فمكّر غربى دجلة يوم الاثنين لليلتين خلتما من جمادى الأولى ووجه بين يديه عجيفاً وطائفة من الأمراء ومعهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة ، فأسرعوا السير فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشر راجعاً إلى بلاده ، وتفارت الحال ولم يكن الاستدراك فيه ، فرجعوا إلى الخليفة لإعلامه بما وقع من الأمر ، فقال للأمراء : أى بلاد الروم أمنع ؟ قالوا : عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام ، وهى أشرف عندهم من القسطنطينية .

فتح عمورية على يبر القاهر

لما تفرغ المعتصم من بابك وقتله وأخذ بلاده استدعى بالجيوش إلى بين يديه ونجهز جهازاً لم يجزه أحد كان قبله من الخلفاء ، وأخذ معه من آلات الحرب والآجال والجمال والقرب والدواب والنفط والخبيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله ، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال ، وبعث الأفشين حيدر بن كاوس من ناحية سروج ، وعبي جيوشه تعبئة لم يسمع بمثلهما ، وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب ، فانتهى في سيره إلى نهر اللسى وهو قريب من طرسوس ، وذلك في رجب من هذه السنة . وقد ركب ملك الروم في جيشه فقصده نحو المعتصم فتقاربا حتى كان بين الجيشين نحو من أربعة فراسخ ، ودخل الأفشين بلاد الروم من ناحية أخرى ، فجاءوا في أثره وضاق ذرعه بسبب ذلك إن هو ناجز الخليفة جاءه الأفشين من خلفه فالتقى عليه فيهلك ، وإن اشتغل بأحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه . ثم اقترب منه الأفشين فسار إليه ملك الروم في شردمة من جيشه واستخاف على بقية جيشه قريباً له فالتقى هو والأفشين في يوم الخميس لخمس بقين من شعبان منها ، فثبت الأفشين في ثانی الحال وقتل من الروم خلقاً وجرح آخرين ، وتغلب على ملك الروم وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأسرع الأوبة فاذا نظام الجيش قد انحل ، فغضب على قرابته وضرب عنقه وجاءت الأخبار بذلك كله إلى المعتصم فسره ذلك وركب من فوره وجاء إلى أتره ووافاه الأفشين بمن معه إلى هناك ، فوجدوا أهلها قعد هربوا منه فتقوا منها بما وجدوا من طعام وغيره ، ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق فليمنه عليها الأفشين ، والميسرة عليها اشناس ، والمعتصم في القلب ، وبين كل عسكري فرسخان ، وأمر كل أمير من الأفشين وأشناس أن يجعل لجيشه ميمنة وميسرة وقلبا ومقدمة وساقة ، وأنهم مهمامروا عليه من القرى حرقوه وخرّبوه وأسروا وغنموا ، وسار بهم كذلك قاصداً إلى عمورية ، وكان بينها وبين مدينة أتره سبع مراحل ، فأول من وصل إليها من الجيش اشناس أمير الميسرة ضحوة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان

من هذه السنة ، فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها ، ثم قدم المعتصم صبيحة يوم الجمعة بعده ، فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها ، وقد تحصن أهلها تحصناً شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح ، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة . وقسم المعتصم الأبراج على الأمراء فنزل كل أمير نجاة الموضع الذي أقطعه وعينه له ، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشد إليه ، أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين ، وكان قد تنصر عندهم وتزوج منهم ، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجوع إلى الأسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه ، كان في السور كان قد هدمه السيل وبني بناء ضعيفا بلا أساس ، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي دلم عليه ذلك الأسير ، فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فأخ عليها المنجنيق فجعلوا فوقها البرادع ليردوا حدة الحجر فلم تغن شيئاً ، وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسخ . فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك ، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا بالجيش في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما من أنما ؟ فقالا : من أصحاب فلان - لأمر سموه من أمراء المسلمين - فحملوا إلى المعتصم فقررهما فاذا معهما كتاب مناطس نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار ، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد من معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائنا في ذلك ما كان . فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين نخلع عليهما ، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة ، فأسلما من فورهما فأمر الخليفة أن يطاق بهما حول البلد وعليهما الخلع ، وأن يوقفا تحت حصن مناطس فينثر عليهما الدراهم والخلع ، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما . ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة ، فضاقت الروم ذرعا بذلك ، وألح عليهم المسلمون في الحصار ، وقد زاد المعتصم في المجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب . ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها ، أعمل المجانيق في مقاومة السور ، وكان قد غنم في الطريق غنما كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويحیی بملء جلده تراباً فيطرحه في الخندق ، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً ، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك . وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعب ، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنوا من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة ، فبعث المعتصم من نادى في الناس : إنما ذلك سقوط السور . وفرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً ، لكن لم يكن ما هدم يسع الخليل والرجال إذا دخلوا . وقوى الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه ،

فضهف ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار ، فذهب إلى مناطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا : لا نترك ما نحن موكلون في حفظه . فلما يئس منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به . فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت من المقاتلة ، فركب المسلمون نحوها فجعلت الروم يشيرون إليهم ولا يقدررون على دفاعهم ، فلم يلتفت إليهم المسلمون ، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون ، وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم ، وقد حشروهم في كنيسة لهم هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم ، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب ، وهو مناطس في حصن منبج ، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بمخاض الحصن الذي فيه مناطس فناداه المنادي ويحك يا مناطس ! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك . فقالوا : ليس بمناطس هنا مرتين . فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس هذا مناطس هذا مناطس . فرجع الخليفة ونصب السلام على الحصن وطلعت الرسل إليه فقالوا له : ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين . فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جىء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشى إلى مضرب الخليفة مهاتاً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل ، فأوثق هناك . وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحصى ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله ، وأمر المعتصم باحراق ما بقي من ذلك ، وباحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بها الروم على شيء من حرب المسلمين ، ثم انصرف المعتصم راجعاً إلى ناحية طرسوس في آخر شوال من هذه السنة . وكانت إقامته على عمورية خمسة وعشرين يوماً .

مقتل العباس بن المأمون

كان العباس مع عمه المعتصم في غزوة عمورية ، وكان عجيف بن عنيسة قد ندمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون بطرسوس حين مات بها ، ولامه على مبايعته عمه المعتصم ، ولم يزل به حتى أجابه إلى الفتك بعمه وأخذ البيعة من الأمراء له ، وجيز رجلاً يقال له الحارث السمرقندي وكان نديماً للعباس ، فأخذ له البيعة من جماعة من الأمراء في الباطن ، واستوثق منهم وتقدم إليهم أنه يلي الفتك بعمه ، فلما كانوا بدرج الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية ، أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد ، فقال العباس : إني أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة ، فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالمغانم أشار عليه أن يقتله فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا ، فلما رجعوا فطن المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس وأخذ بالحزم

واجتهد بالعزم ، واستدعى بالحارث السمرقندي فاستقره فأقر له بجملة الأمر ، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسلموا له ، فاستكثرهم المعتصم واستدعى بابن أخيه العباس فقيد ، وغضب عليه وأهانته ، ثم أظهر له أنه قد رضى عنه وعفا عنه ، فأرسله من القيد وأطلق سراحه ، فلما كان من الليل استدعاه إلى حضرته في مجلس شرابه واستخلى به حتى سقاء واستحكاك عن الذي كان قد دبره من الأمر ، فشرح له القضية ، وذكر له القصة ، فإذا الأمر كما ذكر الحارث السمرقندي . فلما أصبح استدعى بالحارث فأخلاه رسالته عن القضية نازيا فذكرها له كما ذكرها أول مرة ، فقال : ويحك إني كنت حريصاً على ذلك فلم أجد إلى ذلك سبيلاً بصدقك إياي في هذه القصة . ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيد وسلم إلى الأفشين ، وأمر بهجيف وبقية الأمراء الذين ذكروهم فاحتفظ عليهم ، ثم أخذهم بأنواع العقبات التي أقترحها لهم ، فقتل كل واحد منهم بنوع لم يقتل به الآخر ، ومات العباس بن المأمون بمنزلة فدفن هناك ، وكان سبب موته أنه أجاعه جوعاً شديداً ، ثم جىء بأكل كثير فأكل منه وطلب الماء فمنع منه حتى مات ، وأمر المعتصم بلمنه على المنبر وسماه اللعين . وقتل جماعة من ولد المأمون أيضاً

وحج بالناس فيها محمد بن داود . وفيها توفي من الأعيان . بابك الخرمي قتل وصلب كما قدمنا . و خالد بن خراش وعبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد . ومحمد بن سنان العوفي . وموسى ابن إسماعيل . ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل بأمل طبرستان يقال له مازيار بن قارن بن يزداهرمز ، وكان لا يرضى أن يدفع الخراج إلى نائب خراسان عبد الله بن طاهر بن الحسين ، بل يبعثه إلى الخليفة ليقبضه منه ، فبعث الخليفة من يتلقى الحمل إلى بعض البلاد ليقبضه منه ثم يذفعه إلى ابن طاهر ، ثم آل أمره إلى أن وثب على تلك البلاد وأظهر المخالفة للمعتصم . وقد كان المازيار هذا ممن يكاتب بابك الخرمي ويعده بالنصر . ويقال إن الذي قوى رأس مازيار على ذلك الأفشين ليعجز عبد الله بن طاهر عن مقاومته فيوليه المعتصم بلاد خراسان مكانه ، فبعث إليه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب - أخا إسحاق بن إبراهيم - في جيش كثيف فجرت بينهم حروب طويلة استقصاها ابن جرير ، وكان آخر ذلك أسر المازيار وحمله إلى ابن طاهر ، فاستقره عن الكتب التي بعثها إليه الأفشين فأقر بها ، فأرسله إلى المعتصم وما معه من أمواله التي احتفظت للخليفة ، وهي أشياء كثيرة جدا ، من الجواهر والذهب والنياب . فلما أوقف بين يدي الخليفة سأله عن كتب الأفشين إليه فأنكرها ، فأمر به فضرب بالسياط حتى مات وصلب إلى جانب بابك الخرمي على جسر بغداد ، وقتل عيون أصحابه وأتباعه . وفيها تزوج الحسن بن الأفشين بآترجة بنت أشناس ودخل بها في قصر المعتصم بسامرا في جمادى ،

وكان عرساً حافلاً ، ولبه المعتصم بنفسه ، حتى قيل إنهم كانوا يخضبون لحا العامة بالفضة . وفيها خرج منكجور الأشرسنى قرابة الأفشين بأرض أذربيجان وخلع الطاعة ، وذلك أن الأفشين كان قد استنابه على بلاد أذربيجان حين فرغ من أمر بابك ، فظفر منكجور بال عظيم مخزون لبابك في بعض البلدان ، فأخذه لنفسه وأخفاه عن المعتصم ، وظهر على ذلك رجل يقال له عبد الله بن عبد الرحمن ، فكتب إلى الخليفة في ذلك فكتب منكجور يكذبه في ذلك ، وعم به ليقته فامتنع منه بأهل أذربيل . فلما تحقق الخليفة كذب منكجور بعث إليه بغا الكبير فخاربه وأخذه بالأمان وجاء به إلى الخليفة . وفيها مات مناظس الرومي نائب عمورية ، وذلك أن المعتصم أخذه معه أسيراً فاعتقله بسامرا حتى مات في هذه السنة . وفي رمضان منها مات إبراهيم بن المهدي بن المنصور عم المعتصم ويعرف بابن شكلة ، وكان أسود اللون ضخماً فصيحاً فاضلاً ، قال ابن ماكولا : وكان يقال له الصيني - يعني لسواده - وقد كان ترجمه ابن عساكر ترجمة حافلة ، وذكر أنه ولي إمرة دمشق نيابة عن الرشيد أخيه مدة سنتين ثم عزله عنها ثم أعاده إليها الثانية فأقام بها أربع سنين . وذكر من عدله وصرامته أشياء حسنة ، وأنه أقام للناس الحج سنة أربع وثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، ولما بويع بالخلافة في أول خلافة المأمون سنة ثنتين ومائتين قاتله الحسن بن سهل نائب بغداد ، فهزمه إبراهيم هذا ، فقصده حميد الطوسي فهزم إبراهيم واختفى إبراهيم ببغداد حين قدمها المأمون ، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه وأكرمه . وكانت مدة ولايته الخلافة سنة وإحدى عشر شهراً واثنى عشر يوماً ، وكان بدء اختفائه في أواخر ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين ، فمكث مختفياً ست سنين وأربعة أشهر وعشراً . قال الخطيب : كان إبراهيم بن المهدي هذا وافر الفضل غزير الأدب واسع النفس سخي الكف ، وكان معروفًا بصناعة الغناء ، حاذقًا فيها وقد قل المال عليه في أيام خلافته ببغداد فألح الأعراب عليه في أعطياتهم فجعل يسوف بهم . ثم خرج إليهم رسوله يقول : إنه لا مال عند اليوم ، فقال بعضهم : فليخرج الخليفة إلينا فليغن لاهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات . فقال في ذلك دعبل شاعر المأمون يندم إبراهيم بن المهدي :

يامعشرَ الأعرابِ لا تفلطوا • خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوفَ يُعطىكم حُنينيةً • لا تدخلُ الكيسَ ولا تربطُ
والمعبدياتُ لِقوادكم • وما بهذا أحدٌ يُغبطُ
فهكذا برزقُ أصحابه • خليفةٌ مُصحفةُ البربطُ

وكتب إلى ابن أخيه المأمون حين طال عليه الاختفاء : ولي النار محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل عفو ، كما جعل كل ذي نسب دونه ، فان عفا

ففضله وإن عاقب فبحقه . فوقع المأمون في جواب ذلك . القدرة تذهب الحفيظة وكفى بالندم إنافة
وعفو الله أوسع من كل شيء . ولما دخل عليه أنشأ يقول :

إن أكن مذنباً فخطي أخطأت * فدع عنك كثرة التائب
قل كما قال يوسف لبني يعقوب * بَ لَمَّا أَنُوهُ لَا تَتْرِبِ

فقال المأمون : لا تتريب . وروى الخطيب أن إبراهيم لما وقف بين يدي المأمون شرع يؤذبه
على ما فعل فقال : يا أمير المؤمنين حضرت أبي وهو جدك وقد أتى برجل ذنبه أعظم من ذنبي فأمر
بقتله فقال مبارك بن فضالة : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تؤخر قتل هذا الرجل حتى أحدثك
حديثاً ، فقال : قل . فقال : حدثني الحسن البصري عن عمران بن حصين أن رسول الله ص . قال :
« إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطان العرش : ليقيم العافون عن الناس من الخلفاء إلى أكرم
الجزء ، فلا يقوم إلا من عفا . فقال المأمون : قد قبلت هذا الحديث بقبوله وعفوت عنك يا عم .
وقد ذكرنا في سنة أربع ومائتين زيادة على هذا . وكانت أعمارهم جيدة بليغة سماحه الله . وقد ساق
من ذلك ابن عساکر جانباً جيداً .

كان مولد إبراهيم هذا في مستهل ذي القعدة سنة ثنتين وستين ومائة ، وتوفي يوم الجمعة لسبع
خلون من هذه السنة عن ثنتين وستين سنة .

وفيهما توفي سعيد بن أبي مریم المصري . وسليمان بن حرب . وأبو معمر المقعد . وعلى بن محمد
المدائني الأخباري أحد أئمة هذا الشأن في زمانه . وعمرو بن مرزوق شيخ البخاري . وقد تزوج
هذا الرجل ألف امرأة . وأبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي أحد أئمة اللغة والفقه والحديث
والقرآن والأخبار وأيام الناس ، له المصنفات المشهورة المنتشرة بين الناس ، حتى يقال إن الامام
أحمد كتب كتابه في الغريب بيده ، ولما وقف عليه عبد الله بن طاهر رتب له في كل شهر خمسمائة
درهم ، وأجراها على ذريته من بعده . وذكروا ابن خلكان أن ابن طاهر استحسّن كتابه وقال : ما ينبغي
لمقل بعث صاحبه على تصنيف هذا الكتاب أن نموج صاحبه إلى طلب المعاش . وأجرى له عشرة
آلاف درهم في كل شهر . وقال محمد بن وهب المسعودي : سمعت أبا عبيد يقول : مكثت في تصنيف
هذا الكتاب أربعين سنة . وقال هلال بن المعلى الرقي من الله على المسلمين بهؤلاء الأربعة : الشافعي
تفقه في الفقه والحديث ، وأحمد بن حنبل في الحجة . ويحيى بن معين في نفي الكذب . وأبو عبيد في
تفسير غريب الحديث . ولولا ذلك لافتحم الناس المهالك .

وذكروا ابن خلكان أن أبا عبيد ولي القضاء بطرسوس ثمانين سنة ، وذكروا له من العبادة
والاجتهاد في العبادة شيئاً كثيراً . وقد روى الغريب عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي

عبيد بن معمر بن المنفى ، وابن الأعرابي ، والفراء والكسائي وغيرهم . وقال إسحاق بن راهويه : نحن محتاج إليه وهو لا يحتاج إلينا . وقدم بغداد وسمع الناس منه ومن تصانيفه . وقال إبراهيم الحربي : كان كأنه جبل نفخ فيه روح ، يحسن كل شيء . وقال أحمد بن كامل القاضي : كان أبو عبيد فاضلاً ديناً ربانياً عالماً متقناً في أصناف علوم أهل الإيمان والاتقان والاسلام : من القرآن والفقه والمروية والأحاديث ، حسن الرواية صحيح النقل ، لا أعلم أحداً طعن عليه في شيء من علمه وكتبه ، وله كتاب الأموال وكتاب فضائل القرآن ومعانيه ، وغير ذلك من الكتب المنتفع بها رحمه الله . توفي في هذه السنة قاله البخاري . وقيل في التي قبلها بمكة ، وقيل بالمدينة . وله سبع وستون سنة . وقيل جاوز السبعين فله أعلم .

ومحمد بن عثمان أبو الجماهر الدمشقي الكفرتوني أحد مشايخ الحديث . ومحمد بن الفضل أبو النعمان السدوسي الملقب بعمار شيخ البخاري ومحمد بن عيسى بن الطباع . ويزيد بن عبد ربه الجرجسي الحمصي شيخها في زمانه .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

فيها دخل بغا الكبير ومعه منكجور قد أعطى الطاعة بالأمان . وفيها عزل المعتصم جعفر بن دينار عن نيابة اليمن وغضب عليه وولى اليمن ايتاخ . وفيها وجه عبد الله بن طاهر بالمأزير فدخل بغداد على بغل بالكاف فضربه المعتصم بين يديه أربعين وخمسين سوطاً ثم سقى الماء حتى مات ، وأمر بصلبه إلى جنب بابك ، وأقر في ضربه أن الأفسين كان يكتبه ويحسن له خلع الطاعة ، فغضب المعتصم على الأفسين وأمر بسجنه ، فبنى له مكان كالمنارة من دار الخلافة تسمى الكوة ، إنما تسعه فقط ، وذلك لما تحقق أنه يريد مخالفة والخروج عليه ، وأنه قد عزم على الذهاب لبلاد الخزر ليستجيش بهم على المسلمين فعاجله الخليفة بالقبض عليه قبل ذلك كله ، وعقد له المعتصم مجلساً فيه قاضيه أحمد ابن أبي دواد المعتزلي ، ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات ، ونائبه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فاتهم الأفسين في هذا المجلس بأشياء تدل على أنه باق على دين أجداده من الفرس . منها أنه غير مختن فاعتذر أنه يخاف ألم ذلك ، فقال له الوزير - وهو الذي كان يناظره من بين القوم - فانت تطاعن بالرماح في الحروب ولا تخاف من طعنها وتخاف من قطع قلفة بيدتك؟ ومنها أنه ضرب رجلين إماماً ومؤذناً كل واحد ألف سوط لأنهما هدمتا بيت أصنام فأنخذاه مسجداً . ومنها أنه عنده كتاب كلبه ودمنه مصوراً فيه الكفر وهو محلى بالجواهر والذهب ، فاعتذر أنه ورثه من آبائهم . واتهم بأن الأعاجم يكتبونه وتكتب إليه في كتبها : أنت إله الآلهة من العبيد ، وأنه يقرم على ذلك . فجعل يعتذر بأنه أجرام على ما كانوا يكتبون به أباه وأجداده ، وخاف أن يأمرهم بترك ذلك فيتضع عندهم

فقال له الوزير: ويحك فإذا أبقيت لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى؟ وأنه كان يكاتب المازبار بأن يخرج عن الطاعة وأنه في ضيق حتى ينصر دين المجوس الذي كان قديماً ويظهره على دين العرب، وأنه كان يستطيب المنخقة على المذبوحة، وأنه كان في كل يوم أربعاء يستدعي بشاة سوداء فيضربها بالسيف نصفين ويمشي بينهما ثم يأكلها، فعند ذلك أمر المعتصم بغيا الكبير أن يسجنه مهاناً ذليلاً فجعل يقول: إني كنت أتوقع منكم ذلك.

وفي هذه السنة حمل عبد الله بن طاهر الحسن بن الأفشين وزوجته أترجة بنت أشناس إلى سامرا. وحج بالناس فيها محمد بن داود.

وفيهما توفي من الأعيان أصبغ بن الفرج، وسعدويه، ومحمد بن سلام البيكندی شيخ البخاري، وأبو عمر الجرمي. وأبو دلف العجلي النيمى الأمير أحد الأجواد.

وسعيد بن مسعدة

أبو الحسن الأخفش الأوسط البلخي ثم البصرى النحوى، أخذ النحو عن سيبويه وصنف كتباً كثيرة منها كتاب في معاني القرآن، وكتاب الأوسط في النحو وغير ذلك، وله كتاب في العروض زاد فيه بحر الخبب على الخليل، وسمى الأخفش أصغر عيذه وضمف بصره، وكان أيضاً أدلج، وهو الذى لا يضم شفتيه على أسنانه، كان أولاً يقال له الأخفش الصغير بالنسبة إلى الأخفش الكبير، أبى الخطاب عبد الحميد بن عبد الحميد الهجرى، شيخ سيبويه وأبى عبيدة، فلما ظهر على بن سليمان ولقب بالأخفش أيضاً صار سعيد بن مسعدة هو الأوسط، والهجرى الأكبر، وعلى ابن سليمان الأصغر. وكانت وفاته في هذه السنة، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين.

الجرمي النحوي

وهو صالح بن إسحاق البصرى، قدم بغداد وناظر بها الفراء، وكان قد أخذ النحو عن أبى عبيدة وأبى زيد والأصمى وصنف كتباً منها الفرخ - يعنى فرخ كتاب سيبويه - وكان فيها فاضلاً نحوياً بارعاً عالماً باللغة حافظاً لها، دينا ورعا حسن المذهب، صحيح الاعتقاد وروى الحديث. ذكره ابن خلكان وروى عنه المبرد، وذكره أبو نعيم في تاريخ أصبهان.

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين

في شعبان منها توفي الأفشين في الحبس فأمر به المعتصم فصلب ثم أحرق وذرى رماده في دجلة واحتيط على أمواله وحواصله فوجدوا فيها أصناماً مكلاة بذهب وجواهر، وكتباً في فضل دين المجوس وأشياء كثيرة كان ينهم بها، تدل على كفره وزندقته، وتحقق بسببها ما ذكر عنه من الانتماء إلى

دين آباءه المجوس . وحبج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيهما توفي إسحاق القروى . وإسماعيل بن أبى أوس . ومحمد بن داود صاحب التفسير . وغسان ابن الربيع . ويحيى بن يحيى التميمى شيخ مسلم بن الحجاج . ومحمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين

وأبو دلف العجلي

عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية بن خزاعى بن عبد العزيز بن داف ابن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لحيم الأمير أبو دلف العجلي أحد قواد المأمون والمعتصم وإليه ينسب الأمير أبو نصر بن ما كولا ، صاحب كتاب الاكمال . وكان القاضى جلال الدين خطيب دمشق القزوينى يزعم أنه من سلالة ، ويذكر نسبه إليه ، وكان أبو دلف هذا كرمياً جواداً موحياً ، قد قصده الشعراء من كل أوب ، وكان أبو تمام الطائى من جملة من يغشاه ويستمنح نداءه ، وكانت لديه فضيلة فى الأدب والغناء ، وصنف كتباً منها سياسة الملوك ، ومنها فى الصيد والنبزاة . وفى السلاح وغير ذلك . وما أحسن ما قال فيه بكر بن النطاع الشاعر :

يا طالباً للكيمياء وعلمه * مدح ابن عيسى الكيمياء الأعظم

لولم يكن فى الأرض إلا درهم * ومدحتة لآتاك ذاك الدرهم

فيقال : إنه أعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم ، وكان شجاعاً فانتكا ، وكان يستدين ويعطى ، وكان أبوه قد شرع فى بناء مدينة الكرخ فمات ولم يتمها فأتىها أبو دلف ، وكان فيه تشيع ، وكان يقول : من لم يكن متغالياً فى التشيع فهو ولد زنا . فقال له ابنه دلف : لست على مذهبك يا أبة . فقال : والله لقد وطئت أمك قبل أن أشتريها ، فهذا من ذاك . وقد ذكر ابن خلكان أن ولده رأى فى المنام بعد وفاة أبيه أن آتيا أتاه فقال : أجب الأمير ! قال فقامت معه فأدخلني داراً وحشة وعرة سوداء الحيطان مغلقة السقوف والأبواب . ثم أصدتني فى درج مهائم أدخلني غرفة ، وإذا فى حيطانها أثر النيران ، وفى أرضها أثر الرماد ؛ وإذا بأبى فيها وهو عريان واضع رأسه بين ركبتيه فقال لى كالمستفهم : أدلف ؟ فقلت دلف . فأنشأ يقول :

أبلغن أهلنا ولا تخف عنهم • ما لقينا فى البرزخ الخناق

قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا • فأرحموا وحشتي وما قد ألقى

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم ! ثم أنشأ يقول :

فلو أنا إذا متنا تركنا • لكان الموت راحة كل حتى

ولكننا إذا متنا بعثنا • ونسأل بعده عن كل شئ

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم . وانتهت .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل من أهل الذنور بالشام يقال له أبو حرب المبرقع البماني ، نخلع الطائة ودعا إلى نفسه . وكان سبب خروجه أن رجلاً من الجنيد أراد أن ينزل في منزله عند امرأته في غيبته فأنعتته المرأة فضربها الجندي في يدها فأثرت الضربة في معصمها . فلما جاء بملها أبو حرب أخبرته فذهب إلى الجندي وهو غافل فقتله ثم تحصن في رؤس الجبال وهو مبرقع ، فاذا جاء أحد دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذم من السلطان ، فاتبعه على ذلك خلق كثير من الحرانيين وغيرهم ، وقالوا : هذا هو السفباني المذكور أنه يملك الشام ، فاستفحل أمره جداً ، واتبعه نحو من مائة ألف مقاتل ، فبعث إليه المعتصم وهو في مرض موته جيشاً نحواً من مائة ألف مقاتل ، فلما قدم أمير المعتصم بن معه وخدم أمه كثيرة وطائفة كبيرة ، قد اجتمعوا حول أبي حرب ، فخشى أن يواقع والحالة هذه ، فانتظر إلى أيام حرث الأراضى فتفرق عنه الناس إلى أراضيتهم ، وتبقى في شردمة قليلة فناهضه فأسره وتفرق عنه أصحابه ، وحمله أمير السرية وهو رجا بن أيوب حتى قدم به على المعتصم ، فلامه المعتصم في تأخره عن مناجزته أول ما قدم الشام ، فقال : كان معه مائة ألف أو يزيدون ، فلم أزل أطاوله حتى أمكن الله منه ، فشكره على ذلك .

وفيها في يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة كانت وفاة أبي إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور .

وهذه ترجمته

هو أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي يقال له المشن لأنه ثامن ولد العباس ، وأنه ثامن الخلفاء من ذريته ، ومنها أنه فتح ثمان فتوحات ، ومنها أنه أقام في الخلافة ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام . وقيل ويومين ، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة ، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون سنة ، ومنها أنه خلف ثمانية بنين وثمانى بنات ، ومنها أنه دخل بغداد من الشام في مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة بعد موت أخيه المأمون ، قالوا : وكان أميالاً يحسن الكتابة ، وكان سبب ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتاب غلام فمات الغلام فقال له أبوه الرشيد : ما فعل غلامك ؟ قال : مات فاستراح من الكتاب ، فقال الرشيد : وقد بلغ منك كراهه الكتاب إلى أن نجعل للموت راحة منه ؟ والله يا بني لا تذهب بعد اليوم إلى الكتاب . فتركوه فكان أمياً ، وقيل بل كان يكتب كتابة ضعيفة . وقد أسند الخطيب من طريقه عن آبائه حديثين منكرين أحدهما في ذم بني أمية ومدح بني العباس من الخلفاء . والثاني في النهي عن الحجامة يوم الخميس . وذكر بسنده

عن المعتصم أن ملك الروم كتب إليه كتاباً يتهدد فيه فقال للكاتب اكتب : قد قرأت كتابك وفهمت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلم الكفار لمن عقي الدار . قال الخطيب : غزا المعتصم بلاد الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، فأنكى نكابة عظيمة في العدو ، وفتح عمورية وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً وسبى مثلهم ، وكان في سببه ستون بطريقاً ، وطرح النار في عمورية في سائر نواحيها فأحرقها وجاء بنائها إلى العراق وجاء بياها أيضاً معه وهو منصوب حتى الآن على أحد أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر . وروى عن أحمد بن أبي دواد النخعي أنه قال : ربما أخرج المعتصم ساعده إلى وقال لي : عض يا أبا عبد الله بكل ما تقدر عليه ، فأقول إنه لا تطيب نفسي يا أمير المؤمنين أن أعض ساعدك ، فيقول : إنه لا يضرني . فأقدم بكل ما أقدر عليه فلا يؤثر ذلك في يده . وصر يوماً في خلافة أخيه بمخيم الجند فاذا امرأة تقول : ابني ابني ، فقال لها : ماشأنك ؟ فقالت : ابني أخذه صاحب هذه الخيمة . فجاء إليه المعتصم فقال له : أطلق هذا الصبي ، فامتنع عليه فقبض على جسده بيده فسمع صوت عظامه من تحت يده ، ثم أرسله فسقط ميتاً وأمر بأخراج الصبي إلى أمه . ولما ولي الخلافة كان شهماً وله همة عالية في الحرب ومهابة عظيمة في القلوب ، وإنما كانت نهمة في الانفاق في الحرب لافي البناء ولا في غيره .

وقال أحمد بن أبي دواد : تصدق المعتصم على يدي ووهب ما قيمته مائة ألف ألف درهم . وقال غيره : كان المعتصم إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل . وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : دخلت يوماً على المعتصم وعنده قينة له تغنيه فقال لي : كيف تراها؟ فقلت له : أراها تقهره بمخفق ، ونجته برفق ، ولا تخرج من شيء إلا إلى أحسن منه ، وفي صوتها قطع شذور ، أحسن من نظم الدر على النحور . فقال : والله لصفك لها أحسن منها ومن غنائها . ثم قال لابنه هارون الوائق ولي عهده من بعده : اسمع هذا الكلام . وقد استخدم المعتصم من الأتراك خلقاً عظيماً كان له من الماليك الترك قريب من عشرين ألفاً ، وملك من آلات الحرب والدواب ما لم يتفق لغيره . ولما حضرته الوفاة جعل يقول [حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون] وقال : لو علمت أن عمري قصير ما فعلت . وقال : إني أحدث هذا الخلق ، وجعل يقول : ذهبت الحيل فلا حيلة . وروى عنه أنه قال في مرض موته : اللهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك ، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي .

كانت وفاته بسر من رأى في يوم الخميس ضحى اسبعة عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذا السنة - أعني سنة سبع وعشرين ومائتين - وكان مولده يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة ، وولي الخلافة في رجب سنة ثمان عشرة ومائتين ، وكان أبيض أصهب اللحية

طويلها مر بوعاً مشرب اللون ، أمه ام ولد اسمها ماردة ، وهو أحد أولاد سنة من أولاد الرشيد ، كل منهم اسمه محمد ، وهم ابو إسحاق محمد المعتصم ، وأبو العباس محمد الأمين ، وأبو عيسى محمد ، وأبو احمد ، وأبو يعقوب ، وأبو أيوب . قاله هشام بن الكلبي . وقد ولي الخلافة بعده ولده هارون الواثق . وقد ذكر ابن جرير أن وزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات رثاه فقال :

قد فلتُ إذ غيَّبوك واصطفقت * عليك أيدي التراب والطين
إذهب فنعيم الحفيظ كنت على الـ * دنيا ونعم الظهير للدين
لا جبر الله أمةً فقدت * مثلك إلا بمنل هارون

وقال مروان بن أبي الجنوب - وهو ابن أخي حفصة - :

أبو إسحاق مات ضحىً فمتنا * وأمسينا بهارون حيننا
لئن جاء الخميس بما كرهنا * لقد جاء الخميس بما هورينا

خلافة هارون الواثق بن المعتصم

بويح له بالخلافة قبل موت أبيه يوم الاربعاء لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة - أعني سنة سبع وعشرين ومائتين - ويكنى أبا جعفر ، وأمّه أم ولد رومية يقال لها قراطيس ، وقد خرجت في هذه السنة قاصدة الحج فماتت بالحيرة ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى ، وذلك لأربع خلون من ذى القعدة من هذه السنة ، وكان الذى أقام للناس الحج فيها جعفر بن المعتصم وفيها توفى ملك الروم نوفيل بن ميخائيل ، وكانت مدة ملكه ثلثي عشرة سنة ، فملك الروم بعده امرأته تدورة . وكان ابنها ميخائيل بن نوفيل صغيراً . وفيها توفى :

بشر الحافي الزاهد المشهور

وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي ، نزيل بغداد . قال ابن خلكان : وكان اسم جده عبد الله الغيور ، أسلم على يدى علي بن أبي طالب . قلت : وكان مولده ببغداد سنة خمسين ومائة ، وسمع بها شيئاً كثيراً من حماد بن زيد ، وعبد الله بن المبارك ، وابن مهدي ، ومالك ، وأبي بكر بن عياش ، وغيرهم . وعنه جماعة منهم أبو خيثمة ، وزهير بن حرب ، وسرى السقطي ، والعباس بن عبد العظيم ، ومحمد بن حاتم . قال محمد بن سعيد : سمع بشر كثيراً ثم اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يحدث ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة في عبادته وزهاده وورعه ونسكه وتقشفه . قال الأمام أحمد يوم بلغه موته : لم يكن له نظير إلا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوج تم أمره . وفي رواية عنه أنه قال : ماترك بعد مثله . وقال إبراهيم الحربي : ما أخرجت بغداد أتم عقلاً منه ، ولا أحفظ لسانه منه ، ما عرف له غيبة

لم . وكان في كل شعرة منه عقل . ولو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء وما نقص من عقله شيء . وذكر غير واحد أن بشراً كان شاطراً في بدء أمره ، وأن سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله عز وجل في أنون حمام فرفعهما ورفع طرفه إلى السماء وقال : سيدي اسمك ههنا ملق يداس ! ثم ذهب إلى عطار فاشترى بدرهم غالبية وضخ تلك الرقعة منها ووضعها حيث لا تنال ، فاحبب الله قلبه وألممه رشده وصار إلى ما صار إليه من العبادة والزهادة .

ومن كلامه : من أحب الدنيا فليتهياً للذل . وكان بشرياً كل الخبز وحده فقيل له : أما لك آدم ؟ فقال : بلى أذكر العافية فأجملها أدماً . وكان لا يلبس نعلاً بل يمشي حافياً ، فجاء يوماً إلى باب فطرقة فقيل من ذا ؟ فقال : بشر الحافي . فقالت له جارية صغيرة : لو اشترى نعلاً بدرهم لذهب عنه اسم الحافي . قالوا : وكان سبب تركه النعل أنه جاء مرة إلى حذاء فطلب منه شراً كالنعل فقالت : ما أكثر كلفتكم يا فقراء على الناس ؟ ! فطرح النعل من يده وخلع الأخرى من رجله وحلف لا يلبس نعلاً أبداً .

قال ابن خلدكان : وكانت وفاته يوم عاشوراء ، وقيل في رمضان ببغداد ، وقيل بمرو . قلت : الصحيح ببغداد في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وعشرين والأول أصح والله أعلم . وحين مات اجتمع في جنازته أهل بغداد عن بكرة أبيهم ، فأخرج بعد صلاة الفجر فلم يستقر في قبره إلا بعد العتمة . وكان على المدائني وغيره من أئمة الحديث يصيح بأعلا صوته في الجنازة : هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة . وقد روى أن الجن كانت تنوح عليه في بيته الذي كان يسكنه . وقد رآه بعضهم في المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لي ولكل من أحبني إلى يوم القيامة . وذكر الخطيب أنه كان له أخوات ثلاث وهن : محبة . ومضغة ، وزبدة . وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعاً أيضاً . ذهبت إحداهن إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت : إني ربما طفي السراج وأنا أغزل على ضوء القمر فهل على عند البيع أن أميز هذا من هذا ؟ فقال : إن كان بينهما فرق فبزي للمشتري . وقالت له مرة إحداهن : ربما تمر بنا مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات فخلصني من ذلك . فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لما اشتبه عليها من معرفة ذلك المقدمار . وسألته عن أمين المريض أفيه شكوى ؟ قال لا ! إنما هو شكوى إلى الله عز وجل . ثم خرجت فقال لابنه عبد الله : يا بني اذهب خلفها فاعلم لي من هذه المرأة ؟ قال عبد الله : فنهبت وراها فاذا هي قد دخلت دار بشر ، وإذا هي أخته محبة .

وروى الخطيب أيضاً عن زبدة قالت : جاء ليلة أخى بشر فدخل برجله في الدار وبقيت

الأخرى خارج الدار ، فاستمر كذلك ليلته حتى أصبح ، فقيل له فم تفكرت ليلتك ؟ فقال :
تفكرت في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي وفي نفسي لأن اسمي بشر ، فقلت في
نفسى : ما الذى سبق لى من الله حتى خصنى بالاسلام من بينهم ؟ فتفكرت في فضل الله على وحمده
أن هدانى للاسلام ، وجعلنى ممن خصه به ، وألبسنى لباس أحبائه . وقد ترجمه ابن عساكر فاطب
وأطيب وأطال من غير ملال ، وقد ذكر له أشماراً حسنة ، وذكر أنه كان يتمثل بهذه الأبيات :

تعاث القذى فى الماء لا تستطيعه • وتكرخ من حوض الذنوب فتشرب
وتؤثر من أكل الطعام الذم • ولا تذكر المختار من أين يكسب
وترقد يامسكين فوق نارق • وفى حشوها نار عليك تلمب
فحتى متى لا تستفيق جهالة • وأنت ابن سبعين بدينك تلمب

ومن توفى فيها أحمد بن يونس . وإسماعيل بن عمر والبجلي . وسعيد بن منصور صاحب السنن
المشهورة التى لا يشاركه فيها إلا القليل . ومحمد بن الصباح الدولابى . وله سنن أيضاً . وأبو الوليد
الطيالىسى . وأبو الهذيل العلاف المتكلم المعتزلى . والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

فى رمضان منها خلع الواثق على اشنابس الأمير ، وتوجه ، وألبسه وشاحين من جوهر وحج بالناس
فيها محمد بن داود الأمير . وغلا السم على الناس فى طريق مكة جداً ، وأصابهم حر شديد وهم
بعرفة ، ثم أتقبه برد شديد ومطر عظيم ، كل ذلك فى ساعة واحدة ، ونزل عليهم وهم بمى مطر لم ير
مثله ، وسقطت قطعة من الجبل عند جمره العقبة فقتلت جماعة من الحجاج .

قال ابن جرير : وفيها مات أبو الحسن المدائنى أحد أئمة هذا الشأن فى منزل إسحاق بن إبراهيم
الموصلى . وحبيب بن أوس الطائى أبو تمام الشاعر
قلت أما أبو الحسن المدائنى فاسمه على بن المدائنى أحد أئمة هذا الشأن ، وإمام الأخباريين فى
زمانه ، وقد قدمنا ذكر وفاته قبل هذه السنة . وأما

أبو تمام الطائى الشاعر

صاحب الحماسة التى جمعها فى فضل النساء بهمدان فى دار وزيرها . فهو حبيب بن أوس بن
الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى أبو تمام الطائى الشاعر الأديب . ونقل الخطيب عن محمد بن
يحيى الحمولى أنه حكى عن بعض الناس أنهم قالوا : أبو تمام حبيب بن تدرس النصرانى ، فسماه
أبوه حبيب أوس بدل تدرس . قال ابن خلكان : وأصله من قرية جامم من عمل الجيدور بالقرب من
طبرية ، وكان بدمشق يعمل عند حائك ، ثم سار به إلى مصر فى شبينته . وابن خلكان أخذ ذلك

من تاريخ ابن عساكر ، وقد ترجم له أبو تمام ترجمة حسنة . قال الخطيب : وهو شامي الأصل ، وكان
 ، صر في حدائقه يسقي الماء في المسجد الجامع ، ثم جالس بعض الأدباء فاخذ عنهم وكان فطناً فهماً ،
 وكان يحب الشعر فلم يزل يعانیه حتى قال الشعر فأجاد ، وشاع ذكره وبلغ المعنصم خبره فحمله إليه
 وهو بسر من رأى ، فعمل فيه قصائد فجازته وقدمه على شعراء وقته ، قدم بغداد فجالس الأدباء
 وعاشر العلماء ، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق . وقد روى عنه أحمد بن أبي طاهر أخباراً
 بسنده . قال ابن خلكان : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع وغير
 ذلك ، وكان يقال : في طي ثلاثة : حاتم في كرمه ، وداود الطائي في زهده ، وأبو تمام في شعره . وقد
 كان الشعراء في زمانه جماعة فمن مشاهيرهم أبو الشيب ، ودعبل ، وابن أبي قيس ، وكان أبو تمام من
 خيارهم ديناً وأدباً وأخلاقاً . ومن رقيق شعره قوله : -

يا حَلِيفَ النَّدى وَيَا مَعْدِنَ الْجودِ * وَيَا خَيْرَ مَنْ حَوَيْتَ الْقَرِيضَا
 لَيْتَ حُمَاكَ بِي وَكَانَ لَكَ الْأَج * رُفْلَا نَشْتَكِي وَكُنْتُ الْمَرِيضَا

وقد ذكر الخطيب عن إبراهيم بن محمد بن عرفة أن أبا تمام توفي في سنة إحدى وثلاثين ومائتين
 وكذا قال ابن جرير . وحكى عن بعضهم أنه توفي في سنة إحدى وثلاثين ، وقيل سنة ثنتين وثلاثين
 فالله أعلم . وكانت وفاته بالموصل ، وبنيت على قبره قبة ، وقد رثاه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات
 فقال :
 نبأ أني من أعظم الأنبياء * لما ألمّ مقلقل الأحشاء
 قالوا حبيب قد نوى فأجبتهم * ناشدتكم لا نجملوه الطائي
 وقال غيره :
 فجمع القرىض بنخاتم الشعراء * وغدير روضتها حبيب الطائي
 مانا معاً فتجاوزا في حفرة * وكذلك كانا قبل في الأحياء
 وقد جمع الصولي شعر أبي تمام على حروف المعجم . قال ابن خلكان : وقد امتدح أحمد بن
 المعتصم ويقال ابن المأمون بقصيدته التي يقول فيها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم * في جلم أحنف في ذكاه إياس

فقال له بعض الحاضرين : أتقول هذا لأمر المؤمنين وهو أكبر قدراً من هؤلاء ؟ فانك ما زدت
 على أن شبهته بأجلاف من العرب البوادي . فأطرق إطراقاً ثم رفع رأسه فقال :

لا تُنكر وا ضربي له من دونه * مثلاً شروفاً في الندى والباس
 فالله قد ضرب الأقل لتوره * مثلاً من المشكاة والنبراس

قال : فلما اخذوا القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين ، وإنما قالهما أرنجبالا . قال : ولم يعش بعد
 هذا إلا قليلاً حتى مات . وقيل إن الخليفة أعطاه الموصل لما مدحه بهذه القصيدة ، فأقام بها أربعين

بوماً ثم مات . وليس هذا بصحيح ، ولا أصل له ، وإن كان قد لهج به بعض الناس كالزحاشري وغيره . وقد أورد له ابن عساكر أشياء من شعره مثل قوله : -

ولو كانت الأرزاق تُجزي على الحجا • هلكن إذا من جملهن البهائم

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد • ولا المجد في كفت امرئ والدرام

ومنه قوله : وما أنا بالغيران من دون غريبه • إذا أنا لم أصبح غيراً على العلم

طيب فؤادي منذ ثلاثين حجّة • ومذهب همي والمفرج للغم

وفيه توفى أبو نصر الفارابي . والمبسي . وأبو الجهم . ومسدد . وداود بن عمرو الضبي . وبجى بن

عبد الحميد الحناني . ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

فيها أمر الواثق بعقوبة الدواوين وضربهم واستخلاص الأموال منهم ، لظهور خياناتهم وإسرافهم في أمورهم ، فمنهم من ضرب ألف سوط وأكثر من ذلك وأقل ، ومنهم من أخذ منه ألف ألف دينار ، ودون ذلك ، وجاهر الوزير محمد بن عبد الملك لسائر ولاية الشرط بالعداوة فمسفوا وحبسوا ولقوا شراً عظيماً ، وجهماً جليلاً ، وجلس إسحاق بن إبراهيم للنظر في أمرهم ، وأقيموا للناس واقضوا هم والدواوين فضيحة بليغة . وكان سبب ذلك أن الواثق جلس ليلة في دار الخلافة وجلسوا يسرون عنده ، فقال : هل منكم أحد يعرف سبب عقوبة جدي الرشيد للبرامكة ؟ فقال بعض الحاضرين : نعم يا أمير المؤمنين ! سبب ذلك أن الرشيد عرضت له جارية فأعجبه جمالها فسأوم سيدها فيها فقال : يا أمير المؤمنين إني أقسمت بكل عين أن لا أبيعها بأقل من مائة ألف دينار ، فاستراها منه بها وبعث إلى بجى بن خالد الوزير ليعت إليه بالمال من بيت المال ، فاعتل بأنها ليست عنده ، فأرسل الرشيد إليه يؤنبه ويقول : أما في بيت مالي مائة ألف دينار ؟ وألح في طلبها فقال بجى بن خالد : أرسلوها إليه دراهم ليستكثرها ، ولعله يرد الجارية . فبعثوا بمائة ألف دينار دراهم ووضعوها في طريق الرشيد وهو خارج إلى الصلاة ، فلما اجتاز به رأى كوماً من دراهم ، فقال : ما هذا قالوا : ثمن الجارية ، فاستكثر ذلك وأمر بخزنها عند بعض خديمه في دار الخلافة ، وأعجبه جمع المال في حواصله ، ثم شرع في تتبع أموال بيت المال فاذا البرامكة قد استهلكوها ، فجعل يهجم بهم تارة يريد أخذهم وهلاكهم ، وتارة يحجم عنهم ، حتى إذا كان في بعض الليالي سمر عنده رجل يقال له أبو العود فأطلق له ثلاثين ألفاً من الدراهم ، فذهب إلى الوزير بجى بن خالد بن برمك فطلبها منه فطاله مدة طويلة ، فلما كان في بعض الليالي في السمر عرض أبو العود بذلك للرشيد في قول عمر بن أبي ربيعة :

أبي ربيعة : وعدت هنداً وما كادت تمده • ليت هنداً أنجزتنا ما أمدت

واستبدت مرة واحدة • إنما العاجز من لا يستبد

فجعل الرشيد يكرر قوله : إنما العاجز من لا يستبد ، ويحبه ذلك . فلما كان الصباح دخل عليه يحيى بن خالد فأنشده الرشيد هذين البيتين وهو يستحسنهما ، ففهم ذلك يحيى بن خالد وخاف وسأل عن من أنشد ذلك للرشيد ؟ فقيل له أبو العود . فبعث إليه وأعطاه الثلاثين ألفاً وأعطاه من عنده عشرين ألفاً ، وكذلك ولداه الفضل وجعفر ، فما كان عن قريب حتى أخذ الرشيد البرامكة ، وكان من أمرهم ما كان .

فلما سمع ذلك الواثق أعجبه ذلك وجعل يكرر قول الشاعر : إنما العاجز من لا يستبد . ثم بطش بالكتاب وهم الدواوين على إثر ذلك ، وأخذ منهم أموالاً عظيمة جداً . وفيها حج بالناس أمير السنة الماضية وهو أمير الحجيج في السنتين الماضيتين .

وفيها توفي خلف بن هشام البزار أحد مشاهير القراء ، وعبد الله بن محمد السندی ، ونعيم بن حماد الخزازي أحد أئمة السنة بعد أن كان من أكابر الجهمية ، وله المصنفات في السنن وغيرها ، وبشار بن عبد الله المنسوب إليه النسخة المكذوبة عنه أو منه ، وإكبتها عالية الاسناد إليه ، ولكنها موضوعة .

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

في جمادى منها خرجت بنو سليم حول المدينة النبوية فعاثوا في الأرض فساداً ، وأخافوا السبيل ، وقتلهم أهل المدينة فهزموا أهلها واستحوذوا على ما بين المدينة ومكة من المناهل والقرى ، فبعث إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى التركي في جيش قاتلهم في شعبان قتل منهم خمسين فارساً وأسر منهم وانهزم بقيتهم ، فدعاهم إلى الأمان وأن يكونوا على حكم أمير المؤمنين ، فاجتمع إليه منهم خلق كثير ، فدخل بهم المدينة وسجن رؤسهم في دار يزيد بن معاوية وخرج إلى الحج في هذه السنة ، وشهد معه الموسم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب نائب العراق . وفيها حج بالناس محمد بن دواد المتقدم . وفيها توفي : عبد الله بن طاهر بن الحسين

نائب خراسان وما والاها . وكان خراج ما تحت يده في كل سنة ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ، فولى الواثق مكانه ابنه طاهر . وتوفي قبله أشناس التركي بتسعة أيام ، يوم الاثنين لأحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقال ابن خلكان : توفي سنة ثمان وعشرين بمرو ، وقيل بنيسابور . وكان كريماً جواداً ، وله شعر حسن ، وقد ولي نيابة مصر بعد العشرين ومائتين . وذكر الوزير أبو القاسم بن المعزى أن البطيخ العبدلوي الذي بعصر منسوب إلى سعد الله بن طاهر هذا . قال ابن خلكان : لأنه كان يستطيعه ، وقيل لأنه أول من زرعه هناك والله أعلم .

ومن جيد شعره :

اغفر زلتي لتحرز فضل الشئ • كرمي ولا يفوتك أجري

لا تَكَلِّفِي إِلَى التَّوَسُّلِ بِالْعُدِّ * رَأَيْتِ إِنْ لَا أُقَوِّمُ بِعَذْرِي
 وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ: نَحْنُ قَوْمٌ يُلَبِّسُنَا الْخُدَّ وَالنُّجْدَ * رَأَيْتِ عَلَيَّ أَنَا نُلَبِّسُ الْحَدِيدَا
 طَوَّعُ أَيْدِي الصَّبَا تَصَيِّدُنَا الْعِي * نُونٌ وَمِنْ شَأْنِنَا نَصِيدُ الْأَسْوَدَا
 نَمَلِكُ الصَّيْدَ ثُمَّ نَمَلِكُنَا الْبِي * ضَمُّ الْمُضِيئَاتِ أَغْيَانًا وَخُدُودَا
 تَقْتَنِي سَخَطُنَا الْأَسْوَدُ وَنَخْشَى * سَقَطَ الْخَشْفُ حِينَ تَبَدَّى الْقَعُودَا
 فَتَرَانَا يَوْمَ الْكَرْبِيَّةِ أَحْرَا * رَأَى فِي السَّلْمِ لِلْفُؤَادِي عَيْبِدَا

قال ابن خلكان : وكان خزاعياً من موالى طلحة الطلحات الخزاعي ، وقد كان أبو تمام يمدحه ،
 فدخل إليه مرة فأضافه الملح بهمدان فصنف له كتاب الحماسة عند بعض نساء . ولما ولاء المأمون
 نيابة الشام ومصر صار إليها وقد رسم له بما في ديار مصر من الحواجيل ، فحمل إليه وهو في أثناء الطريق
 ثلاثة آلاف ألف دينار ، ففرقها كلها في مجلس واحد ، وأنه لما واجه مصر نظر إليها فاحتقرها وقال :
 قبح الله فرعون ، ما كان أخسه وأضعف همته حين تبجح وتعظم بملك هذه القرية ، وقال : أنار بكم
 الأعلى . وقال : أليس لي ملك مصر . فكيف لورأى بغداد وغيرها .

وفيها توفي علي بن جعد الجوهري . ومحمد بن سعد كاتب الواقدي مصنف كتاب الطبقات
 وغيره . وسعيد بن محمد الجرمي

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

فيها وقعت مفاداة الأسارى المسلمين الذين كانوا في أيدي الروم على يد أمير خاقان الخادم
 وذلك في الحرم من هذه السنة ، وكان عدة الأسارى أربعة آلاف وثلثمائة واثنين وستين أسيراً .
 وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله وأكرم مثواه

وكان سبب ذلك أن هذا الرجل وهو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي وكان جده مالك
 ابن الهيثم من أكبر الدعاة إلى دولة بني العباس الذين قتلوا ولده هذا ، وكان أحمد بن نصر هذا له
 وجاهة ورياسة ، وكان أبوه نصر بن مالك يفشاه أهل الحديث ، وقد بايعه العامة في سنة إحدى
 ومائتين على القيام بالأمر والنهي حين كثرت الشطار والدعار في غيبة المأمون عن بغداد كما تقدم
 ذلك ، وبه تعرف سويقة نصر ببغداد ، وكان أحمد بن نصر هذا من أهل العلم والديانة والعمل الصالح
 والاجتهاد في الخير ، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وكان ممن يدعو
 إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، وكان الواثق من أشد الناس في القول بخلق
 القرآن ، يدعو إليه ليلاً ونهاراً ، سرا وجهاراً ، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون ، من

غير دليل ولا برهان ، ولا حجة ولا بيان ، ولا سنة ولا قرآن فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، في أشياء كثيرة دعا الناس إليها . فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد ، والنف عليه من الألوف أعداد ، وانتصب للدعوة إلى أحمد بن نصر هذا رجلان وهما أبو هارون السراج يدعو أهل الجانب الشرقي ، وآخر يقال له طالب يدعو أهل الجانب الغربي فاجتمع عليه من الخلائق ألوف كثيرة ، وجماعات غزيرة ، فلما كان شهر شعبان من هذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن ، ولما هو عليه وأمرؤه وحاشيته من المعاصي والفواحش وغيرها . فتواعدوا على أنهم في الليلة الثالثة من شعبان - وهي ليلة الجمعة - يضرب طبل في الليل فيجتمع الذين بايعوا في مكان اتفقوا عليه ، وأنفق طالب وأبو هارون في أصحابه ديناراً ديناراً ، وكان من جملة من أعطوه رجلان من بني أشرس ، وكانا يتعاطيان الشراب ، فلما كانت ليلة الخميس شربا في قوم من أصحابهم واعتقدا أن تلك الليلة هي ليلة الوعد ، وكان ذلك قبله بليلة ، فقاما يضربان على طبل في الليل ليجتمع إليهما الناس ، فلم يجي أحد وانحزم النظام وسمع الحرس في الليل فأعلموا نائب السلطنة ، وهو محمد بن إبراهيم بن مصعب ، وكان نائباً لأخيه إسحاق بن إبراهيم ، لفبيته عن بغداد ، فأصبح الناس متخبطين ، واجتهد نائب السلطنة على إحضار ذينك الرجلين فحضرهما فقرأ على أحمد بن نصر ، فطلبه وأخذ خادماً له فاستقره فأقر بما أقر به الرجلان ، فجمع جماعة من رؤس أصحاب أحمد بن نصر معه وأرسل بهم إلى الخليفة بسر من رأى ، وذلك في آخر شعبان ، فأحضر له جماعة من الأعيان وحضر القاضي أحمد بن أبي دواد المعتزلي ، وأحضر أحمد بن نصر ولم يظهر منه على أحمد ابن نصر عتب ، فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الوثائق لم يعاتبه على شيء مما كان منه في مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره ، بل أعرض عن ذلك كله وقال له : ما تقول في القرآن ؟ فقال : هو كلام الله . قال : أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله . وكان أحمد بن نصر قد استنقل وباع نفسه وحضر وقد تمخض وتنور وشد على عورته ما يسترها فقال له . فما تقول في ربك ، أنراه يوم القيامة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك ، قال الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقال رسول الله (س) : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته » . فنحن على الخبر . زاد الخطيب قال الوثائق : وبمك أبرى كبرى المحدود المتجسم ؟ ويجويه مكان ويحصره الناظر ؟ أنا أ كفر برب هذه صفته .

قلت : وما قاله الوثائق لا يجوز ولا يلزم ولا يرد به هذا الخبر الصحيح والله أعلم . ثم قال أحمد بن

نصر للوائق : وحدثني سفیان بحديث يرفعه « إن قلب ابن آدم بأصبعين من أصابع الله يقبله كيف شاء » وكان النبي رس . يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فقال له إسحاق بن إبراهيم : ويحك ، انظر ما تقول . فقال : أنت أمرتني بذلك . فأشفق إسحاق من ذلك وقال : أنا أمرتك ؟ قال : نعم ، أنت أمرتني أن أنصح له . فقال الوائق لمن حوله : ماتقولون في هذا الرجل ؟ فأكثروا القول فيه . فقال عبد الرحمن بن إسحاق - وكان قاضياً على الجانب الغربي فعزل وكان مواداً لأحمد بن نصر قبل ذلك - يا أمير المؤمنين هو حلال الدم . وقال أبو عبد الله الأرمي صاحب أحمد بن أبي دؤاد : استغنى دمه يا أمير المؤمنين . فقال الوائق : لا بد أن يأتي ما تريد . وقال ابن أبي دؤاد : هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل . فقال الوائق : إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقوم من أحد معي ، فإني أحتسب خطاي . ثم نهض إليه بالصمصامة - وقد كانت سيفاً لعمر بن معديكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها مسمورة بمسامير - فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بجبل قد أوقف على نطع ، ثم ضربه أخرى على رأسه ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط دسريماً رحمه الله على النطع ميتاً ، فانا لله وإنا إليه راجعون . رحمه الله وعفا عنه . ثم انتضى سبيلاً إلى دمشق سيفه فضرب عنقه وحز رأسه وحمل ممترضاً حتى أتى به الحظيرة التي فيها بابك الخرمي فصلب فيها ، وفي رجله زوج قيود وعليه سراويل وقميص ، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياماً ، وفي الغربي أياماً ، وعنده الحرس في الليل والنهار ، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي ، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الامام الوائق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحججة في خلق القرآن ، ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ومكثه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح ، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر ، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه .

ثم أسر الوائق بتبع رؤس أصحابه فأخذ منهم نحواً من تسع وعشرين رجلاً فأودعوا في السجون وسموا الظلمة ، ومنعوا أن يزورهم أحد وقيدوا بالحديد ، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تجري على المحبوسين ، وهذا ظلم عظيم .

وقد كان أحمد بن نصر هذا من أكابر العلماء العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسمع الحديث من حماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، وهاشم بن بشير ، وكانت عنده مصنفاته كلها ، وسمع من الامام مالك بن أنس أحاديث جيدة ، ولم يحدث بكثير من حديثه ، وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي ، وأخوه يعقوب بن إبراهيم وبجي بن معين ، وذكره يوماً فترحم عليه وقال : قد ختم الله له بالشهادة ، وكان لا يحدث ويقول إني لست أهلاً لذلك . وأحسن بجي بن معين الشناء

عليه جداً . وذكره الامام أحمد بن حنبل يوماً فقال : رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه لله ، لقد جاد بنفسه له . وقال جعفر بن محمد الصائغ : بصرت عيناي وإلا فقتنا وسمعت أذناي وإلا فصمتنا أحمد ابن نصر الخزاعي حين ضربت عنقه يقول رأسه : لا إله إلا الله . وقد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ [ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون] قال : فاقشعر جلدي . وراه بعضهم في النوم فقال له : ما فعل بك ربك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله عز وجل فضحك إلي . ورأى بعضهم رسول الله (س) في المنام ومعه أبو بكر وعمر ، قد مروا على الجذع الذي عليه رأس أحمد بن نصر ، فلما جاوزوه أعرض رسول الله (س) بوجهه الكريم عنه فقيل له : يا رسول الله مالك أعرضت عن أحمد بن نصر ؟ فقال : « أعرضت عنه استحياء منه حين قتل رجل يزعم أنه من أهل بيتي » .

ولم يزل رأسه منصوباً من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة إحدى وثلاثين ومائتين - إلى بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين ، فجمع بين رأسه وجثته ودفن بالجانب الشرقي من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية رحمه الله . وذلك بأمر المتوكل على الله الذي ولي الخلافة بعد أخيه الواثق ، وقد دخل عبد العزيز بن يحيى الكتاني - صاحب كتاب الحيدة - على المتوكل وكان من خيار الخلفاء لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة ، بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون ، فانهم أساؤا إلى أهل السنة وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم ، فأمره أن ينزل جثة محمد بن نصر ويدفنه ففعل ، وقد كان المتوكل يكرم الامام أحمد بن حنبل إكراماً زائداً جداً كما سيأتي بيانه في موضعه . والمقصود أن عبد العزيز صاحب كتاب الحيدة قال للمتوكل : يا أمير المؤمنين ما رأيت أو مارئي أعجب من أمر الواثق ، قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن . فوجل المتوكل من كلامه وسأه ما سمع في أخيه الواثق ، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل : في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر . فقال : يا أمير المؤمنين أحرقتني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً ودخل عليه هرثمة فقال له في ذلك فقال : قطعني الله إرباً بإربا إن قتله إلا كافراً . ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي دؤاد فقال له مثل ذلك فقال : ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأما ابن الزيات فأنا أحرقت بالنار . وأما هرثمة فانه حرب فاجتاز بتبيلة خزاعة عرفه رجل من الحى فقال : يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه . فقطعوه إرباً بإربا . وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده - يعني بالفالج - ضربه الله قبل موته بأربع سنين ، وصودر من صلب ماله بمال جزيل جداً كما سيأتي بيانه في موضعه .

وروى أبو داود في كتاب المسائل عن أحمد بن إبراهيم الدورقي عن أحمد بن نصر قال : سألت
سفيان بن عيينة « القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، وإن الله يضحك ممن بذكره في الأسواق » .
قال : أروها كما جاءت بلا كيف .

وفيها أراد الواثق أن يحج واستعد لذلك فذكر له أن الماء بالطريق قليل فترك الحج عامئذ .
وفيها تولى جعفر بن ^(١) دينار نائب اليمن فسار إليها في أربعة آلاف فارس . وفيها عدا قوم من العامة
على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة ، فأخذوا وسجنوا . وفيها ظهر خارجي ببلاد
ربيعة فقاتله نائب الموصل فكسره وانهزم أصحابه . وفيها قدم وصيف الخادم بجماعة من الأكراد نحو
من خمسمائة في القيود ، كانوا قد أفسدوا في الطرقات وقطعوها ، فأطلق الخليفة لوصيف الخادم خمسة
وسبعين ألف دينار ، وخلع عليه . وفيها قدم خاقان الخادم من بلاد الروم وقد تم الصلح والمفاداة بينه
وبين الروم ، وقدم معه جماعة من رؤس الثغور ، فأمر الواثق بامتحانهم بخلق القرآن وأن الله لا يرى
في الآخرة فأجابوا إلا أربعة فأمر بضرب أعناقهم إن لم يجيبوا بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى
في الآخرة . وأمر الواثق أيضاً بامتحان الأسارى الذين فودوا من أسر الفرنج بالقول بخلق القرآن
وأن الله لا يرى في الآخرة فمن أجاب | إلى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فودى
وإلا ترك في أيدي الكفار ، وهذه بدعة صلعاء شنعاء عمياء صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا
عقل صحيح ، بل الكتاب والسنة والعقل الصحيح بخلافها كما هو مقرر في موضعه . وبالله المستعان ^(٢)
وكان وقوع المفاداة عند نهر يقال له اللامس ، عند سلوقية بالقرب من طرسوس ، بدل كل مسلم
أو مسلمة في أيدي الروم أو ذمي أو ذمية كان تحت عقد المسلمين أسير من الروم كان بأيدي المسلمين
ممن لم يسلم ، فنصبوا جسرين على النهر فاذا أرسل الروم مسلماً أو مسلمة في جسرم فأنهى إلى المسلمين
كبر وكبر المسلمين ، ثم يرسل المسلمون أسيراً من الروم على جسرم فاذا انتهى إليهم تكلم بكلام
يشبه التكبير أيضاً . ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام بدل كل نفس نفس ، ثم بقي مع خاقان جماعة
من الروم الأسارى فأطلقهم للروم حتى يكون له الفضل عليهم .

قال ابن جرير : وفيها مات الحسن بن الحسين أخو طاهر بطبرستان في شهر رمضان . وفيها مات
الخطاب بن وجه الفليس وفيها مات أبو عبد الله بن الأعرابي الراوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة
خلت من شعبان ، وهو ابن ثمانين سنة . وفيها ماتت أم أبيها بنت موسى أخت علي بن موسى الرضا .
وفيها مات مخارق المغني . وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمعي . وعمرو بن أبي عمرو الشيباني .
ومحمد بن سعدان النحوي . قلت : ومن توفي فيها أيضاً أحمد بن نصر الخزاعي كما تقدم . وإبراهيم

(١) في المصرية أحمد بن دينار (٢) زيادة من المصرية .

ابن محمد بن عرعر . وأمّية بن بسطام . وأبو تمام الطائي في قول . والمشهور ما تقدم . وكامل بن طلحة . ومحمد بن سلام الجمحي . وأخوه عبد الرحمن . ومحمد بن منهل الضريبر . ومحمد بن منهل أخو حجاج . وهارون بن معروف . والبيوطي صاحب الشافعي مات في السجن مقيدا على القول بخلق القرآن فامتنع من ذلك . ويحيى بن بكير راوى الموطأ عن مالك .

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين

فيها عانت قبيلة يقال لها بنو نمير بالجماعة فساداً فكتب الواثق إلى بغا الكبير وهو مقيم بأرض الحجاز فحاربهم فقتل منهم جماعة وأسروا منهم آخرين ، وهزم بقيةهم ، ثم التقى مع بني نعيم وهو في ألقى فارس وهم ثلاثة آلاف ، فجرت بينهم حروب ثم كان الظفر له عليهم ثم آخرا ، وذلك في النصف من جمادى الآخرة . ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد ومعهم من أعيان رؤسهم في القيود والأمر جماعة ، وقد قدم من أعيانهم في الواقع ما ينيف على ألقى رجل من بني سليم ونمير ومرة وكلاب وفزارة وثلعة وطى ونمير وغيرهم . وفي هذه السنة أصاب الحجيج في رجوعهم عطش شديد حتى بيوت الشربة بالذنانير الكثيرة ، ومات خلق كثير من العطش . وفيها أمر الواثق بترك جباية أعشار سفن البحر . وفيها كانت وفاة الخليفة الواثق بن محمد المعتصم ابن هارون الرشيد أبي جعفر هارون الواثق . كان هلاكه في ذي الحجة من هذه السنة بعلّة الاستسقاء ، فلم يقدر على حضور العيد عائداً ، فاستناب في الصلاة بالناس قاضيه أحمد بن أبي دؤاد الأيادي المعتزلي . توفي لست بقين من ذي الحجة ، وذلك أنه قوى به الاستسقاء فأقعده في تنور قد أحرق له بحيث يمكنه الجلوس فيه ليسكن وجهه ، فلان عليه بعض الشيء اليسير ، فلما كان من الغد أمر بأن يحرق أكثر من العادة فأجلس فيه ثم أخرج فوضع في محفة فحمل فيها وحوله أمراؤه ووزراؤه وقاضيه ، فمات وهو محمول فيها ، فمات رواحياً حتى سقط جبينه على المحفة وهو ميت ، ففحص القاضي عينيه بعد سقوط جبينه ، وولى غسله والصلاة عليه ودفنه في قصر الهادي ، عليهما من الله ما يستحقانه . وكان أبيض اللون مشرباً حمرته جميل المنظر خبيث القلب حسن الجسم سمي الطوية ، قام العين اليسرى ، فيها نكته بيضاء ، وكان مولده سنة ست وتسعين ومائة بطريق مكة ، فمات وهو ابن ست وثلاثين سنة ، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل سبعة أيام وثلثي عشرة ساعة . فهكذا أيام أهل الظلم والفساد والبدع قليلة قصيرة . وقد جمع الواثق أصحاب النجوم في زمانه حين اشتدت علته ، وإنما اشتدت بعد قتله أحمد بن نصر الخزاعي ليلحقه إلى بين يدي الله ، فلما جمعهم أمرهم أن ينظروا في مولده وما تقتضيه صناعة النجوم كم تدوم أيام دولته ، فاجتمع عنده من رؤسهم جماعة منهم الحسن بن سهل والفضل ابن إسحاق الهاشمي ، وإسماعيل بن نوبخت . ومحمد بن موسى الخوارزمي المجوسى القطر بلى وسند

صاحب محمد بن المهيم ، وعامة من ينظر في النجوم ، فنظروا في مولده وما يقتضيه الحال عندهم فأجمعوا على أنه يعيش في الخلافة دهرًا طويلاً ، وقدروا له خمسين سنة مستقبلة من يوم نظروا نظر من لم يبصر ، فانه لم يمض بعد قوتهم وتقديرهم إلا عشرة أيام حتى هلك . ذكره الامام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله .

قال ابن جرير : وذكر الحسين بن الضحاك أنه شهد الواثق بعد أن مات المعتصم بأيام وقد قدم مجلساً كان أول مجلس قعده ، وكان أول ما غنى به في ذلك المجلس أن غننته شارية جارية إبراهيم بن المهدي :

مادرى الحاملون يوم استقلوا • نعشه للتواء أمه للقاء
فليقل فيك با كياتك ما شئت • ن صياحاً في وقت كل مساء

قال : فبكي وبكينا حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه . ثم اندفع بعضهم بغنى :

ودع هريرة إن الركب مر نحل • وهل تطيق وداعاً أيتها الرجل

فازداد بكاءه وقال : ما سمعت كاليوم قط تمزية بأب وبغنى نفس ، ثم ارفض ذلك المجلس . وروى الخطيب أن دعبل بن علي الشاعر لما تولى الواثق عهد إلى طومار فكتب فيه أبيات شعر ثم جاء إلى الحاجب فدفعه إليه وقال : اقرأ أمير المؤمنين السلام وقل : هذه أبيات امتدحك بها دعبل فلما فضا الواثق إذا فيها :

الحمد لله لا صبر ولا جلد • ولا عزاء إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد • وآخر قام لم يفرح به أحد
فر هذا ومر الشؤم يتبعه • وقام هذا فقام الويل والنكد

قال : فتطلبه الواثق بكل ما يقدر عليه من الطلب فلم يقدر عليه حتى مات الواثق . وروى أيضاً أنه لما استخلف الواثق ابن أبي دؤاد على الصلاة في يوم العيد ورجع إليه بعد أن قضاها قال له : كيف كان عيدكم يا أبا عبد الله ؟ قال : كنا في نهار لا شمس فيه . فضحك وقال : يا أبا عبد الله أنا مؤيد بك . قال الخطيب : وكان ابن أبي دؤاد استولى على الواثق وحمله على التشديد في المحنة ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن . قال ويقال : إن الواثق رجع عن ذلك قبل موته فأخبرني عبد الله ابن أبي الفتح أنبأ أحمد بن إبراهيم بن الحسن ثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة حدثني حامد بن العباس عن رجل عن المهدي أن الواثق مات وقد تاب من القول بخلق القرآن . وروى أن الواثق دخل عليه يوماً ، فؤدبه فأكرمه ! كراماً كثيراً فقيل له في ذلك فقال : هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناى برحمة الله . وكتب إليه بعض الشعراء : —

جذبته دواعي النفس عن طلب الغنى • وقلت لها غني عن الطلب التزير

فان أمير المؤمنين بكفر * مدار زحاً الأرزاقِ دائرة تجري
فوقع له في رقته جذبتك نفسك عن امنها ، ودعتك إلى صونها فخذ ما طلبته هينا . وأجزل
به انطاء . ومن شعره قوله :

هي المقادير تجري في أعينها * فاصبر فليس لها صبر على حال

ومن شعر الواصل قوله :

تنح عن التبيح ولا تزد * ومن أوليته حسناً فزده

سكني من عدوك كل كيد * إذا كاد العدو ولم تكده

وقال القاضي يحيى بن أكنم : ما أحسن أحد من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ما أحسن

إليهم الواصل : ما مات وفيهم قير . ولما احتضر جعل يردد هذين البيتين :

الموت فيه جميع الخلق مشترك * لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ما ضر أهل قليل في تفقرهم * وليس يعني عن الأملك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت ثم ألصق خده بالأرض وجعل يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد
زال ملكه . وقال بعضهم : لما احتضر الواصل ونحن حوله غشي عليه فقال بعضنا لبعض : انظروا هل
قضى ؟ قال : فدنوت من بينهم إليه لا نظر هل هدأ نفسه ، فأفاق فلحظ إلى بعينه فرجعت القهقري
خوفاً منه ، فتعلقت قائمة سبني بشيء فكادت أن أهلك ، فما كان عن قريب حتى مات وأغلق عليه
الباب الذي هو فيه وبقى فيه وحده واشتغلوا عن تجهيزه بالبيعة لأخيه جعفر المتوكل ، وجلت أنا
أحرس الباب فسمعت حركة من داخل البيت فدخلت فإذا جرد قد أكل عينه التي لحظ إلى بها ،
وما كان حولها من الخدين .

وكانت وفاته بسر من رأى التي كان يسكنها في القصر الماروني ، في يوم الأربعاء لست بقين من
ذى الحجة من هذه السنة - أعز سنة ثنتين وثلاثين ومائتين - عن ست وثلاثين سنة ، وقيل ثنتين
وثلاثين سنة . وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل خمس سنين وشهران
وإحد وعشرين يوماً ، وصلى عليه أخوه جعفر المتوكل على الله والله أعلم .

خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم

بويع له بالخلافة بعد أخيه الواصل وقت الزوال من يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة .
وكانت الأتراك قد غزموا على تولية محمد بن الواصل فاستصغروه فتركوه وعدلوا إلى جعفر هذا ،
وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة ، وكان الذي ألبسه خلعاً الخلافة أحمد بن أبي دؤاد القاضي ،
وكان هو أول من سلم عليه بالخلافة وبايعه الخاصة والعامة ، وكانوا قد اتفقوا على تسميته بالمنتصر بالله ،

إلى صبيحة يوم الجمعة فقال ابن أبي دؤاد رأيت أن يلقب بالمتوكل على الله ، فانفقوا على ذلك ، وكتب إلى الآفاق وأمر باعطاء الشاكرية من الجند ثمانية شهور ، والحفارية أربعة شهور ، ولغيرهم ثلاثة شهور ، واستبشر الناس به . وقد كان المتوكل رأى في منامه في حياة أخيه هارون الواثق كأن شيئاً نزل عليه من السماء مكتوب فيه جعفر المتوكل على الله ، فمبره فتيل له هي الخلافة ، فبلغ ذلك أخاه الواثق فسجنه حيناً ثم أرسله .

وفيها حج بالناس أمير الحجيج محمد بن داود . وفيها توفي الحكم بن موسى . وعمرو بن محمد .

الناقد ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

في يوم الأربعاء سابع صفر منها أمر الخليفة المتوكل على الله بالقبض على محمد بن عبد الملك ابن الزيات وزير الواثق ، وكان المتوكل يبغضه لأمر ، منها أن أخاه الواثق غضب على المتوكل في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيد غضباً عليه ، فبقي ذلك في نفسه ، ثم كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دؤاد فخطى بذلك عنده في أيام ملكه ، ومنها أن ابن الزيات كان قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بعد أبيه ، ولف عليه الناس ، وجعفر المتوكل في جنب دار الخلافة لم يلتفت إليه ولم يتم الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله ، رغم أنف ابن الزيات . فلهدأ أمر بالقبض عليه سريعاً فطلبه فركب بعد غدائه وهو يظن أن الخليفة بعث إليه ، فانهى به الرسول إلى دار إيتاخ أمير الشرطة فاحتبط به وقيده وبعثوا في الحال إلى داره فأخذ جميع ما فيها من الأموال والآلى والجواهر والحواصل والجواري والأثاث ، ووجدوا في مجلسه الخاص به آلات الشرب ، وبعث المتوكل في الحال أيضاً إلى حواصله بسامرا وضياعه وما فيها فاحتاط عليها ، وأمر به أن يعذب ومنعوه من الكلام ، وجعلوا يساهرونه كلما أراد الرقاد نحس بالحديد ، ثم وضعه بعد ذلك كله في تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووكل به من يمنعه من القعود والرقاد ، فكث كذلك أياماً حتى مات وهو كذلك . ويقال إنه أخرج من التنور وفيه رمق فضرب على بطنه ثم على ظهره حتى مات وهو تحت الضرب ، ويقال إنه أخرج من القود والرقاد ، فنبشت عليه الكلاب فأكلت ما بقي من لحمه وجلده . وكانت وفاته لحدى عشرة من ربيع الأول منها . وكان قيمة ما وجد له من الحواصل نحواً من تسعين ألف دينار وقد قدمنا أن المتوكل سأله عن قتل أحمد بن نصر الخزاعي فقال : يا أمير المؤمنين أخرجني الله بالنار إن قتله الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأنا أخرجته بالنار .

وفيها في جمادى الأولى منها بعد مهلك ابن الزيات فلج أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزى .

فلم يزل مغلوباً حتى مات بعد أربع سنين وهو كذلك ، كما دعا على نفسه حين سأله المتوكل عن

قتل حمد بن نصر كما تقدم . ثم غضب المتوكل على جماعة من الدواوين والعمال ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة جداً . وفيها ولي المتوكل ابنه محمد المنتصر الحجاز واليمن وعنده له على ذلك كله في رمضان منها .

وفيها عمده ملك الروم ميخائيل بن توفيل إلى أمه تدور فقامها بالشمس وأزمها الدير وقتل الرجل الذي اتهمها به ، وكان ملكها ست سنين . وفيها حج بالناس محمد بن داود أمير مكة .
وفيها توفي إبراهيم بن الحجاج الشامي . وحيان بن موسى العربي . وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقي وسهل بن عثمان العسكري . وعبد بن سماعة القاضي . ومحمد بن عائذ الدمشقي صاحب المقارن . وبجي المقابري . وبجي بن معين أحد أئمة الجرح والتعديل ، وأستاذ أهل هذه الصناعة في زمانه .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها خرج محمد بن البعيث بن حلبس عن الطاعة في بلاده أذربيجان ، وأظهر أن المتوكل قد مات والتف عليه جماعة من أهل تلك الرساتيق ، ولجأ إلى مدينة مرند فخصنها ، وجاءته البعوث من كل جانب ، وأرسل إليه المتوكل جيوشاً يتبع بعضها بعضاً ، فنصبوا على بلده المجانيق من كل جانب ، وحاصروه محاصرة عظيمة جداً ، وقتلهم مقاتلة هائلة ، وصبر هو وأصحابه صبراً بليفاً ، وقدم بغا الشراي لمحاصرته ، فلم يزل به حتى أسره واستباح أمواله وحر به وقتل خلقاً من رؤس أصحابه ، وأسر سائرهم وانحسرت مادة ابن البعيث . وفي جمادى الأولى منها خرج المتوكل إلى المدائن .

وفيها حج إيتاخ أحد الأمراء الكبار وهو والي مكة ، ودعى له على المنابر ، وقد كان إيتاخ هذا غلاماً خزرياً طباخاً ، وكان لرجل يقال له سلام الأبرش ، فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة ، ورفع منزلته وحظى عنده ، وكذلك الواثق من بعده ، ضم إليه أعمالاً كثيرة ، وكذلك عامله المتوكل وذلك لفروسيته ورجلته وشهامته ، ولما كان في هذه السنة شرب ليلة مع المتوكل فعربده عليه المتوكل فمهم إيتاخ بقتله . فلما كان الصباح اعتذر المتوكل إليه وقال له : أنت أبي وأنت ربي ، ثم دس إليه من يشير إليه بأن يستأذن للحج فاستأذن فأذن له ، وأمره على كل بلدة بحمل بها ، وخرج القواد في خدمته إلى طريق الحج حين خرج ، ووكل المتوكل الحجابة لوصيف الخادم عوضاً عن إيتاخ . وحج بالناس فيها محمد بن داود أمير مكة وهو أمير الحجيج من سنين متقدمة .

وفيها توفي أبو خيشمة زهير بن حرب . وسليمان بن داود الشاركوني أحد الحفاظ . وعبد الله ابن محمد النفيلي . وأبوربيع الزهراني . وعلي بن عبد الله بن جعفر المديني شيخ البخاري في صناعة الحديث . ومحمد بن عبد الله بن نمير . ومحمد بن أبي بكر المقدمي . والمعافا الرسييني . وبجي بن بجي للبي راوي الموطأ عن مالك .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

في جمادى الآخرة منها كان هلاك إيتاخ في السجن ، وذلك أنه رجع من الحج فتلفته هبابا الخليفة ، فلما اقترب يريد دخول سامرا التي فيها المتوكل بعث إليه إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد عن أمر الخليفة يستدعيه إليها ليلتقاه وجوء الناس وبنو هاشم ، فدخلها في أمة عظيمة ، فنص عليه إسحاق بن إبراهيم وعلى ابنه مظفر ومنصور وكانبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد المصراي فأسلم تحت العقوبة ، وكان هلاك إيتاخ بالعطش ، وذلك أنه أكل أكلا كثيرا بعد جوع شديد ثم استسقى الماء فلم يسق حتى مات ليلة الأربعاء الخامس خلون من جمادى الآخرة منها . ومكث ولداه في السجن مدة خلافة المتوكل ، فلما ولي المنتصر ولد المتوكل أخرجهما . وفي شوال منها قدم بغا سامرا ومعه محمد بن البعيث وأخوه صقر وخالده ، ونائبه العلاء ومعه من رؤس أصحابه نحو من مائة وثمانين إنسانا فدخلوا على الجمال ليراهم الناس ، فلما أوقف ابن البعيث بين يدي المتوكل أمر بضرب عنقه ، فأحضر السيف والنطع فجاء السيافون قوقفوا حوله ، فقال له المتوكل : ويلك مادعاك إلى ما فعلت ؟ فقال : الشقوة يا أمير المؤمنين ، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك ، وهو العفو . ثم اندفع يقول بديهية :

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي * إمام الهدى والصفح بالمرء أجمل
وهل أنا إلا جيلة من خطيئة * وعفوك من نور النبوة يجبل
فالك خير السابقين إلى العلى * ولا شك أن خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل : إن معه لأدبا . ثم عفا عنه . ويقال بل شفع فيه المعتز بن المتوكل فشفعه ، ويقال بل أودع في السجن في قيوده فلم يزل فيه حتى هرب بعد ذلك ، وقد قال حين هرب : -
كم قد قضيت أمورا كان أهمها * غيرى وقد أخذت الأفلاس بالكظم
لا تمذليني فيما ليس ينفعني * إليك عنى جرى المقهور بالقلم
سألتك المال في عسر وفي يسر * إن الجواد الذي يعطي على العدم

وفيها أمر المتوكل أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم ، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالقلبي وأن يكون على عمائمهم رقايع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم ، وأن يلزموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم ، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة ، وأن لا يركبوا خيلا ، ولتكن ركبهم من خشب ، إلى غير ذلك من الأمور المنذلة لهم المهينة لنفوسهم ، وأن لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم ، وأمر بتخريب كنائسهم المحذرة ، وبتضييق منازلهم المدسة ، فيؤخذ منها العشر ، وأن يعمل مما كان متعمدا من منازلهم

مسجد ، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض ، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق ، وإلى كل بلد ورستاق .

وفيها خرج رجل يقال له محمود بن الفرج النيسابوري ، وهو ممن كان يتردد إلى خشية بابك وعمر مصلوب فيتعهد قريباً منه ، وذلك بقرب دار الخلافة بسر من رأى ، فادعى أنه نبي ، وأنه ذو القرنين وقد اتبعه على هذه الضلالة ووافقته على هذه الجهالة جماعة قليلون ، وهم تسعة وعشرون رجلاً ، وقد نظم لهم كلاماً في مصحف له قبّحه الله ، زعم أن جبريل جاء به من الله ، فأخذ فرغ أمره إلى المتوكل فأمر فضرب بين يديه بالسياط ، فأعترف بما نسب إليه وما هو معول عليه ، وأظهر التوبة من ذلك والرجوع عنه ، فأمر الخليفة كل واحد من أتباعه التسعة والعشرين أن يصفعه فصفعوه عشر صفعات فعليه وعليهم لعنة رب الأرض والسماوات . ثم اتفق موته في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي الحجة من هذه السنة .

وفي يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة أخذ المتوكل على الله العهد من بعده لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ، ثم أبو عبد الله المعتز ، واسمه محمد ، وقيل الزبير ، ثم لإبراهيم وسماه المؤيد بالله ، ولم يل الخلافة هذا . وأعطى كل واحد منهم طائفة من البلاد يكون نائباً عليها ويستقرب فيها ويضرب له السكة بها ، وقد عين ابن جرير ما لكل واحد منهم من البلدان والأقاليم ، وعقد لكل واحد منهم لواء أسود للعهد ، ولواء للعمالة ، وكتب بينهم كتاباً بالرضى منهم ومبايعته لأكثر الأُمراء على ذلك وكان يوماً مشهوداً . وفيها في شهر ذي الحجة منها تغير ماء دجلة إلى الصفرة ثلاثة أيام ثم صار في لون ماء الدردى ففرغ الناس لذلك . وفيها أتى المتوكل يحيى بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من بعض النواحي ، وكان قد اجتمع إليه قوم من الشيعة فأمر بضربه فمضرب ثمانى عشرة مقرعة ثم حبس في المطبق . وحجج بالناس محمد بن داود .

قال ابن جرير : وفيها توفي إسحاق بن إبراهيم صاحب الجسر - يعني نائب بغداد - يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة وجعل ابنه محمد مكانه ، وخلع عليه خمس خلع وقلده سيفاً . قلت : وقد كان نائباً في العراق من زمن المأمون ، وهو من الدعاء تبعاً لسادته وكبرائه إلى القول بخلق القرآن الذي قال الله تعالى فيهم [ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل] الآية . وهو الذي كان يمنع الناس ويرسلهم إلى المأمون . وفيها توفي :

إسحاق بن ماهان

الموصلى النديم الأديب ابن الأديب النادر الشكل في وقته ، المجموع من كل فن يعرفه أبناء عصره ، في اللغة والحديث والجدل والكلام واللغة والشعر ، ولكن اشتهر بالغناء لأنه لم يكن له في الدنيا

نظير فيه . قال المنصم : إن إسحاق إذا غنى يخيل لي أنه قد زيد في ملكي . وقال المأمون : لولا
اشتهاره بالثناء لوليت القضاة لما اعلمه من عفته ونزاهته وأمانته . وله شعر حسن وديوان كبير .
وكانت عنده كتب كثيرة من كل فن . توفي في هذه السنة وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها .
وقد ترجم ابن عساکر ترجمة حافلة وذكر عنه أشياء حسنة وأشماراً رائقة وحكايات مدحثة يطول
استقصاؤها . فن غريب ذلك أنه غنى يوماً بجي بن خالد بن برمك فوقع له بألف ألف ووقع له ابنه
جعفر بمنلها ، وابن الفضل بمنلها ، في حكايات طويلة .

وفيها توفي شريح بن يونس . وشيبان بن فروخ . وعبيد الله بن عمر الفواريري . وأبو بكر بن
أبي شيبة أحد الأعلام وأئمة الأسلام وصاحب المصنف الذي لم يصنف أحد مثله قط لا قبله ولا بعده .
ثم دخلت سنة ست و ثلاثين ومائتين

فيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من المنازل والدور ، ونودي
في الناس من وجدها بعد ثلاثة أيام ذهبت به إلى المطبق . فلم يبق هناك بشر ، وأخذ ذلك الموضع
مزرعة تحرث وتستغل . وفيها حج بالناس محمد بن المنتصر بن المتوكل . وفيها توفي محمد بن إبراهيم
ابن مصعب سمى ابن أخيه محمد بن إسحاق بن إبراهيم ، وكان محمد بن إبراهيم هذا من الأمراء
الكبار . وفيها توفي الحسن بن سهل الوزير والد بوران زوجة المأمون التي تتقدم ذكرها ، وكان من
سادات الناس ، ويقال إن إسحاق بن إبراهيم المعنى توفي في هذه السنة فله أعلم . وفيها توفي أبو سعيد
محمد بن يوسف المروزي فجأة ، فولى ابنه يوسف مكانه على نيابة أرمينية . وفيها توفي إبراهيم بن المنذر
الحرابي . ومصعب بن عبد الله الزبيري . وهديبة بن خالد القيسي . وأبو الصلت الهروي أحد
الضعفاء .
ثم دخلت سنة سبع و ثلاثين ومائتين

فيها قبض يوسف بن محمد بن يوسف نائب أرمينية على البطريق الكبير بها وبمعه إلى نائب
الخليفة ، واتفق بعد بمه إياه أن سقط ثلج عظيم على تلك البلاد ، فتحزب أهل تلك الطريق وجاءوا
فحاصروا البلد التي بها يوسف فخرج إليهم ليقاتلهم فقتلوه وطائفة كبيرة من المسلمين الذين معه وهلك
كثير من الناس من شدة البرد ، ولما باغ المتوكل ما وقع من هذا الأمر الفظيع أرسل إلى أهل تلك
الناحية بغا الكبير في جيش كثيف جداً فقتل من أهل تلك الناحية ممن حاصر المدينة نحواً من
ثلاثين ألفاً وأسر منهم طائفة كبيرة ، ثم سار إلى بلاد ألبان من كور البُسُفْرُجان وسلك إلى مدن
كثيرة بنازمها الممالك ووطد البلاد والنواحي . وفي صفر منها غضب المتوكل على ابن أبي دؤاد
القاضي المعتزلي وكان على المظالم ، فعزله عنها واستدعى بيحيى بن أكرم فولاه قضاء القضاة والمظالم
أيضاً . وفي ربيع الأول أمر الخليفة بالاحتياط على ضياع ابن أبي دؤاد وأخذ ابنه أبا الوليد محمد

غيبه في يوم السبت اثنان خلون من ربيع الآخر ، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار ، ومن الجواهر النفيسة ما يقوم بعشرين ألف دينار ، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم . وكان ابن أبي دؤاد قد أصابه الفالج كما ذكرنا ، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين قال ابن جرير فقال في ذلك أبو العتاهية :

لو كنت في الرأي منسوبا إلى رشد * وكان عزمك عزماً فيه توفيق

لكان في الفقه شغل لو قنمت به * عن أن تقول كتاب الله مخلوق

ماذا عليك وأصل الدين بجمعهم * ما كان في الفرع لولا الجهل والموق

وفي عيد الفطر منها أمر المتوكل بانزال جثة أحمد بن نصر الخزازي والجمع بين رأسه وجسده وأن يسلم إلى أوليائه ، وفرح الناس بذلك فرحاً شديداً ، واجتمع في جنازته خلق كثير جداً ، وجعلوا يتمسحون بها وبأعواد نعشه ، وكان يوماً مشهوداً . ثم أتوا إلى الجذع الذي صلب عليه فجعلوا يتمسحون به ، وأرهب العامة بذلك فرحاً وسروراً ، فكتب المتوكل إلى نائبه يأمره بردهم عن تعاطي مثل هذا وعن المفالة في البشر ، ثم كتب المتوكل إلى الآفاق بالمنع من الكلام في مسألة الكلام والكف عن القول بخلق القرآن ، وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم فيه فله تطبيق مأواه إلى أن يموت . وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير ، ثم أظهر إكرام الامام أحمد بن حنبل واستدعاء من بغداد إليه ، فاجتمع به فأكرمه وأمر له بجائزة سنوية فلم يقبلها ، وخلع عليه خلعاً سنوية من ملابسه فاستحيا منه أحمد كثيراً فلبسها إلى الموضع الذي كان نازلاً فيه ثم نزعها نزاعاً عذيفاً وهو يبكي رحمه الله تعالى . وجعل المتوكل في كل يوم يرسل إليه من طعامه الخالص ويظن أنه يأكل منه ، وكان أحمد لا يأكل لهم طعاماً بل كان صائماً موافقاً لآيات تلك الأيام ، لأنه لم يقبض له شيء يرضى أكله ، ولكن كان ابنه صالح وعبد الله يقبلان تلك الجوائز وهو لا يشعر بشيء من ذلك ، ولولا أنهم أسرعوا الأوبة إلى بغداد لخشي على أحمد أن يموت جوعاً ، وارتفعت السنة جداً في أيام المتوكل عفا الله عنه ، وكان لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الامام أحمد ، وكان ولاية يحيى بن أكرم قضاء القضاة موضع ابن أبي دؤاد عن مشورته ، وقد كان يحيى بن أكرم هذا من أئمة السنة ، وعلماء الناس ، ومن المعظمين للفقهاء والحديث واتباع الأثر ، وكان قد ولي من جهته حبان بن بشر قضاء الشرقية ، وسوار ابن عبد الله قضاء الجانب الغربي ، وكان كلاهما أعورا . فقال في ذلك بعض أصحاب ابن أبي دؤاد :

رأيت من العجائب قاضيين * هما أحدهما في الخاقين

فهما اقتسما العمى نصفين قدأ * كما اقتسما قضاء الجانبين

وبحسب منهما من هز رأساً * لينظر في واريث ودين

كَأَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ عَلَيْهِ دَنًا * فَفَتَحَتْ بِرَأْسِهِ مِنْ فِرْدَوْسِ عَيْنِ
هَمَّا قَالَ الزَّمَانَ بِهَلِكِ بِحِجِّي * إِذْ افْتَتَحَ الْقَضَاءُ بِأَعْوَرَيْنِ

وغزا الصائفة في هذه السنة على بن يحيى الأرمي . وحج بالناس على بن عيسى بن جعفر بن أبي
جعفر المنصور أمير الحجاز . وفيها توفي حاتم الأصم . ومن توفي فيها عبد الأعلى بن حماد . وعبيد الله
ابن معاذ العنبري وأبو كامل الفضيل بن الحسن الجحدري .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

في ربيع الأول منها حاصر بغام مدينة تفلين وعلى مقدمته زيرك التركي ، فخرج إليه صاحب
تفلين إسحاق بن إسماعيل فقاتله فأسر بغا إسحاق فأمر بغا بضرب عنقه وصلبه ، وأمر بالقاء النار
في النفط إلى نحو المدينة ، وكان أكثر بنائها من خشب الصنوبر ، فأحرق أكثرها وأحرق من أهلها
نحواً من خمسين ألفاً ، وطفئت النار بعد يومين ، لأن نار الصنوبر لا بقاء لها . ودخل الجند فأمروا
من بقي من أهلها واستلبوهم حتى استلبوا المواشي . ثم سار بغا إلى مدن أخرى ممن كان على أهلها
مع من قتل نائب أرمينية يوسف بن محمد بن يوسف ، فأخذ بتأره وعاقب من تجرأ عليه .

وفيها جاءت الفرنج في نحو من ثلثمائة مركب قاصدين مصر من جهة دمياط ، فدخلوها فجأة فقتلوا من
أهلها خلقاً وحرقوا المسجد الجامع والمنبر ، وأسروا من النساء نحواً من ستمائة امرأة ، من المسلمات
مائة وخمسة وعشرين امرأة ، وسائرهن من نساء القبط ، وأخذوا من الأمتعة والمال والأسلحة شيئاً
كثيراً جداً ، وفر الناس منهم في كل جهة ، وكان من غرق في بحيرة تفيض أكثر ممن أسروه ، ثم
رجعوا على حمية ولم يمرض لهم أحد حتى رجعوا بلادهم لعنهم الله . وفي هذه السنة غزا الصائفة على
ابن يحيى الأرمي . وفيها حج بالناس الأمير الذي حج بهم قبلها .

وفيها توفي إسحاق بن راهويه أحد الأعلام وعلماء الإسلام ، والمجاهدين من الأنام . وبشر بن
الوليد الفقيه الحنفي . وطلالون بن عباد . ومحمد بن بكر بن الزيات . ومحمد بن البرجاني . ومحمد بن أبي
السرى العسقلاني . ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

في المحرم منها زاد المتوكل في التغليب على أهل الذمة في التميز في اللباس وأكد الأمر بتخريب
الكنائس المحدثه في الإسلام . وفيها نفي المتوكل على بن الجهم إلى خراسان . وفيها اتفق شمانين
النصارى ويوم النيروز في يوم واحد وهو يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من ذي القعدة ، وزعمت
النصارى أن هذا لم يتفق مثله في الإسلام إلا في هذا العام . وغزا الصائفة على بن يحيى المذكور .
وفيها حج بالناس عبد الله بن محمد بن داود والي مكة .

قال ابن جرير: وفيها توفي أبو الوليد محمد بن القاضي أحمد بن أبي دؤاد الأيادي المعتزلي .

قلت . ومن توفي فيها داود بن رشيد . وصفوان بن صالح مؤذن أهل دمشق . وعبد الملك بن حبيب
الغني المالكي ، أحد المشاهير . وعثمان بن أبي شيبة صاحب التفسير والمسند المشهور . ومحمد بن مهران
الرازي . ومحمود بن غيلان . ووهب بن نفيه . وفيها توفي :

أحمد بن عاصم الأنطاكي

أبو علي الواعظ الزاهد أحد العباد والزهاد ، له كلام حسن في الزهد ومعاملات القلوب ، قال
أبو عبد الرحمن السلمي : كان من طبقة الحارث المحاسبي ، وبشر الحافي . وكان أبو سليمان الداراني
يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته . روى عن أبي معاوية الضرير وطبقته ، وعنه أحمد بن
الحواري ، ومحمود بن خالد ، وأبو زرعة الدمشقي . وغيرهم . روى عنه أحمد بن الحواري عن مخلد
ابن الحسين عن هشام بن حسان قال : مررت بالحسن البصري وهو جالس وقت السحر فقلت : يا أبا
سعید منلك يجلس في هذا الوقت ؟ قال : إني توضأت وأردت نفسي على الصلاة فأبى علي ، وأرادتني
علي أن تنام فأبى عليها . ومن مستجاد كلامه قوله : إذا أردت صلاح قلبك فاستمع عليه بحفظ
جوارحك . وقال : من الغنيمة الباردة أن تصلح ما بقي من عمرك فيغفر لك ما مضى منه . وقال :
يسير اليقين يخرج الشك كله من قلبك ، ويسير الشك يخرج اليقين كله منه . وقال : من كان بالله
أعرف كان منه أخوف . وقال : خير صاحب لك في دنياك هم ، يقطعك عن الدنيا ويوصلك إلى
الآخرة . ومن شعره :

همت ولم أعزم ولو كنت صادقاً • عزمت ولكن الفطام شديد
ولو كان لي عقل وإيقان موقن • لما كنت عن قصد الطريق أحميد
ولو كان في غير السلوك مطامعي • ولكن عن الأقدار كيف أميد

ومن شعره أيضاً :

قد بقينا مذنبين حيارى • نطلب الصديق ما إليه سبيل
فدواعي الهوى تخفت علينا • وخلاف الهوى علينا ثقيل
فقد الصدق في الأماكن حتى • وضعه اليوم ما عليه دليل
لا نرى خائفاً فيلزمنا الخوف • ولشنا نرى صادقاً على ما يقول

ومن شعره أيضاً :

هون عليك فكل الأمر ينقطع • وخذل عنك ضباب الهم يندفع
فكل هم له من بعده فرج • وكل كرب إذا ما ضاق يتسع
إن البلاء وإن طال الزمان به • الموت يقطعه أو سوف ينقطع

وقد أطل الحافظ ابن عساكر ترجمته ولم يؤرخ وفاته ، وإنما ذكرته ههنا تقریباً والله أعلم .

ثم دخلت سنة أربعين ومائتين

فيها عدا أهل حمص على عاملهم أبي الفيث موسى بن إبراهيم الرافقي لأنه قتل رجلاً من أشرافهم فقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوه من بين أظهرهم ، فبعث إليهم المتوكل أميراً عليهم وقال للسفير معه : إن قبوه وإلا وأعلنى . فقبوه فعمل فيهم الأعاجيب وأهانتهم غاية الإهانة . وفيها عزل المتوكل يحيى بن أكنم القاضي عن قضاء القضاة وصادره بما مبلغه ثمانون ألف دينار ، وأخذ منه أراضى كثيرة في أرض البصرة ، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي على قضاء القضاة قال ابن جرير : وفي المحرم منها توفي أحمد بن أبي دؤاد بعد ابنه بعشرين يوماً .

وهذه ترجمته

هو أحمد بن أبي دؤاد واسمه الفرج - وقيل دعوى ، والصحيح أن اسمه كنيته - الأيادي المعتزلى . قال ابن خلكان في نسبه : هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن عبد هند بن عبد نجم بن مالك بن فيض بن منعة بن برجان بن دوس الهذلي بن أمية بن حذيفة بن زهير بن إياد بن أد بن معد بن عدنان . قال الخطيب : ولى ابن أبي دؤاد قضاء القضاة للمعتصم ، ثم للوائق . وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب ، غير أنه أعلن مذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى في الآخرة . قال الصولي : لم يكن بعد البرامكة أكرم منه ، ولولا ما وضع من نفسه من محبة المحنة لاجتمعت عليه الانس . قالوا : وكان مولده في سنة ستين ومائة ، وكان أسن من يحيى بن أكنم بعشرين سنة . قال ابن خلكان : وأصله من بلاد قنسرين ، وكان أبوه تاجراً يفتد إلى الشام ثم وفد إلى العراق وأخذ ولده هذا معه إلى العراق ، فاشتغل بالعلم وصحب هياج بن العلاء السلمى أحد أصحاب واصل بن عطاء فأخذ عنه الاعتزال ، وذكر أنه كان يصحب يحيى بن أكنم القاضي ويأخذ عنه العلم . ثم سرد له ترجمة طويلة في كتاب الوفيات ، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال : -

رسولُ اللهِ والخلفاءِ منا • ومنا أحمدُ بنُ أبي دؤادِ

فرد عليه بعض الشعراء فقال :

قللٌ للفاخرينِ على نزارٍ • وهم في الأرضِ ساداتُ العبادِ

رسولُ اللهِ والخلفاءِ منا • ونبراً من دعوى بنى إيادِ

وما منا إيادُ إذا أقرت • بدعوةِ أحمدِ بنِ أبي دؤادِ

قال : فلما بلغ ذلك أحمد بن أبي دؤاد قال : لولا أنى أكره العقوبة لعاقبت هذا الشاعر عقوبة

ما فعلها أحد . وعفا عنه . قال الخطيب : حدثني الأزهرى ثنا أحمد بن عمر الواعظ حدثنا عمر بن الحسن بن علي بن مالك حدثني جرير بن أحمد أبو مالك قال : كان أبي - يعني أحمد بن أبي دؤاد - إذا صلى رفع يديه إلى السماء وخاطب ربه وأنشأ يقول :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما • • • • •
واليوم حاجتنا إليك وإنما • • • • •
يدعي الطبيب لساعة الاوصاب

ثم روى الخطيب أن أبا تمام دخل على ابن أبي دؤاد يوماً فقال له : أحسبك عاتباً ، فقال : إنما يعتب علي واحد وأنت الناس جميعاً . فقال له : أنى لك هذا ؟ فقال : من قول أبي نواس :
وليس على الله بمستنكر • • • • •
وأمثدحه أبو تمام يوماً فقال :

لقد أنت مساوى كل دهر • • • • •
وما سافرت في الآفاق إلا • • • • •
نعم الظن عندك والأمانى • • • • •
وإن قلت ركابي في البلاد

فقال له : هذا المعنى تفردت به أو أخذته من غيرك ؟ فقال : هو لي ، غير أني ألحقت بقول أبي نواس :
وإن جرث الألفاظ يوماً بمدحة • • • • •
لغيرك إنساناً فانت الذي نعني
وقال محمد بن الصولي : ومن مختار مدح أبي تمام لأحمد بن أبي دؤاد قوله :

أحمد إن الحاسدين كثير • • • • •
ومالك إن عد الكرام نظير • • • • •
حللت محلاً فاضلاً متفادماً • • • • •
من الجبر والفخر القديم نفور • • • • •
فكل غني أو فقير فانه • • • • •
إليك وإن قال السماء فقير • • • • •
إليك تناهى المجد من كل وجهة • • • • •
يصير فما يمدوك حيث يصير • • • • •
وبدر إباد أنت لا ينكرونه • • • • •
كذلك إباد للانام بدور • • • • •
تجنبت أن تدعى الأمير تواضاً • • • • •
وأنت لمن يدعى الأمير أمير • • • • •
فما من يد إلا إليك ممدّة • • • • •
وما رفعة إلا إليك تشير • • • • •

قلت : قد أخطأ الشاعر في هذه الأبيات خطأ كبيراً ، وأغشش في المبالغة فحشا كثيراً ، ولعله إن اعتقد هذا في مخلوق ضعيف مسكين ضال مضل ، أن يكون له جهنم وساءت مصيراً . وقال ابن أبي دؤاد يوماً لبعضهم : ليا لم لاتسألني ؟ فقال له : لأنني لو سألتك أعطيتك ثمن صلتك . فقال له : صدقت . وأرسل إليه بخمسة آلاف درهم .

وقال ابن الأعرابي : سأل رجل ابن أبي دؤاد أن يحمله على غير فقال : يا غلام اعطه غيراً وبغلا

ورذونا وفرسا وجارية . وقال له : لو أعلم مر كوباً غير هذا لأعطيتك . ثم أورد الخطيب بأسانيد
 عن جماعة أخباراً تدل على كرمه وفصاحته وأدبه وحلمه ومبادرته إلى قضاء الحاجات ، وعظيم منزلته
 عند الخلفاء . وذكروا عن محمد المهدي بن الوائق أن شيخاً دخل يوماً على الوائق فسلم فلم يرد عليه
 الوائق بل قال : لا سلم الله عليك . فقال : يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك معلمك . قال الله تعالى
 [إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها] فلا حييتني بأحسن منها ولا رددتها . فقال ابن أبي
 دؤاد يا أمير المؤمنين الرجل متكلم . فقال : ناظره . فقال ابن أبي دؤاد : ماتقول يا شيخ في القرآن
 مخلوق هو ؟ فقال الشيخ : لم تنصفتني ، المسألة لي . فقال : قل . فقال : هذا الذي تقوله علمه رسول الله
 (س) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أو ما علموه ؟ فقال ابن أبي دؤاد : لم يعلموه . قال : فانت علمت ما لم
 يعلموا ؟ فنجبل وسكت . ثم قال أفلني بل علموه ، قال : فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت ، أما
 يدعوك ما وسعهم ؟ فنجبل وسكت وأمر الوائق له بمائة دينار فلم يقبلها . قال المهدي :
 فدخل أبي المنزل فاستأقني على ظهره وجعل يكرر قول الشيخ علي نفسه ويقول : أما وسعك
 ما وسعهم ؟ ثم أطلق الشيخ وأعطاه مائة دينار ورده إلى بلاده ، وسقط من عينيه ابن أبي دؤاد
 ولم يمتحن بعده أحداً . ذكره الخطيب في تاريخه بأسناد فيه بعض من لا يعرف ، وساق قصته
 مطولة . وقد أنشد ثعلب عن أبي حجاج الأغرابي أنه قال في ابن أبي دؤاد :

نكست الدين يا ابن أبي دؤاد * فأصبح من أطاعك في ارتداد
 زعمت كلام ربك كان خلقاً * أما لك عند ربك من معاد
 كلام الله أنزله بعلم * على جبريل إلى خير العباد (١)
 ومن أمسى يبأبك مستضيفاً * كمن حل الفلاة بغير زاد
 لقد أظرفت يا ابن أبي دؤاد * بقولك إنني رجل إيادي

ثم قال الخطيب : أنبأ القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري قال : أنشدنا المعافى بن
 زكريا الجري عن محمد بن يحيى الصولي لبعضهم بهجو ابن أبي دؤاد :
 لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد * وكان عزمك عزمًا فيه توفيق
 وقد تقدمت هذه الأبيات .

وروى الخطيب عن أحمد بن الموفق أو يحيى الجلاء أنه قال : ناظرني رجل من الواقفية في خلق
 القرآن فنالني منه ما أكره ، فلما أمسيت أتيت امرأتني فوضعت لي المشاء فلم أقدر أن أنال منه شيئاً ،
 فنت فرأيت رسول الله (س) في المسجد الجامع وهناك حلقة فيها أحمد بن حنبل وأصحابه ، فجعل
 رسول الله (س) يقرأ هذه الآية [فان يكفر بها هؤلاء] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد [فقد كلنا

(١) كذا في الأصل والوزرة غير مستقيم .

بها قوماً ليسوا بها بكافرين] ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه . وقال بعضهم : رأيت في المنام كأن
قائلاً يقول : هلك الليلة أحمد بن أبي دؤاد . قلت له : وما سبب هلاكه ؟ فقال : إنه أغضب الله
عليه فغضب عليه من فوق سبع سموات . وقال غيره : رأيت ليلة مات ابن أبي دؤاد كأن النار
زفرت زفرة عظيمة فخرج منها لهب فقلت : ما هذا ؟ فقيل هذا أنجزت لابن أبي دؤاد .

وقد كان هلاكه في يوم السبت لسبع بقين من المحرم من هذه السنة ، وصلى عليه ابنه العباس ودفن
في داره ببغداد وعمره يومئذ ثمانون سنة ، وابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقي طريحاً
في فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده ، وحرّم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك .
وقد دخل عليه بعضهم فقال : والله ما جنتك عائداً وإنما جنتك لأعزبك في نفسك وأحمد الله
الذي سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن ، ثم خرج عنه داعياً عليه بأن
يزيده الله ولا ينقصه مما هو فيه ، فازداد مرضاً إلى مرضه . وقد صودر في العام الماضي بأموال جزيلة
جداً ، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل . قال ابن خلكان : كان مولده في سنة ستين ومائة .
قلت : فعلى هذا يكون أسن من أحمد بن حنبل ومن يحيى بن أكرم الذي ذكر ابن خلكان أن ابن
أكرم كان سبب اتصال ابن أبي دؤاد بالخليفة المأمون ، فخطى عنده بحيث إنه أوصى به إلى أخيه
المنعم ، فولاه المنعم القضاء والمظالم ، وكان ابن الزيات الوزير يفضيه ، وجرت بينهما منافسات
وهجو ، وقد كان لا يقطع أمراً بدون . وعزل ابن أكرم عن القضاء وولاه مكانه ، وهذه المحنة التي
هي أس ما بعدها من الحن ، والفتنة التي فتحت على الناس باب القتن .

ثم ذكر ابن خلكان ما ضرب به الفالج وما صودر به من المال ، وأن ابنه أبا الوليد محمد
صودر بألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وأنه مات قبل أبيه بشهر . وأما ابن عساكر فإنه بسط
القول في ترجمته وشرحها شرحاً جيداً . وقد كان الرجل أديباً فصيحاً كريماً جواداً ممدحاً يؤثر العطاء
على المنع ، والتفرقة على الجمع وقد روى ابن عساكر بأسناده أنه جلس يوماً مع أصحابه ينتظرون
خروج الواثق فقال ابن أبي مرزاد إنه ليعجبني هذان البيتان :

ولي نظرة لو كان يُجبلُ ناظرٌ • بنظرته أنثى لقد جبلت مني
فإن ولدت بين تسعة أشهر • إلى نظرٍ ابناً فان ابنها مني

ومن توفي فيها من الأعيان أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلابي أحد الفقهاء المشاهير . قال الامام
أحمد : هو عندنا في مسالخ الثوري . وخليفة بن خياط أحد أئمة التاريخ وسويد بن سعد الحداني
وسويد بن نصر . وعبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون أحد فقهاء المالكية المشهورين . وعبد الوحد
ابن غياث . وقتيبة بن سعيد شيخ الأئمة والسنة . وأبو العمير عبد الله بن خالد كاتب عبد الله بن

طاهر وشاعره ، كان عالماً باللغة وله فيها مصنفات عديدة أورد منها ابن خلكان جملة ، ومن شعره
 يمدح عبد الله بن طاهر :

يا من يحاول أن تكون صفاته • كصفاتِ عبدِ الله أنصتِ واصمعي
 فلا نصحتك في خصالِ والدي • حجّ الحجيجِ إليه فاصمعي أو دعي
 أصدق وعفّ وبرّ واصبر واحتملي • واصفح وكافئ دار واحلم واشجعي
 والطف ولين وتأن وارفق واتدني • واحزم وجدّ وحام واحمل وادفعي
 فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي • وهديت لانهج الأسد المبيعي
 أما سحنون المالكي صاحب المدونة

فهو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن جنيد بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التتوخي ،
 أصله من مدينة حمص ، فدخل به أبوه مع جندها بلاد المغرب فأقام بها ، وانتهت إليه رياسة منهب
 مالك هناك ، وكان قد تفقه على ابن القاسم ، وسببه أنه قدم أسد بن الفرات صاحب الإمام مالك
 من بلاد العرب إلى بلاد مصر فسأل عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك عن أسئلة كثيرة فأجابته
 عنها ، فقلها عنه ودخل بها بلاد المغرب فانتسخها منه سحنون ، ثم قدم على ابن القاسم مصر فأعاد
 أسئلته عليه فزاد فيها ونقص ، ورجع عن أشياء منها ، فرتبها سحنون ورجع بها إلى بلاد المغرب ،
 وكتب معه ابن القاسم إلى أسد بن الفرات أن يعرض نسخته على نسخة سحنون ويصلحها بها
 فلم يقبل ، فدعى عليه ابن القاسم فلم ينتفع به ولا بكتابه ، وصارت الرحلة إلى سحنون ، وانتشرت
 عنه المدونة ، وساد أهل ذلك الزمان ، وتولى القضاء بالقيروان إلى أن توفي في هذه السنة عن ثمانين
 سنة رحمه الله وإيانا .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

في جادى الأولى أو الآخرة من هذه السنة وثب أهل حمص أيضاً على عاملهم محمد بن عبدويه
 فأرادوا قتله ، وساعدته نصارى أهلها أيضاً عليه ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك ، فكتب إليه يأمره
 بمناهضتهم ، وكتب إلى متولى دمشق أن يمدّه بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص ، وكتب
 إليه أن يضرب ثلاثة منهم معروفين بالشر بالسياط حتى يموتوا ، ثم يصلبهم على أبواب البلد ، وأن
 يضرب عشرين آخرين منهم كل واحد ثلاثمائة ، وأن يرسلهم إلى سامراء مقيدين في الحديد ، وأن
 يخرج كل نصراني بها ويهدم كنيستها العظمى التي إلى جانب المسجد الجامع ، وأن يضيفها إليه ،
 وأمره بخمسين ألف درهم ، وللأمراء الذين ساعدوه بصلات سنوية . فامتثل ما أمره به الخليفة
 فيها . وفيها أمر الخليفة المتوكل على الله بضرب رجل من أعيان أهل بغداد يقال له عيسى بن

جعفر بن محمد بن عاصم ، فضرب ضرباً شديداً مبرحاً ، يقال إنه ضرب ألف سوط حتى مات .
 وذلك أنه شهد عليه سبعة عشر رجلاً عند قاضي الشرقية أبي حسان الزيادي أنه يشتم أبا بكر وعمر
 وعائشة وحفصة رضي الله عنهم . فرفع أمره إلى الخليفة فجاء كتاب الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن
 طاهر بن الحسين نائب بغداد يأمره أن يضرب به بين الناس حد السب ، ثم يضرب بالسياط حتى
 يموت ويلقى في دجلة ولا يصل عليه ، ليرتدع بذلك أهل الاحاد والمعاندة . ففعل معه ذلك تسعة
 الله ولعنه . ومثل هذا يكفر إن كان قد قذف عائشة بالاجماع ، وفيمن قذف سواها من أمهات المؤمنين
 قولان ، والصحيح أنه يكفر أيضاً ، لأنهم أزواج رسول الله (ص) ، ورضى عنهم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة انقضت الكواكب ببغداد وتناثرت ، وذلك ليلة الخميس ليلة
 خلت من جمادى الآخرة . قال : وفيها مطر الناس في آب مطراً شديداً جداً . قال : وفيها مات من
 الدواب شيء كثير ولا سيما البقر . قال : وفيها أغارت الروم على عين زربة فأسروا من بها من الزط
 وأخذوا نساءهم وذرايرهم ودوابهم . قال : وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم في بلاد طرسوس
 بمحضرة قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد ، عن إذن الخليفة له في ذلك ، واستنابته ابن أبي الشوارب .
 وكانت عدة الأسرى من المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً ، ومن النساء مائة وخمسة وعشرين
 امرأة ، وقد كانت أم الملك تدورة لعنها الله عرضت النصرانية على من كان في يدها من الأسارى ،
 وكانوا نحواً من عشرين ألفاً فن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته ، قتلته اثني عشر ألفاً وتنصر
 بعضهم ، وبقى منهم هؤلاء الذين فودوا وهم قريب من التسعمائة رجلاً ونساء .

وفيها أغارت البجة على جيش من أرض مصر ، وقد كانت البجة لا يغزون المسلمين قبل ذلك ،
 لهدنة كانت لهم من المسلمين ، فنقضوا الهدنة وصرحوا بالخلاف . والبجة طائفة من سودان بلاد
 المغرب ، وكذا النوبة وشنون وزغبر ويكسوم وأم كثيرة لا يعلمهم إلا الله . وفي بلاد هؤلاء معادن
 الذهب والجوهر ، وكان عليهم حمل في كل سنة إلى ديار مصر من هذه المعادن ، فلما كانت دولة
 المتوكل امتنعوا من أداء ما عليهم سنين متعددة ، فكتب نائب مصر - وهو يعقوب بن إبراهيم
 الباذغيسي مولى الهادي وهو المعروف بقوصرة - بذلك كله إلى المتوكل ، فغضب المتوكل من ذلك
 غضباً شديداً ، وشاور في أمر البجة فقبل له : يا أمير المؤمنين إنهم قوم أهل إبل وبادية ، وإن بلادهم
 جيدة ومعطشة ، ويحتاج الجيش الذهبون إليها أن يتزودوا لمقامهم بها طعاماً وماء ، فصدده ذلك عن
 البعث إليهم ، ثم بلغه أنهم يغيرون على أطراف الصعيد ، ويخشي أهل مصر على أولادهم منهم ،
 فجهز لهم محمد بن عبد الله القمي ، وجعل إليه نيابة تلك البلاد كلها المتاخمة لأرضهم ، وكتب إلى
 عمال مصر أن يعينوه بكل ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك ، فتخلص وتخلص معه من الجيوش

الذين انضافوا إليه من تلك البلاد حتى دخل بلادهم في عشرين ألف فارس وراجل ، وحمل معه الطعام
الأدام في مراكب سبعة ، وأمر الذين هم بها أن يلجوا بها في البحر فيوافوه بها إذا توسط بلاد
البحجة ، ثم سار حتى دخل بلادهم وجاوز معادهم وأقبل إليه ملك البحجة - واسمه علي بابا - في جمع
عظيم أضعاف من مع محمد بن عبد الله القمي ، وهم قوم مشركون يعبدون الأصنام ، فجعل الملك يطاول
المسلمين لعله تنفذ أزوارهم فيأخذونهم بالأيدي ، فلما نفذ ما عند المسلمين طمع فيهم السودان فيسر
الله وله الحمد بوصول تلك المراكب وفيها من الطعام والتمر والزيت وغيره . فلك مما يحتاجون إليه شيء
كثير جداً فقسمه الأمير بين المسلمين بحسب حاجاتهم ، فيئس السودان من هلاك المسلمين
جوعاً فشرعوا في التآهب لقتال المسلمين ، ومركبهم الأبل شبيهة بالهجن زعرة جداً كثيرة النفار ،
لا تكاد ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً إلا جفلت منه . فلما كان يوم الحرب عمد أمير المسلمين إلى جميع
الأجراس التي معهم في الجيش فجعلها في رقاب الخيول ، فلما كانت الوقعة حمل المسلمون حملة رجل
واحد ، فنفرت بهم إبلهم من أصوات تلك الأجراس في كل وجه ، وتفرقوا شذراً منبراً ، واتبعهم
المسلمون يقتلون من شاؤا ، لا يمتنع منهم أحد ، فلا يعلم عدد من قتلوا منهم إلا الله عز وجل . ثم
أصبحوا وقد اجتمعوا رجالة فكبسهم القمي من حيث لا يشعرون فقتل عامة من بقي منهم وأخذ
ملكهم بالأمان ، وأدى ما كان عليه من الحمل ، وأخذته معه أسيراً إلى الخليفة . وكانت هذه الوقعة
في أول يوم من هذه السنة ، فولاه الخليفة علي بلاده كما كان ، وجعل إلى ابن القمي أمر تلك الناحية
والنظر في أمرها والله الحمد والمنة .

قال ابن جرير : ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة في جمادى الآخرة .
قلت : وهذا الرجل كان نائباً على الديار المصرية من جهة المتوكل . وفيها حج بالناس عبد الله بن محمد
ابن داود ، وحج جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم ، ولم يتعرض ابن جرير لوثاة
أحد من المحدثين في هذه السنة ، وقد توفي من الأعيان الإمام أحمد بن حنبل . وجبارة بن المغسل
الحفاني . وأبو ثوبة الحلبي . وعيسى بن حماد سجادة . ويعقوب بن حميد بن كاسب . ولندكر شيئاً من

للإمام المكنون

فقول وبالله المستعان : هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن
حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن
صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعي بن جديلة بن أسد بن ربيعة
ابن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن حمل بن النبت بن قيدار بن إسماعيل بن
إبراهيم الخليل عليهما السلام - أبو عبد الله الشيباني ثم المروزي ثم البغدادي ، هكذا ساق نسب

الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي في الكتاب الذي جمعه في مناقب أحمد عن شيخه الحافظ أبي عبد الله الحاكم صاحب المستدرک، وروى عن صالح ابن الامام أحمد قال: رأى أبي هذا النسب في كتاب لي فقال: وما تصنع به؟ ولم ينكر النسب. قالوا: وقدم به أبوه من مروره وهو حمل فوضعت أمه بيغداد في ربيع الأول من سنة أربع وستين ومائة، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين فكفلته أمه. قال صالح عن أبيه: فقبت أذني وجعلت فيها لؤلؤتين فلما كبرت دفعتهما إلي فبعتهما بثلاثين درهما. وتوفي أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله من العمر سبع وسبعون سنة رحمه الله.

وقد كان في حدائته يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث، فكان أول طلبه للحديث وأول سماعه من مشايخه في سنة سبع وثمانين ومائة، وقد بلغ من العمر ست عشرة سنة، وأول حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة، ثم سنة إحدى وتسعين. وفيها حج الوليد بن مسلم، ثم سنة ست وتسعين، وجاور في سنة سبع وتسعين، ثم حج في سنة ثمان وتسعين، وجاور إلى سنة تسع وتسعين سافر إلى عند عبد الرزاق إلى اليمن، فكتب عنه هو ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه. قال الامام أحمد: حججت خمس حجج منها ثلاث راجلا، أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهما. قال: وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش فجعلت أقول: يا عباد الله دلوني على الطريق، فلم أزل أقول ذلك حتى وقفت على الطريق. قال: وخرجت إلى الكوفة فكنيت في بيت تحت رأس ابنة، ولو كان عندي تسعون درهما كنت: حلت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري وخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج لأنه لم يمكن عندي شيء. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه عن حرمة: سمعت الشافعي قال: وعدني أحمد بن حنبل أن يقدم علي مصر فلم يقدم. قال ابن أبي حاتم: يشبه أن تكون خفة ذات اليد منعتة أن يني بالعدة. وقد طاف أحمد بن حنبل في البلاد والآفاق، وجمع من مشايخ العصر، وكانوا يجلونه ويحترمونه في حال سماعه منهم، وقد سرد شيخنا في تهيبه أسماء شيوخه مرتبين على حروف المعجم، وكذلك الرواة عنه. قال البيهقي بعد أن ذكر جماعة من شيوخ الأمام أحمد: وقد ذكر أحمد بن حنبل في المسند وغيره الرواية عن الشافعي، وأخذ عنه جملة من كلامه في أنساب قريش، وأخذ عنه من الفقه ما هو مشهور، وحين توفي أحمد وجدوا في تركته رسالتى الشافعي القديمة والجديدة.

قلت: قد أفرد ما رواه أحمد عن الشافعي وهي أحاديث لا تبلغ عشرين حديثا، ومن أحسن ما رويناها عن الأمام أحمد عن الشافعي عن مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك عن أبيه قال قال رسول الله (ص): «نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه

إلى جسده يوم يموت . وقد قال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلة الثانية إلى بغداد سنة تسعين^(١) ومائة وعمر أحمد إذ ذاك نيف وثلاثون سنة . قال له : يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً - يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين وينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب - وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لأحمد وإجلال له وأنه عنده بهذه المنابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه . وقد كان الامام أحمد بهذه المنابة عند الأئمة والعلماء كما سيأتي ثناء الأئمة عليه واعترافهم له بمكانة في العلم والحديث ، وقد بعد صيته في زمانه واشتهر اسمه في شببته في الآفاق .

ثم حكى البيهقي كلام أحمد في الإيمان وأنه قول وعمل ويزيد وينقص ، وكلامه في القرآن كلام الله غير مخلوق ، وإنكاره على من يقول : إن لفظه بالقرآن مخلوق يريد به القرآن . قال : وفيها حكى أبو عمارة وأبو جعفر أخبرنا أحمد شيخنا السراج عن أحمد بن حنبل أنه قال : اللفظ محدث . واستدل بقوله [ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] قال : فاللفظ كلام الآدميين . وروى غيرهما عن أحمد أنه قال : القرآن كيف ما تصرف فيه غير مخلوق ، وأما أفعالنا فهي مخلوقة . قلت : وقد قرر البخاري في هذا المعنى في أفعال العباد وذكره أيضاً في الصحيح ، واستدل بقوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » . ولهذا قال غير واحد من الأئمة : الكلام كلام الباري ، والصوت صوت القاري . وقد قرر البيهقي ذلك أيضاً .

[وروى البيهقي من طريق إسماعيل بن محمد بن إسماعيل السلمي عن أحمد أنه قال : من قال : القرآن محدث فهو كافر . ومن طريق أبي الحسن الميموني عن أحمد أنه أجاب الجهمية حين احتجوا عليه بقوله تعالى : [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون] . قال : يحتمل أن يكون تزييله إلينا هو المحدث ، لا الذي ذكر نفسه هو المحدث . وعن حنبل عن أحمد أنه قال : يحتمل أن يكون ذكر آخر غير القرآن ، وهو ذكر رسول الله (س) ، أو وعظه إيام . ثم ذكر البيهقي كلام الأمام أحمد^(٢) في رؤية الله في الدار الآخرة ، واحتج بحديث صهيب في الرؤية وهي زيادة ، وكلامه في نفي التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة عن النبي (س) . وعن أصحابه [وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السباك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تناول قول الله تعالى : [وجاء ربك] أنه جاء نوابه . ثم قال البيهقي : وهذا إسناد لا غبار عليه .]^(٣) وقال الأمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن عياش ثنا عاصم عن زر عن عبد الله - هو ابن مسعود -

(١) تقدم أن الرحلة الثانية للشافعي كانت سنة ثمان وتسعين ومائة .

(٢) ، (٣) زيادة من المصرية .

قال : مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، ومارأوه سيئاً فهو عند الله سيئ . وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخافوا أبا بكر رضي الله عنه إسناد صحيح . قلت : وهذا الأثر فيه حكاية إجماع عن الصحابة في تقديم الصديق . والأمر كما قاله ابن مسعود ، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة . وقد قال أحمد حين اجتاز بمصر وقد حمل إلى المأمون في زمن الحنة ودخل عليه عمرو بن عثمان الحمصي فقال له : ما تقول في الخلافة ؟ فقال : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، ومن قدم علياً على عثمان فقد أزرى بأصحاب الشورى لأنهم قدموا عثمان رضي الله عنه .

ورعه وتشفه وزهده رحمه الله

روى البيهقي من طريق المزني عن الشافعي أنه قال للرشيد : إن اليمن يحتاج إلى قاض ، فقال له : اختر رجلاً نوله إياها . فقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه في جملة من يأخذ عنه : ألا تقبل قضاء اليمن ؟ فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً وقال للشافعي : إني إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدنيا ، فأمروني أن ألي القضاء ؟ ولولا العلم لما أكلت بعد اليوم . فاستحى الشافعي منه . وروى أنه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل ، ولا خلف بنيه ولا يكلمهم أيضاً ، لأنهم أخذوا جائزة السلطان . ومكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله حتى بعث إلى بعض أصحابه فاستقرض منه دقيقتاً فعرف أهله حاجته إلى الطعام فوجدوا وعجنوا وخبزوا له سريعاً فقال : ما هذه العجلة كيف خبزتم ؟ فقالوا : وجدنا تنور بيت صالح مسجوراً فخبزنا لك فيه . فقال : ارفعوا ، ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صالح . قال البيهقي : لأن صالحاً أخذ جائزة السلطان ، وهو المتوكل على الله . وقال عبد الله ابنه : مكث أبي بالعسكر عند الخليفة ستة عشر يوماً لم يأكل فيها إلا ربع مد سويقاً ، يفطر بعد كل ثلاث ليال على سفة منه حتى رجع إلى بيته ، ولم يرجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر . وقد رأيت موقبه دخلاً في حدقيه . قال البيهقي : وقد كان الخليفة يبعث إليه المائدة فيها أشياء كثيرة من الأنواع وكان أحمد لا يتناول منها شيئاً . قال : وبعث المأمون مرة ذهباً يقسم على أصحاب الحديث فما بقي منهم أحد إلا أخذ إلا أحمد بن حنبل فإنه أبي .

وقال سليمان الشاذكوني : حضرت أحمد وقد رهن سطلا له عند قاضي باليمن ، فلما جاءه بفكاهه أخرج له سطلين فقال : خذ متاعك منهما . فاشتبه عليه أهما له فقال : أنت في حل منه ومن الفكك ، وتركه وذهب . وحكى ابنه عبد الله قال : كنا في زمن الواثق في ضيق شديد ، فكسب رجل إلى أبي : إن عندي أربعة آلاف درهم ورثتها من أبي وابتعدت صدقة ولازكة ، فان رأيت أن تقبلها . فامتنع من ذلك ، وكرر عليه فأبى ، فلما كان بعد حين ذكرنا ذلك فقال أبي : لو كنا قبلناها كانت ذهبت وأكلناها ، وعرض عليه بعض التجار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعة حملها

باسمه فأبى أن يقبلها وقال : نحن في كفاية وجزاك الله عن قصدك خيراً . وعرض عليه تاجر آخر ثلاثة آلاف دينار فامتنع من قبولها وقام وتركه . ونفدت نفقة أحمد وهو في اليمن فعرض عليه شيعه عبد الرزاق ملء كفه دنانير فقال : نحن في كفاية ولم يقبلها . وسرقت ثيابه وهو باليمن فجلس في بيته ورد عليه الباب وقده أصحابه فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم فعرضوا عليه ذهباً فلم يقبله ولم يأخذ منهم إلا ديناراً واحداً ليكتب لهم به فكتب لهم بالأجر رحمة الله . وقال أبو داود . كانت مجالس أحمد بمجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا ، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط . وروى البيهقي أن أحمد سئل عن التوكل فقال : هو قطع الاستشراف باليأس من الناس ، فقيل له : هل من حجة على هذا ؟ قال : نعم ! إن إبراهيم لما رمى به في النار في المنجنيق عرض له جبريل فقال : هل لك من حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال : فسل من لك إليه حاجة . فقال : أحب الأمرين إلى أحبهما إليه . وعن أبي جعفر محمد بن يعقوب الصفار قال : كنا مع أحمد بن حنبل بسر من رأى فقلنا : ادع الله لنا فقال : اللهم إنك تعلم أنك على أكثر مما نحب فاجعلنا على ما نحب دائماً . ثم سكت . فقلنا : زدنا فقال : اللهم إنا نسألك بالقدرة التي قلت للسماوات والأرض [ائتيا طوعاً أو كرها قلنا أتينا طائعين] اللهم وفقنا لمرضاتك ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ونعوذ بك من الذل إلا لك ، اللهم لا تكثر لنا فظننى ولا تقل علينا فننسى ، وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغا لنا في دنيانا ، وغنى من فضلك . قال البيهقي : وفي حكاية أبي الفضل التميمي عن أحمد : وكان يدعو في السجود : اللهم من كان من هذه الأمة على غير الحق وهو يظن أنه على الحق فرده إلى الحق ليكون من أهل الحق . وكان يقول : اللهم إن قبلت عن عصاة أمة محمد سر ، فداء فاجعلني فداء لهم . وقال صالح بن أحمد : كان أبي لا يدع أحداً يستقى له الماء للوضوء ، بل كان يلى ذلك بنفسه ، فاذا خرج الدلو ملآن قال : الحمد لله . فقلت : يا أبة ما الفائدة بذلك ؟ فقال : يا بني أما سمعت قول الله عز وجل [أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين] والأخبار عنه في هذا الباب كثيرة جداً . وقد صنف أحمد في الزهد كتاباً حافلاً عظيماً لم يسبق إلى مثله ، ولم يلحقه أحد فيه . والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه رحمه الله .

وقال إسماعيل بن إسحاق السراج : قال لي أحمد بن حنبل : هل تستطيع أن ترفني الحارث الحارثي إذا جاء منزلك ؟ فقلت : نعم ! وفرحت بذلك ، ثم ذهبت إلي ، الحارث فقلت له : إني أحب أن تحضر الليلة عندي أنت وأصحابك . فقال : إنهم كثير فأحضر لهم التمر والكسب . فلما كان بين العشاءين جاؤا وكان الأمام أحمد قد سبقهم فجلس في غرفة بحيث يرام ويسمع كلامهم ولا يرونه ، فلما صلوا العشاء الآخرة لم يصلوا بعدها شيئاً ، بل جاؤا فجلسوا بين يدي الحارث سكوتاً

مطرق الرأس ، كأنما على رؤسهم الطير ، حتى إذا كان قريباً من نصف الليل سأل رجل مسألة فشرع الحارث يتكلم عليها وعلى ما يتعاقبها من الزهد والورع والوعظ ، فجعل هذا يبكي وهذا يئن وهذا بزق ، قال : فصعدت إلى الإمام أحمد إلى الغرفة فإذا هو يبكي حتى كاد يفشى عليه ، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح ، فلما أرادوا الانصراف قلت : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما رأيت أحداً يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل ، وما رأيت مثل هؤلاء ، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم . قال البيهقي : يحتمل أنه كرهه له محبتهم لأن الحارث بن أسد ، وإن كان زاهداً ، فإنه كان عنده شيء من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك ، أو كرهه له محبتهم من أجل أنه لا يطبق سلوك طريقهم وما هم عليه من الزهد والورع . قلت : بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر ، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بالرعاية قال : هذا بدعة . ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ، ودع عنك هذا فإنه بدعة . وقال إبراهيم الحربي : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على ما يحب . وقال : الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر . وقال : الفقر أشرف من الغنى ، فإن الصبر عليه مرارة وانزعاجه أعظم حالاً من الشكر . وقال : لا أعدل بفضل الفقر شيئاً . وكان يقول : على العبد أن يقبل الرزق بعد اليأس ، ولا يقبله إذا تقاسمه طمع أو استشراف . وكان يحب التقلل من الدنيا لأجل خفة الحساب . وقال إبراهيم قال رجل لأحمد : هذا العلم تعلمته لله ؟ فقال له أحمد : هذا شرط شديد ولكن حيب إلى شيء فجمعه . وفي رواية أنه قال : أما لله فعزيز ، ولكن حيب إلى شيء فجمعه . وروى البيهقي أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال : إن أمي زمنة مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتني إليك لتدعو لها ، فكأنه غضب من ذلك وقال : نحن أحوج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها . ثم دعا الله عز وجل لها . فرجع الرجل إلى أمه فدق الباب فخرجت إليه على رجلها وقالت : قد وهبني الله العافية . وروى أن سائلاً سأل فأعطاه الإمام أحمد قطعة فقام رجل إلى السائل فقال : هبني هذه القطعة حتى أعطيك عوضها ، ما تساوى درهما . فأبى فراه إلى خمسين درهما وهو يابى وقال : إني أرجو من بركتها ما أرجوه أنت من بركتها . ثم قال البيهقي رحمه الله :

ذكر ما جاء في محنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل

في أيام المأمون ثم المعتصم ثم الواثق بسبب القرآن العظيم وما أصابه من الحبس الطويل والشرب الشديد والتهديد بالقتل بسوء العذاب وأليم العقاب ، وقلة مبالاته بما كان منهم في ذلك إليه وصبر . عليه وتمسكه بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم ، وكان أحمد عالماً بما ورد بمثل حاله من

الآيات المتلوحة ، والأخبار الماثورة ، وبلغه ما أوصى به في المنام واليقظة فرضى وسلم إيماناً واحتساباً ، وفاز بخير الدنيا ونعيم الآخرة ، وهياه الله بما آتاه من ذلك ليلوغ أعلى منازل أهل البلاء في الله من أوليائه ، وألحق به محبيه فيما نال من كرامة الله تعالى إن شاء الله من غير بلية وبالله التوفيق والعصمة .

قال الله تعالى [بسم الله الرحمن الرحيم آمم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين] وقال الله تعالى [واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور] في سواها في معنى ما كتبنا . وقد روى الامام أحمد الممتحن في مسنده قائلا فيه : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عاصم بن زهير بن سلمة سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : سألت رسول الله (س) : أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبلى الله الرجل على حسب دينه ، فإن كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان صلب الدين ابتلى على حسب ذلك ، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئه » . وقد روى مسلم في صحيحه قال : حدثنا عبد الوهاب الثقفي ثنا أيوب عن أبي قلابة عن أنس . قال قال رسول الله (س) : « ثلاثة من كن فيه فقد وجد حلوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » . أخرجاه في الصحيحين :

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا أحمد بن حنبل ثنا أبو المغيرة ثنا صفوان بن عمرو السكسكي ثنا عمرو بن قيس السكوني ثنا عاصم بن حميد قال : سمعت معاذ بن جبل يقول : « إنكم لم تروا إلا بلاء وفتنة ، ولن يزداد الأمر إلا شدة ، ولا الأنفس إلا شحاً » . وبه قال معاذ : « لن تروا من الأئمة إلا غلظة ولن تروا أمراً يهولكم ويشتد عليكم إلا حضر بعده ما هو أشد منه » . قال البغوي : سمعت أحمد يقول : اللهم رضا . وروى البيهقي عن الربيع قال بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل ، فأتيته وقد انفلت من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب فقال : أقرأته ؟ قلت : لا ! فأخذته فقرأه فدمعت عيناه ، قلت : يا أبا عبد الله وما فيه ؟ فقال : يذكرك أنه رأى رسول الله (س) في المنام فقال : اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام وقل له : إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجهم ، يرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة . قال الربيع : قلت حلوة البشارة ، فخلع قيصه الذي يلي جلده فأعطانيه ، فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته قال : إني لست أجمعك فيه ، ولكن بله بالماء وأعطيني حتى أتبرك به

ملخص الفتنة والمحنة من كلام أئمة السنة

قد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون كان قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاعوه عن طريق الحق

إلى الباطل ، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفى الصفات عن الله عز وجل . قال البيهقي : ولم يكن في الخلفاء قبله من بنى أمية وبنى العباس خليفة الاعلى منذهب السلف ومنهاجهم ، فلما ولي هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك وزينوا له ، واتفق خروجه إلى طرسوس لغزو الروم فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن ، واتفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهور من سنة ثمانئى عشرة ومائتين . فلما وصل الكتاب كما ذكرنا استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا ، فهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين : واستمر على الامتناع من ذلك الامام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجندى ساورى ، فحالا على بعير وسيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك ، وهما مقيدان متعادلان في محمل على بعير واحد فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر ، فسلم على الامام أحمد وقال له : يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شوماً عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فأياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة ، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه ، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ، وإنك إن لم تقتل تمت ، وإن عشت عشت حيداً . قال أحمد : وكان كلامه مما قوى عزمى على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذى يدعونى إليه . فلما اقتربا من جيش الخليفة ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف توبه ويقول : يمز على يا أبا عبد الله إن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك ، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله (ص) ، لئن لم نجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف . قال : فجنى الامام أحمد على ركبته ورمى بطرفه إلى السماء وقال : سيدي غر حلك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته . قال : فجاءهم الصرخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل . قال أحمد : ففرحنا ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وقد انضم إليه أحمد بن أبي دؤاد ، وأن الأمر شديد ، فردونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى ، وفالتى منهم أذى كثير ، وكان في رجله القيود ، ومات صاحبه محمد بن نوح في الطريق وصلى عليه أحمد ، فلما رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان ، فأودع في السجن نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ، وقيل نيفاً وثلاثين شهراً ، ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم . وقد كان أحمد وهو في السجن هو الذى يصلى في اهل السجن والقيود في رجله .

ذكر ضربه رضي الله عنه بين يدي المعتصم

لما أحضره المعتصم من السجن زاد في قيوده ، قال أحمد : فلم أستطع أن أمشى بها فربطتها في

النسكة وحملتها بيدي ، ثم جاؤني بدابة فحملت عليها فكنت أن أسقط على وجهي من ثقل القيود
وليس معي أحد بمسكني ، فسلم الله حتى جئنا دار المعتصم ، فأدخلت في بيت وأغلق عليّ وليس
عندي سراج ، فأردت الوضوء فددت يدي فاذا إناء فيه ماء فتوضأت منه ، ثم قمت ولا أعرف القبلة ،
فلما أصبحت إذا أنا على القبلة والله الحمد . ثم دعيت فأدخلت على المعتصم ، فلما نظر إلى وعنده ابن
أبي دؤاد قال : أليس قد زعمت أنه حدث السن وهذا شيخ مكمل ؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لي :
ادنه ، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال : اجلس ! فجلست وقد أثقلني الحديد ، فكثت ساعة
ثم قلت : يا أمير المؤمنين إلى م دعا إليه ابن عمك رسول الله (ص) ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله
إلا الله . قلت : فاني أشهد أن لا إله إلا الله . قال : ثم ذكرت له حديث ابن عباس في وفد عبد القيس
ثم قلت : فهذا الذي دعا إليه رسول الله (ص) . قال : ثم تكلم ابن أبي دؤاد بكلام لم أفهمه ، وذلك
أني لم أتفه كلامه ، ثم قال المعتصم : لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرض إليك ، ثم قال :
يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟ قال أحمد : فقلت ، الله أكبر ، هذا فرج للمسلمين ، ثم قال :
ناظره يا عبد الرحمن ، كفه . فقال لي عبد الرحمن : ماتقول في القرآن ؟ فلم أجبه ، فقال المعتصم : أجبه
فقلت : ما تقول في العلم ؟ فسكت ، فقلت . القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد
كفر بالله ، فسكت فقالوا فيما بينهم : يا أمير المؤمنين كفرنا وكفرنا ، فلم يلتفت إلى ذلك ، فقال
عبد الرحمن : كان الله ولا قرآن ، فقلت : كان الله ولا علم ؟ فسكت . فجعلوا يتكلمون من ههنا
وههنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين اعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، فقال :
ابن أبي دؤاد : وأنت لا تقول إلا بهذا وهذا ؟ فقلت : وهل يقوم الاسلام إلا بهما . وجرت مناظرات
طويلة ، واحتجوا عليه بقوله [ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث] وبقوله [الله خالق كل شيء]
وأجاب به ؛ حاصله أنه عام مخصوص بقوله [تدمر كل شيء بأمر ربها] فقال ابن أبي دؤاد : هو والله
يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وههنا قضاتك والفقهاء فسلمهم ، فقال لهم : ما تقولون ؟ فأجابوا
بمثل ما قال ابن أبي دؤاد ، ثم أحضروه في اليوم الثاني وناظروه أيضاً ثم في اليوم الثالث ، وفي ذلك
كله يبلو صوته عليهم وتقلب حجته حججهم . قال : فاذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دؤاد ،
وكان من أجهلهم بالعلم والكلام ، وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل ، فجعلوا
ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها ، وصحمت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحداً يقولها ، وقد
تكلم معي ابن غوث^(١) بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه ، فقلت : لا أدرى
ما تقول ، إلا أنني أعلم أن الله أحد صمد ، ليس كمثل شيء ، فسكت عني . وقد أوردت لهم حدث

(١) في هامش الأصل : لعله ابن غياث وهو المريسي .

لرؤية في الدار الآخرة فأولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلاماً يتسلطون به إلى الطعن فيه ، وهبهات ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وفي غبون ذلك كله يتلطف به للليفة ويقول : يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي ومن يظاً بساطي . فأقول : يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ص . حتى أجيبهم إليها .

واحتج أحمد عليهم حين أنكروا الآثار بقوله تعالى [يا أبا له لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يقضى عنك شيئاً] وبقوله [وكلم الله موسى تكليماً] وبقوله [إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى] وبقوله : [إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون] ونحو ذلك من الآيات . فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل . وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن نخلى سبيله وينقلب خليفتين ، فنند ذلك حتى واشتد غضبه ، وكان ألينهم عريكة ، وهو يظن أنهم على شيء . قال أحمد فنند ذلك قال لى : لعنك الله ، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني ، ثم قال : خنوه واخلموه واسحبوه .

قال أحمد : فأخنت وسجبت وخلصت وجى بالعاقبين والسياط وأنا أنظر ، وكان معى شعرات من شعر النبي ص . مبرودة في ثوبي ، فجردوني منه وصرت بين العقابين ، قلت : يا أمير المؤمنين الله الله ، إن رسول الله ص . قال : « لا يحمل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا باحدى ثلاث » وتلوت الحديث ، وأن رسول الله ص . قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » : فبم تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا ؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين الله كوقوفى بين يديك ، فكأنه أمسك . ثم لم يزالوا يقولون له : يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر ، فأمر بى فقتت بين العقابين وجى بكرسى فأقت عليه وأمرنى بعضهم أن آخذ بيدي بأى الخشبين فلم أفهم ، فتخلت يداى وجى بالضرايين ومعهم السياط فجعل أحدم يضربنى سوطين ويقول له - يمنى المنتصم - : شد قطع الله يديك ، ويحبنى الآخر فيضربنى سوطين ثم الآخر كذلك ، فضربونى أسواطاً فأغى على وذهب عقتى مراراً ، فإذا سكن الضرب يعود على عقتى ، وقام المنتصم إلى يدهونى إلى قولهم فلم أجبه ، وجعلوا يقولون : ويحك الخليفة على رأسك ، فلم أقبل وأعادوا الضرب ثم عاد إلى فلم أجبه ، فأعادوا الضرب ثم جاء إلى الثالثة ، فدعانى فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقتى فلم أحس بالضرب وأرعبه ذلك من أمرى وأمر بى فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا فى حجرة من بيت ، وقد أطلقت الأقياد من رجلى ، وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ثم أمر الخليفة باطلاقه إلى أهله ، وكان جملة ما ضرب نيفاً وثلاثين سوطاً ، وقيل ثمانين سوطاً ، لكن كان ضرباً مبرحاً

شديداً جداً . وقد كان الامام أحمد رجلاً طويلاً رقيقاً أسمر اللون كثير التواضع رحمه الله .
ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم ، أتوه بسويق ليفطر من الضمير
فامنع من ذلك وأتم صومه ، وحين حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال له ابن سماعة القاضي
وصلت في دمك فقال له أحمد : قد صلى عمر وجرحه يشعب دماً ، فسكت . وروى أنه لما أقيم
ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشي أن يسقط سراويله فمكشفت عورته فحرك شفثيه فدعا الله
فعاد سراويله كما كان ، وروى أنه قال : يا غياث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم أني مأم
لك بحق فلا تهتك لي عهدة .

ولما رجع إلى منزله جاءه الجرابجي فقطع لهما مينا من جسده وجعل يداويه والنائب في كل وقت
يسأل عنه ، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً ، وجعل يسأل النائب عنه
والنائب يستعلم خبره ، فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك ، ولما شفاه الله بالعافية بقي مدة
وإبهامه يؤذيها البرد ، وجعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة ، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى
[وليعفوا وليصغحوا] الآية . ويقول : ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك؟ وقد قال تعالى
[فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين] وينادي المنادي يوم القيامة : « ليقم من
أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) :
« ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله »
وكان الذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلية أربعة (١) : أحمد بن حنبل وهو رئيسهم ، ومحمد بن
نوح بن ميمون الجند يسابوري ، ومات في الطريق . ونعيم بن حماد الخزازي ، وقد مات في السجن ،
وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن . وكان مثقلاً بالحديد .
وأحمد بن نصر الخزازي وقد ذكرنا كيفية مقتله .

ثناء الأئمة على الامام أحمد بن حنبل

قال البخاري : لما ضرب أحمد بن حنبل كناً بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول :
لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان أحدوثه . وقال إسماعيل بن الخليل : لو كان أحمد في بني إسرائيل
لكان نبياً . وقال المزني : أحمد بن حنبل يوم المحنة ، وأبو بكر يوم الردة ، وعمر يوم السقيفة ، وعثمان
يوم الدار ، وعلي يوم الجمل وصفين . وقال حرمله : سمعت الشافعي يقول : خرجت من العراق فإ
تركت رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أروع ولا أتقى من أحمد بن حنبل . وقال شيخ أحمد يحيى بن سعيد
القطان : ما قدم على بغداد أحد أحب إلي من أحمد بن حنبل . وقال قتيبة : مات سفيان الثوري
ومات الورع ، ومات الشافعي ومات السنن ، وبموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع . وقال إن أحمد

(١) هم خمسة كما سيأتي .

ابن حنبل قام في الأمة مقام النبوة . قال البيهقي - يعني في صبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله - وقال أبو عمر بن النحاس - وذكر أحمد يوماً - فقال رحمه الله : في الدين ما كان أبصره ، وعن الدنيا ما كان أصبره ، وفي الزهد ما كان أخبره ، وبالصالحين ما كان ألحقه ، وبالمؤمنين ما كان أشبهه ، عرضت عليه الدنيا فأبأها ، والبدع فنفأها . وقال بشر الحافي بعد ما ضرب أحمد بن حنبل : أدخل أحمد الكبير فخرج ذهباً أحمر . وقال الميموني قال لي علي بن المديني بعد ما امتحن أحمد وقيل قبل أن يمتحن : يا ميمون ما قام أحد في الإسلام ما قام أحمد بن حنبل . ففجبت من هذا عجبا شديداً وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام فحكيت له مقالة علي بن المديني فقال : صدق ، إن أبا بكر وجد يوم الردة أنصاراً وأعواناً ، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان . ثم أخذ أبو عبيد يطري أحمد ويقول : لست أعلم في الإسلام مثله . وقال إسحاق بن راهويه : أحمد حجة بين الله وبين عبده في أرضه . وقال علي بن المديني : إذا ابتليت بشيء فأتاني أحمد بن حنبل لم أبال إذا لقيت ربي كيف كان . وقال أيضاً : إني أتخذت أحمد حجة فيما بيني وبين الله عز وجل ، ثم قال : ومن يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله ؟ وقال يحيى بن معين : كان في أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها في عالم قط ، كان محدثاً ، وكان حافظاً ، وكان عالماً ، وكان ورعاً ، وكان زاهداً ، وكان عاقلاً . وقال يحيى بن معين أيضاً : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، والله ما تقوى أن نكون مثله ولا نطبق سلوك طريقه . وقال الذهلي : أتخذت أحمد حجة فيما بيني وبين الله . وقال هلال بن المعلى الرقي : من الله على هذه الأمة بأربعة : بالشافعي فهم الأحاديث وفسرها ، وبين مجملها من مفصلها ، والخاص والعام والناسخ والمنسوخ . وبأبي عبيد بن غريبها . وبيحيى بن معين نفي الكذب عن الأحاديث ، وبأحمد بن حنبل ثبت في الحجة لولا هؤلاء الأربعة لهلك الناس . وقال أبو بكر ابن أبي داود : أحمد بن حنبل مقدم على كل من يحمل بيده قلماً ومحررة - يعني في عصره - وقال أبو بكر محمد بن محمد بن رجاء : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ولا رأيت من رأى مثله . وقال أبو زرعة الرازي : ما أعرف في أصحابنا أسود الرأس أفقه منه . وروى البيهقي عن الحاكم عن يحيى بن محمد العنبري قال : أنشدنا أبو عبد الله البوسندي في أحمد بن حنبل رحمه الله : -

إن ابن حنبل ان سألنا إمامنا • وبه الأئمة في الأنام نتمكوا
خلف النبي محمداً بعد الألى • خلفوا الخلف بعده واستهلكوا
حنو الشرك على الشرك وإتاما • يحنو المثال مثله المستمسك

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله (ص) أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » . وروى البيهقي عن

أبي سعيد الماليني عن ابن عدي عن أبي القاسم البغوي عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد عن بقية بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العنزي ح . قال البغوي : وحدثني زياد بن أيوب حدثنا مبشر عن معاذ عن إبراهيم بن عبد الرحمن العنزي ح . قال البغوي قال قال رسول الله (ص) : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » وهذا الحديث مرسل وإسناده فيه ضعف . والعجب أن ابن عبد البر صححه واحتج به على عدالة كل من حمل العلم ، والامام أحمد من أئمة أهل العلم رحمه الله واكرم مثواه .

ما كان من أمر الامام احمد بعد المحنة

حين خرج من دار الخلافة صار إلى منزله فدوى حتى برأ والله الحمد ، ولزم منزله فلا يخرج منه إلى الجمعة ولا جماعة ، وامتنع من التحديث ، وكانت غلته من ملك له في كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله ويتنعم بذلك رحمه الله صابراً محتسباً . ولم يزل كذلك مدة خلافة المعتصم ، وكذلك في أيام ابنه محمد الواثق ، فلما ولي المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته ، فانه كان محبباً للسنة وأهلها ، ورفع المحنة عن الناس ، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن ، ثم كتب إلى نائبه ببغداد - وهو إسحاق بن إبراهيم - أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه ، فاستدعى إسحاق بالامام أحمد إليه فأكرمه وعظمه ، لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه ، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن فقال له أحمد : سؤالك هذا سؤال تعنت أو استرشاد . فقال : بل سؤال استرشاد . فقال : هو كلام الله منزل غير مخلوق ، فسكن إلى قوله في ذلك ، ثم جهزه إلى الخليفة إلى سر من رأى ثم سبقه إليه . وبلغه أن أحمد اجتاز بابنه محمد بن إسحاق فلم يأت به ولم يسلم عليه ، فغضب إسحاق بن إبراهيم من ذلك وشكاه إلى الخليفة فقال المتوكل : يرد وإن كان قد وطئ بساطي ، فرجع الامام أحمد من الطريق إلى بغداد . وقد كان الامام أحمد كارهاً لمجيئه إليهم ولكن لم يهن ذلك على كثير من الناس وإنما كان رجوعه عن قول إسحاق بن إبراهيم الذي كان هو السبب في ضربه . ثم إن رجلاً من المبتدعة يقال له ابن البلخي وشي إلى الخليفة شيئاً فقال : إن رجلاً من العلويين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل وهو يبائع له الناس في الباطن . فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل . فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة ، فوجدوا الامام أحمد جالساً في داره مع عياله فسألوه عما ذكر عنه فقال : ليس عندي من هذا علم ، وليس من هذا شيء ولا هذا من نيتي ، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية ، وفي عسري ويسري ومنشطى ومكرهى ، وأثره على ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق ، في الليل والنهار ، في كلام كثير . ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئاً . فلما بلغ

المتوكل ذلك وعلم برأته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيراً ، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة - وهو أحد الحجبة - بمشرة آلاف درهم من الخليفة ، وقال : هو يقرأ عليك السلام ويقول : استنشق هذه ، فامتنع من قبولها . فقال : يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه ، والمصلحة لك قبولها ، فوضهها عنده ثم ذهب فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبنى عمه وعياله وقال : لم أتم هذه الليلة من هذا المال ، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة ، ثم أصبح ففرقها في الناس مابين الحسين إلى المائة والمائتين ، فلم يبق منها درهما ، وأعطى منها لأبي أيوب وأبي سعيد الأشج ، وتصدق بالكتيس الذي كانت فيه ، ولم يمت منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والجهد ، وجاء بنو ابنه فقال : اعطني درهما . فنظر أحمد إلى ابنه صالح فتناول صالح قطعة فأعطاهما الصبي فسكت أحمد . وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى كيسها ، فقال علي بن الجهم : يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك ، وماذا يصنع أحمد بالمال ؟ إنما يكفيه رغيغ فقال : صدقت .

فلما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب ، وتولى نيابة بغداد عبد الله ابن إسحاق ، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الامام أحمد ، فقال لأحمد في ذلك فقال : إني شيخ كبير وضعيف ، فرد الجواب على الخليفة بذلك ، فأرسل يعزم عليه لتأنيبي ، وكتب إلى أحمد : إني أحب أن آنس بقربك وبالنظر إليك ، ويحصل لي بركة دعائك . فسار إليه الامام أحمد - وهو عليل - في بنيه وبعض أهله ، فلما قارب العسكر تلقاه وصيف الخادم في موكب عظيم ، فسلم وصيف على الامام أحمد فرد السلام وقال له وصيف : قد أمكنك الله من عدوك ابن أبي دؤاد . فلم يرد عليه جواباً ، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف . فلما وصلوا إلى العسكر بسر من رأى ، أنزل أحمد في دار إيتاخ ، فلما علم بذلك ارتحل منها وأمر أن يستكرى له دار غيرها . وكان رؤس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده ويبلغونه عن الخليفة السلام ، ولا يدخلون عليه حتى يلقون ما عليهم من الزينة والسلاح . وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الآلات التي تليق بتلك الدار العظيمة ، وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام المحنة وما بعدها من السنين المتطاولة ، فاعتنر إليه بأنه عليل وأسنانه تتحرك وهو ضعيف ~~كان~~ الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأظعمة والفاكهة والتلج ، مما يقاوم مائة وعشرين درهما في كل يوم ، والخليفة بحسب أنه يأكل من ذلك ، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلية ، بل كان صائماً يطوى ، فسكت ثمانية أيام لم يستطع بطعام ، ومع ذلك هو مريض ، ثم أقسم عليه ولده حتى شرب قليلاً من السويق بعد ثمانية أيام . وجاء عبيد الله بن يحيى بن خاقان بمال جزيل من الخليفة جائزة له فامتنع

من قبوله ، فألح عليه الأمير فلم يقبل . فأخذها الأمير ففرقها على بنينه وأهله ، وقال : إنه لا يمكن ردها على الخليفة . وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كل شهر بأربعة آلاف درهم ، ففانح أبو عبد الله الخليفة ، فقال الخليفة : لا بد من ذلك ، وما هذا إلا لولدك . فأمسك أبو عبد الله عن مما نفعه ثم أخذ يلوم أهله وعمه ، وقال لهم : إنما بقي لنا أيام قلائل ، وكأنتا قد نزل بنا الموت ، فلما إلى جنة وإما إلى نار ، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء . في كلام طويل يعظهم به . فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح « ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذ » . وأن ابن عمر وابن عباس قبلوا جوائز السلطان . فقال : وما هذا وذاك سواء ، ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال .

ولما استمر ضعفه جعل المتوكل يبعث إليه ابن ماسويه المتطبب لينظر في مرضه ، فرجع إليه فقال : يا أمير المؤمنين إن أحمد ليس به علة في بدنه ، وإنما علته من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة . فسكت المتوكل ثم سألت أم الخليفة منه أن ترى الامام أحمد ، فبعث المتوكل إليه يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعوه ، وليكن في حجره . فتمنع من ذلك ثم أجاب إليه رحاء أن يعجل برجوعه إلى أهله ببغداد . وبعث الخليفة إليه بخلة سنية ومركوب من مراكبه ، فامتنع من ركوبه لأنه عليه ميثرة نمور ، فجئ ببغل لبعض التجار فركبه وجاء إلى مجلس المعتز ، وقد جلس الخليفة وأمه في ناحية في ذلك المجلس ، من وراء ستر رقيق . فلما جاء أحمد قال : سلام عليكم . وجلس ولم يسلم عليه بالأمرة ، فقالت أم الخليفة : الله الله يا بني في هذا الرجل ترده إلى أهله ، فان هذا ليس ممن يريد ما أنتم فيه . وحين رأى المتوكل أحمد قال لأمه : يا أمه قد تأنست الدار . وجاء الخادم ومعه خلة سنية مبطنة وثوب وقلنسوة وطيلسان ، فألبسها أحمد بيده ، وأحمد لا يتحرك بالكلية . قال الامام أحمد : ولما جاست إلى المعتز قال مؤدب : أصلح الله الأمير هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدبك . فقال : إن علمني شيئاً تعلمته ، قال أحمد : فتمجبت من ذكائه في صغره لأنه كان صغيراً جداً فخرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله ويستعيد بالله من مقته وغضبه .

ثم بعد أيام أذن له الخليفة بالانصراف وهياً له خزاقة فلم يقبل أن ينحدر فيها ، بل ركب في زورق فدخل بغداد مخفياً ، وأمر أن تباع تلك الخلة وأن ينصدق بثمنها على الفقراء والمساكين . وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول : سلمت منهم طول عمري ثم ابتليت بهم في آخره . وكان قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً حتى كاد أن يقتله الجوع . وقد قال بعض الأمراء للمتوكل : إن أحمد لا يأكل لك طعاماً ، ولا يشرب لك شراباً ، ولا يجلس على فرشك ، ويحرم ما تشربه . فقال : والله لو نشر المعتصم وكلني في أحمد ما قبلت منه . وجمعت رسل الخليفة ففد إليه في كل يوم تستعلم أخباره

وكيف حاله . وجعل يستغني في أموال ابن أبي دؤاد فلا يجيب بشئ ، ثم إن المتوكل أخرج ابن أبي دؤاد من سر من رأى إلى بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلها . قال عبد الله بن أحمد : وجين رجع أبي من سامرا وجدنا عينيه قد دخلنا في موقيه ، وما رجعت إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر ، وامتنع أن يدخل بيت قرابته أو يدخل بيناهم فيه أو يفتنع بشئ مما هم فيه لأجل قبولهم أموال السلطان .

وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ثم مكث إلى سنة وفاته وكل يوم إلا ويسأل عنه المتوكل ويوفد إليه في أمور يشاوره فيها ، ويستشيره في أشياء تقع له . ولما قدم المتوكل بغداد بعث إليه ابن خاقان ومعه ألف دينار ليفرقها على من يرى ، فامتنع من قبولها وتفرقتها ، وقال : إن أمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره فردها . وكتب رجل رقعة إلى المتوكل يقول : يا أمير المؤمنين إن أحمد يشتم آباءك ويرمبهم بالزندقة . فكتب فيها المتوكل : أما المأمون فانه خلط فسلط الناس على نفسه ، وأما أبي المعتصم فانه كان رجل حرب ولم يكن له بصير بالكلام ، وأما أخى الواثق فانه استنق ما قيل فيه . ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط ، فأخذه عبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط . فقال له الخليفة : لم ضربته خمسمائة سوط ؟ فقال : مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ، ومائة لكونه قنف هذا الشيخ الرجل الصالح أحمد بن حنبل .

وقد كتب الخليفة إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال تعنت ولا امتحان ولا عناد . فكتب إليه أحمد رحمه الله رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم ، وأحاديث مرفوعة . وقد أوردها ابنه صالح في المحنة التي ساقها ، وهي مروية عنه ، وقد نقلها غير واحد من الحفاظ .

وفاة الأمام أحمد بن حنبل

قال ابنه صالح : كان مرضه في أول شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف ، فقلت : يا أبت ما كان غداؤك ؟ فقال : ماء الباقلا . ثم إن صالحا ذكر كثرة محبي الناس من الأكارب وعموم الناس لعبادته وكثرة حرج الناس عليه ، وكان معه خريقة فيها قطيعات ينفق على نفسه منها ، وقد أمر ولده عبد الله أن يطالب سكان ملكه وأن يكفر عنه كفارة عين ، فأخذ شيئا من الأجرة فاشترى تمرا وكفر عن أبيه ، وفضل من ذلك ثلاثة دراهم . وكتب الامام أحمد وصيته :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين ، وأن يحمده في

الحامدين ، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصى أنى قد رضيت بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً ، وأوصى لعبد الله بن محمد المعروف ببوران على نحواً من خمسين ديناراً وهو مصدق فيها فيقضى ماله على من غلة الدار إن شاء الله ، فاذا استوفى أعطى ولد صالح كل ذكر وأثنى عشرة دراهم . ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعو لهم ، وكان قد ولد له صبي قبل موته بخمسة عشر يوماً فسماه سعيداً ، وكان له ولد آخر اسمه محمد قد مشى حين مرض فدعا ، فاتزمه وقبله ثم قال : ما كنت أصنع بالولد على كبر السن ؟ فقيل له : ذرية تكون بك يدعون لك . قال وذلك إن حصل . وجعل يحمد الله تعالى . وقد بلغه في مرضه عن طاوس أنه كان يكره أن ين المريض فترك الأئنين فلم يئن حتى كانت الليلة التي توفى في صبيحتها أن ، وكانت ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، فأن حين اشتد به الوجع . وقد روى عن ابنه عبد الله ويروى عن صالح أيضاً أنه قال : حين احتضر أبى جعل يكثر أن يقول : لا بعد ، لا بعد ، فقلت : يا أبة ماهنه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة ؟ فقال : يا بنى إن إبليس واقف في زاوية البيت وهو عاض على أصبعه وهو يقول : فتنى يا أحمد ؟ فأقول لا بعد لا بعد - يعني لا يفوته حتى تخرج نفسه من جسده على التوحيد - كما جاء في بعض الأحاديث قال إبليس : يارب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله : وعزتي وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى .

وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضوه فجعلوا يوضونه وهو يشير إليهم أن خلوا أصابعى وهو يذكر الله عز وجل في جميع ذلك ، فلما أكملوا وضوه توفى رحمه الله ورضى عنه . وقد كانت وفاته يوم الجمعة حين مضى منه نحو من ساعتين ، فاجتمع الناس في الشوارع وبعث محمد بن طاهر حاجبه ومعه غلمان ومعهم مناديل فيها أكفان ، وأرسل يقول : هذا نيابة عن الخليفة ، فانه لو كان حاضراً لبعث بهذا . فأرسل أولاده يقولون : إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره وأبوا أن يكفنوه بتلك الأكفان ، وأتى بثوب كان قد غزلته جاريتته فكفنوه واشتروا معه عوز لفاقة وحنوطاً ، واشتروا له راوية ماء وامتنعوا أن يغسلوه بماء بيوتهم ، لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل منها ولا يستعير من أمتعتهم شيئاً ، وكان لا يزال منفضباً عليهم لأنهم كانوا يقتولون ما رتب لهم على بيت المال ، وهو في كل شهر أربعة آلاف درهم . وكان لهم عيال كثيرة وهم فقراء . وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بنى هاشم ، فجعلوا يقبلون بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله . وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لم يعلم عددهم إلا الله ، ونائب البلد محمد بن عبد الله بن طاهر واقف في جملة الناس ، ثم تقدم فعزى أولاد الامام أحمد فيه ، وكان هو الذى أم الناس في الصلاة عليه ، وقد أعاد جماعة الصلاة عليه عند القبر وعلى القبر بعد أن دفن من أجل

ذلك ، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق .

وقد روى البيهقي وغير واحد أن الأمير محمد بن طاهر أمر بحزر الناس فوجدوا ألف ألف وثلاثمائة ألف ، وفي رواية وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن . وقال ابن أبي حاتم : سمعت أبا زرعة يقول بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه حيث صلوا على الامام أحمد بن حنبل فبلغ مقاسه ألفي ألف وخمسمائة ألف . قال البيهقي عن الحاكم سمعت أبا بكر أحمد بن كامل القاضي يقول سمعت محمد بن يحيى الزنجاني سمعت عبد الوهاب الوراق يقول : ما بلغنا أن جماعاً في الجاهلية ولا في الاسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع على جنازة أحمد بن حنبل . فقال عبد الرحمن بن أبي حاتم سمعت أبي يقول حدثني محمد بن العباس المسكي سمعت الوراقاني - جار أحمد ابن حنبل - قال : أسلم يوم مات أحمد عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس ، وفي بعض النسخ أسلم عشرة آلاف بدل عشرين ألفاً فلهذا أعلم .

وقال الدارقطني : سمعت أبا سهل بن زياد سمعت عبد الله بن أحمد يقول سمعت أبي يقول : قولوا لاهل البدع بيننا وبينكم الجنائز حين تمر . وقد صدق الله قول أحمد في هذا ، فإنه كان إمام السنة في زمانه ، وعيون مخالفيه أحمد بن أبي دؤاد وهو قاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته ، ولم يلتفت إليه . ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان . وكذلك الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته ، لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس . وكذلك بشر بن غياث المريسي لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً ، فلهذا الأمر من قبل ومن بعد . وقد روى البيهقي عن حجاج بن محمد الشاعر أنه قال : ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل على الامام أحمد . وروى عن رجل من أهل العلم أنه قال يوم دفن أحمد : دفن اليوم سادس خمسة ، وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وأحمد . وكان عمره يوم مات سبعاً وسبعين سنة وأياماً أقل من شهر رحمه الله تعالى .

ذكر ما رثي له من المنامات

وقد صح في الحديث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . وفي رواية « إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » . وروى البيهقي عن الحاكم سمعت علي بن محشاد سمعت جعفر بن محمد بن الحسين سمعت سلمة بن شبيب يقول : كنا عند أحمد بن حنبل وجاءه شيخ ومعه عكازة فسلم وجلس فقال : من منكم أحمد بن حنبل ؟ فقال أحمد : أنا ما حاجتك ؟ فقال ضربت إليك من أربعمائة فرسخ ، أريت الخضر في المنام فقال لي : سر إلى أحمد بن حنبل وسل عنه وقل له : إن ساكن العرش والملائكة راضون بما صبرت نفسك لله عز وجل . وعن أبي عبد الله محمد بن خزيمه الاسكندراني . قال : لما

مات أحمد بن حنبل اغتممت غما شديداً فرأيتيه في المنام وهو يتبختر في مشيته فقلت له : يا أبا عبد الله أي مشية هذه ؟ فقال : مشية الخدام في دار السلام . فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : اغفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي ، ثم قال لي : يا أحمد ادعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفیان الثوري وكنت تدعو بهن في دار الدنيا ، فقلت : يارب كل شيء ، بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء حتى لا تسألني عن شيء . فقال لي : يا أحمد هذه الجنة قم فادخلها . فدخلت فإذا أنا بسفیان الثوري وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقول [الحمد لله الذي أورتنا الأرض تقبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين] . قال فقلت له : ما فعل بشر الخافي ؟ فقال يخ يخ ، ومن مثل بشر ؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدة من الطعام والجليل مقبل عليه وهو يقول : كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ، أو كما قال . وقال أبو محمد بن أبي حاتم عن محمد بن مسلم ابن وارة قال : لما مات أبو زرعة رأيت في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال قال الجبار : الحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ، مالك والشافعي وأحمد بن حنبل . وقال أحمد بن خرزاد الانطاكي : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وقد برز الرب جل جلاله ، لفصل القضاء ، وكان منادياً ينادي من تحت العرش : أدخلوا أبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله . قال فقلت لملك إلى جنبي : من هؤلاء ؟ فقال : مالك ، والثوري ، والشافعي وأحمد بن حنبل . وروى أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أيوب المقدسي قال : رأيت رسول الله (ص) في النوم وهو نائم وعليه ثوب منطى به وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين يذبان عنه . وقد تقدم في ترجمة أحمد بن أبي دؤاد عن يحيى الجلاء أنه رأى كأن أحمد بن حنبل في حلقة بالمسجد الجامع وأحمد بن أبي دؤاد في حلقة أخرى وكان رسول الله (ص) واقف بين الحلقةين وهو يتلو هذه الآية [فان يكفر بها هؤلاء] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد [فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين] ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين

فيها كانت زلازل هائلة في البلاد ، فمنها ما كان بمدينة قوس ، تهدمت منها دور كثيرة ، ومات من أهلها نحو من خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً . وكانت باليمن وخراسان وفارس والشام وغيرها من البلاد زلازل منكرة . وفيها أغارت الروم على بلاد الجزيرة فانتهبوا شيئاً كثيراً وأسروا نحواً من عشرة آلاف من الدراري . فانا لله وإنا إليه راجعون . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن موسى بن إبراهيم الامام بن محمد بن علي نائب مكة .

وفيها توفي من الأعيان الحسن بن علي بن الجعد قاضي مدينة المنصور .

وأبو حسان الزيادي

قاضي الشرقية ، واسمه الحسن بن عثمان بن حماد بن حسان بن عبد الرحمن بن يزيد البغدادي ،
سمع الوليد بن مسلم ، ووكيع بن الجراح ، والواقدي ، وخلقا سوام . وعنه أبو بكر بن أبي الدنيا وعلي
ابن عبد الله الفرغاني الحافظ المعروف بطفل ، وجماعة . ترجمه ابن عساكر في تاريخه . قال : وليس
هو من سلالة زياد بن أبيه ، إنما تزوج بعض أجداده بأم ولد لزياد ، فقيل له الزيادي . ثم أورد من
حديثه بسنده عن جابر « الحلال بين والحرام بين » . الحديث . وروى عن الخطيب أنه قال :
كان من العلماء الأفاضل من أهل المعرفة والثقة والأمانة ، ولي قضاء الشرقية في خلافة المتوكل ، وله
تاريخ على السنين ، وله حديث كثير . وقال غيره : كان صالحا دينيا قد عمل الكتب ، وكانت له
معرفة جيدة بأيام الناس ، وله تاريخ حسن ، وكان كريما مفضالا . وقد ذكر ابن عساكر عنه أشياء
حسنة ، منها أنه أنفذ إليه بعض أصحابه يذكر له أنه قد أصابته ضائقة في عيد من الأعياد ، ولم يكن
عنده غير مائة دينار ، فأرسلها بصرتها إليه ، ثم سأل ذلك الرجل صاحب له أيضا وشكا إليه مثلما
شكا إلى الزيادي ، فأرسل بها الآخر إلى ذلك الآخر . وكتب أبو حسان إلى ذلك الرجل الأخير
الذي وصلت إليه أخيرا يستقرض منه شيئا وهو لا يشعر بالأمر ، فأرسل إليه بالمائة في صرتها ، فلما
رآها تعجب من أمرها وركب إليه يسأله عن ذلك فذكر أن فلانا أرسلها إليه ، فاجتمعوا الثلاثة
واقسموا المائة الدينار رحمهم الله وجزاهم عن مروءتهم خيرا .

وفيهما توفي أبو مصعب الزهري أحد رواة الموطأ عن مالك ، وعبد الله بن ذكوان أحد القراء
المشاهير . ومحمد بن أسلم الطوسي . ومحمد بن ربيع . ومحمد بن عبد الله بن عمار الموصلي أحد أئمة
الجرخ والتعديل . والقاضي بجي بن أكرم .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

في ذي القعدة منها توجه المتوكل على الله من العراق قاصداً مدينة دمشق ليجعلها له دار إقامة
ومحلة إمامة فأدركه عيد الأضحى بها ، وتأسف أهل العراق على ذهاب الخليفة من بين أظهرهم ، فقال
في ذلك يزيد بن محمد المهلبى :

أظنَّ الشامَ تشمتُ بالعراقِ • إذ اعزَمَ الإمامُ على انطلاقِ
فإنَّ يدعِ العراقَ وساكنيها • فقد تبلى الملبحةُ بالطلاقِ

وحج بالناس فيها الذي حج بهم في التي قبلها وهو نائب مكة .

وفيهما توفي من الأعيان كما قال ابن جرير :

إبراهيم بن العباس

متولى ديوان الضبيع . قلت : هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي الشاعر الكاتب ،

وهو عم محمد بن يحيى الصولى ، وكان جده صول بكر ملك جرجان وكان أصله منها ، ثم نمجس ثم أسلم على يدى يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، ولا إبراهيم هذا ديوان شعر ذكره ابن خلكان واستجاد من شعره أشياء منها قوله :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى • ذرعاً وعند الله منها مخرج
ضاق فلما استحكت حلقاتها • فرجت وكنت أظنها لا تفرج
ومنها قوله : كنت السواد لملقى • فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت • فعليك كنت أحاذر

ومن ذلك ما كتب به إلى وزير المعنم محمد بن عبد الملك بن الزيات .

وكنت أخي بإخاء الزمان • فلما ننى صرت حرباً عوانا
وكنت أذم إليك الزمان • فأصبحت منك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائب • فها أنا أطلب منك الأمانا
وله أيضاً : لا يمنعك خفض العيش في دعة • نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حلت بها • أهلاً بأهل وأوطاناً بأوطان

كانت وفاته بمنتصف شعبان من هذه السنة . بسر من رأى . والحسن بن مخلد بن الجراح خليفة إبراهيم بن شعبان . قال : ومات هاشم بن فيجور في ذى الحجة . قلت : وفيها توفى أحمد بن سعيد الرباطى . والحارث بن أسد المحاسبى . أحد أئمة الصوفية . وحرمة ابن يحيى التجيبى صاحب الشافعى . وعبد الله بن معاوية الجمحى . ومحمد بن عمر العدنى . وهارون ابن عبد الله الحماني . وهناد بن السرى .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

في صفر منها دخل الخليفة المتوكل إلى مدينة دمشق في أبهة الخلافة وكان يوماً مشهوداً ، وكان عازماً على الإقامة بها ، وأمر بنقل دواوين الملك إليها ، وأمر ببناء القصور بها فبنيت بطريق داريا ، فأقام بها مدة ، ثم إنه استوخمها ورأى أن هواها بارد ندى وماءها ثقيل بالنسبة إلى هوا العراق ومائه ، ورأى الهواء بها يتحرك من بعد الزوال في زمن الصيف ، فلا يزال في اشتداد وغبار إلى قريب من ثلث الليل ، ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً ، وغلت الأسعار وهو بها لكثرة الخلق الذين معه ، وانقطعت الأجلاب بسبب كثرة الأمطار والثلوج ، فضجر منها ثم جهز بغا إلى بلاد الروم ، ثم رجع من آخر السنة إلى سامرا بعد ما أقام بدمشق شهرين وعشرة أيام ، ففرح به أهل بغداد فرحاً شديداً . وفيها أتى المتوكل بالحرية

التي كانت تحمل بين يدي رسول الله (س)، ففرح بها فرحاً شديداً ، وقد كانت تحمل بين يدي رسول الله (س) . يوم العيد وغيره ، وقد كانت للنجاشي فوهبها للزبير بن العوام ، فوهبها الزبير للنبي (س) ، ثم إن المتوكل أمر صاحب الشرطة أن يحملها بين يديه كما كانت تحمل بين يدي رسول الله (س) . وفيها غضب المتوكل على الطبيب بختيشوع ونفاه وأخذ ماله . وحج بالناس فيها عبد الصمد المتقدم ذكره قبلها . واتفق في هذه السنة يوم عيد الأضحى وخميس فطر اليهود وشعانين النصراني وهذا عجيب غريب .

وفيهما توفي أحمد بن منيع . وإسحاق بن موسى الخطمي . وحيد بن مسعدة . وعبد الحميد بن سنان . وعلي بن حجر . والوزير محمد بن عبد الملك الزيات . ويعقوب بن السكيت صاحب إصلاح المنطق . ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

فيها أمر المتوكل ببناء مدينة الماحوزة وحفر نهرها ، فيقال إنه أنفق على بنائها وبناء قصر الخلافة بها الذي يقال له « اللؤلؤة » ألفي ألف دينار . وفيها وقعت زلازل كثيرة في بلاد شتى ، فمن ذلك مدينة إنطاكية سقط فيها ألف وخمسمائة دار ، وانهدم من سورها نيف وتسعون برجاً ، وسمعت من كوى دورها أصوات مزعجة جداً فخرجوا من منازلهم سراعاً يهرعون ، وسقط الجبل الذي إلى جانبها الذي يقال له الاقرع فساخ في البحر ، فهاج البحر عند ذلك وارتفع دخان أسود مظلم منتن ، وغار نهر على فرسخ منها فلا يدري أين ذهب . ذكر أبو جعفر بن جرير قال : وسمع فيها أهل تنيس ضجة دائمة طويلة مات منها خلق كثير . قال : وزلزلت فيها الزها والرقه وحران ورأس العين وحص ودمشق وطرسوس والمصيصة ، وأذنة وسواحل الشام ، ورجفت اللاذقية بأهلها فما بقي منها منزل إلا انهدم ، وما بقي من أهلها إلا اليسير . وذهبت جيلة بأهلها . وفيها غارت مشاش - عين - مكة حتى بلغ ثمن القربة بمكة ثمانين درهماً . ثم أرسل المتوكل فأنفق عليها مالا جزيلاً حتى خرجت . وفيها مات إسحاق بن أبي إسرائيل وسوار بن عبد الله القاضي . وهلال الرازي .

وفيهما هلك نجاح بن سلمة وقد كان على ديوان التوقيع . وقد كان حظياً عند المتوكل ، ثم جرت له حكاية أفضت به إلى أن أخذ المتوكل أمواله وأملاكه وحواصله ، وقد أورد قصته ابن جرير مطولة . وفيها توفي أحمد بن عبدة الضبي ، وأبو الحيس القواس مقرئ مكة ، وأحمد بن نصر النيسابوري . وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وإسماعيل بن موسى ابن بنت السدي . وذوالنهار المصري ، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم ، ومحمد بن رافع ، وهشام بن عمار ، وأبو تراب النخشي .

وأبن الراوندي

الزنديق ، وهو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي ، نسبة إلى قرية ببلاد قاشان

ثم نشأ ببغداد ، كان بها يصنف الكتب في الزندقة ، وكانت لديه فضيلة ، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة . وقد ذكرنا له ترجمة مطولة حسب ما ذكرها ابن الجوزي في سنة ثمان وتسعين ومائتين وإنما ذكرناه هنا لأن ابن خلكان ذكر أنه توفي في هذه السنة ، وقد تلبس عليه ولم يجرحه بل مدحه فقال : هو أبو الحسين أحمد بن إسحاق الراوندي العالم المشهور ، له مقالة في علم الكلام ، وكان من الفضلاء في عصره ، وله من الكتب المصنفة نحو من مائة وأربعة عشرة كتاباً ، منها فضيحة المعتزلة ، وكتاب التاج ، وكتاب الزمردة ، وكتاب القصب ، وغير ذلك . وله محاسن ومحاضرات مع جماعة من علماء الكلام ، وقد انفرد بمذاهب نقلها عنه أهل الكلام . توفي سنة خمس وأربعين ومائتين ، برحمة مالك بن طوق التغلبي ، وقيل ببغداد . نقلت ذلك عن ابن خلكان بحروفه وهو غلط . وإنما أرخ ابن الجوزي وفاته في سنة ثمان وتسعين ومائتين كما سيأتي له هناك ترجمة مطولة .

فونون المصري

نوبان بن إبراهيم ، وقيل ابن الفيض بن إبراهيم ، أبو الفيض المصري أحد المشايخ المشهورين ، وقد ترجمه ابن خلكان في الوفيات ، وذكر شيئاً من فضائله وأحواله ، وأرخ وفاته في هذه السنة ، وقيل في التي بعد ، وقيل في سنة ثمان وأربعين ومائتين فله أعلم . وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن مالك . وذكره ابن يونس في تاريخ مصر ، قال : كان أبوه نوبياً ، وقيل إنه كان من أهل أخميم ، وكان حكيماً فصيحاً ، قيل وسئل عن سبب توبته فذكر أنه رأى قبره عمياء نزلت من وكرها فانشقت لها الأرض عن سكرتين من ذهب وفضة في إحداهما شمسم وفي الأخرى ماء ، فأكلت من هذه وشربت من هذه . وقد شكى عليه مرة إلى المتوكل فأحضره من مصر إلى العراق ، فلما دخل عليه وعظه فأبكاها ، فرده مكرماً . فكان بعد ذلك إذا ذكر عند المتوكل يثنى عليه

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

في يوم عاشوراء منها دخل المتوكل الماحوزة فنزل بقصر الخلافة فيها ، واستدعى بالقراء ثم بالمطربين وأعطى وأطلق ، وكان يوماً مشهوداً ، وفي صفر منها وقع الفداء بين المسلمين والروم ، ففدى من المسلمين نحو من أربعة آلاف أسير . وفي شعبان منها أمطرت بغداد مطراً عظيماً استمر نحواً من أحد وعشرين يوماً ، ووقع بأرض بلخ مطر ماؤه دم عبيط . وفيها حج بالناس محمد بن سليمان الزنبي ، وحج فيها من الأعيان محمد بن عبد الله بن طاهر وولي أمر الموسم .

ومن توفي فيها من الأعيان أحمد بن إبراهيم الدورقي . والحسين بن أبي الحسن المروزي . وأبو عمرو الدورقي . أحد القراء المشاهير . ومحمد بن مصفى الحمصي .

ودعبل بن علي

ابن رزين بن سليمان الخزاعي ، مولاهم الشاعر الماجن البليغ في المدح ، وفي الهجاء أكثر .
 حضر يوماً عند مهمل بن هارون الكاتب وكان بخيلاً ، فاستدعى بغداده فاذا ديك في قصعة ، وإذا
 هو قاس لا يقطعه مكين إلا بشدة ، ولا يعمل فيه ضرس . فلما حضر بين يديه تقد رأسه فقال للطباخ
 ويلك ، ماذا صنعت ؟ أين رأسه ، قال : ظننت أنك لا تأكله فألقيته ، فقال : ويحك ، والله إني
 لأعيب علي من يلقي الرجلين فكيف بالرأس ، وفيه الحواس الأربع ، ومنه يصوت وبه ، فضل
 عينيه وبهما يضرب المثل ، وعرفه وبه يتبرك ، وعظمه أهني العظام ، فان كنت رغبت عن أكله
 فأحضره . فقال : لا أدرى أين هو ؟ فقال : بل أنا أدرى ، هو في بطنك فأنك الله . فجهاه بأبيات
 ذكر فيها بخله ومسكه .

أحمد بن أبي الخوارى

واسمه^(١) عبد الله بن ميمون بن عياش بن الحارث أبو الحسن التغلبي الفطفاقي ، أحد العلماء الزهاد
 المشهورين ، والعباد المذكورين ، والأبرار المشكورين ، ذوى الأحوال الصالحة ، والكرامات
 الواضحة ، أصله من الكوفة وسكن دمشق ونخرج بأبي سليمان الداراني رحمهما الله . وروى الحديث
 عن سفيان بن عيينة ووكيع وأبي أسامة وخلق . وعنه أبو داود وابن ماجه وأبو حاتم وأبو زرعة
 الدمشقي ، وأبو زرعة الرازي وخلق كثير . وقد ذكره أبو حاتم فأنى عليه . وقال يحيى بن معين :
 إني لأظن أن الله يسقى أهل الشام به . وكان الجنيد بن محمد يقول : هو ربحانة الشام .

وروى ابن عساكر أنه كان قد عاهد أبا سليمان الداراني ألا يفضبه ولا يخالفه ، فجاءه يوماً وهو
 يتحدث الناس فقال : يا سيدي هذا قد سجروا التنور فماذا تأمر ؟ فلم يرد عليه أبو سليمان ، لشغله
 بالناس ، ثم أعادها أحمد ثانية ، وقال له في الثالثة : اذهب فاقعد فيه . ثم اشتغل أبو سليمان في حديث
 الناس ثم استفاق فقال لمن حضره : إني قلت لأحمد : اذهب فاقعد في التنور ، وإني أحسب أن
 يكون قد فعل ذلك ، فتوموا بنا إليه . فذهبوا فوجدوه جالساً في التنور ولم يحترق منه شيء ولا شعرة
 واحدة . وروى أيضاً أن أحمد بن أبي الخوارى أصبح ذات يوم وقد ولد له ولد ولا يملك شيئاً يصلح
 به الولد ، فقال لخادمه : اذهب فاستدن لنا وزنة من دقيق ، فبينما هو في ذلك إذ جاءه رجل بمائتي
 درهم فوضمها بين يديه ، فدخل عليه رجل في تلك الساعة فقال : يا أحمد إنه قد ولد لي الليلة ولد
 ولا أملك شيئاً ، فرفع طرفه إلى السماء وقال : يا مولاي هكذا بالعجلة . ثم قال للرجل : خذ هذه
 الدرهم ، فأعطاه إياها كلها ، ولم يبق منها شيئاً ، واستدان لأهله دقيقاً . وروى عنه خادمه أنه خرج
 للتفر لأجل الرباط فما زالت الهدايا تفتد إليه من بكرة النهار إلى الزوال ، ثم فرقها كلها إلى وقت

(١) أى إسم أبي الخوارى والد أحمد .

الغروب ثم قال لي : كن هكذا لا ترد على الله شيئاً ، ولا تدخر عنه شيئاً .
ولما جاءت المحنة في زمن المأمون إلى دمشق بخلق القرآن عين فيها أحمد بن أبي الخوارى وهشام
ابن عمار ، وسليمان بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن ذكوان ، فكلهم أجابوا إلا ابن أبي الخوارى
فجيس بدار الحجارة ، ثم هدد فأجاب تورية مكرها ، ثم أطلق رحمه الله . وقد قام ليلة بالثغر يكرر هذه
الآية [إياك نعبد وإياك نستعين] حتى أصبح . وقد ألقى كتبه في البحر وقال : نعم الدليل كنت لي
على الله وإليه ، ولكن الاشتغال بالدليل بعد معرفة المدلول عليه والوصول إليه محال . ومن كلامه
لا دليل على الله سواه ، وإنما يطلب العلم لا آداب الخدمة . وقال : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن
عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه . وقال : من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب
لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه . وقال : قلت لأبي سليمان في ابتداء أمرى : أوصني ،
فقال : اتستوص أنت ؟ فقلت نعم إن شاء الله تعالى . فقال : خالف نفسك في كل مراداتها فانها
الأمانة بالسوء ، وإياك أن تحقر إخوانك المسلمين ، واجعل طاعة الله دناراً ، والخوف منه شعاراً ،
والإخلاص له زاداً ، والصدق حسنة ، واقبل مني هذه الكلمة الواحدة ولا تفارقها ولا تغفل عنها :
من استحي من الله في كل أوقاته وأحواله وأفعاله ، بلغه الله إلى مقام الأواباء من عباده . قال فجعلت
هذه الكلمات أممى في كل وقت أذكرها وأطالب نفسي بها . والصحيح أنه توفي في هذه السنة ،
وقيل في سنة ثلاثين ومائتين ، وقيل غير ذلك فالله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

في شوال منها كان مقتل الخليفة المتوكل على الله على يد ولده المنتصر ، وكان سبب ذلك أنه أمر
ابنه عبد الله المعتز الذي هو ولي العهد من بعده أن يخطب بالناس في يوم الجمعة ، فأذاها أداء عظيم
بليغا ، فبلغ ذلك من المنتصر كل مبلغ ، وحنق على أبيه وأخيه ، فأحضره أبوه وأهانته وأمر بضربه
في رأسه وصفعه ، وصرح بعزله عن ولاية العهد من بعد أخيه ، فاشتد أيضاً حنقه أكثر مما كان . فلما
كان يوم عيد الفطر خطب المتوكل بالناس وعنده بعض ضعف من علة به ، ثم عدل إلى خيام قد
ضربت له أربعة أميال في مثلها ، فنزل هناك ثم استدعى في يوم ثالث شوال بنديمائه على عادته في
سمرة وحضرته وشربه ، ثم تمالأ ولده المنتصر وجماعة من الأمراء على الفتك به فدخلوا عليه ليلة
الأربعاء لأربع خلون من شوال ، ويقال من شعبان من هذه السنة ، وهو على السباط فابتدروا ،
بالسيوف قتلوه ثم ولوا بعده ولده المنتصر .

ترجمة المتوكل على الله

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي ، وأم المتوكل أم ولد يقال لها

شجاع ، وكانت من سروات النساء سنحاً وحزماً . كان مولده بقم الصلح سنة سبع ومائتين ، وبويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق في يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة لسنة ثنتين وثلاثين ومائتين . وقد روى الخطيب من طريقه عن يحيى بن أكرم عن محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن الأعمش عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حرم الرفق حرم الخير » . ثم أنشأ المتوكل يقول :

الرفقُ بمنِّ والأناةُ سعادةٌ * فاستأن في رفقٍ تلاقٍ نجاحاً
لا خيرٍ في حزمٍ بغيرِ رويةٍ * والشكُّ وهنٌّ إن أردتَ سراحاً

وقال ابن عساكر في تاريخه : وحدث عن أبيه المعتصم ويحيى بن أكرم القاضي . وروى عنه علي ابن الجهم الشاعر ، وهشام بن عمار الدمشقي ، وقدم المتوكل دمشق في خلافته وبنى بها قصرًا بارض داريا . وقال يوماً لبعضهم : إن الخلفاء تتغضب على الرعية لتطيعها ، وإني ألين لهم ليجبوني ويطيعوني . وقال أحمد بن مروان المالكي : ثنا أحمد بن علي البصري قال : وجه المتوكل إلى أحمد بن المعذل وغيره من العلماء فجمعهم في داره ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم إليه إلا أحمد بن المعذل . فقال المتوكل لعبيد الله : إن هذا لا يرى بيعتنا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين بلى ! ولكن في بصره سوء . فقال أحمد بن المعذل : يا أمير المؤمنين ما في بصرى سوء ، ولكن نزعتك من عذاب الله . قال النبي (ص) : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » . فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه . وروى الخطيب أن علي بن الجهم دخل على المتوكل وفي يده درتان يقلبهما فأنشده قصيدته التي يقول فيها : —

وإذا مررت ببئر عروة فاستقي من مائها

فأعطاه التي في يمينه وكانت تساوي مائة ألف . ثم أنشده :

بِسْرٍ مَنْ رَأَى أَمِيرَهُ * تَعْرِفُ مِنْ بَحْرِهِ الْبَحَارَ
يُرْجَى وَيُنْخَشَى لِكُلِّ خُطْبٍ * كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارُ
الْمَلِكِ فِيهِ وَفِي بَيْتِهِ * مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
يَدَاؤُهُ فِي الْجُودِ ضُرَّتَانِ * عَلَيْهِ كِلْتَاهُمَا تَفَارُ
لَمْ تَأْتِ مِنْهُ الِيمِينُ شَيْئاً * إِلَّا أَتَتْهُ مِثْلُهُ الْيَسَارُ

قال : فأعطاه التي في يساره أيضاً . قال الخطيب : وقد رويت هذه الأبيات لعلي بن هارون البحتري في المتوكل . وروى ابن عساكر عن علي بن الجهم قال : وقفت فتحية حظية المتوكل بين يديه وقد كتبت على خدها بالغالية جعفر فتأمل ذلك ثم أنشأ يقول :

وكاتبته في الخدي بالمسك جعفرًا * بنفسى تحط المسك من حيث أنرا
لئن أودعت سطرًا من المسك خدتها * لقد أودعت قلبي من الحب أسطرًا
فيا من مناهي السريرة جعفرًا * سقا الله من سقيا ثناياك جعفرًا
ويا من لملوك بملك يمسه * مطيع له فيما أمر وأظهرًا

قال ثم أمر المتوكل عربا فغنت به . وقال الفتح بن خاقان : دخلت يوماً على المتوكل فاذا هو مطرق
مفكر فقلت : يا أمير المؤمنين مالك مفكر ؟ فوالله ما على الأرض أطيب منك عيشاً ، ولا أنم منك
بالا . قال : بلى أطيب مني عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة سالحة ومعيشة حاضرة ، لا يعرفنا فنؤذيه ،
ولا يحتاج إلينا فتزدر به . وكان المتوكل محبباً إلى رعيته فأثما في نصرة أهل السنة ، وقد شبهه بعضهم
بالصديق في قتله أهل الردة ، لأنه نصر الحق وورده عليهم حتى رجعوا إلى الدين . وبعمر بن
عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية . وقد أظهر السنة بعد البدعة ، وأخذ أهل البدع وبدعتهم بعد
انتشارها واشتبارها فرحمه الله . وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نور قال فقلت :
المتوكل ؟ قال : المتوكل . قلت : فما فعل بك ربك ؟ قال : غفر لي . قلت : بماذا ؟ قال : بقليل من
السنة أحييتها . وروى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى في منامه ليلة مات المتوكل كأن رجلاً
يصعد به إلى السماء وقائلاً يقول :

ملك يقاد إلى ملك عادل * متفضل في العفو ليس بجائر

وروى عن عمرو بن شيبان الحلبي قال : رأيت ليلة المتوكل قائلاً يقول : -

يا نائم العين في أوطان جنان * أفض دموعك يا عمرو بن شيبان
أما ترى الفتن الأرجاس ما فعلوا * بالهاشمي وبالفتح بن خاقان
واني إلى الله مظلوماً فضج له * أهل السموات من مثني ووحيدان
وسوف يأتيكم من بعده فتن * توقعوها لها شأن من الشأن
فابكوا على جعفر وأبكوا خليفتم * فقد بكاه جميع الأنس والجان

قال : فلما أصبحت أخبرت الناس برؤياي فجاه نعي المتوكل أنه قد قتل في تلك الليلة ، قال ثم
رأيت بعد هذا بشهر وهو واقف بين يدي الله عز وجل فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي .
قلت بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . قلت فما تصنع هنا ؟ قال : أنتظر ابني محمداً أخاصمه
إلى الله الحليم العظيم الكريم

وذكرنا قريبا كيفية مقتله وأنه قتل في ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال من هذه
السنة - أعني سنة سبع وأربعين ومائتين - بالمتوكلية وهي الماحوزية ، وصلى عليه يوم الأربعاء ،

ودفن بالجوفرية وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام . وكان أمير حسن العيين بنحيف الجسم خفيف العارضين أقرب إلى القصر والله سبحانه اعلم .

خلافة محمد المنتصر بن المتوكل

قد تقدم أنه تمالأ هو وجماعة من الأمراء على قتل أبيه ، وحين قتل بويع له بالخلافة في الليل ، فلما كان الصباح من يوم الأربعاء رابع شوال أخذت له البيعة من العامة وبعث إلى أخيه المعتز فأحضره إليه فبايعه المعتز ، وقد كان المعتز هو ولي العهد من بعد أبيه ، ولكنه أكرهه وخاف فبايع وباع . فلما أخذت البيعة له كان أول ما تكلم به أنه اتهم الفتح بن خاقان على قتل أبيه ، وقتل الفتح أيضا ، ثم بعث البيعة له إلى الآفاق . وفي ثاني يوم من خلافته ولي المظالم لأبي عمرة أحمد ابن سعيد مولى بني هاشم فقال الشاعر :

يَا ضَيْعَةَ الْإِسْلَامِ لِمَا وُلِّيَ * مَظْلَمِ النَّاسِ أَبُو عَمْرٍه
صِيرَ مَأْمُونًا عَلَى أُمَّةٍ * وَلَيْسَ مَأْمُونًا عَلَى بَعْرِهِ

وكانت البيعة له بالمتوكلية ، وهي المأحوزة ، فأقام بها عشرة أيام ثم تحول هو وجميع قواده وحشمه منها إلى سامرا . وفيها في ذي الحجة أخرج المنتصر عمه علي بن المعتصم من سامرا إلى بغداد ووكل به . وحج بالناس محمد بن سليمان الزينبي . وفيها توفي من الأعيان إبراهيم بن سعيد الجوهري . وسفيان بن وكيع بن الجراح ، وسلمة بن شبيب .

وأبو عثمان المازني النحوي

واسمه بكر بن محمد بن عثمان البصري شيخ النحاة في زمانه ، أخذه عن أبي عبيدة والاصمعي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ، وأخذ عنه أبو العباس المبرد واكثر عنه ، وللمازني مصنفات كثيرة في هذا الشأن . وكان شديها بالفقهاء ورعا زاهدا ثقة مأمونا . روى عنه المبرد أن رجلا من أهل الذمة طلب منه أن يقرأ عليه كتاب ميبويه ويعطيه مائة دينار فامتنع من ذلك . فلامه بعض الناس في ذلك فقال : إنما تركت أخذ الأجرة عليه لما فيه من آيات الله تعالى . فاتفق بعد هذا أن جارية غنت بحضرة الوراق :

أُظْلِمُوا إِنْ مَصَابِكُمْ رَجُلًا * رَدُّ السَّلَامِ نَجِيَّةٌ ظَلْمٌ

فاختلف من بحضرة الوراق في إعراب هذا البيت ، وهل يكون رجلا مرفوعا أو منصوبا ، وبم نصب ؟ أهواسم أو ماذا ؟ وأصرت الجارية على أن المازني حفظها هذا هكذا . قال فأرسل الخليفة إليه ، فلما مثل بين يديه قال له : أنت المازني ؟ قال : نعم . قال من مازن تميم أم من مازن ربيعة أم مازن قيس ؟ فقلت من مازن ربيعة . فأخذ يكلمني بلغتي ، فقال : باسمك ؟ وهم يقلبون الباء ميم والميم باء ، فكرهت أن أقول مكر فقلت : بكر ، فأعجبه إعراضى عن المكر إلى البكر ، وعرف ما أردت .

فقال : على م انتصب رجلاً ؟ قلت : لأنه معمول المصدر بمصابكم فأخذ البيهقي يمارضه فملاه المازني بالحجة فأطلق له الخليفة ألف دينار وورده إلى أهله مكرماً . فعوضه الله عن المائة الدينار - لما تركها لله سبحانه ولم يمكن الذمي من قراءة الكتاب لأجل ما فيه من القرآن - ألف دينار عشرة أمثالها . روى المبرد عنه قال : أقرأت رجلاً كتاب سيبويه إلى آخره ، فلما انتهى إلى آخره قال لي : أما أنت أيها الشيخ فجزاك الله خيراً ، وأما أنا فوالله ما فهمت منه حرفاً . توفي المازني في هذه السنة وقيل في سنة ثمان وأربعين .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

فيها أغزى المنتصر وصيفاً التركي الصائفة لقتال الروم ، وذلك أن ملك الروم فصد بلاد الشام ، فعند ذلك جهز المنتصر وصيفاً وجهز معه نفقات وعدداً كثيرة ، وأمره إذا فرغ من قتال الروم أن يقيم بالشعر أربع سنين ، وكتب له إلى محمد بن عبد الله بن طاهر نائب العراق كتاباً عظيماً فيه آيات كثيرة في التحريض للناس على القتال والترغيب فيه . وفي ليلة السبت لسبع بقين من صفر خلع أبو عبد الله المعتز والمؤيد إبراهيم أنفسهما من الخلافة ، وأشهدا عليهما بذلك ، وأنهما عاجزان عن الخلافة ، والمسلمين في حل من بيعتهما ، وذلك بعد ما تهدما أخوهما المنتصر وتوعدهما بالقتل إن لم يفعل ذلك ، ومقصوده تولية ابنه عبد الوهاب بإشارة أمراء الأتراك بذلك . وخطب بذلك على رؤس الأشهاد بمحضرة القواد والقضاة وأعيان الناس والعوام ، وكتب بذلك إلى الآفاق ليعلموا بذلك ويخطبوا له بذلك على المنابر ، ويتوالى على محال الكتابة ، والله غالب على أمره ، فأراد أن يسلمهما الملك ويجهله في ولده ، والأقدار تكذبه وتخالفه ، وذلك أنه لم يستكمل بعد قتل أبيه سوى ستة أشهر ، ففي أواخر صفر من هذه السنة عرضت له علة كان فيها حتفه ، وقد كان المنتصر رأى في منامه كأنه يصعد سلماً فبأبع إلى آخر خمس وعشرين درجة . فقصها على بعض المعبرين فقال : تلى خمساً وعشرين سنة الخلافة ، وإذا هي مدة عمره قد استكملها في هذه السنة . وقال بعضهم : دخلنا عليه يوماً فاذا هو يبكي وينتحب شديداً ، فسأله بعض أصحابه عن بكائه فقال : رأيت أبي المتوكل في منامي هذا وهو يقول : ويلك يا محمد قتلني وظلمتني وغصبتني خلافتي ، والله لا أمتعت بها بعدى إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار . قال : فما أملك عيني ولا جزعي . فقال له أصحابه من الغرارين الذين يعرفون الناس ويفتنونهم : هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب ، ثم بنا إلى الشراب لينذهب همك وحزنك . فأمر بالشراب فأحضر وجاء ندماًؤه فأخذ في الخمر وهو منكسر الهمة ، وما زال كذلك مكسوراً حتى مات .

وقد اختلفوا في علته التي كان فيها هلاكه ، فقيل داء في رأسه فقطر في أذنه دهن فلما وصل

إلى دماغه عوجيل بالموت ، وقيل بل ورمت معدته فانتهى الورم إلى قلبه فمات ، وقيل بل أصابته ذبحة فاستمرت به عشرة أيام فمات ، وقيل بل فصد الحجام بمفصد مسموم فمات من يومه . قال ابن جرير : أخبرني بعض أصحابنا أن هذا الحجام رجع إلى منزله وهو محموم فدعا تلميذاً له حتى يفصده فأخذ يبضع أستاذه ففصده به وهو لا يشعر وأنسى الله سبحانه الحجام فما ذكر حتى رآه قد فصد به وتحكم فيه السم ، فأوصى عند ذلك بمات من يومه . وذكر ابن جرير أن أم الخليفة دخلت عليه وهو في مرضه الذي مات فيه فقالت له : كيف حالك ؟ فقال : ذهبت مني الدنيا والآخرة ، ويقال إنه أشد لما أحيط به وأيس من الحياة :

فما فرحتُ نفسي بِدُنْيَا أَصَبْتُهَا * ولكنَّ إلى الرَّبِّ الكَرِيمِ أَصْبِرُ

فمات يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر من هذه السنة ، وقت صلاة العصر ، عن خمس وعشرين سنة ، قيل وستة أشهر . ولا خلاف أنه إنما مكث بالخلافة ستة أشهر لا يزيد منها . وذكر ابن جرير عن بعض أصحابه أنه لم يزل يسمع الناس يقولون - العامة وغيرهم حين ولي المنتصر - إنه لا يمكث في الخلافة سوى ستة أشهر ، وذلك مدة خلافة من قتل أباه لأجلها ، كما مكث شبرويه بن كسرى حين قتل أباه لأجل الملك . وكذلك وقع ، وقد كان المنتصر أعين أفنى قصيراً مهيباً جيد البدن ، وهو أول خليفة من بني العباس أبرز قبره بإشارة أمه حبشية الرومية . ومن جيد كلامه قوله : والله ما عز ذو باطل قط ، ولو طلع القمر من جبينه ، ولا ذل ذو حق قط ولو أصفق العالم عليه .



بحمد الله تعالى قد تم طبع الجزء العاشر من البداية والنهاية ويليه الجزء الحادي عشر وأوله خلافة أحمد المستعين بالله . والله نسأل المعونة والتوفيق .



فهرست الجزء العاشر من كتاب البداية والنهاية

صفحة	صفحة
٤٢	٢
مقتل مروان بن محمد بن مروان	خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك
٤٤	٥
صفة مقتل مروان	محمد بن علي
٤٦	٥
وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار	وأما يحيى بن يزيد
٤٨	٦
ما ورد في انقضاء دولة بني أمية	ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة
وابتداء بني العباس من الأخبار	فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد
النبوية	الملك وهذه ترجمته
٥٢	٨
استقرار أبي العباس السفاح	مقتله وزوال دولته
٥٤	١٦
ذكر من توفي فيها من الأعيان	قتل يزيد بن الوليد الناقص للوليد
٥٦	بن يزيد
ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة	خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك
ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة	بن مروان
٥٧	١٧
ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة	خالد بن عبد الله بن يزيد
ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة	ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة
ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة	٢١
٥٨	٢٢
ترجمة أبي العباس السفاح أول	دخول مروان الحمار دمشق
خلفاء بني العباس	وولايته الخلافة
٦١	٢٦
خلافة أبي جعفر المنصور	ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة
ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة	ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة
٦٣	٢٩
مهلك أبي مسلم الخراساني	أول ظهور أبو مسلم الخراساني
٦٧	٣٠
ترجمة أبي مسلم الخراساني	مقتل ابن الكرماني
٧٣	٣٤
ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة	سنة ثلاثين ومائة
٧٤	٣٥
ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة	مقتل شيبان بن سالمه الحروري
٧٥	٣٥
ثم دخلت سنة أربعين ومائة	ذكر دخول أبي حمزة الخارجي
٧٧	٣٨
ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة	المدينة النبوية واستلانه عليها
ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائة	٣٧
٣٩	٣٨
ذكر مقتل إبراهيم بن محمد الإمام	ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة
٤٠	٣٨
خلافة أبي العباس السفاح	ثم دخلت سنة ثنتين ومائة

صحيفة	صحيفة
٨٠ ثم دخلت سنة ثلاث واربعين ومائة	صحيفة
٨٢ ثم دخلت سنة أربع واربعين ومائة	٨٠ ثم دخلت سنة ثلاث واربعين ومائة
ثم دخلت سنة خمس ورابعين ومائة	٨٢ ثم دخلت سنة أربع واربعين ومائة
٨٦ فضيلة	ثم دخلت سنة خمس ورابعين ومائة
مقتل محمد بن عبد الله بن حسن	٨٦ فضيلة
٨٧ خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن	مقتل محمد بن عبد الله بن حسن
٩١ ذكر خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة	٨٧ خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن
٩٥ ذكر من توفي فيها من الأعيان	٩١ ذكر خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة
٩٦ وفيها توفي من المشاهير والأعيان	٩٥ ذكر من توفي فيها من الأعيان
ثم دخلت سنة ست واربعين ومائة	٩٦ وفيها توفي من المشاهير والأعيان
١٠١ ما ورد في مدينة بغداد من الآثار وما فيها من الأخبار	ثم دخلت سنة ست واربعين ومائة
١٠٢ فضيلة	١٠١ ما ورد في مدينة بغداد من الآثار وما فيها من الأخبار
محاسن بغداد ومساوئها وما روى في ذلك عن الأئمة	١٠٢ فضيلة
١٠٣ ثم دخلت سنة سبع واربعين ومائة	محاسن بغداد ومساوئها وما روى في ذلك عن الأئمة
١٠٥ ثم دخلت سنة ثمان واربعين ومائة	١٠٣ ثم دخلت سنة سبع واربعين ومائة
ثم دخلت سنة تسع واربعين ومائة	١٠٥ ثم دخلت سنة ثمان واربعين ومائة
١٠٦ ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة	ثم دخلت سنة تسع واربعين ومائة
١٠٧ اذكر ترجمته	١٠٦ ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة
١٠٨ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة	١٠٧ اذكر ترجمته
١٠٩ بناء الرصافة	١٠٨ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة
ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة	١٠٩ بناء الرصافة
ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة	ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة
١١١ ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة	ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة
صحيفة	١١١ ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة
أشعب الطامع	صحيفة
١١٣ ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة	أشعب الطامع
بناء الرافقة وهي المدينة المشهورة	١١٣ ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة
١١٤ حماد الراوية	بناء الرافقة وهي المدينة المشهورة
ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة	١١٤ حماد الراوية
١١٥ ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة	ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة
شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله	١١٥ ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة
١٢٠ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة	شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله
١٢١ ترجمته المنصور	١٢٠ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة
ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة	١٢١ ترجمته المنصور
١٢٨ أولاد المنصور	ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة
١٢٩ خلافة المهدي بن المنصور	١٢٨ أولاد المنصور
١٣١ ثم دخلت سنة ستين ومائة	١٢٩ خلافة المهدي بن المنصور
ذكر البيعة لموسى الهادي	١٣١ ثم دخلت سنة ستين ومائة
١٣٣ ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة	ذكر البيعة لموسى الهادي
أبو دلالة	١٣٣ ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة
١٣٥ ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة	أبو دلالة
إبراهيم بن أدهم	١٣٥ ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة
١٤٥ ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة	إبراهيم بن أدهم
١٤٦ ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة	١٤٥ ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة
١٤٧ ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة	١٤٦ ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة
ثم دخلت سنة ست وستين ومائة	١٤٧ ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة
١٤٩ ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة	ثم دخلت سنة ست وستين ومائة
١٥٠ ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة	١٤٩ ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة
١٥١ ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة	١٥٠ ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة
١٥٧ خلافة موسى الهادي بن مهدي	١٥١ ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

صحيفة	صحيفة
وعافية بن يزيد	١٥٨ ثم دخلت سنة سبعين ومائة
سيبويه	١٥٩ وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي
عذيرة العابدة	١٦٠ خلافة دارون الرشيد بن المهدي
١٧٧ ثم دخلت سنة احدى وثمانين ومائة.	١٦١ ذكر من توفي فيها من الأعيان
الحسن بن قحطبة	١٦٢ ثم دخلت سنة احدى وسبعين ومائة
وعبدالله بن المبارك	ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة
١٧٩ ومفضل بن فضالة	ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة
ويعقوب التائب	١٦٤ غادر
ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة	١٦٥ ثم دخلت سنة اربع وسبعين ومائة
ومعن بن زائدة	ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة
١٨٠ والقاضي ابو يوسف	١٦٦ شعوانة العابدة الزاهدة
١٨٢ يعقوب بن داوود بن طهمان	المنذر بن عبد الله بن المنذر
١٨٣ ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة	١٦٧ ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة
علي بن الفضيل بن عياض	١٦٩ إبراهيم بن صالح
ومحمد بن صبيح	١٧٠ صالح بن بشير المرعي
وموسى بن جعفر	١٧١ ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة
هاشم بن بشير بن ابي حازم	ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة
١٨٤ ويحيى بن زكريا	١٧٢ ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة
ثم دخلت سنة اربع وثمانين ومائة	اسماعيل بن محمد
احمد بن الرشيد	١٧٤ حماد بن زيد
١٨٥ عبدالله بن مصعب	والامام مالك
عبدالله بن عبد العزيز العمري	١٧٥ ثم دخلت سنة ثمانين ومائة
ومحمد بن يوسف بن معدان	إسماعيل بن جعفر بن ابي كثير برم
١٨٦ ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة	الأنصاري
عبد الصمد بن علي	حسان بن ابي سنان
ورابعة العدوية	١٧٦ عبد الوارث بن سعيد البيروتي أحد
ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة	الثقات
١٨٧ وفيها توفي من الأعيان	

صحيفة

١٨٨ وسلم الخاسر الشاعر

والعباس بن محمد

ويقطين بن موسى

١٨٩ ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

١٩٤ ذكر من توفي فيها من الأعيان

١٩٧ حكاية غريبة

١٩٨ الفضيل بن عياض

١٩٩ ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

٢٠٠ ابو اسحاق الفزاري

وابراهيم الموصلي

٢٠١ ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

ذكر من توفي فيها من الأعيان

٢٠٢ محمد بن الحسن بن زفر

٢٠٣ ثم دخلت سنة تسعين ومائة من الهجرة

من توفي فيها من الأعيان والمشاهير

٢٠٤ يحيى بن خالد بن برمك

٢٠٦ ثم دخلت سنة احدى وتسعين ومائة

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة

٢٠٧ اسماعيل بن جامع

٢٠٨ وعبد الله بن ادريس

٢٠٩ صعصعة بن سلام

علي بن ظبيان

العباس بن الأحنف

٢١٠ عيسى بن جعفر بن ابي جعفر

١٨٣ المنصور

الفضل بن يحيى

٢١٢ ومنصور بن الزبرقان

صحيفة

يوسف بن القاضي ابي يوسف

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

٢١٣ وفاة الرشيد

وهذه ترجمته

٢٢٣ ذكر زوجاته وبنيه وبناته

خلافة محمد الأمين ابن الرشيد

٢٢٣ إختلاف الأمين والمأمون

٢٢٤ إسماعيل بن علي

محمد بن جعفر

ابو بكر بن الغياش

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

٢٢٥ سالم بن سالم ابو بحر البلخي

٢٠٤ وعبد الوهاب بن عبد المجيد

٢٠٦ وابو النصر الجهني المصاب

٢٢٦ ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

٢٢٧ إسحاق بن يوسف الأزرق

٢١٠ بكار بن عبدالله

٢١٢ أبو نواس الشاعر

٢٣٥ ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

٢٣٦ سبب خلع الأمين وكيف افضت

الخلافة الى اخيه المأمون

٢٣٨ وحفص بن غياث القاضي

ابو شيبص

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

٢٤ ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

كيفية مقتله

٢٤١ شيء من ترجمته

صحيفة	صحيفة
٢٦٨ العكوك الشاعر	٢٤٤ خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد
ثم دخلت سنة اربع عشرة ومائتين	هارون
٢٦٩ احمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح	ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة
أبو محمد عبد الله بن أعين	٢٤٥ ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة
بن ليث بن رافع المصري	٢٤٧ ثم دخلت سنة إحدى ومائتين
ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين	بيعة اهل بغداد لابراهيم بن المهدي
أبو زيد الأنصاري	٢٤٨ ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين
٢٧٠ ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين	٢٤٩ ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين
زيدة امرأة الرشيد وابنة عمه	خلع اهل بغداد ابراهيم بن المهدي
٢٧١ ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين	علي بن موسى
ثم دخلت ثمان عشرة ومائتين	٢٥٠ ثم دخلت سنة أربع ومائتين
٢٧٢ ذكر اول المحنة والفتنة	٢٥١ ابو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي
٢٧٣ قضيتك	٢٥٥ ثم دخلت سنة خمس ومائتين
٢٧٤ عبد الله المأمون	٢٥٩ ثم دخلت سنة ست مائتين
٢٨١ بشر المريسي	ثم دخلت سنة سبع ومائتين
وأبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري	٢٦١ يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور
ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين	ثم دخلت سنة ثمان ومائتين
٢٨٢ ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من الهجرة	٢٦٢ وفاة السيدة نفيسة
٢٨٣ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين	٢٦٣ الفضل بن الربيع
ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائتين	ثم دخلت سنة تسع ومائتين
ذكر مسك بابك	ثم دخلت سنة عشر ومائتين
٢٨٤ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين	٢٦٥ عرس يوران
	ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين
	أبو العتاهية الشاعر المشهور
	٢٦٦ ثم دخلت سنة ثنتي عشرة ومائتين
	٢٦٧ ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

٢٨٦ فتح عمورية على يد المعتصم

٢٨٨ مقتل العباس بن المأمون

٢٨٩ ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

٢٩٢ ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

وسعيد بن مسعدة

الجرمي النحوي

٢٩٣ ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين

٢٩٤ وأبو دلف العجلي

٢٩٥ ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

وهذه ترجمته

٢٩٧ خلافة هارون الواثق بن المعتصم

بشر الحافي الزاهد المشهور

٢٩٩ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

ابو تمام الطائي الشاعر

٣٠١ ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

٣٠٢ ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

٣١٥ عبد الله بن طاهر بن الحسين

٣٠٢ ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

٣٠٨ ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين

٣١٠ خلافة المتوكل على الله جعفر بن

المعتصم

٣١١ ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

٣١٢ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

٣١٢ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

٣١٤ إسحاق بن ماهان

٣١٥ ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

٣١٧ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

٣١٨ أحمد بن عاصم الأنطاكي

٣١٩ ثم دخلت سنة أربعين ومائتين

٣٢٣ أما سحنون المالكي صاحب المدونة

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

٣٢٥ الإمام أحمد بن حنبل

٣٢٨ ورعه وتقشفه وزهده رحمه الله

٣٣٠ ذكر ما جاء في محنة أبي حنبل

٣٣١ ملخص الفتنة والمحنة

٣٣٢ ذكر ضربه رضي الله عنه بين يدي

٤٣ المعتصم

٣٣٥ ثناء الأئمة على الامام أحمد بن حنبل

٣٣٧ ما كان من أمر الامام أحمد بعد المحنة

٣٤٠ وفاة الامام أحمد بن حنبل

٣٤٢ ذكر ما روي له من المناجات

٣٤٣ ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين

٣٤٤ وأبو حسان الزياتي

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

٣٤٩ إبراهيم بن العباس

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

٣٤٦ ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

وأبن الراوندي

٣٤٧ ذو النون المصري

٣٤٨ ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

ودعبل بن علي أحمد بن أبي الحوراني

٣٤٩ ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

٣٥٢ محمد المنتصر وأبو عثمان المازني النحوي

٣٥٣ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

IBN KATHIR

AL-BIDAYAT-WAL-NIHAYAT

Maktabat Al-Maaref

P.O.B.1761-Beirut